مؤلفات أحمد حسين

المجلد الأول

- إيمان
- حكومة الوفد
- رسالة إلى هتلر
- وراء القضبان
- الزواج والمرأة
- رسالة فى الحرب
- نحو المجد
- الأرض الطيبة
- فى الإيمان والإسلام

دار الشروق

مؤلفات أحمد حسين

إيماني وكتب أخرى

© دار الشروق

الإهداء

إلى راعي العلم والتقدم

إلى الأمير زايد بن سلطان

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

والذي لولا عونه الأدبي والمادي لما صدرت هذه المجموعة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

هذا هو المجلد الأول من عشرة مجلدات مماثلة - وربما اثنى عشر ومن نعم الله علىّ انه أبقانى حيا - لأشهد مولد هذا العمل والأمر الذى لاشك فيه - ان هذا المجلد هو أخطر المجلدات على الإطلاق - فإن كتاب «إيمانى» الذى يؤلف حجره الأساسى - لم يعد له وجود - وأصبح من المتعين إنقاذه من الضياع - وسوف يرى المطالع لهذه المجموعة التى سوف تتناول عشرات من الكتب التى ألفتها على امتداد نصف قرن تقريبًا - أنها لم تخرج عن الخط المرسوم فى «إيمانى» حتى ماكان من هذه المؤلفات قانونيا - كتشريع العمل وعلاقات العمل - أو فنيا - كمجموعة قصص «أزهار والدكتور خالد واحترقت القاهرة» أو إنسانيا مثل «الطاقة الإنسانية - والأمة الإنسانية - ونبى الإنسانية» أو حتى عندما شرعت فى تفسير القرآن - مما سوف تتضمنه المجلدات التالية - سوف يرى القارئ - ان الأفكار التى دعوت إليها ظلت ثابتة - حقا قد أكون قد توسعت فى هذا الجانب من أفكارى - فى فترة من الفترات - ولكنى إذ استعرضها بعد هذا الوقت الطويل - أرى ثباتًا - لا يستطيع أن يدعيه مفكرون كانوا معاصرين لى - وانتقلوا عندما امتد بهم العمر من النقيض إلى النقيض.

ذلك إننى ولدت (١٩١١) فى ظل الاحتلال البريطانى - وكانت إنجلترا تعتبر سيدة العالم وكانت الحضارة الأوروبية:- تعتبر هى الإمام والقدوة لمصر والعالم الإسلامى - إذا أريد له النهوض من كبوته - وقد وجد من مفكرى مصر وكتابها - وقادتها - من دعا إلى ذلك - ولكنى أحمد الله - أننى منذ أمسكت القلم لأكتب - وأنا مؤمن بمصر - وأسلوب الشعب المصرى فى الحياة - مؤمن بالمبادئ الإسلامية - وأنها خير ما عرفت البشرية - أو يمكن أن تعرف من مبادئ - وأن أوروبا إذا كانت قد تقدمت فبمقدار ما نهلت من هذه المبادئ - وأن العالم

الإسلامى إذا كان قد تخلف - فبمقدار ما ابتعد عن هذه المبادئ - وتعلقه بأذيال أوروبا - فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا قد بدأت تهجر المبادئ الإسلامية والدينية بصفة عامة - أى تنكر الروح والمعنويات والقيم - وعلى رأسها كلها - الإيمان بالله وأصبحت المادة - هى كل شيء - وأحمد الله أننى برئت من كل ذلك - وأنذرت البريطانيين - فى عقر دارهم - عندما كانت ممتلكاتهم لا تغيب عنها الشمس - إن كل ذلك إلى زوال - ولم أكن أتصور أبدًا - ان ذلك سيتم بهذه السرعة - وإننى سوف أعيش لأرى مصداق ما قلت .

وأنا إذ أقدم هذه المجموعة وأعرف بها (١٩٨١) قد ازددت إيمانًا بآرائى وأفكارى - وإذا كانت أمريكا من ناحية - وروسيا من الناحية الأخرى - لا يزالان يؤثران بمعتقداتهما المادية - فإن الدمار ينتظرهما - ما لم يعودا للتمسك بالقيم الدينية الروحية .

قصة هذه المجموعة :

ولخروج هذه المجموعة إلى النور بصدور المجلد الأول منها - وهى الكتب التى ألفتها وطبعتها ونشرتها - خلال الحرب العالمية الثانية - وقبلها وفى أعقابها - أقول إن لصدور هذه المجموعة قصة يجب أن تروى - لإظهار كيف أن إرادة الله وحدها - هى الفاعلة لكل شيء فى هذا الكون «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» وإنه عندما يشاء فهو يهيىء الأسباب - ففكرة هذه المجموعة تراودنى منذ أمد بعيد - وكان تصورى أنها إذا تحققت فسيكون ذلك بعد وفاتى .

ولكن شاءت نعمة الله علىّ وفضله - أن يجعلنى أقدم لهذا العمل فى حياتى فهيأ لذلك الأسباب وتبدأ هذه الأسباب بالأخ عز الدين

إبراهيم المستشار الثقافى للأمير زايد بن سلطان - أمير دولة الإمارات - فمنذ عدة سنوات وهو يرغب فى إيصال بعض الخير لى - وغنى عن البيان - انه لابد أن يكون آنس من الأمير ما يشجعه على هذا التفكير وإلا لما ظل ماضيًا فيه بكل هذا الإصرار عبر العديد من السنين وأخيرًا تبلور الأمر - فى رغبة دولة الإمارات - ان تقدم لى مبلغًا من المال - ولما كنت أعيش بعون الله فى حالة «قناعة ورضا» فقد اعتذرت أكثر من مرة عن قبول «الهبة» ولكن عندما يشاء الله يسبب الأسباب - كما قدمت - فإذا بى أقول فجأة - لأخى الأستاذ محمد المعلم - صاحب دار الشروق للطباعة والنشر - وقد كان هو الطرف الذى تدور معه المفاوضات : «لا مانع عندى من توجيه هذه الهبة لطبع هذه المجموعة» وهكذا بدأ العمل وهكذا شاء الله - أن أشهد ميلاد هذه المجموعة - وهى يوم أن تتم بعون الله - فستكون ذخيرة ينتفع بها إلى ما شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

أحمد حسين

إيمـــــــــــان

١

رحلة فى الصعيد

كنا فى رحلة كشفية فى صعيد مصر ، على رأسها حامد أفندى نبيه المدرس بالمدرسة الخديوية . وكان يرافقنا أستاذ الكشافة الكبير عبد الله سلامة أفندى . وكان معسكرنا على ضفة النيل الغربية فى الأقصر . هبطنا إلى أرض المعسكر فى وقت الظهيرة ، وكانت الشمس تسطع وترسل أشعتها الملتهبة . وكان علينا أن نبادر بتشييد الخيام حتى نجد ما نستظل به فأخذنا نعمل ونعمل حتى انتهينا من هذه المهمة الشاقة . بعد مجهود دام ساعتين كان العرق يتفصد من جباهنا خلالها ، وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، فاستلقينا فى الخيام أشبه بالمغمى عليهم ، ناسين أننا لم نتناول طعاماً منذ الأمس وأن الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر .. وكنت أحس فى أعماق نفسى بخيبة أمل فقد كنت أمنى نفسى برحلة سعيدة ممتعة فإذا بنا نبدأ وسط الهجير والتعب .. وها نحن ملقون داخل الخيام ، أنفاسنا مبهورة ، وصدورنا ضيقة فنحن فى حالة أقرب إلى الإغماء منها إلى النوم كما قدمت آنفاً .. ولكن الشمس سرعان ما آذنت بالمغيب .. وعند الأصيل تظهر أشعتها الحمراء كل فتنتها .. وإذا بنا وقد استيقظنا من نومنا وغسلنا رؤوسنا بالماء البارد وبدأ نسيم الشمال ينعش نفوسنا ويداعب ملابسنا وشعورنا ..

دوى البوق مؤذنا بميعاد إنزال العلم الذى كان يرفرف فوق ساريته الشامخة مظللا المعسكر بأسره .. دوى النفير فأسرعنا جميعاً حول سارى العلم ووقفنا فى مثلث متساوى الأضلاع وارتفعت رؤوسنا إلى هذا العلم الأخضر الجميل .. ولست أرى أن فى الدنيا بأسرها ما يخفق له الفؤاد كرؤية علم الوطن العزيز بعيداً عن العمران والمساكن .. فهو فى المدن وفوق نواصى الأبنية العامة أشبه شىء بالزينة والزخارف .. ولكن العلم فى الصحراء ، أو فى الجبال ، أو فى البحار ، أو بعيداً عن أرض الوطن ، يصبح شيئاً آخر .. يصبح مصدراً للحياة والقوة والسعادة .. فهو يؤنسك فى وحدتك ، وهو يشجعك ويشد أزرك .. علم الوطن العزيز فى الغربة هو أعذب الأناشيد وأكثرها سحراً فى نفس المواطن المغترب .. ولا يشعر بجمال ما أحدثك عنه إلا هؤلاء الذين سافروا

تاركين وطنهم العزيز كيما تتلقفهم بلاد جديدة كل ما فيها متنكر لهم ومتجهم .. كل ما فيها يشعرهم لذعة فراق الأوطان ، سل هؤلاء عندما يرون علم بلادهم ماذا يكون أثره فى نفوسهم . إنهم ليرتعشون وتطفر الدموع من أعينهم .. ذلك أن علم بلادهم يذكرهم بأعزائهم وأحبابهم .. يذكرهم بحياتهم السعيدة فوق الأرض التى درجوا عليها ، والسماء التى استظلوا بها .. وفى كلمة : يذكرهم العلم بأغلى ما تنطوى عليه الحياة ، وأعنى بها العزة والوطنية والكرامة .. أما فى الصحراء وفى القفار فإن العلم يؤثر فى النفس بما هو أبلغ .. ذلك أنه يطرد وحشة المكان ويملؤه أنساً وحياة .. ومن هنا كان هؤلاء الذين يضربون فى مجاهل الدنيا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، مستكشفين ومستطلعين ومستعمرين ، ينصبون أعلام بلادهم أول ما يفعلون كيما تربطهم بأوطانهم ويستمدون منها الحياة والحيوية والنشاط .. ولست أحسب أن موسيقات الدنيا بأسرها لو أنها عزفت تكون أشجى على النفس والروح من حفيف العلم وهو يرفرف فوق الرؤوس ولذلك فقد وقفت لأول مرة فى حياتى أمام العلم وكأننى فى صلاة .. وعندما هتف بنا الرئيس « تحية العلم ـ تعظيم سلام » ارتفعت يدى إلى جبهتى فى حركة لا شعورية بينما اشرأبت رأسى إلى قمة السارى تتابع العلم وقد أخذ يهبط مع غروب الشمس .. وحانت منى التفاتة إلى زملائى فإذا بهم منتصبو القوام مرفوعو الأيدى .. تسطع أعينهم بهذا اللهب المقدس الذى تعكسه العيون عندما يكون الإنسان فى نشوة روحية .. كان العلم يهبط من ثانية لأخرى ولكن هذه الثوانى كانت تعدل عندى الدهور ، ذلك أن روحى حلقت لأول مرة كيما تشرف على هذا الوطن العزيز وتفكر فى أمره . ولست أستطيع أن أصور لك إحساسى ساعتئذ فلست أشك فى أنه كان إحساساً غامضا لم يتضح بعد .. فقد كنت قريب عهد بحياة من نوع آخر لم تكن مما يساعد على توضيح المشاعر الوطنية .. وإذن فقد كانت المشاعر تتلاطم فى نفسى وتتجاذب .. وعندما وصل العلم إلى مستقره وتلقاه الرئيس وصاح بنا « جماعة ـ اعتدال » أحسست بمولود جديد قد نما فى روحى وأفكارى ، ولم يكن من الوضوح بحيث أعرف ما هو وما هى حدوده ، ولكنه كان من القوة بحيث أشعر بوجوده فى نفسى .. ولقد كان ذلك يملأنى رضا واغتباطاً بالحياة .. وعندما أعطانا الرئيس الأمر بالانصراف أخذت أنظر إلى ماحولى من الفضاء والرمال والنيل الذى ينساب فى ليونة وعذوبة .. وهذه الجبال التى تقع إلى يسارنا والتى سنرتقيها فى الصباح كيما نهبط بعدها إلى وادى الملوك والملكات .. أما على الضفة الأخرى فقد بدأت أنوار الأقصر تطالعنا وهذا الفندق الشهير « ونتر بالاس » قد انعكست أضواؤه على المياه فأخذت تتلاعب بها .. وشرع الظلام يرخى سدوله وأخذت العوالم والكائنات تزداد فتنة .. نظرت

حولى وفوق رأسى واستنشقت عبير الهواء المحيط بى فإذا بى أستنشق طويلاً وأفتح صدرى ورئتى للنسيم كأنما أريد أن أطوى هذه الكائنات وهذا الجمال فى أعماق نفسى .. لقد كان يوماً خالداً من أيام حياتى وبالرغم من أنه قد مر عليه حتى كتابة هذه السطور ثمانية أعوام ، لأنا كنا فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ ، فلا يزال منقوشاً بكل حوادثه حتى التافه منها فى ذاكرتى .. ذلك أنه كان بدء التطور فى نفسى ودخولى إلى عالم جديد .. ولقد كنت أحس هذا التطور وهو يتم بشدة وأنا جد مبتهج .. حتى إذا جلسنا ذلك المساء حول النار نتجاذب أطراف الحديث طلب منى أن أتكلم فساءلت إخوانى : أيشعرون جميعاً بالسعادة التى أشعر بها ؟ .. أم أنها وقف على ؟ .. لقد كان يُخيل إلىّ أننى أسعد الناس طرا فى هذه الساعة .. ولعمرى فقد عشقت مصر وامتلأت غرامًا بها وهيامًا ، وأى شىء فى الدنيا يملأ الحياة سعادة وهناء أكثر .. من الحب ؟!

فى وادى الملوك

كان علينا أن نبكر فى اليوم التالى لزيارة وادى الملوك وقد أخذنا نتسلق هذه الجبال الشامخة حتى أشرفنا على وادى الملوك .. فشرعنا فى زيارة المقابر المختلفة .. هذه لسيتى ، وتلك لرمسيس .. وثالثة لتوت عنخ . وقد كنت فى كل مرة كلما انتهيت من زيارة إحدى المقابر أشعر بالوجوم وبالرغبة فى البكاء ، فهذه الدهاليز داخل الجبل كانت تملؤنى إكباراً لهذا الجهد الجبار الذى نحتها .. حتى إذا توسطنا حجرات الدفن وأبهاءها راعتنا كل هذه الألوان وكل هذه النقوش والتى خيل إلى ساعة أن وقع بصرى عليها للمرة الأولى أن مصلحة الآثار قد فرغت من إعادة طلائها أخيراً .. فسألت من حولى متى دهنوا هذه الألوان للمرة الأخيرة .. فأجابونى بضحكة فيها كل معانى السخرية والإشفاق من هذا الجهل .. ذلك أن الألوان قد نقشت منذ نيف وأربعة آلاف سنة .. وعلى الرغم من سخريتهم فإنى لم أصدق هذا القول ساعة أن قالوه لأنه كان يبدو مستحيلاً ، ولم أكن من هؤلاء الذين يصدقون كل ما يقال لهم .. أجل .. مستحيل .. مستحيل أن تكون هذه الألوان الزاهية .. هذه النقوش البراقة .. مستحيل أن تكون هى بذاتها من صنع الفراعنة وهى التى يبدو بجلاء أن النقاش قد فرغ منها بالأمس .. ومع ذلك فقد أكدوا لى هذه الحقيقة مرة ثانية وثالثة فامتلأت بهذا الوجوم الذى أشرت إليه ذلك أنى أخذت أفكر فى هؤلاء الأقوام ومدنيتهم .. هذه المدنية التى بدأت تبدو لى بكل إعجازها فهذه القصور المشيدة فى باطن الجبل ومن صميم الصخر .. ترى ماذا يمكن أن تكون هذه الأيدى التى نحتتها .. وماهى هذه الآلات التى استعانت بها ماذا يمكن أن تكون هذه الآلات التى

تذيب الصخر وتحيله كأنه العجينة اللينة حتى تنحت فيه هذه الدهاليز وهذه الحجرات وهذه الأعمدة ، إن مدنية القرن الحديث بكل ماتملك من نظريات ومخترعات وأدوات لتعلن إكبارها لهذا العمل المعجز ، فما قيمة ماوصلت إليه البشرية من علوم وفنون وطيارات وبرق إذا كان ماقام به أجدادنا منذ ألوف السنين يبدو بالنسبة لنا معجزاً ومحيراً للألباب .. وفى مقابر الملوك لا يسعك إلا أن تسأل نفسك سؤالاً لا جواب له .. فعلى أى ضوء نقشت كل هذه الرسوم الدقيقة والتى تزين الجدران بل تزين الأرض تحت قدميك وتزين سماء الحجرات مادام من الواضح أن نور الشمس لايمكن أن ينفذ إلى داخل الجبل ..؟ تحت أى ضوء استطاع الفنان الماهر أن يجيد هذه النقوش وأن يبرزها هكذا فى كل هذه الفتنة وهذا الرواء الذى يحتاج فى إتمامه لنور ساطع كضوء النهار ..؟ يقولون إن نوراً واحداً هو الذى لايرسل دخاناً ولايترك آثاراً وهو نور الكهرباء .. فهل عمل الصانع المصرى فى ضوء الكهرباء ..؟! هذا هو السؤال الذى لايجيبك عليه فطاحل العلماء ..

وأنت مضطر أن تسلم بعجزك وأن تعترف أن هؤلاء الجدود قد عرفوا من أسرار الطبيعة وفنونها مالم نعرفه حتى الآن .. وعلام نذهب بعيداً ونتساءل عن الضوء فهذه الألوان فى ذاتها .. هذه الألوان الباهرة بأحمرها وأزرقها وأصفرها كيف استطاعت أن تقاوم كل هذه الألوف من السنين وأن تبقى حتى اليوم لامعة ساطعة كأنما فرغ منها الفنان منذ لحظات .. يقولون إن ألمانيا الحديثة هى أم الكيمياء .. يقولون إنهم يستطيعون أن يخرجوا من الهواء سماداً وأن يحولوا كل شىء إلى غذاء .. يقولون إنهم يحولون العناصر وإنهم يصطنعون كل شىء .. فما بال ألمانيا بعلومها وجامعاتها وعلمائها عاجزة عن أن تدرك السر فى ألوان مصر القديمة وأن تخرج من الألوان مايقاوم البلى بضع عشرات من السنين لامئات من القرون كما هو الحال مع قدماء المصريين. مابال علماء الألمان ، بل الدنيا بأسرها ، يقفون حيارى أمام هذه الألوان الساحرة والتى هزأت بالزمن وهزأت بالشمس والمطر والحرارة والبرودة وكل الظواهر الجوية .. هزأت بكل عناصر الفناء وبقيت حتى اليوم تسطع فيخيل إليك أنها قد صنعت بالأمس. أليس هذا إعجازًا أى إعجاز ؟

وأليست علوم القرون الحديثة لايزال أمامها أشواط وأشواط كيما تدرك أسرار علوم مصرنا القديمة وفنونها ..؟ على أن معجزة الألوان ليست هى المعجزة الوحيدة التى تنطوى عليها مقابر الملوك وتثيرها فى نفسك .. بل إنها لتحمل معجزة أكثر عمقاً وتأثيراً وأعنى بها تحنيط الموتى .. فهذه القدرة العجيبة على حفظ الجسم من الفناء عشرات الألوف من السنين تبدو بالنسبة لعلوم القرن العشرين عملاً مستحيلاً .. فكل ما استطاعوا الوصول إليه هو أن يحنطوا الجسد سليما لعدة سنوات كما فعلوا فى روسيا بجسد لينين.. على شريطة أن

يعيدوا تحنيطه من عام لآخر .. ولم ينقض على هذه العملية عشرون سنة حتى بدأ الانحلال يدب إلى الجسد .. وقد لا تمضى سنوات أخرى حتى يستسلم جسد زعيم الشيوعية إلى الفناء ، وهذه هى كل مقدرة الحضارة فى القرن العشرين .. أما علوم أجدادنا فقد استطاعت أن تحافظ على أجساد الفراعنة هذه الألوف من السنين . ولست أقول تحافظ على هياكلها ، بل تحافظ على أدق خواصها فقد استطاع الأطباء أن يشخصوا كثيرا من أمراض مصر القديمة عن طريق هذه الأجساد المحنطة ، فقد وجدوا فيها آثار العمليات الجراحية المختلفة ووجدوا فيها كثيراً من الظواهر التى تخلفها بعض الأمراض .. ولازالت هذه الأجساد قادرة على أن تقطع عشرات الألوف من السنين لو أنهم لم يزعجوها من مراقدها ويخرجوها من هذه القبور التى أعدت لحفظها ولصيانتها والتى تتناسب وعظمتهم ومجدهم .. كما يحشرونها حشرا داخل دواليب زجاجية فينظر إليهم الناس كما ينظرون إلى قطعة الآثار أو دمية من الدمى .. فيتطرق إليها الفساد ويتعلم الناس واحسرتاه كيف ينسون جلائل أعمالهم وهم يرونهم كالرمم تعافهم الكلاب .. ياله من إجرام مابعده إجرام . ويالها من شناعة وقذارة ، إن المهانة التى تعيشها مصر اليوم ، والذل الذى تعانيه ، وظلمات الجهل التى تكتنفها والتى يرمز لها سوء معاملة الأجداد والعبث بأجسادهم وعرضهم فى المتاحف ، لايمكن مقابلتها إلا بشىء واحد هو هذه العظمة وهذا الخلود الذى سطره هؤلاء الأجداد . وحاضر مصر وماضيها طرفا نقيض ، كالعدم والحياة ، والنور والظلام ، واليأس والرجاء .

كنت أفكر فى ذلك كله فامتلأت بالوجوم والحسرة وأنا أقوم بهذه المقارنة بين الأمس واليوم .. وأنا أستعرض مظاهر الجحود والنكران لأجدادنا .. بل أستعرض الشقة البعيدة التى تفصلنا عنهم . ذلك أن المصريين قد قطعوا كل الصلات التى تربطهم بهؤلاء الجدود فأخذوا يتحدثون عنهم ويشاهدون أعمالهم تماما كما يفعل السواح والأجانب .. أستغفر الله بل أقل تقديسا واحتراما مما يفعل السواح .. فالمصرى يخيل له إذ يسمع حديث قدماء المصريين أن هؤلاء قوم كانوا من العفاريت لايكاد يتمثل صورتهم فى ذهنه وفى خياله إلا كما يتصور الغيلان ومردة الجان .

كنت أفكر فى هذا وأشباهه ونحن نتحسس طريقنا نحو المعسكر ، وسرعان ماشعرت بالدم يغلى فى عروقى .. وأحسست بدقات قلبى وقد تزايدت .. ولم أكن أميز الطريق تحت قدمى فكنت أصطدم وأتعثر . وإنى لأذكر أننى سقطت إلى الأرض أكثر من ثلاث مرات فى ذلك اليوم وعندما عدنا إلى المعسكر وجلسنا لنتناول العشاء أذكر أننى لم أتذوق طعاما . كنت أرى إخوانى وزملائى يملأون الدنيا صراخا وتهليلاً ويضحكون ويلعبون

فامتلأت دهشة وعجبًا . إذ أقارن ذلك بما فى نفسى من ثورة غضب وضيق .. وبينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث حول النار كما هى عادتهم . هذا يقص نادرة . وذاك يمثل دورا من الأدوار . وثالث يغنى إحدى المقطوعات الحديثة .. تمددت بعيدا عنهم فوق الرمال وكان القمر يرسل أشعته فيغمر الكون بالهدوء والسلام .. بينما كانت مياه النيل تتكسر على الشاطئ الرملى فى خرير ودوى خافت ، فأخذت أسائل نفسى ترى ماذا كانت عليه هذه البقاع وأى أناس كانوا يجلسون جلستى هذه . وأى أفكار كانت تدور فى رؤوسهم . وسرعان ما أحسست أن الحاضر لايفترق عن الماضى وأن النفس البشرية هى فى كل عصر وزمان . وأن المادة لاتفنى . والجواهر لاتتغير . وكل ماتتناوله الأيام بالتغيير هى الأغراض التافهة .. فما لاشك فيه أن النيل كان يجرى كما يجرى اليوم وأن هذه النجوم كانت تلمع كما تلمع اليوم .. وليس شك فى أن كثيرا من الناس جلسوا مجلسى هذا على مر السنين يستمتعون بضوء القمر ويرسلون لخيالهم العنان .. ولو أن هذه الجبال التى تحيط بنا أنطقها الله لحدثتنا عن هؤلاء الذين اعتادوا أن يسيروا فوقها منذ ألوف وألوف من السنين .. ولأدهشنا أن نسمع منها أننا جميعا نتشابه وأننا نضحك كما كانوا يضحكون وأن تقاسيم وجوهنا كتقاسيم هذه الوجوه .. وأن كل شىء كما هو . وليس يميزنا إلا شىء واحد هو الذى يؤخرنا ويشقينا ، وهو هو الذى يعذبنا ويذلنا .. ذلك الشىء هو الجهل .. الجهل ببلادنا . الجهل بتاريخنا . الجهل بأنفسنا . الجهل بقدرتنا .

بين صخور الكرنك

وجاء دور الكرنك فاقترحوا علينا أن نزوره فى ضوء القمر أى فى المساء المتأخر . وقد فعلنا .. ولكن زيارة المعبد فى المساء لابد لها من تصريح خاص فالخفراء يغلقون الأبواب ويتهيأون للنوم وإذن فقد كان لا مناص من الانتظار . والانتظار الطويل . حتى يرد لنا التصريح بالزيارة فجلسنا أمام هذه البوابة الشامخة والتى تزرى بأقواس النصر التى رأيتها فيما بعد فى باريس وروما ولندن ولكنى ساعتئذ لم أكن أقارن ولم أكن أعرف ولذلك فقد كنت مبهورا إزاء هذا الجلال وهذا الشموخ الذى يملأ النفس إحساسا بالعظمة والقوة .. قوة هؤلاء الذين رفعوا هذه الأحجار فشيدوا هذه الجدران المتسامية نحو السحاب . وأقاموا هذه البوابة الضخمة الرائعة .

قلت لك إنهم ذهبوا لاستحضار التصريح فجلسنا فيما يسمونه طريق الكباش واحتطنا بهذه الحيوانات التى أودعوها العقل والقوة .. وكان كل مايحيط بنا يبعث السحر فى النفوس .. فالقمر والسكون وهذه الجدران .. بل هذا المكان الذى وقفت فى ظله يوما

من الأيام عشرات الألوف من الناس تلتمس البركة وتدعو الله ... هذا المكان الذى شاهد جيوش مصر الظافرة تروح وهى ممتلئة بالقوة والحماسة وتعود وهى تهزج أهازيج النصر .. والذى شاهد ملوكا تجىء من آخر الدنيا مصفدة بالأغلال لتقدم خضوعها للإمبراطور المصرى .. وأى كنوز تلك التى اجتازت عتبة هذه الأبواب يشع منها بريق الذهب فيملأ هذه الأرجاء ثروة وغنى .. هذه هى البقعة التى وقفنا فيها حتى يجىء التصريح بالدخول فإذا بأحاسيس قوية تغمر نفسى ، وإذا بى أنطلق فى ترتيل أناشيد رواية (مجد رمسيس) تلك التى ألفها الأستاذ محمود مراد سنة ١٩٢٣ . فصوز بها مجد مصر الغابر . وأودعها كل أمل المصريين فى مستقبل زاهر ، فأخذت أهتف من الأعماق يصاحبنى بعض الرفاق الذين يحفظون هذه الأناشيد :

«سودى على رغم الزمن يامصر يانعم الوطن»
«دوسوا العدا يوم الردى لبوا الندا ، كونوا فدا»

وتملكتنى الحماسة فأخذت أنتقل من نشيد إلى نشيد .. ثم رأينا أن نعيد تمثيل الرواية لحنا لحنا وكلمة كلمة .. ثلاث ساعات قضيناها أمام أبواب الكرنك نرتل أناشيد المجد والفخار .. ولعل هذه الأناشيد وهذه الهتافات قد أعادت الحياة إلى هذه التماثيل الجاثمة طوال طريق الكباش ولاشك أن هؤلاء الأطفال الذين وقفوا يرتلون أهازيجهم قد أعادوا إليها بعض ذكريات الماضى السعيد عندما كانت أصوات الألوف ترتفع بالغناء تمجيدا لله ولفرعون . وتنتظر التصريح لها بالدخول . وكما كانوا يصرحون لهم بالدخول . كذلك جاءنا التصريح ففتحوا لنا الأبواب .. واجتزنا عتباتها .. وقد كان دمى يجرى حارا فى عروق إثر هذه الأناشيد وكان قلبى يخفق لاجتيازى هذا الأثر العتيد والذى طالما حدثونى عنه .. وكنت أريد أن ألتهم كل مايحيط بى .. وأن أحمله معى وأن أخبئه فى طيات نفسى .. اجتزنا هذه الدهاليز التى تصادف الإنسان أول ماتصادفه فوقفت وزملائى نعجب لهذه القدرة الخارقة التى رفعت هذه الجدران وسوت هذه الأعمدة التى تناطح السحاب .. وقفنا بجانب هذه الأعمدة فإذا بالمكان يبلعنا ولا نكاد نشعر بوجودنا .. وساءلت نفسى هل يوجد فى الدنيا بأسرها أضخم من هذه الأعمدة .. وهل وجد على سطح الأرض صناع حاكوا قدماء المصريين ؟ ولم نكد نتمالك روعنا حتى فاجأنا ماهو أضخم .. فاجأنا دهليز الاثنى عشر عمودا والذى يزرى بكل مارأينا وبكل مايمكن أن نراه فى المستقبل .. الله أكبر تجلت قدرته وتقدست أسماؤه ... هل يمكن أن أصف لك ماذا رأيت ؟ هل يستطيع الفنان مهما أوتى من حذق أن ينقل لك الجمال والعظمة ؟ فما بالك ولست فنانا .. ولست أديبا .. ولست من حاذقى الكتابة .. ماذا أقول عن هذه

الأعمدة التى يخيل للإنسان أن لا نهاية لها .. ولا حد لجمالها وعظمتها .. ولكنى أحدثك عما كان يدور فى نفسى .. وإنى لأتصور نفسى كما كنت ليلتئذ .. لقد كنت معقود اللسان جاحظ العينين .. بينما كان زملائى يعلقون ويظهرون إكبارهم ودهشتهم وكنت لا أستطيع أن أحير جوابا أو أنبس ببنت شفة ولقد أحسست بقلبى يدق دقا عنيفا وبرأسى تتصاعد إليه أبخرة غريبة .. وكان ذلك كله يتزايد ويتضاعف كلما انتقلنا من مكان إلى آخر ومن حجرة إلى حجرة .. وفجأة إذا بى أرى نفسى فوق صخرة من هذه الصخور المبعثرة هنا وهناك ووقفت خطيبا أخطب الزملاء فيما يجب أن نقول ومايجب أن نعمل .. هذه العظمة التى تحيط بكم ليست غريبة عنكم .. هؤلاء الذين شادوا كل ذلك قد أورثوكم عزمهم وقوتهم .. ومصر التى حملت لواء الإنسانية فى يوم من الأيام يجب أن تبعث من جديد كما تعيد سيرتها الأولى .. وأخيرا يجب أن ننفض عنا غبار الخمول والكسل .. يجب أن نملأ أنفسنا إيمانا وعزما .. يجب أن نتذرع بالشجاعة والقوة .. يجب أن نعمل وأن نعمل حتى نبعث مصر بكل قوتها . بكل جلالها . وبكل عظمتها .

ولقد صفقوا ... أما أنا فكنت مذهولاً لأنى لأول مرة فى حياتى كنت أخطب وأرتجل .. لأول مرة فى حياتى أستطيع أن أقول بضعة عبارات دون أن أتلعثم أو أتوقف .. لأول مرة فى حياتى عرفت أن أتكلم . كنت مندهشا لهذا الانقلاب .. فإن حياتى السابقة على هذه الزيارة كانت تحول بينى وبين الارتجال أو الخطابة . فقد كنت من هواة التمثيل . وكنت رئيسا لفرقة التمثيل فى المدرسة الخديوية ، وكنت شغوفا بالتمثيل مفتونا به . والممثل لايستطيع إلا أن يردد الكلمات التى حفظها من قبل فتتعطل فيه ملكة الارتجال وتقوى فيه ملكة الحفظ .. وكذلك كنت .. ولذلك فقد كانت لى مواقف .. كثيرا ما أخجلتنى .. فقد دعيت مرة من المرات أن أشكر بعض الناس فلم أقل سوى بضع عبارات فى تعثر وخفوت .. وفى مرة أخرى حاولت أن أتكلم فعجزت .. أما هذه الليلة فقد خطبت .. خطبت بقوة خفية .. خطبت بكل قلبى . بكل دمى . بكل صوتى .. ألا فهتافا لنفسى وتهليلاً ، فقد بعثت من جديد مخلوقا جديدا .. وعندما كنا نجتاز عتبات المعبد فى سبيلنا إلى الخروج ارتفع صوتى فى حماسة وقوة :

«سودى على رغم الزمن　　يـامصر يـانعم الوطن»
«دوسوا العدا يوم الردى　　لبوا الندا كونوا . فدا»

ولكن شتان بين إنشادى هذه المرة وبين إنشادى لها منذ ساعة قبل أن ندخل المكان .. لقد كان إنشادى لها من قبل تمثيلاً وغناء وتسلية .. أما الآن فقد كنت أقولها

وهى تخرج من أعماق قلبى .. كنت أغنيها وأنا أؤمن بكل حرف من حروفها .. وأنا أرفع ذراعى ورأسى مقسما ومعاهداً .. لقد بعثت .. لقد بعثت ... وهكذا يجب أن يبعث كل شاب فى مصر . لقد خلقت من جديد . وهكذا يجب أن يخلق كل شاب فى مصر .. لقد كنت أنظر إلى أعمدة الكرنك وآثاره . لا على اعتبار أنها آثار بل كأنها شىء حى يتكلم . لقد وقفت أمام المسلة المرتفعة هناك ووقفت أمام البركة وأمام مئات التماثيل المبعثرة هنا وهناك .. وقفت كأنما أتلقى الأوامر والتعليمات .. وقد كان كل متر من الأرض .. بل كل شبر . يحدثنى عن القوة والمجد .. وكنت أرى الجيوش المحتشدة التى سارت خلف تحتمس ورمسيس والتى فتحت دنيا ذلك الزمان ... وكنت أسمع أهازيج الانتصار وأتمثل النور الذى كان يسطع من هذا المكان .. وفى كلمة : لقد بعثت . ولقد صرت مخلوقا جديدا ..

وعندما رقد الكل فى خيامهم ظللت ساهرا متوليا الحراسة .. وجلست حول النار أشاهد ألسنتها وهى تتقاتل وتتشاحن ويحرق بعضها بعضا . وكانت فى يدى عصا أخذت أعبث بها فى التراب بينما كان عقلى مشغولاً وروحى هائمة .. وكل شىء فى نفسى يبحث خلف العلاج والحل لهذا اللغز .. ماذا .. ماذا يجب أن نعمل كيما نستعيد كل ماضينا الذهبى . ماذا يجب أن نعمل كيما نعيد الحياة إلى هذه الأطلال .. كيما نعيد الأمل إلى هذه النفوس .. كيما نبرز كل فضائلنا التى غطت عليها الرذائل .. ماذا نفعل وماهو الطريق .. ؟ نظرت إلى السماء أستمد منها الجواب .. ولكنى لم أتلق جوابا وكانت يدى تعبث بالرمال وتخط عليها خطوطا وقد أحسست أننى شرعت فى كتابة شىء .. فأكملت الكتابة وطالعت ما كتبت فإذا بها كلمة واحدة ولم تكن سوى «الإيمان» ..

خزان أسوان

انتقلنا وفقا لبرنامج الرحلة لزيارة مدينة أسوان .. وأسوان مدينة جميلة كالعروس .. فاجأتنا بجوها الساحر ورشاقتها . وقد علمونا أن الذاهب إلى أسوان كالذاهب إلى الجحيم سواء بسوء .. عودونا أن يكون نقل الموظف إلى أسوان نوعا من العقوبة والنفى .. فلا يرسل إليها إلا موظف مغضوب عليه .. حتى لقد تمثلت أسوان فى رءوسنا قطعة من الجحيم . إن لم تكن الجحيم بذاته .. ولذلك فقد كان مفاجئا وكان مسعدا أن نرى كل هذا الجمال وكل هذه الفتنة .. فمياه النيل الزرقاء تنبثق على جانبها الغربى تلال صفراء . ويتوج ذلك كله سماء صافية وشمس ساطعة فى غضون الشتاء . إنها لنعمة وأية نعمة .

ويتصل بأسوان ولا يبعد عنها بأكثر من بضعة كيلو مترات الخزان والشلال الذى أسرعنا إليه غداة وصولنا إلى أسوان. وإذا كنت لا تزال تذكر هذه الانفعالات التى طافت بنفسى وإذا كان الكرنك قد نال من نفسى الذى نال .. فقد كان تأثير خزان أسوان هو الحلقة الأخيرة التى طغت على كل حواسى وتفكيرى وقررت مستقبل حياتى نهائيا. وإذا كان الكرنك قد أشعرنى الحاجة إلى الإيمان بعظمتنا كما يبعث مجد مصر القديم .. فقد منحنى خزان أسوان هذا الإيمان وأشعرنى بأننا عظماء فعلاً .. وكل ما هنالك أننا لا ندرى ذلك فإن قليلاً من المصريين هم الذين جاءوا إلى هذا المكان ووقفوا موقفى هذا وشاهدوا ماذا فعل أحفاد الفراعنة .. وماذا فعل بناة الأهرام والكرنك ومن حولوا مجرى النيل .. فإن خزان أسوان يذكرك بهذه الأمجاد البعيدة ويقربها إلى قلبك وعقلك لأنك تراها من جديد .. ياإلهى ! ما أعظم هذا العمل الجليل ؟! أن ترى مياه النيل محجوزة خلف سد شامخ لا بد لك من نصف ساعة كما تقطعه سيرا على الأقدام .. أن ترى هذا الحائط الذى يناطح السحاب من صنع الإنسان والمياه تتدفق من بعض عيونه فيصم زئيرها الآذان .. ويملأ هديرها الأجسام ارتعاشا ورعبا خفيا .. وهذا الزبد أشبه شىء بالقطن يغلى فيتناثر منه رذاذ يملأ أجواء الفضاء وتتسلط عليه الشمس فتتحلل أشعتها وتستحيل إلى بنفسجية وحمراء وزرقاء .. ياله من مشهد خالد لا ينساه الإنسان مدى الحياة .. لقد ظل هذا المشهد يساور أحلامى ويملأ على ذكرياتى حتى وقفته ثانية بعد سبع سنوات عند ما شرعت فى القيام برحلتى خلال الوجه القبلى تلك الرحلة التى ستبقى إلى الأبد حدثا هاما فى تاريخ مصر الفتاة .. سبع سنوات كاملة هى التى فصلت بين زيارتى الأولى لخزان أسوان وزيارتى الثانية .. ولست أدرى كم سيمر على من الزمن أيضا حتى أعود من جديد لزيارة خزان أسوان.

لقد وقفت أمام الخزان فى هذه الأيام الأولى وأنا أشاهد المياه المنحدرة من بعض عيونه فى عنف وقوة وقد توارد إلى رأسى كل ما قرأته عن إمكان توليد الكهرباء من هذا الخزان .. وكنت أستعيد ما يقولون فأمتلىء غيظا وكمدا لهذا الإهمال وهذا التهاون فيما يحقق الثروة والمجد لمصر .. يقولون انه يمكن توليد الكهرباء من خزان أسوان فيستطيعون تسيير جميع قطارات السكك الحديدية فى أنحاء مصر ويوفرون بهذا خمسة عشر مليوناً ندفعها سنويا ثمنا للفحم إذا ما ارتفع ثمنه قليلاً .. ويقولون بل ويستطيع أن يمد القرى كلها حتى الإسكندرية بالضوء والحرارة اللازمة للأعمال الصناعية ويقولون إن هذا الخزان كفيل بأن يجعل مصر قطرا صناعيا .. إذن ما الذى يؤخرهم ؟.. ما الذى يقعدهم ؟.. لماذا لا يولدون الكهرباء من خزان أسوان ؟.. لماذا يتركون كل هذه الثروة تتطاير فى

الهواء ؟.. لماذا يدعون القوة والحياة تنساب إلى البحر ؟.. ثم ينعون علينا أننا شعب فقير.. أننا شعب حقير.. أننا أمة زراعية لا تصلح للصناعة لأن الفحم لا يوجد فى بلادنا.. وهذه الكهرباء.. هذه الكهرباء التى تزرى بالفحم ما بالها ؟ وعلام لا نستغلها ؟ أو ليس خداعا إذن كل ما يقصونه علينا من عجز مصر؟ أو ليس تمويها وتغفيلا هذا الذى دسوه علينا فى كتبنا وصحفنا وعلمونا إياه فى المدارس والمعاهد وفى كل مكان، وأعنى به أن مصر لاتصلح للصناعة ؟ ! لأول مرة أحسست بجريمة الإنجليز على هذا الشعب بمقدار ما أفقدوه كل معنوياته، ودسوا عليه الشك فى قدرته وقدرة بلاده.. لأول مرة أحسست بجناية الاحتلال على هذا البلد وبمقدار ماتعمل إنجلترا على عرقلة هذه الأمة وتطورها إلى الأمام.. لو أنهم تركونا وشأننا لاستخرجنا الكهرباء منذ سنوات وسنوات. وملأنا الدنيا مصانع ومعاهد. ألم تكن مصر منذ نيف ومائة سنة تزخر بالمصانع التى لا تنتج الطرابيش والمنسوجات والزجاج فحسب، بل والمدافع والذخائر والأساطيل.. ومع ذلك فها نحن بعد مائة عام من هذه النهضة يعلموننا أن مصر لاتصلح للصناعة لأن القوى المحركة لا توجد بها.. لقد عدت من زيارة الشلال ونفسى مليئة بالسخط على الاحتلال والحكومات الضعيفة وعقلى مشغول بالتفكير فيما يمكن أن تكون عليه مصر، غداعندما تستطيع تحقيق هذا المشروع.

عدت من الخزان.. بل عدنا من الخزان وكيفية عودتنا تحتاج إلى تسجيل.. لأننا عدنا سيرا على الأقدام.. من الشلال حتى أسوان ولم أكن أعرف مقدار المسافة وقتذاك ولكنى عرفتها فيما بعد عند ما عاودت السير فى هذا الطريق مصحوبا برفقائى من مجاهدى مصر الفتاة.. عدنا وكان الطريق وعرا فى أحشاء الصحراء.. وكانت الشمس محرقة والرفقاء صغارا لا عهد لهم بالسير فطلب منى رئيس الرحلة أن أنشد لهم أناشيد رمسيس ومجد رمسيس.. وأن أرتل قبل كل شىء نشيد السلامة.. والذى حفظوه من كثرة التكرار.. ولذا فقد صحت بهم هلموا يارفاق.. واحد.. اثنين.

اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكينى أبدا إننى أرجو مع اليوم غدا

ولما انتهى النشيد هتفت بغيره.. حتى إذا اقتربنا من المدينة دبت الحماسة إلى عروقنا ونفضنا عن أنفسنا مظاهر التعب والكلال.. ونظمنا صفوفنا على أبواب المدينة.. وسرنا أربعة أربعة وأخذنا نقرع الأرض بأقدامنا وقد رفعنا رؤوسنا إلى السماء وارتفعت أصواتنا من جديد:

اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا

وعلى هذه الصورة المجيدة دخلنا أسوان منذ سبع سنوات واجتزنا شوارعها الرئيسية فوقف الناس على جانبى الطريق يصفقون .. وفتحت النوافذ وانطلقت منها الزغاريد . وخيل إلينا أننا عائدون من الحرب فاتحين منتصرين . ياللذكرى ويالجلالها ، ما أروعها وما أكثر تأثيرها فى نفسى ! فلقد كانت هذه العناصر التى تألفت منها فيما بعد مصر الفتاة .

كـوم أمبـو

لم نكد نفرغ من زيارة أسوان والشلال ونستعد للعودة إلى القاهرة حتى تلقينا دعوة من أحد رفاقنا فى الرحلة لنقبل ضيافتهم فى كوم أمبو ولنشاهد مزارع القصب ونزور مصانع السكر وطلمبات الرى .. ولقد قبل رئيسنا الدعوة شاكرا ونزلنا فى كوم أمبو فرأينا فيها عجبا وسمعنا ما هو أعجب .. رأينا فيها مصانع السكر الضخمة والتى لا يكاد يتصور الإنسان ضخامتها أو أن يتصور أن فى مصر صناعات بهذه الدقة وهذا الإحكام .. وعلى الرغم من مضى زمن طويل على هذه الزيارة فلا زلت أتمثل هذه الزيارة ، ولا زلت أتمثل هذه الكتلة الضخمة من الآلات والتى ترتفع فوق بعضها فى طبقات مختلفة ليصعد إليها الإنسان بدرجات فوق درجات ، والعمال المصريون وسط ذلك كله يشرفون على أعمالهم فى حذق ومهارة ومثابرة ، ولأول مرة أرى عملية صناعية فيأخذ بلبى تحويل المواد من حالة إلى حالة . فالقصب وهو ينظف ثم يقطع ثم يعصر .. ثم يرشح ثم يركز .. وهكذا .. وهكذا .. عدة عمليات يتتبعها الإنسان فى شوق وشغف حتى يصل إلى نهايتها فيرى السكر وهو يعبأ فى الأكياس ثم يحمل إلى الخارج كما يشحن إلى القاهرة ليكرر فى مصانع الحوامدية والتى حدثونا عن ضخامتها التى لا حد لها .. ولقد حدثونا عن الأرباح الطائلة التى تغنمها شركة السكر .. وعن رأس المال الضخم الذى أصبحت تمتلكه والذى بدأت به صغيرا .. وهنا لأول مرة أصطدم باستغلال الأجانب للمصريين وأفكر طويلاً فى دلالات ذلك وما ينطوى عليه .. ولكن المشكلة لم تأخذ شكلها الصريح إلا عندما زرنا طلمبات الرى وعرفنا أسرارها .. لقد رأينا أربع أنابيب ضخمة قد ركبت على النيل ، ولا زلت أذكر أن المهندس الذى كان يحاضرنا أخبرنا أن هذه الأنابيب هى أضخم أنابيب من نوعها فى العالم ، وأنها تأخذ ١ على ٢٠ من مياه النيل فى أيام التحاريق ، ولست أعرف مدى دقة هذه المعلومات وصحتها ، ولكنها كانت كافية لإزعاجى ، وخصوصا عندما علمت أن هذه الشركة الأجنبية قد وضعت أيديها على ألوف من الأطيان فى هذه الناحية بثمن تافه لا يزيد عن بضعة قروش للفدان ، وأنها الآن قد تحولت إلى أرض كأجود الأرض ، أى أن شركة كوم أمبو قد أصبحت مستعمرة أجنبية

على أرض الدولة ، وحكومة داخل الحكومة ، وأن ألوفا من الفلاحين المصريين يعيشون فى حالة رق لهذه الشركة الأجنبية التى تستنزف كل مجهوداتهم فى نظير ثلاثة أو أربعة قروش لكل عامل .. لقد كانت هذه المعلومات كافية لإشعال نار الثورة فى صدرى . لماذا .. لماذا نعيش فى بلادنا فقراء وخدما وعبيدا للأجانب ؟.. لماذا يجىء هؤلاء الناس إلى مصر بقروش قليلة فيصبحون من أغنى الأغنياء ؟.. لماذا يسخروننا ؟ ولماذا يتحكمون فينا ويملكون علينا كل شىء ، حتى الأرض ؟.. الأرض التى هى ملك لنا والتى نزرعها منذ ألوف السنين يغتصبونها منا .. وفى ظل الاحتلال وفى ظل الامتيازات يعرفون كيف يكبلون أعناقنا فى خدمتهم .. لماذا لا تكون هذه الأراضى ملكا للدولة .. لماذا لا توزع على هؤلاء الفلاحين الفقراء ؟ فى أى قانون وبأى نظام وبأية شريعة يشقى أحفاد الفراعنة والعرب والذين سادوا العالم وعلموا الدنيا ؟.. لماذا يارب يشقون من أجل الأجانب .. ويكدحون من أجل الأجانب ؟.. هل هم فى نهاية الأمر شعب منحط صغير لا يصلح إلا للعبودية ؟.. لا .. لا .. إن نفسى تثور وإن روحى تتمرد على هذا الوضع المقلوب .. ولذلك فلم أكد أُدعَ للكلام فى حفلة أقامها لنا أحمد بك مصطفى مدير الشركة حتى اندفعت أخطب .. كما خطبت على صخور الكرنك .. واندفعت أهاجم الأجانب .. واندفعت أدعو من حولى إلى معرفة حقوقهم والكفاح فى سبيل تحرير بلادنا .. وكان علينا أن نسافر بعد خمس دقائق ولذلك فقد شرع إخوانى يشيرون لى أن أنهى كلامى .. ولكنى نسيت كل شىء .. نسيت القطار ، ونسيت ميعاد السفر ، بل ولم أكن أعرف معنى هذه الإشارات ، حتى اضطروا إلى أن يحملونى حملاً وأن يسرعوا بنا إلى القطار ، والذى نجحنا فى إدراكه فى نهاية الأمر ، ولم يكد يتحرك القطار حتى عدت إلى نفسى وشعرت كأنما أستيقظ من حلم .. ذلك أن الحالة التى كنت فيها كانت أشبه شىء بنوبة المحموم ولم يكن يعنينى فى ذلك كله إلا أننى قد خطبت للمرة الثانية دون أن أتلعثم ودون أن أتردد .. خطبت للمرة الثانية مرتجلاً .. وإذن فقد أصبحت أعرف التحدث إلى الناس .. وأن أتحدث إليهم من أعماق قلبى وأن أنقل لهم كل أفكارى .. لقد كانت هذه بدء صفحة جديدة من صفحات حياتى .

عدت من الرحلة بأفكار جديدة وآمال جديدة ومشاريع جديدة كذلك .. ولقد تطورت حياتى منذ هذه الساعة فى ناحية الكفاح السياسى تطورا سريعا .. ولعل هذا أصدق برهان على فوائد هذه الرحلات وضرورة تعميمها وجعلها جزءا لا يتجزأ من برنامج التعليم بل والتوسع فيها إلى أقصى حد .. فيجب على كل طالب فى المدارس الثانوية أن لا يتم تعليمه حتى يكون قد زار مصر من الأسكندرية حتى أقصى الحدود

الجنوبية فى السودان .. وأن يزور أعلامها وآثارها ومصانعها وبلدانها وبهذا ، وبهذا فقط ينشأ جيل جديد يعرف بلاده حق المعرفة ومتى عرفنا بلادنا أحببناها .. ومتى أحببناها فقد امتلأت قلوبنا بالحافز الذى يدفعنا للتضحية واحتمال الحرمان والعذاب ، من أجل حرية من نحب ، وسعادة من نحب . ينشأ الطالب فى مصر ويكبر وهو لا يكاد يعرف من أمر وطنه إلا الجدران الأربعة التى تحيط بمدرسته وبيته وبعض الشوارع التى يجتازها إلى مدرسته وملاهيه فيخيل له أن وطنه ككل الأوطان .. وأن الحياة هى أكل وشرب ومنام .. وربما أزعجته كلمة الوطن والدفاع عن الوطن لأنه يرى الأمر كله ليس إلا خيالاً فى خيال .. أو كما اعتاد كثير من الصبية الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر العظمة والفلسفة أن يقولوا عنه (مواضيع إنشائية) . فشباب مصر يرى الكلام عن الوطن موضوعا إنشائيا وليس ذلك إلا إغراقا فى الجهل لا أكثر ولا أقل .. ولكن عندما يركب الطالب ويذرع أرض وطنه من الشمال إلى الجنوب .. وتمر به الساعات وهو فى القطار والمناظر تتوالى تحت أنظاره ما بين سهل وجبل ووديان ومياه وهذه كلها ليست إلا بلاده التى ينسب إليها .. عندما يسافر الساعات الطويلة ثم يدخل مدينة أو قرية فإذا بهم يتحدثون إليه بلغته وإذا بهم يرحبون به ويتبادلون وإياه أطراف الحديث فإذا ما يشغل باله يشغل بالهم وإذا بالذى يفرحه قد أفرحهم .. وإذا بالجميع وكأنهم عائلة واحدة واخوان متحابون .. هنا .. وهنا فقط سيدرك الشاب معنى الوطن الواحد والشعب الواحد ومعنى تضامن الأفراد .. وعندما يشاهد الشاب آثار بلاده التى تحدثه عن مجد أسلافه وعظمتهم سوف يشعر بالفخار والعزة .. وعندما يدرك موارد الثروة فى وطنه ويزور مصانعها الكبيرة فى كل مديرية وفى كل بلد فسيقف على مقدار الحيوية التى تسرى فى شرايين بلاده وسيمتلىء ثقة واعتزازا بنفسه .. ووالله إن هذه هى الدراسة وهذه هى وسيلة إذكاء الوطنية والروح المعنوية لمن يريدون إذكاءها .. فإذا كانت هذه الرحلات فى مجاميع تعيش فى نظام شبه عسكرى فإن أثرها سيكون مزدوجا من حيث التأثير على الأخلاق وتكميلها .. فالحياة وسط الجماعة تعلم التعاون والإخاء والصراحة .. والعيش فى الخلاء وفى الخيام والسير على الأقدام والاستيقاظ فى وقت مبكر والنوم فى وقت مبكر كذلك .. وتحية العلم فى الصباح وفى المساء ومزاولة الألعاب الرياضية كل هذه من شأنها أن تنضج الرجولة فى نفوس الشباب وتفجر القوة الكامنة فى أعطافهم وهى أخيراً توحد بين المشتركين فيها وتجعلهم أسرة واحدة .. هذه هى الرحلات وهذا أثرها فى تكوين الجيل الجديد وبحسبك أن تعلم أن مصر الفتاة بأسرها مدينة لهذه الرحلة التى قمت بها فى عام ١٩٢٨ .. فقد علمتنى كيف أحب وطنى وكيف أمتلىء ايمانا بعظمته . علمتنى أسرار القوة الكامنة فى هذا الشعب

والسبيل إلى بعثها .. وأخيرا علمتنى أثر الأناشيد وحياة الجماعة والنظام فى نفوس الشباب .. فكان ذلك كله هو أسلحتى التى استخدمتها فيما بعد كيما أقوم بهذا العمل الذى أخذت على نفسى تحقيقه .

من تاريخ مصر

أحسست برغبة ملحة فى أن أطالع تاريخ مصر فى ضوء هذا التحول الجديد فعدت إلى كتبى الدراسية التى فيها حديث عن مصر وأخذت أربط الحوادث المختلفة .. وأستعرض الصفحات المتفرقة فى عديد من الكتب .. فإذا بى أرى ظواهر عجيبة لم تلفت نظرى قبل ذلك وهى مع هذا ذات دلالات كبيرة .. فقد كنت أعتقد كما يعتقد كل طالب وكل مصرى على العموم .. أن الحضارة فى مصر ، أو بمعنى آخر العصر الذهبى فى مصر ، كان قاصرا على عهد الفراعنة وأنه منذ ذلك التاريخ قضى على استقلال مصر نهائيا ودخلت فى دور المستعمرات .. وأن هذا العهد الذهبى لم يعد إلى الوجود بين ضفاف النيل ثانية .. وسرعان ما وقفت على خطئى وخطأ كل مصرى فى هذا التصور .. فقد عاد العصر الذهبى مرتين وثلاثة وأربعة .. بل إن مصر فى أغلب عصورها كانت هى دائما كما كانت فى عهد الفراعنة موطن العلوم والمعارف والأديان .. فإن عصر الفراعنة لم يكد ينتهى على الصورة التى نعرفها ، ولم تكد تمضى بضع سنوات على فتح الإسكندر المقدونى لمصر ، حتى أخذت مصر تعود من جديد لتحتل الصف الأول بين دول العالم . وليس ينقص من عظمة هذا التطور أن كان على رأس مصر فى ذلك الوقت دولة البطالسة والذين هم من أتباع الإسكندر أى من عنصر الفاتحين .. فالتاريخ يحدثنا أن هؤلاء البطالسة قد اندمجوا فى الجنسية المصرية اندماجا عجيبا .. ودانوا بدين المصريين وارتدوا أزياءهم وتسموا بأسمائهم .. وحكموا فى عدل وقوة لخير المصريين ومجد المصريين .. ولم يترددوا فى جعل كلمة مصر هى العليا وما عداها فى الدرجة الثانية من الأهمية حتى بلادهم الأصلية .. وإذن فقد أصبحوا ملوكا مصريين بالدم واللحم والتفكير .. يحكمون بالمصريين ولأجل المصريين .. وسرعان – كما قدمت – ما تبوأت مصر المركز الأول بين دول العالم . فإذا بأسطولها يسيطر على البحر الأبيض ، وأمبراطوريتها تعود من جديد فتمتد شرقا وغربا وجنوبا .. وإذا بجامعة عين شمس القديمة فى هليوبوليس التى أسست فى إبان مجد الفراعنة ، والتى جاء إليها أرسطو وأفلاطون وصولون وغيرهم من فلاسفة اليونان كيما يتعلمون فيها الحكمة والفنون .. إذا بجامعة عين شمس هذه تفتح أبوابها من جديد فى جامعة الاسكندرية التى طبقت شهرتها الخافقين وجاء إليها

العلماء والفلاسفة من جديد يتلقون العلم والحكمة والفنون .. ومضت عشرات الأجيال ومصر تتبوأ هذه المكانة العليا بين دول الأرض .. وعندما جاء المسيح بعد ذلك وأصبح النزاع الروحى هو ما يشغل العالم وسكان العالم رفعت مصر لواء المسيحية على الرغم من اضطهاد الرومان وتعذيبهم . ولا زالت مصر حتى اليوم تحتفل بذكرى الشهداء الذين سقطوا تحت سيوف الرومان تمسكاً بالمسيحية ولولا كلمة جاءت فى الإنجيل على لسان المسيح وهى «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ، لولا أن المسيح عليه السلام لم يشأ أن يقود الأمم والجماعات التى تدين بمبادئه إلى العصيان والثورة ضد الرومان بل على العكس دعا للتسامح واحتمال العذاب وترك المادة والتعلق بالروح ، لولا أن هذه كانت فلسفة المسيح والمسيحية ، لما صبرت مصر على حكم الرومان هذا العهد الطويل ، ولثارت عليه وقهرته واسترجعت استقلالها . ولكنها تأثرت بالديانة المسيحية التى حالت بينها وبين هذا النوع من الكفاح كما قدمت لك ، وهذا هو السر فى تبعية مصر للرومان طوال هذه العصور التى يذكرها التاريخ .. ولما كان الصراع روحيا فقد انتصرت فيه مصر على طول الخط وقاومت اضطهاد الرومان حتى انتصرت المسيحية واضطرت روما فى نهاية الأمر إلى الاعتراف بها .. وإذن فمصر حتى فى هذه اللحظات التى حكمها فيها الرومان كانت تلعب دورا خطيرا فى تاريخ البشرية ، وأن ما جعلها ترضى بالمساس بسيادتها ليس إلا شدة إمعانها فى التمسك بدينها والزهد فى مادياتها .. ولذلك لم تكد مصر تنفض عنها الدين المسيحى بدخول الإسلام إليها عن طريق العرب .. والإسلام فيه من تعاليم القوة ما فيه ، حتى قامت مصر تلعب الدور الأول فى تاريخ الإسلام وتتصرف فى أقداره وتذيع رسالته ولما يمض على وفاة سيدنا محمد ﷺ بضع سنوات وعشر .

والتاريخ يحدثنا أن الفتنة التى ثارت على سيدنا عثمان كان قوامها مصر .. وأن المتظاهرين الذين أحاطوا بمسكن عثمان رضى الله عنه واتهموا بقتله كانوا قادمين من مصر .. وبغض النظر عن قيمة هذا العمل واستنكارنا له ، فإن الذى يهمنى هو أنه يدل على الدور الخطير الذى بدأت مصر تلعبه فى تاريخ الإسلام وأنها لم تكن الكم المهمل الذى لا رأى له أو فكرة .. بل كانت الدولة القوية صاحبة الكلمة العليا فى سياسة الإسلام .. وأرجو أن تعلم إذا كنت ممن لا يعلمون أن سيدنا عليا (رضى الله عنه) قد بويع فى مصر وأن المصريين هم الذين ارتضوه إماما للمسلمين ، ولم تكد الخلافة القرشية يذهب ريحها ويتنكر المسلمون للخلفاء ، ويغيرون من نظرتهم التى اعتادوا أن ينظروا إليهم بها ، حتى رأينا مصر فى طليعة الدول التى استقلت من جديد بشئونها ودولتها . فإذا بمصر منذ أحمد بن طولون وهى دولة مستقلة لها سيادتها وشخصيتها ، وسرعان ما صارت مصر

المجيدة فى عهد الفاطميين .. بل إذا بها على رأس دول العالم طرا فى العصور الوسطى . وإذا بالإمبراطورية المصرية تعود إلى الامتداد شرقا وغربا وجنوبا ، وتبسط نفوذها على الإمبراطورية الإسلامية بأسرها ، وإذا بالعلوم والفنون والحضارة تصبغ كل شىء فى مصر ، وتؤثر على العالم بأسره ، وإذا بجامعة عين شمس التى صارت يوما ما ، جامعة الاسكندرية تظهر من جديد للمرة الثالثة فى ثوب جامعة الأزهر .. مشعل النور والهدى فى العصور الوسطى .. وبينما كانت أوربا تعيش فى دياجير الظلمات .. وبينما كان العالم الإسلامى تأكله الفتن والمحن والويلات .. كانت الجامعة الأزهرية موئل الوافدين من أطراف العالم الإسلامى لتلقى رسالة الإسلام .. ولم يكن الأزهر جامعة الدين فحسب .. بل كان الجامعة التى حفظت علوم العرب بأسرها ، فدرسوا بين جدرانه الطب والكيمياء وعلوم الهيئة والفلك ..

ورأيت بعد ذلك مصر وهى تقف فى وجه أوربا بأسرها فى الحروب الصليبية وتهزمها .. وتكسرها شر كسرة سواء فى ميادين الشام ، أو فى الميادين المصرية بالذات ، عندما فكروا فى الإغارة على مصر. وإذا كانت أوربا قد نهضت من ظلمات العصور الوسطى ، فقد كان الفضل فى ذلك راجعا إلى هذه الأيام التى احتكت فيها بمصر والحضارة العربية فاقتبست منا العلوم والفنون والمعارف .. وهكذا بدا لى تاريخ مصر سلسلة متصلة من الفتوحات والانتصارات الإنسانية بصفة خاصة ، أعنى فى عالم المدنية والحضارة .. ورأيت كيف استطاعت مصر أن تفنى جميع غزاتها وأن تنتصر عليهم فى نهاية الأمر ، بعد أن تحولهم إلى مصريين فى الدم واللحم والتفكير .. وكيف دالت دول العالم وتألفت امبراطوريات وسقطت امبراطوريات وبقيت مصر .. هى .. هى دائما قلب العالم النابض ومصدر علومه وثقافته فى أكثر الأحيان .. ولا عبرة بتغلب بعض المغيرين من حين لآخر عليها .. إذ لا يرجع ذلك إلا لأن مصر قد استيقظت فى فجر التاريخ قبل تكوين هذه الدول بأسرها ، ولم يكن معقولاً ولا طبيعيا فى شىء أن تبقى طوال أربعة آلاف سنة سيدة العالم وزعيمته .. فالشعوب كالانسان عرضة لتقلبات الصحة والمرض .. وكما يصاب الجسم بضعف من حين لآخر بتعطيل فى بعض أجهزته فكذلك الأمم .. وهكذا كانت مصر عرضة بين حين وآخر لهذه النوبات التى يضعف فيها جسدها ، فتكون محلاً عندئذ لسطوة مغير .. ولكنها كانت تبادر سريعا باسترداد عافيتها ، وتقوم بدورها الذى عرضتهُ عليك .. ومن عجب أن هذه الأمم التى أغارت على مصر ، لم تكن مصر هى أولى ضحاياها ، بل كانت تجىء دائما فى النهاية .. فعندما فتح الإسكندر مصر لم تكن مصر أول ما فتح ، ولكنه جاء إليها بعد أن فرغ من أوروبا .. وإذا كان الرومان قد

دخلوا مصر فقد دخلوا إليها بعد أن حكموا البحر الأبيض بأسره واحتلوا إنجلترا ذاتها .. وإذا كان العرب قد دخلوا مصر غزاة بعد ذلك ، فقد فتحوا الدنيا بأسرها .. وهكذا .. أى أن مصر لم تكن كما يحاول المستعمرون أن يصوروها لنا ذليلة حقيرة .. بل على العكس تغلبت مصر على بعض هذه الدول الجديدة التى مدت ظلها على العالم .. ولقد جاء دور مصر أكثر من أربع أو خمس مرات فمدت ظلها على إمبراطورية واسعة الأرجاء .. مع أن هذا الأمر لم يتكرر فى حياة غيرها من الأمم .

على أن الذى أثر فى نفسى أكثر من غيره من تاريخ مصر ، هو تاريخها أيام محمد على ، الذى كان مقررا علينا دراسته فى هذا العام الدراسى .. فقد عدت من رحلتى وكان على أن أستذكر تاريخ مصر فى هذه الأيام .. ولقد دفعنى شغفى إلى حد أن لا أقنع بهذا المختصر الذى كان يقدم لنا عن تاريخ مصر فى عهد محمد على .. فرجعت إلى كثير من المطولات .. ورأيت فى ذلك كله العجب العجاب .. رأيت كيف وثبت مصر وثبة سريعة فى مستهل القرن التاسع عشر ، ولم يزد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين . ومع ذلك فقد أصبحت أمبراطورية ضخمة ذات جيش يهزم الأتراك (أسياد الحروب فى أوروبا) وذات أسطول يحول البحر الأحمر إلى بحيرة مصرية ، يسود شرق البحر الأبيض المتوسط .. فاستطاعت مصر أن تخيف أوربا مجتمعة فتتحالف عليها ، كما تحطم الأسطول المصرى بخدعة دنيئة ، فى موقعة (نفارين) وكيف استطاعت مصر بعد ذلك أن تجدد بناء هذا الأسطول بأيد مصرية ، وفى موانىء مصرية .. ولقد كانت أياما عجيبة بهرت فيها مصر العالم .. فقد بدأت مصر نهضتها فى وقت لم تكن اليابان قد نزلت إلى ميدان الجهاد بعد .. ولم تكن الولايات المتحدة قد وحدت صفوفها بعد .. ولم تكن ألمانيا الحديثة وإيطاليا الحديثة ، قد خرجتا إلى الوجود كأمم مستقلة موحدة .. فى تلك الأيام لعبت مصر هذا الدور الخطير ولولا انجلترا .. لولا انجلترا عدو مصر اللدود لكنا اليوم نعيش فى أضخم امبراطورية .. ولكن انجلترا نجحت فى تأليف كتلة من الدول الأوربية ضد مصر ، فإذا بنا فى معاهدة سنة ١٨٤٠ ، نجرد من ثمار انتصارنا الذى حصلنا عليه بدمائنا وأموالنا وإيماننا .. وإذا بمصر المنتصرة فى نصيبين .. مصر ذات الجيوش والأساطيل والمصانع والمعاهد .. تقف غداة انتصارها كما تجرد من كل شىء حتى الشرف .. شرف الاستقلال التام ، وليس ذلك إلا بعمل انجلترا التى أرادت أن تثأر لنفسها من مصر التى طردت جيوشها فى سنة ١٨٠٧ وقذفت بها إلى البحر . كما أرادت أن تمهد لابتلاع مصر فى المستقبل ولم يكن ممكنا أن تتغلب مصر على أوروبا مجتمعة .

لقد كانت هذه الحوادث بعيدة الغور فى نفسى .. ولقد ملأتنى بالمرارة والغضب

وجعلتنى أشعر بمقدار الظلم الذى نعانيه .. فنحن أسياد العالم قديما .. نحن الذين علمنا الإنسانية العلوم والنور .. نحن الذين حملنا مشعل الحضارة . نقف فى مؤخرة الأمم بفعل انجلترا التى حطمت امبراطوريتنا التى شيدناها وسلبت استقلالنا الذى ظفرنا به بجهادنا ثم نلقن بعد ذلك فى المدارس والمعاهد وفى كل مكان أننا أمة صغيرة ضعيفة ذليلة فقيرة .. لا .. لا .. إننى أثور على ذلك وأتمرد عليه . ويجب أن تزول هذه الغشاوة عن أعين المصريين .. يجب أن يعرفوا أنفسهم على حقيقتها .. يجب أن نقضى على الجهل بتاريخنا . ويجب أن تعاد كتابة تاريخ مصر وأن تطهر الأذهان من هذه المفتريات المجرمة التى حشرها الاستعمار فى رؤوسنا حشرا .

ولذلك فقد جعلت أول خطوة فى برنامجى أن أذيع الحقائق عن تاريخ مصر . وأن أظهر صفحات مصر المجيدة . وعلى هذا فلم أكد أنتهى من إلمامى بتاريخ مصر فى أطواره المتعددة . حتى أعددت محاضرة فى هذا الموضوع . وطلبت من لبيب بك الكردانى ناظر المدرسة أن يسمح لى بإلقائها فى مسرح المدرسة فسمح بذلك . فدعوت لحضورها المدرسين والطلاب .. ولأول مرة وقفت أحاضر فى تاريخ مصر كما أفهمه . فامتلأ المستمعون بالحماسة والنشوة ، ونجحت المحاضرة نجاحا عظيما . وسرعان ما بدأت أعرف مقدار ما تفعله هذه الحقائق عن تاريخ مصر من الأثر فى نفوس الشباب !. فزاد إيمانى بهذا العلاج !. ودأبت على استعماله بعد ذلك فى كل خطبى وفى كل أحاديثى .. وسوف يرى القارىء فى مجموعة الخطب والمقالات التى ستأتى فى هذا الكتاب ، والتى ألقيتها فى إبان اثنتى عشرة سنة ، إنه لم تخل خطبة واحدة من الإشارة إلى هذا التاريخ المجيد .. ذلك لأننى مؤمن أن نصف قضيتنا يحل متى عرف كل مصرى قدر نفسه ، وآمن بقدرته على العمل ..

* * *

التمهيد لمصر الفتاة

٢

لم أكد أفرغ من تحليل عناصر القوة فى تاريخ مصر ، حتى اتجهت إلى تحليل عناصر الضعف فى مصرنا الحاضرة .. ولقد راعنى أول ما راعنى ، ما سبقت إشارتى إليه ، وأعنى به الجهل فقد كان الجهل يجابهنى دائما أبدا كلما حاولت أن أتبين السر فى مسألة من المسائل .. فهناك تدهور دينى مصدره الجهل بتعاليم الإسلام الصحيحة .. وهناك تدهور وطنى مصدره الجهل بتاريخ الوطن وقيمته.. وهناك جهل بحقوق الناس بعضهم لبعض ، فالجهل فى جميع مظاهره هو أول ما يروع الإنسان الذى يحاول أن يدرس مصر الحاضرة ! . ولست أعنى بالجهل قلة انتشار التعليم والمدارس .. فليس هناك ما هو جدير بالزراية والاحتقار من هذه المدارس الثانوية والابتدائية التى تفتحها الحكومة ! .. وإن أردت أن تعرف من هم أجهل الطبقات فى مصر فصدقنى أنهم الذين ينعتون أنفسهم بالمتعلمين .. ممن دخلوا المدرسة فى مصر وهم أجهل الجهال ، وخرجوا منها بالقشور .. بعد أن فقدوا فيها غريزتهم السليمة فى فهم الحقائق ، واستعاضوا عنها بذاكرة مشوهة محشوة ببعض معلومات متناثرة لا يربطها منطق ولا توحى بها منفعة .. خذ مثلا هذا العامى البسيط أو الفلاح الساذج واسأله عن مصر ومكانتها فإنه سرعان ما يجيبك بأن (مصر هى أم الدنيا) ولقد رأيت كيف أن هذا الجواب صحيح وأنه ثمرة الإحساس بعظمة مصر وجغرافيتها .. ثم سل المتعلم بعد ذلك عن مصر فسيقول لك إنها بلاد لا تصلح لشىء فرض الله عليها العبودية والذل إلى الأبد ، وأننا شعب (زلط)وأننا لا نفلح فى شىء ! . وهكذا ..

تعال إلى العامى أو الفلاح وناقشه فى إحساسه بشخصيته بالقياس إلى الأجنبى فستستشعر منه اعتزازا بنفسه بالرغم من كل شىء ، وتدرك منه حاسة النفور من كل ما هو أجنبى ، ومن كل ما هو انجليزى بصفة خاصة ، وهذه غريزة متأصلة فى نفسه .. أما هذا الذى تلقى التعليم فى المدارس ، فسوف ترى منه احتراما لكل ما هو أجنبى ، وسوف ترى منه احتقارا لنفسه وجنسه واكبارا للأجنبى وأرومته . فالأمة المصرية فى مجموعها سليمة من هذه الناحية . إذا حدثتك عن الجهل ، فلست أعنى به قلة المدارس والتعليم الإلزامى فإن إيمانى بهذا التعليم قليل . وإنما أعنى بالجهل : الجهل الذى تشترك فيه

الجماعة .. فلقد ساد العرب الدنيا بإيمان وأخلاق ! . وكذلك الرومان وكذلك الإنجليز وعندما انتشر التعليم فى جميع هذه البلاد مصطحبا معه الترف والإسراف اضمحلت هذه البلاد وانحدرت نحو الهاوية .. فالعلم الذى أعنيه هو العلم الجماعى لا العلم الفردى .. بمعنى أن يكون الشعب فى مجموعه يعرف لنفسه حقوقا مقررة لا يمكن المساس بها .. وبمعنى أن يكون للشعب مثل أعلى يسعى للحصول عليه .. وبمعنى أن يكون الشعب بأسره على بينة من بعض الحقائق فى تاريخ بلاده .. وفى طبيعة بلاده .. وبمعنى أن يكون الشعب على بينة من روح دينه وقواعده .. فالدين الإسلامى الذى بنى على العزة والقوة والجهاد ، يعرف فى مصر على أنه استسلام وركود وجهل وهكذا ! . فأعدى أعدائنا فى مصر الجهل .. الجهل بديننا .. الجهل بوطننا الجهل بأنفسنا .. الجهل بحقوقنا .. وإذن فلا مناص من تعليم الشعب هذه التعاليم ولست أشك لحظة فى مقدار الخطوة التى نخطوها إلى الأمام بإحلال العلم محل الجهل السابق الذكر .. ويروعنا بعد ذلك أكثر ما يروعنا ، فقر الأغلبية الساحقة من المصريين ! . فأكثر من ثلاثة عشر مليونا يعيشون عيشة الضنك وهم جمهرة الفلاحين ، مع أنهم يفلحون الأرض وينتجون الذهب .. ومع أن النيل كان دائما سخيا وفيا لأبنائه وأحفاده . ولقد أنعمت النظر طويلا فى ذلك فعرفت السر فى كل هذا الفقر ، فهو ناجم عن سوء توزيع الثروة ، فبينما يحتكر الأجانب جميع رءوس الأموال ، وكل تجارة مصر الخارجية . ويداينون مصر هذا الدين المشئوم ، الذى هو أقرب إلى الديون غير المشروعة ، التى يجب على الدولة أن تلغيها بمجرد استيقاظها ! والأراضى المصرية مرهونة للأجانب ! .. وفى ظل الامتيازات يضمن الأجانب لأنفسهم التفوق المالى والاجتماعى .. وهذا ما جعل المصريين فى هذا الفقر المدقع إذا ما قيسوا إلى الأجانب .. وبجانب ذلك تضع الحكومة يدها على جانب كبير جدا من الأراضى الزراعية قد يزيد على مليون فدان وهى تستغله أسوأ استغلال ، بينما لو وزعت هذه الأراضى على صغار المزارعين لعادت على الدولة بفوائد جزيلة ، ولأغنت الكثيرين وأنقذتهم من هذا الفقر المميت .

وهناك طائفة من الموظفين ، تستولى على ما يقارب نصف الميزانية . عشرات الألوف من صغار الموظفين يتضورون جوعا بينما مئات من كبارهم يأكلون الذهب .. فالثروة فى مصر موزعة توزيعا سيئا .. والأجانب يستولون على كل غنائمها ، والفلاحون فقراء .. فحياتنا الاقتصادية إذن مهشمة كل التهشيم ! . ولا مناص من بذل جهد كبير لإصلاحها .. بل ولا مناص من البدء بإصلاحها .

وفوق ذلك كله إفلاس روحى وخلق ، فأحكام الدين قد نبذت ظهريا فى جميع

أنحاء مصر ! . خاصة فى المدن والعواصم ! . وفى صفوف المتعلمين والحكام .. فانتشرت دور الخمر واللهو الحرام وجميع صنوف الموبقات ! وضعف الوازع الدينى ، وكثر التظاهر بالإلحاد ، والكتابة فى الهجوم على الدين ، حتى لقد أصبح ذلك طريقة للشهرة والتظاهر بالعلم .. وأصبح التقاطع والتنابذ والحقد والحسد من مظاهر الحياة المصرية .. وقد جر التدهور الدينى تدهورا خلقيا بطبيعة الحال ، فاذا بالفوضى الخلقية تعم كل مكان .. فالمحسوبية وملء الوظائف بالأشياع السياسيين والمناصرين ، وإغداق المرتبات الضخمة عليهم ، وإهمال الأكفاء وانتشار الرشوة والاتجار بالأعراض والتملق للرؤساء والعبث بالقوانين والاندفاع مع الشهوات ، أصبح طابع الأداة الحكومية وموظفى الحكومة وحكامها ! . ثم انتقل منها حتى عم جميع الطبقات خاصة ذات الأثر فى حياة مصر السياسية .

وهناك فى نهاية الأمر الاحتلال الإنجليزى ! . وإصبع الإنجليزى فى السياسة المصرية هى التى أضعفت كل مقاومة ، وحطمت وحدة الأمة ، وخلقت العديد من الأحزاب ، ولوحت بالمناصب والرتب ، لكل ما يكون فى خدمتها .

وهكذا حيثما قلبت الطرف فى أى مكان لا ترى إلا آثار التدمير الخلقى والسياسى والاقتصادى والثقافى ، وهذا هو ما جعل القلوب تمتلىء يأسا وشكا فى إمكان النجاح والوقوف على الأقدام بين دول العالم .. ولقد نسى كل مصرى حوادث الأمس القريب ، وأعنى بها حوادث ثورة ١٩١٩ وحسبوها فلتة من فلتات الطبيعة لا أمل فى العودة لمثلها .. والواقع أن حاضر مصر يبدو غريبا بالنسبة لماضيها .. بل ويبدو منقطع الصلة لأول وهلة ، ولكن إيمانى بدأ يتغلب على كل هذه المظاهر ، وبدأت تظهر أمام عينى أنها ليست بعيدة الغور ، وأن الحيوية المصرية لا تزال سليمة فى انتظار من يحركها ويبعثها ، وأن شيئا من الصبر والثبات والإرادة كفيل بتحقيق كل ما نصبو اليه ! .

ولقد كان مقررا علينا فى ذلك العام لامتحان البكالوريا أن نعيد دراسة تاريخ القرن التاسع عشر ، مضافا إلى تاريخ محمد على .. وتاريخ القرن التاسع عشر ملىء بأخبار النهضات الحديثة وأحاديث الثورات والكفاح ، ففى إيطاليا ، مثل ما فى ألمانيا ، مثل ما فى بولندا ، مثل ما فى أيرلندا ، استمر الكفاح عنيفا حتى كُلِّل بالنجاح ! .. ولم تكن دولة من هذه الدول التى ظفرت باستقلالها ووحدتها بأسعد حالا من مصر ! فقد كانت فريسة قوات ضخمة وظروف سيئة ! .. ومع ذلك فإن الكفاح المتواصل والإيمان العميق قد أدى دائما إلى النجاح ! . ولقد أثر فى نفسى بصفة خاصة كفاح إيطاليا ..

ويظهر أن هذا الشعب يقترب إلى حد ما من الشعب المصرى ، قد أعجبتنى هذه العبارات التى تفيض إيمانا وحماسة ، والتى ملأ بها مازينى صدور الشباب الإيطالى ، وهزت نفسى هزا ، حملات جهاده من أجل إيطاليا الفتاة ، الذى كان من مميزاته تحقيق الوحدة الإيطالية .

وليست مصر بأقل من هذه الدول .. وليس الشعب المصرى بأقل من هذه الشعوب . واذن فإلى العمل .. وإلى العمل فى صبر وثبات وإيمان .

هكذا بدأ العزم يملأ نفسى ، وبدأت خطوط الكفاح الأساسية ترتسم أمام عينى ، وبقيت الخطوة الأخيرة ، خطوة التقدم للعمل ولكن هذه الخطوط لم تتخذ إلا بعد أربع سنوات بعد أن ختمت دراستى العالية وخرجت من مدرسة الحقوق ، أى فى عام ١٩٣٣ وإن كانت جهودى ، منذ سنة ١٩٢٨ حتى هذا التاريخ الأخير ، سلسلة إعداد وترتيب وتمهيد ، كيما أخطو هذه الخطوة الأخيرة .. فقبل أن أغادر الخديوية ، وفى أشهرى الأخيرة بها شرعت أكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان « رسالتى » وضعت فيها بذرة مصر الفتاة الأولى ولو أنك رجعت إلى هذه المقالات الآن لعلمت اننى فيما كتبته بعد ذلك طوال ثمانية عشر سنة لم أخرج عن ما كتبته فى هذه المقالات(١)

---

(١) رسالتى : من مقالة نشرت فى مجلة المدرسة الخديوية .. العدد الأول .. العام الثامن فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

نظرية واحدة تسود العالم من أقصاه الى أقصاه ، عبر عنها الفيلسوف الألمانى « نيتشه » بصراحة اذ قال « الأرض إرث القوى والمستقبل للشعب الظافر وللصالح وحده حق الحياة » فى هذا الصراع المخيف حول الموت والحياة .. فى هذا السباق الذى تشترك فيه كافة المخلوقات تتقدم مصر العتيدة كأمة قوية خالدة ماخلدت الأيام . فمن بين أمم الأرض طرا لا توجد واحدة تضارع الأمة المصرية . هاجمتها عاديات الدهور فما استطاعت أن تنال منها ، وحاربتها الأقدار فارتدت عنها مخذولة واحتملت مصر التجربة بثبات وخرجت من الأعاصير ملؤها الحياة والفتوة تعلن الناس أنها معيدة مجدها القديم . ماواجبنا نحن الطلبة ؟ .. تلك هى رسالتى وذلك هو ندائى ، ألا إننا شباب حر ، مهمتنا العمل للمستقبل القريب . تعالوا نبنى بناء جديداً .. تعالوا نشيد عظمتنا المستقبلة على أساس من الفولاذ مما تبنى عليه الأمم . الصناعة والتجارة مدنية القرن العشرين وروح الأمم الحديثة . أن اليوم الذى لا نلبس ولا نشرب ولا نأكل فيه من الخارج يجب أن يكون جد قريب وفى هذا يجب أن نعمل إن أردنا حقا مجد الوطن . الأخلاق هى التى تجعل الإنجليزى محترماً فى كل مكان . وهى التى تجعل الألمانى بمثلين من الرجال . فى المقال التالى ترون صورة لأخلاقنا . ترون الغرور والجهل والسفسطة . فى اصلاح هذه الأخلاق يجب أن نعمل ان أردنا حقا مجد الوطن . فلنحارب الخزعبلات والعقائد الفاسدة . فلنبشر بعظمة مصر ومجد مصر وتاريخ مصر ، فلنترك « لنعضد » (بنك مصر) فى مشروعاته وشركاته ففى هذا رفاهية لأهل الوطن .. فلنناصر التجديد الاجتماعى والخلقى والأدبى والاقتصادى .. ولنبذر بذور الإصلاح فى كل مكان حللنا به .

قالوا قديما ومازالوا يقولون نحسب الأمة التى تريد الرفعة والسؤدد أن يقوم أفرادها بواجباتهم ، كل فى دائرة عمله .. التاجر فى متجره والصانع فى مصنعه والموظف فى مكتبه والطالب فى معهده .. تلك هى رسالتى وذلك هو ندائى .

على أن تطورا سريعا قد حدث عقب هذه الأيام . فى نشوة الحماسة التى ملأتنى فجأة وقتذاك ، فلم أكد أحصل على البكالوريا ، حتى كانت وزارة محمد باشا محمود فى الحكم ، وكان محمد باشا محمود قد عاد إلى مصر بمعاهدة تفضل جميع المعاهدات السابقة عليها ، وكنت أصبو إلى أن تتمتع مصر بشىء من الاستقرار الحزبى والحرية السياسية حتى نتمكن فى ظلها من الاندفاع فى تنظيم شئوننا الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، تمهيدا للقيام بالثورة الكبرى ! . التى أعنى بها تحقيق مجد مصر وبعث امبراطوريتها العتيدة . ولذلك فلم أتردد عندما عرض على بعض المتصلين بمحمد باشا محمود ، أن أعمل لمناصرة المعاهدة ، والدعوة لقبولها ، على أن يشرع محمد باشا محمود ، إذا ما قدر للمعاهدة النجاح فى تنفيذ برنامج مصر الفتاة .. ولقد كانت طلائع الحال لا تجعل هذا الأمر مستحيلا ، فلقد كان لوزارة محمد باشا برنامج إصلاحى بالذات . وإذن فمن الممكن إكماله بحيث يشمل نواحى الاصلاح الاجتماعى والخلقى والاقتصادى فى ظل المعاهدة .

وقد ألفنا لهذا الغرض جمعية صغيرة أطلقنا عليها اسم «جماعة الشباب الحر» . ولقد كان من حظى أن خطبت فى حضرة محمد باشا محمود ، بمجرد عودته فى نادى شباب الأحرار الدستوريين ، ولم أتردد فى أن يكون خطابى محتويا على عناصر إيمانى ووجهة نظرى ، وانى أثبت هنا للذكرى والتاريخ بعض فقرات من الخطاب المذكور كما نشر فى جريدة السياسة فى عددها الصادر فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٩ وهى :

«يا صاحب الدولة

بينما كان العالم يعيش فى دياجير الظلام وكان الإنسان يساكن أخاه الحيوان ، كانت على ضفاف النيل مدنية هى أم المدنيات ، وحضارة معجزة ، فمنذ ستة آلاف سنة كان المصريون يبنون الأهرام ، ويحنطون الأجسام ، ويبرعون فى سائر العلوم .

هذه هى مصرنا يا دولة الرئيس . وهى الجامعة التى تلقن فيها الأغريق والرومان علومهم ، فإلى عين شمس جاء أفلاطون ، وصولون ، وليكرغ ، وغيرهم ليتلقوا الحكمة عن المصريين .

وهى مصرنا يا دولة الرئيس التى أنقذت العالم بأن وقفت أمام سيل التتار الذى اكتسح طريقه من أقاصى الهند إلى مصر .

وهى مصر يادولة الرئيس التى خرجت فى أيام محمد على من الظلام إلى النور

ومن العدم إلى الحياة . فوقفت أوروبا فى طريقها وطريق آمالها . مصر هذه تريد أن تنهض وأن تسترد مركزها القديم بين دول الأرض . ولن تصل إلى ذلك بهتاف الرعاع فى الشوارع ، ولا بالخطب تلقى من فوق المنابر ، ولكن بالعمل والعمل وحده ، فهى فى حاجة إلى الزعيم العامل ، وهذا الزعيم العامل لن يكون من دم تركى أو شركسى بل من دم فرعونى تنساب فيه كريات رمسيس ومينا ... »الخ .

هذه هى بعض الفقرات التى ألقيتها أمام محمد محمود باشا ، وأنت واجد فيها نفس العبارات والأفكار التى لم أخرج عليها حتى الآن . فهى فكرة واحدة تلك التى تملأ حياتى وتملك على مشاعرى ، وأعنى بها بعث مجد مصر وتحقيق عظمة مصرنا بأسرها .. وليست حياتى إلا سلسلة متصلة الحلقات من العمل فى هذا السبيل .

على أن وزارة محمد محمود باشا لم تلبث أن سقطت ! . وسقطت معه معاهدته ، ولكننى ظللت ماضيا فى طريقى .. فلم أكد أدخل إلى الجامعة ويلحق بى أخى فتحى رضوان ، حتى فكرنا فيما يجمع الشباب ويوحد أفكارهم ، ويدفع بجهادهم إلى ميدان جديد هو ميدان مصر الفتاة ، فدعونا إلى الاحتفال بـ ١٣ نوفمبر على أسلوب جديد ، وهو أن نجتمع فى سفح الأهرام ونقيم به معسكرا نبيت فيه ليلة العيد المذكور ، وفى الصباح نحيى العلم ونتزل إلى المدينة .. ولقد نفذنا المشروع فحصلنا على الخيام وأقمنا المعسكر ، ولكن لم يوافنا فى المعسكر إلا نفر لم يتجاوز عدد الأصابع ، وهكذا لم تكن البيئة مستعدة وقتئذ لقبول هذه الروح الجديدة .. ولقد انقضى على هذا التاريخ سبع سنوات قبل أن أرى تحقيق هذا المشروع ، عندما اجتمع مندوبو شعب مصر الفتاة فى عامها الثالث فى سفح الأهرام ، واحتفلنا بالعيد كما سترى ذلك فى متن الكتاب .

لم ينقض العام المذكور قبل أن نقوم بمحاولة جديدة لنشر مبادئنا ، فاتفقنا مع أحد معارفنا للحصول على رخصة جريدة ، واخترت لها اسم البعث فإذا هو اسم لجريدة أخرى فاختار أخى فتحى اسم الصرخة ، فكانت الصرخة التى ستبقى إلى الأبد علما على مصر الفتاة ، وسجلا لوقائعها ، وإذا كان الناس لم يسمعوا عن الصرخة مقترنة بمصر الفتاة إلا فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ . فإن الصرخة فى الواقع قد صدرت أعدادها الأولى فى مارس سنة ١٩٣٠ ، وكانت تحمل فى صدرها وفى ثنايا سطورها هذه المبادىء والأنظمة التى أخذت شكلها النهائى وأعلنت رسميا بعد ذلك بأربع سنوات تقريبا ..

فقد نشرت الصرخة فى عددها الصادر فى ٧ مارس سنة ١٩٣٠ مقالة عن مصر الفتاة تحت عنوان «طريقنا إلى العظمة» . وقد جاء فى هذه المقالة بعد مقدمة تخيلت فيها أن جموع شباب مصر الفتاة قد اجتمعت حول الأهرام لتدرس الوسائل التى يجب عليها انتهاجها لبعث الحياة فى مصر ولإعادة مجدها القديم ما يأتى :

انظر .. انظر وحدق النظر ، فهذا هو العلم المصرى يرتفع فوق الأهرام وسط هذه الموسيق والأناشيد ، وهاهى الجموع ترفع يدها بالتحية ، حتى إذا وصلت القمة دوى النفير وانطلقت الصرخة الكبرى التى تناثرت لها الرمال وتفتت الصخور .

المجد لمصر

تلك صرختهم وهذا ما اجتمعوا لأجله . إنهم شباب مصر الناهضة جاءوا من أقصى الصعيد حتى الإسكندرية ، جاءوا من الأكواخ والقصور ليجتمعوا فى حقل المجد ، تحت سفح الأهرام الخالدة ، جاءوا كلهم إرادة وعزيمة ، ليقوموا بالمعجزات فى سبيل الوطن فلنسمع ماذا يقول لهم الشاب الذى تقدم بجانب السارى ! .

«يا شباب النيل وياسلالة الفراعنة . يا أحفاد المجد وياأرباب العبقرية . هذه الاهرام تظلنا وهذا أبو الهول يرمقنا . وهذه الراية ترفرف فوقنا . وها هى الشمس تلهب نفوسنا كلها . تسألكم لماذا تخليتم عن الزعامة بين الأمم ؟ هل كللتم أو أصابكم الملل ؟ .. أم استسغتم طعم الذلة والهوان ؟ . فدوى صوت الجموع هادرا صارخا : كلا والنيل والأهرام . سنعيد المجد وندرك أسباب السماء .

فصاح الشاب ثانية . وماذا أنت فاعلون .
فاندفع الجميع ينشدون .
سنكرس حياتنا لأجل مصر .
سنبذل أرواحنا فداء لمصر
سنعلم الطفل والفتى والكهل ان يحب مصر
فى كل صباح وظهر ومساء سنتغنى بمجد مصر

خفتت أصوات الجموع . فعم الكون السكون . وعاد الشاب يتكلم (إذن هلموا إلى المدينة نسير فيها بموسيقانا وأناشيدنا . هلموا نكهرب جو القاهرة بأنفاسنا وعزماتنا وليعد كل منا بعد ذلك إلى عمله وجهاده فى سبيل مصر) فاصطف الشباب جماعات وكتائب وانحدروا من الأهرام وساروا فى الطريق تتقدمهم الموسيق وترتفع عقائرهم بالغناء يحمل كل منهم مشعلا موقدا رمز النور الذى سينبعث من مصر ! .

وعندما وصل الجيش الى القاهرة ودوت أناشيده فى سمائها رجعتها النوافذ والأبواب ووقفت المركبات والسيارات وكلها تصيح :

أسمعت ذلك كله ورأيته أيها الرفيق .. تلك هى مصر الفتاة وهذه هى المليشيا الفرعونية .

بهذه الطريقة استقلت الممالك وارتقت . ومن قبل كانت إيطاليا الفتاة وبولندا الفتاة والمانيا الفتاة وإيرلندا الفتاة وتركيا الفتاة .. وكل أمة أرادت استقلالاً أو نهوضا أو مجدا اتبعت هذا الطريق . طريق الشباب الملتهب بحماسة الايمان ! .

فما أحرانا بتكوين مصر الفتاة لنعيد لمصر بهجتها ومجدها ! .

* * *

هذا هو الصوت الأول من أصوات مصر الفتاة فى صورتها الأخيرة ولكنا لم نستطع أن نستمر فى مواصلة إصدار الصرخة لسبب صغير جدا ، وهو أننا لم نجد موزعا يوزع الجريدة ، ومن ناحية أخرى فقد رأى صاحبها أن يستقل بإصدارها بعيدا عن مبادئنا وبرنامجنا ، واقترب ميعاد انتهاء السنة الدراسية وشغلتنا الامتحانات . وفى الصيف نفذت مشروعا كان يخالجنى منذ ثلاث سنوات ، وهو زيارة باريس ومشاهدة أعلامها ودراسة الحضارة والنهوض الأوربى ، فجمعت من الأموال مااقتصدته طوال هذه السنوات وماأعاننى به أخى فتحى رضوان ، وسافرت إلى باريس على ظهر إحدى المراكب ، ولقد كان عالما جديدًا ذلك الذى فتح أمام بصيرتى فقد رأيت مظاهر النهوض والقوة .. رأيت حيوية الشعوب كيف تتجلى وكيف تستثمر .. رأيت ماذا يمكن أن تفعله يد الإصلاح والنظام فى تجميل الحياة وجعلها أكثر منطقا .. على أن الذى هزنى أكثر ماهزنى هو قوة الشعب ، وإحساس كل فرد بشخصيته وحريته وقوة رأيه وعقيدته ! . راعنى كيف تقف الحكومة نفسها فى خدمة المجموع فعلاً .. وكيف تعتمد وتستمد قوتها من العمل لخير المجموع وسعادة الفرد .. على أن إيمانى بمصر قد زاد اكتمالاً ، فقد أحسست بقوة أننا لايمكن أن نقل عن هؤلاء الأقوام ، وأن شعبنا لاتنقصه المواقف والكفاءة التى تؤهله لمنافسة هذه الشعوب والارتقاء عليها ! .. بل كل مشكلته أنه بقى محروما من الحاكم الصالح والزعيم الصالح ، فلم يتطور التطور الطبيعى ووقف حيث سار الناس .. لم يستطع الفرنسيون مطلقا أن يقنعونى أن لهم جوهراً يخالف جوهر المصريين وأننا أعجز من أن نحقق مااستطاع الفرنسيون أن يحققوه .. بل بالعكس زدت إيمانا بقوة شعبنا ، إذا ماشرع فى التطور تحت قيادة زعيم مصلح .

وثمة أثر آخر تركته فى نفسى زيارة باريس فى ذلك العهد ، وهو تزعزع ثقتى بالمدنية الغربية فى مظهرها المادى ، وشعورى بأن هذه القواعد المادية الإلحادية التى

لا تعترف بحق أو فضيلة أو دين أو عرف أو تقاليد لن تنتهي إلا بنتيجة واحدة . وهى تدمير أوروبا شر تدمير ! . ولقد كان هذا فيما بعد مبدأ أساسيا من مبادئ مصر الفتاة ، التى قامت على التمسك بكل ماهو مصرى وشرقى ، واحتقار كل ماهو أجنبى ، والتعصب للمصرية والإسلامية ، حتى آخر حدود التعصب فقد امتلأت إيمانا بأن هذا الأسلوب السليم لإنهاض مصر وإنقاذها من التردى فى الهوة التى تتردى فيها أوروبا ! . أجل إن فى أوروبا وفى شعوب أوروبا بعض الفضائل وبعض المظاهر الطيبة ، ولكن من العجب أن كل هذه الفضائل وهذه المظاهر الطيبة ليست ثمرة من ثمارة المدنية الغربية ، ولكنها ثمرة من ثمار الإنسانية الناضجة على العموم ، ولقد كان الشرق بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة هو مصدر هذه الفضائل والقوى .. لقد أعجبنى فى باريس من أخلاق القوم الصدق والصراحة فى المعاملة والأمانة والنظافة والنظام والتعاون والتضامن ! . ولعمرى أليست هذه كلها فضائل الإسلام ومبادئه ؟ أليس هو الذى يدعونا إلى كل هذه الخصال الحميدة ، وكل هذه الأسس العمرانية .. فإذا كنا قد جهلنا هذه القواعد واستفاد منها الغرب ، فعندما نهيب بأنفسنا من جديد لاعتناقها والتمسك بها ، فلسنا فى هذا نقلد أو نسير خلف الغرب ، ولكنا فى الحق نستوحى ديننا وماضينا وتاريخنا .. وإن كانت أوروبا تتميز بشىء فهى تتميز بهذا الذى حدثتك عنه من الإلحاد والرغبة فى التحرر من الأخلاق والقوانين ، وإشباع الشهوات المادية ، بل والتطور بها تطوراً مخيفاً .. وأخيرا تتميز بروح الاستبداد بالشعوب الضعيفة ونزعة الخصومة والعداء والتحاسد فيما بينهم وسريان الشيوعية المخربة المدمرة لكل ماهو جميل وروحى وكذلك الاشتراكية المتطرفة .. هذا القسم الذى تتميز به أوروبا هو ناحية الضعف فيها وهو بدء النهاية لحضارتها ومدنيتها .

* * *

وهكذا عدت من فرنسا بعد شهر ونصف شهر وفى نفسى ألف رغبة ورغبة للعمل والعمل فى ميادين مختلفة .. وأفكارى تتبلور وتتكون نهائيا ، وإيمانى بمصر وضرورة العمل لبعثها بعثا جديدا داخل إطار الصبغة المصرية الإسلامية بعيدا عن زيف المدنية الغربية قد أخذ صورته النهائية التى لم يطرأ عليها تغير بعد ذلك فى أى تفصيل من تفاصيلها .

ولذلك فلم نكد نستقبل العام الدراسى الجديد ، وقد انتقلت إلى كلية الحقوق حتى ألقيت محاضرة عن باريس فى الجمعية الجغرافية ضمنتها آرائى السابقة الذكر ، وعرضت فيها بالفانوس السحرى عشرات من الصور التى أحضرتها معى من باريس وتلا هذه المحاضرة عدة مناظرات جرت بينى وبين بعض النظراء فى الجامعة وفى جمعية الشبان المسلمين وقد جعلت أختار فى هذه المناظرات دائما الطرف الذى يكون مبدأ من مبادئ مصر الفتاة . ففى مناظرة بين المدنية الشرقية والغربية وأيهما أولى بالتفضيل اخترت، الشرقية وشرحت وجهة نظرى ، وأن مايعجبنا فى الغربية هو فى الأصل شرقى ، ويبقى بعد ذلك امتيازنا بعقائدنا الروحية وتقديسنا للأخلاق والفضيلة وفى مناظرة بين الفرعونية والعربية ، أى هل نتمسك بفرعونيتنا داخل حدود مصر ، ونهمل الأقطار العربية والمسحة العربية فى حياتنا وحضارتنا . أم العكس؟ اخترت جانب العروبة وشرحت وجهة نظرى فى الرابطة التى تربط مصر بالدول العربية والتى تخول لها زعامة المسلمين ، وأن مصر يجب أن تكون حريصة على هذا التراث وهذا المجد فلا تتخلى عنه جريا خلف بعض الذين يريدون أن يفصلوا مصر عن هذا المجتمع الدولى العظيم ، الذى تربطنا به اللغة والدين والعادات والماضى المشترك .. والذى تربطنا به أخيرا رابطة المصلحة الشخصية لمصر .. وليس يعنى هذا أن لانستغل التراث الفرعونى فى الوقت ذاته ، فنفخر به ونزكى به إيماننا وثقتنا بأنفسنا ونتخذه مظهرا من مظاهر العزة والقوة ! .

وهكذا توالت عدة مناظرات فى أمكنة مختلفة ، وكنت أخرج فى ختام هذه المناظرات منتصرا وحاصلاً على أغلبية الرأى العام ولقد حددت بهذه الانتصارات كما قلت وجهة نظرى فى مختلف الشئون العامة تحديدا نهائيا ..

مشــروع القــرش
٣

كان المتفق عليه أن نبدأ كفاحنا السياسى حالما أنتهى من الدراسة ، وأصبح طليقا من الدرس والامتحانات ،. ليكون الإنسان متفرغا للكفاح أولاً وأخيرا .. وكنا فى ذلك الوقت نعيش فى ظل عهد لايسمح للطلاب بالاشتغال بالمسائل السياسية ، وأعنى به عهد وزارة إسماعيل صدقى باشا ومع ذلك فقد بدأت أشعر برغبة قوية فى العمل ، وفى عمل ضخم يهز كيان الأمة هزا ، ويمهد السبيل لخطواتنا النهائية ، فإذا بفكرة مشروع القرش تخطر لى ! . وسرعان ماشرعت فى تنفيذها ..

كانت مصر فى هذه الأيام تعانى أزمة اقتصادية مخيفة ، فقد هبطت أسعار القطن وأصبح لايجد مشتريا ، وفى وسط ذلك اختل الميزان التجارى ضد مصلحة مصر اختلالاً لاعهد لها به من قبل ، وأصبحت الأزمة والشئون الاقتصادية هى مايشغل بال كل مصرى ، وزاد هذا التدهور السريع الارتباك فى مالية مصر واقتصادياتها ! . وأصبح لامناص من مراجعة الموقف الاقتصادى برمته .. وقد تجلى خطر اعتماد مصر على الزراعة فقط وزراعة القطن بصفة خاصة .. كما تجلى خطر اعتماد مصر اعتمادا كليا على أوروبا فى كل ماتحتاجه من مصنوعات ، ومن هنا فقد أدركت أن أكثر ماتحتاجه مصر وسط الظروف المختلفة التى تحيط بها ! هو العمل على إيجاد الصناعات بها ، ونشر روح الصناعة الوطنية فى كل مكان .. ولما كانت الصناعة تحتاج إلى رؤوس أموال ، لم أشأ أن تجمع رؤوس الأموال من بضعة أفراد ، بل رأيت أن مما يحقق غايتنا بكمالها أن يساهم الشعب مجتمعا فى إنشاء هذه الصناعات القومية ليظل حريصا على تشجيعها فيما بعد ، ويسمح لنا أثناء جمع هذه الاكتتابات الصغيرة أن نلقن أبناء الشعب دروسا فى التعاون والاعتماد على النفس ، ونشر الدعوة للصناعات المصرية .. وأخيرا سوف يكون لنجاح مثل هذا المشروع ، وقيام مصنع من المصانع بأموال الشعب ، أكبر الأثر بإحساسه بقوته إذا ماتعاون وتضامن .. وهذه كلها هى المعانى التى صغتها فى شعار مشروع القرش وقتذاك «تعاون وتضامن فى سبيل الاستقلال الاقتصادى» .

وكان اختيار وحدة الاكتتاب بعد ذلك أمرا سهلا ، فقد جعلته قرشا حتى يسهل على كل فرد دفعه .

ولست أريد الآن أن أذكر تاريخ الجهود التى بذلت فى سبيل تحقيق هذا المشروع ، ولكنى لا أستطيع أن أنسى كيف قوبلت بالسخرية فى بادىء الأمر ، بدعوى أن المشروع ليس إلا حلما من الأحلام ، أو خيالاً من الخيالات .. حتى إن المحرر (فى جريدة الأهرام) الذى حملت إليه فكرة المشروع مسطورة ، رمى الورقة فى وجهى قائلاً لى : إن هذا (لعب عيال) .. وبعد أيام قلائل قيل لى من محرر آخر : إن كرامة الجريدة لاتحتمل نشر هذه السخافات ! ولقد كان هناك ألف عقبة وعقبة فى طريق المشروع ! .. أقلها قيام الحرب الحزبية فى مصر على أشدها وقتذاك وتربص كل جانب بالآخر .. وكانت هناك رقابة وزارة المعارف الشديدة التى لا تكاد تسمح لطالب بكتابة كلمة فى إحدى الجرائد .

وكان المشروع يبدو بذلك مستحيلاً .. وأحيانا مضحكا ..

فقد قال فيه بعض القانونيين كلاما طويلا عريضا ، عندما بدأنا نشاطنا ، وبدأ المشروع يطرق الآذان .. فما كنت تسمع إلا اعتراضا ، وسخرية ، فى كل مكان ، فى الجامعة وسط صفوف الطلاب ، وفى الشارع ، وفى النادى .. ولكن الله سبحانه وتعالى وفقنى توفيقا عجيبا إذ هدانى إلى سعادة على باشا إبراهيم ليكون رئيسا للجنة التى تدرس الموضوع وتبحثه ، وكان هذا الاختيار بدء تطور جديد فى حياة المشروع . فقد أسرعت الصحافة لنجدته ، وأصدرت دار الهلال عددا خاصا من إحدى مجلاتها خصصت إيراده للمشروع ، فجمعنا من هذا العدد مايقارب الثلاثمائة جنيه مصرى فكان ذلك نواة لرأس مال المشروع ، واستطعت بهذا المبلغ أن أمضى حتى النهاية فى إخراجه إلى حيز التنفيذ ، من حيث إعداد الطوابع اللازمة لجمع الاكتتابات ، وعمل الشارات والصناديق ، والدعاية اللازمة فى كل مكان .

نجح المشروع واهتزت له مصر من أقصاها لأقصاها .. ورأيت بعينى رأسى صورا ومشاهد جعلت الدموع تطفر من عينى .. رأيت شباباً ينتسبون إلى الوزراء ، وإلى المستشارين ، وإلى كبار الأعيان ، يسهرون الليل وسط الصقيع ! كى يستلموا أعداد الجرائد وطوابع المشروع ليقوموا بتوزيعها فى الصباح كباعة الجرائد ! .. رأيت شبابا يعملون واصلين الليل بالنهار لا يكلون ولا يملون .. يسافرون من الإسكندرية حتى أسوان ! . ليحملوا الطوابع والشارات وليتصلوا باللجان .. رأيت حولى عشرات

الآنسات وألوف الشباب ، تلمع عيونهم ويهتفون بمجد مصر ويستعذبون العمل فى سبيل استقلالها وتحريرها ! .. هذا هو نجاح مشروع القرش كما كنت أريد ، هذه هى المعنوية التى رغبت فى إثارتها .! هذا هو الكسب العظيم الذى أفادته مصر من جراء هذا المشروع .. وعندما أقمنا مهرجان المشروع فى حديقة الأزبكية ، واكتظت الحديقة بما يزيد على خمسين ألفا من خيار الناس جاءوا كلهم ليحتفلوا برسالة التحرر الاقتصادى .. وليعلنوا رغبتهم فى أن يستقلوا بصناعتهم ، وأن لا يلبسوا إلا من صنع بلادهم ، وأن لا يأكلوا إلا من ثمراتها .. وقفت فى ركن من الحديقة وكان قد مضت على عدة أيام لم أنم فيها وبضع عشرات من الساعات لم أتذوق طعاما .. وقفت فى ركن من الحديقة مختبئا عن الناس ! . وقلبى ينبض بشدة والدموع تذرف من عينى ! . وأنا أقول بصوت مرتفع .. هذه هى .. هذه هى روح مصر الفتاة التى أنشدها .

* * *

كان النجاح المادى فى مشروع القرش أقل بكثير من نجاحه المعنوى ، فلم يزد المجموع عن سبعة عشر ألفا فى العام الأول ، وثلاثة عشر ألفا فى العام الثانى .. ولكنى مع ذلك شرعت فى العمل حتى أحقق ماوعدت الناس به . وكانت الصناعة الوحيدة التى استهوتنى منذ أمد بعيد ، هى صناعة الطرابيش .. فالطربوش هو شعار مصر القومى ، ولقد كنت أشعر دائما بالمهانة إذ كان شعارنا الوطنى أجنبيا تنسجه لنا بلاد أخرى لا تلبس الطرابيش ، فتقوم بحياكته ، كما تقوم مصانعها الأخرى بعمل الزجاج الملون والعقود البراقة ، لتباع فى أواسط أفريقيا وآسيا ! . وكانت لمصر صناعة عريقة فى الطرابيش إبان محمد على وإسماعيل ! . بل وكانت لمصر صناعة الطرابيش فى مدينة قها ، فتدخل الأجانب وحطموا هذه الصناعات المصرية ! . فرغبت فى أن أثأر لمصنع قها ، وأن ألبس كل مصرى طربوشا من صنع بلاده ! .

ولقد كان التفكير فى إنشاء مصنع للطرابيش بهذا المبلغ الصغير ، أى بسبعة عشر ألفاً من الجنيهات ، يعتبر أمرا جنونيا ، ومع ذلك فقد قررت أن أمضى فى الموضوع حتى النهاية .

كان أول عقبة صادفتها فى هذا السبيل ، هو تنحى سعادة طلعت باشا حرب عن العمل معنا لتحقيق المشروع ، فقد رأى أنه من المستحيل إنشاء مصنع الطرابيش ، واستدعانى فى يوم من الأيام إلى مكتبه وسلمنى ملفا (دوسيها) يتضمن مجهودات البنك ومساعيه لإنشاء مصنع للطرابيش ، وأخبرنى كيف أن بنك مصر

بكل حوله وطوله ، قد عدل عن تنفيذ الفكرة لصعوبتها ، وخوفا من المنافسة الأجنبية القاتلة ! . فصناعة الطرابيش كانت فى القديم احتكارا نمسويا ، ثم أصبحت احتكارا تشيكوسلوفاكيا بعد أن تحولت مصانع النمسا القديمة إلى سيادة تشيكوسلوفاكيا ، وهذه المصانع من القوة وضخامة رأس المال والاقتدار الفنى ، بحيث لايمكن مقاومتها بحال من الأحوال . ولكن هذه الصعوبات لم تؤثر فى تصميمى ، لأننى لم أكن من رجال الصناعة أو المال لحسن الحظ ، ولكننى كنت صاحب فكرة معنوية وصاحب الفكرة لا يعبأ بالصعوبات .. فافترقنا أنا وطلعت باشا حرب مختلفين فى هذه النقطة ، ولكن الرجل تمنى لى النجاح والتوفيق فى مهمتى وأعطانى (الدوسيه) الخاص بصناعة الطرابيش لأنتفع به فى محاولتى ..

وقد يدهش كل إنسان أن يتصدى طالب مثلى فى كلية الحقوق ، ويأخذ على عاتقه إنشاء مصنع للطرابيش وهو الذى لا يعلم من أمر الصناعة شيئاً ! . ولكنه الإيمان .. ولكنه العزم والتصميم .

وسرعان ماجاءت الحوادث والأقدار لنجدتى ، فقد تقدم إلىّ مهندس ألمانى يسمى (فورهانز) وأخبرنى أنه أطلع فى الصحف الأفرنجية على تفكير جمعية القرش فى إنشاء مصنع للطرابيش ، وأنه مستعد لأن يقدم مشروعا وعطاء كاملين على إنشاء مصنع للطرابيش بالمبلغ الذى جمعناه من المال ! فناشدته على الفور أن يفعل . انصرف من عندى واعدا إياى أن يرجع إلىّ بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع ، ولقد عاد بعد الموعد المضروب وهو يحمل فى جعبته مشروعا كاملاً لإنشاء مصنع للطرابيش ، وراح يعرض على الرسوم ويعرض على صور الماكينات ، ويعرض على فوق ذلك كله تعهد الشركة أن تنتج لنا طرابيشا كأحسن طرابيش فى السوق المصرية ! وأن لا تأخذ ثلث المبلغ المستحق لها من ثمن الآلات إلا بعد أن تنجح فى إنتاج طرابيش كالعينة المتفق عليها ، وأنها على استعداد لأن ترسل الخبراء الذين يتولون إنشاء المصنع وتعليم العمال المصريين إنتاج الطرابيش . ولم تكن الشركة فى نهاية الأمر تطلب ثمنا لآلاتها وماكيناتها أكثر من بضعة عشر ألفاً من الجنيهات . كان ذلك المشروع المقدم من هذه الشركة الألمانية المسماة «هارتمان» بمثابة نجدة إلهية لى ، فقد عزز وجهة نظرى فى إمكان إنشاء مصنع للطرابيش ! . وبعد أن كنت أدعو لهذا المشروع على غير أساس وهدى ، أصبح تحت يدى مشروع كامل أستطيع أن أتحدى به كائنا من كان ...

ولكن الشركة التشيكوسلوفاكية راحت من ناحيتها تعمل لإحباط المشروع ! فأوفدت

مندوبين لها فى مصر سعوا لمقابلة رئيس الحكومة المصرية وكان فى ذلك الوقت هو إسماعيل صدقى باشا ! . وأقنعوه بأنه من العبث أن نفكر بهذا المال التافه فى أن ننافس شركتهم العتيدة ! . واقترحوا عليه أن يقنعنا بالعدول عن إنشاء مصنع للطرابيش فى مقابل أن يساعدونا فى إنشاء مصنع لعمل البطاطين ! .. وأن يقدموا الآلات اللازمة لهذا المصنع بالمجان ، ولقد كان هذا عرضا مغريا جدا ، جعل رئيس الحكومة يستدعى مصطفى بك الصادق مدير مصلحة التجارة والصناعة وقتذاك ، ووكيل مشروع القرش ، ويطلب منه العدول عن إنشاء مصنع الطرابيش ، والاتفاق مع الشركة الأجنبية . !

وقد حمل مصطفى الصادق بك هذا الرأى إلى مجلس إدارة المشروع ، وكادوا يوافقون عليه لولا اعتراضى واحتجاجى الذى لم يفلح وقتها إلا فى تأجيل إصدار القرار النهائى ، لمدة أسبوع واحد ... فأسرعت فى اليوم التالى إلى مقابلة صدقى باشا رئيس الوزراء ، لأقنعه بأن لا يقف فى وجه هذا المشروع الوطنى . بل ينبغى عليه أن يشجعه ويعاونه باعتباره حامى النهضة الصناعية فى مصر ! . فأصغى الرجل لآرائى وأفكارى ، وتأثر بحماستى للمشروع ، فأعطانى موافقته الكتابية على المضى فى إنشاء مصنع الطرابيش . ! ولقد كان هذا أعظم نجاح لى فى وجه أعضاء مجلس الإدارة الذين دهشوا كل الدهشة لتوفيقى فى الحصول على هذا التأييد من ناحية صدقى باشا .

وهكذا لم تستطع الشركة أن تنجح فى هذا المضمار ، فرأت أن توجه مجهوداتها نحوى شخصياً ، فدعتنى للمفاوضة معها وراح مندوبها يساومنى ويغرينى بالعدول عن إنشاء مصنع الطرابيش فى مقابل أن تقدم لنا الشركة مصنعا للبطاطين ! . وتتولى هى نفسها إنشاء مصنع للطرابيش فى مصر ، وتجعل منى مديرا لكلا المصنعين .. ولكنى احتقرت هذه المساومة وأعلنت أننى ماض فى تنفيذ المشروع بالرغم من أنف الشركة وبالرغم من أنف محاولاتها الشائنة ، ولقد مضيت بالفعل .. وليس يتسع المجال الآن لذكر كل التفاصيل وكل الصعوبات والعقبات التى اعترضت طريقى فى كل خطوة ! . والمهم أنه جاء اليوم الذى وضع فيه حجر الأساس لإنشاء مصنع الطرابيش بشارع برج الظفر فى حفل رائع تجلت فيه حماسة الشباب وروعة انتصاره ! .

* * *

وقد تم التعاقد مع شركة هارتمان الألمانية على توريد الآلات اللازمة . على أن مصاعبنا لم تنته عند هذا الحد ، بل إنها بدأت بصورة عنيفة ، فلم نكد نفرغ من التعاقد

مع الشركة المذكورة حتى فاجأتنا بعجزها على المضى فى تنفيذ المشروع ! . بحجة أنها كانت تعتمد فى تنفيذه على خبير تشيكوسلوفاكى . وقد سعت الشركة التشيكوسلوفاكية المنافسة إلى هذا الخبير وأغرته بالمال ، حتى حملته على التخلى عن العمل مع الشركة الألمانية ! ..

وكان معنى ذلك انهيار آمالى وأحلامى فى إنشاء مصنع الطرابيش ! . ولكنى لم أدع اليأس يتغلب على ، وسعيت إلى وزير المانيا المفوض فى مصر بصحبة سعادة على باشا إبراهيم رئيس المشروع واحتججنا لدى الوزير على موقف الشركة ، وأفهمناه أن ذلك التراجع من ناحية الشركة عن تنفيذ تعهداتها سيضر بسمعة المانيا فى مصر ! . بل وفى الشرق كله ، فاهتم الوزير اهتماما عظيما بالموضوع ، وكتب لوزارة الخارجية الألمانية طالبا منها التدخل ، وانتهى الأمر بأن عادت الشركة الألمانية لتنفيذ تعهدها وأعلنت من جديد استعدادها لتوريد الآلات اللازمة بعد ستة أشهر ...

ومضت الأشهر ووصلت الآلات أخيرا وارتفع بناء المصنع شامخا أنيقا جميلاً ذا طراز فرعونى بديع ! .

وتم تركيب الآلات ، وجاءت اللحظة الخالدة التى قررنا فيها إدارتها لأول مرة ! . ولقد مضت على هذه الذكرى الآن سنوات وسنوات ومع ذلك فمازلت أتمثل هذه اللحظة الرهيبة التى شعرت فيها بقشعريرة الانتصار ! . مازلت أسمع أصوات الماكينات تدوى بين جدران المصنع والصوف يأخذ طريقه من آلة إلى أخرى ، لإخراج أول طربوش مصرى صنعته الإرادة المصرية والإيمان المصرى ! . ومازلت أحس بحرارة الدموع التى سالت على وجنتى فرحا وابتهاجا وإذن لم أكن عابثا ولا ماجنا ... لم أكن خيالياً ولا معتوها ! وإنما كنت مصريا مؤمنا ، عرف كيف يحول إيمانه إلى عمل فانتصر ، وانتصرت مصر كلها ، وراحت تكلل رؤوسها بهذه التيجان المصرية الصميمة ، وأثبتت للدنيا أن العامل المصرى لا يقل اقتدارا عن أى عامل أوروبى ، وأثبتت للدنيا أن الإرادة المصرية تستطيع أن تتغلب على كل شىء متى صدق العزم وخلصت النوايا ! .

نص الخطاب
الذى ألقى فى حفل وضع حجر الأساس لمصنع الطرابيش

سيداتى وسادتى . إخوانى وأصدقائى :

سمعتم منذ لحظات سعادة رئيسنا يلقى كلمة الجمعية الرسمية ولن أعود فأحدثكم عن ماهية مشروع القرش وتاريخ نشأته ، والأطوار المختلفة التى مر بها

فلقد عدَّد لكم الأشخاص الذين هم جديرون بشكرنا وتقديرنا ، فلم يبق لدى ما أقوله من هذه الناحية ، الا أن أحدثكم عن مصنع الطرابيش بالذات ولماذا اخترناه دون سواه من المشاريع الأخرى ، وما هى قدرته على الإنتاج الى آخر هذه المعلومات التى يهم الرأى العام الوقوف عليها .

على أننى فى حديثى أيها السادة لن أكون إلا كما أنا ، بصفتى الشخصية شابا عاديا من شباب مصر الفتاة ، أو بالأحرى متطوعا من متطوعى القرش صريحا بكل ما فى الشباب من صراحة وجرأة ، متفائلا بقدر ما فى الشباب من إيمان وأمل .

نتساءل أيها السادة : لماذا اخترنا الطرابيش لتكون أول صرح من صروح القرش ؟ أو بمعنى أصح : لتكون أول حجر فى بناء استقلالنا الاقتصادى ، الذى يسعى لأجله مشروع القرش ؟ هل كنا فى ذلك نطيع عاطفة فحسب أم أن ذلك كان نتيجة تفكير وإمعان ؟ . الحق أيها السادة أن الأمر لو كان وحى عاطفة لكان ذلك وحده سببا كافيا للبدء به فالعاطفة هى كل شىء فى حياة الأمم ! وما الاستقلال والمجد والعزة إلا مجموع عواطف الشعب ! متخذة هذه الصور المادية .. أو ليس من العار أن شعبا ناهضا مجاهدا يصاغ له شعاره القومى فى الخاوج ؟ فى بلاد لا تعرف الطربوش ولا يلبسه أهلها . والله لو لم يكن هناك إلا هذه الفكرة تحفزنا لإنشاء مصنع طرابيش لكفى بها مبررا ، فما بالكم وقد تضافرت الظروف والحيثيات لتدفعنا فى هذا التيار .

فقد خرجنا من موسمنا أيها السادة بسبعة عشر الفا من الجنيهات لا أكثر ، وهذا المبلغ لا يصلح لصناعة لها قيمتها سوى الطرابيش فقبل الجمع كنا فكرنا فى إنشاء مصنع (للبدل) الصوفية ولكن المبلغ الذى حصلنا عليه لا يحقق هذه الغاية التى تحتاج إلى أموال طائلة ، وكانت هناك غير صناعة الطرابيش صناعات عدة صغيرة يمكن اعتمادها على هذا المبلغ مثل صناعة الالبان أو السجاير على أن مثل هذه الصناعات موجود بالفعل فى مصر يقوم به مصريون ، ويشرف عليه مصريون ، وما كان مشروع القرش ليبدأ برنامج أعماله بمنافسة المصريين ، وهكذا ترون أننا كنا محكومين بالظرف المالى لانشاء مصنع للطرابيش . وتلفتنا فى عالم الصناعات المصرية فاذا بنا قد وضعنا الأسس فى مختلف صناعات النسج والغزل الا صناعة الصوف وغزل الصوف ، فكان علينا أن نبذل جهدا لسد هذا

النقص بإنشاء صناعات الصوف ، وصناعة الطرابيش ليست الا فرعا من صناعة الصوف تعتمد على غزله ، هذا الغزل الذى يمكن استغلاله فى الوقت نفسه فى صناعة البدل والبطاطين والصدارى والجوارب الخ هذه الصناعات الهامة

واذن فقد انتصرت صناعة الطرابيش أيضا على غيرها من حيث أنها خطوة فى سبيل صناعة من أهم الصناعات .

على أننا نتساءل فى النهاية : هل هى عملية مربحة بقدر ما هى هامة ، فإذا أقدمنا عليها جمعنا بين الغاية القومية والربح ؟ فكان جواب التساؤل غريبا ! . لأن المباحثات انتهت إلى أن الطربوش بسعره الحالى يزيد أضعافا مضاعفة عن تكاليف انتاجه ، وما ذلك الا نتيجة الاحتكار وأهواله .

وصناعة الطرابيش بعد كل هذا أيها السادة ليست بشىء ذى بال أو هى سر من الأسرار ، بل هى صناعة من صناعاتنا التى مارسناها ونمارسها بنجاح غريب ، فمنذ نيف ومائة سنة أوجد محيى مصر الحديثة محمد على باشا صناعة الطرابيش بنجاح ، واتخذ مقرا لها مدينة فوة ، وقد قيل لى إن السائر الى هذه المدينة يرى آثار المصنع العظيم . ولقد عفت كل الصناعات التى أوجدها محمد على باشا تقريبا إلا صناعة الطرابيش ، فقد ظلت حتى اليوم وحتى الساعة قائمة رغم كل شىء ، ولعل هذا يدهشكم بل لا يكاد يصدق ، ولكنها الحقيقة ، فصناعة الطرابيش موجودة فى القلعة منذ عشرات السنين ، تعمل بدون انقطاع لسد حاجة الجيش والبوليس من الطرابيش ، أى تنتج ما يزيد على مائة ألف طربوش سنويا ، وهى كمية لا يستهان بها بالنسبة لاستهلاك مصر العام . ولا تحسبون أن طرابيش القلعة لاقيمة لها ، أو أنها ليست جيدة ، فسترونها رأى العين بعد قليل فى مصنعنا الصغير وعندها ستعرفون الحقيقة الجميلة وهى أن العامل المصرى ينتج طرابيش جيدة على بعد خطوات منكم ولولا أنهم فى القلعة يستخدمون صوفا غير جيد ليلائم حاجات الجيش لكانت طرابيشهم من أرفع درجة لا تكلفهم إلا بعض قروش قلائل .

وقبل الحرب العظمى أنشأ سعادة إسماعيل باشا عاصم مصنعه فى مدينة قها ، هذا المصنع الذى أمد مصر بكل ما تحتاجه من طرابيش فى سنى الحرب ووصل فى نهاية الأمر إلى درجة عظيمة من الإتقان بشهادة الجميع .

وكأنى بكم تتساءلون : لماذا أغلق هذا المصنع العظيم ؟ .. كيف يقضى عليه هكذا بعد أن كان ناجحا موفقا ؟ فأقول لكم إنه كان ضحية منافسة غير شريفة فى وقت كانت فيه الأمة حكومة وشعبا عاجزة عن حماية صناعاتها ، فبانتهاء الحرب وعودة المياه إلى مجاريها نزلت الصناعات الأجنبية الى سوق الطرابيش المصرية بخيلها ورجلها لتقضى على المصنع الوطنى فأخذت تصرف وتصرف وتوزع النقود فى كل مكان ، وتبيع الطرابيش بأسعار غير معقولة لأنها تنقص عن تكاليف الإنتاج . وبالاختصار أنها لجأت إلى سياسة الاغراق فى أبشع صورها ، حيث لا تستطيع الضرائب أن تحد من قوتها أو تخفف من هولها وظل إسماعيل باشا عاصم وسط العاصفة يخسر ويخسر ! . ولكنه ما كان يقوى على الاستمرار طويلا ، وهو رجل فرد وهذه الشركات أقسمت أن تقضى عليه بأى ثمن ! فبدأ

المصنع يعانى الآلام ! وهنا تقدم السادة الغزاة للرجل وعرضوا عليه الشراء فباعه لهم وهو مرغم على ذلك ومن خلفه أمة تندب حظها العاثر الذى جعلها تسقط هكذا فريسة المنافسة الأجنبية ! واليوم لا يوجد مصرى واحد لا يعرف هذه القصة . بيع المصنع وحطمت آلاته تحطيما وسمح لى صاحبه أن أزوره ، فذهبت لأرى أطلالا بالية ، وبقايا أخشاب وأنقاض تتحدث عما كان لهذا المصنع من صولة وجولة فيما مضى !

هل تريدون الحق أيها السادة ، لقد خرجت من زيارتى لمصنع قها وأنا أقسم أن أجاهد وأجاهد لإعادة هذه الصناعة ، لا لشىء الا لنثأر لكرامتنا الاقتصادية التى امتهنت امتهانا ، بحيث باتوا يضربون المثل بمصنع قها ويذكرون قصته ليستدلوا بها على أن المصريين لا يفلحون فى الصناعة ، هذه العوامل مجتمعة من قومية ومالية واقتصادية وتاريخية ، هى التى حدت بنا كما قلت لكم الى العمل على إنشاء مصنع للطرابيش ، وعرف الرأى العام ذلك منا فقابله بالتهليل والترحاب فازددنا بذلك قوة على قوة ، ومضينا فى عزمنا لا نلوى على شىء ، ولا شك أنه قد وصل إلى علمكم جميعاً صعوبة المهمة التى أخذناها على عاتقنا والعقبات الجسام التى تعترض طريقنا ولكنا عازمون على السير إلى النهاية رغم كل شىء وسنجاهد ونجاهد ، حتى نقيم المصنع كاملا وعندها نكون قد قمنا بواجبنا وأرضينا مصر وكرامة مصر .

سنجاهد أيها السادة ونفتح المصنع ، إن وفقنا الله ، وسيوفقنا لأننا مخلصون ثم نسلمه وديعة لكم ، والكلمة يومئذ أيها الشباب لكم ، ولكنى أعرفها سلفاً ، وهذا ما يجعلنى واثقا من المستقبل ثقتى بوجودكم الآن . إنها كلمة سيسجلها لكم التاريخ انها كلمة العزة والفخار والمجد ، سوف تخلعون عن رءوسكم طرابيشهم ولو كانت أكثر أناقة وأرخص ثمنا ، لتلبسوا طرابيش الوطن ! وسينظر لكم العالم فى يقين وإعجاب بأن مصر قد بعثت من جديد فتية قوية ذات عزم ونبوغ

أما مصنعنا أيها السادة وقدرته على الإنتاج فسيخرج لكم طرابيشا تضارع أحسن ما تلبسون ولكن ذلك لن يجىء طفرة واحدة ، وان كان لن يتأخر كثيرا ، وسيكون الطربوش رخيصا جدا يضمن لتجار الطرابيش ولكم ربحا ووفرا عظيمين . وسيكفى المصنع حاجة القطر كله من الطرابيش وذلك بأن ينتج ألف طربوش يوميا أى ثلثمائة ألف طربوش فى السنة أى ما تستهلكه مصر فى الوقت الحاضر ، أما قبل سنة ١٩٣٠ فقد كانت تستهلك ضعف هذه الكمية ، فإذا فرض وعادت المقطوعية الى سابق عهدها فما على مصنعنا الا أن يشتغل طريحتين بدلا من واحدة فتتضاعف كمية الإنتاج بحيث يكون هناك مجال لتصدير الطرابيش إلى الأقطار الشقيقة ، سوريا وفلسطين والهند التى يسرنى أن أصرح لكم أنها تنتظر طربوش القرش بحماسة لا تقل عن حماستنا ولا عجب فنحن وهم أمة واحدة ، تربطنا اللغة والثقافة والدين ، والأمانى القومية . ثمة سؤال هام يتردد على الأفواه دائما ويوجه إلى أينما ذهبت ألا وهو ماذا يكون الحال لو عدل المصريون عن لبس الطربوش الى القبعة ؟ . وليس الآن مجال التفاضل بين القبعة والطربوش ، ولكنى أطمئن هؤلاء المتسائلين ، فحتى فى مثل هذه الساعة لن يخسر مصنعنا شيئا ، بل سوف يستطيع أن يساير التطور الجديد .[1]

(١) ينتج مصنع الطرابيش فى الوقت الحاضر أجود أنواع (البيريهات)

هذا هو مصنع الطرابيش أيها السادة الذى عزمنا على إقامته والمسألة الآن مسألة زمن فكل شيء يسير أحسن ما يكون السير الوئيد الحكيم ، وبعد أشهر قلائل لا تتجاوز الستة تزينون رءوسكم بتيجان القرش ، وتجنون ثمار التعاون والإخلاص والعزيمة ، كل هذا بقرش كما يقول لكم رئيسنا فهل تبخلون على مصر بقرش آخر ، وهلا ترون أنها صفقة رابحة أن نشترى استقلالنا الاقتصادى بقرش فى كل سنة

ستجيئكم جموع الشباب فى مثل ميعادها من السنة الماضية تجمع قرشا جديدا لتنشىء به صرحا جديدا ، سوف يجيئونكم ولكن فى نظام وتجربة وسط مهرجانات عظيمة واحتفالات قومية ! وستتضاعف قوانا علنا نحقق حلمنا الجميل ألا وهو إنشاء مصنع للبدل الصوفية أو أى صناعة أخرى من هذه الصناعات التى تؤثر تأثيرا كبيرا على حياتنا الاقتصادية !

سادتى ــ فى نفسى آمال وأمانى تريد أن تنطلق ولكنى أحبسها على الرغم منى لأنى أريد أن نعمل وأن نترك الكلام إلى العمل . أريد أن أحدثكم عن مشروع القرش ومستقبله ولكنى أترك ذلك لكم وأهيب بإخوانى لنعمل ، ولنعمل فى صمت والله معنا .

ولست أغادر هذا المنبر قبل أن أرسلها صرخة من روحى وقلبى ونفسى تنفذ إلى قلوبكم وأرواحكم . أى إخوانى الشبان لقد فكرتم فى مشروع القرش ونفذتم ــ مشروع القرش وأعددتم برنامج القرش ، ولا يزال أمامنا للوصول لغايتنا شوط طويل لكى نقطعه . نحن فى حاجة الى جهود .. وجهود جبارة . بل نحن فى حاجة الى ما هو أكثر من الجهود نحن فى حاجة الى الإيمان والتضامن .. إيمان بحقنا وعزمنا .. إيمان بأنّا أقوام علموا الإنسانية فى أيامها الخوالى وأخذوا بيدها من الظلمات إلى النور ! . وأنّا على استعداد لتعليمها ثانية ، ايمان بأنّا قادرون فنقدر .. وأنّا فاعلون فنفعل .

ونحن فى حاجة الى التضامن كحاجتنا الى الإيمان فلنتضامن ولنتحد جميعا تحت راية واحدة ، ولنعمل بفكرة مشتركة لغاية جليلة . فلنحب أنفسنا فلا نكون حرباً عليها بأفعالنا ، وليحب بعضنا بعضا كإخوة أشقاء ، ولنحب مصر بتقديس وإجلال ، ولنفكر دائما فى إسعادها ، وليكن كل جهد نبذله فى سبيل مجدها وهنائها .

ووالله لئن فعلنا هذا ، بأن آمنا وتضامنا ليكونن مستقبلنا جليلا ورائعا لنحلق فى سماء المجد ، ولنشرق على العالمين من جديد .

إلى الأمام إذن أيها الشباب .. إلى الأمام بعزم ويقين وثبات فرحين طروبين مخلصين إلى الأمام متحدين متضامنين ... شعارنا الله والوطن والملك .

وإيماننا أن مصر فوق الجميع .

جمعية مصر الفتاة

٤

إلى هنا كان مشروع القرش قد نجح وحقق كل أغراضه فقد أثمرت دعاية الشباب الاقتصادية فاندفع المصريون يشجعون كل ما هو مصرى ويقبلون عليه وتعددت المصانع فى مصر والتى قام بانشائها الأفراد والشركات المصرية .

وأثبتنا للناس أن العمل فى تعاون وصبر وثبات يؤدى إلى النجاح ، فقد وجدوا قرشهم الصغير يشيد مصنعاً ويلبسهم طرابيش وطنية .. على أن النجاح المنقطع النظير هو هذه اليقظة التى شملت صفوف الشباب فتعددت الجمعيات وكلها قد اتخذت من مشروع القرش ومن مثاله قدوة وطريقا للعمل ، فتألفت جمعية القرى لمحاربة الأمية ، وأنشىء عيد الوطن الاقتصادى ، وغيرهما وغيرهما من عشرات الجمعيات والمشاريع التى أقدم عليها الشباب فى ثقة وعزم ونجاح بعد تحقيق مشروع القرش . بل لقد تجاوز نجاح مشروع القرش الحدود المصرية فنسج السودانيون على منواله وكذلك جميع البلاد العربية ، ولا يزال جمع القروش عن طريق الطوابع هو الأسلوب المتبع فى كل العالم العربى فى جميع مشروعات البر والإحسان .

وكان من تأثير مشروع القرش أن استيقظت فى نفوس الشباب كل عناصر القوة والطموح والرغبة فى العمل .. وهؤلاء الذين عملوا معى طوال عامين فى مشروع القرش بدأوا يفهمون إيمانى الكامل ورسالتى المقبلة ، فاذا بى لم أكد أخرج من الكلية متما تعليمى العالى ، حتى رأيتهم يتطلعون إلىّ ويطالبوننى بخطوتى الثانية ، وأعنى بها تأليف ما حدثتهم عنه وما وعدتهم به ، وهو جمعية مصر الفتاة . ولما أيقنت بالعزم منهم جمعتهم فى إحدى الليالى وسألتهم ، هل هم مستعدون حقا لبدء النزال ، فأقسموا جميعا على استعدادهم فأنذرتهم أن سوف تقابلهم عقبات وسوف تتزلزل الأرض تحت أقدامهم وسوف تهاجمنا الأحزاب وسوف تهاجمنا الحكومة وسوف يكون أمامنا كفاح طويل .. ولست أدرى هل كانوا يصدقوننى ساعتئذ أم أنه قد خيل لهم أننى أختبر شجاعتهم فقد اتفقوا جميعا على الهزء بهذه المصاعب ، بعد أن تعلموا فى مشروع القرش كيف تكون الغلبة على المستحيل .

وإذن فقد عدت إلى بيتي وجلست أكتب برنامج الإحياء ووسيلته ، جلست أستجمع كل ما أشعر به فى نفسى من إيمان وعزم وأمسكت بالقلم وكتبت كل ما جرى به القلم على القرطاس ، فكان ذلك برنامج مصر الفتاة الأول .

وعدت إلى إخوانى وزملائى فوقعوا على هذا البرنامج الذى وضعته لمصر الفتاة فى الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٣ وكان الموقعون عليه لا يزيدون عن الاثنى عشر . ورأيت أن تكون الصرخة هى لسان حال هذه الحركة ، وهى التى جرى على صفحاتها فى الأعداد الأولى أول آمالى فى مصر الفتاة . رأيت أن تكون الصرخة وهى التى أسميناها بهذا الاسم منذ أربع سنوات معبرة عما فى نفوسنا من إيمان وما لنا من برنامج فبحثت عنها حتى وجدتها ، فى حوزة شخص غير صاحبها القديم . فكتبت معه عقدا بمقتضاه يضع الجريدة تحت تصرفنا مقابل إيجار معلوم ... وفى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٣٣ وعلى صفحات العدد الثالث من الصرخة أعلنا برنامج جمعية مصر الفتاة ، وهكذا بدأ الفصل الأخير أو بالأحرى بدأ الفصل الأول من جهادى فى سبيل تحرير أمتى ووطنى وتحقيق المجد لبلادى . فلم يكن كل الذى مر سوى تمهيد لهذه الخطوة الأخيرة التى كانت تجول فى فكرى وقلبى منذ أمد بعيد . وقد قدمت البرنامج بنداء دعوت فيه إلى عشر سنوات من الإيمان والعمل وإنى إذ أعيد نشر هذه الكلمات بعد اثنتى عشرة سنة من هذا التاريخ ، أشعر بالشوط الكبير الذى قطعناه والذى بقى علينا أن نقطعه .

وإذ أستعرض الحوادث الكثيرة التى مرت بى منذ ذلك اليوم لا أجد حادثا واحداً لا يؤكد ايمانى بكل الحقائق التى قدمتها لك ويدفعنى إلى الأمام دائما .. فمنذ اثنتى عشرة سنة ونحن نتطور ونسير دائما من فوز إلى فوز ومن نجاح إلى نجاح .. ودائرة مصر الفتاة تتسع أكثر فأكثر .

واليك نص برنامج مصر الفتاة فى صورته الأولى وما صدر به من نداء

نـــــداء

يا شعب مصر

أيها الشعب الذى صاحب الزمن ... يا أمجد شعب فى الوجود وأعظمه ... لقد حانت ساعة اليقظة ... لقد حانت ساعة العمل ... بل لقد حانت ساعة الجهاد ... وهذه هى مصر الفتاة تتقدم إليك لتجاهد عنك ولتذود عن حياضك . ولترفع صوتك ولتطعم جائعك . ولتعلم جاهلك ولترد عليك كرامتك . ولتعيد إليك سابق مجدك .

يا شباب مصر

لقد طال ما رقدنا وها نحن أولاء قد صحونا ... لقد طال ما أهملنا وها نحن أولاء قد حرصنا .. لقد طال صمتنا وها نحن أولاء قد تكلمنا وإذن فليكن صوتنا مدويا ولتكن صرختنا من الأعماق ، وليكن إيماننا جبارا يدك الجبال ، وليكن شعارنا مصر فوق الجميع .

إن الأجانب يغزوننا ويسدون علينا طريق الحياة ... والاحتلال قطّع أوصالنا وحرمنا السودان ... والأمية والجهل يخيمان على سوادنا ويملآن القلوب حيرة وظلاما ... والأزمة فتاكة تهلك الحرث والنسل وتسلبنا القوت والماء ، ونحن فى كل ذلك نلهو ونتخاصم .. ونحارب بعضنا حتى لقد سقطنا صرعى ، ووقف العدو يشاهد كل هذا باسما ظافرا فخورًا ... أنه تغلب على النسر المصرى بأهون سبيل .

وواجب الشباب أن يصلح كل هذا ... وها نحن نفعل .. لسنا نريد أن نتكلم كثيرا ولكننا ندعوا الشعب للايمان بحقه وقوته وندعوه لعشر سنوات من الايمان والعمل لله والوطن .. نابذًا الخلافات الحزبية .. مهملا ما اعتاد الناس أن يسموه سياسة .

ونحن نقدم اليوم عناصر هذا الايمان ، وعناصر هذا العمل ، برنامجًا معنويا زراعيا وتجاريا وصناعيا وعلميا واجتماعيا .. يتبسط حتى ليشمل أدق التفاصيل وما ذلك إلا ليكون السبيل واضحا وممهدا .. وهو ليس تفكير يوم وليلة ولكنه عمل خمس سنوات قضيناها فى التحضير والدرس والإيمان .. والآن وقد خرجنا إلى ميدان الجهاد ، فنحن نعلن رسالتنا .. نعلنها لك يا شعب مصر ، ويا شبابها . دعوة بريئة مخلصة لا تتصل بشخص من الأشخاص ، ولا ترمى لغاية إلا لسعادة مصر ومجدها .. إنها دعوة صادرة من القلوب فلتنفذ إلى القلوب ، وهى صادرة من الأرواح إلى الأرواح فلا تسخروا منها إن لم تعاونوها ، ولا تحاربوها لأنها لم تمسكم بشر ، فهى عقيدة مخلصة مقدسة ، وستنتصر فى النهاية كما ينتصر كل إخلاص وإيمان .. ستنتصر بالرغم مما يوضع فى طريقها من عقبات .. بالرغم من القوات التى ستحاربها .. بالرغم من القوات الهدامة التى ستكرس نفسها للقضاء عليها ...

ستنتصر ، لأننا سنحتمل كل شىء من أجلك يا مصر .

ولأننا سنضحى فى سبيلك يا مصر .. ولأننا سنموت وكلمتنا الوحيدة :

مصـر فـوق الجميـع

أحمد حسين

المحامى

برنامج مصر الفتاة ومبادئها

إيمـــاننا

مصر التى علمتْ الإنسانية وأضاءت على العالمين . مصر التى رفعت لواء الأديان جميعا وأعلت كلمة الله والإسلام ، مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن . بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم ، لن تموت أبدا بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجا للشرق وزعيمة للإسلام ، وهى من أجل ذلك فى حاجة إلى دم الشباب الملتهب . فى حاجة إلى الإيمان والعمل ، فى حاجة إلى نفر من بنيها يقابلون الموت ويستعذبون الألم ويرحبون بالتضحية . وتلك صفات لن تتوفر فى أبناء الجيل القديم .

شعارنـا

الله ـ الوطن ـ الملك

يجب أن نعبد الله ، وأن نعلى كلمته .
يجب أن نقدس الوطن . ونفنى فى سبيل مجده .
يجب أن نعظم الملك ، وأن نلتف حول عرشه .

غايتنـا

أن تصبح مصر فوق الجميع . امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام .

جهـادنا العـام

١ ـ يجب أن نشعل القومية المصرية . ونملأ نفوسنا إيمانا وثقة واعتزازا .. ويجب أن تصبح كلمة « المصرية » هى العليا وماعداها فلغو لا يعتد به . ويجب أن يؤمن الجميع بأن إرادة الشعب من إرادة الله ، وأن مصر يجب أن تصبح فوق الجميع .

٢ ـ يجب أن نضع الأجانب فى مركزهم الطبيعى ضيوفا فى مصر وليسوا أصحابها . وذلك يكون بإلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة بجرة قلم ، وتمصير الشركات الأجنبية . وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الحياة التجارية . ويوم الجمعة يوم عطلة عامة . وعدم التصريح لأجنبى بمزاولة عمل فى مصر إلا بتصريح خاص .

٣ ـ يجب أن نؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها . وأنه الحقيقة الوحيدة التى لم تتبدل فى العالم منذ ستة آلاف سنة . وهو الذى أبقى مصر نابضة قوية حتى اليوم . فيجب أن نعلم الفلاح :

بأن نقضى على الأمية والجهل ، ونرتقى بمعيشته ، فنضمن له اليسر والرخاء ، ونحفظ له صحته . وندخل إلى بيته الجديد النور والهواء والماء النقى ! .

جهادنا الاقتصادى

فى الزراعـة :

٤ - يجب أن نرتقى بالزراعة التى تكون ثروة مصر الحقيقية ، فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها . ونزرع أراض جديدة ، ونشق الترع وننشىء المصارف ، ونعمل لمضاعفة الإنتاج أضعافا مضاعفة .

٥ - يجب أن يعم نظام التعاون فى كل مدينة وفى كل قرية ، بل وفى كل ضيعة . لإقراض الفلاحين وتوزيع البذور واستخدام الآلات وبيع الحاصلات وتنظيم المعاملات .

فى الصنـاعة :

٦ - يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة .. فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا ، وصوفنا ، وكتاننا . ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيمائية والزراعية والحديدية .. وتمهيدا لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة ، وأن تتولد الكهرباء من خزان اسوان .

٧ - يجب أن توضع الحماية الجمركية اللازمة لحماية المصانع الوطنية . وأن تحتم الحكومة على موظفيها وعلى طلبة مدارسها أن تكون ملابسهم من المصانع المصرية . وأن تفضل الحكومة دائما المصنوعات المحلية مهما كان ثمنها مرتفعا .

٨ - يجب أن ينشط استغلال الثروات المدفونة فى باطن التربة المصرية العظيمة ، فنستخرج البترول والحديد والذهب والنحاس وغيرها من المعادن التى تحتاج إليها الصناعات المختلفة . والتى توجد فى الصحارى المصرية العظيمة بوفرة .

فى التجـارة :

٩ - وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية . فلا نأكل إلا كل ما هو مصرى ، ولا نلبس إلا كل ما هو مصرى ، ولا نشترى إلا من مصرى . كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

١٠ - يجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية . ونتصل بدول الشرق القريب والبعيد لنحمل إليها ومنها المتاجر ، وأن نقوم بدورنا الطبيعى فى تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب . ولكى نتبوأ هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى . لينقل متاجرنا . وليرفع العلم المصرى فى أنحاء البحار .

١١ - يجب أن تستعد موانينا لهذه الحركة العظيمة . فنوسع ميناء الإسكندرية ، وننشىء ميناء دمياط ، ونحول بعض موانينا إلى موان حرة لا تتقاضى الحكومة عن البضاعة الموجودة بها ضرائب .

١٢ - يجب أن يؤلف أسطولنا الجوى على نطاق واسع . وأن تنشأ المطارات فى كل المدن المصرية ، وأن تنشأ الخطوط التى تصل مصر بجميع البلدان العربية . وبكل أفريقيا . وبلاد أوروبا الهامة .

١٣ ــ يجب أن نمهد الطرق من الإسكندرية حتى اسوان . وأن ننظم الملاحة فى النيل والترع . وأن نمد الخطوط الحديدية إلى كل مكان .

١٤ ــ يجب أن ينشأ بنك مركزى للإصدار ، ليجارى هذا التقدم التجارى ويزكيه ، وأن يصلح نظام الائتمان بحيث يكون وسيلة لخدمة التجارة ومدها برءوس الأموال .

جهادنا العلمى

١٥ ــ ومصر ، التى ستتزعم الشرق وتضىء على العالم ، يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها . فيجب أن يصبح التعلم الابتدائى مجانا . وأن تقل نفقات التعليمين الثانوى والعالى لتكون فى متناول أفقر الطبقات . ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحى الحياة . وأن ترصد لها المخصصات ليعيش منها العلماء والباحثون .

١٦ ــ يجب أن تفتح الجامعة أبوابها على مصراعيها لكل من يريد الانتساب إليها من مصر أو الشرق ، وأن تشجع البحث العلمى . وأن ترسل البعثات إلى سوريا وفلسطين والعراق وإيران والهند ومراكش وغيرها ، لتبحث وتنقب وتعلم وتنشر العقلية المصرية فى أرجاء العالمين .

١٧ ــ يجب أن نهتم بالحفريات الخاصة بالآثار لنكشف مغاليق التاريخ المصرى فى عصوره المختلفة ولنخرج الكنوز التى لم تكشف بعد .

١٨ ــ أما فى الطب ، فيجب أن يعاود المصريون نبوغهم وإعجازهم الفنى ، لينقذوا الشعب فى مصر ، ولينقذوا الإنسانية من الأمراض التى تفتك بها .

١٩ ــ أما الأزهر ، فله دور عظيم يجب أن ينهض به ، وأن يستعيد مركزه القديم ، ويجب أن تسرى رسالته فى أنحاء العالم ، وأن يرتفع صوته عاليا بين الأمم الإسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والإسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب ، وفى أمريكا أيضا ! .. ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى إعلاء كلمة الحق والدين .

٢٠ ــ يجب أن تنشىء الحكومة المؤسسات لمساعدة المكتشفين والمخترعين .

٢١ ــ يجب أن يكون فى كل قرية مكتبة وأجهزة للراديو لسماع التعاليم الدينية والخلقية والعمرانية .

جهادنا الاجتماعى

فى الدين والأخلاق :

٢٢ ــ يجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .

٢٣ ــ يجب أن نرقى الأخلاق ، وأن نحارب الدعارة والخمور والتخنث .

٢٤ ــ يجب أن نعلم الصدق ، وأن نخلص فى العمل ونستمسك بالتعاون ، وأن يحب بعضنا بعضاً .

٢٥ ــ يجب أن نقدس الشرف والواجب ، وأن نقلل من اللهو والمزاح .

٢٦ ـ يجب أن يصبح التجنيد إجباريا للجيش ، وأن تنقص مدة الخدمة فيه ، وأن يمتلىء الشباب بالروح العسكرى .

فى الأسرة :

٢٧ ـ يجب أن تنظم الأسرة على قواعد قوية من الحب ، والاحترام المتبادل بين الأبناء والآباء ، والجهاد المشترك ، والوفاء بين الزوج وزوجته .

٢٨ ـ يجب أن نعنى بالطفولة باعتبار أنها مصر المستقبل .. مصر العظيمة .. فيجب أن نعدهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالا منتجين

٢٩ ـ يجب أن نرقى المرأة ونعلمها العلم الكامل ، لكى تكون زوجة صالحة ، ولتكون أما تخلق الأبطال ، وليكون بيتها نعيم الحياة .

٣٠ ـ يجب أن نقضى على الأنظمة البالية التى تعرقل حركة الزواج ، فتلغى المهور الباهظة والحفلات الهوجاء .

فى الصحة :

٣١ ـ يجب أن يكون للصحة العامة المقام الأول فى جهود مصر الفتاة . ويجب أن تكون سياسة الصحة هى سياسة الوقاية لا سياسة العلاج . وإذن فيجب أن ينصرف الجهد إلى حماية الطفولة .. وإلى حماية الأبصار وإلى حماية الأبدان من الأمراض المتوطنة .

٣٢ ـ يجب أن توضع قوانين صارمة لإحلال النظافة فى كل شىء ، ويجب أن يجند الشعب فى الملاعب الرياضية ، لنخلق جيلا كاملاً قويًّا سليما .. وتمهيدا لذلك يجب أن ينشأ ملعب كبير بالقاهرة .

فى التأمين الاجتماعى :

٣٣ ـ يجب أن ينظم التأمين الاجتماعى بحيث يصبح لكل فرد فى الأمة الحق فى أن يكون له عمل يعيش منه ، وإذا كان عاجزا لا يستطيع العمل وجد الملاجىء ليأوى إليها .

٣٤ ـ يجب أن تعد المستشفيات بحيث تتسع لقبول أى مريض يلجأ إليها ، وأن تنشأ فروع لكل أنواع الأمراض .

٣٥ ـ يجب أن يصبح الشعب شعبا مدخرا ، وأن يقلع عن الإسراف ، بتكوين رءوس الأموال اللازمة لتكوين الامبراطورية المصرية .

٣٦ ـ يجب أن يكون للشعب أعياده ليحتفل بها كما يليق بشعب كبير لتكون أعظم مشجع على المضى فى طريقه إلى الأمام .

الأغانى والفنون :

٣٧ ـ يجب أن تتبدل الأغانى لتكون مليئة بالقوة والحياة ، أن يحفظ المصريون النشيد القومى .

ويجب أن نعيد إلى الفنون عظمتها الفرعونية والعربية ، حتى تقف فى خدمة البعث والإحياء ، لا أن تكون وسيلة للهو والفجور .

القاهـــرة :

٣٨ ـ ويجب أن تنظم القاهرة تنظيما يليق بعاصمة الشرق فتؤلف لها بلدية ، وتوضع المشاريع لتجديدها وتنظيم أبنيتها وإزالة الأحياء القديمة بأسرها .

ويجب أن تطبع فى تخطيطها بالطابعين العربى والفرعونى ، وأن تبنى منشآتها العامة على هذا الطراز ، وأن تنظم ميادينها وشوارعها وحدائقها كذلك ..

وسائلنـــا

أما وسائلنا للوصول إلى كل ذلك فليست حربا وقتالاً ، وليست عدوانا أو صداما ، ولكنها تتلخص فى كلمتين :

الإيمـان ... والعمــل

نحـو العمـل

٥

كان أول إجراء فكرنا فيه لنبدأ كفاحنا أن نرفع صورة من برنامجنا إلى جلالة الملك المغفور له أحمد فؤاد ، وكان لا يزال يقيم فى الإسكندرية ، حيث يمضى فصل الصيف . فكلفت أحد الخطاطين المهرة أن يكتب لى البرنامج على ورق فاخر بخط جميل . فأحسن القيام بهذه المهمة . ووضعت البرنامج داخل مظروف كبير وسافرت إلى الإسكندرية ، وتوجهت على الفور ، إلى سراى رأس التين ، فاستقبلنى الأمناء هناك ، وعلى رأسهم محمد بك حسين . الذى كان يعرفنى من قبل بمناسبة مشروع القرش . وبعد أن وقعت فى دفتر التشريفات باعتبارى رئيس جمعية مصر الفتاة ، قدمت إليهم رسالتى التى حضرت إلى الإسكندرية لرفعها لجلالة الملك . فأسرعوا إلى فضها ، وتلاوة ما فيها ؛ حتى إذا ما وصلوا فى تلاوة البرنامج إلى الفقرة الخاصة بغايتنا والتى تقول «وغايتنا أن تصبح مصر فوق الجميع ، امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الإسلام» لم يكد القوم يصلون إلى هذه العبارة حتى غصت بها حلوقهم وجحظت أعينهم ، ونظروا إلى فى ريبة وتشكك ... من أنا ؟ أمجنون أم عاقل ؟ وراحوا يتناجون فيما بينهم ، ويعرض كل منهم على زميله هذه العبارة فلا يلبث أن يدهش الدهشة كلها . ويتساءل عن ماهية الموضوع ، ومن أكون ، فيقدموننى له كسكرتير لمشروع القرش ، فيرفع حواجبه فى استغراب وتعجب ! . وأخيرا جاء أحد الأمناء فأخرجهم من هذه الدهشة ، إذ سألنى «هل سبقت لك معالجة الروايات التمثيلية ؟ إنك تجيد التأليف بدرجة مدهشة ، إن لك خيالاً ساخرا .. » وزاح يسخر ويهزأ على هذه الوتيرة . ولقد واجهت هذه العاصفة من الدهشة والسخرية والاستنكار بهدوء وصبر ! . إذ كنت قد وطدت نفسى على احتمال كل شيء فى سبيل دعوتى . وكنت أقدر سلفا ما سوف يلاقينى من صعوبات وويلات واضطهادات .

طلبت إلى القوم أن يرفعوا رسالتى إلى جلالة الملك بالرغم من آرائهم فيها ، ولكن واحدا منهم لم يجسر على أن يمس الرسالة بيده ! . فقد تحولت فى نظرهم إلى عمل

منكر . قد يعرضهم لما لا تحمد عقباه . وراحوا يتفاوضون ويتداولون فيما يعملونه ، وأخيراً استقر رأيهم على إبلاغ الموضوع لعبد الوهاب بك طلعت ، وكيل الديوان فى ذلك الوقت ، فحملوا إليه الرسالة . وقد كان الرجل أكثر إدراكا منهم ، فلم ير حرجا فى استقبالى وسماع ما جئت من أجله !. فتمت المقابلة وتلطف معى ووعدنى بالنظر فى موضوع رسالتى ، ورفعها إلى جلالة الملك ، ففرحت غاية الفرح ، وخرجت من القصر وأنا أتنفس الصعداء إذ فرغت من هذه المهمة التى كان لا بد من القيام بها لدى جماعة جعلت تعظيم الملك . والالتفاف حول عرشه أحد شعاراتها !.

لم أعرف مصير هذه الرسالة إلا بعد انقضاء فترة طويلة من الزمن قد تبلغ الشهر ، عندما استدعانى محمود فهمى القيسى باشا وزير الداخلية فى وزارة عبد الفتاح باشا يحيى . التى كانت فى الحكم فى ذلك الوقت . وأطلعنى على هذه الرسالة وقال : إن القصر الملكى قد حولها إليه ليتكلم معى فيها . وقد أثنى الرجل على الروح التى انطوت عليها مبادئ حزب مصر الفتاة ، وراح يحدثنى عن حماسته لتشجيع الصناعات المصرية . وكيف أن أثاث مكتبه فى الوزارة مصنوع كله فى مصر ، ودعانى للتعاون معه فى تحقيق كل ما يمكن تحقيقه من برنامج مصر الفتاة بصدد تشجيع الصناعات المصرية . ولقد علمت فيما بعد ، وبعد انقضاء أكثر من سبع سنوات على تأسيس مصر الفتاة ، عندما قابلت المرحوم زكى باشا الابراشى لأول مرة ، وقد كان متقاعدا فى ذلك الوقت ، أن جلالة الملك فؤاد تقبل برنامج مصر الفتاة بقبول حسن ، وابتهج ابتهاجا عظيما لروح الإخلاص الذى تفيض به كل عبارات البرنامج المذكور ، وروح التعمق فى دراسة المشاكل المصرية . وأنه استدعى زكى باشا الابراشى ناظر خاصته وموضع سره وأطلعه على هذا البرنامج ، مزهوا بالشباب المصرى الذى وصل إلى هذه الدرجة من النضوج . وقال له إن هذه الروح هى التى يجب أن تزدهر فى مصر ، ولا بد لازدهارها من أن تبتعد كل البعد عن القصر ، لئلا يحاربها الإنجليز حربا باطشة . فإنَّ أخشَى ما أخشاه أن يظن الإنجليز أننى المحرض للشباب على السير فى هذا الطريق . فيبطشون بهم ، فلا ينبغى أن تكون لهم بنا أى علاقة أو صلة على أن ذلك لا يمنع أن توصى بهم وزير الداخلية القيسى لكى يبذل لهم كل عون مستطاع . ولقد فسر لى هذا الحديث المتأخر ، سر دعوة القيسى باشا فى ذلك الوقت للتعاون معه ، والتى لم أكن أدرك لها معنى بعد أن كانت الحرب قد أعلنت بين وزارة الداخلية وبين مصر الفتاة .

مصر الفتـاة والشبـاب

ولندع حديث الحكومة وموقفها من مصر الفتاة ريثما نتحدث أولاً عن موقف الشباب منها .

خرجت مصر الفتاة إلى الوجود فى صورتها الأخيرة ، بهذا النداء ، وهذا البرنامج الذى أذعناه فى طول البلاد وعرضها . فهؤلاء الذين عملوا فى مشروع القرش والذين طافوا بالقطر المصرى ، فى أثناء دعوتهم لهذا المشروع ، قد انطلقوا فى ليلة واحدة ، شرقا وغربا ، يوزعون مئات وألوفا من هذا النداء ، بحيث أحست البلاد من أقصاها لأدناها بهذه القذيفة الجديدة .

ولقد كانت قذيفة من غير شك فلم يسبق لحزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات ، أن تقدمت للشعب المصرى بهذا البرنامج الكامل ، الذى يتناول مختلف المشاكل المصرية ، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية .. لم يسبق لمصر أن عرض عليها مثل هذا المشروع لإعادة بناء كيان البلاد . فالوفد الذى يمثل أغلبية الرأى العام لم يكن له برنامج واضح محدود ، فيما خلا هذه العبارة العامة الغامضة «السعى لتحقيق استقلال مصر ما وجد لذلك سبيلاً» . ومن قبل ذلك ، كان الحزب الوطنى يكافح فى سبيل إجلاء الإنجليز ، وكان زعماه مصطفى وفريد يقدران خطورة المسائل الاجتماعية والاقتصادية فى كفاحهما ضد الأنجليز ، ولذلك فقد عملا على نشر التعليم ، وتأسيس الجامعة ، وتدعيم الحركة التعاونية فى البلاد ، ولكن جهدهما الرئيسى كان موجها للكفاح من أجل الجلاء ، ونشر الدعاية للقضية المصرية فى أنحاء العالمين ، فلم يكن للحزب الوطنى برنامج مفصل . ولقد وجدت فى مصر بعد إنشاء الوفد هذه الأحزاب الطفيلية التى انشقت على الوفد وخرجت عليه ، وهذه بدورها لم يكن لها برنامج ولا هدف محدود ، إلا محاربة الوفد والتعاون مع الإنجليز ، ليكون ذلك سلما للوصول إلى الحكم . فلم تكن لها مهمة فى الداخل ، أو الخارج ، إلا تقلد مناصب الحكم . وظلت البلاد — حتى خرجت مصر الفتاة إلى الوجود — ليس لها برنامج كامل شامل ، يتناول نواحى الحياة المصرية بالدرس والتحليل ، ويضع العلاج لكل قضية من القضايا ، أو مسألة من المسائل . واليوم ، وبعد انقضاء ثلاثة عشر عاما من إذاعة برنامج مصر الفتاة ، فقد تعددت البرامج ، وتسابقت الهيئات والجمعيات والأحزاب ، بل والحكومات ، فى نشر برامج إصلاحية . بل إن من هذه البرامج ، ما قد يذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه مصر الفتاة فى بعض أجزاء برنامجها ، وليس ذلك كله إلا آية نجاح مصر الفتاة وانتصارها ، فقد

كانت أول دعوة مصرية رسمت لإحياء مصر وإنهاضها ، مشروعا كاملاً ، ينتهى بمصر إلى تحقيق كل ما تصبو إليه من مجد وحرية ... ومازلت أذكر ، حتى هذه الساعة ، تعليق سعادة على باشا إبراهيم على برنامج مصر الفتاة ، إذ وصفه لأعضاء مجلس إدارة جمعية القرش بأنه أشبه الأشياء ببرنامج موسولينى لإحياء إيطاليا ، وراح على باشا إبراهيم يتحدث فى حماسة وحرارة عن الصدى الذى تركته فى نفسه تلاوة هذا البيان فكان أجمل مكافأة شعرت بها فى هذه الأيام ، أن أسمع من فم ذلك الجراح العبقرى مثل هذا الثناء على برنامج مصر الفتاة . وحدَّث عن حماسة الشباب التى استقبلوا بها برنامج مصر الفتاة .. هؤلاء الشباب الذين تحمسوا لمشروع القرش بالأمس ، سرعان ما أدركوا أن مصر الفتاة ليست سوى الخطوة الطبيعية التى ينبغى أن تتلو ما صادفناه من نجاح فى مشروع القرش ، فأقبلوا على إدارة جريدة الصرخة ، التى اتخذنا لها مقرا فى مكتب أحد المحامين بشارع محمد على ، فكانت تغص بأرق طبقات الشباب المثقفين من طلاب الجامعة وخريجيها من المحامين والأطباء والمهندسين ، ولا تزال جريدة الصرخة تحمل آثار هذا الرعيل الأول من الشبان ، الذين لبوا صرخة مصر الفتاة الأولى ونداءها ، وهرعوا من كل فج عميق يبايعونها ، ويأخذون على أنفسهم العهد والميثاق أن يمضوا حتى النهاية فى نصرتها .

مصر الفتاة والوفد

ولكن ميلاد مصر الفتاة قد أحدث انزعاجا فى دوائر الوفد العليا ، فقد نظرت إليها نظرة شك وريبة ، وكان على أن أواجه هذه المشكلة أول ما أواجه ... فقد سبق للوفد أن أبدى عدم ارتياحه لمشروع القرش ، فى مراحله الأولى ، إذ توجس منه خيفة ، وساورته الشكوك والوساوس . كان الوفد يحارب فى تلك الأيام وزارة صدقى باشا ، وكان أقصى ما يتمناه أن يكرس الشبان كل نشاطهم ، وكل جهدهم ، لمحاربة صدقى باشا وإسقاط حكومته . فلما أن دعوت إلى مشروع القرش ، وهو مشروع قومى بحت لا يمت إلى الحزبية بصلة ، ويعتمد على معاونة كل مصرى بدون تفريق بين الحكومة والشعب ، أو بين حزب وحزب ، لم ترق هذه الدعوة لدى الدوائر الوفدية ، ورأوا فيها محاولة لإضعاف كفاح الوفد ، وصرف الشبان عن الاشتغال بالسياسة الحزبية ، والتفرغ للمسائل الاقتصادية والاجتماعية ، وهو ما كان الوفد ينفر منه أشد النفور فى ذلك الوقت . باعتباره صارفا لجهود الأمة ، ومهدئا من حدة كفاحها . وغنى عن البيان أننى لم أكن أشاطر الوفد هذه النظرة ، فأنا منذ الساعة الأولى التى عرفت فيها نفسى أؤمن أشد الإيمان بضرورة الكفاح الاقتصادى

والاجتماعى والعمرانى ، إلى جوار الكفاح السياسى . بل إن غاية الكفاح السياسى هى أن يتاح للأمة أن تنهض وترقى بدون عائق يعترض مشيئتها . فكل عمل فى سبيل الاستقلال الاقتصادى هو عمل فى سبيل الحرية ، وكل عمل من أجل الحرية هو وسيلة للوصول إلى الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى والروحى . ولذلك فلم ألق بالاً لاعتراض الجرائد الوفدية ضد مشروع القرش فى بادئ الأمر ، ومضيت فى طريقى لا ألوى على شىء ، إلى أن تبنت الأمة كلها المشروع كما رأينا ، وأصبح مشروعا قوميا ، يتحمس له كل مصرى . فلم يسع الوفد إلا أن يجارى التيار فى ذلك الوقت ، وخف النحاس باشا إلى تأييد المشروع ، وإنى لأذكر الآن هذه الليلة التى ذهبت فيها إلى دار مصطفى باشا النحاس بمصر الجديدة ، لأتلقى منه اكتتابه فى مشروع القرش ، وكان الوفد هذه الليلة مجتمعا ، فتبرع النحاس باشا بخمسة عشر جنيها ، وتبرع كل عضو من أعضاء الوفد بجنيه ، ثم رُئِىَ أن يضاعف النحاس باشا اكتتابه ، فزاد المبلغ إلى ثلاثين . وفى ذلك الوقت دخلت متطوعتان من متطوعات مشروع القرش تعرضان طوابع القرش فاشترى النحاس باشا من كل واحدة منهما بخمسة جنيهات أخرى ، ثم عاد أعضاء الوفد فضاعفوا من قيمة اكتتابهم ، وخرجنا هذه الليلة بما يقرب من السبعين جنيها اكتتابا فى المشروع ، وقد كان إعلان ذلك نجاحا كبيرا إذ استطاع ، فى نهاية الأمر ، أن ينال ثقة الدوائر الوفدية التى كانت لا ترضى عنه أولاً .

على أننى لم أكد أجهر بدعوة مصر الفتاة ، حتى انفجر سخط الوفد ورأى فى ذلك ما يعزز شكوكه القديمة وأوهامه ، من أن مشروع القرش لم يكن إلا خطة مدبرة لتحويل أنظار الشبان عن الجهاد تحت راية الوفد . وبدأت الصحف الوفدية تناوش المشروع وتتهمه بأنه أداة سياسية . فرأيت أن أسرع إلى مقابلة النحاس باشا ، لكى أزيل كل لَبس وغموض فى موقفى ، ولأبرهن له على وطنيتى وإخلاصى ، وأننى سأكون عنصرا معاونا له فى كفاحه ضد الإنجليز ، ولست عنصرا معارضا . وقد قابلنى النحاس باشا فى بيت الأمة ، ولا زلت أذكر هذه المقابلة الأولى بينى وبين رئيس الوفد ، والتى كان معنا فيها الأستاذ حسن يس فى أحد أركان القاعة .

واجهنى النحاس باشا كعادته مهاجما بسيل من الاتهامات ، فلا بد أن أكون صنيعة للأبراشى باشا ناظر الخاصة الملكية ، الذى كان يسيطر على السياسة المصرية فى ذلك الوقت ، وكان الوفد يعتبره خصمه اللدود . ويعلم الله أننى لم أكن رأيت الإبراشى باشا هذا فى حياتى ، بل إنى لم أره إلا بعد بضع سنوات من هذه المقابلة ، وبعد أن زال كل سلطان للإبراشى باشا ، بل وبعد أن أصبح مرضيا عنه من الوفد بالذات . ومع ذلك

فقد اتهمني النحاس باشا بأنني صنيعة له ، وأنه قد اختارني لكي أحارب الوفد بأسلوب ملتو . وكانت حجة النحاس باشا الكبرى فى اتهامه لى تتلخص فى المال الكثير الذى تخيل أنني أنفق منه على حركة مصر الفتاة ، فقلت له هل إذا استطعت أن أثبت لك مورد رأس مالى فى جهادى ، وإذا استطعت أن أثبت لك براءته وطهارته من كل شائبة ، فهل يرضيك ذلك ويقنعك أننى لست صنيعة للابراشي ، وإنما أنا شاب وطنى مجاهد ، يتلمس السبيل لنصرة بلاده . إذن فاعلم يادولة الباشا أننى بمجرد تخرجى من كلية الحقوق سعيت لعقد قرض فى بنك مصر بمبلغ مائتى جنيه ، بضمانة أحد أصدقائى وهذا المبلغ الصغير المتواضع هو الذى بدأت به عملى فى الحياة ، وهو الذى أنفق منه على جريدة الصرخة ، وهو الذى أنفق منه على جمعية مصر الفتاة ، فى مقدورى أن أطلع دولتك على مصاريفنا بالتفصيل ، لترى أننا لسنا أغنياء ، كما تتوهم ، وأنه لا مورد لنا إلا ثمرة مجهودنا فى تحرير المجلة ونجاح توزيعها .

ولقد أسرعت على الفور فأطلعت الباشا على بعض الأوراق التى تثبت صحة ما أقول . ولكن الرجل ظل يرتاب فيما أقول . وانتقل من الشكل إلى الموضوع ، وأخذ يتفحص مبادىء مصر الفتاة ، ويناقش محتوياتها ، ثم وقف طويلاً أمام شعارنا «الله ـ الوطن ـ والملك» وقد كان من الواضح أن هذا الشعار المثلث يضايقه كل المضايقة ، ومازلت أذكر حتى الآن اعتراضه على وضع كلمة الله فى برنامج سياسى وكيف رأى فى ذلك لونا من ألوان الشعوذة ، ثم حام حول كلمة الملك ولكنه لم يقل إلا خيرا . ولقد رحت أحاجه على الفور ، وأرد على كل اعتراضاته ، ومازلت أذكر قولتى ردا على اعتراضه على ابتداء الشعار بكلمة الله : «إن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه أبدا . وكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو عمل لا ينجح ، وإننى أؤمن كل الايمان أن التدين والوطنية يسيران جنبا لجنب ، فكلاهما يفيض من نبع واحد ، نبع المحبة للمثل الأعلى والحق والعدالة .»

ولقد تضايق النحاس باشا أشد المضايقة لمناقشتى إياه ، ورأى فيها اجتراء عليه ، فراح ينعى علىّ عدم انضمامى إلى الوفد والعمل تحت لوائه ، مع أن هذا هو السبيل الوحيد لإبراز وطنيتى . والكفاح فى سبيل بلادى ، وتوعدنى أن مصيرى لن يكون غير الخذلان والفشل الذريع الذى كان من نصيب كل من حاول الخروج على الوفد أو التصدى لمحاربته . ولأن الأمة لم ترحم أحدا خرج على الوفد وانشق على زعامته . وراح دولته يعدد لى أسماء الذين خرجوا على الوفد ، أفرادا وجماعات ، وكيف نبذتهم الأمة وهدمتهم وحطمتهم تحطيما . فأسرعت بالرد على دولته ، مظهرا له أننى استطيع أن أخدم

بلادى . بل وأن أخدم الوفد نفسه ، باستقلال حركتى . فإن وجود حركة وطنية متطرفة إلى جوار الوفد تفيده ولا تضره . تفيده لأنها تظهره أمام الإنجليز والأجانب بمظهر الاعتدال . فيسرعون إلى التفاهم والاتفاق معه ومقابلته فى منتصف الطريق ، وقيام هذه الهيئة المتطرفة لا يضر الوفد . لأنها لا تنتسب إليه . وهكذا يستطيع الوفد أن يكسب من وجودنا . ولا يخسر . وأن يكسب للأمة ، بأسلوبه وطريقته ، ما يستطيع من مكاسب ومغانم .. أما عن التهديد الذى وجهه إلى فقد قلت له «إننى رجل مؤمن ولا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تنال من المؤمن ، وإذا كان النحاس باشا قد نجح فى هدم كل الذين خرجوا عليه فما ذلك إلا لأنهم كانوا يستحقون الهدم ، بل كانوا يحملون عناصر هدمهم فى نفوسهم . أما بالنسبة لى وإخوانى فنحن نحمل فى أنفسنا كل عناصر الصلاحية للحياة . نحمل الإيمان والشباب والإخلاص ، وليس وراء ذلك أسلحة يمكن أن تكفل لنا النصر فى معركة الحياة» .

وعند هذا الحد انتهت المقابلة . وانتهت إلى غير نتيجة حاسمة ، فقد خرجنا منها كما دخلنا غير متفاهمين . بل لعلنا خرجنا منها أكثر افتراقا مما دخلناها . وقد كان ذلك يؤسفنى أشد الأسف . فليس هناك شك فى أن الوفد ، كان فى ذلك الوقت ، يمثل الأغلبية الساحقة لأبناء البلاد . وكان يمثل القوة الشعبية التى ترفع لواء المقاومة فى وجه الانجليز ، وفى وجه الاعتداء على الدستور . ولم أكن أميل إلى الاصطدام بهذه القوة الشعبية ، بل كنت أصبو إلى أن أوفق فى خلق جو يساعدنى على التفاهم والتعاون مع الوفد ، حتى أستطيع فى ظل هذا التعاون أن أدعو لمبادئى العملية فى أوساط الشعب . ولكنى لم أوفق كما قدمت . ولقد سبب لى ذلك متاعب كثيرة .

بدأت حملة المجلات والصحف الوفدية تشتد علىّ بعد هذه المقابلة ، وبدأت جهود الشبان الوفديين المضادة لمصر الفتاة يظهر أثرها فى الجو . وكان مشروع القرش هو محور هجومهم . فاشاعوا وأذاعوا أننى اختلست بضعة ألوف من أموال هذا المشروع .

وقد كانت هذه أول فرية ضخمة ألقاها فى حياتى العامة ، ومع ذلك فقد رضت نفسى على الصبر عليها ولم تزدنى هذه الأكذوبة إلا ثقة واعتدادا بنفسى ، لأننى أدركت أن خصومى لن يستطيعوا محاربتى إلا عن طريق الخسة والنذالة ، وليس وراء ذلك إلا الدليل على قوتى وصدق جهادى .

واشتدت الحملة على مشروع القرش ومصنع الطرابيش . وخشيت على هذا المشروع الوليد أن يتصدع تحت ضغط الهجوم الوفدى والدعاية الوفدية ضده ، وكنت حتى ذلك

الوقت لا زلت أتقلد منصب السكرتير العام لجمعية القرش .. فرأيت أن الساعة قد حانت لكى أستقيل من المشروع ، وأتفرغ لجهادى فى مصر الفتاة ، ولكى أتحرر من هذه المسئولية الثقيلة ، مسئولية مشروع القرش ، بعثت باستقالتى إلى سعادة على باشا إبراهيم ، وكتبت فى الصرخة معلقا على هذه الاستقالة بالعبارات الآتية :

«فى سبيلك يارب قدمت استقالتى من جمعية القرش .

وفى سبيلك يارب وفى سبيل إعلاء كلمتك ما سيصادفنى فى طريقى من عقبات واضطهاد .

وفى سبيلك يامصر قدمت استقالتى من جمعية القرش .

وفى سبيلك وفى سبيل مجدك ما ينتظرنا من تشريد وسجن وعذاب .

وفى سبيلك وعلى مذبحك أقدم مالى ونفسى وروحى فما أحوجك اليوم إلى التضحية .

لقد تم مشروع القرش ، ولقد تم مصنع الطرابيش ، فلم يعد لى عمل هناك .

لقد أديت واجبى منذ كنت طالبا ، فساهمت بالطريق والكيفية التى سمحت لى بها الظروف .

أما اليوم فمصر فى حاجة إلى دم بنيها يسفكونه من أجل مجدها .

لقد انتهت ساعات التمهيد ، ولم يبق إلا الكفاح ، الكفاح العلنى المستميت فإما موت وإما حياة . وليحيا الملك .»

ولم تكن هذه أول مرة أستقيل فيها من جمعية القرش ، فقد سبق لى أن قدمت استقالتى عدة مرات ، ولكنها لم تكن تقبل . أما هذه المرة فنظرا للصعوبات التى بدأت تحيط بالمشروع من الناحية الشعبية ، ونظرا لموقف الوفد العدائى للمشروع ، فقد وافق أعضاء مجلس إدارة جمعية القرش على هذه الاستقالة مكرهين . وقد حاولوا بطبيعة الحال أن يثنونى عن طريقى الجديد وأن يغرونى بالاستمرار فى طريق مشروع القرش ، وأن أكرس حياتى فى خدمة مصر من الناحية الاقتصادية البحتة ، وكيف أن بقائى على رأس مشروع القرش سيمكننى من تنفيذ برنامجى الذى يتلخص فى إنشاء مصنع جديد فى كل عام ، فلا تمضى عشر سنوات حتى أكون قد ملأت مصر بالمصانع التى يعمل بها ألوف وألوف من العمال !. ولكن ذلك كله لم يكن ليؤثر على عزمى وتصميمى فى وجوب المضى فى الكفاح السياسى حتى النهاية ، متصديا للإنجليز والأجانب ، متصديا لكل العناصر السيئة والهدامة ، والمعوقة لنهضة البلاد ورقيها .

على أن رجال جمعية القرش لم يلبثوا أن شعروا بعدم إمكانهم الاستغناء عنى ،

فأرسل إلى سعادة على باشا إبراهيم فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ الخطاب التالى :

حضرة المحترم الأستاذ أحمد حسين المحامى

تحية وبعد : لما كان المجلس حريصا على أن لا تحرم الجمعية من جهودكم وخبرتكم فقد قرروا إشراككم فى لجنة تنظيم الإكتتاب هذا العام ، لهذا أبلغ حضرتكم هذا القرار لتبدأ فى العمل المذكور بما عهد فيكم من النشاط والغيرة على المشروع .

وتفضلوا بقبول فائق احترامى .

رئيس مجلس الإدارة
على إبراهيم

ولقد علقت على هذا الخطاب بكلمة حارة فى مصر الفتاة ، أرى أن أثبتها الآن بنصها ، لأنها تلخص تاريخ هذه الأيام ، وتعطى صورة دقيقة عن العوامل النفسية التى كانت تعتلج فى صدرى وقتئذ ، وهى :

ياصاحب السعادة :

جاءنى من سعادتكم هذا الخطاب ، وإننى لعاجز عن التعبير عما يخالجنى من الشكر العميق لهذه الثقة التى غمرتمونى بها فى خطابكم الرقيق ، والحق أننى لا أتردد لحظة فى أن أقدم نفسى وجهدى وكل ما أملك ، أنا وزملائى ، فى سبيل مشروع القرش وإنجاحه ، لأنه ليس إلا قطعة من أنفسنا وصرخة من صرخاتنا الأولى فى الحياة المصرية المليئة بالغيوم والمليئة بالآلام .

وإذا كنت قد استقلت من مشروع القرش . فما ذلك إلا رغبة منى فى أن أقدم نفسى لفكرة أكثر تطوراً من مشروع القرش وأوسع مدى . فأعمل بحرية من أجل مصر العزيزة غير مقيد بقيد . وغير حاسب لقوة ما حسابا . إلا قوة الله وقدرته .

أجل لقد استقلت من جمعية القرش لأستطيع أن أقول كل ما فى نفس الشباب بحرية وجلاء ضد الإنجليز . وضد الأجانب . وضد الضعف الذى يسيطر على المجتمع المصرى . وضد الخلافات والحروب الداخلية . وضد الجهل والفاقة . ولكى يعمل الشباب الذى استيقظ عملاً إيجابيا من أجل أمته . حتى تثير الحيوية المصرية من جديد . وحتى نعيد الثقة إلى النفوس من جديد . وحتى نعيد أخلاق الرجولة والتضحية من جديد . ونحمد الله يا صاحب السعادة أن الشباب بدأ يستجيب لدعوتنا . إن صرختنا قد دوت فأيقظت الغافلين من رقدتهم . نحمد الله أن الشباب اليوم يريد أن يعمل مخلصا من أجل الله . وفى سبيل الله . مضحيا إلى أبعد حدود التضحية . شجاعا إلى أبعد حدود الشجاعة .

جاءنى خطاب سعادتكم يدعونى للعمل فى مشروع القرش . ولكى أعمل فى مشروع القرش

يجب أن أبتعد عن الصرخة قليلاً . وأن أكف عن محاربة أعداء مصر قليلا . حتى ينتهى الإكتتاب بعيداً عن المهاجمات والمصادمات السياسية . وأنا الذى تعرفنى . يا صاحب السعادة لا يؤثر فىّ تهديد أو إغراء . فأصغيت لطلبك لأنه من أجل مصر وفى سبيل مصر . فلقد عرفت كيف تثير هذه العاطفة فى نفسى . ولأنه صادر منك . أنت الشخص الذى علمنى كيف يفنى الإنسان من أجل مصر . وكيف يضحى الإنسان بكل شىء من أجل مصر . ذلك أنك قدمت يا صاحب السعادة من أجل مشروع القرش كل شىء . قدمت مركزك . قدمت اسمك . قدمت مالك . قدمت جهدك . قدمت أعز ما تنطوى عليه النفس البشرية وأعنى به إيمانك . قدمت كل ذلك يا صاحب السعادة فى وقت كان مشروع القرش فيه فكرة يتناولونها بالسخرية والتحقير . فى وقت كانوا يهاجمونه من كل ناحية . ولكنك آمنت بما فيه من حق . آمنت بما فيه من خير لمصر فعملت فيه حتى أنجحته . وأخذت بيده حتى أصبح يافعاً يرفع راية مصر عالية . هذا المثال يا صاحب السعادة هو الذى جعلنى أقبل طلبك أن أعود للعمل فى مشروع القرش من أجل مصر . ولقد نفذت هذا مخلصا فكتبت فى جريدتى أعلن الهدنة حتى يتم الإكتتاب فماذا كان ؟ كان يا صاحب السعادة أن الحكومة منعت اجتماعا بريئا لمتطوعى مشروع القرش فى تياترو رمسيس ليشتروا طرابيشهم . وكان أن انتهك الجنود . حرمة جمعية القرش . لأول مرة فى تاريخها . لأنهم خشوا أن أكون من بين المتكلمين. ولقد عشنا فى جمعية القرش سنتين لم يتعرض لنا جندى واحد فى الطريق فكيف بجمعية القرش إذن . فرجوعى إلى جمعية القرش لن يفيدها . ولكنه سيؤلب عليها الحكومة . وغير الحكومة ممن أصبحوا لا يطيقون سماع اسمى . من أجل هذا يا صاحب السعادة فإنى أعتذر عن الرجوع إلى جمعية القرش كى تظل فى منجاة من كل هجوم . وأنقض الهدنة التى لم تستمر إلا دقائق قليلة . ودقائق أشعر الآن بحسرتها فى نفسى ؛ ولا يعزينى إلا أنها كانت من أجل مصر وفى سبيل مصر .

لقد استقلت من جمعية القرش لأتفرغ لخدمة مصر بشكل آخر . وهذا السبب لا يزال قائما . وإذن فلن أستطيع الرجوع .

وإنى أعتذر إلى سعادتكم راجيا لكم التوفيق والنجاح . وليس لى إلا جريدتى . وقد أصبحت لسان الشباب . ولسان حال مصر الفتاة . وهأنا أضعها تحت تصرف الجمعية .

سائلاً الله أن يكلل أعمالكم بالنجاح وأن يوفقكم لما فيه خير البلاد

وأما نحن فسنرفع الصوت مدوياً . مصر فوق الجميع ـ الله أكبر[1]

وهكذا انقطعت ، بصفة نهائية ، كل صلة مادية بينى وبين مشروع القرش ، أو مصنع الطرابيش . وإن كانت صلتى الروحية لن تنقطع بينى وبينه أبدًا ، فما كان مشروع القرش إلا وليد جهودى الأولى فى سبيل مصر ومجدها .

---

(١) الصرخة العدد ١٢ ـ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

مصر الفتاة والحكومة

ولنصل الآن إلى موقف الحكومة من مصر الفتاة.!

ولعلك لاحظت فى رفض العودة إلى مشروع القرش هذه الإشارة إلى عدوان البوليس على دار جمعية القرش، والحيلولة بين المتطوعين وبين الاجتماع. فنحن الآن فى شهر ديسمبر، أى بعد شهرين من إعلان برنامج مصر الفتاة، وفى ذلك الوقت كان اضطهاد الحكومة لأحمد حسين ومصر الفتاة قد بلغ أشده، وكانت الحرب بيننا وبين وزارة الداخلية هى حرب حياة أو موت. فنى هذه الفترة القصيرة زج بى إلى السجن لمدة طويلة، وصودرت جريدة الصرخة، ولن يمضى إلا يسير وقت حتى يزج بى فى السجن من جديد. وكان البوليس قد بدأ يضيق الخناق علينا محاولاً خمد أنفاس حركتنا. ولكنى وإخوانى وقفنا فى وجه الزوبعة لا نكل ولا نلين.

كانت الوزارة التى تتربع فى كراسى الحكم هى وزارة عبد الفتاح يحيى باشا، وهى وزارة تألفت على أساس دستور إسماعيل صدقى باشا، وكانت تحكم البلاد بقوانينه الاستثنائية، معتمدة على برلمانه ونوابه. ولكنها فى نفس الوقت كانت إحدى وزارات القصر، التى تستمد كل نفوذها من القصر. ولذلك فقد مرت الأيام الأولى على مصر الفتاة دون أن تتعرض لها الحكومة بخير أو شر. فقد كان ما اشتهر عنى من استقلال عن الوفد، واعتدال فى الرأى، وما أعلنته فى برنامج مصر الفتاة بالذات من دعوة إلى الالتفاف حول العرش، كان لذلك كله أكبر الأثر فى أن مرت الأسابيع الأولى على إنشاء مصر الفتاة بدون معارضة أو مقاومة من الحكومة. بل لعل الهجوم الذى أسرع الوفد بشنه على مصر الفتاة قد كان من الحوافز التى دفعت الحكومة إلى الإغضاء عن نشاط مصر الفتاة. وقد كان هذا الإغضاء بالذات أحد العناصر التى بنى عليها الوفديون اتهامهم لحركة مصر الفتاة، وأنها حركة تتصل بالقصر، وإلا لما سكتت عنها الحكومة وأغضت عن نشاطها وحماستها المتطرفة، فى وقت سيطر فيه الخمود والركود على الرأى العام تحت ضغط الحكومة واضطهادها. ولكن الحكومة لم تتأخر طويلاً، فقد أسرعت، بكل حولها وطولها، لتبطش بمصر الفتاة البطشة الكبرى. ذلك أن المسيطر على وزارة الداخلية، فى ذلك الوقت، كان هو الإنجليزى المشهور السير كين بويد، مدير قسم الإدارة الأوروبية. وكان جنابه هو الحاكم بأمره فى وزارة الداخلية، والذى لا يخالف له وزير أو رئيس أمراً من الأمور. ولقد سكت جنابه على مضض فى الأيام الأولى لمصر الفتاة إلى أن جاءته الفرصة بعد شهر واحد من تأليفها، عندما أصدرنا عددا

خاصا من الصرخة بمناسبة ١٣ نوفمبر ، وعدنا فيه إلى استئناف الجهاد والنضال من أجل حرية مصر واستقلالها . كان العدد المذكور يتضمن مقالات نارية وصورا رمزية ، كان نشرها فى ذلك الوقت يشبه أن يكون قنبلة منفجرة فى سماء الحياة الوطنية . فأما صورة الغلاف فقد سجلت تاريخ «١٣ نوفمبر» بألسنة من اللهب المتصاعد من نيران مشتعلة رمزا للثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ ، ومن خلال اللهب برزت ثلاثة رءوس لزعماء مصر الثلاثة الذين كان ذهابهم إلى العميد البريطانى ، فى ذلك الوقت ، هو بمثابة إشعال نيران الثورة . ونعنى بهؤلاء الثلاثة سعد زغلول وشعراوى وعبد العزيز فهمى . وكان فى الداخل صورة رمزية أخرى «لحامل العلم أو الشهيد المجهول» وهو يجندل برصاص الإنجليز فيقع على الأرض هاتفا «فى سبيلك يا مصر» .

على أن ذلك كله لم يكن شيئا مذكورا إلى جوار المقال الافتتاحى الذى جعلت عنوانه «يا شباب عام ١٩٣٣ كن كشباب عام ١٩١٩[1]»

ويرجع الفضل إلى الأستاذ فتحى رضوان فى كتابتى لهذا المقال الثورى ، بل ودفعى دفعاً إلى طريق الثورة على الإنجليز منذ ذلك التاريخ إلى اليوم ، والفضل الذى أعنيه هو فضل غير مباشر أو غير مقصود ، فقد دأب الأستاذ فتحى ، الذى كان فى ذلك الوقت صديقى الوحيد ، على إنتقاد جميع تصرفاتى وتجريحها . فلقد عمل إلى جوارى فى مشروع القرش ولكن هذا المشروع العظيم لم يسلم من تجريحه ، فقد كان يؤثر فى رأيه أن يكون اشتغالنا بالسياسة صريحاً ، وأن نجابه الإنجليز علناً . وعندما أصدرنا سوياً مجلة الصرخة للمرة الأولى وألفنا جمعية مصر الفتاة ، كانت خطتى ترمى إلى اصطناع الاعتدال ريثما

---

(١) يحسن بنا أن نثبت للذكرى والتاريخ نص هذا المقال الذى كان فاتحة تطور كبير فى حياة مصر الفتاة :

ياشباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩

كن كهذا الشباب الذى قدم نفسه وقوداً للجهاد والوطن ، كن كهذا الشباب الذى أشعل الثورة فى وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة .

ثورة جامحة ضد الانجليز ، والأجانب ، لا تعرف هوادة ولا لينا ، لا تعرف تعقلا . إلا خلاص الوطن من ربقة الاستعباد .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن امتلأت بك السينمات وامتلأت بك دور اللهو ، وامتلأت بك المواخير والملاهى .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن تهزأ بكل شىء ، وتسخر من كل شىء ، وتجهل معنى الاستقلال والتضحية .

ياشباب عام ١٩٣٣ يامن لاتعرف من أمور الكفاح الا أن تتناقش وأن تكون سليط اللسان ، تهاجم زيدا أو عمرا من الناس .

تثبت أقدام جريدتنا وحركتنا ، ولكن ذلك لم يعجب الأستاذ فتحى واعتبره مظهرا من مظاهر الجبن والخوف من الاصطدام بالإنجليز على الفور ، ولقد كان بى دائما أبدا نقطة ضعف ، وستبقى إلى الأبد ، هى أنتى ما اتهمت نفسى أو اتهمنى إنسان بالخوف من شىء من الأشياء إلا وبادرت بدون تفكير أو تدبير بمهاجمة ذلك الشىء لأبرهن لنفسى أننى غير هياب ولا وجل . ذلك أننى لا أعتبر أن هناك نقيصة فى الدنيا يمكن أن تشين الرجل أكثر من أن يكون جباناً . لأن الجبن هو آية العبودية ، ومتى جبن الإنسان فقد فقد على الفور كرامته وإنسانيته وحريته . ولقد كنت أعرف من نفسى دائما أننى أكثر شجاعة من الأستاذ فتحى ، وأننى إذا سكت عن مهاجمة شىء من الأشياء أو شخص من الأشخاص لفترة من الزمن ، فليس ذلك جبنا منى ، ولكن تريثا وتمهلاً إلى أن يأتى

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن تعرف من شئون الممثلات الداخلية أكثر مما تعرف من شئون أمتك ووطنك .

، ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن لاتتغنى الا بأغانى الهوى والضعف والخمول .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، هل استيقظت من سباتك وعرفت أن الساعة ساعة جد وأن الضحك يجب أن لايعرف السبيل إلى القلوب . كيف تضحك ! ؟ ولماذا تضحك ؟ وهذه جيوش الإنجليز تسد علينا السهل والجبل ؟

كيف تضحك ولماذا تضحك والموظفون الإنجليز يحكمون البلد ؟ ..

كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، والمحاكم المختلطة تصلينا العذاب ؟

. كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، والأجانب يسدون علينا الطريق ويحتقروننا فى عقر دارنا ، ويسلبون منا القوت ؟

كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، وقد تدهورت الاخلاق وتفرقنا شيعا وأحزابا ؟

كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، وقد جهلنا أمور ديننا ونسينا إخواننا فى الشرق العربى فلا نمد يدنا اليهم ولانعرف من أمورهم شيئا ؟

. كيف تضحك ، ولماذا تضحك وقد وقف الاصلاح فى كل ميدان وطغت الأزمة وعم الجوع والخراب ؟

ترى ما الذى يضحكنا الا أن نكون عبيدا ألفوا الذلة والخضوع ؟

فى عام ١٩١٩ كانت هناك أحكام عرفية ، وكان هناك إعدام ، وكان هناك رصاص مسموم ، ولكن صوت الشباب دوى لاجيا تهز الظلم وأخاف الإنجليز .

ما بالنا لا نصرخ اليوم ، ولا إعدام ولا رصاص ولا سموم .

ما بالنا لانصرخ صراخاً سلمياً ، لا ثورة فيه ولاعداء حتى نوقظ القوم من غفلتهم ، ونلفت نظر القوات التى بدأت تطغى على حياتنا القومية .. مابالنا لانصرخ ضد هذه المحاكم التى تريد أن تجردنا من قوتنا لكى ندفع للدائنين ذهبا .

مابالنا لانصرخ ضد الامتيازات التى تحتقرنا فى كل صباح ومساء .

مابالنا لانصرخ ضد الإنجليز الذين يريدون سلب السودان ، ويبنون خزان جبل الأولياء ونحن أحوج مانكون الى القوت .

مابالنا لانصرخ كى ينطلق الاصلاح فى كل ركن وفى كل ميدان .

مابالنا لانصرخ لكى نهذب الأخلاق ، ونعيد معانى الشرف والرجولة والأنفة

مابالنا لانصرخ لكى يكون لباسنا مصريا ومأكلنا مصريا ومعاشنا مصريا .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، هانحن نهتف بك ، وهاهى صرختنا تدعوك إلى كل ذلك فان كنت معنا فتعال نجاهد ، وإن لم تكن معنا فحسبنا أننا سنفديك كى لايسجل التاريخ عليك أنك لم تكن تتألم .

الوقت المناسب الذى يستطيع الإنسان أن يهجم فيه كاملا مستعدا . ومن ذلك موقفى فى الأيام الأولى من تأليف مصر الفتاة وإصدار الصرخة ، فلم يكن من الطبيعى أن نشن هجوما عنيفا قبل أن تستقر جريدتنا فنتخذ لنا مكانا ومقرا ونركز جمعيتنا ، ولكن الأستاذ فتحى ، الذى لم يكن له عمل فى كل تاريخ صداقتى إلا مخالفتى فى كل رأى أبديه ، انتقد هذا الموقف ! . وفى حديث بينى وبينه أشار إلى كلمة الجبن فأسرعت لأبرهن له على أننى آخر من يوصف بهذا الوصف فى مصر . فكان هذا العدد من الصرخة الذى كانت الناس تذهل وهى تطالعه وتنظر إلى صوره ورسومه ، كان كل مصرى لا يصدق عينيه أن يكون فى مصر ، بعد هذا الوقت الطويل من تدهور الوطنية والأخلاق ، وانتشار الخوف والجبن فى كل مكان وفى كل نفس ، أن يكون فى مصر مجلة بهذه القوة والحماسة . وأن يكون هناك شبان بكل هذه الجرأة والشجاعة وبدأت مصر كلها تستيقظ على ضوء هذا المشعل الذى رفع لها . وكانت الحكومة وكان الإنجليز ممثلين فى شخص كين بويد أول من أسرع لإطفاء هذه الشعلة التى توشك أن تهدم كل ما سعى الإنجليز لبنيانه فى مصر طوال أجيال وأجيال .

أول تحقيق مع مصر الفتاة

وجاء البوليس والنيابة ليقبضوا علىَّ من المنزل ويفتشوا الدار ، وكان ذلك أول عهدى بمثل هذا الإجراء . فكان وقعه شديدا على أهلى وعلىَّ . ولكننى أسررت فى نفسى : «إننى اخترت هذا الطريق ، ولا سبيل للرجوع عنه وإننى أعلنت عزمى على بلوغ النصر أو القبر ، وإذن فلا محل للتردد أو الجزع ، بل المضى دائما إلى الأمام فى صبر وثبات ويقين .»

وخرج موكب البوليس والنيابة وخرجت معهم مقبوضا علىَّ إلى دار الأستاذ فتحى رضوان ، حيث قبض عليه بدوره ، ثم توجه الركب إلى دار الأستاذ حافظ محمود رئيس التحرير فاعتقل أيضا وساروا بنا إلى قسم الموسكى ، حيث كان فى انتظارنا وكيل النيابة المحقق صادق بك العجيزى ، وبدأ أول تحقيق مع مصر الفتاة ، وفى مبادئ مصر الفتاة ، وماهية مصر الفتاة .

لم يكن تحقيقا صحفيا بالمعنى المعتاد من التحقيق الصحفى ، بمعنى أن يسأل رئيس التحرير عن كاتب المقال وتفسير عباراته والمقصود منها ، وإنما كان تحقيقا جامعا شاملاً أريد به الوصول إلى حقيقة أحوالنا .. فهل نحن جمعية سرية ، وهل اعتزمنا أن نقتل

وأن نغتال ، وهل لدينا أسلحة وذخائر ، وهل نمت بصلة إلى جهة من الجهات فى مصر أو خارج مصر؟

وهل لنا آراء شيوعية ؟ أو لنا خطط ثورية ؟ ومن أين لنا المال ؟.. المال ، المال ودائماً المال كان وبقى منذ ذلك التاريخ أول ما يسأل عنه من يريد إثارة الريبة فى مصر الفتاة . ومن أين لها المال الذى تنفق منه على هذه الدعاية الواسعة النطاق ؟ وسرعان ما تبين للمحقق ضآلة الموارد المالية ، وأنها تتلخص فى هذا الدين الذى استدنته من بنك مصر بضمانة أحد الأصدقاء ، وأن كل مصروفاتنا وإيراداتنا تتلخص فى أعداد المجلة وتوزيعها ، وأثبت للمحقق أننا لا نمت إلى الشيوعية بسبب ، وأننا لا نفكر فى قلب نظام الحكم فى مصر . بل نحن نؤمن بالملكية وندعوا إلى تدعيمها ، عن طريق الحكم الدستورى السليم ، كما هو الحال فى إنجلترا . وثبت للمحقق أن باطننا كظاهرنا ، نقى طاهر أبيض ناصع البياض ، ولكننا نشتعل حماسة وإيمانا بحق بلادنا فى المجد والعظمة ، فضلاً عن الحرية والإستقلال ، وأن عزمنا أشد من الحديد صلابة وأقوى من الفولاذ . فقد فوجىء المحقق بموقف لا عهد له به من قبل ، فوجىء بثلاثة شبان يتنافس كل منهم فى نسبة شرف ما كتب فى مصر الفتاة إليه . ولا يحاول أن يهرب من المسئولية . فقد فاتنى أن أذكر أن المقالات التى نشرت بالمجلة كانت غير ممهورة بالتوقيع وقد سأل المحقق كلامنا على انفراد عن كاتب هذه المقالات ... ولقد خجل الأستاذ فتحى رضوان أن يتبرأ من هذه المقالات ، وهو الذى كان يلوح لى بالجبن فأسرع إلى نسبة هذه المقالات إليه ، أما الأستاذ حافظ محمود رئيس التحرير فقد أبى أن يكشف عن كاتب المقالات واعتبر نفسه مسئولاً عما كتب فى المجلة بحكم منصبه ، أما أنا فقد كنت الكاتب الحقيقى للمقالات ، ولذلك فقد اعترفت بها وتحملت مسئوليتها بمفردى وأقسمت للمحقق أننى كاتبها دون الآخرين .. وقد كان ذلك موقفا عجبا ، لأن المألوف فى ذلك العهد أن يتنصل الكاتب مما كتب ، لا أن يتنافس ثلاثة فى احتمال مسئولية ما كتب فى المجلة .

وانتهى التحقيق المبدئى فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأصدر المحقق أمره بحبسنا أربعة أيام على ذمة التحقيق . ولما كان لا يمكن إرسالنا إلى أحد السجون العمومية فى هذه الساعة المتأخرة ، فقد زج بنا فى سجن القسم حيث يسجن المتشردون والقوادون والسكارى وأصحاب الجرائم ، فى سجن مظلم معتم رطب تفوح منه أنتن الروائح وأضرها ، وحيث يتكدس المسجونون على الأسفلت تكدسا ، فى جو من القذارة والحشرات التى تملأ الجدران والسقف والأرض ، بل وتملأ الهواء .

ولقد كانت هذه أول محنة حقيقية ألقاها فى حياتى الجديدة ، لم ألق بعدها محنة

أبدا . لقد كان انتقالاً مفاجئا حادا ، وكانت عقوبة لا عهد لى بها من قبل . فحتى ذلك التاريخ لم أكن ألقى إلا الإحترام والتوقير فى كل مكان .. كانت شهرتى كشاب نابغ عامل تسبقنى فى كل مكان أصل فيه ، فلا أرى إلا الإعجاب والتقدير ، ومبادرة الكل إلى معاونتى على تحقيق ما أريد ، وخاصة بعد نجاحى فى مشروع القرش وبناء مصنع الطرابيش . وكنت صحفيا ، وكنت محاميا ، وكنت أجلس مع الوزراء ، فلما رأيت نفسى فجأة ملقى على أرض هذا السجن المظلم كادت أنفاسى تختنق ، وأحسست كما لو كان الموت يظللنى وأننى أوشك أن أغادر هذه الحياة الدنيا . وكان يزيد فى ضيق نفسى ما كنت عليه من فرط إعياء ، فقد كنت صائما فى ذلك اليوم لم أتذوق طعاما وكان السهر والتحقيق الطويل قد انهكنى . وعندما يكون الإنسان جائعا ومنهكا تتأثر معنويته نتيجة لذلك . على أن الذى كان يؤثر فى أكثر من كل شىء آخر هو هول الصدمة التى صدمت بها ، وهذا الخطر المجهول الذى أصبح يحدق بنا ... فقد كان المحقق يبحث معنا فى جرائم الشيوعية وقلب الحكم والتحريض على الثورة ، ومعنى ذلك أن القوم سيبطشون بنا ، وقد يحكم علينا بالأشغال الشاقة لمدة طويلة أموت أثناءها ، وإذن فهذا السجن هو بدء النهاية وأنا الآن فى مرحلتى الأخيرة .

لم يكن هناك ما ننام عليه ، بل لم يكن هناك مكان لننام فيه ، فجلسنا نحن الثلاثة وأسندنا ظهورنا إلى ظهور بعض ، وحاولنا أن نغمض أعيننا لنحظى بشىء من الراحة بعد ما بذلناه من عناء .. ولقد نمت ولست أعرف كم من الزمن استغرقت فى نومى ، أمقدار ساعة أم نصفها أم ربعها أم أقل من ذلك كله أم أكثر؟ ولكن التغير الذى طرأ على بعد يقظتى من جديد كان تغيرا عجيبا جدا ، فقد بدأت أشعر بالراحة وبدأت أشعر بصفاء نفسى وبزوال كل قلق ورغبة فى الاستمتاع بهذا الوضع الجديد الذى نحن فيه ، لقد كان الكثيرون من المسجونين رقودا فهدأ هذا الضجيج ، وكان ثمة نور ، لست أذكر إذا كان نور القمر أو ضوء الصباح ، كان يدخل إلى السجن من هذه الكوة فى عاليه وبدا المكان محتملاً على خلاف ما تصورته لأول وهلة ...

وما السجن ؟ كان ذلك أول ما خطر على ذهنى ... إذا كان هذا هو السجن ، وهذا هو أشد ما يلقاه المجاهد ، فسأعرف كيف أتغلب عليه ، وكيف أحتمله ، ووجدت رفيقى قد طرأ عليهما مثل ما طرأ على من الإنقلاب ، فقد اعتدنا المكان وبدأنا نألفه وشرعنا نمزح ، ونعلق على ما فيه من المناظر العجيبة ، وبدأت حركات السكارى تضحكنا ،

وأحاديث المجرمين تستلفت أنظارنا لما تحويه من معان غريبة وعبارات واصطلاحات مضحكة ...

واستؤنف التحقيق فى الصباح ، ولكننا مع الصباح كنا قد استرددنا كل معنوياتنا ، وكل قوانا ، ولذلك فقد بدأت أشتد على المحقق وأهاجمه وأجابهه بأعنف مما فعلت فى الأدوار الأولى للتحقيق ... وقد استطعت فى هذه الفترة أن أختلس ورقة وأن أخط بها بعض كلمات فى مجلة الصرخة كانت كأقوى ما كتبت فى أى يوم من الأيام ، وجعلت عنوانها «لن نخاف[1]» ...

---

(١) من أعماق السجون

لن نخاف

أجل لن نخاف السجن والتعذيب والتشريد ، لن نخاف عجرفة رجال البوليس وشدة رجال النيابة وهول السجن ، فنى سبيل الله مانفعل وفى سبيل الله نضحى بكل ماتملك .

وفى سبيلك يامصر تهون التضحية ويستحب العذاب .

فى سبيلك ياأمنا الغالية ، وفى سبيل مجدك ، أرحب بالسجن كخطوة أولى لإنقاذك .

مصر يامن حكمت العالم يوما وتزعمت الإسلام .

مصر يامن من أضاء نورك على الإنسانية فى كل عصورها وحاربت الزمان .

يامصر الخالدة القوية العزيزة ، لن تموتى أبداً ، بل ستبقين قوية لتعيدى سيرتك الأولى .

ولكن قبل ذلك يجب أن يقدم نفر من بنيك أنفسهم فداء عنك وعن أبنائك .

ولكن قبل ذلك يجب أن تمتلىء السجون بالأبرياء ويجب أن نحتمل العذاب صابرين .

وهانحن نفعل يامصر ، هانحن فى عيد جهادك نقدم أنفسنا قربانا على مذبح عظمتك . فعيشى يامصر وحلقى فوق العالمين ، عيشى والسجن شعار مجدك ، عيشى لتعودى كما كنت امبراطورية تتزعم الإسلام وتعلى كلمة الله والدين .

أيها الشباب ياشباب عام ١٩٣٣ ..

نريدك أن تذكر مصر اذا ما خلوت الى نفسك ،

نريدك أن تذكر الآلام التى نعانيها والتى تسد علينا طريق الحياة

نريدك أن تؤمن بحق مصر ايمانا وطيدا بحقها فى الحياة والمجد

لماذا يعيش الانجليز بين ظهرانينا ؟ ولماذا نسكت على ذلك ؟

ولماذا يستنزف دمنا الأجانب ؟ ولماذا نسكت على ذلك ؟

لماذا نقع فريسة التفرق والاهواء ؟ ونسكت على ذلك ؟

أيها الشباب ، ياشباب عام ١٩٣٣ ، وداعا والى اللقاء ، قد أعيش ياشباب حتى أخرج ثانية لأكافح فى سبيل مصر من جديد ، ولأعود الى السجن مرة أخرى

وقد أموت فى السجن فشكرا لك ياربى أن جعلتنى أقوم بواجبى ، شكرا لك يارب أن منحتنى القوة لأقول للظالم يوما أيها الظالم ولأقول لغاصب بلادى أيها الغاصب الويل لك من سخطى وايمانى . أما أنتم ياأصدقائى فاثبتوا على إيمانكم وسيروا كل يوم إلى الأمام ، وأنت ياصرختى وداعا وإلى اللقاء . أترى هل تظلين مدوية حتى أعود لألقاك أم —

وأرسلوا بنا إلى سجن الاستئناف لتضية باقى أيامنا الأربعة ، ولقد بدأت نفوسنا تتهيأ لاحتمال ما نحن مقبلون عليه ، ولذلك فقد خضعنا لكل الإجراءات التى أخضعونا لها فى السجن ، وهى هذه الإجراءات التى تتبع مع المجرمين العاديين ، حيث يجبرون على الاستحمام بالماء البارد ويزيل لهم الحلاق كل شعر فى جسدهم . ولقد زج بى فى السجن بعد ذلك أكثر من مرة فلم تستخدم معى هذه الأساليب ، بل لم أرها تستخدم فى أى وقت من الأوقات مع أى مسجون نظيف ولكن جلسنا فى ذلك الوقت واستعدادنا لاحتمال كل شىء جعل رجال السجن يطبقون علينا كل هذه الإجراءات .

ولقد كان كل شىء فى السجن بمثابة تجربة لنا ومحنة وكانت أنظمة السجن بكل ما فيها من إجراءات مهينة تطبق علينا بحذافيرها ، فلم نكن نعرف ضابطا ولم يكن يعرفنا إنسان (فاستلطختنا السجانة) وعاملونا أسوأ معاملة . ولقد كان أقسى ما عوملنا به فى ذلك الوقت اضطرارنا لإزالة الضرورة وسط حشد من المسجونين فى غير ستر أو حائل يحول بين مسجون وآخر ، وهو أسلوب لا يزال متبعاً فى السجون المصرية ولكنه لم يطبق على بعد ذلك أبداً .

ولست الآن بسبيل التحدث بالتفصيل عن أيامنا فى السجن وحياتنا به . والمهم أنه فى كل يوم جديد كانت حالتنا تتحسن فى السجن ، ومعنوياتنا تقوى . ولما رُفضت المعارضة فى أمر حبسنا الأول وأصدر القاضى أمره باستمرار حبسنا أربعة عشر يوما عدنا إلى السجن فرحين مسرورين . وقد بدأنا نقبل على المطالعة والمناقشة والمحادثة فى شتى شئون البلاد ، وكان الأستاذ حافظ محمود يرتل لنا القرآن ، أو يغنى لنا بصوته الرخيم بعض الأناشيد والألحان ، وكان كل منا يلخص للآخر ما يقرأ من كتب . وسرعان ما تحولت أيامنا فى السجن إلى أيام جميلة ، وتحول هذا الشبح المخيف ... شبح السجن إلى نعيم روحى ، حيث يصلى الإنسان ويحسن الصلاة ، وحيث يقترب الإنسان من ربه ويزداد اقترابا وحيث يفكر ويتعلم ويجدد قواه ...

ولما جاء أوان الإفراج عنا إذا بى أخرج من السجن بقوة وعزم متجددين ، وإذا بى

= سيخفت صوتك عما قريب ... ولكن لا ، فأنت صرخة عقيدة وإيمان ولن تموتى أبداً إلا إذا مات الإيمان .
فى سبيلك يارب ،
وفى سبيلك يامصر ،
وفى سبيلك يامليكى ،

أدخل اليــوم السجن

الصرخة – ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣

أكثر استعدادا للنضال والكفاح عن ذى قبل ، بعد أن اجتزت هذه التجربة الأولى بنجاح ... ولقد علمتنى التجارب فيما بعد أن هذا الأثر الذى أحدثه السجن فى نفسى هو ما يحدثه فى كل صاحب فكرة وكل مجاهد فى سبيل مثل أعلى ، وهو أن يزيد فى إصراره على المضى فى كفاحه ، ولا يثنى من عزمه بأى حال من الأحوال . فليس هناك كالاضطهاد لصاحب الفكرة السليمة إكسير لتقوية عزيمته ومضاعفة إيمانه . ولقد كانت حماسة إخواننا فى الخارج بهذا السجن قد تضاعفت بدورها ، واستطاع زميلنا الأستاذ كمال الدين صلاح أن يمضى فى إصدار مجلة الصرخة بنجاح عظيم فلما أن خرجت وجدت جوا يخالف الجو الذى كان يسودنا قبل هذا الاضطهاد ... وجدت روح الاعتزاز والفخار بجهادنا وتضحيتنا ، ووجدت شبانا تلمع عيونهم وتخفق قلوبهم رغبة فى الجهاد والتضحية ، ولذلك فقد هرعت إلى العمل على الفور ووضعت هذه المبادئ العشرة ، التى لخصت فيها آرائى وكفاحى فى كلمات قليلة لتكون دستورا لنا ومنهاجا . وسرعان ما أصبحت هذه المبادئ العشرة إنجيل الوطنية فى هذه الأيام ، وأقبل الشبان على حفظها عن ظهر قلب وتلاوتها أمام الآخرين فكانت تفتح القلوب على مصاريعها وتحمل الجميع على الإيمان بما تنطوى عليه حركتنا من صدق وإخلاص وروح عملية . وإليك نص هذه مبادئ :

١ - لا تتكلم إلا بالعربية ، ولا ترد على من لا يخاطبك بها ، ولا تدخل محلاً لا يكتب اسمه بالعربية .

٢ - لا تشتر إلا من مصرى ، ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا تأكل إلا طعاما مصريا .

٣ - تطهر . فقاطع الخمور ، ودور اللهو الحرام ، والسينمات الأجنبية .

٤ - تطهر . فصل لربك ، وأم المسجد يوم الجمعة إن كنت مسلما ، والكنيسة يوم الأحد إن كنت مسيحيا ، ويوم السبت إن كنت يهوديا .

٥ - احفظ نشيد «اسلمى يا مصر» ورتله بكل نفسك فى كل حفل ، وليكن أنشودتك فى كل مكان .

٦ - حاسب نفسك كل ليلة ماذا قدمت فى يومك من أجل بلادك ومجدها ، وسر فى كل مكان واثقا بنفسك كمصرى ، وامتلىء إيمانا بمجدك وقوتك .

٧ - احتقر كل ما هو أجنبى بكل نفسك ، وتعصب لقوميتك حتى الجنون .

٨ - بلادك هى مصر والسودان معا لا يتجزآن ولا ينفصلان .

٩ ـ وغايتك أن تصبح مصر فوق الجميع ، دولة شامخة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الإسلام .

١٠ ـ وليكن شعارك دائما : الله ، والوطن ، والملك .

(نشيد اسلمى يا مصر)

تأليف مصطفى صادق الرافعى وتلحين صفر على

اسلمى يامصر إننى الفدا	ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكينى أبدا	إننى أرجو مع اليوم غدا
ومعى قلبى وعزمى للجهاد	ولقلبى أنت بعد الدين دين
لك يامصر السلامة	وسلاما يابلادى
إن رمى الدهر سهامه	أتقيها بفؤادى

واسلمى فى كل حين ،

أنا مصرى بنانى من بنى	هرم الدهر الذى أعيا الفنا
وقفة الأهرام فيما بيننا	لصروف الدهر وقفتى أنا
فى دفاعى وجهادى للبلاد	لا أميل ، لا أمل ، لا ألين
لك يامصر السلامة ...	...

* * *

ويك يامن رام تقييد الفلك	أى نجم فى السما يخضع لك
وطن الحر سما لا تمتلك	والفتى الحر بأفقه ملك
لا عدا ياأرض مصر فيك عاد	إننا دون حماك أجمعين
لك يامصر السلامة ...	...

* * *

للعلا أبناء مصر للعلا	ولمصر شرفوا المستقبلا
وفداً لمصرنا الدنيا فلا	تضعوا الأوطان إلا أولاً
جانبى الأيسر قلبه الفؤاد	وبلادى هى لى قلبى اليمين
لك يامصر السلامة	

أول خطاب عام

٦

إلى هنا كانت مصر الفتاة قد أعلنت عن نفسها ، وعن مبادئها ، عن طريق الصرخة ، ومقالات الصرخة ، عن طريق اضطهاد الحكومة والوفد لها . وقد حانت الساعة لتخطو مصر الفتاة كجماعة سياسية خطوتها الثانية ، وهو أن تتصل بالشعب على اختلاف طبقاته ونزعاته ، فى اجتماع عام ، أبسط فيه مبادئ الحركة ، وأدفع عنها ما يوجه لها من اتهامات ، وأكشف فيه عن مقدار قوتنا واستجابة الشباب والشعب لنا .

وكان لابد من التحايل لإقامة هذا الاجتماع ، فمن المحال أن تسمح لنا الحكومة بعقد اجتماع سياسى . فلجأت إلى المرحوم عبد الحميد بك سعيد ، رئيس جمعية الشبان المسلمين ، وطلبت منه أن يتيح لى فرصة إلقاء محاضرة موضوعها «جهادنا الدينى» . فأجابنى الرجل المجاهد إلى طلبى مرحبا ، بل وأعلن استعداده لإقامة سرادق فى ساحة الجمعية[1] لكى يتسع للعدد الكبير من الجمهور الذى سيرغب فى الاستماع إلى هذه المحاضرة ، ولقد كانت شخصية عبد الحميد بك سعيد ، ودار الشبان المسلمين ، كفيلة بحماية المحاضرة وعدم تعرض الحكومة لها ، ولذلك فقد أقيم السرادق بالفعل ووزعت الدعوات ، وفى الليلة المحددة لإلقاء المحاضرة ، فى مساء السبت ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، توافد الشباب على دار الشبان المسلمين ليستمع لأحمد حسين متكلما ، بعد أن طالعه كاتبا ، ولكى يحكم له أو عليه . وجاء الشباب الوفدى ليعكر صفو الاجتماع وليفسده ، وجاءت جواسيس الحكومة لينقلوا صورة مايقال أو يحدث ، وغص السرادق بالوافدين ، وتكهرب جو المكان بحماسة الشبان ، وكان كل شيء ينذر بأن هذا الاجتماع لن يمر بهدوء وسكون ، ولابد من انفجار العاصفة . وفى ذلك الجو بدأت حديثى مفتتحا باسم الله ، ولم أكد أمضى فى حديثى حتى بدأ الشبان الوفديون باعتراضاتهم ومقاطعاتهم ، وتجلت نواياهم فى إفساد الاجتماع ، فاحتك بهم شبان مصر الفتاة ، فكانت معركة عنيفة أسلحتها الكراسى التى كانت تتطاير فى سماء المكان ، وتتحطم فوق

---

(١) كانت جمعية الشبان المسلمين فى ذلك الوقت تقيم فى شارع مجلس النواب فى السراى التى يوجد بها الآن متحف الشمع .

الرؤوس وتهشم . ولقد وقفت خلال المعركة فوق منصة الخطابة لا أتزحزح ولا أتحول ، والكراسى تنهال علىّ وحولى ، ولكن عناية الله شاءت أن تحمينى فى هذه الليلة ماديا وأدبيا . حمتنى ماديا ، لم تصل إلى ضربة من الضربات الطائشة ، ولم ينلنى أى سوء . وحمتنى أدبيا ، بأن ملأت قلبى شجاعة وقوة ، فلم أحاول أن أبرح مكانى أو أن أحنى رأسى ، بل ظللت منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، حتى استطاع الإيمان والحق أن ينتصر على الباطل . وفرّ المعتدون بعد أن أصيبوا بضربات باطشة . وفى أقل من لمح البصر عاد النظام إلى المكان وامتلأت الكراسى من جديد بجموع الشبان ، الذين زادهم هذا الانتصار إيمانا على إيمان . وخيم السكون على الحاضرين فجلسوا ينصتون كأن على رؤوسهم الطير ، حتى إذا فرغت من خطابى انفجرت حماستهم فراحوا يهللون ويكبرون ويشق هتافهم عنان السماء . وخرجوا من دار الشبان المسلمين يتظاهرون هاتفين لمصر الفتاة ومكررين هتافات مصر الفتاة ... وهكذا تقدمت مصر الفتاة إلى الشباب ليحكم عليها فحكم لها . ومنذ ذلك التاريخ دخلت حركة مصر الفتاة فى طور جديد ، فقد أصبحت حركة عامة ، تتصل بالرأى العام أقوى اتصال ، ولا تستطيع أى هيئة من الهيئات أن تتجاهل وجودها ، أو تظن أنها قادرة على إطفاء نورها .

وإليك الآن نص هذا الخطاب :

جهادنا الدينى

بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ جهادنا فى سبيل الله ، وبسم الله الرحمن الرحيم أفتتح حديث المساء . أيها السادة ..

حكمة الله

عجيبة والله حكمة الله .. كان مقدرا لهذه المحاضرة أن تلقى فى يوم الجمعة ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ، وكان الاتفاق عليها قبل هذا الميعاد بخمسة أيام ، وكنت قد أخذت على نفسى عهدا أن لا أقدم عليها قبل أن أتلو كتاب الله مرة ، ونظرا لمشاغلى العديدة فقد أكربنى هذا الأمر ، وعجزت عن تنفيذه .. فكنت لذلك فى حزن مقيم .. وشاءت إرادة الله أن أقاد إلى السجن ، وفى السجن لم يكن لى عمل إلا تلاوة كتاب الله ، فتلوته مرة ومرتين .. وزدت عليه أن طالعت السيرة.. وهأنذا أقف بعد مضى شهر من الميعاد الأول ، لألقى المحاضرة بعد أن قرأت القرآن .. عجيبة والله حكمة الله ..

نبذة عن تاريخ حياتى

وبعد فقد عرفتمونى أيها السادة صاحب فكرة مشروع القرش وسكرتيره ، لقد عرفتمونى مشتغلاً بمصنع الطرابيش حتى خرجت إليكم الطرابيش تزينون رؤوسكم بها ، وترفعون عن أنفسكم عار الأجنبى وذله .

عرفتموني شخصا يشتغل بالمسائل الاقتصادية ، ويدعوكم للتعاون فى سبيل تحقيق الاستقلال الاقتصادى .. فما بالكم تروننى اليوم أقف متحدثا باسم الدين، ومن أجل الدين . مالكم تروننى بين جدران جمعية الشبان المسلمين ، بعد أن كنت قد انقطعت عنها حقبة من الزمان ، والحق أنه لايجب أن تستغربوا ذلك منى لأنه تصرف طبيعى ، ومنطق مع مقتضيات الظروف والأحوال .

لقد فتحت عينى أيها السادة فى فجر الثورة المصرية .. كنت طفلاً وقتذاك لم أتجاوز الثامنة من عمرى ، ولم أكن إلا طالبا بالمدارس الإبتدائية فى السنة الأولى منها ولكنى أذكر أننى اشتركت ككل طفل فى ذلك الوقت فى الجهاد القومى ..فاندرجت فى سلك المظاهرات ، وارتفع صوتى بالهتافات المدوية «مصر والسودان لنا ـ مصر للمصريين ـ الاستقلال التام أو الموت الزؤام» . أجل أيها السادة أذكر هذه الصور التى أيقظت روحى بقوة والتى تلهمنى كيف أحب أمنا الخالدة مصر .. وكيف يسترخص الإنسان الحياة من أجل مصر .

من ذلك الوقت أخذت أطالع تاريخ مصر ، وحيوية مصر .. وفى كل يوم كنت أتعلم درسا جديدا عن المجد المصرى القديم .. وفى كل يوم كنت ألقن صفحة جديدة من صفحات الحيوية المصرية .. وارتقيت إلى المدارس الثانوية ، ولم يكن فى مصر أحداث سياسية بحيث تشغل حياة الشبان ، قضيت فيها وقتا طويلاً حتى استيقظت .. وكانت يقظتى بين جدران معبد الكرنك وفى وادى الملوك ، كنا فى رحلة كشفية ، وكنا نعيش وسط الخيام على ضفاف النيل ، وفى كل صباح كنا ننطلق لنعيش فى آثار المجد المصرى وانتقلنا من الأقصر إلى أسوان فالشلال .. وفى كل هذه الأماكن كنا ننزل بلاداً ، أو نشاهد آثاراً جليلة ، فتفتحت نفسى أيها السادة وآمنت بمصر وعظمة مصر ..

صفحات من تاريخ مصر

هناك تعلمت كيف كان فى مصر حضارة منذ أربعة آلاف من السنين تزرى بحضارات القرن العشرين ، كيف كان أجدادنا يكونون دولة عظيمة ، فى وقت كانت الإنسانية تعيش فى الكهوف والأدغال أكثر ما تكون شبها بالحيوان .

هناك تعلمت أن مصر خالدة : وأنها عاشت على مر السنين قوية نابضة .. أربعة آلاف من السنين أيها السادة يحاربها الزمان فلا يزيدها إلا قوة ، ولا يزيدها إلا اضطراما واشتعالاً .

كم من الدول أغارت عليها ، وكم من الفاتحين مروا عليها ، ولكن الدول دالت ، ولكن الدول الفاتحة ماتت ، وبقيت مصر !! .. مصر كما كانت دائمة حية قوية !!

هناك تعلمت هذه القوة السحرية التى استطاعت أن تحول كل شىء إلى مصرى ، وأن تصهر العناصر الجديدة وأن تصيرها مصرية .

هناك شعرت بمصريتى ، وهناك أحسست بكرامتى ، وهناك هتفت من أعماق قلبى : «مصر فوق الجميع !! ..»

ولما عدت إلى مصر أخذت أراجع تاريخ بلادى ، فازددت زهوا حتى وصلت إلى تاريخ

الإسلام ، ومصر العربية .. الله أكبر ! لقد طالعت عجبا .. الله أكبر ! لقد رأيت مصر تعلم العالم وتضيئه بجامعة الأزهر .. الله أكبر ! لقد رأيت الجيوش المصرية تحارب الجيوش الأوربية فتقهرها ، وتأسر ملوكها وأعز فرسانها ، فهتفت من أعماق قلبي للمرة الثانية «مصر فوق الجميع !!» .

وواصلت قراءة التاريخ حتى العصور الحديثة ، لأرى مصر تحت زعامة محمد على باشا امبراطورية عظيمة تخيف أوروبا بأسرها ، لها أساطيل فى البحر وجيوش فى البر ، تدك الحصون وتفتح الأقطار ، وفيها المعاهد والمدارس تعلم الشرق القريب والبعيد . فهتفت من أعماق قلبي للمرة الثالثة «مصر فوق الجميع !!» .

مصر بين ماضيها وحاضرها

وقارنت بين هذا المجد وما نعيش فيه من ذل ، قارنت بين هذا الماضى السعيد وبين حاضرنا الشقى . يا إلهى ! ما أعظم الفرق وما أبعد الشقة ، لقد بدا لى أن كل شيء حولى مخيف وكريه . لقد بدا لى أننا نعيش فى جحيم ، هذه الإمبراطورية العظيمة ما بالها قد انكمشت وتقلصت ، وما بالها قد فقدت كل شيء ، حتى الحق الطبيعى فى الحياة ، حتى الاستقلال ! ما بال الجيوش الأجنبية تغزوها وتعيش فى أرضها ! ما بال أهلها هكذا يعيشون فى جهل مقيم ، ما بال قوتها هكذا يسلبها الأجانب جهاراً والناس فى غفلة ، ما بالنا يحارب بعضنا بعضاً ، وما بالنا نتقاتل والعدو يسخر منا ، ما بال أخلاقنا قد هوت حتى الدرك الأسفل ، ما بالنا نندفع فى اللهو والفجور والخلاعة ، ناسين الفضيلة وكل ما هو جميل فى الحياة ، ما بالنا مرضى ؟ ما بالنا ضعفاء ؟ .

كنت أسأل نفسى هذه الأسئلة وكان الغم يقتلنى .

كنت حائراً ، كنت برماً بالحياة .

يارب كيف تتبدل هكذا صروف الحياة من عز إلى ذل ؟ ومن قوة إلى ضعف ؟ يارب ماذا فعل آل مصر لتحل عليهم لعنتك هكذا ؟ ولتسلط عليهم من العذاب ألواناً ؟ يارب .. كيف تسمح بأن تنتهك حرمة هذا البلد الأمين هكذا ؟ وهو يسبح بحمدك ويجلك ..

وكان على مكتبى نسخة من القرآن الكريم ففتحته لعلى مهتد فيه إلى مايرد إيمانى واطمئنانى ، فإذا بعينى تقع على هذه الآية :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

ياسبحان الله وياقدرة الله !! لقد قفزت من مكتبى وأنا أصيح لقد عرفت السر . لقد عرفت السر «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» هكذا .. هكذا لقد تغيرت النفوس فغير حالها الله .

لقد جحدت النفس فعاقبها الله .. لقد تنكرت النفوس فتنكر لها الله .

وكان لابد من العمل .. لابد من رفع الغشاوة التى تعمى أعين المصريين ، فجاهدنا أنا ونفر من إخوانى الأعزاء ، وأصدرنا جريدة الصرخة منذ أربع سنوات ، ولكننا كنا طلاباً محوطين بالطلبة ، وجاءت القوانين صارمة تمنع الطلبة من كل شيء فتعطل عملنا .

ومع ذلك فقد كان لابد من عمل شيء .. شيء بعيد عن السياسة كى يشتغل به الشباب .

فاهتممت بالناحية الاقتصادية .. ذلك أنى رأيت كل شىء فى هذا البلد مملوكا للأجانب .

مشروع القرش

رأيت القوت يسلب من المصريين فى وضح النهار ، رأيت الفقر والفاقة مع أننا نستطيع أن نجرد الأجانب من كل شىء .. مع أننا نستطيع أن نسلبهم القوت الذى يسلبوننا إياه .. مع أننا نستطيع أن نبدل فقرنا ثراء ، واحتياجنا غنى .. وذلك بقليل من الإرادة ، وبقليل من التعاون فدعوت الأمة إلى جمع قرش من كل مصرى ، لتأسيس مؤسسة قومية وقد كان ! ! وجُمعت القروش ، وشيد مصنع الطرابيش ، وبالأمس نزلت الطرابيش إلى السوق ، فكان هذا إيذاناً بنصر الشباب الأول أو بشير عودة الروح .. أو هو ناقوس الأمل .

كمل مصنع الطرابيش ، وتأسست جمعية القرش ، وخرجت من المدرسة وتيقظ الشباب ، وعادت إليه الروح ، روح العمل والتضحية ، وبدأ يحس بالقلق يساوره .. وبدأ يشعر بالآلام التى يعيش فيها .. وبدأ يتطلع إلى الخلاص .

كل شىء مستعد ، وإذن فإلى العمل . دعوت أصدقائى الشبان للتجرد من كل شىء ، وتقديم أنفسنا فداء للوطن ، حتى تصبح مصر فوق الجميع أو نموت ، وأقسمنا وأخذنا نفكر فى العمل الجدى .. ما السبيل إلى الخلاص ؟ ما السبيل إلى المجد ؟

أنواصل العمل تحت راية الأحزاب ؟ وهى على ما هى عليه من تطاحن وقتال ؟ أنشتغل فى الاقتصاد ؟ . أنشتغل فى الاجتماعيات ؟ ماذا يجب أن نفعل ؟ ماهو السبيل .. وهنا وللمرة الثانية سمعنا كلمات الله فى الراديو :

«إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

سر الحياة

من نحن وما نحن ؟ هذا هو السؤال الأزلى الذى يخامر الإنسانية منذ آلاف الدهور . نحن خليقة الله وإرادته ، نحن مشيئة الله وكلمته ، كن فكان .. ومادام الأمر كذلك ، ومادام أن وجودنا فى الحياة ليس إلا من إرادة الله . فإن سؤالا يعترضنا : لماذا أوجدنا الله سبحانه ؟ فإذا الجواب : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

هكذا .. هكذا ، أيها السادة ، هذا هو سر الحياة ، وهذا هو معناها ، أو بمعنى آخر ذلك هو محور الحياة وحجر الزاوية فيها . فنحن قد خلقنا لنعبد الله .

فطوبى لمن عرف هذا السر وقدره .. أنه ليبلغ من القوة شأوا عظيماً .. ذلك أنه يكون مسلحاً بقوة الإيمان .. وهذا الإيمان يستطيع أن يدك الجبال ، ويذيب الحديد ، ويحيى الموتى .

ما أضل من جهل هذا السر... سر الحياة . إنه ليعيش طوال حياته فى ضعف وذل .. إنه ليعيش فى الوحل والقاذورات ، وما ذلك إلا لأنه لا يملك قوة الإيمان .

وبعد أيها السادة ، هل تريدون أن أحدثكم عن الإيمان ؟

هل تريدون أن أصور لكم الرجل المؤمن كيف يستطيع أن يقابل الموت ؟ راضيا من أجل إيمانه ؟ اذكروا إذن كيف كان المسيحيون فى إبان دعوتهم يحملون على الصليب وتدق المسامير فى أيديهم وفى أرجلهم ، دون أن يتأوهوا أو يشكوا . هل تذكرون كيف كانوا يرمونهم إلى السباع الجائعة تفتك بهم ، وهم يسبحون الله ؟ .. وكان ذلك عندما كان الإيمان يملأ قلوبهم ، فاستطاع أفراد قلائل منهم أن ينشروا المسيحية فى أنحاء العالم .

إيمان المسلمين الأوائل

ونحن .. نحن المسلمين ماذا استطاع أجدادنا أن يفعلوا .. لما كان الإيمان يملأ قلوبهم .. لقد فعلوا المستحيل .. لقد خلقوا من شبه جزيرة العرب القاحلة الماحلة من الزاد ، ومن الرجال ، لقد جعلوا من شبه الجزيرة هذه دولة تحكم العالم ، لقد ألفوا امبراطورية لم يعرف التاريخ مثلها ، لقد أسسوا ملكا لن تدول دولته أبد الآبدين ، أتذكرون كيف كان المسلم يحارب العشرة أبطال فيقهرهم ؟ أتذكرون كيف كان المسلم يستقبل الموت مرتاحا فى سبيل الله ؟ أتذكرون أبا سفيان عندما فقد إحدى عينيه فى إحدى الغزوات ، فذهب بها إلى النبى يشكو فقدها ، وكانت على كفه ، فقال له عليه الصلاة والسلام ، لو طلبت من الله أن يردها لك لفعل ؟ فهل تحب هذا ، أم تحب عينا خيرا منها فى الجنة ؟ فرمى أبو سفيان عينه وقال بل خيرا منها فى الجنة ! هل تذكرون كيف كان المسلم يضرب على رجله بالسيف فتقطع ، فينزع رجله ويحارب بها ، هل تذكرون كيف صمد النبى فى موقعة أحد ، ولم يكن حوله إلا رجل أو رجلان يحاربان وسط هذه الجموع ، فلم تنل منهم شيئا .

هل تذكرون كيف كان المسلمون يستشهدون ؟ وهم سعداء أنهم ملاقوا ربهم ؟

هذا هو الإيمان الذى جعل العرب يحطمون أقوى الإمبراطوريات وأعظمها ، وأعنى بها الإمبراطورية الرومانية ، ويثلون عرش الأكاسرة ، وذلك بقوة الإيمان واليقين .

فعلوا ذلك فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ذلك المؤمن المتقشف الذى كان ينام فى العراء ، وقد يبيت وأولاده على الطوى ومن حولهم ذهب العالم وجواهره ، وما ذلك إلا لأنهم يعيشون بالإيمان ، وبالإيمان ينتصرون ، وما أحقر المال وأمثاله إذا ماقورن بالإيمان .

روى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عندما جاءوه بأموال كسرى بعد فتح المدائن . وأخذ المسلمون يقتسمون بساط كسرى العظيم وما فيه من جواهر وذهب ، بكى عمر بن الخطاب . فقالوا له علام تبكى يا أمير المؤمنين والوقت وقت ابتهاج لا بكاء ؟؟ فأجابهم مابكيت إلا لعلمى أن هذا المال الذى تقتسمون هدم دولاً ، وثل عروشاً ، هذا المال الذى تقتسمونه ماكان فى جماعة إلا وعجل بإفنائها ، فبكيت خوفاً على أمة العرب ، وقد صارت إلى هذا الغنى ، وتكدست فيها هذه الأموال .

فالإيمان*، أيها السادة ، هو كل شىء . فلا الجيوش ، ولا الأساطيل ، ولا المال ، ولا أى قوات الأرض ، تعادل الإيمان فى قوته ذلك لأنه ليس إلا نفحة من نفحات الله .

ومصر ، أيها السادة ، يستطيع أعداؤها أن يجردوها من كل شيء ، إلا أن تبقى متدينة بما لا نظير له فى بقعة أخرى من أنحاء العالم .. مصر أيها السادة ، كانت ، ولا تزال ، وستظل دائماً أبدا ، موئل الأديان وحاميتها .. فإذا ذكرت الأديان ، جاءت مصر تذكر الناس بالأديان .. ومن هنا كانت مصر تقوى إذا ما ازداد تعلقها بدينها وتضعف كلما انحرفت عن دينها . ذلك أنه بلد دين قبل كل شيء ، تعيش على الدين وتعتمد عليه .

انظروا إليها منذ أربعة آلاف من السنين ، وقد كانت الإنسانية فى خطواتها الأولى لا تكاد تعرف كيف تطهى طعاماً أو تحيك ثياباً ، أنظروا إلى مصر وقد عرفت من مبادئ الدين ما يكاد يحار له العقل ، لولا أن نؤمن بأن الله أوحى إلى أبناء مصر ببعض أسرار الدين .. كثيرون من الأغرار يحسبون أن دين المصريين كان دينا وثنيا . دينا تتعدد فيه الآلهة . دينا يُعبد فيه القط والتمساح والثعبان . لا ، أيها السادة ، حاشا وكلا أن تكون هذه عقلية بناة الأهرام ! ! حاشا وكلا أن تكون هذه عقلية الناس الذين أخرجوا حضارة تزرى بحضارة القرن العشرين ! ! ولكن هو جهلنا بفهم نصوصهم ، هو قلة ما وصل إلينا . ولما كانت لغة هؤلاء ، الأقوام رموزا بالرسوم ، فقد ضللنا الطريق ، وحسبنا كل هذه الرموز آلهة ولو فكر السادة العلماء ، لعلموا أن هذه الرموز التى حسبوها آلهة لم تكن إلا أحرفا لكلمات تترجم عن معان أخرى ، أكثر سمواً وتعقلاً ، بما يتناسب مع ذهنية المصريين القدماء الجبارة . وما أعجب ، أيها السادة ، أن أخط هذه الكلمات ، وأن يقع فى يدى بالأمس كتاب لأحد القضاة الأفاضل ، وهو الأستاذ صالح سالم هيكل ، فاقرأ فيه ما يؤيد هذه النظرية ، وما يقيم الدليل عليها .

ديانة المصريين القدماء .

فقد كُشفت أخيراً ، أيها السادة أنشودة من أناشيد المصريين الدينية ، فإذا بها حديث عن الله سبحانه وتعالى . حديث جاء فيه : الله واحد أحد ، الله خالق نفسه ، وخالق الموجودات . الله سيد الأرض ومن عليها ، لا ابتداء له ولا انتهاء .

وليس الآن مقام البحث فى ديانة المصريين القدماء حتى أزيدكم تفصيلاً . ولكنى أقول لكم إن المصريين القدماء آمنوا بالتوحيد ، وعرفوا البعث والنشور . وعرفوا الميزان والحساب . وعرفوا الجنة والنار ، وهذه كلها من تعاليم الأديان السماوية ، كان المصريون القدماء رجال دين أيها السادة ، وكانوا يعلمون العالم الحكمة والإيمان . وقد كان هذا سر قوتهم ونبوغهم . من أجل الدين وتعاليم الدين ، أقاموا الأهرامات الخالدة . من أجل الدين وتعاليم الدين ، قاموا بمعجزات العلم والفن . هذا التحنيط ؛ أيها السادة ، الذى هو معجزة من معجزات العلم فى الوقت الحاضر ، لم يعرفه المصريون إلا لغاية دينية بحتة . وفى مصر ، أيها السادة ، وبين أحضان فرعون ، تعلم موسى فآتاه الله حكمة المصريين : كما يقول كتابه المقدس ، وأنزل الله الديانة اليهودية على موسى . وإذا كان فرعون قد كفر بها ، فهذا ملك متجبر له شأنه ، ولكن المصريين آمنوا برسالة موسى كما يحدثنا القرآن ، عندما سجد السحرة ، وقالوا «آمنا برب العالمين رب موسى وهارون»

وهذه هى مصر المتدينة المتعبدة . ولما جاءت المسيحية ، أيها السادة ، تفتحت لها مصر ، واحتضنتها . وبينما كانت تُطارَد فى كل مكان ، وكان أبناؤُها يُرمَون للسباع ، كانت لهم فى مصر دولة وسلطان . وبينما كانت كنائس الشرق والغرب تُحطَّم ، كانت كنيسة الإسكندرية تحمل اللواء . فقد حمت مصر المسيحية ، وأبقت عليها ، وأعلت كلمة الله ضد روما المتغطرسة ، حتى كسرت شوكة روما ، واعتنقت المسيحية بدورها .

مصر الإسلامية

وظلت مصر مسيحية كأقوى ماتكون ، حتى جاء الدين الجديد .. حتى جاء دين آخر الأنبياء كافة وسيد المرسلين ، مبشرا ونذيراً ، ففتحت مصر ذراعيها للدين الجديد . وقام المصريون يرحبون بالفاتح الجديد الذى يعلى كلمة الله وينادى بالتوحيد . وقد كان أهل مصر موحدين فى المسيحية .

وتمكن الإسلام من نفوس المصريين الطاهرة المؤمنة ، فوجد فيهم موئلاً وظهيرا . ووجد فيهم ركنه الحصين ومرتكز علمه الذى لن ينطوى أبدا .. وعندما سقطت دمشق وبغداد ، وسقطت حصون الإسلام وأعلامه ، وسقطت البيوت المقدسة ، وجاءت أوروبا الصليبية لتقضى على الإسلام ، كانت مصر الإسلامية هى التى أبقت على الإسلام وحمته . كانت مصر ، وجنود مصر ، هى التى دافعت عن الإسلام ضد الصليبيين حتى اكتسحتهم ، ووضعت أنفهم فى الرغام ، وتذكروا أن الصليبيين لم يكونوا إلا أوروبا بأسرها ، أوروبا المتحمسة المتدينة ، جاءت لتقضى على الإسلام فامتلأت نفوس المصريين بالإيمان ، وأعادوا سيرة الجهاد الأولى ، سيرة الصحابة الأجلاء .

أجل لقد عادت إليهم روح الاستشهاد الأولى ، فاستطاعوا أن يظفروا بأوروبا وأن يقهروها ، واستطعنا ، أيها السادة ، أن نعلى كلمة الله عند الصليبيين كما أعليناها بعد ذلك عند التتار المخربين ، والذين حطموا عواصم الدولة العربية ، وطردوا الخلفاء .

وفى وسط هذه الحروب ، وسط هذا الظلام ، فى وسط الفتنة والجهل الذى خيم على العالم ، كانت جامعة الأزهر ، وأعنى جامعة الإسلام الوحيدة فى أنحاء العالم ، هى التى تبعث بالنور والعلم إلى أنحاء العالمين .. هى التى تحفظ المدنية والحضارة ، وهى التى تعلى كلمة الله .. أيها الأزهر ، يا أعز تراث ، ويا أقدس معهد فى العالم ، أيها الأزهر ، يامن أوجدك الله لتكون إماماً ونبراساً . إنى لأنحنى أمامك تقديساً وإجلالاً ، إنى لأحييك والدموع تجول فى عينى عندما أقارن ماضيك بحاضرك .

هذه هى مصر العظيمة بدينها ايها السادة . هذه هى مصر التى تستمد قوتها من تمسكها بدينها ومن هنا بقيت على مر الزمان ، ذات حيوية خالدة لا تنضب ، وانهزم كل أعدائها وبقيت هى تسير إلى الأمام .

وقد فطن إلى هذا السر كل أعداء مصر وفاتحوها ، فجاءوا من هذا الطريق .. طريق الدين ، فإن الخرافات القديمة تحدثنا أن ملك الفرس ، عندما أراد فتح مصر ، اتخذ لذلك سبيلا دينيا ، بأن وضع فى مقدمة جيشه حيوانات مقدسة لدى المصريين فامتنعوا عن القتال وتركوه يدخل بلادهم ،

كى لا يمسوا هذه الحيوانات المقدسة ولست أشك فى كذب هذه الخرافة . ولكنها على كل حال تدل على شدة تعلق المصريين بدينهم ومن بعدهم الإسكندر . لكى يستطيع أن يعيش فى مصر . آمن بديانة المصريين وذهب إلى هيكلهم وسمى نفسه ابن آمون .

ومن بعده البطالسة . ومن بعده الرومان . دخلوا فى المسيحية . حتى جاء الإسلام . فتفتحت له قلوب المصريين . ولم يستطع بعد ذلك أن يحكمها إلا مسلم . حتى نابليون . أيها السادة . اضطر أن يسلم لكى يعيش فى مصر . نابليون . أيها السادة . دخل مصر فى يوم وليلة . دون أن تصادمه مقاومة . ولكنه دخل الأزهر بخيله يوما . فثارت عليه الثورة التى لم تنته حتى بارح مصر . ولم يوقفها إلا بأن أعلن إسلامه . فسكت عنه المصريون وفرحوا بانتصار دينهم . والانجليز أنفسهم . أيها السادة . عرفوا ذلك منا ففعلوا فى مصر كل شىء . وحطموا كل شىء . وغيروا كل شىء . واحتقروا كل شىء إلا دين المصريين . لأنهم وثقوا أن هذه هى ناحية الخطر فى كل ما يفعلون . وأن المصريين يرضون بكل شىء إلا أن يصابوا فى دينهم . فكرموا هذا الدين وعظموه . ولو ظاهرا . ألستم ترونهم يدعون علماءنا ليلة القدر احتفالا بهذا العيد العظيم .

ها كم حادثة التبشير الأخيرة . هل رأيتم كيف اجتاحت البلاد عاصفة الغضب ضد التبشير والمبشرين . وكاد البركان ينفجر لولا أن تصدى للموضوع جلالة مولانا الملك المعظم . فعالجه بحكمته . وأمر حكومته بتلافى الأمر . بفتح الملاجئ والمستشفيات . أيها السادة . ادرسوا نفسية الفلاحين . وهم سواد الشعب . إنهم لا يعرفون فى الوجود إلا الله . ثم الأرض . الله هو الذى خلقهم . وهو الذى يميتهم . ويحاسبهم . والأرض ... يزرعونها . ويتعيشون من نباتها . فما دام الله قد بقى لهم فهم ناعمون آمنون . ومادامت أرضهم تركت لهم يزرعونها . فهم آمنون ناعمون حدثهم بعد ذلك عن الاقتصاد . حدثهم عن الفلسفة . فسيسمعون إليك وكأن الكلام لا يعنيهم .. لأنهم جنود الله وزارعو الأرض .

هذه هى نفسية الشعب المصرى . وهذا سر قوته . وإذا كنا قد وصلنا اليوم إلى ما وصلنا إليه من ضعف . فما ذلك إلا لأننا جهلنا هذه الحقيقة . وشغلتنا ألفاظ أخرى ومحاولات أخرى : إذا كنا قد تدهورنا فما ذلك إلا لأننا غيرنا ما بأنفسنا . إننى أعلن أن ساسة هذا البلد جميعا . مسئولون عما وصلنا إليه من انحطاط وتدهور . ذلك لأنهم جهلوا طريق الدين واعتبروه نافلة من النوافل . فعملوا لكل شىء إلا الدين . أستغفر الله بل لقد عملوا على هدم الدين . هدموه فى وضح النهار . هدموه تحت سمع العالم وبصره . فهل تعجبون بعد ذلك أن حكمنا الإنجليز طويلا ؟ هل تعجبون بعد ذلك أن استعبدنا الأجانب ؟ هل تعجبون أن فقدنا معنويتنا وثقتنا بأنفسنا ؟ إننى أتهم رجال السياسة المصريين بالإجماع من فوق هذا المنبر .. إننى أتهم الزعماء علنا من فوق هذا المنبر .. بأنهم مسئولون عما وصلنا اليه .. ذلك لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

من ذا يقول إن فى بلد الإسلام والدين . يكون الفجور علنا . يا لسخط الله . بل ويكون برخصة من الحكومة المصرية .. أيها الساسة . أيها الزعماء . يا رجال الحكومة . قبل أن تتحدثوا

عن الدستور ، قبل أن تتحدثوا فى الاستقلال ، تحدثوا فى هذا الخزى والعار ، وارفعوه عن أنفسكم ، يصلح الله شأنكم . إننى لأجن أيها السادة عندما أفكر فى هذا الموضوع . الله يبغض الزنا ، الله يعتبره من أكبر الجرائم ، الله يأمرنا أن نرجم الزانى ، ثم حكومة مصر ، حكومة الإسلام ، حكومة الدين ، تفتح البيوت للناس وتتقدم بالرخص لأبناء العائلات ، ولتساعد البنت ضد أبيها إذا أرادت احتراف البغاء ، ولتحمى الزانى ضد لعنات ذويه ، استغفرك اللهم وأتوب إليك ، ومصر بأسرها ، مصر التى عرفتها يارب ، مخلصة متفانية لكلمتك ، مصر التى رفعت لواءك يارب طوال خمسة آلاف سنة ... إنها تثور على هذا الشر وتستنكره .

الله يحارب الخمور ويلعنها ، فإذا بمصر الإسلامية تفتح لها صدرها بأكثر مما تفتحه لها انجلترا وفرنسا ، ففى هذه البلاد تقفل المواخير فى ساعة محدودة ، ويمنع الشبان الصغار من ارتيادها ، أما فى مصر ، مصر الإسلامية ، فالخمر يسرى إلى أعماق القرية ، والخمر يعلن عنه ويروج له فى كل صحيفة مصرية ، حتى الحكومة تروج له أحيانا ، وتطبع إعلاناته على دفتر التلفون ، وفى محطات السكك الحديد . وعندما يقوم رجل كهلوش ينادى بحرب المسكرات ، هزأ منه الساسة ، وأشفقوا عليه ، واعتبروا عمله منكرا من المنكرات ، والله إن المنكر هو أنتم وحياتكم .

دعوكم من التدهور الخلقى ، دعوكم من الرذائل كلها ، التى حرمها الله فأباحها القانون ، لن أحدثكم عن القمار ، والخمر ، والربا ، والزنا ، والتهتك ، لن أحدثكم عن هذه المعاول الهدامة فى كيان الأمة ، ولكنى سأحدثكم عن شىء أهون من هذا وأبسط سأحدثكم عن هذا التفكك بين المسلمين . إن حكومتنا ، أيها السادة ، لتعرف من أخبار ألمانيا وفرنسا وانجلترا أكثر مما تعرف من أخبار فلسطين الشقيقة المسلمة ، أنهم ليعلموننا فى المدارس أسماء بلاد الولايات المتحدة بلدا بلدا ، ولكنهم لا يعلموننا شيئا عن جاوة المسلمة وما فيها من إسلام ، انهم لا يحدثوننا عن الهند المسلمة ، ولا الصين المسلمة ، ولولا شذرات سمعتها فى الجرائد من حين لآخر ، لجهلت أن فى الصين مسلمين وأن فى جاوه مسلمين .

ذلك أن التعليم فى مصر يحارب الدين . التعليم فى مصر ثورة على الدين ، لأنه تعليم يغرس فى نفس الشاب أن الحياة ليست فى الدين ، وأنها فى شىء آخر ، هو هذا العلم الذى يدرس فى هذه البلاد .

ولم يكن ذلك كله إلا سياسة الإنجليز الدنيئة . لقد عرف الإنجليز كيف يحكمون البلد .. عرفوا أن السبيل إلى ذلك هو إبعاد النشء الجديد عن الدين ونظرياته ، عرفوا أنهم يستطيعون البقاء فى مصر ، لا بجيوشهم ، بقدر ما يستطيعون ذلك عن طريق نشر الشرور والآثام ، فأباحوا الخمر والربا والزنا والقمار ، وكل ما يفتك فى الجماعات ، بحجة أن هذا مدنية للمصريين . فلتخسأ المدنية ، ولتذهب إلى جهنم ، إذا كانت هذه تعاليمها ! فلتخسأ المدنية وليخسأ أصحابها والمنادون بها ، إذا كان هذا أثرها !

لا والله ما كانت هذه هى المدنية . ولكن هذه هى معاول المدنية . لا والله ما كان هذا يرق شعباً . ولكن يخرب شعباً . لا والله ما كان الاستهتار . والدعارة . والجمود فى الدين . والإهمال لأوامر الله . إلا نذير الهلاك والعذاب .

حمدا لك يارب أن رفعت الغشاوة عن أعيننا . حمدا لك يارب أن أتحت لنا فرصة الاهتداء بنورك وهديك . فنحن اليوم قد آمنا . وعرفنا الطريق . عرفنا السر . وعرفنا السلاح .

أيها الشبان . ياشبان مصر . وياجنود مصر الفتاة :

إن أردتم نجاحاً فى الحياة وفلاحا . إن أردتم استقلالاً ومجدا . فغيروا ما بأنفسكم .. آمنوا بالله وأوامر الله . قدموا أنفسكم فى سبيل الله . فيغير الله ما حل عليكم من السخط والغضب .

الدينَ .. الدينَ أيها الشبان .. الدينَ الدينَ أيها الشيوخ .. الدينَ الدينَ أيها الحكام .. والله إن الانجليز لا يملكون فى يدهم خيرنا وسعادتنا . ولكن نحن أنفسنا نستطيع .. أن نكون أقوياء . ونستطيع أن نكون ضعفاء .

فلنرفع كلمة الدين عالية فيجتمع لنا فى مشارق الأرض ومغاربها مئات الملايين من المسلمين . لقد كانت مصر منذ خلقت للعالم منارة نور للعالمين . كانت مصر سيدة وزعيمة وقائدة . كانت مصر زعيمة الإسلام والمسلمين . فهلموا نسترجع زعامتنا الدينية .. هلموا نرفع اللواء أمام الشرق القريب والبعيد . هلموا نأخذ مركزنا تحت الشمس فوق العالمين . إن لكم ديناً أيها الشباب سيحكم العالم بأسره . إن لكم دينا يهدم الفوارق ويوحد الجماعات ويجمع الناس فى صعيد واحد . إن لكم دينا تعجز تعاليم القرن العشرين عن أن تصل إلى مستواه . هل تذكرون كيف كان الأعراب ينادون رسول الله يامحمد . وكيف كانوا يحاجونه ويناقشونه . هل تذكرون كيف يقول الكتاب «وأمرهم شورى بينهم» هل تذكرون قولة رسول الله (المسلمون سواسية كأسنان المشط). وليس هذا إلا المساواة المطلقة .

هل تذكرون قول عمر متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . هذه هى الحرية .

هل تذكرون الآية الكريمة (إنما المؤمنون إخوة) .

هذه هى المبادئ الثلاثة : حرية . وإخاء . ومساواة . يعلمها الدين الإسلامى منذ ألف سنة .. ويمارسها المسلمون . ولا يعرفها الغرب إلا منذ مائة وخمسين سنة عندما اندلعت الثورة الفرنسية .

إن لكم دينا اشتراكيا . يعجز العالم فى القرن العشرين عن بلوغ مستواه . هذه الزكاة التى فرضت علينا . أليست اقتطاع جزء من مال الأغنياء ليمنح للفقراء . الأمر الذى يحاول العالم عبثاً الوصول إليه فلا يستطيع . الزكاة ركن من أركان ديننا .

إن لكم دينا يقوم على المنطق . ويساعد على العمران والحضارة . إن لكم دينا ينشر السلام ويؤاخى بين سكان العالم . ويوجد لكم عصبة أمم تزرى بالعصبة الحاضرة

أتذكرون الحج ؟ أنه عصبة شعوب حقيقية . ففيه يتقابل المسلمون . وفيه يتداولون . وفيه يحلون مشاكلهم .

إن لكم دينا حوى الفضائل كلها . واعترف بالأديان كلها . ومجد الأديان كلها . فهو يعيش مع كل الأديان الصادقة .

إن لكم دينا يضمن حياة رغدة فى الدنيا والآخرة . فهلموا يا شباب .. هلموا يا جنود مصر الفتاة . نعلى كلمة الدين .

هلموا ننادى بإعادة الزكاة . وبإدخال التعليم الدينى فى المدارس . هلموا نؤاخى بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

هلموا نقضى على الخمور والبغاء والقمار والتهتك . فتصبح مصر قوية ناضجة . وتصبح مصر جديرة بالزعامة والسيادة . لأنها تكون قد غيرت ما بنفسها . فيغير الله ما بها من ويلات .

أيها السادة

أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة ، فلابد من إيضاح أننى الآن فى مقام بسط سياسة ، فيجب أن تكون صريحة ، لأنى أعتقد أن الصراحة رأس مالى . سنقوم بدعوة دينية ، سندعو مصر والحكومة لإحياء الإسلام وشعائره ، سنعمل لكى تتبوأ مصر مركزها ، ولن يرضى ذلك خصوم مصر ، لن يرضى ذلك بعض سفهاء مصر ، واذن فسيحاولون كعادتهم نشر الدسائس والأباطيل . سيقولون إن فى حركتنا الدينية ما يهدد صفو العلاقات بين أقباط مصر ومسلميها ، سيقولون إن دعوتنا خطرة على الاتحاد المقدس بين الطائفتين . لمثل هذه الدسائس وهذه الأباطيل ، أريد أن أصرح علنا ، ومن فوق هذا المنبر : إن إخواننا يجب أن يفهموا أننا ، كمسلمين ، وأغلبية فى هذا البلد ، لنا الحق فى مناصرة ديننا والنداء بعظمته ، وليس فى هذا مساس بدينهم .. وليس يولد هذا خلافا بيننا وبينهم .. بل إننا كما ندعو للدين الإسلامى وزعامة مصر له ، ندعو لزعامة مصر المسيحية أيضا على رجال الكنيسة فى الحبشة ، وفى بعض البلاد الأخرى . الأديان كلها لله ، وفى سبيل الله . الدين الإسلامى يؤاخى بين الأديان جميعا ، ويعترف بوجودها وبقدسيتها ..

الدين هو الدين ، وله آثاره فى المجتمع ، فقط عندما يكون لله ، ومن أجل الله .

وبعد فهذه خطة واضحة ، وميثاق أعلنه من فوق هذا المنبر ، ليكون برنامجا لنا .

أيها الشباب

أيها الشباب .. يا أشبال الأزهر ودار العلوم .. يا أشبال الجامعة والمدارس العليا . إن عليكم رسالة ، وفى عنقكم دينا .. أيها الأزهريون يا طلاب أقدس جامعة ، يا طلاب جامعة النور الجديد ، أيها الشباب ، يا جنود مصر الفتاة ، أن لخالقكم عليكم حقا ، فإن لم تذكروا هذا الحق ، حق الله ، فلا خير فيكم لأنفسكم ، ولا خير فيكم لأوطانكم . إن الذى لا يعرف حق

الوطن ، والذى لا يجاهد فى سبيل الله ، لا يجاهد فى سبيل الوطن .

آمنوا بأن جهادكم فى سبيل الله ، وأن جهادكم الوطنى جزء من الجهاد فى سبيل الله ، فنستطيع أن نوجه هذه القوة الكامنة فى مصر إلى خير العالم ، وخير الإسلام .

أيها الشباب الحاضر الآن ، تعلموا وعلموا الناس أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قولوا للناس : إن أردتم سعادة الدارين ، فطريقكم هو الدين .. قولوا للناس : إن أردتم استقلالا ، فطريقكم هو الدين .. قولوا للناس : إذا أردتم مجدا ، فطريقكم هو الدين ..

اعلوا كلمة الدين وأرفعوها .. قاطعوا الخمور وحاربوها .. اقضوا على دور الفسق والفجور ، حطموا بيوت القمار .. ادعوا للصلاة فى كل مكان ، وتعالوا نجتمع فى المسجد كل جمعة لنصلى لله ، نصلى له كى يملأ قلوبنا إيمانا ، ولكى يرفع عنا البلاء الذى أحاط بنا ، وينتقم من الأعداء الذين يخمدون أنفاسنا . تعالوا نتطهر ، وعندها سنصبح أقوياء ، وعندها سنهد الجبال ، وعندها سنفل الحديد ، وعندها ستصبح مصر فوق الجميع .

هذا ما أعنيه بكلمة الله .

وهذا أول سطر فى برنامج مصر الفتاة .

* * *

قضية الجيش

٧

مصر الفتاة الآن فى أوج قوتها واندفاعها ، والصرخة تصدر فى انتظام كل أسبوع ، وهى تحمل على صفحاتها شواظا من نار ضد صنوف الموبقات ، ومظاهر الانحلال والضعف ، وضد الاحتلال البريطانى والإنجليز ، فى عنف لم يسبق له مثيل ، ولقد بدأت أبعث برسائلى إلى كبار الشخصيات المصرية والإنجليزية أستعرض فيها الحياة المصرية ، وأناقش ما أرغب مناقشته من القضايا ، فثمة خطاب إلى رئيس وزراء انجلترا[١] أهاجم فيه سياسة الاحتلال التى فرقت الأمة ، وفرقت صفوفها ، وسببت تدهور أخلاقها ، وأعلنه فيه بأن مصر الفتاة ستحمل لواء الجهاد ضد انجلترا ، وسياسة انجلترا فى مصر ، إلى أن يجلو آخر جندى بريطانى عن مصر . وأنه لا السجون ، بل ولا المشانق ، ترهبنا أو تقعدنا عن المضى فى جهادنا ، فإما النصر وإما القبر . وثمة خطاب آخر إلى شيخ الإسلام الأحمدى الظواهرى[٢] أهيب بفضيلته أن ينهض لمقاومة المنكرات المتفشية فى أنحاء المجتمع المصرى ، وأندد بسكوته وسكوت جماعة العلماء وموقفهم السلبى لما يجرى تحت أسماعهم وأبصارهم من المنكرات التى كلفوا شرعا بالإنكار عليها .

وكانت حياتى فى هذه الفترة جهادا مستمرا متواصلا بالليل والنهار ، بكل ما فى وسعى وطاقتى . فما كنت أُرَى إلا كَاتباً للصرخة ، أو خطيبا فى حفل ، أو متحدثا فى جماعة ، ولقد كانت الساعات الطوال تمر علىّ وأنا فى حديث مع الشباب ، الذين كانوا يفدون إلى دار مصر الفتاة الصغيرة المتواضعة فى (حارة الفوالة) ، وكان يفاجأ هؤلاء الشبان أول ما يفاجئهم هذا المظهر الذى يدل على الفقر الشديد المدقع ، فى الوقت الذى تشيع فيه الشائعات عن مصر الفتاة ، وأن هذه الجهة أو تلك تمدها بالمال ، أو أن ذمة أحمدَ حسين ليست طاهرة نقية كالثلج والبرد . وكان يذهلهم أن تكون هاتان الحجرتان الضيقتان هما كل ما لجمعية مصر الفتاة وجريدة الصرخة من إدارة وميدان للعمل والنشاط . ولكنهم لا يكادون يستمعون لحديثى الذى كنت أواصله بغير انقطاع من أعماق

---

(١) راجع نص الخطاب فى مجلة الصرخة العدد ١٣ بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

(٢) المصدر السابق العدد ١٦

قلبي ، حتى يدركوا على الفور هذا المعين العميق الذى نستمد منه قوتنا وثروتنا ونشاطنا ، وأنه معين الإيمان العميق بالله والوطن .. وكان أهم ما يشغلنى فى هذه الأيام هو كيفية إعداد جيل من الشباب ، أكثر قدرة على الكفاح والجهاد والتحرر من موجة الانحلال والتخنث ، التى كانت تسيطر على صفوف الشبان فى ذلك الوقت ..

وكنت أرى أن الجندية هى العلاج الوحيد لكل ما تشكو منه مصر من أدواء وعلل ، ولقد عملت من ناحيتى على نشر الروح العسكرية بين صفوف أبناء مصر الفتاة ، فشكلنا فرقة الأقمصة الخضراء ، التى سيكون لها شأن أى شأن فى تاريخ مصر بعد فترة من الزمن ، ولكنها فى ذلك الوقت كانت لا تزال فى بدايتها ، ولم نكن نستخدم إلا القميص الأخضر نلبسه على (البنطلون) الطويل العادى ، أما بعد ذلك فقد تطور لباس مصر الفتاة إلى زى عسكرى كامل ، يخلب الألباب بجماله وأناقته وقوته فى نفس الوقت . على أننى لم أرد أن أقصر كفاحى لنشر الروح العسكرية على مجهودنا المحدود ، بل فكرت فى توسيع دائرة الدعاية للجندية ، ونشرها بين صفوف الشبان عامة ، فتوجهت صوب الجيش المصرى وإلى وزارة الحربية المصرية أستمد منها العون . فكتبت فى ٢٧ يناير سنة ١٩٣٤ خطابًا[1] إلى وزير الدفاع فى ذلك الوقت صليب بك سامى أحمل فيه على نظام الجيش المصرى وسيطرة الإنجليز على قيادته ، وسياسة الإنجليز فى عزل هذا الجيش عن الأمة وعن شبانها المتعلمين ، وعن وقوفه ضعيفًا عاجزًا مجردًا من كل سلاح حقيقى . وحملت فى هذا الخطاب على قانون التجنيد الإجبارى الذى يجعل مدة التجنيد خمس سنوات كافية لخراب بيوت المجندين ، وحملت بالأكثر على سياسة الإعفاء والبدل النقدى ، لأن الجندية هى ضريبة الدم التى ينبغى على كل مواطن أن يدفعها ، ولا حياة ولا كرامة ولا حرية ولا استقلال لأمة ما لم تكن أمة عسكرية مدججة بالسلاح ، ولا أمل لمصر فى الحصول على حقوقها المغتصبة إلا بعد أن تتحول مصر إلى شعب عسكرى . وأرفقت بخطابى إلى وزير الحربية عريضة موقعًا عليها من خمسين شابًا من شبان مصر الفتاة المتعلمين المثقفين يعلنون فيها رغبتهم فى التطوع فى الجيش المصرى ، إذا أنقصت مدة الخدمة العسكرية إلى سنة واحدة ، وهو ما تدعو له مصر الفتاة وتبشر . ولقد كان لهذا الخطاب وهذه العريضة ، المنشورين فى الصرخة ، بعد إرسالها إلى وزير الحربية وقع الصاعقة فى الدوائر الإنجليزية والمصرية الخاضعة للسيادة الإنجليزية ، فإذا بهم يقومون ويقعدون ، ويثورون ويحتجون ، ويعتبرون أن ما فعلناه

---

(١) راجع نص الخطاب فى جريدة الصرخة رقم ١٧ الصادر بتاريخ ٢٧ يناير سنة ٩٣٤

جرم شنيع ينبغى أن ننال عليه أشد الجزاء !. ولقد كان آية ما وصل إليه المجتمع المصرى فى ذلك الوقت من التدهور والانحلال ، أن تعتبر دعوة الخير دعوة شريرة ، وأن يقابل تطوع شبان للانضمام إلى الجيش هذه المقابلة السيئة ، ولقد جاء وقت فتحت فيه وزارة الدفاع المصرية باب التطوع فى الجيش المصرى على مصراعيه ، وجاء وقت نددت فيه الحكومات المختلفة بقانون التجنيد وأعلنت رغبتها فى تعديله بما يتفق ومبادئ مصر الفتاة ، بل جاء وقت أصبح التدريب العسكرى فيه قانونًا ونظامًا للجامعة والمدارس المختلفة ، وجاء الوقت الذى أصبح طلاب الأزهر أنفسهم يتلقون تدريبًا عسكريا يؤهلهم لأن يصبحوا ضباطًا احتياطيين للجيش ، ولقد عشت حتى رأيت شبان مصر الفتاة ، الذين اضطهدوا لرغبتهم فى التطوع للجيش ، قد صاروا بعد ذلك ضباطًا من صميم الجيش .. ومع ذلك فقد حوكمت فى يناير سنة ١٩٣٤ لأننى دعوت إلى نشر الروح العسكرية فى مصر ، ولأنى دعوت إلى إصلاح قانون التجنيد ، وسيبقى ذلك هو شأن مصر الفتاة دائمًا أبدًا ، طوال الاثنتى عشرة سنة التالية ، وهو أن تحاكم على مبادئ واقتراحات لا تلبث أن تصبح بعد قليل هى دعوة المجتمع المصرى بأكمله .

ولقد ساقونا إلى السجن للمرة الثانية ، وكان رفيقى فى السجن هذه المرة هو الأستاذ أحمد الشيمى رئيس تحرير الصرخة . وطلبت النيابة من محكمة الجنايات معاقبتنا بالمواد ١٥٩ ، ١٤٨ ، ١٦٦ ، ١٦٧ من قانون العقوبات القديم .

وفى ٦ مايو سنة ١٩٣٤ مثلت أمام محكمة الجنايات التى كان يرأسها نجيب بك سالم وتوليت الدفاع عن نفسى بمرافعة لا أجد ما أعتز به من مرافعاتى التالية قدر اعتزازى بها .. لقد مرت على السنون الطويلة فى محاكمات ومرافعات ، استغرق بعضها ثلاثة أيام أو أربعة ، وبلغت فيها من العنف والشدة إلى حدٍ ما كان يتصور الكثيرون إمكان أن يقال فى مرافعة أمام محكمة ، ومع ذلك كله فستبقى مرافعتى فى قضية الجيش موضع اعتزازى ورضائى ، لأنها كانت أولى مرافعاتى ، ولأننى كشفت فيها الستار عن ضعف الجيش المصرى ، وحذرت وأنذرت من إيطاليا وعدوان إيطاليا على مصر ، قبل أن يقع هذا العدوان بتسع سنوات على الأقل . وسيرى القارئ كيف تنبأت فى هذه المرافعة بالحرب الضروس التى وقعت ، وكيف كنت أول النافخين فى البوق للإهابة بمصر والمصريين إلى التهيؤ والاستعداد للحرب ، ولكنى صرختى ذهبت فى واد ، فى ذلك الوقت ، بل ودفعت ثمنها من حريتى ومالى ، ولقد جاء اليوم الذى رأيت فيه بعينى رأسى الإنجليز وفرائصهم ترتعد ، لخطر المحور الذى يوشك أن يدهمهم فى مصر ، وهم

يندبون جريمتهم الشنعاء فى إبقاء الجيش المصرى ضعيفًا ، ولنسمع الآن إلى هذه المرافعة التاريخية .. وستعطيك صورة كاملة عن أحوال مصر وإيطاليا والعالم فى سنة ١٩٣٤ .

مـرافعـــة

يا حضرات المستشارين :

أقف أمامكم يا حضرات المستشارين ، وفى هذا القفص ، بصفتى رئيسا لجمعية مصر الفتاة ، فيجب أن تسمحوا بكلمة تقال عنها كتعريف لها .. أهى جمعية ثورية ؟ . أهى جمعية غير مشروعة ؟ فإن هذا التعريف للجمعية ومبادئها وكيف تكونت ، له أعظم الأثر فى تكوين اعتقادكم فى صحة الكلام الذى ستسمعونه منى بعد ذلك ، وله أكبر الأثر فى حكمكم الذى ستصدرونه فى النهاية . أما ما هى ؟ وكيف تكونت ؟ فقد آمنت مذ كنت صغيرا بمصر ومجد مصر . لقد طالعت تاريخها القديم والحديث ، وقلبت صفحات مجدها الغابر . فعرفت مصر الفرعونية وأحببتها ، وعرفت كيف علمت مصر العالم وأضاءت له منذ أربعة آلاف من السنين ، حين كانت الشعوب تقف من مصر موقف التلميذ من أستاذه ، حين جاء الإغريق والرومان إلى ضفاف النيل ينهلون الحكمة والعلوم . لقد عرفت كيف حكمت مصر العالم ، وكيف سيرت الجيوش ، وفتحت المدائن . ولقد عرفت كيف هزت مصر الإسلامية العالم الغربى ، وصمدت فى الحروب الصليبية ضد أوروبا بأسرها فهزمت ملوكها واقتادتهم سجناء إلى المنصورة . لقد عرفت . كيف صدت موجة التتار وأنقذت الإنسانية من شرهم وأبقت على الإسلام . لقد عرفت كيف كانت جامعة الأزهر تضىء على العالم فى العصور الوسطى . ولقد عرفت كيف استطاعت مصر ، فى عهد محمد على ، أن تلعب دورا خطيرا فى الحياة السياسية ، وكيف طفرت من أمة ضعيفة إلى دولة مخيفة ، ترهبها الدول وتتلمس صداقتها . عرفت كيف سارت جيوش مصر تهزج أهازيج النصر ، حتى قرعت أبواب أوروبا . وكيف كادت تحطم الإمبراطورية العثمانية ، وكيف جابت أساطيلها البحار فأرهبت الأساطيل .. عرفت كل ذلك ، وعرفت أن مصر خلقها الله لتكون سيدة وزعيمة . وأن مصر لم توجدها الطبيعة فى مركز العالم وفى ملتقى الطريق بين الشرق والغرب عبثا ، أو لمحض الصدفة ، ولكن لتقود العالم ولتضىء له . عرفت كل ذلك وجُلْتُ بنظرى فيما حولى فما رأيت الا مظاهر الضعف والتقهقر والخنوع .. لا استقلال ، لا ثروة ، لا كرامة ، لا غيرة . فالانجليز يحتلوننا ، وتملأ جيوشهم السهل والجبل ، وتحول بيننا وبين العمل المنتج الصالح . والأجانب يستولون على كل شىء ، ويجثمون على صدر الحياة المصرية فيخمدون منها الأنفاس . كل شىء فى أيديهم ، المال والتجارة والديون والأرض ، وهم بعد ذلك يتمتعون بالامتيازات ، التى لا تعترف بالبرلمان ولا بالقضاء ولا بالحكومة . والأخلاق لا وجود لها ، فالمصريون فى انقسام واضطراب وتطاحن ، والدين لا أثر له ، والمعنويات مفقودة ، والإحساس بالضعف والتشاؤم فى كل مكان . هذا يقول إننا بغير الانجليز لا نساوى بصلة ، وآخر يردد أننا لن نستطيع أن نتخلص من احتلال الانجليز ولو بعد ألف سنة ، وثالث يرمى وطنه بأحط الصفات وأقبحها وأنه قد فرضت عليه الذلة والمسكنة ، وأن من العبث البحث عن الخلاص ! . وهكذا امتلأت النفوس بالجبن ، وضاعت

الشجاعة وضاعت الجرأة . وأصبحنا نعيش فى خوف دائم عبيدا للانجليز والأجانب . عبيدا للفقر والضعف .. أما أنا فلم تمتلئ نفسى يأسا ولا تشاؤما . أما أنا فقد استطعت أن أدرك أن ذلك كله ليس إلا ظواهر عارضة . جاءت نتيجة الاحتلال . ونتيجة الجهل . ونتيجة الاستسلام . وأن الحيوية المصرية إذا وجدت من يبعثها ويستثمرها . هذه الحيوية التى طالما قامت بالمعجزات فى التاريخ القديم والحديث . لم تذهب هباء . ولم تفن . ولكنها موجودة وكامنة . فى نفس كل مصرى . وإن غطتها هذه العوارض الطارئة . فآليت على نفسى أن أكون جنديا . يعمل من أجل مصر وبعث مجدها القديم .. آليت على نفسى أن أقف مالى وجهدى وروحى فى سبيل مصر المفداة . وفى سبيل إعادة الروح إلى أبنائها .. روح التفاؤل والأمل . روح الإيمان بالمستقبل والعظمة ... آليت على نفسى بهذا العهد وبدأت أعمل مذ كنت طالباً فناديت بمشروع القرش كدعوة للاستقلال الاقتصادى . ودعوة للتضامن والتعاون . فى سبيل غاية مشتركة وفكرة نبيلة . وقد كان . ولبت الأمة النداء . وعادت الروح إلى الشباب . فبدأ يفكر . وبدأ يعمل . وبدأ يشعر بآلام مصر . وبدأ يتطلع للخلاص ويشرئب للمجد .. ولما انتهت دراستى وخرجت إلى الحياة . رأيت أن الساعة قد حانت لدعوة الشباب للعمل .. للعمل من أجل حرية مصر ومجدها .. للعمل فى سبيل الإصلاح وفى كل نواحى الحياة . متحررين من كل قيد . نافضين عن أنفسنا غبار الخمول والكسل ... غبار الخوف والجبن . غبار التردد والضعف . فألفت ونفر من زملائى المحامين جمعية مصر الفتاة . ألفناها لا لنخدم حزبا من الأحزاب . ولا لنخدم غاية من الغايات . ولكن لتكون غايتها مصر فوق الجميع . فمصر هى الغاية هى المحور . ومصر ومجد مصر هو كل شىء فى جمعية مصر الفتاة . ولم يكن فى جمعيتنا فوضويون أو مجانين . ولكنا رجال عمل وإيمان . فهؤلاء الذين بنوا مشروع القرش بالأمس . لا يمكن إلا أن يكونوا بنائين . وهؤلاء الذين بنوا مصنع الطرابيش . لا يمكن إلا أن يكون برنامجهم الإنشاء والتعمير . فوضعنا لجمعيتنا برنامجا سياسيا اقتصاديا اجتماعيا دينيا . دون أن نتقيد بسياسة خاصة . أو بشخص من الأشخاص . متخذين شعاراً لنا : «الله والوطن والملك» . وإنى أتشرف بتقديم نسخة من برنامج الجمعية . لتروا فيه أى برنامج إنشائى قد اتخذته الجمعية نبراسا لها ..

على أن الذى يهم المحكمة من هذا البرنامج كله هو البند الخاص بالجيش . وهو البند ٢٧ والذى جاء فيه «ويجب أن يصبح التجنيد إجباريا للجيش . وأن تنقص مدة الخدمة فيه . وأن يمتلىء الشباب بالروح العسكرية» .

فإذا تكلمنا عن الجيش فليس ذلك إلا تنفيذا لمبدأ من مبادئنا . وليس ذلك الا للتحدث عن الإصلاح . فى ناحية من نواحى الحياة المصرية . التى نبغى لها الصلاح جميعا . ولكن النيابة . سامحها الله . وهى أعرف الناس بمقصدنا هذا . لأنها أثناء التحقيق استطاعت أن تكتشف روحنا .. استطاعت أن تعرف من نحن وما نحن . هذه النيابة رأت أن تعتبرنا مجرمين لا مصلحين . هذه النيابة تجىء بنا اليوم . لتوقفنا فى هذا القفص . على اعتبار أننا مجرمون نستحق العقاب . تماما كهذا الذى سرق . وهذا الذى هتك العرض . وهذا الذى زوّر .. ونحن لسنا نشكو ذلك . بل على العكس نرحب به . لأنه سيتيح لنا الفرصة لشرح مبادئنا . وتحمل العذاب فى سبيلها .

السبب المباشر لكتابة الخطاب والعريضة

إلى هنا قدمنا أنفسنا بما يثبت للمحكمة أننا لسنا إلا أشخاصا مجاهدين . يبغون الإصلاح والمجد والرفعة لأمتهم . إلى هنا بينا كيف أن ما قمنا به وما نقوم به من كفاح وجهاد ليس إلا لمصر . ومن أجل مصر . وفى سبيل الله . وبقى أن نعرف الدافع المباشر لكتابة هذه المقالة .

قدمت أن برنامج الجمعية يحوى مضاعفة الجيش . وضرورة جعل الخدمة إجبارية . وإنقاصها إلى مدة سنة . وإذن فإن التحدث فى هذا الموضوع طبيعى . وهو ليس إلا تفصيل ما أجمله البرنامج .. على أن هناك سببا مباشرا لكتابة هذا المقال . هناك عود ثقاب أشعل نفسى وجعلنى أمسك بالقلم ثائرا متمردا قاسيا فى نقدى . وأقسم لكم أنكم ستمتلئون غيظا بدوركم عندما تسمعون القصة . هذا الذى سأحدثكم عنه ليس بالجديد ولا بالأمر المستور . ولكنكم سترتاعون عندما ترونه مبسوطا أمامكم . عندما تشاهدون تسلسل القرائن واجتماعها لتؤدى بنا إلى نتيجة واحدة . وهى أن مصر فى خطر عظيم . وهى لاهية تلعب . وهى لاهية مشغولة بتوافه الأمور . ووزير حربيتنا يهتم بأن يقذف بى فى السجن . أكثر من أن يهتم بمواجهة العدو الذى يتربص بنا الدوائر .

كنا جلوسا فى أحد الأيام . فحمل إلينا أحد إخواننا مصورين جغرافيين يطلق عليهما اسم «فيلبس» وهما ليسا الا نسختين من مصور واحد . الأول تاريخه سنة ١٩١٦ . والثانى تاريخه سنة ١٩٣٢ . ولقد لفت نظرنا بشكل مخيف فى هذين المصورين تغير حدود مصر . وحصار الحدود الإيطالية إياها من كل جانب تقريباً . وإن نظرة واحدة إلى المصورين تريكم كيف فقدت مصر كثيراً من حدودها الغربية . وكيف اقتربت إيطاليا من داخلية مصر . فإذا أضفنا إلى هذا أن إيطاليا فى الجنوب تحاصرنا فى الأريتريا والصومال وحاولت أخيرا أن تقترب من حدود السودان وتستولى على إحدى الواحات . فبادرت انجلترا إلى احتلالها . الأمر الذى أعاد إلى الأذهان واقعة فاشودا . هذا إلى استيلائهم فى البحر الأبيض على سلسلة من الجزر الصغيرة التى تقع فى شمال مصر . أقول لكم ياحضرات المستشارين إن هذا كله لفت أنظارنا إلى الخطر المحدق بمصر من ناحية إيطاليا . ولم يمض على اجتماعنا هذا يومان . حتى اجتمع فى إيطاليا مؤتمر للطلبة الشرقيين وكان انعقاده فى روما . ووقف السنيور موسولينى خطيباً . فقال إن مهمة روما هى الجمع بين الشرق والغرب . وإننا سنعيد الإمبراطورية الرومانية الى سابق مجدها . وهذا لصالح العالم .

أتسمعون ياحضرات المستشارين ؟ إن السنيور موسولينى يريد إعادة تكوين الإمبراطورية الرومانية . وما هى ألمع جوهرة فى الإمبراطورية ؟ .. انها مصر ! ومن هنا كان موسولينى يهتم بمصر اهتماماً خاصاً . ويوجه اليها عناية عظيمة ! امتلأت نفوسنا بهذه الفكرة وأحسسنا بوقعها أليما فى نفوسنا . أحسسنا بالألم يملؤنا ويحز فى نفوسنا . كيف أننا كالشاة يتبادلها الجزارون . وكل لا يريد إلا جلدها ولحمها . وبينما كنا نسير فى يوم من الأيام . إذا بفرقة من الشباب الفاشستى الايطالى تسير على نغمات الموسيقى فى شوارع القاهرة . ومن هم الفاشست ؟ . إنهم جنود ايطاليا الجديدة . انهم الشباب يربون تربية عسكرية . وإذن فى داخل مصر . وفى قلب القاهرة . تعد الجنود الإيطالية . الجنود التى ترغب فى إعادة الامبراطورية الرومانية . الجنود التى تحيط بمصر من كل جانب لتلتهمها فى

الساعة المناسبة .. واذن فقد ثبت لدينا ياحضرات المستشارين . أن إيطاليا تريد مصر . ان إيطاليا تتحين الفرص للانقضاض على مصر . أن أطماع موسوليني لا تقتنع الا بمصر . ولقد يبدو لكم هذا محض استنتاج أو خيال . ولقد تشكون فى قيمة هذا الحكم قليلا أو كثيرا . ولكن الله الذى يعلم أننا فى سبيله نجاهد . أراد بعد أن قدمنا للمحاكمة . أراد منذ أيام قليلة أن يعطيني دليلا جديدا . فإذا بموسوليني يخطب خطبة جديدة فيها حديث أوفى وأكمل . وإذا بناظر مدرسة الاستعمار يرد عليه . وإذا الذى قلته لكم . ياحضرات المستشارين . على أنه استنتاج يصبح حقيقة واقعة رخيصة . يعرفها كل مخلوق يطلع على هذا الكلام

قال موسوليني : «للأهداف التاريخية التى تتوخاها إيطاليا ـ غرضان : آسيا وأفريقيا . فالجنوب والشرق هما المركزان الأساسيان اللذان يجب أن يثيرا أهتمام الإيطاليين وصدق إرادتهم . لأنهم لا يجدون أمامهم إلا القليل . أو بالأحرى لا يجدون شيئا فى الشمال . ومثل هذا القول . يقال أيضا فيما يتعلق بالغرب وبأوروبا أيضا . ولهذين الهدفين اللذين نرمى اليهما ما يبررهما من الوجهتين الجغرافية والتاريخية . فإن إيطاليا هى . بين الدول العظمى الثلاث فى أوروبا . الأقرب إلى أفريقيا وآسيا . فساعات قليلة فى البحر . وساعات أقل تكفى لإيصال إيطاليا بأفريقيا وآسيا .

وليس فى العالم من يستطيع أن يجادل فى هذا الواجب التاريخى الملقى على عاتق أبناء هذا الجيل . وأبناء الأجيال المقبلة فى إيطاليا .. فالمسألة ليست مسألة فتح . وهذا ما يجب أن يعرفه كل الناس . سواء كانوا من جيراننا أو البعيدين عنا . بل هى مسألة توسع طبيعى . يجب أن يؤدى إلى تعاون إيطاليا وسكان أفريقيا . والى تعاونها مع الشرق القريب والشرق المتوسط . وهى أيضا مسألة عمل جدى لاستثمار الموارد التى لم تستثمر فى القارتين . ولاسيما القارة الأفريقية . ومساعدتها على التوغل إلى مدى أبعد فى دائرة الحضارة العالمية .

إن إيطاليا تستطيع أن تفعل ذلك . فمركزها فى البحر الأبيض المتوسط . الذى أخذ يستأنف مهمته التاريخية . كصلة بين الشرق والغرب . يخولها هذا الحق ويفرض عليها هذا الواجب . ونحن لا نقصد المطالبة بأى نوع من أنواع الاحتكار أو الامتياز . بل نطلب من الذين وصلوا ورضوا من المحافظين . أن لا يحاولوا حصر توسع إيطاليا الفاشستية والشعب الفاشستى . أدبيا وسياسيا واقتصاديا من جميع الجهات «مستند ٢»

هذه هى خطبة السنيور موسوليني . فهل رأيتم فيها تحدثه عن الأهداف التاريخية ؟ .. هل رأيتم فيها كيف يقول أنه ليس فى العالم من يستطيع أن يجادل فى هذا الواجب التاريخى الملقى على عاتق أبناء الأجيال المقبلة فى إيطاليا ؟ .. أو لم تحسوا معى ياحضرات المستشارين أن كلمة أفريقيا التى يكررها ليست إلا مرادفة لكلمة مصر ؟ .. فاذا كان كل هذا لم يقنعكم فى أن موسوليني يطمع فى مصر . وفى أنه يبيت لها . فإليكم إذن الكلمة الأخيرة الصريحة الجلية .. اليكم ما سيجعلكم مبهوتين حائرين . كيف جاز أن يلفظ مثل هذا الكلام . أو يردّد هكذا علنا وفى وضح النهار ؟؟

بعد أن خطب السنيور موسوليني هذه الخطبة . أرسل المعهد الشرقى فى نابولى تلغرافا إلى السنيور موسوليني هنأه فيه بالخطبة التى ألقاها يوم الأحد . وقال أنه يعمل وفقا لسياسة السنيور موسوليني فى

سبيل التوسع الإيطالى فى آسيا وأفريقيا . ونوه بإنشاء مدرسة «تحسين وسائل الاستعمار» **وبقرب زيارة فريق من طلبتها لمصر** . وبرحلة بعض أساتذتها لاستكشافات علمية فى فزان .

مصر .. مصر ياحضرات المستشارين . ها هو ذكرها يأتى علنا . ها هى تردد فى قحة وجرأة .. انتبهوا إلى العبارة .. «ونوه بانشاء مدرسة تحسين وسائل الاستعمار **وبقرب زيارة فريق من طلبتها لمصر**» . الله أكبر ! لقد برح الخفاء !! . الله أكبر ! لقد فضح الله الأعداء !! . وها هى النوايا التى حدثتكم عنها تظهر . وها هى سياسة موسولينى فى ابتلاع مصر تتردد .. حتى إنه ليرسل طلاب الاستعمار لدراستها !! .

هذا كلام قيل يا حضرات المستشارين .. لو أنه قيل عن بلد آخر يعرف كرامته . لقامت الدنيا وقعدت .. لو أنه قيل عن مقاطعة (للزنوج) . لصاح هؤلاء الزنوج وأوقفوا القائل عند حده .. أمة تُهدد فى استقلالها . يتحدث عن استعمارها . ولا يتحرك شخص واحد حركة تُشعِر بالحياة . أو الوجود ! .. أما نحن . نحن الفقراء . والضعفاء . نحن المخلصين الأبرياء . فعندما نقول كلمة نبغى بها الإصلاح . فهنا تثور الدنيا . وهنا تقوم القيامة على هؤلاء المجرمين الأنذال ! ..

الحق يا حضرات المستشارين . أننا أصبحنا فى عصر مخيف .. الحق أننا أصبحنا فى عصر قد وصل إلى درجة من الانحطاط الخلقى والسياسى إلى حد عظيم .. **وأن السجن للأحرار فى هذه الساعة هو خير مأوى .. وأحسن مكان !** .

رغبتنا فى الاندماج فى الجيش

قال موسولينى هذا الكلام .. وأحسسنا الخطة التى يرسمها .. ولقد سمع الكلامَ وزيرُ الحربية فما أعاره قيمة .. ولقد لاحظ وزير الحربية الخطبة فما اهتم لها .. وكيف يهتم ؟! وهناك مسألة أخرى أكثر أهمية وأعظم خطورة .. وتلك أن يزج بأحمد حسين . والشيمى . فى السجن . ومن هنا كان لدينا الوقت الكافى لكى نفكر قليلا فى الاحتياط للمستقبل .. ومن هنا أتيحت لنا الفرصة لكى ننظم وسائل الدفاع . بقدر ما نستطيع . لسنا حكاما فنضاعف الجيش .. ولكنا شباب كل الذى يملك هو نفسه وروحه . فأردنا أن نقدمها رخيصة من أجل الوطن .. أردنا أن نندرج فى سلك الجيش . وأن ندعو غيرنا من الشباب للاندماج فى سلك الجيش .. وهكذا نستطيع أن نلبى النداء غداً عندما يدوى النفير يؤذن بأن إيطاليا تريد الاستيلاء على مصر .

وكان حولى خمسون شابا . فدعوتهم أول ما دعوتهم . إلى التطوع فى الجيش لمدة عام واحد . فاذا بالجميع يهللون ويكبرون .. وإذا بالحماسة تملؤهم ويبادرون بالتوقيع على عريضة إلى وزير الحربية . ويطالبون بإعداد عرائض أخرى ليوقع عليها ألوف من الشبان . وهكذا نستطيع أن نملأ الشباب بروح الكفاح والعسكرية .. وهكذا تستيقظ مصر الغافلة .. وهكذا يعرف العالم بأسره . أن فى مصر شبابا يفهم معنى الوطنية . والموت فى سبيل الوطن .. فيتردد هذا الذى ظنها لقمة سائغة باردة .

أخذت العريضة . موقعاً عليها من خمسين شاباً . وقد امتلأت نفسى سعادة أننى استطعت أن

الفت نظر الشباب إلى الخطر المحدق بهم وأنني رأيت منهم استعدادًا عظيمًا .. طوبى بهم للجيش الذى ظل بعيداً عن الشباب المثقف حتى الآن .. طوبى بهم للجيش الذى ظل ضعيفا حتى الآن .. طوبى بهم للجيش الذى ظل أداة غير صالحة لما أعدت له حتى الآن .. فهاهم الشبان يهرعون اليه . ها هى الأمة تستيقظ لتدعيم جيشها . لتدعيم مجدها . فالأمة بدون جيش ليست إلا عبدا ذليلاً .. وإذا قلنا الجيش فإنما نعنى الجيش الحقيق .. لا الصورة التى يراد إيهام الأمة بها أنها جيش ..

أجل يا حضرات المستشارين . امتلأت نفسي فرحا أن استطاعت مصر الفتاة أن تقدم لمصر وللجيش هذه الخدمة . ولكنى تذكرت فجأة أننا مخدوعون .. تذكرت أننى قد نسيت بعض الحقائق .. تذكرت أن فى مصر احتلالاً يفعل كل الذى يريد ويمنع ما يريد .. تذكرت أن جيشنا واقع تحت سيطرة الإنجليز . وأن الإنجليز لا يريدون له أى إصلاح ..
تذكرت أننا لا نملك حتى هذا الجيش البسيط . وأننا لا نستطيع أن نجرى فيه إصلاحا ..
تذكرت أن وزير الحربية الذى بعثت إليه بعريضة التطوع قد يكون أكثر احساسا منى بما يحتاجه الجيش من إصلاح .. قد يكون أكثر عرفانا بالخطر الذى يتهدد مصر . دون أن يستطيع رده ..
فأمسكت بالقلم وكتبت . لا لهذا الوزير . فى الواقع . ولكن لهؤلاء الذين يسيطرون على كل شىء .. لهؤلاء الذين يخدعون الأمة المصرية . ويخدعون أنفسهم عندما يحسبون أننا قد جاز علينا هذا الخداع .. كتبت للإنجليز أعداء مصر . كتبت للإصبع التى تلعب فى كل مكان .. كتبت أعلمها أننا نعرف كل شىء .. أننا ندرك مواضع الضعف فى جيشنا .. أننا لا نرى فى هذا الجيش رمز أمانينا وعدة الدفاع عنا .

حتى لقد قلت فى خطابى بالحرف الواحد «أنا أعرف أنك لن تهتم بهذه فإن ملف المحفوظات ينتظرها . أنا أعرف أن إنقاص الخدمة العسكرية إلى سنة أمر مستحيل . وإذن فسيظل الشباب بعيداً عن حقه الطبيعى .. أنا أعرف كل ذلك . ولكن ثق . يا صاحب المعالى . أن هذه العريضة سوف تقع موقع الصاعقة لدى انجلترا .. ثق أن هذه العريضة ستفزع بعض الأشخاص . فلا ينامون الليل . لقد كانوا آمنين مطمئنين إلى أن الشباب المصرى آخر ما يفكر فيه هو الانخراط فى الجيش . ولكن ساء فألهم فها هو الشباب بعد شهر واحد من جهاد مصر الفتاة . ها هو الشباب بمجرد أن وصل صوت مصر الفتاة . يهرع ويريد أن ينضم إلى الجيش .

هذه هى الأسباب المباشرة التى حركتنى لكتابة الخطاب . وإعداد العريضة . ونستطيع أن نلخصها فيما يأتى : ـ

١ ـ الإحساس بما يملأ مصر من خطر داهم من جيوش إيطاليا الفاشتية .
٢ ـ الرغبة فى إيقاظ الأمة . والاهتمام بجيشها . ودعوة الشباب للتطوع فيه .
٣ ـ وجود قوات مسيطرة على الجيش تعوق كل إصلاح فيه . يجب أن تعرف أننا بدأنا نعرف أعمالها .
٤ ـ دعوة صارخة إلى إنقاص الخدمة العسكرية إلى سنة واحدة .

هل هناك جريمة فى الخطاب المرسل إلى وزير الحربية ؟

إلى هنا بينّا الأسباب والدوافع التى حدت بنا إلى هذه الصرخة فى الحياة العسكرية ، وأترك الآن التحدث عن شرفها ونزاهتها ، أترك التحدث عن أنها دفاع شرعى عن كيان المجموع المصرى إلى حين نصل إلى القصد الجنائى ، وحسن النية وسوئها .

أما الآن : فنبدأ بالتساؤل . أهناك فيما كتبناه جريمة ؟ أذكر ياحضرات المستشارين أن الأستاذ صادق العجيزى عندما دعانى أول مرة للتحقيق معى ، ابتدرنى بقوله «إيه ده يا أحمد . إيه الكلام اللى أنت كاتبه ده ؟» . فقلت له وهل فيه ما ليس حقا ؟ فأجابنى : وهل كل حق يقال ؟ فقلت له : أجل .. كل حق يجب أن يقال ، هكذا يعلمنا الله . وتلك هى مهمتنا الجديدة . أن نجهر بالحق فى كل مكان لا يثنينا عن ذلك خوف أو جبن . ما دام الذى نقوله حقا . ولعل هذا هو الجديد فى رسالة مصر الفتاة .

هذه الكلمة التى قلتها لصادق بك العجيزى عندما سألنى أول مرة وأعنى بها «وهل فى كلامى ما ليس حقا» ، ورده على «وهل كل حق يقال» .. هاتان الكلمتان ، أو العبارتان بمعنى أصح ، هما جملة الموضوع وتفصيله . فالقضية المعروضة أمامكم اليوم ، تتلخص فى الفصل فى هذه النقطة . أما أنا فأقول إن الحق يجب أن يقال دائما ، وأن قولة الحق لا يجب أن تنتج جريمة . وأما النيابة فترى أن ذكر الحق ، فى بعض الأحيان ، قد يكون جريمة . على أن هذه القضية مفصول فيها منذ الآن ياحضرات المستشارين ؛ فأنتم فياصل الحق ، وأنتم حماة الحق . وأنتم تعاقبون الشاهد الذى لا يقول الحق . وأنتم تبلغون درجة القداسة ، لأنكم حماة الحق . الباحثون عنه دائما أبدا .

والبرىء يقف أمامكم مطمئنا . لأنه يعرف أنكم لابد مظهرو الحق . تتمسك النيابة بظاهر الكلام ، وتقول إنه إهانة للجيش ، وسب لوزير الحربية . وفاتها أن كل كلمة جاءت فى الكلام هى حقيقة ثابتة جلية ، يعرفها كل مصرى .

ما السب ؟ وما الإهانة ؟

ما هو السب يا حضرات المستشارين ؟ ومن أين تجىء الإهانة ؟ السب هو إسناد عيب معين إلى شخص أو جماعة ، هى خِلْو من هذا العيب ، على أن يكون فى الإسناد خدش ناموسها ، أو اعتبارها ، على حد تعبير القانون . إذن لابد هناك من إسناد عيب معين لا أساس له ، فمن يقول عن آخر أنه لص ، أو مزور ، أو نصاب ، أو سكير ، أو فاسق ، أو ماجن ، فأنه يسند إليه عيباً معيناً من شأنه ، لمجرد التصاقه بالشخص المسند إليه ، أن يحقره بين الناس ، وأن ينقص من شرفه واعتباره .

أليس هذا هو تعريف السب ياحضرات المستشارين ، فى القانون والعرف . فلنقابله الآن بما لا يمكن أن يعتبر سباً ، فهذا الذى يقول لانجليزى : يا انجليزى ، لا يمكن أن يكون قد سبه ، بينما تعتبر هذه الكلمة بالنسبة لى سباً أقاضى صاحبه من أجله . ومن قال لمريض : أنت مريض خائر على

أبواب القبر ، يمكن اعتبار مثل هذا الكلام قسوة وغلظة وقلة كياسة . يمكن اعتباره كل ذلك ، ولكن لا يمكن مطلقاً أن يكون سباً لأنه تقرير لواقع كائن .

فمها قيل عن السب ياحضرات المستشارين ، ومها قيل عن منشأ الإهانة ، فيجب أن تكون الألفاظ التى استعملت فيه بحيث تسند عيوباً لا أساس لها إطلاقا ، أو أن لها أساسا ، ولكن هذا الأساس لا يصل إلى الحد الذى قررته ألفاظ السب . أما اذا كانت ألفاظ السب ليست سبا ، ولكنها تقرير تام للواقع ، ولكنها ذكر لحقيقة مجردة ، فلا يمكن أن تكون هذه الألفاظ سبا مهما كان فيها من غضاضة ، ومهما كانت مرة مؤلمة .

فلنبحث الآن فى الخطاب الذى نحاكم من أجله ، فلنبحث ياحضرات المستشارين عن كلمة واحدة ليست وصفاً لحقيقة قائمة ، فلنبحث عن كلمة أكون قد غاليت فيها بحيث إنها تخدش اعتبار شخص من الأشخاص . فقبل أن نبدأ فى تحليل هذه الكلمات نقسمها إلى قسمين أساسيين :

القسم الأول : خاص بإهانة القوات البرية ، أى المساس بكرامة الجيش كمجموعة .

القسم الثانى : خاص بإهانة بعض الموظفين ، مثل اسفنكس باشا ووزير الحربية .

القسم الأول

سب وإهانة القوات العسكرية

ماهى العبارات التى تراها النيابة هنا سبا وإهانة للجيش ؟ . إنها مايأتى :

(ومع ذلك فما أفلّ السلاح المصرى ! وما أضعف روح الأمة المصرية ! وما أبعد وزارة الدفاع عن الدفاع عن مصر ! وما أقربها من الدفاع عن انجلترا !)

(أى جيش هذا ياسيدى الوزير الذى تتحكم افيه ؟ ! إنه جيش من المرضى ! جيش من الضعفاء ! جيش من الجهلاء ! جيش لا معنوية فيه ولا حياة ، إنه جيش مفلول ، إنه جيش يخضع لرياسة (اسفنكس باشا) . إلى أن قلت : (خمس سنوات وما أدراك ماهى خمس سنوات لا وسط حرب وانتصار ، لا وسط معارك وهجوم ودفاع ، ولكن خمس سنوات فى خدمة بيوت الضباط وأولادهم ، وشراء الخضار لمنازلهم ، وسماع الإهانات من زوجاتهم ، خمس سنوات يزدادون فيها جهلاً على جهل ، وتموت فيها شخصياتهم ، لا فناء فى الوطن ولكن خنوعا للأشخاص ، ورهبة من الضباط ..)

هذه هى العبارات التى تكون القسم الأول وهو ماتراه النيابة سبا وإهانة لقوات الجيش ..

الحق يا حضرات المستشارين أنها كلمات قاسية لاذعة ، الحق أنها كلمات تنتفض لها النفس هلعا وإشفاقا ، ولكن صدقونى إذا قلت لكم بأن هذا الهلع ، وذاك الانتفاض ليسا إلا نتيجة لما فى الألفاظ من تصوير للواقع ، الواقع المخيف الذى يرتعد لذكره كل مصرى .. ووزير الحربية ليس إلا مصريا ، وإذن فقد ارتعد كما يرتعد أى شخص آخر عندما رأى الحقيقة مسطرة واضحة .. عندما رآها على صفحات الجرائد ، وبهذه الحرارة وبهذا الإخلاص .

إنها صرخة الشباب المدوية ، ياحضرات المستشارين ، إنها صرخة صادرة من القلب لتنحدر إلى القلوب .. فأما الشعب ، أما الشباب ، فقد فزع عندما قرأ هذا المقال ، وهُرع إلى جمعية مصر الفتاة ، يوقع عرائض غير التى قدمت ، ليتطوع فى الجيش .. هُرع ليقدم العلاج الحقيقى ، أما وزيرُ الحربية فقد اعتبر هذا الكلامَ سباً وإهانة .

والآن فلنمض فى تحقيق الكلمات الواردة فى الخطاب ، لنرى إلى أى حد تخرج عن وصف الواقع الدقيق .

ما أفل السلاح المصرى !

أولى هذه العبارات التى جاءت فى الخطاب ، والتى تتمسك بها النيابة . إننى قلت إن الجيش فى

الأمة هو سلاحها ، ومع ذلك فما أَفَلَّ السلاحَ المصرى ! وما معنى السلاح المفلول ياحضرات المستشارين ؟ .. سواء أردتم المعنى اللغوى الدقيق .. أو المعنى الشائع .. أو المعنى الذى يقر فى ذهن القارئ .. فلا يوجد إلا معنى واحد ، وهو أن السلاح «متلم» أى أنه غير حاد ، ويفل السيف ، ياحضرات المستشارين ، لكثرة مكثه فى القراب ، ويفل السيف لكثرة ما استعمل وأطيحت به رؤوس .. فإذا ما شحذ عاد إلى سابق قوته .. وعاد بتاراً ذريعاً .. والشاعر العربى يقول قولا مأثورا :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أفلو قلنا عن الجيش المصرى ، ولنفرض الآن أسوأ ما يمكن أن يستنتج من الكلمة ، أفلو قلنا إنه فى حاجة إلى أن يشحذ لأنه الآن مفلول . أيكون هذا معناه سب الجيش ؟ . أهو مقدر علينا إذا تحدثنا عن الجيش فى أى وقت من الأوقات ، وفى أية مناسبة من المناسبات أن نمسك قيثارة المدح ، وأن نتغنى بعظمته وشجاعته ؟ .

اللهم لا . لأننا رجال صحافة ، لأننا نجاهد من أجل الإصلاح ، ولن نستطيع أن نصلح إلا إذا عرفنا مكان الضعف والخطأ .

وإذن فكلمة «مفلول» ياحضرات المستشارين ، التى نعت بها الجيش المصرى لا يمكن إلا أن تكون وصفا للواقع . بل لعلنا لا نستطيع أن نصف الجيش المصرى فى حاضره . إلا بهذه العبارة ، فهو لم يشترك فى حرب منذ عشرات السنين ، وهو غير معد للاشتراك فى حرب قادمة . اسمعوا ماذا يقول محمد بك صالح حرب ، وكيل مصلحة السجون حاليا عندما كان عضوا بمجلس النواب فى أواخر سنة ١٩٢٦ ، ومن هو صالح بك حرب ؟ إنه أحد رجال العسكرية الأمجاد الذى اشتركوا فى حروب عدة . يقول الأستاذ نقلاً عن مضبطة الجلسة التاسعة والأربعين : «لا يستطيع العسكرى البيادة فى الجيش المصرى أن يؤدى واجبه مادام سلاحه قاصرًا على البندقية والسنكة ، مع أنه أكثر الجنود عذاباً وتعباً ، وقد جعله نقص السلاح عاجزاً عن التقدم فى ساحة القتال تحت وابل من الرصاص والقنابل . فيجب تلافيا لهذا النقص المعيب أن يجهز العساكر البيادة بجميع الأسلحة الحديثة اللازمة ، كمدافع الماكينات وغيرها ، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على الصعوبات التى تصادفهم فى ميدان القتال . وأنه لمن العار أن لايوجد مدفع ماكينة واحد مع قوة البيادة أى الجيش ياحضرات المستشارين — وعددها ١١ أورطة ، مع أن أفقر دولة تجهز الأورطة البيادة بأربعة مدافع ماكينة ، وليس ذلك فقط ، بل وصلت الحال ببعض الدول ، إلى تجهيز الأورطة البيادة بستة عشر «مدفعا» (تراجع مضبطة مجلس النواب المتقدمة) .

أتسمعون ياحضرات المستشارين ؟ وصل الحال ببعض الدول أن تجهز أورطة البيادة بستة عشر مدفع ماكينة . الأورطة الواحدة لها هذا العدد الضخم من المدافع ، فهل لدينا فى الجيش المصرى بأسره مدفع ماكينة واحد . اللهم لا ! .

ولعل المدفع ياحضرات المستشارين ، أصبح الآن أحقر من أن يذكر فى الحرب القادمة : ولا يتخيل أحد ما سيكون فيها من أهوال وأسلحة ؟ . أنها ستكون حرب غازات ياحضرات

المستشارين . أنها ستكون حرب كيمياء .. أنها ستكون حرب قنابل ، تنشر الخراب ، وتنشر الطاعون ، وتنشر الحمى . لقد مضى الوقت الذى كان فيه الجندى يحارب وجها لوجه . مضى الوقت الذى كانت الجيوش تعتمد فيه على القوة الجسدية . وأصبحت الحرب حربا ميكانيكية . فماذا يملك جيشنا منها ؟ . لا شيء . إنه لا يملك إلا البندقية . ولعل البندقية أصبحت بالنسبة للاختراعات الجديدة كالسيف بالنسبة للرصاص . وجيشنا ياحضرات المستشارين لا يملك سوى هذه السيوف التى أصبحت خرافة الخرافات . لا توجد كمامة غاز واحدة . لا توجد سيارة تانكس واحدة . لا توجد سيارة مصفحة واحدة ! . ألا ترون أنه غير معد للحرب ياحضرات المستشارين . لأنه إن كان معدا ، بالرغم من هذا النقص ، للدخول فى حرب فإن معنى هذا أنه معد للذبح . لأن هذا الجيش بهذه الأسلحة ، لا يمكن إلا أن يذبح فى أول موقعة يقف فيها أمام الأسلحة الجديدة .

وإذن ياحضرات المستشارين ، فإن القول بأن السلاح المصرى سلاح مفلول . سلاح يحتاج إلى أن يشحذ . هو قول يقصر عن وصف الحقيقة .

هذا من حيث أسلحة الجيش ، أما من حيث عدده فهو مهزلة المهازل . عدد الجيش المصرى ياحضرات المستشارين يجعله أشبه بفريق من قوات البوليس التى ترابط فى الأقسام لانتظار الحوادث . أما كجيش يدافع عن بلد ، عدد سكانه ١٤ مليونا ، وله من الحدود ما تبلغ ألوف الأميال . مابين بحرية وبرية . أما عن عدد الجيش فإنى أترك الكلام للأستاذ الكبير مصطفى محمود الشوربجى المستشار بمحكمة النقض فى الوقت الحاضر والعضو بمجلس النواب سابقاً . إننى أنقل لكم كلامه فيما يختص بعدد الجيش فقد قال فى الجلسة التاسعة والأربعين : «لقد انتهى جميع حضرات الخطباء إلى نتيجة واحدة هى أن حالة الجيش الآن محتاجة إلى إصلاح . وحقا إن مهمة الجيش هى الدفاع عن البلاد ، وعن المعاهدات الدولية التى نحن مرتبطون بها . فإذا راجعنا تقرير اللجنة نجد أن عدد الجيش من جند وضباط لا يتجاوز ١٠,٠٠٠ . فإذا ذكرنا أن مهمة الجيش هى الدفاع عن البلاد من خط الإستواء إلى البحر الأبيض المتوسط . ومن الصحراء الشرقية إلى الصحراء الغربية . وأن مهمته أن يقوم بالتعهدات التى أوجبها علينا وجود قناة السويس . نجد أن الجيش بعدده الحالى غير كاف . وقد حملنى هذا على مراجعة تعداد الجيش فى أربع مدد سالفة من عهد محمد على باشا حتى اليوم . وقد اعتمدت فى استصدار هذه المعلومات على كتاب سرهنك وكلوت بك . ففى عهد محمد على باشا كان عدد الجيش ٢٧٦,٦٤٣ وفى عهد سعيد ٦٤,٠٠٠ وفى عهد إسماعيل ٨٩,٠٨٨ وذلك خلاف ١٥ أورطة غير نظامية . وأورطة أخرى بالسودان وجهات مختلفة . وقد رجعت إلى تعداد الجيش بعد أن قيدنا بمعاهدة تحديد عدد جيشنا بـ ١٨ ألفا . فوجدت فى تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٨٩٣ أن عدد الجيش كان ١٥,٨٦٣ وكان به ١٨ مدفع ميدان . و ١٣٢ مدفعا مركزيا . وأربعة مدافع مكسيم . خلاف المهات الأخرى ، . ويلاحظ أنه فى ذلك الوقت الذى كنا فيه مقيدين بالمعاهدة المبرمة بيننا وبين تركيا . كان جيشنا معتبرا جزءا من الجيش التركى . وكان المفروض أن تركيا مكلفة بالدفاع عنا ، فهذه الاعتبارات كانت ملحوظة فى تقدير عدد جيشنا بذلك المقدار . أضف إلى ذلك أن تعداد السكان فى مصر فى عهد محمد على وسعيد كان يتراوح بين ٦,٣ ملايين . ولكنه ارتقى بعد

ذلك إلى ١٢ مليونا . وكذلك ارتقت ميزانية الدولة من مبلغ ضئيل إلى مبلغ عظيم» (راجع المضبطة السابقة الذكر) .

انصفوا مصر ياحضرات المستشارين . وسجلوا فى حكمكم هذه الأرقام وهذه الحقائق . إلام نظل غافلين ؟ إلام تظل الغشاوة على أعيننا وإلام نظل نغط فى نومنا ؟ .. ثلاثمائة ألف جندى هم جيش مصر أيام محمد على . وحوالى المائة الف فى عهد إسماعيل . وحتى فى وقت وصاية انجلترا الرسمى كان ١٦ ألفا .. أما الآن فى عهد الاستقلال فهو عشرة آلاف جندى لا يزيدون جنديا واحدا .. أليس ذلك مخيفا ورهيبا ؟ .. وبعد ذلك يُراد منا أن نقول إن الجيش المصرى كاف للدفاع عن مصر .. وأن الجيش المصرى سوف يهزم إيطاليا فى طرفة عين .. وأن الجيش المصرى أقوى جيوش الأرض طرا .. أما إذا وصفنا الواقع فى تواضع ، فقلنا إنه مفلول ــ أى يحتاج إلى شحذ كى يأخذ بهاءه ــ اعتبرت هذه العبارة سبا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .. إلا أنه خير للجيش أن يقال عنه مفلول . وأن يتقدم الشباب ليغذيه بدمائه ، من أن يتغنى بعظمته وقدرته . فإذا هبت عليه العاصفة ذهب أدراج الرياح .

ما أبعد وزارة الحربية عن الدفاع عن مصر !
وما أقربها من الدفاع عن انجلترا ! ! .

والآن فلننتقل إلى العبارة التالية لنرى كيف تتداعى المعانى . وكيف تتسلسل وترتبط كلها مندفعة نحو غاية واحدة ، وهى إصلاح الجيش بحيث يصبح صالحا للدفاع عن مصر أمام العدو الخارجى ! .. إذن ثبت لدينا ياحضرات المستشارين أن الجيش بحالته الراهنة لا يستطيع أن يدافع عن مصر ، إذا ما حاولت إيطاليا أن تنفذ خطتها . وإذا ما حاولت أن تعيد بناء إمبراطوريتها . وإذا ماصارت جنودها على الحدود ، وفى قلب مصر . ساعية إلى امتلاك مصر. وإذا مادعت طياراتها لغزو مصر ، وهى مسألة ــ ساعات قليلة كما يصرح موسولينى فى خطبته . أقول إذا ثبت أن جيشنا عاجز تمام العجز عن الدفاع وصد غارة واحدة من هذه الغارات . فماذا بقى للدفاع عن مصر. بقيت هذه الجيوش الإنجليزية التى تحتل مصر. جيش الاحتلال ياحضرات المستشارين هو أمل وزارة الحربية فى الدفاع عن مصر ، ولست أستطيع أن أغادر هذه النقطة قبل أن ألفت نظر حضرات المستشارين إلى أن الإنجليز بالذات قد تنبهوا إلى الخطر الإيطالى . فشاهدت مصر مناورات لا عهد لنا بها من قبل تجوس خلال الوجه البحرى ، ولم يعرف الناس لها معنى . بل كانت القاهرة نفسها محل هذه المناورات ، أما الصحراء الغربية فقد حارب الإنجليز فيها ملك سيوة الذى جاء حتى اغتصب القاهرة . أجل حارب الإنجليز ملك سيوة ، ومن هو ملك سيوة ؟ إنه شخص وهمى بل هو رمز للعدو المهاجم من الغرب . بل هو إيطاليا التى ترغب فى إعادة الإمبراطورية الرومانية وإرسال طلبة مدرسة الإستعمار إلى مصر للقيام برحلة .

تنبهت انجلترا ومصر غافلة ، أو طلب منها أن تكون غافلة . أو هى لا تستطيع إلا أن تكون غافلة . فإذا قام الإنجليز يدافعون عن مصر ، وكان الجيش المصرى فرقة فى هذا الجيش الإنجليزى

المدافع . وكان الجيش المصرى وحدة من هذه الوحدات التى تقاتل الإيطاليين .. ألا يكون ذلك في الحق أقرب للدفاع عن مصالح انجلترا منه للدفاع عن مصالح مصر . لماذا يحارب الإنجليز عندئذ ؟ ألسواد عيون المصريين ؟ اللهم لا . أحرصا على الاستقلال المصرى ؟ اللهم لا . ولكن حرصا على مصلحتهم . حرصاً على مركزهم فى مصر . فوقوفنا بجانبهم معناه الدفاع عن هذه المصالح . ويالهول الحقيقة المرة ، ياحضرات المستشارين ، عندما يقول لنا الإنجليز غدا ، لقد دافعنا عن هذه الأرض بدمائنا ، فهى أرضنا ولنا هنا حقوق مقدسة .

إلى هنا ياحضرات المستشارين بينت لكم كيف أن الجيش المصرى ، بحالته الراهنة غير صالح للدفاع ، فهو مفلول فكيف أنه سيكون وحدة من وحدات الجيش الإنجليزى للدفاع عن مصر وكيف يكون مدافعا عن مصلحة انجلترا فى مصر .. إلى هنا بينت أن العبارات السابقة ليست إلا تقريرا للواقع ووصفنا للحالة الموجودة

جيش من المرضى والضعفاء .. جيش من الجهلاء .. الخ

فلننتقل الآن إلى العبارات التى تتالت وراء بعضها واصفة الجيش بأن فيه مرضى وفيه ضعفاء وفيه جهلاء .. وقد خيل للنيابة ومن قبلها لوزير الحربية ، أن هذا الكلام قد جرى به القلم من غير حساب ، دون أن يعلم أنه ليس إلا تكراراً لما قيل فى مجلس النواب فى جلسته الثامنة والأربعين ، وهى التى سبق أن اقتبست من كلام بعض خطبائها ولعل كلمتى الضعف والجهل يمكن تخيلها ياحضرات المستشارين .. يمكن تصورهما سواء من الناحية المادية أو المعنوية ، ولكن الذى لا تتوقعونه أن يكون فى الجيش مرضى ، والآن اسمعوا ماذا يقول الأستاذ عبد الحميد بك سعيد «وإنى أستطيع أن أصف لحضراتكم عساكرنا وصفاً يقرب حالتهم إلى أذهانكم ، فإذا ماسمعوا صوت البورى أتوا من كل مكان وجلسوا فى فناء المعسكر جماعات حول الأروانة .. إننى لا أبالغ إذا قلت إنها قد تكون قذرة ، فضلاً عن مجاورتهم للاسطبلات ، وتعرضهم لمضار الشمس والتراب ، إذ ليست لهم محال خاصة لتناول الغذاء ، وأظن أن هذا لا يليق بجيشنا المصرى ، ولا يفوتنى أن أذكر لحضراتكم أنهم ليس لديهم ملابس شتوية تقيهم برودة فصل الشتاء ، حتى تفشى فيهم مرض الدوسنتاريا والأمراض الأخرى وفتكت فيهم فتكا ذريعا ... اننى أجهر أمام هيئة المجلس ، معلنا اننى لا أكون مبالغا ، إذا قلت إن عناية وزارة الحربية بالخيل والبغال أكثر من عنايتها بالعسكر» .

هذا كلام قيل ياحضرات المستشارين ، وسمعه وزير الحربية فلم ير فيه حرفا دل على غير الواقع ، فلم يرد أن يحتج عليه .. هذا كلام قيل عن الجيش ، وكيف أن العساكر لا توجد لديها ملابس للشتاء ، حتى تفشى فيهم مرض الدوسنتاريا ، وفتكت بهم الأمراض فتكا ذريعا[1] .

---

(١) هنا قدم الأستاذ الى المحكمة احصائية بعدد الجنود المرضى بديدان الانكلستوما والبلهارسيا تدل على أن نسبة المرض المتفشى فى الجنود هى فى الجملة ٧٦ فى المائة .

ومن هذه الأمراض التى تفتك بهم فتكا ذريعا مرضا البلهارسيا والانكلستوما المنتشران بين الجنود انتشارا مروعا . هذا الكلام قيل وقيل فى آخره إن عناية وزارة الحربية بالخيل والبغال أكثر من عنايتها بالعساكر .. هذا كلام قيل ، وتحت قبة البرلمان ، فإذا استعرنا بعضه للقيام بنفس الغرض المقصود من قوله فى البرلمان ، فلا نكون قد سببنا الجيش بأكثر مما سبه به أعضاء البرلمان الرسميون الذين يمثلون سلطات الدولة ، على أن المهم فى هذا ياحضرات المستشارين أن وزير الحربية لم يعترض على هذه المسألة بالذات .

وهكذا ترون أننا يوم قلنا إن جنود الجيش من المرضى كنا نعنى تقرير الواقع كما جاء فى مضابط مجلس النواب .. أما نعت العساكر بالجهل فأى خروج فى هذا عن الواقع الدقيق ؟ أو ليس الجيش يجمع من الفلاحين والفلاحين فقط . أولا يخرج كل من يدفع البدل .. كل من كان على شىء من التعليم . أنهم يخرجون من يحفظ القرآن ياحضرات المستشارين إكراما للقرآن ، والواقع إنه إكراما للإنجليز الذين وضعوا قانون التجنيد . وذلك أن حافظ القرآن ، مهما كان ماوعاه من القرآن بذاكرته فقط ، فإن فيه ألفاظا وعبارات تملؤه معنوية وحياة ، ذلك أن حافظ القرآن يعرف أن الله يطالب المؤمنين بالجهاد والكفاح والموت فى سبيل الله ... قال الله تعالى فى كتابه العزيز «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم إخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولهِ وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين» . هذا هو القرآن وهذا هو حظ حافظ القرآن . إذا مادخل الجيش يتوعده الله إذا أضلته الأموال والأزواج والأبناء عن الجهاد فى سبيل الله .. حرموا من الجيش ياحضرات المستشارين كل من أحسوا فيه شبهة التعليم ... حرموا الجيش رائحة الثقافة ... اسألوا النيابة إذا حدث ودخل الجيش من كان فى مدرسة ابتدائية ماذا يفعلون به ، إنهم يبعدونه عن الجيش العام ويستخدمونه بلوك أمين ، أو بمعنى آخر فى الأعمال الكتابية .. لا يوجد فى الجيش إلا فلاحون جهلة ، ولا تحاول وزارة الحربية فى السنوات الخمس التى يمضيها الجندى أن ترفع عنه شيئاً من جهله .. لا تحاول أن تعلمه القراءة والكتابة لا تحاول أن تنير عقله قليلاً .. فإن جئنا نقرر الواقع فنقول إن عساكر الجيش جهلاء .. أنكون بهذا قد سببنا الجيش وأهناه ؟ . أرأيتم إلى أى حد بلغ الجيش من الضعف ؟ .. أرأيتم إلى أى حد اعتبر ذكر بعض الحقائق عن هذا الجيش سبا وطعنا بينما هى حقائق واقعة ؟ . وإذا ثبت لدينا أن فى الجيش أمراضا مادية ، وأمراضا معنوية ، نتيجة الجهل ، فهل يمكن إلا أن ينعت بالضعف . هذا هو مدلول الألفاظ واحدا فواحداً ياحضرات المستشارين هذا هو تفسير الكلمات كلمة كلمة لو أنكم أردتم أن تفسروها على أسوأ التفاسير ، فما بالكم إذا نظرتم إليها فى مجموعها ! .. ما بالكم إذا نظرتم إلى أنها ليست إلا عبارات يراد بها تصوير حالة الجيش وحاجته إلى الإصلاح لنخلص منها إلى وصف الإصلاح بالذات .. وما بالكم وهذه الكلمات ليست مقصودة بالذات . ولكنها تمهيد لمعنى أجل وأعظم ، وهو أننا نعرض أنفسنا للتطوع فى الجيش . ما بالكم وهذه الكلمة لاتحوى سوى حدة فى الأسلوب عرف بها كاتبها .. لقد صدر من الصرخة قبل هذا العدد ١٧ عددا ... سلوا النيابة هل رأت فى أى عدد من هذه الأعداد أسلوبا غير هذا الأسلوب وهل رأت فى كل سطر إلا هذه القوة فى التعبير ، الذى يدفعنا إليه إيماننا ورغبتنا فى الإصلاح .. سلوا صادق بك عندما كان ينصحنا أن

نخفف من لهجتنا ماذا كنا نقول له ... كنا نقول له إننا دعاة إصلاح .. إننا لا أغراض ولا غاية لنا إلا إعادة الروح فى كل مكان ، ولكى نعيد الروح يجب أن نكتب بهذا الأسلوب .. يجب أن نجهر بكل الحق وبكل مافى أنفسنا . حقا لقد وصلنا إلى عصر أصبح فيه ذكر الحقائق جريمة ، ولكن مع ذلك يجب أن يتقدم نفر من الأمة بذكر الحقائق ، وأن يدفع ثمن ذلك ، وإلا فسوف تنقلب الأوضاع ، وينسى النِاس الحق ويلتبس عليهم بالباطل .. قال أمير الشعراء الراحل :

إن الذى خلق الحقيقة علقما لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلاً

بق ان يقال ان الألفاظ كان يمكن أن تكون أخف من هذه اللهجة ، وتنتج نفس الأثر .. أجل قد تعترض النيابة ، وتقول أن رغبتنا فى الإصلاح لايجب أن تكون بحيث نقذع فى الكلام ، فإذا قالت النيابة ذلك فما أسهل الرد عليها بحديث دار فى مجلس النواب بصدد الجيش فى هذا المعنى .. ذلك أن الأستاذ عبد الرحمن عزام وقف يخطب عن الجيش فقال .. هل وزارة الحربية وهى تتقدم إلينا بهذا الرقم الصميم (الميزانية) أدركت الأخطار المعرضة لها هذه البلاد . التى قد تضطر إلى الدخول فى الحرب رغم أنفها ؟ وهل هى فكرت فى مصير البلاد إذا مادهم العالم داهم بسبب الأفكار التى لا تزال متأصلة فى النفوس ؟ .. إن الذى أخشاه أن تكون هذه الميزانية لا تمثل إلا أرقاما جوفاء ، ولا تمثل سياسة مطلقا ، ولا فكرة ، وهى تكملة لعادات اعتادتها البلاد فى دفع مبلغ باهظ ليقال أن لها جيشا ، لا ليقال أن هذا الجيش قائم على سياسة معينة ، ليقوم بأمر ماتقتضيه الضرورة فى ساعة ما .. أعتقد أن هذه الميزانية مبنية على غير أساس ، وتؤيدنى فى هذه العقيدة حالة جيشنا الحاضر ، التى هى حالة يؤسف لها أشد الأسف ... إننى كرجل مارس هذا الشأن ، وكنت مسؤولا بين آخرين عن الدفاع عن أمة ضعيفة ضد أمة قوية ، أؤكد لحضراتكم أنه جيش **مجرد من مزايا الجيوش الهمجية فضلاً عن المتمدينة** ، فماذا يمكن أن يكون هذا الجيش» فرأى بعض أعضاء المجلس أن يقاطعوه فسجلت المضبطة كلمتى «ضجة ومقاطعة» واستمر النائب يقول : «لكم أن تعتقدوا ما تشاءون ، ولكنى أقول إن الجيش يحتاج إلى إصلاح فى كل ناحية من نواحيه ، وإذا لم يكن هذا الإصلاح ممكناً فليس أفضل من توفير هذا المبلغ الباهظ لمصلحة البلاد» . أتسمعون ياحضرات المستشارين : إنه يريد إلغاء الجيش وتوفير ميزانيته لأنه يراه لا يساوى قلامة ظفر ، فلاعجب أن سجلت المضبطة هنا كلمة (تذمر) فقال النائب (أنا لا أبدى لحضراتكم ما تعتقدونه إنما أبدى ما أرى وأعتقد ، أرى أن الجيش بتدريبه غير كفء للقيام بالمهمة المطلوبة منه) وهنا عادت الضجة من جديد .. ترون ياحضرات المستشارين : كيف أقذع فى انتقاد الجيش .. وكيف حرمه من مزايا الهمج والمتمدينين .. وكيف أشار بحله ، على أن الجميل فى كل هذا أن المجلس عندما ظن أن فى هذا الكلام ماقد يكون مساسا بالجيش وقف وزير الحربية وقال بالحرف الواحد ما يأتى :

«أيها السادة إنى أول من يقدر تقديرا حسنا أن نية حضرة العضو المحترم زميلى وصديقى عبد الرحمن عزام أفندى لم تكن منصرفة قط إلى إهانة جيشنا ولا ضباطه . أعرف فيه هذا الإحساس لأننى خالطته ، وتكلمنا كثيرا فى حالة جيشنا ، فرأيت منه أنه أول من يحترم هذا الجيش الباسل ، وكل ما قصده إنما هو إدخال ضروب من الإصلاح كلنا يشعر بها . ولا أذيع سرا إذا قلت لحضراتكم بأننى

أشعر أيضا بهذا الإحساس لأنى مصرى مثلكم تشرفت بزمالتكم .»

الله أكبر ياحضرات المستشارين ، ماذا تريدون أكثر من هذا .. لكى تروا تعسف وزير الحربية الحالى ، يوم أن اعتبرنا مجرمين ، لأننا قلنا عن الجيش أنه غير صالح للدفاع عن مصر .. هذا هو وزير الحربية يقول بأعلى صوته إن الجيش فى حاجة إلى إصلاح من كل ناحية ، وينصب نفسه فى موقف الدفاع عن النائب الذى انتقد الجيش بأحرج الألفاظ ، واقترح حله وتوفير مايصرف عليه ! . ماذا تريدون أكثر من هذا الدفاع أسوقه لكم اليوم لأدلل لكم على أن الإنسان فى مقام الإصلاح يجب أن يذكر العيوب كلها ، وأن يشخص المرض لكى يستطيع وصف الدواء . أنظروا ماذا قال وزير الحربية فى ختام خطبته المذكورة

«أيها السادة : تلك هى بعض مشاغلنا ولم نشتغل بها إلا لإدخال الإصلاح الذى تريدونه ، وإنى واثق كل الثقة أنه بفضل معونتكم وحكمتكم سنصلُ بغير جلبة أو ضوضاء إلى جيش لائق بكرامتنا ، جدير بعزتنا وبتاريخنا المجيد» هذا كلام الوزير . هذا كلام قيل فى سنة ١٩٢٦ ، ونحن اليوم بعد ثمانى سنوات . هل وصل الجيش إلى المركز اللائق بكرامتنا . إننى أتحدى الوزير الحالى إذا كان يقول إن الجيش خطا خطوة واحدة مدى هذه الثمانى السنوات ، إن لم يكن قد تأخر .. وإذن فجيشنا لم يبلغ بعد المركز اللائق بكرامتنا ، والجدير بعزتنا وبتاريخنا ، وما دام الأمر كذلك أفليس من حقنا أن نطالب ، أليس من حقنا أن ننادى بالإصلاح ؟ . وكيف نخطو نحو الإصلاح إن لم نعرف أن ما نحن فيه خطأ ، وكيف نعرف هذا الخطأ إن لم نذكر هذا الخطأ ؟ لقد كان وزير الحربية فى عام ١٩٢٦ وزيرا يعرف واجبه ، ووزير حربية سنة ١٩٣٣ يعرف واجبه أيضا ، ولكن ما أعظم الفرق بين الواجبين الأول يدافع عن النائب الذى أراد إصلاح الجيش فى مجلس النواب لأن المجلس أراد أن يحتج على النائب الذى يقترح حل الجيش ..

ووزير الحربية الثانى يرمى أحمد حسين فى السجن لأن واجبه يدعوه إلى ذلك .. فاللهم رحمة وحنانا . فماذا أعددت لهذا البلد من ويلات ؟

خمس سنوات فى خدمة الضباط وسماع الإهانات :

والآن فلننتقل إلى واقعة أخرى هولت لها وزارة الحربية ، وهولت لها النيابة ، وهى حديثنا عن هؤلاء العساكر الذين يشتغلون فى المراسلات ، فيلحقون ببيوت الضباط ليكونوا خدما لهم .. صورت هذه الواقعة بالكلمات الآتية : «خمس سنوات فى خدمة بيوت الضباط وأولادهم وشراء الخضار لمنازلهم وسماع الإهانات من زوجاتهم» فهل فى كلمة من هذه الكلمات ماليس حقا .. الواقع ياحضرات المستشارين أنه من اعقد الأمور محاولة إثبات البديهيات ، والمتعارف عليه ، وهذا الذى قلته فى هذه العبارات ليس غريبا وليس جديدا . ولكنه فى بيت كل ضابط ، ولكنه فى كل مكان ، حيث يوجد رجل الجيش ! .. ماذا أقول لكم ؟ . هل أقول لكم سلوا أنفسكم عن هذه الواقعة ! . هل أقول لكم سلوا أى واحد من الحضور .. هل أقول لكم اطلبوا من النيابة أن تنفى هذه الواقعة .. ولكنى أقدم لكم حديثا عن هذا الموضوع فى مجلة أخرى ، هى مجلة «المصور» ، ومع ذلك لم تحتج

النيابة ولم تر فيه سبا أو إهانة .. جاء فى مجلة المصور فى عددها الصادر يوم الجمعة ٢٣ فبراير ١٩٣٤ ، مايأتى : تحت عنوان (إلى متى نجامل) قالت (عجبا ! انظر هذا الجاويش العريض المنكبين ، المفتول الذراعين ، المبروم الشاربين ، النارى العينين ، الغليظ القدمين ، الطويل القامة ، العظيم الهامة الضخم البنية ، اسمه الجاويش بمبة .. أى والله اسمه بمبة . يقول لى أصدقائى رواد الجارسونيرات أن الجاويش بمبة هذا ، أو هذه ، كان يحمل الرسالات وينظف البلاط ، ويفرش السزير ، ويطبخ ، ويعجن ، ويخبز ، ويغسل عملاً بأوامر رئيسه ، سواء كان ذلك فى البيت الحلال أو فى البيت الحرام .

(بل هناك جاويش آخر كان أعرض من بمبة منكبين ، وأفتل ذراعين ، وأبرم شاربين ، وأحد عينين ، وأغلظ قدمين ، ولكن كان اسمه (داده حليمة) لأنه رحمه الله إن كان قد مات ، ورحمه الله إن كان لايزال فى الخدمة كان أحن من الأمهات قلبا على أولاد رئيسه ، وأرق عاطفة من فطومة وستوتة وأم حسين خادمات البيت الكريم ، فكان يحمل الأولاد على كتفه ، وقصرية الأولاد على كتفه ، يحمل غيارات الأولاد على كتفه ، يهنهم ويهشكهم ، ويدلعهم ويحميهم ، ويغطيهم ، ويسهر الليالى حولهم ، يحكى حكايات ست الحسن والجمال والشاطر محمد وأولاد الحرام والحلال .. وأمثال الجاويش بمبة والداده حليمة كثيرون فى العاصمة وفى الإسكندرية ، وفى الأقاليم ، ولو أنهم كانوا يؤدون واجباتهم المنزلية ، من كنس وطبخ وتربية أولاد ، وشراء لحمة وخضار ، وانتظار على أبواب السينما وغيره ، وغيره ، بملابسهم الملكية لا بملابسهم الرسمية ، لهان الأمر نوعا ما ، ولبلعنا هذه المرارة التعسة والذليلة نوعا ما ، ولكن الذى يؤلمنا أن الملابس الرسمية هى التى تطبخ وتغسل وتكوى وتشترى اللحمة والخضار وتنتظر على أبواب السينمات ، وتحمل الأولاد وتكون صلة الهوى بين أرباب الغرام .. إلى آخر المقالة) . وقد شفعت المقالة بصورة جميلة للجاويش داده حليمة وهو يحمل القصرية والطفل ويسير بملابسه الرسمية

لم يكن بدعاً إذا ما قلناه من أن عساكر الجيش يشتغلون خدما ، ويشترون الخضار ويسمعون إهانات زوجات الضباط .. ومادام العسكرى يشتغل خادما فإنه لابد أن يخطىء ولابد أن يسمع هذه الإهانات ..

قد يقال إننى فى عبارتى قد تحدثت بصفة عامة ، ولم أخصص بعض العساكر ، وردى على هذا أن العسكرى الواحد يمثل الجيش بأسره ، البدلة الرسمية رمزاً لمجد الدولة كلها .. والعساكر الذين يلحقون بخدمة الضباط ليسوا من صنف معين ، أو أنهم قاصرون على أشخاص دون أشخاص ، بل هم يتناولون كل عساكر الجيش على الإطلاق .. ويبدل الضابط هؤلاء العساكر المكلفين بخدمته كل مدة معينة بغيرهم ... وإذن فهذا العمل معرض له كل عسكرى فى الجيش .. بل ولعل الأكثر تعرضا له هم خيرة الجنود وأحسنهم ، ليكونوا أكثر قدرة على الخدمة فى المنازل .. وحتى إذا كانت العبارة عامة ، فهذا نوع من البيان لا أكثر ولا أقل ، وأعنى به التعبير عن البعض بصيغة الكل ..

فنحن فى هذه الواقعة لم نذكر خلاف الواقع .. ونحن لم نغال فيها أية مغالاة ، حتى أن ماكتبناه لا يعدل عشر معشار ما كتب فى مجلة المصور ، ومايتردد على كل لسان وفى كل مكان . وإذا كان ذكر

هذه الواقعة فيه إهانة للجيش ، تهدمه من أساسه ، فما ذنبنا متى كانت هذه الوقائع حقيقة ثابتة .. ولو هدمت الجيش على أساسه أذن ؟ . فليبادر وزير الحربية بإصلاح هذه الحالة بدلا من أن يهتم بالقذف بنا إلى السجون .

إلى هنا ياحضرات المستشارين ، انتهينا من القسم الأول من الألفاظ التى يشتم منها رائحة الإهانة والسب ، وبينا لكم كيف أن هذه الألفاظ **بحسب مدلولها المجرد** ، ليست إلا وصفا دقيقا لكائن موجود .. وكيف أن الكاتب الذى يريد أن يصور حالة الجيش لا يستطيع أن يعبر بعبارات غير هذه التى كتبتها ، وأظن أن مهمة الصحافى الأولى أن يتعرض للمؤسسات العامة . وأن يصفها ويلقى الضوء على مافيها من عيوب ، ويشير إلى ماتحتاجه من إصلاح .

إلى هنا ثبت لحضراتكم أننا ماجئنا بجديد ، وأننا رَدَّدنا بعض كلام قيل فى مجلس النواب ، وأيده وزير الحربية .

بقى علينا أن ننتقل إلى القسم الثانى من الألفاظ الواردة فى المقالة الخاصة باسفنكس باشا ، ووزير الحربية .

* * *

القسم الثاني

الألفاظ الخاصة ببعض الموظفين

كفتنا النيابة فى الواقع مؤونة الإسهاب فى هذه الناحية ، اقتناعا منها بما جاء فى التحقيق ، فإن المواد التى تطلب تطبيقها أصليا هى المادة ١٥٩ ، والخاصة بإهانة القوات البرية والبحرية لا الموظفين .. ولو راجعتم سعادتكم محاضر التحقيق لوجدتم أنه كان يدور حول هذه الناحية ، ناحية إهانة الموظفين المذكورين وأعنى بهما أسفنكس باشا ووزير الحربية ، ويظهر أن النيابة اقتنعت بالتفسير الذى قلته ، فلم تذكر فى قرارتها شيئا عن هذه الناحية ، غير أن تكرار هذه الألفاظ أمام المحكمة يجعل من المناسب تفسيرها .

اسفنكس باشا

القول عن اسفنكس باشا أنه ضربية ساحقة ماحقة على الجيش المصرى ، والضربية هنا تلتهم رأس المال . أقول إن هذا الكلام بالذات ، لا يمكن الا أن يكون مدحا لاسفنكس باشا ، فهو كرجل انجليزى يخدم المصالح الانجليزية ، يهمة قبل كل شيء أن يعمل من أجل دولته ، وأن يمكن لنفوذها وسيطرتها ، فإذا ذكرنا ذلك ، فإن هذا الذكر قد يكون أى شيء سوى اعتباره إهانة لاسفنكس باشا ؟ . قد يكون قلة كياسة نحو الرجل أو كثيرا من الصراحة المؤلمة .. ولكن ذلك لا يمكن أن يكون سبا أو إهانة ، فاسفنكس باشا لا يخدش ناموسه إذا اعتبرناه انجليزيا ، واسفنكس باشا لا يجرح عزته أو كرامته أنه كل شيء فى الجيش ، فاسفنكس باشا فى كل هذا يقوم بواجبه الوطنى الذى سيكون محل فخره يوما من الأيام . وجريا على الخطة التى اختطتها لنفسى ، وهى أن لا أقول إلا صدقا وما هو واقع ، وما هو تقرير لكلام رسمى ، أنقل إليكم ما قيل فى إحدى جلسات مجلس النواب عن سعادة اسفنكس باشا وهى الجلسة الثلاثون ، المنعقدة فى ١٦ فبراير سنة ١٩٢٧ ، قال الأستاذ فكرى أباظة مقدم الاستجواب ما يأتى :

(فى وزارة الحربية موظف أجنبى غير مريح ، معتز بسلطته المشاغبة ، وهو اللواء اسفنكس باشا ، هذا الموظف يشغل وظيفة مفتش القوات ، ويقوم فى الواقع بعمل السردار ، وإنا نود أن نعرف إلى أى مدى تبلغ حدود سلطته ، وهل تمس تلك السلطة المسئولية الوزارية فتمس اختصاص مجلس النواب مثلا ؟ .. قرأتم حضراتكم فى الصحف أن هناك خلافا قائما بين معالى وزير الحربية المسؤول أمام المجلس ، وبين اللواء اسفنكس باشا عن الغازيتة العسكرية ، فمعالى الوزير يرى أن توقع باسمه أو بأمره ، واللواء اسفنكس باشا على ما تقول الصحف يريد أن يوقعها بنفسه مستقلا ، ولقد أشارت

هذه الصحف إلى أن الاتفاق قد تم بين الرئيس والمرءوس على أن لا يوقع كلاهما وأن توقع الغازيتة بلفظتى (ليحيا الملك) . ولو كان هذا الخبر غير صحيح - وأود من كل قلبى أن يكون كذلك - لوجب على معالى وزير الحربية أن يكذبه فى الحال . وإذا صح ياحضرات النواب ما ذكرته الصحف ولم تكذبه وزارة الحربية ، من أن هذا الموظف المعتز بسلطة المشاغبة ، قد جددت خدمته مرة أخرى . كان هذا من العجب العجاب . إننا نريد أن نعرف العلل والأسباب فى كل ذلك ، وإذا كان معالى وزير الحربية يتحمل أى عناء فمن واجب المجلس أن يشاطره هذا العناء)

والغريب ياحضرات المستشارين أن وزير الحربية تحدث فى كل شىء إلا هذه الواقعة فمرت بسلام . فعرف الجميع أن لها أصلا من الواقع . كان هذا فى سنة ١٩٢٧ . فما هو الحال فى سنة ١٩٣٤ . أسوأ مما تتصورون ياحضرات المستشارين . ففى السنة المذكورة كان هناك وزير ينازع اسفنكس باشا . كان هناك برلمان شعبى يوقفه عند حده . أما اليوم فقد أصبح النفوذ الانجليزى فى الجيش هو كل شىء . ولقد وصفت مجلة المصور نسبة تغلغل الإصبع الانجليزية فى المرافق المختلفة للدولة . وعندما جاءت إلى وزارة الحربية كانت النسبة ١٠٠ فى المائة . أليست هذه هى الضربية الساحقة الماحقة التى تلتهم رأس المال ؟ . الحق إنها لكذلك . والحق أنه لا لزوم للإفاضة فى هذه النقطة . فالنيابة أول مقتنع بها فلم توجه إلىّ تهمة إهانة بعض الموظفين .

وزير الحربية

هناك عبارة خاصة بوزارة الحربية ، هالت معاليه وهالت النيابة لأول وهلة ، وما ذلك إلا لأنهم لم يقرأوا المقالة بإمعان وترو . بل ملكهم الغيظ من سرد الحقائق . فجعلهم لا يميزون الكلام ولا يعرفون مناحيه وهذه العبارة الخاصة . هى أن «وزير الحربية المصرى موظف فى وزارة الحربية الإنجليزية» . هذه هى العبارة . وهى بمفردها هكذا تخيف سامعها لما فيها من إهانة .. ولكن هذه العبارة منفصلة عما يسبقها ويتلوها من الكلام أشبه بالآية الكريمة «ويل للمصلين» ! ذلك أن هذه العبارة ليست إلا حكما على أفعال مستقبلة تحصل بعد عدة سنوات - إن قدر لها أن تحصل - ... فأنا أقول لوزير الحربية : نريدك أن تدخلنا الجيش . فإن لم تفعل فسنسافر إلى العراق وننضم إلى الجندية هناك ونمضى مدة الجندية فى القطر الشقيق . ثم نعود إليكم جنودا ظافرين .. وعندها .. أى بعد أن نسافر للعراق وتقبلنا العراق فى جنديتها . مع أن القانون العراقى يحرم ذلك . ونمضى مدة التمرين ونعود إلى مصر .. عندها تعرف الناس أن وزارة الحربية ليست لنا . وأن وزير الحربية موظف فى وزارة الحربية الانجليزية . وما ذلك إلا لأن العراق قبلت أبناء مصر . ووزير حربية مصر بالذات لم يقبل اندماجهم فى الجيش ! . ولابد أن يكون فى هذا منفذا لسياسة خاصة غير سياسته فى الدفاع عن مصر .. لابد أن يكون فى هذا متأثرا بأمر من الأوامر الانجليزية . وما دام الأمر كذلك فهو بمثابة موظف فى الوزارة الإنجليزية . وإذن فهذه العبارة التى حاولت النيابة إلصاقها بوزير الحربية أمر معلق على شرطين : شرط زمنى وشرط مكانى ... فالشرط المكانى أن نسافر من مصر إلى العراق . وأن

يقبلنا العراق فى جيشه . وأن يعدل قانون الاقتراع العراقى لكى يتمكن من قبولنا .. هذا هو الشرط المكانى . وشرط زمانى وهو انقضاء الزمن اللازم لإتمام هذه التنقلات وانقضاء مدة التمرين ثم العودة إلى مصر . فإلى أن يتحقق هذان الشرطان فلا يمكن أن تعلق كلمة بوزير الحربية .. هذا هو وضع المسألة المادى . ولكن حتى لو فرضنا أن هذه العبارة تمس وزير الحربية منذ الآن فإن العبارة التالية لها مباشرة تمحوها وتجعلها لا أثر لها . بل وتدافع عن وزير الحربية وتذود عن كرامتة حيث قلت : (**ولست أريد أن نصل إلى هذا الحد**) فلازلت أعتقد أن وزراءنا المصريين يفهمون معنى الكرامة والقومية . لازلت أعتقد أن كل مصرى يفهم واجبة نحو وطنه .. إلى آخر العبارة .

وهكذا ترون ياحضرات المستشارين أننا نعرف ماذا نكتب وكيف نكتب بإخلاص ، هكذا ترون أننا لا نريد أن نسىء إلى شخص واحد . وإن كنا نريد أن نذكر كل الحقيقة بمرارتها . أجل : عندما نكتب ونرمى أنفسنا . وقد كدنا لا ننصف أحد المصريين فى سياق حديثنا عن الإصلاح ورغبتنا فيه . نعود فننصف هذا المصرى ونظاهره ونقف بجانبه لأننا لا نعادى مصريا واحداً ، لأننا لا نحمل موجدة لشخص من الأشخاص حتى أعداءنا ياحضرات المستشارين . إننا نحبهم ونسامحهم ، لأن مصر اليوم فى حاجة إلى أن الحب والتسامح يسودان بين أبنائها .

القصد الجنائى

والآن ياحضرات المستشارين فلنترك كل هذا الدفاع الماضى . ولنسلم جدلا أن الألفاظ المذكورة فى المقالة يشتم منها رائحة السب والإهانة ... ولنسلم أن وصف الجيش بأنه ضعيف . وبأن فيه مرضى ، وبأنه مفلول . ولنفرض أن كل من يسمع هذه الألفاظ يرى فيها سبا . فهل هذا يكفى لتكوين الجريمة . جريمة السب ؟ الجواب لا . فقد بقى أن يكون الكاتب مدفوعا فى هذا بسوء نية ، أو بالأحرى يجب أن يتوفر لديه القصد الجنائى ـ والقصد الجنائى هنا ركن كأى ركن فى كل جريمة أخرى ، ولكنه هنا يمتاز بأنه كل شىء فى هذه الجريمة . قد تستطيعون ياحضرات المستشارين أن تفترضوا القصد الجنائى فى بعض الأحوال ، وأن تلصقوه بالمتهم لأن الوقائع المادية صارخة بأن مثل هذا الشخص لابد أن يكون سىء القصد ، على هذا الأساس خلق القصد الاحتمالى ، وعلى هذا قد يلحق الخطأ الجسيم بالقصد . ففى كل جريمة أخرى قد تكيف الأعمال المادية قصد المتهم ، وقد تقطع به ، وقد تحدده . ويستطيع القاضى أن يصدر حكمه مطمئنا لتوفر القصد . أما هنا ، هنا فى جريمة السب ، فالقصد الجنائى هو كل شىء ، هو الجريمة بأسرها . والفعل المادى بالذات لا يمكن بذاته إلا أن يكون محل اختلاف ومحل تقدير . الفعل المادى قد يصادف هوى فى نفوس المجموع .. الفعل المادى قد يلقى استحسان الرأى العام .. والجريمة فى النهاية تقاس بمقدار ما فيها من اعتداء على المجتمع .. فالفعل المادى فى جريمة السب والإهانة ، ليس إلا قرينة نلجأ اليها لتقرير سوء القصد ، فليس يكفى اليوم أن تقف النيابة وتقول إن أحمد حسين قد أهان الجيش بكلمات كذا وكذا .. لا . ليس يكفى هذا مطلقا . بل يجب أن تثبت أن أحمد حسين ، لضغائن فى نفسه ، أراد أن يتشفى على

صفحات الجرائد .. إن أحمد حسين يحمل عداء للجيش فهو يريد إهانته .. أجل : يجب أن تقيم النيابة الدليل على توفر القصد الجنائى بمعناه الخاص والعام ، ذلك أن هناك جرائم يجب أن يتوفر فيها نوعان من القصد : قصد جنائى عام وقصد جنائى خاص .

أما القصد الجنائى العام فهو الذى يتوفر فى كل جريمة ، وأما القصد الجنائى الخاص فهو ما تتميز به جريمة عن أخرى .. والآن فلنبحث عن هذين النوعين من القصد فيما كتبناه .

القصد الجنائى العام

ما هو القصد الجنائى العام ؟ .. القصد الجنائى العام هو أن يأتى الإنسان الأعمال المادية للجريمة عالما أنه بذلك يرتكب الجريمة ، فالذى يأخذ مال غيره خلسة يعلم أنه يرتكب جريمة السرقة ، والذى يطعن آخر بسكين فيقتله يعرف أن عمله هذا يؤدى حتما وبالذات إلى النتيجة التى حصلت . فالقصد الجنائى هو إتيان الشخص الأعمال المادية مع علمه أن القانون يعاقب عليها . فهل هذا النوع من القصد متوفر هنا ؟ هل عندما كتبت كلمات الضعف ، والمرض ، والجهل .. وأن الجيش غير صالح للدفاع عن مصر ، هل كنت أعرف أن كتابة هذه الألفاظ بالذات تكون جريمة ومع ذلك مضيت فيها ؟ الجواب : لا ، فما هو البرهان على ذلك ؟ . البرهان على ذلك هو أن الكلمات ليست مقصودة بالذات ، فهذه الكلمات يمكن أن ترفع من الخطاب دون أن يمس ذلك جوهره ، حتى ولا عرضه .. تستطيعون أن ترفعوا هذه الكلمات دون أن تنقصه قليلاً أو كثيرا ، الأمر الذى يدل على ان الكاتب لهذه الألفاظ لا يحتاج إليها فى مقاله ، وليست غرضاً من أغراضه ، إذا لماذا كتبت ؟ كتبت لأننى ساعة كتابتها كنت متحمسا جدا .. كتبتها لاننى كنت اتخيل مصر وقد أحيط بها ، ووقف جيشنا عاجزا عن الدفاع عن مصر . كتبتها لأنى أسمعها تتردد عن جيشنا فى كل مكان . كتبتها لعلمى أننى فى كتابتها أسجل ما استفاض على الألسن وما قر فى جميع الاذهان ، وهذا وحده يكفى لمحو جريمة السب ، وهاكم ما يقوله الاستاذ أحمد بك أمين مؤيدا لذلك ، جاء فى الصفحة ٥٦٠ تحت عنوان القصد الجنائى ما يأتى بالحرف :

(فإذا كانت الألفاظ تفيد بحسب ظواهرها السب ، وقد استعملت بغير قصد السب باعتبار نية المتهم ، أو لأنها جارية على ألسنة ذلك الوسط الذى وقعت فيه بغير أن يقصد بها سب ، فلا محل للعقاب لعدم توفر القصد الجنائى)

وجاء فى (لابوتفان) الجزء الثانى فقرة ٧٦٣ ، ما يؤيد ذلك ويطابقه . والواقع ان هذا طبيعى ياحضرات المستشارين وعادى جدا ، فهذا الذى يقول للآخر : (يا ابن الكلب) أو (يا لص) ، أو (يا مزور) ، أو (يا سافل) . فإن هذه الألفاظ تحمل بذاتها معنى السب والإهانة ، أما أن يكون متواترا عن شخص من الأشخاص أنه ضعيف مريض ، فيذكر أحد الكتاب هذا الوصف ، لا ليهين صاحبه أو يسبه ، ولكن ليدلل على حاجته لتبديل الهواء مثلا ، أو حاجته إلى العناية ، أقول لا يمكن أن يكون هذا سبا ..

وهذا الذى كان فى قضيتنا . فلقد كتبت هذه الكلمات وهى لا تحمل فى ذاتها ألفاظا بذيئة أو مقذعة .. كتبت هذه الألفاظ وهى ليست مما اعتاد الناس أن يهين بعضهم بعضا بذكرها ولكنها أقرب ما تكون الى النعوت العادية . كتبت هذه الألفاظ لأخلص منها إلى ذكر الإصلاح غير عالم مطلقا أننى بإثبات هذه الألفاظ أكون قد أهنت الجيش . وما ذلك إلا لأننى أقرر وقائع استفاضت على ألسنة الناس واشتهرت عن الجيش .

هذا هو القصد الجنائى العام . غير متوفر ياحضرات المستشارين . القصد الجنائى الذى يريد أن يأتى المتهم بالأعمال المادية . وهو عالم أنه يرتكب جريمة معينة . هذا القصد غير موجود هنا للبراهين التى قدمتها . والآن فلننتقل إلى القصد الجنائى الخاص وهو الأكثر أهمية . وهو كل شىء فى جريمة السب .

القصد الجنائى الخاص :

جريمة السب لها قصد جنائى خاص . فليس يكفى أن نذكر الألفاظ التى يشمّ منها رائحة السب والإهانة . فقد تكون الألفاظ بذاتها مقذعة مهينة . ومع ذلك فلا تتكون جريمة السب . وقد يكون كاتبها ملاحظا ما فيها من إقذاع وإهانة ومع ذلك فلا تتكون جريمة السب . لأنه يبقى بعد ذلك القصد الجنائى الخاص . وهو ــ هل يريد هذا الكاتب من كتابته أن يهين المتحدث عنه فعلاً ؛ وهل يريد أن يشفى ثأرا له ؟ أو هو بطبيعته قليل الأدب والحياء ؟ فلا يتردد عن السب والقذف إرضاء لطبيعته ؟. هذا القصد الخاص وهو : هل أردت فعلاً إهانة شخص من الأشخاص بمقالى هذا ؟ أو هل أردت إهانة جماعة من الجماعات . هلى هو متوفر هنا ؟ الجواب لا وألف مرة لا .. ولعمرى إن قصد الإهانة غير معقول . لماذا أهين هذه القوات ؟ أهى عدوتى ؟ أهى خصمى حتى من الناحية الإصلاحية ؟ هل هى المسؤولة عما هى عليه من ضعف وتأخير؟ هلى هى التى امتنعت عن شراء الأسلحة اللازمة للجيش حتى جعلته متأخرا ؟ أللهم لا . فهل أنا عدو للوزارة أريد إحراجها والتشفى منها . بأن أعيب هذه الناحية من قوتها ؟ أللهم لا . لأننا فى صدد خطاب ليس فيه تنديد إلا بالإنجليز. وكيف أهين الجيش وأنا الذى أتغنى بمدحه فى كل مكان ؟ كيف أهين الجيش وأنا الذى أحرص على كرامته وأعرف مفاخره أكثر من وزير الحربية نفسه ؟ كيف أهين الجيش وأنا أرغب فى الانضمام إليه ؟ ولعله دليل جديد على انقلاب الأوضاع فى هذا الزمن . ياحضرات المستشارين ، أن أقف فى قفص الاتهام لأحاكم بتهمة إهانة الجيش . وأنا الدى عرف عنى تمجيد الجيش وإظهار مفاخره ! تريد وزارة الحربية اليوم أن تحاسبنى على بعض كلمات وصفت بها الجيش . فلأحاسبها أنا عن المقالات التى دبجتها فى مدح الجيش وفى عظمته إذن . وسترون بعد قليل . ياحضرات المستشارين . أن كفتى هى الراجحة . وأن وزارة الحربية مدينة لى بخطاب شكر . ردا على هذه المقالات . وإنى أقتطف لكم جزءا من هذه المقالة التى كتبتها قبل مقالتى الأخيرة لتروا ما هى عواطفى نحو الجيش بجلاء ووضوح :

كتبت فى العدد ١٩ ــ ١١ تحت عنوان «أين متحف الجيش المصرى . وهو أكثر مجدا من الجيش الفرنسى» مقالة قلت فى ختامها : (هذا هو متحف الجيش فى فرنسا . ومثل هذا المتحف يوجد فى كل بلاد العالم المتمدين ، لأنه لا توجد أمة واحدة تخلو من ذكريات الحرب والجهاد . أما فى مصر فواحسرتاه على البلد المنكوب .. لا ذكرى .. لا إشارة تتحدث عن ماضى الجيش المصرى الظافر .. كأن ليس لهذا الجيش مجد تضيق به الدنيا بأسرها .. كأن هذا الجيش لم يقهر أوروبا فى الحروب الصليبية ، ويأسر ملوكها ، ويسجن ملك فرنسا فى الحرب التى نتحدث عنها فى المنصورة . كأن هذا الجيش لم يدافع عن المدنية والإسلام ضد هجمات التتار . كأن هذا الجيش لم يلق بالإنجليز فى البحر ، كأن هذا الجيش لم يفتح عكا وقد عجز عن فتحها نابليون . كأن هذا الجيش لم يخف أوروبا بأسرها عندما حطم الموره ، وقرع باب الآستانة .. كأن هذا الجيش لم تستعن به فرنسا لفتح المكسيك .. كأن هذا الجيش لم تؤلف به إمبراطورية خالدة لم تهدمها إلا دسائس الاستعمار .. يا رجال الجيش المصرى .. نريد متحفا لهذه الانتصارات وهذه الفتوح . نريد متحفا يُشعرنا بالكرامة والعزة ، نريد متحفا يُجرى الدمَ فى عروقنا نارا . نريد متحفا يحفزنا لطلب المجد والعلا . نريد متحفا يجعلنا نسترخص الموت فى ساحة القتال) .

فهل قيل عن الجيش مثل هذا الذى قلته يا حضرات المستشارين .. هل تعرف وزارة الحربية نفسها هذا التاريخ .. وهل مجدت نفسها وجيشها هذا التمجيد .. اللهم لا .. لعل النيابة تقول لنا هذا كلام قديم قيل قبل الآن ، فلعل الرأى تغير . ولعل الاحتقار حل محل الاحترام . فإذا اعترضت هذا الاعتراض فما أسهل أن نجابهها بنفس خطابنا الأخير .. ما أسهل أن أتلو عليكم فقرات من خطابى لوزير الحربية .. ترون منها ترديدا للكلمات السابقة . اسمعوا ماذا فى العريضة المقدمة إلى وزير الحربية يا حضرات المستشارين :

(بكل احترام يا صاحب المعالى يتقدم إليكم نفر من شبان مصر الناهضة . يريدون أن يتطوعوا فى الجيش المصرى ، ليخدموا مصرهم العزيزة عن طريق الجندية .. لقد طال ما قالوا عنا يا صاحب المعالى أننا نفزع من العسكرية . وأننا نندب حظنا إذا دعينا للجندية . وها نحن أولاء نتقدم لنفتدى مصر بروحنا ، وها نحن أولاء نرجوكم أن تضمونا إلى صفوف جيشنا الباسل . ذى التاريخ المجيد الذى أخاف أوروبا يوما من الأيام) . هل تريدون برهانا بعد ذلك يا حضرات المستشارين على أننى أمجد الجيش المصرى .. لو أنى أهين الجيش وأُحقِّره .. فكيف أتقدم للتطوع فيه .. كيف يتقدم الإنسان ليتطوع فى جماعة إلا اذا كان يحبها ويحترمها . كيف أنتسب إلى صفوف الجيش إن لم أكن أؤمن أنى بهذا الانتساب أزيد شرفا على شرف وفخارا على فخار .. كيف تقول النيابة إننى أهين الجيش وأنا الذى أقول فى العريضة . (نرجوكم أن تضمونا إلى صفوف جيشنا الباسل ذى التاريخ المجيد . الذى أخاف أوروبا يوما من الأيام) أليست هذه ألفاظ التكريم التى ذكرتها عن الجيش المصرى فى مقالتى ؟ اسمعوا أيضا ماذا قلت يا حضرات المستشارين فى نفس خطابى للوزير : «ليس

ذلك ضعفا . لا والله . فإن المصريين الذين رموا بالجنود الانجليزية إلى البحر .. المصريين الذين ساروا يهزجون أهازيج النصر خلف إبراهيم باشا حتى قرعوا أبواب أوروبا فأفزعوها . المصريين الذين حاربوا فى أوروبا وأمريكا .. الذين سيرهبون العالم يوم يحملون السلاح . ما كان هؤلاء المصريون جبناء ضعفاء » . أليس هذا حديثا عن الجيش . أليس هذا دفاعا عن الجيش . أليس هذا إشادة بمجد الجيش .

لست أنا إذن يا حضرات المستشارين من يحقر الجيش ويرغب فى إهانته . لست أنا من لا يمجد الجيش وينحنى أمام اسمه وأعلامه .. ولست أسوق هذا دفاعا عن نفسى ولكنها كلماتى فى كل مكان .. ولكنها عقيدتى التى ترونها واضحة فى هذا الخطاب الذى أحاكم من أجله . لا ، لا ياحضرات المستشارين ، انما أنا من يريد العز والنصر للجيش ، إنما أنا من أرغب فى تقديم دمى وروحى لهذا الجيش ، ودعوت غيرى من الشبان ليقتدوا بى . فلست أنا الذى أهين الجيش أو أرغب فى إهانته . بل إننى أستمد من ذات الألفاظ التى أغضبت القوم برهانا على غيرتى على كرامة الجيش وحبى لإصلاحه . أما أنا فأعرف ماضى الجيش ومجده .. أما أنا فأعرف للجيش قدره وخطره .. أما أنا فأعرف أن الجيش رمز عز الدولة ومجدها .. ورأيت أن القائمين بأمره قد أغفلوا أمره متعمدين فثارت نفسى وهاجمت هؤلاء الذين يؤخرون الجيش وما فعلت ذلك إلا غيرة على الجيش .·. رأيت العساكر تشترى الخضار ، وتحمل الأطفال ، وتسمع بأذنها الإهانات فثارت نفسى لكرامة الجيش فكتبت أندد بذلك .

صدقونى ياحضرات المستشارين : إننى أنا الذى أعظم الجيش . وهم الذين يسيئون إليه . وهم الذين يهينونه بإظهاره ممسوخاً حقيراً لا يساوى شروى نقير .

أما وزير الحربية فليس بينى وبينه ترة .. لست من حزب سياسى يعادى وزير الحربية ويرى فيه مغتصبا لحق من حقوقه فيحقد عليه .. لا ياحضرات المستشارين . فالجميع يعرفون أن مصر الفتاة جمعية قومية تعمل من أجل مصر .. وتفنى من أجل مصر .. دون أن تعادى مصريا واحدا . ودون أن تكره مصريا واحدا .. إننى أدعو إخوانى أن يحب بعضهم بعضا . أدعوهم أن يحبو أعداءهم . وأن يسامحوا من يسيئون إليهم . ووزير الحربية مصرى . مصرى محترم . وفوق ذلك كان أستاذا لى فى كلية الحقوق ولا أحفظ عنه إلا كل ما هو حسن . فمن ناحية المبدأ لا أحمل له إلا كل حب . ومن ناحيتى الشخصية لا أحمل له إلا كل احترام .. وليس هذا تملقا أو فزعا . لا ياحضرات المستشارين . فستعرفون فى نهاية دفاعى من أنا . وهل أعرف الفزع أو الخوف أو الملق ؟ ولكنى أقوله لأنه الحق .

ما من قصد جنائى إذن ياحضرات المستشارين .. ما كنت أعرف أننى بهذه الألفاظ أهين الجيش لأنه لم تكن فى نيتى إهانة الجيش مطلقا . وإنما كانت رغبتى فى الإصلاح . والإصلاح المطلق .. دعونى أجهر من هذا المكان المقدس بأن الجيش فى حاجة إلى الإصلاح . وأن وزارة الحربية إن لم

تبادر بهذه الإصلاح فهى جد مقصرة .. دعونى أجهر من فوق هذا المنبر اننا بغير جيش لا نساوى مليما واحدا ولا نستطيع رفع رءوسنا . فى مصر احتلال يكبلنا . فى مصر اعداء يرغبون التهامنا . فى مصر جوهرة لامعة . مصر مركز العالم ونقطة الارتكاز فيه . مصر مطمع الغاصبين والفاتحين . فيجب على الأقل أن نعرف كيف ندافع عن أنفسنا ، ونريد جيشا يستطيع هذا الدفاع . وجيشنا الحاضر غير صالح لهذه المهمة مطلقا !! .

لقد ضعفت اخلاق المصريين ياحضرات المستشارين ، امتلأوا جبنا ويأسا . لقد ضاعت من نفوسهم كل معانى الشرف والرجولة والكفاح ، لقد نسوا واجبهم نحو وطنهم ، واندفعوا كلهم نحو المغانم الشخصية ، ونحو انتهاب الملذات ، وليس غير العسكرية والروح العسكرية ما يستطع إنقاذ هذا الشعب المجيد ، وما العسكرية إلا الجيش ، فإذا ما ألقينا نظرة على هذا الجيش راعنا ما فيه من ضعف وتأخر ، فما الذى يفعله المخلص الذى يريد الإصلاح ؟ أيرى الضعف ويغض النظر عنه ؟ أيرى الثغرات فى البناء القومى ولا يتحدث عنها بل يطلب منه أن يكون بوقا للتمويه والتعمية ؟ أيطلب من صاحب الفكرة المجاهد اذا رأى بابا للإصلاح ألا يدخله ؟ إن فى ذلك إهانة للجيش ، احكموا فى هذه القضية يا حضرات المستشارين لأن قضية اليوم ليست إلا حول هذا المبدأ .

ما أردت ان أهين أحدا ، ولكنى رغبت فى أن أتحدث عن الإصلاح ، ما احتقرت مخلوقا ولكنى مجدت الجميع ، فهل يكفى هذا لتكوين جريمة ؟ هذا هو السؤال .

والآن فلنلخص كل دفاعنا المتقدم قبل أن أنتقل إلى التطبيق القانونى وهذا التلخيص ينحصر فى ثلاث نقط .

الأولى : إن الألفاظ المستعملة ليست سبا ، ولكنها كلمات وصفية لوقائع أقمنا الدليل عليها .
الثانية : إننا ساعة كتبنا هذه الألفاظ لم نكن نرى فيها إهانة ، ولذلك مضينا فى كتابتها .
الثالثة : إننا لم نقصد من كتابتنا هذه إهانة مطلقا ، ولكن قصدنا اصلاحا للجيش وانخراطنا فى سلكه .

التطبيق القانونى

ملاحظاتى على التطبيق القانونى هى ما يأتى :

إن النيابة تطلب بمقتضى المادة ١٦٦ مكررة اعتبار رئيس التحرير مسئولا كمسئوليتى عن نشر هذا الخطاب ، والواقع أن أحمد أفندى الشيمى غير مسئول مطلقا . قد ترى المحكمة أن لا أتعرض لهذه النقطة وأن أتركها للدفاع عن أحمد أفندى الشيمى ، ولكنى فى صدد الدفاع عن نفسى ليس فقط أمامكم ولكن أمام الله ، والدفاع عن نفسى يشمل تبرئة أحمد أفندى الشيمى ، ذلك أن المادة المطلوب تطبيقها تنص على ما يأتى :

«ومع ذلك يعفى من المسئولية الجنائية رئيس التحرير .

١ ـ إذا ثبت أن النشر حصل بدون علمه وقدم منذ بدئ في التحقيق كل ما لديه من المعلومات والأوراق المساعدة على معرفة المسئول عما نشر .

٢ ـ اذا أرشد فى أثناء التحقيق عن مرتكب الجريمة وقدم كل ما لديه من المعلومات والأوراق لإثبات مسئوليته وأثبت فوق ذلك أنه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته فى الجريدة أو لضرر جسيم » .

وهذان النصان يجعلان أحمد الشيمى بريئا كل البراءة ، ويجعلان من واجبى أن أذكر لحضراتكم بعض الحقائق ، فمجلة (الصرخة) هى لسان حال جمعية (مصر الفتاة) ، تسود فيها الروح العسكرية ، وروح النظام والطاعة ، وأحمد الشيمى ليس إلا عضوا من أعضاء هذه الجمعية ، وقد طُلب منه أن يكون رئيسا للتحرير فكان لأنه لا يستطيع إلا أن ينفذ . وفى النهاية أنا المسئول عن كل شىء فى المجلة ، وأنا الذى أعد المواد وأنتخبها ، ورئيس التحرير لا يمكن أن يعارض لأنى رئيسه ولأنه يجب أن لا يعترض .

فمن ناحية ، الخطاب معنون باسمى ولم يخف رئيس التحرير عن النيابة شيئا ، فهى قد اعتقلتنى أولا وعرفت منى أنى كاتب الخطاب وأنا مرسله إلى وزير الحربية ، فعلى حسب البند الأول من المادة ترون أحمد الشيمى قد انتفت عنه المسئولية لأن المسئول عن النشر قد اعترف بذلك وتقدم ، وبحسب البند الثانى يعفى من المسئولية أيضا لأنه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته فى الجريدة ، فبصفتى رئيس الجمعية ما كنت أسمح له أن يبدل حرفا مما أكتب ، أو أن يمتنع عن نشره ، ومع ذلك فهو لا يطلع على المواد قبل نشرها ، وأنا وحدى المسئول عن كل ما نشر بالجريدة .

وفى المادتين ١٦٧ ، ١٨٤ تطلب منكم النيابة أن تأمروا بإلغاء الجريدة أو تعطيلها لمدة سنة ، وإنى أترك للمحكمة تقدير ما إذا كانت هذه الصحيفة التى لا تحوى كلمة واحدة ماجنة ، ولا تحوى كلمة واحدة غير خالصة لله والوطن ، أترك للمحكمة تقدير ما إذا كان المجتمع المصرى فى حاجة إلى هذه الجريدة التى تعبر عن جماعة مخلصة متفانية فى خدمة مصر أم لا ؟ أجل لست أريد أن أطيل فى هذه النقطة ، وليسامح الله النيابة لطلبها هذا الطلب

وقبل أن نختتم هذا الدفاع يا حضرات المستشارين ، يسعدنى أن أقول لكم إن هذه المقالة لم تكن عبثا ، أو لم تكن صرخة فى واد ، بل إنها انتجت النتائج المطلوبة منها إلى حد كبير ، وما ذلك إلا لأنها صرخة حق ، فمن جهة تحركت وزارة الحربية أخيرا ، وأعلنت أنها ستقدم للبرلمان قانون القرعة الجديد الذى ينقص الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنوات ، ولاشك أنه إذا ما قدم هذا القانون ووافق عليه البرلمان فإن ذلك يكون خطوة نحو الإصلاح تشكر عليها وزارة الحربية :

على أن أكبر أثر للمقالة أن بدأت الصحف تهتم بالجيش وبانتقاد الجيش ، وبحث القائمون بأمره عن الإصلاح ، وترديد اقتراحات الصرخة ، فالبلاغ فى عددها الصادر فى ٣١ مارس سنة ١٩٣٤ نشرت افتتاحية تحت عنوان «الخدمة العسكرية ، ووجوب إلغاء البدل وتقصير الخدمة» وقد اقترحت فى المقال إنقاص الخدمة إلى مدة سنة كما اقترحنا ، ونددت بالجيش وحاجته إلى الإصلاح فقالت :

يجب أن نخفض مدة الخدمة العسكرية إلى مدة سنة ولهذا التقصير فائدته ومزيته ، إلى أن قالت : ومع انتشار الخدمة العسكرية وشمولها جميع الطبقات يرتفع مستوى الجيش المعنوى ، ولا يبقى محصورا فى طبقته الحالية ، وينتفى الاستنكاف من الدخول فيه ، ويتغير نظر الطبقات المستنيرة إلى حياته ومنزلة المرء فيه وتثبت له الكرامة ، ويتوفر للجندى الاحترام الاجتماعى الذى ينقصه الآن مع الأسف ، ولا يعود دخول الجيش والانتظام فيه مدعاة للحزن والألم ، وموجبا للندب والعويل ، وباعثا على الإحساس بوقوع المصاب ، وحصول نكبة . وغير البلاغ كتبت جرائد اخرى فى الموضوع ، كمجلة المصور ، وغدا عندما تعرض ميزانية وزارة الحربية على البرلمان ستتردد رغبات الإصلاح وسوف ترون ما سيوجه إلى الجيش من انتقاد مر لاذع، ودعوة صارخة إلى الإصلاح .

وإذن .. فإن غايتنا من كتابة المقالة قد تمت وهى لَفْتُ النظر إلى الجيش وحاجته للإصلاح بل هذه القضية بالذات وحكمكم فيها ليس إلا دعوة صارخة للحكومة والأمة إلى الالتفات للجيش وإصلاحه رغم أنف الجميع .

كلمة ختامية

وبعد ، يا حضرات المستشارين ، فلقد قدمت لكم كل الدفاع الماضى لا لأننى أريد أن أدافع عن نفسى ، ولكن لكى أريح ضمائركم ، ولكى يكون هناك دفاع قبل ، فتستطيعون أن تصدروا حكمكم أيا كان وأنتم مطمئنون ، مرتاحو الضمير . ولقد تعودتم أن يقف أمامكم المتهم طالبا الرحمة ، وطالبا البراءة حرصا على نفسه وضنا بها وبحريته أن تهدر فى السجن ، أما أنا فإنى أطلب البراءة فعلا فى مقدمة طلباتى ، لا ضنا بنفسى ، ولا رغبة فى الحرية ، ولكن حبا للعدالة وتقديسا لها . إننى أعرف أننى لم أرتكب وزرا من الأوزار . إننى أعرف نفسى مخلصا إلى أبعد حدود الإخلاص قمت بواجبى نحو مصر . أعرف أننى أعمل كل يوم لتقريب هذه الساعة التى يستيقظ فيها الشباب وتعود الروح إلى المصريين ، وأعرف أننى لا أستحق مطلقا أن يقال عنى أننى مجرم ! . أجل ياحضرات المستشارين إن العدالة المطلقة تجعلنى حريصا على طلب البراءة ، لا لنفسى ولكن من أجلها ، أما بعد ذلك فلكم أن تحكموا على بالحبس وانتم هادئون ، إنكم ستقدمون لى خدمة عظيمة ! . لكم أن تطمئنوا أنكم تستطيعون أن ترسلوا بى إلى السجن ، وأنا أباركم وأحبكم لأنكم بهذا تحققون رغبة من رغباتى . إننى أجاهد كجندى من جنود الله لتخليص مصر ، اننى أجاهد وكل رغبتى أن أموت مجاهدا ، وليس السجن إلا خطوة من خطوات الجهاد ، فإذا ما أتحتموه لى فأنتم جديرون بشكرى . اننى أدعو الناس للتضحية ، فإن لم أكن فى مقدمة المضحين فلا فائدة فى كلامى ، وما رأيكم أننى لا أرى حتى فى السجن تضحية ! . وما بقى الانسان حيا فهو بعد لم يضح بشىء .

احكموا بالبراءة إذن ، أو ارسلونى إلى الحبس وأنتم مطمئنون ، ولكن لا تحكموا بالغرامة لأننى فقير ، ولست أملكها ، أو لست أريد أن يدفعها لى شخص من الأشخاص ، وإذا حكمتم بالحبس فلا تحكموا به مع إيقاف التنفيذ ، لأن هذا سيسبب لى ألما كبيرا . لا تحكموا على بالغرامة ، ولا

بالحبس مع وقف التنفيذ ، ولكن احكموا إما بالبراءة أو بالحبس ..

يا حضرات المستشارين ، أختم كلامى وأنا مطمئن الى أن الله سينزل حكمه الذى يريده على ألسنتكم ، وأنا مطمئن الى أن حكمكم سيكون له أعظم الأثر فى تطور الفكرة التى أدعو إليها . وسواء كان بالبراءة أو الإدانة ، فسيخطو بفكرة مصر الفتاة إلى الأمام أصدروا حكمكم إذن ، والله يرعاكم . اصدروا حكمكم ، وأنا منذ الآن سعيد به أيا كان بل لعل سعادتى ستكون مضاعفة اذا كان حبسا ..

اصدروا حكمكم ، ودعونى أهتف من أعماق قلبى :

الله أكبر والمجد لمصر

الحكم

وقد نطقت المحكمة المشكلة برئاسة نجيب بك سالم عقب هذه المرافعة بحكمها وهو يقضى بتغريم كل من الأستاذين أحمد حسين وأحمد الشيمى ٢٥ جنيها غرامة لكل منهما ــ وقد رفض الأستاذ أحمد حسين أن يدفع الغرامة وعلى ذلك فقد قبض عليه وأودع السجن ثم رُئى بعد ذلك أن مصلحة الجمعية فى أن يغادر السجن فدُفِعت الغرامة وغادر السجن بعد حبس دام أسبوعين .

الكفـــاح

٨

لا نستطيع أن نصف الأحداث التي توالت بعد ذلك على جهاد مصر الفتاة طوال عام ١٩٣٤ ، إلا أنها كفاح شاق متواصل ، متسم بالإيمان والصدق . فالحركة فى اضطهاد دائم ، دارها مراقبة ومحاصرة ، وجريدتها مصادرة من حين لآخر . وكتابها يحقق معهم بالليل والنهار ، وليس هناك ما يصور للقارىء حقيقة ما كانت تعانيه مصر الفتاة في هذه الأيام أكثر من أن نثبت هذه اللوحة التي نشرتها جريدة الصرخة فى العدد الصادر بتاريخ ٢ يونيو سنة ١٩٣٤ عن كفاحها فى ستة أشهر .

فى يوم ١٣ نوفمبر ـ ألقت النيابة القبض على الأساتذة أحمد حسين . وفتحى رضوان . وحافظ محمود . وفتشت منازلهم وأودعتهم السجن فمكثوا به ثلاثة وعشرين يوما .

فى يوم ٢٩ يناير ـ ألقت النيابة القبض على الأستاذين أحمد حسين . وأحمد الشيمى ، وأودعتهما سجن الاستئناف لمدة خمسة وعشرين يوما .

فى يوم ١٢ فبراير ـ ألقت النيابة القبض على الأستاذين حافظ محمود ، ومحمود حجاج ، وأودعتهما سجن الاستئناف على ذمة الحبس الاحتياطى فمكثوا به ١٤ يوما .

فى يوم ٢ مايو ـ صادر البوليس ملحقا لجريدة الصرخة خاصا بالامتيازات

فى يوم ٥ مايو ـ صادر البوليس عددى الصرخة رقم ٢٩ ، ٣٠

فى يوم ٦ مايو ـ صدر الحكم بالغرامة على الأستاذين أحمد حسين ، وأحمد الشيمى ، بخمسة وعشرين جنيها لكل منهما ، ونظرا لعدم توفر هذا المبلغ فقد أودعا السجن لينفذ عليهما .

فى يوم ١٠ مايو ـ صادر البوليس الصرخة وهى لا تزال تحت الطبع واستدعى الأستاذ أحمد الشيمى للتحقيق معه .

وهناك قضية منظورة أمام محكمة الجنايات وستعرض فى الأيام المقبلة .

هذا إلى محاضر تحقيق لا تزال مفتوحة ، يزيد عددها على الأربعة ، ولا تزال الصرخة تصدر بانتظام .

ذلك أن القائمين بها يؤمنون بالله .

وما كان الله ليتخلى عن قوم يجاهدون فى سبيله .

* * *

هذه صورة مما كانت تعانيه مصر الفتاة ، ومع ذلك فقد كانت تنطلق فى كل ميدان ، وتعمل فى كل ميدان ، وتكافح فى كل ميدان ، باذرة هذه البذور الجديدة من الوطنية العاملة ، محاربة من ران على قلوبهم من المصريين ، باعثة الثقة والأمل فى النفوس بإمكان تحرير الوطن وإعادة مجده القديم . ولقد قمت ورؤساء الحزب الآخرين بجولات فى البلاد ، وبدأت فروع مصر الفتاة فى أنحاء القطر تتألف وتتكون ... وكانت طنطا ، والاسكندرية ، والزقازيق ، والمنصورة ، هى أسرع المناطق استجابة لمصر الفتاة ، وجرت لنا مع البوليس ملاحم فى كل هذه المدن ، وكانت بمثابة وقود لإشعال الحركة التى أخذت كل خطورتها وأهميتها ، وكانت أهم هذه الملاحم على الإطلاق ، ما وقع لى فى الإسكندرية فى العشرين من شهر يونيو ، حيث كان مقررا أن ألقى محاضرة بدار مصر الفتاة فيها ، فلما هممت بالدخول إلى الدار فى موعد المحاضرة انهال البوليس علينا ضربا بالعصى . فتفرق الحاضرون ، ولكنى بقيت ثابتا فى مكانى وإلى جوارى المجاهد حسنى ناجى الشماشرجى ، الذى كان مرافقى فى هذه الرحلة ، فكنا محل عدوان شنيع أثبته الطبيب الشرعى فى تقريره .. حيث كان فى جسدى اثنتا عشرة إصابة ، بعضها على جانب من الخطورة ، وكذلك كان الحال بالنسبة لزميلى ، ومع ذلك .. فقد وجهت لنا تهمة التظاهر ، والتجمهر ، والاعتداء على البوليس ، وقدمنا إلى المحاكمة .. فألقيت فى المحكمة الكلمة التالية :

يا حضرة القاضى :

لقد اعتُدى عَلينا ، لقد نُكِّل بنا ، لقد مُنعنا من الدخول إلى دارنا ، وها نحن نقف أمامكم كمعتدين ، وكمتظاهرين ، وإن كنا نأسف على شىء فهو أسفنا على هذه المأساة الخلقية التى تدهورنا اليها ، والتى تجعل المصرى يقف هكذا خصما للمصرى ، والتى تجعل المصرى ينكل هكذا بأخيه المصرى ، مع أنه يعلم أن هذا المصرى إنما يكافح من أجل حريتها ، وحرية وطنها المشترك ، ومن أجل استقلالها المنشود . إن هذا المصرى يكافح ليموت كى يكون فى موته حياة لغيره ، ويشقى كى يسعد غيره . إن هذا المصرى يناضل فى سبيل الله .

هذه هى نقطة الأسى فى هذه التضحية ، ولكنها مع ذلك لا توهن من عزمنا ، لا تدخل الشك إلى إيماننا الثابت بأن المصريين عما قريب سيقفون صفا واحدا ، وكتلة واحدة متحابين ، متآخين ، متكاتفين ، ضد العدو المشترك ، ضد المستعمر الغاصب . هذه الحادثة وأمثالها تزيدنا يقينا وإصرارا

أنه لابد من الإصلاح ، لابد من إعادة الروح ، وبعث الهمم ، وبعث النفوس التي ركدت .

وأما كلمتي الختامية يا حضرة القاضي : فهي أن لا ترهق نفسك بكل المرافعة الماضية ، ولنصل إلى النهاية .. إنني وحسني ناجي ، وباقي الزملاء . قد ألفنا مظاهرة ، واعتدينا على البوليس (بالرغم من أننا نحن المعتدى علينا) . وليكن . لسنا نشكوا مطلقا . ولسنا نتبرم من شيء ، وتستطيع أن ترسل بنا إلى السجن ، وأنت مطمئن . إلى أننا لن نشكوا أيضا ولن نحمل لك بعدها إلا الاحترام والتقدير ، بل والحب أيضا .

لقد وقفت مرة أمام محكمة الجنايات وترافعت أمامها ، وفي آخر مرافعتي وجهت كلاما سأوجهه دائما إلى قضاتي الذين يحاكمونني والذين يحكمون علي .. ألا وهو : إننا نجاهد في وقت قد تحكمت فيه الشهوات ، وعزت التضحية ونحن ندعوا المصريين والشباب المصري على الخصوص ، للتضحية فيجب أن نكون في مقدمة المضحين ، واذن فتستطيعون أن ترسلوا بي إلى السجن هادئين مطمئنين أنكم تحققون رغبة من رغباتي لأنني أعتقد أن المكان الطبيعي لشاب حر في أمة مضطهدة هو السجن ..

ففي السجن أجد الحرية المنشودة ، وفي السجن وبين جدرانه الأربعة أطالع النور ، نور الله في كتابه ، وفي السجن أستطيع أن أكون هادئا مطمئنا إذ أكون قد أديت واجبي نحو مصر .

أرسل حكمك اذن يا حضرة القاضي والله يوفقك لما فيه الخير والسداد ، والله يوفقنا لما فيه خير مصر ، ولكنني لا أستطيع أن أنهي الحديث قبل أن أرجوك من كل قلبي إذا رأيت الادانة ثابتة ، أن تعتبرني أنا المسئول الوحيد وأن تنزل علي أنا وحدي أقصى ما تستطيع أن تنزله من عقاب وأن تخفف عن الباقين ، والمجد لمصر .

الحكم

وقد صدر الحكم ، وهو يقضي بإدانتي بتهمة التظاهر وتبرئتي من تهمة الاعتداء والحكم علي بغرامة مقدارها عشرة جنيهات وإدانة زميلي حسني ناجي بتهمتي التظاهر والاعتداء والحكم عليه بغرامة قدرها ١٢ جنيها . على أن هذا الحكم لم يلبث أن عدل في الاستئناف حيث قضت المحكمة بالبراءة من جميع التهم .

محاربة الامتيازات الأجنبية

كان الشغل الشاغل لنشاط مصر الفتاة وأعضائها في العام الأول من تأليفها هو محاربة الامتيازات الأجنبية التي كانت تنوء تحتها البلاد . ولم تجد الامتيازات الأجنبية من حاربها في مصر كما حاربتها مصر الفتاة . وستحظى مصر الفتاة دائما إذا ما فتح سفر الجهاد القومي بالنصيب الأكبر . إن لم يكن النصيب الأوحد في محاربة الامتيازات في غير هوادة أو لين .

فالزعيم مصطفى كامل باعث الوطنية فى مصر . كان لا يتعرض للامتيازات الأجنبية ، بل كان ينتفع بها فى محاربة الإنجليز . وكانت خطته أن يجامل الأجانب فى مصر ، ليشدوا أزر الوطنية المصرية ، حتى لقد أثرت عنه الكلمة المشهورة (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) وقد ظلت هذه الروح مسيطرة على الوطنية المصرية . فلم تلق الامتيازات الأجنبية فى مصر كيدا حقيقيا . حتى ثورة سنة ١٩١٩ نفسها ، لم تستطع أن تنال من الامتيازات الأجنبية . وان كانت المفاوضات بين مصر وانجلترا بدأت تشير إلى وجوب وضع حد لهذه الامتيازات الأجنبية .

وقد جرت لى مناقشات حادة مع مصطفى باشا النحاس حول موضوع الامتيازات ، وقد كان ذلك سببا من أهم أسباب اختلافنا فى الرأى . فقد كان يتمسك بوجوب الإبقاء على الامتيازات الأجنبية ، إلى أن تحل القضية المصرية مع الإنجليز . وكنت أعارضه فى ذلك أشد المعارضة . ولكنه لم يوافقنى على وجهة نظرى . ومع ذلك فقد جاء الوقت الذى ترأس فيه النحاس باشا المؤتمر الذى عقد فى سنة ١٩٣٧ لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وتحديد أجل لانتهاء المحاكم المختلطة ! .. فإذا ذكرت الامتيازات الأجنبية ، وذكر تاريخها فى مصر ، فإن كفاح مصر الفتاة ضدها يجب أن يسجل بأحرف من نور ، وها هى أعداد الصرخة فى سنواتها الأولى ، وليس لها قضية تحاربها بأعنف مما حاربت هذه القضية .

وقد أخذ هذا الكفاح مظهره الرائع فى ٢ مايو سنة ١٩٣٤ ، حيث دعت مصر الفتاة الأمة المصرية ، الى تنظيم مظاهرة فى ذلك اليوم لإعلان سخطها على الامتيازات ، ولكن الحكومة حالت دون قيام المظاهرة ، بما اتخذته من إجراءات عنيفة ، وصادرت عددا ممتازا أصدرته مصر الفتاة فى ذلك اليوم خاصا بالامتيازات . وسيبقى هذا العدد إلى الأبد درة فى جبين مصر الفتاة ، وهو يضم أقوال كل عظماء مصر الذين حصلت منهم مصر الفتاة على تصريحاتهم ضد الامتيازات ، بل إن فيه تصريحا من وزير اليونان المفوض أعطاه لمندوب الصرخة يعلن فيه استعداد حكومته للتنازل عن الامتيازات متى وافقت الدول الأخرى على ذلك .

وقد استخدمت مصر الفتاة سلاح المقاطعة ضد الأجانب للضغط عليهم ، وحملهم على التنازل عن الامتيازات الأجنبية إذا رغبوا فى صداقة المصريين ، وحدث أن وفد على مصر فى ذلك الوقت سيرك ألمانى للألعاب البهلوانية ، يسمى «سيرك هاجنبك» وهو سيرك عالمى ، تطلع جميع المصريين لمشاهدة ألعابه ، فدعت مصر الفتاة إلى وجوب مقاطعته كبضاعة أجنبية ، وتطوع الشبان للوقوف أمام السيرك والحيلولة بين المصريين

وبين الدخول ، وعبثا كان البوليس يقبض عليهم ، ويزج بهم فى السجن ، فقد كان متطوعون آخرون يقومون بنفس العمل ، فكان لذلك رجة كبيرة فى أنحاء البلاد ..

ومن عجب ، أن النحاس باشا فى ذلك الوقت ، كان يتحدى مصر الفتاة فى هذه الناحية ، فإذا دعت إلى مقاطعة السينمات الأجنبية وعلى رأسها سينما رويال ، بادر بزيارتها ، وإذا دعت لمقاطعة هذا السيرك ، بادر بزيارته ، وذلك تمشيا مع فكرته فى عدم مضايقة الأجانب . ومع ذلك ، فقد نجحت حركة المقاطعة نجاحا منقطع النظير ، وبدأ كل أجنبى يحس وطأة المقاطعة المصرية ، والكراهية المصرية ، عقابا لهم على التمسك بهذه الامتيازات اللعينة .

وكانت دعوة مصر الفتاة تقوم على وجوب إلغاء هذه الامتيازات بجرة قلم ، وبإعلان من جانب الحكومة المصرية يبلغ للدول . ولكن الامتيازات لم تلغ إلا فى مؤتمر دولى كما قدمنا ، ولا تزال بعض ذيولها قائمة فى مصر[1] فى شكل هذه المحاكم المختلطة التى حدد لإلغائها سنة ١٩٤٩ ، ولن يهدأ لمصر الفتاة بال ، حتى تمحو كل أثر لهذه الوصمة الشنيعة فى تاريخ مصر .

* * *

(١) حتى تاريخ الطبعة الثانية لهذا الكتاب .

أربعة أيام فى إيطاليا

٩

وفى ذلك الوقت ، كان طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية فى مصر ، قد أسس شركة مصر للملاحة ، لإنشاء خط ملاحى بين مصر وأوربا ومختلف أنحاء العالم ، وكانت النيل ، هى أولى سفن هذه الشركة فدعيت كصحفى للقيام برحلة على ظهرها ذهابا وإيابا ، من الإسكندرية إلى مارسيليا ، فكانت فرصة ذهبية سعيدة ، رأيت أن أنتهزها لزيارة إيطاليا زيارة سريعة ، فقد كانت النيل ترسو على ميناء نابولى الإيطالى ، ثم تستأنف سيرها بعد ذلك إلى مرسيليا ، وتمر من جديد على ميناء نابولى فى عودتها إلى الإسكندرية ، وكانت تستغرق أربعة أيام بين وصولها إلى نابولى وعودتها إليها ، وهذه الأيام الأربعة هى التى انتهزتها لإلقاء نظرة سريعة على إيطاليا الفاشستية ، إيطاليا موسولينى الحالم ببعث الإمبراطورية الرومانية ! . فلم تكد النيل ترسو على ميناء نابولى ، حتى أسرعت بالهبوط من السفينة ، وجلت جولة سريعة فى المدينة ، ثم أخذت القطار إلى روما فوصلتها وعشت فيها بعض الوقت ، فرأيت من أمر إيطاليا ما أثبتته الحوادث والتجارب بعد عشر سنوات من هذا التاريخ ، وعلى الرغم من إقامتى القصيرة جدا ، وبينما كان العالم يتحدث عن عظمة إيطاليا ، رحت أتحدث بعد عودتى إلى مصر عن ضآلتها . وبينما كان العالم يرتجف رعبا من سخط إيطاليا الموسولينية تحديتها ووقفت فى وجهها بعد عودتى إلى القاهرة . فكتبت سلسلة من المقالات تحت عنوان «أربعة أيام فى نابولى وروما ـ أو لقد خيبت إيطاليا حسن ظنى بها» وقد صورت فى هذه المقالات ما رأيت من طبيعة الشعب الإيطالى ، وحللت مشاهداتى والحوادث التى وقعت لى ، وخرجت من التحليل بالنتيجة الآتية التى نشرتها جريدة الصرخة .. لقد لمست روح الشعب الإيطالى ، وتبين لى أن كل ما يقال عن إيطاليا اليوم ، ليس إلا ضجيجا من قبيل الدعاية الواسعة النطاق ، وأن الشعب الإيطالى متخلف وقدرته محدودة ، وأن النظام الفاشستى بأسره يتلخص فى موسولينى ، فإذا ما مات موسولينى مات معه هذا النظام ، وعادت إيطاليا إلى مركزها قبل الحرب ، أمة هزيلة ضعيفة[1] وأحسب أن

---

(١) الصرخة العدد الصادر فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ مقال «نذير مصر الفتاة فى روما»

ليس هناك ما يمكن أن أعتز به الآن ، وقد انهارت إيطاليا بانهيار موسولينى ، أكثر من أن أسجل الآن فقرة من مقالى الأول عن رحلتى إلى إيطاليا ، وكيف صدقت الأيام والحوادث كل ما قلته عنها بالحرف الواحد .

أربعة أيام فى نابولى وفى روما
أو
لقد خيبت ايطاليا حسن ظنى

وهل فى العالم اليوم من لم يسمع باسم إيطاليا الجديدة . ايطاليا الفاشستية . إيطاليا موسولينى . إيطاليا ذات الأساطيل فى الهواء والماء والجيوش فى البر ، هل فى العالم شخص لم يتطلع إلى هذه الدولة التى نهضت من العدم لتلعب دورا خطيرا فى تاريخ أوربا الحديثة ، ونحن هنا فى مصر .. أَوَلَمْ نُحس بخطر هذه الدولة الجديدة ؟ أو لا نسمع أنات اخواننا فى طرابلس ؟ وما ينصب عليهم كل يوم من الويلات والآثام ؟ أولا توزع تركتنا ولا نزال أحياء ؟ فبالأمس قدمنا (جغبوب)[1] ، واليوم قدمنا ما يبلغ مساحته ربع مساحة مصر ، فى السودان . وغدا من يدرى ما الذى ندفعه أيضا إذا بقينا تحت هذا النير الإنجليزى ، وإذا بقى هؤلاء السادة الأمجاد من الوزراء والحكام بهذا الضعف ، وهذا الخنوع ، وهذا الرق ، للمنصب وعجل الذهب ، هذه الدولة إيطاليا التى عبأت جيوشها منذ أيام وأرسلتها الى الحدود النمساوية لمحاربة ألمانيا إذا لزم الأمر ، هذه الدولة التى خيل للناس أن هتلر يحتذيها وينسج على منوالها ، وأخيرا هذه الدولة التى فتحت مصراعيها للوافدين الأجانب ، تنقلهم على سفنها مجانا ، وتستضيفهمْ مجانا ، ليروا بأعينهم عظمة الفاشست ، وعظمة ايطاليا صاحبة المجد الرومانى .

هذه هى إيطاليا التى نكرهها لما تنتويه لنا من شر ، هذه هى إيطاليا التى كنت فى شغف لرؤيتها لألمس كل هذه العظمة ، ولأرى هذا الشعب العجيب ، الذى طفر هذه الطفرة ، والذى يتحكم بمستعمراته هذا التحكم ، والذى يهدد استقلالنا هذا التهديد ، فانتهزت الفرصة وطرت اليها فوق متن النيل السعيد ، ولولا هذا لما ذهبت ، فيا نعمى هذا النيل الذى أجراه لنا بنك مصر فى البحر ، ويا نعمى هذا المجد الجديد الذى يشرق فيضىء لنا هذه الظلمات .

ذهبت إلى ايطاليا ، وعدت منها ، وقضيت فيها أربعة أيام ، ما جاء اليوم الرابع منها حتى كنت قد سئمت كل ما حولى ، حتى كنت قد فرغت منها وعرفت أولها وآخرها ، حتى عرفت أن فى المسألة طبلا كثيراً ، وأن إيطاليا قد خيبت حسن ظنى . وأن إيطاليا قد ملأتنى ثقة على ثقة ، وإيمانا على إيمان أننا فى مصر نستطيع أن نفعل العجائب ، نستطيع أن نسخر من كل هذه الشعوب يوم أن تتوفر لنا الإرادة ، وتلى الحكم لدينا حكومات رشيدة ، يوم أن يُسيطر الإيمان والعزم على أعمالنا ، يوم أن

---

(١) واحة فى صحرائنا الغربية .. هى الآن ضمن حدود ليبيا .

يتولى الشباب مقاليد الحكم والإدارة ، أجل .. فى هذه الساعة نستطيع أن نعمل كثيرا ، نستطيع أن نقفز الى الأمام ، نستطيع أن نسابق هذه الدولة الصغيرة (إيطاليا) نستطيع أن نتبوأ مركزنا القديم معلمين للإنسانية وزعماء للشرق .. الى آخر ما جاء فى المقالة[1]

وكانت هذه هى مقدمة المقالات التى توالت بعد ذلك عن إيطاليا . وقد قامت الدنيا وقعدت لهذه المقالات ، وأعنى بالدنيا ، دنيا الفاشست الطليان ، الذين طلبوا من الحكومة المصرية ، أن تحقق معى وتوقفنى عند حدى ، وبادرت الحكومة المصرية الى تلبية رغبة موسولينى ، فشرعت النيابة تحقق معى ، وفى نهاية التحقيق ، وجهت الى تهمة التحريض على كراهية إيطاليا ، وتحقيرها والازدراء بها ، ولعل تاريخ القضاء المصرى ، لم يظفر بقضية من هذا النوع ، من حيث موضوعها ، وما انتهت اليه ، وتقلبات القدر التى تمت بين رفع الدعوى والفصل فيها ، فقد رفعت هذه الدعوى على فى سنة ١٩٣٤ ، ولم يفصل فيها الا منذ أيام قلائل فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ ، أى بعد اثنتى عشرة سنة كاملة من تاريخ رفعها . ولقد سقطت إيطاليا فى خلال هذه المدة ، ولقيت من سخرية الدنيا كلها ، ما لم تلقه أمة من الأمم فى أى عصر من عصور التاريخ ، وقتل موسولينى أشنع قتلة يمكن أن يقتلها رجل عظيم ، وجاء الوقت الذى كان قضاة محكمة الجنايات يخجلون من نظر هذه القضية ، فيؤجلونها من عام إلى آخر ، حتى إذا كانت هذه الجلسة الأخيرة قضت المحكمة ببراءتى من هذه التهمة استنادا على سقوط الدعوى بمضى المدة ، ولم يفتنى أن أسجل فى المحكمة وهى تقضى لى بالبراءة ، كيف أن ما أحاكم عليه فى يوم من الأيام لا يلبث أن يصبح فضيلة لدى كل الناس ، وأن مجاهدا فى مصر لم يضطهد كما اضطهدت ظلما وعدوانا ، حيث لا ذنب لى الا حبى لمصر ، وذودى عن حريتها ، وتكريس حياتى لبعث مجدها ونهضتها .

* * *

(١) راجع هذه السلسلة من المقالات فى الصرخة شهر أغسطس سنة ١٩٣٤

حكومـة نسيم باشـا

١٠

كان نشاط مصر الفتاة كما رأينا حتى الآن يعنى كل العناية بالمسائل القومية . فلم يحاول أن يشترك فى المعارك الحزبية والمنازعات حول الحكم . ولم يحاول أن يهاجم الوزارة القائمة فى الحكم وقتئذ . وهى حكومة عبد الفتاح باشا يحيى . باعتبارها حكومة تمثل حزبا من الأحزاب ، أو اتجاها من الاتجاهات . على الرغم من اضطهاد الحكومة المتواصل لمصر الفتاة . وذلك كله إيمانا منا أن ليس هناك ما يطرب له الغاصب الأجنبى أكثر من أن يرى بأسنا بيننا شديدًا . فحرصنا على أن يكون كفاحنا كله لله والوطن ، ولكن الحوادث تطورت فى مصر تطورا حادا ، جعلتنا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نقف بمنأى عن هذه الحوادث ، كما أن الاضطهاد الذى كان يلاحق مصر الفتاة ، تحول إلى اضطهاد مميت خانق ، كأن يصادر البوليس جميع أعداد الصرخة على التوالى ، أو أن يصادرها وهى فى المطبعة . ولم يكن باستطاعتنا أن نحتمل هذه الخسارة المالية الفادحة ، فبدأنا نفكر فى التوقف بعد أن كنا اقتصرنا على اصدار الصرخة فى ثمانية صفحات بدلا من ستة عشر ، ثم إصدارها فى أربع صفحات بدلاً من ثمانية .. ورحنا نكتب فيها من باب السخرية والتهكم على هذه الحالة . مقالات عن البصل وفوائد النوم عقب الغذاء ، ونعقد مقارنات بين شهيرات الممثلات فى العالم ، ومع ذلك فلم تكن الصرخة تسلم من المصادرة فى داخل المطبعة بالرغم من ذلك كله ، بحيث كدنا نكف نهائيا عن إصدار الصرخة حتى يقضى الله أمرا كان مقضيا .

ومن ناحية أخرى ، كانت مصر كلها تعانى من تخبط الوزارة مثل الذى تعانيه مصر الفتاة ، بل إن جلالة الملك أحمد فؤاد بدأ يشعر بعجز الوزارة عن حماية مظاهر استقلال مصر ، حيث راح الإنجليز يتدخلون فى كل شىء ، ويدسون أنفهم فى كل شىء ، وأوفدوا الى مصر انجليزيا وقحا يدعى «بترسون» راح يستعرض قوات البوليس المصرى ، ويفتش عليها ، ويزور بعض المديريات ، ويحل ضيفا على بعض الأعيان ، كما كان يفعل

المعتمد البريطانى فى قديم الزمان ، ولم يقف أمر «بترسون» عند هذا الحد ، بل شرع يتدخل فى شئون القصر الملكى الداخلية ، فيعترض على وجود هذا الموظف أو ذاك ، ويشير على جلالة الملك بأشخاص الأطباء الذين يجب أن يتولوا معالجته . ولم يكن بقدرة الإنجليز أن يجترئوا هذا الاجتراء ، لولا هذا الخلاف المشتجر بين القصر وبين الوفد الذى كان يمثل الأغلبية فى البلاد ، وكان قد انقضى أكثر من أربع سنوات على التجربة التى قام بها الملك فؤاد لمحاولة الإضعاف من نفوذ الوفد فى البلاد بمعاونة صدقى باشا الذى اصطنع دستورا جديدا ، وقد سقط صدقى باشا بعد أن اضطهد البلاد وأسرف فى اضطهادها ، وأقر الهدوء والسكينة والنظام فيها ، ولكن بثمن باهظ جدا من القضاء على كل حرية وعلى كل خلق وكل فضيلة . ومع ذلك فقد جاء الوقت الذى رأى فيه جلالة الملك أن استمرار صدقى باشا أصبح يضر أكثر مما ينفع ، فأسقطه ، وجاء بوزارة عبد الفتاح باشا يحيى التى كان يطلق عليها وزارة القصر . ولكن عبد الفتاح باشا يحيى لم يستطع فى الوقت المناسب أن يدفع عدوان الإنجليز على القصر ، لأن الشعب كان قد امتلأ مقتا وحقدا على الحكومة ، وعلى برلمانها ، ودستورها الذى اشتهر باسم دستور سنة ١٩٣٠ .

وهنا لم يسع مصر الفتاة إلا أن تتقدم لجلالة الملك برسالة طالبت فيها بوجوب إسقاط وزارة عبد الفتاح باشا يحيى وإلغاء الدستور الجديد ، والعودة بالبلاد إلى الحياة الدستورية الصحيحة ، فذلك هو الطريق الوحيد لحماية العرش والبلاد من تدخل الإنجليز وعدوانهم . ولم تنقض أيام على رفع هذه الرسالة إلى جلالة الملك ، حتى كانت الوزارة الفتاحية قد قدمت استقالتها بالفعل ، فدل ذلك على أن أول رسالة سياسية رفعتها مصر الفتاة لجلالة الملك ، قد جاءت فى وقتها وأصابت الهدف ، وترجمت عن حقيقة الحال .

واستدعى جلالة الملك توفيق نسيم باشا لتولى رئاسة الحكومة ، وقد كان نسيم باشا محل رضاء من الوفد ، وتقوم سياسته على وجوب التعاون مع الوفد ، فدل ذلك على أن جلالة الملك فؤاد قد قرر أخيرا أن يضع حدا لانقلاب صدقى باشا ، وأن يعود بالبلاد إلى الوضع الطبيعى . وقد بادر نسيم باشا بمجرد توليه الحكم باطلاق الحريات العامة ، ورفع القيود والسدود التى كادت تخمد أنفاس الرأى العام ، فجاء ذلك فى الوقت المناسب لمصر الفتاة ، التى كادت جريدتها فى ذلك الوقت أن تتعطل تحت تأثير المصادرة ، والتى جُمِّدت عن كل نشاط أو حركة ، تحت ضغط البوليس ومطارداته التى بلغت حدا لا يتصور .

وفى ذلك الوقت كان قد أتيح لمصر الفتاة أن تعثر على شقة كبيرة فى ميدان العتبة الخضراء ، اتخذتها دارا لمصر الفتاة ، وكان يتبع هذه الشقة شرفة كبيرة جدا تتسع لبضع مئات من الجمهور ، فاستطعنا فى ظل الحرية الجديدة أن نفتتح هذه الدار بإقامة حفل عام القيت فيه خطابا سياسيا عاما سيبقى بالرغم من مئات الخطب التى القيت بعده فى عشر سنوات بمثابة حجر الزاوية من هذه الخطب كلها .

* * *

خطاب الأستاذ أحمد حسين

فى حفلة إفتتاح دار مصر الفتاة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أحمد الله أيها السادة ، أن عدنا نتقابل من جديد ، ونتحدث من جديد . أحمد الله الذى قوانا على احتمال المكاره ، ومنحنا الصبر والثبات ، حتى زالت الغمة ، وانقشع الليل ، وأشرق الفجر من جديد ، فجر الحرية والسلام .

حاجة الأمم إلى الشدة

وصدقونى إن الأمم فى جهادها أكثر ما تكون حاجة إلى الشدة والشدائد ، لأن الشدة هى التى تصهر الضعف وتطهر النفس ، الشدة هى التى تقوى الإيمان وتزكيه وتبعث فى النفس فضائلها . الشدة أيها السادة هى محك الاختبار الذى يختبر به معدن من المعادن للتمييز بين الغث والنفيس .

ولقد كانت شدة

ولقد كانت شدة ، ولقد كانت محنة ، أصيبت بها الأمة فى عهد الوزارة السابقة . حُطم فيها الدستور ، وانتُهكت القوانين ، واختل الأمن والنظام .. أى ركن من الأركان بقى بعيدا عن الظلم والتخريب .. أى بيت لم ينله شر وويل كثير .. بل أى إنسان لم يصب بجرح من هذا النظام عميق .. حتى منشئ النظام وصاحبه .. حتى صدقى باشا انتهى به الأمر أن كان ضحية من ضحايا هذا النظام وتلك مشيئة الله وحكمته ..

وفى ظل هذا النظام ، تعطلت مصالح مصر ومرافقها ، لأن الوزارة كانت مشغولة فى المحافظة على كيانها واضطهاد الأمة .. كان الفلاح بائساً ، ولا منقذ له .. كانت مصر مكسورة الجناح ، لضياع كرامتها وحقوقها ، وكانت فزعة من النهاية المخيفة التى سينتهى إليها هذا النظام الممقوت .

خنق الحرية هو الجريمة الكبرى

على أن ذلك كله يهون أيها السادة أمام جريمة أعظم من هذه الجرائم كلها ، وأعنى بها خنق الحرية ومطاردة الأحرار ، خنق الحرية هى الجريمة العظمى التى يمكن أن يرتكبها إنسان ضد أمته .. ذلك أن كل شىء يهون إذا بقيت حرية الجماعة مطلقة ، ولعمرى فإن قيام الحرية معناه الضمان القوى ضد مظاهر الظلم والاستبداد . إننى أصرح علنا ، وبأعلى صوتى ، أن الوزير أو الحكومة التى تحاول خنق الحرية لهى حكومة مجرمة ، لأنها تقضى على الأمة وتحطم معنويتها .. إننى أفهم أن تخالف حكومة إرادة الأمة ، وأن تصانع الأجنبىَ إذا لزم الأمر ، وأن تسلم للإنجليز بعض المطالب ، أفهم ذلك وأفهم تعليله ، ولكن شيئا واحدا لا أستطيع أن أفهمه من مصرى مهما كان منطقة ، ومهما كان

بيانه ، ذلك الشيء هو تقييد الحرية وخنقها .. فإن عثرة الحكومة تقال إذا ما كانت هناك حرية .. وكل أخطاء السياسة يمكن تداركها إذا كانت هناك حرية .. وفى ظل الحرية نستطيع أن نراجع قضايانا ، فى ظل الحرية نستطيع أن نناقش وأن ننتقد وأن نهاجم وأن نجهر بما يجب أن يكون .. فى ظل الحرية أيها السادة نستطيع أن نقوم اعوجاجنا وأن نقوى ضعفنا وأن نوحد صفوفنا .. فى ظل الحرية نستطيع أن نفعل كل شيء ، وأن نعيد مجدنا القديم ، ونحقق رسالتنا الخالدة : مصر فوق الجميع .

الوزارة الحاضرة والحرية

فالوزارة السابقة من هذه الناحية قد ارتكبت ما أسميه جريمة عظمى ... الوزارة السابقة قد أساءت إلى هذه الأمة فأوقفت نموها طوال أربع سنوات ... لا بل سارت بها إلى الوراء عشر سنوات ، بل عشرات عندما كانت مصر هزيلة ضعيفة ... أما وزارة اليوم فقد وعدت أن تُطلِق الحريات ... وما اجتماعنا الليلة إلا ثمرة من ثمار هذا الوعد .. وإذن فإنى أعلن فوق هذا المنبر ، وباسم مصر الفتاة ، أن الحكومة الحاضرة تستطيع أن تحصل على تأييدنا إذا حافظت على وعدها ، وتركت الحريات ... حرية الاجتماع ، وحرية الكلام ، وحرية الصحافة .. الحكومة الحاضرة إذا استطاعت أن تحافظ على استقلالها .. وأن لا تفقد إرادتها ، فلا تسمح للإنجليز أن يُملوا عليها من الأوامر ما تهدم به الحريات ، نستطيع أن نطمئن إلى أن كل مصرى سيقدر لها هذا الصنيع .. وسيسجل لها التاريخ عهد الحرية والسلام .

ذلك أننا أكثر ما نكون حاجة للحرية لنفكر كما ينبغى أن نفكر .. ولنجاهد كما ينبغى لنا أن نجاهد .. ولنعمل ما يجب أن نعمله . تلك هى الكلمة الأولى التى أردت أن أعلنها هذه الليلة ، وهذا أول اجتماع سياسى لمصر الفتاة .. حتى يبلغ أسماع الحكومة الحاضرة ، فيرسم لها خطتها التى يجب أن تحفظها لتحصل على رضا هذه الأمة عموماً ، وجمعية مصر الفتاة بصفة خاصة .

برنامج مصر الفتاة وسياستها

أما كلمتى الثانية فهى فى برنامج مصر الفتاة ومبادئها .. يتساءلون ما هى مصر الفتاة ؟ وما هو برنامجها وما هى سياستها ؟ وماذا تستطيع أن تفعل .؟ أما ماذا تكون فقد حدثكم فى هذا طويلاً أخى فتحى . وأما ما هى سياستنا فإنها تتلخص فى عبارات قليلة :

«إننا نريد أن نحصل على حريتنا كاملة ، وأن نحصل على استقلالنا . نريد أن لا نرى عسكريا إنجليزيا واحدا على الأرض المصرية . ونريد أن نمحق الامتيازات وندك المحاكم المختلطة وأن نساوى الأجانب بالوطنيين .. نريد أن نكون أسياداً لبلادنا متصرفين فى شئونها . وأخيرا أيها السادة نريد أن نبعث كل مجدنا الماضى ، وأن نعيد تأليف الدولة المصرية من مصر والسودان ، حليفة للدول العربية وزعيمة للإسلام» هذا هو الذى نريده أيها السادة ، أو بالأحرى هذا ما يريده كل مصرى شرب من مياه النيل . بقى أن نتساءل وما هو الطريق الذى يوصلنا إلى ذلك ..؟

طريقنا إلى تحقيق برنامجنا

أما طريقنا إلى تحقيق برنامجنا .. فهل هو أن نسخر من الدين وأن نلقيه خلف ظهورنا ونعتبره خرافة من الخرافات لا تتناسب مع المدنية والعصر الحديث ؟ أم هو أن نحطم الأخلاق ونتجاهل الرجولة والشرف والنبل والشجاعة والوفاء ؟ أطريقنا إلى الإستقلال والمجد أن يتخنث شبابنا ويندفع إلى السينمات الأجنبية ودور اللهو والقمار والزنى ؟ أم طريقنا أن نخطب وأن نثرثر وأن نلهو وأن نقيم الحفلات ؟.. وأخيراً أيها السادة هل طريقنا إلى الاستقلال والمجد أن نكون متسولين نستجدى كرم الإنجليز وعطف الأجانب ونتوسل إليهم أن يردوا إلينا حقوقنا ؟ ونبكى حتى ترق قلوبهم لنا ؟ وفى كلمة هل طريقنا إلى الاستقلال أن نكون ضعفاء متخاذلين .. متشائمين يائسين .. نفاوض الإنجليز والأجانب ونحن أكثر ما نكون إحساسا بعجزنا وتضورنا؟ هل هذا هو طريقنا إلى الاستقلال والمجد أيها السادة .؟ اللهم لا ، فليس بمجد ، ولا لائق بماضينا المجيد طريق من هذه الطرق .

فليس للاستقلال والحرية إلا طريق واحد .. طريق واحد رسمته الطبيعة يوم أن كان شعارها البقاء للأصلح . هذه النظرية التى سجلها القرآن الكريم بقوله «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» طريقنا أن نسير مع الدين ونعمل بأوامره وهذا هو ما يفرق بيننا وبين غيرنا من الجماعات والهيئات .

تنازع البقاء

فالطبيعة تعلمنا أن البقاء للأصلح ، وأن الحياة للقوى ، والفناء للضعيف . وهذا ما يسمونه «تنازع البقاء ..» الطبيعة تعلمنا أن لا تفاهم بين السيد والمسود ، ولا بين القوى والضعيف ، لا تفاهم إلا بالصراع والقتال .. فالغالب الغالب هو الصالح الذى يبقى والمغلوب هو الضعيف الذى يفنى .. الحياة لا تعرف هوادة ولا لينا ، فإما أن تكونوا أقوياء فتعيشون ، وإما أن تكونوا ضعفاء فتموتون .. عبثاً تفاهمُ الشعب الضعيف والشعب القوى ، فإنه يكون تفاهما كتفاهم الذئب والحمل ، والذى ينتهى دائما بأن يأكل الذئب الحمل . وهذه هى الحياة إن أردتم حريتكم ، أو فكرتم فيها ، إن أردتم مجدكم القديم وسلطانكم ، فليس أمامكم إلا طريق واحد : أن تكونوا أقوياء . وأن تكونوا أقوياء أولاً وأخيرا ، وليست هذه كلمتى أو هذا رأيى ولكنه كلام الله أيها السادة الذى يقول لكم «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، أى كونوا أقوياء ، وإلا حطمكم الأقوياء ، هذا ما يقوله الله لكم .

أمثلة التاريخ

فإن أردتم أن تطالعوا صفحات التاريخ فطالعوها ، وأرونى شعبا واحدا استطاع أن يحصل على حريته واستقلاله بغير القوة . بل أرونى أية فكرة وأى دين انتصر إلا عن طريق القوة ، والقوة المادية . فالإسلام لم ينتصر إلا عندما شرع الرمح وجرد السيف ، ودافع عن نفسه بالقوة المادية ، فكان ذلك خير ممهد لانتشار مبادئه السامية العظيمة . وقبل ذلك لم تنتشر المسيحية إلا عندما فرضها قيصر الرومان على رعيته ، وأعلنها دينا رسميا للدولة ، يضطهد من يخالفها ويعترض طريقها . أما العصور الحديثة

فقد بدأت بالثورة الفرنسية التي ليست إلا مظهرا من مظاهر القوة ، فانتصرت الحرية والإخاء والمساواة . وكانت ألمانيا تحلم بالوحدة ، وظل هذا الحلم أمنية بعيدة التحقيق ، حتى كان بسمارك فأعلن لمواطنيه أن الوحدة الألمانية لن تتحقق إلا بالحديد والنار .. وقد كان وتحققت الوحدة الألمانية ، وسط قعقعة السيوف ، ودخان المدافع . وإيطاليا حققت استقلالها ووحدتها بالحديد والنار ، واليونان ودول البلقان وأوربا الوسطى وتركيا الحديثة لم تحافظ على استقلالها إلا بالقوة .

بولنـــدا

وكانت آخر دولة سلكت هذا الطريق بولندا ، التي يحلو لي دائماً أن أقص قصتها .. بولندا التي تقاسمتها دول ثلاث هي أعظم دول أوروبا ، وهي الروسيا والنمسا وبروسيا[1] ، وكان ذلك منذ أكثر من مائة سنة ، وجاهدت كل دولة من هذه الدول في إفناء ما وقع تحت يدها من الغنيمة .. فلم يكن هناك صنف من صنوف الاعنات لم يقع على البولنديين .. لم يكن هناك لون من ألوان الاضطهاد لم يُجرِّبه البولنديون ..

ومع ذلك كانت تقوم ثورات دامية في بولندة الروسية تقمعها بأفظع ما تتخيلون ، كانت تنصب المدافع في الشوارع ، كما فعلت فرنسا بعد ذلك بمائة سنة في عصر الحرية والنور في دمشق ، كانت روسيا تخرب الشوارع وتهدم الدور وتزج بالألوف في السجون وترفع ألوفا فوق أعواد المشانق ، وتنفي إلى سيبريا عشرات الألوف . فكانت الثورة تهدأ حيناً .. ثم لا تلبث أن تشتعل أكثر ما تكون قوة وعنفواناً .. فتعود ألوان القمع من جديد وتنفي الألوف إلى سيبريا من جديد .. وهكذا مرت مائة سنة كاملة لم تكن تنتهي ثورة حتى تبدأ ثورة جديدة .. أو تجف دماء حتى تسيل دماء جديدة .. وكانت روسيا تحاول أن تمحو اللغة البولندية فتصبغ المدارس بالصبغة الروسية ، فكان البولنديون يعتزلونها ، وكانت كل أم وكل أب يلقن ابنه لغة بولندا ! .. أما في بولندا البروسية فقد كانت الحرب مع الوطنية البولاندية لا تقل شدة عنها في روسيا .. ومع ذلك فقد قاومها البولنديون أيضا .. وكذلك كان الحال في النمسا .. وكانت الجمعيات تعقد لتؤلف بين الأجزاء الثلاثة ، كانت الجمعيات العلمية تعمل سرا ، لتحقيق الاستقلال والوحدة .. كانت المدارس إذا ما نالت قبسا من الحرية لقنت الأطفال أناشيد الحرية والاستقلال .. كان البولنديون يهاجرون من وجه التعسف إلى أمريكا ليدافعوا عن قضيتهم ، أنشأوا البنوك والمصانع والشركات التجارية حتى انتصروا في نهاية الحرب العظمى ، وظفروا باستقلالهم العتيد .. وكانت مادتهم الأولى في الدستور شكرا لله وتحية للشهداء . من أسلافهم ، أسلافهم الذين جاهدوا في سبيل الحرية .. ولست أستطيع أن أترك قصة بولندا قبل أن أذكر عبارة خالدة قالها نابليون عن هذه الأمة الحية .. فقد سألوه أين ترسم حدود بولندا ؟ فأجابهم سترسم حدود بولندا حيث يسيل الدم البولوني ..

---

(١) ألمانيا « حاليا »

مصر وكيف حصلت على استقلالها .. ؟

ولماذا نذهب بعيدا أيها السادة لنتحدث عن بولندا وإيطاليا وألمانيا .. لماذا نذهب بعيدا ، وها نحن فى مصر ، **عندما أردنا الحصول على الاستقلال ، لم يكن أمامنا طريق إلا القوة** ، فحصلنا عليه بالقوة فعلاً .. فمنذ مائة سنة عندما أرادت مصر بزعامة محمد على أن تستقل لم تر مناصا من حرب تركيا .. فسارت الجيوش المصرية غازية منتصرة ، حتى هزت تركيا هزا ، وعقدت مصر معاهدة كوتاهية التى أعلنت استقلال مصر ، وضم سوريا وفلسطين وشبه جزيرة العرب إليها .. وكانت تمتد فى الجنوب حتى أقصى السودان ..

وهكذا حصلت مصر على استقلالها فى ظلال جيوشها الظافرة ، هذه الجيوش التى أخافت أوربا بأسرها ، والتى جعلت روسيا تبسط حمايتها على تركيا لكى تنقذ نفسها من الخطر المصرى ، فاضطرت الدول أن تتدخل لتحول بين روسيا وبين أطماعها بحجة حمياتها . وذلك لا يكون إلا بأن تكره مصر على التراجع وسحب جيوشها ، فتحالفت انجلترا وبروسيا والنمسا والروسيا أيضاً للقضاء على الجيوش المصرية والأسطول المصرى ، فتم لها الذى أرادت . ولولا ذلك لكانت مصر اليوم هى العلم الخفاق فى العالم ، لكانت مصر هى زعيمة الإسلام والشرق ، لكانت مصر بحيث تبدو بجوارها انجلترا واليابان قزما حقيرا . حصلنا على استقلالنا بالقوة ، قوة الحديد والنار ، وحطم استقلالنا الحديد والنار ، مع أن الحق كان فى جانبنا . فإذا أردنا أن ننتصر من جديد فلا مناص من التسلح بالحديد والنار .

وإذا كنا اليوم ننادى بالدستور ، ونستظل بظل الدستور ، إذا كان فى مصر نسيم من الحرية ، فذلك يرجع إلى ثورة مصر ضد إنجلترا سنة ١٩١٩ ، هذه الثورة التى لم تكن إلا صرخة من صرخات الشعوب القوية التى تزلزل أقدام الظلم والاستعمار .. القوة هى كل شىء ، هى قانون الحياة ، فى كل عصر ، وفى كل زمان . أمامكم ألمانيا ، كانت منذ سنتين تسير فى مؤخرة الدول الأوربية ، كانت تحتلها الجيوش الفرنسية ، وتنهكها معاهدة فرساى ، كانت تئن من ملايين العاطلين ، كانت تتوسل إلى أوربا أن تسمح لها بتنظيم شئونها ، أن تسمح لها بزيادة جيشها ، كانت تتوسل إلى أوربا أن تعدل معاهدات الصلح ، فلم تلق إلا آذانا صماء ، لم تلق إلا الاستهزاء والوعيد . كانت ألمانيا تسير خلف زعمائها الذين كانوا يُفهمونها انها ضعيفة ، وإنها غير قادرة على شىء .. أما اليوم فقد تبدل الحال غير الحال ، فأصبحت ألمانيا هى التى تتوعد وهى التى تخيف . ألمانيا ، هى التى ركلت عصبة الأمم بقدمها ، ومزقت معاهدة فرساى . ألمانيا هى التى تتدجج اليوم تحت سمع العالم وبصره دون أن يجرؤ مجترئ على الإعتراض . وما ذلك إلا لأن ألمانيا قد اقتنعت أن لا طريق لها إلا القوة ، ولن تحل مشاكلها إلا بالقوة ، والتلويح بالقوة ، فظفرت على طول الخط . وهى اليوم تخطو خطوات عظيمة لإعادة مركزها القديم .

حاجتنا إلى القــوة المعـنوية

فبرنامجنا أيها السادة هو أن نحصل على حريتنا واستقلالنا ، وأن ندعم دولتنا الخالدة بالقوة ، والقوة

المادية . فهل نحن فى حالة تسمح لنا باستعمال هذه القوة وإجادة الاستعمال ؟ الجواب بالنفى . ولماذا . ؟ لأنه لاستعمال القوة المادية ، لابد من قوى معنوية ، فقبل أن يضرب الإنسان يجب أن يريد الضرب ، وأن يشعر من نفسه بالقدرة على الضرب وإلا فإنه لن يضرب ولن يقوى على الضرب .

فنحن فى مصر عاجزون عن الحصول على حقنا بالقوة المادية ، لأن قوانا المعنوية محطمة . أو بالأحرى لأنه لا قوة معنوية لنا إطلاقا . فنحن لا نكاد نثق بأنفسنا ، نحن لا نكاد نتخيل فى أنفسنا القدرة على عمل شىء ، نحن لا نؤمن إلا بشىء واحد ، وهو إننا ضعفاء عاجزون . وأننا لا نفلح فى أى شىء .

أى مصرى لا يقول لك إن هذا بلد قد ضربت عليه الذلة طوال أربعة آلاف سنة ، أى مصرى لا يسب المصريين ولا ينعتهم بأحط النعوت ، أى مصرى لا يقول لك إننا بغير الإنجليز لا نساوى بصلة ، أى مصرى لا يشعر فى أعماق نفسه بأنه مخلوق أصغر شأنا من الأجنبى على العموم ، والإنجليزى على الخصوص .

فنحن لا نثق بأنفسنا أيها السادة ، نحن لا نؤمن بأنفسنا وهذا هو سر ضعفنا . ذلك أن الفارق بين الضعف والقوة ، ليس إلا كالفارق بين الإحساس بالضعف والإحساس بالقوة . فيجب أن نشعر بقوتنا ، يجب أن نمتلىء ثقة بأنفسنا ، لأنها جديرة بهذه الثقة فعلاً . فلا يوجد فى العالم شعب واحد صارع الويلات والمحن كما صارعناها ، لا يوجد فى العالم بلد من البلاد عاش طوال أربعة آلاف سنة حيا نابضا فتيا إلا مصر . لقد تغيرت خريطة العالم وتبدلت ، فقد قامت دول ودالت دول ، لقد بُعثت امبراطوريات ، وحُطمت امبراطوريات أخرى ، لقد تحول وجه العالم من الشرق إلى الغرب ومن الغرب ، إلى الشرق ، ولكن **بلدا واحدا وشعبا واحدا هو الذى ظل طوال أربعة آلاف سنة هو هو . لم يتغير ولم يتبدل** لأنه الكوكب المشرق المضىء على أرجاء العالمين ، ولأنه المعلم للإنسانية وزعيمها وقائدها ، ذلك الشعب هو الشعب المصرى ، وذلك البلد مصر ، ففى عروقنا وفى أعماق نفوسنا تستقر رواسب أربعة آلاف سنة من المجد والعظمة .

فى أرواحنا طموح وقوة واقتدار ، فيجب أن نمتلىء ثقة بأنفسنا كى تقوى معنويتنا ، وهذا هو النوع الثانى من جهاد مصر الفتاة أما جهادنا الأول فهو :

جهادنا الأول

أن نتقى الله ونؤمن به .. فالإيمان بالله شرط أساسى لخلق المعنوية والحياة ، الإيمان بالله هو سر الحياة وقوتها ، الإيمان بالله هو الذى يجعل الجبان شجاعاً ، والضعيف قوياً .. الإيمان بالله هو الذى يجعلنا نأتى بالمستحيل .. ذلك أن أجدادنا الذين سبقونا فى هذا الإيمان دكوا الامبراطوريات ، وحطموا الجيوش ، وأذابوا الحديد ، لأنهم كانوا يؤمنون بالله .. وكانوا يعرفون أن الله أكبر . وفوق كل كبير . وكانوا يعرفون أن غاية الحياة إرضاء الله والاستشهاد فى سبيله .. فحكموا الدنيا وسادوا العالم .. **نحن أيضا يجب أن نؤمن بالله وبرسالته السماوية** . يجب أن نعبد الله كل صباح ومساء ، لأن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه أو لنفسه ..

فإذا آمنا بالله وامتلأنا ثقة بأنفسنا ، فقد بقى علينا أن نطهر أرواحنا من الأرجاس ، فلا نقامر ولا نزنى ولا نسكر ولا نكذب .. بقى علينا أن نتحلى بالأخلاق ، وأن نعرف الرجولة والشهامة والشجاعة والصدق والوفاء . فإذا ما حصلنا على ذلك كله ، فقد كملت معنويتنا وأصبحنا ولنا إرادة تفعل كل شيء .. إذا ما آمنا بالله ، ووثقنا بأنفسنا ، وتحلينا بالأخلاق ، فقد قطعنا أكبر شوط للحصول على الاستقلال والحرية والمجد .. ولا يبقى علينا بعد ذلك إلا أن نخطو خطوتنا الأخيرة ، لكى نحقق كل الذى نريده فى يوم وليلة ..

لا تشتر إلا من مصرى

وهناك جهاد ثالث يتفرع من الجهاد السابق ويسير وإياه جنبا لجنب . وهو جهاد مادى معنوى ، للحصول على القوة المادية أيضا .. وذلك هو السعى لإغناء مصر وتكديس الثروة بها عن طريق الاستقلال الاقتصادى . فمصر التى بلغت معنويتها إلى الأوج ، يجب أن يكون فى حوزتها مال كثير تستعين به على تحقيق استقلالها وحريتها فى الخطوة الأخيرة . يجب أن يكون لديها مال لنعيد لها بناء كيانها ، لتستطيع فى زمن قصير أن تقفز إلى الأمام وتحتل مركزها الطبيعى زعيمة للإسلام وسيدة للشرق .. ولا سبيل لنا إلى توفير هذا المال إلا عن طريق واحد ، وذلك باتباع مبدأ مصر الفتاة الثانى ألا وهو **«لا تشتر إلا من مصرى ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ولا تأكل إلا طعاما مصريا»** .

وهذا المبدأ يحقق لنا استقلالنا الاقتصادى ، هذا المبدأ يلغى الامتيازات لأنها تصبح ولا قيمة لها ، هذا المبدأ يوفر لنا فى عشر سنوات كل المال الذى نريده لإنشاء دولتنا العظيمة ..

لا تشتر إلا من مصرى .. أتعرفون ما معنى هذا .. معناه أن ألوفا من المصريين الذين يعانون الفقر الآن يحصلون على الثروة . وأن ألوفا من العاطلين يجدون موردًا للرزق ، وأن ألوفاً من الأجانب يرحلون عن هذه البلاد . فلا تلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا تأكل إلا طعاماً مصرياً .. أتعرفون ما معنى هذا ؟ معناه أننا نقتصد من الأربعين مليوناً التى تتسرب إلى الخارج فى كل عام نصفها ، ليبقى داخل بلادنا . ففى عشر سنوات توفر **مصر مائتى مليون من الجنيهات** .. وهذا المبلغ يجدد بناء مصر ويملؤها مصانع ، ويجعلها سيدة فى الجو ، وفى البحر ، وفى كل مكان .. ومائتا مليون تنظم مصر تنظيما جديدا ، وتعيدها إلى مجدها القديم .. ولست أسوق القول جزافا ، فهاهى ذى إحصائية تنبئكم بمقدار ثروة مصر التى تحتفظ بها لو أنها نفذت هذا المبدأ ، فمنذ سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٣٢ قد استوردت مصر من الخارج بضائع أجنبية بمبلغ ٥٦٨ مليون جنيه ، وهو مبلغ مخيف ، لاسيما إذا عرفتم أن الصادرات كانت أقل من هذا المبلغ بخمسة عشر مليوناً ، أى ٥٣٣ مليوناً . أتعرفون لماذا كان الميزان التجارى هكذا فى صالح أوروبا ؟ أتعرفون لماذا نبتاع بهذه الملايين ؟ ذلك لأننا شعب لا يكاد يعرف كيف يعيش . شعب لا يعرف لنفسه حقها ، ذلك لأننا كنا نستورد من الخارج ، ومازلنا ، جبنا وزبدا وسمنا ! . أتسمعون أيها السادة ؟ مصر البلد الزراعى ، الذى لا يعيش إلا على الزراعة ، يستورد من الخارج جبنا وسمنا ، فهل هناك مهانة بعد هذه المهانة ، وانحطاط كهذا الانحطاط . نحن الذين كان يجب أن نورد للعالم بأسره نستورد من الخارج . أفتعرفون لماذا ؟. **لأن**

السيد المصرى لا يحلو له إلا أن يتمشدق بالجبنة الرومى والفلمنك والشستر. بل إن مصر تستورد قمحا ، مصر التى كانت تمد العالم فى يوم من الأيام بالقمح ، والتى كانت الشعوب تجىء إليها لتشترى القمح ، انعكست الآية وأصبحت مصر تستورد قمحا . لا بل إن الهوس قد وصل إلى ما هو أفظع من ذلك . وصل بنا الهوس أيها السادة إلى درجة أن نستورد من الخارج صلصة ، نحن الذين توجد الطماطم فى بلادنا عشرات الأرطال بمليمات معدودات . وما ذلك كله إلا لتهاوننا فى حياتنا . فى كرامتنا ، وفى ثروتنا أيضا ، بل ما ذلك إلا لعبوديتنا لأوروبا وكل ما هو أجنبى . أبطلوا ذلك كله ، لا تأكلوا إلا طعاما مصريا ، ولا تلبسوا إلا لباسا مصريا ، فتحصلوا على استقلالكم وكرامتكم . أتسمعون ؟ إن الأجانب أسياد لهذا البلد لأنهم يملكون رءوس الأموال ، الأجانب أصحاب الامتيازات والمحاكم المختلطة لأن المال فى يدهم ، فجردوهم من هذا المال وهذه القوة ، بأن يكون لباسكم مصريا ، ومطعمكم مصريا ، ولا تشتروا إلا من مصرى فبهذا تحتفظون بثروتكم التى سنحتاجها غداً ، عندما نذهب إلى ميدان القتال لندافع عن حريتنا واستقلالنا .

هذا هو ما ندعوكم إليه أيها السادة ، أن تؤمنوا بالله ، وأن تثقوا بأنفسكم ، وأن تطهروها من الأرجاس ، وأن لا تشتروا إلا من مصرى ، ولا تلبسوا إلا ما صنع فى مصر. وهذا هو ما ندعوكم إلى القيام بعمله كمصريين . هذا هو الطريق الذى نرسمه لكم .. فسيروا فى الطريق إذن على بركة الله مع مصر الفتاة أو ضدها .. هذا لا يهمنا ولكن الذى يهمنا أن تسيروا فى الطريق . فإن كان فى صفوفكم من يريد أن يقدم نفسه لينضم تحت لواء هذه الجماعة التى أخذت على عاتقها تنفيذ هذا البرنامج ، فنحن نرحب به كائناً من كان ، لكنا ننذره منذ الآن أن طريقنا ليس مليئا بالورد والريحان ، بل إن ما فيه من شوك وعوسج ليطغى على كل شىء . إن آلاما كثيرة تنتظرنا ، إن صنوفا من العذاب تصيبنا ، فلن يرضى الإنجليز عن وجودنا ، وإذن فستضطهدنا الحكومات إرضاء للإنجليز والأجانب من ناحية ، وسيحاربنا الجهلاء بجهلهم نوايانا من ناحية أخرى . فطريقنا كله جهاد وكفاح ! . ذلك أننا لن نصل فى يوم واحد إلى ما نريد ، ولن نصل فى هدوء ، ولكنا وطدنا أنفسنا على تحمل كل شىء . وطدنا أنفسنا على أن نكافح حتى نموت ، فإذا انتصرنا فهذا الذى نريد ، وإذا متنا قلنا لمن يجيئون بعدنا كونوا أسعد حظاً منا ..

نحن والوفد

ولست أريد أن أغادر هذا المنبر قبل أن أحدد علاقة جماعتنا بالوفد ذلك أن البعض منكم يريد أن يسأل هذا السؤال ، أو أن يُعَرِّضَ به .. فأقول لكم إننا لا نعادى مصريا واحدا ، بل نحن نحب الجميع ، لأننا أول من يدعو إلى الاتحاد والتكاتف . ونحن على استعداد أن نعمل تحت راية الوفد فى حدود هذه المبادئ ، وبهذه الوسائل . وهكذا ترون أيها السادة أن كل ما يُدَّعى من أننا نخالف الوفد . أو أننا أعداء له ، فنحن منه براء . وإننا مستعدون للسير تحت لوائه ، وكل ما يهمنا هو تنفيذ هذه المبادئ واتباع هذا الطريق .. فنحن نريد وطنية عاملة تعتمد على التضحية أولاً وأخيرا .. نحن لا نؤمن بأن الاستقلال يمكن أن يُستجدى .. ذلك أن الاستقلال كما قال المرحوم الملك فيصل يؤخذ ولا يعطى .. ومادام الأمر كذلك ، فنحن نعمل للحصول على القوة اللازمة لإدراك الاستقلال .

وهذا هو برنامجنا . فسننظم الشباب الذى ينضم إلينا ، ونملؤه رجولة وخشونة ووطنية ، ونؤلف منه جيوشاً منتظمة ليس لها إلا هتاف واحد .. وهو : الله أكبر والمجد لمصر .

كونوا إذن خارج حظيرة مصر الفتاة إن أردتم ، واعملوا بمبادئها .. أو ادخلوا إلى حظيرتها إن كنتم على استعداد للتضحية والجهاد ، هذا آخر ما أقوله لكم .. فإذا كنت قد ظفرت فى نهاية هذا الاجتماع بأن أقنعت واحدا منكم أن يجاهد من أجل مصر ، وأن يفنى فى سبيلها ، فإنى أعد نفسى قد قمت برسالتى ، وأستطيع أن آوى إلى فراشى فى هذه الليلة ، وأنا مطمئن إلى أننى قد أديت واجبى نحو مصر .. وذلك هو مبدؤنا السادس .

* * *

عام ١٩٣٥

١١

استهل عام ١٩٣٥ . هذا العام الذى سيبقى خالدا فى تاريخ مصر . إذ بعثت فيه مصر بعثا . وسرت مبادئ مصر الفتاة وسادت وسيطرت واندلع لهيب الثورة التى أشعل نيرانها الشباب . لم يكد العام يبدأ حتى بدأت حكومة نسيم باشا تتنكر لمصر الفتاة وبدأت تضيق الخناق عليها . وتحول بين ذوى الأقمصة الخضراء وبين حرية الانتقال أو الاجتماع أو إقامة المعسكرات فى الخلوات . ولقد أوشك الاصطدام أن يقع بيننا وبين رجال البوليس بالقرب من سفح الأهرام . بمناسبة احتفالنا بعيد الفطر . إذ تعرضوا لنا ليحولوا بيننا وبين الصعود إلى الأهرام . وقد آثرنا أن ننسحب يومها لعدم جدوى الاصطدام والمقاومة . وعدنا أدراجنا إلى القاهرة سيرا على الأقدام فى موكب أخضر . كان يهز قلوب المصريين هزا . ويثير فيهم أقوى المشاعر وأجملها . وكان يشترك فى هذا الموكب على صغره وفود من جميع أنحاء القطر . فكان ذلك آية لما وصلت إليه مصر الفتاة من نجاح وتطور .

فى الأراضى المقدسة

عَنَّ لى أن أستمد من الأراضى المقدسة مددًا روحيا أستعين به على مواصلة الكفاح . ولم يكن لدىَّ المالُ اللازمُ لأداءِ فريضة الحج . مع ذلك فقد قررت أن أحج وأن أهرع إلى الله عند بيته المحرم . أطلب منه أن يهدينى وينير لى الطريق . وأن يأخذ بناصرى ويشد أزرى . ولقد قمت بالرحلة . ولست أحسب أننى صادفت فى حياتى كلها فى أى رحلة من الرحلات . التى قمت بها من قبل أو من بعد . مثل هذا النجاح الذى صادفته فى سفرتى هذه . فقد كشفت لى عن مقدار الدوى الذى أحدثته مبادئ مصر الفتاة فى جميع أنحاء العالم العربى والإسلامى . وكان يذهلنى أن أجد الحجاج من سائر بقاع الأرض يعرفون الكثير عن مصر الفتاة . وكفاح مصر الفتاة . عن طريق «الصرخة» مشعلها الوضاء . وفى كل مكان حللت به وعُرِفت شخصيتى أُحطت بالكرامة والحفاوة . حتى إذا جاءت المناسبة التى أتيح لى أن ألقى فيها جلالة الملك ابن السعود للمرة الأولى . ألقيت بين يديه كلمة استعدت فيها ذكريات الإسلام الأولى وأمجاده . وقارنت بين ماضى

الإسلام وحاضره . فذرفت عينا الرجل العظيم دموعا غالية . فكانت هذه الدموع بمثابة رباط ربطنى بجلالة الملك ابن السعود إلى الأبد . وقد أظلني الرجل برعايته ودعانى إلى زيارة المدينة المنورة فى ضيافته . ومنحنى قبل مغادرتى الأراضى المقدسة ما اعتاد أن ينفح به الوافدين عليه من هدايا . وقد زاد عليها مبلغا من المال كاشتراك فى جريدة «مصر الفتاة» . وهكذا سافرت إلى الحجاز . وليس فى جعبتى إلا القليل من المال الذى يدهش من يعلم بقدره . ويتعجب أن يجرؤ إنسان على السفر إلى هناك بمثله . وعدت من هناك متخما بالمال . منتعش الروح . متوهج الإيمان وقد اطمأنت نفسى إلى أنى أسير فى طريق الحق والصواب .

ولقد عدت بعد ذلك إلى البلاد المقدسة أكثر من مرة . وفى كل مرة كنت ألقى من ضروب النجاح والتوفيق ما يجل عن الوصف . وازدادت صلتى بجلالة الملك ابن السعود توثقا . وألقيت بين يديه . وفى حضرة الوفود من أنحاء الدنيا خطبا سياسية مدوية . كان لها دائما أثرها العميق فى نفوس سامعيها وخاصة جلالة الملك . ومع ذلك فستبقى حجتى الأولى هى الباقية على مر الزمن فى نفسى لأنها كانت بمثابة فتح مبين . وكانت البذرة الأولى والنواة لكل ما جاء بعدها من نجاح . وإن أنس فلن أنسى فى زيارتى الأولى كيف راح إمام الحرم المكى يتحدث أمامى عن هذه الحركة الجديدة التى نشأت فى مصر . وهذه المجلة الرائعة التى تعبر عن هذه الحركة . فلما سألته عن اسم هذه الحركة والمجلة أجابنى : بأنها مصر الفتاة ومجلة الصرخة . ولم يكن الرجل يعرف أنه يحدث صاحب الصرخة ورئيس مصر الفتاة . وإن أنس فلن أنسى وقوفنا على جبل عرفات ندعوا الله ونبتهل إليه . يقودنا هذا الشيخ الجليل . فإذا به يطلب من الله أن ينصر أحمد حسين وأن يعز مصر الفتاة . فطفرت الدموع من عينى ولم أستطع مغالبة نفسى . فقد كان ذلك آية ما غمرنى به الله سبحانه وتعالى من كرامة ورعاية .

إصدار جريدة وادى النيل بالإسكندرية

لم يكن عجيبا أن أعود من رحلتى إلى البلاد المقدسة بعزم من حديد . وثقة مضاعفة . فى وجوب المضى فى الكفاح بقوة واقتدار . بعد أن أكرمنى الله كل هذه الكرامة . وقد كانت مدينة الإسكندرية تروعنى دائما بحماستها وروحها الوطنية العظيمة . وكان شباب مصر الفتاة بها يفيض بالقوة والفتوة . حتى لقد فكرت فى أن أتخذها دار هجرة لمصر الفتاة بحيث تصبح القاعدة الأساسية لحركة مصر الفتاة . ولقد عرض علىّ

صاحب جريدة وادى النيل المرحوم محمد الكلزة أن أتولى إصدار الجريدة ، نظرا لشيخوخته التى أصبحت لا تمكنه من الاستمرار فى العمل . وكنت فى أشد اللهفة لإصدار جريدة يومية : فقبلت العرض الذى عرضه علىّ وسافرت إلى الإسكندرية لأقيم بها نهائيا وأشرف على إصدار وادى النيل .ولن تذكر جريدة وادى النيل إلا ويذكر معها ذلك المجهود المضنى الذى قمت به لإخراجها . لقد مرت علىّ قبل هذه الفترة وبعدها فترات بذلت فيها من الجهد الشاق الشىء الكثير جدا . ومع ذلك فستبقى هذه الفترة من حياتى إبان إصدار جريدة وادى النيل فريدة فذة . ولست أستطيع أن أذكرها الآن دون أن تسرى فى جسدى قشعريرة من الخوف . وكانت المشكلة الكبرى ، بطبيعة الحال ، هى عدم وجود المال اللازم للإنفاق على الجريدة وإيجاد العمال والموظفين اللازمين لإدارتها فى يسر وسهولة . فقد واصلت العمل شهرا ونصف شهر ليلاً ونهارا ، كاتبا فى الجريدة ومصححا وجامعا للحروف (وموضبا) وخادما وفراشا وموزعا وفى النهاية محاسبا للعمال والمتعهد وباعة الجرائد .. فأنا الرجل الذى عليه أن يكتب فى كل يوم عدة مقالات مستفيضة وأن يشرف على الإدارة والتحرير اللازم لجريدة يومية كبيرة . كم من الليالى مرت علىّ لم أخلع فيها حذائى ولم يغمض لى جفن ، ولم أتذوق طعاماً ، كم من الليالى كاد يجن جنونى ، لأن العمل يوشك أن يتعطل ، لأننا لا نجد النقود اللازمة لشراء الغاز الذى يدير الآلات ، وكم من المرات أضرب العمال وتوقفوا عن العمل لأنهم لم يقبضوا أجورهم . وكنت أثور عليهم وأندد بهم إذ يروننى بينهم آكل مما يأكلون . وأعيش كما يعيشون ، ويلمسون بأيديهم كيف كانت الجريدة تخسر فى كل يوم عشرة أضعاف ما تباع به ، وكانوا يتولون بأيديهم فى كل يوم استلام أعداد الجريدة المطبوعة مرتجعة من لدن متعهد التوزيع لا تكاد تنقص إلا بضع مئات من النسخ وهو أمر كان يعد فى ذاته نجاحا كبيرا ولكنه لم يكن يسد شيئا من مصاريف الجريدة . ومع ذلك فقد كان العمال يضربون لأنهم فى حاجة إلى قروشهم القليلة ، ومهما كان حبهم لى ومهما كان عطفهم علىّ كبيرا ، ومهما كان تقديرهم لجهادى ، فقد كانوا أرباب أسر ولهم أولاد ينتظرون عودتهم من العمل يحملون الخبز الذى يقيهم شر الجوع !.. ومنذ هذه التجربة وأنا أعتبر حق العامل فى أجره حقا مقدسا ولا ينبغى لنا أن نطالب العامل لأى سبب من الأسباب أن ينزل عن بعض أجره لأنه لا يملك غير هذا الأجر ، ولأن كل مطالبه فى الدنيا ترتكز على هذه القروش القليلة ، ولقد عانيت كثيرا من جهلى بهذه الحقيقة فى ذلك الوقت . وكنت أستعين على هذه المصاعب بالصوم والصلاة فكان ذلك يزيد فى إنهاك جسدى ، بل ويؤثر على حالتى المعنوية ومن هنا أدركت كيف أمر الرسول المسلمين أمرا أن يفطروا أثناء

السفر فى الجهاد والكفاح لأن الجوع من شأنه أن يقلل من قوة الجسد على احتمال المشاق التى يتطلبها العمل والجهاد .

منع اجتماع

وفى وسط ذلك كله كانت عاصفة الاضطهاد الحكومى قد بدأت تلفحنا ، وبدأت إدارة الأمن تضغط علينا وتصادر حرياتنا وتحول بيننا وبين الاجتماع . فلما أردت أن أعقد أول اجتماع فى الإسكندرية فى ٢٣ مايو احتفالا بإصدار جريدة وادى النيل . لم تصرح الحكومة بعقده فنشرت خطابى على صفحات وادى النيل ، أو بالأحرى خطبت من فوق منبر وادى النيل . ولست أجد ما يصور لك الروح التى كانت تغمرنى فى ذلك الوقت . وما يشرح لك سياسة مصر ، ويصور لك الحوادث السابقة على انفجار ثورة الشباب فى سنة ١٩٣٥ سوى هذا الخطاب ، الذى كان أول قذيفة أطلقت فى وجه نسيم باشا . وفضحت سياسته وادعاءاته المتكررة من أنه سيعيد الدستور ويحقق الاستقلال .

وهكذا سبقنا الأمة كعادتنا ببضعة شهور ، فنحن الآن فى مايو حيث لا يزال نسيم باشا يتمتع بتأييد الوفد والأغلبية ، ولم ينفجر سخط الأمة على نسيم باشا إلا بعد ذلك التاريخ بأربعة أشهر عندما أكره الوفد إكراها على سحب ثقته من نسيم باشا .

وذلك هو دأب مصر الفتاة دائما وستبقى إلى ما شاء الله مرهفة الحس . تسبق المصريين جميعا فى التنبؤ بالحوادث ، وفى الآراء والأفكار . وإعلان الجهاد ضد مختلف صنوف المظالم والمفاسد . وسيرى المطالع لهذا الخطاب توقعا للحرب العالمية الثانية قبل وقوعها بأربع سنوات ، ويرى فيه دعوة مبكرة لمصر والمصريين للتهيؤ والاستعداد للاستفادة من هذه الحرب وهذا ما لم يستطع المصريون لسوء الحظ أن يحققوه .

خطـــاب

الاضطهاد والإيمان ـ كفاح الرسل ـ كفاح المصلحين ـ كفاح الأمم المستعبدة ـ ايرلندة ـ بولندة ـ فرنسا ـ كفاح مصر الفتاة ـ هل نسى نسيم باشا مكافحته للثورة ؟ ـ نسيم باشا والدستور ـ نسيم باشا والاستقلال ـ نسيم باشا والمحكمة المختلطة ـ الوفد وتأييده للوزارة ـ الانجليز لا تريد الدستور ـ نداء للوفد ـ وادى النيل ـ خطتنا وبرنامجنا ـ الحرب القادمة ـ كلمة أخيرة .

أيها السادة ..

محال أن يُقهر الحق أو يغلب ، محال أن تُطفأ الشمس أو تُحجب ، كذلك الإيمان نار مشتعلة يزيدها الاضطهاد اضطراما ، وتزيدها المقاومة شدة ، سنة من سنن الله (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) . قلبوا صفحات التاريخ وحدثونى ماذا أجدى الظلم وماذا أجدى الاضطهاد فى مقاومة مبدأ من المبادىء الخالدة ، مبادئ الحرية والنور والعلم ؟ أى مصلح قاومه معاصروه ولم ينتصر فى نهاية الأمر ؟ أى رسول لم يُنكَّل به قومه وحاربوه فماذا أجْدت عليهم الحرب . وماذا كانت النتيجة ، نتيجة هذا التنكيل . ماذا كانت نتيجة فرعون عندما اندفع خلف موسى بجيشه وسحرته ليطفئ نور الله الواحد القهار ؟ لقد هزم وابتلعه اليمّ ، وشهد أن لا اله إلا الله . ماذا أفاد اليهود من مطاردتهم للمسيح حتى هموا بصلبه ، لولا أن رفعه الله من بين ظهرانيهم وبدله لهم بشخص آخر ، وماذا أفاد الرومان عندما كانوا يقذفون بالمسيحيين إلى السباع الجائعة ، والحيوانات المفترسة تفتك بأجسادهم ، هل أوقفوا سير المسيحية أو أعاقوا نموها وانتشارها ، لمن كان النصر فى معركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع قريش ، ألمحمد اليتيم الفقير الوحيد ؟ أم لقريش ذات العدد والعدة وذات العصبيات والحمية ؟ هل أخاف أبو جهل محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ وهل أفزعه اضطهاد أبى لهب ؟ ـ عندما نثرت عليه القاذورات ، وعندما تآمرت قريش على قتله وتعاهدت فيما بينها على الفتك به ، واجتمعوا أمام داره لاغتياله ، لمن كان النصر فى نهاية الأمر ، وماذا كان أثر هذا الظلم وهذا الاضطهاد ؟؟ لا شيء .. لا شيء .. استغفر الله بل كان له أثر وأى أثر ، كان له أثر هو أعظم الأثر ، كان أن زاد المؤمنين ايمانا ، وزاد المسلمين تشبثا بدينهم واستماتة فى الدفاع عنه ، حتى انتصر الحق وزهق الباطل «إن الباطل كان زهوقا» .

كفاح أصحاب المبادئ والعقيدة

وهؤلاء الذين هم فى مرتبة أدنى من مراتب الرسل ، هؤلاء القادة والزعماء أصحاب المبادئ والعقائد ، أو لم يُحاربَوا ؟ أو لم يُضطهَدوا ؟ فلمن كان النصر فى النهاية ؟ لقد كان دائما فى جانب الحق والمبدأ والعقيدة ، هذه الدول التى كانت مستعبدة لدول أشد منها قوة وذخيرة ، عندما قامت تطالب باستقلالها وحريتها ، أو لم تحصل على هذا الاستقلال وتلك الحرية فى نهاية الأمر ، رغم الألوف الذين أُزهِقت أرواحهم ، ورغم الملايين الذين زُجَّ بهم فى السجن ؟ لقد استقلت ، لقد تحررت دائما هذه الدول التى تطلب الاستقلال بيقين وعزم .

أيرلنده وبولنده

ماذا كان فى أيرلندة ؟ ماذا كان فى بولندة ؟ أى لون من ألوان الشدة لم تصطنعه إنجلترا ضد أيرلندة ؟ أو لم تضع لها المدافع فى الشوارع ؟ أو لم تكتسح عاصمة ايرلندة مرة ومرتين وأسالت الدماء مدرارا فى شوارع دبلن فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة استقلال ايرلندة !.

وبولندة . بولندة التى حاربتها ثلاث دول عظام ، بولندة التى مزقتها روسيا والنمسا وبروسيا ، التى تحالفت عليها الاعداء والمصائب والنوائب عندما طالبت بحريتها ، عندما كافحت طوال مائة سنة بأسرها ، عندما كانت تندلع فيها نيران الثورة فترسل روسيا بجيوشها تحصد الأرواح حصدا وتقود الملايين إلى مجاهل سيبريا ، ماذا أفاد ذلك كله ؟ لقد انتصرت بولندا وانتصر إيمان بولندا .

وها هى اليوم إحدى دول أوربا العظمى ، التى يخشى الروس بأسها .

وفى فرنسا هل استطاعت الملكية أن تحمى نفسها من الثورة ، هل استطاع الأشراف أن يوقفوا الروح الجديدة التى كانت تنذرهم بالفناء ؟ لقد كان الباستيل يبتلع كل من تحدثه نفسه بالحرية ، وكان الرصاص يذاب فى الأفواه والآذان ، والنار تكوى الجباه والصدور . وكانت الطواحين تهشم العظام ، فماذا فعلوا ؟ ماذا أنتجوا ؟ لمن كان النصر ؟ للروح الجديدة والمبدأ الجديد .

فالحق : الحق لا يغلب . الحق لا يغلب فهو اسم من أسماء الله ، وهو مشتق من ذات الله ، فكيف يغلب ويقهر ، حاشا وكلا ، ومعاذ الله .

كفـــاح مصر الفتاة

هؤلاء الأغرار الذين يقاومون مصر الفتاة ، أهم إلى هذا الحد جهلاء ؟ أفلم يطالعوا كتابا واحدا من كتب التاريخ ؟ أهم إلى هذا الحد عمى فلم ينظروا إلى ما يحيط بهم فى مختلف الأمم ؟ أهم إلى هذا الحد صم فلا يسمعون هذه الدروس وهذه العظات ؟ أهم إلى هذا الحد فى غفلة لا يلتفتون لدوران الأفلاك وحوادث الدهور ؟

أى والله إنهم لكذلك !. وإلا لما قاوموا مصر الفتاة ، ولما اضطهدوها ولما حاولوا أن يبدأوا التجربة التى أثبتت الأيام فشلها واندحارها .

عندمانفى الإنجليز سعد زغلول .. أو لم يخلقوا الثورة المصرية ؟ وعندما كان الرصاص المسموم يجندل المئات أمام الأزهر ..وفى ميدان محمد على فى الإسكندرية .. أو لم يضاعف هذا فى لهيب الثورة ؟

هل نسى نسيم باشا مقاومته للثورة

وما لنا نذهب بعيدا .. ورئيس الوزارة الحالى بنفسه قد جرب هذا الأسلوب ، وقد أحس بأنه عقيم .. عندما كان رئيسا للوزارة إبان الثورة وكان يطلق أعوانه من أمثال حيدر وشاهين يفتكون بالأبرياء ، ماذا كانت النتيجة ولمن كان النصر ؟!

ترى هل نسى دولة نسيم باشا ذلك كله ، ولا يزال فى حاجة إلى درس جديد ؟ مرحبا إذن .. وسيأخذ نسيم باشا الدرس الجديد .

نسيم باشا والدستور

يدّعى نسيم باشا انه سيرد الدستور لمصر ، هل يتفق هذا أيها السادة مع هذه الحالة التى نعانيها الآن ، ها أنا أخطبكم من فوق منبر وادى النيل ، بينما كان يجب أن أخطبكم وجها لوجه ، ويميناً لو أن نسيم باشا سمح لنا أن نجتمع إذن لكان بدء خطابى هو الشكر والتقدير . إذن لكان بدء خطابى . تحية أبعثها لنسيم باشا . أما اليوم ... فإن بدء خطابى هو شواظ من نار (إذا جاز أن أستعير هذا التعبير من الجندى المجهول) هو شواظ من نار أرسلها لتحيط بالوزارة ورئيسها .

يقول نسيم باشا إنه سيرد الدستور ، إنه الأمين على الحريات . دعونى أسخر من هذه الدعوى ، دعونى أضحك وأغرق فى الضحك . لأن الأمين على الحرية هو الذى أرسل خلفى وقبلى إلى المحلة الكبرى سيارتين من اللورى مكتظتين بالجنود تحمل العصى والسياط ، لا لشىء إلا لأننى فكرت أن أزور المحلة الكبرى لأفتش على مكتب الجريدة هناك .

يدعى نسيم باشا انه سيرد الدستور ، وانه الأمين على الحريات ، دعونى أسخر من هذه الدعوى وأضحك وأغرق فى الضحك ، لأن نسيم باشا هذا هو الذى حرم علينا الاجتماع لنحتفل بإصدار جريدة يعرفها جيدا ، ويعرف صوتها المدوى فى خدمة مصر ، والقضية المصرية منذ ربع قرن ونيف . جريدة وادى النيل يعرفها نسيم باشا ويعرف جهادها ، ومع ذلك فهو الذى يرفض اليوم أن يسمح لنا بالاجتماع اجتماعا عائليا صغيرا لنحتفل بها أهذا هو الذى سيرد الدستور ، أهذا هو الأمين على الحريات ، دعونى أضحك ، دعونى أضحك وأسرف فى الضحك .

نسيم باشا والاستقلال

يدّعى نسيم باشا أنه الحريص على استقلال مصر ، وأنه الأمين على سيادة مصر ، فليحاسبنا ماذا فعل بهذا الاستقلال منذ ولى الحكم ؟ وماذا تم فى سيادة الدولة على يده ؟ فليحاسبنا حفظه الله وأبقاه ومتعنا بنزاهته وعفته وإخلاصه ، فليحاسبنا ونحن مستعدون أن نحنى الرأس إجلالا لعظمته وجهاده ، استلم الوزارة من وزير لم ننل على يده إلا كل اضطهاد وتعذيب . حُبسنا فى عهده وصودرت حريتنا ، واعتدى علينا ، ومع ذلك فلا نستطيع اليوم إلا أن نعترف بأنه تمسك باستقلال الوزارة المصرية ، ولم يسمح لإنجلترا أن تلقى إليه رغبات أو أوامر ، هذا هو عبد الفتاح يحيى باشا ، ومن قبله صدقى باشا ، الذى مهما قيل فيه فإنه قد أرسل فى يوم ما بلاغا إلى الإنجليز يقول لهم فيه : أن ليس لهم الحق فى التدخل فى شئون مصر الداخلية ، لأنها مستقلة فلا تسمح لهم بهذا التدخل . ومهما قيل فى هذا البلاغ من أنه كان موضوعا بالاتفاق مع دار المندوب الإنجليزى ، وأنه ليس إلا كلاما أجوف ،

أجل أيها السادة مهما قيل فيه ، فإنه مظهر حسن من مظاهر الاستقلال ، لست أحاول أن أدافع عن صدقى باشا وعن شخصيته ، وأرجو أن تفهموا بدقة وجهة نظرى ، فالوزارتان اللتان لم تكونا من صميم الأمة ، بل كانتا حرباً على الأمة ، حافظتا على مظاهر الاستقلال على أقل تقدير . أفما كان بالأحرى واجب نسيم باشا ــ وهو الذى ارتفع على أكتاف الشعب ــ أن يكون موقفه من الإنجليز قويا ؟ وأن يصول ويجول دفاعا عن الاستقلال ومظهرية الاستقلال ؟

نسيم باشا والمحكمة المختلطة

وتولى نسيم باشا الحكم ، وفى الدولة مشاكل ، على رأسها مشكلة المحاكم المختلطة ، فماذا فعل فيها ؟ ماذا فعلت فيها الوزارة لترد لمصر كرامتها .؟ لا شىء .. لا شىء .. رغم أن الدول كلها .. قالت لها مالك لا تنقذين كرامتك ؟ وتقررين العربية كلغة رسمية حيث أن اللائحة تنص على ذلك .. لا ، فإن هذه مسألة تتعلق بالكرامة المصرية والسيادة المصرية يمكن أن تنتظر ، حتى تحل المطالب العليا ، مطالب الإنجليز .. أسيادنا الإنجليز !.

أشهدأنى أكاد أجن .. وأجن بالأكثر من هؤلاء الذين مازالوا يؤيدون الوزارة ويولونها ثقتهم وتشجيعهم .

الوفد وتأييده للوزارة

اللهم إنى لا أستطيع أن أفهم تأييدهم ، رغم كل هذا الذى تأتيه الوزارة النسيمية ، إلا على أنه حرص على الحكم وكراسى الحكم بأى ثمن من الأثمان !. نسيم باشا هو القنطرة التى سيعبر عليها الوفد إلى الحكم ، وبدون نسيم باشا لا يمكن أن يُمَهَّدَ الطريقُ لوصول الوفد إلى الحكم .. إذن ليعمل نسيم باشا إلى هذه الغاية ، وليدفع ثمنا لذلك كل ما يطلب منه ، حتى ولو كان هذا الثمن تفريطا فى استقلال مصر ، حتى ولو كان الثمن تأجيل الدستور إلى أجل غير مسمى ، وإذا أُجل الدستور فما الذى بقى للوفد إذن ؟.. وما الذى ينتظره إذن ؟؟.. أفهم أن يكون الوفد مهادنا للوزارة ، أفهم أن يكون للوفد ثقة فى شخصية نسيم باشا ، وأن تكون هناك صداقة بين نسيم باشا ورئيس الوفد ، أفهم ذلك ولكن الذى لا أفهمه بل أستنكره هو هذا المبدأ الخطِر ، وهو أنه مادام نسيم سيرد الدستور فيجب أن تترك له الحرية ليفعل كل شىء فى هذا السبيل ، وليدفع أى ثمن يريده الإنجليز ، حتى ولو كان باهظا ، تتقاضاه انجلترا من كرامة مصر ومالية مصر . أولا يحس الوفد معى بخطورة هذا الثمن ؟ كلنا نحب الدستور ، ونحن من المطالبين بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ، ولكنا نريد الدستور دون أن نخسر فى سبيله كل شىء ، دون أن نفقد استقلالنا وكرامتنا .

مبدأ خطِر أيها السادة ــ بل هو مقامرة خطرة أن نعطى الإنجليز كل شىء لكى نأخذ الدستور . إذ ماذا تكون النتيجة إذا نسى الإنجليز وعودهم وتنكروا للدستور بعد أن يكونوا قد حصلوا على كل شىء ..

الإنجليز لا يريدون الدستور

ومالى أتحدث بصيغة الفرض ، وهذا هو الواقع فعلاً ، وهذه هى الكارثة التى حلت على مصر فعلاً ، فالإنجليز اليوم لا يريدون دستورا ، لا يريدون دستورا بل يريدون حكما مباشرا وطاعة عمياء ، وتركيز السلطة والسيادة والتشريع وكل مظاهر الحكم فى يد المندوب البريطانى حتى يصبح حاكماً بأمره ، كحكام الهند أو خط الاستواء .

وكيف يقع الساسة المصريون فى الشَّرك وينتظرون من إنجلترا دستورا ، كيف يخيل إليهم أن انجلترا حريصة على حريتهم وإرضائهم ، فتعيد لهم الدستور ، وتعيد الوفد إلى الحكم .

أجل أسائل نفسى ، كيف ينخدع بعض الساسة المصريين ، حتى اليوم ، بهذه الترهات والآمال الفارغة ؟. سيقولون أو لم تعط إنجلترا الدستور لمصر فى تصريح ٢٨ فبراير ، فلم لا تعطيه مرة ثانية ؟ ولكن أيها البسطاء السذج ، لقد أعطتكم إنجلترا الدستور فى تصريح ٢٨ فبراير لأنكم كنتم تطالبون بكل شىء ، كنتم تطالبون بالاستقلال التام لمصر والسودان أو الموت الزؤام ، فرمت لكم الدستور لتشغلكم به ولتحطم وحدتكم عليه ، فكان الدستور وكان لانجلترا ما أرادت ، فتحللت معنويتكم وذهبت ريح جهادكم ، وامتلأتم بالزهو والشغف بالحكم والمناصب .

أما اليوم بعد أن تمزقت أوصالكم ، بعد أن تضعضعت قوانا وامتلأت قلوبنا بالشك والتشاؤم والجبن والضعف ، لم لا يسترد الإنجليز الدستور ، لم لا يستردونه ويستردون كل مظهر من مظاهر الاستقلال ؟ لم لا يعودون للحكم من جديد ، ماداموا يجدون وزراء يقبلون منهم هذا التحكم ، ويرون الوفد يؤيدهم بثمن بخس ، وهو الأمل بعودة الدستور ؟ أو ليس من المضحك أيها السادة أن يكون جهاد نسيم باشا فى هذه الأيام ، لا يدور حول إعادة الدستور ؟ لا ، فإن هذا الرجل متواضع ولا يرتفع إلى هذا الطلب . كل الذى يطلبه ، أن يسمح له المندوب البريطانى بإصدار بلاغ يعد فيه الأمة بقرب عودة الدستور ، ومع ذلك فإن المندوب يرفض !.

يالسخرية الأقدار ، إذا لم يعد الدستور هو البضاعة التى يساوم عليها الإنجليز ، لا بل أصبح الوعد بالدستور هو البضاعة التى يبيعها الإنجليز ويشتريها المصريون . سامح الله الإنجليز ، وماذا عليهم لو سمحوا لنسيم باشا بإصدار البيان ، فيملأ البلد أملاً ووهما لمدة سنة ، أو سبعة أشهر يعود بعدها الدستور ، حتى إذا جاء ميعاد الدستور ، أسقطوا وزارة نسيم باشا وجاءوا بوزارة أخرى لا تعرف شيئا عن الدستور !. ثم تَعِدُ الأمةَ من جديد بدستورٍ منتظر ، بعد أن تسلخ فى الحكم عاماً أو عامين .

ماذايضير الإنجليز سامحهم الله ، لو استغلوا أحلام هذه الأمة فساقوا لها الوعد خلف الوعد حتى تكل وتمل وتلين ؟ ترى أيخشى الإنجليز أن ينكثوا بالعهد ، متى حافظوا على عهودهم ؟ ومتى كانوا يعرفون معنى لتنفيذ التعهدات ؟ وقد أقسموا بالشرف نيفا وستين مرة أن يغادروا مصر ، وكلما طولبوا بتنفيذ الوعد ساقوا وعدا جديدا !.

واليوم وقد كسبوا الاحتلال نهائيا ، ولم يعد فى مصر بأسرها من يطالبهم بالجلاء ، اللهم إلا جمعية مصر الفتاة ، وهى جماعة كما يرى الإنجليز هين شأنها فى الوقت الحاضر !.

اليوم وقد حقرت المطالب الوطنية وانكمشت ، ماذا على الإنجليز لو نقلوا ميدان الوعود إلى الدستور ، يؤجلونه من عام إلى عام . لا ، ولكن إنجلترا الجبارة لم تعد ترى فى الشعب المصرى ما يستحق حتى أن تضحك عليه ، وأن تضيع وقتا فى العبث به ، بارك الله فى نسيم باشا ، وبارك الله فى النحاس باشا ، وماوصلت إليه مصر على أيديهما .

نداء للوفد

إننى أبعث بنداء حار من أعماق قلبى ، إلى الوفد وزعيمه قائلاً : لقد عشتم طوال عشر سنوات علما على الكفاح ، فلا تهنو ولا تلينوا وإن كان ولا مناص من مصانعة الإنجليز والانخداع بوعودهم فاتركوا ذلك للوزارة ، اتركوا ذلك للوزارة أما أنتم ، فإلى الصفوف من جديد ، مؤمنين بأنه لا دستور مع احتلال ، فليكن كفاحكم هذه المرة لا للدستور والاستقلال والسودان بل أثيروها على الإنجليز حربا شعواء لا تبقى ولا تذر ، حربا معنوية ، فى خطبكم وصحفكم ، تعالوا ننظم مقاطعتهم ، تعالوا نكافح ، تعالوا نكافح .

ووالله لو فعلتم ذلك لعادت القلوب تمجدكم من جديد ، والتفت الأمة حولكم من جديد ، أما إن واصلتم هذه السياسة التى تسيرون عليها ، سياسة المداورة والملاينة والانخداع للإنجليز ، فإنى أنذركم أن الأمة ستنصرف عنكم ، الأمة التى هتفت بأسمائكم بالأمس ، ستهتف بأسماء أخرى ، لأن الأمة لا تُخدع والأمة لا تعرف السياسة ، والشعب يريد الكفاح .

وادى النيل

وبعد أيها السادة : صفينا حسابنا مع الوزارة والوفد ، صفينا حسابنا مع الظلم والاستبداد فلنعد إلى موضوع احتفالنا ، ولنحدثكم عن مصر الفتاة وخطتها وآمالها .

لعلكم اقتنعتم من هذا العرض البسيط الذى عرضناه الآن عن موقف رجال السياسة فى مصر ، أنهم أفلسوا وعما قريب يعلنون إفلاسهم . ونحن لسنا فى حاجة إلى انتظار هذه الساعة التى يعلنون فيها إفلاسهم ، لأننا نحس هذا الإفلاس من الآن ونلمسه ، لا بل لمسنا هذا الإفلاس منذ عامين عندما نادينا بمصر الفتاة . كنا نناصر الأحزاب المختلفة ، وفجأة اكتشفنا أنه لا يوجد حزب فى مصر له من مبادئه ، أو من رجاله ما يمكن أن يحقق لمصر استقلالها وحريتها المنشودة ، فقد تراموا جميعاً على الحكم وأصبحوا عبيده ومحاسيبه ، ومردوا على النفاق والخيانة والاستهانة بإرادة الأمة ، واعتز فريق منهم بنفسه فركب رأسه وراح يضع نفسه فى موضع الألوهية ، فلا يناقَش ولا يحاسَب ولا يراجع ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور ! . ووسط ذلك كله كان كل شىء يتدهور فى مصر : كرامتها ، شخصيتها ، أخلاق بنيها ، روحهم المعنوية ، حتى وصلنا إلى درجة الانحطاط فى كل ميدان . وعدنا إلى الوراء عشرات الأعوام ، فكان لا مناص من حركة جديدة تخرج من أعماق الشباب ، مخلصة

بريئة طاهرة ، لم تتلوث بعد بالسياسة الإنجليزية ، وليس لها مطمع فى الحكم ، أو مغنم تصبو إليه فيتلف عليها جهادها ، كما تكافح من جديد وبأسلوب الكفاح الحق ، لكى تندفع إلى الأمام غير هيابة ولا وجلة ، تطالب فى غير ما هوادة أو لين أو مواربة ، باستقلال مصر ومجد مصر ، لا يفزعها سجن أو موت ، وترحب بكل اضطهاد وعذاب وتشريد .

هذه هى جماعة مصر الفتاة .. خرجنا إلى الحياة منذ عامين فتوالت علينا الإحن والويلات ، ولكنها مرت بنا دون أن تترك بنا أثرا ، أو تفل من عزائمنا .

ولقد حاربنا الإنجليز عن طريق كين بويد وأضرابه ، وحاربتنا الوزارة التى آذاها أن ترى شبابا متطرفا ينقدها فى غير رحمة ، ولقد كان أمر الإنجليز والحكومة هينا ، وسيبقى هينا دائما أبدا ، ذلك أنه لا يتطلب منا إلا أن نحتمل الاضطهاد والعذاب ، ونحن قد وطدنا العزم على ذلك .

على أن مصر الفتاة قد قوبلت باضطهاد أقوى وأعظم ، وذلك هو اضطهاد الأغلبية وقذفها بالتهم الباطلة واحدة خلف أخرى ، قالوا عنا تارة إننا صنائع الانجليز ، ثم صنائع الحزب الوطنى ، ثم صنائع الإبراشى باشا ، ولقد مضينا فى طريقنا لا نلوى على هذه السخافات ، التى كانت تتلاشى واحدة بعد الأخرى ، حتى كان سقوط الإبراشى باشا ، فسقطت آخر هذه الدعاوى إلى غير عودة . وها نحن أولاء وقد أثمر جهادنا ، ننزل إلى الميدان بجريدة هى مفخرة الجرائد المصرية الصميمة ، فلقد أسسها صاحبها منذ سبع وعشرين سنة ، بمشورة مصطفى كامل باشا ، وظل يعمل على رأسها طوال هذا العمر الطويل فى جد ونشاط ، حتى جاءت أيام كانت وادى النيل هى الجريدة التى كان يقرؤها كل مصرى ، وفى الوقت الذى كانت الجرائد تصدر فى صفحتين اثنتين ، كانت هى تصدر فى ثمانى صفحات وكانت تصدر مرتين فى اليوم الواحد !. أقص عليكم ذلك لتعرفوا أن جريدة وادى النيل علم من أعلام الصحافة فى مصر ، وإذا كانت قد ركدت ريحها فى المدة الأخيرة فما ذلك إلا لأن الأستاذ الكلزة ، شفاه الله وعافاه ، أصابته بعض الأمراض ، التى جعلته ، وقد بلغ السن التى وصل إليها غير قادر على مواصلة الكفاح ، فى قوة ونشاط فإذا تقدمت مصر الفتاة لتتخذ من وادى النيل لسان حال لها ، إذا نزلت مصر الفتاة إلى ميدان الجهاد وفى قلبها إيمانها ، وفى يمينها وادى النيل كتب لها النجاح ، فإن هذا عصر جديد من عصور مصر الحديثة ، بل هو فجر يشرق على الظلمات التى كست مصر سربالاً مخيفا . فحق علينا أن نبتهج وأن نحتفل وأن نتخذ من أول مايو عيدا عظيما نحتفل به فى كل عام مرة ، لأنه من أيام مصر البيضاء .

خطتنا وبرنامجنا

بقى أن تتساءلوا : وما هى الخطة وما هو البرنامج ، أما خطتنا فطالما كررتها فى خطبى ومقالاتى ، وهى إعادة الروح . نريد أن نعيد الروح إلى الشباب المصرى ، فيمتلىء إيمانا وعزما ، ويقدس الرجولة والأخلاق ويعد من نفسه فارسا مقداما . نريد أن ننشئ الجيل الجديد ، واثقا معتزا ببلاده فخورا بتاريخه ، نريد أن نملأ النفوس جرأة وشجاعة وتضحية .

الحرب العالمية القادمة

ونريد أن نهيئ أنفسنا للحرب العالمية القادمة ، لأنها هي المخلص ، وهي المنقذ . لا أمل لنا في الاستقلال أو التخلص من يد الإنجليز إلا في الحرب القادمة ، فيجب أن نتهيأ لها منذ الآن ، وأن نستعد كي لا نؤخذ على غرة ، ولكي نقوم بواجبنا في الساعة المناسبة . لطالما قلت لكم ما أقوله اليوم ، وهو أنّا لن نحصل على استقلالنا بمنحة من الإنجليز أو بدهاء نسيم باشا ، أو مصانعة النحاس باشا لهم ، لن نحصل على شيء بهذا الأسلوب ، ومن السفه بل من الجنون التعويل على هذه الخطة !. سنحصل على استقلالنا عندما نصبح قادرين على أخذه عنوة ، وسنحصل على حريتنا عندما نستطيع أن ندفع ثمنها .

وإذا كان لا مناص من انتزاع الاستقلال بالقوة ، كما يعلمنا الله في كتابه العزيز بقوله : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» ، فالفرصة ستتاح لنا في الحرب القادمة والتي ستقع من غير شك !. أجل ستندلع نيران الحرب ما في ذلك شك أيها السادة ، وإن كان هناك ما يمكن أن يكون محلاً للخلاف فهو موعد حصولها ، أهو بعد ثلاثة أعوام أم خمسة أم عشرة . أجل قد يختلف المختلفون في تحديد التاريخ أما في أنها ستقع فلا ! فقد أصبح ذلك حتما لا شك فيه . إن أوروبا قد اندفعت نحو التسلح بدون قيد أو شرط ، قد اندفعت نحو التسلح وابتكار المدمرات والمخرّبات ، وغدا عندما ترى كل دولة نفسها وقد تدججت بالسلاح ، وأنها من القوة والمنعة بحيث تحطم جاراتها ، غدا عندما يمتلئ كل شعب بالزهو والخيلاء ، ويرغب في الفتح والاستعمار والثأر ، غداً ستقع الواقعة ، فتشتعل النار التي ستلتهم أوروبا بأسرها ، وذلك من رحمة الله ومن نعمته ، لكي يتحرر الشرق ولكي ينهض ، ولكي تحطَّم هذه المدنيةُ القذرةُ الدنسة ، مدنية الذهب والحديد والمادة ، مدنية الفسق والدعارة والإلحاد ، وحتى تحق كلمة الله سبحانه وتعالى : «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون» . أجل .. فسد الأوربيون وبغوا وحسبوا أنفسهم أنصاف آلهة ، وعبدوا عقولهم ، وعبدوا شهواتهم ، وأعمتهم مخترعاتهم ، فظنوا أنهم قادرون على الأرض والسماء ، وغداً سيجيئهم أمر الله في هذه الحرب . فعلى الشرق بصفة عامة ، وعلى مصر بصفة خاصة ، أن تتربص وقت هذه الحرب وأن تعد نفسها لها ، فإما أن تترك إنجلترا لمصر حريتها كاملة واستقلالها غير منقوص ، وتسحب جيوشها وتجلو عن مصر ، وعندها نقف إلى جانبها موقف الحليف من الحليف ، وإما أن نناضل عن حريتنا بإعلان الحرب على انجلترا ، ونكافح كفاح المستميت ، فإما موت وفناء في ظل الشرف والكرامة وإما انتصار يعيد إلى البلاد حريتها ومجدها .

كلمة أخيرة

فمهمتنا أن نعد جيلاً جديدا ، وأن نهيىء النفوس والشعب للحرب القادمة ، فإذا انتصرنا فإن برنامجا واسع النطاق ينفذ في عشر سنوات .. من شأنه أن يبعث كل مجد مصر الماضي وأن يخلق منها دولة شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام . برنامج يقضي على

الأمية ، ويقضي على الاستعباد الاقتصادى ، ويبعث روح النبوغ والعبقرية فى العلوم والفنون والآداب ، ويملأ مصر نورا من جديد لتضيء على العالمين ، ولتحمل لواء السلام والإيمان .

هذه خطتنا وهذه برامجنا وتلك آمالنا نتحدث بها إليكم مجددين العزم والميثاق من جديد ، أن نكافح من أجل تحقيقها ، وأن نموت فى سبيلها غير راجين جزاء أو شكورا من مخلوق ، ولكن رضا وحباً من الله ، وعلى بركة الله نسير ، وباسم الله نبتدئ الكفاح ، وبعون الله نجابه الشدائد والصعاب ، والله يوفقنا ، والله يهدينا سواء السبيل ، والمجد لمصر.

انتصار روح مصر الفتاة
فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥

انفجار

كان آخر عهدنا بجريدة وادى النيل والكفاح فى الإسكندرية هو شهر يونيو سنة ١٩٣٥ وقد تراكمت الصعوبات المادية فحالت بينى وبين مواصلة إصدار الجريدة فعدت إلى القاهرة قلب الحركة الخفاق وكان السخط على وزارة نسيم باشا قد بدأ يشيع فى جميع الأوساط .

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ انفجرت عناصر السخط فى أوساط الشبان ، فقابلها نسيم باشا بالرصاص والإرهاب ، فلم يزد ذلك النار إلا اضطراما وتحول السخط إلى ثورة ... بدأت فى صفوف الشبان ، وبدأت تنتقل منهم إلى بقية عناصر الأمة رويدا رويدا ... وفى أيام قليلة تحول سكون مصر إلى حركة عنيفة ، وتضرجت شوارع القاهرة بدماء عشرات من الطلاب وشباب الجامعة ، وغصت المعتقلات بمئات وألوف من المقبوض عليهم . وفى عشية وضحاها ، سرت فى مصر هزة قوية ، أو قل روح عنيفة ، تأبى الذل وتتمرد على خنق الحرية ، وتطالب بالدستور ولا ترضى بأقل من الاستقلال .

فوجئت الحكومة بهذه الحالة وفزع الانجليز من نتائجها ولم يستطيعوا تحليلا لعناصرها ، وعجزوا عن تفسير ما خُيل لهم أنه جاء مفاجأة غير منتظرة ، وقد شاطر الحكومة والإنجليز كثيرون من المصريين أنفسهم فى اعتبار أن ما حدث كان مفاجأة غير متوقعة ، وأنه مقطوع الأسباب عن مقدماته .. فهل كان هذا الحكم صحيحا ؟! وهل لم يسبق هذه الحركة القوية مقدمات تؤدى اليها ؟ هذا هو ما سأحاول تحليله هنا فى هذه السطور ، للذكرى والتاريخ ، والدرس والعبرة .

ولست أحسب أن هناك قارئا واحدا قد طالع كتابى هذا حتى هذه السطور إلا مبادرا بالقول بأن مصر الفتاة هى خالقة هذه الحركة ، وأنها قد مهدت لها بهذا الجهاد الطويل فى بحر ثلاثة أعوام ، تعرضت فيها لشتى صنوف الاضطهاد والتعذيب ، ولم تفتأ تردد فى أثنائها مبادئ الوطنية الصحيحة ، وتحض على الجهاد فى غير ماخوف أو جزع . والواقع

أن هذا الحكم من القارئ هو الحكم الصحيح الصادق فى غير مغالاة أو إسراف . ذلك أن الإيمان الذى كان يملأ صدورنا ، والذى مازال يملأ صدورنا ، بل والذى ازداد أضعافا مضاعفة . هذا الإيمان الذى يحركنا ، والذى يغذينا ، والذى يدفعنا دائما إلى الأمام ، هذا الإيمان الذى يهون لنا الشدائد ، لا يمكن إلا أن يكون قوة مؤثرة تأثيرا ماديا فى البيئة المحيطة بنا . وإنى لأكاد أتخيل للإيمان قوة خفية كقوة المغناطيس أو الكهرباء ، هذه القوة التى تملأ الجو من غير أن يكون لها مظهر مادى ومع ذلك فإنها موجودة وهى تؤثر وهى تنتج ، بمعنى أن الشخص المؤمن يستطيع أن يؤثر بإيمانه ولو كان فى حجرة مغلقة الأبواب ، موصدة النوافذ ، وهذا يدل عليه سجن المجاهدين فهو يزيد فى قوة عقيدتهم ، وبالتالى فى عقيدة زملائهم وأتباعهم ، إذ بالقوة الغشوم سرعان ما تُهزم أمام المجاهد السجين ، فإذا بالأبواب تفتح ، والسلاسل تحطَّم ، ويستأنف المجاهد جهاده ، والناس من حوله أشد إيمانا وإصراراً على الكفاح ! . هذا هو أثر الإيمان الكامن فى نفسى ، ونفوس أصدقائى .. فقد كان قوة مؤثرة فى البيئة التى تحيط بنا سواء اتصلنا بها أو لم نتصل ، فما بالك ونحن لم نترك دقيقة واحدة فى هذه الثلاث سنوات لم نتصل فيها بجموع الشباب والطلاب بصفة خاصة .. فليست هذه السنوات الثلاث إلا عملا متصلا فى قوة وعنف ضد مظاهر الضعف والتخنث والجبن الذى ران على القلوب . ولقد طالعتم فى الصفحات السابقة ، كيف كنا نقابل السجن بالابتهاج ، ونحتمل الشدة فى سرور ، رأيتم فى الصفحات السابقة كيف كانت حياتنا سلسلة متصلة بين السجن والاعتداء والإيذاء ، ورأيتم كيف أرسلنا الصوت مدويا من أعماق السجون ، ومن أقفاص الاتهام ، ندعوا الشباب إلى التضحية والكفاح ، فى غير ما وجل أو تردد ... وفى هذه السنوات الثلاث ، لم يمض يوم واحد ، لم نكن فيه نتحدث ونخطب ونعطى القدوة للشباب ، فى هذه السنوات الثلاث ذرعنا القطر شمالا وجنوبا ، وغربا وشرقاً ، ناشرين إيماننا وعقيدتنا ، ومقدمين المثال بهذه الجرأة التى تسخر من الظلم وتهزأ بالاستبداد . ولم يكن ذلك كله بغير أثر ، بل على العكس فقد ترك أثراً عميقا فى نفوس الشباب الذين أحاطوا بنا ، أثر ذلك فى نفوس زهرة الشباب ، وأعنى بهم طلاب الجامعة ، وليس فى قادتهم إلا من هو صديق شخصى لى أو عضو فى مصر الفتاة . وإذن فقد تهيأت أذهانهم لروح الكفاح والتضحية ، روح العمل من أجل مصر أولا وأخيرا ، مهملين الأشخاص ، ومقدسين العمل الصالح ، ولقد كمنت هذه البذور فى قرارة نفوس الطلاب ، وأخذت تنمو وتزدهر يوما بعد يوم ، حتى كانت الحرب الإيطالية الحبشية ، وقامت الحبشة تدافع عن استقلالها وعزتها ، ووقف العالم بأسره إلى جانبها ،

يتحدث عن سيادتها وقداسة حريتها ، وشرعت جرائد الدنيا تتحدث عن وطنية الأحباش وبسالة الأحباش ، وتستعرض صورا من كفاح أبطالها ، ورجالها ونسائها ، بل وأطفالها .. وأخذت رائحة البارود تملأ معاطس المصريين ، والدم المهراق يوقظ حواسهم ، ورؤية الكفاح تثير غريزة الكفاح ، فلا عجب أن امتلأت نفوس الشباب المصرى بالرغبة فى الكفاح ، وكل عاطفة قوية إن لم تجد من ينظمها فى بداية أمرها ، انحرفت عن طريقها الطبيعى وتبددت أدراج الرياح ، ولربما تحولت إلى قوة مخربة كالنار إن لم تنظَّم أصبحت أداة خراب ودمار ، وقد كاد ذلك يكون النتيجة المحققة لعواطف الشباب المصرى فى تلك الأيام . فقد اندفع بعض الشباب وفى مقدمته الصحافة ، تدعو للتطوع للدفاع عن استقلال الحبشة ، وحرية الحبشة ، وسرعان ما تألفت اللجان وانهالت ألوف الطلبات ، وتقدم مئات الشبان ، وقد امتلأت صدورهم بحماسة عجيبة ، فكنت تراهم والدم الحار يملأ شرايينهم ، واللهب المقدس يشع من أعينهم ، فأما السذج والبسطاء فقد خيل لهم أن المصريين يريدون الدفاع عن الحبشة ، ويتحمسون للحبشة فراحت الصحافة تطبل وتزمر ، وتهاجم الإيطاليين وتناصر الحبشة ، وتستحث الشباب لنصرة الحبشة . حتى امتلأت البلد بروح غريبة ، روح الدفاع عن الحبشة واستقلال الحبشة ، أما أنا فلم أر فى كل ذلك إلا رغبة الأمة فى الدفاع عن نفسها ، وأن هذه الروح القوية ، التى تريد متنفسا لها ، وجدت فى الحبشة فرصة لإظهار هذه الروح . ومنذ الدقيقة الأولى فهمت إحساس الشباب الحقيقى ، ومنذ الدقيقة الأولى عرفت ماذا يجب علىّ أن أفعل ، وماذا يجب على كل الشباب أن يفعل ، فإذا كان للحبشة استقلال قد حُطم ، وإذا كانت للحبشة كرامة ينبغى أن تُصان ، فإن لمصر كرامة يجب أن تُسترد ، وإذا كان فى عروق الشباب المصرى دم يجب أن يراق ، فإن مصر به أولى ، وإذا كان هناك ما يجب أن يقوم به المصريون ، فهو انتهاز هذه الفرصة ، للمطالبة بحقهم وإخراج الإنجليز ، وإسماع العالم صوت مصر ، والكفاح فى سبيل الاستقلال . وإذن فقد عملت جاهدا على إعادة العواطف التى تملأ صدور الشباب إلى طريقها الطبيعى ، فناديت قومى وناديت الشباب ، وانبث جنود مصر الفتاة ، يدعون فى كل مكان ، أن على هؤلاء الذين يريدون الدفاع عن الحبشة ، أن يدافعوا عن مصر ، وهؤلاء الشجعان أن يبرزوا شجاعتهم فى مصر ، والراغبون فى التضحية ، أمامهم الميدان متسعا فى مصر . ولقد بدت هذه الدعوة ، فى وقت اندفعت فيه العواطف إلى مناصرة الحبشة وتأييدها ، بدت دعوة غريبة شاذة ، فأخذ الرأى العام يهجس بأنها دعوة مدسوسة ، وأن للإيطاليين فيها دخلا .. حتى لقد أشارت إلى ذلك ، مجلة «اللطائف

المصورة » إشارة صريحة ، على الرغم من خصومتى للطليان خصومة عنيفة ، ولعل القارىء قد لمحها فى كل سطر ، من سطور مرافعاتى وخطبى وأحاديثى ، ذلك أن الإمبراطورية الرومانية ، التى يريد أن يبعثها موسولينى ، إنما ترتكز فى مصر ، وموسولينى يريد أن يجعل البحر الأبيض بحيرة رومانية ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كانت مصر رومانية كذلك . وإذن فإيطاليا الجديدة ذات البرامج الاستعمارية ، هى خطر على مصر أى خطر ، يجب أن تتهيأ له مصر ، وأن تستعد ، وأن تكون منه على حذر ، على أن هذا لا يعنى مطلقا أن تنسى مصر أنها واقعة حالا فى براثن مستعمر آخر ، وأن عليها أن تعمل لفك أغلالها الحالية ، قبل أن تخشى أغلالا مستقبلة ، قد تُقَيِّدُ بها ، بالغة ما بلغت هذه السلاسل المقبلة من حيث الخطر والأهمية ، وما هى الوسيلة لانتزاع استقلال مصر إلا بانتهاز الفرص ، واستغلال الخلافات الدولية بين انجلترا وغيرها من الدول ، فمصر فى سنة ١٩٣٥ ، ما كانت تكسب قليلا أو كثيرا من معاداتها لإيطاليا ، وإظهار خصومتها العنيفة ، فى وقت كان الاستقلال فيه أثراً بعد عين والإنجليز يتحكمون فى كل شىء ، ويضغطون على العرش ، ويرفضون الدستور .

ولقد أدركت الأمة كل هذه الحقائق بعد حين ، فبدأت الأحزاب السياسية تنشط بعد تخاذل الوفد ، وتأييده لسياسة نسيم باشا المدمرة ، وخرج الأستاذ العقاد على سياسة الوفد والحكومة ، وواصل كتابة هذه المقالات الصادقة ، والتى ليست إلا تكرارا لما سبقته إليه مصر الفتاة ، أو بمعنى آخر ، ليست إلا وليدة روح مصر الفتاة ، روح الكفاح والمقاومة والاستبسال والإيمان ، وفى وسط هذا الجو عاودت مصر الفتاة نشاطها المادى والروحى ، فعاودت الصرخة صدورها بقوة ، وتقابلت مع الأستاذ العقاد فى منتصف الطريق وأفسح لى صدر جريدة روزاليوسف أسجل على صفحاتها روح مصر الفتاة ونشاطها . وإذن فقد بدأ تيار الحماسة نحو الحبشة يعود إلى مصبه الطبيعى ، وأعنى به القضية المصرية ، والدفاع عن استقلال مصر ، وهذه القلوب الفتية بدأت تتطلع باحثة عما تفعله من أجل مصر ، وأينعت تلك البذور التى غرسناها فى النفوس ، لا ، بل بدأت تثمر وتنضج ، حتى إذا بدأ شهر نوفمبر ، بدأت الحوادث تتوالى بسرعة ، فقد كانت حملة العقاد على سياسة الضعف فى أوجها ، وعاد دولة محمد باشا محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين إلى سياسة التعاون بين الأحزاب والائتلاف وتوحيد الصفوف ، وأقام اجتماعا فى ٧ نوفمبر شهده كل رجال الأحزاب ما عدا الوفد ، ولأول مرة عقد اجتماع سياسى فى يوم وليلة وزاد حاضروه على بضعة عشر ألفا ، جلهم من الشباب ، وشوهد رجال الأحزاب المختلفة يجلسون جنبا إلى جنب ، يكرمهم الشباب ،

ويهتف بأسمائهم فكان ذلك إيذانا بغليان الأفكار وإرادتها فى توحيد الصفوف ، استعدادا للكفاح . حتى إذا ما اقترب يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ، أعلنت مصر الفتاة عن اجتماع ضخم ، أخطب فيه باسم الجيل الجديد ، ويخطب معى سعادة محمد على باشا علوبة ، والأستاذ العقاد ، والأستاذ عبد الرحمن عزام ، ولقد كان معينا لمكان الاجتماع مسرح برنتانيا ، فطبعنا من التذاكر ضعف ما يسع من الحضور ، فإذا بها تنفذ فى دقائق ، وإذا بنا مضطرون أن نطبع من التذاكر ألوفا وألوفا ، وإذا بجموع الشباب تضغط على دار الجمعية ضغطا عظيما ، تطالب بشهود الاجتماع ، فإذا بنا ننقل الاجتماع إلى سراى آل لطف الله بالجزيرة ، كيما تتسع لهذه الألوف ، على الرغم من أن الوفد ، كان قد دعا إلى اجتماعه السنوى المعتاد ، وقد اضطر تمهيدا لإنجاحه أن يعلن تخليه رسميا ، أى فى الظاهر ، عن تأييد وزارة نسيم باشا ، فكان ذلك أول ثمرة لضغط الرأى العام ، وهكذا بلغ الغليان الفكرى أشده . على أن الشبان كانوا هم كل شىء فى هذه الحركة ، فهم الذين نشروا السخط ضد وزارة نسيم وسياسة الاستخذاء ، وهم الذين دعوا لتوحيد الصفوف . وإعلان سياسة الكفاح ، فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ، كانت القاهرة فى جو مكهرب ملبد بقوى غير منظورة ، وفى آخر دقيقة منعت الحكومة اجتماع مصر الفتاة ، بعد أن اتخذنا له كل المعدات ، على الرغم من سماحها بعقد اجتماع الوفد ، فسرت فى كل من وصل اليه الخبر ، روح سخط جديدة واستنكار شديد ، وخرجت جموع الطلاب من الجامعة تزحف نحو القاهرة ، هاتفة متظاهرة ، فاشتبك معها البوليس ، وكانت معارك فى قصر النيل ، وفى ساحة عابدين ، أطلقت فيها النار ، وأصيب عشرات من الجرحى ، وأحاطت الحكومة مكان اجتماعنا بصفوف متراصة من البوليس ، تحول بين الجموع وبين عقد الاجتماع وما إن هممت بالاقتراب من مكان الاجتماع وأخذت أتحادث مع بعض الضباط ، حتى صدر أمر البوليس بالاعتداء علينا ، فانهالت علىّ عصىُّ البوليس ولكماته ، وأُخذتُ إلى مركز البوليس ، وهكذا لم ينقض هذا اليوم العصيب فى حياة مصر دون أن آخذ منه بنصيب ، حقا إنه لنصيب تافه بضع كدمات وضربات عصى ، ولكنه نصيب على كل حال يعزينى اليوم ، وغدا ، وإلى الأبد ، أننى لم أكن فى هذا اليوم العاصف قعيد بيتى ، أو ممتطيا سيارة والجرحى تتساقط من حولى ، بل كنت فيه المجاهد الصغير ، الذى أخذ نصيبه من المعركة . ولم أتردد فى قبول اعتذار البوليس ، ساعة أن قدمه لى ، ولقد كان بودى أن يجرى تحقيق على يد النيابة ، وأن يعلم الرأى العام ما وقع ، ولكن الحوادث الدامية التى كانت تحدث من دقيقة إلى أخرى ، جعلتنى أنسى هذا الحادث ، أو أتناساه ، لأشتغل بما هو أهم

وأروع ، وفى نفس اليوم حدث اصطدام بين البوليس والجموع المحتشدة لدى بيت الأمة ، وقد أصيب فيه عشرات من الجرحى ، واقتيد إلى السجن مئات الشباب . وهكذا انفجرت روح الشباب ، وسرت هزة الكفاح فى أنحاء الوادى .

وكان اليوم التالى ١٤ نوفمبر ، هو بدء إعلان الثورة بمعناه الرسمى ، فقد انحدرت جموع الطلاب من الجامعة ، قاصدة القاهرة ، كما فعلت بالأمس فتصدى لها عند كوبرى عباس بعض أفراد من رجال البوليس الإنجليزى ، وفى دقائق قليلة أردوا بعض القتلى والمصابين من طلاب الجامعة ، وسقط عبد المجيد مرسى ، والجراحى ، وإبراهيم شكرى ، مات الأول سريعا وعاش الثانى أياما .. بعث فيها الحياة فى إخوانه وملأهم إيمانا وعزما ، أما الثالث فقد برئ من جراحه ، وظل حيا يعمل كما عمل دائما تحت لواء مصر الفتاة ، ليكون مثلا حيا على أثر مصر الفتاة فى هذه الحركة العتيدة ..

كان فى نفوس الشباب سخط ، .. وفى نفوس الشباب إرادة ، وفى نفوس الشباب أمل ، .. وبحث شباب الجامعة عن شعار يلخص حركته ويعمل بروحه ، .. بحث شباب الجامعة عن لواء يلتفون حوله ، ويسيرون فى ظله ، بحث شباب الجامعة عن المبدأ الذى يكافحون من أجله ، ويسقطون فى سبيله ويسجلونه بدمائهم ، فأسعفهم قادتهم من شباب مصر الفتاة بهذا المبدأ وذاك اللواء . أسعفهم شباب مصر الفتاة بالمبدأ السامى الذى يلخص لهم كل شىء ، سخطهم وعقيدتهم وإيمانهم وآمالهم .. أسعفهم شباب مصر الفتاة فهتفوا لهم «مصر فوق الجميع !!» . فإذا بالجموع تردد من أعماق أرواحها ، .. مصر فوق الجميع .. الله أكبر ، هذه هى مصر الفتاة تنتصر ، هذا هو إيمانها ، وهذه روحها ، هذا هو كفاح مصر الفتاة ، مصر فوق الجميع ، ذكرت فرجعت ، وفى دقيقة كانت شعار الحركة فى مصر كلها ، من الإسكندرية حتى أسوان ، فأخفتت كل صوت ، وقضت على كل روح سواها ، حاولت أن ترفع رأسها ..

وقاد الحركة فى عنفوانها طراف[1] ومحيي الدين وحماده ومكى وشكرى وشافعى وسعد وغيرهم من زهرة مصر الفتاة وقوادها الذين تغذوا بلبانها وامتزجت بدمائهم .. هؤلاء الذين قادوا هذه الحركة ، هم جنود مصر الفتاة ، وعندما مات الجراحى ، كانت آخر كلماته مصر فوق الجميع ، فسطر بدمه رسالة مصر الفتاة . وعندما حاول نسيم باشا أن

(١) نور الدين طراف . الطب ـ محيي الدين عبد الحليم . دار العلوم ـ حماده الناحل . الحقوق ـ محمود مكى الزراعة ـ ابراهيم شكرى . الزراعة ـ محمود شافعى . معهد التربية ـ كمال سعد . الزراعة
وهؤلاء جميعاً أعضاء فى مجلس جهاد جمعية مصر الفتاة قبل هذه الحركة

يُفزع الحركة برصاصه وسجونه ، أجابوه بكلمات مصر الفتاة ، وما السجن ، وما الموت ، وما الحياة فى ظل الذل ..

فتعاليم مصر الفتاة هى التى انتصرت ، وروح مصر الفتاة هى التى سادت ، وشباب مصر الفتاة هو الذى تزعم ، . وجمعية مصر الفتاة هى التى لبت إرادة الشباب والأمة بعد ذلك ، فنفذت ما رغبت الأمة فى تنفيذه ، وسافرتُ إلى أوروبا أنا وزميلى فتحى رضوان للدعاية لقضية مصر فى انجلترا وأوروبا ، لإسماع صوت الضحايا ، وصوت الشباب للدنيا بأسرها ، وفى أيام قلائل كنت أحزم أمتعتى ، وفى أيام قلائل كنت مسافرا إلى أوروبا ، وفى نفسى إيمان بالله ، وفى جيوبى مائتان من الجنيهات ، لا تكاد تكفى نفقات لسفر واحد من أغنيائنا يرغب فى النزهة ، ولقد جمعت هذه الجنيهات من اكتتاب عام فتح على صفحات الجرائد ، وأقبل عليه الناس رويدا رويدا ، وهكذا سيطرت روح مصر الفتاة على الموقف ابتداء من المقدمة وتدرجا مع الحوادث ، فما كان انفجار ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ بحادث مقطوع الصلة بجهود مصر الفتاة ، ففى مثل هذا اليوم من عامين سابقين على هذا التاريخ ، أى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ، قبض علىّ لأول مرة وزج بى الى السجن عقابا على صرختى الأولى ، والتى كان عنوانها : «يا شباب عام ١٩٣٣ ، كن كشباب سنة ١٩١٩ ، كن كهذا الشباب الذى أشعل الثورة فى وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة» فإذا كان الشباب قد لبى هذه الدعوة بعد عامين ، واتخذ شعارا لها ما أردت أن يكون له شعارا فماذا أستطيع أن أقول وأن أسجل ، إلا أن مصر الفتاة هى التى انتصرت فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

سفر وفد جمعية مصر الفتاة
إلى لندن وباريس وجنيف
١٢

تطورت الحوادث ، كما رأينا ، وشعرت الأمة بضرورة إرسال وفد للدعاية إلى أوروبا كما فعل مصطفى كامل وفريد من قبل ، وكما أوفدت مصر وفدها الكبير فى سنة ١٩١٩ إلى مؤتمر الصلح لكى يدافع عن القضية المصرية أمام الرأى العام العالمى عامة ، والإنجليزى بصفة خاصة ، لإطلاعه على الحقائق ومدى الظلم والاستبداد الذى تنزله انجلترا بشعب أعزل من كل سلاح ، وكيف تحول بينه وبين الحرية فى الوقت الذى تتشدق فيه بأنها نصيرة الحرية ورائدتها فى الدنيا كلها .

أحست الأمة بالحاجة إلى قيام هذا الوفد ، وراحت الأحزاب القديمة ، وعلى رأسها الوفد ، تتناقش فى كيفية تحقيق هذا الواجب وأظهرت كثيرا من التردد والإحجام عن تنفيذ المشروع ، بحجة أنه يحتاج إلى مال كثير قد يربو على بضع مئات من ألوف الجنيهات . فكانت هذه هى فرصة مصر الفتاة لتسطر صفحة جديدة من صفحات الجهاد بالاضطلاع بهذا الواجب الوطنى .

فقمت وزميلى الأستاذ فتحى رضوان بأكبر مغامرة قمت بها فى حياتى حتى اليوم ، لم يكن سلاحى فيها إلا الإيمان ، والإيمان أولا وأخيرا . فهذا المشروع الذى كان يحتاج إلى بضع مئات من الألوف ، فى نظر أحزاب مصر ، نفذناه نحن بما لا يتجاوز بضع عشرات من الجنيهات ..

وعندما غادرنا محطة العاصمة فى طريقنا إلى لندن لم يكن فى جعبتنا أكثر من مائة وعشرين جنيها ، أو فوق ذلك بقليل جدا . وقد كان هذا يبدو لوناً من ألوان الجنون أو العبث . أن يسافر شابان إلى عاصمة بلاد الإنجليز التى لم يسبق لهما أن زاراها من قبل ، وأن يكون سفرهما إليها فى صميم فصل الشتاء . وأن تكون مهمتهما هى القيام بدعاية ضخمة عن القضية المصرية وتمثيل الشباب المصرى . أو بالأحرى الشعب المصرى

بأكمله ، وأن لا يكون لديها من المال للقيام بهذه المهمة إلا مبلغ تافه . وصغير جدا لا يكاد يكفى نفقات الطريق .

وسوف تمتنىء دهشة إذا علمت فوق ذلك كله أن معرفتى باللغة الإنجليزية لم تكن تتجاوز ما يعرفه أحد طلاب المدارس الثانوية . بل إن عدم المران على استعمال اللغة الإنجليزية كاد أن ينسينى هذا القسم الضئيل الذى تعلمته منها . ومع ذلك . وبالرغم من كل هذه الظروف مجتمعة ، فقد جاءت الساعة التى احتشد فيها الشباب لوداعنا على محطة العاصمة . وقد خف رجلان من أكرم الرجال ليكونا فى وداعنا على المحطة ، وهما سعادة محمد على علوبة باشا والمرحوم محمد عبد القادر حمزة باشا صاحب البلاغ . وقد كان وداعا حافلاً ورائعا ألقيت فيه الخطب والكلمات . وارتفعت نداءات أبناء مصر الفتاة فى حماسة ارتجت لها أروقة المحطة وأرصفتها . وكان آخر هتاف رددته هذه الجموع هو صرختى عند تحرك القطار :

« نريد الحياة ــ من حقنا الحياة ــ وسوف ننتصر » .

وانطلق القطار بعد ذلك نحو عاصمة الانجليز وأبناء مصر الفتاة يهزجون نشيدهم المحبوب « اسلمى يا مصر » .

وبينما كان القطار يشق طريقة نحو الإسكندرية كان الشعب المصرى يطالع النداء الذى أذعته بمناسبة سفرى والذى أرى أن أثبته بنصه للذكرى والتاريخ .

من أحمد حسين إلى الشعب المصرى
عهد وميثاق

أيها الشعب المجيد ...

فى الساعة التى نحزم فيها أمتعتنا للسفر إلى عواصم أوروبا ، كيما ندافع عن القضية المصرية أمام محكمة الرأى العام الدولى ، وفى الساعة التى تخفق فيها قلوبنا لذكرى مغادرة الوطن العزيز الجريح ، أرى لزاماً على أن أعاهد الأمة على برنامجى ، وأن أطلع الرأى العام على آمالى وغايتى .

لسنا ندّعى أننا سنحصل على استقلال مصر ، وأننا سنحل القضية المصرية بمجرد ذهابنا إلى أوروبا ، ولسنا نجرؤ على القول بأننا سنعود إلى مصر وفى جعبتنا معاهدة تحقق المطالب المصرية والأمانى القومية .

لا .. لسنا ندّعى شيئا من ذلك فإن القضية المصرية ستحل هنا فى القاهرة وليس فى أوروبا ، ستحل القضية المصرية بأيدينا نحن المصريين وليس بأيدى الإنجليز ، ولا بأيدى أى نوع آخر من المخلوقات ، سوف تحل القضية المصرية عندما يؤمن المصريون بأنفسهم وقدرتهم على الكفاح والاستبسال فى سبيل النصر- سوف تحل القضية المصرية عندما يمتلئ المصريون بالعزم والجرأة والشجاعة ، عندما يسترخصون الحياة ، ويحتقرون المناصب ويطأون أعراض الحياة ، سوف تحل القضية المصرية عندما لا يهاب الشباب المصرى أعماق السجون ولا طلقات الرصاص ، ولا صنوف الحرمان ، سوف تحل القضية المصرية عندما نقف صفا واحدا كالبنيان المرصوص أمام العدو المشترك ، عندما نفهم دسائسه وأساليب استعماره ، وعندما نحتقر مؤامراته وصنوف اغرائه ، سوف تحل القضية المصرية عندما تعرف كيف نطهر أنفسنا ، ونصونها من العبث والإسراف فى الشهوات والملذات ، عندما نتخلق بالأخلاق الحسنة ونعتنق الثبات ونتعلم الصبر ونصمد للشدائد ، سوف تحل القضية المصرية عندما نعرف كيف نقاطع كل دخيل ، وكل ما هو أجنبى ، وكيف لا نأكل إلا من طعام بلادنا ، وكيف لا نلبس إلا من صنع بلادنا ، ولا نحترم إلا ما كان مصريا صميما من أعماق المصريين ، سوف تحل القضية المصرية عندما نرفع الرؤوس افتخارا واعتزازاً بقوميتنا ، وثقة واعتدادا بأنفسنا ، عندما يحب بعضنا بعضاً ونترك الحسد والبغضاء والحقد ونتعلم التسامح والوفاء والاخلاص ، وأخيرا سوف تحل قضيتنا عندما نعرف كيف ننظم صفوفنا وكيف نعد أنفسنا بحيث نكون أقوياء ، ونكون أقوياء أولا وأخيراً ، فالحياة صراع وجلاد ينتصر فيها القوى الصالح ويندحر فيها الضعيف الطالح ، لا تفاهم فى الحياة بين السيد والمسود ، لا تفاهم بين القوى والضعيف ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فقضيتنا ستحل بأيدينا نحن ، والاستقلال يؤخذ ولا يعطى ، والحرية تحيا بالدم ويقتلها الجبن والكسل والتفرق .

لا أيها الشباب المجيد ، لا يا سلالة الفراعنة والعرب ، إنما أهيب بك أنت أن تحقق استقلالك وحريتك ، أهيب بك أنت أن ترغم الإنجليز على احترامك وصداقتك ، وإذا كنا نسافر اليوم كيما نرفع الصوت عالياً فى أنحاء العالمين بما يقع علينا من ظلم واعتداء ، فليس ذلك إلا سلاحا من أسلحة الكفاح ، وليس هو كل سلاح .. إذا كنا نسافر فما ذلك إلا لنصرخ فى وجه الانجليز أن مصر لم تغفل عن حقوقها . ولنطالب العالم المتمدين أن يكون منطقيا مع نفسه ومع موقفه فى الحرب الحبشية الايطالية فيعير مصر وقضيتها ما يستحقان من رعاية وعطف ، فإذا كانت الحبشة تستحق الحرية فإن مصر تستحق المجد ، إذا كانت دويلات العالم الصغيرة تتمتع بسيادتها الكاملة واستقلالها العتيد ، فإن مصر معلمة الإنسانية بأسرها !

مصر التى قادت الدنيا طوال مئات القرون .. مصر التى أخرجت الأديان جميعا وحمت الأديان جميعاً .. ومجدتها جميع الكتب السماوية .. مصر التى حاربها الزمان فارتد وانهزم .. وحاربتها الويلات والإحن فخرجت مصر من المعركة ظافرة أشد مضاء وأكثر لمعانا ومجدا .. مصر التى قامت منذ نيف ومائة عام فهزت الدنيا هزا وشيدت إمبراطورية تزرى بالإمبراطوريات ! وأخيرا مصر التى تتزعم الدول العربية اليوم وكعبة الإسلام ، من حقها أن تعيش سيدة نفسها .. من حقها أن ترفع الرأس عالية وأن تتبوأ مقعدها تحت الشمس فتكون كما كانت دائما منارة وهدى للعالمين .

لا سلام للعالم إلا إذا أعطيت الشعوب الضعيفة حريتها .. لا توازن بين الأمم إلا إذا استقل كل شعب والويل ثم الويل لأوروبا إن لم ترحم الأمم الضعيفة وتتركها تعيش فى سلام .

تلك هى الرسالة التى نحملها معنا لنبسطها أمام العالم باسم مصر .. وسيستمع العالم لنا وسيشد أزرنا الكثيرون ، وهذا هو كل الذى نطمع فيه .

ونحن إذ نسافر من مصر لا ندرى ما الذى تخبئه لنا الأقدار ، ولكن الذى نؤمن به أننا سنجاهد من أجل مصر حتى النفس الأخير ، سنجاهد من أجل مصر حتى ولو لم نجد القوت الذى نتبلغ به ، سنجاهد من أجل مصر وهذا عهد وهذا قسم أن نفنى من أجل مصر ومجدها ، وأن نكرس لها شبابنا وحياتنا وأرواحنا ، إنه لعهد ، وإنه لقسم ، أن نكون للمصريين جميعاً وليس لحزب من الأحزاب ، لا وليس لأشخاصنا ، إنه عهد ، وإنه لقسم ، أن نحب المصريين جميعاً ، وأن نخلص للمصريين جميعاً ، وأن نمجد المصريين جميعاً .

أيها الشعب المصرى الخالد ...

إن أكن شابا ، وإن أكن صغيرا ، الا أن إيمانى وإخلاصى يحتمان علىّ أن أتوجه اليكم بهذا النداء فى هذه الساعات العصيبة ، وهو أنه لن ينجينا إلا الائتلاف والاتحاد . كونوا صفاً واحدا ، وليحب بعضكم بعضا ، انسوا الخلافات والأحقاد ، تصافحوا وتعانقوا ، واسدلوا ستارا على الماضى ، وأنظروا إلى النسر المحلق فى الفضاء ، والذى يرفرف بأجنحته فتدوى فى أنحاء العالمين .. إنها مصر .. مصر العزيزة الغالية .. إنها تناديكم أيها الأبناء انها تصرخ بكم أن تتصافحوا أيها الإخوان .

فماذا أنتم قائلون .. كأنى بكم وليس لكم إلا شعار واحد يهز الأرضين :

المجد لمصر ، ومصر فوق الجميع !!

(انتهى)

* * *

ما كانت هذه الصرخة الصادقة لتذهب مع الريح ، فلم يكد يمضى على سفرنا بضعة أيام ، حتى تألفت الجبهة المنشودة ، واتحدت الأحزاب ، وعاد الدستور بالتالى فورا ، وكان ذلك بدءا موفقاً لهذه الرحلة الفذة فى تاريخ الكفاح المصرى .

وبارحت النيل ميناء الإسكندرية فى يوم الخميس ٥ من ديسمبر ، وكنا فى ابتداء شهر الصوم ، وقد آليت على نفسى أن لا أفطر فى المركب أو فى لندن ، إلا مضطرا ومكرها ، وبعد أن يحاط بى ويصبح لا مناص لى من الأفطار ، وأنا أعلم كل العلم أن الإسلام لا يطالب أتباعه بشىء من ذلك ، فقد أباح لهم الافطار لمجرد السفر القريب فضلا عن السفر البعيد الشاق ، ولقد أفطر الرسول صلوات الله عليه فى سفره ليكون ذلك سنة وقدوة للناس من بعده . ومع ذلك فقد شعرت بحاجتى إلى الصوم ، ورأيت فى ذلك أسلوبا من أساليب الاستعداد الروحى والنفسى . فقد كان إيمانى هو رأسمالى فى هذه الرحلة ، وكنت شديد الحرص على كل ما من شأنه تقوية إيمانى ، وليس هناك ما يقوى الإيمان أكثر من أن يشعر الإنسان أنه يتقرب إلى ربه بالتقشف والاحتمال والصبر .

وسارت الباخرة تشق مياه البحر الأبيض ، ولم يمض يوم على بدء رحلتنا حتى اكفهر الجو ، وأظلمت الدنيا وهاج البحر وماج ، وفتحت السماء أبواب أنهارها وبحارها ومحيطاتها ، وسارت النيل فى هذه المياه المتلاطمة من تحت ومن فوق ومن اليمين والشمال ، واعترانى الدوار فاستلقيت على أحد الكراسى على ظهر المركب ، بالرغم من البرد القارس ، لأن ذلك كان هو السبيل الوحيد لكى أشعر بشىء من الراحة .

ووصلنا إلى مرسيليا أخيرا ومنها إلى باريس ، ولم نكد نصل إلى باريس ، ونحاول أن نستقر بها ، وأن نرسم خطة للعمل ، حتى جاءت الأنباء من مصر تعلن ائتلاف الأحزاب المصرية وتأليف الجبهة الوطنية ، وأن حكومة نسيم باشا ومن خلفها انجلترا لم يسعها إزاء ذلك إلا أن تخضع لمشيئة الأمة وأن تعلن عودة الدستور ، بعد أن سحب الإنجليز اعتراضهم على إرجاعه ، فملأتنا هذه الأنباء بالقوة والحماسة وشجعتنا على المضى فى مغامرتنا وجهادنا ، أشد قوة وعزما من ذى قبل ، فقررنا أن نسافر إلى لندن على الفور لنكافح من أجل الاستقلال بعد أن عاد الدستور .

في عاصمة الإنجليز

١٣

وصلنا إلى عاصمة الإنجليز . فاستقبلتنا بضبابها الكثيف وبردها القارس وثلجها الدائم ، ووجدنا أنفسنا ننزل من القطار إلى محطة فيكتوريا الشهيرة .

ثم لم نلبث أن استقر بنا المقام فى أحد فنادق لندن ، كأننا ذرة من الذرات بين رمال الصحراء أو قطرة من الماء وسط مياه المحيط . ولكن العلم الحديث قد أثبت أن هذه الذرة الصغيرة تنطوى على قوة كامنة جبارة تستطيع أن تدك الجبال وتذيب الحديد . وقد كان ذلك شأننا !! فبالرغم من ضآلة أجسادنا . وتفاهة ما فى جيوبنا من مال . وبالرغم من وحدتنا فى هذا الخضم البشرى العظيم كانت قلوبنا عامرة بالإيمان . أو بالأحرى بهذه القوة الفتاكة الرهيبة التى تسيطر على الكون وتديره وتحركه .

وكان أول همنا أن نتصل بالدكتور مصطفى الوكيل الذى كان قد سبقنا إلى لندن مبعوثا من لدن وزارة المعارف للحصول على الدكتوراه فى الرياضة البحتة من جامعة لندن . وقد كان الدكتور مصطفى صديقا حميما لنا وعضوا من أعضاء مصر الفتاة المخلصين . وأقول كان صديقا حميما وعضوا من أعضاء مصر الفتاة لأنى أتحدث عن التاريخ وأذكر الحوادث بترتيبها ، لأن مصطفى الوكيل لم يلبث بعد ذلك أن أصبح كل شيء فى مصر الفتاة ، وكل شيء بالنسبة لى ، لم يلبث مصطفى الوكيل أن صار أملى فى الكفاح والجهاد والحياة ، لا بالنسبة لمصر الفتاة كحزب أو جماعة ، ولكن بالنسبة لمصر كلها والعروبة ، بل والشرق الإسلامى بأكمله .

قابلنا الدكتور مصطفى الوكيل ، وانضم إلينا ، وأصبحنا ثلاثة . وسرعان ما أثبت لنا الدكتور مصطفى أنه لم يكن فردا ، بل كان جمعا ، بل كان أمة بأسرها . وبدأ عمله كدليل لنا فنقلنا إلى فندق رخيص اختاره لنا قبل وصولنا ، ولم يكن الفندق يكلف الواحد منا أكثر من أربعة جنيهات فى الأسبوع تقريبا ، فأطمأن خاطرنا من هذه الناحية . وكان علينا قبل أن نبدأ حديثنا مع الإنجليز ، أن نتحدث إلى المصريين فى بلاد الإنجليز ، ليكونوا عونا لنا فيما نحن بسبيله ولكى نتخذ منهم ردءاً لنا فى جهادنا وكفاحنا هناك فلم يكن بقدرتنا أن نخطو خطوة واحدة ، إلا بعد أن نطمئن إليهم ويطمئنوا إلينا .

وفى ٢٠ ديسمبر ، أى بعد خمسة عشر يوما من مغادرتنا للإسكندرية ، استطعنا أن نعقد أول اجتماع لنا فى عاصمة الإنجليز ، لنتحدث فيه إلى الطلاب المصريين . وقد أقيم الاجتماع فى مطعم فلوزنس ، ورأسه ذلك المصرى الذى اتخذ من عاصمة الإنجليز وطناً ثانياً وهو الأستاذ قرياقص ميخائيل ، وحضر الاجتماع عدد كبير من أعضاء البعثات المصرية فى مختلف الجامعات الإنجليزية ، بحيث أعتبر الاجتماع من أنجح الاجتماعات المصرية التى شهدتها عاصمة الانجليز .

وإليك نص خطابى الذى ألقيته فى هذا الاجتماع ، والذى يصور لك حالة مصر فى هذه الأيام ، وروح الكفاح التى كانت تغمرها ، والإيمان الذى كان يعمر قلوبنا .

إخوانى الأعــزاء

فى كفاحى الطويل الذى بدأته منذ خمس سنوات ، عندما ناديت بمشروع القرش وكنت طالبا فى كلية الحقوق .. منذ ذلك الوقت الطويل أيها الإخوان ، لم يمض أسبوع دون أن ألقى خطابا .. بل قد لا يمضى يوم واحد لا أكون فيه وسط جماعة من الجماعات أشرح مبادئ مصر الفتاة ، وأدعو لها ، وأتكلم عن الوطنية وبرنامجها . ولكن صدقونى إن اجتماعا من هذه الاجتماعات ، لم يشعرنى بخطورته ، ولم يملأنى هيبة له إلا هذا الاجتماع ، فما هو السر فى ذلك ، وما هو تعليله ؟ لا شىء سوى أننا بعيدون عن الوطن العزيز ، وأن بيننا وبينه ألوفا من الأميال ، ما بين بر وبحر ، وسهول وجبال . ولأننا نعيش فى جو مكفهر بالعواصف ، والثلوج ، والأمطار ، والضباب .. ولأننا نقيم فى عاصمة الإمبراطورية الإنجليزية الضخمة التى جئنا نطالبها بالحرية والاستقلال ، فلا عجب إذا أحسسنا ونحن فى قلبها بشعور جديد يخالف هذا الذى اعتدناه .

الحق أيها الإخوان ، أن لكل هذه العناصر أثراً إلى حد ما ، فى جعل هذا الاجتماع يمتاز عن مئات الاجتماعات التى نعقدها .. على أن العنصر المهم الذى يُكسب هذا الاجتماع خطورة ، هو الأفراد الذين يتكون منهم ، فقد اعتدنا فى مصر أن نخطب بعض أفراد الشعب . وقد نضطر أنفسنا اضطرارا للهبوط إلى مستواهم فى التفكير .. وقد نخطب شيوخا مفكرين من رجال السياسة ، فتبرد عواطفنا ، ونصطنع الحكمة والتدين اصطناعا ، وأخيرا قد نخطب وسط شبان ثائرين ، فتجرفنا حماستهم وتلقينا فى لجة من الثورة . أما اجتماع الليلة ، فقد جمع بين حماسة الشباب وتعقل الشيوخ وإيمان العامة . فكل قوى مصر المختلفة ، تتركز فيكم أنتم أيها المجاهدون الذين جئتم إلى هنا لتقاسوا الحرمان ، والأهوال من أجل تحقيق مثل أعلى لأنفسكم ، ولأوطانكم أولا وأخيرا . ليس فيكم إلا من كان نابغة فى فنه ، فبعثت به الحكومة إلى هنا ، أو مغامرا مِقداما متطلعا للمعالى ، فجاء من تلقاء نفسه . وأنتم تعيشون فى بيئة خلقت المجد خلقا . تعيشون وسط شعب لا يملك الإنسان إلا أن يبدىَ اعجابه بمزاياه العظيمة ، بالرغم من كل ما بيننا من خصومة ونضال . فجمعتم بذلك بين نبوغ المصريين وعبقريتهم ، ومزايا الانجليز وصفاتهم العالية . ولهذا ستعودون إلينا لتكونوا قادة ، ولتكونوا

زعماء . ولترتفعوا فى مصر بمستوى الإدارة والحكم . والسياسة والاقتصاد والأخلاق . وسوف تكونون نواة مصر الفتاة الحقة التى تريد لمصر مجداً تضيق به الدنيا بأسرها ..

ماذا تريدون أن تسمعوا

وبعد أيها الإخوان ماذا تريدون أن تسمعوا منا ؟ أتريدون أن أحدثكم عن بلادكم العزيزة ؟ قائلا إن النيل يجرى عذبا رقراقا تجرى فوق صفحاته الزوارق كالأعلام ؟ وفى طياته الذهب والثروة .. ويحمل لمصر فى كل عام الخصب والنماء والسعادة ؟ أى والله إنه لكذلك .. وهل تشكون فى النيل وفى وفائه .. وهل تشكون فى النيل وفى عطفه . ونحن الذين نعيش فى فيض كرمه وظلّ ثراه . منذ عشرات الألوف من السنين .. أم تريدوننى أن أحدثكم عن السماء الصافية . والشمس المشرقة ؟ .. أم أحدثكم عن نسيم الأصيل الذى طالما أنعش أرواحكم ونفوسكم المتضجرة من حرارة النهار .. أم أحدثكم عن الأهرام الخالدة رمز المجد والعظمة ، وناقوس اليقظة فى كل عصر وأوان ؟ . أم أن أحدثكم عن بلادكم بلدا بلدا . وقرية قرية ؟ أم تريدون أن نتذاكر سويا تاريخ مصطفى وفريد وسعد العظيم وثروت . ؟! لا .. انكم لا تريدون أن تسمعوا منى حديثا فى هذه الناحية . لا زهدا فى الحديث ، ولكن لأنه حديث الأرواح ، والأرواح تتناجى بغير الكلام ، فإن مجرد وقوفى بينكم . وأنا القادم حديثا من مصر . يعيد إلى ذاكرتكم كل هذه المناظر الحبيبة إلى نفوسكم . فيختار كل منكم ما يحلو له من ذكريات .. ويستلهم الخيال هذه الصورة التى يعشقها أكثر من غيرها . ويحن إليها حنين الطفل إلى أمه .

مصـــر العـــاصفة

أفتريدون إذن أن أحدثكم عن مصر العاصفة ، التى تقرأون عنها فى الجرائد ؟ مصر التى قامت شبابا وشيبا تدافع عن كرامتها المهدرة ، واستقلالها المجروح ؟ مصر التى التأمت ساعة الخطر . فأدهشت الدنيا بأسرها . وجعلت الإنجليز يعملون لها حسابا وأى حساب ؟ مصر التى قام شبابها الغض يقابل الرصاص من جديد . ويهتف فى أنفاسه الأخيرة «مصر فوق الجميع» ؟ شباب مصر الذى اندفع يوحد الصفوف وينظمها . ويعد أساليب الكفاح ؟ ولكنكم تطالعون الجرائد فى كل يوم . وهى تحمل دائما عن مصر كل جديد وتطالعون الجرائد المصرية وهى تمدكم بكل تفصيل .. وماذا حدث فى مصر غير ما يتوقعه أى واحد منكم ؟! يقول البعض إن ما حدث فى مصر لم يكن متوقعا وأنه جاء مفاجئا .. ولكن هؤلاء الذين يعتقدون ذلك أحرى بهم ألا يكونوا مصريين . أو أن يكونوا جاهلين بتاريخ مصر . وهل كانت ثورة ١٩١٩ ثورة متوقعة ؟ ! هذه الثورة التى هزت انجلترا هزا والتى أيقظت الشرق بأسره هل كانت متوقعة من قبل ؟ أو لم يخيل للإنجليز أنهم فرغوا من القضية المصرية . وأن الحماية التى كانت علاقة مؤقتة يجب أن تنظم بحيث تصبح علاقة دائمة . تمهيدا لضم مصر للتاج البريطانى .. ؟ ثورة سنة ١٩١٩ وما أدراكم ما هى أيها الأخوان . أو لم تتألف المظاهرات

من الوزراء والمستشارين ؟! هل كانت انجلترا تتوقع ذلك ؟! هل كان العالم بأسره يتوقع ذلك ؟! لا .. ولكنها مصر الخالدة ذات الحيوية الكامنة[1] ..

هذه الحيوية الكامنة هي التى ثارت فى الأيام الأخيرة عندما خيل للانجليز أن مصر لم تعد فى عالم الحياة . وأنهم يستطيعون أن يتصرفوا بمصيرها كما يشاء لهم الهوى . وأنهم يستطيعون أن يستردوا ما لمصر من حقوق كانوا هم أول من اعترفوا بها فيحولون بينها وبين الدستور . ويحولون بينها وبين أن تدافع عن نفسها .

عدوان الإنجليز على مصر

خيل للإنجليز أن الشبان قد امتلأوا جبناً وفزعاً . وأنهم قد فرغوا إلى شهواتهم . فإذا بهم يزأرون ويزمجرون . وإذا بهم يستقبلون الرصاص ويكللون الأرض بدمائهم . ليسجلوا على الإنجليز العدوان والاستبداد .

وخيل للإنجليز أن الموظفين قد استناموا وحرصوا على مناصبهم . وعلى طعامهم . فإذا القضاة وأساتذة الجامعة فى طليعة الثائرين الناقين .

وأخيرا خيل للإنجليز أن الهوة قد اتسعت بين المصريين فلن يتقابلوا أبدا وأنهم قد نجحوا فى تمزيق الوحدة الوطنية . فإذا بالمصريين فى عشية وضحاها يتقابلون بنعمة الله إخوانا وإذا بالنحاس وصدقى ومحمد محمود وحافظ رمضان وعلى الشمسى وعبد الفتاح يحيى يعلنون للملأ بأسره أن مصر تريد . وإذا أرادت مصر فإن إرداتها من إرادة الله . لأنها كانت دائماً الأرض المقدسة التى تحمل نعمة الإله .

هاجت مصر وماجت . ولم يكن هياجها كما خُيل للانجليز . أو لبعض المصريين ، من أجل دستور يرد أو من أجل وزارة تسقط ووزارة تجيء . ولكن مصر هاجت لأنها تريد استقلالاً كاملاً ، وحرية مطلقة . تريد أن تتمتع بحقوقها فى الحياة فى الوقت الذى يعلنون فيه حمايتهم للأمم الضعيفة وإحترامهم للعهود والمواثيق . وفى الوقت الذى يدافعون فيه عن سلامة الحبشة واستقلال الحبشة ، يطالبوننا بأن ننسى استقلالنا ويستخدمون أرضنا وهواءنا وأموالنا . من أجل الدفاع عن هذا الاستقلال .. ونحن . نحن أيها المواطنون ، أو ليس لنا استقلال نحن أيضا ؟!. أو ليست لنا كرامة نحن أيضا ؟!. فأية مهانة أكثر من أن يطلب منا أن ندوس كرامتنا كيما ندافع عن كرامة الآخرين !! أى مهزلة هى ، أن يطلب منا أن نترك أرضنا للاستعمار والاحتلال من أجل الدفاع عن استقلال الآخرين .

من ذلك الغر الذى يخيل له أن مصر ما كان يمكن أن تثور على هذه الأوضاع المقلوبة وتحنق ؟!

---

(١) كان الخطيب يستعرض فى هذا الموضع صورا من الحيوية المصرية مأخوذة من تاريخ مصر وقد سبق سردها فى أكثر من خطبة ماضية ولذلك فقد استغنى عن اثباتها هنا .

من ذلك الجاهل المفتون الذى يعتقد أن مصر لا تفهم ما يجرى حولها ! ! لم يكن عجيبا أيها الإخوان أن تثور مصر ، بل كان العجيب غير ذلك . لم يكن عجيبا أن يتمرد المصريون بل كان العجيب أن لا يفعلوا ذلك . وهل يعوزكم الدليل على قوة المصريين وعلى شجاعتهم التى لا نظير لها فى الدنيا بأسرها .. هل تريدون الدليل الذى يجعلكم ترفعون رءوسكم افتخاراً واعتزازا بمصريتكم ؟.. هذا هو الذى حدث فى مصر إنه أعظم برهان وخير دليل .. فقد وقعت الثورة فى مصر فى وقت تقود فيه انجلترا العالم ، جاءت فى وقت يرابط فيه الأسطول الإنجليزى بأسره فى ميناء الإسكندرية ، بينما كان يخيل للإنجليز أنهم يخيفون مصر بإرسال بارجة أو بارجتين ، فلما امتلأت مصر بالجنود البريطانية ، ولما وفدت الأساطيل الإنجليزية كلها إلى مصر ، قامت مصر تدافع عن كرامتها ، ولا سلاح لها إلا أن تموت من أجل حقها ، ولا سلاح لها إلا دم يجرى فى عروق أبنائها ناراً ، وهم على استعداد لإراقته من أجل بلادهم .

انتصار مصر

ولقد هزت مصر انجلترا هزا ، ولقد أخرجت مصر مركز انجلترا إحراجا ، ولقد اضطرت انجلترا أن تتراجع واضطرت انجلترا أن تسحب اعتراضاتها ! وإذا كان المصريون هم أول من صاح «يسقط هور» فإنه لم تمض بضعة أيام على هذه الصيحة حتى سقط هور سريعا ، ألم أقل لكم إن إرادة مصر من إرادة الله .

ائتلفت الأحزاب فى مصر إذن ، وعاد الدستور بالتالى ، ووقفت مصر جبهة واحدة تطالب بالاستقلال الكامل وإلغاء الامتيازات وتعزيز الدفاع الوطنى والدخول إلى عصبة الأمم ، وسوف تدرك مصر كل هذه المطالب بالإيمان والعزيمة ، وسوف تدركها حتماً إن اليوم أو غدا .. سواء رضيت انجلترا أو لم ترض .

دور الشباب فى الحوادث المصرية

بقى أن نعرف من هو مؤسس هذه الحركة الأخيرة ، ومن هو مشعلها . بقى أن نعرف من هم الذين ظفروا لمصر بكل هذا الانتصار ، وكل هذا الربح . أهم رجال السياسة والحكمة واللباقة ، أم رجال الإيمان والتضحية والتهور .. إنهم الأخيرون أيها السادة ، إنهم الشباب الذين قادوا الموقعة ، وانتصروا .. إنهم الشباب الذين أملوا إرادتهم فى مصر وانجلترا ، فحق لنا الانتصار .. إنهم الشباب الذين ماتوا وهم يصرخون «مصر فوق الجميع» فهتافا للشباب وإكبارا !

هذه حقيقة يجب أن تسجل كيما نرسم برنامجنا على ضوئها ، هذه حقيقة يجب أن تستقر فى كل نفس كيما نبنى المستقبل على أساسها ، فالشباب اليوم هو كل شىء ، ولا نجاة لمصر إلا أن تسلم مقاليدها للشباب . والشباب هو وحده الذى لم تلوثه المطامع والشهوات ، وهو وحده الذى يرغب فى الجهاد من أجل الجهاد ، وهو وحده الذى يموت سعيداً مادامت آخر كلماته المجد لمصر . ومصر فى حاجة إلى كفاح طويل ، وتضحية ، وقوة ، والشباب هو وحده القادر على الكفاح ، لأن قناته

لم تزل صلبة ، وهو وحده القادر على التضحية ، لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه أو يحرص على اقتنائه ، لا أولاد ولا مناصب ولا رتب ولا جاه ، والشباب هو وحده الذى يقدر على القوة لأنه قوى بإيمانه ، وقوى باعصابه ، وعضلاته ، وهو القادر لأنه فى كل يوم يزداد قوة بعكس الشيوخ الذين ينحدرون إلى هوة الفناء والضعف .

مصر الفتاة والكفاح الجديد

وتلك هى مصر الفتاة أيها الإخوان .. إنها الشباب ، وإنها الكفاح والتضحية والقوة وهذه هى القواعد الثلاث التى ترتكز عليها حركتنا الجديدة فقد انقضى الوقت الذى كان يخيل للمصريين أن كل ما يرونه هو استقلال محدود فى حدود الإمبراطورية البريطانية ، انقضى الوقت الذى كان يخيل فيه للمصريين أن قدرتهم على مجابهة الإمبراطورية الإنجليزية قدرة محدودة . وأننا إن شئنا الاستقلال أو الحرية فلا سبيل لنا إلا الاستجداء والاستخذاء والتمسح بأعتاب الإنجليز .. لا ، أيها الإخوان ، لقد انقضى ذلك الوقت ، وقت الجهل والخمول ، فإن الاستجداء لا يليق إلا بالشحاذين لا بشعب عريق يريد الحياة ، والتمسح بالأعتاب والاستخذاء لا يليق إلا بالعبيد ، لا بشعب حر سوف يقود العالمين . ومتى كان الاستخذاء والضعف سبيلاً للحصول على الاستقلال ؟! متى كانت هذه هى أسلحة الجهاد والكفاح ؟! لا .. أيها السادة إنما ينال الحرية من يشترى الحرية ، والحرية تشترى بالدماء ، وينال الاستقلال من يحقق الاستقلال ، والاستقلال يُحقق بجلائل الأعمال . أى دولة من دول أوروبا قد اشترت حريتها واستقلالها بغير الحديد والنار ؟ وبغير الدم والتضحية ؟؟

أما بولندة ، والتى تقاسمتها ثلاث دول عظام ، فقديماً قال عنها نابليون إن حدودها سترسم حيث يسيل الدم البولونى .

وأما ألمانيا ، فقد قال عنها بسمارك إن وحدتها ستحقق بالحديد والنار ، لا بمناقشات فى البرلمان .

وأما إيطاليا ، فقد كافحت وحاربت حتى انتصرت .

وأما تركيا ، فقد ظفرت عندما عرفت كيف تطرد الغاصب من بلادها .

فنحن أيضا لا سبيل لنا إلى الحرية والاستقلال ، إلا بأن نكافح ، وأن نقوى ، وأن نجاهد ، وأن نضحى ، وأن نعمل ، وهذا هو كفاح مصر الفتاة . نريد أن نحصل على حريتنا ، وأن لا نبخل بأى ثمن فى سبيل هذه الحرية . نريد أن نحصل على استقلالنا بأن نعمل فى كل يوم من أجل هذا الاستقلال . وذلك بأن نبنى فى كل مكان ونعمل فى كل مكان .

برنامجنا الإنشائى

وفى الميدان الاقتصادى ، نريد أن نحصل على استقلالنا الاقتصادى ، فلا نلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا نأكل إلا طعاما مصريا ، ولكى يتحقق ذلك نريد أن نشجع المصانع المصرية ، والصانع المصرى ونريد أن نؤسس الشركات والبنوك الصناعية لخلق المصانع . وفى الإجمال ، نريد أن نقضى على الأمية ، وأن نعلم الفلاحين ، وأن ندخل النور والسعادة إلى القرية المصرية ، وأن نعيد

بناءها . ونريد أن نصلح مناهج التعليم ، كما نخرج رجالاً وجنودا عاملين ، وليس كما نفعل الآن نخرج متعطلين . ونريد أن نتطور بالزراعة ، وأن نضاعف كميات الأراضى المنزرعة ، وأن نستغل كنوز الثروة المصرية ، وأن نخرج من مصر الحديد ، وأن نولد الكهرباء . ونريد أن نشجع التأليف والاختراع والأبحاث ، وأن نجند الشعب فى الميادين الرياضية . ونريد أن ننظم المدن المصرية من جديد ، وأن نُعَوِّدَ الشعبَ النظافةَ ، ونريد أن نعيدَ السلامَ إلى الأسرة ، وأن نقوىَ دعائمها وأن نشجع الزواج .

وفى كلمة أيها الإخوان : نريد أن نبنىَ استقلالَ مصر بأيدينا ، وعزائمنا ، ولكن دون تنفيذ هذا البرنامج وغيره عقبات وعقبات ، هى قيود الاستعمار والامتيازات ، وكل من الاستعمار والامتيازات يجب أن يُحطم سريعا ، فلسنا نطيق بعد اليوم ، أن تكون إنجلترا محتلة لمصر ، وأن نرى فى القاهرة والإسكندرية جنودا إنجليزية ، تخترق الشوارع المصرية . ولسنا نطيق بعد اليوم ، أن نرى أجنبيا يرفع الرأس شامخا بأجنبيته ، ويحتمى بالامتيازات والمحاكم المختلطة ، فلا أقل من أن يتساوى الأجنبى والمصرى فى بلاد المصرى ، ويكون الأجنبى بذلك ممتازا عنه فى أى مكان آخر فى الدنيا بأسرها حيث لا يتمتع الأجانب بحقوق الوطنيين . فالامتيازات يجب أن تلغى حالاً ، والمحاكم المختلطة يجب أن تدك من أساسها ، والاحتلال البريطانى ، وكل تدخل بريطانى فى الشؤون المصرية الداخلية ، يجب أن ينتهى حالاً وأن يحل محل ذلك كله تعاون ودى صادق بين البلدين ، فى شبه معاهدة دفاعية هجومية ، وبهذا يكسب الإنجليز صداقة المصريين ، وصداقة المصريين ليست بالشىء الذى يستهان به ، بل إنها ألزم للإمبراطورية الإنجليزية من كل قواتها فى طريقها إلى الهند . لأن مصر إذا انضمت إلى أعداء إنجلترا ، فى أى حرب قادمة ، فإن هذا معناه أكبر خطر يهدد انجلترا ..وإذن فنحن نريد السلام بيننا وبين الإنجليز ، نريد التعاون والصداقة ، ولا تعاون ولا صداقة إلا إذا أُعطينا حريتنا كاملة ، وأُطلقت أيدينا فى استقلالنا ، وفى زيادة جيشنا ، بحيث يتناسب مع مطالب مصر والدفاع عنها .

وسائلنـــا

هذه هى مصر الفتاة أيها السادة ، وهذا هو برنامجنا ، فإذا سألتمونى وما هو الطريق الذى نسلكه للوصول إلى كل هذه الغايات ؟ فإنى أجيبكم : إن الطريق هو الإيمان ثم العمل .

أما الإيمان فهو أن تؤمن بالله ، وأن تخلص له ، وأن تعتقد بقدرته ورعايته للمؤمنين فنستمد منه العون والتأييد فطوبى لهذا الذى يكون الله فى عونه ، فالإيمان بالله هو رأس مال الكفاح ، لأن الذى لا خير فيه لخالقه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه .

ومن إيماننا بالله نستمد إيماننا بأنفسنا ، واحقيتنا فى الحياة ، وماضينا الذهبى وحاضرنا الفتى ، ومستقبلنا المشرق .

طريقنا هو الإيمان ، فكل هؤلاء الذين حققوا استقلال بلادهم ، ومن قبلهم كل أولئك الرسل ، الذين حملوا للإنسانية مشعل النور ، لم يكن لهم من رأس مال إلا الإيمان . فالإيمان يفعل

المستحيل ، إنه يدك الجبال ويذيب الحديد . فإذا ما آمنا فسيتبع الإيمان العمل . والعمل والإيمان متلازمان دائما «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا[1] » . والعمل الذى نعنيه هو أن ننظم جموع الشباب فى جماعات شبه عسكرية ، تخضع لتعاليم ونظم عسكرية ، تفهم معنى الجهاد وتتدرب عليه ، وتنفذ كل ما يلقى إليها من تعاليم هذه الجماعات المنظَّمة ، وما نسميها فى جمعيتنا كتائب المجاهدين ، هى التى سوف تحقق استقلال مصر . لا بل وسوف تعيد بناء الإمبراطورية المصرية وترفع مصر فوق العالمين .

سوف نعيد بناء الإمبراطورية المصرية التى تألفت على مر الدهور ، والتى تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام .

أســئلة ...

لا تسألونى : وكم عدد الأعضاء الذين انضموا إلى الجمعية ؟ وكم عدد الذين يلبسون الأقمصة الخضراء ؟ وإلى أى مدى نجحتم فى مصر ؟ لا تسألونى عن ذلك كله ، ولكن أسألوا انفسكم هل أنتم مستعدون أن تشاطرونا هذا الجهاد وأن تشاطرونا إيماننا أم لا ؟! هل تعملون وإيانا على بناء الاستقلال أم لا ؟!

مهمتنا فى لندن وفى أوروبا

بقى أن تسألوا سؤالاً واحدا وهو ما الذى نبغيه من حضورنا إلى هنا وما الذى فعلناه حتى الآن ـ وليس فيكم من لم يقنع من كل هذا الذى قدمته ، أننا أكثر الناس اقتناعا بأن قضيتنا ستحل بأيدينا ، وستحل بجهودنا ، لا باستجداء الإنجليز والتمسح بأعتابهم ـ ولذلك فنحن لم نأت إلى هنا كيما نشحذ الاستقلال ، أو نتمسح بأعتاب أحد ، ولكننا جئنا ، بكل إخلاص ، لنعرض قضية مصر على الإنجليز . جئنا لنقول لهم ، إننا ونحن أكثر الناس تطرفا فى وجهة نظرهم ، ونحن أكثر الناس كفاحا من أجل الاستقلال ، نستطيع أن نضع أيدينا فى أيديهم بإخلاص ، إذا ما احترموا استقلالنا وحريتنا ـ أما إذا لم يفعلوا ذلك ، فيجب أن يضعوا فى حسابهم أن مصر بشبابها تعمل فى كل يوم ، وتجاهد من أجل غايتها ، وهى سوف تحصل على هذه الغاية رغم أنف الجميع ، وعندئذ تشعر انجلترا أنها قد أخطأت ، وأنها قد أساءت التصرف ، يوم لم تصغ لصوت التعاون والصداقة والحرية .

وأحمد الله أن كنت أنا وأخى فتحى أمينين على هذه الرسالة ، ففى أحاديثنا مع بعض النواب الإنجليز ، مثل ما فى الكراسة التى نعدها للطبع ، مثل ما فى خطاباتنا التى سوف نلقيها على مسامع النواب المسئولين ، تحدثنا ، وسوف نتحدث ، بهذه الصراحة التى حدثتكم بها الآن وبوجهة النظر هذه . وكم يسعدنى أن أقول لكم إن كل من حدثتهم قد أحلوها محل الاعتبار .

---

(١) سوررة الكهف .

وسوف نغادر لندن إلى جنيف عندما نرى أن وجودنا فى لندن لم يعد مثمرا ، وسوف نغادر جنيف إلى مصر عندما نعرف أن وجودنا فى جنيف لم يعد مثمرا . وهذا هو كفاحنا أيها السادة . لا نضيع دقيقة واحدة من حياتنا ، لا نستغلها من أجل كفاحنا . وليس هذا بعجيب لأن مبدأ مصر الفتاة يقول :

«حاسب نفسك كل ليلة ماذا قدمت من أجل بلادك» .

وهذا ما نفعله بالليل وبالنهار ، وفى كل دقيقة ، أن نحاسب أنفسنا ماذا فعلنا من أجل بلادنا واستقلال بلادنا . والله يوفقنا والله يرعانا .   والمجد لمصر

قرار المجتمعين

وعقب سماع هذا الخطاب قرر المجتمعون إرسال البرقية التالية لرئيس وزراء إنجلترا ووزير خارجيتها وزعماء أحزابها :

«الطلبة المصريون فى جامعات انجلترا الذين يرمزون إلى التعاون الودى بين الأمتين الإنجليزية والمصرية ، والمجتمعون بحضور الأستاذين أحمد حسين وفتحى رضوان مندوبى مصر الفتاة يلتمسون من الحكومة الإنجليزية أن تسرع بإجابة المطالب القومية ، بإبرام معاهدة التحالف بين البلدين ، وتعزيز الدفاع الوطنى ، والاعتراف بحقوق مصر الكاملة فى السودان وإنهاء الاحتلال ، وعدم الاعتراض على إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة ، وبهذا تستطيع انجلترا أن تكون واثقة من إخلاص المصريين ومعونتهم الصادقة المثمرة . تحية للإمبراطورية العظيمة والمجد لمصر.

الكفــاح فى لنــدن

١٥

بدأ الفرسان الثلاثة يكافحون فى لندن كفاحا مستميتا جبارا ، يفوق كل تصور أو خيال ، فقد كان على هؤلاء الثلاثة أن يهزوا عاصمة إمبراطورية ، وأن يحملوها على الشعور بهم ، والإحساس بوجودهم ، والاستماع بعد ذلك لقضيتهم . ولو أن زيارتنا المدينة لندن كانت فى ظروف عادية فى خلال سكون الأحوال فى مصر ، لما استطعنا أن نفعل قليلاً أو كثيرا ، ولكن يقظة الشعور فى مصر ، وسقوط هؤلاء الشهداء من شباب مصر ، قد جعل كل انجليزى يلتفت نحو مصر ، فلا يكاد يسمع بنبأ وجود وفد من شباب مصر حتى يتلهف على مقابلته واستطلاع ما عنده من قول ..

ولذلك فقد شرعنا فى كتابة عشرات من الخطابات إلى الشخصيات البارزة ، من رجال السياسة الإنجليز المشتغلين بالقضية المصرية ، نوابا ولوردات ، ورجال صحافة ، ولقد تلقينا الردود دائما على خطاباتنا ، وهى تحدد لنا موعدا لمقابلة من نرجو مقابلته . فقابلنا رؤساء تحرير الصحف جميعهم ، واستمعوا لما عندنا من بيانات ، وقابلنا السير جون واردلوملن رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الإنجليزى ، والسير مردوك ماكدونالد النائب الإنجليزى ، وجرت لنا مع الرجلين أحاديث ومباحثات ، وقابلنا أحد اللوردات المشتغلين بالمسألة المصرية ، والمسائل الشرقية على العموم ، وهو اللورد لامتجثون . ثم شرعنا فى مقابلة زعماء المعارضة ، فقابلنا زعماء العمال الثلاثة أتلى ولانسبورى وجرينوود . وقد كان الميجر أتلى هو زعيم العمال البرلمانى الرسمى ، والمستر لانسبورى هو زعيم حزب العمال المحبوب الذى يتمتع بأكبر شخصية شعبية فى انجلترا . وفى كل هذه المقابلات كنا نشرح وجهة نظر الشباب المصرى فى حرارة وقوة ، فكان محدثونا لا يسعهم إلا أن يتأثروا بإخلاصنا ، وأن يُكبِروا هذه الشجاعة والجرأة التى دفعتنا إلى المغامرة إلى بلاد الإنجليز ، بغير حول أو طول أوصفة رسمية ، لكى نحادث قادة الانجليز .

وبدأ البرود الإنجليزى يذوب أمام حرارة الإيمان المصرى ، ففتحت لنا الأبواب . ودعينا إلى مختلف الاجتماعات ، على أن أعظم ما حصلنا عليه من نصر فى هذه الفترة جزاءً وفاقا لما بذلناه من مجهود متواصل بالليل والنهار ، هو دعوتنا لشهود مؤتمر العمال

الاشتراكي في جامعة كارْديف ، والتحدث فيه عن القضية المصرية . وقد كان الفضل الأكبر في تلقينا هذه الدعوة يعود إلى زميل مصري ، هو الأستاذ محمد يحيى الذي كان شديد الصلة بحزب العمال فاستطاع أن يحصل لنا على هذه الدعوة الكريمة . ولعل من الطريف أن يعرف القراء أن طلاب جامعة لندن من الانجليز ، وفي جامعة كارديف كان يدعو بعضهم بعضا لسماع خطبنا بالإعلانات الآتية «شاب مصري ممن يقتلون الانجليز في مصر يعرض القضية المصرية» «هل تريد أن تحيي طلبة الجامعة المصريين وأن تتلقى عنهم درسا في الشجاعة ومكافحة الظلم» . ولعل ذلك يعطي القارئ فكرة عن كيف استطاع الشباب المصري في هذه الفترة أن يثير اهتمام شباب العالم كله وإعجابه .

وسافرنا إلى مدينة كارديف ، وحضرنا مؤتمر الطلبة الاشتراكيين الذي عقد في جامعة كارديف . ودعيت إلى الخطابة لأول مرة وسط الإنجليز وكان جو البرود الذي يسود اجتماعهم قد ملأني فزعا ، من مواجهتهم بحرارتي الشديدة ، فالإنجليز يخطبون وهم يتثاءبون ، ويتكلمون وهم يغمغمون ، ولا يكاد الخطيب منهم يخرج يديه من جيوبه ، أو يكف عن مواصلة التدخين إبان خطابه ، وإذا كان ذلك هو حال الخطيب فتستطيع أن تتصور حال السامعين ! !

والقوم هناك لا يبدون الاستحسان بالتصفيق ! ! وانما يغمغمون بكلمة (اسمعوا ، اسمعوا) كعلامة على الرضا والتقدير ! ! فإذا اشتدت بهم الحماسة ، فقد يزيدون على ذلك أن يحكوا أقدامهم في الأرض ، هذا كل ما هناك .

وقد كنت مذ وطأت أقدامي أرض انجلترا وأنا أتعلم الانجليزية ، فأطالع الجرائد كل صباح وأحفظ كل كلمة نافعة ومفيدة ، وأحاول أن أتكلم مع كل انجليزي في الشارع ، وأخيرا جعلتني المقابلات والمحادثات المتعددة مع الساسة الإنجليز ، أعرف كيف أستعمل الكلمات اللازمة لشرح وجهة نظري . وقد كنا قد أعددنا الخطبة التي سألقيها في هذا الاجتماع ، وكنت سأتلوها من ورقة في جيبي ، ولكني بعد أن حضرت هذا الاجتماع وشاهدت كيف تنهال الأسئلة على المتحدث بعد أن يفرغ من إلقاء حديثه ، تهيبت الموقف وترددت عن الكلام في هذا الجو الغريب . ولكن رئيس المؤتمر قطع عليّ ترددي إذ أعلن الحاضرين أنه قد وفد إلى الاجتماع مندوبو الشباب المصري وسيحدثوننا عن القضية المصرية في عشر دقائق .

ووجدت نفسي عند منصة الخطابة وعيون الإنجليز تحدق بي من كل جانب فغلى الدم في عروقي ، وامتلأت بالإرادة والعزم أن أمثل الشباب المصري فأحسن تمثيله وأن أتحدث

عن القضية المصرية فأجيد الحديث .. واندفعت أتلو الخطبة التى تلوتها من قبل أكثر من عشر مرات ، ونسيت أننى فى انجلترا ، ولم ألق بالاً لأسلوب الإنجليز أو برود الإنجليز . وخطبت كما لو كنت أخطب الشباب المصرى ، وارتفع صوتى مجلجلا فى سماء المكان ، وأهويت على المائدة بقبضة يدى مؤكداً ما أقول من عبارات ، فإذا بالمعجزة تتم ، وإذا بالحضور يضجون بالتصفيق والتهليل ، وإذا بالاجتماع يتحول إلى اجتماع مصرى شرقى يفيض بالحرارة والحماسة .

قلت للقوم «إن وقوفى بين أيديكم وأنا الذى أمثل الشبان المتطرفين ... هؤلاء الذين يصيحون الآن فى شوارع القاهرة «لتسقط انجلترا» يدلكم على أننا لا نكره البريطانيين ولكننا نكره سياستهم القائمة على البطش والقوة وانتهاك الحقوق والوعود» . (عاصفة من التصفيق) إنى أقول لكم : إن مثل هذه السياسة لا يمكن أن تؤدى إلى النجاح لأنها سياسة غير طبيعية ، فالطبيعة لا تعتمد على التعسف والبطش ولكن تعتمد على التعاون والتآزر والتآخى . (تصفيق) ولقد سبقتكم امبراطوريات ، أذكر منها الإمبراطورية الرومانية وقد اعتمدت هذه الإمبراطورية على التعسف والبطش فماذا كانت نتيجتها ؟ كانت نتيجتها الزوال والانحلال فهؤلاء الذين يتبعون نفس السياسة إنما يحفرون قبر انجلترا بأيديهم ، والكلمة الآن لكم أيها الشبان وأيها العمال . فهل تريدون أن تنهار دولتكم كما انهارت قبلكم الدول التى سبقتكم أم تريدون الاحتفاظ بكيانكم .. إن ذلك يتوقف على سياستكم المستقبلة» .

أى والله هذا كلام قيل فى وجه الإنجليز وفى عقر دارهم ، قيل فى قوة وشجاعة فلم يتمالك الإنجليز إلا أن يصفقوا وأن يؤيدوا ..

ومضيت فى خطابى شارحا مطالب مصر وقضية مصر فى إيجاز وانتهيت وسط عاصفة من التصفيق عند انتهاء العشر دقائق المحددة لى . ووقف المستر جرينوود زعيم العمال الذى كان يشهد الاجتماع على أثرى قائلا «إن هذا التصفيق جزء مما يستحق خطيب الليلة الذى أهاج مشاعرنا وهز عواطفنا وإنى لأعجب إذا كان هذا مبلغ تأثيره فينا نحن الانجليز فكيف يكون مبلغ تأثيره فى مواطنيه فى مصر .

والآن أعلن باسمكم جميعاً وأبعث بتحياتنا إلى شبان مصر المجاهدين وأدعوكم إلى وضع قرار نبعث به للقاهرة ليعبر عن رأى شباب هذه المملكة فى شباب مصر» .

ودارت مناقشة حول القرارات المقترحة وأخيرا أصدر مؤتمر الطلبة الاشتراكيين البريطانيين العام المنعقد فى جامعة كارديف فى أوائل سنة ١٩٣٦ القرارات الآتية :

«إن هذا المؤتمر

١ ـ يؤكد تأييده المطلق لكفاح الطلاب المصريين من أجل الدستور وحقهم فى الاستقلال والانضمام إلى عصبة الأمم .

٢ ـ يبدى استنكاره الشديد للأساليب التى يتبعها بعض الإنجليز فى مصر لقمع المظاهرات .

٣ ـ يؤيد حزب العمال بكل قوة كفاح المصريين» .

وقد وافق المجتمعون على هذه القرارات بالإجماع وسط التصفيق والتهليل وأرسلت صورها إلى جميع الجرائد الإنجليزية والمصرية فكان لها دوى منقطع النظير وشعر المصريون أن وفد مصر الفتاة قد بدأ يحصل للقضية المصرية على انتصارات رائعة فى عاصمة الإنجليز .

رسالة

قد وصلنا إلى انجلترا ، وقد وضعنا نصب أعيننا أن نضع رسالة صغيرة عن القضية المصرية نبسط فيها وجهة نظرنا ، ثم نوزعها على الصحف وعلى رجال السياسة فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، وبينما كنا نزاول نشاطنا الذى شرحت لك طرفا منه فيما سبق ، كان العمل فى إعداد هذه الرسالة يجرى فى نفس الوقت . ولقد اشتركنا ثلاثتنا ، الدكتور مصطفى الوكيل والأستاذ فتحى وأنا ، فى وضع أصول هذه الرسالة باللغة العربية ، ثم عمد الدكتور مصطفى إلى ترجمتها باللغة الإنجليزية ، وعاوننا الأستاذ محمد نجيب ـ المصرى النابه الذى يعيش فى انجلترا مشتغلا بالصحافة ـ فى تركيزها وصبها فى قالب انجليزى محكم . وقد تم وضع الرسالة وعهد إلى إحدى المطابع بطبعها ، فأخرجت لنا بضعة آلاف على ما أذكر . وزعناها فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، فصادفت نجاحا عظيما وأثنى عليها كل من طالعها من حيث الشكل والموضوع . فقد أعجب الانجليز بصياغتها الإنجليزية الرائعة ، وقد كان الفضل فى ذلك يرجع إلى الأستاذ محمد نجيب بطبيعة الحال ، كما أنهم أعجبوا بما تضمنته من حجج ، دفاعا عن القضية المصرية ، واستعراضا لمختلف أدوارها ، كما طالعوا فيها لأول مرة إيمان الجيل الجديد فى مصر ببلاده وكفاحه ، لا فى سبيل حريتها واستقلالها فحسب بل وفى سبيل مجدها وعظمتها أيضا .

وإنى أكتفى بإثبات القسم الأخير من هذه الرسالة ، وهو الذى تضمن مطالب مصر فى ذلك الوقت كما عبر عنها الرأى العام . ويلاحظ عليه بطبيعة الحال الأسلوب الهادىء ، المدعم بالحجج ، وذلك أننا كنا نكتب للإنجليز ، ولا سبيل لحمل الإنجليز

على مطالعة مقال ما ، إلا إذا كتب بأسلوب خاص مركز تساق فيه الحجة على كل رأى يُبدى . وإليك الآن نص هذا الجزء الأخير من الرسالة :

المطالب الوطنية

١ ـ تعاون حر ، وتحالف شريف بين مصر وانجلترا .
٢ ـ استقلال مصر التام ، وسيادتها الكاملة .
٣ ـ إلغاء الامتيازات ، والمحاكم المختلطة .
٤ ـ إلغاء إدارة الأمن العام الأوروبية .
٥ ـ حق مصر فى تقوية دفاعها طبق حاجاتها الضرورية ، وجعل التجنيد إجباريا .
٦ ـ الاعتراف بحقوق مصر الكاملة فى السودان . هذه هى المطالب التى تحتاجها مصر سريعا لاستكمال استقلالها وهذا ما جئنا نطالب به لمصلحة الطرفين مصر وانجلترا .

ومن الواضح أن تحقيق هذه المطالب لمصلحة مصر ، ولكن ما يحتاج إلى شيء من التفسير هو مصلحة انجلترا فى تحقيقها ، وهذا هو ما سأشرحه فى الأسطر التالية .

انجلترا وإيطاليا

أما عن تقوية الجيش والتحالف الحر الشريف فتتجلى أهميته من الأزمة الدولية الحالية ، فقد أثبتت الحرب الإيطالية الحبشية ، وأثبت النزاع الذى قام بين إيطاليا وانجلترا حول مبادئ عصبة الأمم أن إيطاليا استطاعت أن تحشد على حدود مصر أكثر من مائة ألف جندى وأن تتبعهم بمائة ألف جندى آخرين وهكذا .. وإذن فإن البضعة آلاف جندى انجليزى فى مصر يصبحون فى مأزق حرج إذا ما قامت الحرب بين انجلترا وإيطاليا ، ويصبح مركز انجلترا الحربى معلقا تماما على أسطولها الجوى والبحرى ، فإما أن يحصل على انتصار حربى كامل فى البحر والجو ويحول بين الايطاليين وبين التوغل فى مصر ، وفى هذه الحالة تكون هذه البضعة آلاف جندى انجليزى فى مصر زيادة عن الحاجة ولا عمل لها ، وإما أن يفشل الأسطول الجوى والبحرى فى حماية مصر بحيث تنساب اليها ألوف الإيطاليين ، وعندئذ يصبح مصير الجيش الانجليزى فى مصر معروفا منذ الآن ، وأعنى به الفناء عن بكرة أبيه .

فالحد الفاصل اليوم مثل ما كان فى القديم هو الأسطول الإنجليزى فى الهواء والماء وقدرته على العمل ، فإذا انتصر فلا حاجة لجيش الاحتلال ، وإذا انهزم فالويل لجيش الاحتلال .

كل هذا بفرض أن مصر تبقى على الحياد .. ولكن مصر لا يمكن أن يكون ذلك موقفها مطلقا حيال حرب تقوم على أرضها وفى سمائها ، فهى إما أن تأخذ هذا الجانب أو ذاك ، ويتوقف على سياسة انجلترا حيال مصر أى الجانبين تختار .

موقف مصر إذا ما قامت الحرب

هل تقف انجلترا بجانب مصر موقف الحليف الطبيعى ، فتحترم عهودها وتعترف لمصر بكل حقوقها ؟ واذن فإن على مصر أن تدافع عن كيانها واستقلالها ومصالح انجلترا حليفتها ، أو أن انجلترا تحاول أن تقهر مصر وأن تسلبها حقوقها وأن تحطم سيادتها ؟ إذا كان الأمر كذلك فإن انجلترا يجب أن تخرج من حسابها معونة مصر ، وأن تتوقع على الضد عداءها ، فهل تريد انجلترا معونة مصر القوية دائما ، أو تريد أن تبقى فى فزع دائم من الميدان المصرى ؟ الكلمة الآن لانجلترا لتفصل فيها .

الامتيـــازات

أما بالنسبه لإلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة ، فإن إلغاءها لن يمس بأى حال من الأحوال مصلحة انجليزية ، بل على العكس يشد أزر مصر على التحرر من نير هذه الامتيازات ، وسوف تربح انجلترا كثيراً فى مصالحها الاقتصادية الخاصة فى مصر ، فضلا عن أن مصر والمصريين لن ينسوا لانجلترا هذه الخدمة الثمينة ، التى سيذكرونها دائما بالشكر والتقدير ..

والحق أنه ليس هناك اليوم فى مصر ، ما يؤذى المشاعر الوطنية والكرامة الشخصية ، أكثر من وجود هذه الامتيازات والمحاكم المختلطة ، التى تعرقل كل تطور وكل إصلاح ، وتحطم كل مظهر من مظاهر السيادة .

فتحت ظل الامتيازات ، لا يدفع الأجانب فى مصر شيئا من الضرائب على رءوس أموالهم التى تقدر بمئات الملايين ، ولا على دخلهم منها ، بل إن البوليس المصرى لا يقدر على وقف أى مجرم ، ولا يمكن للمحاكم المصرية أن تتولى محاكمته . وتحت ظل الامتيازات تروج السموم البيضاء وتجارة الرقيق الأبيض والخمور والقمار .. وتحت ستار الامتيازات ترتكب كل صنوف الجرائم والدنايا .

والعامل .. العامل المصرى المنكود لا يمكن أن يحصل على حقوقه المشروعة ، لا يمكن أن ينظم نقاباته واتحاداته وأن تعترف بها الدولة بسبب هذه الامتيازات الممقوتة .

الســودان

وإنا لنعود هنا لتكرار فائدة التعاون الودى بين المصريين والانجليز فى السودان وأن انجلترا ستربح من ورائه شيئا كثيرا .

وحق مصر فى السودان لا يعنى مطلقا رغبة من رغبات الاستعمار أو الاستغلال ، لأن السودان كان دائما جزء لا يتجزأ من مصر .

والسودان مفتاح الحياة لمصر والمصريين . كل هذا مضاف إلى هذه الروابط العديدة التى تربط القطرين الشقيقين سواء فى الدين ، أو اللغة ، أو الثقافة والعادات .

فإذا علمنا بعد ذلك كله ، أن السودان هو مخرج مصر الطبيعى إذا ما اكتظت بسكانها ، استطعنا أن نرى أنه من العبث المجادلة فى حقوق مصر فى السودان وأن فصل السودان عن مصر ليس معناه

وقف تطورها ونموها الطبيعى ، بل معناه تهديد كيانها بالذات .

ولكنا نتساءل : أحق أنه من صالح السودان والسودانيين أن ينفصل السودان عن مصر ؟ لا يمكن أن يكون هناك إلا جواب واحد وهذا الجواب بالنفى .. فكما أن مصر لا تستطيع الحياة بدون السودان ، فكذلك السودان لا يستطيع الحياة بغير مصر ومعونة المصريين .

ولا أظن أن هناك واحدا من ساسة الانجليز يجهل أن مصر تدفع كل عام ٧٥٠٠٠٠ جنيه مصرى للسودان أى مقدار ما يساوى خمس ميزانية السودان بأسرها ، التى تناهز فى سنة ١٩٣٤ مبلغ ٣,٧٧٤,٩١١ جنيها ، وبغير هذه المعونة السنوية لا يمكن للحكومة السودانية أن توازن ميزانيتها بل أن تقوى على إدارة السودان .

والسودان فى حاجة إلى التطور والارتقاء فإن مساحاته الضخمة بغير سكان ، وأراضيه الزراعية لا تجد من يستغلها أو يحسن استغلالها . وليس هناك غير رءوس الأموال المصرية والعامل المصرى من يقوى على سد هذا النقص ، وإفادة السودان وتحقيق رفاهيته .

وقد يكون من الحقائق التى يجهلها كثير من الإنجليز الذين يقدرون العهود والمواثيق والشرف البريطانى ، أن حقوق مصر فى إدارة السودان والإشراف عليه غير معترف بها فى الوقت الحاضر ، وأن القوات المصرية قد أجليت عن السودان فى سنة ١٩٢٤ بناء على إنذار بريطانى ، وتحت الضغط البريطانى أقيم سد من الحدود والجمارك بين البلدين بحيث تدهورت التجارة بين القطرين .

وإذن فإن هذه السياسة يجب أن تتغير حالا ليس فقط لمصلحة مصر والسودان ، بل ولمصلحة انجلترا أيضا ، فإن المصالح الانجليزية والتجارة الانجليزية لن تنتشر الا فى ظلال الصداقة والتعاون مع مصر .

ما هو رأى مصر الفتاة ؟

والآن ما هو رأى الشباب فى مصر ؟ نحن فتيان مصر الفتاة نقول فى غير ما تردد : إننا نرغب من أعماق قلوبنا أن نرى البلدين مصر وانجلترا متعاونين تعاونا وديا صادقا ، فنحن المصريين ، كأفراد ، نعجب بالإنجليز وأخلاقهم وتقاليدهم ، وإننا لنضعهم فى مستوى أعلى من غيرهم من الدول .

ما هو برنامجها ؟

ولا أستطيع أن أترك هذه الفرصة تمر دون أن أقول كلمة عن برنامجنا : فإن جمعية مصر الفتاة ، التى أتشرف برئاستها ، قد وضعت برنامجا وطنيا يعمل لإعادة بناء الأمة المصرية فى مختلف النواحى وبعث مجدها القديم .. ففى الصناعة ، نريد أن نمصِّر الصناعات ، ونريد أن نقضى على الأمية ، ونريد أن نصلح فى كل مكان ، نظام الأسرة ، والمدرسة ، والاجتماع ، نريد أن نثير كل معنوية المصريين وحيويتهم وايمانهم ، ونريد أن نرفع مستوى العمال فى مصر وأن نوفر لهم معيشة طيبة وحياة هنيئة ، ونريد أن نعيد بناء القرية المصرية ، وأن نعطى الفلاح حقوقه المهضومة ، ونريد أن نكون

أحرارا فى بحارنا ، وأرضنا ، وجونا ، وذلك كله لمصلحة العالم ومصلحة بريطانيا ، فكل تقدم سياسى لمصر وارتقاء أدبى لها فى العالم الإسلامى والشرق ، يتيح لانجلترا محالفة أضخم كتلة متحدة فى العالم ، وأعنى بها كتلة المسلمين ويضمن لها صداقتهم .

مصر وانجلترا

هل يريد العامل الإنجليزى أن يكون حائلاً بين العامل المصرى وبين الارتقاء ، وأن يحيا كما يحيا العمال فى جميع أنحاء العالم ؟ وأن يتمتع بحقوقهم ؟! هل يريد الوطنى الإنجليزى ، مهما كان محافظا ، أن يقسو على فلاحى مصر ، وأن يحول بينهم وبين الطعام والحياة ؟!

إذا كان لا يوجدُ الإنجليزى الذى يرغب فى ذلك ، فلتعترف إذا لنا انجلترا بحقوقنا وحريتنا ، ولتحترم استقلالنا .. فلتمد لنا يد الصداقة ، ولها أن تعتمد على إخلاصنا ..

أما إذا أبت انجلترا إلا أن تستغل ضعفنا ، وتستخدم أساطيلها وأسلحتها ، فى قهر المصريين وإذلالهم ، فإنها لن تنجح فى كسرْ عزتنا .. ولن تقوى على تأخيرنا إلى الوراء خطوة واحدة ، بل هى على العكس . سوف تزيدنا إصرارا وعزما ، وسوف تمنحنا قوة وإيمانا ، أما هى فسوف تخسر كل شيء ، سوف تخسر كل حب لها فى قلوب خمسة عشر مليوناً هم أفراد شعب كانوا وسيكونون دائما أول من حمل رسالة الإنسانية رسالة العلم والعرفان .

«والمجد لمصر»

* * *

وقد كان من آثار هذه الرسالة ونجاحها ، أن طلبت وكالة اليونيتدبريس التلغرافية حديثاً منى عن القضية المصرية وجهاد مصر الفتاة . فأدليت إليها بحديث مسهب تحدثت فيه عن مكانة مصر فى العالم ومجدها التاريخى وحقها فى استعادة مكانتها التقليدية كدولة حرة مستقلة زعيمة للعرب والمسلمين ، وركنا من أركان المجتمع الإنسانى المتحضر .

وقد نشر هذا الحديث فى أكثر من خمسمائة صحيفة فى سائر أنحاء أوروبا بمختلف اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية والسويدية والفلمنكية بل والروسية ، وظلت الجرائد التى نشرت الحديث ترد علينا بعد عودتنا إلى مصر ! . فكان يدهشنا إلى أبعد حد اتساع المدى الذى وصل إليه نشر هذا الحديث ، إذ لم يحدث أن نجح حديث عن مصر مثل هذا النجاح من قبل .

خطاب عام

وكان علينا بعد ذلك كله ، أن نواجه الشعب الإنجليزى فى خطاب عام يعلن عنه فى الصحف ، ويدعى إليه كل راغب فى الحضور ، وكنت متهيبا أشد التهيب من هذا

الاجتماع ، فلم تكن لغتى الإنجليزية بالتى تسمح لى أن أرتجل الحديث ، وإذا كان من الممكن التغلب على هذه العقبة كما فعلت فى مؤتمر كارديف ، وذلك بالمطالعة من الورق ، ففى المؤتمر المذكور لم توجه إلىّ أسئلة عقب إلقاء كلمتى لضيق الوقت ، أما عندما نكون نحن الداعين إلى الاجتماع ، وتكون القضية المصرية هى محور الاجتماع ، فلا بد أن تنهال علىّ الأسئلة ، ولا بد أن أناقش وأن أستجوب ، وقد كان ذلك ما أخشاه كل الخشية ، ومع ذلك فقد كان لا بد من عقد الاجتماع ، بل والشروع فى عقد عدة اجتماعات ، تمشياً مع مقتضيات الدعاية اللازمة للقضية . ولذلك فقد توكلت على الله وأقدمت على عقد الاجتماع وفى نفسى عزم وإيمان ، أن أمثل مصر فأحسن تمثيلها ، وأن أدافع عن قضية بلادى فأجيد الدفاع .

ولابد لكل اجتماع فى انجلترا من رئيس يشرف عليه ويقود المناقشات ، ويعرض فى ختام الاجتماع القرارات التى يراد الموافقة عليها ، ولم يكن باستطاعة المصريين الذين سبقونا فى الدعاية للقضية المصرية ، أن يحصلوا على شخصية مثل التى حصلنا عليها لترأس اجتماعنا ، ونعنى بها المستر لانسبورى وهو أحد زعماء الشعب الإنجليزى المحبوبين جداً ، زعيم حزب العمال عقب استقالة المستر ماكدونالد ، فكان ذلك آية النجاح الذى وصلنا إليه ووفقنا الله إلى إحرازه بفضل إخلاصنا وإيماننا .. واخترنا لعقد الاجتماع أحد صالات لندن المشهورة باجتماعاتها السياسية المحترمة ، وتدعى (كنجزواى هول) ووجهنا دعوة عامة للجمهور الإنجليزى ، لشهود الاجتماع ، وطبعنا بضع مئات من التذاكر وزعناها على رجال الصحافة والنواب والرجال المختارين .

وفى الموعد المحدد لإلقاء الخطاب ، اكتظت القاعة بالجمهور ، رجالاً ونساء . وكان الشبان المصريون فى طليعة الحضور بطبيعة الحال ، وقد جاءوا يشهدون كيف تعرض قضية مصر على الشعب الإنجليزى ، ويشدون أزرنا ويدعمون حجتنا .

وافتتح الاجتماع المستر لانسبورى بخطاب طويل أيّد فيه المطالب الوطنية المصرية ، وقد نشرت جميع صحف حزب العمال الإنجليزى تصريحات المستر لانسبورى لأهميتها وخطورتها ، فكان لذلك أكبر الأثر فى توجيه الحكومة الإنجليزية .

وأعقب المستر لانسبورى الأستاذ فتحى رضوان فألقى خطابا عرض فيه للنهضة المصرية ، ومظاهر التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، ورسم الخطوط الأساسية لبرنامج مصر الفتاة الإنشائى والتعميرى .

ثم دعيت إلى الخطابة ، فألقيت خطابى العام الأول والأخير ، للشعب الإنجليزى فى

ذلك الوقت ، فإن الحوادث تطورت سريعا بعد ذلك بحيث أغنتنا عن مواصلة عقد هذه الاجتماعات .

ولست أرى ضرورة لإثبات نص هذا الخطاب لأنه لا يخرج فى معناه عن كل ما سبق ، وإنما الشيء الذى أحسب أن كل قارئ متشوق إلى معرفته ، وهو الجدير بالتسجيل للذكرى والتاريخ ، هو ذلك التوفيق العظيم الذى صحبنى فى هذه الليلة ، فقد وقف المستر جورج لانسبورى عقب إلقاء خطابى وقال : «كم كنت أتمنى أن يكون هذا الخطاب الذى سمعناه الليلة من الأستاذ أحمد حسين ، قد ألقى فى البرلمان الإنجليزى ، ليدرك الأعضاء كيف يجيد غير الإنجليز نطق لغتهم والخطابة بها ، وكيف تمتلئ نفوس أبناء مصر بالإيمان بالحرية والاستقلال ، حتى تمكنوا من الوقوف فى صميم عاصمة الإنجليز مثل هذه المواقف الرائعة» .

ثم فتح المسترى لانسبورى باب المناقشة ، ووجهت إلىّ الأسئلة ، فإذا بى أجيب عليها فى قوة وحرارة !. وإذا بالأكف ترتفع بالتصفيق لهذه الإجابات القوية السديدة المفحمة ، ولعل أصدقائى المقربين جدا كانوا أكثر الناس دهشة لذلك الموقف ، وهم يعرفون مقدار تهيبى وترددى فى مواجهة هذا الموقف من قبل ، خوفا من أن تخوننى قدرتى على الارتجال باللغة الإنجليزية !.. ولكنها الضرورة وساعة الخطر وما تبعثه فى النفس من قوة واقتدار ... ولكنه الإيمان .

وقد قرر المجتمعون إصدار قرار يؤيدون فيه مطالب مصر القومية ويدعون الحكومة الإنجليزية للدخول فى مفاوضات سريعة مع مصر لتحقيق هذه المطالب وقد نشرت الصحف الإنجليزية ذلك القرار .

* * *

كان النجاح الذى صادفناه فى هذا الاجتماع ، باعثا للتفكير فى عقد اجتماع آخر فى إحدى قاعات البرلمان الإنجليزى ، لكى يتسنى لفريق من النواب الإنجليز أن يشهدوه ، وقد وافق المستر لانسبورى على الاقتراح مغتبطا ، لأنه كان أول من أثاره وأظهر استعداده للإشراف على تنظيم الاجتماع والدعوة إليه .

ولكن نظرا لغياب أعضاء المجلس بمناسبة إجازة رأس السنة ، وعدم عودتهم إلى لندن إلا بعد الأسبوع الأول من فبراير ، كان لا بد من الانتظار ثلاثة أسابيع قبل التمكن من عقد الاجتماع ، فرأينا أن ننتفع بهذه الفترة بالعمل فى ميدان آخر . ولما كان من

برنامجى أن أسافر إلى جنيف مقر عصبة الأمم لأدعو فى ذلك الميدان الدولى لقضية مصر . وحقها فى الانضمام إلى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة ، بغير حاجة إلى إذن الإنجليز أو تصريح بانضمامها . فقد رأيت أن أنتهز فرصة عطلة البرلمان الإنجليزى لكى أسرع إلى جنيف . حيث كان مجلس العصبة يوشك على الانعقاد للنظر فى المشكلة الحبشية وغيرها .

وفى مساء ١٨ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة الثامنة مساء ، بارحت أنا والأستاذ فتحى محطة فكتوريا . وكان فى وداعنا الدكتور مصطفى الوكيل ونفر من إخواننا وزملائنا المصريين . وعندما وصلنا إلى باريس ، قرر الأستاذ فتحى أن يعود إلى القاهرة ، فواصلت السفر بمفردى إلى سويسرا تنفيذا لبرنامجنا ، وإتماما للخطة الموضوعة .

الكفـاح فى جنيف

ولم لا أسميه كفاحا ؟ وقد كان كفاحا مستميتا لا ينقصه عنصر من عناصر الكفاح ؟ هو كفاح ضد البرود وضد الإهمال ، وضد الضجيج والدوىّ الذى كانت تحدثه القضايا الكبرى ، هو كفاح ضد الفقر والحاجة وقلة الأنصار والأعوان ، وأخيرا هو كفاح الغريب الفقير الصغير ، عندما يحاول فى زحمة الدنيا أن يرفع رأسه ، وأن ينصب قامته وأن يثبت وجوده ، ويرغم الدنيا على الإنصات له .

وصلت إلى جنيف ، وهى هائجة مائجة ، بمناسبة انعقاد مجلس عصبة الأمم الذى سيبحث المشكلة الإيطالية الحبشية ، وليصدر فيها قرارا حاسما بإنزال العقوبات على إيطاليا ، التى ترغى وتزبد وتهدد وتتوعد... وكانت الأعصاب متوترة ، هل تتفاقم الأزمة فتقع الحرب العالمية الثانية أم تمر العاصفة فى سلام ؟ فى ذلك الجو وصلت إلى جنيف ، ولم أكن أعرف بها أحدا ، ألجأ إليه أو أستعين به سوى الأستاذ على الغاياتى ، صاحب جريدة منبر الشرق ، الذى كان يقيم فى سويسرا منذ بضعة عشر عاما ، وقد اتخذها موطنا ثانيا له ، واستقر فيها يرفع لواء القضية المصرية ، وقضايا الأمم الشرقية كلها . لم يكن بينى وبين المجاهد القديم سابق معرفة ، ولكنى كتبت له من لندن أن يحجز لى غرفة ، وأن يتوقع وصولى ، ولقد استقبلنى الرجل فأحسن استقبالى ، وأكرم مثواى ، وعرفنى بالمصريين القلائل الذين يعيشون فى جنيف ، وعلى رأسهم المجاهد الصادق الدكتور زكى على ، وأعلننى الأستاذ على الغاياتى أنه يضع نفسه وتجربته وجهده ، فى خدمة المهمة التى جئت من أجلها ، وهى الدعاية للقضية المصرية التى وقف عليها حياته .

وبدأ يعرفني إلى الصحفيين ويجمعني وإياهم كي أحدثهم عن مهمتي ، وهي وجوب ضم مصر إلى عصبة الأمم ، وأن يكون ذلك بقرار من المجلس ، وبدأت الصحف تنشر الأحاديث نقلاً عني ، وقد أفادني حديث شركة اليونايتدبريس ، الذى وزعته من لندن ، فقد جعل شخصيتي معروفة لدى جميع الصحفيين ، كما أن شخصية الأستاذ على الغاياتي ومكانته فى جنيف ، قد ساعدت على إفساح المجال لى . فلم يكد يمر يوم دون أن تعرض الجرائد لقضية مصر وفق الوجهة التى أدعو لها .

وقد كان برنامجي فى جنيف ، أن أقدم للسكرتير العام لعصبة الأمم مذكرة باسم الشعب المصرى ، أقرر فيها حق مصر فى الانضمام إلى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة كاملة . وأهيب فيها بمجلس العصبة أن يتولى دعوة مصر بالذات إلى الانضمام إلى العصبة .

وكان الدكتور وحيد رأفت ، أستاذنا بكلية الحقوق ، قد زودنى قبل سفرى بمذكرة شافية فى هذا الموضوع ، فاتخذتها أساساً للمذكرة النهائية التى تقدمت بها إلى السكرتير العام لعصبة الأمم . وقد قام الدكتور زكى على بترجمة المذكرة إلى الفرنسية . ثم أعمل فيها الأستاذ على الغاياتى قلمه مهذبا ومصححا ومختزلاً ، حتى انتهى بنا الأمر إلى مذكرة جليلة من الناحية الشكلية - والموضوعية ، وفى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٣٦ ذهبت أنا والأستاذ على الغاياتى إلى مقر عصبة الأمم ، حيث قدمنا مذكرتنا إلى السكرتير العام ، ووزعنا بعد ذلك نسخا منها على خمسمائة صحفى يعملون فى أروقة عصبة الأمم . فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى كانت الصحف فى جميع أنحاء العالم تتحدث عن مذكرة مصر التى قدمتها إلى عصبة الأمم . وقد كان ذلك آخر ما يمكن أن أطمع فيه من نجاح وتوفيق ، بحيث لم أر موجبا لإطالة إقامتى فى جنيف ، فاعتزمت العودة من جديد إلى لندن لاستئناف الكفاح والجهاد بها وعقد هذا الاجتماع المنشود فى البرلمان الإنجليزى ... ولكنه لم تمض أيام قليلة حتى كنت أشد الرحال لا إلى لندن من جديد ولكن إلى القاهرة ... إلى مصر العزيزة .

النجـــاح فالعــودة

ـ ١٥ ـ

سقوط وزارة نسيم ـ تأليف وزارة على ماهر
الشروع فى المفاوضات بين مصر وانجلترا

سافرت من مصر وهى مكبلة مقيدة بحكم ديكتاتورى على رأسه توفيق نسيم باشا ، ذلك الرجل الذى لم ينقصه إلا القليل لكى يصاب بالخرف ، وكانت ثورة الشباب على أشدها فى طلب الحرية والاستقلال . ولا سبيل لذلك إلا باتحاد الأحزاب ، وتأليف جبهة موحدة ، وعودة الدستور ولقد أشرت فيما سبق أننى لم أكد أبرح مصر حتى اتحدت الأحزاب ، وعاد الدستور ، وفى إبان مقامى فى جنيف ، جاءت الأنباء المثيرة من مصر تتحدث عن سقوط وزارة نسيم باشا ، وتأليف وزارة على ماهر وباشا وإعلان انجلترا استعدادها للدخول فى مفاوضات لحل القضية المصرية وتدعيم استقلال مصر.

وإذن فقد تحققت كل الأغراض التى قام الشباب قومته من أجلها .. وسقط الطاغية ، وعاد الدستور ، واتحدت الأحزاب ، وبدأت المفاوضات من أجل الاستقلال ، فلم يبق أمامى إلا أن أسرع إلى مصر لأستأنف العمل والجهاد فى داخل البلاد ، لإنجاح هذه المفاوضات التى اتخذت القاهرة محلاً لها . ولذلك فقد حزمت أمتعتى على عجل وبعثت إلى الجرائد المصرية بالنداء التالى فنشرته جميعها فى أغز صفحاتها :

نداء إلى الشباب والشعب المجيد

بدموع الفرح تلقيت هذا النبأ ، نبأ الشروع فى إتمام المفاوضات مع انجلترا ، وحل القضية المصرية ، فإن هذا هو ما يتمناه كل مصرى ، وهذا ما سعيت من أجله فى عاصمة الانجليز وإذن فلم يعد أمامى إلا أن أعود إلى بلادى ، ساجداً لله شكراً أن وفقنى للقيام بواجبى . لقد كان عهداً أن أدافع عن قضيتها فى كل مكان ، وأحمد الله أن كفاح مصر بأسرها . قد آتى ثماره .

إلى مصر إذن .. إلى مصر الحبيبة العزيزة الغالية .. إلى مصر المقدسة الخالدة .. إلى المياه العذبة والسماء الصافية ، ووداعا أيها الغرب المكهرب الملبد بالغيوم .. ووداعا أيتها الرعود والثلوج والظلام .. ووداعاً أيتها الطبيعة القاسية ، التى علمت الانسان كيف يقسو على أخيه الانسان . ولكنى إذ أبارح هذه البلاد ، وأقترب من الوطن العزيز أبعث بندائى إلى شباب مصر ، ومن الأسكندرية حتى أقاصى

السودان .. لقد عملت باسمكم ، وتكلمت بصوتكم ، وإذا كانت مصر قد استعادت دستورها ، فلقد اعدتموه بدمائكم .. وغداً عندما تحقق مصر استقلالها ، فستكونون قد دفعتم ثمن ذلك أجسادكم . أنتم الذين بعثتم روح مصر ، وأنتم الذين ستسهرون على حراستها ، أنتم الذين أوقدتم الجذوة ، وأنتم الذين ستعملون على إذكائها . لا فضل لأحد عليكم ، فأنتم القادة . هذا هو شعارى وهذا هو كفاحى المقبل باسم الشباب وبجهود الشباب . سوف نبنى مصر الحديثة ، وسوف نشيِّد استقلالها ، وسوف ننسج مجدها ، فهلموا جميعا إلى راية مصر صفا واحدا ، وصوتا واحدا واهتفوا من أعماق قلوبكم : «مصر فوق الجميع» .

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

* * *

وأخيرا عدت إلى مصر التى أحببتها الحبَّ كله ، والتى كرست حياتى على العمل من أجلها .

ولقد كان استقبالاً رائعا ، ذلك الذى استقبلت به مذ وطأت أقدامى أرض الوطن المقدس ، فعلى رصيف الميناء مثل ما فى محطات السكة الحديد من الإسكندرية حتى القاهرة ، كانت كلها تغص بمئات من أنصار الجمعية وجنودها ، وكانت الأقمصة الخضراء تشرق لأول مرة بلونها الجميل البراق وقد ازدهرت وتكاثر عددها ، فلم أتمالك نفسى من أن أذرف دموع الفرح والشكر لله ، الذى كلل جهادى بهذا النجاح ، وأعادنى إلى مصر سالما غانما ، لأرى هؤلاء الذين أحبهم ويحبوننى ، ويسعدنى الكفاح فى صفوفهم من أجل حريتهم واستقلالهم .

وكان فرع الحزب فى الاسكندرية قد أعد لى اجتماعا حافلاً لأخطب فيه بمجرد وصول السفينة إلى الميناء ونزولى منها ، ووزعت ألوف من رقاع الدعوة إلى هذا الإجتماع بمسرح ديانا ، فى الساعة الخامسة من اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٩٣٦ ، وقد نجح الاجتماع والاحتفال نجاحا منقطع النظير ، ونشرت جميع الصحف ملخصاً وافياً لخطابى . وقد سافرت بعد ذلك إلى القاهرة ، وقد شاء الحظ الحسن أن تسقط وزارة نسيم باشا فى هذه الفترة ، وأن تتألف وزارة على باشا ماهر ، وهو رجل صديق لمصر الفتاة ، وكان من بين وزرائه سعادة محمد على علوبة باشا ، الذى طالما حضر اجتماعات مصر الفتاة ، وأعانها ببعض أمواله ، بل والذى كان على رأس الذين ودعونى بالمحطة عند سفرنا إلى لندن . فلا عجب إذا أطلقت الحرية لمصر الفتاة ، فصرح لها بعقد هذا الاجتماع فى الأسكندرية ، ولم يتدخل البوليس فى الاستقبال الذى أعد لى فى محطة

القاهرة . فكانت مظاهرة منقطعة النظير ، لم يسبق لمصر الفتاة أن شهدتها من قبل ، وكان ذلك آية النجاح والكفاح الذى وصلنا إليه ، بعد هذه الثلاث السنوات من الكفاح المتصل الصادق بالليل والنهار ، فى مصر وخارج الحدود ، شرقا وغربا .

ولقد أقيم اجتماع ثان بدار مصر الفتاة ، بمجرد وصولى من المحطة ، وأقيم بعد ذلك اجتماع ثالث فى مسرح برنتانيا ، وألقيتُ فى كل هذه الإجتماعات خطبا مستفيضة عن رحلتى ومهمتى فى أوزبا ، وليس يتسع المجال لإثبات كل هذه الخطب ، فأجتزئ بنشر خطاب الأسكندرية ، الذى دعوت فيه إلى وجوب المحافظة على الجبهة الوطنية ، والاتحاد بين الأحزاب ، وناديت بوجوب إدخال مصر إلى عصبة الأمم بالفعل ، فكان حقا واقعا ما اعتبر خيالاً جامحا ، عند تقديمى مذكرة انضمام مصر إلى العصبة .

وهكذا يشاء الله سبحانه وتعالى أن لا ندعو إلى دعوة ، أو نتجه إلى وجهة معينة ، إلا وتحققها الأيام والحوادث ، وهو الأمر الذى يضاعف دائما أبدا فى ثقتنا بكفاحنا ، وأننا لا شك واصلون إلى كل ما نريد ونعتزم تحقيقه .

خطبة الأستاذ أحمد حسين

فى اجتماع ديانا بالأسكندرية

أيها السادة ...

مهما كنا نعد أنفسنا جنودا مكافحين ــ فى حالة كفاح دائم ! ــ مهما كان يجب أن نكون على استعداد دائم لخوض المعركة فى أى لحظة وفى أى ساعة ، مهما كنا ومهما كان هذا مذهبنا ، فصدقونى ، إن أصحابى كانوا قساة علىّ يوم أن أعدوا هذا الإجتماع لأخطب فيه بعد ساعات من وصولى إلى هذا القطر العزيز ! . وأرى أنهم ليسوا قساة إذ لم يتركوا لى الوقت الكافى لأستريح من وعثاء السفر ، لأن الله ، وله الحمد ، جعل لنا مراكب مصرية لا نعرف فيها وعثاء السفر . وصدقونى أننى أمضيت أيام البحر فى أكل ونوم وراحة . وإذن فقد صار حتما على أن أنزل إلى ميدان العمل بمجرد نزولى ، وإذن فهم ليسوا قساة من هذه الناحية . لا وليسوا قساة لأنهم لم يفسحوا لى الوقت لأتمتع فى هدوء بأرض الوطن . ولأشرب من ماء النيل العذب . ولأستنشق هواء مصر العليل . فقد تمتعتُ بأرض الوطن . وقد شربت ماء النيل . واستنشقت عبير مصر . منذ وطأت أقدامى أرض الباخرة . وبارك الله فى طلعت حرب الذى نقل لنا النيل فى مرسيليا . ولكنكم ستشعرون معى بقسوتهم عندما تلاحظون أنهم لم يتركوا لى الوقت الكافى لأطالع الصحف ، لم يتركوا لى الوقت الكافى لأعرف مجرى الأمور السياسية ولأوازن بين المسائل المختلفة ، حتى إذا تحدثت جاء حديثى

منطبقاً على الساعة الراهنة وما يجب أن يكون .. ولكنهم فعلوا ووضعونى أمام الأمر الواقع ، وهأنذا بين أيديكم لأخطبكم .

أنبـاء مصـــر ...

هل تعرفون من المسئول عن هذه الحالة ، إنه أخى فتحى ، فلولاه لأشفقوا علىّ قليلاً ولقدروا ضرورة اطلاعى على أحوال مصر . ولكنه .. وقد كان معى ، حتى أيام قليلة ماضية ، فهو لا يمكن أن يخدع مثلكم ومثل أصدقائى . ولا يمكن أن يجابه بهذا الاعتراض الذى قدمته ، بل سيبادر بالقول إننا فى أوروبا كنا نطالع أخبار مصر يوما بعد يوم ، وساعة بساعة ، وكنا نطالعها فى الجرائد ، ونسمعها فى الراديو . وكنا نطالعها بالتفصيل بعد أيام قليلة واذن فلا عذر لى من ناحية ـ وهذا حق ، ولولا هذا لما قبلت بأى حال من الأحوال أن أخطبكم الليلة . فلعله يدهشكم ـ أو لعله يسعدكم ـ أننا فى أى مكان من أمكنة أوروبا ، فى باريس ولندن وجنيف ، لا بل فى أصغر قرية ، وفوق قمم الجبال ، كنا نطالع أخبار مصر ونسمعها وربما قبل أن يطالعها سكان الصعيد ! . وإنى لأذهب أبعد من ذلك فأقول ما سوف لا تصدقونه ، وأعنى به أننا نسمع بعض الأخبار قبل أن يسمعها من فى القاهرة أنفسهم . ففى مصر لا تصدر الجرائد إلا فى الصباح وفى الساعة الثالثة وما بين هذين الميعادين مجهول . أما فى أوروبا ففى كل ساعة ، وفى كل نصف ساعة ، تصدر جريدة جديدة تحمل بالتلغراف آخر أنباء مصر ، وفى أظهر الأماكن وفى أكثرها احتراماً ، إنها لظاهرة بديعة أيها السادة ، بل إنها لظاهرة تملؤنا أملاً وإيماناً وتزيدنا عزما على عزم . فقد بدأت مصر تحتل مركزها فى العالم الدولى كأمة حية ناهضة ، لها كل مظاهر الحياة ، وحقوق الأحياء كما يفهمونها . بدأت مصر تحت تأثير حوادثها الأخيرة تقرع أسماع العالم بشدة ، وتذكر العالمين أن على ضفاف النيل شعبا جديرا بالحياة والمجد مسلوب الحقوق ، مهدر الحرية ، وقد حانت الساعة التى يرفع فيها هذا الظلم ، وينعم هذا الشعب بالحرية والاستقلال .

صــوت مصــر

وإذا قلت لكم إن العالم بدأ يشعر أن الساعة قد حانت لأن يرفع الظلم عن مصر وعن شعبها ، فإياكم أن يخيل لكم ، أن هناك يداً ستمتد لكم لرفع هذا الظلم وإياكم ثم إياكم أن يخيل لكم أن هناك فى العالم صوتا سيرتفع للدفاع عن قضيتكم ، لا يوجد إلا صوت واحد ويد واحدة ، وهذا الصوت هو صوتكم ، وهذه اليد هى يدكم أنتم . أتعرفون لماذا سمع العالم صوتكم ؟ لأن هذا الصوت قد ارتفع على صوت البارود ومدافع الأساطيل . أتعرفون لماذا وقف العالم ليسمع شكاتكم ؟ لأن شبابكم قد عبّد الطريق بدمه فهزأ بالموت والسجن والتعذيب . انتصفوا لأنفسكم ينتصف العالم لكم ، حلوا قضيتكم بأيديكم فيصفق لكم العالم طربا ، وكونوا أقوياء فيخافكم الأقوياء . وهذا هو مبدئى الذى سافرت به ، والذى عدت به ، وأنا أشد إيمانا واعتقادا به وإصرارا على تنفيذه .

العهــد والميثــاق

عندما بارحت القاهرة ، أذعت على الناس عهدا وميثاقا ، وسأذكر هذا العهد فى هذه الساعة

وأنا مثلج الصدر راضي النفس ، فلم يكن فيه حرف واحد لم يتحقق ولم يكن فيه جزء خاص بي لم أنفذه . قلت إنني إذ أسافر إلى أوروبا ، فلن أعود وفي حقيبتي الإستقلال أو مشروع معاهدة . لا ! لست أسافر لحل القضية المصرية لأن القضية المصرية ستحل هنا في القاهرة ، لا في أي مكان آخر . ستحل القضية المصرية يوم تأتلف الأحزاب ، وتتوحد صفوفنا ، يوم يترفع كبراؤنا عن المناصب ويحتقرون الذهب ، وسوف تحل قضيتنا عندما نقبل على التضحية ونسترخص الأرواح من أجل مصر ــ وسوف تحل القضية المصرية عندما نؤمن بضرورة حلها .

حمدا لله ! فلم أكد أسافر ، ولم تكد أحزابنا تأتلف ، حتى عاد الدستور سريعا . ولم تكد بضعة أرواح تزهق على مذبح التضحية ، حتى استمعت انجلترا لمطالب مصر ، تقدمت تجيب بعض المطالب وتستعد للمفاوضة .

انتصار إرادة الأمة

وهأنذا أعود لأرى مصر العزيزة متمتعة بالدستور ، ولأرى الأحزاب كتلة واحدة ، والأمة من خلفها صفا واحدا ، ولأرى الشباب ما زال متحفزا ومستعدا في كل لحظة لبذل تضحيات جديدة وأرواح جديدة . وفي الحكم وزارة لعلها الأولى في تاريخ مصر ، بل لعلها نقطة حاسمة في تاريخ مصر ، وزارة رفعتها إلى الحكم الأحزاب المؤتلفة بإرادة واحدة ، ويؤيدها ويحبوها بعطفه جلالة الملك فالأمة بأسرها ، تؤيد هذه الوزارة التي تنتظرها مهام جسام : إجراء مفاوضات ، وإقامة برلمان ، وتنفيذ عدة مشروعات إصلاحية ، عرف بها رئيس هذه الوزارة وبعض زملائه . واني أرى في كل ذلك انتصارا لإرادة الأمة ، أرى في كل ذلك مصر القوية التي تظهر كل فضائلها في الساعات التي يخيل للناس وللدنيا أنه قد قضي عليها .

لا أرى الآن في مصر إلا كل ما هو جميل ، يزهى به شعب صالح للحياة . ملك أحس بالأيام الحرجة التي يجتازها شعبه ، فامتزج به يواسيه ويحبه ويشاطره الرجاء والأمل والكفاح ، ويخلع عن أكتافه رداء الملكية الذي يلبسه ، لأجل إعزاز وطنه ، كيما يخاطب الشعب بألفاظ الأبوة ، وكي يقول لكبار الأمة اجلسوا فليس بيننا اليوم عظيم أو صغير ، ولكننا أفراد أسرة واحدة يعملون لأجل رفعة وطنهم .

ألستم ترون أيها السادة أن كل هذا جميل ؟! وأن روح الشعب التي انتصرت هي روح الديمقراطية الحقيقية ؟ وأن مصر هزمت كل أعدائها الذين طالما تحدثوا في مصر عن ملك وشعب ، وشعب وملك ، فإذا بهم لايرون إلا مصر ولا يرون إلا أسرة واحدة ؟ يا إلهي ! هذه الأحزاب المجتمعة في صعيد واحد ، محمد محمود بجانب النحاس بجانب صدقي ، ألستم ترون قوة الشعب التي فعلت ذلك ، لطالما كانوا يقولون إن جلوس هؤلاء على مائدة واحدة مستحيل ، ولم يتزعزع إيماني لحظة واحدة بأن مصر وشعبها يفعلان المستحيل دائما . لقد كانت انجلترا تسرح وتمرح ، وكانت مطمئنة راضية فهي ليست في حاجة إلى أن تعترف بوجود مصر ، لا وليست في حاجة إلى أن تبقي على شبه هذا الاستقلال الذي تتمتع به مصر ، بل لماذا لا تتخذ من الأسكندرية قاعدة بحرية إذا راق لها

ذلك . وما هذا الصراخ حول الدستور؟ ومن أنتم حتى تحصلون . ؟ فعلت انجلترا ذلك مطمئنة إلى اختلاف الأحزاب فى مصر ، واختلافها معناه أن تحكم انجلترا مصر بواسطة المصريين إلى الأبد وبين عشية وضحاها . وإذا بالشباب لا يعرف الأحزاب ، وبين عشية وضحاها إذا بالأحزاب جبهة متحدة . وإذا بالمعجزة قد تمت ، محمد محمود بجانب النحاس إلى جانب صدقى .

معجـزة الائتـــلاف

لو تعلمون كم هللت طربا فى انجلترا ، وكم أحسست بالسعادة والغبطة عندما كنت أجد الانجليز حيارى مبهوتين . يسألوننى تارة : بم أعلل ذلك؟ وكيف تم الائتلاف ، وتارة يظهرون حقدهم وبغضهم لهذه الجبهة . ومقياس الإجادة هنا هو الغيظ هناك . ومقياس الإصابة هنا هو الحقد هناك فإذا ما أحسنتم فسوف يلعنون ويصخبون ، وإذا أسأتم فهناك التصفيق والتهليل ، لأنكم إذا ما كنتم أقوياء ألزمتموهم الحجة ، وإذا ما أسأتم مهدتم لهم طريق ابتلاعكم والقضاء عليكم . ولقد أحسست عظمة مصر كلما حملوا عليها ، وكنت أتمثل ضخامة هذا العمل الذى قام به الشباب ، كلما بدا لهؤلاء الإنجليز مستحيلاً .

فى قلـوبهم مــرض

لقد شرعوا يحملون على مصر ، وشرعوا يأخذون من هذا الائتلاف حجة ضد مصر ، وضد صلاحيتها للحياة ، فكيف تنسى مصر لصدقى باشا ما فعله ؟ وكيف تنسى لمحمد محمود باشا ما فعله ، وكيف يجلس هؤلاء على مائدة واحدة ؟ إننا شعب ضعيف ، وانى لواثق أيها السادة أن فى المصريين بعض المرضى الذين يشاطرون الانجليز هذه النظرة . هناك بعض الأطفال وهناك بعض الأشخاص الذين فوّت عليهم هذا الأئتلاف بعض المصالح ، كما فوّت على الانجليز ، هناك أشخاص تؤرقهم هذه الجبهة ويحاولون أن يطعنوا مصر وأخلاق مصر ، ولكل هؤلاء أقول مثل ما قلت للانجليز ، ان هذه الجبهة هى التى يجب أن يستمد منها كل مصرى إيمانه بقدرتنا على القيام بجلائل الأعمال ! . لقد طالما نعوا على المصريين تشتت كلمتهم . وأقسم لكم أن الإنجليز كانوا فى مقدمة الناعين كى يتخذوها حجة على عدم صلاحية مصر للحياة الدستورية والحياة الراقية ، فإذا ما ائتلفت الأمة ساعة الخطر ، إذا ما نسيت أحقادها وأحزابها . وتكاتفت أمام العدو المشترك ، إذا ما تلاقى المصريون بنعمة الله إخواناً . فهزموا الغاصب وأحرجوه ، إذا ما أعطت للشرق ، بل للعالم بأسره ، مثلاً رائعا فى توحيد الصفوف ساعة الخطر . جاء هؤلاء الأعداء ، وهؤلاء المرضى ، ينعون على مصر توحيد كلمتها وجَمْع قواها .

لا .. أيها السادة : عاش النحاس باشا . وعاش طويلاً وعاش صدقى بجانب النحاس وعاشت الجبهة كلها متراصة متحددة . إن هذا مثل أعلى للتضحية وانكار الذات . مثل أعلى للفناء من أجل الوطن . ويجب أن نشكرهم من أجله . ما بقوا يعملون للوحدة ويسعون إليها .

الوحـــدة .. الوحـــدة

تألفت الجبهة كما قلت لكم ، فعاد الدستور ، وسقطت هذه الوزارة العاتية ، والتى كان يجب أن تسقط منذ أمد بعيد . هذه الوزارة التى راحت ، ولست أملك الآن ، أنا الذى لا أعرف الكره والحقد ، لست أملك بالرغم منى إلا لعنة أصبها على أيام هذه الوزارة السوداء ، وعلى كل ما اقترفت فيها من آثام ، والتى لم تشأ أن تبارح الحكم إلا بعد أن تلطخ صفحاتها بدماء الأبرياء والشبان .

عاد الدستور ، وسقطت الوزارة ، وتألفت هذه الوزارة ، وتقدم الانجليز يظهرون استعدادهم للمفاوضة ، ولست أعرف ما يجرى وما يتم من محادثات فى هذه الأيام ولكنى أبعثها إليكم من فوق هذا المنبر ، كلمة حارة ، كيما تستقر فى نفوسكم ، وكيما تنفذ من هذه الجدران لتستقر فى نفوس الأربعة عشر مليونا ، أبعثها إليكم من هذا المنبر كلمة حارة ، لتقرع أذن كل زعيم ، وكل شاب : هى أن تحافظوا على وحدتكم ، على جبهتكم ، قووا إيمانكم تحصلون على كل شئ .

هذه الوحدة التى دفعنا ثمنا لها كل هذه الآلام يجب أن تبقى ، وأن تستمر . فهى التى سننتصر بواسطتها إن لم يكن اليوم فغدا .

ولذا فإنى أعلن باسم مصر الفتاة ، بل باسم الشباب قاطبة ، أن الوحدة يجب أن تستمر بإخلاص ، والويل لكل من تحدثه نفسه بالخروج على هذه الوحدة كائناً من كان . إن الشباب لن يرحم كل من يعبث بإرادة الأمة . ومصر الفتاة اليقظة لن تسمح لكائن من كان أن يحطم سفينة النجاة ! . وأعود إلى سياق الحديث فأقول : إنه قد وقع كل ما تنبأت به ، وقطعت الأمة شوطا بعيدا فى سبيل أمانيها .

مهمتى فى أوروبا

أما مهمتى فى أوروبا ، كما جاءت فى العهد الذى أخذته على نفسى ، فهى أن أسمع العالم المتمدين صوت مصر وإرادتها . هى أن أهيب بهؤلاء السادة الذين يتحدثون عن حرية الشعوب وحماية الضعفاء ، الذين يدافعون عن استقلال الحبشة ، ان مصر أيضا لها استقلال ، ومصر أيضا لها كرامة ، ومصر أيضا لها حرية ، فماذا فعلوا بهذا الاستقلال ؟ وماذا فعلوا بهذه الحرية وهذه الكرامة ؟

وأشهد أيها السادة : لقد فعلت ذلك أنا وأخى فتحى رضوان فى لندرة (لندن) ، وبعد ذلك فى جنيف .. فى لندرة قابلنا زعماء ، وقابلنا موظفين وكان الجميع يحسنون الإصغاء لنا ! أتعرفون لماذا ؟ لأن الحوادث التى كانت تجرى فى القاهرة كانت تضطرهم للإصغاء . ولقد عقدنا اجتماعات وشاهدنا اجتماعات . وزعنا نشرات ومقالات وأحاديث ، وفى كلمة فهمنا الإنجليز وفهمونا . فما الذى فهمنا منهم وما الذى فهموه منا .

خصوم شرفاء ولكن ..

فهمنا الإنجليز أيها السادة وأعجبنا بهم : أعجبنا بآدابهم ، أعجبنا برقيهم ، وأحسسنا كما أحس زعيمنا سعد زغلول بالأمس أنهم خصوم شرفاء معقولون ، ولكن على شرط .. على شرط واحد أيها

السادة . وفى إغفال هذا الشرط خطر وأى خطر ، إغفال هذا الشرط هو السر فى النكبة التى أصابتنا فى العشر السنوات السابقة على هذه الحوادث الأخيرة ، إغفال هذا الشرط هو الذى أعجز حكوماتنا المتوالية أن تفعل شيئا من أجل مصر . نعم إن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، أقولها بأعلى صوتى . ولكن على شرط أن يكون خصومهم أقوياء ، أما إن كان خصومهم ضعفاء فالويل كل الويل للضعفاء . سوف يصبح الشرف والعقل وسيلة للقضاء على الخصوم الضعفاء .

القميـــص الأخضـــر

فإن أرادت مصر أن تتفاهم مع الإنجليز ، إن أرادت مصر أن تجنى ثمرة شرف الانجليز ومعقوليتهم ، فيجب أن تكون قوية بتوحيد صفوفها ، يقظة بشبيبتها واستعدادها الدائم للتضحية . يجب أن تكون مصر قوية بنظامها ، والنظام هو نصف برنامج مصر الفتاة . فمنذ الساعة الأولى نادينا بضرورة النظام وتنظيم الشباب ، منذ الساعة الأولى أحسسنا بهذه القوة الكامنة فى توحيد الزى ، وإرسال الأناشيد ، فنادينا بالقميص الأخضر ، وفرق المجاهدين . فهزأ منا أقوام ، وسخر غيرهم ، وحاربنا آخرون ، ولكنا ظللنا على عزمنا ومبدئنا ثلاث سنوات كاملة ، عانى فيها القميص الأخضر ما عانى . فكم اقتيد شباب منا إلى السجون ، وكم مزقت العصى أجسادنا . وفى هذه القاعة بعض الضباط يشهدون على ذلك ، فلما كنت فى أوروبا وسمعت عن تأليف فرق القمصان الزرق ، أسعدنى هذا الانتصار . أسعدنى أن شعر الشباب بالحاجة إلى النظام ، أسعدنى أن فكر مصر الفتاة فى النظام والعسكرية قد انتصر ، فالنظام هو القوة ، ومتى صرنا أقوياء فسوف يسمعنا الإنجليز ، سوف يصغون لنا . وكلما زدنا فى القوة زاد حبهم لنا ، وعطفهم علينا ، فليسمعها كل مصرى وليسمعها كل شاب ، ليسمعها كل زعيم ، علينا أن نكون أقوياء وأن نكون أقوياء بالنظام .

هذا هو ما فهمته من الإنجليز ، أما ماأفهمته لهم فهو أننا فى مصر ، المتطرفون أو المعتدلون سواء ، نرغب فى صداقتهم ، نرغب فى التحالف معهم ، تحالف الحر للحر . فإن قبلوا هذه الصداقة فرحبا بهم . فليعطونا حقوقنا وسوف نكون أصدق حلفائهم أما إذا رفضوا هذه الصداقة فيجب ألا ينتظروا منا إلا خصوما أشداء ، لا نكل ولا نمل ولا نلين . نعرف كيف نحاربهم وكيف نستخلص حقوقنا ، وكيف نهدمهم فى الساعة المناسبة .

وفى جنيـــف

أما فى جنيف ، أيها السادة ، فلقد فهمت أشياء أخرى على جانب عظيم من الخطورة ، فهمت أن مصر قد قطعت شوطا بعيدا فى الحياة الدولية ، وأن العالم بأسره يتطلع لها ويترقب حضورها .

حضرت جلسات مجلس العصبة ، عدة أيام متوالية ، وتتبعت كل أعمالها باهتمام ، فقرت فى ذهنى عدة نتائج هى التى أعود مزودا بها من جنيف ، وهى التى ستصبح مبدأ من مبادئى . أما الملاحظات التى لاحظتها فى حضورى كل جلسات مجلس العصبة ، فهى أهمية هذه الأداة الضخمة من حيث الدعاية والتأثير على الرأى العام الدولى . أجل قد يكون هذا التأثير اليوم ليس من القوة بحيث يؤدى إلى نتائج عملية ضخمة ، ولكنه تأثير على كل حال ولست أشك لحظة فى أن هذه العصبة ، لو عاشت عدة

سنوات أيضاً ، فإنها ستنتهى بأن يصبح لها تأثير مادى فعلاً .

تصوروا أيها السادة ، خمسمائة صحافى ، يمثلون صحافة العالم بأسره ، يتلقون كل كلمة صغيرة أو كبيرة ، هامة أو تافهة ، كى يطيروا بها إلى بلادهم ، فإذا بالعالم بأسره يتناقل ما قيل فى جنيف بعد إلقائه بساعات قليلة . ولقد رأيت أمما صغيرة تدافع عن قضيتها والعالم بأسره يتتبع هذا الدفاع ، ولقد رأيت دولاً صغيرة استطاع ممثلوها فى المجلس بما لهم من شخصية أن يؤثروا حتى على الدول الكبيرة . ولقد رأيت وزير خارجية انجلترا المستر إيدن يشترك فى أعمال العصبة عدة أيام متوالية ، ليل نهار بالرغم من وفاة ملك الإنجليز .

ورأيت مندوب دولة باراجواى يتحدى دولة عظيمة كروسيا ، ويستشهد بالعالم على حقه ، ولم تجد أمامه ثورة لتيفنوف وزير خارجية روسيا . وفى كلمة : أحسست بلذعة الألم فى نفسى لغياب مصر عن هذا المجتمع الدولى ، وتخيلت مقدار التفوق الذى يمكن أن يحوزه ممثل مصر على كثير من ممثلى العالم ، والذين لا يكاد بعضهم يبين أو يفهم ، بينما تستطيع مصر أن ترسل عقولاً مشرِّعة ، وأدمغة مفكرة . أحسست بالألم أن لا يدوى صوت مصر ، فيتناوله هؤلاء الصحفيون ، وتنشره صحافة العالم ، فى الوقت الذى ننفق مليونا من الجنيهات على المفوضيات والقنصليات ، وبضع مئات من الألوف على هذه المؤتمرات والمظاهر التى قلما تحرك أصبعاً فى سبيل القضية المصرية . وأحمد الله أنى قمت بواجبى الجزئى ، فأعددت مذكرة بحق مصر فى الدخول فى عصبة الأمم ، وقدمتها لسكرتير العصبة العام ، فتلقفتها صحافة العالم ، واهتمت بها دوائر العصبة .

تقصير معيب

وبعد أن تحدثت مع أكثر من مندوب من مندوبى الدول ، وبعد أن تحدثت إلى عشرات الصحفيين ، لا بل بعد أن تحدثت مع بعض المسئولين فى جمعية الأمم نفسها ، تحول ألمى إلى غضب وحنق على كل هذه الحكومات التى قصرت حتى الآن فى الانضمام للعصبة ، وكل شئ مهيأ لقبولها . فلن تقدر انجلترا أن تعارض طلب مصر فى وقت تدافع فيه عن الحبشة ، لا عقبات قانونية أو أساسية ، الطريق ممهد أمام مصر لتصبح عضوا فى جمعية الأمم ، وهذه مسألة من أخص المسائل المصرية التى لا يمكن للإنجليز أن يعترضوا عليها ، فالدخول فى عصبة الأمم لا يساوى أكثر من التوقيع على أى معاهدة من المعاهدات الدولية .

إلى رئيس الوزراء

وإذن فإنى ألفت نظر رئيس الوزارة المصرية إلى هذه الحقيقة ، ينبغى المبادرة إلى الانضمام إلى عصبة الأمم سواء نجحت المفاوضات أو لم تنجح ، هذا حق لمصر ولا ينبغى تعليقه على نجاح المفاوضات أو فشلها . وهناك ، هناك فى عصبة الأمم ، ستبرهن مصر على حيويتها وقدرتها ، فتدافع عن استقلالها وكرامتها ، وسوف تكون آذان العالم بأسره مفتوحة لها ، وسوف يكون الرأى العام بأسره فى جانبها ، ولكن على شرط واحد ، أيها السادة ، وهو أن نكون أقوياء ، وأن نكون أقوياء أولاً وأخيرا .

لقـــد عـــدت

وهأنذا أيها السادة عدت ، فإذا ما سألتمونى عن برنامجى فإنى أقول لكم إنه يتلخص فى هذه الكلمة ، التى كررتها لكم ، وأعنى بها أن نكون أقوياء . وأن نعد الشباب لأن يكون كامل السلاح والعدة ، هناك مفاوضات ستأخذ مجراها عما قريب ، وسأتكلم فى القاهرة عما يجب أن تتمخض عنه هذه المفاوضات ، ولكنى أبادر منذ الآن فأعلن رغبتى من صميم قلبى . فى أن تنجح هذه المفاوضات ، وسوف نتحاشى كل عمل يكون من شأنه أن يعكر الجو أمام الحكومة وأمام المفاوضات .

لن نضيع الوقت

ولكننا فى انتظار ذلك لن نضيع الوقت ، بل سنمضى فى طريقنا مسقطين من حسابنا نجاح المفاوضات أو اخفاقها ، ذلك أنه إذا نجحت هذه المفاوضات فسوف يكون ذلك نقطة الإبتداء فى جهادنا لبعث مصر وإعادة كل مجدها القديم ، أما إذا فشلت فإن جهادنا متواصل ومستمر . وإننى أدعو الشباب للتهيؤ والاستعداد ، مع ضبط الأعصاب ورباطة الجأش . أدعو الشباب إلى الالتفاف حول راية مصر الفتاة ، ومبادئ مصر الفتاة . أدعو الشعب المصرى بأسره إلى مواصلة كفاحنا السلمى فى ميدان الاقتصاد ، مثل ما فى ميدان الاجتماع والأخلاق .. لا تشتروا إلا من مصرى ، ولا تلبسوا إلا ماصنع فى مصر ، لا تتكلموا إلا بالعربية ، ولا تردوا على من لا يخاطبكم بها .. قووا أرواحكم وعزائمكم بالامتناع عن الخمور ، وعدم الإسراف فى الملاهى . تمسكوا بالفضيلة والأخلاق ، امتلئوا إيماناً بالله وإيمانكم بأنفسكم ووطنكم ، فقد كنتم سادة الدنيا يوماً من الأيام ، وسوف تصبحون سادتها بقوتكم وإيمانكم ، سوف تصبحون سادتها بدينكم وعلومكم ، سوف تصبحون كذلك يوم تعرفون تاريخكم جيداً ، وتثقون بأنفسكم وتملأون قلوبكم شجاعة وجرأة ..

« والمجد لمصر »

مات الملك عاش الملك

وزارة على باشا ماهر

١٦

وكانت وزارة على باشا ماهر ، وعلى باشا ماهر رجل من رجالات مصر النابهين وهو فذ بين رجال الجيل القديم ، ولقد بادر بمناصرة مصر الفتاة منذ اليوم الأول الذى طلبت منه نصرته ، خاصة وأن مصر الفتاة كانت تحفظ للرجل مواقفه المشرفة فى ثورة ١٩١٩ ، وجهاده الموفق لجعل الدستور المصرى على أحدث النظم العصرية ، وتحفظ له أخيرا ثورته فى التعليم عندما كان وزيرا للمعارف فى سنة ١٩٢٥ ، فقد قلب مناهج التعليم رأسا على عقب ، وحولها من برامج الاحتلال إلى برامج الحرية والاستقلال ، فأدخل إليها التربية الوطنية ، واللغة الفرنسية لتنافس اللغة الإنجليزية ، وصحح مناهج التاريخ ، ووضع للمدرسين القواعد التى يجب أن يعالجوا على أساسها التاريخ المصرى ، وأخيرا جعل الرحلات فى جميع أنحاء البلاد ، بل وخارج القطر ، جزء لا يتجزأ من مناهج التعليم . وأدخل السينما فى المدارس ، إلى غير ذلك من الإصلاحات الرشيدة ، ولقد استطاعت مصر الفتاة أن تتنفس الصعداء فى ظل وزارته لأول مرة فى تاريخها ، فرحنا نجتمع فى حرية ، ونجوب البلاد فى حرية ، وسرعان ما اشتد نشاط مصر الفتاة فى كل مكان ، فتألفت الشعب ، وأقيمت الاجتماعات العامة ، ودعيت للخطابة فيها فى سراداقات تتسع للألوف من المستمعين . وبدأت روح مصر الفتاة تسرى فى كل مكان . ولما أن كان العيد اجتمعنا ، بعد ثلاث سنوات كاملة من اجتماعنا الأول ، فوق صخور الأهرام ، وألقيت فى ذوى الأقمصة الخضراء الذين وفدوا إلى الاحتفال بالعيد من كافة أنحاء القطر ، ومنهم من حضر سيراً على الأقدام ، خطابا ناريا ، هاجمت فيه خصوم مصر الفتاة ، هجوماً عنيفاً لأول مرة ، وفندت الاتهامات التى وجهوها لمصر الفتاة ، وأظهرت كيف كذبتها الحوادث والوقائع واحدة بعد أخرى ولقد نشر هذا الخطاب فى طبعة إيمانى الأولى وهو منشور فى العدد ٢٢ من جريدة الصرخة الصادر فى ١٠ مارس سنة ١٩٣٦ والذى يحوى فوق ذلك صوراً رائعة لهذا الاحتفال العسكرى المهيب لذوى الأقمصة الخضراء .

وكانت المفاوضات بين مصر وانجلترا تجرى فى هذه الأيام فى القاهرة ، وكان حتما علينا أن نتربص نتيجة هذه المفاوضات وما تستفر عنه ، ولم يكن باستطاعتنا أن نسبق الحوادث ، أو نسرف فى الهجوم أو الانتقاد ، فانصرفنا إلى تقوية صفوفنا وإعادة تنظيمها ، ونشر دعاياتنا .

مصر الفتاة والانتخابات

وكان مقررا ، وقد عاد الدستور أن يجرى على باشا ماهر انتخابات عامة فى أنحاء البلاد لإعادة تأليف البرلمان المصرى ، بنوابه وشيوخه ، ولقد أجرى على باشا ماهر الانتخابات فى جو من النزاهة والحرية لم يسبق له مثيل من قبل أو من بعد ، وكانت فرصة سانحة لمصر الفتاة أن تظهر مدى ما وصلت إليه من تمثيل للرأى العام ، وتعبير عن إرادته ، لولا أن قانون الانتخاب يحتم أن يكون سن المرشح ثلاثين سنة ميلادية على الأقل ، ولما لم يكن فينا من بلغ هذه السن ، بل لم يكن فينا من بلغ خمسة وعشرين سنة فقد كان ذلك سببا قاهرا حال بيننا وبين خوض المعركة الانتخابية ، وقد أصدرت باسم مصر الفتاة بيانا نشرته الصحف بصدد موقفنا من الانتخابات ، وهذا نصه :

الانتخابات وجمعية مصر الفتاة

راع الكثيرين ألا يجدوا فى المعركة الانتخابية صوت الشباب الذى حمل لواء الكفاح ، والذى أعاد للأمة دستورها وهيبتها ، راع الرأى العام ألا يجد مرشحين لمصر الفتاة ، مرشحين يعبرون عن الجيل الجديد وآمال مصر الحقيقية ، فوُجِّهت إلينا مئات الأسئلة عن سبب عدم اشتراكنا فى الانتخابات وخوض غمارها ، أهو عجز منا ؟ أو ضعف أو زهد فى الانتخابات ؟ والحق أن الأمر ليس هذا ولا ذاك ، ولكنه نتيجة حتمية لقانون الانتخابات . فواضعوه قد تعمدوا أن يُقصوا الشباب عن معركة الانتخابات ، فحددوا سن النائب بثلاثين عاماً على الأقل ، معارضين فى ذلك كل ما جرى عليه العرف فى البلاد الدستورية ، وهو أن لكل ناخب الحق فى أن يفوز بعضوية مجلس النواب . ولما كانت مصر الفتاة ، ليس فى قادتها وكلهم من الشباب من يملك هذا النصاب من السن ، فنحن بهذا محرومون من خوض المعركة الانتخابية .

وكم كنت أود من صميم قلبى أن تكون هذه الانتخابات وسيلة لإظهار روح الشباب والكفاح ، كم كنت أود أن تدور هذه المعركة الانتخابية حول المبادئ والبرامج ، لاحول الألقاب والأشخاص ، كم كنت أود أن أعرض على الأمة برنامج الشباب السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى من شأنه أن يبعث من مصر مصراً جديدة ، وأن يحقق استقلالها وسيادتها وحريتها ، ولكن تشاء الأقدار أن تضم هذه المعركة الانتخابية القادمة إلى سابقاتها من المعارك بكل ما فيها من خصائص

وأشكال . على أن كفاحنا خارج البرلمان سيكون أشد منه تحت قبته . وها نحن أولاء ماضون فى طريقنا،والله يرعانا ويهدينا سواء السبيل .

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

مات الملك

وشاء الله أن يقع فى هذه الفترة حادث يختم صفحة من تاريخ مصر ليفتح صفحات جديدة . فقد مات الملك أحمد فؤاد العظيم . مات الملك فؤاد بعد أن جمع القلوب حوله ، وكان له أكبر الأثر فى تأليف الجبهة المتحدة من الأحزاب المصرية ، وبعد أن أعاد الدستور للبلاد . ورسم للمفاوضين طريق الحرية والاستقلال . مات الملك فؤاد فبكته مصر بأسرها . بعد أن أظهرت لها الأيام والسنون والحوادث المتعاقبة ، كم كان هذا الملك عظيما محبا لمصر ولعظمة مصر ومجد مصر . لقد كان الملك فؤاد ممن يؤثرون العمل فى صمت ومن وراء ستار . فلم يجعل ذلك منه إبان حياته ملكا شعبيا ، بل لطالما أساء الشعب فهمه وفترت عواطفه بالنسبة له . ولكن الموقف الرائع الذى وقفه فى أخريات حياته . عندما جابه الانجليز بالرغم من مرضه وضعفه ، وعندما جمع رجالات مصر حول فراش مرضه وناشدهم الله والوطن أن يتحدوا من أجل مصر . هذا الموقف الخالد فى تاريخ مصر الحديثة . فتح عيون الشعب على عظمة الملك فؤاد ووطنيته ، وما بذله من جهد فى سبيل أمته . فأفعمت قلوب الشعب بالمحبة له والإشادة باسمه . وكأن ذلك كان مسك الختام . وكأن الله قد أراد أن يكافئ الملك أحمد فؤاد على إخلاصه وصدقه فبارح هذه الدنيا وهو فى ذروة مجده ، وليس فى مصر كلها من لا يبكيه بالدمع الهتون .

مات أحمد فؤاد ، ووجفت القلوب واضطربت ، وتساءل كل إنسان : وماذا يكون موقف مصر ؟ وماذا يكون موقف انجلترا ؟ وهذه أول مرة يموت فيها الملك فى ظل الاستقلال والدستور المصرى ؟ ! ! هل يتدخل الانجليز كما اعتادوا التدخل من قبل ؟ وماذا يكون موقف الشعب المصرى إزاء هذا التدخل ؟!

وهنا تجلت مقدرة على باشا ماهر الفائقة ، ووطنيته وإخلاصه ، فقد تصرف بسرعة وحزم شديدين ، فى تطبيق قواعد الدستور . فاجتمع مجلس الوزراء ونادى بولى العهد فاروق ملكا على مصر . وبهذا صح فى مصر ما يصح فى كل بلد مستقل عندما يقولون

«مات الملك ، عاش الملك ! ! » ولم تكد الدنيا تسمع بأنباء وفاة الملك فؤاد حتى كانت تسمع بعد ذلك بساعات قلائل تولية الملك فاروق عرش آبائه وأجداده ، وتم ذلك بدون تدخل الإنجليز عن قرب أو بعد ، بل بدون أن يعرض الأمر على الإنجليز الذين وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع المحكم ، فلم يستطيعوا إلا أن يقروه وأن يرضوا عنه ، خصوصاً وأن المفاوضات كانت فى ذلك الوقت جارية لوضع هذه المحالفة والمعاهدة التى كانت تحرص انجلترا كل الحرص على إبرامها .

ولقد كتبت فى جريدة الصرخة مقالاً تاريخيا أؤبن به الملك الراحل ، وأستقبل به الملك الجديد وهو جدير بالتسجيل لخطورة المناسبة .

مات الملك الشيخ وجاء الملك الشاب

هى صفحة تطوى وجيل بأسره يفسح الطريق

وهى صفحة تنشر وجيل بأسره يتقدم إلى الأمام ، فى عزم وثبات ويقين

مات فؤاد صاحب الأمجاد الكثيرة والأعمال الباهرة . مات فؤاد العاهل العظيم الذى حرر مصر من ربقة الاستعباد وقادها إلى التحرر والاستقلال . الذى قاد مصر الضعيفة الفقيرة المزيلة حتى صيّرها القادرة الغنية رافعة الرأس موفورة الكرامة . مات فؤاد الذى اقترن اسمه طوال سبعة عشر عاما بكل ما هو جميل وجليل . بكل ما هو نافع ومفيد . مات فؤاد الذى نقش اسمه على ألوف من المؤسسات والمشاريع التى ملأت مصر بالحياة والعزة والثروة . هذه الشركات وتلك المصانع ، أى واحد منها لا يحمل حجره الأساسى اسم فؤاد؟ هذه المدارس ودور التعليم . هذه الجامعة وهذا الأزهر . هذه الجمعيات وكل هذه الأعلام ألم يزينها دائما اسم أحمد فؤاد؟ وأنها شيدت فى عصر أحمد فؤاد؟ مات فؤاد الذى حكم مصر سبعة عشر عاما لم تخل من هنات هينات ، ما فى ذلك شك . ولكن هل يكون الكمال إلا لله وحده؟ .. وأين هذا الإنسان الذى تنزهت صفاته وجلت أعماله عن الخطأ ، إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام؟ أو لم يقل لنا شاعر الحكمة أن «كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه»؟ فهو فخار ما بعده فخار لجلالة الملك الراحل ، ومجد ما بعده مجد أن يبحث الناس فى حكمه الطويل فلا يجدون إلا كل ما هو حسن وجميل ، ولا يجدون من الأغلاط إلا النزر القليل وكان حسن النية فيه من غير شك وربما لم يكن مسئولاً عنه إلى حد كبير .

هذا هو جلالة الملك الراحل وهذه أقدار أول ملك لمصر المستقلة الذى قاد سفينة مصر فى أعصب الساعات وسط الرياح والعواصف حتى قربها من الميناء . وهو بعد ذلك المصلح المعمر البناء ، الذى ملأ مصر عملاً وتجديدا .

على أن وفاة جلالة الملك فؤاد ، وارتقاء جلالة الملك فاروق تبعث فى نفوسنا أملاً وتفاؤلاً وإيمانا جديدا ، فلست من هؤلاء المتشائمين الذين ينظرون إلى المستقبل بمنظار أسود ، بل إن إيماننا ليجعلنا

نشعر بالاغتباط واليقين بأن مستقبل مصر سيكون أسعد من ماضيها ، وأن الحوادث تقربنا من غايتنا العظيمة ، هذه التي نرى عندها مصر القوية التي تمتد حتى خط الاستواء ، والتي تحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام ، بأن جلالة الملك فاروق أول ملك قد عينته الإرادة الشعبية منذ أكثر من مائة عام أي منذ أن اتفقت كلمة المصريين على انتخاب محمد علي باشا رأس العائلة المالكة فإن جلالة الملك الراحل قد تلقى خطاباً من المندوب السامي يبايعه بالسلطنة . ومن قبله السلطان حسين بايعه المندوب السامي كذلك .

ومن قبل كانت الفرمانات التركية تتدخل في تعيين والى مصر . أما جلالة الملك فاروق فهو أول ملك مصري عتيد جاءت به إرادة شعب مصر المستقلة السعيدة ، وهنا لا يسع الإنسان إلا أن ينحني إعجاباً وتقديراً لهذا الرجل الذى قام بهذا العمل العظيم وأعنى به صاحب الدولة علي باشا ماهر رئيس الوزراء ورجل الساعة الذى أنقذ مصر من شر كبير . مات فؤاد وقد طويت بموته صفحة الجيل القديم ، فلقد كان علماً على هذا الجيل ، وكان ممثلاً لكل صفاته ، وكان أعظم من في هذا الجيل فلا يوجد رجل واحد من جيل الملك الراحل يستطيع أن يتزعم الجيل كما تزعمه الملك فؤاد واذن فقد طويت هذه الصفحة إلى غير نشور حتى يوم الحساب بكل ما فيها من حسنات وسيئات ونشرت صفحة جديدة هي صفحة الجيل الجديد صفحة الشباب بكل ما في هذه الصفحة من قوة واعتزاز وتطلع لمستقبل أسعد وأمجد وبارك الله في جلالة الملك فاروق الذى عبر عن عهده فأحسن التعبير ، والذى تكلم باسم الشباب فأجاد الكلام فقد قال « وإني أتعهد أن أعمل حتى تتبوأ مصر المكانة اللائقة بها بين الأمم » أجل سوف يعمل جلالة الملك فاروق وسوف نعمل جميعاً معه . سوف نكافح وسوف نناضل وسوف نعمر وسوف نصلح . سوف نكون أقوياء أشداء أعزة سادة لبلادنا ، لا نعرف مستعمراً ولا نقره ، ولا نرضى بدخيل ولا نقره ، ولا نرضى بذل أو عبودية . استغفر الله ، بل لا نرضى برائحة الذل . هذا هو العهد الذى نستقبله في ظل جلالة الملك فاروق . فليصمت الناعقون ، ولتقطع ألسنة المتشائمين وليفسحوا الطريق للشباب والجيل الجديد . ليفسحوا الطرق للملك الشاب ولجموع الشباب ، ليفسحوا الطريق فإن لنا سواعدا وفي قلوبنا إيمان ، ولنا إرادة تهد الجبال وتذيب الحديد . والمجد لمصر .

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

انتصار الحياة الدستورية

وزارة الوفد

١٧

لم يدم حكم على باشا ماهر طويلاً ، فقد كانت وزارته فى صبغتها بمثابة وزارة انتقال ، وقد دام حكمها مائة يوم ، كانت كلها خيراً وبركة على مصر من غير شك ، ووقعت فى هذه المائة يوم أحداث جسام لا تمر فى حياة الأمم أمثالها كثيرا ، فكان على مصر أن تؤلف وفدا للتفاوض مع انجلترا فى قضية الاستقلال ، وقد ألف على باشا ماهر هذا الوفد من جميع الأحزاب برئاسة مصطفى باشا النحاس ، وكان على الوزارة أن تعيد الحياة النيابية ، فأجرت الانتخابات التى أشرنا إليها فيما سبق ، والتى جرت فى حرية لم يسبق لها مثيل ، ثم كان هذا الحادث الذى مات فيه الملك فؤاد ، وتولى الفاروق عرش البلاد .

ولما كان الملك فاروق لم يبلغ سن الرشد بعد ، فقد أقيم مجلس الوصاية المؤلف من صاحب السمو الملكى الأمير محمد على ، وشريف باشا صبرى ، وعزيز باشا عزت ، وقد كان الرأى العام يخشى كل الخشية أن يكون نسيم باشا واحدا من هؤلاء الأوصياء ، لما كان معروفا ومشهورا من أنه واحد منهم بناء على طلب الإنجليز بالذات ، ولكن عندما فتحت وصية جلالة الملك تبين أن إسمه قد استبعد فى اللحظة الأخيرة ، فتنفست البلاد الصعداء .

لم يكد على باشا ماهر يفرغ من توطيد أركان الدولة ، حتى كان عليه بحكم الدستور أن يفسح الطريق لوزارة الأغلبية التى أسفرت عنها الانتخابات ، ولم تكن هذه الوزارة سوى وزارة الوفد التى جاءت إلى الحكم بأغلبية كبيرة . ولم يكد صاحب الدولة مصطفى باشا النحاس يتقلد منصب زمام الحكومة حتى بادرت بتهنئته ، فبعثت إليه بالبرقية التالية :

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا

مجلس الوزراء

إن تقلدكم الوزارة انتصار باهر للحياة النيابية ، وتوطيد لدعائم الدستور يقابله المصريون جميعا بفرح وابتهاج ، وإنى لأتمنى لحكومتكم كل توفيق فى تحقيق برنامجها الذى تفضلتم بإعلانه ، والمجد لمصر

أحمد حسين

رئيس حزب مصر الفتاة

ولقد شرحت باستفاضة ما تنوى عليه هذه البرقية من معان ، فى مقال افتتاحى أرى أن أسجله بنصه لأهميته وخطورته بالنسبة لتاريخ العلاقات بيننا وبين الوفد ، وستظهر هذه المقالة أننا لم نتجن على الوفد فى يوم من الأيام ، وأننا رغم الخصومة الشديدة التى وجهها إلينا ، ظللنا ننظر إليه كممثل أعلى للشعب والأغلبية ، وعملنا دائماً أبداً على التعاون معه فيما يعود على البلاد بالاستقلال والنفع ، وعلى الشعب بالحرية ، والرفاهية ، والفائدة وأننا لم نكن ، ولن نكون فى معارضتنا للوفد ، ولغيره من الأحزاب إلا طلاب حق ، وإنصاف ، وحرية .

الوزارة الجديدة . وكيف نستقبلها

تهنئة وترحيب وصراحة فى الحق

وأخيراً جاءت الوزارة الدستورية ، وزارة الأغلبية ، وزارة الوفد فحق على كل مصرى الابتهاج ، والفرح ، ولنا فى ذلك عدة أسباب :

أما أول هذه الأسباب : فهو ما أجبت به يوما السيرجون وارد لوملن رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الإنجليزى ، عندما كنت فى لندرة[1] (لندن) فى الشتاء الماضى ، فقد عرف الرجل من تقارير وزارة الخارجية البريطانية ، أننى لست على وفاق تام مع الوفد ، فرأى أن ينتهز هذه الفرصة ، وأن يستغل ذلك فسألنى :

علام تتحمسون لدستور سنة ١٩٢٣ ، وأنتم واثقون أنه يرفع الوفد إلى الحكم بأغلبية ساحقة ، وأنه يقصى الأكفاء عنه ؟ فأجبته إجابة قاطعة ، اضطرت الرجل أن يحترم ما فيها من وطنية ومنطق ، وإخلاص لمصر وحريتها ، إذ قلت له : إن دستور مصر ، مظهر من مظاهر استقلالها ، وسيادتها فكل عدوان على هذا الدستور ، إنما هو عدوان على استقلال مصر ، قبل أن يكون عدوانا على الدستور ، وإذن فقد وجب على كل مصرى أن يدافع عن الدستور ، دفاعه عن الاستقلال ، وإلا كان

---

(١) اسم ظل يستعمل فى مصر حتى نهاية الأربعينات للعاصمة البريطانية ، وهى اللفظة الفرنسية للكلمة .

مفرطا ، وخائنا ، ومارقا . وإننى لأتحمل أن أرى أعدائى يتحكمون فىّ باسم استقلال مصر وسيادتها ، من أن أرانى منعما مترفا بالحرية فى ظل استقلالها المحطم ، وكرامتها المهدرة .

أما ثانى الأسباب التى تحدو بى للترحيب بالدستور ووزارة الأغلبية : فهو ما يحدثه من الثقة فى نفوس أفراد الشعب . وشك خصومهم فى إمكان التغلب على إرادتهم ، فاليوم يشعر كل مصرى أن له إرادة وله قدرة ، وأن كفاحه الطويل وثباته قد نصره وحقق أمانيه . وإذن فالكفاحَ الكفاحَ ، والثباتَ الثباتَ دائما .

واليوم يشعر المصريون أنهم ليسوا أولئك الضعفاء الذين لا يملكون لأنفسهم قليلاً أو كثيرا . واليوم يعرف من تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على إرادة الأمة وكرامة الأمة أن مصيرهم الهزيمة والاندحار . وهذا المعنى وحده ، يكفى لحملى على الهتاف من أعماق قلبى اليوم للدستور ، وانتصار إرادة الأمة .

إن فى بلد مثل مصر ، يحاول الإنجليز أن يسيطروا على حريتها ، وأن يتدخلوا فى مرافقها . إن فى بلد مثل مصر ، مغلوبة على أمرها ، ويراد بها أن تبقى طويلاً فى الأسر والتأخر ، ليس من شئ سوى الحياة الدستورية يلقى الضوء على جميع تصرفات الحكومة ، ويجعلها تجرى تحت رقابة الشعب ونوابه . ليس غير الدستور تتطور فى ظله الآراء الحرة ، وتنطلق الأقلام ، وترتفع الأصوات المدوية ، تهيب بالأمة أن تتطور ، وأن ترقى وأن تحصل على حقوقها . وهذا هو ثالث الأسباب الذى يحدو بى وبكل مصرى ، أن يقابل تقلد الأغلبية للحكم بالابتهاج والترحيب .

فما بالك وقد أعلن رئيس الأغلبية برنامجا نص فيه على إتمام الاتفاق مع انجلترا ، وتسوية المسائل المعلقة التى تشوب استقلال مصر ، وأنه سيضمن العدالة والحرية لجميع الأحزاب على السواء . وأنه سيصلح فى كل مكان ، وأنه سيجعل محور اهتمام الحكومة خاصا بالفلاح . وكل هذه مسائل لا يسعنا إلا أن نقابلها بالابتهاج والترحاب ، وإلا كنا خائنين لعهودنا التى قطعناها على أنفسنا ، وهى أن نمجد كل ما فيه خير لمصر ، وتحقيق لاستقلالها ورفاهيتها .

فالاتفاق مع الإنجليز بما يحقق استقلال مصر وسيادتها الكاملة غير المشوبة بنقص ، هو جل ما يصبو إليه المصريون ، من الإسكندرية حتى خط الاستواء .

وهو أهم ما يصبو إليه جنود مصر الفتاة ، الذين يريدون أن تفرغ مصر من بعض مشاغلها مع الإنجليز ،وأن تتحلل من كثير من قيودها ، حتى تنطلق إلى الامام فى تنفيذ برنامجها العتيد ، والذين تريدون به أن تحيوا مجد أمة ، حتى يشرق على العالمين .

ومن ذا الذى لا يطرب لسماع كلمة العدالة ، وهى نور الله ، ورحمته على العالمين ؟ من ذا الذى لا يبايع الوزارة على نشر العدالة ، والحرية والمساواة بين الجميع ؟ من ذا الذى لا يتمنى من الله أن يوفقها فى تحقيق هذا الذى أخذته على عاتقها ؟!

بارك الله فى وزارة تتعهد أن تجعل الفلاح محور اهتمامها . فالفلاح هو مصر وكل تجاهل للفلاح ، تجاهل لمصر ، وكل تقصير فى حقه ، تقصير فى قضية الوطن والإنسانية . فنحن نهنئ الوزارة الجديدة ما بقيت عاملة على تحقيق هذا البرنامج . نهنئ الوزارة ما نشرت الحرية ، والعدالة ، وحققت المساواة . نهنئ الوزارة ما عملت على استكمال مصر سيادتها . وهذا هو العهد بيننا وبينها ، ولعنة الله على من يحنث بالعهد ، أو يخرج عليه .

أجل .. فو الله لن نسكت على ضيم ، ولن نتغاضى عن تفريط . ووالله لنكونن كما كنا ، دائما أشداء فى الحق ، لا يثنينا بطش أو وعيد ، ولا يؤخرنا إرهاب أو تهديد .

ونسأل الله أن يهدينا جميعا سواء السبيل ... والمجد لمصر.

أحمد حسين

رحـلة فى الصعيـد

سـيرا على الأقـدام

١٨

كان مؤدى الخطة التى قررنا انتهاجها بالنسبة للوزارة الجديدة ، خطة التهنئة والترحيب ، ثم التربص بها لمعرفة إلى أى حد تطابق أفعالها أقوالها ووعودها ! وكان مؤدى استمرار المفاوضات بين مصر وانجلترا من ناحية أخرى ، أن فكرت فى استغلال هذه الفترة من الهدوء والانتظار فى عمل إيجابى لتحقيق أغراضنا وأهدافنا ، ففكرت فى القيام برحلة أبتدئ فيها من الشلال صوب القاهرة ، مخترقا صعيد مصر كله سيرا على الأقدام ، أى ما يقارب ألف كيلو متر. وكان هدفى من هذه الرحلة أن أجوس خلال الوطن المصرى بلدة بلدة ، وقرية قرية ، وشبرا وشبرا ، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق السير على الأقدام. فرأيت أن أقدم على هذا الأسلوب لما فيه من دعاية لصلابة عودنا وقوة مراسنا ، ولما فيه من تعويد للشبان على استسهال كل صعب ، والصبر على كل مشقة. فليس كالسير على الأقدام ما يغرس فى الإنسان عديدا من الفضائل ، على رأسها فضيلة الصبر. ولقد تحمس للفكرة معى بضعة نفر من أعضاء مصر الفتاة ، قرروا أن يزاملونى فى رحلتى ، وأن يشتركوا معى فى هذه الغزوة السلمية لصعيد مصر. وكانت الرحلة يعد لها منذ زمن بعيد ، فلما جاءت وزارة النحاس باشا كان ذلك ميعاد تنفيذها ، فأعلن عنها فى الصحف.

ولقد كانت هذه الرحلة بهذا الأسلوب محل دهشة وتهكم ، فى بعض الأحيان ، وادعاء بأنه من المستحيل تنفيذها .. ودهش الناس بالأخص من أن نختار فصل الصيف لهذه الرحلة ، وأن نجتاز صعيد مصر فى أيامه المحرقة سيرا على الأقدام .. ولكن كل هذه الصعوبات والتهويلات لم تكن تزيدنى إلا عزماً على وجوب الإقدام على هذه الرحلة. ولذلك فقد حددت اليوم والساعة التى تقوم فيها البعثة إلى الصعيد ، وهى الساعة الثامنة من مساء يوم الخميس ٢٨ من شهر مايو.

ونشرت فى مصر الفتاة ووزعت على جميع الصحف البيان التالى :

بعثة مصر الفتاة فى الصعيد

مطالب مصر الفتاة من الحكومة

أسافر فى مساء الخميس ٢٨ فى تمام الساعة الثامنة إلى الشلال مصطحبا معى عشرة من مجاهدى الجمعية القدماء . ومن الشلال سوف نقصد القاهرة سيرا على الأقدام متنقلين من بلد إلى بلد ، ومن قرية إلى قرية ، متحدثين إلى الفلاحين جماعات وأفرادا . وليست هذه الرحلة إلا تنفيذا لعهد قطعته على نفسى أن أحيا كما يحيا الفلاحون ، وأن آكل كما يأكلون وأن أشرب مما يشربون ، وأن أتحمل شظف العيش الذى يتحملون . فقد طالما أهملنا الفلاح وهو سر الحياة فى مصر ، وسر مجدها . فلقد جعلنا من الفروق والحواجز بين رجل السياسة والفلاح سدودا وأى سدود . ومصر الفتاة التى لها سياسة جديدة وروح جديدة تقدم دليلاً على صدق كفاحها ، فتختار فصل الصيف للقيام بهذه الرحلة الشاقة ، التى نسأل الله أن يوفقنا لإتمامها . واخترنا أن تكون رحلتنا مظهرا من مظاهر الكفاح الروحى والنفسى ، فنصبر على الشدة ونسير على الأقدام ، باحثين عن روح مصر الحقيقية بين ثنايا الريف ، روح مصر الخالدة التى صارعت الزمن وبهرت الدنيا وأشرقت على العالمين .

إذا كنت أرجو أن تتم هذه الرحلة فى ظل الحرية العامة التى أباحها الدستور ، والتى أعلنت الوزارة تحقيقها لجميع الأحزاب على السواء ، فإنى أتوجه قبل سفرى ، إلى الحكومة والبرلمان ، ببضعة مطالب يؤمل الشباب تحقيقها على وجه السرعة فى أشهر الصيف المقبلة ، ولا يقبل فيها مهادنة أو تأخيرا وهى :

أولاً ـ العمل على زيادة الجيش زيادة سريعة كافية للدفاع عن مصر ، فإن خطر الحرب أصبح يهدد مصر أكثر من تهديده لأى بقعة أخرى فى العالم .

ثانياً ـ العمل على حل مشكلة المحاكم المختلطة بإصدار قرار بإلغائها ، بعد عام من تاريخه تطبيقا لمرسوم إنشائها ، واتخاذ الإجراءات التمهيدية لإلغاء الإمتيازات ، وتدبير المال اللازم لزيادة الجيش ، ويكون ذلك بإعلان من جانب الحكومة المصرية .

ثالثاً ـ إلغاء قانون الاجتماعات وحماية الموظفين وإضراب معاهد التعليم وجميع القوانين الاستثنائية والمقيدة للحرية .

رابعاً ـ تخفيض مرتبات كبار الموظفين الذين يتقاضون فوق المائة جنيه ، وذلك أسوة بما فعل جلالة الملك ، وبنفس النسبة ، وصرف جزء من الوفر لصغار الموظفين لتحسين حالهم .

هذه هى المطالب التى يرجو الشباب المبادرة بتنفيذها . وإنى أسأل الله أن لا تنقضى أشهر الصيف الأربعة حتى نكون قد فرغنا منها ، كيما نواجه الطوارئ الجديدة فى العام المقبل ، بأكثر مما نحن قوة ومناعة واستعدادا لتحقيق رسالتنا . رسالة السلام .

والمجد لمصر

الحكـــومة تعـــترض

وقبيل سفر البعثة بأربعة وعشرين ساعة تلقيت دعوة من حسن باشا رفعت وكيل وزارة الداخلية لمقابلته ، فذهبت إليه فى الموعد المحدد فإذا به يحيطنى علما أن ارتداء القميص الأخضر فى هذه الرحلة ممنوع ، وأن دولة رئيس الحكومة يسلم علىّ ، ويطلب منى العدول عن هذه الرحلة أو على الأقل عدم ارتداء الأقمصة الخضراء فيها .

فقلت : أما عن العدول عن الرحلة فهذا ما لا محل له بحال من الأحوال ومالا أعرف سببا يدعو إليه ، فأنا حر أذهب حيثما أشاء ، وأنى أشاء ، وأنا كرئيس لجماعة سياسية أختار الوقت الذى يناسبنى للسفر فيه إلى هذا المكان أو ذاك . أما بالنسبة للاعتراض على ارتدائى وإخوانى القميص الأخضر فهو اعتراض غير مفهوم ، لأن الحكومة الحاضرة قد أنشأت فرقا للأقمصة الزرقاء ، فلست أعرف كيف تبيح لنفسها ما تحرمه على الناس . ولست أعرف ، ونحن فى ظل الدستور ، بأى سلطان تحول الحكومة بين مصرى وبين أن يلبس ما يشاء ويختار من زى ، مادام أنه لا يخالف القانون . فإذا كانت الحكومة تريد أن تحظر علينا ارتداء القميص الأخضر فلتحظر أولاً على أتباعها لبس القميص الأزرق ، أو فلتصدر قانونا يحرم على المصريين لبس الأقمصة الملونة ، وعندها يكون هذا المنع مفهوما . أما فى ظل الدستور والحرية ، فلست أجد أى مسوغ لأن تحجر الحكومة على حريتى بهذا الأسلوب .

قال لى حسن باشا رفعت : ولكن الحكومة ستكون مضطرة إلى مضايقتك والاصطدام بك ، إذا قمت بهذه الرحلة مرتديا هذا القميص الأخضر . قلت له : إن ذلك ليس سببا يدعونى بحال من الأحوال للرجوع عن عزمى فسوف أسافر ، وللحكومة أن تفعل بى ما تشاء قوة واعتسافا ، ولكننى لن أسمح لها أن ترهبنى لكى أكف من تلقاء نفسى عن ممارسة حقوقى .

وافترقنا على ذلك فكان ذلك أول نذير بالشر المستطير الذى سيقع بيننا وبين حكومة الوفد . ولعل المطالع لهذا الكتاب يلحظ أننا لم نكن البادئين بالعدوان ، وأننا على العكس من ذلك هنأنا الحكومة ورحبنا بها وتمنينا لها كل نجاح وتوفيق ، وكنا مخلصين وصادقين فى رغبتنا فى التعاون مع حكومة الوفد لمصلحة البلاد . ولو أن دولة مصطفى النحاس باشا استدعانى شخصيا لمقابلته والتفاهم معى لتغير الموقف من غير شك ، أما أن يوسط بينى وبينه حسن فهمى رفعت باشا وهو الذى كان يمثل فى كل عهد وفى ظل كل

حكومة قوة البطش بمصر الفتاة فقد ساعد ذلك على خلق جو من سوء التفاهم بيننا وبين الحكومة ، ظل يشتد ويتفاقم حتى وصل إلى درجة سيئة خسر فيها الوفد كثيرا ، وخسرنا من جراء هذا الصدام الذى كان أولى منه التفاهم والتعاون على كل ما يحقق مصلحة البلاد .

بــــدء المعــركــة

رأينا أن نسافر فى الموعد المحدد من محطة الجيزة بدلا من محطة العاصمة لكى نتفادى إجراءات المنع فى محطة العاصمة . وقد نجحت خطتنا فلم يعترضنا أحد ، وأسرع بنا القطار قاصدا الشلال ، فوصلنا إلى نهاية الخط الحديدى المصرى .

والحق أننى لا أعرف ماذا أثبت وماذا أغفل من أنباء هذه الملحمة التى بدأت بيننا وبين الحكومة ؟ فقد وصلنا فى صباح الجمعة ٢٩ مايو سنة ١٩٣٦ ، ولقد كان ذلك حدثا فى تاريخ مصر الفتاة ، بل وفى تاريخ مصر الحديثة كلها ، بغير شبه أو مثيل . فقد بدأ صراع بين الدولة والحكومة ، ممثلة فى رجال البوليس ، وبين نفر من الشبان الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولا يملكون من أسلحة الدنيا إلا إيمانهم وعزيمتهم التى لا تقهر . وقد استمر هذا الصراع طويلاً إلى أن انتهى بانفجار مدوٍّ هز مصر من أقصاها لأدناها ، بل وتجاوز مصر إلى خارج الحدود ، واهتزت أسلاك البرق تبعث بأنبائه إلى جميع أنحاء العالمين .

بدأ الصراع بمجرد وصولنا إلى محطة الشلال ، حيث وجدنا قوات ضخمة من رجال البوليس فى انتظارنا ، ولم نكد ننزل من القطار حتى أحاطوا بنا إحاطة السوار بالمعصم ، وقادونا إلى مكان بعيد عن كل عمران تحيط به مياه راكدة ، وحتّموا علينا أن يكون ذلك هو محل إقامتنا ، فرضينا بذلك ، وأسرعنا إلى نصب خيامنا والاستقرار فى ذلك المكان . وضرب البوليس حصارا على هذا المعسكر لكى يحول دون اقتراب أحد منه ، أو دون تسرب أحد ممن فى داخله . وبدأت بعد ذلك سلسلة من الحوادث والاحتكاكات والأزمات والاعتداءات والمغامرات ، وامتلأت صفحات جريدة الصرخة بالأنباء المفصلة يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة لهذه المعركة التاريخية ، وبالمجهود العجيب الذى قامت به هذه البعثة فى قطع عشرات من الكيلومترات سيرا على الأقدام وليس يتسع المجال هنا لإثبات ذلك كله ، وإلا احتاج ذلك إلى كتاب آخر فى حجم هذا الكتاب وأكتفى بتسجيل بيان أصدرته مصر الفتاة بعد قليل من بدء الرحلة ، إلى الأمة

مصدر السلطات ، وفى ذلك البيان إشارات سريعة وموجزة لبعض ما لقيته بعثة مصر الفتاة من أحداث ، فى تلك الفترة من تاريخها .

جمعيـــة مصـــر الفتـــاة

تطلب حماية الدستور لبعثتها فى الصعيد

بيان إلى الأمة مصدر السلطات

١ ـ أعلن رئيس جمعية مصر الفتاة ، أنه وعشرة من مجاهدى مصر الفتاة ، سيقومون برحلة من الشلال إلى القاهرة سيراً على الأقدام ، للاتصال المباشر بالفلاح فى كوخه وقريته ، والتعرف إلى آلامه وآماله ، وحدد للسفر من القاهرة مساء يوم ٢٨ من مايو سنة ١٩٣٦ .

٢ ـ وقبل الميعاد المحدد ، وفد على دار الجمعية ضابط مباحث قسم الموسكى ، وطلب من رئيسها باسم الحكومة الإقلاع عن الرحلة ، أو على الأقل عدم ارتداء القميص الأخضر فى أثنائها .

٣ ـ وكان حتما أن يقابل ذلك الطلب الغريب بالرفض ، ثم كان اتصال رئيس الجمعية بكبار موظفى وزارة الداخلية ، الذى تمسك بعده كل فريق برأيه .

٤ ـ ولكن البعثة سافرت فى الميعاد المحدد ، وبقمصانها الخضراء ، ولم يعترضها عندئذ معترض .

٥ ـ ويظهر أن الأمور بُيّتت على أن تبتدئ مشاق البعثة ، والاعتداءات عليها ، عند وصولها إلى بداية الرحلة . حيث يمكن ارتكاب كل شئ وحيث يعز الدليل ويسهل الإنكار .

٦ ـ فما إن وصلت البعثة إلى الشلال حتى تلقفها البوليس ، وحاصر خيامها ، ومنعها من الاتصال بالناس ، ومنع الناس من الاتصال بها . وكان من أثر ذلك أن أُعيد إلى أسوان خمسة من شباب أسوان ، تسللوا إلى البعثة خفية من البوليس ، وفى غسق الليل ، وعن طريق النيل ، وبعد سفرة دامت خمس ساعات ، أعاد البوليس إلى أسوان هؤلاء الشبان الخمسة بعد اكتشاف أمرهم . وكان من أثر ذلك أيضا أن ضرب ضابط البوليس أحد أعضاء شعبة مصر الفتاة بأسوان المجاهد سامى جورجى بالسوط على وجهه فأدماه ، لأنه حاول الاتصال بالبعثة ، ومدها بالمؤونة .

٧ ـ ثم طلب مدير أسوان من البعثة ، أن تلبس أقمصة (كاكية) تفضل بها متبرعا ، وجعل هذا شرطاً لاستمرار البعثة فى رحلتها ، قائلاً إن تلك إرادة الحكومة .

وشاء خمسة من أعضاء البعثة ، أن يتعرفوا مدى ما تريده الحكومة فتظاهروا بقبول رغبة المدير ، وتطوعوا للتضحية الغالية فخلعوا شعارهم الأخضر المقدس رمز مصر وأملها ، ولبسوا قميص الحكومة الكاكى ثم سافروا إلى أسوان . ولشد ما دهشوا عندما أحاط بهم البوليس بمجرد وصولهم ، وشحنهم فى عربة من عرباته وأعادهم تحت الحفظ إلى الشلال ، حيث أودعوا من جديد خيام البعثة .

٨ ـ ولما كان فى الحد من حريات أعضاء البعثة ، واستعمال القسوة مع أفرادها ، ومع الأهلين ، لما كان فى هذا أو ذاك جرائم يعاقب عليها القانون العام ، فقد أبرق بها المركز العام للجمعية فى مصر إلى النائب العام ، كما أبرق بها رئيس البعثة إلى النائب بنيابة أسوان ، وكلاهما يطلب من حماة القانون حماية القانون .

٩ ـ وفى نفس الوقت ، كانت الحكومة قد بيتت إجراء أشد عنفا ، وأبلغ فى الجرأة والاعتداء على الحريات العامة والاستهتار بها ، إذ أبلغت سلطاتها بأسوان أنها أى الحكومة اعتزمت إعادة البعثة بالقوة إلى مصر فى قطار الخامسة والنصف مساء . وكان رد البعثة مطابقا لتقاليد جمعيتها : إن تلك إرادة الحكومة ، ولكن إرادة البعثة هى أن تبقى وأن تقوم برحلتها وأنه لاتوجد فوق الأرض قوة تستطيع منعها وإذا أرادت أى قوة ذلك المنع فدون ذلك إرادة الاعضاء ، وتقاليد جمعيتهم ، وهى الدفاع عن حرياتهم وحريات المصريين فى أشخاصهم ، بكل ما أوتوا من يقين وكرامة ووطنية ثم ليكن ما يكون .

١٠ ـ وأمام ذلك اليقين القوى ، وتلك الكرامة الوطنية ، تراجعت الحكومة عن عزمها فى «شحن» البعثة بالقوة إلى مصر ، ثم رأت أن تهجم على إرادة أعضائها من طريق آخر ، هو طريق منع القوت والمؤونة ، الأمر الذى اضطر رئيس البعثة إلى أن يوجه إلى مدير أسوان خطابا يسجل فيه تلك «الوحشية» كما أسماها ، ويعلن فيه عزمه وصحبه ، أن يقابلوا الحكومة فى نصف الطريق الذى تريد ، بأن يخففوا عنها بعض العبء ، فيضربوا باختيارهم عن الطعام .

١١ ـ وكان المركز العام للجمعية يوالى الصحف بتلك الأنباء حال ورودها عليه من سكرتيرية البعثة أو رئاستها ، فكانت الصحف تتحاشى نشر تفاصيلها لغرابتها . حتى علمت الصحف بأن بعض الوقائع أبلغ إلى النائب العام وإلى رئيس مجلس النواب فتيقنت أن الأمر جدٌّ لاهزل فيه ، ولا مبالغة . وأنها أمام أمور واقعة ، وان كانت شاذة فى غرابتها ، فتوسع بعضها فى النشر ، وكتب البعض الآخر معلقا مستنكرا وكان من جراء ذلك أن تقدم نائب محترم هو سعادة هارون سليم أبو سحلى باشا نائب فرشوط ليستجوب الحكومة عنها .. فطلبت الحكومة أسبوعين للرد على الاستجواب ، وينتهى الأجل الذى ضربته فى يوم الاثنين ٢٢ يونيو ، وإنا لجد شغوفون بأن نسمع ما تقول ، وعسانا لا نسمع شيئا من تلك الردود التى كانت تذاع فى «العهد البائد» ، أو العهود البغيضة ، عندما كان رجال الحكومة الحاضرة فى مثل موقفنا .

١٢ ـ وكان لا بد مما ليس منه بد ، كان لا بد للموقف من تغطية ، وكان لا بد وأن تكون تلك التغطية بالسماح للبعثة فى متابعة رحلتها ، فسمح لها ، ولكن فى كنف البوليس وفى حراسته ، إذ تتلقفها أفراده وجماعاته على طول الطريق ، يمنعونها عن الناس ، ويمنعون الناس عنها فطورا ينجح البوليس وتارة لا ينجح . حتى قطعت البعثة ، وفى هذا الحر المضنى ، نحو ٥٠ كيلومترا وصلت بعدها إلى دراو ، حيث كانت تنتظر أن يكون حامل خيامها قد ضربها فى مكان مريح تستطيع البعثة أن تجدد فيه نشاطها ، ولكنه ضربها بأمر البوليس داخل «قشلاق» قديم متهدم بعيد عن العمران وفى جوف الجبل .

١٣ ـ واهتزت أسلاك البرق بالاحتجاج إلى مختلف المصادر الحكومية . ولكن بدون جدوى . فاضطرت البعثة دون أن تأخذ قسطها الكافى من الراحة . أن تتابع سيرها إلى كوم امبو . ثم إلى إدفو ، حيث أشرفت عليها يوم الجمعة ١٢ يونيو . وهناك علمت أن حامل خيامها وكان سبقها بطريق القطار قد اعترضه حكمدار البوليس نفسه بمحطة إدفو ، ولم يسمح له بالنزول إلى البلدة . وقد كان فيها من أهلها من ينتظر مقدمه ليستضيفه ويستضيف البعثة . وتركه حكمدار البوليس هكذا محجوزا دون أن يمده بالطعام أو ما يسد به رمقه . وقد تصادف أن كان خالى الوفاض إذ لم يعمل حسابا لتلك المعاملة الشاذة . فاضطر الرسول أن يستنجد تلغرافيا بالمركز العام بمصر طالبا إمداده بنقود ليأكل .

ومنعت البعثة هي الأخرى من دخول إدفو ، كما منعت من تأدية صلاة الجمعة بأحد مساجدها ، فاللهم أغفر لأخى ... إنه مأمور ! !

١٤ ـ ومضى يوم السبت ١٣ يونيو ، ونصف يوم الأحد ، ولم ترد على المركز العام أخبار من البعثة ، وقد تركناها خارج إدفو ، بأمر البوليس . فقلقت عليها الخواطر وأرسل المركز يستفهم تلغرافيا من إدفو ، فردت إليه برقيته ، ومعها ما يفيد بانها لم تسلم لأن البعثة سافرت شمالاً .

وبعد ذلك بقليل ورد من رئيسها البرقية الآتية :

«أصبحت حالة البوليس لا تطاق ، قابلوا رئيس الوزارة . الحالة حرجة» .

«أحمد حسين»

ونحن نختم بهذه البرقية بياننا الأول إلى الأمة مصدر السلطات . وهى غنية بما فيها عن كل تعليق ولا شك أننا سنسمع قريبا ، وقريبا جدا ، صوت الرأى العام مدويا بالاحتجاج على من اعتدوا على الحريات التى كفلها الدستور ، وضمنتها قوانين الدولة .

١٥ ـ وجمعية مصر الفتاة لا تشكو ولا تتململ ، فليست الشكوى أو التململ فى برنامجها وإنها ـ وهى الدستورية الصميمة ، وهى التى كانت فى مقدمة مهنئى دولة رئيس حزب الأغلبية بعودة الدستور ـ تريد لمصر حياة دستورية سليمة . وليس من سلامة الحياة الدستورية فى شئ امتهان الحريات العامة ، والاستهتار بها ، ومعارضة مصرى ووضع العراقيل فى طريقه كلما اراد التنقل داخل بلاده ، والدستور صريح فى أن حرية الانتقال مكفولة .

١٦ ـ وجمعية مصر الفتاة ، ومركزها العام ومجلس جهادها ، وشعبها ، وجنودها ، وأنصارها ، فى كافة أنحاء القطر المصرى ، ترى من الوفاء عليها لرئيسها ، ومن معه من المجاهدين أن لا تختم بيانها هذا قبل أن تعلن مشاركتها لهم فى كل ما يقولون ويفعلون ويتحملون ، فى سبيل الله والوطن والملك . والله أكبر والمجد لمصر .»

* * *

ذلك هو بيان مصر الفتاة الذى أذاعه المركز العام فى ذلك الوقت وهو لا يعطى سوى فكرة ضئيلة عن هذه الملحمة بين بعثتنا والحكومة ..

هل يتصور القارئ أننا اضطررنا فى بعض المراحل إلى أن نقطع خمسين كيلو مترا فى نهار واحد ؟ بل هل يتصور القارئ أو يصدق أننا قطعنا فى شوط واحد المسافة بين أسنا والأقصر ، وهى تربو على السبعين كيلو مترا . لأن البوليس كان يحول بيننا وبين أن نميل شرقا أو غربا ، أو نرجع القهقرى ، فلم يكن أمامنا إلا أن نسير نحو الأمام ، ونحو الأمام دائماً ...

ولقد تورمت قدماى فى نهاية الأمر ، وعطبتا وكان ذلك أشد ما يؤلمنى فى هذه الفترة ، ولكننى صممت بالرغم من ذلك كله أن أمضى فى رحلتى بالرغم من كل شئ ... وحسبى الآن أن أذكر أسماء بعض هذه البلاد التى اجتزناها فى رحلتنا وهى : الشلال ــ أسوان ــ دراو ــ الجعافرة ــ دار السلام ــ جبل السلسلة ــ الكاجوج ــ سلوى ــ الرديسية ــ إدفو ــ السباعية ــ الترعة ــ إسنا ــ العديسات ــ المطاعنة ــ الشعب ــ أرمنت ــ نجع الجسور ــ البياضية ــ الأقصر ــ خزام ــ السنهورية ــ قوص ــ الأشراف ــ قنا ــ المخادمة ــ دشنا ــ فاو .

وحسبى أن أقول للقارئ : إنه ما من مكان من هذه الأمكنة إلا ولنا فيه قصة ولنا فيه واقعة تروى ، وتحكى فليرجع إلى جريدة الصرخة من شاء أن يطلع على تفاصيل هذه الملحمة الكبيرة ... وكان لا بد لهذا المجهود الذى بذلناه وهذا الضغط الذى احتملناه أن يؤتى ثماره فى الرأى العام ... فكانت القنبلة وكان الانفجار المدوى الذى اهتزت له أرجاء العالمين .

اتهام مصر الفتاة

بالخيانة العظمى

١٩

كانت فتيلة هذه القنبلة المدوية ، ذلك الاستجواب الذى تقدم به سعادة هارون باشا أبو سحلى نائب فرشوط ، وأحد رجالات الإدارة المشهورين فى مصر. كنت قد تعرفت بسعادته إبان رحلتى على ظهر الباخرة النيل إلى إيطاليا . واتصل بيننا الود بعد ذلك وتبادلنا الزيارات فلما أن وقعت بنا هذه الاضطهادات لجأ إليه إخوانى مستغيثين لكى يستجوب الحكومة فى هذه المخالفات الدستورية ، فتقدم بأول استجواب فى هذه الدورة النيابية ، أو فى هذا العهد الدستورى الجديد . فكان مجرد تقديم الاستجواب ونشر نصه فى الصحف أكبر انتصار لبعثة مصر الفتاة ، ودعاية لها ، لفت الأنظار إلى ما تعانيه وما تكابده . وإليك نص هذا الاستجواب :

« هل أصدر دولة وزير الداخلية أمرا بمنع سفر أعضاء جمعية مصر الفتاة فى رحلة إلى الصعيد ما داموا يلبسون القميص الخاص بهذه الجمعية ؟

وهل سمح دولته بعد ذلك بسفر هؤلاء الاعضاء بهذا القميص حتى وصلوا إلى أقصى الصعيد وعسكروا فى خيام لهم بالشلال ؟ ثم هل عاد دولته فأمر بمحاصرة هذه الخيام بحرس دائم من البوليس يرد عنها الزائرين ، ويحول بين هؤلاء الشبان وبين التجول والاتصال بالناس ؟

وهل أصدر أمرا بضرب الزائرين لهذه الخيام بالسياط على وجوههم واستعمال العنف والشدة معهم ؟

وهل سمع دولته أن مدير أسوان قد وزع على أعضاء الجمعية المعكسرين فى الشلال قصانا كاكية مما يلبس عساكر البوليس حتى لا يشاهد أعضاء هذه الجمعية بالقمصان الخضراء الخاصة بهم فلما لبسوها وذهبوا إلى أسوان أعادهم إلى الشلال بالقوة ؟

إذا كان دولته قد أصدر هذه الأوامر ، فهل هناك فى قانون الدولة ما يبيح للداخلية أن تمنع أحداً كائنا من كان لبس الزى الذى يريده ، والاقامة فى المكان الذى يحبه ،

ونشر الدعوة التى يهواها ، ما دامت فى حدود القانون والدستور ؟ وهل يعلم دولته أن رئيس الوزراء قد استعرض هو ووزير الزراعة شبانا يلبسون قمصانا زرقاء فى سيدى جابر وأنه أعلن رضاه عنهم وعن نظامهم ؟

فإذا كان دولته يعلم ذلك فهل هناك نص فى الدستور أو القانون يبيح لجماعة ما يحرمه على جماعة أخرى ؟ »

هارون سليم أبو سحلى
نائب فرشوط

* * *

رد واتهـــام

هذا هو الاستجواب الذى تقدم به هارون باشا وهو على فراش المرض وقد أحدث تقديمه هزة فى الرأى لغرابه الوقائع التى احتواها . وتشوق كل إنسان فى مصر سماع ما يقوله رئيس الحكومة ردا على هذا الاستجواب . ولكن إنسانا واحدا فى مصر لم يدر بخلده لحظة من اللحظات أن الرد سيكون بمثابة قنبلة تنفجر فى سماء الحياة المصرية ؛ لم يتخيل أحد أن رئيس الحكومة سيرد ردا يخلق مصر الفتاة خلقا ، ويرتفع بها إلى الصف الأول من عطف الأمة المصرية واهتمام العالم الخارجى ، لم يتوقع إنسان فى مصر أن هذا الاستجواب سيثير فى طول البلاد وعرضها عاصفة مدمرة تجرى الدماء أنهارا ، فيكون قتال فى كل مدينة وفى كل قرية ، وتكون مشاجرات وتكون مساجلات حادة وعنيفة ، تدخل إلى كل حارة وكل زقاق ، بل وإلى كل بيت . وينقسم المصريون إلى قسمين قسم صغير يؤيد رئيس الوزارة ويوافقه على قوله ، وقسم يؤلف الأغلبية العظمى فى البلاد يستنكر هذا الرد وينحاز بكل عواطفه وتأييده إلى مصر الفتاة . لقد كان ما يتوقعه كل إنسان أن يجىء رد رئيس الحكومة منكرا لهذه الوقائع التى وردت فى الاستجواب وأن يقول إن شيئا من ذلك لم يحدث ، وإن مصر الفتاة وبعثتها تتمتع بالحرية المطلقة فى تجوالها وأن الإجراءات التى تتخذ إنما هى لحماية أعضاء هذه البعثة من غضب الشعب الحانق عليها ... أجل كنا نتوقع أن يصور رئيس الحكومة قوات البوليس التى تحيط بنا وتحاصرنا وتحول بيننا وبين الاتصال بأحد إنما تفعل ذلك رحمة بنا وحماية لأرواحنا ، وقد كان مجرد تصورنا هذه الإجابة يملأ قلوبنا بالغيظ والحنق ولم نكن نعرف كيف نرد على رئيس الحكومة لو قال مثل هذا القول ، ولم نكن نعرف كيف نطلع الرأى العام على عدم صحة هذا الادعاء . ولكن شاء الله أن لا يرد رئيس الحكومة هذا الرد ، أو أن يرد أى

رد مألوف فى مثل هذه الظروف ... شاء الله أن يكون رد رئيس الحكومة بدعا فى تاريخ البلاد ، وأن يكون مقدراً له أن يقيم الدنيا ويقعدها ..

وإليك الآن هذا الرد الذى أصبحت مشوقا لمطالعته كل التشوق . لقد اعتذر المرحوم هارون باشا مقدم الاستجواب عن حضور الجلسة بسبب مرضه بل وطلب من مجلس النواب إجازة حتى آخر دور الانعقاد ، ولكن الاستجواب فى هذه الحالة لا يسقط لأنه ملك المجلس بأكمله ولذلك فقد تقدم الأستاذ عبد العزيز الصوفانى وأعلن تمسكه بالاستجواب ،

وأن المجلس فى انتظار رد رئيس الحكومة . فوقف رئيس الحكومة صاحب الدولة مصطفى باشا . وألقى من فوق منصة مجلس النواب الرد التالى :

«ثبت لدى وزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد (ضجة) ولذلك قررت الوزارة حرصا على مصلحة الدولة أن تمنع تجوال أعضاء هذه الجمعية فى القرى بزى خاص . وقد بذلت لرئيس الجمعية النصيحة الودية بالعدول عن السفر إلى الصعيد فلم يستمع لهذه النصيحة ، وسافر هو ومن معه إلى أسوان ولم يتعرض لهم أحد ، ولكن اتخذت الإجراءات للحيلولة بينهم وبين التجوال فى القرى بزى خاص والاتصال بالأهالى وذلك للسبب الذى بيناه .

«وليس صحيحا ما ذُكِر فى الاستجواب من إصدار الأوامر بضرب الزائرين لخيام الجمعية . وقد ادعى أحد الأشخاص فى أسوان أن البوليس ضربه عندما كان يريد الاتصال بأعضاء الجمعية فى خيامهم وحققت النيابة هذه الشكوى فثبت عدم صحتها وحفظها النائب العام إداريا .

«أما عن القمصان الكاكى فإن مدير أسوان أخبر أعضاء الجمعية بعدم موافقته على تجوالهم بالقمصان الخضراء ، فادعوا عدم وجود لباس آخر معهم فأعطاهم قمصانا من الكاكى فلبسوها .. ولكن لما اتصل بعلمنا ذلك أصدرنا إليه أمرنا بمنعهم من التجول فى الزى الكاكى أيضا .

«هذا ولم تعرض الحكومة لجمعية مصر الفتاة فى المدن الكبرى ، بل تركت أفرادها أحراراً يلبسون ما يشاءون فى حدود القانون .

«وسبق لهذه الجمعية أن طلبت عقد اجتماع عام بمدينة الفيوم فى شهر أبريل سنة ١٩٣٦ وصرحت وزارة الداخلية بعقد هذا الاجتماع على غير رأى مدير المديرية ، فتسبب

عن هذا التصريح تجمهرٌ كاد يؤدى إلى إخلال خطير بالأمن العام ، واضطر البوليس إلى إطلاق النار ، والمحافظة على أعضاء الجمعية ، إلى أن رحلوا من مدينة الفيوم فى فجر اليوم التالى عائدين إلى القاهرة .

«كما أنه قد وصلت لوزارة الداخلية أخيرا تقارير من حضرتى مديرى أسوان وقنا تفيد عدم ارتياح الأهالى لوجود هذه الجماعة بين ظهرانيهم ، وممن أمضوا هذه التقارير حضرة نائب إسنا المحترم .

«وإن هذه الجماعة التى تنطوى أغراضها وعلاقاتها على ما يضر بمصلحة الدولة الكبرى لا يصح مقارنتها بجماعة الشبان الذين يلبسون القمصان الزرقاء والذين تقوم مبادئهم على احترام النظام والقانون والعمل لخير البلاد وينتمون إلى هيئة سياسية مسئولة » (تصفيق)

* * *

ألقى دولة النحاس باشا رده ، ولم يكد يغادر المنبر بعد إلقائه حتى هبت العاصفة ، ولم تلبث أن تحولت خارج البرلمان إلى عاصفة جائحة .

ذُهِل أعضاء مجلس النواب لهذه الإجابة ، فحلّق على رءوسهم الطير ، ومرت لحظات قبل أن يستردوا أنفاسهم . ثم بدأ رد الفعل ، لما قال رئيس الوزراء ، يتجلى .

طالب الأستاذ فكرى أباظة بوجوب جعل الجلسة سرية لمناقشة هذا الاتهام الخطير ، ولكى يتمكن رئيس الحكومة من تقديم ما لديه من أدلة الاتهام ، ولكن رئيس الحكومة رفض أن يجعل الجلسة سرية ، وقرر أنه لن يقدم للبرلمان أى دليل ، فالمسألة تتعلق بسلامة الدولة وأسرارها العليا ، التى لا يمكن البوح بها ، وعلى المجلس أن يثق بالحكومة بدون مناقشة ، لأن الحكومة لم تصرح بما صرحت به إلا بعد التثبت والتحقيق .

ولكن المجلس لم يرض بذلك ، ولم يسكت عليه ، فاندفع الأعضاء من هنا وهناك يناقشون رئيس الحكومة ، ويحرجونه ، ويطالبونه بالدليل . وكان ممن تكلموا فى هذا اليوم ، فأحسنوا الكلام دفاعا عن مصر الفتاة ، سعادة عبد المجيد إبراهيم صالح باشا ، فقد راح يناقش إجابة رئيس الحكومة ويظهر ما انطوت عليه من تناقض ، وضعف يدل على عدم صحة الاتهام . فكيف يثبت لدى وزارة الداخلية ما ثبت لها من اتصال هذه الجماعة بدولة أجنبية ، ثم تسمح لهم بالتجول وبنشر الدعاية فى المدن دون الريف ، فى الوقت الذى كان يجب أن تضرب على أيديهم ضرباً يحول بينهم وبين أى عبث بمصالح البلاد فى المدن قبل الريف ..

وكيف تسكت الحكومة عن تقديم أمثال هؤلاء الخونة إلى المحاكمة ، ليدافعوا عن أنفسهم فتثبت براءتهم أو يحكم عليهم فينالوا جزاء ماكسبت أيديهم .

وبدأ رئيس الحكومة يرى جو المجلس النيابي مكفهرا ، وبدأ يشعر بموقفه الضعيف ، وأن اتهامه لم يلق هوى فى نفوس النواب ، بل على العكس قد أحدث رد فعل جعل الجماعة لديهم محل عطف وتقدير .

فأسرع رئيس الحكومة إلى استخدام سلاحه الأخير ، وهو أن يهيب بالنواب أن يثقوا به وأن يكفوا عن كل مناقشة ، ووضع شخصيته وكرامته فى الموضوع .

ولما كانت أغلبية المجلس الساحقة من الوفديين ، فقد أقفل باب المناقشة وتقرر الانتقال إلى جدول الأعمال .

ولكن المناقشة التى أقفلت فى مجلس النواب ، قد فتحت على مصاريعها خارج البرلمان : فى الشوارع ، وفى المقاهى ، وفى النوادى ، وبين جدران المدارس والمصانع والمتاجر ، وفى الحقول وفى المزارع .

لقد راح كل مصرى يسائل أخاه المصرى هل سمعت ما قاله النحاس باشا فى البرلمان من اتهامه مصر الفتاة بالخيانة ، فيجيبه الآخر فى أسف : أجل لقد سمعت . فيسأله الثانى عن رأيه ، فلا يكون الجواب إلا فى اتجاه واحد ، هو عدم تصويب النحاس باشا فيما قال وفعل . لقد كان حقًّا عليه أن يقدم الدليل ، لقد كان واجبا عليه أن يقدم هذه الجماعة إلى المحاكمة ، فأما وهو لم يفعل فما كان عليه أن يلقى الكلام على عواهنه ، ويمس شبانا أطهارا بهذه القسوة ، ويقذفهم بهذا الاتهام الخطر ، دون أن يقدم على ذلك دليلاً أو شبه دليل ، ودون أن يهيئ لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم .

كان ذلك هو حكم الرأى العام ، بل حكم الوفديين أنفسهم ، ولم يتحمس لكلام رئيس الحكومة إلا هذا الفريق من الوفديين من لابسى الأقمصة الزرقاء ..

أما الصحف الوفدية نفسها ، أما نواب الوفد ، أما عقلاء الوفد ، أما كل صاحب رأى فى الوفد ، فقد أنكر ذلك الموقف كل الإنكار ، وإذا كان ذلك هو موقف الوفديين استطعت أن تتصور ماذا كان موقف غير الوفديين من هذا الاتهام .

ولقد كانت خطورة الاتهام بحيث جعلت البلاد تهتز له من أقصاها إلى أدناها ، وصدرت الصحف العربية والأفرنجية وليس لها موضوع رئيسى إلا هذا الاتهام ، ولم يجد مراسلو الصحف الأجنبية فى مصر ما يبرقون به إلى أربعة أركان المعمورة إلا هذا الاتهام لمصر الفتاة ، والمناقشات التى دارت حوله .

فلو أن مصر الفتاة جاهدت عشر سنوات متواصلة لتعلن عن نفسها لما استطاعت أن تعلن عن وجودها بمثل ما أحدثه هذا التصريح من ضجة وإعلان ، وفى عشية وضحاها انتقلت مصر الفتاة من حركة صغيرة محلية إلى حركة عالمية تتطلع الدنيا كلها إلى أبنائها ، وتحاول أن تعرف من أمرها كل شئ . فقد حاولت انجلترا أن تعرف ما هى هذه الدولة الأجنبية ؟ وأطلت إيطاليا وألمانيا ليعرفا كنه هذه الدولة الأجنبية ؟ وتلمست روسيا الشيوعية حقيقة هذه الدولة ؟ وهرع المراسلون لصحف الدنيا كلها إلى دار مصر الفتاة يبحثون وينقبون ويعلمون عن مصر الفتاة ما لم يكونوا يعلمون .

فى صفوف مصر الفتاة

أما رد الفعل فى صفوف أبناء مصر الفتاة فقد كان رائعا وجليلاً ، لقد انفجرت حماستهم ، وثارت كرامتهم ، وغلا الدم فى عروقهم ، وأعلنوا عزمهم على الدفاع عن شرفهم وعرضهم بدمائهم ... وعلى عكس ما كان يتصور النحاس باشا ، من أن هذا الاتهام من شأنه أن يصرف شباب مصر الفتاة عنها ، زاد تعلقا واستمساكا بها ، بل وعصبية لها ، واستعدادا للتضحية فى ظل رئيسها . ففى جميع انحاء القطر من الإسكندرية حتى أسوان ، هرع أعضاء مصر الفتاة إلى النيابة العمومية ، يضعون أنفسهم تحت تصرف النيابة للتحقيق معهم ، ويعلنون تضامنهم مع رئيسهم ، ومجلس جهاد مصر الفتاة ، الذى بادر بمجرد إلقاء هذا البيان بالإبراق إلى النائب العام ، يضعون أنفسهم تحت تصرفه للتحقيق معهم فيما أدعاه عليهم رئيس مجلس الوزراء ، فكان ذلك مظهرا رائعاً لتضامن أبناء مصر الفتاة ، وقوة إيمانهم وإخلاصهم ، فاهتزت البلاد كلها إعجابا بذلك التضامن العجيب .

ولقد أسرع المركز العام فى القاهرة بإقامة اجتماع فى مسرح برنتانيا ليرد على اتهام رئيس الحكومة ، فكان تهافت الرأى العام على حضور هذا الاجتماع لا مثيل له من قبل . بحيث أعيد طبع التذاكر بضع مرات ، واحتشد فى مسرح برنتانيا أضعاف أضعاف ما يتسع له حتى خشى عليه الانهيار .

وفى ذلك الحشد وقف سكرتير الجمعية العام ومساعده يخطبان مدافعين عن موقف مصر الفتاة ، فاستقبلهما الجمهور بالتصفيق المتواصل بضع دقائق تكريماً لهما ، وإعلاناً للثقة بمصر الفتاة . وكانت موجة من الحماسة لم يسبق للبلاد أن شهدتها فى اجتماع سياسى منذ سنوات وسنوات .

الأقصة الزرقاء تهاجم

على أن قيادة الأقصة الزرقاء كانت قد قررت منذ علمت بنبأ الاجتماع أن تهاجمه ، وقد تسربت أنباء هذا الهجوم قبيل الاجتماع ، ولكن أعضاء مصر الفتاة لم يحفلوا به ، وظنوه إشاعة من الإشاعات ، ولما جاء أوان الاجتماع ورأوا هذه الجموع الغفيرة من البوليس الذى يحيط بمكانه أمِنوا وأطمأنوا إلى أنه لن يكون هناك عدوان ، لأنهم لم يتصوروا أن تكون هذه القوات الضخمة من البوليس متآمرة مع فرق الأقصة الزرقاء ، وأنها ستفسح لهم الطريق ، وستعينهم على الفتك بأبناء مصر الفتاة . وقد تمت المؤامرة ، فعمل البوليس منذ أول الاجتماع على اعتقال كل الأعضاء البارزين من ذوى الأقصة الخضراء ، بحجة أنهم اعتدوا على بعض الوفديين الذين جاءوا لحضور الاجتماع . فلما جاءت الساعة المتفق عليها إذا بألوف من ذوى الأقصة الزرقاء ينقضون على مكان الاجتماع ، وهم مسلحون بالخناجر ، ويحاولون الفتك بهذا العدد القليل من ذوى الأقصة الخضراء الذى كان فى الاجتماع . ودارت معركة رهيبة أبدى فيها بعض مجاهدى مصر الفتاة ألواناً عجيبة من البطولة والاستبسال التى أذهلت المهاجمين . فقد استطاع مجاهد واحد هو سليمان افندى الماوردى أن يتصدى لجموعهم ، وأن يبطش بكل من يحاول الهجوم عليه ، فكانوا يفرون مذعورين ، إلى أن تكاثروا عليه وظلوا يضربونه ويقاومهم حتى أثخنوه بالجراح ، فسقط مغشيا عليه بعد أن أصاب منهم ما يزيد عن العشرين ، ولم يسقط إلا بعد أن جاء المدد ، وهرع إليه بعض نفر من أبناء مصر الفتاة يذودون عنه .

ولقد أصيب فى هذه المعركة عدد كبير من أبناء مصر الفتاة ، وجاءت عربات الإسعاف إلى ميدان المعركة تنقل إلى مستشفى قصر العينى الجرحى الذين سقطوا نتيجة المؤامرة الدنيئة .

وقد كان لهذه المعركة بعد تصريح رئيس الحكومة أثر بالغ فى الرأى العام ، الذى ازداد عطفا على مصر الفتاة ، والذى استنكر عن بكرة أبيه هذا العدوان الوحشى الذى لا يدل إلا على الفوضى وانقلاب الأوضاع . ولم تخف الصحف اشمئزازها من هذا الاعتداء الذى وقع من ذوى الأقصة الزرقاء المسلحين بسلطان الحكومة .

عودتى إلى القاهرة

دهمتنى هذه الأخبار ، كما دهمتنى الأخبار السابقة عليها ، الخاصة باتهام رئيس

الحكومة ، وكنا قد وصلنا فى رحلتنا إلى مدينة نجع حمادى ، عندما وصلتنا أنباء معركة مسرح برنتانيا ، فرأيت أن أسرع بالعودة إلى القاهرة ، بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد من الخطورة . كنت قد تعمدت أن أتجاهل تصريح رئيس الحكومة ، وأن لا أجعل له تأثيراً فى إتمام رحلتى ، واكتفيت بأن بعثت إلى النائب العام فى مصر برقية أضع فيها نفسى تحت تصرفه للتحقيق معى فى اتهام رئيس الحكومة ، وأعطيته مهلة للشروع فى هذا التحقيق ، بحيث إذا لم يفعل اعتبر اتهام رئيس الحكومة ضرباً من ألوان العبث ، ولا يبقى على إلا أن أستأنف رحلتى التى بدأتها من الشلال ، وقد انقضى الموعد المضروب للنائب العام . ولم يصلنى منه أى رد على برقيتى ، فاستأنفت رحلتنا ووصلنا إلى نجع حمادى . وقد أتيح لى فى الأيام القليلة التى مرت بعد إلقاء تصريح رئيس الحكومة أن أشهد العطف الشديد الذى أحاطنا به الرأى العام ، بما فى ذلك رجال البوليس أنفسهم الذين علا صوتهم باستنكارهم لاتهام رئيس الحكومة ، وبدأوا يحسنون معاملتنا قدر استطاعتهم ، ثم كانت أنباء معركة برنتانيا ، وأنباء هذه الدماء التى أريقت من أبناء مصر الفتاة ، وأنباء هذه الموجة من الاضطهاد الخانق الذى بدأ حول مصر الفتاة فى القاهرة ، وهنا لم يسعنى إلا أن أقرر العودة لأكون إلى جوار إخوانى فى هذه المحنة . وقد كان من رأيى دائماً ، وسيبقى من رأيى حتى نهاية العمر ، أن أكون على رأس إخوانى وزملائى فى أى معركة من المعارك التى تخوضها مصر الفتاة .

ولم نكد نصل إلى القاهرة حتى اشتركنا فى المعركة على الفور . ففى مساء اليوم الذى وصلت فى صباحه إلى القاهرة أحاطت جموع الشبان الغفيرة من ذوى الأقمصة الزرقاء بدار الحزب فى العتبة الخضراء ، وهى تنادى بالويل والثبور وبسقوط أحمد حسين الخائن ، فرأيت أن أطل على هذه الجماعة وأن أخطب فيها ، وقد كان ذلك تحديا للخطر المحدق بى ، ولم يكن هناك غير هذا الأسلوب لدفع هذا الخطر ، فقد فوجئ القوم عندما وجدونى أطل عليهم وأصيح فيهم طالبا منهم السكوت .. ولقد سكتوا وبدأت أخطب فيهم ، وبدأ تأثير موقفى وحديثى يسيطر على الموقف ، ولكن واحدا من بين الجموع الزرقاء صاح بهم كيف تسكتون عليه .. اقتلوه ! . قال ذلك وقذفنى بحجر ، فانهالت الأحجار من كل مكان ، واضطررت للتراجع تحت وابل من الأحجار ، ولكن الله سلم فى هذه الليلة فلم أصب بسوء ، وكان الدخول إلى مقر مصر الفتاة دونه عدة أبواب ودهاليز وسلالم فتحصن بها أعضاء مصر الفتاة واستعدوا بالعصى والأسلحة فى حالة اقتحام الدار ، ولكن ذوى الأقمصة الزرقاء تهيبوا الهجوم علينا فى عقر دارنا ، فظلوا محاصرين المكان عدة ساعات ، والبوليس لا يحرك ساكنا ، إلى أن بدأ عددهم يقل

بالتدريج فى ساعة متأخرة من الليل ، ثم لم يلبثوا أن انصرفوا ، وانصرف كل منا إلى بيته .

وهذا الذى حدث فى القاهرة ، حدث مثله فى كل مدينة من مدن القطر المصرى ، حيث هاجم ذوو الأقمصة الزرقاء نوادى مصر الفتاة وأعضاء مصر الفتاة ، ودارت معارك رهيبة سقط فيها جرحى بل وقتلى . وشاءت الظروف أن يكون القتلى من ذوى الأقمصة الزرقاء ، فكان منهم قتيل فى كفر الزيات وقبض على أعضاء مصر الفتاة بتهمة ضرب أفضى إلى موت ... وكان قتيل آخر منهم فى دمنهور ، وقد كان ذلك حادثا هز البلاد هزا ، وكنت سأفقد حياتى فى هذا الحادث ، مما يجعلنى أعود إليه بشئ من التفصيل بعد قليل .

* * *

الدفـــــاع

أمـام الشـيوخ والنـواب

٢٠

كان لا بد من دفاع يقال ردا على اتهام رئيس الحكومة . بصورة منظمة . تبلغ أسماع الرأى العام المثقف . فرأينا أن خير طريقة لذلك هو أن ندعوا لفيفا من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب . ومندوبى الصحافة المصرية والأجنبية . لكى ألقى فيهم خطابا أدافع فيه عن نفسى وعن حركة مصر الفتاة . فأقمنا لذلك حفلة شاى فى محل «على الدلة» . وأرسلنا بطاقات الدعوة إلى أكثر من مائة من المدعوين الذين اخترناهم من بين الشيوخ والنواب ورجال الصحافة .

ولكن الحكومة لم تسمح بهذا الاجتماع وصادرته . وحال البوليس بين الشيوخ والنواب وبين الدخول إلى مكان الاحتفال . فكان هذا التصرف الجديد من جانب الحكومة . أحد التصرفات التى عززت جانب مصر الفتاة وأضعفت جانب الحكومة . فالنحاس باشا قد اتهم ولم يقدم دليلاً . فإذا أضيف إلى ذلك محاولته أن يسد علينا الطريق للدفاع عن أنفسنا بأى أسلوب من الأساليب . فقد أصبح ذلك هو الدليل الذى لاينقض . على أن ما قاله كان لوناً من ألوان الحرب الحزبية التى أراد أن يكيد بها لرهط من الشبان الأطهار . ومع ذلك فقد استطعنا أن ننشر الخطبة فى مجلة الصرخة . وأن نطبعها على حدة . ونوزع منها آلاف النسخ . وقد كان ذلك آخر العهد بانتظام جريدة الصرخة . فهى لم تلبث عقب نشر هذا الخطاب أن أصبحت محلاً للاضطهاد والمصادرة . عددا بعد عدد دون استثناء . إلى أن اضطررنا فى نهاية الأمر إلى الكف عن إصدارها جملة . لأن صدورها بات مستحيلاً فى ظل هذه المصادرة المتعاقبة . حتى بعد أن كففنا عن كل كتابة فى السياسة . وراح الأستاذ فتحى رضوان يملأ الجريدة بمقالات تهكمية حول مارلين ذيتريش وجريتا جاربو وأيهما أجمل وأبرع . وحول الفاكهة المصرية ومصيرها . ولكن ذلك كله لم يُنج الصرخة من المصادرة . فكان لا بد من وقفها . وإليك الآن نص ذلك الخطاب . الذى كان مقررا أن يلقى على الشيوخ والنواب . وحالت الحكومة دون إلقائه . وإن لم تحل دون نشره . والإشارة إليه فى سائر الصحف .

خطـــــاب

«باسم الله . والله أكبر» أيها السادة . أبدأ حديث هذا المساء «باسم الله . والله أكبر» هذه الكلمة التى نرددها كلما اشتد علينا الأمر وادلهمت الخطوب . فنجد فيها قوة . ونجد فيها أملاً وحياة . هذه الكلمة التى فتح بها أجدادنا الدنيا بأسرها . وذابت تحت حرارة إيمانهم بها الحصون . ودُكت تحت معاول إخلاصهم الجبال . وبهذه الكلمة السرمدية نجابه بدورنا حصون الاتهام فندكها . وجيوش الباطل فنهزمها .

وهل أستطيع قبل أن أمضى فى حديثى إلا أن أشكركم من أعماق قلبى .. أشكركم لهذه الفرصة الذهبية التى أتحتموها لى . كيما أحدثكم قليلاً عن مصر الفتاة . وحديثى عن مصر الفتاة لن يقف عند حد دفع الاتهام وإزالة الشبهات . لا .. أيها السادة ، فإن الاتهام الذى قذفنا به لم يعلق بنا حتى الآن . فإن الصحافة (وليبارك الله لنا فيها) والرأى العام . مستودع القوة والسلطات . ومن قبل هؤلاء النواب المحترمون . كل هؤلاء قد حكموا لنا سلفا . وأصدروا حكما ببراءتنا . براءة مشفوعة بالعطف والتأييد . فهذه الألوف من التأييدات التى انهالت علينا . وهذه البرقيات . وهذه الرسائل بل هذه المقالات التى فاضت بها الصحف دفاعا عنا . إن لم يكن من ناحية الشكل على الأقل . كل هذه أدلة على أننا قد ربحنا قضيتنا . وأننا خرجنا من هذه التهمة التى ألصقت بنا مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . لا . بل أكثر كرامة . وأكثر رفعة من ذى قبل فليست المحنة إلا كالنار بالنسبة للمعدن النفيس . يخرج منها أشد لمعانا وشعاعا . وكذلك نحن .. خرجنا من المحنة أكثر قوة وعصبية . وإيمانا بمستقبلنا وجهادنا . وحصلنا على ما لم يكن لنا من قبل .. حصلنا على عطف الرأى العام وتأييده .

محكمة الرأى العام

أصدر الرأى العام حكمه فى صالحنا إذن ، ولو سألتم الرأى العام لماذا حكمت لصالح هذه الجماعة ، لما استطاع الرأى العام أن يجد جواباً غير أنه قد حكم لنا لأن دافعا فى نفسه قد حمله على أن يحكم لنا ، ولكن هل دافعنا عن أنفسنا ؟ اللهم لا .

لقد قال رئيس الحكومة ، وهو أكبر رجل فى الدولة بعد جلالة الملك ، إننا قوم نعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة بلادنا .

ورئيس الحكومة المتكلم يمثل حزب الأغلبية فى مصر ، فكان جديرا بالناس أن يصدقوا هذا القول ، كما اعتادوا أن يصدقوا كل ما قيل لهم بالأمس عن هذا السبيل ! أجل كان جديراً بهم أن يفعلوا ذلك ، ولكنهم لم يفعلوا ... فلماذا ! ؟ هل قدمنا مستنداتنا ودفعنا التهمة ؟ كلا .. إننا لم نفعل ذلك ! حقيقة لم يقدم رئيس الحكومة دليلاً على اتهامه ولكن ، ألم يقل إنه من أسرار الدولة التى لا يجوز الإباحة بها . ألا يكفى ذلك فى إقناع الرأى العام بأن هناك أدلة وأن سلامة الدولة تقتضى كتمانها ؟ حتى هذا أيها السادة لم يوقف تطلع الرأى العام للدليل ، ولذلك فلم يقنع بهذا الرد ، وأصدر حكمه لصالحنا ، ما فى ذلك شك . وأقسم لكم أن الرأى العام ، يوم أن أصدر هذا الحكم لم يفكر طويلاً قبل إصداره ، وأقسم لكم أن الرأى العام يوم أن حكم لم يوازن الأدلة ويقرع الحجة بالحجة .

فإن أناسا ممن انتصفوا لنا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ولم يزد ما عرفوه عن الجمعية إلا أن رئيس الحكومة قد قال عنها : إنها تخون بلادها . ومع ذلك فإنه لم يصدق ذلك ، بل واستنكر هذا القول ، قبل أن يفكر فيه ، أو يعيه ، أو يتدبره ، لأنه غير قادر على التفكير أو التدبير ، أتعرفون إذن أيها السادة بأى وسيلة حكم لنا الرأى العام ، لقد حكم لنا بضميره ، لقد حكم لنا بقلبه ، لقد حكم لنا بغريزته . وصدقونى إن القول بأن إرادة الجماعة هى من إرادة الله ، وأن إرادة الشعب من إرادة الله ، صدقونى أن هذا القول هو من سنن الله سبحانه وتعالى ، والتى لن تجد لها تبديلاً . ذلك أن الضمير المشترك بين الجماعة ، محور العواطف الإنسانية بأسرها ، لا يمكن إلا أن يكون قبسا من روح الله سبحانه وتعالى ، والذى يحوى كل هذا الكون وأودعه كل صفاته . ومن هنا كان الشر من صفات الفرد ، ولكنه لا يمكن أن يكون من صفات الجماعة ، والجريمة من صفات الفرد ولا يمكن أن تكون من صفات المجتمع ، فالمجتمع هو مصدر الخير ، وهو مصدر الشرائع العادلة ، والرأى العام فى مجموعه لا يخطئ إلا تحت مؤثرات وقتية ، لا يمكن أن تدوم طويلاً ، سرعان ما يعود بعدها إلى طبيعته الأولى ، والتى وصفتها لكم . فللجماعة ضمير وللجماعة عاطفة ، وللجماعة غريزة . هذا الضمير ، وهذه العاطفة هى التى حكمت لنا ، وبرأت ساحتنا ، قبل أن نتقدم إليها بدليل واحد .

شباب الأمة لا يخـون

أجل ! لقد فزع الناس ولم يصدقوا . وأقسم إنهم لو جاءوهم بألف دليل ودليل لما صدقوا ، لأن هناك ماهو أقوى من الأدلة . هناك القلب الذى لايخطئ مطلقًا ، والذى يرتفع فوق الأدلة ، وفوق الحجج . فنحن لاندرك الله بعقولنا ، مثل ماندركه بإحساسنا ، وقلوبنا . ذلك أن العقل من المادة ، أما العاطفة فمن الروح ، والروح من أمر الله سبحانه وتعالى .

والا فأى قلب يصدق أن شباب الأمة وزهرتها ، شباب الأمة الذين هم فى كل أمة عدتها وذخيرتها ، الذين هم مستودع أملها ورجائها ، من الذى يصدق أن جنود الوطن هم الذين يخونونه ؟ وأن آخر حصن من حصون الدفاع هو الذى يسقط قبل غيره ؟؟ من الذى يقول إن شباب الجامعة يخونون ؟ . وهم الذين قدموا أرواحهم ثمنا للدستور وللمفاوضات شباب الجامعة ، وهم الذين ضرجوا الأرض بدمائهم هاتفين « مصر فوق الجميع » فكان أن تحركت مصر بأسرها ، وتحرك الانجليز بالتالى ، فتراجعوا عن موقفهم المعروف إزاء الدستور.. شباب الجامعة ، هؤلاء لايمكن أن يعملوا لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة بلادهم ، لأن جمعية مصر الفتاة ليست إلا شباب الجامعة . فنحن الذين أسسناها كنا بالأمس من طلاب الجامعة ، وجنودها اليوم هم شباب الجامعة . وهؤلاء الذين يحيطون بكم هم زعماء الجامعة وأعز شبابها . هؤلاء هم الذين وصفهم رئيس الحكومة بأنهم يخونون بلادهم ! . فمن ذا الذى يصدق هذه الدعوى ؟ وأى مصرى له قلب يمكن أن يستمع لها ؟ ذلك أن هذه التهمة لو صحت ، أيها السادة ، فعلام كل هذه الضجة اذن ؟ ! وعلام هذا النعيق وهذا الصراخ ؟ ! ألا فلتمزق الأعلام ، ولنحطم الصروح ، ولتقطع الألسنة ، أو لتكم الأفواه ! ! ولتحل الأحزاب ، ولتعطل الصحف ، وليبصق فى وجه الهاتفين بالحرية والاستقلال ! ! ولنسجل على أنفسنا

الخزى والعار ، ولنطأطئ الرءوس راضين بالذلة والعبودية ، ذلك أن شباب مصر يخونون بلادهم لحساب دولة أجنبية ...

هذه هى النتيجة المنطقية لاتهام رئيس الحكومة . فأى مصرى يرضى بهذه النتيجة ويقرها ؟ وأى مصرى لايثور عليها ويستنكرها ! فهل عرفتم بعد ذلك لماذا حكم لنا الرأى العام بدون أن نقدم دليلا أو بيانا ؟! هل عرفتم لماذا أحاطنا بالعطف والتشجيع ؟! ذلك لأنهم يريدون الحرية والاستقلال ، ذلك لأنهم يريدون المجد لبلادهم ، يريدون الكرامة والشرف والرجولة ، ومن هنا فقد انتصروا لنا . وإذن فاجتماعنا اليوم للدفاع عن قضيتنا ، وهى قضية قد فُصل فيها ، ليس لأنكم فى حاجة إلى دليل ، فالبديهيات لاتحتاج الى دليل . ولكن لنشكر صاحب الدولة رئيس الحكومة ، فقد أتاح لى باتهامه فرصة الحديث عن جمعية مصر الفتاة ، وبرنامج مصر الفتاة . وأنتم الذين سمعتم القذف فى جمعية مصر الفتاة ، جئتم الليلة لتسمعوا كلمة الخير عن مصر الفتاة .

ماهى جمعية مصر الفتاة

فما هى مصر الفتاة أيها السادة ؟ أهى جمعية ، أهى حزب ، أهى جيش ، أهى ثورة أهى حركة ، أم هى فكرة من الفكر ؟! .

قد تكون جمعية مصر الفتاة مزيجاً من كل ذلك فى الظاهر ، ولكنها فى نهاية الأمر ليست إلا إيمان شاب ، ليست إلا إيمانى الذى نشأت ودرجت عليه ، اختلط بلحمى وعظمى ، وسرى فى شرايينى مسرى الحياة ، مصر الفتاة وما تنطوى عليه من فكرة ومبدأ . هى الحياة التى أحيا بها ، هى الأمل ، وهى الرجاء ، هى التى ضحيت من أجلها بكل شئ : بشبابى وراحتى وحبى ولست أحسب نفسى أننى قدمت شيئاً ، هى التى آثرت من أجلها أن أحيا فقيراً وأن أموت فقيراً ، وأن يمضى على اليوم واليومان بغير قوت ، ولست أحسب نفسى إلا أغنى الناس طراً ، وأسعد الناس طراً ، مصر الفتاة هى إيمانى بأن هذه البلاد عظيمة ، خلقها الله لتعلم الدنيا بأسرها وأنها يجب أن تعود سيرتها الأولى ، معلمة للإنسانية ، وهادية ومرشدة للناس فهى فى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وفى وسط الدنيا بأسرها بلادنا الغالية التى قدسها الله وكرمها ، وأعدها كيما تكون زعيمة للعالمين . أعدها لتكون زعيمة للعالمين ، يوم أن أجرى فيها النيل فحوّل الصحراء إلى جنات عدن ، وحول الفناء إلى وجود قبل أن توجد الحياة وتوجد المدنيات ، وأكرمها وقدسها يوم أن تجلى فيها وتحدث فى أراضيها بما لم يحدث فى أى بقعة أخرى من بقاع الدنيا ، وهذا هو ما تعلمنا إياه الكتب السماوية بأسرها .. فالتوراة والإنجيل والقرآن كلها تحدثنا عن الله سبحانه وتعالى ، وأحاديثه مع موسى وتجليه فوق جبل الطور .(١)

مصر بلاد الدين والعلم

بلاد مقدسة ، قدسها الله وأكرمها يوم أن أخرج منها الأديان جميعاً . وحمى فيها الأديان جميعاً . فاليهودية والمسيحية والإسلام كلها وجدت موئلاً حصينا فى مصر ، وعاشت بين أهلها جنباً إلى جنب فى

---

(١) يشير المؤلف إلى الآية الكريمة « فلما تجلى ربُّه للجبل جعله دكا ،وخر موسى صعقا ».. وغيرها من الآيات .

صفاء وولاء .. لا اضطهاد ، ولا تعذيب ، ولا تعصب ، ولا قتال . فمصر هى التى ترعرعت فى حماها الديانة الموسوية ، وهى التى حمت المسيحية عندما كانت كنائسها تقفل فى كل مكان ، تحت معاول روما ، ومصر هى التى كانت تحمى المسيحيين ، وما عيد الشهداء الذى يحتفل الأقباط به حتى اليوم إلا أثراً من آثار مصر التى قاومت الوثنية بدماء أبنائها ، وهى مصر بعد ذلك التى تزعمت الإسلام ، وحملت لواءه ، وقاومت أوروبا الصليبية بأسرها ، عندما حاولت أن تعتدى عليه . فمصر هى التى قدمت للإنسانية ذخيرتها الروحية وهى التى قدمت لها ذخيرتها من المعرفة والعلوم والحضارة . إن جامعة عين شمس هى التى علمت الدنيا قديماً ، وإليها جاء فلاسفة الإغريق والرومان ، ولما أغلقت جامعة عين شمس أبوابها فتحت الإسكندرية جامعتها . وهى التى قامت من جديد تنشر النور وتضئ أرجاء العالمين ، فلما توالت الحوادث وانتهت جامعة الإسكندرية بعثت جامعة الأزهر منذ ألف عام . وبينما كانت أوروبا والعالم يسبح فى ظلمات العصور الوسطى ، كان الأزهر هو المنارة التى لم تقدم للإنسانية الإسلام وعلومه فحسب ، ولو أن هذا فى حد ذاته هو أعظم تراث يقدم للإنسانية ، بل كانت تقدم له أيضاً علوم الطب والفلك والرياضة ، وكل ميراث الإنسانية من العلوم والمعرفة .

ومصر ، أيها السادة ، هى التى لمع مجدها الحربى من حين لآخر فبهر الدنيا بأسرها . ولست أعود بكم إلى عهد الفراعنة ، أو إلى عصر صلاح الدين ، لست أعود بكم إلى هذه العهود التى حاربت فيها مصر أوروبا كلها فانتصرت عليها ، ولكننى أذكركم بمصر منذ نيف ومائة عام ، عندما كان سكانها لا يتجاوزون ثلاثة ملايين ، وميزانيتها لا تزيد عن المليون . فى ذلك الأمس القريب بدأت مصر نهضتها الحديثة فهزت الدنيا هزاً ، وسار الفلاح المصرى ، خلف إبراهيم باشا ، يهزج أهازيج النصر ، حتى قرع أبواب أوروبا . فى ذلك الأمس القريب سارت جيوشنا المنتصرة ، فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فصيرت البحر الأحمر بحيرة مصرية فى أراض مصرية . وبسطنا سيادتنا على شرق البحر الأبيض المتوسط ، ووقفت ممالك الدنيا تشاهد هذه النهضة الباهرة ، من بلاد خُيل للناس أنها من سقط المتاع .

العهد الذى قطعته على نفسى منذ الطفولة

منذ طفولتى أدركت هذه الحقائق ، ومنذ طفولتى أقسمت أن أقف نفسى ، وحياتى وشبابى على بعث هذه الأمة بعثا جديدا . أحول ضعفها قوة وشكها إيمانا ، وفرقتها وحدة ، وتخلفها تطوراً وارتقاء ، ومنذ اللحظة الأولى التى كرست فيها نفسى لهذه الغاية ، لم أدخل فى حسابى ، هل أقدر على إتمام هذه المهمة ، أو لا أقدر ؟ .. لم أدخل فى حسابى ، هل أنا الشخص الذى تحتاجه هذه الأمة ليقظتها ، أم لا ؟ .. لم أدخل فى حسابى ، هل أنا كفء لإنجاز هذا العمل العظيم ، أم لا ؟ . :

وكل الذى فكرت فيه أن كل مصرى عليه أن يقوم بواجبه ، ولقد آمنت بمصر ومجدها ، فأيقنت أن واجبى هو أن أنشر هذا الإيمان ، وأن أعمل لنشره غير مدخر فى هذا جهدا ، أو مالاً ، أو باخلٍ بنفس ، أو نفيس .. منذ اللحظة الأولى آليت على نفسى ألا أتكلم إلا عن مصر ، وأن لا أعمل إلا من أجل مصر ، وأن لا أحيا إلا من أجل مصر ، وهذا هو تاريخ طفولتى وشبابى بأسره ، سلسلة متصلة الحلقات فى هذا الكفاح الذى رسمته لكم ، ولقد أخذ هذا الكفاح سمته العملى ابتداء من سنة

١٩٢٨ ، أى كانت سنى قد بلغت السابعة عشرة فنى هذه السنة عُهد إلىّ بتحرير مجلة المدرسة الخديوية ، وكان ذلك عقب رحلة إلى صعيد مصر ، وزيارة آثارها ، كان لها أكبر أثر فى إيقاظ نفسي. وأخذت أكتب فى هذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان «رسالتى» لو أنكم طالعتم هذه المقالات ، وأرجو أن تسمحوا لى أن أتلو عليكم بعض فقرات منها ، إذن لعرفتم كيف أن مصر الفتاة هى كما قلت لكم ، إيمان اختلط بدمى وعظمى مذ كنت صغيراً ، وأننى اليوم لا أقول حرفا واحدا لم أقله بالأمس قبل أن تتصل بى الدول الأجنبية ، وقبل أن أعمل لحسابها... ذلك أننى كنت حدثا لا يسمع عنى الناس.

إنشاء جريدة الصرخة

فلما أن حصلت على البكالوريا ، واجتمعت وأخى فتحى ودخلنا الجامعة ، اتفقنا مع واحد من معارفنا أن يحصل لنا على رخصة لجريدة أسميناها الصرخة وقد صدر عددها الأول فى ٣ مارس سنة ١٩٣٠.

فى مارس سنة ١٩٣٠ ، أصدرنا العدد الأول من الصرخة ، وكنا ولا نزال فى المهد أيها السادة ، بالنسبة لرجال السياسة ، والوزراء ، والزعماء..

منذ ست سنوات ، وكنا كما يريدون أن يصورونا فى هذا العهد ، مغمورين ، مستضعفين.. فماذا قلنا فى هذه الجريدة ، وماذا كتبنا ، وإلى أى الأفكار دعونا.. أحمد الله أن بقى فى محفوظاتى نسخ من هذه الجريدة ، سأوزعها عليكم كيما تلمسون بأيديكم كيف أن مصر الفتاة التى تتهم اليوم بأنها صنيعة أجنبية ، لم تقل حرفا واحدا لم تقله منذ ست سنوات ، ولم تتحول ، ولم تتبدل قيد شعرة عن هذا الإيمان الذى نشأ فى صدورنا ، إذ كنا أطفالا لا نعرف من الدنيا إلا الله خالقنا ، ومصر وطننا..

فى هذه الأعداد الأولى ، دعوت لمصر الفتاة كما أنفذها اليوم.. فى هذه الجريدة دعوت لبعث مصر ، كما أدعو اليوم لبعثها.. لا أيها السادة.. بل فى هذه الجريدة علقت على المفاوضات بمناسبة سفر الوفد الرسمى إلى إنجلترا بكلام لا أستطيع أن أزيد عليه حرفا واحدا إذا أردت أن أعلق على مفاوضات اليوم..

فماذا أستطيع أن أقول للمفاوض المصرى اليوم أكثر من ذلك... وماذا تقول مصر الفتاة غير ذلك...

مشروع القرش

تابعت كفاحى أيها السادة ، وقد بدأت جموع الشباب تنصرف عن السياسة وتخلد إلى السكينة ، وقد زهدت فى كل كفاح ، أو جهاد ، ففكرت فى حركة أستطيع بها أن أوقظ الشباب من سباتهم العميق ، وأن أتدرج بهم إلى مصر الفتاة ، فناديت بمشروع القرش الذى تعرفونه.. دعوت المصريين إلى جمع قرش من كل مصرى ، وتشييد مؤسسة بالأموال المتجمعة ترد على مصر كرامتها ، وتوفر عليها نقودها ، وتزيدنا عزة ووطنية ، فكان أن سخر الناس منى ، واعتبروا ما أقول خيالاً ، وهاجمتنى

الجرائد ، وهاجمتنى بعض الأحزاب ، ولكننى سرت فى طريقى حتى نجح المشروع ، وجمعنا سبعة عشر ألفا من الجنيهات ، ثم أربعة عشر ألفا فى العام التالى ، فلما شرعنا فى التفكير فى إنشاء مصنع ، قلت نريد طرابيشا فقالوا مستحيل . فقلت وما قيمة الرجل وما قيمة الأمة ، إن لم تحاول المستحيل ؟

وبعد صعوبات وعقبات ، ودسائس ، ظفرت بإنشاء مصنع الطرابيش ، فكان انتصارا للإيمان والشباب .

وكان النجاح قذى فى عين الشانئين والحاسدين ، فشرعوا يحاربوننى ويكيلون لى التهم ، فقالوا عنى سارق الألوف من مشروع القرش ، وأننى اقتنيت من مشروع القرش السيارات والعمارات ، والله يعلم أننى فى هذه الآونة أجوب القاهرة على ساق ، لأننى لا أملك أجرة الترام .

إنشاء جمعية مصر الفتاة

على أننى كنت انتهيت من دراسة الحقوق ، وخرجت إلى ميدان الحياة ، وكنت قد ابتعثت حولى شباباً يؤمن إيمانى بمصر ، وبمجد مصر ، ويضحى بكل شئ من أجل مصر ، فرأيت أن الساعة قد حانت كيما أخطو الخطوة الأخيرة ، فى سبيل تنفيذ مبادئ مصر الفتاة ... فأعددت برنامجها ، ومبادئها ، ودعوت زملائى لتأسيس الجمعية فوافقونى ، وهم أكثر حماسة وغليانا منى ...

ولما كنت أعتقد أن رسالتى فى مشروع القرش قد كملت بإنشاء المصنع ، فقد قدمت استقالتى ، ونزلت إلى ميدان الجهاد بكل ما أملك ، وكل ما فى الطاقة البشرية من قدرة ومجهود ...

هكذا خرجت جمعية مصر الفتاة إلى الوجود كهيئة سياسية منظمة ، فما هى الدعامات ، وما هو البرنامج الذى اتخذناه نبراسا لنا فى كفاحنا الجديد ؟ ..

فأولاً لمصر الفتاة غاية تختلف عن غايات الأحزاب الأخرى ، ونظرة للحوادث تختلف كل الاختلاف عن نظرة أى سياسى فى مصر ، أو زعيم من الزعماء ...

فرجال السياسة فى مصر ، أو قل زعماء السياسة ، كل ما يصبون إليه ويفكرون فيه ، هو أن يحصلوا لمصر على معاهدة من انجلترا تحقق لمصر شيئا من استقلالها فى ظل الاحتلال ، ولذلك فإن كل أساليبهم ، وكل جهادهم محصور فى هذه الدائرة الضيقة ، ولما كانت وسيلتهم إلى تحقيق ذلك هى المفاوضة ، فقد أصبحت المفاوضة هى الطريق الوحيد للحصول على استقلالنا ..

أما جمعية مصر الفتاة أيها السادة ، فإن نظرتها تباين ذلك كل المباينة ، فنحن نؤمن بأن بلادنا عظيمة ، وبأن لها رسالة للدنيا بأسرها ، وأننا يجب أن نعمل للمجد والتفوق ، وأن الاستقلال ، أو بمعنى آخر أى معاهدة تقدمها لنا انجلترا ، ليست إلا الخطوة الأولى فى سبيل ارتقاء السلم الذى يوصلنا إلى زعامة الدنيا الروحية على الأقل ، فمصر الفتاة قد اتخذت غاية لجهودها أن تصبح مصر فوق الجميع ، دولة شامخة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الإسلام ، هذه غايتنا أيها السادة ، وهى غاية قد يرى الشيوخ أنها خيال فى خيال ، ولكنى مؤمن بإمكان تحقيقها ، بل إنى مؤمن أنها ستتحقق ، كما أنا مؤمن برؤيتى لكم الآن وبحديثى معكم ، وإنى لأرى العقبات فى طريق تحقيق ذلك البرنامج هينة لينة ، ولست أرى كما يخيل للبعض أن انجلترا ستحول

دون تنفيذ هذا البرنامج ، لأنى واثق أن الساعة ستأتى ، يوم أن ترى انجلترا نفسها فى حاجة إلى أن تتبوأ مصر هذه المكانة العليا لتكون لها حليفة قوية قادرة .

وسائلنا الإيمان والعمل

وغايتنا هذه كما ترون ، تحتاج إلى إيمان وعمل كيما تُحقق ، وهذه كل وسائلنا ، الإيمان والعمل .. فنحن نؤمن بحقنا ، ونحن نؤمن بغايتنا ، كما نؤمن بوسائلنا ، ونحن نؤمن بالنجاح فى نهاية الأمر .

أما العمل ، فهو عمل فى ثلاثة ميادين : الميدان الروحى الخلقى ، والميدان الاقتصادى ، ثم الميدان النظامى أو العسكرى . وعن طريق هذه الثلاثة ميادين ، ستحقق هذه الغاية العظيمة التى حدثتكم عنها ..

ففى الميدان الروحى والخلقى نريد أن نعيد للدين قدسيته ، وأن نعيد للأخلاق قوتها ، ذلك أن الدين للنفس والجماعة عدة روحية تجعلها تصبو إلى الكمال ، والمثل العليا ، فهؤلاء الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأرواحهم ، هؤلاء الذين يعرفون أن هناك ربا يرتفع إليه العمل الصالح ويثيب كل امرئ بما عمل ، هؤلاء هم فقط الذين يخدمون أوطانهم ، وهؤلاء هم الذين يعرفون معنى الرجولة ، والشرف والكرامة ، وعلى العكس ، أولئك الذين انصرفوا عن الدين ، وزهدوا فى المثل العليا ، وأضعفت فى أنفسهم قوة الضمير والرقيب الداخلى الخفى ، هؤلاء هم الذين يدمرون المجتمعات بشهواتهم ، وهؤلاء هم الذين يصانعون المستعمر ، ويرضون بالاحتلال فى سبيل مصالحهم الذاتية ، التى يرفعونها فوق كل شىء ..

ومن هنا أيها السادة أدعو إلى الدين ، والتمسك بالدين ، وفضائل الدين وروحه ، وأنا أقدس الأخلاق وأمجدها ، وأحارب كل اعتداء عليها ، ولذلك فقد جاء فى مبادئنا : تطهر فقاطع الخمور ودور اللهو والحرام . وجاء فى برنامجنا : تطهر فصل لربك ، وأم المسجد يوم الجمعة إن كنت مسلما ، والكنيسة يوم الأحد ، إن كنت مسيحيا ، ويوم السبت إن كنت إسرائيليا .

وجعلنا شعار جهادنا يبتدئ بكلمة الله ، إيمانا منا وثقة منا أن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه ، وأن الدين منبع الأخلاق ، ولقد قال شاعرنا الخالد : « إنما الأمم الأخلاق » .

هذا هو الميدان الأول من ميادين جهادنا .

كفاحنا الاقتصادى

أما الميدان الثانى ، فهو كما قلت لكم الميدان الاقتصادى ، فنحن نريد أن نعالج كل هذا الفقر الذى يعانيه السواد الأعظم .. ونريد أن نعالج الاختلال فى ميزانية الأفراد فى مصر . ونريد أن نوفر لمصر من الأموال ما يمكنها فى المستقبل القريب من أن تلعب هذا الدور الذى نصبوا إليه ، ولا سبيل لإصلاح ذلك كله ، وتحقيق هذه النتائج ، إلا بأن نشجع كل ما هو مصرى ، ونقبل على كل ما هو مصرى ، فمصر يجب أن تمتلئ بالمصانع التى تغزل قطننا وصوفنا ، وكتاننا ؛ ومصر يجب أن تمتلئ

بالمصانع التى تنتج لنا كل ما نحتاجه ، فنوفر بهذا عشرات الملايين من الجنيهات نصرفها كل عام فى التافه والحقير ، مما يمكن عمله فى مصر بأيد مصرية .

والفلاح المصرى ، يجب أن يكون محور اهتمامنا : تخفيف الضرائب عنه ، وذلك يكون بإنقاص مرتبات الموظفين الباهظة ، فإن هذه المرتبات نوع من الاحتلال الاقتصادى فى مصر ، فلدينا بضعة ألوف من الموظفين يتقاضون مرتبا يزيد على المائة جنية ، وهناك ثلاثة عشر مليونا قد لا يدخل فى يدهم إلا بضعة قروش فى العام بطوله ، يأكلون اللحم مرة واحدة ، ويرتدون الجلباب إلى أن يمزق على أجسادهم .

هذا الإصلاح الاقتصادى بتشجيع كل ما هو مصرى ، وإنشاء المصانع والمتاجر ، وتوفير قليل من الثروة فى يد الفلاح كفيل بأن يغنى مصر فى عشر سنوات ، ويملأها بمئات الملايين من الجنيهات التى تمكننا من تحقيق برنامجنا العظيم .

كفاحنا العسكرى

أما ميداننا الثالث ، فهو الميدان النظامى أو العسكرى ، فإننا من المؤمنين بالقوة أيها السادة ، وأن الأرض إرث للقوى ، وأن الشعب الضعيف جدير بالفناء . فسنة الله فى أرضه هى تنازع البقاء ، هذه هى النظرية التى سجلها القرآن بقوله «فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» وقال الله سبحانه وتعالى فى موضع آخر «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل»

فالقوة هى حصن الفرد ، وهى حصن الجماعة والشعوب . وإذا كان زعيمنا الراحل يقول الحق فوق القوة ، فإنى أقول إن الحق هو القوة .. والقوة لا يمكن أن تنبع إلا من الحق .. فيوم أن أومن أننى على حق فأنا قوى ، والعكس بالعكس .

ونحن ، المحامين ، أكثر ما نكون شعورا بذلك ، فعندما ندافع عن قضية حق فنحن أقوياء ، ونحن على استعداد أن نتحدى النيابة ، وأن نتحدى القانون ، وأن نتحدى الدنيا كلها بعدالة قضيتنا .

فالحق إذن مصدر للقوة ، وعلى صاحب الحق أن يتذرع بالقوة للحصول على حقه ، وإلا فلا حق له . هذا هو ما تعلمنا إياه حوادث القانون الدولى بأسرها ، ولست أحسب أن ما جرى فى الحبشة ببعيد . فلم أكن أعتقد يوما من الأيام أن الحبشة ستدافع عنها عصبة الأمم ، أو أن الخمسين دولة التى طبقت العقوبات بقادرة على أن تدفع عن الحبشة رصاصة واحدة . وعندى لو أن الدول بدل كل هذه الضجه صدّرت الأسلحة إلى الحبشة فى الساعة المناسبة لتغيرت نتيجة هذه الحرب .

فعلى الشعوب التى تريد الحياة أن تتذرع بالقوة : القوة الروحية أولاً ، والقوة المادية ثانيا . ومن هنا فنحن نجاهد لخلق جيل قوى من الشباب المصرى ، قوى ببنيته وجسده ونظامه . فالنظام هو قوة الجيوش الحديثة ، ونحن نريد أن نغرس روح النظام فى مصر فتتضاعف قوانا .

هذه هى الثلاث قواعد التى عليها كفاح مصر الفتاة ، فإذا انتصرنا وسارت هذه المبادئ فإن لنا برنامجا عمرانيا إنسانيا ، يجدد مصر فى كل الميادين ويعدها لأداء رسالتها .

محاربة خصوم الجمعية تثير الاتهامات

منذ خروجنا إلى الحياة الرسمية ، من ثلاث سنوات ، والحكومات المختلفة تحاربنا ، ما عدا حكومة ماهر باشا . حاربنا حزب الوفد فاتهمنا أول ما اتهمنا أننا صنائع الإنجليز ، ثم قالوا عنا سارقو مشروع القرش ، ثم قيل عنا صنائع الإبراشى . وإذن فالاتهام الجديد ليس إلا صورة جديدة من الصور التى يراد تصويرنا بها كيما نهزم ، ونتوقف عن جهادنا . ولو عرف النحاس باشا حقيقتنا ، لعرف أننا لا تؤثر فينا هذه الاتهامات ، ولا يمكن أن ترتفع إلى مستوى أقدامنا . ذلك لأننا لا نطمع فى حياتنا إلا أن نؤدى واجبنا . وإذن فنحن لا يمكن أن نهزم : فلا مطامع شخصية لنا ولا لذاتنا . لسنا نريد كراسى الحكم فالاتهام يبعدنا عنها . ولسنا نتقدم فى الانتخابات فالاتهام يسقطنا فيها . وإننا نقول كلاماً لا يمكن أن يرفض سماعه مصرى واحد . إننا نقول كلاما لا يمكن ألا يتأثر به مصرى واحد . وإلا فأى مصرى لا يحب أن يسمع أناشيد المجد والفخار التى نلقيها ونتحدث بها ؟ أى مصرى واحد يغضبه أن نقول له «لا تشترِ إلا من مصرى ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ولا تأكل إلا طعاماً مصريا» ؟ أى مصرى واحد لا يفرحه أن نقول له «بلادك هى مصر والسودان لا ينفصلان ولا يتجزآن» ؟ أى مصرى واحد لا يسعده أن يرى الشباب فى صفوف منتظمة تستعد لبذل أرواحها فى سبيل قضية بلادنا ؟ فحركتنا لا تهدم لأنها صوت الجيل الجديد وجهاده ، ومن يرد أن يحطمنا فهو كمن يريد أن يحطم مستقبل مصر ، وجيش الغد القريب .

من أين تجىء النقود ؟

يتساءلون من أين نحضر النقود التى نقيم بها هذا العمل العظيم ؟ ولو أنهم دخلوا إلى أصغر شعبة من شعب مصر الفتاة وأجروا فيها تحقيقا بسيطا ، لعرفوا من أين نصرف على هذه الحركة . فهذه القروش التى يدفعها كل عضو هى التى تؤلف رأس المال الصغير . فإذا كان الله يبارك فيها ويجعلها تعادل عشرات الألوف من الجنيهات ، فذلك هو عمل الإيمان وذلك هو سر الله سبحانه وتعالى .

وهل ذنبى أيها السادة أن يكون خصمى جاهلا بقوتى ؟ فخصومنا يكونون اعتقادهم عنا على الوجه الآتى : «دول شوية عيال منين بيجيبوا الفلوس ؟!» ولست مطالبا بالرد على هذا السخف ، ولست مطالباً بالرد على هذا الجهل . فجمعية مصر الفتاة هى جيل بأسره . ولا يوجد شاب واحد مثقف فى مصر ، وفى نفسه وطنية صحيحة لا ينضوى تحت لوائها . وجمعية مصر الفتاة لها مئات الشعب فى أنحاء مصر ، وجمعية مصر الفتاة فيها عشرات الألوف من الأعضاء . ومن بين هؤلاء الأعضاء الغنى والفقير ، ومن بينهم من يتبرع بمبالغ كبيرة للجمعية . فبدلاً من أن يحاول خصومنا أن يتعرفوا حقيقة حركتنا إذا بهم يتعامون عن الحقائق . ثم يصرخون من أين يجيئون بالنقود ؟! من أين يجيئون بالنقود ؟! هل لكم أيها السادة أن تزوروا دار مصر الفتاة كيما تعرفون منها أن تاجر الورق يداينتا بسبعين جنيها . هل لكم أن تزوروا الجمعية لتعرفوا أننا لم نسدد بعد إيجار الشقة التى نقيم فيها منذ

شهرين. ولست أقول لكم هذه الأشياء كيما أشكو أو أتضجر بأننا فقراء ، ولكنني أسرد هذه الحقائق كيما أظهر لكم أننا لا سر لنا ، وأي بوليس سرى من مئات رجال البوليس الذين يملأون جمعيتنا ، يعرف هذه الحقائق ويعرف الصعوبات التي نعانيها في الحصول على المال .

خذوا مثلاً هذا الاجتماع.. من أين حصلنا على نقوده ؟ حصلنا عليها من الاكتتابات التي جمعناها بالقرش والقرشين ، حتى جمعنا أربعة جنيهات هي مصاريف هذا الاجتماع. أليس سخفا ما بعده سخف أن يقال عنا أننا نشتغل لحساب دولة أجنبية ؟ أسائل نفسي عن هذا الذي يخون بلده... ما الذي يضطره لذلك إلا أن يرغب في الثروة والجاه والمال ؟ فلماذا لم يحاول أي واحد من هؤلاء الذين يدعون هذه الدعوى أن يزورني في بيتي ليرى في أي حجرة أقيم ، وأي طعام آكل ؟.. كيف يتخيل هؤلاء الذين قالوا هذه الدعوى إن خائنا لبلاده يسافر إلى الصعيد في الصيف كيما يسير على أقدامه ؟ ولديهم من التقارير أنني كنت أسير حافي القدمين وانني كنت أسير أحياناً وأقدامي تمزقت من السير؟ ولديهم من التقارير أن هذا الخائن كان يأكل في رحلته هو وإخوانه خبزا وجبنا ؟ وأنا كنا نشرب مياه البرك ؟ هذا نحن أيها السادة ، وهذا هو أسلوب خيانتنا ، أن نقدم كل شئ من أجل بلادنا .

وليهنأوا هم بوطنيتهم التامة التي درت عليهم الذهب ، والتي أسكنتهم القصور .

صفحتي وصفحتهم

هذه هي صفحتي أيها السادة وتلك هي صفحتهم ، لقد كنت أستطيع أن أبقى مديراً في مشروع القرش ، وأن أشيد في كل عام مصنعاً أكون مديراً له . وكنت أستطيع أن أكون محامياً أكسب مئات الجنيهات من حين لآخر ، وكنت أستطيع أن أكون موظفاً في أعلى الدرجات ، كما عُرض على أكثر من مرة . ولكن ها أنذا لست في وظيفة ، ولا أملك مليماً واحداً ، وهم يحاربونني من كل جانب ، حكومة وغوغاء ، فما الذي يغريني على احتمال ذلك كله ؟! ومن أين أستمد الشجاعة لمجابهة ذلك كله ، إلا أن أكون مخلصا لبلادي ؟ أولاً وأخيرا .. والله وحده هو الذي يعلم ذلك ، فهو الذي يمنحني القوة والتأييد .

يقولون أيها السادة «إن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» ولم يقدم خصمي دليلاً على قذفه . وها أنذا قدمت الدليل لكم على براءتي ، بأن سردت لكم صفحة أعمالي وهي كل ما أملك دليلاً على طهارة جهادي وسلامتي من الأغراض . على أنني أذهب إلى أبعد من ذلك فأقسم لكم اليمين . لا بل إني أفعل ما هو أكثر من ذلك ، أفعل ما دعا إليه رسول الله خصومه عندما قال لهم : «تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين»

فتعالوا يا من ثبت لكم أننا نعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة وطننا ، تعالوا نبتهل إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، واني لأبادر منذ الآن ، فأستعوضك يا رب ! يا من تعلم ما في القلوب وحنايا الضلوع ، يا من تعرف إخلاصي ، يا من أنطقتني وأجريت الدم في شراييني .. يا رب ! ! يا من تحصي علينا الأنفاس وخلجات الأعين .. اللهم إن كنت تعرف عني الكذب والخيانة ، فاللهم

زلزل الأرض تحت قدمى ، اللهم اسحقنى سحقا ، ولا تبق على الأرض منافقا واحدا . وإن كنت تعرف الأخلاص والصدق منى ، فاللهم أنزل سخطك وغضبك على الكاذبين المنافقين ، اللهم انزل سخطك وغضبك على الخائنين المارقين ، اللهم أنزل سخطك وغضبك على من يقذف الناس بالباطل ، وهو يعرف أنه باطل .

نحن والدولة الأجنبية

يقولون إننى فى خدمة دولة أجنبية ، وأنا الذى تحاربنى إدارة الأمن العام الأوربية لأنها تعتقد أننى عدو الأجانب . أنا فى خدمة دولة أجنبية ، وها هى « الاجبشيان جازيت » تقول عنا إننا جمعية لاهم لهم إلا طرد الأجانب . ذلك أنه عرف عن مصر الفتاة مقاطعتها لكل ما هو أجنبى . عرف عن مصر الفتاة أن محور جهادها هو تعظيم كل ما هو مصرى ، والتقليل من شأن كل ما هو أجنبى ، عرف عن مصر الفتاة أنها متعصبة ضد الأجانب ، والأجانب جميعا من غير استثناء . فدولة ايطاليا قد طلبت من الحكومة المصرية فى عهد وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، أن تحاكمنا وقد قدمنا للمحاكمة بالفعل ، ولا تزال القضية منظورة أمام محكمة الجنايات ، وهى مؤجلة إلى دور مقبل . ويستطيع أى واحد منكم أن يطلع على هذه القضية .

أما ألمانيا فقد كان لها موقعة معنا ، بمناسبة سيرك هاجنبك الألمانى ، فقد دعونا لمقاطعته ، وقبض على عشرات من أعضاء الجمعية بسبب مقاطعته .

وانجلترا ها هى ذى تخاصمنا ، وترسل علينا صواعقها ، على لسان رئيس الوزارة بإيعاز من إدارة الأمن العام الأوربية .

أما روسيا فليس فى مبادئنا سطر واحد ، أو كلمة واحدة ، أو حرف واحد ، لا يحارب الشيوعية ولا يناقضها . فنحن الذين ندعوا للأديان ، ندعوا للوطنية المتطرفة ، ونحن الذين نقدس الملك ، ونحن الذين نقاطع كل ما هو أجنبى ، لا يمكن أن يقال أننا من دعاة الشيوعية .

فماذا بقى من الدول الأجنبية لنكون متصلين به ضد مصلحة وطننا ، إلا أن تكون اليونان أو رومانيا أو الحبشة تفكر فى امتلاك مصر ! يا لها من كبيرة ! يالها من كبيرة أيها السادة ، لا تؤثر فينا بقدر ما تؤثر فى مصر بأسرها ، يالها من كبيرة طعنت مصر طعنة نجلاء أمام الدنيا وأمام العالم ، أن يقول رئيس وزارتها أن شبابها يخونونها . ألا ترون أن رئيس الحكومة قد وصم مصر وصمة عار إلى الأبد . ألا ترون أنه قد أضعف حجته فى المفاوضات غداً ، عندما تقول انجلترا « أريد كذا وكذا من الضمانات » فإذا حاول أن يعارضها جابهته بكلامه ، بأن هناك دولاً أجنبية ، بمساعدة المصريين ، تريد أن تحتل مصر . سامح الله النحاس باشا ، كنت أحسبه إذا اكتشف خيانة مثل هذه الخيانة أن يقدم رأسنا للجلاد ، كيما يبرهن للدنيا أن ثمن الخيانة فى مصر هو القتل ، أو إذا لم يكن لديه من الأدلة ما يكفى لإعدامنا ، أن يستر قليلاً وأن يدارى هذا الخزى ، لا أن يسجله على أمته .

نحن والأجانب

نحن دعاة دولة أجنبية ، نحن الذين تصيح منا الأجانب ، ويتهموننا بالتعصب ، وهنا أريد أن

أقف قليلاً وأن أفسر هذه الناحية من برنامجنا . وهل نحن نكره الأجانب ؟ إذن اسمعوها منى ايها السادة كلمة صريحة جريئة . اسمعوها كلمة لا مواربة فيها ولا عداء . إننا لا نكره الأجانب ، ولكننا نكره أن يتحكم فينا الأجانب . أجل فنحن لا نكره أحدا ، ونحن لا نضمر حقدا لأحد ، ولكننا نريد أن نكون السادة لبلادنا . نريد أن نكون أحرارا فى بلادنا ، وبعدها سنكون كرماء لضيوفنا . فلسنا نرضى بعد اليوم عن وجود الامتيازات ، ولسنا نرضى عن المحاكم المختلطة ، هذا هو الحاجز ، وإنى أعلن بأعلى صوتى أن مصر قد خلقها الله لأبنائها ، لا لتكون موئلاً للأجانب .. ونحن على استعداد أن نقاسم الأجانب خيرات هذه البلاد ، على استعداد أن نفتحها لهم على مصاريعها ، فلا يجدون فيها إلا كل إكرام وترحاب . ولكن على شرط أن نكون على قدم المساواة . أما أن يظن الأجانب أننا نقل عنهم رتبة فى الإنسانية . فهذا مالا نرضاه وهذا هو ما نقاومه بكل قوانا . وهذا ما يجعل الأجانب يظنون خطأ أننا نكره الأجانب ولا نحبهم . وعلى أية حال فهذا يدلكم كيف جاء اتهام النحاس باشا فى أقوى نقطة من مصر الفتاة فكان هجومه علينا من هذه الناحية كمن يهاجم الإسلام من ناحية التوحيد ويدعى أن الإسلام يعدد الآلهة .

نحـــن والإنجــــليز

يحاول الإنجليز أن يفهموا النحاس باشا أن الاتصال بدولة أجنبية معناه الخيانة فيصدقهم النحاس باشا ، ويقذفنا بهذا القذف الشنيع والذى أساء به إلى مصر قبل أن يسىء إلينا ، وإنى أصرخ بأعلى صوتى كيما يسمعها السادة الانجليز وليسمعها النحاس باشا ، نريد لهذه البلد حريتها واستقلالها ، نريد لهذه البلاد حقوقها ومجدها ، فإن أعطانا إياها الإنجليز فبها ونعمت ، هذه أيدينا نمدها لهم فى وضح النهار ومعها قلوبنا وصداقتنا ، أما إن أبوا إلا أن يغتصبوا حقوقنا وأن يهدروا كرامتنا ، فلن ندخر وسعاً فى العمل على استخلاص حقوقنا ، ولو رأينا أن الاتصال بدولة أجنبية سيقربنا من الاستقلال والحرية ، فلن نتأخر دقيقة واحدة عن هذا الاتصال ، لأننا نعتقد أننا إن لم نفعل ذلك نكون خونة لبلادنا ، إما أن نكون فى سلام ووئام وصداقة على قدم المساواة ، وإما أن نكون حربا عوانا لا تعرف هوادة ولا ليناً . هذا هو رأيى فى الاتفاق بين مصر وانجلترا . قلتها فى لندن . وسجلتها فى مذكرتى التى وزعتها هناك . وها أنذا أقولها على رؤوس الأشهاد كيما تبلغ أسماعهم من جديد . إن مصر ترغب من صميم قلبها أن تكون حليفة مخلصة لانجلترا . ونحن على استعداد لأن نصون مصالح انجلترا بأموالنا ودمائنا ، ولكن فليتركونا أولاً أحرارا فى جيشنا . وفى بلادنا . فليردوا لنا سوداننا . فليعاملوننا كدولة كاملة السيادة ، ولها حق البقاء والمساواة . لئن نظر الإنجليز لنا هذه النظرة فها أنذا أحمد حسين الذين يقولون عنى متطرف سأكون أول رجل يقف بجانب انجلترا . ويدافع عن قضايا انجلترا . أما إن أبى الإنجليز إلا أن ينظروا لنا هذه النظرة الحقيرة . إلا أن يحتلوا بلادنا . ويجردونا من السلطان والسيادة فى الداخل والخارج ، فلا ينتظر الإنجليز منى ومن إخوانى ومن كل شباب مصر . بل من كل مصر . لا ينتظرون منا إلا أننا سنعرف كيف نموت فى ميدان الشرف ..

ليست الدنيا ذهبا ومناصبا وقصورا أيها السادة . بل الدنيا حرية وكرامة وشرف . ونحن جيل جديد نأبى الخنوع والذل ، ولا نرضى بأقل من الحصول على الشرف الكامل ، أو الموت فى سبيله ..

كلمــة أخـــيرة

هذه هى مصر الفتاة . وهذه هى مبادئها وبرنامجها وروحها . فليقولوا عنا إننا نعمل لحساب دولة أجنبية ، فليقولوا عنا أننا خونة لبلادنا . فليقولوا عنا ما شاء لهم الهوى . فهذه هى صفحتنا فليرونا صفحتهم ، وهذه هى مبادئنا فليرونا مبادئهم ، وهذا هو موقفنا من الإنجليز فليرونا موقفهم ، وهذا هو موقفنا من الأجانب . فليرونا موقفهم . إننى أتحداهم أن يكون لهم برنامج مرسوم فى أى ناحية من نواحى الحياة المصرية ، أتحداهم أن تكون لهم مبادئ ، أو أن تكون لهم وسائل . إذن فعلام يتهمون الناس بالباطل ، وينسون أنفسهم ، علام يهاجمون الناس والدليل يُعوزهم . إنها إرادة الله سبحانه وتعالى فى أن يظهر حقيقتنا ، وأن يكشف عنا للدنيا بأسرها . فكان هذا الاتهام كيما يكون هناك دفاع .

فشكرا للنحاس باشا من أعماق القلب على ما أتاحه لى من فرصة للدفاع ، وشكرا لكم يا من جئتم إلى هذا المكان لتسمعوا أقوالى ..

وبعد أيها السادة إننا ماضون فى طريقنا على بركة الله وبمعونته ، ووالله لن يثنينا وعد ولا وعيد ، ولن يخيفنا إرهاب أو اضطهاد . إننا مع الله ومن كان مع الله فالله معه .

والله أكبر

رفع دعوى على رئيس الحكومة

٢١

ورأيت بعد هذا الخطاب أن أتقدم خطوة جديدة فى الهجوم على رئيس الحكومة ، فرأيت أن أرفع عليه دعوى مدنية ، أطالبه فيها بتعويض مقداره عشرة آلاف من الجنيهات . فكان لرفع هذه الدعوى رنة اعجاب فى جميع أنحاء البلاد ، فقد أظهرت مدى ما وصلنا إليه من السيطرة على الموقف ، بحيث تحولنا إلى مهاجمين لرئيس الحكومة بعد أن كان هو المهاجم لنا ، وفيما يلى صورة من عريضة الدعوى التى رفعناها على الحكومة فى ذلك الوقت :

إنه فى يوم

بناء على طلب الأستاذ أحمد حسين المحامى عن نفسه وبصفته رئيساً لجمعية مصر الفتاة ، ومقيم سكناً بشارع عمر بن عبد العزيز رقم ٧ بالمنيرة .

ومحله المختار مقر الجمعية المذكورة رقم ٥ بالعتبة الخضراء .

أنا محضر بمحكمة

قد انتقلت فى التاريخ المذكور بعاليه إلى الجهة المذكورة حيث المحل والمقر الرسمى لحضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا بصفته الشخصية ، وبصفته رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للداخلية ، مخاطباً إياه وأعلنته بالآتى :

أعلن الطالب فى إبان شهر مايو سنة ١٩٣٦ باعتزامه القيام برحلة إلى الوجه القبلى هو ونفر من أعضاء ــ جمعية مصر الفتاة ــ سيرا على الأقدام ، ابتداء من الشلال حتى القاهرة ، متنقلين من بلدة إلى بلدة ، ومن قرية إلى قرية ، مستطلعين حالة الفلاح ، وناشرين ما يقدرون على نشره من مبادئ الجمعية التى تدعو لعبادة الله وتقديس الوطن والإخلاص للعرش ، والتى تدعو لتشجيع كل ما هو مصرى وملء النفوس بالإيمان والإخلاص والرجولة ، ويظهر أنه عز على الحكومة أن يقوم حزب غير حزبها بهذه الدعاية ذات الأثر الكبير فى صفوف الفلاحين ، فأرسلت إلى الطالب تنبه عليه ألا يرتدى القميص الأخضر ، ولما كان هذا الطلب لا يستند إلى أى قانون بل إن الحكومة تشجع ارتداء قميص من لون آخر هو الأزرق ، فقد رفض الطالب إطاعته وسار فى رحلته هو وثمانية من رفاقه غادروا القاهرة فى قطار الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٨ مايو ، وبمجرد وصولهم إلى الشلال أحاطهم البوليس بضروب من الاضطهاد والتضييق تتنافى مع أبسط قواعد الحرية التى يفرضها القانون والدستور ، فمن

حصار يحول بينهم وبين اتصال الناس بهم ، ومن منعهم عن شراء الطعام أحيانا ، بل وصل الاضطهاد إلى درجة منعهم من (صلاة الجمعة) فى أكثر من مكان واحد ، فنى مدينة إدفو من أعمال مديرية أسوان مثل ما فى مدينة حزام من أعمال مديرية قنا ، وقد حققت النيابة فى هذه الواقعة الأخيرة وتحرر بذلك محضر ، وقد هال مجلس النواب هذه الإجراءات الشاذة التى تتعارض مع أبسط قواعد الحرية ، فقدم حضرة النائب المحترم هارون سليم أبو سحلى باشا استجوابا للحكومة يسألها عن صحة هذه المعلومات ، والدافع الذى يدفع الحكومة لاتباعها ، وكيف توفق بين هذا وبين قيام الحياة النيابية والدستورية ؟ . ولقد كان المفهوم أن الحكومة سترد على هذا الاستجواب بأن تنفى حوادث الاضطهاد وأن تدعى أن البوليس إنما يقوم بإجراءاته الشاذة لكى يحمينا . كان المفهوم أن يرد دولة رئيس الحكومة هذا الرد خصوصا وقد أوعز الى بعض الجرائد الموالية له بالكتابة فى هذا المعنى ، فأشارت إليه جريدتا المقطم والكوكب .

أجل .. كان منظورا أن يجيب رئيس الوزراء هذا الجواب ، وهكذا يتخلص من هذا المأزق بما لا يسىء به إلى أحد ، بقدر الأمكان ولكن رئيس الحكومة ، والذى هو رئيس الوفد فى الوقت نفسه ، رأى أن ينتهز هذه الفرصة كيما يقضى على ــ جمعية مصر الفتاة ــ ويحطم شخصية أحمد حسين المعنوية ، ويصمه بأشنع الوصمات ، فإذا به يفاجئ مجلس النواب والأمة بأسرها فى مساء يوم ٢٢ يونية سنة ١٩٣٦ ، بتصريح مؤداه أنه قد ثبت لدى وزارة الداخلية أن ــ جمعية مصر الفتاة ــ تعمل لحساب دولة أجنبية . أى أنه قد وصم الجمعية ابتداء من رئيسها إلى آخر أعضائها بتهمة الخيانة العظمى وهى أشنع جرائم الدنيا بأسرها ، وقد يصفح الناس عن القاتل أو أشد المجرمين خطرا . ولكنهم لايتسامحون مع الخائن ، هذا الذى يبيع وطنا بأسره للعدو .. ولقد تكون التهمة معقولة بعض الشىء لو أن رئيس الحكومة صرح أنه قد ثبت لديه ، أو أنه قد علم أن ــ جمعية مصر الفتاة ــ متصلة بدولة أجنبية ، إذن لما كان فى كلامه كثير من الحرج أو خروج عن جادة القانون ، ولكنه أبى إلا أن يقذف الطالب ورفاقه بجريمة الخيانة العظمى كاملة الأركان والصفات ، وأن يقذف الطالب بها فى أسلوب لايتطرق الشك الى صحته ، ذلك أنه استعمل عبارة « قد ثبت لدى وزارة الداخلية » والثبوت معناه اجراء التحقيق وموازنة الأدلة ، ثم إصدار الحكم .. ولقد هال مجلس النواب هذه التهمة الشنيعة فطالب رئيس الحكومة بالدليل فاعتذر عن الدليل ، بحجة أنه من أسرار الدولة ، فدعوه إلى جلسة سرية فامتنع كذلك ، فطالبوه بتقديم المقذوف فى حقهم إلى القضاء ولكن هذا لم يعجبه أيضا ، وهكذا أصبحت أمام حالة قذف لا دليل عليها ، أستغفر الله بل قذف لم يترك للمقذوف فى حقه فرصة الدفاع وتبرئة نفسه .. ولذلك لم يسع الطالب هو وإخوانه إلا أن يتقدموا للنائب العمومى الذى لم يحرك ساكنا فى الموضوع ، وهكذا ظل اتهام رئيس الحكومة قائما بغير دليل .

وعلى هذا فقد أوجد رئيس الحكومة الطالب وإخوانه فى حالة شاذة فهم موصومون بأشنع جرائم الدنيا بأسرها ، التى تحقرهم أمام مواطنيهم ، لا بل تبرر الإعتداء عليهم وسفك دمائهم دفاعاً عن الوطن العزيز ، بدون أن تعطى لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم .. ولسنا فى هذا نتجنى على رئيس الحكومة ، فإن تصريحه قد أوجد هذه النتائج الطبيعية ، فإذا بجموع الشباب التى تتبع دولته والتى كال لها الحمد والثناء فى مجلس النواب عندما كان يقذف ويسب فى « جمعية مصر الفتاة » بكل

صنوف الاعتداءات قد انتهزت فرصة اجتماع صرحت الحكومة بعقده فى مساء الجمعة ٢٦ يونية بمسرح برنتانيا فهاجمته بقوتها المسلحة . واصطدمت مع جنود مصر الفتاة فأسفرت المعركة عن كثير من الجرحى .

وقد أعقب هذا الاصطدام اصطدام جديد فى يونية بمناسبة عودة الطالب من الصعيد ، والذى هالته هذه الجرائم التى ترتكب ضده وضد أعضاء جمعيته فقرر العودة السريعة ، وقد أحاطت جموع شباب الوفد بدار «جمعية مصر الفتاة» وأخذت تهتف بسقوط (أحمد حسين الخائن .. والكلب أحمد حسين) وتقذف دار الجمعية بالطوب ، ولم تقتصر هذه الاعتداءات على القاهرة فحسب ، بل تناولت جميع شعب مصر الفتاة فى جميع أنحاء القطر المصرى كما سنبينه فى المرافعة .

واستمرت هذه الحالة عدة أيام توالت فيها الاعتداءات ، ولم يوقفها إلا سخط الرأى العام واشمئزازه من هذه الحوادث ، وحملة الصحافة على الحكومة ورجال الأمن العام وسماحها بهذا العبث والاعتداء .

ولم يكن ذلك كله إلا نتيجة طبيعية لهذا القذف الذى رمى به رئيس الحكومة رئيس جمعية مصر الفتاة وأعضاءها ، ولما كان الطالب محروما من أن يشكو دولة رئيس الحكومة إلى النيابة بسبب قانون حماية الموظفين من ناحية وبسبب الحصانة النيابية من ناحية ثانية ، وبسبب أن ما قيل كان فى مجلس النواب من ناحية ثالثة ..

وبناء عليه ، ونظرا لأن الطريق الجنائى مسدود على الطالب وهو الطريق الوحيد الذى يثبت براءته ، ويرد له شرفه وشرف إخوانه ، فلم يبق أمام الطالب إلا أن يلجأ إلى المسئولية المدنية مطالبا فيها بالتعويض لرد شرفه المهان والخسائر التى تكبدها بسبب هذا التصريح الخطير .. إذ لما كان الطالب ليس رئيسا للوزارة ، وليس من الأغنياء ، فيستطيع بجاهه أو ماله أن يشكل حزبا .. وكل الذى يملكه هو شرفه وكرامته وجهاده ، فإذا أصيب فى هذا الشرف وهذه الكرامة من رجل كرئيس الحكومة ، دون أن تعطى له فرصة الدفاع عن نفسه .. ويظهر أثر هذا الاتهام عمليا فى هذه الاعتداءات المتكررة التى على الجمعية ، فإن هذه الأضرار كلها لا يمكن أن تقوَّم بمال فى الواقع . ولكن الطالب يكتفى بعشرة آلاف جنيه مصرى تعويضا عن جزء من هذه الاضرار .

بنـــاء عليـــه :

ولما سيبديه الطالب فى جلسة المرافعة والمذكرات :

أنا المحضر سالف الذكر ، قد أعلنت دولة المعلن إليه بما تقدم ، وكلفته بالحضور أمام قاضى التحضير بمحكمة مصر الكلية الابتدائية الأهلية الكائن مركزها بسراى المحكمة بباب الخلق بمصر بالجلسة التى ستعقد بها علناً فى تمام الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٦ ، حتى بعد تحضير القضية تحال على إحدى الدوائر المدنية لمحكمة مصر الإبتدائية الأهلية ، لسماعه الحكم عليه بأن يدفع للطالب عشرة آلاف جنيه والمصاريف والأتعاب وشمول الحكم بالنفاذ المؤقت ، مع حفظ كافة حقوق الطالب الأخرى .

ولقد ظلت هذه الدعوى تتداول فى الجلسات طوال أيام حكومة النحاس باشا، إلى أن سقطت وجاءت وزارة محمد باشا محمود ، وفى هذه الأثناء كان اتهام النحاس باشا لم يعد له أى أثر ، بل إن رفعته قد عدل عنه فيما بعد . وأدرك أن مصر الفتاة فوق كل شبهة ، وكل ريبة ، وأن رجال القسم المخصوص فى وزارة الداخلية الذين أمدوه بهذه المعلومات الخاطئة قد غشوه وخدعوه . وقد كان لعدول رفعة النحاس باشا عن موقفه بالنسبة لمصر الفتاة فيما بعد أكبر الأثر فى تحسين جو العلاقات بين مصر الفتاة والوفد ، وعلى ذلك فقد جاء الوقت الذى رأيت فيه أنه لم يعد هناك محل للاستمرار فى هذه الدعوى التى كان من الجائز أن أخسرها من الناحية القانونية باعتبار أن رئيس الحكومة لا يمكن أن يسأل بأى حال من الأحوال عن تصريحات ألقاها فى مجلس النواب ، ولذلك فقد تنازلت عنها ، وأسدل الستار بذلك على هذه العاصفة الهوجاء .

* * *

مأساة دمنهور

٢٢

على أننا لا نستطيع بحال أن ندع هذه الصفحة من تاريخ مصر الفتاة دون أن نشير لهذه المأساة الرهيبة التي وقعت في دمنهور ، والتي بدأت بمهزلة إجرامية كدت أفقد فيها حياتي ، لولا أن نجاني الله منها بأعجوبة من الأعاجيب .

فقد أشرت فيما سبق لهذه الموجة من الاضطهاد التي غمرت البلاد ، وكانت مصر الفتاة هدفا لها ، وكان أصحاب الأقمصة الزرقاء هم القائمون بها . وكانت مدينة دمنهور إحدى المدن التي وقع فيها ما وقع في غيرها من بلاد القطر ، فكثرت حوادث الاصطدام والمشاجرات بين أعضاء مصر الفتاة وذوي الأقمصة الزرقاء . فعمد رجال الإدارة إلى إغلاق دار مصر الفتاة بحجة أنه ناد يدار بغير رخصة . فرفع أعضاء مصر الفتاة دعوى مستعجلة يطلبون فيها إعادة فتح الدار ، وذهبت إلى دمنهور لأترافع في هذه القضية ، فلم أكد أصل حتى بدأ الفصل الأول من هذه المأساة ، أو بالأحرى المهزلة الإجرامية .

أحسست باكفهرار الجو بمجرد وصولي إلى المحطة ، فقد أحاط بي أعضاء مصر الفتاة وهم في حالة عصبية ، وعلمت منهم أن هناك مظاهرات تطوف بالبلد احتجاجا على حضوري إليها ، ولكني سخرت من ذلك ولم ألق إليه بالاً . وركبت عربة قادتنا إلى المحكمة ، وقد أحاط بعض نفر بالعربة ، وهتفوا ضدي هتافات عدائية ، ولكن وقف الأمر عند هذا الحد ، واستطعنا أن نصل إلى المحكمة في سلام . ونفذت إلى قاعة الجلسة ، وجلست في المقاعد الأمامية المخصصة لحضرات المحامين ، وانتظرت ريثما يأتي دور قضيتنا . ولكن لم يكد يستقر بي المقام حتى سمعنا المظاهرات وهي آتية من بعيد تهتف بسقوط أحمد حسين وسقوط مصر الفتاة ولما كان هناك بوليس يحيط بدار المحكمة فلم يدر بخلدنا أبداً أن البوليس سيسمح للمتظاهرين بالاقتراب من دار المحكمة ، ولذلك فقد كانت مفاجأة مزعجة أن سمح البوليس للمظاهرة بالاقتراب من أبواب المحكمة الخارجية ، بل سمح لهم بالدخول إلى ساحة المحكمة الداخلية ، ثم حدث ما لم يحدث في تاريخ مصر أبدا ، فقد اقتحم المتظاهرون قاعة الجلسة نفسها ، لكي يبطشوا بأحمد حسين ويقتلوه ، إذا استطاعوا ، في ساحة العدالة نفسها .

وهرب القاضى إلى حجرة المداولة ، ودخلت معه إليها . وهنا ، وهنا فقط رأى البوليس أن يحول بين المتظاهرين وبين اقتحام حجرة المداولة ، حتى لا يعتدوا على القاضى نفسه ، فلم يكن هناك أحد يعرفنى شخصيا . وفى حجرة المداولة المحاطة بالرعاع والغوغاء الصاخبين ضد أحمد حسين ، نظرت قضية إغلاق دار مصر الفتاة ، ولست أحسب أن لذلك مثيلاً فى تاريخ القضاء المصرى بأكمله ، فلقد كان الطوب ينهال علينا فى أثناء المرافعة . وكان من الطريف أننى أردت أن أتحدث عن الاضطهاد الذى تلقاه مصر الفتاة ، فإذا بالقاضى يقول لى تكلم فى الموضوع يا أستاذ . فصرخت فى وجهه ممسكا بهذا الطوب الذى كان ينهال علينا «أترى حديثى عن الاضطهاد ليس فى الموضوع يا حضرة القاضى ؟! » .

ورحت أندد بالحكومة وتصرفاتها ، وأندد بهذه الفوضى التى أصبحنا نعيش فيها ، ولم يستطع القاضى إلا أن يسمعنى حتى النهاية فقد كان ما يجرى حولنا غريبا ، بل فى غاية الغرابة .

وأخيرا تمت المرافعة ، وأجل القاضى إصدار حكمه أسبوعا ، وصعدوا بنا إلى الدور الأعلى من بناء المحكمة . بينما كانت المظاهرة التى تحيط بدار المحكمة قد تحولت إلى ثورة عاتية يطالب فيها الثائرون برأس أحمد حسين .

واقترح علىّ رجال الإدارة أن يهربونى من بناء المديرية المتاخم لدار المحكمة ، وأفهمونى أنهم سيضعون لى سيارة على باب المديرية ، فما على إلا أن أركبها لكى تنطلق بى وتخرجنى إلى خارج المدينة .

وكانت السيارة المقترحة تقف على باب المديرية وسط الثائرين ، ومع ذلك فقد جازفت وذهبت إليها ، ولم أكد أستقر بها حتى اكتشفت أن ليس بها سائق ، وأن الجمهور الغاضب المحنق الذى كان يحيط بالسيارة إحاطة السوار بالمعصم قد بدأ يستريب فى هذا الشخص الجالس بالسيارة وحانت منى التفاته إلى باب المديرية فوجدت أحد رجال البوليس السرى يشير إلى المتظاهرين من طرف خفى إلى ناحيتى ، وأننى أحمد حسين الذى يطلبونه ، فلم أكد ألمح هذه الحركة حتى قفزت من السيارة وعدوت على سلم المديرية فى نفس اللحظة التى كشف فيها المتظاهرون أن ذلك الشخص الذى دخل إلى السيارة أمامهم لم يكن سوى أحمد حسين .

وقد كانت هذه مؤامرة سافرة على قتلى ، ولذلك فقد اقتحمت باب مدير المديرية ، الذى كان فى ذلك الوقت هو محمود بك غزالى ، ونددت بتصرفات الإدارة وطالبت

بتمكيني من السفر حالاً ، ووضع حد لهذه المهزلة .

ولكن المدير لم يحرك ساكنا ، وانصرف عند الظهر من دار المديرية يهتف له المتظاهرون طويلاً ، وسمحوا له بالمرور لأنهم فى ذلك الوقت كانوا قد ألفوا من أنفسهم حرسا وطنيا ، وأعلنوا الحصار على دار المديرية والمحكمة ، فلا يخرج منها إنسان إلا بإذن ، ولا يدخلها أحد إلا بإذن من حضرات الثوار .

وخرج جميع الموظفين فى منتصف الساعة الثانية ، وبقيت بمفردى ، ومعى ابن عم لى كان قد صحبنى من مصر ، وكان حكمدار البوليس يجلس معنا وهو ثائر على هذه الحالة من الفوضى والهمجية ولكنه أعلننا بأنه مغلول اليدين لا يستطيع أن يفعل شيئا ، فالأوامر المعطاة له أن لا يتعرض بحال من الأحوال للثائرين .

واستدعى الحكمدار بالتليفون ، وكلف القيام بمهمة من المهمات ، وعبثا حاول أن يظهر خطورة الموقف وأن تركى فى هذه الساعة معناه تعريضى لأشد الخطر . لقد كانت الأوامر صريحة ، فيجب أن يتركنى وينفذ ما طُلب منه خارج مدينة دمنهور بأكملها .

وتركنا الحكمدار وأبقى معنا اثنين من الكونستبلات وكانت هذه هى القوة الوحيدة التى بقيت إلى جوارنا لحمايتنا من القتل على يد هذا الجمهور الساخط ، الذى كان يطالب برأسنا . على أننى قررت أن أخرج من المديرية بأى ثمن من الأثمان ، فطلبت من رجلى البوليس ، وكانا قد امتلآ بالإخلاص لى ، أن يحضرا لى سيارة البوليس ، وأن يوقفاها على الباب ، وأن يتركا محركاتها فى حالة حركة حتى تنطلق بمجرد ركوبى بها . فأسرع أحد الرجلين إلى إحضار العربة وكان أمينا هذه المرة فلم يخبر أحدا بأننى سأركبها ، ولم تكد تقف على الباب حتى بادرت بالنزول ، وسلم المديرية فى دمنهور يواجه الباب الكبير . فلم أكد أظهر على أول السلم حتى لمحنى الجمهور ، ولكن المفاجأة أذهلته كل الذهول إذ لم يتصور أحد أن يكون هذا الهابط على الدرج بهذا الهدوء وهذا الابتسام هو أحمد حسين ، ولكنه كان أحمد حسين الذى أكمل الشوط فى هدوء حتى وصل إلى باب السيارة ، وسط الاندهاش أو الذهول ، الذى ولدته المفاجأة وقوة الموقف . ولم أكد أضع قدمى فى داخل السيارة حتى كانت الدهشة قد زالت من الجماعة ، فانقضوا على السيارة وانهالت عليها الأحجار كالمطر ، ولكن السيارة كانت قد انطلقت وزاد فى انطلاقها هذا السيل من الأحجار ، الذى أصاب السائق فجعله كالمجنون ، فراح يعدو وسط الجماهير لا يلوى على شىء ! . كانت هذه ثوانٍ دقيقة وخطيرة من أخطر ما مر بى فى حياتى ، وما يمكن أن يمر بها بعد الآن . لقد تحول زجاج السيارة الذى كان يحيط بى من

كل جانب إلى ذرات ، تحت تأثير هذا المطر من الأحجار ، ومزقت جوانب السيارة شر ممزق ، وأصيب السائق . وسقط ابن عمى وسط المتظاهرين لأن السيارة انطلقت قبل أن يتمكن من التعلق بها ... ومع ذلك كله فقد وجدت نفسى بعد قليل خارج المدينة سليما معافى ، لم أصب بأى سوء ... وقد كان ذلك معجزة إلهية من غير شك ، وكان معنى ذلك أن الله قد أجاب دعائى وحمانى فى هذا اليوم العصيب بعظيم قدرته ، وأنجانى من الضيق والكرب العظيم ، فله الشكر والحمد ما بقيت حيا ، ويوم أموت ، ويوم أبعث فى الموقف العصيب . لم يكن لى سلاح فى ذلك اليوم إلا إيمانى بالله ، وبينما كان الثوار يصيحون نريد رأس أحمد حسين ، الموت لأحمد حسين ، وبينما كان رجال البوليس يتسللون لواذا من حولى ، لم أجد أمامى إلا أن أسجد لله طالبا منه العون والمدد ، فجاءتنى النجدة فنجوت على هذه الصورة الكريمة ، حيث خرجت جهارا نهارا ، وفى وسط المتظاهرين الذين أسقط فى أيديهم ، وامتلأوا بالغضب عندما نجوت من شرهم .

لقد انهالوا ضربا على ابن عمى الذى أوقعه سوء الطالع فى أيديهم ، وظلوا يضربونه حتى خيل إليهم انه قد مات وقضى نحبه ، ثم انطلقوا بعد ذلك فى البلد يعيثون فسادا ، يقتحمون بيوت أعضاء مصر الفتاة ، ويتعدون على كل من يتخيلون أنه مصر الفتاة ، وعندما يتحول الأمر إلى هذه الفوضى ، فإن حياة الناس تصبح فى خطر ، سواء منهم الوفدى وغير الوفدى ، ولم يكن طبيعيا أن تنتهى هذه الحالة إلا بعد أن تقع مأساة دامية ، ولقد وقعت هذه المأساة ، وكان ضحيتها من ذوى الأقمصة الزرقاء ، بل لعله رئيس من رؤسائهم . واتهم رئيس شعبة مصر الفتاة عبد الرحمن افندى أبو الوفا بقتله ، واتهم معه بعض نفر من أعضاء مصر الفتاة ، وأدرك البوليس انه يجب أن يضع حداً لهذه الفوضى ، وخشع ذووا الأقمصة الزرقاء بعد أن سقط منهم قتيل فى الصراع بينهم وبين أعضاء مصر الفتاة . وعادت السكينة إلى دمنهور من جديد ، وهدأت هذه العاصفة العاتية ، ولكن بعد أن مات ضحية من ضحايا الفوضى والاضطراب والعدوان .

كان لهذا الحادث تأثير عميق فى أنحاء البلاد ، فقد كفت على أثره اعتداءات ذوى الأقمصة الزرقاء ، ورأت الحكومة أن من واجبها أن تفرض على أتباعها شيئا من الهدوء والنظام ، غير أنها انتهزت فرصة هذا الحادث لكى تصدر أمرها بإغلاق دور مصر الفتاة فى جميع أنحاء القطر المصرى ، بما فى ذلك المركز العام . ولكن مصر الفتاة أثبتت أن لحمها مر يستعصى على الآكلين ، وأن الخير كل الخير فى الإقلاع عن كل تحرش بها أو محاولة للاعتداء عليها فى ظل الفوضى والهمجية ..

وقد حكم القضاء بعد ذلك ببراءة مصر الفتاة من دم هذا القتيل ، إذ قضى ببراءة عبد الرحمن افندى أبي الوفا ، فكان ذلك نصرا رائعا اهتزت له جنبات مصر . ولم يكن بوسع محكمة الجنايات أن تقضى بغير ذلك ، بعد أن استعرضت حوادث دمنهور الغربية ، وما سادها من فوضى وروح إجرامية ، وصلت إلى حد اقتحام مجلس القضاء ، ومحاصرة دار الحكومة لقتل أحمد حسين تحت سمع الحكومة وبصرها .

* * *

معاهدة سنة ١٩٣٦

٢٣

وفى ذلك الوقت الذى كان فيه الخصام قد بلغ أشده بيننا وبين الوفد وحكومة الوفد ، كانت المفاوضات الجارية بين مصر وانجلترا قد بلغت نهايتها ، ولم يبق إلا التصديق عليها ، وقد كان من الواضح أن هذا العنت الذى لقيته مصر الفتاة ، كان خطة مدبرة تسبق التصديق على المعاهدة حتى لا تستطيع مصر الفتاة أن تتصدى لانتقاد هذه المعاهدة ومحاربتها . فقد اشتهرت مصر الفتاة بالتطرف فى الوطنية ، وكانت نصوص المعاهدة التى تم الاتفاق عليها أبعد ما تكون عن تحقيق المطالب الوطنية ، فهى تجعل الاحتلال الانجليزى فى مصر شرعياً ، وهو ما كان يصبو إليه الإنجليز منذ ستين سنة ، وهى تربط بين مصر وانجلترا فى تحالف أبدى إلى نهاية العمر ، وهى تجعل من مصر دولة مشدودة إلى عربة الإمبراطورية الإنجليزية ، كما كان يُشد الأسرى والمغلوبون على أمرهم فى الزمن القديم .. وكان مقدرا أن مصر الفتاة ستثور فى وجه هذه المعاهدة ، وستؤلب الجماهير عليها وتدعوها إلى رفضها ، فرأى القسم المخصوص فى وزارة الداخلية ، وهو ممثل الاحتلال فى داخل الحكومة المصرية ، أن يقذف مصر الفتاة بهذا الاتهام الشائن ، ليتخذه ذريعة فى الوقت المناسب للقبض على رؤساء مصر الفتاة ، وليقلل من قوة مصر الفتاة وقوة دعايتها ، ولكن هذه الخطة قد حَبِطت كما رأينا وظلت مصر الفتاة قائمة فى الميدان يدوى صوتها فتتجاوب به البلاد من أقصاها لأدناها .. وجاء الوقت الذى أعلن فيه أنه قد تم التوقيع على نتائج المفاوضات ، وأن وفد المفاوضات المصرى سيسافر إلى لندن لإبرام المعاهدة ، وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ أبرمت معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا العظمى ، ولما كانت هذه الوثيقة تؤلف صفحة تاريخية فى حياة مصر الحديثة ، وتعتبر أساس الحياة السياسية فى مصر طوال العشر السنوات التالية ، فقد رأيت أن أثبتها بنصها فى هذا الكتاب للذكرى والتاريخ ، غير أننى اقتصرت فى نشرها على ذكر المواد الرئيسية دون الملاحق والمذكرات والمحاضر الملحقة بهذه المعاهدة لأن المقام يضيق عن إيرادها ، ويمكن تلخيص هذه الملاحق فى أنها نقض لما جاء فى المعاهدة من أن الاحتلال لمصر قد انتهى ، فقد عملت هذه الملاحق على تثبيت دعائم الاحتلال الفعلى لمصر .

وستأتى فيما بعد إشارة كاملة لهذه النصوص والاشتراطات الجائرة إبان مناقشة المعاهدة والتعليق عليها فى خطابى العام الذى ألقيته لهذا الغرض .

معـــاهدة تحـــالف

بين حضرة صاحب الجلالة ملك مصر
وحضرة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة

لندن فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦

بين حضرة صاحب الجلالة ملك مصر .

وحضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند .

بما أنهما يرغبان فى توطيد الصداقة وعلاقات حسن التفاهم بينهما والتعاون على القيام بالتزاماتهما الدولية لحفظ سلام العالم .

بما أن هذه الأغراض تتحقق على الوجه الأكمل بعقد معاهدة صداقة وتحالف تنص لمصلحتهما المشتركة على التعاون الفعّال لحفظ السلام وضمان الدفاع عن أراضيهما وتنظيم علاقاتهما المتبادلة فى المستقبل .

قد اتفقا على عقد معاهدة لهذه الغاية وأنابا عنهما المفوضين الآتية أسماؤهم :

حضرة صاحب الجلالة ملك مصر .

قد أناب عن مصر :

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء .
حضرة صاحب السعادة الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب .
حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
حضرة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
حضرة صاحب المعالى واصف بطرس غالى باشا وزير الخارجية .
حضرة صاحب المعالى عثمان محرم باشا وزير الأشغال العمومية .
حضرة صاحب المعالى مكرم عبيد باشا وزير المالية .
حضرة صاحب المعالى محمود فهمى النقراشى باشا وزير المواصلات .
حضرة صاحب المعالى حمدى سيف النصر باشا وزير الزراعة .
حضرة صاحب السعادة حافظ عفيفى باشا وزير سابق .

وحضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند (الذى سيشار إليه فى نصوص هذه المعاهدة بعبارة صاحب الجلالة الملك والإمبراطور)

قد أناب عن بريطانيا العظمى وأيرلندا :

سعادة الرايت أونورابل أنتونى ايدن وزير جلالته للخارجية .

سعادة الرايت أونورابل جيمس رامزى ماكدونالد رئيس المجلس الخاص .

سعادة الرايت أونورابل السير جون سيمون مستشار ملكى وعضو مجلس العموم ووزير الداخلية .

سعادة الرايت أونورابل فيكونت هاليفاكس حامل أختام جلالة الملك .

سعادة السير مايلز ويدربيرن لامبسون المندوب السامى لجلالته فى مصر والسودان .

الذين بعد تبادل وثائق تفويضهم التى تخولهم سلطة كاملة والتى وجدت صحيحة ومستوفية الشكل قد اتفقوا على مايأتى :

(المادة الأولى)

انتهى احتلال مصر عسكريا بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور .

(المادة الثانية)

يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والامبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية .

(المادة الثالثة)

تنوى مصر أن تطلب الانضمام إلى عضوية عصبة الأمم . وبما أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فإنها ستؤيد أى طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم بالشروط المنصوص عليها فى المادة الأولى من عهد العصبة .

(المادة الرابعة)

تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما .

(المادة الخامسة)

يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفا يتعارض مع المحالفة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية .

(المادة السادسة)

إذا أفضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى إلى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة تبادل الطرفان المتعاقدان الرأى لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لأحكام عهد عصبة الأمم أو لأى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة .

(المادة السابعة)

إذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فإن الطرف

الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفاً وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتى ذكرها .

وتنحصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر ، فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها ، فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الأراضى المصرية - ومع مراعاة النظام المصرى للإدارة والتشريع ، جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات .

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة .

(المادة الثامنة)

بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فإلى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القنال وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال . ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها .

ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الأحوال .

كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية .

ومن المتفق عليه أنه إذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحددة فى المادة السادسة عشرة على مسألة ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لأن الجيش المصرى أصبح فى حاله يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القنال وسلامتها التامة فإن هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للإجراءات التى قد يتفق عليها الطرفان المتعاقدان .

(المادة التاسعة)

تحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع به ، من إعفاء وميزات فى المسائل القضائية والمالية ، قوات صاحب الجلالة الملك والإمبراطور التى تكون موجودة فى مصر طبقاً لأحكام هذه المعاهدة .

(المادة العاشرة)

ليس فى أحكام هذه المعاهدة ما يمس أو ما يقصد به أن يمس بأى حال من الأحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى قد تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

(المادة الحادية عشرة)

١ ـ مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام ، بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين ، مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين .

والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين .

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ ـ وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ ـ يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلاً عن الجنود السودانيين .

٤ ـ تكون هجرة المصريين إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ ـ لا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين فى شؤون التجارة والمهاجرة أو فى الملكية .

٦ ـ اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة فى ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصبح بها الاتفاقات الدولية سارية فى السودان .

(المادة الثانية عشرة)

يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم فى مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهى التى تتولى تنفيذ واجباتها فى هذا الصدد .

(المادة الثالثة عشرة)

يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة .

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر فى إلغاء هذا النظام دون إبطاء .

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن فى ملحق هذه المادة .

(المادة الرابعة عشرة)

تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التى يكون استمرار بقائها ضامنا لأحكام هذه المعاهدة . ويجب أن يعد باتفاق الطرفين المتعاقدين ، إذا طلب أحدهما ذلك ، بيان بالاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك فى مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة .

(المادة الخامسة عشرة)

اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تقصيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الأمم.

(المادة السادسة عشرة)

يدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات. بناء على طلب أى منهما فى أى وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة. وذلك بقصد إعادة النظر بالاتفاق بينهما فى نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك. فإذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التى أعيد نظرها يحال الخلاف إلى مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقا لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو إلى أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للإجراءات التى يتفق عليها الطرفان المتعاقدان.

ومن المتفق عليه أن أى تغيير فى المعاهدة عند إعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمبادئ التى تنطوى عليها المواد (٤، ٥، ٦، ٧).

ومع ذلك ففى أى وقت بعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول فى مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد إعادة النظر فيها كما سبق بيانه.

(المادة السابعة عشرة)

يصدق على المعاهدة الحالية ويتبادل التصديق عليها فى القاهرة فى أقرب وقت ممكن ويبدأ تنفيذها من تاريخ تبادل التصديق عليها وعندئذ تسجل لدى السكرتير العام لعصبة الأمم.

وإقرارا بما تقدم وقع المفوضون السابق ذكرهم هذه المعاهدة ووضعوا أختامهم عليها. وتحررت فى لندن من صورتين فى اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٣٦.

مصـــر الفتاة تحـارب المعـاهدة

٢٤

لم تكد نصوص هذه المعاهدة تعلن وتذاع حتى هبت مصر الفتاة لمحاربتها ، وعمل كل ما من شأنه أن يحول دون تصديق البرلمان المصرى عليها ، وقد جاء توقيع المفاوضين المصريين على هذه المعاهدة بمثابة مهماز شحذ قوانا من جديد ، وبعث فينا كل نشاطنا وكل حيويتنا وكل عنادنا وقدرتنا على الكفاح والجهاد ، فاستأجرنا دارا جديدة اتخذتها مكتباً لى بدلا من دار مصر الفتاة القديمة التى أغلقتها الحكومة وحالت دون إعادة فتحها ، واستأجرنا جريدة جديدة وهى جريدة الضياء بدلاً من الصرخة التى اضطررنا لوقفها نظرا لتوالى المصادرة عليها ، وانتهزت فرصة تصريح الحكومة بعقد الاجتماعات العامة لمناقشة نصوص المعاهدة لكى أتقدم بطلب تصريح لنا لعقد اجتماع بدار الحزب الوطنى ، الذى كان قد حل محل جمعية الشبان المسلمين فى هذه الدار التى تقع فى شارع مجلس النواب ، وفى الموعد المضروب للاجتماع وهو مساء السبت ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٦ عقد الاجتماع وسط حماسة بالغة لم يسبق لها مثيل فى كل تاريخ مصر الفتاة ، وحسبك أن تعلم أن الموعد المقرر لبدء الاجتماع كان هو الساعة الخامسة . ولكن سرادق الاجتماع امتلأ بالجمهور ابتداء من الساعة الثانية بحيث لم يتمكن ألوف من الراغبين فى حضور الاجتماع أن يحضروه ، لأن قوات البوليس الضخمة التى أحاطت بمكان الاجتماع قد حالت بين الجمهور وبين الوقوف بالقرب من سرادق الاجتماع . ولقد حدثت مصادمات ومناوشات صغيرة فى خلال الاجتماع ، ولكن ذوى الأقمصة الخضراء استطاعوا أن يسيطروا سيطرة تامة وكاملة على الموقف فمر الاجتماع حتى نهايته دون أن تتمكن قوات الشغب التى أرسلت خصيصا للإخلال بالنظام ، من أن تعمل شيئا .

وفيما يلى الخطاب الذى ألقيته فى هذه الليلة . وحللت فيه بعض نصوص المعاهدة وأظهرت مواضع الخطر فيها على حرية مصر واستقلالها ومستقبلها مما حققته الحوادث وأظهرته الأيام ، ولما كان هذا الخطاب هو أول خطاب ألقيته على الجماهير بعد اتهام النحاس باشا لنا بالخيانة العظمى ، فقد كنت مضطرا أن أستهل الخطاب بالإشارة إلى هذا الاتهام ، وبالدفاع عن مصر الفتاة .

خطاب

أيها السادة :

يظهر أن هناك مقدمة لابد منها فى مستهل حديثى ، فلست أشك لحظة فى أن بين صفوفكم من يخالفوننى فى العقيدة السياسية ومن يتحمسون للحكومة الحاضرة والمعاهدة .. ولست أشك فى أن الكثيرين من هؤلاء قد جاءوا تحدوهم الرغبة الطيبة فى التفاهم والاقتناع . وأن هناك غيرهم قد جاء معتزماً إحداث حدث من الأحداث ، فإلى هؤلاء وإلى هؤلاء أوجه كلمة الابتداء ، وكل الذى أرجوه أن تلقى آذانا صاغية وقلوبا واعية .

إننا فى جمعية مصر الفتاة لانحمل حقدا لمصرى واحد ، ولسنا نكره مصريا واحدا ، ذلك لأننا نعلم أن الإنجليز إذا كانت قد استطاعت أن تحطم استقلالنا ، وأن تتصدق علينا بعد مائة سنة من تحطيم امبراطوريتنا بهذه المعاهدة الهزيلة المشبوهة .. فتهلل لهذه المعاهدة التى تفرض علينا الاحتلال والفقر . إذا كنا قد وصلنا إلى هذه الحالة التعسة فليس ذلك إلا لأن الغاصب قد عرف كيف يحطم كتلتنا . وكيف ينفذ إلى وحدتنا فيمزقها .. فإذا كنا قد رسفنا فى العبودية خمسين عاما ، فما ذلك إلا لاختلاف كلمتنا ومحاربة بعضنا لبعض ، وتراشقنا بالتهم والسباب . ولم يستطع الغاصب أن يتغلغل فى بلادنا إلا لأننا أنقسمنا شيعا وأحزابا ، كل فريق منا يعتدى على الآخر وتركنا الغاصب يسرح ويمرح ويغنم ويربح ، فهو يكسب من هؤلاء وهؤلاء ، وهو الفائز أولاً وأخيرا .

ومن هنا فنحن لانحقد على مصرى واحد ، ولكنا نحب الجميع ونتمنى لهم الخير ، حتى لو آذونا واعتدوا علينا لما أنقص ذلك مقدار شعرة من حبنا لهم ، لأنهم مصريون أولاً وقبل كل شىء . ولما كنا قد كرسنا حياتنا من أجل مصر والمصريين ، ولما كنا لا نطمع فى هذه الحياة الدنيا فى مال أو منصب أو غرض من أغراض الحياة ، فنحن لايمكن أن نحقد على مصرى مهما أساء أو اعتدى ، وكل الذى نفعله إذا اشتد بنا الأذى وتضاعف البلاء أن نرفع أكف الضراعة إلى المولى سبحانه وتعالى ، ونقول كما قال سيد الخلق (رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) .

هذا هو مبدؤنا وهذا هو طابع جهادنا . أجل قد نشتد فى خصومتنا ، وقد نهاجم معارضينا بقوة وعنف . ولكننا نفعل ذلك لا كرها منا فيهم ولا حقدا عليهم ، ولكن رغبة منا فى إصلاحهم ورؤيتهم أطهارا أقوياء أعزاء فنحن نحب الخير لخصومنا ونرجوه ، وهذا لا يمنعنا أن نصارحهم بخصومتنا غير هيابين ولا وجلين ، فإذا عرف خصومنا الحق كنا أول من يفرح لذلك . بل كنا أول من يسير فى صفوفهم ويشد أزرهم ، غير بخلاء بتضحية مهما عزت ومهما غلت .

هذا نحن وهذا موقفنا ، وإذن فإلى هؤلاء الذين جاءوا إلى هذا الاجتماع وفى قلوبهم شىء من الحقد على مصر الفتاة ، أرجو أن ينتزعوه مؤقتاً ، ليستمعوا إلىّ فى رفق وهدوء ، حتى إذا انتهيت من خطابى كنتم قضاة وحكاما عدولاً ، فإن وجدتمونى محقاً ، فهذه يدى ، وهذا كتاب الله أعاهدكم عليه . أن أبقى طوال حياتى مخلصاً لما تريدون . أما إن وجدتم أنى مخطئ فهذا دمى فاسفكوه حلالاً لكم .. وهذه روحى فازهقوها كما يحلوا لكم ، العهد بينى وبين الناس طراً أن أعمل من أجل مصر

ومجدها ، فإن رغبتم فى ذلك فهو الفضل من ربى ، وإن رغبتم عن ذلك فلا فائدة لحياتى وإنى أهبها لكم تتصرفون فيها كما تريدون ، ولكنى أسألكم شيئا واحدا هو أن تستمعوا إلىّ وأن تحسنوا الاستماع ، ثم احكموا فى نهاية الأمر .

لماذا دعوناكم ؟ !

دعوناكم لنتحادث سويا فى شأن المعاهدة المعروضة علينا ، والتى ستعرض على البرلمان بعد يومين . وقد جئتم إلى هنا لتسمعوا هذا الرأى حتى تقارنوه بما عندكم من آراء ، ولكن قبل أن يكون من حقنا أن نناقش المعاهدة ، قبل أن يكون لنا شرف النصح والإرشاد والقيادة ، ألا يجب علىّ قبل ذلك أن أقول كلمة أبعد بها هذه الغيوم وهذه السحب التى أظلت مصر الفتاة ؟ ألا يجدر بى أن أقضى على هذا الشك الذى خيم فى سماء جهادنا ؟ وأن أزهق الباطل الذى التصق بنا ؟ ألا يجدر بى قبل أن أحاسب المفاوضين على ماجاءوا به ، أن أخاطب نفسى أولاً وأن أرد على ماوجه إلىّ من تهم ؟ .

اتهام النحاس باشا

قيل عنا أيها السادة إننا نخدم دولة أجنبية ، وإننا نعمل لصالحها ضد مصلحة وطننا ، وهذه تهمة أيها السادة لو صحت لكانت رءوسنا جديرة بالمشنقة ، ولكان بطن الأرض أولى بنا وأحق ، ولو أن هذه التهمة كانت صحيحة أيها السادة ، لوجدتم الأرض وقد تزلزلت تحت أقدامى ، ولوجدتم السماء وقد تساقطت كِسفاً فوق رأسى ، لو أن هذه التهمة كانت صحيحة إذن لوجدت فى كل مصرى منتقماً ، ولخفت النور وخفت الناس ، وتواريت خزيا وعارا .. ولكن ها أنتم ترونني واقفاً أمامكم رافع الرأس شامخا معتزا .. معتزاً بمصريتى ، معتزا بإيمانى ، معتزا بجهادى .. لا أخاف على ظهر الأرض إنسيا واحدا ، ولكن أخشى الله وحده ، فهو الذى خلقنى وهو الذى هدانى ، وهو الذى يميتنى وهو الذى يحيينى .

لو أنى كنت الرجل الذى وصفوه ، لما وجدت حجة أخدعكم بها ، ولما وجدت جنانا أجابهكم به ، ولما وجدت مستمعاً واحداً يستمع إلىّ فضلاً عن هذه الألوف المؤلفة ، فالمجرمون إن عاشوا فهم يعيشون فى الظلام ، والمتآمرون لا يتحدثون إلى الناس .

اتهمونا أيها السادة فقيل لهم فى مجلس النواب : ابرزوا الدليل ، فقالوا لا فهذه أسرار لا تذاع فطلبوا منهم عقد جلسة سرية ، فقالوا لا ، إن هذه مسائل لاتطرح على البرلمان . فقيل لهم قدموهم إلى المحاكمة فقالوا لسنا نريد أن نلجأ إلى المحاكم . فاعجبوا ، اعجبوا من هذه الحكومة التى تترك الخونة يفسدون فى الأرض . اعجبوا من هذه الحكومة التى تسمح لنا بالسير والتحدث والخطابة والاجتماع وهى تقول عنا : إننا نعمل ضد مصلحة مصر . ألستم ترون معى أنه لو صح ماتدعيه هذه الحكومة لوجب أن تسقط حالاً لأنها عاجزة عن الضرب على أيدى الخونة والمفسدين ؟ ! ولكنهم يعلمون أننا أطهار كالأطفال ، وأنقياء كالثلج ، وهم لا يستطيعون أن يجابهونا إذا ما قُرع الدليل بالدليل .

محاولاتنا الدفاع عن أنفسنا

على أننا من ناحيتنا لم ندخر وسعاً فى دحض اتهامهم من أيسر طريق فتقدمنا ببلاغ إلى النائب العام ورجوناه سرعة التحقيق معنا .. فماذا فعل ؟؟ إنه لم يفعل شيئا ولا يستطيع أن يفعل شيئا لأننا أطهار أبرياء .. .

فكرنا بعد ذلك فى دعوة فريق من نواب الأمة لنعرض عليه بعض الحقائق ، ولندافع عن أنفسنا ، فدعوناهم إلى حفلة شاى متواضعة ولكن الحكومة لم تصبر على هذه الدعوى فحالت بيننا وبين عقد الاجتماع بالقوة ، فاعجبوا لهذه الحكومة الدستورية التى تحول بين النواب وبين شخص من الأشخاص ، فهل فعلت ذلك إلا لأنها تعرف أننا أطهار أبرياء ؟!

فماذا بقى بعد ذلك لنعمله ؟ لقد رفعنا قضية مدنية على رئيس الحكومة نطالبه بتعويض عن قذفه إيانا . وقد نربح هذه القضية ماديا وقد لا نربحها لاعتبارات قانونية ولكن نحن المنتصرون معنويا على كل حال .. فإن أولئك الذين يعملون فى الظلام لا يقفون فى المحاكم ولا يطالبون رئيس الحكومة بتعويض ، ولكنهم يهربون من وجه القضاء والعدالة . ولكننا فعلنا ذلك أيها السادة لأننا مطمئنون إلى براءتنا ماضون فى طريقنا إلى الأمام فى غير ما تردد أو ضعف .. أما هذه الاتهامات فإنها عنوان شرفنا .. فلا يوجد مصلح واحد فى الدنيا لم توجه إليه الاتهامات .

وهل هناك أشرف أو أجل من سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، أذكروا كم أوذِى فى جهاده ، وأى اتهامات قد وجهت إليه ؟ اذكروا كيف اضطر بعد ثلاثة عشر عاما من جهاده أن يهاجر من بلدته تفاديا للقتل .. وقد كان الله قادرا أن يحميه من أذاهم وأن يجعل الدنيا طيّعة له فى طرفة عين ولكن الله أراده أن يكون قدوة ونبراسا فى الصبر والثبات واحتمال الأذى فى سبيل العقيدة .. وقد جاءت الساعة التى انتصر فيها نور محمد عليه الصلاة والسلام . جاءت الساعة التى تلا فيها الآية الكريمة وهو يحطم أصنام مكة «قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» وأين نحن من رسول الله أيها السادة ؟ ولكن واجبنا أن نتأسى به وأن نعتبر بحياته . وسوف تأتى الساعة التى نقول فيها بدورنا «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» .

المفاوضات والمعاهدة

صبرنا على هذا الاتهام وصبرنا على صنوف من الإعنات والإرهاق ، فلقد صودرت جريدتنا مرات متعاقبة ، ثم أغلقوا دور جمعيتنا فى أنحاء مصر ثم اعتُدِى علينا . وكان ذلك كله بحجة قيام المفاوضات . كانوا يقولون سوف نأتى للأمة بالاستقلال التام لمصر والسودان ، أو كانت الناس تتوهم ذلك . ولما كنا نعكر عليهم هذا الجو فلا مانع من اضطهادنا لمصلحة المجموع وسلامته ، ولا مانع من أن نكون كبش الفداء لهذه الأمة وأن نكون قرباناً لحريتها واستقلالها .

ثم أعلنت المعاهدة التى طال انتظار الأمة لها فماذا رأينا أيها السادة ؟ رأينا عجبا وغما . ثم سمعنا ما أفزعنا وملأنا رعبا . رأينا معاهدة تفرض على مصر احتلالاً ، وتسلب مصر حقوقا مشروعة كانت لها دائما أبدا . ورأينا هؤلاء الذين نادوا دائما بالاستقلال التام لمصر والسودان يقبلون ماهو أقل من

الاستقلال الذاتى لمصر ، الذى عرض علينا منذ عشرين عاما فرفضناه بإباء . ورأيناهم يرضون بأن يصبح السودان مستعمرة انجليزية . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما كان هناك محل للفزع والخوف . ولكننا فزعنا عندما رأينا بأن هذا الاحتلال يراد فرضه على مصر باسم الاستقلال والشرف . امتلأنا فزعاً عندما رأينا أن كل من يشير إلى هذه المعاهدة بنقص يصبح خائناً . وأن كل من يذكر الأمة بجهادها الصحيح يصبح مارقا ، وأن كل من يذكر السودان أو الجلاء يصبح زنديقا طريدا .

فمصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ، والحزب الوطنى لحساب دولة أجنبية . وكل معارض فى مصر هو معارض مأجور ولحساب دولة أجنبية .

هذا هو ما أفزعنا وملأنا خوفا على هذه الأمة ، وما يدبر لها ويحاك من خلف الستار . فإن الرضا بالذل شر من الذل نفسه ، والرضا بالعبودية أشنع من العبودية نفسها . ولا عيب فى أن يتغلب قوى على ضعيف فيستعبده ، ولكن العيب كل العيب أن يرضى الضعيف بذلك وأن يعتاده . فما بالكم إذا تعدى الرضا إلى التحبيذ ، وإذا انقلب التحبيذ إلى تمجيد . فأقيمت مهرجانات وزينات ودقت طبول إيذانا بالعهد الجديد . والعهد الجديد فيه مافيه من تحطيم لسيادتنا وإهدار لكرامتنا .

قبـول وقبـول

كنت أفهم أيها السادة من الناحية النظرية كما قال لى أحد النواب أن يقبل فريق من المصريين هذه المعاهدة ، وهم كارهون مضطرون . يقبلونها وهم يبكون بمقدار ما تمس كرامتهم وبمقدار ما تهدم من سيادتهم .

إننى أفهم أن يقف بعض النواب فيقولون إننا نقبل هذه المعاهدة على مافيها من عيوب ومافيها من عدوان وسنعمل على تعديلها بما يصون استقلال مصر وكرامتها ويحقق آمالها بعد عام واحد أو عامين . أجل كنت أفهم هذا الوضع وأستسيغه إلى حد ما ، ولكن الذى لا أفهمه وأراه مخيفاً ومفزعاً أن يحرص الناس على تمجيد المعاهدة وهى تفرض عليهم الذل والعار ، وأن تحشد الألوف للهتاف والتصفيق ، وأن تشحن قطارات السكة الحديد من كل صنف من الناس وأن تقام أقواس النصر وتُكَلَّلَ الهاماتُ بالغار وأن تُحاربَ المعارضةُ لأنها تنادى بمجد مصر ، واستقلال مصر وحريتها .

لا .. لا أيها السادة هذه هى الجريمة بعينها وهذا هو ما أعلن من فوق هذا المنبر بقوة وعزم أننى سأحاربه ، وسأحاربه بكل ما أوتيت من قوة ، ولن يقعدنى وعد ولا وعيد ولن يؤخرنى سجن أو تشريد .

المعاهدة ومشروعية الاحتلال

هذه المعاهدة المعروضة على مصر معاهدة باطلة لا تساوى الحبر والورق الذى كتبت عليه ، على رأى بعض الأساتذة المحترمين الذين رأوا فيها استغلالاً لاشك فيه .

هذه المعاهدة باطلة ، وهى نكبة النكبات على مصر لذا حاول المحاولون أن يظهروها فى مظهر الاستقلال ، وواجب كل مصرى بل واجب كل شاب بصفة خاصة أن يحول دون وقوع هذه الكارثة . فإذا قبلها البرلمان فقد أصبح واجبنا وواجب الأمة أن لا نعترف بمشروعيتها وأن نعمل على

تمزيقها بأسرع ما نستطيع لأنها مابقيت قائمة فلن تقوى مصر على أن تخطو خطوة واحدة نحو الأمام . بل سوف ترون أن مصر ستتدهور إلى الحضيض فى ظل هذه المعاهدة لأنها قد جعلت مركز مصر أسوأ بمراحل مما كانت عليه .

فقد دخلت انجلترا مصر فى سنة ١٨٨٢ . ودخلت بخدعة ودسيسة ، فلما قيل لها إن دخولك إلى مصر هو اغتصاب وهو عمل غير مشروع قالت إنى لا أحتل مصر وليس فى نيتى أن أحتلها ، ولكننى دخلت لحماية العرش ولتوطيد الأمن ، وسأخرج منها حالما تنتهى هذه المهمة . فلما انتهت المهمة وأصبح العرش موطدا أكثر مما كان مقررا له لم يخرج الإنجليز وظلوا يحتلون أرض مصر غصبا وعدوانا .

فلما ذُكِّروا بوعودهم قالوا : بلى .. بلى .. نحن لانريد أن نحتل مصر وسوف نجلوا عن أرض مصر ، ولكننا فقط نريد أن نحمى أصحاب الجلاليب الزرقاء من عسف الباشوات . فلما ثار فى وجهها الفلاحون بمناسبة حادثة دنشواى ، وسخر الفلاحون من دعوتها حمايتهم وقيل لها اخرجى فإنهم لا يريدونك واصلت انجلترا عدوانها واغتصابها مدعية فى هذه المرة أنها إنما تحمى الأقليات . فلما ثارت مصر فى سنة ١٩١٩ وقد اتحدت كل عناصرها وقف جميع المصريين صفا واحدا يناوئونها ويدافعون عن كرامة وطنهم ، قالت انجلترا : إننا فى مصر لأنها لازمة لنا ويجب أن نبقى فيها إلى الأبد . وهكذا انكشف الستار عن نواياها وتجردت من كل ثيابها وظهر للعالم اغتصابها كريها فظيعا ، بينما تجلت إرادة الأمة فى أن تعيش حرة سيدة ، فأصبح لامناص للإنجليز من أن يعودوا لستر موقفهم وتبرير وجودهم فى مصر . وأى مبرر أجل من أن يظلوا محتلين مصر باسم الصداقة والتحالف . وإذن فلتدفع مصر إلى التحالف مع انجلترا دفعا . ولتجبر على قبول معاهدة تخول للإنجليز حق احتلال مصر إلى الأبد ، فيصبح بقاؤهم فى مصر شرعيا ويعود إخراجهم من مصر من رابع المستحيلات ، فلن توجد قوة فى العالم بعد ذلك تستطيع إجلاءهم عن مصر إلا بعد أن تحطم الإمبراطورية الإنجليزية أولاً .

وفى ظل التحالف والصداقة يستطيعون أن يجندوا مصر بسكانها وأموالها ، لخدمة الإمبراطورية الإنجليزية .

هذا هو المثل الأعلى للسياسة الإنجليزية كما استقر بعد ثلاثين سنة من الاحتلال عندما رسمها لهم اللورد ملنر فى تقريره المشهور . وإذن فقد أصبحت بغية الإنجليز أن يحصلوا من مصر على معاهدة تجعل احتلالهم مشروعا وتطلق أيديهم فى مصر إذا قامت الحرب إبان الأزمات الدولية ، ولكن من أنى لهم بهذا الرجل الذى يقبل مثل هذه المعاهدة ؟ من أنى لهم بالرجل الذى يعتدى على بلاده هذا العدوان فيفرط فى حقوقها ويسلمها للإنجليز . ؟ إن رجال الحزب الوطنى وهم الذين خلقوا الوطنية فى مصر خلقا قد رفضوا دائما أن يتحدثوا مع الانجليز قبل الجلاء المطلق . وإذن فلا مناص من تحطيم هذا الحزب لأنه خطر على سياسة الإنجليز المقبلة أى خطر ، وبهذا أشار اللورد ملنر فى تقريره أيضا .

أما سعد زغلول ذلك الرجل الذى كان يعتبر بالنسبة للحزب الوطنى معتدلاً فهو لايرضى بدوره بأقل من الجلاء ، وإذن فلينف وليشرد حتى تلين قناته ، وليشجع الأحرار الدستوريون لأنهم فى ظن الإنجليز أكثر اعتدالاً ومرونه . ولكن الأحرار الدستوريين لم يكونوا أقل من غيرهم تمسكا بحقوق بلادهم فى الاستقلال التام الكامل فرفضوا أن يسلموا بما خُيل للإنجليز أنهم سيسلمون به ، وقطع

عدلى باشا المفاوضات وعاد إلى مصر رافع الرأس لأنه لم يرض بالتسليم للإنجليز والتفريط فى حقوق البلاد ، فعل ذلك وهو الموصوف بالاعتدال وهو الذى ضرب بالطماطم والبيض عند عودته لما عزاه الناس إليه من التفريط والتهاون .

وهنا لم ير الإنجليز[1] مناصا من أن تجرب أسلوبا جديدا ، فأعادت سعد زغلول من المنفى . ورفعته إلى الحكم ، ودعته للمفاوضة ظنا منها أن الحكم سيلين قناته .. فلما أصبح رئيسا للوزارة دعته إلى لندرا (لندن) وعرضت عليه ما تريده من مصر ، وهو أقل بمراحل مما حصلت عليه فى معاهدة آخر الزمن ! فقد كان كل ما تصبو إليه انجلترا هو أن تضع بعض الجنود البريطانية فى شرق القنال ، على أن تقدم لنا كل ما نطلبه من الضمانات والتعهدات حتى نأمن تدخل هذه القوة فى شئوننا ، فرفض سعد زغلول ـ بإباء وشمم ، وقال قولته المشهورة : «دعونا للانتحار فأبينا أن ننتحر» ثم شرح مطالب الإنجليز وموقفه منها فى خطابه الذى ألقاه عقب عودته والذى قال فيه :

«إنهم طالبونا أن تكون لهم قوة عسكرية فى أرض مصر على شرط ألا تتدخل فى شئوننا ، ولنا الحرية التامة فى أن نشترط ما نشاء من الشروط ، ونطلب ما نريد من الضمانات لئلا تتمكن هذه القوة من التدخل فى شئوننا ، فرفضنا رفضا باتا ، لأنا نعلم أن وجود عسكرى واحد على الأرض المصرية مخل بالاستقلال . رفضنا ذلك وما أظن أن رفضى هذا عمل من الأعمال الجليلة ، لأن الرجل لا يعتبر فاضلاً ولا ذا عمل جليل بمجرد كونه امتنع عن خيانة وطنه» .

الفرق بين الأمس واليوم

هذا هو كلام سعد ، بل هو كلام كل مصرى ، بل هو كلام أى وطنى فى الدنيا بأسرها ، فهل فيه خفاء وهل فيه غموض ؟؟ وهل يعوزنا بعد ذلك أن نناقش وأن نحاجج كيما نقول بأعلى صوتنا إن معاهدة ١٩٣٦ هى كارثة وطنية وجريمة لا تغتفر ..

يقول سعد ، بل يقول كل مصرى ؟؟ إن بقاء جندى واحد يهدم الاستقلال ، فماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التى تجعل الجندى الواحد عشرة آلاف والتى تجعل من مصر مطارا للطائرات البريطانية ، والتى تطلب من مصر أن تبنى لها ثكنات أشبه بالقلاع وأن تخط مدينة كاملة لتكون رمزا للعبودية والاستعمار .

ماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التى تحتم علينا أن نفتح لها طرقا ، حتى يسهل عليها إخماد كل حركة وإخفات أى صوت .

ماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التى تطلب منا أن نصرف على الاحتلال وأن ندفع تكاليفه ، وأن تخرب ماليتنا من أجل سواد عيونه ؟

ماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التى تجعل للإنجليز الحق إذا ماقامت أزمة دولية أن تحتل مصر

---

(١) برجاء ملاحظة أن بعض العبارات قد أبقيت فى الخطب دون تعديلها لغويًّا - لأسباب اقتضتها الأمانة العلمية فى إخراج هذا التراث .

من أقصاها إلى أقصاها ؟ وأن تستخدم مواصلاتها وأرضها وجوها ؟ وأن تستغل كل مواردها ؟ وأن تفرض على الحكومة المصرية أن تعلن الأحكام العرفية ؟ وتفرض الرقابة على الصحف والرسائل ؟ أى أنه يكفى أن تقوم أزمة فى الشرق البعيد بين روسيا واليابان لنرى جحافل الإنجليز تسد علينا نور الشمس ؟ وتسلب منا القوت والهواء باسم الصداقة والتحالف.

وإذا كان سعد زغلول قد قال عن إبقاء قوة فى شرق القنال لأجل محدود إنه انتحار ، فماذا كان يمكن أن يسمى هذا البلاء الذى قبله المفاوضون المصريون اليوم . إذا كان الإنجليز يجرؤون على عرض مثل هذه المقترحات عليه ؟ .

وإذا كان سعد زغلول ، ومن خلفه الأمة ، قد رفضت ذلك الانتحار فى سنة ١٩١٩ وفى سنة ١٩٢٤ ، فما الذى جعلها تقبله بعد ذلك ؟

هل تدهورنا إلى الخلف فأصبحنا كالعبيد كلما امتد بنا الزمن رخصت قيمتنا ! ؟ أم هل عقمت أرحام النساء فلم تعد تنجب رجالاً ؟ . أم هل أصيبت العقول بجنة ومرض ؟؟

ما الذى حل بنا ؟ وما الذى أصابنا فأقبلنا على الانتحار راضين مغتبطين .. مهللين مكبرين ؟ ! !

لا والله أيها السادة ، لم نرجع إلى الوراء ولم ننهزم ، ولم تتقهقر مصر ، ولم تضعف ، ولم تتبدل السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض ، ولكن الذى تبدل هم هؤلاء الساسة الذين نكصوا على أعقابهم ، فأنهكهم الاضطهاد فسلموا وسئموا طول الطريق ...

لم تتبدل الأرض غير الأرض ، ولكن الذى تبدل هم هؤلاء الذين كانوا شبانا فأصبحوا شيوخا ، وعجزوا عن حمل الأمانة فاستسلموا ، ومن خلفهم جيش لم يصبه الوهن أو الكلال .

نجاح الإنجليز

وهكذا نجح الإنجليز أخيرا ، وكللت مساعيهم بالفوز فإن جاز لأحد أن يضع أكاليل الغار على هامته فهم الإنجليز وإن جاز أن تقام أقواس النصر فنى لندرا وليس فى القاهرة . وإن كان هناك بطل فى هذه الصفقة فهو السير مايلز لامبسون ، الذى أعاد فتح مصر لانجلترا .. ولكنه هذه المرة فتح أبدى شرعى يتم وسط التصفيق والتهليل .

لقد كان الإنجليز يطمعون فى رجل واحد ليوقع لهم المعاهدة باسم الأمة ، فجمع لهم مايلز لامبسون أحزاب الأمة بأسرها ماعدا الحزب الوطنى فى صعيد واحد .. جمع لهم صدقى بك مع محمد محمود مع عبد الفتاح يحيى مع الشمسى وعفيفى ، وعلى رأس هؤلاء بطل الوطنية ورمز الاستقلال النحاس باشا الزعيم الأمين ! !

هؤلاء جميعا ، ومن خلفهم مجلسا نواب وشيوخ ، يوقعون على صك العبودية والذل إلى الأبد ، فأى نجاح كهذا النجاح ؟ وأى فوز كهذا الفوز ! !؟

لقد فَتَحَ مايلز لامبسون كما قلت لكم مصر ثانية من غير تكاليف .. استغفر الله بل بتكاليف تدفعها مصر .

كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟ . كيف تدهورنا كل هذا التدهور ؟ .

ابحثوا عن سر ذلك فى هذه السنوات الطويلة التى قضاها هؤلاء السادة بعيدا عن كراسى الحكم .

ثم ابحثوا عن سر ذلك ؟ تجدونه السبيل الوحيد لاستدامة الحكم فى المستقبل كما خيل لهؤلاء السادة .

بعض نصوص المعاهدة

ليس فى نيتى أن أستعرض معكم نصوص المعاهدة نصا نصا .. وأن نناقش مافيها فإن هذا يكون امتهانا لوطنيتكم وكرامتكم ، هذه الوطنية وتلك الكرامة التى ترى فى وجود جندى أجنبى واحد إهدارا لاستقلال مصر .

ليس فى نيتى أن أوقر أسماعكم بتفاصيل المخازى التى تملأ هذه المعاهدة ولكنى سأعرض عليكم مثلاً من أمثلة الغفلة التى يراد وقوع الأمة فيها .. سأعرض عليكم مثلاً من أمثلة التغرير بهذا الشعب المسكين . يقولون لكم إننا جئناكم بمعاهدة أفضل بمراحل من معاهدة ١٩٣٠ . ولست أريد أن أستعرض الفروق العديدة بين هذه المعاهدة ـ معاهدة آخر الزمن ـ وبين معاهدة سنة ١٩٣٠ . لست أريد أن أطيل الحديث لأبين أن معاهدة ١٩٣٠ ، لم يكن بها طرق ولا ثكنات ، ولم يكن فيها احتلال الإسكندرية ، ولم يكن فيها احتلال جوى كأشنع احتلال يمكن أن يتصوره العقل . فكل هذه تفاصيل تستطيعون الوقوف عليها بمجرد إلقاء نظرة على المعاهدتين ولكن تعالوا أضع أيديكم على نص صغير يختلف فى المعاهدتين ، ومع ذلك يترتب عليه جعل الاحتلال أبديا . فلقد جاء فى مفاوضات سنة ١٩٣٠ فى المادة الخاصة بإبقاء الجيوش الإنجليزية فى مصر مايأتى :

«بما أن قنال السويس الذى هو جزء لايتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية فإلى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها بموارده الخاصة أن يصد هجوما على القنال حتى يصل مدد الحليف فإن جلالة ملك مصر يرخص لصاحب الجلالة البريطانية بإبقاء قوات بريطانية للدفاع عن القنال» .

فبقاء الجيوش البريطانية فى مصر معلق بقدرة الجيش المصرى على صد هجوم مفاجئ على القنال بموارده الخاصة المدة اللازمة لوصول مدد الحليف .. وقد أخبرنى أحد الذين اشتركوا فى هذه المفاوضات أن هذه المدة التى يجب على الجيش المصرى فيها أن يدافع حتى يصل مدد الحليف قدرت بثمانية أيام ، وهو الزمن اللازم لوصول الجنود البريطانية من انجلترا . وإذن فقد كان يكفى أن يصبح جيش مصر فى حالة تمكنه من المقاومة لمدة ثمانية أيام حتى يخرج الإنجليز من مصر ، أو بمعنى أصح يكفى أن يبلغ الجيش المصرى عشرين ألفا من الجنود حتى يخرج الإنجليز من مصر ، لأنهم لايضعون لحماية القنال أكثر من عشرة آلاف جندى .

اسمعوا الآن ماهو النص الجديد فى معاهدة آخر الزمن :

«بما أن قنال السويس الذى هو جزء لايتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما أنه أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية . فإلى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة يرخص الخ ...»

أى أن الجيوش الإنجليزية لاتخرج من مصر إلا بعد أن يصبح الجيش المصرى قادرا على الدفاع عن مصر . والدفاع عن مصر ضد من ؟ . ضد إيطاليا لأنها هى الخطر الملحوظ فى الوقت الحاضر ، ولما كان موسولينى قد صرح مرارا وتكرارا أنه يستطيع تجنيد ثمانية ملايين عسكرى فى ساعتين ، ولما كان يستطيع أن يهاجم مصر بمليون عسكرى ، فإن مصر لايمكنها أن تقف أمام هذه القوة بأقل من مثلها ، أى بمليونى عسكرى ولما كان من المستحيل أن تتوفر لمصر هذه القوة فى زمن السلم ، فقد أصبح من المستحيل بالتالى خروج الإنجليز من مصر .

انظروا أيها السادة بشاعة هذا التغيير ، الذى حسبوا أن الأمة لن تفطن إليه ... انظروا كيف تلاعبوا بالنصوص فحولوها من نصوص معقولة إلى حد ما ، إلى نصوص جائرة تفرض على مصر عبودية أبدية .

مغزى وجود العساكر الإنجليزية

يقولون لنا : ولماذا تهولون فى تفسير بقاء العساكر الإنجليزية فى مصر ، وهى لم تعد جنود احتلال ، ولكنها جنود دولة حليفة ؟ وهل قال الإنجليز فى أى يوم من الأيام غير ذلك ، فيا للسخرية ويا للعبث ! !

وإذن علام تبقى انجلترا هذه الجنود وتصرف عليها هذه المبالغ الطائلة إن لم يكن لإذلال مصر واحتلالها ؟ ! يقولون إن ذلك للدفاع عن قنال السويس ، ويجدون من المصريين البلاهة الكافية لتصديق ذلك ! اسمحوا لى أن أقول بأنه من البلاهة أن نصدق ذلك ، وأن يجوز علينا بعد خداع طال خمسين عاما . فإن قنال السويس إن كانت مهددة بهجوم مفاجئ فسيكون ذلك عن طريق إيطاليا أو ألمانيا أو دولة من هذه الدول العظمى ، وقد رأينا كيف أن أى دولة من هذه الدول تستطيع أن تهاجم مصر بنصف مليون جندى على الأقل . فإذا كان الحال كذلك فهل يستطيع أى فرد فيكم أن يقول لى ماذا تساوى العشرة آلاف جندى انجليزى إزاء هذا الطوفان من الجنود المهاجمة تؤيدها بضعة مئات من الطائرات ؟ . ألا تشعرون معى أن هذه العشرة آلاف جندى ستكون ذبيحة لأول هجوم جدى مفاجئ من هذه الدول القوية ؟ ! إنما يحتاج الدفاع عن قنال السويس فى أيام السلم إلى مائة ألف جندى ، أما إذا قامت الحرب فلا أقل من مليون عسكرى . سيقولون إن انجلترا سترسل هذا المليون إذا ما نشبت الحرب أو شعرت بقرب وقوعها . فنقول لهم وما قيمة العشرة آلاف إذن بجانب المليون مادام لامناص من إرسال هذا العدد الضخم من الجنود إبان الحرب ، وماقيمة

هذه العشرة آلاف جندى أيام السلم وهل توجد دولة واحدة فى الدنيا تضع جنودا على أرض حليفتها أيام السلم ؟

الغرض الحقيق من وضع الجنود

الحق أنهم لايبقون هذه الجنود للدفاع عن قنال السويس ، فهى لاتصلح لهذه الغاية ولكنهم يبقونها لغرض آخر تصلح له تماما أتعرفون ماهو ؟ أجل أنكم تعرفونه هو احتلال مصر وإذلالها ، وفرض إرادة الإنجليز عليها ، وإظهارها فى مظهر الدولة التابعة الذليلة .. وإشعار الدنيا بأسرها أنها مستعمرة إنجليزية .

عشرة آلاف جندى لاتصلح إلا لشىء واحد ، وهو أن تكون عدة للسفير الانجليزى الممتاز يعتد بها أمام الحكومة المصرية إذا فكرت فى أن تتجاهل وصاياه وإرشاداته .

عشرة آلاف جندى تقيم على بعد ثلاث ساعات من العاصمة ، وأربعمائة طيارة مجهزة أقوى تجهيز يمكنها أن تصل إلى أى جزء من أجزاء مصر فى أقل من ساعة ، وهى قادرة على أن تقلب المدائن رأسا على عقب يوم أن تفكر مصر فى أن ترفع رأسها كدولة مستقلة أمام الإنجليز .

كارثـة الطـرق

إن أعوزكم الدليل على ذلك ... فلتونكم هذه الطرق التى تشق مصر من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها ، هذه الطرق التى جُعِلَتْ شرطا أساسيا للجلاء عن القاهرة والإسكندرية ، ماذا تعنى وماهى أهميتها للدفاع عن مصر ضد المغير الأجنبى ؟ . بل هى على العكس كما يقرر العسكريون سلاح ضد مصر ، وضد الدفاع عنها إذا ماسقطت ثغور مصر ، ووطأت أقدام المغير أرضها .. إذ تنقلب هذه الطرق أكبر مسهل لغزو مصر .

وإذن فإن إنشاء الطرق ضد مصلحة الدفاع عن مصر من غير شك ، وهى فى الواقع موجهة ضد مصر ، فقد فكروا فيها لإخماد كل ثورة يمكن أن تشتعل فى أقصى الصعيد .. فهم يريدون أن يسيطروا على مصر بأسرها وهم فى قلاعهم على ضفاف القنال .

ولما كان سلاح الحروب الحديثة هو الطيران ... فليكن الاحتلال أتم وأظهر جوياً ، وإذن فلتنشئ لهم مصر المطارات فى كل بلد يريدونه ولتخصص لهم الحظائر وليطيروا أنى شاءوا ومتى أرادوا وكما يحلو لهم ..

فائدة إنشاء الطرق فى إفلاس مصر ! !

على أن بناء الثكنات وإنشاء الطرق لاتقف فوائده العظيمة للمحتل عند هذا الحد . كلا ، فإن له فوائد مزدوجة .. بل فوائد لاتعد ولاتحصى ، ولا يمكن أن تستقصى ، كما يقولون .. إذ ينفع فى ناحية أخرى فى تدمير الثروة المصرية ، وعرقلة النهوض وعدم إمكان أى إصلاح وإعداد .

سوف يبنون الثكنات بعشرة ملايين ، وسوف يشقون الطرق بما يزيد على العشرة الملايين ،

وسوف ينشئون مطارات للسادة الإنجليز تكلفنا بضعة ملايين أخرى .. وسنكلف ببناء ثكنات جديدة للجيش المصرى فى السودان بعد أن احتلوا ثكناتنا القديمة ، وسوف يكلفنا هذا بضعة ملايين أخرى ، وهذا هو الخراب المالى قبل أن نستفيد أية فائدة من الاستقلال المزعوم . يريد الإنجليز أن يعيدوا التاريخ من جديد ، وأن يمثلوا مأساة الدمار المالى مرة أخرى .. وليس فيكم من يجهل أن انجلترا حاولت أن تغزو مصر بالقوة فى سنة ١٨٠٧ فأرسلت حملة إلى مصر ، بقيادة فريزر يؤيدها أسطول انجلترا سيد البحار ، فما كان من مصر والمصريين إلا أن طردوهم وقذفوا بهم إلى البحر . وفى موقعة رشيد أبادوا الجيش الإنجليزى عن بكرة أبيه ، ففر الإنجليز مذعورين وأسرعوا إلى سفنهم وبلادهم أذل مايكون المهزومون ..

وكان ذلك درسا قاسيا للانجليز لم ينسوه مدى العمر ، تعلموا منه أن الشعب المصرى لايؤخذ قسرا .. فشرعوا يحيكون الدسائس للحصول عن طريقها ، على ماعجزوا عن الحصول عليه بالقوة فماذا فعلوا ؟؟

لقد وقفوا بالمرصاد لمصر أيام محمد على . فلما وجدوا الإمبراطورية المصرية قد تكونت .. لما وجدوا مصر قد أصبح لها جيش يزيد عن ربع مليون مقاتل ووجدوا لها أسطولاً يهز الأساطيل ، عندما وجدوا مصر المنتصرة تنتقل من فتح إلى فتح ومن نصر إلى نصر ، أثاروا أوروبا بأسرها علينا ، وعقدوا حلفا لتحطيم مصر فتم لهم ماأرادوا ، ونجحوا فى سلب مصر حقوقها فى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، ثم أخذوا بعد ذلك يزينون لإسماعيل باشا وسائل الإسراف ويلوحون له بالقروض تلو القروض .. حتى إذا كبلوا مصر بالديون أخذوا يضغطون عليها فى وحشية لاتمكنها من تنظيم شئونها ، وهكذا ساقوا مصر إلى هاوية الإفلاس .. وهكذا دخلوا إلى مصر فى ظل الإفلاس والدسائس .

ويظهر لى أن انجلترا تريد بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أن تكرر هذه المأساة بأن تدفع مصر إلى صرف ثلاثين مليونا أو يزيد لتنفيذ المعاهدة ، ونحن لانكاد نعرف من أين تحضرها وليس من شك فى أن ذلك لايمكن أن يكون إلا رغبة فى إفلاس مصر..

وإلا فهل يستطيع هؤلاء الوطنيون العظام أن يقولوا لنا من أين سيجيئون بالمال ؟ يقولون إنهم سيفرضون ضرائب جديدة .. وفضلاً عن أن هذه الضرائب ستكون عبئا جديدا على المصريين فهى لن تزيد قيمتها كما قدروها عن ثلاثة ملايين من الجنيهات على أقصى تقدير .. فماذا تفيد هذه الثلاثة الملايين ؟ وإذا صرفناها لإنشاء الثكنات والطرق فمن أين لنا المال اللازم لتكبير جيشنا وتزويده بالمعدات الجديدة ، الأمر الذى يحتاج إلى عشرات الملايين .. وإذا فرضنا واستطعنا أن نأخذ نصف الميزانية لهذا الغرض فماذا يكون مصير المشروعات العمرانية التى تحتاجها مصر ، والتى ينبغى القيام بها فورا ، كإصلاح القرية ونشر التعليم وتكوين أسطول جوى وأسطول بحرى تجارى .. وحربى ؟ ! سيقولون إن هناك الاحتياطى تؤخذ منه هذه الأموال وكأنهم نسوا أن الاحتياطى لايكاد يكفى لشىء من هذا كله ومع ذلك فقد أصبح هذا الاحتياطى أساسا من أسس المالية فى مصر فأصبح المساس به يعرضها لهزة عنيفة قد لا تسلم منها أبدا .

وإذن فليس أمام الحكومة المصرية إلا مايشيعونه من ضرورة عقد قرض ، وأن يمد مشروع قنال

السويس لخمسين سنة جديدة فى مقابل مبلغ من المال . هذا المشروع الذى رفضته مصر منذ سنوات بإباء وشمم . إذ أن كلا من القرض ومد امتياز قنال السويس نكبة لاتعادلها نكبة .

وهكذا ترون أيها السادة أن مصر لايوجد بها الأموال اللازمة لتنفيذ المعاهدة ، وإن وجدت بها فإن هذا يكون معناه تعطيل باقى مرافق الدولة فلا ينالها الإصلاح فهل فكر هؤلاء الساسة الكبار ، هل فكر هؤلاء الذين عقدت لهم ألوية النصر فى هذه الكارثة المالية التى ستحل بمصر من جراء المعاهدة ؟؟

لقد كانت هناك مشاريع حيوية لكل مصر مثل مشروع إصلاح القرية المصرية ورفاهية الفلاح . فوقف هذا المشروع ، وغيره ، لعدم وجود المال اللازم وسيظل الفلاحون المصريون يشربون السم الناقع ويعيشون مع البهائم ، سيظل الفلاحون المصريون يكدون ويشقون كما تبقى ثكنات جيش الاحتلال تزدان بالمسارح والملاهى ، وكل مظاهر الترف والنعيم . !

لقد كنا نفهم أيها السادة أن الإنجليز تحتلنا بالقوة رغم أنوفنا ، ولكنا لم نتصور مطلقا أن ستأتى الساعة التى نبنى فيها لجيوش الاحتلال ثكنات وطرقا ، ونحن نعرف أن ذلك يدفع بنا نحو الخراب .. لم نكن نتصور أن هناك مصريا واحدا سيقدم على ذلك فى يوم من الأيام أو يوافق عليه .

يقول البعض إن مصر إذا كانت قد خسرت فى النقطة العسكرية ، فقد كسبت فى نقط أخرى ، ويخيل لهم أنهم ماداموا قد سموا الاحتلال بالنقطة العسكرية فقد جعلوه هينا بسيطا تافها ، كما يبدو من التسمية .. وأعنى بها كلمة «النقطة» .

ولكنها نقطة أيها السادة أشبه بهذه التى تقع على العين فتحيل نورها ظلاما أو هى نقطة كتلك التى تقع على الإنسان فتسرع به إلى القبر .

النقطة العسكرية هى كل القضية المصرية ولا يوجد بين مصر وانجلترا سوى هذه النقطة لأنها الاحتلال ، الذى عملت له انجلترا دائما أبدا . فهذه المعاهدة تمكن انجلترا من أن تظل محتلة مصر احتلالاً أبديا ، وهى بعد ذلك ترعى مصالح انجلترا الاقتصادية ، وماذا يريد الإنجليز أكثر من ذلك ؟ وما الذى نكون قد ظفرنا به . بعد ذلك ؟ يقولون لنا ظفرنا بالسودان ، فلنر ماذا فعلوا بالسودان .

السـودان

أجل من حقنا أن نتساءل بعد ذلك كله ، وماذا فعلت المعاهدة بالسودان ؟ ماذا فعلت بقلب مصر النابض وينبوع حياتها ؟ ماذا فعلت بالسودان الذى فتحناه بدمائنا وأموالنا ؟ والذى يسكنه شعب هو من أفراد شعبنا يدين بديننا ؟ ويتحدث بلغتنا ؟ ويحس بأحساساتنا ؟ ماذا فعلوا بالسودان الذى تدخل الانجليز فى إدارته معنا بمعاهدتى سنة ١٨٩٩ ، فاعتبرنا ذلك إجراما ما بعده إجرام . ولم يوجد وزير واحد بعد ابرام هاتين المعاهدتين رضى أن يعترف بهما أو يرضى عنهما .

يقول النحاس باشا فى كتابه الأخضر عن مفاوضات سنة ١٩٣٠ والذى أصدره فى هذه الأيام فى

صفحة ٣٣ ، للمستر هندرسون فى صدد الحديث عن السودان :

« إن كل ما نريده هو عدم الإشارة إلى معاهدتى سنة ١٨٩٩ لأنهما ممقوتتان فى مصر كل المقت » .

هذا هو موقف مصر من السودان ، وهذا هو موقف النحاس باشا نفسه من السودان فهو لا يرضى عن الإشارة إلى معاهدتى سنة ١٨٩٩ ، لأنهما ممقوتتان كل المقت فى مصر .

فماذا فعلت معاهدة آخر الزمن بالسودان ؟ أتعرفون ماذا فعلت ؟ لقد جعلت اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ مثلا أعلى وحلما من الأحلام ، وفرضت علينا أن نحترم الأمر الواقع .. والأمر الواقع هو أن السودان من ممتلكات انجلترا يديره موظف انجليزى هو حاكم السودان .. على أن معاهدة آخر الزمن كى تسخر منا سمحت أن يكون سكرتير هذا الحاكم مصريا ، وأن يسمح لمفتش الرى بحضور مجلس الحاكم حينما يعرض على المجلس مسألة تخص الرى ..

الله .. الله .. وهذا هو كل ما لنا فى السودان .

« وقالوا لنا سيعود الجيش المصرى إلى السودان ، ولكن هل تعرفون سيعود على أى شكل ؟ سيعود على اعتباره فرقة فى الجيش الإنجليزى يخضع لحاكم السودان . وإن كنتم تعجبون لشىء فاعجبوا لهذه الأمة التى ترسل أبناءها ليكونوا تحت إمرة رجل أجنبى يتصرف فيهم كما يريد وكما يحلو له .. وإعادة انجلترا الجيش المصرى إلى السودان كيما يرابط على الحدود الحبشية فإذا بدأ الطليان فى الإغارة على السودان كان أبناء مصر هم أول من يتلقون الصدمة . وأول من يموتون دفاعا عن السودان ، إذا فكر الإيطاليون فى الإغارة عليه .

هذا هو سر إرسال الجيش بهذه الطريقة العجيبة التى لم نسمع بها من قبل ، وأعنى بها وضع الجيش المصرى تحت إمرة موظف انجليزى .. ولقد أرادوا بهذا أن يقطعوا كل صلة بين جيش مصر فى السودان وبين وزير الحربية .. وهكذا يستطيع حاكم السودان إذا لزم الأمر أن يأمر جيش مصر بالعدوان على السودان ، أو المصريين أنفسهم ، فإن فكروا فى الاحتجاج أو الامتناع كانوا عصاة متمردين يرمون بالرصاص .

فاضحكوا ، اضحكوا أيها المصريون على ما مُنِحتُموه فى السودان بل اضحكوا أكثر ، فإن المهزلة لم تتم فصولا ! فقد سمح لكم أن تهاجروا وأن تتملكوا فى السودان مثل الإنجليز سواء بسواء . الله أكبر ! أيها المصريون .. يجب أن تطربوا لأنه قد سُمح لكم بأن تتملكوا فى السودان مثل الإنجليز .

أيها السادة .. إن الألم يحز فى نفسى حزا فلا أستطيع مواصلة الكلام فى موضوع السودان ، فإن الخطب أجَل من أن يُوصف أو يُتحدَّث عنه . لقد أصبح المصريون خدَّاما للإنجليز فى السودان ، وأصبح السودان بموجب هذه المعاهدة ملكا للانجليز ، فلا حول ولا قوة الا بالله ! !

الامتيـــازات

أما عن الامتيازات فيقولون، سامحهم الله : إن مصر قد كسبت فيها كسبا كبيرا ولكن أرجو أن تسمحوا لى أن أقول لكم إن هؤلاء الذين يظنون هذا الظن لا يمكن إلا أن يكونوا ضعفاء الثقة

بأنفسهم وبيلادهم ..، ومن هنا فهم يرون أن تعديل ما نحن فيه من ذلك كسب عظيم ما بعده كسب .. هؤلاء الذين يخيل لهم أن هذه المعاهدة قد فعلت شيئا فى مسألة الامتيازات هم هؤلاء الذين ينظرون إلى الاجانب نظرة الوضيع للرفيع ، والصغير للعظيم .. والا فأى إنسان مكتمل الوطنية والإيمان بوطنه يرضى أن يكون الأجنبى فى بلاده أرفع منه درجات ؟؟ أى مصرى يعرف قدر نفسه يرضى أن يكون للأجانب محاكم مختلطة إلى أجل غير مسمى ؟؟ وكيف نرضى أن نساوم الدول وأن نرجوها أن تتنازل عن بعض امتيازاتها فتحولها إلى المحاكم المختلطة ؟ هذه المحاكم التى رأيتم كيف أنها تمتهن لغتنا وتمتهن كرامتنا ، فضلا عن أنها محاكم أجنبية تعمل لصالح الأجنبى ، من الذى يرضى بهذا الحل فى الامتيازات إلا المستضعفين والذين لا يعرفون لوطنهم ما ينبغى له من احترام وتقدير ؟!

يقولون إن هذه المعاهدة هى معاهدة الشرف والاستقلال ، فلما قلنا لهم وكيف توفقون بين الاستقلال وجيش الاحتلال ، قالوا لنا : إن هذه جيوش دولة حليفة ! !

فلنسائلهم هذه المرة وكيف توفقون بين الاستقلال ، وبين وجود محاكم مختلطة ، نسائلهم أرونا دولة واحدة فى الدنيا بأسرها توجد فيها محاكم يجلس فيها قضاة أجانب ليحكموا على الوطنيين إلا فى مصر ، بلد العجائب . كنا نتوقع أيها السادة إلغاء هذه المحاكم ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، منذ أمد بعيد فإذا بهذه المعاهدة توطد أركان المحاكم المختلطة إلى مدة من الزمن معقولة غير ممدودة ، وأرجوا أن تضحكوا معى من هذه التعبيرات التى لا يمكنكم أن تعثروا عليها فى أى معاهدة من معاهدات العالم . ولكنكم تجدونها فى معاهدة آخر الزمن لأنها معاهدة الشرف والاستقلال . مدة معقولة غير ممدودة ، وكم تساوى معقولة هذه من الزمن ، من الذى يحدد هذه المعقولية . من الذى قال لهم إن مصر ترضى أن تحيا فى ظل المحاكم المختلطة سنة واحدة ، بل يوما واحدا ، تصوروا أيها السادة أن الأجانب فى كل بلاد العالم يتمتعون بحقوق أقل مما يتمتع بها أصحاب البلد الأصليين . . أما فى مصر فإن وثيقة شرفها واستقلالها تسجل عليها أن يبقى المصريون أذلة بالقياس إلى الأجانب ..

إن الامتيازات يجب أن تلغى بجرة قلم ، وحالا . والمحاكم المختلطة يجب أن تلغى بجرة قلم ، وحالا . فإذا كانت معاهدة آخر الزمن تُبقى على الامتيازات والمحاكم المختلطة فما ذلك إلا لأنها تريد أن تظل مصر ناقصة السيادة ، وأن يظل العالم ينظر إلى مصر نظرته إلى دولة غير متحضرة ، تعيش فى ظل الانجليز والأجانب .

ملخص

وإذن فإن هذه المعاهدة أيها السادة تسجل الاحتلال وتجعله مشروعا بعد أن كان غصبا ، ونحن مضطرون نتيجة لهذا التحول أن ندفع تكاليف الاحتلال ونفقاته ، ونثبت دعائمه بإنشاء الطرق والثكنات والمطارات . وهذه المعاهدة قد حولت السودان إلى مستعمرة انجليزية ، وأضاعت علينا حقنا فى إلغاء الامتيازات بجرة قلم . وإذن فكل دفاع عن المعاهدة وكل ادعاء بأنها حققت لمصر استقلالها ، وأنها معاهدة الشرف ، هو ادعاء باطل لا أساس له .. وعلى هؤلاء الذين توجوا جهادهم بهذه المعاهدة المشوهة أن يعتزلوا السياسة ، وأن يقبعوا فى عقر دارهم . لقد طال ما نادوا فى

هذه الأمة أنهم سيحصلون لها على استقلالها التام أو الموت الزؤام . لقد طال ما قالوا للأمة الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولم تتردد الأمة تبعا لذلك أن تمنحهم ثقتها التى لا حد لها وها هى جهودهم تتمخض عن هذه المعاهدة .

وإذن فليفسحوا الطريق للشباب . وليفسحوا الطريق للجهود الجديدة ، والكفاح الجديد . أما إذا حاولوا أن يعترضوا طريقنا وأن يخفتوا أصواتنا ، وأن يصادروا جهودنا ، فإن جنايتهم على الأمة تكون جناية مضاعفة . وعندها فسنقاومهم بكل ما لدينا من وسائل ، وسوف ننتصر عليهم من غير شك بإذن الله .

معاهـدة باطلة

أما موقفنا الآن بالنسبة للمعاهدة فهو أننا لا نعترف بصحتها أو مشروعيتها ، فهى معاهدة باطلة ، سواء قبلها البرلمان أو لم يقبلها .. فإن قبول البرلمان لمثل هذه المعاهدة لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يمكن أن يؤثر على سيادة الأمة بأى حال من الأحوال ، فإن مجلس النواب لا يجوز له أن يتنازل عن أى حق من حقوق مصر . ولا أن يبرم اتفاقات من شأنها المساس بسيادة مصر . فما بالكم وهذه المعاهدة تتنازل عن مصر بأسرها للإنجليز ؟ وتحطم سيادة مصر إلى الأبد ؟؟ فإذا وافق البرلمان على هذه المعاهدة فهى موافقة من لا يملك هذا الحق ، وهى موافقة لا تقيد إلا أشخاص الوزراء والنواب ، أما باقى الأمة فسوف تعرف كيف تتحرر من هذه المعاهدة وتمزقها .

نحن والسير مايلز لامبسون

ويحضرنى الآن موقف كان بينى وبين السير مايلز لامبسون بمناسبة المفاوضات التى تمخضت عن هذه المعاهدة ، ولا شك أنكم تذكرون أن المحادثات كانت قد طالت واستغرقت عدة أشهر ، وأخذ ما يتسرب عنها من الأنباء لا يدل إلا على أنها ستصل إلى هذه النتيجة السيئة التى وصلت إليها . فبادرت بإرسال خطاب إلى السير مايلز لامبسون أحذره فيه من ضرر المراوغة ، وألفت نظره إلى أن الشيوخ أصبحوا لا يمثلون روح الأمة تمثيلا حقيقيا ، وأن الجيل الجديد أصبح لا يرضى بأقل من الاستقلال التام لمصر والسودان ، وأن أى اتفاق لا يحقق هذه الآمال فهو اتفاق يرفضه الشباب وترفضه الأمة ... وأنه ليس يكفى أن يوقع دولة النحاس باشا ومن معه هذه المعاهدة كما ترضى الأمة بأسرها ، ذلك أن النحاس باشا ومن معه لا يستمد قوته إلا بمقدار ما يترجم عن إرادة مصر القوية الشابة المتجددة ، فإذا فشل النحاس باشا فى ترجمة هذه الإرادة فان المعاهدة التى سيوقعونها لا تقيد أحدا فى مصر ، إلا هؤلاء الذين وقعوها ، أما من عداهم فإنهم براء من هذه المعاهدة .

وقد غضب السير مايلز لامبسون غضبا شديدا ، أو غضبت معه كل دار المندوب السامى . كيف يجرؤ أحمد حسين على أن يرسل هذا الخطاب ؟ فأوفدوا المستر سمارت لمقابلة دولة على باشا ماهر ، بالرغم من أن جلالة الملك فؤاد كان قد توفى يومها إلى رحمة الله ، فى هذا اليوم العصيب ذهب المستر سمارت ليلفت نظر دولة ماهر باشا لهذا الخطاب ويعلنه بعدم رضاء الدار ..

ولكن دولة ماهر باشا فضلا عن أنه كان مشغولا بالحوادث الجسام . والتى كانت حاسمة فى تاريخ مصر ، ما كان يمكنه ، وهو الذى عرف بالوطنية والنزاهة ، أن يؤثر على تصرفات مصر الفتاة بأى شكل من الأشكال ..

ثم انتهت مدة الوزارة الماهرية بعد أيام قليلة من هذه الشكوى ، وجاءت الوزارة الوفدية وبدأت معها اضطهادات مصر الفتاة ، التى أريد بها إخماد أنفاسها عقابا لها على هذا الخطاب .

ولكن السير مايلز لامبسون لو كان ممن يحبون الصراحة لوجب أن يطرب لهذا الخطاب ، فها هو دولة النحاس باشا ومعه كل رؤساء الأحزاب قد وقعوا على معاهدة آخر الزمن ، فإذا بها معاهدة لاترضى مصر الهرمة فضلا عن مصر الفتاة .

واليوم أرونى مصريا واحدا يعرف تفاصيل هذه المعاهدة ويرضى بها ، أجل إنكم تسمعون تصفيقًا ، وتسمعون سفسطة من بعض الأشخاص ، ولكنى أقسم لكم أن كل مصرى سليم يدافع عن المعاهدة فهو لم يطالع نصوصها ، ولم يقف على محتوياتها ، وإلا فإنه يوم يفعل ذلك لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الغضب والحنق على المعاهدة . فالذين يروجون للمعاهدة إنما يستغلون جهل الجمهور وسذاجته ولكن بقى أن نتساءل إلى كم من الزمن يمكن أن يستمر هذا التمويه وهذا الاستغلال ؟! . أجل قد يستمر شهراً وقد يستمر شهرين ، وقد يستمر أكثر من ذلك ، ولكن غدا عندما يرى أحوالهم تنتقل من سىء إلى أسوأ ، عندما يقولون لهم سنشرع فى تنفيذ المعاهدة فلا يرون بعدها إلا ثكنات تبنى ، وطرقا تشق وملايين من الجنيهات تصرف لتوطيد دعائم الاحتلال ، فهل تظنون أن المصريين سيبقون بعد ذلك يطربون للمعاهدة أيضا ؟؟؟ أؤكد لكم أن هذا لن يكون ..

وإذن فسوف تفتح الأمة أعينها عما قريب وعندها يعلم كل مصرى أننا لم نكن نتجنى عليه يوم أن أظهرناه على ما فى هذه المعاهدة من نكبات .. عندما تعرف انجلترا أننا لم نتجن عليها يوم أن أنذرناها بأن كل معاهدة لا تحقق أمانى الأمة كاملة فهى لا تساوى الحبر أو الورق الذى كتبت عليه ، لأن الانجليز إذا كانوا قد خيل إليهم أنهم قد فرغوا من المسألة المصرية بتوقيع المعاهدة ، فسيرون أنهم جد خاطئين ، وأن المسألة المصرية سوف تصبح أشد قوة مما كانت قبل المعاهدة .

وسوف يغضب الانجليز علينا عندما يسمعون بنبأ اجتماعنا هذا ، وما قيل فيه ولكنهم لو أرادوا مجابهة الحقائق لوجب عليهم أن يشكرونا لأننا ندلهم على الحقائق التى لا يمكن إخفاؤها ، فهذه المعاهدة سواء وقعها البرلمان أو لم يوقعها فهى معاهدة باطلة .. لأنها تسلب سيادة مصر ، وتفرض عليها احتلالا .. والقانون الدولى لا يعترف بهذه المعاهدة التى تمس سيادة الأمم . لأنها تكون قد تمت تحت الإكراه أو الغش ، وكلا الأمرين مفسد للرضا وبالتالى لصحة العقود .

الطريق الصحيح للاستقلال

وإذن أيها السادة فعلينا أن نعد أنفسنا للطريق الصحيح للاستقلال ، والطريق الصحيح للاستقلال هو أن يصبح الشعب قويا ، وهذا هو ما نادت به مصر الفتاة منذ اللحظة الأولى . لقد

نادينا دائما أبدا أن الحياة إرث القوى ، وأن المستقبل للشعب الظافر ، وأن لا حياة للضعيف فلا المعاهدات ولا القوانين بكافية لحماية الضعيف . ومن كان يعوزه الدليل فهذه هى الحبشة وقضيتها لا تزال ماثلة فى الأذهان ، لم يغنها تأييد العالم بأسره أمام القوة ، فعلى هؤلاء الذين يخيل لهم أن الاستقلال يمكن أن يكون نتيجة للمفاوضات وأن يتم عن طريق المعاهدات ، على هذا النفر من المصريين أن يفسحوا الطريق لمن هم أكثر علما بحقائق الأشياء منهم ، ومن هم أكثر استعدادا للكفاح منهم .

لا كرامة لنا إلا إذا كانت لنا عدة ، وكانت لنا قوة ، وهذه العدة نستطيع أن نخلقها رغم أنف الغاصب ، اذا ما نظم الشباب صفوفه تنظيما عسكريا ، وأخذ نفسه على الخشونة والتقشف والرجولة .

وهذا هو برنامج مصر الفتاة ، فنحن الذين نعمل لنشر الروح العسكرية ولمحاربة الضعف والتخنث والخور .. نحن الذين نعمل لتنظيم الشباب فى جماعات شبه عسكرية ، يربطها رباط المبدأ والعقيدة ، وكيف تحتمل فى سبيل مثلها الأعلى كل تضحية وعناء ..

نحن الذين نادينا وعملنا لجعل الشباب قوى الجسد عن طريق الرياضة والعسكرية .. وقوى الروح عن طريق التطهر والتدين .. نادينا بذلك وعملنا له فابتكرنا القميص الأخضر ليكون شعارا للمجد والجهاد ..

ابتكرنا القميص الأخضر ، وألهمنا الله إياه لتتمثل فيه كل آمال الأمة وكرامتها ، كل عزها ومجدها .. فطلعوا علينا بالقميص الأزرق ، الذى تحول سريعا ليكون أداة من أدوات الطغيان والإرهاب ..

وهكذا انحرفوا بالفكرة . فبعد أن كان التنظيم موجها لتحرير مصر ، ولخدمة قضيتها ؟ أصبح موجها للاعتداء على المصريين وإرهابهم .. وبعد أن كان الأصل فى المجاهد ، أن يكون مثلا أعلى للأخلاق والرجولة والتفانى فى خدمة أبناء وطنه ، أصبح عكس ذلك .. وهذا ما يجعلنا أشد حرصا على أداء رسالتنا والتمسك بقميصنا .. هذا ما يجعلنا أشد إيمانا بأن النصر لنا فى نهاية الأمر .. وليست تخيفنا هذه الجموع الزرقاء فهى جموع تعيش الآن فى كنف الحكومة ورعايتها ، وقد أصبحت ملجأ لكل غير ذى حرفة ، ولكل من يرغب فى الاختفاء عن أعين البوليس ..

ليست تخيفنا هذه الجموع الزرقاء ، فانها سريعة الزوال ، فلا مبدأ لها ولا عقيدة ولا رسالة ، فهى إذا ما قورنت بالقميص الأخضر فإنها تكون أشبه شيء بمعاهدة آخر الزمن ، اذا ما قورنت بالاستقلال الصحيح ..

إن طريقتى فى الكفاح أيها السادة ، أن أعطى خصومى دائما فرصة ليثبتوا فيها جدارتهم ، ولذلك فقد أعطيت الوفد والحكومة فرصة طويلة للقيام بأعباء الأقمصة الزرقاء ، فإذا بهم قد انتهوا إلى هذه النتيجة التى بينتها لكم والتى يعرفها كل مصرى ، وهى أن الأقمصة الزرقاء قد أصبحت عبئا على الناس وعبئا على النظام وعبئا على القانون ، وإذن فقد أصبح وجود الأقمصة الخضراء وانتشارها أكثر

لزوما من ذى قبل ، حتى لا تشوه الفكرة ، وحتى يوجد التوازن بين هذه القوى التى لا ضابط لها ، وقوة أخرى لها ألف ضابط وضابط .. ضابط من العقيدة .. وضابط من الثقافة .. وضابط من شرف الغاية .. وضابط من الدين ..

سوف نشرع فى تنظيم صفوف الأقمصة الخضراء ، بعد أن فشلت الأقمصة الزرقاء .. وسوف تقاومنا الحكومة ، ولن نجد المال الذى يتوفر لدى الحكومة ، ولن نجد البوليس وكل موظفى الدولة فى خدمتنا ، ولكنا مع ذلك سنقوى وننتصر ، لأن سيدنا هو الله ، ومن كان الله سيده فالعبد لا يُرهبه .

وسوف ترون غدا أيها السادة عندما تستيقظ الأمة وتنتصر مصر الفتاة ، سوف ترون كيف نحصل على الاستقلال الصحيح لمصر والسودان ، كيف نؤلف الحلف العربى ونتزعم الإسلام ..

سترون كيف نرتقى بالأخلاق ، ونعيد للدين قدسيته ، لأن محور جهادنا هو الدين . إنّا من المؤمنين بأن من ينصر الله ينصره ، وأن ما نعيش فيه من ذل ، إنما هو لتركنا الله والدين ، فقد قال الله وهو أصدق القائلين : «إنَّ اللهَ لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهِمْ» .

سوف ترون أيها السادة عندما تنتصر مبادئ مصر الفتاة .. مبادئ الفضيلة والوطنية ، كيف تنتشر العدالة الحقيقية والحرية والمساواة .

سترون كيف ينتشر الرضا فلا يصبح هناك عامل متعطل ولا فقير واحد .

سترون كيف يُقضى على المحسوبية ، والرشوة والوساطة ، وكيف لا يلى المناصب إلا الأكفاء .

سترون كيف يصبح الفلاح عاملا منتجا ، يعيش كما يعيش الناس . وفى كلمة أيها السادة عندما تنتصر مصر الفتاة سترون مصر جديدة تهز العالمين وتقود الدنيا إلى عصر جديد من النور والسلام تحت لواء الإسلام ..

وإلى أن يتم ذلك فإنى أدعو طبقات الشعب جميعا أن يؤمنوا بوطنهم وأن يثقوا بأنفسهم ، أدعوكم جميعا إلى تشجيع كل ما هو مصرى فقط ومقاطعة كل ما هو أجنبى .. أدعوكم إلى طعام بلادكم وملابس بلادكم ، اعتزوا بمصريتكم واحتقروا كل ما هو أجنبى وطهروا أنفسكم من الأرجاس ، وحاربوا الشهوات .

وبهذا ، وبهذا فقط سوف نسرع نحو غايتنا ، وسوف نحقق رسالتنا .. وهذه هى مصر الفتاة أيها السادة لا عدة لها إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو رأسمالنا ، وهو سلاحنا ، وهو كل شىء بالنسبة لنا ومن أجل هذا فنحن لا نهاب ولانخاف ، يقولون إن طريقنا طويل وإنه ملىء بالصعاب ولكن ما نسعى لبلوغه جدير بكل ثمن وجدير بكل تضحية ،. إننى أعلن هنا بأعلى صوت أن مصر الفتاة تنتقل من نصر إلى نصر ولن يهزمها بطش حكومة ، ولا تعسف المتعسفين ، إن روحنا تسرى فى كل مكان ، وسوف ننتصر بإذن الله ، وعندها يفرح المخلصون ..

والله أكبر ...

وبعـــد ...

٢٥

وبعد : فقد رأيت أن أقف عند هذا القدر من تاريخ كفاح مصر الفتاة تاركا بقية الكتاب إلى أجزاء أخرى تصدر فيما بعد ، فلا يزال أمامنا عشر سنوات من الكفاح المتصل الشاق المليئ بكل صنوف التضحيات والمعارك الرهيبة بين الحق والباطل ، كم من محنة تعرضت لها مصر الفتاة ، كم من الاتهامات الخطيرة التى أريد بها العصف بمصر الفتاة قد وجهت إليها ، ثم لم تلبث أن ارتدت مهزومة مدحورة ، كم من مرة فتحت أبواب السجون وفتلت أحبال المشانق للقضاء عليّ ، ووضعُ حدٌّ لحياتى وجهادى ، ولكن الله الذى يعرف ما فى قلبى من إخلاص وصدق أنجانى من ذلك كله ، وأخرجنى من كل ضيق ومن كل مأزق ، رافع الرأس موفور الكرامة لأواصل كفاحى ضد الغاصب الأجنبى .

وكانت أول محنة وأكبر محنة صادفناها فى هذه الفترة ، عندما أطلق عز الدين عبد القادر الرصاص على رفعة النحاس باشا فى نوفمبر سنة ١٩٣٧ ، فقد كان هذا الحادث سبيلاً لاضطهاد مصر الفتاة بالجملة اضطهادا لا مثيل له من قبل ، فزج بكل من تسامع البوليس عن انتمائه إلى مصر الفتاة فى السجن من الإسكندرية حتى أسوان . فغصت السجون بأعضاء مصر الفتاة ، وسارت المظاهرات فى الشوارع تهتف بسقوط مصر الفتاة ، وبوجوب القضاء عليها ، وشنق المجرمين ، وكنا نقيم فى « الزنازين » التى لم تكن تفتح علينا إلا بضع دقائق فى كل نهار ، ولقد كانت ملحمة من أكبر الملاحم ، لم يكن لى سلاح فيها إلا الصوم والصلاة والابتهال إلى الله بالليل والنهار ، فلم تلبث حكومة النحاس باشا أن أُقيلَتْ ، ولم تلبث أبواب السجون أن فتحت لنا ، ولم يلبث التحقيق النزيه أن أسفر عن براءتنا الناصعة ، وعادت مصر الفتاة إلى الحياة والحركة ، أكثر نشاطا وأوفر عدة وعددا ، مما كانت فى أى يوم من الأيام .

على أن الاصطدام بين مصر الفتاة وبين الحكومة الجديدة ، حكومة محمد باشا محمود ، لم يلبث أن تجدد بالرغم من الصداقة التى كانت تربطنا بمحمد باشا محمود ، فقد أصدرت الحكومة قانونا يحظر ارتداء الأقمصة الملونة فترتب على ذلك حل الأقمصة الخضراء ، التى كان يتمثل فيها كل روعة مصر الفتاة وجهادها وإيمانها وتضحياتها .

ورفض محمد باشا محمود أن يجرى تعديلاً فى قانون الانتخابات بحيث نستطيع أن نتقدم للانتخابات بالرغم من أن سننا لم يبلغ الثلاثين ، وهو النصاب الذى يشترطه القانون الحالى ، وبذلك حرمنا جميعا من الاشتراك فى هذه المعركة الانتخابية على الرغم من أننا كنا العنصر الحى الفعال فى السياسة المصرية . على أن ذلك كله لم يكن هو الذى باعد بيننا وبين وزارة محمد باشا محمود ، بل لقد باعد بيننا وبينه أنه لم ينفذ حرفا واحدا مما كان يدعو إليه وهو فى المعارضة وما حاربنا الوفد من أجله ، فلم يكن باستطاعتنا أن نجاريه أو نؤيده لشخصه ، ولعل القارئ لهذا الكتاب قد أدرك أنه لم يكن بيننا وبين الوفد خصومه شخصية ، وإنما كان خلافنا على المبادئ ، وهذا الخلاف نفسه هو الذى وقع بيننا وبين محمد باشا محمود ، فبينما كنا نريد إصلاحا عاجلاً وسريعا يقلب البلاد رأسا على عقب ، كان محمد باشا محمود ككل رجال الجيل القديم ، لا يبذل جهدا فى سبيل هذا الإصلاح

وسافرت إلى أوروبا مرة ثانية ، وزرت هذه المرة إيطاليا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وانجلترا ، وقمت فى هذه الأخيرة بدعاية واسعة النطاق لتعديل المعاهدة ، وقد نجحت فى رحلتى هذه بأضعاف أضعاف ما نجحت فى رحلتى الأولى ، ولقد تعدلت نصوص المعاهدة الخاصة بموضوع الثكنات ومقدار النفقات التى يتحملها كل من الجانبين ، وقد كان التعديل الذى تم على يد محمد باشا محمود تافها ولا خطورة فيه ، ولكن أهمية التعديل كانت من حيث المبدأ ، فقد كانوا يقولون إن هذه المعاهدة لا يمكن أن تتغير أو يتبدل حرف منها قبل عشرين سنة ، ولكننا استطعنا بكفاحنا وجهادنا أن نحمل الحكومة على المطالبة بتعديل هذه المعاهدة بعد عام واحد من توقيعها ، فهدمنا بذلك قدسيتها والخرافة القائلة بأنها نهائية ، وأنها كاملة .

وفى إيطاليا نظم لى برنامج استقبال حافل ، وكذلك فى المانيا وتشيكوسلوفاكيا . وعدت إلى مصر ، فأقيمت احتفالات ضخمة ألقيت فيها خطبا عن مشاهداتى ومجهوداتى فى أوروبا ، وبدأت أضغط فى خطبى ودعاياتى إلى وجوب إنصاف العامل والفلاح ورفع مستوى معيشتهما ، بما يتفق مع ما وصل إليه العالم من تطور .

وكان محمد باشا محمود قد أدخل السعديين فى وزارته ، وكان النقراشى باشا وزير الداخلية ، والنقراشى باشا رجل يحقد على مصر الفتاة حقدا عجيبا لا تفسير له إلا أن تكون نفس ذلك الرجل تنطوى على نفسية معينة . وقد كان صراعا وكان صداما عنيفا بيننا وبين النقراشى وقبض على عشرات من أعضاء الحزب ، وعلى رأسهم الدكتور مصطفى الوكيل ، بتهمة محاولة اغتياله ، ولكن النيابة لم تلبث أن أطلقت سراحهم ، وفى هذه

الفترة زرت السودان لأول مرة ، فكانت رحلة موفقة كل التوفيق تركت أثرها العميق فى نفسى ونفس السودانيين ، وعدت من السودان لأرى النقراشى باشا وقد أعد لنا سلسلة من المحاكمات الخطيرة ، وعلى رأسها الاتهام بمحاولة قلب نظام الحكم بالقوة ، وكان الحزب فى ذلك الوقت يدعو لعقد مؤتمر عظيم كأعظم ما شهدت هذه البلاد من مؤتمرات سياسية ، فقد دعى إليه خمسون ألفا ، وأنفقت مبالغ ضخمة على الاستعداد لعقده ، ولكن النقراشى باشا الذى كان قد وافق على عقده أولا ، عاد فسحب موافقته ومنع الاجتماع ، وزج بنا فى السجون من جديد بدلاً من ذلك ...

وفى هذا الوقت قام أعضاء مصر الفتاة فى جميع أنحاء مصر بحركات ضد الحانات والخمور ، نزولاً عند حد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فحطمت بعض حانات للخمر فى القاهرة والإسكندرية وبنى سويف وبور سعيد وقنا والزقازيق وغيرها ، ولقد حملت مسئولية هذه الحركة فيما حملت ولا تزال القضية الخاصة بها معلقة حتى الآن لم يفصل فيها ، أما سائر القضايا الأخرى فقد صدر عنها عفو ملكى عندما سقط هذا العهد وجاء الوفديون من جديد إلى الحكم .

وعلى ذكر الوفد ، فقد كان خروجه من الحكم وعودته إلى صفوف المعارضة فرصة لكى تتقارب وجهة نظرنا من جديد ، فقد قدر فى مصر الفتاة أنها قوة فتية تضم صفوف الشبان ، فليس من الخير معاداتها وخصومتها فى غير داع أو موجب ، وقد كان لذلك التحول أكبر الأثر فى تطور العلاقات بين مصر الفتاة والوفد ، إلى أن جاء الوقت الذى أصبحت فيه مصر الفتاة فى شبه تحالف مع الوفد .

وقد كان من أبرز الأعمال التى تمت فى هذه الفترة السابقة على قيام الحرب ، تلك الرسالة التى بعثت بها إلى الهر هتلر زعيم ألمانيا أدعوه فيها إلى اعتناق الإسلام ، كوسيلة محققة لإنقاذ ألمانيا مما توشك أن تتردى فيه ، ولقد رحت فى هذه الرسالة أحلل سياسة ألمانيا وسياسة هتلر ، وأظهرت ما تنطوى عليه السياسة من اخطاء فاحشة من شأنها أن تؤدى إلى انهيار ألمانيا ودمارها ، ولقد كان هذا الكلام يبدو فى ذلك الوقت لونا من ألوان الجنون والخيال ، فقد كانت ألمانيا فى أوج قوتها وعظمتها ، وكان نجاح هتلر فوق كل شك وريبة ، واتخذ الكثيرون من هذه الرسالة فرصة للتندر والتنديد بأفكار مصر الفتاة ، ومع ذلك فقد جاء الوقت الذى تحقق فيه حكم ما جاء فى هذه الرسالة بالحرف الواحد حتى لكأنها نبوءة صادقة ، وسوف يتسع الجزء الثانى من هذا الكتاب ليفصل ذلك كله .

وقامت الحرب ، ورحنا نعد أنفسنا لأخذ نصيبنا منها ، وسقطت فرنسا وأوشكت انجلترا على السقوط فأعددنا أنفسنا للاستفادة من هذه الفرصة ، واتهمنا من جديد بالثورة والإعداد لها ، وكانت أول جناية عسكرية من نصيب مصر الفتاة ، حيث اتهم الأستاذ توفيق الملط باحراز ديناميت لأغراض ثورية .

وأوفدنا الدكتور مصطفى الوكيل إلى العراق فلم تلبث حركة العراق أن بدأت فاشترك فيها نائبا عن مصر الفتاة ، وتطوع فى الجيش العراقى وساهم بماله ونفسه من أجل إحراز النصر على الإنجليز ، ولكن الثورة لم تلبث أن أحبطت واضطر رشيد عالى الكيلانى والحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين إلى الفرار من العراق ، فسافر معهما الدكتور مصطفى الوكيل وظل يتنقل معهما من قطر إلى قطر . والإنجليز تلاحقهم باحتلال هذه الأقطار حتى استقر بهم الحال فى برلين ... وفى برلين استشهد الدكتور مصطفى الوكيل حاملاً لواء المثل الأعلى فى مصر الفتاة . استشهد الدكتور القديس لأنه أبى أن يفر من برلين ، وإلا أن يظل على رأس ذلك المعهد الإسلامى الذى أنشئ هناك وكان أستاذا فيه .

أما نحن فى مصر ، فقد زج بنا جميعا إلى المعتقلات ، حيث أمضينا فى الاعتقال نيفا وثلاث سنوات ، وخرجنا من الاعتقال قبيل نهاية الحرب لكى نستأنف كفاحنا من جديد . ومرة أخرى تجدد الاضطهاد وتجددت حرب الإنجليز وحكومة السعديين لنا . التى وليت الحكم بعد سقوط وزارة النحاس باشا الرابعة ، وقد جرت فى هذه الفترة انتخابات عامة رشحنا أنفسنا لها ، وكدنا ننجح فى كثير من الدوائر ، بل لقد نجحت بالفعل فى دائرتى «محكمة السيدة» ولكنى أقصيت عن النجاح قوة واقتدارا . ولم يلبث القدر أن انتقم لنا فاغتيل أحمد ماهر وخر صريعا فى دار البرلمان ، وتألفت وزارة النقراشى الذى كان أول أعمالها هو حرب مصر الفتاة والقضاء عليها ، ولقد زج بى فى السجن أربعة أشهر كاملة بتهمة الاشتراك فى مقتل أحمد ماهر ، ولكن التهمة كانت كاذبة ، وخرجت منها بريئا ، وأستأنفنا الحرب مع النقراشى باشا ، وفى هذه المرة شاطرتنا الأمة كلها هذه الحرب ، فلم يلبث أن سقط ، وتألفت وزارة صدقى باشا التى جاءت لتحقيق مطالب البلاد القومية .

وتجرى الآن مفاوضات لوضع معاهدة جديدة تنظم العلاقات بين مصر وانجلترا ، والذى يهمنا أن نسجله الآن هو أن هؤلاء الذين وصفوا معاهدة سنة ١٩٣٦ بأنها معاهدة الشرف والاستقلال هم أشد الناس اليوم نقمة على هذه المعاهدة ، فالوفد ــ وعلى رأسه النحاس باشا ــ يحمل اليوم لواء التطرف ، فيحارب كل فكرة تحالف مع الإنجليز ، وعندما أصدر الإنجليز بلاغهم الرسمى أنهم عرضوا على الحكومة المصرية الجلاء برًّا وبحرا

وجوًّا بشرط عقد محالفة مع المصريين ، كان الوفد أشد الأحزاب سخطا على هذا الوضع ، لأنه يرفض أى تحالف مع الإنجليز . وهكذا تطور الزمن ، وما كان يعتبر خيالاً جامحا من شباب مصر الفتاة أصبح هو السياسة الحكيمة المتزنة التى ينادى بها الوفد ، وليس فى الشعب اليوم من لا يطالب بالجلاء ، وليس فى الشباب والطلاب والعمال من لا يدعو إلى الجهاد والثورة لإخراج الإنجليز ، وهكذا نرى أنفسنا بعد اثنى عشرة سنة من كفاحنا ، وقد ازدهرت جهودنا وأثمرت .

وإننى أكتب هذه السطور ، وقد وقفت المفاوضات بين مصر وانجلترا ولست أعرف ماذا يكون مصير هذه المفاوضات ، ولكن هناك حقيقة لا أشك فيها أبدا ، وهى أن الإنجليز لن يخرجوا من هذه البلاد ، إلا إذا أكرهناهم على الخروج منها بجهادنا السياسى ، والاقتصادى ، والأدبى .

لن يخرج الإنجليز من مصر إلا بعد أن ينقرض هذا الجيل القديم من المستوزرين والمستضعفين ، وتقبض على زمام الأمور فى مصر حكومات شجاعة جسورة تعرف كيف تعلن الحرب على إنجلترا إذا لزم الأمر .

* * *

مصر الفتاة والحكومة
أمام القضـاء

حكومة الوفد

للمتهمين أن يبحثوا عن محام ليستجدى لهم البراءة أو التخفيف أما أنا فلست متهمًا وما كان للحكومة أن توقفنى موقف الاتهام ولكنى أقف فى هذا القدس لأحاكم هؤلاء الذين جاءوا بى إلى هنا وإنى أتهمهم بأعلى صوتى من هذا المنبر

أحمد حسين

مقدمة

قام الرئيس أحمد حسين بحملة صحفية فى جريدة الضياء لم تلبث أن أزعجت الوزاريين فقرروا تقديمه للمحاكمة بعد اعتقاله ثلاث مرات . وقد تم لهم ما أرادوا ووجهت إليه تهمة إهانة الوزارة والقذف فى حق رئيسها وحق هيئات أخرى من السلطات العامة وقد تعددت القضايا حتى بلغ عددها خمس ، وشرع فى نظرها ابتداء من ١٥ يونيو سنة ١٩٣٧ والأيام التالية ولكن محكمة الجنايات والتى كانت مشكلة برئاسة حسن بك فريد وعضوية حضرتى فؤاد بك أنور ومصطفى بك رشدى اكتفت بنظر قضيتين من هذه الخمس وأجلت القضايا الباقية إلى شهر نوفمبر سنة ١٩٣٧ وفيما يلى مرافعة الرئيس فى قضية لجنة العفو وهى اللجنة التى شكلتها الحكومة بمقتضى القانون رقم ٥٩ سنة ١٩٣٦ للنظر فيمن يشملهم قانون العفو الصادر عن الجرائم السياسية وقد رأت اللجنة أن هذا القانون لا يشمل قضية الرئيس الخاصة بالجيش فكتب مقالاً اعتبرته النيابة العمومية طعنًا فى اللجنة فطلبت تطبيق المواد ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ مكررة .

أما القضية الثانية التى نظرت فيها محكمة الجنايات فهى الخاصة بما اعتبرته النيابة إخلالاً بمقام حضرة القاضى محمد على راتب والذى أصدر حكمه المشهور ضد الحزب ونعته فيه بأنه جماعة ملتوية الأغراض خطرة على الأمن ونسب إلى الحزب أن واحدًا من أفراده قد قتل آخر فى دمنهور بسكين كان يحملها مع أن هذا الشخص قد ظهرت براءته فيما بعد .

قضيــة لجنــة العفــو

يا حضــرات المستشــارين

أشار عليَّ أكثر أصدقائى . وأشار عليَّ عدد كبير من زملائى كما أشار عليَّ كل من سمع بهذه القضايا أن أوكل أمر المرافعة عنى إلى بعض كبار المحامين وحجتهم فى ذلك أننى لا أقوى على المرافعة فى قضية خاصة بى إذ أكون مهتاج النفس ثائر الفؤاد .. وحجتهم أننى لا أستطيع فى هذا الموقف أن أفى نفسى المديح الواجب فى مثل هذا الموضوع .

ومنذ أيام قلائل كان أحد الزملاء الذين أجلهم والذين يفهموننى كل الفهم يردد هذه الحجة الأخيرة ويرجونى أن أترك مهمة الإشادة بشخصيتى وإخلاصى لوطنى وعقيدتى فقلت له كما قلت لمن قبله :

ـ ليس الموقف يا صديقى موقف مديح ولا هو موقف دفاع عن نفسى فلا أنا متهم ولا الحكومة خصم وحكم .

أجل ، للمتهمين أن يبحثوا عن محام يحاول تبرئتهم ، يحاول الرفع من اعتبارهم للمتهمين أن يستجدوا البراءة أو أن يستجدوا التخفيف بالإشادة بأشخاصهم . أما أنا فلست متهمًا والحمد لله . ولست أقف اليوم كمتهم ، ولكنى أقف هنا فى هذا القدس وفى نفسى كل الإحساس أننى أنا الذى أحاكم من أوقفونى فى هذا الموقف وليسوا هم الذين يحاكموننى .

حقا لقد استطاعت الحكومة بما لها من حول وطول وسلطان أن توقفنى هذا الموقف وأن تسمينى كما جرى العرف أن يسمى الواقف فى هذا الموقف وأعنى كلمة المتهم . ولكن ذلك كله لا يعدو الأوضاع المادية التى يتحكم فيها كل ذى سلطان فهم هم أنفسهم وزراء اليوم قد وقفوا بالأمس موقف الاتهام . وما أعظم الفارق بينى وبينهم فلقد اتهموا فى شرفهم فقيل عن بعضهم إنهم يستغلون مناصبهم كما حدث فى وثائق سيف الدين . ثم وقفوا فى قفص الاتهام بتهمة الاغتيالات السياسية .

ومع كل هذا فما كان وقوفهم هذا الموقف بمنقص من قدرهم وقتذاك ولقد كانت الكلمة الفاصلة للقضاء . فعندما منحهم براءتهم خرجوا رافعى الرءوس موفورى الكرامة . وها هم اليوم فى الحكم يوقفون خصومهم نفس الموقف . ولكن شتان ما بين موقفى وموقفهم .. هم كانوا يقفون مرتعدين فزعين يسوقون المحامين تلو المحامين للمرافعة عنهم . ويقفون فى هذه الساحة يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم ما فعلوا وما فعلوا .. وأنهم

يستنكرون ويشمئزون وعندما كان الصحفيون منهم يقفون هذا الموقف كان الاستخذاء يملأ ثيابهم وكانوا يتلمسون الطريق لتعليل الألفاظ والمداورة بها ومن هنا فقد حسبوا أنهم إذ يوقفونى هذا الموقف الذى ذاقوا مرارته وأحسوها فى أعماق قلوبهم أنهم سيوهنون من عزمى وإيمانى .ويلوثون صفحة جهادى .. وعلى قياس قضاياهم انتظر الناس منى أن أنتدب من يتولى المرافعة عنى لينقذنى من حبل المشنقة . ناسين أن هذا الموقف أنا الذى سعيت اليه وأنا الذى أردته وأكافح فى سبيله منذ عام بأسره . هذا الموقف الذى أقفه الآن أمامكم ياحضرات المستشارين ليست هى الحكومة التى أوقفتنى إياه وليست هى النيابة التى أوقفتنى إياه ولكن أنا الذى أردته وأنا الذى سعيت إليه .. وبحسبكم أن تعلموا أنى كتبت أول مقال أحاكم عليه فبلعته الحكومة وسكتت عليه فعدت إلى الكتابة بأسلوب أحد فرأت الحكومة أن تفتح معى تحقيقًا ولكنها عملت جاهدة أن تحفظ هذا التحقيق وأن تنتهى منه بسلام ولكنى دأبت فى خطتى التى انتهجتها لنفسى حتى كان موضوع السماد والذى كانت الضياء أول من تحدثت عنه فسكتت عنه الحكومة حتى إذا نشره البلاغ شرعت تحقق معه فكان خطابى المشهور الذى بعثت به إلى عبد القادر بك حمزه أقول له فيه إننى متضامن معه فى المسئولية بل أنا المسئول الأول وله أن يبلغ ذلك إلى النيابة . ففعل وكان أن اعتقلت .. وخرجت من الاعتقال أواصل حملتى بأشد مما بدأتها فرأت الحكومة نفسها مرغمة على تقديم هذه القضايا فقدمتها جملة وبحثت عن موضوعات قديمة لتجعلها موضوع قضايا مستقلة وهكذا فزت أخيرًا بما أردته منذ الساعة الأولى وهو أن آتى إلى هذه الساحة ـ ساحة القضاء التى يدوى فى أركانها صوت الحق كيما أتحاسب أنا وهذه الوزارة . كيما أصفى ما بينى وبين صاحب المقام الرفيع ولتكونوا حكمًا بيننا يا حضرات المستشارين ولتكن الأمة من خلفكم وليكن التاريخ حكمًا . وأما الدينونة فهى فى يد الديان الأعلى وهو هو وحده القادر على العقاب والثواب وهو هو وحده القاضى الذى لا مرد لقضائه . فوقفى اليوم أنا الذى سعيت إليه وليست النيابة . ووالله لو أن الحكومة الآن أعلنت باسم ممثلها فى هذه الجلسة أنها قد تنازلت عن حقها وشكواها وأنها تطلب منكم أن تقضوا ببراءتى من غير دفاع ولا مرافعة . أقسم بالله العزيز المتعال أننى أرفض هذا وأأبى إلا أن تتم المحاكمة كيما يسمع صوتى كل من له أذنان للسمع ومن أجل هذا جئت إلى هذا المكان .

إننى أتهم

فأنا اليوم لا أقف متهمًا ولكنى أتهم ، وأنا اليوم لا أُحاكَم ، ولكنى أُحاكِم وهذا ما

قلته منذ الدقيقة الأولى للنيابة عندما شرعت تحقق معى فقد قلت للمحقق يجب أن تحسن الدفاع عن حكومتك لأننى أتهمها ولا تستطيع اتهامى .. وأهاجمها ولا تستطيع رد هجومى وعبثًا يخيل لها – لأن القوة المادية فى يديها ـ أنها قادرة على إذلالى أو على قلب الأوضاع حيالى فتجعلنى متهمًا وتجعل نفسها فى موقف المهاجم . ألا إن أى صعلوك يستطيع أن يردى أكبر جبار بضربة عصاة أو طعنة سكين فيقضى على حياته ولكن من الذى يجرؤ على القول أن القاتل دائمًا أقوى من المقتول أو أن المتحكم أعلى درجة من المتحكم فيه . ذلك أن الظفر المادى لا يساوى فى عالم القيم شيئًا ،. وإنما الذى يقدر فى الميدان هو الظفر المعنوى والروحى فأنا إذا كنت حرا فلن توجد قوة فى العالم قادرة على جعلى عبدًا . أجل يمكنها أن تكبلنى بالحديد أجل يمكنها أن تزج بى فى أعماق السجون ولكنى سأظل وسط ذلك كله حرا حرا . حرا بروحى وبنفسى ومادام هذا كذلك فلن يكون الإنسان عبدًا مطلقًا وإنما يصبح العبد عبدًا عندما يألف الذل ويستنيم إليه . عندما يرضى بالغلبة المادية فينصاع لها بالروح ، هنا يصبح العبد عبدًا بالروح والجسد. خذوا مثلاً هؤلاء المماليك الشراكسة فلقد جاءوا بهم إلى مصر عبيدًا تباع وتشرى بالمال ولكن الأحرار سرعان ما شيدوا لها عزا لن يبلى على مر الزمان ذلك لأنهم كانوا أحرارًا والحر لا يمكن مطلقًا أن يكون عبدًا يا حضرات المستشارين .

فالظفر المادى ليس كل شيء ولا مناص من أن يتبعه الظفر الروحى كما يكون ظفرًا صحيحًا وهكذا ترون أن النيابة والحكومة لم تظفرا منى بشيء ولكن أنا الذى ظفرت بكل شيء إذ أقف هذا الموقف كما أناقشها الحساب وأعرض قضيتى عليكم لتكونوا حكمًا وشاهدًا .

ومن هنا فلست فى حاجة إلى محام يدفع عنى تهمة فلا تهمة هناك بل قضية يراد عرضها ومن أقدر منى يا حضرات المستشارين على عرض قضية هى كل كيانى فى هذه الدنيا وعلة وجودى ..

من غيرى يستطيع أن يؤدى الأمانة التى يؤمن بأنه موكل بآدائها ؟

من غيرى يستطيع أن يبسط لكم رسالة «مصر الفتاة» لأن هذه الرسالة هى ما يحاكم اليوم . وإذن فلا تعجبوا ولا يعجب الناس لموقفى هذا فغير هذا الموقف هو ما كان يؤذى مصر الفتاة ويؤذينى . ويؤذى الجهاد الذى أنا آخذ بسبيله .

وما أنا بحاجة لأن يقف زيد أو عبيد يحدثكم عنى ويبسط لكم تاريخ حياتى . فما كان تاريخ حياتى شيئًا مذكورًا . وما أنا بشيء مذكور . وليس فى ماضىَّ ما أكاد أذكر

أنه يستحق الذكر ولا أنا فخور بشيء من هذا الماضي .

ولكن أنا هو كما أنا . وما سوف تسمعون مني الآن وتلمسونه بأيديكم فإن لم أستطع بحاضري أن أعرفكم من أنا فلا كان هذا الماضي ولا كان من يذكره لي .

البـراءة والإدانـة لـدى سيـان

وثمة دافع أقوى يدفعني أن لا يتولى الدفاع عني محام فمهمة المحامي تخليص متهمه مما تطلبه له النيابة .

وأما أنا فسوف تسمعون مني في حديثي أن البراءة والسجن لدى سيان فكلاهما طريق أستأنف منه الجهاد فالبراءة تعطيني الفرصة الإيجابية لمحاربة الظلم والطغيان ونشر الإيمان والنور ، والسجن فرصة سلبية لتحقيق هذه الأغراض بالذات . ولقد يكون من الوسائل السلبية ما هو أشد فتكًا من الوسائل الإيجابية ولعل السجن للأحرار هو من بين هذه الوسائل الفتاكة فلولا الباستيل ومن زج فيه من أحرار لما كانت الثورة الفرنسية . ولولا ما شبه للناس من صلب المسيح ما انتشرت المسيحية . ولولا الإيذاء والاضطهاد اللذان أصابا سيد الخلق ما انفجر ينبوع الإسلام فالوسائل السلبية لا تقل أثرًا عن الوسائل الإيجابية في نشر دعوة من الدعوات . ومن هنا كان السجن في مثل هذه القضية لا يزعجني بل إني لأرحب به ترحيبي بالبراءة سواء بسواء والله يشهد أني أقول ذلك حقا وصدقًا من غير زيف ولا تضليل ..

كل الـذي أريـده هـو أن تصغـوا لدفـاعي

لعلكم سائلي يا حضرات المستشارين وماذا تريد منا إذن ومن حق الواقف موقفك أن يطلب من قضاته شيئًا فأقول لكم إني لا أطلب إلا شيئًا واحدًا وهو أن تسمعوا وتحسنوا الاستماع وأن توسعوا الصدر وتمنحوني كل أناتكم التي تمنحونها أحيانًا لأحط المجرمين فقد حاكمتم منذ حين قريب هذا الذي قطّع أوصال رفيق له كان يبيت معه في الفراش وعمل كجزار ماهر في تقطيع الأرجل والأيدي ثم أودعها حقيبة وخلّفها أمام فندق عام . وقف أمامكم في هذا القفص يقص عليكم كيف قام بفعلته وكيف بدأ بالقدمين ثم اليدين إلى آخر ما قال ولقد استمعتم له من غير شك في هدوء القاضي وحلمه . استمعتم لدفاعه ثم خلوتم إلى أنفسكم وبعثتم بهذا الرجل إلى الإعدام وأنتم أكثر الناس اطمئنانًا .

إنكم تقومون بواجب من أقدس الواجبات وهو أن تقضوا بقصاص الله على الأرض والذي شاءه ليكون فيه الحياة وفيه النجاة للبشرية جمعاء ..

هذا هو ما أطمع فيه منكم أن تمكنونى من إرسال دفاعى كما يمليه على الواجب والضمير حتى إذا انتهيت منه فلكم بعدها أن تخلوا إلى أنفسكم وأن تبعثوا بى إلى المشنقة إن شئتم وأنتم أكثر الناس اطمئنانًا أنكم قد قمتم بواجبكم . ذلك أن واجبكم فى هذه القضية يا حضرات المستشارين ليس هو هذا الحكم الذى ستنطقون به فى آخر هذه القضية .. لا .. ليس هذا واجبكم . فإن هذا المعروض عليكم لا يعدو أن يكون جنحة عقوبتها الغرامة أو الحبس بضعة شهور وهذا عمل قاض صغير لا ثلاثة زعماء من رجال القضاء والقانون ولكن المشرع رأى أن يكل إليكم أنتم جرائم الرأى لتفصلوا فيها عندما تكون الحكومة ورجالها فى محل الطعن والقذف لأنكم فوق المؤثرات وفوق الشهوات ولأن جرائم الرأى تهم أمة بأسرها لا فى جيل واحد بل لعدة أجيال وربما إلى الأبد لأنها تتعلق بهذه النواميس التى يقوم عليها المجتمع والويل ثم الويل إن أصاب هذه النواميس خلل أو اعوجاج ولم يوجد فى الأمة من يقوّمها أو يلفت النظر إليها . إن مصير هذه الأمة يكون التدهور الشائن والانحلال السريع ومن هنا تبدأ أهمية أمثال القضايا المعروضة عليكم اليوم فهى ليست مهمة لأن أحمد حسين شىء مذكور وهى ليست مهمة نتيجة للحكم الذى ستصدرونه فيها . ولكنها مهمة لأنها تتعلق بسلامة أمة وبنظام الحكم فيها وبحياة المجتمع .. والمجتمع يجب من لحظة لأخرى أن يقف قليلاً ليراجع بعض القضايا والمسائل التى تدور عليها حياته . فقضايا اليوم هى وقفة من المجتمع ليفحص بعض قضاياه وليراجع بعض مسائله فواجبكم هو أن تتيحوا الفرصة الكاملة لمراجعة هذه القضايا وأن تدعوا الضوء يسلط عليها من جميع الجوانب ليطمئن الناس بعدها أن الدنيا بخير فيمضون فى طريقهم لا يلوون على شىء أو يشعرون بمقدار ما هم فى حاجة إليه من إصلاح فيتضافرون على تحقيق هذا الإصلاح لينقذوا أنفسهم من الهاوية .

محاكمة اليوم والتاريخ

فقضايا اليوم يا حضرات المستشارين هى موقف تاريخى وأرجو أن تسمحوا لى أن أصرح لكم أنى لا أترافع لحضراتكم فحسب بل إنى لأترافع للأجيال المقبلة أيضًا وكل كلمة تقال اليوم وستقال سوف تصبح بعد ذلك فى ذمة التاريخ وسوف يأتى من بعدنا أناس وأقوام يبعثون هذه القضية ويعلقون عليها ما شاء لهم التعليق ويستخرجون منها حكمًا ومواعظ وعبرًا .. وسوف لا أحاكَم أنا وحدى يا حضرات المستشارين أمام محكمة التاريخ بل سوف يحاكَم كل من له دور فى هذه القضية وسوف تصدر الأحكام المختلفة فى كل يوم بل وفى كل ساعة على عضو من أعضاء هذه المحاكمة .. فواجبنا جميعًا أن

نجعل عناصر القضية فى متناول الجميع ومن هنا قلت لكم إننى لا أناشدكم إلا شيئًا واحدًا وهو سعة الصدر وحسن الأناة أما الباقى فهو من الله ولن يأتى على أيديكم إلا الخير والخير المطلق وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم .. وقل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا . وهل يكتب الله لنا إلا الخير والخير المطلق يا حضرات المستشارين .

جان دارك وقاضيها

ولست أستطيع أن أختم هذا التمهيد من مرافعتى بغير أن أعيد إلى ذاكرتكم محاكمة جان دارك تلك التى تولاها الأسقف «كوشون» فقد حكم على هذه المنقذة التى حررت وطنها يومئذ بالحرق وكان مُصدر الحكم هو كوشون . ولقد كان هذا الرجل بعد ذلك محل سخط وتشنيع واتهم بأحط الصفات . ولست أعرف إلى أى مدى تغير رأى العالم الحديث فى شخصية كوشون هذا ولكن الذى أعرفه أنا بعد أن طالعت تاريخ جان دارك أن هذا الرجل كان مخلصًا فيما فعل . وأنه قد قام بما يعتقده واجبًا دينيًّا عليه وقتذاك .

وليس صحيحًا أنه كان خائنًا أو أنه اشترى بالمال ودليلى على ذلك هذه المحاكمة التى حاكم فيها جان دارك واستمرت عدة أيام بل عدة أشهر وهو يمد لها فى حبل الدفاع عن نفسها . وهو يفتح لها الأبواب يتلمس منها إنقاذها . وهو فى ذلك كله يسجل فى مضبطة المحكمة كل ما يقال ويعمل فى هذه المحكمة . ويسجل بالأكثر اعتراضات جان دارك واحتجاجاتها وهكذا كانت محاكمة جان دارك ومضابطها هى التى استطاع الفرنسيون أنفسهم بعد خمسين عامًا من المحاكمة الأولى أن يعيدوا دفاع جان دارك عن نفسها . فإذا بهم يقضون ببراءة جان دارك وردوا اعتبارها . وإذا بهم بعد حين يرفعونها إلى مصاف القديسات . فالقاضى الأول لم يكن جلادًا إذن على الرغم من أنه أرسل جان دارك إلى النار بل كان قاضيًا يقوم بواجبه وينفذ ما يؤمن بأنه لخير المجموع ولولا ذلك لما اهتم كل هذا الاهتمام بدفاع جان دارك ورغب فى أن لا يحكم عليها قبل أن تعترف على نفسها .

وإذا كان الفرنسيون قد برأوها فيما بعد فما ذلك إلا لأن نظرة الإنسانية إلى المسائل الدينية كانت قد تغيرت وليس أدل على ذلك من أن جان دارك قد اعتبرت قديسة بعد ذلك فى العصور الحديثة واعتبرت كذلك بقرار رسمى من الكنيسة

فلسنا نستطيع فى الحياة يا حضرات المستشارين أن نعرف إذا كان ما نفعله سيظل

خيرًا إلى الأبد أو أنه شر وكل ما نطالب به دائمًا هو أن نقوم بواجبنا ونرضى ضمائرنا فى هذه الساعة التى نحن فيها .

ولقد حدثتكم بقصة جان دارك لا لتفهموا منها أن موقفنا الآن كموقفها ولا لأشبه نفسى بجان دارك أو أشبهكم بقضاتها ولكن لأريكم كيف أن قاضيها الذى أمر بحرقها قد وجد من ينفى عنه بعد كل هذه القرون تهمة الخيانة . ويرى أن ما فعله لم يكن إلا نتيجة الجهل الفاشى فى هذه العصور وليس أدل على ذلك من أن الحكم قد قوبل وقتها بهدوء وخمول من هذا الشعب الذى حررته بالأمس وكانت معبودته وما كنت لأفعل ذلك لولا مطالعتى لوثائق محاكمة جان دارك والتى تثبت أن قضاتها قد أعطوها فرصة كاملة للدفاع وسجلوا دفاعها وليس يطلب من القاضى المخلص لمهمته غير هذا . وهذا هو ما أطالبكم به وأنتم مانحونى إياه بإذن الله .

كفـاح مصـر الفتـاة ومـاهيته

أقف أمامكم اليوم ياحضرات المستشارين إدعاءً من النيابة بأنى قد أهنت لجنة العفو وما فيها من قضاة وأقول لكم إنما أردت بنقدى هذه الحكومة التى تحاربنى وتبغى القضاء علىَّ فأينا الصادق أنا أم النيابة ؟

لكى نجيب على هذا السؤال لابد لكم من معرفة مصر الفتاة وماهيتها لتعرفوا منها موقفى من النحاس باشا وأينا الذى اعتدى على الآخر أولاً وأينا المعتدَى عليه . ولتعرفوا إذا كنت أحمل حقداً للنحاس باشا أو أحمل موجدة عليه أو إذا كنت فى حرف واحد مما كتبته مدفوعًا بعاطفة غير عاطفة الحب لبلادى والخير لمواطنى .

لم يكن بينى وبين النحاس باشا معرفة شخصية ولم أسأله يومًا من الأيام منفعة فمنعها عنى .

وليس بينى وبينه منافسة على الوظيفة أو المنصب ولم أكن وفديا ففصلنى كما فعل بكثير من الناس .

والخلاصة أن ليس بينى وبين النحاس باشا إلا المصلحة العامة . والمصلحة العامة أولاً وأخيرًا . فإذا كتبت عنه فليس ذلك لأنفث حقدًا شخصيًا أو لأنتقم لضغينة فى نفسى . فإذا كتبت عنه وجرحته فإنما أنا فى ذلك أقوم بما أعتقد أنه واجب وحق . وأننى أتكلم باسم الشعب وآلام الشعب .

وقبل أن أنفذ إلى تاريخ العلاقات بيني وبين الوفد والتي ترجع إلى أربع سنوات مضت أرجو أن تسمحوا لي أن أبيّن لكم ماهية مصر الفتاة ومبادئها تلك التي أدعو إليها والتي ما فتئت أنشر إيماني بها حيثما ذهبت وأنّى حللت والتي سأظل في سبيل تحقيقها حتى يتم لي ذلك أو أموت .

مصر الفتاة يا حضرات المستشارين هي صرخة الفزع في عالم مضطرب ينحدر نحو الهاوية . وهي ناقوس اليقظة في مجتمع خامل منحل . وهي نداء المجد لشعب أَلِفَ الخنوع والمذلة .

لقد تفتحت عيناي على الحياة المصرية فراعني ما رأيته فيها من فقر وفاقة . راعني ما أراه فيها من تدهور وانحلال راعني أن أرى شعبًا يأكل ويشرب ويتناسل وهو لا يدري غاية له في الحياة ولا يريد أن يتصور الحياة غير ما يعيشه ويحياه وما درج عليه منذ خمسين عامًا أو مائة .

يالبؤس الفلاح والعمل

رأيت الفلاحين وهم سواد مصر الأعظم وهم أساس الثروة والعظمة في هذه الأمة يعيشون حياة أقرب إلى معيشة الحيوان منها إلى الإنسان .

ولعل معيشة الحيوان أكثر رفقًا ونعيمًا لأن البقرة أو الجاموسة تجد من يعتني بها ويقدم لها الغذاء أما صاحبنا الفلاح فليس هناك من يعني به أو يهتم لأمره وهو يعمل منذ الصباح المبكر حتى ساعة متأخرة من الليل ولا زاد له إذا ما حان وقت الغذاء إلا بضعة لقيمات يغمسها في الملح أو المش إن كان من المحظوظين وهو لا يرتدي من اللباس إلا قميصًا مهلهلاً ممزقًا ويعيش فوق ذلك في جحيم الجهل وسعير الفاقة يرتجف إذا ما رأى رجل البوليس يمر بجواره ويكاد يذوي من الرعب إذا ناداه صاحب العمل أو انتهره أو هم بطرده من خدمته .

وتقول لنا الإحصائيات إن هذا الفلاح ثمانون في المائة منه مرضى بالبلهارسيا والانكلستوما . ومثل هذه النسبة مرضى بعيونهم حتى أن نسبة العمى في صفوف المصريين لا مثيل لها في أنحاء العالم . وكل أمراض الدنيا بأسرها تجد مرتعها الخصب بين صفوف المصريين بأكثر مما ترتع به في صفوف المتوحشين والزنوج والذين جعلتهم حياتهم الفطرية أكثر حصانة لمقاومة الأمراض .

ويموت من أطفالنا أربعمائة طفل في كل ألف في العام وما ذلك إلا نتيجة بؤس

الفلاحين وهذه الحياة المجدبة التى يحيونها . وإذا انتقلنا إلى صفوف العمال وجدناها أكثر سوءًا وأبعد غورًا وأثرًا . فمئات الألوف من العمال يتكدسون فى المدن فى مساكن لا يدخلها الضوء ولا الهواء فيحرمون حتى من حنان الطبيعة وعطفها ويعملون طوال النهار عملاً شاقا منهكًا من أجل بضعة قروش لا تكاد تكفى لإشباع رجل فما بالكم وهو مطالب بإطعام أسرة بأسرها والصرف عليها !

على أن هؤلاء لا يزالون أسعد حالاً من غيرهم ذلك أن عشرات الألوف من العاطلين قد باتوا لا يجدون عملاً إطلاقًا وهم من حملة الشهادات ومن مهرة الصناع ومن الموظفين السابقين . ولا عمل لهم إلا التسكع والجلوس على المقاهى وسراج حياتهم ينطفئ يومًا بعد يوم حتى يودعوا الحياة غير آسفين عليها ولا هى آسفة عليهم فقد كانوا فيها كالزوائد والطفيليات .

وأى آلام تلك التى يقاسيها بعض هؤلاء العاطلين ؟

أى محاولات فاشلة هذه التى يبذلونها عبثًا فى كل يوم للحصول على القوت حتى أصبحت المدن مباءة للجرائم الخلقية . فبيع الأعراض وسيلة من وسائل التكسب والارتزاق والسرقات واختلاس الأموال تكاثرت إلى حد مخيف . وحسبكم وأنتم قضاة أن تذكروا هذا العدد الضخم من السرقات الذى يعرض على القاضى الجزئى فى كل محكمة فقد يبلغ عدد القضايا أحيانًا خمسين قضية وأغلبها ما بين سرقات أو نصب وخيانة أمانة فإذا ذكرتم أن هذا العدد الضخم هو ما ينظره قاض واحد وأن هناك فى القاهرة عدة قضاة وفى أنحاء مصر عشرات القضاة وكلهم تكتظ محاكمهم بهذه القضايا ؛ إذن لأدركتم مقدار الفاقة التى يعانيها المجتمع والتى جعلت جانبًا كبيرًا منه يسعى لاكتساب القوت عن طريق غير مشروع .

كل شىء فى يد الأجانب

وهذه هى المظاهر البسيطة التى يراها الإنسان بمجرد أن يلتفت إلى المجتمع الذى يعيش فيه ويحسن الانتباه ولكن يكفى أن يغوص وراء بعض الحقائق كيما يعود أكثر انزعاجًا ورعبًا لأنه يجد أن كيان الثروة المصرية بأسره محطم كل التحطيم بما لا مثيل له فى أى شعب من شعوب العالم . فكل الأراضى المصرية ياحضرات المستشارين مرهونة للأجانب ويكفى أن تعلموا أن بنكا واحدًا كالبنك العقارى المصرى يدين الفلاحين بما يقارب الأربعين مليونًا من الجنيهات . وهذا البنك ليس إلا بنكا أجنبيا برأس مال أجنبى .. فكل هذه الفوائد التى يجبيها كل عام من عرق الفلاح ودمه إنما تتسرب إلى

الخارج وتتبدد وتترك المصريين فى كل عام أكثر فقرًا منهم فى العام السابق . ولعل من المضحكات ياحضرات المستشارين أن رجال الاقتصاد عندنا قد اعتادوا أن يقيسوا الثروة المصرية بمقياس مضحك يدل على غفلتهم الشديدة فهم يقارنون واردات مصر بصادراتها فإذا وجدوا الصادرات وقد أربت على الواردات بنصف مليون أو مليون هللوا طربًا وقالوا نحن أغنياء ظنا منهم أن هذا المليون أو نصفه سيبقى فى أيدى المصريين ناسين أن الدائن المرتهن يقبض من الفلاحين فوائد تربو على هذا المبلغ كل عام ويصدرها للخارج وأن الحكومة المصرية تدفع عدة ملايين كل عام فوائد على الديون الرسمية فالشعب يخسر كل عام أكثر مما يكسب سدادًا لفوائد الديون المستحقة بينما تظل رءوس الأموال كما هى تضغط على الفلاح فى كل عام أكثر وأكثر.

وتجارة مصر الخارجية ياحضرات المستشارين فى أيدى الأجانب وتجارة الجملة فى أيدى الأجانب وكل الشركات والمنشآت التجارية والمرافق العامة فى أيدى الأجانب وماذا تقولون فى هذه الإحصائية الرهيبة ألا وهى إن فى مصر شركات أجنبية تبلغ رءوس أموالها ثلثمائة مليون جنيه بينما لا تزيد حصة مصر فى هذه الشركات عن أربعة ملايين هى مقدار هذه الشركات التى أنشأها بنك مصر أخيرًا .

وهذا المركز الذى بلغ إليه الأجانب فى بلادنا لم يكن نتيجة لتفوق طبيعى كما يدّعون ولكن نتيجة لهذه الامتيازات الممقوتة والتى استطاعوا فى ظلها أن يقوموا بالأعمال غير المشروعة والتى استطاعوا أن يعملوا فى ظلها لا تصل إليهم ضرائب الدولة ولا قوانينها ولا يشرف عليهم أى نوع من الإشراف بينما هى ترهق الفلاح والعامل من ناحية أخرى .

وفى ظل الامتيازات الممقوتة رأيت الأجانب يتعالون على المصريين ويتكبرون وينظرون إليهم بازدراء واحتقار مهينين . فأصبح اليونانى فى بلادنا أسمى مركزًا من المصرى مهما بلغ ، وأصبح أحقر أجنبى يساوى أعظم عظيم فى هذه البلد بل أعظم .

تدهورنا الخلقى والدينى

هكذا ترون أن حياة مصر الاقتصادية وصلت إلى حد من التدهور لا مزيد عليه . على أن ذلك كله يهون إزاء التدهور الاجتماعى الذى وصلنا إليه فهو فوق كل وصف وأبعد عن أن يصور . تصوروا أن الدين الذى هو حياة الأمم ومحور نشاطها قد أصبح فى مصر أثرًا بعد عين من الناحية الرسمية على الأقل ففى مصر بلد الإسلام أصبح الزنا رسميًّا بإجازة الدولة والقمار رسميًّا بإجازة الدولة والخمر رسميًّا بإجازة الدولة وأصبحت مدن مصر

الإسلامية وهى مكتظة بدور اللهو والدعارة والفسق تظل مفتحة الأبواب حتى مطلع الفجر ترتادها البنت قبل المرأة والطفل قبل الرجل فى حماية القانون ورعايته .

وانتشر الإلحاد وانعدم الخوف من الله وتدهورت الأخلاق الشخصية فإذا بالناس يكذبون ويسرقون وينكثون بالعهود ويخونون . وأصبح الإنسان لا يأمن أخاه ولا يعرف صديقه وأصبح الشرف والعفاف والواجب وأصبحت الفضيلة والرجولة : كلها خرافات فى خرافات ولا تعدو أن تكون مهازل صبيانية أو مواضيع إنشائية .

أما الشباب فقد امتلأ بالتخنث وفقدان الرجولة وأصبح ولا عمل له إلا اللهو الفاسد واصطياد الفتيات والجرى فى الطرقات .

الاحتلال الإنجليزى

أما عن مصيبة الاحتلال فحدث ولا حرج فهو يظهرنا أمام العالم بمظهر الشعب الهمجى المتخلف وهو يدمجنا فى صفوف المستعمرات والأملاك فلم تعد مصر تذكر إلا عندما تذكر الشعوب المتأخرة والمنحطة . هذا فى الخارج أما فى الداخل فقد غلبنا على كل أمورنا فلا رأى إلا ما يراه الغاصب ولا عمل إلا ما يأمر به ومصالح الدولة رهن إشارته . وقد عمل كيما يضمن استمراره فى مصر إلى إبقاء مصر ضعيفة فهو السبب الأول والأخير فى هذا التدهور الدينى والخلقى لأن الإنجليز عرفت أنها لا تستطيع أن تبقى فى مصر يومًا واحدًا عندما يستجمع الشعب قواه وإرادته فعملت كل ما فى وسعها لإضعاف هذه الإرادة وإعدامها فخلقت الوظائف الكبرى ومنحت المرتبات الباهظة وأضعفت فى نفوس كبار الموظفين فكره الواجب والخدمة العامة إلا بمقدار ما يكون فى ذلك مرضاة الإنجليز وأوامر الإنجليز .

وهذا هو الوضع الذى ألفيت فيه بلادى يا حضرات المستشارين منذ فتحت عينى إلى الحياة ، بلاد مغلوبة على أمرها يحكمها الإنجليز ويسود فيها الأجانب ، يسيطر عليها الضعف والفقر ، حياتها الاقتصادية مهشمة والخلقية أكثر تهشمًا .

قدر علينا الذل والهوان

ساءلت نفسى أيمكن أن نظل شعبًا حقيرًا قدر علينا أن نعيش فى هذا الذل وهذا الفقر وهذا التدهور إلى الأبد .. ؟ فإذا بنفسى تثور والتاريخ يثور علىَّ وحقيقة الحال تثور علىَّ . أما نفسى فقد أحسست ثورتها فى هذه الدماء الحارة التى انسابت فى عروق

فجعلتنى أتألم لمرأى الذل .لمرأى الضعف . لمرأى التدهور وأحسست بالنار تشتعل فى بدنى وكلها تدعونى للعمل والحركة وكلها تدعونى للتمرد على هذا الوضع الذليل والثورة عليه .

وأما التاريخ فقد أحسست ثورته فى هذه الأمجاد الخالدة التى سطرتها مصر فى صحيفة العالم . فنحن الذين أخرجناه من الظلمات إلى النور . ونحن الذين استيقظنا فى فجر الإنسانية فقمنا بجلائل الأعمال . ولم يمض علينا بعد ذلك قرن من الزمان لم نكن فيه مشعل الإنسانية ولواءها الخفاق ففى العصور الوسطى مثل ما فى العصور القديمة مثل ما فى العصور الحديثة ارتفع اسم مصر حتى طبق الخافقين ولقد حاربتها أوروبا يومًا من الأيام مجتمعة فكان النصر لمصر ولسنا فى حاجة للرجوع إلى أعماق التاريخ فأيام محمد على نهضت مصر نهضة هزت العالم وأفحمته فأصبح جيشنا غول الجيوش وأسطولنا سيد الأساطيل وارتفع لواء الإمبراطورية المصرية فى أنحاء العالمين ولولا أن تداخلت السياسة الإنجليزية وألبت علينا الدول لكنا الآن فوق الجميع . وإذن فلسنا بالشعب الحقير ولا نحن بالشعب الضعيف ولكنّا أساتذة الأساتذة ومعلموها وما هذا الوضع الحاضر الذى نعيش فيه إلا نتيجة لجهلنا أنفسنا وفقدان الثقة بها وإهدار قواعد الدين ونسيان أحكامه وفقدان الأخلاق والإرادة . ذلك أن الله يا حضرات المستشارين لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فلو تمسكنا بأهداب الدين والأخلاق . لو أنا استجمعنا الشجاعة وتذرعنا بالصبر . لو أنا نظمنا الصفوف وعملنا فى جلد . إذن لعدنا إلى هذا المجد القديم والعز المقيم ولأمكننا فى طرفة عين أن نحيل كل هذا الفقر إلى غنى . وكل هذا التدهور إلى ارتفاع وكل هذا الضعف إلى قوة .

ما الذى ينقصنا

وساءلت نفسى ترى ما الذى ينقص لتحقيق ذلك كله وأى العناصر نحن فى حاجة إليها ؟ أما أننا لا نختلف عن شعوب العالم طرا من حيث التكوين الجسدى فهذا لا شك فيه . وأما أننا لا نقل عنهم عقلاً وذكاءً فهذا ما لا شك فيه أيضًا بل كثيرًا ما امتاز المصرى بالذكاء والنبوغ ولسنا ننقص العلم يا حضرات المستشارين فإن الأمم تسود بقليل من العلم ونحن لدينا الكثير من العلم فالإسلام قد علمنا حقائق الحياة بأسرها والقرآن ذلك الكتاب الجامع تحفظه الناس وتردده وتعرف ما فيه . ولن تجد مصريا واحدًا ينازعك فى أفضلية الاستقلال على العبودية ، ولن تجد مصريا لا يحب النهوض والمجد ويصبو إليه . ونحن بعد ذلك لا يعوزنا المال فنحن فى بلاد طبيعتها غنية وتستطيع أن تمدنا بكل شىء . وإذن فما الذى ينقصنا أكثر من غيره وما الذى يجب أن يوجد فى مصر حتى تستأنف

نشاطها القديم وتقف على قدميها بين دول العالم لتؤدى رسالتها التقليدية فى حمل لواء الإيمان والسلام والعلوم .. سرعان ما عرفت الجواب يا حضرات المستشارين ولقد كان يتلخص فى كلمة واحدة وتلك هى «الإرادة» فما ينقص الشعب المصرى هو الإرادة وهذا ما يجعلنا فى هذا الذى نحن فيه . والإرادة هى كل شىء فهذا الكون بأسره لم يكن قبل أن يوجد إلا إرادة فالإرادة هى مصدر الحياة وهى مصدر القوة وهى مصدر الخير كما أنها مصدر الشر . والإرادة هى كل شىء . فمصر ولا إرادة لها تشبه أن تكون جسدًا بلا روح قد شرع التحلل ينفذ إليه وشرع الدود يقترب منه . فإذا ما حلت الإرادة بهذا الجسد إرادة الحياة ، فهى عودة الروح ومتى عادت الروح فقد عادت الحركة وعادت القوة وعاد النشاط وفى طرفة عين يعود الجسم المنحل إلى مصدر من مصادر الحياة والخلق والنشاط وهذا هو ما تحتاجه مصر أو بالأحرى الشعب المصرى ، أن يصبح وله إرادة فتدب فيه الروح فإذا به يتحول فى يوم وليلة من العدم إلى الحياة ومن الضعف إلى القوة ومن القاع إلى الرأس . ومن هنا فكرت فى مصر الفتاة لتكون هذه الإرادة التى تنقصها . فكرت فى مصر الفتاة لتكون إرادة كل مصرى لتكون إرادة الشعب فتدب الروح فى أوصاله وينفذ ذلك البرنامج العظيم الذى ينبغى عليه تنفيذه .

فمصر الفتاة أنشئت لتكون إرادة مصر فى أن تستعيد حياتها إرادة مصر فى أن تصلح معوجها . إرادة مصر فى أن تصبح سيدة نفسها حرة فى بيتها . إرادة مصر فى أن تصبح غنية . فى أن تصبح زعيمة وقائدة . فى أن تصبح كما كانت على رأس الإسلام . فى أن تصبح فوق الجميع كما يحق لها وكما أعدها الله .

من برنامج مصر الفتاة

وعلى هذا الأساس تألف برنامج (مصر الفتاة) الأول وهو لا يحوى إلا إرادة مصر كما يجب أن تكون وها كم ملخص هذه الإرادة كما سطَّرها البرنامج :

مصر التى علمت الإنسانية وأضاءت على العالمين . مصر التى رفعت لواء الأديان جميعًا وأعلت كلمة الله والإسلام . مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم لن تموت أبدًا بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجًا للشرق وزعيمة للإسلام وهى من أجل ذلك فى حاجة إلى دم الشباب الملتهب فى حاجة إلى الإيمان والعمل فى حاجة إلى نفر من بنيها يقابلون الموت ويستعذبون الألم ويرحبون بالتضحية وتلك صفات لن تتوفر فى أبناء الجيل القديم .

فعلى الشباب . فعلى الجيل الجديد . فعلى جنود مصر الفتاة تقع تبعة بعث المجد القديم . هذا هو إيمان مصر الفتاة أو بالأحرى هذه هى إرادة مصر الفتاة . وأخذت هذه الإرادة بعد ذلك تنفذ إلى جميع نواحى الحياة المصرية وتبرز فيها ففيما يتعلق بعلاقتنا والأجانب قلنا فى البند الثانى من هذا البرنامج «يجب أن نضع الأجانب فى مركزهم الطبيعى ضيوفًا فى مصر وليسوا أصحابها وذلك يكون بإلغاء المحاكم المختلطة بجرة قلم وتمصير الشركات الأجنبية وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الحياة التجارية ويوم الجمعة يوم عطلة عام وعدم التصريح للأجنبى بمزاولة عمل فى مصر إلا بتصريح خاص» .

وانتقلنا بعد ذلك إلى ميدان الفلاح لنرتقى به ونسجل فضله ونرد إليه حقوقه فجاء فى البند الثالث من برنامج مصر الفتاة «يجب أن نؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها وأنه الحقيقة الوحيدة التى لم تتبدل فى العالم منذ ستة آلاف سنة وهو الذى أبقى مصر نابضة قوية حتى اليوم فيجب أن نُعلِّم الفلاح بأن نقضى على الأمية والجهل ونرتقى بمعيشته ونضمن له اليسر والرخاء ونحفظ له صحته بأن نُدخل إلى بيته الجديد النور والهواء والماء» .

وليس فى نيتى أن أتلو عليكم برنامج مصر الفتاة بأسره ولكنى أكتفى منه ببضع شذرات تريكم إلى أى حد لخصنا إرادة مصر فى أن تتطور وأن تنهض وأن تعيش سيدة فى بيتها وأن تؤدى رسالتها .

«ففى الزراعة التى تعتبر ثروة مصر الحقيقية يجب أن نرتقى بها فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها ونزرع أراضٍ جديدة ونشق الترع وننشئ المصارف ونعمل لمضاعفة الإنتاج أضعافًا مضاعفة .

وفى الصناعة يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق والغرب القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا وصوفنا ، وكتاننا . ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيمائية والزراعية والحديدية .

وتمهيدًا لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة وأن يولد الكهرباء من خزان أسوان .

«وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية فلا نأكل إلا كل ما هو مصرى ولا نشترى إلا من مصرى كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً» .

ويجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية ونتصل بدول الشرق القريب والبعيد نحمل

منها المتاجر وأن نقوم بدورنا الطبيعى فى تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب . ولكى نتبوأ هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى لينقل متاجرنا ولنرفع العلم المصرى فى أنحاء البحار .

ومصر التى ستتزعم الشرق وتضىء على العالم يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها ، فيجب أن يصبح التعليم الابتدائى مجانًا وأن تقل نفقات التعليم الثانوى والعالى ليكون فى متناول أفقر الطبقات ..

ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحى الحياة وأن تفتح الجامعة أبوابها على مصاريعها لكل من يريد الانتساب إليها من مصر أو الشرق وأن تشجع البحث العلمى وأن ترسل البعثات إلى سوريا وفلسطين والعراق وإيران والهند ومراكش وغيرها لتبحث ولتنقب وتنشر العقلية المصرية فى أنحاء العالمين .

وأما الأزهر فله دور عظيم يجب أن ينهض به وأن يستعيد مركزه ويجب أن تسرى رسالته فى أنحاء العالم وأن يرتفع صوته عاليًا بين الأمم الإسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والإسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب وفى أمريكا أيضًا ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى رفعة الحق والدين .

ويجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .

وأن نُرقى الأخلاق وأن نحارب الدعارة والخمور والتخنث .

ويجب أن يصبح التجنيد إجباريا للجيش وأن تنقص مدة الخدمة فيه وأن يمتلئ الشباب بالروح العسكرية .

ويجب أن نعنى بالطفولة باعتبارها مصر المستقبلة مصر العظيمة . فيجب أن نُعدهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالاً منتجين .

ويجب أن نُرقى المرأة ونُعلمها التعليم الكامل لكى تكون زوجة صالحة ولتكون أمًّا تخلق الأبطال وليكون بيتها نعيم الحياة» .

هذه هى بعض شذرات من برنامج مصر الفتاة والذى يتعرض للحياة المصرية فى أدق تفاصيلها ذكرت لكم منه هذه اللمحات لتعرفوا ما هو برنامجنا وما هى نظريتنا .

فنحن نريد أن نخلق مصر خلقًا جديدًا ونريد أن نبعث فيها الحياة بأن نخلق إرادتها .

واتخذنا وسيلة لذلك ما قررناه فى ختام برامجنا وهو الإيمان والعمل .

نحو العمل

فنحن أعرف الناس بأن الإرادة لا تكون كذلك إلا إذا أعقبها العمل فليس يكفى أن أريد النهوض بل يجب لتكون إرادة حقيقية أن أحاول هذا النهوض . وليس بأمر أن أريد الحركة فيما أتحرك بل ينبغى أن أحرك أعضائى بشكل مخصوص . فما هو العمل الذى آمنت منذ الدقيقة الأولى بضرورته كيما يستيقظ الشعب من رقاده ويدنيه إلى هذا النور .

كان العمل فى نظرى ومازال يتلخص فى كلمة واحدة وهى أن نعطى هذا الشعب القُدوة والمثال . فالشعوب والجماعات على العموم لا يهزها أن تسمع أقوالاً بقدر ما يحركها أن ترى أعمالاً ومثالاً فعبثًا يناديها الإنسان ويهيب بها إن لم يكن فى مقدمتها وعلى رأسها . وإذن فهذا المجاهد المؤمن الذى يريد أن يعمل لإنقاذ أمته مطالب بشىء واحد وهو أن يعطى لأمته المثال والقدوة ويرسم لها ما ينبغى أن يكون وهذا وحده كفيل بإيقاظها وبعث الحياة فيها رويدًا .. رويدًا ..

ولذلك فقد اعتزمت من الدقيقة الأولى أن أهب نفسى من أجل بلادى وأن أقف حياتى ونفسى ودمى على خدمتها فلا غاية لى إلا غايتها ولا مستقبل لى إلا فى سعادتها ولا راحة لى إلا فى هنائها .

آليت على نفسى أن أعلن برنامجى وأن أمضى فى طريقى قدمًا لا ألوى على شىء . لا يفزعنى سجن أو إرهاب لا يغرينى منصب ولا مال . وقدرت أن الموت قد يكون من نصيبى . وأن حبل المشنقة قد يكون مآلى ولكن ذلك لم يفلّ من عزمى ولا جعل الهزيمة تمر على فى بال ، وكنت أعرف أن الطريق سيطول ، وأن المصاعب ستعترضنى من كل نوع وعلى كل صورة فلم يزدنى ذلك إلا إصرارًا ويقينًا بأن مصر فى حاجة إلى تضحيتى وتضحية الألوف من أمثالى وبغير هذا فلن يقدَّر لها نجاح أو فلاح أو يقظة فى أى يوم من الأيام .

تأسيس مصر الفتاة

وعلى هذا الأساس كاشفت بعض زملائى المجاهدين الذين عاونونى فى مشروع القرش وقلت لهم ما رأيكم فى أن نشرع فى جهاد مستميت من أجل إعلاء كلمة الله وإنقاذ الوطن فى حدود هذا البرنامج وتلك المبادئ فإذا بإخوانى كلهم يؤمنون إيمانى .. وإذا بهم يقولون لى لو لم تقترح علينا لاقترحنا عليك وإذا بنا نتعاهد ونسجل البرنامج وقد كان

ذلك فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٣ وسرعان ما أذعنا هذا البرنامج وأعلنّاه فى جريدتنا وقد قدمت هذا البرنامج بالنداء الآتى :

يا شعب مصر الخالد : لقد حانت ساعة الجهاد ومصر الفتاة تدعوكم للإيمان ولعشر سنوات من العمل يا شعب مصر .

أيها الشعب الذى صاحب الزمن يا أمجد شعب فى الوجود وأعظمه : لقد حانت ساعة اليقظة . لقد حانت ساعة العمل . بل لقد حانت ساعة الجهاد . وهذه هى مصر الفتاة تتقدم إليك لتجاهد عنك ولتذود عن حياضك . ولترفع صوتك ولتطعم جائعك . ولتعلم جاهلك . ولترد عليك كرامتك ولتعيد إليك سابق مجدك .

يا شباب مصر :

لقد طال ما رقدنا وها نحن أولاء قد صحونا . لقد طال ما أهملنا وها نحن أولاء قد حرصنا . لقد طال صمتنا وها نحن أولاء قد تكلمنا . وإذن فليكن صوتنا داويا . ولتكن صرختنا من الأعماق . وليكن إيماننا جبارًا يدك الجبال . وليكن شعارنا مصر فوق الجميع .

إن الأجانب يغزوننا ويسدون علينا طريق الحياة ، والاحتلال قطع أوصالنا وحرمنا السودان . والأمية والجهل يخيمان على سوادنا ويملآن القلوب حسرة وظلامًا والأزمة الفتاكة تهلك الحرث والنسل وتسلبنا القوت والماء . ونحن فى كل ذلك نلهو ونتخاصم ونحارب بعضنا بعضًا حتى لقد سقطنا صرعى ووقف العدو يشاهد كل هذا باسمًا ظاهرًا فخورًا أنه تغلب على النسر المصرى بأهون سبيل .

واجب الشباب أن يصلح كل هذا وها نحن نفعل . لسنا نريد أن نتكلم كثيرًا ولكنا ندعو الشعب للإيمان بحقه وقوته وندعوه لعشر سنوات من العمل القومى لله والوطن نابذًا الخلافات الحزبية . مهملاً ما اعتاد الناس أن يسميه سياسة .

ونحن نقدم اليوم عناصر هذا الإيمان وعناصر هذا العمل برنامجًا معنويًّا زراعيًّا وتجاريًّا وصناعيًّا وعلميًّا واجتماعيًّا برنامجًا يتبسط حتى ليشمل أدق التفاصيل وما ذلك إلا ليكون السبيل واضحًا وممهدًا . وهو ليس تفكير يوم وليلة ولكنه عمل خمس سنوات قضيناها فى التحضير والدرس والإيمان . والآن وقد خرجنا إلى ميدان الجهاد فنحن نعلن رسالتنا نعلنها لك يا شعب مصر ويا شبابها دعوة بريئة مخلصة لا تتصل بشخص من الأشخاص ولا ترمى لغاية إلا إسعاد مصر ومجدها .

إنها دعوة صادرة من القلوب فلتنفذ إلى القلوب وهى صادرة من الأرواح إلى الأرواح فلا تسخروا منها إن لم تعاونوها ولا تحاربوها إن لم تمسكم بشرٍّ فهى عقيدة مخلصة مقدسة وستنتصر فى النهاية كما ينتصر كل إخلاص وإيمان . ستنتصر بالرغم مما سيوضع فى طريقها من عقبات بالرغم من القوات التى ستحاربها . بالرغم من القوات الهدامة التى ستكرس نفسها للقضاء عليها . سننتصر لأننا سنحتمل كل شىء من أجلك يا مصر . ولأننا سنضحى فى سبيلك بكل شىء يا مصر ولأننا سنموت وكلمتنا الوحيدة :

مصر فوق الجميع .

فى الميـــدان

وهكذا خرجنا إلى عالم الحياة المصرية يا حضرات المستشارين . بدعوة إلى العمل والإيمان . لم يكن فى نفسى موجدة ضد مصرى ولا فرق بين مصرى ومصرى . فقد عملت قبل ذلك فى مشروع القرش وقد اجتهدت أن أجعله مشروعًا قوميًّا لصالح المصريين جميعًا ويرتفع فوق أكتاف المصريين جميعًا ولذلك فقد وضعت شعارًا لهذا المشروع مصر فوق الجميع وبينما كانت مصر وقد انقسمت إلى عدة أقسام كنت أنا فى جهادى من أجل المشروع على صلة بكل هذه الأحزاب وكلها لم تتأخر عن مد يد المساعدة للمشروع سواء فى ذلك صدقى باشا الذى كان على رأس الحكومة وقتئذ .. أو النحاس باشا الذى كان فى خارج الحكم .

فلقد قابلت هذا وذاك والتمست المعونة من الجميع . وقدم لى المعونة الجميع على السواء فعندما بدأنا جهادنا فى مصر الفتاة لم نكن نريد إلا الخير ولم يكن فى قلوبنا إلا الرغبة فى الإصلاح كما شرحتها لكم وكنت أعتبر أن النجاح الذى لا نجاح بعده هو أن أعمل بغير أن أغضب مصريًّا واحدًا ولو أنى كنت أعرف أن ذلك مستحيل إلا أنى كنت أؤمل فيه وأتمناه ..

وفى الحق لو لم يكن الشر جزءًا من عناصر الحياة لما كان هناك معنى لأن يخاصمنى مصرى واحد وأنا الذى لا غاية ولا مطمع لى إلا سعادة المصريين والعمل لخيرهم ..

قد أكون أصغر وأهون شأنًا وأقصر باعًا من أن أحقق شيئًا من هذا البرنامج . ولكن هل يمكن أن يكون ذلك سببًا فى مخاصمتى . أشهد أن هذا غير منطقى لو كانت الحياة كلها خير .

ولكن الحياة كما قلت لكم ليس ينقصها الشر ولذلك فلم أدهش عندما علمت أن

خروجنا إلى الحياة قد أحفظ الوفديين وأغضبهم . وهم لا ينظرون إلى حركتنا بعين الرضاء والارتياح ويوجسون خيفة منها ويعتبرونها حركة مأجورة وموجهة ضدهم فقد كان الخلاف السياسي على أشده فى هذه الأيام بين الأحزاب .

وكان للوفد «عفريت» ينغص عليه حياته وهو الإبراشي باشا . وكعادة العوام والجهلاء ينسبون كل شيء غامض إلى العفاريت ولذلك فكلما اشتد الأمر على الوفد نسب الدس والوقيعة إلى الإبراشي باشا ولذلك فقد أوحى إلى النحاس باشا ساعتئذ أن مصر الفتاة هذه الحركة الجديدة هي حركة مصطنعة وموجهة ضده وأن الموعز بها هو الإبراشي باشا . وأكد الشبهة عندهم أننا اتخذنا شعار جماعتنا الله والوطن والملك .

وإذن فنحن ملكيون وذلك لا يتحقق فى ظنهم إلا إذا كنا على صلة بالإبراشي باشا .

أول سعي للتفاهم مع النحاس باشا

وعلمت أنا نبأ هذه الإشاعات التى أخذت تحوم حولنا والتى يلغط بها الوفديون ولما لم يكن فى حسابى وقتذاك أن أعادى مصريًّا واحدًا إيمانًا منى بأن كل جهد ينبغى أن يوجه نحو الكفاح الحقيقى . والكفاح الحقيقى لا يكون إلا ضد الغاصب وضد الأجنبي وضد الرذيلة . لم يكن فى برنامجي وقتذاك أن أخاصم الوفديين وأن أعاديهم ولذلك فقد اعتقدت أنه يكون من الخير أن أجتهد فى مقابلة النحاس باشا لأزيل ما علق برأسه من سوء تفاهم ، وأن أبين له كيف أن حركتنا هى حركة قومية بحتة نريد بها أن نعد جيلاً جديدًا من الشبان ، وأن نبعث فى الأمة روح الكفاح والجهاد ، وأنه كزعيم سياسي ينبغى أن يرحب وأن يغتبط بهذه الحركة الجديدة لأنه أول من يستفيد منها ويستعين بها على تحقيق برنامجه إذ لا يمكن لجماعة من الشباب أن تنافسه فى رئاسة الحكومة ولا قيادة الأمة فى ذلك التاريخ الذى بدأنا فيه . ولما كان النحاس باشا قد اعتاد مقابلتى من قبل فقد رجوته أن يحدد لى ميعادًا للمقابلة وقد سمح لى بالمقابلة ولقد كانت فى بيت الأمة ولست أذكر تاريخها بالضبط ولكنها كانت فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٣٣ .

قابلت النحاس باشا فإذا به يجابهنى بأننى دسيسة وأننى لابد أن أكون مدفوعًا من جهة من الجهات للقيام بهذا العمل . ولخص شكوكه أو بالأحرى قرائنه على ما يقول فى المال الذى نصرف منه على هذه الحركة وأرجو أن تلاحظوا يا حضرات المستشارين أننا لم نكن صرفنا شيئًا بعد . قلت له هل إذا أوقفتك يا دولة الباشا (ولم يكن إلا صاحب دولة وقتذاك) هل إذا أوقفتك على ماليتى ومصدرها وتحققت من تواضعها وسلامتها فهل هذا

يقنعك بإخلاصي وصدق طويتي فأجابني سوف نرى . فشرحت له كيف أنني عقب خروجي من كلية الحقوق سعيت للحصول على قرض من بنك مصر مقداره مائتا جنيه أستعين به على مواجهة الحياة العملية . ولقد حصلت على القرض بضمانة أحد أصدقائي بفوائد مقدارها ٩ فى المائة وفى مقابل إيداع أسهم وسندات كان يملكها صديقى هذا بمبلغ يزيد على الثلثمائة جنيه . أى أن العملية كانت عملية جافة لم يجاملنى البنك فيها بأى لون من ألوان المجاملة مع أنه سبق للبنك أن تعاون معى فى مشروع القرش فأودع عن طريقى باسم المشروع ثلاثين ألفًا من الجنيهات . وإنى يا باشا مستعد أن أقدم لك كل الأوراق الخاصة بعملية القرض هذه وأترك لك أن تتحرى عن صحتها .

مناقشة فى المبادئ

وهنا شرع الباشا يناقشنى فى صحة مبادئى والبرنامج الذى أذعته فقال إن فى هذا البرنامج مالا يتفق مع جهادنا فليس فيه نص على الدستور وهل تفضل دستور سنة ١٩٣٠ أو دستور سنة ١٩٢٣ . وفيه بعض المبادئ الخطرة التى لا أكاد أفهمها . خذ مثلاً الله التى وضعتها فى أول شعارك فلست أراها إلا شعوذة لأن وضع كلمة الله فى برنامج سياسى هى شعوذة . وقعت على هذه الكلمة وقع الصاعقة ولكنى ملكت نفسى وقلت له : ولكنك يا باشا تلخص هذه الأيام جهادك فى صلاة الجمعة فأنت ترتاد المساجد ولسنا ننسى أنك وقفت مرة فى أحد المساجد ودعوت على صدقى باشا .

ولا تنس يا باشا أن الإسلام دين لا يفرق بين الدين والسياسة فالإسلام سياسة والقول المأثور إن الدين المعاملة فالإسلام هو هو منظم الدولة . ومنظم علاقات الأفراد . وهو هو الذى ينظم لنا الكفاح وأساليبه وأخيرًا يا باشا أرجو أن تسمح لى أن أقول لك إن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه مطلقًا . ولذلك فأنا معتز بوضع كلمة الله فى مستهل جهادى . بل ولن يكون لى ناصر ولا معين إلا هذه الكلمة وبمقدار استمساكى بها بمقدار ما سيكتب لى النجاح فيما شرعت فيه .

ولست أعرف إذا كان هذا الكلام قد أثر فى صاحب الدولة أم لا ولكنه سرعان ما انتقل إلى مناقشة باقى الشعار ثم أشار إلى ما ورد فى البرنامج من إلغاء الامتيازات بجرة قلم وأن هذه سياسة انجليزية لا يوافق عليها ذلك لأن الانجليز يريدون إلغاء الامتيازات لتؤول إليهم قلت له وهذا ما لا أوافق عليه أنا أيضًا . ولا يمكن أن أكون قصدت إلى شىء من هذا أو مرَّ لى فى خاطر . وإنما نحن نريد إلغاء الامتيازات وعودة السيادة الكاملة إلى مصر والحكومة والقضاء المصرى والبرلمان المصرى . فقال لى (وأنا ما ألغيش

الامتيازات أبدًا فى هذا العصر الذى انقلب فيه كل شىء إلى فوضى . كيف والعصى توضع فى دبر المصرى ؟ تريدون أن نلغى الامتيازات لكى توضع العصى فى دبر الأجنبى أيضًا) قلت له يا باشا أما والعصى توضع فى دبر المصرى فلست أدرى والله علام نشفق على الأجنبى من هذا المصير فهو ليس أفضل من المصرى ولا يجب أن نهتم له أكثر من اهتمامنا بالمصرى .. وإذن فعلينا أن نجاهد فى سبيل هذه المظالم لا خوفًا على الأجانب ولكن حرصًا على حريتنا نحن أولاد شرفنا أولاً . وإلغاء الامتيازات على أية حال من الأحوال موضوع منقطع الصلة عن هذه المسائل التافهة والتى تحدث فى كل بلاد العالم ولم تكن على أى شكل من الأشكال سببًا فى خلق الامتيازات للأجانب .

دعـوة للحزبيـة ثم إنـذار

إلى هنا كان صاحب الدولة قد ضاق ذرعًا بمناقشتى فى كل هذه التفاصيل فرأى أن يصرح لى بما فى دخيلة نفسه وما اعتقد أنه لب الموضوع فقال لى لا يوجد فى مصر إلا راية واحدة وهى راية الوفد وكل وطنى عامل يجب أن يعمل تحت لواء الوفد فكل حركة أو كل عمل من الأعمال لا يكون تحت راية الوفد فهو لا يمكن إلا أن يكون دخيلاً على الأمة ودسيسة من الدسائس فإن كنت صادق النوايا وتريد خدمة بلادك فعلام إنشاء الجمعيات ووضع البرامج وإرسال النداءات وإذا كان كل جندى سيخرج على قائده ويؤلف لنفسه جمعية ويضع برنامجًا إذن تتشتت الجهود وعمت البلد الفوضى . فإذا كنت تريد أن تكون وطنيًا فتعال بين إخوانك الشبان فى الوفد واندمج فى صفوفهم .

قلت هذا صحيح يا باشا وقد كان بودى أن أفعل ذلك . وأن أعمل تحت لوائك كأصغر جندى ولكن لا أكاد أرى للوفد برنامجًا . ولا أرى للوفد أهدافًا فى هذه الأيام إلا الوصول إلى الحكم وأنا لا يمكن أن أكرس حياتى لهذه الغاية . ولكنى أريد أن أدعو للأخلاق وأن أدعو للدين وأن أدعو للعمل وأريد أن أكون عنيفًا فى جهادى وذلك كله على الرغم من أنه ليس من برنامج الوفد فإنى أظن أنه يسىء إلى الوفد إذا اتصف به ويباعد ما بينه وبين الحكم . لأن الحكم فى هذه البلاد لا يمكن أن تكون وسيلته إلا مصانعة قوات مختلفة سواء كانت إنجليزية أو أجنبية أو غير ذلك . وأنا أريد سياسة متحررة لا غاية لها إلا خلق روح الكفاح فى مصر .

وإنى أعتقد أن مصلحة الوفد المحققة أن توجد إلى جانبه هيئة وطنية متطرفة كيما يكون هو بالنسبة لها معتدلاً . فيفضل الإنجليز التعاون معه وإجابة مطالبه حتى لا يشجعوا

التطرف ويتحول كل الإعنات والإرهاق الذى يصب الآن على الوفد صبًّا إلى هذه الهيئة الجديدة .

قال النحاس باشا : افعل ما يحلو لك فقد أعذر من أنذر إننى سوف أعتبرك خارجًا عن الوحدة . والأمة لا ترحم الخوارج . فكل من فكر فى أن يخرج علينا فقد هدمناه هدمًا والأمة لا ترحم .

فهذا الحزب الوطنى هُدم لخروجه علينا . وهؤلاء الأحرار الدستوريون هُدموا ونسفتهم الأمة . وأعضاء الوفد الثانية لم أكد أفصلهم حتى هُدموا بدورهم . وهكذا كل من خرج على وحدة الأمة وكتلتها لا جزاء له إلا الهدم .

قلت له : يا باشا إن الهدم الذى لا يعقبه بناء غير موجب للفخر ولا يمكن أن يكون رسالة حزب من الأحزاب .

وأرجو أن تسمح لى أن أقول لك إنك إذا كنت قد نجحت فى هدم هؤلاء كما تقول فما ذلك إلا لأنهم ساعدوا على هدم أنفسهم .

أما أنا فإن ما فى نفسى من صدق وإيمان كفيل بأن لا يهدمنى مطلقًا . ولاتنس يا باشا أننى مازلت صغيرًا ولذلك فإنك عندما تشرع فى هدمك إياى فأنت بهذا تبنينى ولكن دعنا من التهديدات وأرجو أن تسمع ما أقول لك فى تأكيد وإخلاص إننى لا أحمل لأى مصرى إلا الحب والإخلاص فما بالك وأنت على رأس المصريين ولذلك فإننى أتمنى لك كل خير وتوفيق وثق يا باشا أن أى عمل صالح تدعو له أو أى حركة ترسمها ويكون فيها فائدة لمصر فسوف ترانى فى مقدمة الصفوف العاملة على ما فيه خير البلاد .

وقد ترانى يا باشا إذا ما دعوت لعمل هام فانفض من حولك كل الأنصار ، قد ترانى عندئذ مستعدا لإراقة دمى وبذل روحى من أجل خير بلادى .

وكن على ثقة أنك عند محاربتى فلن يغير ذلك من هذه النوايا وسأظل أنا كما أنا لا أحمل لك إلا كل نية طيبة .

وعندما تشتد الأزمة فيما بيننا أرجو أن تذكر دائمًا أننى سأكون مستعدًا لتلبية أى نداء صادر منك لخير هذه البلاد . وقد خرجت عقب هذه المحادثة وأنا أعرف ما بعدها ولكننى قوى الإيمان بحقى وصدق نواياى .

بدء الحملة محاربة مشروع القرش

ومن ذلك التاريخ بدأت حملة الحرب التى أعلنها الوفد ضدى ويالها من حرب شعواء يا حضرات المستشارين لم يعرف فيها قانوناً ولا قاعدة . ولم يعرف له غاية إلا هدم هذا المجاهد الناشئ وهدم كل ما يتصل به .

كنت فى ذلك العهد مازلت متصلاً بمشروع القرش فقد عملت منذ كنت طالبًا على خلق هذا المشروع وتأسيسه حتى نجحت بعون الله فى إنشاء مصنع للطرابيش وشرعت أعمل لإنشاء مصنع آخر .

وكنت أظن أن لى الحق كأى مصرى فى أن يكون لى رأى خاص فى السياسة وأن لا يحول هذا دون استمرارى فى هذا العمل القومى الذى ثبت نفعه للأمة وثبتت أهميته . ولكن الوفد لم يرض بذلك بل أخذ يندد بالمشروع وأنه انقلب إلى أداة سياسية . ولما كانت سلامة المشروع تهمنى فوق كل اعتبار آخر فقد بادرت بالاستقالة منه وأعلنت ذلك فى الجرائد وتهيأت لاستقبال حياتى الجديدة وكنت أحسب أن هذه الخطوة كافية لحماية المشروع وفاتنى أن القوم قد عزموا على القضاء على المشروع ذاته بحجة أننى كنت فيه يومًا من الأيام أو أن نجاحه يمكن أن يكون مفخرة لى ولذلك فقد دبروا للمشروع حملة شعواء فأخذوا ينعتونه أمام الأمة بأنه قد أصبح حربًا عليها وأنه قد أصبح حقلاً للدسائس وأن الخطر كل الخطر فى بقاء هذا المشروع وأن الواجب الوطنى يحتم على كل مصرى مقاطعته وتحطيمه وتألفت اللجان وتعددت الهيئات وبذل النشاط الذى لا نشاط بعده فى شل حركة المشروع وإيقافه فنجحوا لأول مرة فى حياتهم فى هدم مشروع قومى جليل ثبت نفعه للأمة وكان يتوقع من ورائه المصريون كل خير فأخذوا ينظرون إليه كعمل كريه . يصبون عليه جام غضبهم . وهكذا طويت صفحة ذلك المشروع الذى فرحت به الأمة طويلاً وأسدل الستار على مأساة سياسية لا أظن أن لها مثيلاً فى تاريخ مصر أو تاريخ النزاع الحزبى فى أى مكان آخر . ذلك أن ما للوطن يجب أن يرتفع فوق كل اعتبار وكل تقدير . وإذا كان أحمد حسين قد أساء إلى الأمة أو أساء إلى الوفد . فها هو أحمد حسين قد آثر أن يعتزل هذا العمل فعلام نصب نقمتنا على هذا العمل القومى فنلوثه كل هذا التلويث ونصوره للأمة بهذه الصورة البشعة ؟

وبعد أن فرغوا من تحطيم مشروع القرش وقد كان هذا عملاً هيِّنًا لا يستدعى بطولة خارقة فمشروع يقوم على أساس الثقة المطلقة به يكفى أن يتصدى أى كائن من كان للمساس بهذه الثقة كيما ينصرف الناس عنه ويتنكرون له وهذا هو الذى حدث .

فبعد أن جمع المشروع فى عامه الأول سبعة عشر ألفًا من الجنيهات وفى عامه الثانى ثلاثة عشر ألفًا واستطاع فى عام ونصف أن يشيد مصنعًا للطرابيش إذا به يعجز بعد هذه الخطوة عن عمل شيء . وها هو قد مضى عليه حتى الآن خمس سنوات لم يخط فيها خطوة واحدة إلى الأمام وإنى لأخشى أن أقول لكم إنه يتقهقر فقد أصبح اسمه مكروهًا من المصريين يثير فى نفوسهم إحساسات غامضة . ليست إحساسات طيبة على كل حال وهذه هى أول صفحة من صفحات جهاد الوفد ضد مصر الفتاة .

أما وقد هدم مشروع القرش فليهدم صاحبه .

تحول الوفد بعد أن اعتقد أنه قضى على المشروع وأجهز عليه . تحول كما يقضى علىَّ بدورى ويفرغ من مسألتى فأى طريق قد اختاره للوصول إلى هذه النتيجة . هو أشنع وأحط أسلوب يمكن أن يلجأ إليه فى مثل هذه الأحوال وأعنى به أسلوب الكذب والادعاء وقذف الناس بالجرائم فقد أشاعوا وأذاعوا أن أحمد حسين قد استولى من مشروع القرش على بضعة آلاف من الجنيهات وقد حصل على السيارات المطهمة وابتنى العمارات والفيلات . وراحت لجانهم وأشياعهم وأنصارهم يذيعون ذلك فى كل مكان والناس معذورة إذا صدقت فقد كانت حتى هذه اللحظة تعبد الوفد عبادة وتقدس كل ما يصدر من زعيمه من أقوال أو يفعله من حركات . وراحت المظاهرات من الرعاع تتألف ولا نداء إلا حرامى القرش . حرامى القرش . ومازال هذا النداء اللطيف يصاحبنى حتى هذه الأيام . أسمعه كلما اجتمعت شراذم من الوفديين فى دمنهور وفى الفيوم وفى أنحاء القطر . جوبهت بهذا النداء الأمر الذى يدلنى على أنه نتيجة إيحاءات منظمة صدرت من القيادة العامة .

بهذا السلاح سلاح التشهير والاتهام استطاع الوفديون أن يهدموا خصومهم هذا الهدم الذى يفتخرون به . فيكفى أن يختلف معهم شخص حتى يصبح خائنًا باع نفسه للشيطان وأى مصرى قد نسى ما قيل فى الثمانية الذين فصلوا من الوفد والذين يطلق عليهم حتى الآن اسم السبعة ونصف هؤلاء الأشخاص الذين كانوا أول من لبى داعى الوطنية والذين ساهموا فيها بأموالهم ومراكزهم . الذين غذوا الوفد بنفوذهم . الذين حكم عليهم بالإعدام فى سنة ١٩١٩ فما كان جوابهم إلا أن صاحوا نموت وتحيا مصر . هؤلاء المجاهدون الذين وقفوا هذه المواقف المشرفة بينما كان النحاس باشا والمجاهد الكبير يقبضان مرتبًا من الوفد نظير وظيفتهم فى الوفد .. هؤلاء وهذا مركزهم قد اتُهموا أمام الأمة بالخيانة والجريمة وأنهم تحالفوا مع الإنجليز . وأصبحوا براذع لهم وأنهم طعنوا الأمة من الخلف . وهل تعرفون ماذا كانت جريمتهم يا حضرات المستشارين ؟ كانت جريمتهم أنهم اعتقدوا أن تأليف وزارة قومية قد

يكون حلاً لمشاكل مصر ووزارة قومية معناها أن لا يكون النحاس باشا رئيسًا . وهذه هى الخيانة التى لا خيانة بعدها وإذن فليفصلوا من الوفد وليطردوا وليشهر بهم وليصوروا أمام الناس بأشنع الصور وأحطها . وهكذا حطم الوفد أو خيل له أنه حطم السبعة والنصف كما يقول .

وبهذا السلاح حوربت . سلاح الكذب فأشاعوا وأذاعوا هذا الذى صورته لكم ولكن سلاحهم هذه المرة كان مفلولا بل وارتد إلى أعناقهم وكان له أكبر الأثر فى نجاح دعوتى وتوطيد خطواتها الأولى .. فقد هرع الشبان يشاهدون هذا الشخص الذى يحاربه الوفد والذى اتهم بكل هذه الرذائل . جاءوا يرون السيارات والعمارات وألوف الجنيهات . فماذا رأوا . رأونا نقيم فى حجرتين صغيرتين . ورأوا رائحة الفقر تفوح من كل مكان . ورأوا صاحب المطبعة يمسك بخناقنا . وصاحب الورق يمسك بخناقنا . رأوا جماعة مجاهدة لا غذاء لها إلا أبسط الأطعمة تلك التى يتناولها العمال الفقراء . وأحسوا بمقدار الظلم وحملة الكذب التى أعلنت ضدنا فزادوا تمسكا بنا والتفافًا حول دعوتنا . ولأول مرة وجدت شبابًا يدافعون عنى بحرارة ويستميتون فى هذا الدفاع . ولأول مرة وجدت زهرة الشباب تقف إلى جوارى فى وجه هذه الافتراءات .

وهكذا ارتد هذا السلاح المسموم إلى نحورهم . وكان سببًا فى خلق عصبية لمصر الفتاة تنتصر لها كأعنف ما يكون الانتصار .

موقفى منهم

ولعله يهمكم أن تعلموا ماذا كان موقفى منهم فى هذه الأيام لعله يهمكم أن تعرفوا كيف رددت على هذه الاتهامات وهذه الافتراءات وكيف قابلت هذه الخصومة العنيفة . إذن اسمعوا . اسمعوا يا حضرات المستشارين بأى أسلوب كنت أكتب فى هذه الأيام على هذا الموقف الذى وقفه الوفد منى .

جاء فى العدد الصادر فى ١٣ يناير سنة ١٩٣٤ من جريدة الصرخة ما يأتى بالحرف الواحد :

اتقوا الله فى مشروع القرش
إنه لله والوطن

فليس مشروع القرش ملكًا لشخص من الأشخاص أو قرين شخص من الأشخاص ولكنه مشروع تملكه الأمة وهو وليد إرادة الأمة . وهو مشروع تحتاجه الأمة .

وإذا كان مشروع القرش قد اقترن يومًا باسم أحمد حسين فلم يكن ذلك إلا أمرًا عارضًا جاء نتيجة أن هذا المشروع فكرة من أفكار هذا الشخص . أما بعد ذلك فقد أصبح المشروع مشروع الشباب . أصبح المشروع مشروع الأمة بأسرها ولا فضل لأحد عليه .

وإذن فحرام والله أن يحارب مشروع القرش لأن أحمد حسين كان فيه .

حرام والله أن يهدم بناء الأمة بأسرها لأن ذكره اقترن يومًا ما بشخص من الأشخاص .

ها أنا أمامكم أيها السادة صبوا علىَّ جام غضبكم . قولوا علىَّ لصا سارقًا كاذبًا منافقًا . قولوا علىَّ صنيعة الإنجليز أو صنيعة الحكومة . أو صنيعة جهة من الجهات فإن هذا لن يضر أحدًا إلا إيّاى ولن يصاب مخلوق بشر إلا إيّاى .

أما مشروع القرش يا سادة فحرام أن تصيبوه بأذى . حرام أن تقضوا على مئات العمال الذين ينتفعون من ورائه والذين سينتفعون . حرام أن تشمتوا فينا الأعداء .

مشروع القرش يحاول الإنجليز أن يهدموه ويحاول الأجانب أن يسحقوه . فلا نهدمه نحن بأيدينا ولا نسحقه نحن بأنفسنا ثم نندب حظنا وخرابنا .

مشروع القرش أعلى الكرامة المصرية . مشروع القرش ألبس كل مصرى تاجًا فلا تخفتوا صوته ولا تحاربوه لأن أحمد حسين اتصل به يومًا من الأيام .

صدقونى إن الأشخاص ستزول وسيبقى بعد العمل النافع سأزول أنا وأموت وسيزول غيرى وسيموت وتبقى مصر حية نابضة ويبقى من الأعمال ما عمل لمصر . ومشروع القرش مفيد لمصر ولا يستطيع أحد نكران ذلك فدعوا النافع يعيش من أجل الله ومن أجل مصر . والله أكبر .. .

هذا هو الأسلوب الذى كنت أجاوبهم به فقد كنت أقابل الفحش فى الهجاء بالاستعطاف من أجل الوطن ولم أفكر مرة أن أمس شخصياتهم أو أن أهاجمهم فى أعراضهم كما كانوا يفعلون ولم يكن ذلك عجزًا منى يا حضرات المستشارين . بل كان تعففًا وترفعًا . وكنت أريد أن أعطى هؤلاء الناس درسًا جديدًا فى الخصومة الوطنية ولكن هيهات .. هيهات .. فقد مضوا فى طريقهم الذى حذقوه فلم أخسر منه شيئًا ولكن كسبت أشياء .

اسمعوا يا حضرات المستشارين هذه الفقرة التى كتبتها فى جريدة الصرخة تعليقًا على الإجهاز على مشروع القرش فى العدد الصادر فى ٢٧ يناير سنة ١٩٣٤ .

«لسنا نعادى من حاربوك يا مشروع القرش . ولكنا نسأل الله أن يهديهم الطريق

المستقيم فلابد أن يكون هناك سوء تفاهم حملهم على حربك . ذلك أن من حاربوك أشد الناس إخلاصًا لك . ذلك أن من حاربوك أول من يحزنهم فشلك . ذلك أن من حاربوك مصريون وزعماء المصريين الذين لا يرضون لعلم مصر أن ينكس ولكنه لسوء التفاهم والدس والإيقاع .

أما الآن وقد انجلت المعركة فلا شك أنهم سيدركون أن الأمر لم يكن كما حسبوه . وأن هدم مشروع القرش لا يفيد مصر .. ولا يغنى مصر .. ولكنه يزعجها .. ولكنه يقتلها قتلاً أمام الأجانب والعالم ، سنعمل إذن من أجلك وسيعملون . سنجمع لك قروشاً وسيجمعون . سنهتف باسمك وسيهتفون . سننشئ مصنع الأقمشة الصوفية وسيصفقون» .

هل رأيتم بأى أسلوب أخاطبهم وكيف أنتحل الأعذار لموقفهم الذى جنوا فيه على مصر شر الجناية . كيف أريد أن أستر موقفهم فأنسبه إلى سوء التفاهم وإلى ما دس عليهم والله يعلم أن لا دسيسة ولا سوء تفاهم ولكنها رغبة الهدم والقضاء على أحمد حسين .

لابد من سلطة تحركنا ما هى

وكان الوفد يدعى فى هذه الأثناء أننى مدفوع مدسوس للوقوف منه هذا الموقف وأننى متمتع بتأييد إحدى السلطات سواء كانت انجليزية أو حكومية أو ملكية ولكنهم لم يعرفوا بالضبط ما هى هذه السلطة ولذلك فقد فوجئوا بأن يروا الحكومة تقبض على وعلى زميلين من زملائى وترمى بنا فى السجن لمدة شهر تحقق معنا وتتعرف مرامى حركتنا وتبحث عن جذورها وأصولها . وكما شك فينا الوفد فقد شكت فينا الحكومة وطلبت من النيابة أن تضيق علينا الخناق حتى تعرف حقيقتنا منتهزة فى ذلك كتابة إحدى المقالات بمناسبة ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ولقد شرعت النيابة فى التحقيق وسهرت معنا ليالى كاملة حتى عرفت كل ما وراءنا وقُدامنا كما يقولون .

ولم يسع النيابة إلا أن تحوطنا بعطفها فلقد طلبت الحكومة منها أن توجه لنا تهمة التحريض على الثورة . وتهمة العمل على تغيير نظام الحكم وتهمة التحريض على كراهية طائفة من الناس . ولكن هذه التهم كلها تمخضت بعد شهر من التحقيق إلى تهمة تحسين المظاهرات والتحريض على الإضراب . وقد أفرج عنا بكفالة مالية فى إحدى المعارضات فتقدم أحد الوفديين ودفعها عنا على سبيل القرض .

وهكذا انجلى لكل ذى عينين أننا لا يمكن أن نكون مدفوعين من إحدى السلطات للوقوف موقفنا الذى شكا منه الوفد وإلا لحمتنا هذه السلطة وحالت بيننا وبين السجون .

ولو فرضنا وأن هذه السلطة قد تخلت عنا حتى وصل بنا الحال إلى السجن لكان من الطبيعى أننا بعد مبارحة السجن للمرة الأولى نغير مسلكنا ومنهاجنا ذلك الذى أدى بنا إلى السجن ولم نجد من يحمينا أو يرعانا . ولكنا ظللنا فى خطتنا وزدنا إصرارًا عليها فكانت النتيجة أنه لم يمض شهر واحد على خروجى من السجن للمرة الأولى حتى اعتقلت ثانية بسبب تحقيق جديد وزج بى إلى السجن شهرًا جديدًا فى قضية الجيش المضمومة إلى إحدى القضايا التى تنظرونها والتى سأعود إليها بالتفصيل عند النظر فى موضوعها وقد توالت بعد ذلك سلسلة اعتقالات حتى بلغ رؤساء مصر الفتاة المعتقلون فى السجن فى أحد الأيام ستة أشخاص كان فيهم رئيس مصر الفتاة وسكرتيرها ومساعد السكرتير . واعتقل أعضاء مصر الفتاة جماعات جماعات وقدموا للمحاكمات المختلفة . وفتشت بيوتنا وأرهق أقاربنا واعتدى علينا رجال البوليس .

وفى مرة من المرات كنت معتزمًا إلقاء محاضرة فى الإسكندرية فإذا البوليس يترصد لى ويعتدى عليَّ بالضرب أشنع اعتداء حتى أصابنى بعدة جراحات ثم قبض علينا بتهمة التظاهر والتجمهر وأودعنا فى السجن . حتى إذا ما جاء دور المرافعة عنا فى هذه القضية تصدى بعض المحامين من الوفديين فى الإسكندرية للدفاع عنا وعلى رأسهم الأستاذ عبد الفتاح الطويل وكيل القصر البرلمانى وحُكِم علينا بغرامة اشترك فيها حضرته فى دفع جزء من هذه الغرامة كما اشترك فى دفع جزء آخر الأستاذ حسن سرور المحامى وعضو مجلس النواب الوفدى .

ولقد فعلوا ما فعلوا ووقفوا منا هذا الموقف لأنهم لمسوا بأيديهم مقدار الظلم الصارخ الذى كنا محلاً له ومقدار الإيمان الذى يملأ صدورنا والجهد الذى نبذله من أجل بلادنا . وهكذا كان كل وفدى يقترب منا أو تتاح له فرصة محادثتنا لا يستطيع إلا أن يشهد بإخلاصنا وأن يعطف علينا وأن يمتهن ما يحوطنا به من إشاعات .

قضينا ختام سنة ١٩٣٣ وطوال عام ١٩٣٤ ونحن فى اضطهاد دائم من حكومة هذا الزمان . كنا نجلس إلى موائد الطعام لنأكل فلا نكاد نتم الأكل حتى نقاد إلى السجن وكنا نفتش وكانت جرائدنا تصادر ولم يصرح لنا باجتماع واحد . وكنا مراقبين فى كل ما نفعل وما نقول حتى آمنت الأمة بأننا مظلومون فيما رُمينا به من تهم وإنَّا جديرون بكل عطف ورعاية فانتشرت دعوة مصر الفتاة فى كل مكان وأقبل الشباب على الانضواء تحت لوائها فى حماسة وإكبار ونظر الجميع إلى مصر الفتاة نظرتهم إلى حركة باسلة طاهرة لتحقيق أغراض البلاد عن طريق الإيمان والعمل والتضحية فهل كان لذلك كله شىء من الأثر فى تغيير

اعتقاد رؤساء الوفد فيها وأخصهم مصطفى باشا النحاس . اللهم لا .. بل على العكس زاده نجاحُنا حقدًا علينا ورغبة فى القضاء علينا أكثر وأكثر وهذا أول ما جعلنى أعتقد أن النحاس باشا مغرض فى هجومه علينا وأنه ليس حسن القصد مطلقًا فى محاولته القضاء علينا .

ذلك أننا أثبتنا بأعمالنا وتصرفاتنا وما وقع علينا من اضطهاد .. أثبتنا أننا نحن الشباب العامل المجد . أثبتنا أننا لسنا مدفوعين إلا بعاطفة واحدة وهى عاطفة الوطنية الصحيحة وأن لا غاية لنا إلا ما يطمع فيه كل مصرى من سعادة وطنه وتحريره وأننا نزيد على غيرنا من الوطنيين بأننا أصبحنا أكثر تعرضًا للمخاطر والاضطهادات وهى لا تزيدنا إلا إصرارًا وعزمًا .

ورغم تعنتهم لم نغير مسلكنا حيالهم

ولكن ذلك كله لم يكن بشفيع لنا عند صاحب المقام الرفيع فظلت الخصومة على أشدها وظلت الطعنات توجه إلينا بالباطل فهل غيَّر ذلك من نظرتنا للنحاس باشا وهل قابلنا الهجوم بعدوان مثله .. كلا والله يا حضرات المستشارين بل ظللت إذا ما ذكرت اسم النحاس باشا أذكره محوطًا بالإكرام والتبجيل مهما كنت ناقدًا له أو ملاحظًا عليه . وإنى أعرض عليكم مثالاً من نقدى للنحاس باشا فى هذه الأيام لتعلموا أى إسلوب هذا الذى كنت أنتهجه معه ولتعرفوا فى النهاية عندما يصل إليكم فى هذه الأيام أننى لم أهاجم النحاس باشا هذا الهجوم العنيف الذى هجمته عليه إلا بعد أن ثبت لدىَّ بالدليل القاطع أن لا علاج للنحاس باشا غير الإقصاء أخيرًا عن السياسة المصرية لإنقاذ مصر من تصرفاته .

حدث مرة يا حضرات المستشارين وكان ذلك فى أبريل سنة ١٩٣٤ أن ظهرت إعلانات ماجنة ملأت الشوارع . إعلانًا عن صالة بديعة مصابنى ومعلوم أن هذه الدار إحدى دور اللهو الحرام التى تنخر فى عظام الأمة وتردى أخلاق أبنائها فى الهاوية .. معلوم أن هذه الصالة وأمثالها هى وكر الموبقات والرذيلة وهى مصدر انحلال الأمة وعارها ومع ذلك فإن هذا لم يمنع أن صدرت هذه الإعلانات وهى تحمل بالخط العريض اسم صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا كراعٍ لإحدى الحفلات .

ولقد فزعت لهذا الأمر ورأيت فيه مظهرًا جديدًا من مظاهر الإفلاس والتدهور الشائن فكتبت مقالاً فى الصرخة فى ١٤ أبريل سنة ١٩٣٤ جاء فيه ما يأتى :

حول ذكر اسم دولة النحاس باشا فى الإعلانات

«دار بديعة مصابنى هذه تعلن مصر الفتاة عليها الحرب حربًا معنوية لا هوادة فيها

ولا لين فما روعنا أكثر ما روعنا إلا أن شوارع العاصمة وصفحات الجرائد تضم إعلانات تقرن فيها اسم دولة النحاس باشا زعيم الأمة إلى اسم هذه الراقصة الرشيقة ما راعنا أكثر ما راعنا إلا أن تقترن هذه الدار القذرة بأطهر اسم فى البلاد وأقدسه . ترى ما الذى حدث فى الدنيا وما الذى وقع هل تبدلت السماء غير السماء وهل تبدلت الأرض غير الأرض .. أم مصطفى النحاس ذلك الاسم الداوى الذى اقترن بسيشل وعدن واقترن بالدستور والاستقلال هذا الاسم الذى تتمثل فيه كرامة أمة بأسرها .. يقترن باسم راقصة !

من هذا الذى أساء إلى الأمة وطعنها هذه الطعنة النجلاء فحرر هذه الإعلانات وملأ بها شوارع العاصمة . من هذا الوغد الذى دس هذه الدسيسة فحمل الناس على الاعتقاد أن هذا العمل يلقى التشجيع من زعيم الأمة وهو عمل جدير بلعنة كل مسلم ومصطفى النحاس باشا ليس مسلمًا عاديا ولكنه زعيم أمة مسلمة .

فى الواقع أن هذه المسألة يجب أن تكون محلا لتحقيق دقيق فقد يكون خبر هذه الإعلانات لم يصل إلى دولة الرئيس وهو الذى لا يسير فى الطرقات وربما كان بعض بطانته هو المسئول عن كل هذا وعلى كل حال فيجب استنكار هذا العمل .. لأنه يمس أمة بأسرها ..» انتهى ما جاء فى المقال .

لماذا آثرت محاسنة الوفد رغم عدائه

وهنا يجب أن نقف قليلاً يا حضرات المستشارين لأحدثكم عن السبب الذى جعلنى أقف من النحاس باشا هذا الموقف فى هذه الأيام فلا أذكره إلا محوطًا بعبارات التبجيل وشارات الاحترام . لماذا أنعت النحاس باشا بالزعيم ولماذا أنعته بالرئيس الجليل والطهر مع أنه كان من ناحيته لا يتورع عن قذفى بكل خطيئة ومحرجة .

كان لذلك عدة دوافع أرجو أن تسمحوا لى بأن أسردها عليكم ..

أما الدافع الأول فهو أخذى بما دعا إليه الرسول والقرآن يقول : «ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» .

فسنة الإسلام تدعونا أن لا نقابل الإساءة بالإساءة .. وأن نجتهد فى مقابلتها بالإحسان فإن ذلك قد يكون دواء ناجعًا وشفاء من الأحقاد والخصومات .

كنت أقول فى نفسى من يدرى ربما إذا رددت على النحاس باشا اليوم سبابًا بسباب وطعنًا بطعن فقد تأتى ساعة يحتاج فيها الوطن إلى أن نقف صفا واحدًا لمجابهة العدو المشترك .

فماذا يكون الحال وقتئذ إذا كان كل منا قد آلم الآخر إلى أبعد مدى وجرحه فى عمق بحيث لا أمل فى التئام الجروح . لابد أن يكون تعاوننا ساعتئذ مبنيا على نفاق ورياء أما إذا احتفظت بلسانى عفًّا ، ولم أجرح النحاس باشا فى كرامته . فسوف أستطيع فى أى يوم من الأيام أن أتعاون معه إذا لزم الأمر لمصلحة بلادى من غير أن يرى فى نفسه ضغنًا من ناحيتى أو ألمًا . وأما فيما يختص بى فإنى واثق من نفسى سلفًا وأن سباب النحاس باشا وشتائمه وخصوماته لن يكون لها فى نفسى أى أثر إذا ما دعا الداعى لتعاونى معه .

وهذا هو الدافع الأول الذى كان يحملنى على أن أقف من النحاس باشا هذا الموقف . فلا أناله بأذى فى مقالاتى ولا أذكره إلا فى عبارات المجاملة والرعاية .

دافع آخر - الوفد يمثل المقاومة فى الأمة

على أن ثمة دافعًا آخر لم يكن يقل عن هذا الدافع الأول وهو موقف النحاس باشا من الإنجليز ومن الدستور ومن الأمة . فقد كان النحاس باشا وهو فى خارج الحكم يمثل قوة المقاومة فى الأمة وطموحها لاستقلالها وحريتها .

حقا لم أكن أشك لحظة فى أن النحاس باشا لا يهمه من الجهاد والكفاح إلا الوصول إلى الحكم .

ولكن الذى لا شك فيه أيضًا أن الأمة لم تكن تعرف فيه ذلك بل كانت ترمز به إلى أمانيها وكفاحها .

والإنجليز من ناحيتها كانت تنظر إلى النحاس باشا باعتباره إرادة الأمة فى أن تحيا حياة أكثر حرية واستقلالاً .

وإذن فالنحاس باشا فى موضع عزيز من الأمة وأمانيها فلم يكن من الخير فى هذا الوقت أن نهاجمه وأن نصوره بصورته الحقيقية ، إذ لم يكن ذلك فى مصلحة أحد وليس فى مصلحة الجهاد بصفة خاصة .

وكنت أردد دائمًا للمتصلين بى فى هذه الأيام والذين كانوا يثورون على الوفد ويطلبون منى العمل صراحة على هدمه . كنت أقول لهم ليس من المصلحة فى شىء أن نهدم الوفد من غير أن نقدم للأمة محورًا جديدًا لجهادها . وهدم الوفد فى هذه الأيام يسىء إلى مصر أكثر مما يسىء إلى أى شخص آخر لأن الوفد هو عقيدة الأمة وهو أمانيها وهو آمالها فكل تحطيم له إنما هو تحطيم لهذه الآمال وهذه الأمانى . فعلينا أولاً أن نحول هذه الأمانى والآمال إلى محور آخر نتعلق به .

فإذا حدث ذلك فقد أصبح النحاس باشا ومن معه أشخاصًا لا يمثلون إلا أنفسهم وعندئذ يكونون هم أول من يهدم نفسه بنفسه ولا تخسر الأمة عندئذ شيئًا فليس الأشخاص شيئًا يذكر فى حياة الأمم لأنهم يفنون أما هى فتبقى دائمًا أبدًا .

دافع ثالث

وثمة دافع ثالث كان يدفعنى للوقوف من الوفد هذا الموقف هو رغبتى فى أن أعطى مثلاً طيِّبًا للخصومات الحزبية وكيف يجب أن تكون ، فالحزب لا يهاجم الحزب إلا بمقدار ما يكون فى هذا الهجوم من مصلحة للوطن المشترك لا لمجرد إطفاء الشهوات والأحقاد الشخصية .

كان الوفد ورجاله يعملون ضدى ولكنى فى جهادى من أجل مصر وقتذاك لم أكن أشعر بضرورة لمهاجمة الوفد ورئيسه مهاجمة شديدة . لقد كنت أريد أن أجمع حولى شبابًا قويًّا يقدر الرجولة ويفهم معنى التضحية .

كنت أريد أن أنفث فى صفوف الشباب روحًا جديدة من الإيمان والعزم والكفاح وقد كنت أحقق هذه الأغراض بغير حاجة للهجوم على الوفد وكنت أقوم بعملى إلى جوار الوفد ولذلك فلم أكن أحفل بشتائمه لأنها لم تُحِل بينى وبين أداء واجبى وإذن فلم أكن أرغب فى إهدار مجهودى فيما لا يفيد بلادى وقتئذ .

وليس أدل على ذلك من هذا التصريح الذى نشرته فى العدد الصادر فى ٩ يوليو سنة ١٩٣٤ إلى رجال الوفد وزعمائه وفيه أحدد موقفى منهم فقلت بالحرف الواحد :

(يسألنا الكثيرون فى أنحاء مصر لماذا لا ننضم تحت راية الوفد والمبادئ متحدة ويحملوننا مسئولية العمل على انفراد وأنا أصرح هنا باسم جمعية مصر الفتاة وباسمى الشخصى أننا لا نحمل للوفد ولزعيمه إلا كل حب واحترام وأننا نرى فيه الهيئة الوحيدة التى عملت منذ نشأتها بإيمان وإخلاص للقضية المصرية وأنه يتمثل فى الوفد اليوم كل جهاد الأمة البرىء ..

لكن للوفد اليوم خطط سياسية لا نفهمها ونحن نرى أن لابد من الكفاح المتواصل ولابد من التضحية المستمرة . نحن نرى أن لابد من أن نخلع عن أنفسنا رداء الخوف وأن نتقدم إلى الإمام فى جرأة وشجاعة لكى نعيد لمصر حريتها المسلوبة . ونحقق لها استقلالها الكامل .

نحن نرى أن الساعة قد حانت لتنظيم الصفوف وإيجاد قوة مادية تسهر على حماية الأمة وتحقيق برنامجها وهذا هو ما نفعله فى مصر الفتاة . فليشرع الوفد يعمل من جديد . فليعلن

خطة الكفاح المستميت . فليعلن الحرب على الخوف وليدع للتضحية ولتنظيم الصفوف لخلق القوة فى نفوس الشباب نكن أول من ينضوى تحت لوائه ونكن لجنة من لجانه . أما أنا فإنى سأكون أسعد المصريين طرا يوم أن أعمل كجندى بسيط فى جيش مصر الظافر جيش مصر الذى سيسطر استقلالها بما يبذله من دم وتضحية والذى سيحقق مجدها بما يملأ به نفسه من إيمان وعقيدة » .

وهكذا مضيت فى طريقى الذى رسمته لنفسى أن أقابل الإساءة بالإحسان وأبدى رأيى برفق لا أبغى من ورائه إلا الإصلاح والله يعلم أننى كنت أول من يرحب بإصلاح هؤلاء الناس . فإن إخلاصى لوطنى وإيمانى جعلانى أتمنى أن يصلحوا فيكون فى صلاحهم خير كبير لمصر لأنهم كانوا مسيطرين على أزمة الرأى العام فعلا والشعب يحمل لهم تقديسًا لا أول له ولا آخر ولذلك فإن صلاحهم كان من شأنه أن يفيد مصر فائدة عظمى .

مصر فى ختام سنة ١٩٣٤

وليس فى نيتى أن أتلو عليكم كل ما وجه إلىَّ من هجوم وما رددت عليه برفق واحترام ، ولكنى أنتقل بكم سريعًا إلى قبيل ختام سنة ١٩٣٤ أى فى نوفمبر من السنة المذكورة كيما نستعرض الأحداث السياسية التى كانت تجرى فى هذه الأيام وماذا كان موقفنا منها وموقف الوفد منها ومنا . فى هذا التاريخ يا حضرات المستشارين كان صاحب الجلالة الملك الراحل قد مرض هذا المرض الخطير وانتهز الإنجليز هذه الفرصة كيما يبسطوا نفوذهم على مصر ويحطموا من مظهر استقلالها كل ما أمكن . فأخذوا يتحدثون عن الوصاية والرفادة وعن عدم صلاحية الملك للحكم وعما أصاب قواه العقلية .

وأخذ المندوب الإنجليزى وقتذاك ولم يكن إلا موظفًا صغيرًا وهو المستر بترسون يأمر وينهى ويهدد ويتوعد وأحس المصريون جميعًا بأن العرش فى أزمة خطيرة والإنجليز ينتهزون فرصة كراهة الأمة للوزارة التى كانت موجودة وقتذاك لينتقصوا من حقوق العرش ويفرضوا عليه إرادتهم . وقد كان من الجلى الواضح أن موقف القصر فى ذلك الوقت أضعف ما يكون فالأمة كانت تغلى ضد النظام القائم وقتذاك فعواطفها أبعد ما تكون عن سياسة القصر والذود عنها تلك السياسة التى كانت تتلخص وقتذاك فى سعادة الإبراشى باشا والذى كانت الإشاعات متواترة وقتذاك أنه هو المسئول الأول والأخير عن هذه السياسة التى انتهجها القصر فى هذه الأيام ، ولم تكن هذه السياسة حائزة على عطف الأمة ولذلك فقد وقفت الأمة فى موقف سلبى عندما شرعت الإنجليز تضغط على القصر وتحاول إملاء إرادتها . وقف المصريون أو بالأحرى الوفديون وقفة غير مشرفة لأنهم فى سبيل غايتهم

الشخصية نسوا الغايات العامة التى يجب أن تسمو فوق كل اعتبار والتى تجعل من ذات الملك ممثلاً لمصر بأسرها فكل مساس به من الإنجليز هو عدوان على مصر وكرامتها واستقلالها .

الملك بشعبه . ترشيح الوفد للحكم

ولقد أعملت الفكر فى هذه الأيام لأجد مخرجًا من هذا المأزق فهدانى التفكير إلى أن خير حل يستطيع به جلالة الملك أن يحافظ به على سيادته التى هى سيادة مصر بأسرها أن يتخلى عن حماية النظام القائم ساعتئذ وأن يدعو ممثلى الأمة من الوفديين ليتسلموا زمام الحكم كيما تقف الأمة صفًا واحدًا فى مواجهة الإنجليز .

ولقد أعددت رسالة بهذا المعنى لترفع إلى جلالة الملك وقد أعددتها وحملتها بنفسى إلى الإسكندرية ، وسلمتها لوكيل الديوان الملكى ورجوته أن يعرضها على جلالة الملك . ولقد فعل وجاءتنى بعد ذلك كلمة شكر من صاحب الدولة زيور باشا بعد أن أصبح رئيسًا للديوان الملكى .

وإليكم الآن آخر فقرة وردت فى هذا الخطاب .

«عرشكم يا مولاى لا يحميه إلا الشعب وعرشكم يا مولاى من الشعب وللشعب فأتيحوا الفرصة للشعب كيما يحميه بدمه وبكل ما يملك فلتصدر إرادتكم السنية بإقالة هذه الوزارة واندبوا نواب الشعب لحكم البلاد .. اندبوا نواب الشعب يا مولاى فى شخص ممثليه من رجال الوفد لتولى الوزارة فهو وحده الذى يستطيع أن يُوقف الإنجليز عند حدهم . هو وحده يا مولاى لأنه زعيم الشعب الذى يستطيع أن يخيف الإنجليز وأن يشعرها أن دون المساس باستقلال مصر ودستور مصر ثورات وحروب وويلات .

مــولاى :

باسم مصر كلها التى تفدى عرشكم ، باسم الشباب الذى أتشرف برئاسته أضرع إلى جلالتكم من أعماق قلبى أن تعيدوا الوفد إلى الحكم ليرد إلى هذه البلاد السلام والحرية . ليرد إلى هذه البلاد دستورها وحيويتها . وليخلق منها كلها كتلة متراصة تدعم عرشكم المقدس وتحمى استقلال مصر وكرامة مصر

مــولاى :

لم أكتب ما كتبت بدافع حزبى ولكن دفعنى إليه إخلاصٌ لا حد له لعرشكم ولشخص

جلالتكم الكريم . وألمٌ شديدٌ لما وصلت إليه مصر من التدهور والانحطاط فى عهد هذه الحكومة الحاضرة والتى سبقتها .

ولست أعرف ماذا سيكون نصيب خطابى هذا إلى جلالتكم وأغلب ظنى أنه سيثير سخط بعض الأشخاص فلا يوصلونه إلى مسامع جلالتكم .. بل قد يُوقفوننى موقف المحاكمة .. ولكنى قد أديت واجبى والحياة فى نظرى هى القيام بالواجب .. ولن تكون محاكمتى إذا فكرت الحكومة فى محاكمتى إلا فرصة جديدة أعلن بها إخلاصى لسدتكم العلية ورغبة الشعب القوية فى التخلص من هذه الوزارة .. وآخر ما أختتم به هذا الخطاب أن أهتف من أعماق قلبى فى إخلاص وإيمان (عاش الملك ليحيى الملك)

عبدكم المطيع

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

قدمت هذه العريضة فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٤ ولم يكن أمرها مجهولاً فقد أشارت إليها الجرائد ونشرتها عن بكرة أبيها .. ونشرتها جريدة الأهرام بصفة خاصة فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ ونشرتها جريدة الصرخة لسان حال مصر الفتاة وكان لها فى ذلك الوقت ضجة وأية ضجة . فقد ظن بعض الناس أن مصر الفتاة قد أصبحت وفدية أو تفاهمت مع الوفد . وأشاع الناس وأذاعوا أن أحمد حسين قد تصالح مع النحاس باشا وانضم إليه ..

والواقع يا حضرات المستشارين أن شيئًا من ذلك لم يقع فقد كنت محتفظًا برأيى فى الوفد ولكن طبيعة الموقف وإخلاصى لبلادى ومليكى هما اللذان حملانى على الاعتقاد أن لا علاج للموقف وحماية العرش إلا بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ وندب الوفد للحكم وقد تجلت أهمية هذا العلاج عندما صرح جلالة الملك لنسيم باشا فى رغبته فى إعادة دستور سنة ١٩٢٣ سريعًا وإجراء انتخابات عامة فقد وقعت هذه الإرادة على إنجلترا وقع الصاعقة ..

وقد خرج جلالة الملك بهذه الضربة فائزًا على انجلترا حتى لقد أطلقوا على تصريح جلالته أنه ضربة معلم . وكل الخطوات الموفقة التى تتابعت بعد ذلك كانت نتيجة لموقف جلالته من الشعب . ولذلك فإن جلالته فارق الدنيا بعد أن ترك فى نفوس شعبه أعمق الأثر .. واليوم لا يوجد مصرى واحد لا يبكى جلالته ولا يرثى أيامه .. وانتصر جلالة الملك فى أيامه الأخيرة هذا الانتصار الذى كان يستحقه بحق . وهو يرقد الآن فى هدوء وراحة بعد أن أدى واجبه العظيم نحو شعبه وأرواح ستة عشر مليونًا من المصريين . تترحم عليه بين حين وآخر فى عطف وإكبار .

وهذه هى النتائج التى كنت ألحظها عندما كتبت هذه العريضة لجلالة الملك . فدفعتنى المصلحة العامة إلى أن أدعو لتولى الوفد مقاليد الحكم .. مع أن الوفد هو هو الذى شهّر بى وحاربنى .. ولقد كنت واثقًا أنه سيشهر بى أكثر وأكثر عندما يلى الحكم ذلك لأنى أعرف أن الخصومة الكائنة بيننا هى خصومة قائمة على الأثرة والأنانية لا أكثر ولا أقل . ويوم أن يرى الوفد السلطان فى يده فأول ما سيفعله هو أن يمحق مصر الفتاة من الوجود وعلى الرغم من ذلك فضلت أن يعتلى الحكم ويفعل بنا ما يفعل ما دام أن هذا هو العلاج الوحيد لإنقاذ مصر والعرش من تدخل الإنجليز وسيطرتهم .

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

وقد كان مؤدى العريضة التى قدمتها لجلالة الملك إقالة الوزارة التى كانت فى الحكم ساعتئذ وهى وزارة عبد الفتاح باشا يحيى وإلغاء دستور سنة ١٩٣٠ وإبعاد صاحب السعادة زكى باشا الإبراشى عن السراى . وأن يعيد الوفد إلى الحكم بصفته ممثل الشعب والأمة ..

فهل تعرفون ماذا كان رد الوفديين على هذه العريضة التى وقفنا منهم فيها هذا الموقف .. إذن اسمعوا .. اسمعوا يا حضرات المستشارين وحاولوا أن تتمالكوا أعصابكم إزاء هذا الجحود والافتراء الذين عوملت بهما مكافأة لى على هذه الخطوة .

قلت لكم إننى تقدمت بهذه العريضة فى أول نوفمبر لجلالة الملك .. وفى ١١ نوفمبر أى بعد أسبوع من نشر هذه العريضة وإذاعتها على الناس خرجت علينا جريدة الجهاد بمقال رئيسى تعلق به على الموقف الحاضر تحت عنوان «عرق الدسائس لا يزال ينبض — آلات الإبراشى باشا» .

وقد حشت هذا المقال بالمطاعن فى الإبراشى باشا وأعوانه وآلاته وأخذت تعدد أنواع الحركات التى يديرها الإبراشى باشا ويحركها .. حتى أشارت إلى مصر الفتاة بما يأتى :

«ولا يخفى أن الرؤساء المشرفين على هذه الجماعات أناس حكوميون لا يستطيعون أن يتعرضوا لبعض المناوشات السياسية التى يخاف الإبراشى وأتباعه من عواقب التحريض عليها ولا يخفى أيضًا أن الإبراشى لن يستغنى عن تلك المناوشات السياسية فى مصادماته بين الأحزاب واستدراجه للعناصر المتطرفة من الشباب فالحاجة إذن ماسة إلى جماعة أخرى تصنع هذه الجماعات وتتوسل بالتطرف المكذوب إلى اجتذاب الشبان المخلصين حقاً فى خدمة الوطن والسعى الحثيث إلى خلاصه .

ولهذا ظهرت هذه الجماعة الملفقة وظهرت لها صحيفة أسبوعية تصدر فى كل أسبوع ولا تنقطع عن الظهور مع كسادها وإعراض الناس عنها وكثرة النفقات التى يستدعيها طبع الصحيفة وتحريرها وإدارتها . وليس فى الوسع أن تسند هذه الجماعة إلى أناس بارزين مسئولين فلا بأس إذن بإسنادها إلى أفراد من أصحاب الحركات البهلوانية الذين راحوا يعولون ويضجون ويحتدمون بالحماسة المصطنعة على حين غرة كأنما مسهم من جنون الوطنية شيطان ما بين عشية وضحاها ، وخيل لهؤلاء البهلوانات أنهم يكسبون الثقة المنشودة بالمخاطرة السطحية التى لم تصبهم قط بأضرار حقيقية أو لم ينلهم من جرائهم شىء مما ينال الخصوم الحقيقيين ولو أنهم أصيبوا بأعظم الأخطار لما كانت هذه المصائب الموقوفة إلا ثمنًا رخيصًا جدًّا فى جانب المنافع المنظورة والمطلب الجسيم الذى يطلبونه لمن يسخرونهم ويدفعون بهم إلى الميدان ونعنى به مطلب السيطرة على عقول الناس» .

وهكذا يا حضرات المستشارين صوروا ما كنا نلقاه من حبس واعتقال وضرب وإيذاء بأنها مخاطرات سطحية وأعمال مسرحية ، وصورونا نحن الذين تقدمنا لجلالة الملك نطلب منه إسدال الستار على العهد الذى كان موجودًا ساعتئذ ورفع الوفد إلى منصة الحكم . لم نكن فى ذلك الوقت إلا أذنابًا للإبراشى باشا مدفوعين بدسائسه وسياسته .

احكموا بيننا وبينهم

احكموا يا حضرات المستشارين على هذا الموقف وقدروا إلى أى حد كنا مظلومين مع هؤلاء الناس وإلى أى حد كنا محل اعتداء دائم منهم . قارنوا يا حضرات المستشارين بين موقفنا وموقفهم . بين خطتنا وخطتهم . احكموا إلى أى حد كنا نحكم المصلحة العامة إلى أى حد كنا ننسى أنفسنا من أجل بلادنا ثم احكموا إلى أى حد كانت تسيرهم الشهوات والأغراض . احكموا يا حضرات المستشارين إلى أى حد كنا شرفاء فى خصومتنا فلم نؤذ أحدًا ولم نجرح أحدًا ثم احكموا عليهم إلى أى حد اصطنعوا الكذب والاختلاق فى خصومتنا .

احكموا يا حضرات المستشارين إلى أى حد كنا نتخير من الألفاظ ما يفيض احترامًا لهم واحكموا عليهم إلى أى حد كانوا يمعنون فى الإفحاش والسباب إذا ما ذكرنا على ألسنتهم .

لماذا اتهمنا بأنا صنائع الإبراشى

حتى هذا التاريخ كان اتهام سرقة مشروع القرش قد أصبح سخيفًا ومبتذلاً ولم يعد له من أثر فى الأمة وشوهد أن مصر الفتاة قد ثبتت أقدامها وأنها فى كل يوم تنتقل من نصر إلى نصر . ومما قضى على أكذوبة مشروع القرش وجعلها عارًا على قائليها ومبتكريها أن مشروع القرش كان قد آل إلى الوفد فى هذه الأيام فاستولى عليه أقارب صاحب المقام الرفيع ومكرم باشا ودخل إلى مجلس إدارته أعضاء من صميم الوفديين ثم أشرفوا على الاكتتابات فهل تعرفون كم جمعوا من الجنيهات ؟ لقد جمعوا ثلاثة آلاف لا تزيد مليمًا فعجب الناس لهذا السارق الذى جمع فى عام سبعة عشر ألفًا من الجنيهات وفى عام آخر ثلاثة عشر ألفًا من الجنيهات ولم يكن مصنع الطرابيش فى عالم الوجود فبعد أن تجسد المشروع وظهرت مزاياه إذا بهم لا يجمعون إلا ثلاثة آلاف من الجنيهات بعد أن أصبح المشروع وفديًا نحاسيًا دمًا ولحمًا وعظمًا وأخذت نداءات النحاس باشا تترى فى الدعوة له . وهكذا انتصرت مصر الفتاة وخرجت من هذا الاتهام مرفوعة الرأس موفورة الكرامة وأقبلت جموع الشباب على مصر الفتاة والتفت حول لوائها فلم يكن هناك مناص من اتهام جديد تقذف به مصر الفتاة لينفض الناس من حولها فكانت هذه التهمة الجديدة تهمة أننا أذناب وصنائع ودساسون . وراح الدعاة فى أنحاء القطر يروجون لهذه الإشاعة حتى استقرت فى نفوس البسطاء وجرت عندهم مجرى العقيدة وصدقونى إن الإشاعة لم تقف عند صفوف الوفديين بل تعدتهم إلى أشخاص من خصوم الوفد . وأشخاص على الحياد . كل هؤلاء تأثروا بدورهم واعتقدوا أننا حقا وصدقًا وعدلاً أذناب الإبراشى .

حتى هذا لم يغير مسلكنا

بقى أن تعرفوا ماذا كان أثر هذا الاتهام الجديد فى موقفنا من الوفد . وهل دفعنا الظلم الذى يعاملنا به إلى الخروج عن جادة الصواب والمصلحة العامة . .

قيل عنا هذا الكلام فى شهر نوفمبر وفى ديسمبر أتاحت لى الوزارة القائمة ساعتئذ أن أخطب فى اجتماع عام فاسمعوا يا حضرات المستشارين آخر ما قلته فى خطابى الذى ألقيته وقتذاك :

«ولست أريد أن أغادر هذا المنبر قبل أن أحدد علاقة جماعتنا بالوفد ذلك أن البعض منكم يريد أن يسأل هذا السؤال أو أن يعرض به . فأقول لكم إننا لا نعادى مصريًا واحدًا بل نحن نحب الجميع لأننا أول من يدعو إلى الاتحاد والتكاتف ونحن على استعداد

أن نعمل تحت راية الوفد فى حدود هذه المبادئ وبهذه الوسائل التى نعمل بها .

وهكذا ترون أيها السادة أن كل ما تسمعوه من أننا نخالف الوفد . أو أننا أعداء له فنحن براء من هذه التهمة وإننا نمد أيدينا تحت لوائه وكل الذى يهمنا هو تنفيذ هذه المبادئ واتباع هذا الطريق . فنحن نريد وطنية عاملة تعتمد على التضحية أولاً وأخيرًا . ونحن لا نؤمن بأن الاستقلال يمكن أن يشحذ . ذلك أن الاستقلال كما قال المرحوم الملك فيصل يؤخذ ولا يعطى وما دام الأمر كذلك فنحن نعمل للحصول على القوة اللازمة لإدراك الاستقلال . وهذا هو برنامجنا . نحن بعد ذلك ننظم الشعب الذى ينضم لنا ونملأه رجولة وخشونة ووطنية ونؤلف منه جيوشًا منظمة ليس لها إلا هتاف واحد وهو الله أكبر والمجد لمصر .

«كونوا إذن خارج حظيرة مصر الفتاة إن أردتم واعملوا بمبادئها . أو ادخلوا إلى حظيرتها إن كنتم على استعداد للتضحية والجهاد هذا هو آخر ما أقوله لكم . فإذا كنت قد ظفرت فى نهاية هذا الاجتماع بأن أقنعت واحدًا منكم أن يجاهد من أجل مصر وأن يفنى فى سبيلها فإنى أعد نفسى قد قمت برسالتى وأستطيع أن آوى إلى فراشى فى هذه الليلة وأنا مطمئن إلى أننى أديت واجبى نحو مصر وذلك هو مبدأنا السادس» .

خصومة تعبر البحار فى لندن

تتابعت على مصر بعد ذلك أحداث جسام يا حضرات المستشارين وكان اعتراض السير صمويل هور على الدستور بعد أن أعلن جلالة الملك أن أعز أمانيه أن يعود الدستور وقد كانت هذه أمنية الشعب فى نفس الوقت ، وإذن فقد كان من المحتم أن يعود الدستور لأن الدستور من أخص المسائل الداخلية فلما أعترض السير صمويل هور على عودة الدستور اعتراضه المشهور قامت فى مصر هذه الاحتجاجات والزوابع التى تذكرونها والتى كان لكم نصيب فى الاشتراك بها .

فى ذلك الوقت شعرت الأمة بحاجتها إلى الدعاية لها فى الخارج فحزمت أمتعتى وسافرت إلى لندره كيما أشرح وجهة النظر المصرية وأدافع عن استقلال مصر وحريتها فى وقت كانت انجلترا تتمشدق فيه بحمايتها لحرية الشعوب واستقلالها بمناسبة الحرب الحبشية الإيطالية .

وليس فى نيتى أن أقص عليكم ماذا فعلت فى هذه الرحلة ولكنى أريد أن أعرض عليكم حديثًا دار بينى وبين أحد كبار الإنجليز وهو السير واردلو ملن رئيس اللجنة

المصرية فى البرلمان الإنجليزى . تقابلت مع هذا السيد فى مكتب السير مردوخ مكدونالد وهو الآن موظف فى الحكومة المصرية وقد كانت مقابلتى به بناء على ميعاد سابق وكان طبيعيا أن يقف هذا الرجل على كل المعلومات الخاصة بمصر الفتاة فيما عرف أن بين الوفد وبينها خصومة حارة . فقد أراد أن يستغل هذه الخصومة فقال لى ولماذا تريدون دستور سنة ١٩٢٣ وأنتم تعلمون أن هذا الدستور يعيد الوفد إلى الحكم بأغلبية ساحقة . ومعنى رجوع الوفد إلى الحكم اضطهادكم أنتم ؟

قلت له على الفور إن المسألة ليست مسألة وفد وغير وفد فهذه كلها مسائل داخلية خاصة بنا نعرف كيف نصفيها فيما بيننا والشىء الوحيد الذى أستطيع أن أقوله لك هو أن نية الأمة واضحة فى عودة دستور سنة ١٩٢٣ فكل اعتراض من الإنجليز عليها هو ماس باستقلال مصر وسيادتها لا يوجد مصرى واحد يسمح به .

وأما أن هذا الدستور سيعيد الوفد إلى الحكم فهذا حق الوفد غير منازع فيه ويجب أن يعود إلى الحكم . وأما أنه سيضطهدنا ولن يحسن القيادة .

فهذه مسألة داخلية بحتة وسنعرف فى حينها كيف نقوم بواجبنا .

هكذا يا حضرات المستشارين مثلت بلادى فى عاصمة الإنجليز وهذه هى أقوالى وتصرفاتى فهل كف الوفد ورئيسه عن التشهير بى . اللهم لا

بل لقد أوعزوا إلى مندوبيهم فى باريس فدبروا حركة ضدى وأرسلوا إلى جريدة الجهاد وإلى الصحف تلغرافًا بهذا المعنى نشرته الجرائد الوفدية تحت العناوين الضخمة وهاكم ما جاء فى هذه البرقية :

الطلبة المصريون فى باريس يقاطعون مندوبى جمعية مصر الفتاة . تلغراف منهم إلى صاحب الدولة الرئيس الجليل

تلقى صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا من الطلبة المصريين فى باريس التلغراف الآتى :

«جمعية الطلبة المصريين فى باريس التى انتخبت فى نوفمبر الماضى لنشر الدعاية للقضية المصرية قررت بإجماع الآراء أنها ترفض التعاون مع مندوبى جمعية مصر الفتاة الذين حضروا إلى أوروبا وقررت بإجماع الآراء أنها ستعمل لخدمة القضية المصرية تحت رعاية الوفد المصرى .

تحيتنا لهم بعد أن وصلوا إلى الحكم
البرقية

وهكذا كان تاريخ الوفديين معى مقابلة الإحسان بالإساءة على طول الخط ..

ولكنكم ستندهشون يا حضرات المستشارين إذا عرفتم أن هذه الخصومة على شدتها لم تغير من سلوكى نحوهم ذلك لأنهم ما بقوا خارج الحكم فهم يمثلون فى مصر قوة المعارضة والتى يجب أن نظاهرها جميعًا وأن نأخذ بناصرها ما بقى يتركز فيها عواطف الأمة وأمانيها الوطنية .

ولذلك فعند ما ألقى الوفد عصا التسيار وحصل على بغيته وهى الحكم وأزمة الحكم . وأعلن برنامجه الفضفاض المغرى والملىء بالوعود الطيبة لم أتردد لحظة فى أن أبعث إلى النحاس باشا برقية أهنئه فيها على تقليده زمام الحكم وإليكم نص البرقية :

نص البرقية

(إن تقلدكم الوزارة انتصار باهر للحياة النيابية وتوطيد لدعائم الدستور يقابله المصريون جميعًا بفرح وابتهاج وإنى لأتمنى لحكومتكم كل توفيق فى تحقيق برنامجها الذى تفضلتم بإعلانه والمجد لمصر) .

وقد جاءنى من النحاس باشا بطاقة شكر على هذه البرقية وقد شفعتها بمقال فسرت فيه الشعور الذى يدفعنى للوقوف من الوزارة هذا الموقف ونشر هذا المقال فى الصرخة الصادرة فى ١٤ مايو سنة ١٩٣٦ بعنوان الوزارة الجديدة وكيف نستقبلها تهنئة وترحيب وصراحة وشدة فى الحق وقد جاء فى المقال المذكور ما يأتى :

(وأخيرًا جاءت الوزارة الدستورية وزارة الأغلبية وزارة الوفد فحق على كل مصرى الابتهاج والفرح ولنا فى ذلك عدة أسباب أما أول هذه الأسباب فقد أجبت به يومًا على السير جون وارد لوملن رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الإنجليزى عندما كنت فى لندره فى الشتاء الماضى فقد عرف الرجل من تقارير وزارة الخارجية البريطانية أننى لست على وفاق تام مع الوفد فرأى أن ينتهز هذه الفرصة وأن يستغل ذلك فسألنى :

وعلام تتحمسون لدستور سنة ١٩٢٣ وأنتم واثقون أنه يرفع الوفد إلى الحكم بأغلبية ساحقة ، وأنه يقصى الأكفاء عن الحكم ؟ فأجبته إجابة صريحة قاطعة اضطر الرجل أن يحترم ما فيها من وطنية ومنطق وإخلاص لمصر وحرية مصر . قلت له إن دستور مصر

مظهر من مظاهر استقلال مصر وسيادتها فكل عدوان على هذا الدستور إنما هو عدوان على استقلال مصر قبل أن يكون عدوانًا على الدستور . وإذن فقد وجب على كل مصرى أن يدافع عن الدستور دفاعه عن الاستقلال وإلا كان مفرطًا وخائنًا ومارقًا وإنى لأتمنى أن أرى أعدائى يتحكمون فىَّ باسم استقلال مصر وسيادتها خيرًا من أن أرانى منعمًا مترفًا متمتعًا بالحرية فى ظل استقلال مصر المحطم وكرامتها المهدرة ..

أما ثانى هذه الأسباب التى تحدو بى للترحيب بوزارة الأغلبية فهو ما يحدثه من الثقة من نفوس أفراد الشعب وشك خصومهم فى إمكان التغلب على إرادتهم فاليوم يشعر كل مصرى أن له إرادة وأن له قدرة وأن كفاحه الطويل وثباته قد نصره وحقق أمانيه وإذن فالكفاح .. الكفاح والثبات .. الثبات دائمًا أبدًا .

واليوم يشعر المصريون أنهم ليسوا هؤلاء الضعفاء الذى لا يملكون لأنفسهم قليلاً أو كثيرًا .

واليوم يعرف من تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على إرادة الأمة وكرامة الأمة أن مصيرهم الهزيمة والاندحار .. وهذا المعنى وحده يكفى كيما يجعلنى أهتف من أعماق قلبى اليوم بالدستور وانتصار إرادة الأمة وفى بلد مثل مصر يحاول الإنجليز أن يسيطروا على حريتها وأن يتداخلوا فى مرافقها . فى بلد مثل مصر مغلوبة على أمرها يراد بها أن تبقى طويلاً فى الإسار والتخلف . ليس غير الحياة الدستورية من يلقى الضوء على جميع تصرفات الحكومة ويجعلها تحت رقابة الشعب ونوابه .. ليس غير الدستور تنطوى فيه الآراء الحرة وتنطلق الأقلام وترتفع الأصوات الداوية تهيب بالأمة أن تنهض وترقى وأن تحصل على حقوقها وهذا هو ثالث الأسباب الذى يحدو بى وبكل مصرى أن يقابل تقليد الأغلبية للحكم بالابتهاج والترحيب . فما بالك وقد أعلن رئيس الأغلبية برنامجًا أصر فيه على إتمام الاتفاق مع انجلترا وتسوية المسائل المعلقة التى تشوب استقلال مصر وأنه سيضمن العدالة والحرية لجميع الأحزاب على السواء وأنه سيصلح فى كل مكان وأنه سيجعل محور اهتمام الحكومة خاصًا بالفلاح .. وكل هذه مسائل لا يسعنا إلا أن نقابلها بالابتهاج والترحاب وإلا كنا خائنين بعهودنا أن نمجد كل ما فيه خير لمصر وتحقيق لاستقلالها ورفاهيتها .. فالاتفاق مع الإنجليز بما يحقق استقلال مصر وسيادتها الكاملة غير المشوبة هو كل ما يصبو إليه المصريون من الإسكندرية حتى خط الاستواء . وهو أهم ما نصبو إليه نحن جنود مصر الفتاة والذين نريد أن تفرغ مصر من بعض مشاغلها مع الإنجليز وأن تتحلل من كثير من قيودها حتى ننطلق إلى الأمام فى تنفيذ برنامجنا العتيد والذى نريد به

أن نحيي مجد أمة وأن نشرق على العالمين ومن ذا الذى لا يطرب لسماع كلمة العدالة وهى نور الله ورحمته على العالمين .. من الذى لا يبايع الوزارة على نشر العدالة والحرية والمساواة بين الجميع . ومن الذى لا يتمنى على الله أن يوفقها فى تحقيق هذا الذى أخذته على عاتقها ؟؟

بارك الله فى وزارة تتعهد أن تجعل الفلاح محور اهتمامها فالفلاح هو مصر وكل تجاهل للفلاح تجاهل لمصر وكل تقصير فى حقه تقصير فى قضية الوطن والإنسانية .. فنحن نهنئ الوزارة الجديدة ما بقيت عاملة على تحقيق هذا البرنامج .. نهنئ الوزارة ما نشرت الحرية والعدالة وحققت المساواة نهنئ الوزارة ما عملت على استكمال مصر سيادتها وهذا هو العهد بيننا وبينها ولعنة الله على من يحنث بالعهد أو يخرج عليه . أجل والله فلن نسكت على ضيم ولن نتغاضى عن تفريط ووالله لنكون كما كنا دائمًا أشداء فى الحق لا يثنينا بطش أو وعيد ولا يؤخرنا إرهاب أو تهديد .

ونسأل الله أن يهدينا جميعًا سواء السبيل والمجد لمصر .

يا حضرات المستشارين

يجب أن نقف طويلاً إزاء هذه المقالة ولا بد أن تضمنوا حكمكم إشارة إليها لأنى أعتقد أننى فى هذه المقالة قد ضربت رقمًا قياسيًّا فى التسامح وفى تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة . أعتقد أننى فى هذه المقالة قد فعلت ما لم يعتد الناس أن يفعلوه فى مصر . فلقد أوذيت فى كل مرحلة من مراحل جهادى واتهمت بأبشع التهم وأقذرها . ثلاث سنوات كاملة وجرائد الوفد تنهش فى عرضى ولجانه تعمل ضدى . فلم يمنعنى ذلك من المساهمة فى إرجاعهم إلى الحكم . ولما جاءوا إلى الحكم وأعلنوا برنامجهم وكان هذا البرنامج لا يحوى إلا الخير . والخير المطلق فلم يسعنى إلا أن أقف فى صف المهنئين وأن أشترك مع أكثر أنصارهم حماسة لهم فى الترحيب باستقبالهم . فهل يمكن أن أتهم بعد ذلك بأنى سيئ النية نحو هؤلاء الوزراء أو أنى أكيد لهم أو لا أحب الخير لهم ؟ إننى أدَع الجواب على هذا السؤال لحضراتكم .

فى مفترق الطرق

وقفت إذن من الوزارة موقفًا سليمًا لا تستطيع إلا أن تشكرنى عليه ولكنى أريد أن ألفت نظر حضراتكم إلى أن هذا الموقف هو آخر ما كان يمكن للوفد أن يحصل عليه منى ذلك أنه قد انتقل إلى الحكم وأصبح مطالبًا بأن يؤدى أمانة الحكم كاملة فإن لم يفعل

فقد وجبت محاربته لأن التساهل فى هذه المرة يكون تفريطًا وخيانة ولم يكن فى حسابى مطلقًا أن أخون بلادى .

لقد تساهلت مع الوفد خارج الحكم لأن وجوده فى المعارضة كان يحتم على كل مصرى أن يشد أزره إلى حد ما لأنه كان يمثل ناحية الكفاح من مصر أما الآن وقد أصبح فى الحكم فلا مناص من مراقبته بشدة فإن قام بواجبه وحقق وعوده فله منا كل ترحيب وإكبار . أما إذا فرط فى الأمانة ولم يحسن السهر على برنامجه فلا ينتظر منا إلا شدة النقد خصوصًا من جانبنا نحن الذين تساهلنا معه بالأمس وأفرطنا فى التساهل على أمل أن يتداركوا موقفهم فى اللحظة الأخيرة ..

ولذلك لا أكتم عنكم يا حضرات المستشارين أننى وقفت لأصحابنا بالمرصاد ولم أكن على استعداد مطلقًا بعد كل الذى فعلت واحتملت أن أتهاون معهم فى نقد أو أسامحهم فى تفريط .

هدنة ورحلة فى الصعيد
حظر القميص الأخضر

على أن الوزارة وليت الحكم وكانت مشغولة بالمفاوضات وكانت البلد كلها مشغولة معها بالمفاوضات فأحببت أن أبتعد عن القاهرة حتى تنتهى هذه المفاوضات ورأيت أن أشغل نفسى بعمل فيه خير لبلادى من غير أن يكون فيه مساس بالوزارة أو منافسة لتصرفاتها .. فلم أجد أمامى إلا أن أنفذ مشروعًا قديمًا كان يشغل بالى دائمًا وهو أن أتعرف على مصر بلدة بلدة وقرية قرية .. وأختلط بالفلاح وأقف على حقيقة حياته وأردت من ناحية أخرى أن أعطى مثالاً للشباب فى التقشف والعزيمة فرأيت أن أقوم بهذه الرحلة مشيًا على الأقدام كيما يكون خير درس لاحتمال المشاق فى سبيل أداء الواجب وقضاء على الترف والرفاهية اللذين انغمس فيهما الشباب وأنتم ترون أن الرحلة بهذه الحدود وفى نطاق هذا البرنامج هى رحلة اجتماعية تهذيبية وهى بعد ذلك لا تتعرض للوزارة بسوء ولا تنالها بشر وقد حرصت على أن أعلن ذلك فى برنامج الرحلة وأن أبلغه لوزارة الداخلية . وكنت أظن أن خطتى مع الوزارة قد أثبتت لها بصفة قاطعة حسن نيتى ورغبتى فى مهادنتها .

ولكن كم كانت دهشتى عظيمة عندما استدعانى وكيل وزارة الداخلية حسن بك فهمى رفعت وأبلغنى بصفة رسمية أن ارتداء القميص الأخضر فى هذه الرحلة ممنوع .

كانت مفاجأة مدهشة يا حضرات المستشارين ولكنها مفاجأة تزول سريعًا عندما يتذكر الإنسان موقف الوفد منا دائمًا أبدًا وكيف قابل الإحسان بالإساءة قلت لوكيل الوزارة ولكن هذا الطلب لم تطلبه منا أى وزارة من الوزارات السابقة وعددها ثلاثة ومن بينها وزارة العهد البغيض كما تقولون ولم يكن فى مصر أقمصة زرقاء فكيف تطلبون منى ذلك اليوم فى عهد الدستور والحرية وبعد أن أصبح للحكومة أقمصة زرقاء . فقال الوكيل هذه هى الأوامر . ولقد رفضت بطبيعة الحال إطاعة هذه الأوامر فليس فى مصر قانون يحتم على إطاعتها ولذلك فقد قلت للوكيل أصدروا قانونًا يحرم ارتداء الأقمصة الملونة وأنا أول من يطيعه أما اليوم فلست أعرف كيف تستطيعون أن تمنعونى من التمتع بحق مباح .

وكان ذلك أول اصطدام بينى وبين الحكومة وكما ترون يا حضرات المستشارين أن الحكومة قد بلغت فيه إلى أبعد حد من التجنى . فالنحاس باشا الذى أعلن فى برنامجه أن لا فرق بين حزب وحزب وأن الوزارة ستوزع الحرية والعدالة على الجميع على السواء إذا بها تحرِّم علينا ارتداء قميصنا الأخضر فى الوقت الذى تؤلف فيه أقمصة زرقاء من أحط العناصر وتشجعهم وتبسط عليهم نفوذها على الرغم من أن تقارير البوليس تطفح بأن ٧٠ فى المائة من هؤلاء الزرق هم من المتشردين والمشبوهين الذين رأوا فى القميص الأزرق حماية من البوليس والقانون .

هؤلاء يا حضرات المستشارين هم الذين تشجعهم الحكومة أما الأقمصة الخضراء والتى لا يرتديها إلا طلاب الجامعتين وخيرة الشباب . فهذه قد أصبحت محرمة . ومحرمة بغير قانون وهذه هى المساواة فى توزيع الحرية والعدالة كما يفهمها صاحب المقام الرفيع .

اضطهاد فى الصعيد ـ استجواب

ما كنت لأحترم هذا التعسف السخيف ولذلك فقد مضيت إلى رحلتى بالقميص الأخضر ووصلنا إلى الشلال وهناك عرفنا ما أعدته الحكومة لنا من تضييق وإرهاق فقد حاصرتنا فى منطقة خلوية ومنعت كائنًا من كان من الاتصال بنا .

وفى سبيل منعنا من الدخول إلى المدن ارتكبت الحكومة كل المخالفات التى لا يمكن أن ترتكبها حكومة فلقد حيل بيننا وبين الأكل أحيانًا ... واعتدى على بعض إخواننا اعتداءً مجرمًا لا لشىء إلا لأنهم حملوا إلينا طعامًا أو رغبوا فى الاتصال بنا ... ومنعنا من الاتصال بالتلغراف . ومنعنا من صلاة الجمعة بالقوة . لم نكن نسير خطوة إلا والبوليس

يحاصرنا من الأمام ومن الخلف بسياراته ولم يكن يسمح لنا الا بمقدار ما نجلس للاستراحة ثم نقوم لنعاود السير وهكذا حولت الحكومة رحلتنا إلى أشغال شاقة تتلخص فى السير المضنى تحت أشعة الشمس ..

وصدقونى يا حضرات المستشارين إذا قلت لحضراتكم أن ذلك كله لم يزدنى إلا إصرارًا على إتمام الرحلة وتشبثًا بها ورضاءً عنها .

وترامت أخبار اضطهادنا إلى مجلس النواب وقابلتها الأمة كلها بالاندهاش أن يتم هذا فى عصر الدستور والحريات ولذلك فسرعان ما تقدم استجواب من المرحوم هارون باشا أبو سحلى إلى وزير الداخلية وهاكم نص الاستجواب وهو أول استجواب قدم للوزارة الدستورية ولذلك فقد كان رقمه (١)

«هل أصدر دولة وزير الداخلية أمرًا بمنع سفر أعضاء مصر الفتاة فى رحلة إلى الصعيد ما داموا يلبسون القميص الخاص بهذه الرحلة

وهل سمح دولته بعد ذلك بسفر هؤلاء الأعضاء بهذا القميص حتى وصلوا إلى أقصى الصعيد وعسكروا فى خيام لهم بالشلال ؟

ثم هل عاد دولته فأمر بمحاصرة هذه الخيام بحرس دائم من البوليس يرد عنها الزائرين ويحول بين هؤلاء الشبان وبين التجول والاتصال بالناس ؟

وهل أصدر أمرًا بضرب الزائرين لهذه الخيام بالسياط على وجوههم وباستعمال الشدة والعنف معهم ؟

وهل سمع دولته أن مدير أسوان قد وزع على أعضاء الجمعية المعسكرين فى الشلال قمصانًا كاكية كما يلبس عساكر البوليس حتى لا يشاهد أعضاء هذه الجمعية بالقمصان الخضراء الخاصة بهم فلما لبسوها وذهبوا إلى أسوان أعادهم إلى الشلال بالقوة ؟

إذا كان دولته قد أصدر هذه الأوامر فهل هناك فى قانون الدولة ما يبيح للداخلية أن تمنع أحدًا كائنًا من كان من لبس الذى يريده والإقامة فى المكان الذى يختاره ونشر الدعوة التى يهواها مادامت فى حدود القانون والدستور ؟

وهل يعلم دولته أن رئيس الوزارة قد استعرض هو ووزير الزراعة شبانًا يلبسون قمصانًا زرقاء فى سيدى جابر وأنه أعلن رضاءه عن نظامهم ؟

فإن كان دولته يعلم ذلك فهل هناك نص فى الدستور أو القانون يبيح لجماعة ما يحرمه على جماعة أخرى ؟

هارون سليم أبو سحلى
نائب فرشوط

هذا هو الاستجواب وهذا نصه وأنتم ترون منه كيف أنه يحرج مركز الوزارة الدستورية ويهدم دعاويها فى الحرية والمساواة ولذلك فقد وقع الاستجواب منهم موقع الصاعقة وأخذوا يتدبرون فى كيفية الرد عليه .

كيف دبروا الرد على الاستجواب أولا

أخبرنى موظف كبير فى وزارة الداخلية .أحتفظ باسمه فى الوقت الحاضر لأصرح به فى القضية التى رفعتها على رفعة النحاس أطالبه بتعويض. أبلغنى هذا الموظف أن رئيس الوزارة كلف وكيل وزارة الداخلية أن يعد له الجواب على هذا الاستجواب فأعد بالفعل ردا وقد قال فى هذا الرد إن الحكومة لم تفعل شيئًا مخالفًا للقانون أو فيه اعتداء على الحرية . فهى لم تزد عن اتخاذ بعض الاحتياطات للمحافظة على الأمن والذى قد يهدده وجود هؤلاء الأشخاص وسط جموع الفلاحين الذين يدينون بالولاء للحكومة خصوصًا وأن الحكومة الآن تتفاوض لتحقيق استقلال البلاد وكل إثارة للأمن فى الآونة الحاضرة قد يكون فيه خطر على سلامة الدولة وهذا هو ما جعلنا نحمى هؤلاء الأشخاص بقدر الإمكان ونحول بينهم وبين إثارة الاضطرابات والفتن

هذا هو الرد الذى أعده على الاستجواب وكيل الوزارة وهو رد كما ترون فيه كثير من البراعة ومحاولة تغطية الموقف وسرعان ما أذيع هذا الرد بطريقة غير رسمية على الصحف الوفدية فنشرت جريدة كوكب الشرق فى عددها الصادر فى ٣ يونيو سنة ١٩٣٦ النبذة التالية تحت عنوان : «حول منع شبان من التجوال فى الصعيد» تحدث بعض الصحف عن منع أعضاء جمعية مصر الفتاة من الطواف فى بعض أقاليم الوجه القبلى وأشار بعضها إلى حرية المصريين فى الإقامة والتجوال . ونحن لا نعارض فيما ينبغى للهيئات والأفراد من الحرية فى نطاق الدستور والقانون .

ونحن نستبعد جدا أن تكون فكرة حظر التجوال أو الإقامة أو الحد من حرية أحد فيها قد خطرت لأحد من ولاة الأمور وليس أدل على ذلك مما جاء فى إحدى الصحف

التى تناولت الموضوع فى صباح اليوم من قولها إن مدير الأمن العام أرسل للجمعية يحظر على أفرادها الطواف بلباسهم الخاص ولكن دولة وزير الداخلية رأى أن لا مانع من تجوالهم بأى لباس يريدون وفى هذا رد واضح كاف على الذين يحاولون أن يخرجوا هذا التصرف عما هو حقيق به من موافقته للقانون والدستور .

هذا ما نشر فى جريدة كوكب الشرق الحكومية . وإليكم ما نشر فى جريدة البلاغ فى نفس التاريخ :

(نشرنا أمس وفى الأيام الماضية البيانات التى جاءتنا من جمعية مصر الفتاة عن المعاملة التى يعامل بها رئيس الجمعية وأعضاؤها فى رحلتهم إلى الصعيد . واليوم سألنا الدوائر الرسمية ووزارة الداخلية عن هذه البيانات وعن منع الجمعية من لبس القمصان الخضر ومنعها من الرحلة ثم عن ضرب الأشخاص الذين اتصلوا بالجمعية فى خيامها المضروبة فى الشلال سألناها عن ذلك كله فكان جوابها التكذيب القاطع) .

وعلى هذه الصورة يا حضرات المستشارين نشرت الجرائد كلها تكذيبًا للاضطهادات التى تحل بنا وذلك بإيعاز من وزارة الداخلية ليكون ذلك تمهيدًا للرد الرسمى الذى سيقال فى البرلمان .. ولكن الموظف الكبير أخبرنى أن وكيل الوزارة عندما قابل النحاس باشا وعرض عليه هذا الرد لم يعجب النحاس باشا وقال له «لا ... لا دانا عندى رد يقضى على الجماعة دول نهائيا .. ولم يسع وكيل الوزارة إلا أن يطأطئ رأسه وأن ينتظر كغيره من المصريين الرد الذى سيدلى به النحاس باشا فى البرلمان وإن كان هذا لم يمنعه من أن يودع رده فى دوسيه الاستجواب ولقد تحديت الحكومة فى القضية التى رفعتها على النحاس باشا أن يقدموا هذا الدوسيه فرفضوا لئلا ينكشف المستور .

القنبلة الأخيرة ـ الخيانة العظمى

وهكذا انتظرنا اليوم الموعود لنسمع رد رئيس الوزراء فلما أن جاء اليوم ووقف رئيس الوزارة وقال كلامًا طويلاً عريضًا يؤكد به صحة المعلومات التى جاءت فى الاستجواب ولكنه قال فى مقدمة الاستجواب ما يأتى :

«ثبت لوزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة الدولة . ولذلك قررت الوزارة حرصًا على مصلحة الدولة أن تمنع تجوال أعضاء هذه الجمعية فى القرى بزى خاص وقد بذلت لرئيس الجمعية النصيحة الودية للعدول عن السفر إلى الصعيد فلما لم يستمع لهذه النصيحة وسافر هو ومن معه إلى أسوان لم يتعرض لهم

أحد ولكن اتخذت الإجراءات للحيلولة بينهم وبين التجوال فى القرى بزى خاص والاتصال بالأهالى وذلك للسبب الذى بيناه» .

إلى أن قال :

«وإن هذه الجماعة التى تنطوى أغراضها وعلاقاتها على ما يضر بمصلحة الدولة الكبرى لا يصح مقارنتها بجماعة الشبان الذين يلبسون القمصان الزرقاء والذين تقوم مبادئهم على احترام النظام والقانون والعمل لخير البلاد وينتمون لهيئة سياسية مسئولة» .

هل سمعتم الكبيرة يا حضرات المستشارين ثبت لدى وزارة الداخلية أن مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة وطنها ؟!

يا للهول ويا للفزع .. مصر الفتاة ترتكب جريمة الخيانة العظمى بكامل أركانها ! ..

مصر الفتاة توصم بأشنع وصمة يمكن أن يوصم بها إنسان .. وليس من بين النواب إلا وله صديق أمين أو أخ أو قريب يتصل بهذه الجمعية . ولذلك فقد ارتعد النواب فزعًا لهذا الاتهام ..

فوقف الأستاذ فكرى أباظة وقال :

«إن إجابة دولة رئيس الوزراء يجب أن تحاط بالتقدير اللائق بها فإنها دون شك مستندة إلى تقارير رسمية . ولكن هذه الإجابة تضمنت اتهام جمعية مصر الفتاة بتهمة خطيرة وهى اتصالها بدولة أجنبية مما أهم أعضاء الجمعية وأصدقاءها لأن كثيرًا من شبابنا أعضاء فيها . فإذا ثبتت التهمة وجب أن نحمى أبناءنا من أخطارها .

لهذا أكون شاكرًا إذا أجل الاستمرار فى المناقشة على أن تودع الحكومة التقارير التى استندت إليها فى إجابتها ليطلع الأعضاء بأنفسهم عليها فإذا ثبتت سحقوا هذه الجمعية سحقًا لا شفقة فيه ولا رحمة . أما إذا كانت محل نظر استطاع النواب أن يوجهوا المسألة وجهة أخرى لاسيما أن هذه التقارير وضعت فى العهود السابقة وهى عهود طالما طعنا فى تقريراتها . فأرجو ملحًا أن تفكروا فى كلامى وأن تأخذوا المسألة بالتأنى والتريث» .

دولة النحاس باشا ــ الوزارة متثبتة مما قدم إليها من الأدلة لكن هذه الأمور تتعلق بسياسة الدولة العامة فلا يمكن أن تطلع أحدًا على تقاريرها ولكن الوزارة التى أعطيتموها ثقتكم والتى تعمل لمصلحة الجميع لا لمصلحة جماعة دون أخرى تتحرى وجه الحقيقة فى كل ما يعرض لها فإذا ما وجدت فيه ما يتنافى مع المصلحة العامة عملت على تلافيه .

أما أن نقول لحضراتكم من هى هذه الدولة التى تعمل تلك الجماعة لمصلحتها أو

لحسابها أو ما هى الوسائل التى تلجأ إليها أو بأى مال تعيش فهذا مستحيل ولا يمكن للحكومة أن تبوح به لأى شخص أو هيئة مهما كانت الظروف .

الأستاذ فكرى أباظة ـ وإذا اقترحت عقد جلسة سرية مثلاً ألا يمكن الإفضاء بهذه البيانات والإطلاع على التقارير

دولة النحاس باشا ـ ولا هذا أيضًا لا يمكن أن أعرض هذه التقارير على أى هيئة وبأى شكل كان.

الأستاذ عبد المجيد إبراهيم ـ أتقدم بكل أدب لدولة رئيس الحكومة بعد هذا البيان الذى أدلى به فأسأله كيف يسمح لهيئة قد اقتنع بسوء نواياها بأن تتجول فى المدن وفيها من البسطاء والسذج مثل ما فى الريف .. كيف تحمى الحكومة الريف من شرور هذه الجمعية مادامت متحققة منها ثم تتركها تعبث فى المدن . وكيف تقف إجراءاتها عند حد منع أعضاء الجمعية من التجوال بأقمصتهم الخضراء ؟ . إن مسألة القمصان مسألة شكلية والواجب أن يقدم هؤلاء الأشخاص للمحاكمة حتى يقول القضاء فيها كلمتهم .

دولة النحاس باشا ـ الذى يراه النائب المحترم من تقديم أعضاء الجمعية للمحاكمة يتنافى مع ما قدمت من أننا لا نريد أن نقدم أدلة لهذا المجلس أو لأى هيئة أخرى وكل عملنا أن نمنع الجريمة قبل وقوعها .

حقيقة ما فعله رئيس الوزراء ـ قذف

يا حضرات المستشارين

نقف عند هذا القدر من المناقشة لنبين ما الذى فعله صاحب المقام الرفيع وأى ظلم قد أوقعه بنا.

صاحب المقام الرفيع يقرر أن مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ويؤكد ذلك للمجلس ويكررها مشفوعًا بكلمة الثبوت والثبوت لا يكون إلا بعد تحقيق وتدقيق ثم يكون الثبوت . وإذن فقد حكم علينا صاحب المقام الرفيع حكمًا لا نقض له ولا إبرام فقد ثبت لدى وزارة الداخلية .

لقد قرر قانون العقوبات يا حضرات المستشارين أن كل من نسب إلى شخص آخر أمورًا لو صحت لأوجبت احتقاره عند مواطنيه أو محاكمته بمقتضى القانون يعد قاذفا ويحكم عليه بعقوبة الحبس .

فما الذى فعله صاحب المقام الرفيع ؟ ألا ينطبق على القذف فى أخطر درجاته ؟ فالمقام الرفيع يتهمنا بأننا نخون بلادنا فى مقابل أجر معلوم وهذه تهمة تعاقب عليها القوانين بالإعدام . وتجعل دمنا مهدوراً وشرفنا أحط من النعال ومع ذلك فلم يتورع النحاس باشا من أن يلقى هذا القذف فى مقام رسمى الأمر الذى يجعله أكثر خطورة . فلما طولب بالدليل اعتذر واحتج بأسرار الدولة فاقترحوا عليه جلسة سرية فامتنع أيضاً وظل محتمياً بالسرية .

فلما طلب منه أن يقدمنا للقضاء رفض أيضاً واحتمى بالسرية ..

وإنى أترك لحضراتكم تقدير رأى رئيس الوزراء فى أكبر قضاة الدولة فهو لا يراهم جديرين برعاية السر الذى يعرفه دولته ومعه بعض صغار الموظفين .

لقد ظلمنا وسدت فى وجوهنا أبواب الدفاع

وهكذا قذفنا النحاس باشا بغير دليل حتى يقدر الناس على الأقل قيمة الدليل .. بأشنع الجرائم بغير دليل أو الاستعداد لتقديم الدليل . وبدون أن يعطينا فرصة للدفاع عن أنفسنا فماذا تقولون فى هذا يا حضرات المستشارين ؟ .

لكل مصرى عرض وكرامة يصونهما القانون ويحميهما الدستور فمن حق أى مصرى يُطعن فى عرضه أن يدافع عن شرفه ..

فماذا تقولون فى هذا المصرى الذى يُطعن بأفظع طعن يمكن أن يوجه إلى رجل ثم تغل يده ويربط لسانه كيما لا يدافع عن نفسه ..

لقد توجهنا إلى النائب العام عقب هذا الاتهام وطلبنا منه أن يحقق معنا فرفض .. طلبنا رفع الدعوى العمومية على النحاس باشا فرفض بحق لأن النحاس باشا متمتع بالحصانة البرلمانية ..

وإذن ماذا نفعل يا حضرات المستشارين ولمن نلجأ للدفاع عن كرامتنا وشرفنا وتصوروا الظلم الذى يمنعنا من دفع الاعتداء فكرت فى دعوة فريق من نواب الأمة ورجال الصحافة كيما ألقى عليهم بياناً عن الحادث فحال النحاس بالقوة بينى وبين عقد الاجتماع فماذا كان يمكن أن أفعل

أنا مصرى شريف يا حضرات المستشارين ومن حق أن أدافع عن نفسى ويجب أن يبيح لى المجتمع فرصة الدفاع وإلا كان مجتمعاً مبنيًّا على الفوضى والاستبداد .

لقد كان من نتيجة هذا التصريح أن أخذنا نبدوا أمام الناس كمجرمين .. كان من نتيجة هذا التصريح أن شرع كل مصرى يعتدى علينا فلا نجد بوليسًا يجرؤ على مؤاخذته ولا نيابة تجرؤ على محاسبته لأنه يضرب فى أشخاص قال عنهم رئيس الوزراء إنهم خونة صنيعة دولة أجنبية .

تصوروا هذا الجحيم الذى عشناه فى هذه الأيام نتيجة لهذا التصريح المشئوم ثم حاولوا اليوم أن تؤاخذونا على كلمة واحدة مما نوجهها للنحاس باشا .

لا أظنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم هذه الاضطهادات العنيفة التى حدثت فى أنحاء مصر عقب إلقاء التصريح وكان فيها أعضاء مصر الفتاة محل اعتداء .

اتهـام باطـل

ولو أن هذا التصريح كان له ظل من الواقع إذن لهان الأمر .. أما أن يكون ليس إلا حلقة جديدة من حلقات قذف مصر الفتاة فهذا هو الذى لا يحتمل وهذا هو ما يؤكد على رئيس الوزارة سوء القصد .

لم يكن هذا التصريح إلا تصريحًا مفتعلاً من الألف إلى الياء ولقد تحديت النحاس باشا بخصوص هذا الاتهام فى هذه المقالات التى أحاكم عليها اليوم فتحاشت النيابة أن تحاسبنى عليه واختارت عبارات أخرى من المقال ظنًّا منها أن هذا سيبعد موضوع الاتهام عن المرافعة وفاتها أو فات الحكومة أن هذا الاتهام هو كل المرافعة ..

النحاس باشا غير صادق فى ما نسبه إلى مصر الفتاة أقولها بأعلى صوتى فى هذا الحرم وقد جئت إلى هنا كيما أقولها وأتحدى رئيس الوزارة أن يثبت اتهامه .. النحاس باشا غير صادق فى هذا الاتهام .. كما كذبت جرائده من قبل عندما قالت عنا أنا صنيعة للإبراشى والنحاس باشا غير صادق كما كذبت جرائده يوم أن اتهمتنا بسرقة مشروع القرش . سلسلة متصلة من الادعاء ومن التهم الباطلة التى وجهت إلى مصر الفتاة والتى رأيتم موقفنا منها وكيف كان كله تسامح فى تسامح . ذلك لأن النحاس باشا لم يكن فى ذلك الوقت إلا رجلاً غير مسئول . كان رجلاً حزبيًّا له أن يقول ما يريد ولخصومه أن يقولوا فيه ما يشاءون . أما اليوم والنحاس باشا يحسب نفسه أنه رئيس حكومة لا يمكن الوصول إليه . والنحاس باشا يريد أن يحتمى بثقة البرلمان كيما يقضى على خصومه فيجب أن يعرف أن خصومه أقوى من أن تردهم هذه الحواجز .

ولذلك فقد كان لا مناص من أن أتحدى النحاس باشا وأجابهه . كان لا مناص من

أن أقف مع النحاس أمام القضاء فإما ثبتت خيانتى وإما أثبت براءتى . كان لا مناص من أن أعمل على تبرئة ساحتى من هذا الاتهام ولا يمكن أن توجد قوة فى الدنيا ولا عدالة ولا قانون ينكر علىَّ حقى فى الدفاع عن نفسى ولقد رأيتم كيف سدت أمامى جميع الأبواب التى كان يمكن أن أطرقها . سد أمامى الطريق المفتوح أمام كل مصرى ليدافع عن كرامته بالشكوى إلى النيابة . سد أمامى الطريق المفتوح أمام أى متهم ليدافع عن براءته بتحقيق النيابة .

حق الدفاع الشرعى

سد أمامى منبر الصحافة والنواب بحظر اجتماعاتى ومصادرة جرائدى . فماذا بقى أمامى لأفعله يا حضرات المستشارين كيما أغسل كرامتى وأنقى عرضى . لم يبق أمامى إلا واحد من اثنين إما أن أغسل هذه الإهانة بالدم فأعمل على قتل صاحب المقام الرفيع وأعتقد أننى إذا وقفت بعدها أمام محكمة فلا يمكنها إلا أن تعتبرنى معذورًا . وإما أن ألجأ إلى هذا الطريق المتسامح الذى لجأت إليه والذى يتفق مع أخلاقى وثقافتى ونفسيتى وهى نفسية المحامى والقانونى ورجل العدالة فأنا اليوم جد متواضع فى دفاعى عن نفسى يا حضرات المستشارين . عندما لا يرى النحاس باشا ما يشكونى عليه إلا بضعة مقالات كتبتها نقدًا له فى مسائل عامة .

فو الله لو لم أكتب ضد النحاس باشا إلا قذفًا وسبا . لو لم أهاجم النحاس باشا فى مقالاتى إلا من أجل رد القذف بقذف مثله والسب بسب مثله لما كان لأحد فى العالمين أن يلومنى أو يؤاخذنى فالقانون يبيح فى مادة الدفاع الشرعى أن يقتل الإنسان من اعتدى عليه ومن ابتدر الآخر بالسب فقد أعطى الآخر الحق فى رد السب بمثله .

فأنا فى موقف الدفاع الشرعى يا حضرات المستشارين
أنا اليوم أدافع عن عرضى وكرامتى

أنا اليوم أريد أن أسمع الناس جميعًا أننى لو كنت ذلك الذى قال عنه النحاس باشا إنه يعمل لدولة أجنبية لما وقفت هذا الموقف أصول وأجول وكل تهمتى أننى أطعن عليه . فما كان أغناه عن ذلك كله لو أنه كان صادقًا فيما قال : وما كان أقدره على إسكاتى إلى الأبد لو أن فيما ادعى ذرة من الصواب .

دحض التهمة ـ إيطاليا

ولكن النحاس باشا ومن خلفه الحكومة أول من يعرفون عدم صدق هذا الادعاء وبحسبكم أن تعلموا أنهم أذاعوا وأشاعوا التهمة زاعمين أن الدولة المقصودة هى إيطاليا وراحت صحفهم تكرر هذه الدعوة المجرمة ووضعوا النشرات السرية تتحدث عن هذه الصلة كما انبث دعاتهم يروجون لهذه التهمة فى كل مكان . والحكومة تعلم قبل غيرها مقدار الخصومة التى بين مصر الفتاة وإيطاليا والتى نشأت بنشأة مصر الفتاة فمنذ العدد الأول لجريدة الصرخة ونحن لا نفتأ ننديد بإيطاليا والاستعمار الإيطالى . ولقد أتيح لى مرة زيارة إيطاليا زيارة قصيرة فعدت منها وكتبت سلسلة مقالات اعتبرتها إيطاليا محرضة على الازدراء بها وتحقيرها فطلبت من وزارة الخارجية أن تتدخل فى الموضوع فما كان من الوزارة المذكورة إلا أن كلفت النيابة برفع الدعوى العمومية ولقد رفعت الدعوى العمومية بتهمة التحريض على كراهة إيطاليا وإليكم صيغة الاتهام .

طلب حضور متهمين

فى القضية نمرة ٢٨٥٢ جنح عابدين سنة ١٩٣٤ نوع القضية جنحة

نحن رئيس النيابة العمومية عن الحضرة الملكية بمحكمة مصر الكائنة بباب الخلق نكلف المحضر بأن يدعو

١ ـ أحمد حسين محام

٢ ـ أحمد الشيمى أفندى

فى الحضور بجلسة جنايات مصر التى ستنعقد فى المحكمة المذكورة فى يوم الخميس ١٣ فبراير سنة ١٩٣٧ الساعة ٨ أفرنكى صباحًا لمحاكمتهما بمقتضى المواد ١٤٨ و١٥٣ و ١٦٦ مكررة ١٥٨ فقرة ثانية من قانون العقوبات المعدلة بمرسوم القانون رقم ٩٧ سنة ١٩٣١ فى قضية اتهامه فى يومى ١١ و ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ بدائرة قسم عابدين حرضا على كره طائفة من الناس والازدراء بهم تحريضًا من شأنه تكدير السلم بأن ألّف أولهما مقالين بعنوان (أربعة أيام فى نابلى وفى روما أو لقد خيبت إيطاليا حسن ظنى بها) وثانيهما تحت عنوان (نذير مصر الفتاة فى روما) بقصد نشرها بالجريدة وقام المتهم الثانى بصفته رئيس التحرير بنشر هذين المقالين مع آخر تحت عنوان (للعبرة . الاستعمار الإيطالى وطرابلس الغرب وفظائعه) فى جريدة الصرخة فى الصحيفتين الخامسة والسادسة من العدد الثانى من السنة السادسة الصادرة فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ وفى الصفحة الرابعة من العدد رقم

٥٣ الصادر فى ١١ أغسطس سنة ١٩٣٣ اللذين نشرا ووزعا وبيعا فى مدينة القاهرة وغيرها من بلاد القطر وقد تضمنت هذه المقالات تحريضًا على بغض الإيطاليين والازدراء بهم إذ نسب فيها أن نَشيدَهم يتضمن سبًّا وطعنًا فى الإسلام والقرآن الكريم وأنهم يضمرون شرًّا وحقدًا للإسلام وأن قائدهم فى طرابلس داس القرآن الكريم بقدمية وأنهم أقفلوا جميع الكتاتيب التى تعلم أولاد المسلمين أمور دينهم وأن جنرالهم أمر بقتل مئات من الطرابلسين شر قتله بإلقائهم من الطيارات وأنهم أغرقوا البعض الآخر فى البحر بعد تكبيلهم بالسلاسل والقيود الثقيلة وأن الإيطاليين يصبون على الطرابلسين كل يوم الويلات والآثام وأنهم يرتكبون النصب والسرقة وأنهم شعب متخلف وقدرتهم محدودة وأنهم سيعودون إلى مراكزهم قبل الحرب أمة هزيلة ضعيفة إلى غير ذلك مما دون فى هذه المقالات » .

هذه هى التهمة التى نحاكم بها أمام هذه المحكمة فنحن متهمون بأننا نحرض على كراهية إيطاليا ونخصص جريدتنا للدعاية ضدها ومع ذلك فنحن فى نفس الوقت نعمل لحساب إيطاليا : فهل ترون شناعة هذه الكبيرة التى رمينا بها

ومن المضحكات يا حضرات المستشارين أننى تقدمت للجنة العفو أطلب منها أن تصدر العفو عن هذه القضية فرفضت وحولتها إلى محكمة الجنايات لتنظرها . ولعل من العجب ومما يدلكم على سوء قصد هذه الحكومة أن النيابة لا تحرك هذه القضية مطلقًا على الرغم من أن واقعتها قد حدثت سنة ١٩٣٤

وربما سقطت هذه القضية بمضى المدة أو لعلها سقطت ومع ذلك فإن الحكومة التى رفضت أن تعفو عن هذه القضية لا تريد فى نفس الوقت أن تنظر وأن أحاكم لأن مثل هذه المحاكمة من شأنها أن تظهر لكل مصرى كذب اتهام النحاس وإذن فلنترك هذه القضية مؤقتًا وهأنذا أحاكم فى قضايا عن وقائع حدثت منذ شهرين أو ثلاثة أشهر أما هذه القضية التى كان يجب أن أحاكم عليها من ثلاث سنوات فمازالت معلقة فى عالم الغيب وما ذلك إلا لسوء القصد والرغبة فى الكيد

حملة الاضطهاد والإرهاب

كان هذا التصريح الذى ألقى فى مجلس النواب مقدمة لحملة ضخمة من الاضطهاد والإرهاب . فهو أولاً قد أحدث أثره المطلوب فى نفوس أنصار الحكومة . ويكفى لتعرفوا أثر هذا التصريح أننى كنت عند إلقائه فى مدينة قنا وكنت نازلاً طرف أحد الأشراف

فجاءت الإشاعات بأن الرد الذى سيلقى فى مجلس النواب سيتضمن إثبات اتصالنا بدولة إيطاليا . فما كان من مضيفنا إلا أن أقسم أنه إذا صح هذا وأثبت النحاس باشا أننا خونة لبلادنا فلن يقنع بأقل من قتل أحمد حسين ذلك أنه ما كان يتسامح فى حق بلاده وفى حق كرامته بحيث يستضيف خائنًا لبلاده.

انظروا إلى أى حد كان يمكن أن يكون تأثير هذه الفرية . هذا هو شخص أنا ضيفه كان المفروض فيه أن يحمينى فإذا به يقسم أن يكون أول المنتقمين منى .

هذا تصريح يا حضرات المستشارين ألقى عمدًا كيما يهدر دمنا ، ولقد كان . فحدثت عقب هذا التصريح هذه المجازر فى كل بلاد القطر . ففى كل بلد وفى كل قرية كان أعضاء مصر الفتاة محل عدوان ومحل إيذاء . ففى القاهرة حدث أثناء اجتماع فى مسرح برنتانيا أن انقضت كتيبة هائلة من الأقمصة الزرقاء تحت سمع البوليس وبصره وأمعنت فى أعضاء مصر الفتاة ضربًا وجرحًا وتقتيلاً ثم كانت النتيجة أن اعتقل المصابون من مصر الفتاة باعتبارهم مذنبين متهمين .

وفى دمنهور .. وفى كفر الزيات وفى منوف وفى بلبيس وفى الزقازيق وفى جميع بلاد القطر انقض الوفديون على الفتيين وهاجموهم فى عقر دارهم . وعمت الفوضى فوقعت قتلى فى دمنهور وكفر الزيات فاعتبر أعضاء مصر الفتاة هم المسئولون واقتادوهم إلى السجون بتهمة القتل . فأصبح لنا تهمة مزدوجة وتلك أننا قتلة وأننا نخون بلادنا لحساب دولة أجنبية وعبثًا كنا نبحث عن ملجأ نحتمى به . عبثا كنا نلجأ للبوليس . فمن ذا الذى يحمى خونة قال عنهم رئيس الوزراء أنهم كذلك !؟

لا عرض لنا لا كرامة لا أمان . هذه هى الحالة التى وضعنا فيها النحاس باشا بتصريحه عامدًا متعمدًا .

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد فقد صدر أمر وزارة الداخلية بغلق دور مصر الفتاة فى جميع أنحاء القطر الأمر الذى لم يحدث له سابقة فى التاريخ فأصبحنا بذلك وصمة فى جبين الحياة المصرية أو بالأحرى أصبحنا جماعة من المجرمين الذين لا يحق لهم أن يعيشوا كما يعيش الناس . ومع ذلك وبعد هذا الإجراء فقد بقيت لنا جريدة نحاول أن ندافع عن أنفسنا فيها . وإذن فلتصادر هذه الجريدة ولتصادر بطريقة عجيبة ما أنزل الله بها من سلطان ولم يسمع بها المصريون فى يوم من الأيام .

وأرجو أن تسمحوا لى أن أتلو عليكم صور المذكرات التى تمت بها هذه المصادرة .

ففى ٢٢ شهر ٧ سنة ١٩٣٦ فى مذكرة رقم ٨٥ ما يفيد أنه قد وصل إلى قسم عابدين إشارة من حرس الوزارات فحواها أن يصادر عدد الصرخة الصادر فى ذلك اليوم وفعلا نفذ هذا وصودرت عدة ألوف من جريدة الصرخة لم يكن قد كمل طبعها بعد .

وفى ٢٩ شهر ٧ سنة ١٩٣٦ بموجب مذكرة أحوال رقم ٥٩ وفحواها أنه قد وردت إشارة من المحافظة بمصادرة العدد الصادر من جريدة الصرخة فى هذا التاريخ فنفذت هذه الإشارة وصودرت عدة آلاف من النسخ بينها ملازم لم يتم طبعها أى كانت لاتزال ورقًا أبيض .

وفى يوم ٤ - ٧ - ١٩٣٦ أى فى الأسبوع الثالث بموجب مذكرة رقم ١٤٤ أحوال وفحواها أنه بناء على أمر الحكمدارية صودر العدد الصادر فى هذا التاريخ من الصرخة ولم يكن قد شرع فى طبعه بعد إلا عشر أفرخ فأوقفت الماكينات ووزعت الحروف ..

انتهى

تصوروا يا حضرات المستشارين جريدة تصادر لأن واحدًا من حرس الوزارات أمر بمصادرتها وثان من المحافظة وثالث من الحكمدارية .. وتصادر الجريدة لغير سبب مفهوم تصادر الجريدة على خلاف الدستور والقوانين . ولكن هل القوانين وضعت لنا . لا يا حضرات المستشارين . لسنا من المصريين بل من خونة المصريين ولا دستور ولا قانون نستطيع أن نستظل به

هذه القضايا المطروحة أمامكم وعددها خمسة أليست هى أيضًا لون عجيب من ألوان الاضطهاد وألوان الشذوذ .. لم يعد هناك عجيب فيما يختص بمصر الفتاة موتًا يجب أن تموت هذه الجماعة . والويل كل الويل لرئيسها أحمد حسين !!

حملة الصحف البذيئة

على أن الحكومة لم تقف عند هذا الحد بل إنها استخدمت سلطانها فى أن تصدر عدة جرائد كلها لا عمل لها إلا النهش فى عرضى وقبل هذه الجرائد وزعت كتابًا من خمسين ألف نسخة كلها طعن فى عرضى وكرامتى . وها كم بعض فقرات منه .

(وتلى فقرات من الكتاب)

يعيروننى يا حضرات المستشارين لأن أمى ماتت وكنت يتيمًا منذ صغرى . هذه جريمتى فى نظرهم .

وهم بعد ذلك يدخلون إلى بيتى وإلى علاقتى الخصوصية وهم بعد ذلك يتحدثون بكل هذا الفحش وكل هذا الإسفاف .

هذا الكتاب ينشر الآن فى جريدة حكومية رئيس تحريرها أحمد يوسف بدر وصاحبها طاهر العربى أخو الدكتور محمد عبد الله العربى وشهرته فى مناصرة الحكومة معروفة وهذه الجريدة تطبع بأموال الحكومة .

ولا عمل لها من الجلدة إلى الجلدة إلا النهش فى عرضى ويضيق بى الحال إذا قدمت لكم هذه الجرائد التى تقف منى هذا الموقف . هذه هى المطرقة . اسمعوا . اسمعوا ماذا تقول :

(اقتبس عبارات بذيئة إلى آخر درجة نعف عن ذكرها) وهذه أيضًا وقف على سب أحمد حسين

وهذه مجلة غريب . اسمعوا ماذا يقول فيها (وتلا عبارات بذيئة)

وهذه مجلة النهار وهذه مجلة الشبان الوفديين . وهذه مجلة تدعى الجامعة . وهذه مجلة تدعى الكاتب .. كلها جرائد مأجورة يوقر أسماعكم أن تسمعوا كل ما جاء فيها من فحش وبذاءة فى القول ..

وهذا هو الأسلوب الذى يتصرفون به فى مال الدولة . وهذه خطتهم فى حرب أحمد حسين !!

قانون العفو

هذه هى الظروف التى كانت محيطة بنا يا حضرات المستشارين وهذا هو نوع الحياة التى كنا نحياها .. وفى هذا الآونة أعلن أن الحكومة قد اعتزمت إصدار قانون العفو عن القضايا السياسية وهاكم نصه :

«يعفى عفوًا شاملا عن الجنايات والجنح والشروع فيها والتى ارتكبت لسبب أو لغرض سياسى بين ١٩ يونيه سنة ١٩٣٠ و٨ مايو سنة ١٩٣٦ ما عدا جناية القتل عمدًا»

فكنا فى مقدمة المهللين والمكبرين لهذا القانون ونظرنا إلى بعضنا فى اغتباط وهنأنا أنفسنا على صدوره .. ولم يكن ذلك لأننا نعلق كبير أهمية على أن ترفع هذه السوابق من صحيفتنا . فالله أعلم يا حضرات المستشارين أننى حريص على هذه السوابق أكثر من حرص البخيل على دراهمه ذلك أننى أرى فيها أوسمة الجهاد التى كسبتها بحق .. واحتملت

فيها السجن والاعتقال من أجل الحق ومن أجل بلادى .. ولكنى رحبت بهذا العفو لأنه كان قد حكم على بعدة غرامات مالية أنا وإخوانى فمنينا أنفسنا فى استرجاع قيمة هذه الغرامات نستعين بها فى جهادنا ..

ولقد كانت تهمنا من بين هذه القضايا قضية الجيش التى دفعت فيها غرامة مقدارها خمسة وعشرين جنيها ودفع زميل لى خمسة جنيهات . أى إنا انتظرنا أن نقبض ثلاثين جنيهًا وهو مبلغ جسيم من شأنه أن يساعدنا من جديد فى أزمتنا الطاحنة ..

وانتظرنا فى شغف اليوم الموعود حتى إذا جاء ونشرت أسماء العفو عنهم فى الجرائد تريثت فى تلاوتها ثقة منى أن اسمى لابد قد ورد بين هذه الأسماء فما كان أشد دهشتى عندما جاءنى زميلى فى قضية الجيش وأخبرنى أن اسمينا لم يردا فى الكشف .

صحت به إن هذا مستحيل فأجابنى ولكن هذا ما حصل . قلت له : لابد أن يكون هذا سهوًا غير مقصود ولابد أنهم لم يعثروا على القضية .

وأقسم لكم يا حضرات المستشارين إننى حتى تلك اللحظة لم أكن أفهم من الموضوع إلا أنه سهو . ذلك أن هذه القضية التى عوقبت عليها هى مثل رائع من أمثلة النقد البرىء الخالص للمصلحة العامة والتى يدفع الإنسان ثمنًا له بسبب بعض قوانين خاصة استثنائية يفرض على المحاكم تطبيقها . ولما كانت جرائم النشر كلها من الجرائم السياسية بحسب الغرض منها وموضوعها . فإن هذه القضية بصفة خاصة هى مما يزهو به النشر وتفخر به الصحافة لأنه من أجل الصالح العام أولاً وأخيرًا .

ولكن ظنى سرعان ما تغير فى سبب إهمال قضاياى الأخرى فى اليوم التالى وذلك لقراءتى على صفحات الجرائد احتجاج من الأستاذ العقاد لأن اسمه لم يرد فى كشف المعفو عنهم مع أن قضيته من صميم السياسة وهى قضية نشر أيضًا .. قيل فى الرد عليه إنه اتهم بالعيب فى الذات الملكية وهذا من شأنه أن يكون جريمة مستقلة غير سياسية تخرجه من العفو ..

ولكن فهمت من ذلك أن المسألة خاصة بالأشخاص المغضوب عليهم من الحكومة فهؤلاء لا يستحقون عفوًا ولا يمكن أن ينالوه فبادرت فى اليوم التالى بمقابلة النائب العام وسألته عن سر إغفال قضيتى وإحداهما خاصة بالجيش والثانية وهى التى لم أحاكم عليها حتى الآن وخاصة بإهانة إيطاليا .. وبعد حديث طويل مع النائب العام خرجت بأجوبة غريبة فقد قال لى النائب العام لقد طالعت قضيتك فوجدت أن دفاعك كان سياسيا ولكن المحكمة لم تعتبر أن القضية سياسية ولم تذكر فى حكمها شيئًا من هذه القبيل

وأرجو أن تقدروا أنتم يا حضرات المستشارين قيمة هذا الرد ومدى ما فيه من مغالطة وانحراف عن الحقيقة . يقول إن دفاعى دفاع سياسى ولكن المحكمة لم تعتبر القضية سياسية . ما معنى هذا يا حضرات المستشارين هل اعتدتم عندما تجيئكم قضية سياسية أن تقولوا فى حيثيات الحكم وحيث إن القضية سياسية . فقد حكمنا بكذا وكيت أنا أفهم أنكم عندما تصدرون حكمًا بالبراءة فقد تضمنوه بعض العبارات التى تشير إلى أن القضية سياسية وأن هذا هو ما يحملكم على البراءة . أما عند الحكم بالإدانة فهى مبنية على اعتقاد المحكمة بأن المتهم قد ارتكب جريمة السب لشخص من الأشخاص أو هيئة من الهيئات حسب نص القانون وهذا هو ما يحملها على أن تحكم بالإدانة .. ولذلك فلا عجب إن لم يقنعنى جواب النائب العام وقدمت له احتجاجًا على هذا الإغفال ليعرض على اللجنة التى حددها القانون للنظر فى هذه الاحتجاجات ولم يفتنى أن أسأله ما هى الطريقة التى ستفحص بها اللجنة هذه الاحتجاجات فقال لى إن هذا النظام لم يوضع بعد ولكن لابد أن سيكون من هذا النظام أن يستدعى الشاكون ليناقشوا فى قضاياهم وليدلوا بوجهة نظرهم فقلت له إن هذا هو خير ما يعمل وانصرفت

فما أدهشنى فى النهاية إلا أن أعرف أن لجنة العفو قد انتهت من نظر الشكاوى بغير أن تستدعينا أو تسمع أقوالنا وأنها قد رفضت احتجاجى .

كيف حسبت اللجنة حكومية

يا حضرات المستشارين

قبل أن أمضى فى دفاعى يجب أن أقف قليلا لأقرر لحضراتكم أن ما قام فى ذهنى فى هذه الساعة هو أن لجنة العفو هذه تتكون من وزير الحقانية ومن النائب العام ومن الأستاذ صبرى أبو علم ومن بعض مفتشى وزارة الحقانية أو موظفيها ولذلك فلم أعجب أن تقف منى هذا الموقف الحزبى فكتبت المقال موضوع المحاكمة والذى عنوانه «لى الشرف أن لا أكون واحدًا ممن عفت عنهم الحكومة فلست ضعيفًا ولا هم بالأقوياء» .

ولقد هاجمت الوزارة فى هذا المقال وهاجمت سياستها الحزبية . ولكن الحكومة رأت أن تنتهز هذه الفرصة بعد أن عرفت موقفى من القضايا الأخرى وأننى أراها كلها كلا لا يتجزأ .. رأت الحكومة أن تجرب معى أسلوبًا جديدًا من الإرهاب والإعنات وأن تحقق معى فى كل مقال جديد وأن تتخذ من كل تحقيق موضوعًا للمحاكمة ورأت أن تختار مقالات من نوع خاص تدور حول موضوع غير السياسة العامة .

بل تدور حول موضوع خاص لتكون محل قضية مستقلة فكانت هذه المقالة وطلبوا من النيابة أن تحقق معى باعتبار أن فى هذه المقالة إهانة للجنة العفو والتى قيل لى إنها تشمل على رئيس محكمة الاستئناف ووكيلها وهم من كبار المستشارين الذين لا يجوز التعرض لهم بحال .

والحق أنه ما كان يخطر لى على بال أن أجعل أحدًا من حضرات هؤلاء المستشارين محلاً لمهاجمتى فأنا أول من يقدس حرمة القضاء خصوصًا حضرات المستشارين والذين أثبتوا فى ظروف عديدة استقلالهم فى الرأى وارتفاعهم فوق السياسة والحزبيات والهيئات .

ولقد اشتهر عنى احترامى لرجال القضاء ولذلك فإن هذه التهمة التى وجهتها إلى النيابة بإيعاز من الحكومة لا يمكن أن تقلب الحقائق الثابتة وهو أننى ما قصدت ولا أردت بأى حال من الأحوال أن أهاجم لجنة العفو باعتبارها لجنة قضائية ولن أبذل كبير عناء لإثبات ذلك لحضراتكم فالمقال جلى العبارات واضح المقصود منه ولا يختلف اثنان عند قراءته من أننى أهاجم الحكومة والوزارة ولا شىء غيرها .

فهاكم عنوان المقال بالخط العريض يدل على موضوع المقالة ومحورها وهو «لى الشرف ألا أكون واحدًا ممن عفت عنهم الحكومة فلست ضعيفًا ولا هم بالأقوياء» .

هذا العنوان وحده يكفى لإثبات أن الحملة والنقد موجهان للحكومة لا لغيرها . فقد ذكر اسم الحكومة صراحة وعقب عليه بالعبارة الآتية (فلست ضعيفًا ولا هم بالأقوياء) . فمن هم الذين أجردهم من صفة القوة إلا أن يكونوا الوزراء الذين عرفتم رأيى فيهم ومقدار حكمى على أعمالهم .

ومع ذلك فلنمض فى المقال لنعرف من الذى قصدته بحملتى وهجومى أهى اللجنة أم هى الحكومة . وعندما تحدثت عن اللجنة فقد كان حديثى عنها باعتبارها شعبة من شعب الوزارة الحزبية لا باعتبارها هيئة قضائية لها كيان مستقل ولا صلة لها بالحكومة .

نص المقال موضوع المؤاخذة

قلت فى المقال بعد مقدمة فى تحليل العفو جاء فيها :

العفو والصفح مبعثه القوة ومحله الضعف فهذا الذى يعفو لا يمكن إلا أن يكون قويا وهذا الذى يطلب العفو لا يمكن إلا أن يكون ضعيفاً بخطئه أو ضعيفاً بطبيعته .

ولذلك كان العفو من مظاهر القوة فى ذروتها العليا .

فالله سبحانه وتعالى غفور رحيم فهو يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به

فالعفو من خصائص الله سبحانه وتعالى فهو الذى نقف أمامه جميعًا يوم القيامة خاشعين نادمين فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

ولقد جعلوا العفو على الأرض من خصائص الملوك ورؤساء الدول . ولقد تسلب الدساتير كثيرًا من حقوق رؤساء الدول ولكنها تقف عند هذا الحق حق العفو فلا تناله بتعديل أو تبديل لأنه حق التاج وحق الرئاسة وحق القوة الذى لا يستقيم مجتمع إلا به ولا ملكية إلا به .

وفى الحياة اليومية نغضب ثم نصفح فلا نشعر بلذة إلا حين الصفح . أما عند الغضب فلا يقوم فى النفس إحساس سوى المرارة والألم .

فالصفح الصفح والعفو العفو هما أقوى الظواهر النفسية التى تتعلق بالإنسان لأن مبعثهما الروح والروح من أمر ربى . ولقد شاءت الظروف أن تقف هذه الوزارة موقف العفو فأصدرت قانونًا تعفو به عن الجرائم السياسية وألفت لجنة لتطبيق القانون أو بالأحرى لتختار أناسًا وتترك آخرين » .

ولقد جاء فى آخر المقال ما يؤكد ذلك أيضًا وأن مقصدى إنما يتجه إلى الحكومة والوزارة : (فهو شرف كبير أن أظل القوى الذى لم يتلق العفو من هذه الحكومة فإن هذه الحكومة أهون شأنًا من أن تعفو عن أحمد حسين وهذه الحكومة لا يمكن أن يكون لها شرف العفو عن أحمد حسين وهذا عهد وهذا قسم أن أظل أتشرف بهذا الحكم لأنه سيكون أضحوكة الناس فى يوم من الأيام ولأنه سيكون إحدى دعابات التاريخ أن يقال عن أحمد حسين إنه أهان الجيش وهو الذى يريد خلق الجيش وهو الذى بذر الروح العسكرية فى صفوف الشباب .

سوف تسقط هذه الوزارة وسيجىء غيرها وسترى أن من واجبها أن ترفع الظلم وتصحح هذه الإجراءات ولكنى لن أقبل مطلقًا عفوًا مطلقًا عن هذا المقال بالذات ويجب أن أموت وأنا أحمل هذا الوسام) .

فالكلام يدور فى الواقع حول الحكومة والوزارة التى ستسقط والوزارة التى ستجىء مما لا يدع مجالا للشك كما قلت لكم لدى أى قارئ أن الحملة موجهة فى الواقع إلى الوزارة الوفدية أو بالأحرى النحاس باشا وزملائه الذين يحاربوننى فى كل مكان ويضطهدوننى فى كل مكان .

استعـــدادى للاعتـــذار

بقى أننى أشرت إلى اللجنة أكثر من مرة فى سياق المقال وهذه اللجنة كما كان يخيل إلى أنها تتألف من الأستاذ صبرى أبو علم والأستاذ يوسف الجندى وبعض موظفى وزارة الحقانية ولذلك فقد خاطبتهم فى المقال على هذا الأساس فقلت لهم (وماذا تكون الجرائم السياسية إذن أيها الموظفون الحزبيون الوفديون ؟) .

ثم قلت لهم فى عبارة أخرى (فالباعث وحده أيها التلاميذ الصغار الذين أوصلتكم الحزبية الممقوتة إلى هذا الموقف) .

فأنتم ترون من هذا أن الحديث موجه إلى موظفين حزبيين . وأننى أحارب التحزب الذى تمثله الحكومة أشنع تمثيل .

وإذن فمن التعسف والتجنى . وليس إلا الرغبة فى الكيد لا أكثر ولا أقل أن يقال إننى أردت بهذا المقال أن أهين حضرات المستشارين الذين كانوا أعضاء فى هذه اللجنة وأن أجرحهم .

وثمة دليل قاطع أقدمه على أن ذلك كان أبعد ما يكون من ذهنى ومقصدى هو أن النيابة عندما لفتت نظرى إلى هذه الحقيقة وهو أن فى هذا الكلام طعنًا على اللجنة وأن اللجنة تشتمل على بعض المستشارين . فما كان جوابى عليه إلا أننى لا أعرف أن اللجنة تتألف على هذا الشكل وأننى على استعداد أن أعتذر لحضراتهم. وأن أعلن ذلك على صفحات الجريدة وأن أسحب هذا المقال الذى كتبته لأنى أجل حضرات المستشارين والذين لى أكبر الثقة فى قضائهم لو أنهم كانوا جالسين كقضاة واستمعوا إلى وجهة نظرى .

بادرت بإظهار أسفى يا حضرات المستشارين وبإعلان استعدادى للاعتذار عندما علمت أن اللجنة تحوى عناصر غير حكومية أعنى غير حزبية . ذلك أنه لا خصومة بينى وبين أى فرد من غير هذه الحكومة الحزبية وكل موظف فى الدولة إنما يقوم بواجبه قدر اجتهاده ولو أن إهانة اللجنة كانت فى بالى أو فى مقصدى لما أظهرت أسفى ولما قبلت الاعتذار بأى وجه من الأوجه ولعلكم رأيتم من مرافعتى وعرفتم من أسلوبى أننى لست ممن يتراجعون عن تحمل مسئولية ما يقولون وما يفعلون .. وأننى لست الكذاب الذى أحتمى فى الكذب . وبدون أن أنتظر تصرف النيابة فى الموضوع بادرت بإظهار هذه الحقيقة على صفحات الجريدة فكتبت فى العدد الصادر فى ٤ مارس تحت عنوان :

تحقيق جديد مع الأستاذ أحمد حسين

فى مقالة لى الشرف أن لا تعفو عنى الحكومة فلست ضعيفًا وليسوا أقوياء:

«استدعت النيابة العمومية اليوم الأستاذ أحمد حسين للتحقيق معه فيما نشر بمناسبة عدم صدور العفو عن الأستاذ أحمد حسين فى قضية الجيش مما اعتبرته النيابة ماسًّا ببعض شخصيات اللجنة المذكورة من كبار القضاة وقد تولى التحقيق سعادة رئيس نيابة مصر فذكر الأستاذ أحمد حسين أنه لم يهتم بمعرفة الأعضاء الذين تتألف منهم اللجنة ولذلك فهو قد كتب ما كتب مهاجمًا الحكومة ورجال الإدارة مهما كان شأنهم وهو مصر على وجهة نظره فى هذا الموضوع.

أما فيما يختص برجال القضاء الذين تبين أنهم أعضاء فى هذه اللجنة فهو يحمل لهم كل تقدير واحترام وهو واثق من أن هؤلاء المستشارين المحترمين لو كانوا جالسين فى مجلس القضاء فيسمعون دفاع المتهم عن نفسه لكان مطمئنًا إلى قضائهم أيًّا كان لونه ولما كان عقب عليه بأى شكل من أشكال التعقيبات والمقال المكتوب واضح فى أن المقصود بالحملة هى الحكومة وقد وجب أن ننشر هذا التفسير.

وفى تمام الساعة الثانية انصرف الأستاذ أحمد حسين بعد أن قابل النائب العام وشرح له وجهة نظره».

أجل قابلت النائب العام وشرحت له وجهة نظرى وأفهمته بوضوح أننى أجل حضرات المستشارين وأننى ما قصدتهم فى حديثى لا تصريحًا ولا تلميحًا وأنا مستعد للاعتذار إليهم شخصيًّا..

إلى هنا كان من الواضح جدًّا أننى ما قصدت هؤلاء المستشارين الأفاضل وأننى أجلهم كل الإجلال. ففى ذات العدد الذى نشر فيه هذا المقال نشر فى مكان آخر خبر رفع الدعوى العمومية على فقابلت هذا بابتهاج.

وكتبت مقالاً تحت عنوان (أخيرًا يا بشرى ها نحن أمام القضاء بعد تلك البراءات التى حصلت عليها مصر الفتاة فى حوادث دمنهور وكفر الزيات).

ولقد اقتنع النائب العام بوجهة النظر هذه. وعرف أن لا لوم على ولا تثريب وأن هجومى إنما كان على الحكونة وأنظمة الحكومة..

ولقد كنت حتى هذه اللحظة من حديثى مع النائب العام لم أثبت فى محضر التحقيق فكرة أننى لم أعرف أعضاء اللجنة وممن تتكون وذلك خجلاً منى وحياء من أننى لم أعرف أعضاء هذه اللجنة ...

ولكن رئيس النيابة بعد مداولة مع النائب العام وإقناعهم بوجهة نظرى طلبوا منى أن أضيف هذه العبارة وأن أسجلها لأنها تقطع بحسن قصدى .. فبحثنا على سطر فراغ فى المحضر لنسجل هذه العبارة فوجدنا أن السطر الأخير يحتمل إضافة جملة تفيد هذا المعنى فأضفناها وكنا فى مكتب سكرتير النائب العام ..

ويكفى إلقاء نظرة على المحضر الأصلى كما يبدو لكم بوضوح أن هذه العبارات قد حشرت حشرًا وأنها كتبت بقلم آخر

(وعند هذا الحد من المرافعة عرض الأستاذ أحمد حسين على المحكمة المحضر الأصلى فظهرت فيه عبارة «ولم أكن أعرف أن اللجنة تتكون من قضاة» مكتوبة بالفعل بطريقة تدل على أنها أضيفت فيما بعد) .

فأنتم ترون يا حضرات المستشارين أن النيابة بأسرها كانت معى وكانت ترى رأيى . وأنه يكفى جدا أن أقرر هذا كما يثبت بوضوح أننى لا أعنيه .

وكان يكفى أن يسمع حضرات المستشارين بموقفى هذا كما يترفعوا عن أن يعتبروا أنفسهم موضع مساس . ولكن حضرات المستشارين لا يعرفون شيئًا عن هذا الموضوع حتى الآن ولو أنهم عرفوا لأظهروا استنكارهم من غير شك .

وهكذا لم يجد هذا التفسير . لأن سوء النية متوفر فنى اليوم التالى كنت أتحدث مع رئيس النيابة فى هذا الموضوع فأفهمنى أن أصحاب الشأن لم يقبلوا وطلبوا تحويل القضية إلى المحكمة . وسرعان ما حولت القضية . مع أن ثلاث قضايا سابقة عليها .. وبعضها كان مفتوحًا منذ عدة أشهر لم تقدم للمحكمة إلا بعد ذلك .

ويكفى هذا وحده لتقدروا رغبة الحكومة فى الكيد والاضطهاد .

اللجنة غير قضائية

أنتقل الآن لأثبت لحضراتكم أن هذه اللجنة غير قضائية . وأن الحكومة قد أرادت أن تشكلها على هذا الشكل كما يتسع لها سبيل المداورة وتحقيق أغراضها ..

هذه اللجنة ليست قضائية بموجب مرسوم إنشائها . وهى بعد ذلك ليست قضائية ويكاد يكون ذلك من البديهيات .

لجنة وليست محكمة

فهى ليست قضائية ابتداءً من هذا الاسم فقد سماها القانون لجنة .. وسمى قرارها .. قرارًا وليس حكمًا وهى بعد ذلك ليست قضائية فهذه أعمالها مسجلة فى محضر ليس مفتوحًا باسم جلالة الملك .. مع أن هذا هو مصدر سلطة القضاة وهذا هو الذى يقدس أحكامهم ويجعلها محل الاحترام .. وها هو قرار اللجنة ترونه مسطرا فى ورقة مطبوعة موقع عليه من وزير الحقانية ولا يحمل اسم جلالة الملك فهو ليس حكمًا وليس عمل اللجنة قضائيًا يتشرف باسم جلالة الملك .

لا وسيلة للاتصال بها وعملها سرى

هذه اللجنة ليست قضائية ويكفى لإثبات ذلك أن تعلموا أن المتظلم لا يستطيع أن يتصل بها . لا يستطيع أن يظهر أمامها لا يستطيع أن يلقى دفاعه فأين القضاء فى كل هذا .. ها أنا أمامكم تسمعون دفاعى وأنتم تمدون لى فى حبل الدفاع .

فكيف يمكن القول عن هذه اللجنة التى تأتى عملها بعيدًا عن المتظلمين وبدون سماع أقوالهم ..

أيريدون أن يسموا هذا قضاء .

حقيقة عرفنا فى العصور الوسطى نوعًا من هذا القضاء كان يجرى فى غياب المتهمين ويصدر أحكاما بالحرق .

فهل يريدون أن يقولوا إننا عدنا إلى العصور الوسطى فأصبحت المحاكم تقضى بهذا الأسلوب العجيب فى غياب المتهمين وبدون سماع أقوالهم .

يؤسفنى يا حضرات المستشارين أن أقول حتى هذه الإجراءات فى العصور الوسطى كانت محل مراجعة بعد ذلك فأين هى المراجعة التى نستطيع أن نلجأ إليها لنراجع إجراءات اللجنة .

لا حيثيات

هذه اللجنة غير قضائية فالقضاء مبنى على الإقناع فالحكم هو ثمرة الإقتناع فلكل حكم أسبابه وإذا خلا الحكم من الأسباب صار حكمًا باطلاً لأن الأسباب أو بالأحرى الحيثيات هى التى تحمل على احترام الحكم فهل فى قرار اللجنة حيثيات اسمعوا ماذا يقول

قرار اللجنة (حيث إن القضية المعروضة لا تمت للسياسة بصلة فقانون العفو لا ينطبق عليها) .

هذه هى كل حيثيات اللجنة لقد أقرت النائب العام فيمكن أن تسمى عملها هذا أى شيء إلا أنه حكم لأنه خلو من الأسباب والأسباب هى كل شيء وهى التى تدلنا على أن القضاء حق والحكم كان نتيجة اقتناع .

التظلم ومن الذى يعرضه على اللجنة

بقى يا حضرات المستشارين أن تعرفوا أن تظلمى يعرض عن طريق وزير الحقانية أى عن طريق الوزارة وهى التى شرحت لكم خصومتها معى ومع ذلك فهى التى تعرض قضيتى ماذا كان يستطيع حضرات المستشارين أن يفعلوا وهم يسمعون الدعوى من ناحية واحدة . ماذا كانوا يستطيعون أن يقولوا وهم يرون الحكومة تعرض عليهم من الأوراق ما تريد وتخفى عنهم من الأوراق ما تريد . ها هو دوسيه القضية فليرونا التظلم الذى قدمته وليرونا قبل ذلك ما يدل على أن اللجنة فحصت هذه القضية . إننى أشك يا حضرات المستشارين فى أن تكون اللجنة قد استعرضت أوراق هذه القضية وأغلب ظنى أن الوزير قد عرض عليها نص الحكم . والحكم لا يشير إلا لإهانة الجيش فرأت اللجنة أن الدعوى غير سياسية . ولكن هل يمكن أن تكون دعوانا حقا غير سياسية . هل يمكن وأنا الذى لا أعيش إلا من أجل الصالح العام ألا يكون ما أكتبه بغرض سياسى .

اسمحوا لى وقد تبين لحضراتكم أن اللجنة ليست لجنة قضائية بل هى لجنة سيطرت عليها الأنظمة الحكومية فجعلتها عرضة للخطأ اسمحوا لى أن أستعرض معكم وقائع هذه القضية محل العفو والتى قيل عنها إنها ليست سياسية .

قضية الجيش موضوع العفو

فلننتقل إلى موضوع القضية الأصلية التى لم يصدر العفو فيها لنرى هل كنت محقًّا فى غضبى أم أننى كنت متجنيًا على هذه النتيجة التى تمخضت عنها لجنة العفو ..

اسمحوا لى أن أتلو على أسماعكم هذا المقال الذى حكم على فيه .. ولسنا الآن فى مقام هذا الحكم وهل كان صحيحًا أم غير صحيح فهذا ما لا نتعرض له ولكنا فى مقام

هل كانت القضية سياسية أم غير سياسية وهل هى سياسية منذ النظرة الأولى أم لا .

حدث أننى أخذت أنظم فى ذلك الوقت سلسلة من الرسائل أبعث بها إلى الوزراء والإنجليز . فكتبت خطابًا إلى رئيس وزراء انجلترا وخطابًا إلى شيخ الأزهر ثم أرسلت خطابًا إلى وزير الحربية . أنعى عليه تحكم الإنجليز فى وزارته وعدم قيامه بواجباته كوزير وأطلب منه أن يفتح باب التطوع للشبان للانتظام فى سلك الجندية كيما يدخل إلى الجيش دمًا جديدًا وحياة جديدة وهاكم نص العريضة ونص الخطاب الذى أرفق بها :

(وهنا تلى الأستاذ نص العريضة والمقال)

خاتمة

يا حضرات المستشارين .. ها هى صفحتى قد نشرتها أمامكم .. صفحة مجاهد لا غاية له ولا مطمع فى الحياة إلا أن يكون مجاهدًا من أجل الله والوطن .. فقولوا كلمتكم فى هذه الصحيفة .. واعلموا أننى ما فعلت الذى فعلت عن أمرى أو لهوى فى نفسى ..

وإنما نتيجة لوحى العقيدة والإيمان بالصالح العام وخدمة المجموع ..

هذا الصالح العام الذى قد يدفعنى يومًا من الأيام أن أقف بجوار الوزارة الحاضرة لو أنها فعلت شيئًا من أجل الوطن ومن أجل الحق والقانون .

لى كلمة :

هذه مرافعة الأستاذ الكبير أحمد حسين فى عهد حكومة الوفد مرافعة جلية أظهرت الحق من الباطل وهى قبس من نور مصر الفتاة المجاهدة المناضلة . فى سبيل مجد مصر العزيزة .

وثيقـــة تاريخيـــة

رســـــالــة

من أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة

إلى

الهر هتلر زعيم الألمان فى إبان جبروته وسطوته

يونيو سنة ١٩٣٩

الطبعة الثانية

الولايات المتحدة يونيو سنة ١٩٤٧

كلمة تمهيدية

هذه رسالة بعثت بها الى هتلر فى يونيو سنة ١٩٣٩ باللغة العربية والفرنسية وطبعت ووزعت فى أنحاء العالمين وذلك كله عندما كان هتلر فى أوج قوته وعظمته وكان هناك فريق كبير من البشر يؤمن بأن المستقبل لألمانيا وأن سيادتها على العالمين كانت قاب قوسين أو أدنى . وفى ذلك الوقت الذى بلغ إرهاب هتلر للناس ذروته حتى لم يكن يجرؤ هؤلاء الذين حاربوه فيما بعد على الوقوف فى وجهه ، فى ذلك الوقت بعثت هذه الرسالة إليه أندد فيها بسياسته الخارجية التى تقوم على الرغبة فى السيطرة على بقية الشعوب فى الخارج وعلى اضطهاد اليهود فى الداخل . وفى هذه الرسالة أنذرته بأنه يندفع إلى إهلاك نفسه وإهلاك ألمانيا معه .

ورغبة منى فى إثارة الاهتمام بموضوع الرسالة وإظهار الأخطاء التى تنطوى عليها سياسة هتلر فقد وضعتها فى صورة مقارنة بين مبادئ الإسلام ومبادئ النازية وبين شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) وشخصية هتلر وختمت الرسالة بدعوة هتلر إلى اعتناق مبادئ الإسلام ونظرياته لإنقاذ نفسه وبلاده من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها ولم يدر بخلدى وقتئذ أن نهاية هتلر ستكون بأسرع مما تنبأت به له ولألمانيا .

ولقد جئت إلى هذه البلاد منذ شهرين كى أواصل هذه المهمة التى أخذتها على عاتقى منذ خمس عشرة سنة وهى أن أعمل على جلاء الإنجليز عن مصر وتحقيق وحدة وادى النيل من المنبع حتى المصب وهو مطلب المصريين الذين ناضلوا ويناضلون عنه منذ خمس وستين سنة ولن يكفوا عن هذا النضال حتى يبرح آخر جندى إنجليزى أرض الوطن .

جئت إلى هذه البلاد لأنشد الحرية فى بلاد الحرية فما راعنى إلا أقوام وقفوا لى بالمرصاد محاولين سد الطريق على بزعمهم أننى فاشستى وأننى كنت حليفاً لهتلر . وبالرغم من أننى أذعت ما ينفى هذه الفكرة الخاطئة ويثبت عكسها .فقد ظل هؤلاء الأقوام يرددون هذا الزعم لأنه فى ظنهم يخدم غايتهم .

من أجل ذلك أشار على بعض أصدقائى أن أطبع هذه الرسالة وأنشرها فى هذه

البلاد كوثيقة تاريخية ولقد ترددت فى بادئ الأمر خوفا من أن تفسر على أنها محاولة منى لعمل دعاية لدين الإسلام الذى أتشرف بالانتساب إليه ، والدعاية للإسلام فى حد ذاتها أمر جميل ومحبب بل وواجبة على كل مسلم ولكننى لم أحضر إلى هذه البلاد لهذه الغرض كما أننى قد أصبحت من أشد الناس عزما وتصميما على عدم مزج الدين بالسياسة وأن لكل منهما ميدانه الخاص به وسأكرس ما بقى من حياتى على تدعيم الوحدة العربية على أساس من القومية العربية لا النعرة الدينية

ولذلك فقد أحجمت فى بادئ الأمر عن إعادة نشر هذه الرسالة حتى لايساء تفسير المقصود منها مما قد يعرقل على مساعى فى الدعاية لتحرير وادى النيل ولكنى استخرت الله فى نهاية الأمر وعولت على إعادة طبعها بالعربية وترجمة نصها إلى الإنجليزية وذلك لخدمة الأغراض الآتية :

أولا : إنها رد كاف لهؤلاء الذين يزعمون أن لى ميولاً فاشستية وأننى عدو لليهود على أساس من الجنس أو الدين وسوف يرون فى هذه الرسالة إيمانى بالديموقراطية بل وإشادتى بالديموقراطية الإنجليزية وإنها أعظم ما رأيت فى أوروبا وأن ذلك قد قيل لهتلر فى وجهه إبان عظمته وسوف يرون فيها تنديدا بسياسة الفتح والغزو واضطهاد اليهود والالتجاء إلى العنف لحل القضايا الدولية .

ثانيًا : إن فى إعادة نشر هذه الرسالة تحذير لمن تحدثهم نفوسهم أن يتابعوا سياسة هتلر فى فرض سيادتهم العالمية بالقوة سواء كانوا فى الشرق أو فى الغرب فإنه يؤسفنى أن ألاحظ أن الحربين العالميتين الماضيتين على قسوتها لم يكونا درسا كافيا للبشر ولايزال هنالك أقوام يحلمون بمواصلة السياسة التقليدية ، سياسة التسلط والتحدى وإكراه الشعوب على قبول ما تكره .

ثالثًا : إن فى هذه الرسالة ملخص ما أهدف له فى هذا الوجود ، وهو أن أرى البشرية كلها متعاونة متآخية على اختلاف أجناسها وأديانها لا فرق بين كبير وصغير فردًا كان أو أمة وأن يكون تنافس الجميع فى نشدان الكمال العلمى والروحى وهذا ما يقربنا من ذات الله العالم المطلق والكمال المطلق هذا وإنى أشكر أخى وصديقى المجاهد والعالم والشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى على تفضله بالقيام بهذه الترجمة الحرفية الرائعة .

أحمد حسين

من أحمد حسين إلى الهر هتلر زعيم الألمان

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على من اتبع الهدى وآمن بالرحمن وبعد ..

فلعله قد أتاك من العلم أنه قد قام منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف نبي عربي بعثه الله فى شبه جزيرة العرب ليكون رحمة للناس . وهدى ونورًا للعالمين .. وجاء مبشرًا ومنذرًا وداعيًا لعبادة الله الواحد الأحد منزهًا عن التشبيه والقرين . ولعله قد جاء من العلم فيما جاءك أن هذا النبى قد ولد فى شعب أمي لا حضارة له ولا أثر من علم .. قد جاء للدنيا بأكمل تشريع وأقومه .. التشريع الذى يحقق للإنسانية السعادة فى الدنيا والآخرة . وماذا تقول فى تشريع يجعل الناس سواسية كأسنان المشط يتفاضلون ويمتازون بالتقوى .. لا فرق بين جنس وجنس ولا بين حر وعبد ولا رفيع أو وضيع .. لا فرق بين ملك ومملوك .. بين حاكم ومحكوم بين فقير أو غنى . الجميع لدى الله سواء . ولا نجاة إلا لمن جاء الله بقلب سليم . لاحياة ولا خلود فى النعيم إلا لمن آمن بالله وعمل عملا صالحا يرضاه الرحمن من فوق سبع سموات .

وإذا كانت أقدار الرجال تعرف بآثارهم . فلا بد أنك تسلم معى ولعل علماء قومك يسلمون معى إن أبيت أنت التسليم إنه لم يظهر فى البشرية فى كل تاريخها رجل كان له من الأثر فى حياة الإنسانية مثلما كان لسيدنا محمد ﷺ .. لقد كان رجلا أميا لايعرف القراءة والكتابة نشأ فى بلاد مفككة ممزقة لا حضارة فيها أو ظل حضارة .. تجهل الحكومة وكل معانى الدولة لاقانون يسودها إلا تقاليد وعادات متنافرة ومتضاربة .. وهم فى النهاية قليلو العدد والعدة يعيشون فى صحراء بلقع لا نبات فيها ولا ماء إلا ما يسد الرمق ويعين على مشاق الحياة .. من هذه البيئة القاتمة المظلمة انبثق نور محمد فأشرقت لوجهه الظلمات واهتزت لإيمانه الأرض والسمٰوات . وفى عشرين سنة كان إيمان محمد ونور محمد قد عم نصف الكرة الأرضية وامتدت الإمبراطورية الإسلامية إلى مشارق الدنيا ومغاربها .. ويالها من إمبراطورية كان عدل الرئيس فيها يصل إلى أبعد أطراف الأرض ويدخل أصغر البيوت وأحقرها ويجتاز أظلم الدروب وأقذرها .. إمبراطورية لم يحكمها السيف ولم يذلها المدفع بل جمعها وربطها ونظمها القرآن الذى هبط به الرسول الأمين من لدن الله على سيدنا محمد . تحت راية القرآن اتحدت هذه القلوب وتحت راية القرآن ذابت الجنسيات والقوميات والعصبيات والألوان والدماء وجلس الجميع على سرر متقابلين يتفاضلون بالتقوى ويتحاكمون إلى قرآن الله وينزلون عند حكمه طواعية وارتياحًا .

انتشـــار الإســـلام

وعاش هذا الإيمان متمكنًا من نفوس أصحابه وهم فى كل يوم يزيدون ويتكاثرون حتى بلغ تعدادهم الأخير أربعمائة مليون مسلم يؤذن بينهم المؤذن كل يوم خمس مرات «أشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمدًا رسول الله» ولاتزال موجة الإسلام زاحفة ... تغزو قلوبًا جديدة وتفتح معاقل جديدة ... وحسبك أن تسأل المبشرين من مواطنيك ـ وقد كان لهم نشاط فيما سلف من الزمان ـ حسبك أن تطالع تقاريرهم لتخرج منها بحقيقة عجيبة وهى أن جهودهم فى مدى نصف قرن من الزمان قد عجزت عن أن تحول مسلما عن إسلامه بينما يشاهدون باندهاش فى هذا النصف قرن موجة الإسلام وهى تغمر الدنيا فى أفريقية وتدخل إلى مواطن جديدة لم تكن طرقتها تدخل إليها على يد تاجر مسلم صغير لا يكاد يعرف من دينه إلا هذا الإيمان الفطرى المستقيم وهو أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . هذه الشهادة هى التى تتفتح لها قلوب البشر بغير حاجة إلى جهد أو استغواء .. فوحدانية الله حقيقة فطرية قل أن يرفضها أى منطق أو وجدان وتنزيه الله والإيمان به بعد ذلك مسيطرا على الكون مدبرا لأموره متصرفًا فى شئونه حيث يرى ولا يُرى .. لا تدركه الحواس ولكن تطمئن بذكره القلوب والمشاعر وأن يكون الله بعد ذلك مراقبا عليه . أو كما جاء فى كتابه الحكيم «فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره»

هذا الإيمان البسيط المستقيم هو الذى تتقبله الفطرة المستقيمة السليمة التى لم تبلبلها بعد أدران المدنية الحديثة الزائفة .. وتقبلها كذلك العقول التى أنضجها العلم والتفكير والثقافة . ولذلك كان الإسلام وسيبقى دائما أبدًا يسرى سريان النار فى الهشيم فى هذين الصنفين من الناس : من الذين لايزالون على الفطرة أو الذين جاءهم من العلم والنضوج الفكرى ما جعلهم يعودون إلى الفطرة السليمة . .

سر تأخر المسلمين

وإذا كان المسلمون منذ قرن من الزمان قد أصابهم خور وضعف .. قد وقعوا فرائس فى يد الاستعمار الأجنبى إذا كان المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يقدمون أسوأ الصور عن الإسلام وفعله فى معتنقيه ... فليس ذلك وحقك إلا لأنهم جهلوا الإسلام وذلك سبب طامتهم .. يظن البعض من الأوروبيين أن الإسلام كان السر فى تدهور الشعوب الإسلامية وتأخرها وهم لو عرفوا حقيقة الإسلام لأدركوا أن أوروبا لم تتمكن من المسلمين لأنهم يعتنقون هذا الدين ولكن لأنهم جهلوه واندفعوا خلف شهواتهم وخرافاتهم .. واتبعوا أهواءهم فتبددوا شيعًا وأحزابا وخلفوا وراء ظهورهم كتاب الله وسنة رسوله وتمسكوا بعادات وتقاليد وخزعبلات اعتبروها من صميم الدين وهى ليست إلا الخزى والعياذ بالله .

دين الحزم والعزة

وما ظنك بدين يطلب من جميع أتباعه أن يكونوا مجاهدين فى سبيل الله يلتفون حول رجل واحد وقلب واحد وينزعون عن قوس واحدة .. وماذا تقول فى دين يأمر أتباعه أن يجعلوا الحزم شعارهم وغايتهم والعزة مطلبهم وشوكة الإسلام هدفهم .. ماذا تقول فى دين يطلب من أتباعه أن يكونوا دائما أبدا على أهبة الاستعداد مرابطين بالثغور محصنين مداخل البلاد .. أشداء على أعدائهم رحماء فيما بينهم ... ولكن لا ليكون ذلك كله أداة بطش وبغى .. لا ليكون وسيلة للفتح وإذلال الشعوب .. لا

ليكون أداة للطغيان أو السلطان بل لينتشر فى ظل هذه القوة الإيمان والسلام والإخاء والمحبة بين الناس وأن يرهب القوى حق الضعيف فلا يغتاله ولا يختاله .

فالقوة وهى من صميم الإسلام ودينه هى قوة الخير ضد الشر وهى جنة الضعيف ضد القوى . فإذا كان المسلمون اليوم قد صاروا إلى هذا الضعف الذى هم عليه .. قد صاروا إلى مؤخرة الشعوب وفريسة للغاصب الأجنبى فليس ذلك إلا لأنهم جهلوا حقيقة الإسلام وآثروا دنياهم على دينهم فكادوا يفقدون الاثنين لولا أن الله قد تداركهم برحمته فأيقظهم من سباتهم فى الآونة الأخيرة فراحوا يراجعون أمورهم ويتدبرونّ ماضيهم وحاضرهم وأمسهم ويومهم .

دين الوحدة والنظام

وإذا كان المسلمون اليوم مبعثرين مفككين لا وحدة تربطهم ولا جامعة تجمعهم فالإسلام برىء من ذلك وهو دين التوحيد والوحدة وهو الذى يدعو المسلمين للاعتصام بحبل الله وينذرهم عاقبة التفرق .. وهو الذى يدعوهم للوقوف كتلة واحدة كالبنيان المرصوص .. وهو الذى يجعل لهم هدفا واحدا ومقصدا واحدا وكيفية واحدة فيجمعهم فى مشارق الأرض ومغاربها للاجتماع فى صعيد واحد أشبه بما تفعله فى مؤتمرك السنوى فى نورمبرج يجمع الإسلام والمسلمين من أنحاء العالم ليطوفوا بالكعبة مرتدين زيا واحدًا وينطلقون بصلاة واحدة فلا تعرف أيهم الراعى وأيهم الرعية وأيهم الخادم وأيهم السيد ..

هذا هو الإسلام دين التوحيد والوحدة ، وهو دين النظام والقيادة فلا تصح صلاة جامعة ما لم تكن الصفوف منظمة والمصلون متراصين متلاصقين أشبه شيء بنظام الجند الحديث يقودهم إمام يتكلم وينصتون ثم يركع ويركعون ويسجد فيسجدون ويختم الصلاة فيختمون . والويل لمن خالف الإمام أو سبقه فى حركته أو نبس بكلمة وهو يتكلم . أليست هذه هى القيادة الموحدة للصفوف الخالقة من الجماعة صوتا واحدا وقلبا واحدا وروحا واحدة ؟ ولقد شهد لى وزيرك المفوض فى مصر البارون اخندروف فقال إنه قد امتلأ إعجابًا بهذه الصورة الرائعة للمسلمين فى رمضان وهم ممسكون جميعا عن الطعام حتى تغيب الشمس حتى إذا ما غابت أكلوا وشربوا . فى مشارق الدنيا ومغاربها يكف المسلمون عن الطعام ثم يقبلون عليه فى ساعة واحدة ودقيقة معينة . فأى ضبط للنفس وأى توحيد للجماعة خير من ذلك ؟ هذا هو الإسلام وتلك هى الروح الإسلامية : ديموقراطية فى غير ما عبث أو مجون .. حرية فى غير ما فوضى أو استهتار .. وفى ما غير شيوعية متطرفة أو إباحية .. تعاون بين الغنى والفقير وإحسان ينظمه الدين فى غير ما اشتراكية متطرفة أو تحكم طبقة من الطبقات .. ولست بقادر أن أبرز لك محاسن الإسلام ومفاتنه . لست بقادر أن أصور لك عظمة هذا الدين القيم ومدى ما يؤثر به على النفوس . كيف يحيل الجبان شجاعا والبخيل كريما والضعيف قويا عزيزا فهو عندى خير علاج لأمراض البشرية فى الآونة الحاضرة . هو البلسم الشافى لجراحاتها وهو وحده القادر على إنقاذ السلام ونشر العدل وإشاعة الخير بين الناس . وهذا ما جعلنى أفكر طويلا فى أمرك وأمر أوروبا وما ينتظرها من مصير محزن تندفع إليه بشدة .

الفضائل الانجليزية والاسلام

لقد كان من حظى أن زرت أوروبا فى العام الماضى وزرت بلادك بصفة خاصة وزرت من قبلها بلاد الإنجليز فراعنى فى بلاد الإنجليز مظهر وراعنى فى بلادك مظهر آخر . راعنى فى بلاد الإنجليز ديمقراطية عميقة تسود مجتمعها . هذه الحرية الشخصية التى يستمتع بها كل إنجليزى . بل راعنى اعتداد الإنجليزى بشخصيته وإحساسه العميق بحريته وأنه لا يمكن لمخلوق أن يتحكم فى نفسه أو عقليته . ذلك مظهر ملأنى إعجابا بالإنجليز وهو فى النهاية ليس إلا أحد تعاليم الإسلام . فهكذا يريد الإسلام من تابعيه أن يشعروا بكرامتهم وأن يستمتعوا باستقلالهم الشخصى وحريتهم ما داموا يقومون بواجبهم المفروض نحو الجماعة وما داموا لا يخالفون أحكام الله وأولياء الأمر الذين يعملون وفق طاعة الله .

الوطنية الاشتراكية والإسلام

وفى بلادك راعنى إيمانك بالله وجهادك فى سبيل مثل أعلى تتصوره ونشرك هذا الإيمان بين أتباعك وأنصارك . وراعنى كيف ملأك هذا الإيمان شجاعة وقوة وكيف فاض منك فملأ أتباعك وجندك . هذا الإيمان بالله الذى تعبر عنه فى كل كلمة تنطق بها والذى آثرت به على نفوس أتباعك حتى قال أحدهم وهو رئيس أنصار جبهة العمل إن هتلر هو الذى علمنى الإيمان بالله وليست الكنيسة . هذا التصريح الخطير ليس إلا معبرا عما يجول بخاطر الملايين من الألمان .

وأخيرا عزوفك عن الشهوات وبساطتك فى ملبسك ومسكنك واستنكارك لشرب الخمر ورغبتك فى إبطال الخمور فى بلادك . وفرضك على الشعب الألمانى الرجوع إلى ألوان من الفضلية كادت تكون نسيًا منسيا فى الصحف والأدب والفن وفى الحياة المنزلية وفى الطرق وفى المعاهد . كل هذا كان من شأنه أن يجعلنى أطيل التفكير فى أمرك **فانتهيت إلى أنك تنطوى على خير كثير ولكنك تسير فى طريق خاطئ لا يلبث أن ينتهى بصاحبه إلى الهلاك وإلى إهلاك الناس معه . فلا أنت ولا الشعب الألمانى تحملون للعالم رسالة جديدة ولا تتقدمون للإنسانية بشئ يخفف من شقائها وويلاتها . أنت تنادى ومن ورائك شعبك بضرورة تحقيق الرفاهية للشعب الألمانى وأخذ نصيبه الكامل من المواد الغذائية ومن الأموال والثروات والمستعمرات . وهذا حسن ولكن هل الثمانون مليونا من الألمان هم كل العالم . الجواب لا وليسوا هم كثرة العالم . وهم لا يعدوا أن يكونوا جزءا صغيرا بالنسبة لبقية العالم فماذا أعددتم للشعوب الأخرى إذن وما هى رسالتكم لإسعادها . لا شئ. لا شئ.**

أنتم تندفعون بقوتكم تحدوكم رغبة قوية فى السيطرة على العالم . وماذا بعد إذلال العالم لا شىء برنامجكم لا يحتوى شيئًا . فمن لم يكن ألمانيًا لا يمكن أن يصبح ألمانيًا .. والويل لمن لم يكن ألمانيًا سوف تطأونه بالأقدام وهذا ما يجعل العالم إن آجلاً وإن عاجلاً يهب بأسره للدفاع عن نفسه ضد سيد لا يريد إلا السيطرة عليه وإذلاله . ضد سيد لا يقدم له علاجًا لأمراضه الروحية وآلامه المادية .

المشكلة اليهودية

أنت تطرد اليهود من بلادك وتريد تطهير ألمانيا منهم . وقديمًا حاول سيدنا محمد عليه الصلاة

والسلام أن يعيش مع اليهود وأن يتألف قلوبهم وأن يتعاون معهم فرفضوا وبادروه بإعلان الحرب فعمل على إجلائهم ولكن سيدنا محمد لم يكن فى ذلك يظلمهم فقد كان حسب أولئك اليهود أن يدخلوا فى دينه أو يهادنوه مخلصين حتى يعصموا أنفسهم وأموالهم منه ولكنهم لم يفعلوا بل ظلوا حربًا عليه وعلى دينه وحربًا على رسالته فكان طبيعيا أن يعمل على إجلائهم من شبه جزيرة العرب إبقاء على كيانه وعلى دعوته . **أما أنت فإنك تظلم اليهود لأنك لا تدعوهم للدخول فى دينك وهب أن اليهود آمنوا بك وبرسالتك . هب أنهم أرادوا أن يخلصوا لك ويتفانوا فى تأييد دعوتك فإن هذا لا ينقذهم من سخطك ولعنتك ولذلك فأنت تظلمهم وتثير على نفسك خصومة يائسة لا أمل لها فى الحياة إلا بالقضاء عليك وعلى ألمانيا .**

الإسـلام والغـزو

ولقد أرسل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ومن بعده خلفاؤه جيوش المسلمين ففتحت الدنيا المشارق منها والمغارب ولكنها لم تكن جيوش عدوان واغتصاب بل كانت تدعو إلى نور جديد ، إلى إنقاذ الإنسانية من الظلمات إلى إكرام بنى الإنسان بالشهادتين كانت جيوش الحق تحمل للناس لواء الإسلام والسلام فمن دخل فى هذا الدين الجديد ارتفع فورًا إلى مرتبة الفاتحين وعصم ماله ودمه منهم بل ولم يعد هناك فارق بينه وبينهم ومن هنا كانت الأمم الضعيفة والمظلومة تبادر إلى استقبال هذه الجيوش الفاتحة لتمنحها الكرامة والحرية ولتعطيها حقوق الإنسان .

أما أنت فإنك تريد أن تغزو وأن تفتح لا لتنشر كرامة ولا لتنقذ ضعيفًا ولا لتعتق أسيرًا ولا لتحرر ذليلاً . بل لتخضع الشعوب لسلطانك ، لتخضعها لسيطرتك ، لتحكمها ولتكون محكومة بقوتك فماذا فى هذا وأى قيمة لذلك ؟ لقد شاهد التاريخ أشخاصًا فتحوا الدنيا بأسرها وغزوها كالإسكندر وانيبال ونابليون الذى ذرع أوروبا من مشرقها لمغربها ودانت لسلطانه . فماذا أنتج كل هذا وأين هؤلاء الأشخاص الآن وما هو تأثيرهم فى الحياة ؟ لا شىء . لا شىء بل لا يكاد يعرفهم إلا أفراد قلائل إذا قيسوا بالنسبة لمن يجهلونهم . العظمة الحقيقية هى إذن ليست فى الغلبة المادية وليست هى فى قوة البطش والسلاح ولكنها فى التراث الروحى الذى يقدمه الرجل للبشرية . هذا التراث الروحى الذى يحمل الأمل والسعادة لملايين من الناس فى كل زمان ومكان هو وحده الذى تقدسه الإنسانية وتمجده وتنحنى له كل صباح ومساء .

وهذا ما حدا بى إلى أن أبعث إليك بهذا الخطاب أناقشك فيه وأدعوك لدراسة الإسلام وحقيقته .

دعـوة لا ينبغـى أن تهمـل

قد تبدو هذه الدعوة غريبة منى . قد تسخر منها كما سيسخر منها الكثيرون عند السماع بها . ولكنك فى هذه الحالة تكون مخطئا نحو عظمتك وتكون قد ألحقت بها نقصا لن تقدر على إكماله أبدا . ذلك أننى أدعوك إلى أن تفحص هذه الدعوة التى أدعوك إليها فقد يكون من وراء قبولها خير وقد يكون من وراء إهمالها الشر كل الشر .

إنى أدعوك إلى ما يكمل عظمتك وما يجعل لجهادك رسالة معينة تفيض على الإنسانية فى القرن العشرين إننى أنا الذى يكتب إليك هذه السطور قد تعلمت كما تعلم الناس . وقد طالعت كثيرا وفكرت كثيرا ، وسافرت وجبت البلاد منقبا ودارسا ، فكنت أنتهى دائما إلى نتيجة واحدة ألا وهى الإسلام . الإسلام هو الذى ينقذ وطنى من ربقة الاستعمار ، هو الذى ينقذ الشرق بأسره من ربقة الاستعمار وسلاسل الذل وأخيرا هو الذى ينشر السلام فى أوروبا ويضع حدا للكارثة التى تندفع إليها ،عليك بالإسلام وبرسول الإسلام تسلم وتستطيع أن تطمئن إلى أنك تقدم للإنسانية خيرًا . **أما اليوم وبهذا الطريق فما أخوفنى عليك فى النهاية لأن العالم لا يمكن أن يقبل عليه سيدًا . ونحن فى مصر بل وكل مسلم لا يمكن أن يقبل تحكمًا وإذا كان قد قبل هذا التحكم بالأمس فذلك لأنه كان فى غفوة وسنة من النوم . أما اليوم فقد دبت إليه اليقظة التى تشتد من يوم لآخر ومن ساعة لأخرى . وحسبك دليلاً على هذا الذى يجرى الآن فى فلسطين وما سيجرى فى سوريا ، وما سيقع بعد ذلك فى كل شبر من البلاد الإسلامية من الدعوة للتحرر والاستقلال والعودة إلى التمسك بالدين فالعالم الإسلامى لن يقبل بعد اليوم تحكمًا أو تغطرسًا أو استبدادًا فإذا كان ما يطمعك فى السيطرة على العالم ووراثة مستعمرات الإنجليز والفرنسيين هو ما تراه اليوم من ضعف المسلمين فاعلم أن هذا الضعف قد أوشك على نهايته ، وأن روح الإسلام ترفع رأسها من جديد فى كل مكان .**

وبعد ، فهذا خطاب أردت عن طريقه أن أؤدى واجبى كمسلم يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وسوف يتخذه البعض هزؤا وسخرية وقد تعتبره أنت اجتراء وادعاء على أن ذلك قد ضاعف إحساسى بوجوب كتابته وإرساله إليك ، كما سأرسل إلى السنيور موسولينى وإلى المستر روزفلت وغير هؤلاء من رؤساء الدول . فقديما عندما كانت بيزنطة تحارب الفرس ويتنازعان العالم بينهما وكان قيصر يحارب كسرى ويقاسمه المجد بعث نبينا محمد خطاباته إلى كسرى وقيصر يدعوهما إلى الإسلام ... هذه الرسائل لم تزد على سطر أو سطرين والتى يقول النبى فى إحداها : «أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن تتول فإن إثم الأكاريين عليك .» كان عجبًا أن يبعث ذلك العربى الذى لم يكن قد سيطر بعد على شبه جزيرة العرب هذه الرسائل إلى قيصر وكسرى . ولكنه الإيمان بالله والنزول عند حكمه وقد هزأ كسرى ومزق الخطاب فمزق الله ملكه بعد قليل وكذلك هرقل .

ولا تزال رسالة الإسلام حية قائمة لم تهن ولم تضعف وباسمها اليوم ولأجل سلام العالم أبعث بهذا الخطاب إليك فإن شئت أجبت ما دعوتك إليه واهتممت بدراسة رسالة الإسلام والوقوف عليها ، وان شئت هزأت بالخطاب واحتقرت شأنه وعندئذ لا أكون قد خسرت شيئا لكنك تكون قد خسرت كل شىء..

وإنى أسأل الله أن يهديك سواء السبيل وأن يلهمك طريق السداد والرشاد لخيرك وخير شعبك وبقية العالم . «والله أكبر ... الله أكبر !»

من وراء القضبان

تصدير

مواطنيّ الأعزاء :

ترددت كثيرًا قبل أن أقدم هذا الكتيب للنشر ، ذلك أننى أحب أن أقدم للناس شيئًا إيجابيا يعود عليهم بالفائدة . ولا أحب أن يكون شخصى محل اهتمامهم أو تفكيرهم وهذا الكتاب خال من العنصر الإيجابى . وكان ذلك سبب إحجامى عن نشره .

ولكنى ساءلت نفسى أليس مجرد الحكاية أو القصة شيئا يراد لذاته باعتباره لونًا من ألوان الفن الذى يرفه عن النفس ويسليها فى أدنى درجاته ، ويسمو بها فى درجاته العليا ؟

لقد قيل لى إن فى هذه المذكرات لونًا من ألوان الحكاية والقصة ، ولست أشك لحظة فى أنها لا يمكن أن تدرج فى سلك الفن العالى أو الجيد ولكنها لا تخلو من ناحية أخرى من تسلية ومن عنصر تاريخى ، سواء بالنسبة لحياة مواطن ، أو بالنسبة لحياة الوطن بالذات .

فبين دفتى هذا الكتاب الصغير حوادث سريعة متلاحقة وقعت لى فى المدة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٤ وهى متصلة بكل ما تعرض له وطننا العزيز من أحداث فى هذه الحقبة سواء فى الداخل أو فى الخارج ، وقد يكون هناك كثيرون عاشوا هذه السنوات فلا يقدم لهم هذا الكتاب جديدًا من هذه الناحية . ولكن هناك أيضًا جيلاً كان فى ذلك الوقت صغيرًا لا يدرك هذه الأحداث ، ومن الخير أن يحيط بها ، ولذلك فقد أقدمت بعد التردد ووافقت على نشر هذا الكتاب .

فليطالعه القراء بروح التسامح ، وهم واثقون مطمئنون إلى أننى لم أقل لهم فى كل حرف من حروفه إلا صدقًا وحقا ، وأن الإخلاص لله والناس الذى هو محور حياتى مصوّر فى كل كلمة وفى كل عبارة من عبارات هذا الكتاب ، وإنه ليؤسفنى أن حجم الكتاب المحدود قد اضطرنا إلى أن نرفع قسمًا كبيرًا منه ، وهو القسم الذى يصف بإسهاب حياتى فى السجن والمعتقل ... وإننى أشكر من أعماق قلبى إخوانى المشرفين علىَ إدارة «كتب للجميع» أن هيأوا لى فرصة الاتصال بالشعب الذى أعتبر نفسى خادمه

أحمد حسين

أمـــر الاعتقـــال

كان ذلك فى الرابع من شهر مايو سنة ١٩٤١ وكانت الثورة العراقية قد أُعلنت منذ أربع وعشرين ساعة . وقد انضم إليها الشهيد مصطفى الوكيل نائب رئيس «مصر الفتاة» الذى كان مدرسًا بالعراق وأعلن باسمى تأييدنا للثورة . فرئى أنه لا يمكن السماح ببقائى حرا فى مثل ذلك الظرف . فصدر الأمر باعتقالى بعد مرور عامين تقريبًا منذ بدأت الحرب مع أننا كنا نتوقع أن نعتقل منذ الدقيقة الأولى لاشتعالها . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث وليس من المستطاع تحرى الأسباب التى وفرت علينا مؤونة الاعتقال منذ اللحظة الأولى ، وربما كان السر فى ذلك رغبة القائمين بالأمر فى ذلك الوقت فى عدم إعطاء مصر الفتاة هذه الأهمية ، أو بالأحرى ذلك الشرف ، وكيفما كان الأمر فقد صدر أمر الاعتقال وكان ذلك فى وزارة حسين سرى باشا . كنت جالسا على مكتبى بإدارة الحزب عندما دق جرس التليفون وكان المتكلم أحد رجال القسم السياسى الذى لم يزد على كلمة واحدة غامضة «حانشرف» ثم أغلق التليفون فأحسست بقلبى كل شىء. وأدركت أنه الاعتقال فى نهاية الأمر.. خرجت أعدو من حجرتى لألوى على شىءوكان فى حجرة الانتظار من كان ينتظر الدخول ولكن لم يكن هناك مجال للتفسير ، ولم يكن أمامى إلا أن أفر وأن أعدو بأقصى سرعتى تاركًا هذا المكان على الفور إذا رغبت فى الاحتفاظ بحريتى . وكان علىَّ أن أحذر الأستاذ محمد صبيح كذلك فرحت أناديه وأنا أهبط السلم مسرعًا فلحق بى فى نهايته والقلم فى يده وهو يسائلنى فى لهفة : ماذا جرى ؟ ماذا حدث ؟ فقلت له : أسرع . أسرع معى ودع كل شىء ، فهم فى الطريق . وقد كانت هذه الجملة المبهمة كافية لكى يفهم منها صبيح كل شىء فأسرع يعدو إلى جوارى حتى غادرنا دار الحزب والشارع المؤدى إليه وتبادلت وصبيح كلمات قلائل تتلخص فى وجوب الاختفاء عن أعين البوليس ريثما تنجلى المسائل ونعرف مصيرنا وماذا يراد بنا

وامتطيت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يسرع بى إلى البيت ٤٦ شارع قصر العينى ، ولكن خاطرًا طرأ على ذهنى فجأة جعلنى أهتف بالسائق : لا تذهب إلى قصر العينى بل توجه إلى المنيرة ، إلى ٧ شارع عمر بن عبد العزيز سابقًا أو بالأحرى منزل والدى الذى يقع على بعد مائة خطوة من منزلى ، فصدع السائق بالأمر واتجه صوب

المنيرة ... وهنا رحت أعتب على نفسى هذا المسلك الذى بدا لى غير متفق مع الوقار الذى ينبغى أن أتصف به .. لماذا عدوت هكذا وأنا أغادر دار الحزب ؟ أما كان يمكن أن أسير فى اتئاد ؟ إنهم لن يحضروا بسرعة البرق من غير شك ومن يدرينى أن هذا المتكلم فى التليفون لم يكن إلا ماجنًا يحاول العبث بى ؟ ولماذا غيرت سير التاكسى وطلبت منه أن يسير فى هذا الطريق المتعرج نحو المنيرة بدلاً من هذا الطريق المستقيم . ؟ لماذا كل هذا الإسراف فى الحيطة وما هى مبرراته ؟ ومضت لحظات لم أرتح فيها إلى تصرفى ورحت أنحو على نفسى باللائمة ، ولكن السيارة كانت قد وصلت إلى البيت المنشود فقطعت علىَّ سلسلة أفكارى وكفتنى مؤونة لوم نفسى وتعنيفها ..

كتبت ورقة صغيرة إلى زوجتى أطلب منها بعض الملابس والنقود وأخطرها أننى سأتغيب لبضعة أيام فلا تقلق علىَّ ، وحمل البواب هذه الرسالة إلى زوجتى وعاد بعد عشر دقائق يحمل أضخم الأنباء فهو لم يكد يصل إلى البيت الذى يقع على بعد خطوات من هذا المنزل الذى أنا فيه ، حتى وجده محاطًا برجال البوليس والضباط الذين جاءوا لاعتقالى ، وتحت أنظار البوليس تسلمت زوجتى هذه الرسالة التى بدت بريئة فى ذلك الوقت لا علاقة لها بى ، وتحت أنظار البوليس أيضًا حمل البواب هذه الربطة الصغيرة التى بعثت بها زوجتى إلىَّ كما طلبت ، مصحوبة بالتعليمات اللازمة ، أن لا أقترب من المنزل لأنهم فى انتظارى ليقودونى إلى الاعتقال ، وفى نفس الوقت الذى كان البوليس يدهم منزلى كانت فرقة أخرى تدهم دار الحزب لنفس الغرض . وبعد ثوان قليلة من مغادرتى للدار . وإذن فقد كان إحساسى صادقًا لم يكذبنى وهو يستحثنى للجرى والعدو بأسرع ما أستطيع ، وكان إحساسى صادقًا وهو يصرفنى عن الذهاب إلى بيتى واستبداله بمنزل والدى فحمدت الله على هذا الإحساس الصادق ورأيت فيه آية توفيق ورضا .

واستحضر لى البواب هذه المرة (تاكسيا) فنزلت إليه مسرعًا وطلبت منه أن يسرع بى إلى المحطة ، ولم يكن فى حسابى أن أسافر ولم تكن لى خطة معينة ، ولكن كان يجب على السيارة أن تنطلق وتبتعد بى عن هذا المكان الذى يرابط فيه البوليس على بعد خطوات منى .

وانطلقت السيارة نحو المحطة وكنت محتفظًا بكل سماتى العادية ولذلك فقد مررت بأصدقاء حيونى، ورددت التحية ، بل مررت ببعض ضباط البوليس الذين يعرفوننى وأعرفهم فابتسموا لى وابتسمت لهم ، ولم يدر بخلدهم لحظة أنه لن تمضى ساعة واحدة حتى توضع جائزة ضخمة لمن يعثر علىَّ ، ويهتدى إلى مكانى وكانت السيارة قد وصلت

إلى العتبة . وهنا فقط أدركت أن لا جدوى من ذهابي إلى المحطة فقلت للسائق سنذهب إلى شبرا ، بل عد بي إلى الحلمية ، ووقف السائق حائرًا ، وأخيرًا خطرت لى فكرة فقلت له على الفور سنذهب إلى العباسية وهذا شارع فاروق أمامك فاجتزه بنا .. وهنا تلفت السائق ليتعرف على هذه الشخصية التى لا تعرف أين تذهب ، والتى يبدو عليها القلق والاضطراب . وكان جليا أن السائق قد داخله الشك وساوره القلق ، ولكنه صدع بالأمر فى النهاية واندفع بى صوب العباسية . وفى منتصف الطريق نزلت وأعطيت السائق ، الذى حدق فىَّ بكل قوة ، أجرته ، وتريثت ريثما يتحرك ثم انحرفت إلى بعض الحارات والأزقة ، وانتهيت إلى الدار التى وقع اختيارى عليها لأفكر قليلاً فيما أنا مقدم عليه ولأرسم خطتى وأدبر شئونى .

وحتى هذه اللحظة لم يكن البوليس قد اكتشف أننى قد اختفيت وأننى معتزم الفرار من وجهه . وكل مافى الأمر أنهم لم يعثروا علىَّ فى المنزل أو المكتب ولكنى لا بد عائد إلى أحدهما ، فانتظر الضباط فى حجرة مكتبى بالحزب ومكتبى بالمنزل ، وقدمت لهم القهوة فى هذا المكان الأخير واتصلوا برؤسائهم وأعلموهم بغيابى فطلبوا منهم الانتظار . ومضت ساعة وثانية وثالثة ولم أرجع إلى المنزل ، وبدا شىء من القلق يساور القوم ولكنهم لم ييأسوا إلا فى الساعة العاشرة مساءً عندما لم أظهر فى البيت أو فى دار الحزب ، فأدركوا أن العصفور قد طار من القفص ، وأن اعتقال أحمد حسين لن يكون هذه المرة سهلاً هينًا ، فليست المسألة مسألة سجن ونيابة وقضاء حيث يتمتع الإنسان بكافة الضمانات ، ولكنه اعتقال مجهول المدة بغير ضمانات أو حماية من أى لون كان .

* * *

قضى الأمر إذن ، وأصبحت طريد الحكومة والبوليس منذ اللحظة التى آثرت فيها أن لا أنفذ الأمر القاضى باعتقالى ، وأن أعمد إلى الهرب والفرار وقد كانت هذه مفاجأة لرجال البوليس والإدارة لكثرة ما ألفوا ترحيبى بالسجن والاعتقال وأننى أجد سعادتى الكبرى فى الإخلاد إلى هدوء السجن لعبادة الله وتلاوة القرآن ، فلطالما وقفت بين جدران المحاكم أطالب القضاة أن يحكموا علىَّ بالسجن لا الغرامة وأوثر عنى قولى «إن السجن هو المكان الطبيعى لشاب حر ...» ومن هنا فلم تدر فكرة الهرب من الاعتقال ببال البوليس لحظة واحدة فلم يتخذ احتياطاته ولم يضعنى تحت المراقبة اطمئنانًا إلى استعدادى لتلبية أمر الاعتقال بمجرد سماعى به ، ولكن البوليس كان مخطئًا فى هذه الفكرة ، فقد كان الوقت متغيرًا كل التغيير فى ذلك الوقت فالسجن فى ظل القانون

العادى كما أشرت فيما سبق هو مكان محكوم بقوانين ثابتة ، وفى هذه القوانين كثير من الضمانات التى تحمى السجين وتحول دون العسف به وإطالة مدة سجنه بغير داع أو مقتض ، فلا يكون السجن مثلا إلا بحكم من القضاء وإلا لجريمة معينة ، وإلا بعد أن يستنفد الإنسان كل وسائل الدفاع عن نفسه وإظهار براءته ، وهناك فى نهاية الأمر لا يلبث السجين بعدها أن ينطلق حرا . أما بالنسبة للاعتقالات فلا أنظمة ولا ضمانات ولا قوانين ثابتة يستطيع أن يحتمى بها الإنسان ، أو مدة معينة يؤمل الإنسان بعدها فى الإفراج ، وإنما كل شىء رهين بأمر الحاكم العسكرى ، إن شاء أودع المعتقل فى قصر من القصور وسط الحدائق . وإن شاء زج به فى سجن التخشيبة أحد سجون العصور الوسطى ، وإن شاء أودعه سجن مصر فى زنزانة لا يبرحها ، أو أبعده إلى الطور ، ليقيم وسط المجرمين والأشرار ، أو أسكنه فى أحشاء الصحراء تحت وابل من القنابل والنيران . وذلك هو ما حدث وطبق بالفعل . فشهدت هذه الأمكنة كلها معتقلين سياسيين . وقد كان اعتقالى هو أول تجربة من نوعها فى مصر ، فى ظل هذه الحرب . فقد كنت أول رئيس حزب رأت السلطة أن تعتقله ، ولما كنت مشهورًا بتطرفى فلم أكن أعرف ماذا يكون مآل اعتقالى ، وهل أبقى فى مصر ؟ أم أننى خارج الحدود ؟ وهل تساء معاملتى أو تطيب ؟ .

على أن ذلك كله لم يكن هو السبب الذى حملنى على الفرار من تنفيذ أمر الاعتقال من غير شك ، فلقد آليت على نفسى أن لا أفر من تضحية مهما كانت ، وأن أحتمل كل صنوف العنت والإرهاق . إنما المسألة كانت مسألة هذه الثورة العراقية التى اشتعلت نيرانها فجأة فى القطر الشقيق والتى تطوع فيها شهيدنا الدكتور مصطفى الوكيل ولم يكن يعرف إنسان فى ذلك الوقت مدى تطوراتها ونتائجها وما تنتهى إليه ، فأيقنت أن واجبى يحتم علىَّ أن أظل محتفظًا بحريتى أطول مدة ممكنة ، لأستطيع أن أخدم وطنى فى الوقت المناسب برأيى ولسانى وقلمى وهكذا آثرت الفرار ، فانطلق البوليس فى أعقابى ، بل تحولت قوة الدولة كلها لاقتفاء آثارى ، وإنها لقوة ضخمة ليس من السهل مواجهتها ، وليس يعرف ذلك إلا من عانى ذلك وجرب .

وبدأت هذه المعركة الصامتة الخفية بينى وبين رجال البوليس الذين شرعوا يقلبون الدنيا رأسًا على عقب بحثًا خلفى بعد أن هددهم الحاكم العسكرى فى ذلك الوقت بأشد العقوبات إن لم يعثروا علىَّ .

شـيخ

كنت قد قضيت الأيام الأربعة أو الخمسة عقب صدور الأمر بالاعتقال ، محتفظًا بزيى العادى ، إلا أننى لبست منظارًا أسود من هذه المناظير الخاصة بحجب ضوء الشمس ، ولما كان ارتداء مثل هذا المنظار يثير الشبهات بطبيعة الحال ، فقد كنت أضع قطعة من القطن على إحدى عينى كأننى أشكو من مرض بها ، وبهذا أصبح ارتداء المنظار الأسود أمرًا عاديًّا وطبيعيًّا ولقد كنت أستخدم سواد الليل الحالك للانتقال من مكان إلى مكان ومع ذلك فقد كان أخشى ما أخشاه أن تنم علىَّ صورة مشيتى ، ولكل إنسان كما هو معروف مشية مخصوصة وجو خاص يحيط به ، يستطيع المقربون إليه أن يعرفوه عن بعد ، ولذلك فقد كنت أتعمد إذا ما سرت أن أعرج بإحدى قدمى لأغير من طبيعة مشيتى . على أن ذلك كله لم يخفف من حدة قلقى ، ولم يقلل من هذه الحرارة التى كانت تغمرنى كلما سرت فى الطريق ، حرارة الإفراط فى الحذر والترقب والخوف من اكتشاف حقيقة أمرى ..وأخيرًا استقر عزمى على أن أغير ملابسى وأن أنزل عن طربوشى وبدلتى ، وأتحول إلى دنيا المشايخ بارتداء الجبة والعمة ، وكان هذا الزى هو أنسب زى يمكن أن أتنكر به فى هذه الفترة ، فهو الزى الوحيد الذى يلائم إطلاق اللحية ، وكنت قد شرعت فى إطلاق لحيتى ، كما أن هذه الآيات والأحاديث التى أحفظها عن ظهر قلب ، وهذه الروح الدينية التى تغمرنى كل ذلك كان من شأنه أن يحبب إلى اختيارى زى المشايخ وطلاب العلم .

كتبت إلى أحد أصدقائى وهو الشيخ حامد الفقى أطلب منه أن يعيرنى عمامة وجبة ، أو بالأحرى كاكولة ليمكن استخدامها مع الجلباب العادى إذا لزم الأمر وأوصيته أن يدبر لى مشكلة العمامة بطريقة لا تجعلنى مضطرا إلى لفها من حين لآخر ، فغنى عن البيان أننى لن أستطيع بحال الاضطلاع بهذه المهمة ، مهمة لف العمامة ، والتى قد لا يستطيع الاضطلاع بها مئات من طلاب الأزهر فى العصر الحديث . وقد كان صديقى الشيخ حامد الفقى على جانب كبير من المروءة والوفاء والبراعة فى نفس الوقت . فبعث إلى بإحدى كواكيله (القديمة جدا) وبعث إلىَّ بعمامة محبوكة الأطراف مسبوكة مدججة بالدبابيس هنا وهناك لتحول دون انفراط عقدها ، وكان فرحى بهذه العمامة لا يوصف ولا يقدر .

وإذا بدا يتوفر لدى زى أستطيع فى ظله أن أتنفس الصعداء بعض الشىء ، فقد بقى

عليَّ أن أستقر فى مسكن لأظفر ببعض الراحة لأعصابى التى كانت وصلت فى هذه المرحلة إلى آخر ما يمكن أن يتصور من الإنهاك . فقد كان الضغط عليها بالغ الشدة وحسبك أن تتصور أنه كان يخيل إلىَّ فى كثير من الأحوال أن البيوت التى أمر بها وأعمدة المصابيح والأشجار والأرصفة كلها تضحك علىَّ وتسخر من تنكرى وتصيح بأعلى صوتها : هذا هو أحمد حسين امسكوه . أدركوه . وقد كانت فكرة اكتشاف أمرى بعد حدوث ما حدث تشبه أن تكون بالنسبة لى كابوسًا مخيفًا ، فقد تحولت المسألة إلى معركة حامية الوطيس بينى وبين قوات البوليس ، وكان اكتشاف أمرى معناه الفشل والهزيمة ، وليس هناك فى الدنيا ما هو أمر من الفشل والهزيمة .

لجأت إلى بيت أعز أصحابه . بأكثر مما أعز نفسى ... لجأت إلى أم ووالدة ، لو أن أمى كانت على قيد الحياة لما أكرمتها بأكثر مما أكرم هذه الأم ، ولو أن أمى كانت على قيد الحياة لما كانت حريصة على نجاتى وانتصارى فى كفاحى بل ورفعة شأنى ، كما تحرص هذه الأم التى أنتهز هذه الفرصة لأرفع لها التحيات المباركات ولأقبل يديها الطاهرتين .

وأعنى بها والدة الدكتور مصطفى الوكيل

لجأت إليها بعد أربعة أيام أو خمسة من الاضطراب ، فوجدت فى ظلها الهدوء والأمن . وأعادت إلىَّ الثقة والطمأنينة ، ولم أكد أحدثها عن رغبتى فى العثور على مسكن خاص لأقيم فيه حتى شمرت عن ساعد الجد لتنفذ لى خطتى وبرنامجى على أحسن وجه ، فاستدعت إحدى قريباتها فجاءت على عجل هى وابنها الذى يدين بمبادئ مصر الفتاة وكلفتهم بالبحث السريع لإيجاد شقة أو بيت مستقل لأقيم فيه ، على أن يقيما معى ويقوما على خدمتى فى هذه الفترة الدقيقة من حياتى ، وتطوع ابن انسيدة الوالدة ليبحث بدوره وليبذل كل ما فى استطاعته للعثور على الشقة وإيجارها وخرج هو و (م.ع) يبحثان عن المسكن المطلوب ، وأخيرًا عثرا عليه ، وكان يتألف من ثلاث (منادر) فى منزل يقع فى أحد الأحياء الوطنية (جدا) وكان إيجاره الشهرى لا يتجاوز المائة قرش .

ونظف المسكن الجديد وفرش . وانتقلت إليه الأسرة الجديدة والمؤلفة من (م.ع) ووالدته وخاله الطالب بالسنة النهائية بكلية الشريعة ، ولم يكن ذلك الخال سوى أحمد حسين بطبيعة الحال فإذا أردت أن تعرف ولماذا كان طالبًا بالسنة النهائية بكلية الشريعة بالذات ؟ فأقول لك ، لقد كان هذا هو التفسير الوحيد الذى يمكن أن يعطى لتصرفاتى وأحوالى فى ذلك الوقت ، فقد كنت أستاذًا معممًا وكان علىَّ أن أظل مرابطًا بالمنزل لا أخرج منه طوال النهار وذلك من شأنه أن يثير الريبة ، فأما إذا عرف أننى طالب بالسنة

النهائية بكلية الشريعة . وأن هذه الفترة هى فترة الإعداد للامتحان النهائى ، فأحسب أنه من الطبيعى جدًّا أن أواصل الليل بالنهار فى المذاكرة والتحضير دون أن يثير ذلك أدنى شبهة ، وكلما رابطت بالبيت لا أفارقه ، كلما كان ذلك مظهر الجد والاجتهاد وكلما حرك ذلك عواطف أهل البيت لكى يدعوا لى بالنجاح والفلاح جزاء وفاقًا لهذه المثابرة على الدرس والانقطاع عن كل صنوف الملذات .

وهكذا بدأت شخصية الشيخ حسن عبد الجواد تتجلى فى سماء حياتى وتتكامل رويدًا ، رويدًا ، لأن الشيخ حسن عبد الجواد لن يلبث أن ينجح فى الامتحان ويصبح محاميًا شرعيًّا ، ويوشك أن يفتح له مكتبًا ، على أنه لا داعى للعجلة فى سرد الحوادث .

استقر بى الحال فى مسكنى الجديد بضعة أيام أخرى نعمت فيها بالراحة (النسبية) فقد استطعت أن أنام ملء جفونى على الرغم من أن أخفت الأصوات كان يوقظنى وأبسط الحركات كان من شأنه أن يزعجنى ومع ذلك فقد كنت أنام بعد أن أستعرض موقفى فى كل ليلة وأننى فى حرز حريز وأن خط دفاعى سليم فهذا البيت الذى أقيم فيه لا يعرف مكانه إنسان فى مصر سوى هذا الرفيق الذى تعين عليه أن يقيم فيه ووالدته وكلاهما لا يغادر المنزل إلا بعد أذنى وفى الحدود التى أرسمها له وللمدة المعينة التى أسمح بها وكنت أخضعهما لاستجواب قاس بعد عودتهما من الخارج عما فعلوه وعما قالوه وعما سمعوه وعما إذا كان قد رآهما أحد من الناس أو المعارف. وكنت أستحلفهما بالله أن يصدقانى الخبر فلا يكتمان عنى شيئًا ولا يحاولان أن يزجا برأيهما الشخصى فى الحكم على الأشياء وإنما تنحصر مهمتهما فى أن يكونا عيونًا لى وأرصادًا وآذانا تنقل ما يجرى فى الخارج كما هو بغير تحريف أو تعديل وكلما كان تقريرهما اليومى مشجعًا كلما ساعدنى ذلك على الاطمئنان والاستغراق فى النوم أما إذا حدث أن تقابلا مع شخص من الأشخاص أو لاحظ عليهما ملاحظة فقد كان هذا كافيًا لإبعاد النوم عن جفونى لمدة ليالٍ متوالية ريثما يتبدد أثر هذه الملاحظة وأنها كانت ملاحظة عابرة وعادية لا تخفى وراءها شيئًا ولم يترتب عليها أى أثر .

وسرعان ما بدأت أعتاد هذه الحياة الجديدة ونظمت قواعدها وبدأت أضع الخطط لاستئناف نشاطى فى الحياة المصرية فقد كان استمرار هذا النشاط هو أهم أهدافى من هذا الاختفاء وكان أكبر عنصر من عناصر هذا النشاط بطبيعة الحال هو متابعة الأخبار الحربية وتطورات الحرب وخاصة متابعة الثورة العراقية التى كانت السبب الأول فى اعتقالى وفى حملى على الفرار من وجه الاعتقال وكانت الصحف اليومية هى وسيلتى الكبرى للاطلاع على أنباء الحرب وكانت مهمة (م.ع) الكبرى هى الحصول على هذه الجرائد ولم تكن له

مهمة محفوفة بالأخطار مثل هذه المهمة وقد يبدو ذلك عجيبًا والجرائد تباع فى كل مكان ولكن حذرى الشديد قد جعل هذه المهمة من أشق المهات فصاحبى (م.ع) لا يجب أن يبدو متحمسًا ولا سياسيا ولا أن يلفت النظر إلى نفسه بحال من الأحوال ولما كان يرتدى الملابس البلدية فإن شراء هذه الكمية من المجلات والصحف فى كل يوم من شأنه أن يلفت إليه الأنظار وهو ما يجب أن نتحاشاه جهد الطاقة وعلى هذا فقد كان عليه أن يشترى الجرائد كل يوم من شخص غير الشخص الذى اشترى منه بالأمس بل ومن مكان غير المكان - فكان يذهب إلى العتبة الخضراء أحيانًا لكى يشترى الجرائد وسط زحامها الكبير ولعل هذا يعطيك صورة عن هذا الحرص الدقيق الذى كنت أحيط نفسى به فى هذه الفترة وسترى أن البوليس لن يستطيع العثور عليَّ بحال من الأحوال ما بقيت أتابع هذه القواعد الدقيقة وكان يمكن أن أظل مختفيًا ألف سنة دون أن يهتدى إليَّ البوليس لو لم أسأم بعد فترة من الزمن هذه الحياة وأوثر عليها حياة الاعتقال بعد أن زالت الأسباب التى حملتنى على الاختفاء.

ونعود إلى جدول الأعمال اليومية فأقول إنها كانت تبدأ بالإطلاع على الصحف والمجلات ثم أنتقل إلى كتابة الخطابات التى كانت تبلغ فى بعض الأحيان عشرات الخطابات من كل نوع وإلى كل جهة وإلى كل مكان حسبى أن أطالع مقالاً يعجبنى فى جريدة لكى أكتب لكاتبه خطاب إعجاب ، حسبى أن أقف على تصرف لا أرتاح له من بعض رجال السياسة لكى أكتب له منتقدًا تصرفه وأخيرًا كنت أكتب لأعضاء الحزب فى جميع أنحاء البلاد خطابات أبث فيهم العزم والنشاط والكفاح والاستعداد للنضال ... وقد كانت خطاباتى فى هذه الفترة تفعل الأعاجيب فكأنها كانت لها قوة المراسيم أو الأوامر العسكرية فقد كان الكل يبادرون إلى تنفيذ ما جاء بها من موضوعات للتنفيذ من ذلك أننى بعثت إلى أحد إخوانى الذين اختلفوا معى وخرجوا على الحزب أكلفه بطبع منشور معين فصدع بالأمر وطبع المنشور ووزعه وجاءتنى بضع نسخ من هذا المنشور بعثت بها إلى أكثر من شخص فى أنحاء مصر مكلفًا كلا منهم أن يعيد طبعه وتوزيعه ففعلوا جميعًا ولم يعص واحد منهم الأمر وهكذا كنت من هذا المخبأ أسيطر على نشاط الحزب بأكثر مما كنت أفعل وأنا جالس على مكتبى وإلى جوارى التليفون والسكرتير وتحت تصرفى الجريدة والمطبعة.

على أن القسم الأكبر من خطاباتى كان موجهًا إلى رجال الإدارة والبوليس أناقشهم فيها بعض آرائهم وأوضح موقفى ومحاولاً فى نفس الوقت تضليلهم عن مكان اختفائى فقد كانت خطاباتى المرسلة إليهم تسافر أولاً إلى بنها لتصدر إلى القاهرة من هناك فكانت جيوش القسم السياسى تنطلق إلى بنها وتشن عليها حملة هائلة من التفتيش والمراقبة لاكتشاف أحمد حسين

ولكن الخطابات سرعان ما تأتيهم من الإسكندرية فينتقل النشاط إلى الإسكندرية فلا تلبث الخطابات التى ترد عليهم من المنيا أو أسيوط فيسقط فى أيديهم ويدب اليأس إلى صدورهم .

والظريف فى هذه الفترة أن حركات ضباط القسم السياسى كلها كانت تبلغنى وبعض أقوالهم وتصريحاتهم كانت تنقل إلىَّ بالحرف الواحد وربما نقلت إلىَّ بعد أن تطوف القطر المصرى وربما نقلت إلىَّ بطريق الصدفة المحضة التى كانت تجعل بعض الضباط يصعقون عندما يصلهم نبأ وقوفى على هذه التفاصيل فمن ذلك أن أحد كبار ضباط القسم السياسى كان يحلق ذقنه عند أحد الحلاقين فدار بينه وبين الحلاق حديث خاص باختفاء أحمد حسين وأن هناك مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يعثر عليه ثم أخرج صورتى من جيبه وأعطاها لابن الحلاق الذى توسم فيه الذكاء والنباهة لكى يحاول العثور علىَّ وقد تصادف أن كان أحد الزبائن الجالسين هو من أخلص أنصارى فنقل لى هذا الحديث من خلال سلسلة الاتصالات المتعددة وفوجئ حضرة الضابط الكبير بخطاب منى يسجل كل مادار بينه وبين الحلاق فى هذه المناسبة وأمثال هذا الحادث كثير جدًّا .

وكنت إذا فرغت من كتابة الخطابات عمدت إلى القرآن أطالع فيه وأحاول أن أحفظ من سوره وآياته ما أستطيع وكان القرآن الكريم بطبيعة الحال هو سلوتى الوحيدة فى هذه الخلوة ومهدئ روعى ومضيء مظلمات الحوادث والظروف التى كانت تغشانى حتى إذا انتهيت من حصة القرآن التى فرضتها علىَّ نفسى انتقلت إلى مطالعة الكتب التاريخية والأدبية التى بدأت أحصل عليها من هنا وهناك حتى إذا حل المساء تناولت طعام الإفطار لأننى كنت أقضى أكثر أيام هذه الفترة صائمًا بل لعلى كنت صائمًا طول الوقت فإذا انتهيت من إفطارى وصلاة المغرب والعشاء بادرت إلى لبس عمامتى وكاكولتى وانطلقت إلى الخارج لأتصل ببعض الأشخاص ولأقوم ببعض الأعمال أتابع بها نشاطى السياسى واتصالى بالحياة المصرية .

وفى ذلك الوقت ، كانت ذقنى قد نمت بطريقة غير منظمة فكان لابد من تقليمها (وتوضيبها) بحيث تكون لائقة بشيخ وقور فقد كانت مرسلة بطريقة شعثاء تبعث الشك فى نفس كل من يرأها أو على الأقل تلفت النظر لفتًا غير عادى وكان لابد من (مزين) لتشذيبها وتوضيبها وكان علىَّ أن أختار بين أن يحضر الحلاق إلى مسكنى أو بالأحرى مخبئى ليقوم بهذه العملية وبين أن أذهب بنفسى إلى الحلاق ليباشر عمليته فى دكانه هو ، وكلا الأمرين كما ترى محفوف بالأخطار الداهمة ، فإن حضور الحلاق إلى مسكنى فيه

تعريف بهذا المسكن ولما كان منظرى الأشعث فى ذلك الوقت يثير الريبة فمن أدرانى أن لا يقصد الحلاق من فوره إلى البوليس ليقص عليهم قصتى فلا ألبث أن أراهم يهاجمون هذا الوكر الذى أتحصن به ، وإذن فيجب استبعاد فكرة استحضار الحلاق لأنها ذات خطر محقق وبقيت فكرة الذهاب إليه وهذه تعنى الاحتكاك بالناس والاختلاط بهم فى ظل الأنوار الساطعة وإسلام نفسى إلى كرسى الحلاق لمدة نصف ساعة إن لم تزد والعيون مرصودة علىَّ فى كل مكان ، وصورى موزعة على العساكر والمخبرين ورجال المباحث ومن يدرينى أن لا يكتشف أمرى بعض أعضاء مصر الفتاة بالذات المبثوثين فى كل مكان فيأتى بحركة أو صوت من شأنه أن ينم علىَّ ويفضح تنكرى .. والحق أننى إذا كنت أخشى من اكتشاف البوليس لأمرى مرة فقد كنت دائمًا أكثر خشية من اكتشاف أعضاء مصر الفتاة لأمرى فقد كانوا جميعًا فى هذا الوقت فى أشد اللهفة لمرآى والاتصال بى وكانوا شديدى الحماسة لمعرفة كل شىء عنى ، فلو أن واحدًا منهم صادفنى فجأة لما استطاع أن يتمالك شعوره بحال من الأحوال وهذا ما كنت أحسب له ألف حساب ولكنى فى نهاية الأمر قررت أن أغامر وأن أعتمد على الله فلم أكد أفرغ من صلاة العشاء حتى ارتديت ملابسى الوقورة وتزينت بالعمامة المهيبة ووضعت المنظار على وجهى وخرجت أضرب فى بيداء هذا الحى الوطنى الذى كنت أقيم فيه باحثًا عن محل للحلاقة يمكن أن تتوفر فيه الشروط اللازمة لإمكان دخولى وتتلخص هذه الشروط فى أن لا يكون فى المحل زبائن وأن لا يكون المحل على قارعة الطريق العام وأن يكون صاحبه كهلاً مسنا أو بادى الغباوة والبلاهة وأن يكون الضوء فى محله خافتًا ضئيلاً لا يكفى لإظهار ملامح الإنسان ، وأنت ترى أن هذه الشروط مجتمعة لا يمكن أن تؤدى بك إلا إلى حلاق حقير بل ومتناه فى الحقارة يشبه أن يكون كهذا الحلاق الذى يحلق للناس على قارعة الطريق ومع ذلك فلم يكن لى حيلة فى ذلك ولم تكن الوساوس تساورنى بالنسبة لحقارة الحلاق إلا من الناحية الصحية البحتة فقد كان أخشى ما أخشاه أن يصيبنى بقراع أو بمرض جلدى خبيث وقد حدث لأخى وصديق روحى الدكتور مصطفى الوكيل حادث لا أنساه من هذا القبيل إذ قصد فى بعض الأيام محل حلاق غير الذى اعتاد الحلاقة عنده ، فإذا به يصب على وجهه فى نهاية الأمر بدل الكولونيا مادة كاوية حرقت جلد وجهه وكان يمكن أن تصيبه بأفدح الكوارث لولا أن الله سلم . كان هذا الحادث يملأ رأسى وأنا أتعمد البحث عن حلاق فقير منزو ، ومع ذلك فلم يكن هناك مفر من الإقدام على هذه الخطوة وقد أقدمت عليها متوكلاً على الله للمرة الثانية .

واستقبلنى الحلاق بما يشبه الفرح الوحشى فلم يحدث أن دخل حانوته المتداعى شيخ فى

مثل بزتى وثرائى وراح يهلل ويكبر وأوشك أن يبعث بصبيه لاستحضار القهوة ولكنى رجوته أن يكف عن هذه الاحتفالات وأن يسرع على الفور للقيام بعمليته التى كانت تتلخص فى قص ذقنى وتوضيبها لتكون ذقنًا محترمة تليق بشيخ وقور ، وكان يجب بطبيعة الحال ، لكى يشرع فى عمله ، أن أخلع هذه العمامة عن رأسى وأن أخلع النظارة وأن أضع الفوطة البيضاء حول ملابسى ، ومعنى هذا اختفاء كل مظاهر التنكر وظهورى بشخصيتى العادية ، شخصية أحمد حسين وقد كانت هذه محنة قاسية من غير شك ولا أحسب أن صورتى كانت كريهة إلى نفسى فى أى يوم من الأيام كما كانت تبدو لى فى هذه الفترة وهى تطل علىَّ من المرآة وكأنها تسخر منى وتريد أن تدل علىَّ.

وكان يجب علىَّ أن أفسر للرجل سر هذه الذقن الشعثاء وأن أعطيه عنها تفسيرًا مقبولاً لكى لا أترك فى نفسه ظلاً من الشك على أن الشخصية التى كنت أتقمصها كانت كفيلة بتقديم هذا التفسير فلم يسبق لى أن أطلقت ذقنى لأننى شيخ عصرى ولكن ظروف الامتحان وحضورى (غدًا) أمام لجنة الممتحنين وكلهم من المشايخ يحملنى على أن لا أظهر أمامهم بذقن حليقة وإلا تعمدوا معاكستى على عكس ظهورى أمامهم ملتحيًا فإن هذا يكسبنى العطف فى صورة (بضع درجات) وقد أعجب كل العجب بهذه الفكرة الطريفة وراح على أثرها (يُجوّد) حلق الذقن وينظمها وكثيرًا ما كانت عيناى تقع على بعض شبان المشايخ وقد رسموا أذقانًا عجيبة تشبه أن تكون خريطة جغرافية حيث ترى الذقن تدق من مكان ثم تستعرض ثم تدور بطريقة هندسية عجيبة وقد كان هذا المنظر يبعث فى نفسى شيئًا من الخجل والحياء لمجرد رؤيته وشاءت تصاريف القدر أن يكون حلاقى ممن يجيدون رسم الخرط على وجوه زبائنهم من أصحاب الذقون.

وغنى عن البيان أننى كنت أنطوى إبان جلوسى فى دكان هذا الحلاق على أتون مستعر وبالرغم من أننى كنت أبدو فى منتهى الهدوء أحادث حلاقى فى رقة ودعابة فقد كان عقلى يعمل بسرعة مخيفة محدثًا حرارة عالية فاذا يكون الحال لو دخل علينا بطريق الصدفة مخبر من المخبرين وكان زبونًا لهذا الحلاق أو قريبًا له .. ماذا يحدث لو دخل على واحد ممن يعرفوننى لسبب من الأسباب وأرجو أن يقدر القراء أن افتضاح أمرى كان يعنى بالنسبة لى هزيمة محققة بكل ما تحويه الهزيمة من مرارة فقد كانت المعركة التى تدور رحاها بينى وبين قوات البوليس والدولة والإنجليز تتخلص فى الاختفاء ، والعثور علىَّ واكتشاف أمرى معناه خسارة المعركة وقد كانت فكرة إمكان خسرانى المعركة بسبب صدفة طارئة ، من الأمور التى تزعجنى أشد الإزعاج وتجعلنى فى كرب شديد وقد كنت أستطيع دائمًا أن أحتاط لكل

شيء ولكن هذه الصدفة اللعينة غير قابلة للاحتياط أبدًا ، ولم يكن لها دواء عندى سوى الابتهال إلى الله ولذلك فقد كنت أمثل وأنا جالس فى حانوت الحلاق شخصية مزدوجة إحداها تحادث الحلاق وتسايره والأخرى تتوسل إلى الله وتبتهل أن يستر عليها وأن يأخذ بيدها وفى الوقت الذى كان لسانى ينطق بالفكاهات والنوادر مع الحلاق لأنسيه شخصى كان لسان آخر فى أعماق قلبى يردد فى غير انقطاع ... يارب ... يارب ... يارب

وقد أجاب الرب وانتهت المحنة وأعطيت الرجل قروشًا كثيرة ، ولو كان فى استطاعتى وقد فرغت من هذه المهمة الثقيلة أن أطير لأبتعد عن هذا المكان لفعلت ولكن وا أسفاه كان يجب علىَّ أن أمشى وئيدًا وأن أتظاهر بالسكينة والهدوء والوقار بما يتفق مع شخصية طالب فى السنة النهائية بكلية الشريعة سيتوجه فى الصباح إلى الامتحان .

عـزيز المـصرى بَاشـَا

فأمَّا وقد أصلحت من ذقني وأصبح منظرى محترمًا كأىٍّ شيخٍ وقورٍ (إذا تغاضينا عن هذه الكاكولة) الرثة البالية التى كان يخفف من رثاثتها ويستر حالها الليلُ بسواده البهيم ، فقد بدأت أشعر بكثير من الاطمئنان والخفة فى الحركة ولذلك فقد قررت أن الساعة قد حانت لاستئناف النشاط الحزبى وكنت قد قررت بالاتفاق مع الأستاذ صبيح أن يكون لنا اجتماع أسبوعى فى أحد المنازل الأمينة يحضره معنا شخص ثالث أو رابع نطمئن إلى إخلاصهما كل الإخلاص ونحتاج إلى رأيهما فى كل صغيرة وكبيرة كل الاحتياج خاصة وأن التنفيذ سيقع على عاتقهم ويكون من نصيبهم . وفى الموعد المحدد اجتمعنا وكنا أربعة وكان جدول الأعمال أمامنا مشحونًا بأخطر المسائل الخارجية والداخلية فثورة العراق كانت قد بدأت تتعثر وبعد أن كان المظنون أن ألمانيا ستسرع إلى انتهاز هذه الفرصة الذهبية التى أتيحت لها لتركيز أقدامها فى أخطر جزء حيوى من العالم ونعنى به الشرق الأوسط إذا بها لا تعير الموضوع ما يستحق من أهمية ، ومضت الأيام تلو الأيام وهى تتمطى وتتثاءب حتى أفلتت الفرصة من يدها وانتكست الثورة العراقية ودخلت فى دور الضعف والاضمحلال لاختلاف الآراء بين زعماء العراق على ما أخبرنى به الدكتور مصطفى الوكيل فقد كان هناك فريق يطالب بوجوب الاستنجاد فورًا بالألمانيين وفريق آخر يرى فى ذلك ضررًا بالغًا بسيادة البلاد وحريتها ويخشى أن تخلص العراق من الاحتلال البريطانى لتقع فى براثن الاحتلال الألمانى فكان هذا الخلاف فى الرأى الذى تطور فيما بعد تطورًا خطيرًا هو الصخرة التى راحت ترتطم بها سفينة الثورة العراقية ، ولكنها لم تكن قد تحطمت فى ذلك الوقت بعد فكان هذا الموضوع ومناقشته هو أول ما يشغل بالنا هذه الأيام وكان هناك حادث ثانٍ قد هز أعصاب الدنيا كلها فى هذه الفترة وهو طيران الهر هيس نائب هتلر من ألمانيا ونزوله فى إنجلترا واعتقاله هناك . كان هذا الخبر من أعظم المفاجآت المسرحية التى فوجئ بها العالم فى ثنايا هذه الحرب ، ولقد غرقت الدنيا فى ذلك الوقت فى طوفان من الأقوال والإشاعات والأراجيف والتعليقات حول فرار هيس من ألمانيا والتجائه إلى إنجلترا وقيل فيما قيل وقتئذ إن الرجل قد جُن وإن أعصابه قد اختلت وقال الإنجليز إنه فر هاربًا من ألمانيا ناجيًا بنفسه من غضب هتلر وسخطه وخوفًا من أن يسقط صريعًا كما سقط من قبله كثير من زعماء النازى .

على أنه لا ثورة العراق بضخامة نتائجها وخطورة تطوراتها ، ولا حادث هيس بجلال قدره كان هو محور حديثنا هذه الليلة على قدر ما كان حادث عزيز باشا المصرى هو أخطر ما واجهنا فى تلك الأيام ، فلم يكد يهدأ الناس فى أنحاء البلاد من آثار المفاجأة التى أحدثها هيس بطيرانه من ألمانيا إلى إنجلترا حتى اهتز الرأى العام المحلى فى مصر بحادث لا يقل إثارة للخواطر ألا وهو نبأ محاولة الفريق عزيز باشا المصرى للفرار من القطر المصرى بصحبة اثنين من ضباط سلاح الطيران المصرى على متن إحدى طائرات هذا السلاح وسقوط هذه الطائرة بعد دقائق قليلة من تحليقها فى الجو فى منطقة قليوب .

كان الأستاذ صبيح على ما أذكر هو الذى حمل إلينا هذا النبأ الخطير الذى لم يكن قد عُرف بعد فلم أكد أصدق أذنى وظننت أن الأمر لا يعدو أن يكون إشاعة ، ولكن الأستاذ صبيح أكده لى وقص علىَّ كيف عرف الخبر من مصدره الوثيق أو بالأحرى من ذات الشخص الذى التجأوا إليه وآواهم إلى مسكنه وهو الأستاذ الفنان والشاب الوطنى الصادق عبد القادر رزق .

كان الأستاذ عبد القادر رزق هو الذى قص الخبر بنفسه على الأستاذ محمد صبيح وأنه فوجئ ذات صباح بحضور عزيز باشا المصرى ومن معه ، وإذن فقد كان الأمر جدًّا لا هزلاً وحقيقة لا إشاعة ، فرحنا نبحث فيما يمكن أن يكون لهذا الحادث من تأثير علينا ، تساءلنا عما إذا كانت الحكومة ستذيع هذا النبأ أو ستخفيه كما أخفت نبأ فرارنا نحن وكان من الجلى الواضح أن الحكومة مترددة بين الإعلان والإذاعة ثم قررت فى نهاية الأمر الإذاعة الكاملة المطلقة ليكون هذا مؤديًا إلى اعتقال عزيز باشا المصرى فصدرت الجرائد وهى طافحة بأنباء هذا الحادث وسطعت الأحرف الضخمة على صفحات المصرى والأهرام وجميع الصحف والمجلات متحدثة عن هذا الحادث العجيب الذى لم يلبث أن طغى فى مصر على الأقل على أنباء الهر هيس وفراره ، وراحت البلاغات الرسمية تترى من ساعة إلى أخرى بأنباء المكافآت والعقوبات وتحول كل مصرى إلى أنف تشم رائحة عزيز باشا المصرى أو إلى أذن تنصت إلى صوته إن لم يكن بنية سيئة فعلى سبيل حب الاستطلاع والفضول ، وهكذا تكهرب الجو فجأة بالنسبة لنا وأصبح اختفاؤنا من أشق الأمور وأعسرها ولقد قدرنا ذلك كله فى ليلتنا فاتفقنا على أن نلزم مخابئنا لا نبرحها بأى حال من الأحوال حتى تنقضى هذه الزوبعة من البحث والتفتيش والمطاردة وافترقنا على غير موعد لنتقابل فيه وعدت إلى مسكنى وأنا أنتفض من شدة التأثر والشعور بما ينتظرنا من أهوال فى الأيام المقبلة .

وأعلنت حالة الخطر بمجرد عودتى إلى المخبأ وأصدرت أوامرى القاسية الشديدة على

هذين الزميلين الكريمين م.ع. ووالدته وكانت هذه الأوامر تتلخص فى أننا يجب أن نحبس أنفسنا لأطول مدة ممكنة فى هذا البيت فلا يبرحه واحد منا بأى حال من الأحوال .

بدأ أثر حادث عزيز المصرى يتجلى فى شدة اهتمام رجال البوليس وقيامه بحملته الاكتساحية بحثًا عنه وعنى فى نفس الوقت وكان اليوزباشى إبراهيم إمام يعتبر فى ذلك الوقت مسئولاً عن مراقبة حزب مصر الفتاة ومتابعة نشاط أعضائه فاعتبر هو المسئول الأول عن حادث فرارى وفرار عزيز باشا المصرى بدعوى أن نشاط حزب مصر الفتاة كان يتصل بنشاط سعادته ولذلك فقد احتمل العبء الأكبر فى هذه الأيام وبذل جهودًا مضنية يتحدث عنها زملاؤه ومعارفه ويذكرونها أحيانًا فى معرض التندر والتفكه عليه ، ولما كان الحاكم العسكرى قد وعد من ناحية أخرى بأجزل المكافآت والعطايا والترقيات لمن ينجح من رجال البوليس فى العثور على الهاربين فتستطيع أن تصور لنفسك مدى الحماسة والنشاط اللذين كان يعمل بهما رجال البوليس فى ذلك الوقت . فمن ناحية كان سيف الإرهاب مصلتًا فوق رءوسهم ومن ناحية أخرى كان الإغراء يلوح لهم . ولكن الطريدة كانت عزيزة المنال عليهم فوقفوا حيارى لا يعلمون ماذا يفعلون وفى أى اتجاه يسيرون . وكان لرجال البوليس فى كل يوم خطة وأخيرًا فكروا فى تفتيش القاهرة بيتًا بيتًا ، ولكن هذا العمل مستحيل فى حد ذاته لعدم وجود القوة الكافية للقيام به فرؤى أن تحشد جميع قوات البوليس السرى فى كل ليلة فى حى من الأحياء وأن تستعرض المنازل واحدًا بعد آخر على أن يفتش كل بيت يشتبه فى أمره وعلى هذا الأساس كانت قوة المباحث تنتقل إلى قسم السيدة مثلاً ثم تبدأ بشياخة من شياخات القسم وهكذا حتى تفرغ من دائرة قسم السيدة فتنتقل إلى قسم آخر .

ولقد وصلت إلى علمى هذه التفاصيل ووصل إلى علمى نبأ شروع البوليس بالفعل فى هذه العملية فأسقط فى يدى ولم أعرف ماذا أفعل وكيف أنجو من هذا الخطر المحدق . فكرت فى أن أغادر القاهرة ولكن مجرد التفكير فى هذا الموضوع جعل العرق يتصبب من جبينى فقد كان جهد البوليس الأكبر منصبا على مخارج القاهرة فلا يكاد مسافر واحد عن طريق السكة الحديد أو السيارات فضلاً عن السائرين على الأقدام يمكن أن يفلت من فحصهم وقبضة أيديهم فلا مناص إذن من التخلى عن كل فكرة فى مبارحة القاهرة فى الوقت الحاضر ولا مناص من الانتظار ريثما تهدأ هذه الزوبعة لأنه لا يمكن إلا أن تهدأ بعد قليل بعد أن يدب اليأس إلى قلوب رجال البوليس ويطغى عليهم «روتين» حياتهم اليومية وأشغال وظائفهم العادية ولم يكن هناك مكان أصلح من مخبئى الحالى للاختفاء فيه فقررت أن أبقى حيث أنا وإن الأمر كله لله يقضى فيه بمشيئته ، وكان الاحتياط الوحيد الذى فعلته

هو أننى حتمت على ربة المنزل وابنها ألا يبرحا المنزل أبدًا إلا للضرورة القصوى ، ورحت أبذل من التوسل والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى أن يستر عليَّ وأن يعمى عنى الأبصار وكان يحدث فى هذه الفترة أن يدق الباب دقًّا خفيفًا فكانت قلوبنا تنخلع على الفور وتغيض الدماء من عروقنا ويسقط فى أيدينا ثم تذهب السيدة تفتح الباب فى حذر فيتبين لها أن أحد أطفال الحارة (وما أكثرهم) كان يعبث ويمزح فتتنفس الصعداء جميعًا ولا تجد السيدة ألفاظًا لتعنف بها الولد العابث فلا تملك إلا الابتسام وكثيرًا ما كان الباب يقرع على سبيل الخطأ من أحد المارة الذين يبحثون عن بيت آخر فيتكهرب الجو فجأة وتنشأ أزمة حادة .

على أن أعظم ما كان يفزعنا فى ذلك الوقت هو صوت محرك السيارة لأن البوليس إذا ما فكر أن يدهم مخبأنا فلابد أن يأتى بأكثر من سيارة .

ولما كان الحى الذى أقطن فيه هو حى وطنى (قح) والحارة التى أسكن فيها بالذات لا تعرف شيئًا كثيرًا عن السيارات فى الدنيا فكان مجرد سماعنا لأزيز محرك سيارة عن بُعد معناه أن القضاء قد حمَّ وأننا قد وقعنا فى نهاية الأمر ولقد كانت هذه الحالة تضغط على أعصابى ضغطًا شديدًا أو خفيفًا وكلما فكرت فى أن البوليس يكفى أن يفتح هذا الباب لكى لا يكون لدىَّ سبيلٌ للفرار أو المقاومة وأننى سأقع فى يده غنيمة باردة كما يقع الفأر فى المصيدة . كنت أشعر بحنق شديد وبالغضب يكاد يحرق أعصابى .

ونعود إلى حديث السيارة وما كانت تحدثه بين صفوفنا من الاضطراب وفى كل مرة كان يتبين أن هذه السيارة حكومية بالفعل ولكنها جاءت لغير عمل البوليس ، فيظهر أحيانًا أنها سيارة الصحة أو أنها سيارة السكة الحديدية وغيرها من هذا الطراز .

ولكن سيارة البوليس جاءت بالفعل فى يوم من الأيام وجاءت تبحث عن الهاربين بالذات وتستعرض البيوت بيتًا بيتًا وتسأل عن أصحابها ولقد أدركت ذلك كله بالهرج والمرج الذى بدأ يسود الحارة بعد وصول السيارة وبأبواب البيوت تدق واحدًا بعد الآخر ولم يكن أمامى من أفزع إليه إلا الله فهرعت أصلى وأسجد وأطيل السجود وأسأله أن لا يسلمنى إلى الأعداء وأن يعفينى من مرارة الخيبة والهزيمة ولكن لم أكن أعرف كيف يمكن النجاة فى هذه المرة وقد أحاط البوليس بالمنطقة .. ودق الباب كما يدق رجل البوليس الأبواب .. وجمدت أعصابنا وأطرافنا جميعًا ونظرت إلىّ السيدة حيرى لا تستطيع أن تعرف ماذا تفعل فقلت لها تقدمى على بركة الله وافتحى الباب وليكن ما يكون .. وسارت بخطوات متباطئة متثاقلة والباب يدق بأكثر غلظة حتى إذا وصلت إلى الباب لم تطاوعها يدها على فتحه وتمهلت كأنها تريد أن تؤخر وقوع الكارثة ثم فتحت الباب فإذا بمخبر من مخبرى البوليس

يسألها فى بساطة «مين اللى ساكن هنا» فردت عليه قائلة «إنت عاوز مين» فقال لها «أنا بسأل مين اللى ساكن هنا» وإذا بالسيدة تنفجر فى وجهه وإذا بها تصب عليه اللعنات والشتائم «أيه ياختى البلاوى دى ، أيه اللى مين ساكن هنا .. بق يا راجل تصحينا من النوم علشان تقول مين اللى ساكن هنا .. أمّا مصايب صحيح .. أمّا .. أمّا» وعبثًا حاول الرجل أن يفهمها ، وعبثًا حاول أن يشرح لها وعبثًا حاول أن يقول لها إنه رجل بوليس ولم يكن هناك إلا أسلوب واحد لوضع حد لثورتها هو أن يفر من أمامها ناجيًا بنفسه وقد فعل وهكذا نجونا بفضل هذا الإلهام الذى ألهمه الله للسيدة لتقف هذا الموقف .

* * *

لم تلبث الزوبعة التى ثارت بمناسبة حادث عزيز باشا المصرى أن هدأت بالتدريج بعد أن يئس البوليس من العثور عليه وترامت الإشاعات بأنه نجح فى اختراق الصحراء الغربية واتصل بالألمان وزاد البعض على ذلك أنهم سمعوه يذيع من محطة برلين بالفعل ولما كنت أعرف أين يوجد عزيز باشا المصرى فقد كنت أبتسم لهذه الإشاعات وأفهم منها كيف أن مجرد الجهل يؤدى بالإنسان إلى التخبط والتعثر فى بحار الحدس والتخمين ، على أن بعض رؤساء البوليس كانوا على ثقة من أن عزيز باشا المصرى لم يبرح القطر المصرى بل إنه موجود فى القاهرة بالذات كما كانوا على ثقة من وجودى بها كذلك . ولذلك فقد طلبوا من الحاكم العسكرى وقتئذ أن يعطيهم الفرصة الكافية للبحث فى هدوء وسكينة للعثور على عزيز باشا المصرى .

واتصلت من ناحيتى بعزيز باشا المصرى فأرسلت له خطابًا أسجل فيه احترامى وتقديرى لشخصه ولزميليه الضابطين ولم تمض أيام قليلة على إرسال خطابى إليه حتى فوجئت بنبأ العثور عليه واعتقاله فكانت هذه أكبر صدمة أصابتنى فى هذه الأيام وملأتنى غمًّا وكمدًا . ولقد وصل إلىّ نبأ العثور عليه وأنا فى موقف دقيق لا أظن أننى عانيت موقفًا مثله فى كل الفترة التى اختفيت فيها ، فقد كان علىّ أن أحلق شعر رأسى وأن أنظم ذقنى بعد انقضاء شهر كامل على مغامرتى الأولى فى قص الشعر والذقن التى تحدثت عنها فيما تقدم فاستعنت بالله وقررت أن أخرج من مخبئى لأقص شعرى ورأيت أن خير طريقة أستطيع أن ألجأ إليها هذه المرة هى أن أتوجه إلى بيت أقاربى فى حى من الأحياء الوطنية وأطلب منهم أن يستحضروا لى حلاقًا بمعرفتهم ليقص لى شعرى فى البيت فيكون ذلك مدعاة للأمن والاحتياط . ولقد فوجئ أقاربى بمرآى وسطهم فى هذا الزى الغريب بالنسبة لى وبعد أن زالت عنهم دهشة المفاجأة أقبلوا يعبرون عن عواطفهم وعن

استعدادهم لعمل كل شىء لمساعدتى ومعاونتى فى الاختفاء فشكرت لهم هذه العواطف وطلبت منهم استدعاء حلاق بأسرع ما يستطاع فأرسلوا الثقة الأمين لاستدعائه وفيما نحن نترقب مقدم الحلاق إذا بسيدة الدار تلقى على هذا السؤال المفاجىء «هل صحيح أنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى؟» غاض الدم فى عروق على الفور وتقطعت أنفاسى واستطعت بصعوبة أن أرد عليها فى غلظة قائلاً «من الذى قال هذه السخافة؟» فأجابتنى : كنت أسير اليوم بالقرب من المذبح فسمعتهم يتحدثون بأنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى فى ناحية القبة . ولم أكد أسمع هذه الكلمة الأخيرة حتى سُرِّى عنى وعلمت أن الإشاعة مكذوبة لعلمى أن عزيز باشا المصرى يقيم بمنزل الأستاذ رزق فى امبابة ودخل علينا ابن السيدة من الخارج فبادرنى بالسؤال فى لهفة «هل صحيح أنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى؟» قلت له وقد دب إلىَّ الشك من جديد فى صحة الإشاعة مستحيل ، مستحيل هذا كذب قال : يقولون إنهم وجدوه مختبئًا فى مصر القديمة فتنفست الصعداء وقلت له إن هذه لا تعدو أن تكون إشاعات مما اعتدتُ سماعها فى كل يوم فلم يكد صاحبنا يسمع منى هذا التكذيب حتى انطلق إلى الخارج فى حماسة فأدركت أنه يريد أن يسرع بهذا التكذيب إلى بعض إخوانه ومعارفه وربما دفعته الحماسة لأن ينسبه إلىَّ بالذات فتكون الطامة الكبرى وفكرت أن أنجو بنفسى من هذا المكان الذى أصبح خانقًا بعد انتشار هذه الإشاعة فى سمائه ولكن الحلاق كان قد وصل يحمل حقيبته فلم يسعنى إلا أن أستسلم وأمضى فى عملية قص الشعر حتى نهايتها . وشرع الأسطى فى عمليته وشعرت الأحاديث تفيض من لسانه «هل سمعت يا فضيلة الأستاذ أنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى؟» وكدت أهم بصب اللعنات والشتائم على مروِّجى هذه الإشاعة التى بدأت تضايقنى لولا أنه عاجلنى بقوله «هذا الخبر أكيد جدا قصه علىَّ أحد الضباط ، وعلمت منه أنهم كانوا يختبئون فى فيلا بامبابه» .

ولم يكد يلفظ هذه الكلمة الأخيرة حتى خيل إلىَّ أن الدنيا قد امتلأت بالرعود والزلازل وأن السماء توشك أن تنقضَّ على الأرض وراحت النيران تلفح وجهى وتشتعل فى جسدى وجمد لسانى وتصبب العرق من جبينى وصرت إلى حالة سيئة جدا لا عهد لى بها من قبل ، كلمة واحدة كانت كافية لإقناعى بأن الخبر صحيح لاشك فيه وأغلقت فى وجهى هذا الثقب الصغير من الأمل الذى كنت أتعلق به من أن تكون الإشاعة مكذوبة وهذه الكلمة وهى كلمة «إمبابة» فأمَّا وقد قيلت فالأمر جد لا هزل وحقيقة لا إشاعة لأن عزيز باشا المصرى كان يقيم بالفعل فى فيلا بامبابة وتملكنى بعد قليل شعور بأنه سيقبض علىَّ وأن البوليس لن يلبث أن يدهمنى فى هذا المكان .

ولكن الأسطى الحلاق كان أبعد ما يكون عن معرفة هذه الخواطر التى كانت تفترس رأسى وهذه النيران التى تتأجج فى صدرى فراح يمضى فى عمله بهدوء وفى برود معلقًا على حوادث الكون كلها وكان طبيعيا أن يتحدث عن الاعتقال والمعتقلين مادام أنه يستعرض حوادث الكون ولكنه لم يلبث أن فاجأنى بالتحدث عن أحمد حسين «ما رأيك يا أستاذ فى أحمد حسين» يا للصواعق وياللشياطين وياللأبالسة مجتمعة .. لم أحر جوابًا لأن التكلم فى مثل هذا الموقف فوق طاقة البشر فيما أظن وأعتقد ، واسترسل صاحبى فى حديثه عن أحمد حسين «الراجل الجدع الوطنى اللى مافيش منه» وكان هذا المديح أبعد ما يكون عن أن ينال ارتياحى بل على العكس زاد فى ضيقى وفى ارتباكى لأنه أدخل الشك إلى نفسى أن يكون الرجل قد اكتشف أمرى وأنه يعرفنى .. وكان علىَّ أن أتكلم فى نهاية الأمر لئلا أزيد فى شكوك الرجل إذا كان يجهل أمرى فقلت له بعد أن استجمعت كل قوتى . ومع ذلك فقد خرج صوتى مبحوحًا أجش من هو أحمد حسين هذا ؟ ودهش الرجل لسؤالى «أحمد حسين يا أستاذ ، ماتعرفش أحمد حسين ليه أنت مش من مصر» قلت له أظنك تعنى أحمد حسين بتاع مصر الفتاة .. !

ـ وهو فى غيره يا أستاذ

ـ يا شيخ دا ولد مهووس بلا لعب عيال

واطمأننت بعض الشيء لهذا الحوار الذى دلنى على أن الرجل لم يكتشف أمرى فتمالكت هدوئى ورحت أتحدث معه فى شخصية أحمد حسين أحاول أن أجرحها وأنتقدها فينطلق الحلاق فى الدفاع بحرارة عجيبة ثم نظر إلى قريبى الذى كان يجلس معنا فى الحجرة وصاح به قائلاً يعنى يا فلان قاعد ساكت والأستاذ نازل ذم فى قريبك ما تتكلم يا أخى ما تدافع عن قريبك أحمد حسين..

وإلى هنا بدأ الموقف يرتبك ويدخل فى مرحلة الخطورة فأخرجت من جيبى الساعة ونظرت فيها ثم صحت مبديًا أسفى لتأخير الوقت وطلبت من الحلاق أن يسرع فى إتمام عمليته وإلا فإنى سأكون مضطرًا للانصراف حالاً وكان أسلوبى خشنًا وقويا فساد الصمت الرهيب على الحجرة ولم يعد يسمع فيها إلا صوت المقص وهو يصطك..

وأخيرًا فرغنا وارتديت عمامتى وتأهبت للانصراف وأخرجت من جيبى خمسة قروش لأعطيها للأسطى الحلاق فإذا به يمتنع ويقول لا والله لا يمكن أبدًا أن آخذ منك نقودًا .. ومرة أخرى غاض الدم من وجهى فقد أدركت أن الرجل يعرف من أمري كل شيء فليس هناك تفسير لرفضه إلا أن يكون هذا هو الواقع ولكنى تمالكت نفسى هذه

المرة وألححت عليه فقبلها ثم انطلقت لا ألوى على شىء ودون أن أسلم على أصحاب البيت ورحت أقفز السلالم أربعًا فأربعًا حتى إذا رأيت نفسى فى الحارة حاولت أن أتصنع الهدوء فلم أستطع ورأيت الناس تنظر إلىَّ وتحدق فى وجهى لأول مرة فأسرعت الخطى والعرق يتصبب من جبينى وبدأت أنفاسى تضطرب وأذناى تطن وخُيل إلىَّ أن الناس تعرفنى وأنهم يصيحون . هذا هو أحمد حسين .. امسكوه اقبضوا عليه .. ! !

* * *

لم أرجع إلى مخبئى فقد قررت أن لا أعود إلى هذا المخبأ وأن أقصد إلى بيت صديق من الأصدقاء الذين أثق بهم لأختبئ عنده ريثما يستقر قرارى على الخطة الجديدة التى انتويت سلوكها . وانتظرت حتى إذا جن الليل ذهبت إلى دار الصديق وهو يقيم بمفرده فى شقة صغيرة فاتفقنا على أن أعيش معه فى الشقة دون أن يشعر أحد بوجودى .

ولما كان صاحبى هذا رجل يعشق النظام وقد اعتاد أن يخرج من بيته كل يوم فى ساعة معينة وأن يسهر بالليل حتى ساعة معينة فتم الاتفاق على أن لا نغير شيئًا من هذه المواعيد وهذا النظام وكان مؤدى هذا أن أجلس دون حراك طوال النهار فى داخل حجرة من الحجرات حتى لا يشعر السكان بوجود حركة فى داخل الشقة فى غير مواعيده المألوفة وكان ذلك أمرًا محتملاً فى النهار حيث كنت أجلس لأطالع . أما فى الليل فقد كان علىَّ أن أبقى وحيدًا فى الظلام الدامس ريثما يعود من الخارج عند منتصف الليل إن لم يكن بعد ذلك حيث يقضى عليه عمله وظروفه أن يتأخر حتى هذه الساعة المتأخرة ولم تطل إقامتى فى هذا المخبأ الجديد حتى توالت الأنباء السيئة من كل مكان وانتهت بمرض صديقى صاحب البيت لأول مرة فى حياته فكان ذلك إيذانًا بوجوب مغادرة هذا البيت بل ومغادرة القاهرة كلها ...

* * *

قبض على الأستاذ صبيح بعد عزيز المصرى باشا وسيق إلى سجن الأجانب وأودِعَ به وقد كان ذلك أول إشارة عملية لما سيكون عليه نصيبنا فى الاعتقال وهو أن نودع سجن الأجانب والحق أننى اغتبطت لهذا المصير فقد أَلِفْتُ السجونَ ولم أعد أرهبها .

على أن القبض على الأستاذ صبيح قد فت فى عضدى بعض الشىء وجعلنى أفكر فى عدم جدوى الاختفاء ولكن رغبتى فى المساهمة بأكبر قدر مستطاع فى المساهمة فى

الحوادث التي توشك أن تغمر البلاد بل الدنيا كلها جعلتني أتريث وأتوقف عن تسليم نفسي.

حقا لقد كانت ثورة العراق قد صفيت تمامًا فى ذلك الوقت وأوشكت عمليات انجلترا لاحتلال سوريا أن تكلل بالنجاح التام ومعنى ذلك استقرار الوضع العسكرى فى الشرق الأوسط ولكن هتلر يوشك من ناحية أخرى أن ينقضَّ على انجلترا ويغزو الجزر البريطانية بعد أن فرغ من احتلال يوغوسلافيا واليونان ووطد مركزه فى شرق أوروبا وكانت الدنيا كلها تتطلع إلى هذا الغزو وترقبه وكانت لحظة من لحظات التاريخ الحاسمة التى تتأرجح فيها الظنون هل يسير يمينًا أم يتجه صوب الشمال كانت البشرية على مفترق الطرق فلو قدر لهتلر أن يغزو انجلترا وأن ينجح لانقلب مصير العالم كله ولذلك فقد كان الناس قاطبة فى هذه الفترة يحبسون أنفاسهم فى انتظار مشيئة القدر.

وكنت ممن يحبسون أنفاسهم ولذلك فقد تركت كل بحث ومناقشة فى تسليم نفسى إلى أن يتكلم القدر وقد تكلم القدر أخيرًا وبدلاً من أن يدفع هتلر وألمانيا صوب الغرب دفعها نحو الهاوية فى الشرق.

وإنى لأذكر الآن بعد سنوات من هذا التاريخ المكان والساعة والكيفية التى تلقيت فيها قرار القدر النهائى فى حياة العالم. كنت مختبئًا فى بيت صاحبى هذا الذى يعيش وحيدًا وكنت أقيم عنده على الطريقة التى وصفتها بحيث لا يشعر إنسان غيره أننى موجود فى هذا البيت وكان يحمل إلىَّ الجرائد بطبيعة الحال فكنت أرى فيها لغطا عن قرب مهاجمة ألمانيا لروسيا وحديثًا مستمرا عن التوتر الذى صارت إليه العلاقات بين روسيا وألمانيا ولكن لم يدر بخلدى لحظة واحدة أن يكون ذلك حقا وإنما اعتبرته لونًا من ألوان التمويه الذى برع فيه هتلر فى ذلك الوقت فيهاجم فى ناحية حيث كان يظن أنه سيهاجم فى الناحية الأخرى ولكن كوكب السعد كان قد فارق هتلر فبدأ يخرج حتى على خططه التى نجح فى ظلها فهجم حيث كان كل إنسان يتحدث أنه سيهجم، وهجم فى الوقت الذى كان يعرف فيه كل إنسان أنه سيهجم وجاءنى صاحبى فى الظهر وحدثنى فى أحوال البيت العادية وبعد قليل قال لى بغير اكتراث «على فكرة» هتلر هجم على روسيا وكأنما قد انفجرت فى داخل صدرى قنبلة لمجرد سماع هذا الخبر فقد كانت هذه الكلمة الصغيرة تعنى فى نظرى تحول مجرى التاريخ .. قلت له من قال لك؟ فأجابنى سمعت فى الترام، وفى هذه اللحظة جاء بائع الجرائد ينادى بالخبر فقلت لصاحبى وكنا فى يونيو سنة ١٩٤١ لقد خسرت ألمانيا الحرب.

المطـــاردة

هجم هتلر على روسيا .... وكان معنى ذلك أن الحرب قد دخلت فى دور طويل الأمد وأن هذا الأمل الذى كان يداعب قلوب البشر فى حرب قصيرة الأمد قد قضى عليه نهائيا وثبت أن انجلترا كانت أبعد نظرًا عندما قررت منذ الأسبوع الأول من الحرب فتح الاعتمادات اللازمة لحرب تدوم ثلاث سنوات .

لقد ضحكنا جميعًا فى ذلك الوقت ومازالت ترن فى أذنى حتى اليوم هذه العبارات التى قيلت من هنا وهناك تعليقًا على هذا القرار ولكن هذه السنوات الثلاث توشك أن تصبح ستا ولم تنته الحرب بعد ، وهكذا لا يستطيع الإنسان بحال من الأحوال أن يعلم شيئًا عن عالم الغيب أو أن يحكم على ظروفه وتقلباته .

كان لابد إذن أن أغادر القاهرة لأنى لا أستطيع أن أعيش إلى ماشاء الله فى سجن مقفل وأن لا أتحرك إلا بالليل كالخفافيش وأن لا أطرب لشىء قدر طربى للظلام لأنه كان الثوب الوحيد الذى أستطيع أن أتشح به وأنا مطمئن إلى أن أمرى لن يكتشف .

كنت قد ضقت ذرعًا بهذه الحالة وبدأت أهفو إلى نور الشمس وإلى الحركة فى وضح النهار وإلى قبس من نسيم الحرية ، ولما كان هذا مستحيلاً بطبيعة الحال فى القاهرة فقد اعتزمت السفر إلى الأرياف حيث أستطيع فى ظل تنكرى أن أروح وأغدو آمنًا مطمئنًا إلى حدٍّ ما .

على أننى ظللت مترددًا بعض الشىء حتى وقع صديقى الذى كنت أختبىء عنده مريضًا فأصبح من المستحيل أن أقوى على البقاء عنده لكيلا يفتضح أمرى لأن أقاربه سيهرعون إلى زيارته من غير شك وقد يحتاج الأمر إلى استدعاء الأطباء وكل هذا لا يتفق والتكتم الذى ينبغى أن يصحب وجودى عنده .

وبدأت خطتى لمغادرة القاهرة ولم يكن ذلك بالأمر السهل أو الهين فقد كانت منافذ القاهرة مسدودة بالمخبرين والجواسيس ورجال البوليس . كانت جميع المحطات تحت المراقبة وجميع الطرقات الزراعية الخارجة من القاهرة تحت المراقبة الدقيقة كذلك فما هو العمل !

وعبثًا حاولت أن أغمض عيني هذه الليلة بل ظللت وزميلي الأستاذ الزيادى مسهدين حتى إذا طلع النهار بدأنا نغير خطتنا ومع ذلك فقد كان لابد من أن نجازف بأنفسنا فنسافر من محطة مصر بالليل ولقد كنت أشعر من حين لآخر بضرورة المجازفة والحق أن القائد الذى يرسم أى خطة عسكرية لا يستطيع بحال من الأحوال أن يخرج المجازفة من حسابه. ومن الواضح أن الحذر والدقة لا زمان لإنجاح أى مشروع من المشروعات أو أىّ خطة من الخطط ولكن من الواضح أيضًا أن عنصر المجازفة هو أهم عناصر النجاح من غير شك . .

قلت للأستاذ الزيادى الذى اخترته ليكون مرافقى فى السفر سنسافر الليلة فى قطار الصعيدى حيث تكون الساعة متأخرة والظلام حالكًا ولابد أن رجال البوليس لا يقومون بعملهم فى دقة بالغة كما أن علينا أن نحمل إحدى (القفف) وندخل المحطة من باب الدرجة الثالثة وسط غمار الفلاحين وجمهور الفقراء من المسافرين ونسير فى هذا النفق الأرضى الذى يوصلنا إلى القطار وليكن بعد ذلك ما يكون.

وقد تم الأمر على هذه الصورة وألفيت نفسى فى داخل المحطة وأوشكت أن أركب القطار وهنا حدث حادث طريف لا أستطيع أن أنساه بحال وهو أن أحد العساكر الإنجليز سألنى سؤالاً بالإنجليزية فإذا بى أرد عليه بالإنجليزية وأكاد أندفع معه فى حديث مستفيض لولا أننى تنبهت فجأة إلى أننى الشيخ حسن عبد الجواد ولست أحمد حسين وقد لا يجد الجندى الإنجليزى شيئًا غريبًا فى أن يحادثه أحد المشايخ بالإنجليزية ولكن هذا الجمهور الراكب لن يرى ذلك أمرًا طبيعيا بأى حال من الأحوال ولاشك أن الشيخ حسن عبد الجواد لا يلبث أن يصبح محط الأنظار وهو ما كنت أتلافاه بكل الطرق فلم تكد هذه الهواجس تطرأ على ذهنى حتى رأيتنى أقف فى فزع كاللديغ وأغادر هذه العربة التى حادثت فيها الإنجليزى بالإنجليزية وذهبت إلى عربة ثانية وفوق أحد المقاعد وفى ركن مظلم من أركان العربة جلست أنا والأستاذ الزيادى الذى كان يرتدى الجلباب البلدى واللبدة وخلع (منظاره الشهير) فيما خلع وكانت معى إحدى الجرائد فرحت أتظاهر بأننى أطالع فيها لأخفى وجهى عن الناس.

وكان لا يزال على القطار قبل أن يتحرك بضع عشرة دقيقة وتستطيع أن تتصوركم كانت هذه الدقائق مضنية .. لقد كان قلبى يخفق وكانت الهواجس تملأ رأسى ما الذى يدرينى الآن أن أحد رجال البوليس قد اكتشفنى وأنه أخطر الجهات المختصة وأنه يوشك أن يقبض علىَّ من لحظة لأخرى ؟ . كانت كل حركة فى القطار تفزعنى بالرغم من الهدوء

الظاهر على وجهى .. كنت أريد أن أختفى عن الأنظار ومع ذلك فقد كنت أريد أن أتصفح الوجوه كلها لأعرف حقيقة كنهها ولذلك فقد كنت أنظر من طرف خفى لكل رجل يقترب من الموضع الذى كنا فيه وكنت أتتبع خطواته وأتتبع حركاته وأحاول أن أبحث عن شخصية البوليس المختفية فى إهابه ولكن سرعان ما كان ينجلى أننى مخطئ فى أوهامى .

ودق الجرس الأول .. ومضت الدقائق الخمس كأنها خمسة أعوام .

ودق الجرس الثانى وتحرك القطار (الصعيدى) فى طريقه نحو طنطا فلم أكد أصدق نفسى وأننى قد نجوت هكذا من القاهرة ، ولكن القطار كان قد خرج بالفعل من دائرة المحطة وراح يضرب فى بيداء الطريق فملأت رئتى من هواء الليل العليل وتنفست الصعداء وصحت فى أعماق نفسى الحمد لله .

تركنا القاهرة خلفنا فى نهاية الأمر وسار بنا (القطار الصعيدى) يشق طريقه نحو طنطا فالإسكندرية وما أكثر المحطات التى كان يقف فيها وما أكثر ما كان قلبى يوشك أن يقف مع كل وقفة من هذه الوقفات فقد كان الفأر يلعب (فى عبى) كلما طال وقوف القطار بعض الشىء أو كلما لاح فى الجو عسكرى من عساكر البوليس أو خفير من الخفراء ولقد تصنعت النوم ووضعت الجريدة على وجهى بحجة أن النور يؤذينى وهكذا كنت آمنا من أن يعرفنى أحد ـ إن لم يكن قد عرفنى أحد ـ ولكن هيهات أن يعرف الأمن والطمأنينة سبيلها إلى قلب الهارب من وجه السلطة ، وأخيرًا وصلنا إلى طنطا فنزلنا بها وقصدنا إلى إحدى اللوكاندات لنقيم بها حتى موعد القطار التالى والذى سيحملنا إلى البلدة التى وقع اختيارنا عليها وكان علىّ أن أتحرك لأول مرة فى وضح النهار وأن أخالط الناس فأقدمت على ذلك غير هياب ولا وَجل لأنه لم يكن أمامى سبيل غير ذلك .

وأخيرًا وصلنا فى سلامة الله إلى محطة البلدة التى نقصدها ولم تكن هذه البلدة إلا إحدى الدوائر الكبرى وتبعد عن المحطة بضعة عشر كيلو مترا ولما كان الصديق الذى سننزل عنده وهو الأستاذ محمد مهدى يعمل ناظرًا فى هذه الدائرة فكان لابد من الاتصال به ليرسل لنا الركايب لتحملنا من ناحية ولتدلنا على الطريق من ناحية أخرى لأنه لم يكن قد سبق لنا أن جئنا إلى هذا المكان . وبدأنا محاولة الاتصال التليفونى بالدائرة عن طريق الموظف المختص بالمحطة والذى لم يكد يعرف مقصدنا وغايتنا حتى رحب بنا وأصر على وجوب تناول القهوة ثم راحت أسئلته تنهال علينا بطبيعة الحال عن علاقتنا بحضرة ناظر الدائرة وعن سبب حضورنا وعن المدة التى سنقضيها وعن وظائفنا وعن

وعن .. وهكذا تجلى لى الخطر الشديد من الحياة فى الريف حيث لا يجد الناس ما ينفقون فيه أوقات الفراغ سوى الثرثرة والتحدث عن أحوال بعضهم . ونجحنا بعد عدة محاولات فاشلة فى الاتصال أخيرًا بالدائرة وسألنا عن صديقنا فقيل لنا ـ إنه فى الغيط ولا يمكن الاتصال به فعرفناهم أننا ضيوف من مصر وأننا أقرباء حضرة الناظر ونحن موجودون فى المحطة فى انتظار ما يحملنا إلى مقر الدائرة فأجابنا عامل التليفون ـ إنه سيقوم بالواجب ولقد قام بالواجب فعلاً وسمعناه فى التليفون ينادى هذا ويأمر ذاك بالإسراع نحو حضرة الناظر وإخطاره أن خاله قد وصّل من مصر وبعد فترة من الزمن أخبرنا المتحدث فى التليفون أن عربة الدائرة قد أُرسِلتْ لنا وهى الآن فى طريقها إلينا .

ووصلت العربة (الحنطور) واستقبلنا سائقها فى حفاوة وإكرام كيف لا ونحن أقارب حضرة الناظر وسلم علينا موظف المحطة فى حرارة واشتياق كيف لا ونحن ضيوف من مصر وأقارب ناظر الدائرة وقد كان ذلك كله بالنسبة لى مُثيرًا لجزعى وقلقى وخاصة بعد هذا الشهر الذى قضيته فى مصر لا أكاد أرى أحدًا أو يرانى أحدٌ ولا أكاد أتكلم إلا همسًا ولا أتحرك إلا ليلاً .

وانطلقت بنا العربة فى طريقها نحو (التفتيش) وراح السائق يثرثر ويثنى بطبيعة الحال على حضرة الناظر وكفاءته وقدرته وهيبته ونزاهته وكيف أنهم لم يروا ناظرًا مثله من قبل إلى آخر ما شاء أن يقوله من الأوصاف والنعوت التى يبتهج لها حضرة الناظر . وكان علىَّ أن أتدبر هذه التجربة الجديدة التى أقدم عليها فتمنيت أن تطول هذه المسافة بيننا وبين التفتيش حتى أستطيع أن أهيئ نفسى لاحتمال هذا الموقف الجديد موقف الاختلاط بالناس فما راعنى إلا السائق يضرب الخيل يستحثها على الإسراع فسألته عن علة الإسراع الشديد فقال لى (إن حضرة المأمور ينتظركم بفارغ الصبر) .

وكأنما لذعتنا عقربة ...من .. ؟ من تقول ؟ فأجابنا الرجل مسترسلاً ولم يعرف أى قذيفة قذفها فى نفوسنا (حضرة المأمور الذى علم بحضوركم وبعد أن كان قد شرع فى تناول الغداء عدل عنه انتظارًا لتشريفكم وقد طلب منى أن أسرع فى إحضاركم) .

وقد خف تأثير صدمة كلمة المأمور بعد ثوان بطبيعة الحال عندما تذكرنا مأمور التفتيش وليس مأمور البوليس ، وكيفما كان الأمر فقد بدأ القلق يساورنا من جديد فلم نستطع إلا أن نصمت وأن نترك السائق يثرثر دون أن نحير جوابًا ولكنى تمالكت نفسى بعد قليل وبدأت أسأله لأعرف كل شىء عن هذا الجو الذى نحن مقبلون عليه وسنعيش فيه وهذا المأمور الذى ينتظرنا وسنتناول معه الغداء فقلت له . وما اسم هذا المأمور ؟ فأجاب

(فلان بك) ومرة أخرى جف حلقى وخفق قلبى فهذا الاسم الذى نطق به معروف عندى ومشهور وهو لشخص يتصل بى برابطة من روابط النسب على أن هذا الاكتشاف لم يهدئ نفسى بقدر ما زاد من هواجسها فلم يكن بيننا فيما مضى من الزمان احتكاك أو اختلاط وربما لم أره ولم يرنى منذ عشرين سنة وقد تكون فى النفوس جفوة وكيفما كان الأمر فهو آخر شخصية يفكر الإنسان فى أن يتطلب منه جرأة وشجاعة بحيث يخفى أحمد حسين فى دائرة عمله ولذلك فقد رجوت السائق أن يذهب بنا توا إلى منزل حضرة الناظر (ابن أختى) فلا داعى لإزعاج حضرة المأمور (لأننا مش قد المقام) فتحمس السائق وانهال علينا بعبارات الثناء والتشجيع وإظهار حماسة المأمور لاستقبالنا وإكرامنا ولكنا ألححنا فى طلبنا أن يقصد على الفور إلى بيت الناظر فصدع الرجل بأمرنا ووجدنا أنفسنا فى نهاية الأمر تحت ثقف بيت الناظر الذى لم يكن قد عاد من الغيط بعد ولكن المقام لم يكد يستقر بنا حتى وصل حضرة الناظر وهو مدهوش مبهوت لهذه الأنباء التى وصلته من أن خاله قد جاء من مصر فلم يكن حضرة الناظر يعرف أن له خالاً ولكن من حسن الحظ أن صاحبنا لا يتكلم كثيرًا فاكتفى بسماع هذه الكلمة وجاء إلى البيت ليقف على جلية الموضوع وجاء ودخل إلينا وتقابلت الوجوه ... ومرت بضع ثوان كاد أمرى فيها ينكشف وأننى (لست خاله ولا حاجة) فقد وجد نفسه إزاء شخص معهم لا عهد له به من قبل ولكن نظرة منه إلى صاحب الجلباب البلدى جعلته يكتشف فيه الأستاذ الزيادى فأدرك أن فى الأمر سرا ثم لم تلبث الفكرة أن صعدت إلى رأسه «الرئيس ... لابد أن أكون أنا الرئيس» .

ولم تكد هذه الفكرة تدور فى رأسه حتى اكتشف بالفعل أننى هو فإذا بهذا البرود الذى خيم على سماء المكان يتبدد وإذا بابن الأخت العزيز يندفع إلى صدر خاله وهو يصيح (خالى ... خالى العزيز ... كيف أنت يا خالى ... حمد الله على السلامه يا خالى) وافترت شفاه خادمة المنزل والسائق الذى كان لا يزال واقفًا لهذا اللقاء الحار ، وانسحب السائق والخدم تاركين الخال العزيز مع ابن اخته ، وكان لابد أولاً وقبل كل شىء من أن نخطر حضرة المأمور أن لا ينتظرنا على الغداء وأن لا يتوقع رؤيتنا له أو زيارته لنا قبل المساء لأن حضرة الخال المحترم قد جاء من السفر فى حالة إعياء شديد لم يشعر به فى يوم من الأيام ولذلك فقد قصد إلى الفراش فورًا وسوف يستغرق فى نوم عميق ، وذهب الرسول بهذه الرسالة إلى حضرة المأمور الذى أبدى أسفه بطبيعة الحال ثم انطلق فى التهام طعامه شاكرًا من غير شك الظروف التى لم تعكر عليه صفو مزاجه وهكذا أصبح لدينا

بضع ساعات قبل مقابلة حضرة المأمور وبقية موظفى الدائرة الذين لابد سيتوافدون لتمضية بعض الوقت معنا وسماع الأخبار عن مصر.

ولم يكد يستقر بنا المقام حتى علمنا من صديقنا أن عين الإدارة لم تغفل هذا المكان فقد اتصلوا بحضرة مأمور التفتيش وسألوه عما إذا كان أحمد حسين لم يلتجئ إلى الدائرة فنفى هذا الأمر بطبيعة الحال ودهش لهذا الخاطر فاعتذروا بأن حضرة الناظر الأستاذ محمد مهدى عضو من أشهر أعضاء مصر الفتاة ولذلك فقد طلب منهم تفتيش الدائرة ولكنهم اكتفوا بتأكيد المأمور أن أحمد حسين غير موجود. وكان معنى هذه القصة أننا لم نأت إلى مكان خاف عن أعين البوليس كما كان يخيل إلينا وأن مأمور التفتيش قد تلقى تحذيرًا من وجود أحمد حسين بدائرته، ولما كان موظفو الدائرة جميعًا يعلمون من ناحية أخرى أن حضرة الناظر هو من أعضاء مجلس إدارة حزب مصر الفتاةفقد كانوا كثيرًا ما يتحدثون عن أحمد حسين وعن اختفاء أحمد حسين ولم يكن بعيدًا عن تضورهم أن يلجأ أحمد حسين إلى دائرتهم وكثيرًا ما كانوا يتندرون على صاحبى فيسألونه عن مكان أحمد حسين.

وهكذا فررنا من القاهرة وذهبنا إلى أقصى الشمال لنجد أنفسنا فجأة فى مكان من السهل جدا اكتشاف أمرنا فيه أو بمعنى أدق لا نستطيع أن نبقى طويلاً مجهولين من سكانه.

وعلى كل حال فقد كان لدينا بضع ساعات نمضيها فى هدوء قبل أن يتصل بنا أحد وأكلنا ونمنا بعد أن أغلق حضرة الناظر الباب الخارجى وأوصى أن لا يزعجنا أحد بحال من الأحوال وخرج ليباشر أعماله العادية وليهيئ الجو الصالح لمقابلتنا مع حضرة المأمور وبقية الموظفين وكنا قد اتفقنا على أن لا نقابل أحدًا قبل الليل.

وقد عاد حضرة الناظر من جولته بأنباء مطمئنة مشجعة فهو لم يلحظ أى شىء غير عادى والجميع لا يبدون أى اهتمام أو اكتراث بمقابلة الخال العزيز إلا رغبة فى مجاملة حضرة الناظر ولذلك فلن يحضر إلا حضرة المأمور الذى يريد أن يُظهر تواضعه ومجاملته لحضرة الناظر وربما لن يحضر غيره إلا موظف أو اثنان.

ورحتُ أُهيئ مكان الاجتماع الذى سنجتمع فيه، وأختار المكان الذى أجلس فيه والمكان الذى يجب أن يدفع حضرة المأمور دفعًا إلى الجلوس فيه بحيث لا يرانى مواجهة ولكنْ من زاوية من الزوايا ثم جئت بالمصباح ووضعته فى ركن من المكان بحيث يكون فوق رأسى مباشرة فلا يقع الضوء على وجهى ورحنا نستعد لهذه المقابلة كما لو كنا نخرج

رواية سينمائية فعلى حضرة الناظر أن يوجه الحديث فى هذه الناحية الخاصة وعلى الأستاذ الزيادى أن يقول كذا وعلى حضرة الخال أن يقول كذا وهكذا حتى إذا فرغنا من استعداداتنا قلت لصديقى يحسن بك الآن أن تذهب لإحضار حضرة المأمور المحترم قبل أن يفاجئنا بما يفسد ترتيبنا . وقد ذهب ثم عاد وبرفقته حضرة المأمور وبدأت التجربة أو قل بدأت المحنة التى بدأت بنجاح ثم باءت بالفشل بحيث كان علينا أن نهرب من هذا المكان فى اليوم التالى إذا شئنا أن لا نقع فى يد البوليس والإدارة .

وكان لا مناص من مجابهة الموقف وإلا ساءت الأمور واكتشف مأمور الزراعة أن الوافد على البلد شخصية مريبة وكنت أعلم أن الموقف سيكون من أحرج ما يكون فلأول مرة أجابه بتنكرى شخصًا سبقتْ له معرفتى ولم أكن على ثقة تامة من دقة تنكرى . حقا لقد كانت ذقنى قد عادت إلى الاستطالة وبدأت تغير من منظرى وكنت قد بدأت آلفُ لبس العمامة والجبة فإذا أضيف إلى ذلك هذه العوينات البيضاء على عينى فإن منظرى لاشك قد تغير كل التغيير بحيث لا يمكن لأول وهلة أن يكتشفنى أقرب المقربين إلىَّ ولكن لم أكن مطمئنًا إلى هذه النتيجة عندما تطول الجلسة ، عندما تفلت منى بعض الحركات والايماءات الخاصة بى ، بل عندما يرتفع صوتى ويرن فى نبراته المعتادة والمألوفة والحق أن مشكلة الصوت هى التى كانت تهددنى دائمًا بافتضاح أمرى وكيفما كان الأمر فقد كان لابد من مقابلة المأمور الذى جاء أخيرًا ليسلم على خال حضرة ناظر الزراعة وجاء قبيل الغروب حيث كان ضوء النهار لا يزال كافيًا لرؤية كل شىء فى دقة وكنا قد اتفقنا أن لا يدخله حضرة الناظر إلى داخل البيت فى بادئ الأمر وأن يجلسه فى الحديقة الصغيرة الموجودة أمام البيت احتجاجًا بحالة الحر داخل المنزل وطلبت من صديقى أن يفهمه أننى مازلت نائمًا من تأثير السفر وأنه سيغادره لإيقاظى وقد تمت كل هذه الخطوات على الوجه المطلوب بينما رحت أتباطأ من ناحيتى فى ارتداء ملابسى والذهاب إلى حضرة المأمور الذى لم يكد يقع بصره علىَّ حتى خف للترحيب بى فى هشاشة وبشاشة عملاً بواجب الضيافة نحو زميله وقد حرصت أن يكون حديثى معه غمغمة بحجة أننى مازلت مشتغلاً بالتسبيح والتحميد عقب انتهاء الصلاة وغنىٌّ عن البيان أن الرجل خال حضرة الناظر ورحت أسأل فى كلمات قليلة عن أحوال ابن أختى متمنيًا أن يكون حائزًا على رضاء المأمور فراح يثنى عليه ثناء مستطابًا ثم جاءت القهوة فكانت فرصة طيبة إذ وجدت فيها بعض ما أتشاغل به وأحجب به وجهى من حين لآخر ولم يكن يبدو أن حضرة المأمور يفكر فى الانصراف السريع بل كل الدلائل كانت تدل على أن جلستنا ستطول وأنه يجب أن نقطع سويا ردحًا طويلا من الليل وبدأ يتوافد بعض الزوار الآخرين كمهندس الزراعة

وحضرة المخزنجى ولم تعد الجلسة خارج البيت فى الظلام مستطابة وبدأت تظهر غير طبيعية فكان لا مناص من الدخول إلى داخل المنزل وإلى التعرض إلى ضوء المصباح ولكننى كنت قد بدأت أشعر بنجاح التنكر فبادرت بقبول الاقتراح ودخلنا إلى حجرة الاستقبال فى المنزل وحرصت على أن تكون جلستى بحيث لا تقع أشعة المصباح على وجهى وكنت قد وضعت المصباح كما قدمت فى ركن من المكان خلف إحدى الأرائك وهى التى أسرعت بالجلوس عليها وفى ذلك الوقت كان بقية موظفى الدائرة قد حضروا جميعًا للسلام علىَّ وبدأت على التو أحاديثهم فى مناقشاتهم اليومية وهى كلها تدور بطبيعة الحال حول الحرب والهجوم الألمانى فى روسيا الذى كان قد مضى عليه أكثر من أسبوع دون أن تبدو له نتيجة حاسمة وقد كانت تعليقات الجميع تنطوى على روح الإعجاب بألمانيا والانتصارات الألمانية والإشادة بأعمالها العظيمة وبطولة رجالها النادرة فدفعتنى الرغبة فى الإمعان فى التنكر وحرصى على أن يبدو الجو طبيعيا أن أشترك فى المناقشة وقد أدركت فيما بعد أن هذه كانت غلطة فاحشة والحق أن عدم استطاعتى التغلب على ميلى القوى للاشتراك فى الأحاديث التى كانت تجرى حولى كان دائمًا أبدًا من أكبر أخطائى أثناء هذه الفترة من اختفائى فقد كان الحاضرون سرعان ما يستوقفهم أسلوبى فى الحديث فيروحون يصغون إليه باهتمام ولا ألبث أن أبدو فى نظرهم شخصًا غير عادى وذلك هو ما حدث، هذه الليلة فقد اشتركت كما قدمت فى المناقشة وأخذت جانب الحلفاء أدافع وأشرح العناصر التى تعتمد عليها قضيتهم والأخطاء التى ارتكبها هتلر والتى لن تلبث أن تنتهى بهزيمة ألمانيا وقد امتعض حضرات موظفى الدائرة من هذه الآراء بطبيعة الحال ولم يستلطفوا هذا الأستاذ الشيخ المعمم الذى يتكلم بروح إنجليزية وكان الموقف يمكن أن ينتهى عند هذا الحد بنجاح كبير جدا إذ أننى لم أكن حريصًا أن أبدو فى نظر هؤلاء السادة المتحمسين وطنيا متطرفًا قدر ما كان يهمنى أن لا أدع ذرةً من الشك فى رءوسهم أننى أحمد حسين المختفى والذى طالما حذروا الناظر على سبيل المداعبة أن أكون مختبئًا عنده.

وقد اجتهدت فى إتقان دورى كشيخ معمم أثناء الحديث أيما إتقان وكنت أهم واقفًا من حين لآخر متمتمًا بعبارات التكبير والتسبيح كما كنت أتوقف فجأة لكى أشرد بفكرى مهمهمًا بالصلاة على النبى ولم أكد أعلن بينى وبين نفسى أننى قد نجحت نهائيا فى تمثيل دو الحال وأن أحدًا من الحاضرين لا يخالجه أدنى شك فى شخصيتى لم أكد أطمئن إلى هذا ولم أكد أشعر بالفرح والاغتباط وأستمرئ هذه الجلسة حتى حانت منى التفاتة إلى حضرة المأمور وإذا به يحدق إلىَّ طويلاً كأنما يحاول أن يغوص إلى أعماق نفسى فشعرت

بالقشعريرة تعم بدنى على الفور وتصاعد الدم حارًّا إلى وجهى ولم يلبث أن غاض من جديد بحيث لو لم يكن وجهى فى الظلام تقريبًا لظهر بوضوح أن وجهى كان ممتقعًا أشد الامتقاع فى هذه اللحظة . لقد استوقفه فجأة بعض نبرات صوتى وبدا له كأن هذا الصوت مألوف لديه وقد كان هذا المعنى مرسومًا على وجهه وبدأت أشعر أن ساعة اكتشاف أمرى قد حانت ولكن حضرة المأمور لم يلبث أن استرد نظرته ونفى عن نفسه هذا الخاطر المفاجئ وعاد إلى طبيعته وقد تبددت فى نفسه هذه الشبهة الطارئة ولقد شعرت على الفور بهذا التغير فى تفكيره فعادت إلىَّ الراحة ولكن مرة أخرى اكتشفت أن حضرة المأمور انتهز فرصة تحدثى مع بعض الحاضرين وراح ينظر إلىَّ من طرف خفى نظرة تنطوى على الاسترابة من غير شك فبدأ القلق يعاودنى من جديد وبدأت لا أستطيع أن أجزم هل عرفنى حضرة المأمور فى نهاية الأمر أم أنه لا يزال يجهل حقيقتى وهنا اقترح واحد من الحضور أن نصعد إلى منزل المأمور لنستمع راديو برلين وآخر ما يذيعه من أخبار وهنا رأيت أن أجازف بكل شىء لأننى كل وهم يمكن أن يكون قد دب إلى نفس المأمور فقلت فى نفسى لو أننى اعتذرت عن الصعود معهم ورفضت هذه الفرصة لسماع راديو برلين ، تعزز موقف الشكوك التى كان من الواضح أنها بدأت تنفذ إلى نفس المأمور وربما استغل فرصة غيابى وراح يثبت شكوكه مع بقية الموظفين أمالو أنى على الضد من ذلك قبلت دعوته وصعدت معهم على الفور لسماع الراديو فربما ساعدت هذه الجرأة على نفى الشكوك والأوهام من نفسه فضلاً عن أننى لن أمكنهم من الاختلاء ببعضهم ولن أدع للمأمور فرصة الخلو بنفسه فى ساعة مبكرة من الليل وقد كان أهم ما بدأ يشغلنى هو كيف أمضى هذه الليلة على أى صورة من الصور حتى إذا بزغ نور النهار بادرت بالفرار منها وعلى هذا الأساس لبيت الدعوة التى وجِّهَتْ إلىَّ لسماع الراديو وصعدت معهم إلى بيت المأمور وقد كانت هذه مجازفة من غير شك وسرعان ما أثبتت الحوادث ذلك فحتى ذلك الوقت لم يكن المأمور قد استطاع أن ينظر إلى وجهى فى ضوء ساطع فلما أصبحنا فى بيته المضاء بالكهرباء استطاع أن يتبين ملامحى جيدًا وأن تتأكد أوهامه وشكوكه من أننى أحمد حسين الذى تبحث عنه الحكومة بجدع الأنف والذى اتصل به البوليس بالذات ليكلفه بالبحث عنه فى دائرته ومنطقته وقد بدأ الارتباك يظهر على وجه حضرة المأمور ونحن جلوس فكان (يسرح) طويلاً حتى ينتبه بعض الحضور إلى أنه لا يشترك معهم فى الحديث فيعاود التحدث فى مجهود ظاهر ثم لا يفتأ ينظر حوله بقلق على أن شكه إذا كان قد تحول إلى يقين فلا جدال أن يقينه كان لا يزال مشوبًا بشىء من الشك ولذلك فقد راح يدرسنى جزءًا جزءًا ابتداء من الرأس حتى أخمص القدم فيرى كل ما يشعره بأننى

أستاذ عريق ليس فقط فى الملبس والزى بل والحديث والحركات والإيماءات ولذلك فقد بدأت أطالع على وجهه عكس ما كنت أطالعه من قبل «ألا أكون مخطئًا ؟ ألا يجوز أن يكون ذلك بالفعل هو خال ناظر الزراعة ، ولا أساس لشكوكى وأوهامى ؟» .

وعلى كل حال فقد رأيت أنه يحسن بى أن أضع حدا لهذا الموقف فلم تكد نشرة الأخبار تنتهى ونفرغ من شرب القهوة والشاى حتى استأذنت ومن معى فى الانصراف بحجة اعتيادى على النوم المبكر للتمكن من صلاة الفجر فى وقتها ولم نكد نغادر منزل المأمور ونغلق علينا باب صديقى الناظر حتى أعلن ثلاثتنا أنا والأستاذ الزيادى وصديقنا الناظر حالة الخطر الشديد فقد لاحظنا معًا ما لاحظته واتفقا معى على أنه لا يوجد أدنى شك فى أن مأمور الزراعة اكتشف أمرى ولقد قدمت فيما سبق أن هناك صلة نسب بعيدة تربطنى بحضرة المأمور ولكن العلاقات لا يمكن اعتبارها علاقات حية وعلى كل حال فلم تكن الظروف تسمح لى بالاعتماد على أمثال هذه العواطف والصلات فقد كانت قاعدتى فى الاختفاء أن لا أبقى فى مكان يعرفنى فيه شخص لم يكن فى حسابى أن أعرفه بنفسى ولذلك فقد اتفقنا على أن نبارح المكان فى الصباح المبكر ولكن الساعة كانت لا تتجاوز العاشرة مساء بعد . وفى التفتيش الذى نقيم فيه تليفون يستطيع الاتصال بالنقطة وبالمركز والبندر وكل مكان آخر ومن هنا بدأت الهواجس تشتغل . لا جدال أننا نستطيع أن نعتمد على أمانة حضرة المأمور وأنه لن (يبلغ) عنا هذه الليلة على الأقل ولكن من أدرانا أنه لا يتحدث الآن مع الموظفين عن شكوكه وأوهامه فى شخصيتى بل من أدرانا أن لا يكون بعض هؤلاء الموظفين بالذات وكلهم من الشباب المثقف المتتبع للسياسة والذين يعرفون شدة صلة ناظر الزراعة بى قد اكتشف ما اكتشفه المأمور ومن يدرينا أن لا يدفع الخوف من المسئولية واحدًا من هؤلاء (للتبليغ) عن وجود أحمد حسين فى التفتيش ؟ لم يكن هناك أىُّ ضمان ولذلك فقد قررنا أن نسهر طول الليل مراقبين المكان ورحنا نرتب طريق الهرب فيما لو طرق الباب طارق البوليس بالليل ومرت الساعات طويلة متثاقلة كأنها الدهور ومجلس المأمور ينفض والضحكات العريضة ترتفع من أفواه أصحابنا الموظفين وهم ينصرفون فلم نعرف إذا كانت هذه القهقهات علامة مطمئنة إلى أن كل شىء عادى وطبيعى أم أنهم يضحكون على (ذقوننا) وكيف أنهم كشفوا سرنا ؟ ولم تلبث الضحكات والأصوات المرتفعة أن تبددت فى سكون الليل بعد أن انصرف كل موظف إلى سكنه الخاص وخيم السكون من جديد ولم يعد يسمع فيه إلا نقيق الضفادع وأصوات الصراصير ، ولكن الطمأنينة لم تعرف سبيلها إلى قلوبنا ! ! وظللنا طول الليل معلنين (حالة الخطر) بكل ما يتبعها من حذر واحتياط . لكنا مازلنا ننظر من خلف النوافذ

المغلقة من خلال الثقوب إلى الخارج لتبين ما إذا كان هناك شيء غير عادى ، ومن العبث أن أحاول أن أصور لك كيف انقضى الليل وما كنا عليه من قلق وترقب وتطلع وتعب وأخيرًا جاء الفجر فصليناه وانتظرنا بفارغ الصبر بزوغ أشعة النهار حتى إذا بدأ اليوم الجديد أسرع صاحبنا إلى حيث يوجد سائق العربة ، وأمره أن يعدها على وجه السرعة لأن خاله يريد أن يدرك قطار الساعة السابعة صباحًا وليس ما يدعو لمحاولة تصوير دهشة السائق لمبارحة الخال المحترم التفتيش بهذه السرعة ولما يكد ينفض عنه غبار السفر . والمهم أن الساعة لم تبلغ السادسة حتى كانت العربة تنهب بنا الأرض نهبًا فى طريقها إلى المحطة قبل أن يستيقظ أى إنسان فى القرية إلا أن يكون هؤلاء الفلاحون الذين لا يدركون مما يجرى حولهم شيئًا . وقد أعفانا ركوب حضرة الناظر إلى جوارنا من مؤونة الرد على أسئلة سائق العربة الذى كان لابد سيمطرنا بها تعليقًا على هذا السفر المبكر وعدم تمكنهم من القيام بواجب الضيافة . وكلما بعدنا عن التفتيش كلما شعرنا بالاطمئنان لاجتيازنا هذه المحنة . ولكن هل كنا قد اجتزناها فعلاً ؟ كان الجواب ينتظرنا بالقرب من المحطة التى نقصدها على صورة ضابط من ضباط البوليس وقد جلس على كرسى وإلى جواره رجلان أو ثلاثة أحدهما على ما أذكر من رجال البوليس والآخران من الخفراء .

ويمكنك أن تصوّر لنفسك مقدار الفزع الذى ملأ قلوبنا ونحن نرى هذا المنظر البشع ، منظر ضابط من ضباط البوليس تحيطه الخفراء وبعض الجند . لقد أحسست بقلبى يقفز بين ضلوعى ويكاد يقع منى إعياء . فقد أدركت أن النهاية قد حانت وأنه سيقبض علىَّ فى آخر الأمر ولم يكن بى فزع من القبض قدر ما كان الخجل من افتضاح أمرى يكاد يقتلنى قتلاً ... لقد كانت الساعة التى امتلأت منها رعبًا عندما يقبل على هذا الضابط مبتسمًا فى تهكم «أهلاً يا أستاذ أحمد» ومن يدرى ؟ فربما لم يكن لطيفًا وكان من النوع الشرس . أو كانت أخبار هربى جعلتهم يصوروننى سفاحًا فيبادرنى بإشهار المسدس فى وجهى صارخًا «ارفع يديك» وربما كان الموقف شيئًا يغاير ذلك بالمرة ولا أكاد أتوقعه كل ذلك دار فى رأسى بسرعة الخاطر وغنى عن البيان أن وجود البوليس فى هذا المكان لم يثر فى نفسى أى دهشة وتساؤل عن كيفية وصوله . فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى تساؤل فلابد أن مأمور الزراعة الذى حسبنا أنفسنا قد نجونا منه أو غيره من الموظفين قد اتصل بالبوليس عندما أكتشف مبارحتنا السريعة للتفتيش والتى تشبه أن تكون فرارًا أو هى الفرار بالفعل ، فبادر ضابط الناحية للقيام بواجبه فى القبض علينا مصطحبًا معه كل ما لديه من قوات ريثما تصل قوات أكبر عددًا . ولكن الأمر الذى كان يسترعى النظر أن ضابط البوليس كان جالسًا على الطريق العام ولا يكاد تبدو عليه حالة

التربص فضلاً عن انتظار أحد قادم من ناحية التفتيش فهل كان ذلك فرط حرص منه ودهاء حتى لا نأخذ حذرنا . ولكن ألا يكفى أن ننظره لكى نتخذ كل الحذر سواء كان واقفاً أو جالساً ناظراً فى هذه الجهات أو تلك ؟ كل هذه خواطر مرت فى رءوسنا جميعاً بسرعة البرق كما قدمت كنا فى خلالها نتبادل النظرات الخاطفة ويكاد كل منا يطالع ما يجرى فى رأس زميله كما لو كان يطالع فى كتاب مفتوح . وأخيراً رأينا أن ننقذ الموقف بأن نزلنا من العربة فى هدوء واتجهنا صوب قهوة ريفية تظللها الأشجار بالقرب من المحطة وانسللنا إلى داخلها فى هدوء وصمت وجلسنا على إحدى الترابيزات وطلبنا شاياً وقهوة وحاولنا أن نبدو عاديين فى تصرفاتنا بأن نضحك وأن نظهر قلة الاكتراث بشىء مما يدور حولنا ولكنا لم نكد ننظر إلى بقية زبائن القهوة حتى لمحنا اثنين ينظران إلينا من طرفٍ خفى ويبدو عليهما سيماء رجال البوليس أو المخبرين عندما يرتدون الملابس الملكية . لم يبق شك عندنا فى أن المكان «ملغم» وأننا وقعنا فى الفخ فامتثلت إلى قضاء الله وقدره ورحت أرتل تعويذتى ملجئى الأخير (بسم الله الرحمن الرحيم) وانطلق لسانى يرددها فى صمت وخفوت وران على ثلاثتنا الصمت والسكون ولم نستطع أن نتبادل أى حديث من الأحاديث ولكن الدقائق مرت دون أن تبدو حركة جديدة فى الجو فلا يزال الضابط جالساً على كرسيه على قارعة الطريق حيث نراه من بعد من خلال الأشجار ولا يزال هذان الرجلان فى مكانيهما من القهوة لم يتحركا . أنكون واهمين وكل هذا الذى نراه لا يعدو أن يكون اتفاقاً بحتاً ومصادفة وأن وجود هذا الضابط لا علاقة له بموضوعنا بأى حال من الأحوال بل قد لا يعرف أنه يوجد فى الدنيا شىء اسمه أحمد حسين .. ؟ بدأ الأمل يداعبنى من جديد وبدأت خواطر الطمأنينة تملأ نفسى . لا جدال فى أن هذا الضابط لا يتربص للقبض علىَّ ، وإلا لوجب أن يتحرك وإلا لوجب أن يتخذ إجراءً معيناً يحول دون فرارى . ولماذا يبدو عليه أنه ينتظر شيئاً معيناً يقدم من إحدى ناحيتى الطريق .. أيكون فى انتظار سيارة .. ؟ يظهر أنه فى انتظار سيارة بالفعل وربما كانت سيارة البوليس أيكون فى انتظار نجدة جديدة قبل أن يشرع فى عمله ؟ ومع ذلك فقد كانت الدقائق تمر وتمر دون أن تبدر أية بادرة جديدة تدل على تفاقم الموقف ولذلك فقد بدأنا نستبعد أن يكون هذا الضابط مكلفاً بالقبض علينا وأقبلنا على القهوة والشاى نشربهما ووجدنا جريدة الأهرام فشرعنا فى مطالعتها إذ كان لا يزال هناك وقت طويل قبل وصول القطار الذى سيذهب بنا إلى المنصورة وهى المكان الذى وقع اختيارنا عليه للمرحلة القادمة ولكن فكرنا ظل بطبيعة الحال مشغولاً بتتبع حركات الضابط ومعرفة ما سينتهى إليه أمره . وأخيراً لم يطل انتظارنا وانحل اللغز من تلقاء نفسه إذ أقبلت سيارة الأوتوبيس التى تنقل

الركاب من المنصورة إلى طنطا على ما أذكر ولم تكد تظهر عن بعد حتى وقف الضابط مسرعًا ولم تكد عربة الأوتوبيس تقترب حتى أشار إليها فتوقفت بالقرب منه فقفز إليها راكبًا حيث وجدنا فى داخلها ضابطًا آخر وقف مرحبًا بزميله ، يظهر أنهما كانا على موعد . وانطلقت السيارة لا تلوى على شيء مثيرة خلفها هذه السحابة الخافتة من الأتربة التى نزلت على قلوبنا بردًا وسلامًا وكانت على ما أذكر أشهى أتربة استنشقها فى حياتى فى شغف ولذة فقد حملت معها الكابوس وتنفسنا الصعداء وثبت لنا أن الأمر لم يكن إلا وهمًا وصدق من قال : يكاد المريب يقول خذونى ...

السيـــد البـــدوى

ليس باستطاعتى أن أثقل على القراء بذكر كل تفاصيل انتقالاتنا فى هذه الفترة خوف الإملال من ناحية ولصغر حجم الكتاب من ناحية أخرى ولذلك فحسبى أن أشير سريعًا إلى حوادث هذه الفترة لكى أصل إلى الفصل الأخير منها فى مدينة طنطا . فقد تركنا بلدة الأبشيط إلى المنصورة ، وفى المنصورة أقمنا بضعة أيام تحاشيت فيها أن أمر فى أحيائها الوطنية خوفًا من اكتشاف أمرى واضطررت اضطرارًا لكى يكون خروجى فى دائرة المحكمة المختلطة (فقط) فكان منظرى يبعث على الشبهة وأنا شيخ وقور معمم يروح ويغدو بين جمهور من الشبان وطلاب المدارس وكثير من الأجانب رجالاً ونساءً .

وأخيرًا استقر الرأى على أن نستقر فى عزبة أخى الأستاذ إبراهيم شكرى على أن أنزل فى بيت مأمور الدائرة الأستاذ محمد أبو ثريا عضو مجلس إدارة الحزب باعتبارى خاله أيضًا ولكن أمرنا سرعان ما أوشك أن يفتضح مرة أخرى ففى أول مرة زارنى فيها موظفو الدائرة أقسم أحدهم عقب المقابلة أنه لولا أن أحمد حسين معتقل فى السجن لقرر أن هذا المتحدث هو أحمد حسين. وعلى ذلك فقد اضطررنا أن نشد الرحال مرة ثانية وجعلنا وجهتنا السيد البدوى هذه المرة حيث أستطيع أن أعيش فى البيئة الطبيعية كرجل شيخ مثقف .

وكان يصاحبنى الأستاذ فتحى أبو الوفا الذى كان قد حصل على بكالوريوس كلية الزراعة منذ أيام والذى قرر أن يلازمنى ليكون حلقة الاتصال بينى وبين الحياة .

وكانت خطتنا تتلخص فى أن نستقر فى مدينة طنطا وأن نستأجر شقةً خاصةً بنا وأن يتولى الأستاذ إبراهيم شكرى تأثيثها فوصلنا إلى طنطا واستطعنا أن نعثر على شقة خالية .

وكان علينا أن ندبر الأمتعة لأن أمتعة صديقنا (إبراهيم شكرى) لم تصل بعد ولم يكن مقدرًا لها أن تصل إلا إذا أرسلنا (فتحى أبو الوفا) لإحضارها فرأينا أن نشترى سريرًا على وجه السرعة لأستعمله ريثما تحضر باقى الأمتعة ، وعلى ذلك فقد توجهنا لأحد المحال التى تبيع الأثاث وهو محل خلف مسجد السيد البدوى على ما أذكر واشترينا منه سريرًا صغيرًا ومرتبةً جديدةً واشترينا حصيرًا ولمبة زجاجية وكوزًا وإبريقًا من الفخار وقلتين وقبقابًا

وصابونًا واشترينا أيضًا جبنًا وزيتونًا وخبزًا لنأكل وتوجهنا كالغزاة الفاتحين إلى شقتنا الجديدة التى كانت خادمة صاحب البيت قد نظفتها وغسلتها وهيأتها للسكن واستقر بنا المقام فى بيتنا الجديد ـ ولا تسل عن مقدار السعادة والهناءة اللتين شعرت بهما أخيرًا ـ وبعد شهرين ونصف من مطاردة البوليس واضطراب الأعصاب والقلق المستمر ، وكان على صاحبى أن يسافر على عجل لإحضار باقى الأمتعة لكى نحيا حياة مستقرة تهيئ لنا جانبًا من الراحة ولما لم يكن هناك وقت لنضيعه فقد سافر صديقى لإحضار الأمتعة وتركنى فى دنياى الجديدة بمفردى ولكننى لم أشعر بأى خوف أو قلق .

كانت خطتى أن أحيا فى طنطا حياة طبيعية جدا وأن أسعى لتقمص هذه الشخصية التى تقمصتها روحًا ودمًا وكان كل همى أن أطبع شخصيتى فى ذهن كل من يتصل بى إلى حدٍ يخيل له أنه يعرفنى منذ سنوات وبحيث أستطيع أن استشهد به لو احتاج الأمر إلى استشهاد من أننى الشيخ حسن عبد الجواد المتخرج فى كلية الشريعة والذى يعتزم فتح مكتب للمحاماة الشرعية إن لم يحصل على وظيفة مدرس فى المعهد الأحمدى .

وقد كان هذا المعنى قد انطبع بنجاح فى رأس صاحب البيت حتى لقد وعد أن يساعدنى فى إدراك النجاح وكان الشخص الثانى الذى شرعت على الفور أن أصاحبه هذا البقال الذى كان يواجه منزلى الجديد الذى سكنت فيه والذى كان مقدرًا أن يرانى فى دخولى وخروجى وأن أكون على رأس عملائه المهمين وقد تبين فيما بعد أن حضرة البقال سبق له أن كان طالبًا فى الأزهر ثم تحول إلى دار العلوم وآثر فى النهاية أن يفتح هذا (الدكان) فى طنطا مسقط رأسه وسرعان ما توطدت الصداقة بينى وبينه وسرعان ما أدرك كل شىء من أحوالى وكيف كادت روحى تزهق فى هذه الغارة الكبرى على الإسكندرية وأن الأولاد لم يستطيعوا الصبر على هذا البلاء فطلبوا منى الهجرة إلى طنطا بأى ثمن من الأثمان وأننى قد أسافر بعد قليل لإحضارهم للإقامة معى وهو خبر يَسرُّ البقال من غير شك وكثيرًا ما كان صاحبى البقال يشير لى على بعض العملاء بقوله : حضرته من الإسكندرية مثل حضرتك ومهاجر هو وعائلته مثلك .. فأتظاهر بالسرور والبشاشة وأنا أستعيذ بالله فى سرى وأستخدم كل مهارتى وحذقى لتفادى الأسئلة الطبيعية التى تجنى علىَّ بعد هذا التعارف على أن الحياة بدأت تمضى طبيعية وبدأت أستمتع بها . بدأت أنظر إلى المستقبل بكثير من الارتياح والتفاؤل بإمكان النجاح نهائيا فى تضليل البوليس والنجاة من براثنه .

وبدأت أتعرف على أجزاء طنطا المختلفة فتوجهت صوب شارعها الجديد الكبير الذى أطلق عليه اسم جلالة الملك لأتنزه وأستنشق نسيم المساء وكنت أحرص كل الحرص على

أن يبدو منظرى طبيعيًا وعاديًا وأن أتصرف فى غير حذر أو تحفظ على صورة من الصور فإذا وجدت محلا لبيع الشربات توجهت إليه واشتريت كوبًا من الشربات وإذا وجدت عربة (تين شوكى) ملت نحوها وطلبت من الرجل أن يبيع لى بخمسة مليمات وهكذا وكانت أضواء سينما البلدية تلمع فى عينى وتغرينى بالاستمتاع بها ، ولكن أزهريتى وعدم استقرار أمورى استقرارًا نهائيًا جعلنى أقاوم هذا الإغراء وأتريث فى الدخول إليها .

وعدت فى المساء المتأخر إلى بيتى ونمت هذه الليلة ملء جفونى وأنا مطمئن كل الاطمئنان أن أحدًا فى مصر كلها لا يمكن أن يعرف شيئًا عن أمرى .

واصلت فى اليوم التالى تجوالى فى مدينة طنطا لأزداد تعرفًا بها وكنت أسير حاملاً مظلتى التى فتحتها كما يفتح النوتى أشرعة مركبه وقد رحت أستخدم هذه المظلة كما يستخدم النوتى قلاع مركبه بالذات فقد حرصت أثناء سيرى أن أحجب وجهى بطرف هذه المظلة إمعانًا فى الاحتياط فكنت أميلها إلى هذا الجانب الذى أنتظر منه الالتفات ، وعلى ذلك فقد كنت أميلها نحو الأمام أو الخلف حسب الظروف وحسب الاتجاه الذى أرغب أن أتفادى منه النظرات وعلى ذلك فقد كنت أسير فى وضح النهار فى قلب شوارع طنطا وأنا مطمئن كل الاطمئنان أن لا أحد يستطيع أن يدرك من أمر هذا الشيخ شيئًا إذ لم يكن فيه ما يلفت النظر على أى صورة من الصور ولقد أحسست بفائدة المظلة المفتوحة ولذلك فقد كانت الشوارع التى لا ظل بها هى الشوارع التى يطيب لى السير فيها وكانت ساعة القيلولة هى أحب ساعات السير إلى نفسى إذ يصبح استخدام المظلة أمرًا لا مفر منه ولا يثير فى النفس أى ريب أو تساؤل .

واخترت مطعمًا نظيفًا فى مكانٍ مناسبٍ لتناول الطعام وبدأت أتعرف إلى الخدم ويتعرفون بى حتى يألفونى إذا ترددت على المكان ولكن سرعان ما اكتشف أننى أخطئ فى معاملتى للناس خطأ قد يؤدى إلى اكتشاف أمرى إذ لا يتفق مع شخصيتى فقد كنت إذا تناولت الطعام وجاء دور الحساب تركت للخادم ما قد يصل أحيانًا إلى قرشين ونصف على سبيل (البقشيش) فكان هذا يحدث موجة سرور عند الخادم تكاد تنذر بالخطر ولم أكتشف ذلك إلا عندما عدت للمرة الثانية إلى هذا المطعم فوجدت الخادم وقد هبَّ واقفًا على قدميه واستقبلنى ببشاشة وترحاب ورأيت بقية الخدم يخفّون لاستقبالى ويعرضون خدماتهم وإذن فلابد أن أكون ثقيلاً حتى لا ألفت إلىَّ الأنظار وقد كان هذا درسًا واجب الاتباع .

وكان لابد من اتخاذ مكان مختار أستطيع أن أقضى به جزءًا من وقتى خارج البيت

فوقع الاختيار على مسجد السيد البدوى فبدأت أصلى به مع الجماعة وانتحيت بعد الصلاة إلى جوار عمود من الأعمدة أسبح وأتمتم وأعمل قدر الطاقة على أن يكون منظرى مألوفًا وأن يتعرف إلىَّ خدم المسجد ورواده الدائمون وسرعان ما لفت نظرى هؤلاء الطلاب من المنتسبين للمعهد الأحمدى والذين يذاكرون استعدادًا للامتحان وبدأت الهواجس تساورنى فيما يكون عليه الحال لو أقبل علىَّ بعض هؤلاء الطلاب ليستفتونى فى مسألة علمية أزهرية فنية وأنا بهذا الزى وبهذا السمت الذى تتجلى فيه الأستاذية الكاملة على أن هذا الأمر الذى بدأت أخشاه لم يقع بحمد الله لأن هذه الحياة لم تظل إلى ما شاء الله فقد عاجلنى الحظ السىء أو بالأحرى الحظ الحسن بالوقوع فى قبضة البوليس كما سترى .

ووصلت الأمتعة أخيرًا وامتلأت شقتنا بالمفروشات الوثيرة التى بعث بها صديقى (ا.ش) واستقربنا المقام فى طنطا نهائيًا وبدأت تطوف فى رأسى أحلام الاستقرار والهدوء فاعتزمت أن أبعث إلى أسرتى لتوافينى فى هذا المكان ، ولتعيش معى فى هذا البيت فيكون ذلك أدعى لراحتى من ناحية أخرى ولما لم يكن هناك من يعرف زوجتى أو سبق له أن رآها من قبل فلم يكن هناك ما يحول دون استقرارها إلى جوارى ولكنى لم أشأ أن أسرع فى تنفيذ هذا الرأى واكتفيت بالتمهيد له بأن أرسلت إلى أسرتى أو بالأحرى إلى أعز أفرادها إلىَّ وأحبهم إلى قلبى هذا الذى كان يقوم فى ذلك الوقت مقامى فى كل شىء وينوب عنى فى كل عمل ويسيِّر دفة سفينة الحزب بأحكم وأنشط ما سارت به فى يوم من الأيام بعثت إليه بخطاب أحدثه عن هذا الفتح الجديد واستقدمه لمقابلتى فى طنطا وعينت له مكانًا للالتقاء صحن المسجد الأحمدى بعد صلاة العشاء فى يوم معين .

وأسرع صاحبى لموافاتى فى طنطا ولكن شخصًا آخر عرف بمكانى وكان من حقه أن يعرف ولم يستطع أن يكبح جماح رغبته فى أن يرانى وله العذر كل العذر فى ذلك ، ولم يكن هذا الشخص إلا الأستاذ إبراهيم الزيادى الذى كان قد سافر إلى القاهرة ليعمل على تنظيم نشاط الحزب فى هذه الفترة كما قدمنا . وقد أسرع البوليس السرى إلى طنطا والعجيب أن الأستاذ الزيادى على فرط حرصه وحذره ودقته لم يلحظ أنه متبوع ومتبوع بشخص من أفراد البوليس السرى الذين لا ينسى الإنسان شكلهم بسهولة ، ولقد صاحبه هذا البوليس السرى فى سيارة واحدة طوال الطريق من مصر إلى طنطا دون أن يلحظ الأستاذ الزيادى من أمره شيئًا وهكذا يصح القول الخالد أن القضاء إذا حم عمى البصر وبطل السمع ولم ينفع الحذر ولم يكن رجل البوليس الذى يتعقب الأستاذ الزيادى يطمع فى أن يصل من ذلك إلى الاهتداء إلى مقر إقامتى فقد كان البوليس قد يئس نهائيا

من إمكان العثور عليَّ بعد هذه الأشهر الثلاثة من المحاولات المستمرة الواسعة النطاق والتى انتهت كلها بالفشل الذريع فلقد ذرع البوليس أرض القطر المصرى شبرًا شبرًا وما من بلد من بلاد القطر لم يسافر إليها اليوزباشى إبراهيم إمام (وقتئذ) وقد كان توالى الفشل من شأنه أن يثبط عزيمة البوليس ومن هنا فقدوا كل أمل فى العثور عليَّ واعتقالى ، ولذلك فعندما صدرت الأوامر بتعقب الأستاذ الزيادى فى سفرته لم يكن ذلك إلا بقصد الرغبة فى القبض على الأستاذ الزيادى متلبسًا بجريمة طبع المنشورات التى كانت توزع فى ذلك الوقت باسم الحزب فى كل مكان والتى كانت تتضمن حملات شعواء على سياسة الإنجليز ، وعلى ذلك فقد تتبع البوليس الأستاذ الزيادى لضبط منشورات ولقد خاب أمله فى ضبط هذه المنشورات ، ولكنه بدلاً من أن يرجع بخفى حنين عاد يحمل فى شبكته صيدًا ثمينًا على شكل الشيخ حسن عبد الجواد .

ولنرجع إلى سرد الحوادث على الترتيب ، فقد وصل مندوب الأسرة فى الموعد المحدد لمقابلتى ووصل الأستاذ الزيادى ومن خلفه رجلان من رجال البوليس السرى فى نفس الوقت وتلاقى الصديقان فى إحدى المقاهى ثم قصد مندوب الأسرة إلى المسجد الأحمدى فى الموعد المحدد فتتبعه أحد رجلى البوليس ولم أشأ أن أذهب بنفسى لملاقاته فى هذا الموعد وإنما أرسلت (ف.ا) لمقابلته واستحضاره معه إلى البيت وجلست فى المنزل أترقب فى لهفة مقدم صديقى ومندوب أسرتى ولم يطل انتظارى فقد دق الباب ففتحته فألفيته واقفًا أمامى إلى جوار (ف.ا) فارتمينا فى أحضان بعضنا فرحًا وسرورًا بهذا التلاقى وهذا النجاح الكامل فى تضليل البوليس نهائيًا والوصول إلى مرحلة الاستقرار ولم يطف ببالنا أن رجل البوليس كان فى هذه اللحظة يطوف حول البيت ويسجل نمرته ويرقب نوافذه وأنه يكمن فى الظلام مترقبًا ما يجرى من الحوادث دون أن يكون له برنامج معين .

أما نحن فقد جلسنا نتحدث ونستعرض الأحوال ونرسم البرامج المختلفة ولم ير مندوب الأسرة حرجًا فى مجىء زوجتى للإقامة معى ووافقنى على أن ذلك يهيئ لى جوًّا من الطمأنينة ويبعد كل شبهة ، ولقد فاتنى أن أذكر أننى علمت منه بمجرد حضوره نبأ مجىء الأستاذ الزيادى إلى طنطا فغضبت لهذا النبأ ورحت ألومه على موافقته على هذا العمل فاحتج بأن جهوده لم تفلح فى إقناع الأستاذ الزيادى بالعدول عن الحضور ثم راح يهون عليَّ الأمر من أن شيئًا لن يقع على الإطلاق فالظواهر كلها تدل على أن البوليس لم يعد مشغولاً بالموضوع .

وبعد أن أتممنا حديثنا نزل صاحبى ومعه (ف.ا) لكى ينام فى منزل أحد أقاربه المقيمين فى طنطا بينما رحت أسبح فى عالم الخيال وأتصور حياتى اللطيفة المقبلة بعد أن تصل

زوجتى وولدى مصطفى ثم يعمل الشيخ حسن عبد الجواد لشق طريقه فى طنطا وكسب قوته للصرف على أسرته .. وشعرت بالغبطة والرضا عن سير الحوادث ولم يقطع علىَّ سلسلة أفكارى وخيالاتى إلا الأستاذ (ف.ا) فقد أخذ يطرق الباب فى لهفه ويدعونى لفتحه فبادرت بفتح الباب فدخل يلهث ويقول لى يجب أن نغادر هذا البيت فى الحال وأن لا ننام فى طنطا هذه الليلة وقد كانت هذه العبارة بمثابة قنبلة وقعت من نفسى موقع الصاعقة ولم أشعر بالانزعاج ساعة القبض على قدر انزعاجى لهذه العبارة التى كانت أول نذير بالشؤم ولقد سألته على الفور عن سبب هذا القرار ولم تكن بى حاجة إلى السؤال فقد جاء الرد المنتظر على الفور «لأن البوليس يراقب البيت . البوليس يراقب البيت» قلت : بالله وكيف عرفتهم ومتى بدأ ذلك ؟ فراح صديقى يقص علىَّ فقال لى إننا بعد أن تركناك وذهبت مع صديقك لأوصله لمحنا أثناء اجتيازنا أحد الطرق المحيطة بالمنزل هذا الشاب الذى يشتغل فى القسم السياسى مع اليوزباشى إبراهيم إمام . صحت به : ولكن من أين لك معرفته ؟ فقال أو لم تره فى المحكمة أثناء قضية الأستاذ توفيق الملط حيث جاء ليدلى بشهادته باعتباره أحد الذين تتبعوا الأستاذ توفيق .. ؟ ولما كان لهذا الشاب صورة لا تنسى فقد عرفناه على الفور خاصة وأنه تعمد أن ينظر إلى وجوهنا ولذلك فقد وجب أن لا نبقى فى هذا البيت بعد ذلك وأن لا ننام فى طنطا وقد كان هذا اقتراحًا قاسيًا على كل منا فى ذلك الوقت كيف أترك هذا البيت بعد كل هذا التعب وهذا الجهد الذى بذلناه فى العثور عليه وإعداده وفرشه وتوضيبه .. كيف أغادر طنطا هكذا سريعًا بعد أن خيل إلى أنها ستكون بلدى لبضع سنوات مقبلة وإلى أين أذهب إذا غادرت طنطا .. ؟ أأعود من جديد لهذه الحياة المضطربة التى تحملنى على أن لا أستقر فى مكان واحد أكثر من يومين أو ثلاثة إن لم يكن بضع ساعات . أأعود لحياة القلق والحذر الشديد بعد أن خيل إلىَّ أننى ودعت هذه الحياة إلى غير رجعة ؟ . لا ... لا إن هذا فوق احتمالى ولم تعد أعصابى تطيق هذا اللون من الحياة . ولذلك فقد فوجئ صاحبى برفض اقتراحه وصحت به لن أخرج من هذا البيت ولن أغادر طنطا الليلة وليأت البوليس لاعتقالى إذا كان قد اكتشف أمرى فلست أجد فى نفسى أى دافع يدفعنى للفرار من وجه البوليس بعد الآن لقد دخلت الحرب فى دور جديد لا نهاية قريبة له . وظهر أن روسيا كانت أعظم ضربة يعدها القدر لألمانيا . فقد كان قد انقضى شهر ونصف على بدء الحرب الروسية والجيوش الألمانية لم تستطع أن تنال منالاً من روسيا وكان الأمر قد استتب للإنجليز لا فى أفريقيا فحسب بل وفى سوريا ولبنان وأصبحت قدم الإنجليز أرسخ مما كانت فى أى يوم مضى وإذن فلم يعد هناك أى أمل فى نهاية سريعة للحرب ولم تعد بالتالى أى جدوى لبقائى مختفيًا عن وجه الحكومة ولذلك فقد وجدت نفسى أمتلئ بالعزم على البقاء حيث أنا وليكن بعد ذلك ما يكون . وعبثًا حاول صديقى

(ف . ا) أن يثنيني عن عزمي عبثًا حاول أن يرجوني وأن يلح في الرجاء لمغادرة البيت على الفور ولكني بدأت أحمله على التشكك في أن يكون ما رآه بوليسًا حقا وقد يكون الأمر خيالاً واستبعدت أن يكون الشاب قد عرف البيت بالضبط ما داما لم يرياه واقفًا أمامه وإنما رأياه في أحد الشوارع القريبة من البيت وهكذا رحت ألتمس المعاذير للبقاء في البيت. البيت الذى كان قد بدأ يحلو لى وأحرص عليه حرص الإنسان على بيته بالفعل.

قر القرار على البقاء في البيت إذن. ولكنا أعلنا حالة الخطر وهي تستدعي أن لا ننام طول الليل وأن نلازم النوافذ لنراقب الشوارع المحيطة بالمنزل حتى إذا رأينا حركة غير عادية اتخذنا للأمر أهبته وحاولنا أن نلتمس مخرجًا لنا ورحنا ندرس السطوح حيث كانت تقع شقتنا وبدأنا نقيس الأبعاد التي تفرقنا عن المنازل المجاورة لنا وتبين لنا أننا نستطيع في حالة الخطر إذا ما تنبهنا له في الوقت المناسب أن نقفز إلى سطوح مجاورة أو أن نختبئ في عشة فراخ تصلح للاختفاء ولا يدور بخلد القادمين أن أحدًا يمكن أن يكون مختفيًا فيها ، وفي هذه الأثناء كان الوقت يمر دون أن يجد جديد على الموقف فقد كانت الشوارع المحيطة بالبيت خالية من كل ما يثير الشك أو الريبة وبعد أن مكثنا بضع ساعات ونحن نراقب في غير جدوى اتفقنا على أن نقسم ما بقي من الليل بالمناوبة بيننا ليتولى كل منا مواصلة المراقبة وحان موعد صلاة الفجر فصليته وابتهلت إلى الله أن يهيئ لنا ما فيه الخير ولم أستطع مقاومة النوم أكثر من ذلك فأيقظت صديقي الذى كان قد نال حظا من النوم وطلبت منه أن يستلم دوريته ريثما أتمكن من النوم ولقد نمت واستيقظت بعد أن غمرت الشمس بأشعتها الدنيا المحيطة بنا ولقد كانت نظرة واحدة إلى وجه صديقي كافية لأن تدل على أن كل شيء يسير على ما يرام وأنه لم تلح في الجو أى بادرة تدل على شيء غير عادي وهنا بدأت حالة القلق التي ساورتنا بالأمس تزول وبدأت الطمأنينة تتسرب إلينا من جديد وبدأت أحاجي صديقي من أنني كنت على صواب عندما قلت له إنهم أخطأوا في تقديرهم وأن البوليس لم يهتد إلى البيت ولم يكشف أمره وإلا لدهمنا في الحال وإن الأمر قد لا يعدو أن يكون مصادفة بحتة وقد أذعن صاحبي لوجهة نظري بعد أن بدأت الحوادث تؤيدها وعلى كل حال فقد رأينا إمعانًا في الحيطة أن لا نبارح المنزل هذا الصباح وأن نلزمه حتى لا نهيئ السبيل للبوليس إذا كان يحوم في هذه المنطقة لاكتشاف أمرنا وقد دلتنا الحوادث فيما بعد أن ذلك لم يكن احتياطًا وإنما كان انتظارًا لحكم القدر.

سجن الأجانب

بينما كان كل شيء يجرى حولنا هادئًا وطبيعيًا فى وكرنا بحيث زال من نفوسنا كل قلق واضطراب كانت الحوادث تجرى سراعا فى ناحية أخرى من طنطا حيث كان البوليس لا يزال يتتبع الأستاذ إبراهيم الزيادى ويرقب حركاته بعد أن انضم إلى المراقبين الصاغ إبراهيم إمام نفسه والذى اتصل به رجاله بمجرد مغادرتهم القاهرة خلف الأستاذ إبراهيم الزيادى ، استقر بهم المقام فى طنطا وأتاهم الصاغ إبراهيم إمام على عَجَل وبات فى المدينة حتى إذا أصبح الصباح خف إلى حيث أقام الأستاذ الزيادى فوجده يتهيأ للسفر ومبارحة مدينة طنطا بعد أن علم أن أوامرى المشددة هو أن لا نتقابل وأن يبرح طنطا على الفور ، ولم يكد الأستاذ إبراهيم الزيادى يضع قدمه على سلم سيارة الأمنيبوس حتى وجد يدًا توضع على كتفه ولم تكن هذه اليد سوى يد الصاغ إبراهيم إمام وتقول الروايات والقصص البوليسية إن رجل البوليس يقول فى هذا الموقف «إننى أقبض عليك باسم القانون» ولكن فى روايتنا نحن قال الصاغ إبراهيم إمام «أزيك ياإبراهيم أفندى .. إنت رايح فين تعال اتفضل معانا ...» ولقد ذكرت من قبل أن الفكرة فى مراقبة الأستاذ الزيادى كانت للاهتداء إلى مكان طبع هذه المنشورات التى كانت تترى فى هذه الأيام حاملة اسم مصر الفتاة وهى تنطوى على حملة شعواء ضد الإنجليز ورئيس الحكومة الذى يصانع الإنجليز ولذلك فقد أسرع إبراهيم أفندى إمام إلى أخذ هذه الشنطة التى كان الأستاذ إبراهيم الزيادى يحملها معه وأسرع بفتحها وتفتيشها ، ولا تسل عن خيبة أمله عندما لم يجد بها قصاصة ورق واحدة فضلاً عن منشورات مطبوعة وكان قد تصادف أن الأستاذ إبراهيم الزيادى مر بعد حضوره إلى طنطا على بعض أصدقائه من أصحاب المطابع وجلس عندهم بعض الوقت فاستقر فى روع البوليس المراقب أن هذه المطبعة هى التى تقوم بطبع منشورات مصر الفتاة فكانت الخطوة الثانية هى الذهاب إلى هذه المطبعة وتفتيشها تفتيشًا دقيقًا وقد ارتعب صاحب المطبعة هذا اليوم وأقسم لهم أنه بَعيدٌ بُعدَ السماء عن الأرض عن أى صلة بمصر الفتاة وانزعج الأستاذ إبراهيم الزيادى من ناحية أن يكون مجرد مروره بهذه المطبعة قد يؤدى إلى إغلاقها واعتقال صاحبها فراح يرجو بدوره إبراهيم أفندى إمام أن لا يتعرض لصاحب المطبعة لأنه لا علاقة له بالحزب

أو نشاط الحزب على أى صورة من الصور ولقد أصغى إبراهيم أفندى إمام إلى هذا الرجاء واكتفى بأن أخذ نماذج من مطبوعات المطبعة وحروفها حتى يقارنها بحروف المنشورات المضبوطة ، فإذا أثبت الخبراء أنها ليست من نوع واحدٍ فقد وعد أن لا تصاب المطبعة بسوء ، وقد برَّ إبراهيم أفندى إمام بهذا الوعد فأصبح من الإنصاف أن يُذكر له .

ولكن قضية المطبعة إذا كانت قد مرت بهذه السهولة فقد فتحت السبيل لفتح قضيتى أنا . ذلك لأن إبراهيم أفندى إمام انتهز هذا الجو الطيب الذى خلفه بعدم التعرض للمطبعة وانتحى بالأستاذ الزيادى جانبًا وجلس معه يقنعه بوجوب إرشاده إلى مقر وجودى ، وأن البوليس على استعداد أن يهيئ لى كل سبل الراحة ، بل إن الأمر قد لا يصل إلى حد الاعتقال ، وقد يتفقون معى على أن أقيم فى جهة معينة أو أن أعطيهم وعد شرف أن لا أقدم على تصرفات معينة ، وراح يحدثه عن صداقته بى وأنه لا يمكن أن ينتوى شرًّا ، وقد كان هذا الحديث ينزل بردًا وسلامًا على قلب إبراهيم الزيادى لأنه دله على أن البوليس لم يعرف بعد مقرى وأن هذا الرعب الذى أصابنا بالأمس لم يكن فى محله فها هو لم يكتشف المكان بعد وإلا لما توسل له كل هذا التوسل ليوصله إلىَّ ، ولقد أجابه الأستاذ الزيادى ـ وهو صادق ـ بأنه لا يعرف مقرى ولا يعرف أين أنا ، وأن سبب مروره فى طنطا أنه يقصد بلده ، وظل إمام أفندى وإبراهيم أفندى يتحاوران لمدة تزيد على الساعة حتى يئس إمام أفندى من وصوله إلى أى نتيجة واستقر عزمه على العودة إلى القاهرة معتقلاً الأستاذ الزيادى حتى لا يعود بخفى حنين للمرة الألف .

ولكنه قبل أن ينصرف بالفعل مصطحبًا الأستاذ الزيادى هتف به أحد رجاله الذين كانوا معه كأنما تذكر أمرًا «يا سعادة البك .. يا سعادة البك» فالتفت إليه إمام أفندى متسائلاً «ماذا جرى» فقال له : لقد كان يوجد مع الزيادى أفندى شخص آخر ولقد راقبته فوجدته ذهب إلى أحد المنازل فهل نذهب لتفتيشه ؟

وامتعض إمام أفندى لهذا الاقتراح فقد سئم تفتيش المنازل على غير هدى وأصبح يائسًا كل اليأس من أن يؤدى به ذلك إلى نتيجة ولكنه مع ذلك لم يكن يملك إلا أن يذهب إلى هذا البيت بعد أن اقترح عليه مساعده تفتيشه فسار خلفه نحو هذا البيت وهو كاره وترك الأستاذ الزيادى مع بعض رجاله الآخرين ريثما يعودون لهم .

وصل إبراهيم أفندى إمام إلى البيت المشار إليه ولم يكن هذا البيت إلا بيتنا وبدا يستعلم عن صاحب البيت وعن سكانه فى الوقت الذى كنا فيه قد اعتقدنا أن كل خطر

قد زال وكنا نحتفل بنجاتنا من هذه الأزمة ولذلك لم نستطع أن نلحظ شيئًا غير عادى ، مع أننا لو نظرنا من النافذة لاستطعنا أن نكشف حضور إمام أفندى ولاستطعنا أن نهرب إلى (عشة الفراخ) أو أن نقفز من السطوح ولكنا كنا في غفلة تامة بعثها إلينا القدر.

وسأل إمام أفندى سكان البيت هل جاء هنا ساكن جديد أو ضيف جديد فردوا عليه جميعًا لا لم يأت أحد إلا الشيخ حسن عبد الجواد ، ومن هو الشيخ حسن عبد الجواد؟ هو أحد علماء الإسكندرية الذين هدم منزلهم فى أثناء الغارات وقد جاء إلى طنطا وقد كان هذا الرد بحيث كاد يقنع إمام أفندى بوجوب الانصراف ولكن هاتفًا دعاه إلى أن يمضى فى استعلاماته وفى أى دور يسكن الشيخ حسن هذا ، فقيل له على السطوح فصعد ورجاله وضابط المباحث الذى كان قد اصطحبه معه إلى السطوح وطرقوا باب شقتنا ...

وسمعت الطرق وخفق القلب وأدركت على الفور أنها اللحظة الموعودة وأن القضاء قد حم . تكرر القرع ونحن صامتون لا نجيب من هول المفاجأة ولكنى لم ألبث أن تمالكت نفسى عندما سمعت صوت إمام أفندى يقول لمن معه لا يوجد هنا أحد أنا واثق أنه لا يوجد شخص غير عادى فى هذا المكان ، وكاد يقترح الانسحاب لأنه لم يفكر فى كسر الباب .

ولكن القدر كان يريد أن يأخذ مجراه ، فإذا بلسانى يتحرك ، وإذا بصوتى ينطلق «أهلاً وسهلاً انتظر يا إمام أفندى أنا هنا وسأفتح لك الباب» وفتح الباب وتلاقت العيون وكانت المفاجأة بالنسبة لإمام أفندى أشد وقعًا على نفسه من وقعها علىَّ فقد كنت هيأت نفسى منذ أمد بعيد لهذه اللحظة أما هو فقد كان يائسًا من إمكان العثور علىَّ وكاد يترنح من هول المفاجأة خاصة عندما يمر فى خاطره أنه كاد أن ينصرف متجرعًا مرارة الفشل للمرة الألف .

ولقد استطعت أن أتمالك أعصابى بعد لحظة قصيرة وأن أجابه الموقف ، أما هو فقد ظل مضطرب الأعصاب ، ولقد بدا له أن يجاملنى وهذه إحدى أسرار إمام أفندى أن يجامل فرائسه إلى أبعد حد ليخفف عليهم من وقع صدمته فى اعتقالهم أو القبض عليهم أو الصعود بهم إلى المشنقة وهكذا ، ومن ناحيتى كنت فى أشد الاغتباط لهذه المجاملة فى هذا الموقف بل لعله الذى دفعنى إلى إعلان وجودى هو انتهاز فرصة وجود إمام أفندى لتسليم نفسى فقد كان أخشى ما أخشاه أن يكون اعتقالى بمعرفة ضابط من الضباط الذين لم تسبق لهم معرفتى فأعامل بخشونة أو ألقى ما يمس كرامتى ولذلك فقد مرت هذه

اللحظات الثقيلة على أحسن حال وألفيت نفسى بعد ربع ساعة فقط فى أحسن الأحوال وبدأت أتهيأ للاعتقال الطويل وللقدر الذى ينتظرنى .

وسرعان ما سرت الأنباء فى الأوساط الرسمية سريان البرق ، فبدأ رجال البوليس كبارهم وصغارهم يفدون على البيت ليروا بأعين رءوسهم كيف قبض على أحمد حسين وفى دائرة عملهم وجاء المأمور وجاء ضباط المباحث بينما انطلق إمام أفندى ليطير الخبر إلى سليم بك زكى وإلى مدير الأمن العام ويتلقى الأوامر والتعليمات ، أما أنا فقد رحت أتحادث مع رجال البوليس فى طنطا لأخفف بعض ما بهم فقد كان الغضب والحزن يتجليان عليهم لاستطاعتى أن أقيم بين ظهرانيهم دون أن يكتشفوا أمرى وأن يتم اعتقالى على يد أحد ضباط مصر فرحت من ناحيتى أخفف الأمر عليهم وأفهمهم كيف أنه لم يمض علىَّ فى طنطا أكثر من يومين اثنين وأنهم كانوا لابد سيعتقلوننى لو أن الأمر طال بى فانبهجت نفوسهم بهذا الدفاع ورحنا نتحدث فى أخبار الحرب وسير الوقائع الحربية ونسينا فى لحظة من اللحظات حقيقة الموقف الذى كنا فيه إلى أن جاءنا إمام أفندى يطلب منا النزول للسفر إلى القاهرة. وقد طلبت منه أن يترك زميلى (ف.ا) وشأنه لأنه قد وجد معى بطريق الصدفة فوعدنى أن يطلق سراحه بمجرد وصولنا إلى مصر ولكن هذا الوعد لم ينفذ وظل (ف.ا) معتقلاً قرابة ثلاث سنوات .

وبدأنا رحلتنا إلى القاهرة فى سيارتين وركب معى هذا البوليس السرى الذى أرشدهم إلى البيت الذى كنت فيه فرحت أحدث إمام عن وجوب مكافأته فقد استحق المكافأة الخاصة باعتقال أحمد حسين وقد تحمس الشاب لهذا الرأى من ناحيتى وراح ينظر إلىَّ نظرة المتوسل أن أساعده للحصول على هذا المبلغ الضخم وأن أدافع عن حقه فى الحصول عليه .

ولم يكد سليم بك زكى يسمع الخبر حتى قرر أن يحضر بنفسه لاصطحابى حتى يأخذ نصيبًا من فخر اعتقالى فتقابلنا وسيارته فى الطريق ودعانى إلى الانتقال إليها أنا وإمام أفندى فذهبت إليها وسرعان ما لفت نظرى أنه يوجد لدى السائق مدفع من مدافع (برن) أو لعله بندقية سريعة الطلقات من طراز قوى فتاك . وبدأنا نتحدث ونتسامر ونتعاتب ونتحدث فى كل شىء فى جو من الود والصفاء فقد نسيت كل الآلام وكل الحزازات وكل المتاعب فى غمرة الفرح والابتهاج باعتقالى .

ووصل ركبنا المؤلف من ثلاث سيارات بوليسية تتقدمها سيارة مساعد الحكمدار إلى القاهرة وبدأت الهواجس تعاودنى فقد حانت ساعة الفصل فى أمرى فماذا عساهم يفعلون

بى وأى مصير سألقاه على أيديهم ولكن سرعان ما قضيت على هذه الهواجس بأن ألقيت اعتمادى على الله وسلمت مقدمًا بما يجرى علىَّ وفقًا لمشيئته فشعرت بالراحة والاطمئنان ووصلت إلى محافظة مصر ووقفت السيارة على عتبات هذا الدرج المفضى إلى حيث مكاتب الحكمدارية ففوجئت بأن أرى (السلالم) مكتظة بعدد كبير من الأفندية والمعممين الذين يتألف منهم جيش البوليس السرى فى محافظة مصر هؤلاء الجواسيس والمرشدون المشاءون بنميم من كل خائب فى عمله أو دنىء فى طبعه ارتضى أن يحصل قوته عن طريق الخيانة والنفاق والدس والإيقاع بالناس ولم أتنبه فى بادئ الأمر إلى أن هذا الحشد من البوليس السرى قد اجتمع خصيصًا لاستقبالنا والفرجة علينا ولكنى شعرت بكثير من الضيق وأنا أمرُّ وسط صفين من هذا الطراز من المخلوقات وسليم بك زكى يتقدمنى فى زهو وافتخار المنتصر الذى عاد يجر خلفه أسرى الحرب من الأعداء بينما كان إمام أفندى يسير خلفنا ولما يفق بعد من هول الصدمة والمفاجأة ولا يقوى على احتمال نظرات الإعجاب الممزوج بالحسد التى كان يرميه بها زملاؤه وإخوانه الضباط الذين كانوا فى استقبالنا.

وأخيرًا انتهى ذلك الموكب بوصولنا إلى حجرة إمام أفندى فدخلت إليها واستلقيت على هذه (الكنبة) الموجودة فى الحجرة وبدأت أشعر أننى فى حالة سيئة جدا ووجدت نفسى أنتفض من الغيظ والقهر؛ فقد بدأت أدرك أن هذا الحشد من البوليس قد دعى خصيصًا ليتفرج علىَّ ويرى أحمد حسين مقبوضًا عليه فى طريقه إلى المقصلة أو المحرقة أو المصير الذى لم أكن أعرف من أمره شيئًا فى هذه اللحظات وتصورت أن الجميع كانوا يسخرون من شكلى ومنظرى وأنا أرتدى الجبة والعمامة وبدأت أستعيد فى مخيلتى كيف كانوا يتغامزون وكيف كان سليم زكى ينظر إليهم من طرف خفى وعلى فمه ابتسامة من التشفى فضاق صدرى على الفور وأحسست بالدم يغلى فى عروقى وفتح الباب وأطل منه شابان من هؤلاء البوليس السرى حملقا فى وجهى ثم انفجرا ضاحكين فى سخرية ولم يكن يعوزنى إلا الحركة لكى أنفجر فانفجرت ورحت أصب جام غضبى على القسم السياسى وعلى الجواسيس والمرشدين وعلى الحاضرين وعلى الذين قبضوا علىَّ وعلى الحكومة ورئيس الحكومة والإنجليز وكل من يحاول أن يفكر فى أن ينال منى أو يمس كرامتى وبادر طلعت أفندى الضابط الموجود بالحجرة إلى تهدئتى وأسرع إمام أفندى إلى إطفاء ثورة غضبى بأن وعدنى بأنه سيعاقب هذين الوغدين وكل ما يطلبه منى أن أرشده إليهما وراح ينفى بشدة أن يكون حضورنا إلى المحافظة مدبرًا وأن هذا الحشد من البوليس السرى قد استدعى خصيصًا للفرجة علينا ولكنى لم أقبل منه أى اعتذار وطلبت أن يسرع بى إلى حيث يريدون الذهاب حتى أستطيع أن أسترد هدوئى وأتمالك أعصابى ولما كان هذا

المكان لم يعين بعد وكانت الاتصالات تجرى بين المحافظة وإدارة الأمن العام ورئيس الحكومة فقد كان لابد أن أنتظر حتى يصدر القرار وفى إبان انتظارى ظللت أبدى مظاهر سخطى واشمئزازى لما حدث ومما حدث.

وأخيرًا جاء الأمر بإرسالى إلى سجن الأجانب وكانت هذه أول مرة أذهب فيها إلى هذا السجن وقابلنا ذلك الصول الإنجليزى مستر هيكمان بوجهه الغليظ الهادئ فبادرنى بقوله (ازيك ياأحمد) ثم شرع يلقى علىَّ تعاليم السجن التى تقضى بخلع كل ما يمكن أن يصلح فى يوم من الأيام للانتحار ويذهبون فى ذلك إلى حد يثير الضحك والسخرية إذ يطلبون من السجين أن يخلع من حذائه هذا الرباط الصغير (رباط الجزمة) وقد أدركت فيما بعد أن هذه الإجراءات إنما تتبع لإدخال الرعب فى نفس السجين ولخلق جو من الإرهاب والنظام الصارم ليتمكنوا من السيطرة عليه، واستقر بى المقام فى نهاية الأمر داخل زنزانة كأنظف ما صادفت فى السجون المصرية بطبيعة الحال تحتوى سريرًا عليه أغطية نظيفة بيضاء وفى ركن من المكان مائدة وكرسى وفى سقف المكان مصباح كهربائى وإلى جوار الباب جرس كهربائى لاستدعاء الحارس أى والله جرس كهربائى لاستدعاء الحارس حتى لكان الإنسان فى فندق من الفنادق وليس فى سجن من السجون وسوف يأتى علينا الوقت الذى يتحول فيه سجن الأجانب بالنسبة لنا إلى فندق حقيقى ولكن كان دون الوصول إلى ذلك كفاح وجهاد عنيفان.

وإذن فقد انتهى كل شيء وانتهت هذه المطاردة التى استمرت قرابة ثلاثة أشهر لم أذق فيها طعم الهدوء فى ليلة من الليالى وها أنذا فى السجن بعد يوم عاصف من الانفعالات النفسية وأحسب أن ذلك كله كان كافيًا لكى يلقينى فى سبات عميق فقد نمت ونمت وغرقت فى النوم ثم نمت واستيقظت فى صباح اليوم التالى لأشهد هذا العالم الجديد الذى أعيش فيه.

كانت الزنزانة التى أقيم فيها ككل الزنازين فى سجن الأجانب تقفل بواسطة (قفل) كبير ضخم يوضع فى حلقات الباب ويفتح ويغلق فى كل مرة يريد فيها الحارس فتح الباب فضايقتنى هذه الفكرة أيما مضايقة ولكن هو السجن ولا سبيل للفكاك من أنظمته وأساليبه. فتح الحارس الباب فى الصباح ودعانى إلى زيارة دورة المياه فخرجت إليها فى شوق ولهفة علّى أرى أحدًا ممن سبقونى إلى هذا السجن وهم الأستاذ صبيح وحسن جريو وحسن سلومة والأستاذ توفيق الملط والأستاذ إبراهيم طلعت وزكريا حنفى ولكنى شعرت بأول خيبة أمل عندما غادرت الزنزانة فلم يقع نظرى على شيء سوى هذه الأبواب المغلقة

بهذه الأقفال الغليظة وسوى السكون العميق الذى يغمر المكان ولم يكن هناك مخلوق ليتحدث معه الإنسان سوى الحارس الذى تعمد بعد أن فتح الباب أن يبتعد عنى كثيرًا حتى لا أتمكن من التحدث معه . فواصلت رحلتى إلى دورة المياه صامتًا وقد انبهجت بدورة المياه النظيفة الأنيقة على خلاف دورات المياه الهمجية فى سجون مصر الأخرى ثم عدت إلى الزنزانة فإذا السجان يغلق الباب خلفى بالمزلاج ثم يضع هذا القفل الضخم فكأنه يضغط به على أنفاسى وكان طريفًا جدا فى حياة السجون بالنسبة لى أن أنظر من النافذة لأرى شارع عماد الدين والمترو يروح ويجىء وحركة شارع الملكة نازلى على أشدها ولكنى عدت إلى الفراش من جديد ولم يشغلنى هذا المنظر فقد كنت لا أزال فى حاجة إلى الراحة وكنت معتزمًا الصوم إلى ماشاء الله حتى تنقشع الغمة ولم يكن لدىَّ كُتبٌ بعد فلم يبق أمامى إلا أن أستلقى على الفراش وأن أستجم ... وطالت رقدتى على الفراش وعاودنى النوم واستيقظت من النوم والسكون يسود المكان والباب اللعين مغلق علىَّ لا يفتح لأى سبب من الأسباب ولكن نظرًا لتعودى هذه الحالة لم يكن ذلك فوق احتمالى ... وعند العصر فتح الباب من جديد .. ودعيت للذهاب إلى دورة المياه فى خمس دقائق أخرى ومرة أخرى أخرج فلا أرى أحدًا ويبتعد عنى الحارس ولا تطالعنى إلا هذه الأبواب الجامدة الصامتة التى يعلم الله وحده ما الذى تخفيه خلفها من نفوس حرة كريمة فى هذه الأيام ...

أين صبيح ؟ أين إخوانى ؟ .. أين أى إنسان ؟ ... لا جواب سوى الصمت والسكون والفراغ .

وجاء المغرب يحمل معه شيئًا من الحركة والحياة بالنسبة لى فقد جاء الطعام فأكلت وشربت وصليت وحان المساء فنمت واستيقظت هذه المرة فى الفجر وصليت وعندما أشرقت الشمس كان الواضح أن جسمى قد حصل على قسط من الراحة وأن عقلى بدأ يعمل وأن الأفكار بدأت تناوشنى إلى كم من الزمن سأظل على هذه الصورة لا أرى أحدًا ولا يرانى أحدٌ ... هل يعلم أهلى بأننى جئت إلى سجن الأجانب هل يعلم إخوانى فى داخل السجن نفسه أننى قد جئت إليه هل هذا السجن هو مستقرى النهائى أم أن هناك نية تبيت لى ... هل يحاكموننى ؟ هل يدبرون ضدى شيئًا ؟ .

وجاء أوان فتح الزنزانة للذهاب إلى دورة المياه وفى هذه المرة حاولت أن أتحدث مع الحارس فرفض وذهبت وعدت وأغلق علىَّ الباب دون أن أرى مخلوقًا أو يرانى مخلوقٌ وشعرت بشىء من القلق وأن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذه الحال ، وفى المساء

كنت أسائل نفسى لو فرضنا ورغب الإنجليز فى قتلى أو عمل البوليس على قتلى فى هذا المكان فهل يمكن أن يعرف أحدٌ مصيرى فضلاً عن أن يشهد مخلوق واحد بما حدث ! ؟ ها أنذا فى زنزانة لا يرانى فيها سوى الحارس فلو قتلنى هذا الحارس مثلاً بأمر رؤسائه فمن الذى يشهد عليه ؟ ... وانقضت ثلاثة أو أربعة أيام على هذه الحال فرأيت أنه لا يحسن بى السكوت ولابد من الاحتجـاج على هذه المعاملة المشددة الضيقة لابد أن يحضروا لى ملابس من بيتى . لابد من أن يعرف أهلى أين أنا ... لابد أن أرى إخوانى المسجونين لابد أن تصلنى كتب ... لابد أن أحيا كما يعيش الناس المسجونون على الأقل ...

وكتبت خطابًا إلى وكيل وزارة الداخلية أندد فيه بحالة السجن وطريقة المعاملة وقلت له فى خطابى إن هذا السجن قد قرب إلى ذهنى سجون الجستابو حيث يقتل الشخص ويتخلص منه (ولا من درى ولا من شاف) وحملت على الحكومة وحملت على البوليس وكان لهذا الخطاب أثره فجاءنى مندوب القسم السياسى يحقق ويسمع أقوالى وشكواى وكان على رأس مطالبى أن أرى إخوانى المسجونين وأن أطمئن إليهم وأقيم حيث يقيمون .

ولست أريد أن أطيل عليك أيها القارئ الكريم فى ذكر تفاصيل لا أهمية لها فقد انتهى الأمر إلى إجابة مطلبى وسمح لى برؤية الأستاذ صبيح والأستاذ الزيادى والأستاذ فتحى أبو الوفا وقد كان رباعيتنا هم كل من أصبحوا فى سجن الأجانب لأن الآخرين كانوا قد نقلوا إلى معتقل الزيتون ليفتتحوه ، ذلك المعتقل الخالد الذكر والذى سيبقى إلى الأبد مقترنًا بمصر الفتاة وأجمل ذكريات مصر الفتاة .

كم كنت أرغب أيها القارئ الكريم أن أحدثك عن ذكرياتنا فى المعتقل وكيف كنا نعيش ونحيا ونقضى حياتنا اليومية ، كم كنت أريد أن أحدثك عن أنباء الحرب وكيف كنا نستقبلها فى سجننا ونعلق عليها ونعيش ونتراهن على سير وقائعها . كم كنت أريد أن أحدثك بتفصيل دقيق عن هذا اليوم الذى أعلنت فيه اليابان الحرب وكيف كنا نوشك أن نرقص من الفرح فقد كان كل ما يؤذى الإنجليز يدخل السرور إلى نفوسنا . لقد كنا نقيم الحفلات إذا ما سمعنا عن غرق بارجة إنجليزية إيمانًا منا بأن عظمة إنجلترا من عظمة أسطولها فكلما غرقت بارجة كان معنى ذلك غرق جزء من سيادة إنجلترا .

* * *

وكان من جراء إعلان اليابان الحرب أن نقلنا إلى معتقل الزيتون ليتسع المجال فى سجن الأجانب لرعايا اليابان .

ومرة أخرى لن أستطيع أن أحدثك عن ذكرياتنا فى معتقل الزيتون فقد اضطررنا إلى اختصار هذا الجزء من الذكريات فالمجال لا يتسع لها وحسبي أن أقول لك إن فى هذه الفترة وقعت حوادث ٤ فبراير الشهيرة وقد فكرنا فى المعتقل أن نقوم بثوره مسلحة تكون نقطة الابتداء لثورة جائحة فى أنحاء القطر المصرى. وقد تقدمت لترشيح نفسى فى الانتخابات عن دائرة الدرب الأحمر. وأُصِبتُ بالتهاب الزائدة الدودية فنقلت إلى مستشفى الدمرداش حيث أجريت لى عملية جراحية بنجاح عظيم. وبينما كنت أعيش معتقلاً فى المستشفى كانت حوادث الحرب تتطور تطورًا عظيمًا لم يخطر على بال إنسان.

هجوم روميل

كانت الحرب قد أوشكت على الدخول فى مرحلة دقيقة كان مقدرًا لها أن تقلب تاريخ الحرب رأسًا على عقب أو بالأحرى تاريخ الدنيا السياسى لمدة قرن من الزمان .

نحن الآن فى سنة ١٩٤٣ فى القسم الأول منها وقد انقضى على بدء الحرب أكثر من ثلاث سنوات: ولم تستطع ألمانيا أن تصل فيها إلى نتيجة حاسمة بالرغم من الجهود الجبارة التى بذلتها والتضحيات العظيمة التى تحملها الشعب الألمانى وبالرغم من الانتصارات المدوية التى أحرزها الألمان فى الغرب وأحرزها اليابانيون فى المشرق ومع ذلك فقد كان من الواضح أن دول المحور قد خسرت المعركة الأولى معركة الحرب الخاطفة وكان من الواضح أن خطط دول المحور كلها وأملها فى النصر قد بنى على أساس الحرب الخاطفة وانقضاء ثلاث سنوات ونيف دون وصول دول المحور إلى نتيجة حاسمة وبقاء إنجلترا عدو المحور اللدود فى الميدان رافعة لواء المقاومة واستطاعة روسيا أن تقاوم زحف الجيوش الألمانية هذه المقاومة الباسلة التى أدهشت العالمين وفاجأتهم . وانضمام أمريكا بكل قوتها الإنتاجية إلى هذا الجانب كل ذلك قد عزز جانب الديموقراطيات تعزيزًا قويا وبدأ التوازن بين الكفتين يبدو واضحًا على الأفق .. لقد راحت أيام انتصارات دول المحور الكاسحة . راح وقت اندحارات انجلترا وروسيا وأمريكا وجاء الوقت الذى وقفت فيه جيوش الطرفين متقابلة فى كل مكان لا يستطيع أحدها أن يزحزح الطرف الآخر وذلك هو جو الحرب العام فى هذه الفترة التى أجريت فيها عمليتى الجراحية فلم يكن فى حوادث الحرب من العواصف والمفاجآت ما يحرك الأعصاب أو يثيرها كما كان الحال فى السنتين الأوليين من الحرب ولذلك فقد بدأت فى هذه الفترة أفكر فى كتابة رسائل أدبية وتهذيبية أوجهها إلى ابنى الصغير مصطفى محاولاً أن أضع فى هذه الرسائل القواعد الأساسية التى أرى وجوب تلقينها للطفل لكى يشب رجلاً كاملاً ومواطنًا صالحًا وقد كان مقدرًا لهذه الرسائل أن تتطور فيما بعد بحيث تصبح أبحاثًا مستفيضة فى شتى مشاكل الحياة الأساسية ولكن الفكرة فى بادئ الأمر كانت تهذيبية بحتة ولذلك فقد كتبت بمجرد تماثلى للشفاء رسالتين إحداهما دعوة لطاعة الأبوين مظهرًا ما فى ذلك من خير وسلامة للفرد والمجتمع وكانت هذه قبل إجراء العملية . أما بعد إجراء العملية فقد أوحى لى المرض كتابة رسالة

عن الصحة والمرض سجلت فيها التعاليم والوصايا التى إذا اتبعها الإنسان تجنب المرض وتمتع بالصحة والعافية .

* * *

وفيما نحن فى هذا الهدوء الشامل وأنا فى مرحلة النقاهة أكتب وأتحدث إلى زوارى وميادين الحرب جامدة إذا بالأنباء تعلن عن هجوم جديد للجنرال روميل فى الصحراء الغربية ولقد كان روميل قد استطاع من قبل أن يكتسح طريقه فى ليبيا حتى مدينة درنة بالقرب من الحدود المصرية ولكن الإنجليز استطاعوا إيقافه عند هذه المدينة أو لعل روميل هو الذى توقف عند هذه النقطة ليستكمل حشد قواته وعندما فرغ من حشد هذه القوات بدأ هذه المعركة التى انخلعت لها قلوب وكادت قلوب تقف من الفرح والابتهاج .

بدأت هذه المعركة ذات الفصول الثلاثة والتى يجب اعتبارها من أحسم معارك هذه الحرب والتى اشتهرت باسم الفصل الأخير منها فأطلق عليها اسم العلمين .. بدأت هذه المعركة عندما جدد روميل هجومه على خط دفاع الإنجليز فى مايو سنة ١٩٤٣ وكان الفرنسيون يحتلون آخر نقطة فى هذا الخط عند موقع أطلق عليه اسم (بئر حكيم) ولقد قاوم خط الدفاع الإنجليزى بفضل مقاومة الفرنسيين فى بئر حكيم مدة أطول مما كان يتوقعها أى إنسان فقد ظل الجنرال روميل يهاجم هذا الخط قرابة أسبوعين دون أن يتمكن من اختراقه فكان ذلك آية من آيات التطور الذى وصلت إليه المعارك من حيث توازن القوى .

ولكن جيوش الجنرال روميل المصفحة لم تلبث أن قامت بحركة التفاف ضخمة حول خط الدفاع الإنجليزى وسقطت بئر حكيم فى نهاية الأمر وسقطت نقط الخط الحصينة وانهار بذلك الدفاع الإنجليزى من أساسه وبدأنا نشهد بعد الملل والجمود الذى ران على ميدان القتال طويلا ذلك المنظر الذى يشهده الإنسان عقب أن يحطم سدا من السدود المائية الجبارة عندما تتدفق الأمواج فى جبروت وطغيان على كل ما يصادفها . وأدرك الإنجليز والعالم كله هول الصدمة التى أصيبوا بها وهول الهجوم الألمانى الجديد عندما اقترب الألمان من مدينة طبرق وهى الحصن الذى لم يستطع روميل فى هجومه الأول أن يقتحمها وظلت تقاومه وتتحدى جيوشه وحصاره طوال بضعة أشهر وتوقع كل إنسان فى الدنيا أن تكرر طبرق موقفها الرائع فى وجه الهجوم الألمانى ولذلك فقد كانت مفاجأة انخلعت لها قلوب الإنجليز عندما أذيع أن طبرق قد سلمت وأن حاميتها التى يبلغ قدرها خمسة وعشرين ألفًا من خيرة الجند قد سلموا بكل ما لديهم من سلاح وعتاد وأقوات .

كان سقوط طبرق معناه أن مصر قد باتت فى خطر ، وأن الهجوم الألمانى من العنف هذه المرة بحيث لا تمكن مقاومته ، وكان الموقف يزداد سوءًا من يوم لآخر ومن ساعة لأخرى ، وسادت موجة من الفزع صفوف الإنجليز فى مصر وبالتالى موجة سرور وابتهاج فى صفوف الشعب المصرى فقد كان يفرح بحق لكل ما يحيق بالإنجليز من انهزامات وانكسارات وقد كان ذلك يغيظ الإنجليز ويحنقهم ولكن لم يكن بوسعهم أن يعملوا شيئًا فقد كان الشعب سلبيا هذه المرة يقف موقف المتفرج وبدأت الحرارة ترتفع فى سائر أنحاء البلاد وبدأ حديث الهجوم الألمانى يطغى على كل شيء حتى على الطعام والشراب ولقد كنت أحس إحساسًا خفيا أن الهجوم الألمانى لن ينجح فى اكتساح مصر هذه المرة كما لم ينجح فى المرات السابقة وكان هذا الإحساس الخفى هو ثمرة اعتقادى أن ألمانيا قد خسرت الحرب وانقضى أمرها وأنه من غير المعقول أن تحتل مصر فى وقت ضعفها وهى لم تستطع ذلك وهى فى أوج قوتها ولذلك فقد كنت أشعر أن الإنجليز سيوقفونهم من غير شك قبل أن تتعرض مصر لخطر حقيقى كما أوقفوهم من قبل ثلاث مرات .

* * *

وكان فى مستشفى الدمرداش إنجليزيتان إحداهما رئيسة الممرضات وهى كبيرة فى السن وأخرى تصغرها سنا ، فأمَّا رئيسة الممرضات فتمثل البرود الإنجليزى فى أكمل صوره فلم تكن تتحدث عن الحرب وعبثًا كان الإنسان يحاول أن ينتزع منها رأيًا إلا إعلان ثقتها الكاملة المطلقة فى انتصار انجلترا المحقق .. وعندما بدأ هذا الهجوم الجديد ظلت المرأة مقبلة على أعمالها العادية لا يكاد يظهر عليها أن هناك حربًا تجرى فى الدنيا ، أمَّا الأخرى فقد كانت أكثر عصبية ، وكانت هذه الأنباء تزعجها وكان فى المستشفى كثيرون من الذين يظهرون التشفى لهزائم الإنجليز فكان ذلك يزعجها ويؤرق مضجعها .

* * *

ووصل الألمان إلى الحدود المصرية .. واخترقوا الحدود المصرية .. ووصلوا إلى ما وصل إليه الطليان فى زحفهم الأول . ووصلوا إلى سيدى برانى .. ولكن الألمان لم يقفوا وظلت موجة الهجوم الألمانى طاغية والطوفان الألمانى يكتسح فى طريقه كل شيء - واقتربوا من مرسى مطروح آخر أمل للإنجليز فى الدفاع عن مصر وتهيأ العالم ليسمع أنباء اشتداد المقاومة الإنجليزية عند مرسى مطروح وجاءتنى الممرضة فى حالة شديدة من الفزع تحدثنى عن أنها قد أعدت حقائب ملابسها وأنها ستهرب إلى جنوب أفريقيا قبل أن يدخل

الألمان إلى مصر فهى لا تستطيع أن تتصور الوقوع فى أيديهم فقلت لها إن مرسى مطروح ستقاوم بأشد مما قاومت طبرق فى المرة الأولى وستكسر الهجوم الألمانى من ساعة لأخرى فكانت تتنفس الصعداء إذ ترى مصريا (معتقلاً باعتباره زعيم المتطرفين ضد الإنجليز) يقول لها هذا القول .. أمّا صاحبتها الأخرى رئيسة الممرضات فقد كانت ماضية فى عملها فى ذلك الهدوء العجيب كأنه لا يجرى فى الدنيا شيء فظننتها فى لحظة من اللحظات أنها عجوز فانية لا تدرك من أمر الدنيا شيئًا فلم أكد أسألها عن سبب هدوئها واضطراب زميلتها حتى وجدتها تحمل على زميلتها حملة شعواء لما هى عليه من خوف وقلق لا مبرر لها أبدًا لأن الألمان لن يدخلوا إلى مصر وانجلترا ستتغلب عليهم .فأدهشنى وأعجبنى أن لا تستطيع هذه النكبات أن تزعزع من يقين امرأة إنجليزية .

وأعلنت الجرائد نبأ اقتراب الجيوش الألمانية من مرسى مطروح فى الصباح أى الألمان الآن فى صميم مصر وأنه لم يبق بينهم وبين دخولها إلا سقوط مرسى مطروح وتستطيع أن تتصور كيف كانت حالة مصر فى ذلك الوقت .

كانت الخواطر هائجة مائجة فكل إنسان يتوقع قرب دخول الألمان ، وكانت كوارث الحرب كلها وما يترتب على انسحاب جيش ودخول جيش جديد ماثلة فى أذهان العقلاء والمفكرين ، أما الشعب فقد كاد يجن من الفرح لفرط كراهيته للإنجليز المستعمرين الذين أذلوه طوال سبعين سنة ، وعبثًا كان يذكر الشعب بطغيان الألمان واستبدادهم فى البلاد التى فتحوها فقد كان الشعب لا يتصور كيف يسيء الألمان معاملته بالرغم من عواطف الصداقة التى يضمرها لهم ، صداقة ولدها العداء المشترك للإنجليز الغاصبين ، وفوق ذلك فقد كان للشعب منطق سليم كل السلامة فى فرحه بالتخلص من الإنجليز على أيدى الألمان ، فالمصريون يريدون أن ينتقموا من الإنجليز أولاً ، يريدون أن يحاسبوهم عن كل الجرائم التى ارتكبوها فى حق مصر طوال نيف وستين سنة ، يريدون أن يسجلوا على صفحات التاريخ مثالاً جديدًا لحيوية مصر وخلودها ، كيف يفنى غزاتها وأعداؤها ، أمّا هى فتبقى أبدًا ماضية إلى الأمام . وإذن فليكن الألمان ما كانوا ... فليكونوا الشيطان نفسه فإن المصريين على استعداد لاستقبال الشيطان إذا كان سيخلصهم من الإنجليز . وأنه المنطق السليم الذى لا غبار عليه وهو آية الكراهية التى تأصلت فى المصريين نحو الإنجليز ، وآية شعور المصريين بالكرامة والحيوية التى تجعلهم لا يتسامحون أبدًا مع غاصب أجنبى حتى ولو لبس لهم مسوح الكهنة وأظهر لهم الصداقة والود .

من هنا كان الشعب فى شبه فرح وعيد ، وكانت المقاهى والمجتمعات والأندية

والشوارع والأزقة تغص بالمصريين الذين تتجلى الشماتة فى أقوالهم ، ويطفح البشر من وجوههم ولا حديث لهم إلا انحدار الإنجليز وقرب دخول الألمان غير حاسبين حسابًا إلى ما قد يجره ذلك عليهم من ويلات نتيجة المعركة الفاصلة .

أما جماعة اليهود فلم يكن هناك مجال للشك فيما ينتظرهم ولذلك فقد كانوا فى حالة يرثى لها ، كانوا يريدون أن يهربوا فى لمح البصر ولكن أموالهم كانت تربطهم فى كثير من الأحيان ، لأنها ديون عند الناس ، أو على شكل عقارات ، أو على شكل أوراق مالية ، فهل يتخلون عنها بأبخس الأثمان وينجون بجلودهم ، ولكن هل ضاع كل أمل فى نهاية الأمر؟ هل أصبح أمرًا مقضيا أن يدخل الألمان فى الأيام القليلة المقبلة ... ؟ ألا يجوز أن يتمكن الإنجليز من ردهم كما فعلوا من قبل ؟ وإذن فليتمهل اليهود بعض الوقت فليتمهلوا يومًا أو يومين ، فلينتظروا على الأقل مصير مرسى مطروح التى طالما سمعوا عنها أنها حصن مصر الحصين .

وكانت الحكومة بدورها قد بدأت تبحث موضوع الانسحاب من القاهرة والأماكن التى يمكن الانسحاب إليها وقد أشيع فى ذلك الوقت أن الانسحاب سيكون إلى السودان وأن الخرطوم ستكون مقر الحكم الجديد .. وقد قيل لنا فيما بعد وبعد انقضاء هذه الحوادث أن جلالة الملك الفاروق قد رفض فى هذه المحنة أن يغادر بلاده وأصر على أن يظل فى القاهرة وقد أعلن النحاس باشا تضامنه مع مليكه وأن الحكومة المصرية باقية إلى جوار الملك إذا انتقل انتقلت معه وإن شاء البقاء بقيت ، ومع ذلك فقد كان هذا البحث لايزال سابقًا لأوانه أليست مرسى مطروح حصن مصر الحصين لاتزال قائمة ؟

* * *

وفى مصر هيئات وجماعات وأفراد سبق لها أن اتصلت بالألمان على صورة من الصور فثمة أمير من الأمراء سبق له العمل فى الجيش الألمانى وهو ضالع بكل عواطفه مع الألمان . وشباب تعلم فى ألمانيا وعاش فى ألمانيا ويتجه بكل عواطفه مع ألمانيا فراح يرى فى مقدم الألمان طريقه نحو المجد والسلطان ، وبعض صنائع ألمانيا وجواسيس إيطالية راحت تعد قوائم بمن يجب إعدامهم على الفور وراح كل صعلوك منهم يتصور نفسه الحاكم بأمره فى النظام المقبل ومع ذلك فقد كان ذلك سابقًا لأوانه بعض الشىء فإن مرسى مطروح حصن مصر الحصين كانت لا تزال قائمة .

أمَّا أنا ... أنا الذى ظللت طول الوقت منذ بدأ الهجوم الألمانى الأخير مستيقنًا كل

الاستيقان أن الألمان سيفشلون فى دخول مصر هذه المرة أيضًا ، بدأ الشك يساورنى فى هذا اليقين ، وبدأت أخطئ نفسى وأشعر أن حساباتى قد أخطأت هذه المرة وأن الألمان قد يدخلون مصر فعلاً ... وقد كان هذا الخاطر يملؤنى بالقلق فلم تكن علاقتى بالألمان فى آخر مراحلها علاقة طيبة ، فقد كتبت فى إبان أزمة ميونيخ المشهورة حيث كانت ألمانيا تهدد سلام العالم كتبت أهاجم هتلر وأساليبه الإرهابية وحملت على ألمانيا حملة شعواء ، بل لقد وصفت هتلر بأنه (بلطجى دولى) ولقد كان لهذا المقال ضجيج ، أعظم ضجيج . وقد أخبرنى على باشا ماهر رئيس الديوان الملكى فى ذلك الوقت أنهم لفتوا نظر مراد باشا سيد أحمد وزير مصر المفوض فى برلين إلى هذا المقال وأظهروا تسامحهم فى أنهم لم يقوموا بأى إجراء رسمى للاحتجاج وقد اعتبر ذلك منهم آية فى كرم الأخلاق واللطف ، ولقد كتب إلىَّ وزير ألمانيا المفوض فى مصر خطابًا شخصيا يحتج فيه على هذه الحملة وتوجيه هذه الألفاظ الشديدة لهتلر . ثم سويت المسألة بعد ذلك بعد انقشاع الزوبعة وتوقيع الأقطاب الثلاثة تشمبرلين وهتلر وموسولينى على ميثاق ميونيخ ولكن هل ينسى الألمان الذين يعبدون هتلر إهانات وجهت إليه من فرد من الأفراد ؟ ولقد حدث بعد ذلك أن أرسلت بخطاب إلى هتلر أناقش فيه أساليبه وخططه وبرنامجه على ضوء الإسلام والتعاليم الإسلامية وكشفت فى هذا الخطاب عن مواضع الخطأ فى خطط هتلر وأن هذه الأخطاء توشك أن تعرضه للهلاك والدمار ، من ذلك محاربته الشديدة القاسية لليهود ورغبته فى إبادتهم ومحاولته السيادة والسيطرة على جميع الشعوب غير الألمانية ونددت بهذه الروح وانتهيت بأن دعوته فى ختام الرسالة إلى الإسلام كطريقة للنجاة وبالرغم من أن هذه الرسالة كانت مناقشة هادئة ليس فيها مساس بشخص هتلر فقد اعتبرتها الأوساط الألمانية تهجمًا على مقامه ونقدًا لأساليبه فهل ينسى لى الألمان ذلك كله إذا دخلوا مصر؟

ولم يكن يخالجنى شك فى أن هؤلاء القادمين سيعصفون بحرية مصر واستقلالها عصفًا وكنت أسائل نفسى هل سأسكت عن ذلك فأرى الدم يغلى فى عروقى وإننى لن أستطيع إلا أن أواصل جهادى فى وجوههم ومعنى ذلك أنه لن يكون لى أمل فى الحياة على أن وجودى فى الاعتقال فى هذه الفترة هو الذى كان يزعجنى كل الإزعاج أن أرى الدنيا قائمة قاعدة والقيامة توشك أن تقع وأنا محبوس فى هذا القفص لا أستطيع أن أتحرك . لا أستطيع أن أتدبر ، لا أستطيع أن أدافع عن نفسى . وقد كان هناك ثمة خطر آخر يهددنى وهو خطر اصطحاب الإنجليز لى فى تراجعهم. فقد كان من الواضح أن انجلترا لابد أن تضع يديها على هذه العناصر التى يخيل لها أنها ستعاون الألمان لكراهيتها للإنجليز ، وكان من الواضح أن المعتقلين هم أول من تفكر فى اصطحابهم معها أى أننا من ساعة

لأخرى قد نرى أنفسنا مرحلين إلى الهند لنعيش فى أسر الإنجليز إلى الأبد ، ومن يدرى فقد يطلب منا أن نؤلف مصر الحرة كفرنسا الحرة وقد يطلب منا أن نذيع فى الراديو والمسدس فوق رءوسنا ، وقد يطلب منا أن نصف الهناء والرخاء اللذين نعيش فيهما . وأن نطلب من المصريين أن يثوروا من أجل أصدقائهم وأحبابهم الإنجليز ؛ وكان مرور هذا الخاطر فى نفسى يملؤنى رعبًا وفزعًا . !

وإذن فلا مناص من الهرب والفرار واسترداد حريتى فى هذه الساعات العصيبة بأى ثمن من الأثمان ولكن متى يكون الهرب عندما يتحرج الموقف ويضيع كل أمل فى إمكان نجاح الإنجليز فى إيقاف تيار الألمان ؟ . ومتى يضيع هذا الأمل ؟ عندما تسقط مرسى مطروح ـ سقطت مرسى مطروح . .

وإذن فقد كان سقوط مرسى مطروح هو الإشارة لكل من فى مصر بأن نهاية الإنجليز قد تحققت وأن دخول الألمان مصر بات منتظرًا من ساعة لأخرى .

ومازلت للآن أتمثل هذا اليوم وكيف قضيناه منذ الصباح المبكر ... كيف كانت الشمس ساطعة وكان الجو حارا وكانت النفوس كلها مشتعلة بالحرارة الداخلية ، حرارة القلق والانتظار ومعاناة أضخم أحداث القدر .

* * *

كانت مستشفى الدمرداش كأنها خلية نحل تطن بالأحاديث ، كان الأطباء يتحدثون وهم يفتحون بطون المرضى معلقين على آخر الأخبار ، كانت الممرضات يسهون عن إعطاء الأدوية اشتغالاً بالحديث عما جرى وسيجرى ، كان كل إنسان يتحدث مع كل إنسان ، زالت الفوارق ، رفع التكليف .. الجميع الآن أسرة واحدة جمعها الخطر المشترك ، كانت مصر كلها تتكلم وخيمت على سماء البلاد سحابة من هذا الكلام جعلت الهواء ساخنًا مضطربًا يطن طنينًا عجيبًا مرددًا أنفاس الناس واضطرابهم ومقاطعًا .. الإنجليز الإنجليز ... الألمان الألمان . وكأنما كان الحجر والشجر والدواب والحيوانات تشارك المصريين جميعًا فى توقع الحوادث المقبلة فى هذه الساعات . كان الكون فى كفة القدر ولقد عشت هذه الساعات يملأ جوانحى الفزع عشتها وتنفست هواءها وكانت حواسى كلها مستيقظة ، وقواى ناشطة تريد أن تندفق من دقيقة لأخرى بل من ثانية لأخرى .. كنت أريد أن أتصرف ... أريد أن أفعل شيئًا .. أريد أن أنطلق .

جاءنى الحارس المعين لحراستى فى الصباح وكان ككل مصرى آخر فى ابتهاج مقدم

الألمان وقال لى جريًا على عادته من سوق الأخبار والإشاعات إن مرسى مطروح قد سقطت منذ أيام والإنجليز تتكتم الخبر وأنهم الآن يضربون الاسكندرية .. فلم أعر هذا الخبر أى انتباه بطبيعة الحال لعلمى أن هذه الأخبار الخطيرة لا يمكن أن تخفى فى هذه اللحظات العصيبة ، وقد كانت بلاغات الجيش الرسمى قد أعلنت اقتراب الألمان من حصون مرسى مطروح الداخلية وقد أثبتت هذه البلاغات دقتها وأمانتها فى وصف الموقف . ولكنى أردت أن أنتهز هذه الفرصة لأمتحن هذا الحارس وهل يساعدنى على الفرار إذا أردته فعرضت عليه أن نخرج سويا من المستشفى كما يفعل كثير من المعتقلين الآخرين لكى نتنزه فإذا بالرجل يسرع فى الرد على «أنت عاوز تودينى فى داهية» وإذن فالرجل الذى يعتقد أن الألمان سيكونون فى مصر غدًا يرفض أن يخالف أتفه التعليمات الإنجليزية ولقد كانت هذه هى حالة المصريين جميعًا فى ذلك الوقت لسوء الحظ . لقد كانوا جميعًا يكرهون الإنجليز ، وكانوا جميعًا يمقتون الإنجليز ، ويتمنون هلاكهم . وقد وافتهم الفرصة فى هذه اللحظات الرهيبة ومع ذلك فقد كان كل مصرى يعمل فى جد ونشاط لمساعدة الإنجليز ابتداء من رئيس الحكومة إلى آخر فلاح فى حقله كان الجميع يقدمون للإنجليز أعظم معونة لم يكونوا يحلمون بها فى أى يوم من الأيام ... لم يحصلوا عليها من حليفتهم فرنسا فى مراحل الحرب الأولى وهى الهدوء والنظام خلف الجبهة وإقبال كل مواطن على عمله اليومى ..

لم تكن الجيوش الألمانية تقترب من بلد من البلاد حتى يدب الهلع إلى النفوس وتشيع الفوضى فتزداد صعوبة الجيوش المتراجعة وتتضاعف الهزيمة أمَّا فى مصر فقد كان كل شىء هادئًا ساكنًا وكل مصرى مقبلاً على عمله فى جدّ واجتهاد ولم يعرف الخوف سبيله إلى سواد الشعب ولذلك فقد اضطر الإنجليز وأنفهم راغم أن يعترفوا لمصر فيما بعد بالفضل الأعظم فيما حصلوا عليه من انتصار باهر والحق أنه لولا موقف المصريين السلبى مما كان يجرى فى هذه الأيام لكان مصير الإمبراطورية البريطانية بل والعالم كله قد تغير..

فهذا الجندى الذى كان يغلى غليانًا بكره الإنجليز ويكاد يجن فرحًا لمقدم الألمانيين وهو فى نفس الوقت يتحدث عن بطولتى وعظمتى وعن مستقبلى الرائع العظيم فى ظل الانقلاب المقبل ومع ذلك فعندما عرضت عليه أن يخرج معى بالليل قليلا كما يفعل الكثيرون إذا به يعتبر أن ذلك سيخرب بيته وكان ذلك هو موقف كل مصرى فى هذه الساعات . ولقد جعلنى ذلك أحنق على هذا الجندى وأنظر إليه فى اشمئزاز ، وكأنه أحس من ناحيته بما كان يجول فى نفسى من خواطر فلم يعد يفارقنى لحظة من اللحظات وسلاحه النارى معلق إلى كتفه .

وجاءت الممرضة الإنجليزية المذعورة تطوف طوفتها ومن عجب أنها كانت تبدو فى هذا الصباح أكثر هدوءا بالرغم من اشتداد الخطر ولم يكن هذا الهدوء فى حقيقته إلا الاستسلام الذى كان طابع الحياة المصرية فى ذلك الوقت فقد رأت كل من حولها مستسلمًا فاستسلمت بدورها وتركت المستقبل بين يدى القدر يفعل ما يشاء له أن يفعل ومع ذلك فقد نَظَرَتْ إلىَّ وقالت ما رأيك فقلت لها «إن مرسى مطروح لم تسقط بعد» فهزت رأسها وانصرفت.

* * *

بدأت فكرة الهرب تتملكنى بكل قوة وبدأت أستعرض الطرق المختلفة للهرب. ولم يكن الفرار من مستشفى الدمرداش بالأمر الصعب بالنسبة لمعتقل عادى فليس بالمستشفى سجنًا وليس محاطًا بالحراس أو الأنظمة الدقيقة وفيما خلا هذا الحارس الذى يصاحب الإنسان فى روحته وجيئته فليس هناك مظهر من مظاهر الرقابة، ولكن شخصيتى التى أصبحت مشهورة فى المستشفى كانت تجعل الهرب يكاد يكون مستحيلاً، فكل إنسان يعرفنى، الأطباء والممرضون والممرضات والمرضى أنفسهم وحينما رحت أو جئت أحاط بالأنظار، وتفسر حركاتى وسكناتى وخاصة فى هذه الظروف العصيبة، وهذا ما كان يجعل فرارى يبدو فى ذلك الوقت من أشق الأعمال ومع ذلك فقد صممت ورحت أدرس الوسائل المختلفة للهرب وهل يكون بالليل أم بالنهار؟ وهل يتم بالقوة والإكراه أم بالحيلة وانتهاز الفرصة؟ وهل يتم بمحاولة من الخارج؟ وبينما كان رأسى يفكر للحصول على جواب هذه الأسئلة، رحت أطوف المستشفى باحثًا عن الثغرات التى يمكننى أن أفر منها ورحت أدرس حالة الأبواب المختلفة للمستشفى وبعضها يقع خلف المستشفى ويؤدى إلى المقابر المهجورة. ولكنه لأمر ما قد أغلق فى ذلك الوقت فكان رؤساء المستشفى قد توجسوا خيفة من هرب بعض المرضى أو دخول بعض الأجانب إلى المستشفى فأغلقوا هذا الباب وسدوا علىَّ بذلك طريقًا من طرق الفرار وقد سبقنى إلى الهرب من مستشفى الدمرداش المجاهد المخلص الصادق محمد على الطاهر الذى أوذى فى الاعتقال بأشد مما أوذى معتقل آخر فكنت فى أثناء تجوالى فى المستشفى باحثًا منقبًا عن طرق الهرب أحاول أن أتصور الطريقة التى فر بها لكى أكررها ولم تكن لدى تفصيلات عن كيفية هربه.

وهكذا قضيت اليوم وأعصابى توشك أن تحترق من التفكير والرغبة والتلهف على الحرية، ولست أذكر الآن من الذى زارنى فى ذلك اليوم وهل رسمت خطة الفرار مع الأستاذ عبد الحميد عبد المقصود فى ذلك اليوم أم فى اليوم التالى والمهم أن اليوم انقضى

وكل شيء فى مصر هائج مائج مضطرب قلق ، أمّا أنا فقد كنت فى حالة غليان لا شك فيه وكنت مهددًا من لحظة لأخرى بانفجار (مراجلى) من شدة الغليان.

وحل المساء وبدأنا نتهيأ لليلة جديدة وكان زميلنا حامد أفندى حسن أبو الخير قد أحضر لى أحد أجهزة الراديو لاستماع الأخبار ولكننا لم نوفق لاستعماله لسبب لا أذكره الآن فكنا نتشمم الأخبار أو بالأحرى نستنشقها من الهواء وكانت الممرضات يملكن أحد أجهزة الراديو فى بيتهن الملاصق للمستشفى فكنت أكلفهن بأن يفتحن الراديو باستمرار وأن ينقلن إلىّ ما يسمعن من أخبار لندن وبرلين وغيرهما.

وفى سكون الليل انطلقت صفارة الإنذار فيالها من صفارة كأنها نفخة الصور فى هذه الليلة إيذانًا بمقدم يوم القيامة. يا للرعب ويا للفزع والهلع الذى سيطر على الناس أجمعين.. ! فقد كانت هذه الصفارة نذيرًا أى نذير بما سيحل بالقاهرة من ويلات وثبور وفاحت فى الجو رائحة الموت وسرت فى الأجساد قشعريرة الخطر المحدق.

* * *

ولقد كانت صفارات الإنذار تنطلق من قبل فتحدث من الذعر ما تحدث ولكن الألمان سرعان ما خففوا من انزعاج المصريين فلم تكن الطائرات القليلة التى تطير فى سماء مصر تقترب إلا من الأهداف العسكرية الإنجليزية البحتة وحتى ذلك كان يجرى على استحياء وفى تخاذل وضعف ولم يكن ذلك الموقف مفهومًا من ناحية الألمان الذين كانت أفاعيل سلاح طيرانهم هى سر انتصاراتهم المدوية ولكن صفارة الإنذار عندما دوت فى هذه الليلة لم يكن هناك مصرى واحد يشك فى أن ساعة الجد قد حانت وأن سلاح الطيران الألمانى سينيخ الآن بكلكله على مصر ، ومن هنا فقد سرت الرعدة فى القلوب. ولقد أردت أن أفعل شيئًا وأن أبدو هادئًا وشجاعًا ، وفى موقف يتناسب مع شخصيتى فرأيت أن أتولى من ناحيتى تهدئة المذعورين ، وتأمين الخائفين بأن أبدوا أمامهم ضاحكًا مستبشرًا فرحت أطوف المستشفى وأدخل إلى حجرات المرضى الذين أعجزهم المرض عن مبارحة الفراش ومازلت أذكر حتى الآن هذه السيدة الباسلة أخت محمد بك فريد وكان قد أجريت لها عملية جراحية خطيرة فراحت تناشد بناتها أن يتركنها ويذهبن إلى المخبأ وأن يخلين بينها وبين الموت ولكن الفتيات الباسلات وبعض الممرضات أبين أن يفارقنها ولقد وقفت معهن أشيد ببسالتهن وحرصهن على الالتفاف حول والدتهن ، وكان هناك فى المشتفى مخبأ يتألف من مقبرة الدمرداش فنزلت إليه وبعض المرضى فلم يطب لنا المقام وآثرت أن نبقى فى دهاليز المستشفى نفسها حتى إذا كان ولا بد من الموت متنا فى الهواء

النقى . وعدت إلى دهليز المستشفى الأكبر حيث كان السواد الأعظم من الممرضين والمرضى والأطباء يقفون فيه وكانت الممرضتان الإنجليزيتان تروحان وتجيئان فى صمت وهدوء فاقتربت منهما محاولاً إدخال الطمأنينة إلى نفسيهما فأسرت صغراهما إلى بالخبر المنتظر «سقطت مرسى مطروح ! » من الذى قال فأجابت راديو لندن ــ وساد الصمت من جديد ولم أستطع أن أحير جوابًا لقد أدخلت إلى نفسها الطمأنينة دائمًا بالإشارة إلى مرسى مطروح وإنها حصن مصر الحصين ، فأمّا وقد سقطت فلم يعد لدى ما أقوله فنظرت إليها فى إشفاق وعرضت أن أقوم لهما بأى خدمة فشكرتانى بهزة قصيرة من رأسيهما وراحتا تواصلان الرواح والمجىء فى صمت وهدوء .

ولم يلبث الخبر أن انتشر فقد أذاعه راديو مصر وأعلن سقوط مرسى مطروح وإذن فهى النهاية وقد بات ظهور الألمان فى القاهرة نفسها متوقعًا من ساعة لأخرى أو بالأحرى كان لا بد للقاهرة من أن تعانى غارات الألمان الكاسحة والتى تسبق تقدم جيوشهم بيوم واحد وكان السؤال الذى يسأله كل إنسان كيف يعرف الألمان أننا فى مستشفى فلا يغيرون علينا فكان الأطباء يطمئنونهم أن علامة الهلال الأحمر مرسومة على سطوح المستشفى بأحرف فضية بحيث لا يمكن لطائرة من الطائرات أن تخطئها فكان ذلك يدخل بعض الطمأنينة ولكن هذه الطمأنينة لا تستغرق أكثر من لحظات قليلة فكيف تظهر علامة الهلال الأحمر فى الليل المظلم وهل تعرف القنابل التى ستلقى جزافًا فى مثل هذا الموقف أن تفرق بين المستشفى وغير المستشفى وهل يهتم الألمانيون فى مثل هذه الساعة بتحرى أصول الإنسانية ...

ولكن الساعات بدأت تمر تلو الساعات وحالة الخطر معلنة ولكن الأنوار الكشافة لم تلح فى الأفق ولم ترتفع أصوات المدافع المضادة ولم يسمع دوى القنابل وإنما كان السكون والصمت يخيمان على ربوع القاهرة فما الذى جرى وماذا حدث . لقد بدأ هذا السكون الرهيب يضاعف من القلق فقد كان سكونًا غير طبيعى فى ليلة خطيرة وكان من المحقق أنه على قدر هذا السكون ستكون العاصفة المقبلة وعلى قدر هذا الهدوء ستكون القيامة القادمة .

وخطر لى خاطر مفاجئ أن أستفيد من هذا الموقف وأن أهرب فى هذه الفرصة فقد كان العساكر مشغولين بأنفسهم فى مكان بعيد وكنت أروح وأجىء بعيدًا عن كل رقابة وبدأت أنفذ الخاطر الذى طرأ لى فسرت فى هذا الدهليز الطويل الذى يؤدى إلى حديقة المستشفى الخارجية وكان الدهليز خاليًا من كل إنسان بعد أن سادت الطمأنينة من جديد

وعاد كل مريض إلى حجرته .. وكنت أسير بتثاقل وفى قلة مبالاة حتى لا يحس إنسان أننى فى حالة غير عادية خطوة فخطوة نحو الباب الخارجى ووجدت نفسى أجتاز عتبة الباب وقد تجلت أمامى حديقة المستشفى وقد غمرها ضوء القمر الساطع وقد خيم عليها صمت عميق رهيب . ولكنى لم أكد أفرغ من اجتياز الباب حتى وجدت الممرضتين الإنجليزيتين قد افترشتا الأرض وجلستا على الدرجات الرخامية المؤدية إلى الحديقة .

وقد أسرعتا إلى دعوتى للجلوس إلى جوارهما فلبيت الطلب آسفًا على ضياع الفرصة التى سنحت للهرب ، وجلست صامتًا وظلت المرأتان صامتتين كذلك ، وأخيرًا تكلمت رئيسة الممرضات وانفرجت شفتاها عن هذا السؤال «ما هو الطريق للسفر إلى السودان بسرعة» أخيرًا تحرك الجبل ، أخيرًا نطق أبو الهول ! أخيرًا ذاب الجليد المتجمد وأظهر أنه لا يزال ينطوى على بعض الشعور لقد كانت صاحبتنا هذه تبدو فى هدوء مستمر وعدم مبالاة على عكس زميلتها الصغيرة ، أمَّا الليلة فقد كانت هى التى بدأت بالسؤال عن طريق الهرب والفرار ، فقد سقطت مرسى مطروح !

ورحت أرسم لها الطريق وأبسطه : ما عليكما فى الصباح المبكر إلا أن تذهبا إلى محطة مصر وتركبا القطار الذاهب إلى الشلال وهناك تجدان باخرة نيلية تنقلكما إلى وادى حلفا وتستطيعان أن تحصلا على تذاكر السفر من الشلال بالذات ، فالأمر سهل إذن وطريق الفرار لا تعترضه أيه صعوبات على شريطة أن يتم فى الوقت المناسب وقبل ضياع الفرصة ولم تكن هناك فرصة باقية سوى الليلة والغد على أكثر تقدير . ثم رحت أطمئنها على نفسيهما وأن لا يخافا من المصريين فأجابا على الفور نحن مطمئنون كل الاطمئنان إلى كرم المصريين وإنسانيتهم ولنا من الأصدقاء من يحموننا ويأووننا ولكنا فى خوف من الألمان ، فهؤلاء لا إنسانية عندهم وبدأ الصمت يخيم علينا من جديد .

الهـرب

كان هناك بعض نفر من الأطباء ، يجلسون إلى جوار الباب الخارجى لحديقة المستشفى ، حيث يوجد أحد المخابئ الأرضية . فاستأذنت من الإنجليزيتين وأسرعت إلى جماعة الأطباء الذين رحبوا بمقدمى ، وكان الدكتور على توفيق نائب المستشفى يحمل خوذته كما تقضى التعليمات ، وكان صديقى الدكتور حلمى عبد الشافى يجلس مع الجالسين ، فجلست معهم لا يفصلنى عن الباب الخارجى للمستشفى إلا بعض خطوات ، وكانت سيارات الجيش الإنجليزى وعربات الصليب الأحمر تسير بدون انقطاع كأنها نهرٌ جار ، فلما أبديت عجبى من هذا العدد الكبير من السيارات إذا بالأطباء يقولون لى إننى لم أر شيئًا وأن هذه الحالة منذ ثلاث ساعات .. سيارات بغير انقطاع تنطلق لا تلوى على شىء - تغمرها الكآبة وتسيطر عليها روح الهزيمة ...

وإذن فقد كان هذا الإنذار لتغطية الانسحاب ، ولإخلاء الطرقات للسيارات الإنجليزية ولقوافل الصليب الأحمر التى تحمل عشرات الألوف من الجرحى وهذا هو السر فى أن نذير الخطر كان مستمرًا متواصلاً ، مع أنه لم تظهر فى الجو أية طائرة أجنبية ، ولم تسمع المدافع المضادة هنا أو هناك .. كان القمر ساطعًا وكنا فى ليلة ١٤ وكان السكون سائدًا وكان سيل السيارات ينطلق فى انهيار وتدفق وصوت عجلاته كأنه فحيح الأفاعى ... وكان يسيطر علينا شعور من الفرح الشديد إذ قد تكون هذه هى نهاية الإنجليز فى مصر... أنكون قد عشنا لنرى الإنجليز وهم يخرجون من مصر مدحورين مخذولين ؟ ... أنكون قد عشنا لنرى الإنجليز وقد جللهم الخزى والعار وراحوا يفرون أمام أعين المصريين؟ لم أكن أصدق ، ولكن الحقائق كانت قاطعة ، أو لم تسقط مرسى مطروح ؟ أليست هذه ألوف من السيارات محملة بالجرحى ؟ ، إنها الهزيمة النهائية إنه الانكسار الأبدى . وكان ذلك هو رأى الحاضرين فقلت لهم إذا كان الأمر كذلك فيجب أن نتوقع من دقيقة لأخرى هبوط جنود المظلات الألمان ، فقد سمعت فى الراديو الإنجليزى اليوم أن منهم عددًا كبيرًا فى كريت يتجهز للانقضاض على مصر وأحسب أن هذه الساعة التى يضرب فيها الألمان ضرباتهم الحاسمة ، فلنتوقع جنود المظلات من ساعة لأخرى .

ولكن ساعات مرت دون أن تظهر فى الجو طائرة ألمانية ، بل دون أن يسمع صوت انفجار أو دوى ، وليس سوى هذه السيارات الإنجليزية المتدفقة فى هدوء وصمت وحزن ، وأشرفت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل ودوت صفارة الأمان . وبدأ سيل السيارات البريطانية ينقطع ويخف وأعلن الأطباء رغبتهم فى الانسحاب إلى حجراتهم للنوم . وقد احتججت عليهم بأن هذه ليست ساعات النوم وأننى سأبقى حتى الصباح وشاطرنى الدكتور حلمى عبد الشافى هذه الرغبة وانفض الجميع ولم يبق إلا نحن الاثنان بالقرب من باب المستشفى الخارجى على بعد خطوات من شارع الملكة نازلى ولم يكن يفرق بينى الآن وبين الحرية إلا أن اجتاز هذه الخطوات القليلة فأكون فى الشارع وأنعم بالحرية . ولم يكن معنا أحد . وفكرت فى الهرب وصارحت الدكتور حلمى بذلك فوافقنى على الموضوع .

ضربت بيدى على حافة الكرسى الذى كنت أجلس عليه وثبت قدمى فى الأرض استعدادًا للوثوب إلى الخارج .. إلى الشارع ، إلى الحرية ولكن قبل أن أخطو الخطوة الثانية لعب القدر فإذا برجل يظهر عند البوابة كأن الأرض قد انشقت عنه انشقاقًا ، أو كأن السماء قد أمطرته ، ولم يكن هذا الرجل إلا بواب المستشفى ، أو حارسها الليلى . وقد أحدث ظهور هذا الرجل على المسرح خيبة أمل شديدة فقد كنا اثنين ، الله ثالثهما . ولم يكن بينى وبين الخروج إلى الشارع إلا لحظات قليلة بغير أن يرانى أحد أو يشهد على كيفية فرارى إنسان . ومسئولية الدكتور حلمى عبد الشافى فى ذلك الوقت تصبح لا وجود لها . . أما الآن مع وجود هذا الشاهد الذى رآنا ، فلم يعد من الممكن إخفاء الأمر وإعفاء الدكتور حلمى من المسئولية ، ومع ذلك فقد قال لى لا ينبغى أن يهمك وجود هذا البواب ، وأنا على استعداد لمواجهة الموقف فامض على بركة الله ...

لقد كان من الممكن بالفعل أن أمضى ولن يستطيع هذا البواب أن يقول شيئًا وقد يستطيع الدكتور أن يأمره بأن يتركنى وشأنى ، ومع ذلك فقد ترددت وانقضت فى ترددى لحظات ثمينة جدا ، فقد شرع صاحبنا يغلق البوابة الكبرى وفجاة قامت قضبان الحديد بينى وبين الشارع .

وجاء الصباح يحمل معه من جديد هذا الجو المكهرب الخانق ، بما فيه من أخبار مثيرة وأحداث متوقعة خطيرة ، وكان المستشفى ككل مكان فى مصر ، يطن طنين النحل ، فكل إنسان يتكلم مع الآخر فى لهفة ، هذا يسأل وهذا يقص ما عنده وهذا يعلق وهذا يتخوف وهذا يتلهف ، وهذا يتحمس للألمان وهذا يسب فى الإنجليز لأنه كان

إنجليزيًّا واشتهر بميوله الإنجليزية وقد وجد الإنجليز اليوم فى أثواب الخزى والعار ، فراح يلعن ويسخط ويندد بهؤلاء النساء الذين لا يعرفون كيف يثبتون على حرب وكان هناك شعور عام بأن النهاية قد اقتربت وأقبل بعض الأطباء على بعض المتشيعين للإنجليز يحاجونهم ، فكان الآخرون يشاطرونهم الاستنكار لما حدث وما أظهره الإنجليز من جُبن وخَور وتراجع .. مع ذلك فما زلت أذكر طبيبًا واحدًا ظل فى وجه الزوبعة والعاصفة لا يلين ويعلن ثقته بأن الإنجليز سينتصرون وأن الألمان لن يدخلوا مصر ، وبالرغم من أن الإجماع كان ضده. فلأول مرة قد حصل على الاحترام لأنه صاحب رأى يتشبث به حتى النهاية ..

وكانت الصحف قد أعلنت ما عرف فى الليل من أنباء سقوط مرسى مطروح واستمرار الزحف الألمانى بكل قوته وشدته وذكرت بلدة الضبعة على أنها خط القتال الأخير وأن سقوطها معناه سقوط آخر أمل للإنجليز .. ولم يكد النهار يتقدم قليلاً حتى أذيعت الأخبار بأن الضبعة قد سقطت ولم تكن هذه فى الحق أخبارًا تقال ولكنها كانت قنابل تنفجر فتشعل الناس اشتعالاً فيتحولون إلى كتل بشرية ملتهبة بالتشوق لمعرفة نتيجة هذه القصة المثيرة . أفرأيت الجمهور فى حلبة سباق . أو مباراة كرة ، أو لعبة من الألعاب المثيرة ، أرأيتهم وقد أوشكت المبازاة على النهاية وقد وصلت إلى نقطة حاسمة وأصبح النصر معلقًا فى خيط دقيق أوهى من خيط العنكبوت يوشك أن ينقطع ، لكى تقع كرة النصر فى حجر هذا الطرف أو ذاك ، فرأيت كيف يكون جمهور النظارة فى حالة من الجنون والسعر يصرخ ويضج بقدميه ويلوح بيديه ، وتكاد شرايينه تنفجر بالدماء التى تغلى فى داخلها ؟ .. كان ذلك شأن الشعب المصرى فى هذه الأيام الحاسمة فى تاريخ البشرية ، فقد كان يمثل دور النظارة لمسرحية مثيرة أو لمباراة خطيرة .. ويؤسفنى أن أسجل على بلادى أنها كانت كذلك فى هذه الأيام وأن دورها لم يزد على دور الفرجة والمشاهد لأعظم ملاحم التاريخ ، ولو أنهم حاولوا فى هذه الفترة أن يكونوا إيجابيين على صورة من الصور ، لو أنهم على الأقل خضعوا للعوامل الطبيعية التى خضعت لها الشعوب من قبلهم وهى أن يمتلئوا بالخوف والرعب لتغير مجرى التاريخ حتمًا ... أجل لو أن المصريين فزعوا كما فزع الفرنسيون من جحافل الألمان الزاحفة ، وكما فزع البلجيكيون وكما فزع الهولنديون وكما فزع البولنديون واليونان واليوغسلاف وكل الذين زحف الألمان فى أراضيهم لو أن المصريين فزعوا من الخوف فلزموا بيوتهم أو هربوا سراعًا من القاهرة التى توشك أن تدرك وتدمر .. لو أنهم هجروا أعمالهم .. لو أنهم ارتبكوا إزاء الهول المنتظر . إذن لتغير مجرى التاريخ حتمًا ولكننا الآن نعيش فى دنيا جديدة لا نستطيع أن نقدر

أكانت تكون أكثر شرًّا من الآن أو أكثر خيرًا ؟ ولكن من المحقق . أنها كانت ستكون دنيا جديدة بالنسبة لنا فى الشرق ، ولكن من حسن حظ انجلترا أن المصريين لم يخافوا ولم يفزعوا ولم يرتبكوا وما ذلك إلا لأنهم كانوا يتفرجون وكانوا يتسلون ولم يفكروا لحظة واحدة فى أن هذه الأحداث الضخمة شىء حقيقى واقعى ، وليس رواية سينمائية أو مباراة رياضية ... ومن يدرى فربما كان ذلك لخير مصر وسيكشف المستقبل وحده عن ذلك وسيصدر حكمه على مصر أكان ذلك سدادًا منها وصوابًا ألهمته بغريزتها السليمة ، أم كان ضعفًا وهوانًا وخطأ لا يغتفر .

ولكن هناك حقيقة واحدة لا يمكن مطلقًا أن تكون محل خلاف أو جدل ، وهو أن هذه الإمبراطورية البريطانية إذا كانت قد خرجت من الحرب منتصرة فبفضل موقف المصريين فى هذه الأيام التى أتحدث عنها . فلو بدرت من المصريين أقل بادرة ولا أقول ضد الإنجليز ، بل ضد النظام والعمل والإنتاج بعامل الخوف والفزع إذن لكانت النهاية المحققة للجيوش البريطانية فى مصر ، وبالتالى فى الشرق ، ولأصبح البحر الأبيض بحيرة ألمانية ولتغير الموقف بالتالى رأسًا على عقب .

كانت الحوادث تمضى سريعة متلاحقة ، وكم يؤسفنى أن أرى نفسى عاجزًا عن أن أصورها للأجيال المقبلة ، وجاءنى الأستاذ عبد الحميد عبد المقصود زائرًا والأستاذ الصادق الأمين نظير سعداوى وحدثنى الأستاذ عبد الحميد فى وجوب الهرب هذه الليلة ، وقد كان من أصحاب هذه الفكرة المتحمسين لها ، وقد سبق أن تحدثنا فيها من قبل . فحدثته بما جرى فى الليل ، وكيف خاب أملى فى الهروب وأحسست كأن الله لا يريد لى أن أهرب ولكنه شجعنى من جديد وانضم إليه الأستاذ نظير وعرض علىَّ بيته كمأوى ألتجئ إليه ، وراح يرسم لى على قطعة من الورق طريق الوصول إلى المنزل ، وأنه سيلزمه منذ الآن ولا يبرحه فى انتظار حضورى وأنه يقيم بمفرده . فتجدد فى نفسى الأمل وقلت لعبد الحميد فليكن .. فلنحاول من جديد . وما عليك إلا أن تعد سيارة فى الساعة العاشرة مساء تقف بقرب المستشفى حتى إذا استطعت الخروج من المستشفى أسرعت بنا إلى الفرار . ورحنا نستعرض أسماء أصدقائنا الذين يملكون سيارات فلم نستطع أن نستقر على شخص من الأشخاص ولكن الأستاذ عبد الحميد أخذ على عاتقه أن ينفذ هذه المأمورية وأكد لى أنه سيكون فى الساعة المحددة بالقرب من المستشفى ، وقد دلت التجربة فى هذا الحادث فيما بعد على أن الأستاذ عبد الحميد إذا أخذ على عاتقه مهمة محددة . فإنه يحسن إنجازها .

وفى الموعد المحدد أى فى العاشرة مساء حضر لى وأخبرنى أن كل شيء قد تم وأنه بانتظارى فى السيارة الخاصة بالأستاذ مدحت عاصم الذى تطوع لأداء هذه المأمورية خارج المستشفى وأن العساكر يغطون جميعًا فى النوم . صبت منه أن يسبقنى . وبعد بضع دقائق مضت بتثاقل وكنت أرتدى جلباب النوم (والسشب) وضعت على كتفى روبًا كان عندى وفتحت باب الحجرة وانسللت إلى الشرفة وكان يفصلنى عن الحديقة حاجز خشبى صغير فقفزت من فوقه فى سرعة ولهفة، وأسرعت إلى المكان الذى اخترته فى الحديقة للهرب ووصلت إليه دون أن يرانى أحد وصعدت درجات السلم المؤدى إلى قمة السور ، ولكنى لم أكد أصل إلى نهاية السور حتى سمعت حديثًا يجرى فى أسفل المكان الذى يجب علىّ أن أقفز منه إلى الشارع فامتقع وجهى وخفق قلبى ورحت أنصت فإذا بحديث يجرى بين اثنين وقد غرقا فى مناقشات حادة . وهنا طغت علىّ موجة من اليأس . وتذكرت ما حدث لى فى الليلة السابقة . وكيف ظهر البواب فى آخر لحظة . فحال بينى وبين الهرب ، وها هو الموقف يتكرر ثانية . فبعد كل هذا المجهود الذى بذلته ونجاحى فى الوصول إلى المرحلة النهائية يحبط وقوف هذين الرجلين كل شيء .. لا شك أن القدر لا يريد لى أن أهرب .. لقد شاء الله من جديد .

أحنيت رأسى وهبطت من جديد درجات السلم فى كآبة وحزن ، وشرعت أعود أدراجى نحو حجرتى ، نحو السجن والاعتقال ، وقد غمرتنى موجة من الاستسلام والاستكانة .. وفى منتصف الطريق فى الحديقة عاودنى الأمل بعد أن رأيت السكون يحيط بى وليس هناك من يرى شيئًا ولم يظهر العساكر بعد فى الميدان ، وساءلت نفسى لماذا لا أحاول مرة ثانية ووجدت فى نفسى لهفة لتكرار المحاولة فرجعت وأنا مصمم على أننى إذا وجدت الرجلين لا يزالان فى مكانهما فقد وجب علىّ أن أعدل نهائيًّا عن مشروع الهرب فى الحال والاستقبال لأن ذلك سيكون ضد رغبة القدر . أو بالأحرى إرادة الله . أما إذا وجدتهما قد انصرفا فسأهرب لأن هذه ستكون مشيئة الله . وصعدت السلم مرة ثانية بقلب خافق واقتربت من قمة السور وأنصت .. لا يزال الرجلان هناك .. انتهى كل شيء. استخرت الله وقد اختار لى .. لا فرار ولا هرب .. ولكن أنتظر .. أسمع ماذا يقول أحد الرجلين للآخر .

«طيب يا سيدى بق أبق خلينا نشوفك» .

ـ أنا تحت النظر .

ـ العفو العفو أبق سلم لى على الحاج على ..

باللفرح ، اثبت يا قلبي . وحذار أن تجزع ، إن الرجلين يوشكان على الرحيل فلننتظر .. ومرت ثوان كأنها دهور وكان الجزع والرعب يملآن قلبي من أن يظهر فى الحديقة إنسان ، فيرانى فى هذا الموقف ، فيدرك أننى كنت معتزما الفرار ، ياللفضيحة . والعساكر .. العساكر هل لا يزالون نائمين؟ يا رب السموات والأرض عونك ومددك وتوفيقك يا رب .. فى سبيلك يا رب أجاهد ، وفى سبيلك أحاول الهرب لاستئناف الجهاد ، كن فى عونى يا رب .. احمنى يا رب .. أستر علىَّ يا رب .

وانصرف الرجلان وخلا الشارع من الرائح والغادى .. وإذن فلنعتل السور ولنقفز .. ولكن لا أنتظر فهذا شخص قادم .. ياللخيبة الأمل .. !! .. بل ياللسرور والسعادة إنه الأستاذ عبد الحميد عبد المقصود .. صحت به : هل كل شىء على ما يرام ؟ فأجابنى : على مايرام .. قلت له : هل الشارع خال ؟ فأجابنى نعم .. قلت أأقفز؟ قال نعم ، فاعتليت السور الحديدى . أنا الآن فوقه تماما . وهذه الحراب الحديدية التى تؤلف نهاية السور عالقة الآن فى ملابسى .. أحاول أن أتصرف بهدوء كى لا تحدث كارثة ومع ذلك فالعصبية تسيطر علىَّ لقد علقت ملابسى بهذه الأطراف الحديدية المدببة وكان ينبغى أن أعالجها قبل أن أقفز .. آه لو رآنى أحد الآن فى هذه اللحظة وأنا معلق فوق قمة السور .. إذن لصقعت ولذبت حياءً وخجلاً ولقتلتنى خيبة الأمل ومرارة الفشل .. ولكن من حسن الحظ لا أحد . «هوب» وقفزت .. أنا الآن فى الطريق .

فى المخبأ

انصرف الأستاذ مدحت عاصم بسيارته وتركنا فى عرض الطريق بعد أن لوح لنا بيده ولوحت لنا معه هاتان السيدتان اللتان كانتا تركبان إلى جواره ، وكانت الساعة الآن قد جاوزت منتصف الليل ، والطرقات خالية ، والقمر يغمر الكون بضوئه الساطع .وكل شىء هادئ ، وكل شئ ساكن . وبدأنا فى رحلتنا نحو البيت المقصود سيرًا على الأقدام . وكان لا يزال بيننا وبين البيت ما يقارب الأربعة كيلومترات ، وكنت لا أزال أحمل آثار العملية الجراحية فى بطنى ، وكنت فى المستشفى إذا سرت بضع خطوات سريعة أحسست بالتعب والألم على الفور ، وكان الأطباء يحظرون علىّ بذل أى مجهود ، ومع ذلك كله فقد كنت مضطرًا للسير ، والسير فى سرعة لأصل إلى المخبأ الموعود قبل أن ينطلق بوليس مصر كالكلاب المسعورة خلف آثارى ... وقد كانت هذه الفكرة وحدها كافية أن تجعلنى أنطلق فى طريقى لا ألوى على شىء .. ولا أعبأ بشىء .. وكانت الهواجس تساورنى ، فقد يتفجر الآن جدار بطنى ويفتح الجرح من جديد تحت تأثير هذا المجهود ، فكان ذلك يدفعنى إلى السير الوئيد فى أناة وهدوء . ولكن فكرة البوليس الذى يطاردنى تعود إلىّ فأستحث الخطى وأكاد أعدو عدوًا لولا خشيتى من لفت الأنظار إلىّ .. أنظار جنود البوليس الواقفين فى دورياتهم الليلية .. وكان منظرنا يدعو إلى الريبة من غير شك فلم يكن فى قدمى غير (الشبشب) وكنت أرتدى جلبابًا ، وقد رأيت أن أخلع (الروب) فلا ألبسه حتى لا أضاعف الشبهة فطويته على ذراعى وسرت إلى جوار الأستاذ عبد الحميد الذى كان (أفنديا) كاملاً كما لو كنت أحد أتباعه أو محاسيبه أو خدمه وحشمه .. وقطعنا مرحلة كبيرة من الطريق ، وكل شىء حولنا هادئ ، فالشوارع مقفرة . وضوء القمر الساطع يكشف لنا الطريق وعساكر الداورية القليلة لا يأبهون لنا وقد كنا نلقى عليهم السلام فيردونه فى حماسة .. وكلما اقتربنا من الجيزة ازددت اطمئنانًا وهدوءًا وشعورًا بالنجاة وإن ظل الخوف من انفتاح الجرح فى بطنى هو الذى يخيفنى بالأكثر .. ومع ذلك فقد بدأت أشعر بالفرح والسعادة وبدأت أضحك وأضحك بصوتٍ عالٍ ومرتفعٍ من أعماق قلبى .

وصلنا ميدان الجيزة وبدأنا نوغل فى الحوارى والأزقة لنصل إلى بيت صاحبنا .

ووصلنا فى النهاية وصعدنا إليه فى الدور الأول . وكأن القدر أعد لنا بعض مفاجآته إذ بعث إلى صاحبنا الأستاذ نظير فى اللحظة الأخيرة أحد أصدقائه جاء ليسهر معه ويبيت عنده ولم يعرف كيف يتخلص منه . فلما وصلنا وسرت حركة فى البيت اضطر أن يقول لضيفه إن السيدة والدته قد شرفت من البلد . وكان فى البيت حجرة مغلقة فيها أمتعة لبعض الإخوان المسافرين ، ففتحت لى هذه الحجرة التى لم يدخلها الضوء ولا الهواء من أكثر من شهر والتى يرتفع التراب فوق أرضها شبرًا . ومع ذلك فلم أكد أدخلها حتى طلبت (لحافًا) ولم يكد يعطى لى (اللحاف) حتى فرشته على الأرض وهويت إليها لا أكاد أعى شيئًا أو أشعر بشىء فقد كان المجهود الذى بذلته فى هذه الليلة فوق طاقة البشر ، ولم يكن المجهود العصبى بأقل من المجهود المادى ولذلك فقد استغرقت فى النوم على الفور بعد أن مررت بيدى فوق بطنى ولم أجدها قد لوثت بالدماء فاطمأنت نفسى إلى أن بطنى لم تنفجر بعد .. كنت لم أتأكد ساعتئذ إذا كنت قد اجتزت مرحلة الخطر أم لا .. فقد كنت أشعر بجسدى يغلى غليانًا ، وأشعر بجدار بطنى يوشك أن ينهار .

ونمنا . واستيقظت بعد ساعتين أو ثلاث . وبدأ يوم جديد فى ظل الحرية . كنت واثقًا أن أحدًا لن يستطيع أن يهتدى إلى هذا البيت فقد كانت خطتنا محكمة وكنت قد صممت على أن أنتفع بتجاربى الماضية فى الاختفاء عن وجه البوليس ... لقد جاء الخطر من الاتصال بى وإذن فيجب أن نكف عن كل اتصال بالخارج ويجب أن يبقى الخارج جاهلاً كل شىء عن مكانى الجديد . وتطبيقًا لذلك فقد منعت الأستاذ عبد الحميد من أن يتركنى ويذهب إلى بيته على أن يعود بعد ذلك..قلت له أخذت على عاتقك مسئولية تهريبى ولا شك أن البوليس يبحث عنك الآن فلن أسمح لك بحال من الأحوال أن تبعد عن ناظرى طرفة عين .. أنت مقبوض عليك وستظل سجينًا معى إلى أن نتحرر سويًا ... وقد أطاع الأستاذ عبد الحميد هذا الأمر الذى أصدرته له فلازمنى طول مدة اختفائى وشاطرنى الحياة التى عشتها طوال أربعة أشهر .

بدأ يوم جديد وتستطيع أن تتصور مقدار لهفتى على الصحف لأقف منها على تطورات الموقف الحربى ، وعما إذا كانت وزارة الداخلية قد نشرت شيئًا خاصًا بحادث هربى . ولكن الجرائد كانت خالية تمامًا من أى إشارة لهذا الموضوع عن قرب أو بعد ، أمَّا أخبار الموقف الحربى فقد كانت لا تزال مندفعة نحو هذه الغاية المترقبة ، وهى دخول الألمان الأسكندرية واندفاعهم نحو القاهرة ... كان البلاغ الرسمى يشير إلى أن الجيوش الألمانية الزاحفة قد جاوزت مدينة الضبعة وأنها وصلت إلى العلمين التى تبعد عن الأسكندرية بضعة عشر كليو مترات فى هذا الوقت نسمع كلمة العلمين لأول مرة ولم يدر بخلدنا لحظة

واحدة أن هذا الاسم سيصبح من أشهر أسماء الحرب العالمية الثانية . وأن مصير العالم سيقرر عنده وأن الإمبراطورية البريطانية ستحمى كيانها وتبقى على وجودها بالقرب من هذه (العلمين) التى لم تكن إلا موقفاً للقطارات الذاهبة إلى مرسى مطروح . وكانت مصر لا تزال كما وصفتها من قبل تترقب وصول الجيوش الألمانية من ساعة لأخرى ، ولكن هذا اليوم انقضى دون أن تصل الجيوش الألمانية إلى الأسكندرية ، ودون أن يُغِير سلاح الطيران الألمانى الفاتك على مصر وأهداف مصر العسكرية وجاء الظهر وجاء العصر فالمغرب فالعشاء ، فالليل .

وقد اطمأن خاطرنا من ناحية البوليس فلم يكن هناك من عرف شيئًا عن حضورنا إلى هذا البيت ولن يكون هناك سبيل لاكتشاف ذلك فى المستقبل مادمنا لن نتصل بأحد كما قدمنا وقد استطاع الأستاذ نظير أن يتخلص من ضيفه بعد أن شعر الضيف أن لا سبيل لبقائه فى البيت بعد حضور «السيدة الوالدة» وعلى ذلك فقد بدأت أشعر بشىء من الاستقرار والطمأنينة ، ولكن الأخبار المنتظرة عن وصول الألمان لم ترد . وكان ليل وكان صباح يوم جديد وجاءت الصحف تحمل نفس الكلمة التى حملتها بالأمس كلمة العلمين وتحدث البلاغ عن المعارك الشديدة التى تجرى أمام العلمين ، وأشار إلى نجاح العدو فى إحداث بعض ثغرات فى خط الدفاع ، ولكن المعارك لا تزال مستمرة .

ولعل أروع ما يصور موقف الإنجليز فى هذه الأيام ويصور الموقف الحربى أكمل تصوير هو ما قاله أحد الضباط الإنجليز لواحد من معارفنا . تعليقًا على الحالة حيث قال له ما ترجمته «لو منحنا الله خمس دقائق من الحظ الحسن فسيكون فى قدرتنا أن نقلب العصا» فالإنجليز كانوا فى أسوأ حال من الاضطراب والتوتر . وكانوا يتطلعون إلى خمس دقائق من الحظ الحسن . خمس دقائق يتوقفون فيها من الانسحاب السريع لكى يستردوا أنفاسهم ويتعرفوا ما يحيط بهم فهل يجيب الله سؤالهم ويمنحهم هذه الخمس دقائق من الحظ الحسن ؟

وجاء الظهر . فالعصر . فالمغرب . فالعشاء . فالليل دون أن يحمل إلىَّ الأستاذ نظير خبرًا جديدًا من الخارج . وكان مساء وكان صباح يوم ثالث وجاءت الصحف تتحدث عن المعركة الحامية الوطيس أمام العلمين ومعنى ذلك أن الألمان لم يستطيعوا أن يتجاوزوا حتى الآن هذه المنطقة وقد عودنا الألمان أن مالا يستطيعونه فى اليوم الأول لا يستطيعونه فى اليوم الثانى ، ومالا يقدرون عليه فى اليوم الثانى سيصبح من المستحيل عليهم عمله فى اليوم الثالث ... لقد كان الألمان يحاربون منذ أكثر من شهر لا ينامون ولا يرتاحون ليلاً

أو نهارًا ... لم يكن هناك شك فى أنهم لم يخلعوا أحذيتهم أو معاطفهم منذ أكثر من شهر ، ومع ذلك فقد كانوا يندفعون نحو الأمام سكارى بخمرة الانتصار وبقوة الاندفاع ...

ولكن إلى كم من الزمن يظلون مندفعين ؟ إن الطاقة البشرية مهما قيل فيها وفى اتساع مداها فإن لها حدًّا ، والطاقة الميكانيكية التى يعتمد عليها الألمان لها حد كذلك . ولابد للدبابات والسيارات من وقود وزيوت ولابد للجنود من تموين ، وكان من الواضح أن انطلاق الدبابات الألمانية قد تجاوز كل ما كان مقدرًا له .

وكان الإنجليز أو بالأحرى الجيش الثامن لا يقلون تعبًا عن الألمان ، بل يزيد فى متاعبهم مرارة الخزى والاندحار ، ولكن تراجعهم كان لهم مزية بمقدار ما كان يزيد فى متاعب الألمان ، فكلما تراجعوا كلما اقتربوا من قواعدهم الأساسية وكلما أصبح مدهم بالنجدات والمهمات أقرب منالاً من الألمان ، وكل ما كان يحتاجه الإنجليز كما قدمنا هو فترة قصيرة يثبتون فيها لكى يبدأ انتفاعهم بهذه المزية . ومرت ثلاثة أيام ومعركة العلمين محتدمة فدل ذلك على أن الإنجليز قد وجدوا فرصتهم ، وواتاهم الحظ الحسن ، لا فى خمس دقائق ، كما كانوا يتمنون بل فى ثلاثة أيام كاملة . وجاء يوم رابع حمل فى طياته نبأ تراخى الهجوم الألمانى وثبات الخط الإنجليزى الجديد ، وكان معنى ذلك أن العاصفة توشك أن تمر وانقضت أيام أخرى والموقف باق على حاله ، وبدأ الموقف الحربى يتبلور ويجمد وأعلن الإنجليز للدنيا أنهم نجحوا أخيرًا فى إيقاف الهجوم الألمانى ، وأصبح من الواضح أن روميل لن يستطيع أن يستأنف هجومه إلا بعد استعداد وتحضير جديدين ، وهكذا بدأت العلمين تأخذ أهميتها وخطورتها ، وبدأت الدنيا كلها تتحدث عن كل شبر من أرض العلمين حيث توشك أن تجرى المعركة الفاصلة التى يتوقف عليها مصير مصر .

نجح الإنجليز إذن فى إيقاف الهجوم الألمانى على مشارف الاسكندرية والدلتا ، ولكن الخطر كان لايزال جاثمًا ، ولايزال سيف التهديد مصلتًا على الرءوس .. ففى أى يوم وفى أى ساعة من نهار أو ليل قد ينقضّ الألمان ، وقد يواتيهم الحظ ، فيخترقون خط الدفاع الإنجليزى فإذا هم فى قلب مصر بعد نصف ساعة فقط من بدء المعركة ... وكانت الدنيا كلها تتساءل هل يفعل الألمان ذلك ؟ وهل ينجحون ؟ .. وكان الإنجليز هم أكثر الناس فى هذه الدنيا قلقًا واضطرابًا، ولكن نجاحهم فى إيقاف الألمان أخيرًا أحيا الأمل فى نفوسهم من جديد . لقد انطلقت صرخة الاستغاثة فى جميع جنبات البحار ، تطلب النجدة فأصدرت انجلترا أوامرها لكل سفينة فى عرض البحار تحمل جنودًا أو زادًا

أو عتادًا إلى أى جزء من أجزاء المعمورة ، أن تغير خط سيرها وأن تتجه صوب مصر ، وأصدر الرئيس روزفلت نفس هذه التعليمات لجميع المراكب الأمريكية وكانت قافلة كبيرة جدا فى طريقها إلى الشرق الأقصى فحولت طريقها إلى مصر ووصلت إلى السويس فى ابان اشتداد أزمة العلمين ، وكان ما يحتاجه الإنجليز هو بعض الوقت لتفريغ حمولة هذا القافلة وإرسالها إلى ميدان القتال . وقد تهيأ لها الوقت عندما نجح الإنجليز فى إيقاف الألمان ، ولم يمض أسبوع على تفريغ حمولة هذه القافلة الضخمة حتى أخذت طريقها إلى خط القتال فى العلمين ، ولو أنك نظرت لخريطة المعركة . لو وجدت أن خط القتال فى العلمين قصير جدا ، يحده البحر من ناحية ، ويحده منخفض القطارة من الناحية الثانية . وفى هذا الخط القصير تكدس المدد الإنجليزى الجديد متسلحًا بالأسلحة الأمريكية الوفيرة وهنا . وهنا فقط تنفس الإنجليز الصعداء لأول مرة ، وقوى الأمل فى نفوسهم .

وعزل الإنجليز قوادهم ، وجاءوا بقواد جدد ، جاءوا بمونتجمرى ليكون قائدًا للجيش الثامن والجنرال الكسندر ليكون قائدًا للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط .

ولقد قابل المصريون تغيير القيادة بهز الأكتاف، ولاشك أن كثيرين جدا فى الدنيا كلها قد هزوا أكتافهم أيضًا ، فلم تكن هذه أول مرة تغير انجلترا قيادة الجيش الثامن ، بغير جدوى ، ولم يكن أحد يقدر أن مونتجمرى سيكون هو نجم انجلترا اللامع وبطل العلمين ، لم يكن أحد يقدر أن هذا الرجل الذى تحدثوا عن اعتزاله الناس ورغبته عن البروباجاندة والدعاية ، هو الذى سيكون محور الدعاية والبروباجاندة فى جميع أنحاء العالم ، وإن كان قد استوقفنى وأنا أطالع وصف الرجل وأخلاقه أنه ممن لا يدخنون ولا يشربون الخمر فساءلت نفسى .. ترى هل يغير ذلك شيئًا من مصير المعركة ، أن يكون القائد المختار لا يدخن ولا يشرب الخمر ؟ وقد أجابنى القدر على ذلك السؤال أن أى نعم سيغير هذا القائد الذى لا يدخن ولا يشرب الخمر تاريخ هذ الحروب .

* * *

هدأت أخبار الحرب قليلاً وبدأنا نفكر فى أمر أنفسنا . لقد كنا نعيش كما قدمت فى منزل الأستاذ نظير ... وكان البيت يقع فى منطقة خلوية هادئة ولكن الشقة التى تقابلنا فى نفس الدور الذى نقيم فيه كان يسكنها ضابط مباحث الجيزة ، أى والله ضابط مباحث الجيزة بلحمه وشحمه ونصه وفصه ! تستطيع أن تتصور مقدار القلق الذى يحسه أشخاص يطارهم البوليس فى كل مكان وهم يعيشون مع رجل البوليس فى بيت واحد

ودور واحد وكنت إذا دخلت إلى دورة المياه وجدت نفسى وجهًا لوجه أمام دورة مياه حضرة الضابط من خلال (المنور).

وإذا دخلت المطبخ وجدت نفسى وجهًا لوجه أمام نافذة مطبخ حضرة الضابط وقد كانت هذه الفكرة تسبب لنا كثيرًا من القلق والإزعاج.

سألت صاحبى. هل لك علاقة بحضرة الضابط ؟ فأجابنى أبدًا إنه رجل يعيش فى حاله وقلما نلتقى وليس بيننا إلا تبادل السلام والتحية .. فقلت له لا بد من عمل كل شىء من شأنه إبعاد الشبهة عنك بحيث نتخذ من هذا الضابط درعًا وقت اللزوم فعليك أن توثق صلاتك به .. بل وأن تدعوه فى أول فرصة إلى زيارة مسكنك وتناول الشاى معك، ولن يستطيع الرجل أن يتصور بحال أن هذا الذى يشرب معه الشاى فى عقر بيته يخفى أحمد حسين فى الحجرة المجاورة.

ولقد تهيأ الأستاذ نظير لتوجيه هذه الدعوة، ولكن الظروف لم تسمح بها وبعد قليل أمنا جانب هذا الضابط وأنه لن يأتى إلينا خطر عن طريقه، وكانت حياتنا اليومية تنقضى على الوجه الآتى .. صلاة الفجر فى الصباح المبكر وعند الصبح نتناول الإفطار، ويخرج الأستاذ نظير إلى مدرسته. أو بالأحرى ليستقى لنا الأخبار ويعرفنا بأحوال الدنيا فلا يكاد يخرج من الشقة ويغلقها بالمفتاح بعد أن يغلق جميع نوافذها حتى نلزم إحدى الحجرات لا نبرحها بأى حال من الأحوال كى لا نحدث حركة أو نلفت نظر إنسان إلى أن فى داخل الشقة كائنًا أجنبيا وقد كان هذا يكلفنا الكثير جدًّا فقد كان علىَّ أحيانًا أن أجلس فوق كرسى لا أبرحه لمدة بضع ساعات .. وكان علىَّ أحيانًا أن لا أعطس أو أسعل، بل وأن لا آكل أو أشرب فقد كان يحدث فى بعض الأوقات أن يهبط على الدار ضيف مفاجئ فنهرع إلى حجرتنا ونغلقها خلفنا ثم نجلس صامتين كما لو كنا فى مخبأ ننتظر انقشاع الغارة. واعتاد نظير أن يقول للضيوف والأصدقاء والمستطلعين إن فى هذه الحجرة «عفش وكراكيب» زميلهم فلان وأنه أغلقها بالمفتاح وأخذ المفتاح معه، وقد يحدث أن لا يبرح الضيف الشقة لسبب أو لآخر نهارًا بأكمله أو عدة أيام متوالية فيكون علينا فى هذه الحالة أن نظل فى أمكنتنا جامدين لا نروح أو نجىء بل لا نتنفس بصوت عال لئلا يكتشف أمرنا .. وكنا نتمتم أحيانًا إذا حضرتنا الصلاة ونحن فى هذا السجن ولست أحسب أن هناك كثيرين يستطيعون أن يحتملوا ما احتملناه فى هذه الفترة من الاختباء.

ستالينجراد

بدأت الحرب تأخذ لونًا خطيرًا فى روسيا بدأ يسترعى النظر . ويثير الاهتمام ، ويحول أنظار الدنيا كلها إلى سهول روسيا ، وإلى قوة الألمان الجارفة التى توشك أن تقرر مصير الحرب فى أعظم ساحاتها .

لقد وقفنا بالهجوم الألمانى على أبواب موسكو فى أخريات سنة ١٩٤١ واستهل شتاء سنة ١٩٤٢ والألمان يعانون هذه المحنة التى وصفناها فيما سبق ، وقد انقضى الشتاء ومن بعده الربيع والألمان جامدون فى روسيا لا يتحركون ونحن الآن فى شهر يونيو سنة ١٩٤٢ والألمان لم يبدأوا هجومهم المنتظر فى روسيا وقد كنت أرى فى ذلك علامة من علامات الضعف وتناقص قدرة الألمان على الاستعداد للهجوم ، فالألمان قد لاقوا الأمرين من شتاء روسيا ، وكان يجب عليهم أن يبدأوا هجومهم مبكرين لكى يصلوا إلى نتيجة حاسمة قبل حلول الشتاء الجديد فتلكؤهم فى القيام بهذا الهجوم كان يدلنى على أن الزمن قد تغير وثلاث سنوات من الحرب قد نالت من الألمان وأضعفت قوتهم .

وأخيرًا بدأ الهجوم المترقب ولكنه دل بذاته على تغير الظروف والأحوال بالنسبة للألمان فقد كان هجومًا فى ساحة واحدة من ساحات روسيا الثلاث معًا وفى آن واحد . وهذه الساحات الثلاث هى ساحة الشمال وهدفها لننجراد ودويلات البلطيق والساحة الوسطى وهدفها موسكو والساحة الجنوبية وهدفها احتلال أوكرانيا والقوقاز وقد بدأ الهجوم الألمانى فى الساحة الجنوبية صوب القوقاز وإكمال احتلال أوكرانيا الشرقية والوصول بعد ذلك إلى ستالينجراد على نهر الفولجا للقبض على بلعوم روسيا أو قصبتها الهوائية ، وحملها على التسليم أو الاختناق .

وبدأ الهجوم الألمانى جارفًا كما هى العادة ، وخاصة بعد أن ركز هتلر كل ما لديه من قوات فى هذه الساحة المحدودة . وبدأت مدن روسيا الصناعية فى حوض الدونتز تسقط واحدة بعد أخرى ، ثم جاء دور حوض الدون والسكك الحديدية الموصلة من جنوب روسيا إلى شمالها ، وهذه المزارع الغنية التى تمد روسيا بحاجتها من الطعام والغذاء ، وسرعان ما أنشب الألمان أظافرهم فى ذلك كله وانسابت جيوشهم كالطوفان الجارف فى حوض نهر الدون ، كما انحدرت جيوشهم صوب القوقاز واخترقت سهوله الشمالية وبدأ الهجوم الألمانى يأخذ كل قوته والأخبار تلاحقنا فى الراديو ساعة بعد أخرى ، بأنباء الانتصارات المثيرة للأعصاب والتى أحرزها الجيش الألمانى وأنه بدأ يصل إلى مشارف مدينة ستالينجراد الواقعة على نهر الفولجا والتى لو قدر للجيش الألمانى أن يصلها لاستطاع

أن يشطر روسيا شطرين ولقطع شريان الحياة عن روسيا وضربها ضربة قاضية لأن نهر الفولجا هو طريق المواصلات لنقل بترول القوقاز إلى مصانع روسيا فى الشمال ، ولذلك فقد استماتت الروس فى القتال فى هذه المنطقة وبدأنا نسمع الحديث عن المقاومة الجبارة التى يبذلها الروس عند مشارف ستالينجراد لكن لم يتصور أحد فى الدنيا أن اسم ستالينجراد سيكون هو أخلد الأسماء فى هذه الحرب وأن مصير ألمانيا قد تقرر عند أسوار ستالينجراد .

لقد كانت معركة العلمين من المعارك الفاصلة والحاسمة فى تاريخ هذه الحرب بالنسبة للإنجليز على الأقل ولكن معركة العلمين لا يمكن اعتبارها معركة الحرب الأولى نظرًا لضآلة الجيوش التى اشتركت فيها ، ولم تؤثر معركة العلمين إلا على مركز ألمانيا فى أفريقيا وفى البحر الأبيض المتوسط ولكنها لم تصب الجيوش الألمانية بضربة قاضية ، وإنما الهزيمة المنكرة التى سحقت كبرياء الجيش الألمانى سحقًا وكانت بدء انهيار ذلك الجيش العظيم ، كانت هى معركة ستالينجراد من غير شك ، والتى عجز الألمان عن اقتحامها فى نهاية الأمر حتى بعد أن دخلوا إلى شوارعها واحتلوا مصانعها ، ولكن المدينة العتيدة ظلت تقاوم وتقاوم حتى جاءت الضربة الروسية من الخلف ، فكان الانتصار الشيوعى الرهيب .

على أن ذلك كله لم يكن متوقعًا فى هذه الأيام التى أتحدث الآن عنها فقد كان الجيش الألمانى لا يزال يوالى زحفه صوب ستالينجراد بنجاح ، وكانت جيوشه فى مصر لا تزال عند العلمين ، وكان من المتوقع أن ألمانيا تجدد هجومها فى أى لحظة فلا تقف إلا فى القاهرة وعلى ضفاف قناة السويس ، وكنا فى فترة من الترقب والانتظار ، لا نعرف ماذا تكون الحوادث المقبلة .

وكانت الغارات على القاهرة لا تنقطع بالليل وقد بلغت هذه الغارات من التفاهة إلى حد أن ألفها المصريون وكان الألمان من ناحيتهم يتعمدون أن لا يصيبوا أهدافًا مصرية ولكن هذه الغارات كانت تضايقنى نظرًا لحالتى الخاصة فلم يكن باستطاعتى أن أهرع إلى المخابئ .. أو أن أغادر الشقة التى أقيم فيها إلى الدور الأرضى مثلاً وكان علىَّ إذا ما قامت الغارة أن أكمش فى ركن من الحجرة فى انتظار قضاء الله علىَّ ..

وتضطرنى ظروف الاختصار أن أتجاوز عن كثير من مذكراتى وما امتلأت به فى هذه الأيام من حوادث ومغامرات انتهت بى إلى اختيار مخبأ جديدٍ بدلاً من منزل الأستاذ نظير .

ولم يقع لى حادث فى المخبأ الجديد يستحق الذكر ، وقد عنّ لى أن أضع مؤلفًا عن تاريخ الحرب أرويه على شكل القصة ، فقد كنت أتتبع أخبار الحرب باهتمام من يوم لآخر ، ومن ساعة لأخرى وكنت أعلق على كل حادث وأستنتج من كل واقعة أمرًا معينًا وأتنبأ بتنبؤات أثبتت الحوادث صحتها فرأيت أن أستغل ذلك كله فأضع مؤلفًا عنوانه «قصة الحرب العالمية الثانية» وقد بدأت أكتب تاريخ هذه الحرب من ذاكرتى ولقد قطعت شوطًا كبيرًا فى كتابة هذا التاريخ ، ولكن خروجى من الاعتقال قبل نهاية الحرب بعام لم يمكننى من إتمام هذا التاريخ حتى الآن . وإنى لأرجو أن أوفق فى القيام بهذا العمل .

وقد كانت كتابة هذا التاريخ هى كل ما كسبته من اختفائى فى هذا المخبأ الجديد وإذا استثنينا هذا الحادث فلم يقع لى شىء يستحق الذكر .

تطورت الحوادث وأعنى بالحوادث تقلبات الحرب . كانت معركة ستالينجراد تجرى على أشدها وكانت الجرائد قد عجزت نهائيا عن أن تجد عناوين ضخمة تصور بها هذه المعركة فقد بدأت تتحدث عن المعارك الشديدة فى ستالينجراد ثم عن المجازر فى ستالينجراد ثم عن جحيم ستالينجراد وعن حرب الجبابرة فى ستالينجراد وعن يوم القيامة فى ستالينجراد ، ولكن معركة ستالينجراد استمرت بعد ذلك كله وهى تزداد فى كل يوم عنفًا عن اليوم السابق وبينما كان العالم يترقب من ساعة لأخرى أن يعلن الألمان نبأ سقوطها فى أيديهم بصفة نهائية ، فقد انتظروا أسابيع بل وشهورًا كاملة والمعركة مستمرة على أشدها ولقد أعلن الألمان أكثر من مرة أن مقاومة الروس قد انتهت ولكن الروس سرعان ما كانوا يكذبون ذلك باستمرار المقاومة بالفعل ، بل واشتدادها ، وكانت الحرب فى ستالينجراد قد تحولت إلى حرب شوارع وأزقة ، وكانت البلاغات الرسمية تصدر متحدثة عن احتلال الدور الأرضى من العمارة الفلانية وتتحدث عن القتال الجارى فى أحد المصانع ، وأن العدو قد احتل عنبر الغزل ولا تزال المقاومة فى عنبر النسيج ، وكان ذلك غايةما وصل إليه الألمان من هوان بعد أن كانوا يجتاحون المملكة بأسرها فى بعض أيام بل وفى بعض ساعات ، أصبحوا يقفون عاجزين أمام احتلال شقة من الشقق أو بيت من البيوت وأثبتت ستالينجراد أن الأسلحة الحديثة كلها هى أسلحة ميدان ولكنها لا تفيد فى قليل أو كثير فى داخل المدن . وأن أعظم الجيوش بأسًا يمكن أن يجد فى مدينة باسلة من المقاومة مالا يجده من جيش ضخم . إن مقاومة ستالينجراد ، وبسالة أبنائها وبسالة الجيوش الحمراء بين أنقاضها قد فاقت كل ما احتواه التاريخ القديم أو الحديث من أنباء

المعارك والملاحم ، وكل شجاعة فى القديم وكل بسالة وكل تضحية وفدائية لا يمكن أن تقارن بحال من الأحوال بما تجلى فى معركة ستالينجراد من بطولة الروس.

طالت معركة ستالينجراد أكثر مما ينبغى وفشل الألمان فى القضاء على مقاومتها بعد أكثر من خمسة أو ستة أسابيع فكان لا يمكن أن يؤدى ذلك إلا إلى كارثة تحل بألمانيا وقد حلت الكارثة ولكن فى مصر حيث دارت الدائرة على الألمان فى موقعة العلمين الثانية ، فترتب على هذا الاندحار ما ترتب من جلاء ألمانيا من شمال أفريقيا ، واستعادة الإنجليز للبحر الأبيض مما مكنهم بعد ذلك من غزو إيطاليا وانهيار المحور بذلك .

* * *

تركنا الألمان عند خطوطهم فى العلمين بعد أن فشلت محاولتهم الأخيرة للهجوم وقد اضطر المارشال روميل أن يتحول بعد هذا الفشل من الهجوم إلى الدفاع لأن كفة الإنجليز كانت قد بدأت ترجح عليه من حيث كثرة الأمداد التى توافدت عليهم ، لقد وقف الأسطول الإنجليزى والغواصات الإنجليزية والطائرات الإنجليزية بالمرصاد لكل مدد يمكن أن يصل إلى روميل عبر البحر الأبيض ، فلم يصل إليه إلا النزر القليل . وكان اهتمام هتلر موجهًا بالأكثر إلى إحراز النجاح فى ستالينجراد فكانت كل الإمدادات تتجه صوب هذا الميدان ولم يكن يبعث إلى روميل إلا بالقليل .

أما الإنجليز فكانت إمداداتهم كالسيل المنهمر ليلاً ونهارًا لمدة ثلاثة أشهر كاملة وبذلك توفر للإنجليز سبع طائرات مقابل كل طائرة ألمانية واحدة وعشر دبابات مقابل كل دبابة ألمانية واحدة وعشرة مدافع مقابل كل مدفع ألمانى واحد وبدأ الطيران الإنجليزى المتفوق يدق مواقع الألمان دكا ثم بدأ مونتجمرى هجومه الذى أحسن إعداده وبينما كان روميل يتوقع أن يكون ثقل الهجوم فى الجنوب إذا بالهجوم يقع فى الشمال ، وفوجئ العالم بنبأ اختراق جيوش مونتجمرى خطوط الألمان ، وفوجئ العالم بتصدع خط الدفاع الألمانى وانهياره ، وفوجئ العالم بنبأ فرق بأكملها من الطليان والألمان تقع فى قبضة الإنجليز ، وفوجئ العالم بنبأ انتصار الإنجليز انتصارًا لم يسبق لهم أن حلموا به فى هذه الحرب . وتراجعت الجيوش الألمانية وأخلت فى أسرع من لمح البرق المواقع المصرية واحدة بعد أخرى ، حتى إذا أوشكت على الانسحاب من آخر ما بقى فى القطر المصرى وحتى إذا أوشك روميل أن يتمالك أنفاسه وأن يعيد شيئًا من السيطرة على جيوشه وإذا بالضربة القاضية تحل به من الخلف فتقضى على آخر أمل له فى إمكان إنقاذ موقفه بل تقضى على

آخر أمل لألمانيا فى أن تبقى يومًا واحدًا فى أفريقيا ، ولم تكن هذه الضربة القاضية إلا نزول الجيوش الأمريكية فى مراكش والجزائر ونجاحها فى تثبيت أقدامها واحتلالها النقط الحربية الخطيرة بأيسر جهد . وقع هذا الخبر على الألمان موقع الصاعقة فهم لم يكادوا يفيقون قليلاً من ضربة العلمين حتى جاءت هذه النكبة الجديدة التى أجهزت على البقية من أمل الألمان .

إن ألمانيا لم تخسر هذه الحرب كما يظن الكثيرون جزافًا ولكنها خسرتها بحق ولم تكن هزيمتها إلا النتيجة الطبيعية لسلسلة الأخطاء التى ارتكبها هتلر ، وليس هنا محل التحدث عن سلسلة هذه الأخطاء ولكن واحدًا من هذه الأخطاء الخطيرة هو سماحه بقيام حكومة فيشى الفرنسية وتركها تدير الامبراطورية الفرنسية فى حرية كدولة مستقلة ، فاستطاع الحلفاء أن يجدوا فى هذه الامبراطورية السبيل هنا وهناك لكى يقفزوا منها لمحاربة ألمانيا . لقد جثت فرنسا فى أول الحرب على قدميها لهتلر فكان من الواجب عليه أن يكمل احتلالها وأن يحصل على أسطولها وأن يضع اليد على إمبراطوريتها حيث يجد شعوبًا باسلة عربية قد أرهقتها فرنسا فيحررها ويتخذ منها حليفًا ، ولو فعل هتلر ذلك لكان شمال أفريقيا اليوم يتألف من دول حرة ذات سيادة وسلطان ، ولما استطاع الأمريكان فى ذلك الوقت أن يضربوه هذه الضربة القاضية ، وهو لو فعل ذلك لوفر على نفسه متاعب كثيرة وسد هذه الثغرات الخطيرة فى خط دفاعه والتى نفذ الحلفاء منها ، ولكن هتلر كان من السخافة بحيث كان يتصور أنه سيستطيع أن يكسب صداقة الفرنسيين ، وأن يضمهم إلى صفه ضد الإنجليز ناسيًا أن هذه الدولة الكبيرة المهزومة لا يمكن إلا أن تمقت الألمان مقتًا وأن تتحين الفرصة للغدر بألمانيا وطعنها فى الصميم لو استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

وقد كانت هذه الضربة التى أهاجت ألمانيا هى إحدى ثمرات سياسة هتلر الخاطئة فقد وجد الأمريكان والحلفاء الطريق معبّدًا أمامهم لاحتلال مراكش والجزائر ، لم تكن هناك جيوش فرنسية لتقاومهم ولو وجدت هذه الجيوش لما قاومتهم لأنهم كانوا يسرعون إلى الانضمام إلى الحلفاء ، وفى ثمان وأربعين ساعة كان الحلفاء قد فرغوا من تثبيت أقدامهم فى هذا القسم الكبير من العالم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط والأطلنطى ونعنى به مراكش والجزائر . وأسرعت جيوش الحلفاء صوب تونس لاحتلالها ولكى تقطع خط الرجعة على الجيوش الألمانية فى طرابلس ولكن هتلر كانت لا تزال لديه بقية من قوة وحيوية فأسرعت قواته إلى تونس عن طريق الطيران فاحتلها أو بالأحرى سبقت الحلفاء إلى احتلال أجزاء منها وبدأ صراع طويل عنيف فى تونس استمر بضعة أشهر ولكن كان من الواضح أن نهاية المحور فى شمال أفريقيا قد دنت فقد كانت قوات روميل . وقد

تضاعف عليها الضغط من الأمام والوراء تتراجع بسرعة مدهشة إلى طرابلس فتونس. فلم تكن معركة تونس إلا بمثابة الدفاع عن خط الرجعة لجلاء الجيوش الألمانية عن شمال أفريقيا .. وقد وصلت قوات روميل فى النهاية إلى تونس بعد مجهود طويل وشاق ولكن الألمان لم يستطيعوا أن ينقذوا جنديًا واحدًا من جنودهم فى شمال أفريقيا فقد تحولت تونس إلى مصيدة للألمان فلم يلبث الحلفاء أن ضيقوا عليهم الحصار فوقعوا جميعًا فى أسر الحلفاء ، وكانوا يبلغون بضع مئات من آلاف الجند والضباط .

* * *

توقعت ذلك كله من اللحظة الأولى التى انهار فيها خط دفاع روميل عند العلمين وبمجرد نزول الجيوش الأمريكية إلى البر فى مراكش والجزائر ، فتنفست الصعداء وأدركت على الفور أن المعركة بالنسبة لمصر قد انتهت بصفة قاطعة ، ولم يبق عليها خطر من الشرق أو الغرب ، وأن قضية الكفاح من أجل الحرية والاستقلال قد عادت من جديد بيننا وبين الإنجليز وجهًا لوجه بدون تداخل لعنصر ثالث . وسرعان ما اكتشفت أنه لم يبق هناك أى مبرر لبقائى فى الاختفاء بعد أن زالت الأسباب التى دفعتنى إلى الهرب . لقد كان أخشى ما أخشاه أن ينسحب الإنجليز من مصر ويأخذونى معهم أسيرًا ، أو يدخل الألمان إلى مصر وبينى وبينهم ما صنع الحداد كما بينت سابقًا ، أو أن يحتاج الموقف إلى أن تقوم مصر بثورة عامة فأكون على رأسها كل ذلك دفعنى إلى الهرب . أما الآن وقد زالت هذه الأسباب كلها فقد رحت أفكر فى تسليم نفسى للحكومة ، ورحت أبحث عن خير الوسائل التى تمكننى من تسليم نفسى بما يليق بى من الكرامة .

التسليم

استقر عزمى على تسليم نفسى فرحت أفكر فى خير الوسائل لهذا التسليم . ففكرت أن أسلم نفسى لمدير الأمن العام أو إلى سليم بك زكى أو البكباشى محمد إبراهيم إمام وسرعان ما استبعدت هذه الفكرة فلماذا أشرف هذا النفر من رجال البوليس والإدارة ولماذا أعطيهم فرصة جديدة يتظاهرون فيها بأن تسليمى لنفسى كان ثمرة من ثمرات مجهوداتهم ونشاطهم وهمتهم . وبدأت أفكر فى أن أسلم نفسى للنحاس باشا شخصيا كما فعل المجاهد محمد على الطاهر الذى ظل مختفيًا طوال حكم حسين باشا سرى حتى إذا ولى النحاس باشا ذهب إليه فى مجلس الوزراء بملابسه العربية التى كان متنكرًا بها وقدم نفسه إليه فلم يتمالك النحاس باشا نفسه من أن يطلق سراحه ويعلن الإنجليز بأنه قد أخذ على مسئوليته إطلاق سراحه .. ولكن سرعان ما استبعدت هذه الفكرة بدورها فإنه من العسير جدا أن أقابل النحاس باشا ولا جدال فى أنه سيقبض علىّ قبل مقابلته وقد يتهمنى البوليس بما شاء له من التهم وأننى قد قصدت النحاس باشا لأعتدى عليه ، فكان لا بد والحالة هذه من البحث عن أسلوب آخر مأمون وكريم لتسليم نفسى فخطر على ذهنى أن أتصل بأحد الوزراء الوفديين وورد ذكر صبرى باشا أبو علم على خاطرى فهو وزير العدل وسكرتير الوفد ويستطيع إذا اتفق معى على إطلاق سراحى أن يقنع النحاس باشا ولكنى لم أستقر أمام هذه الفكرة طويلاً لأننى لم أطمئن تمامًا إلى ما يمكن أن يكون عليه تصرف صبرى باشا أبو علم وهل يقدر معنى التجائى إليه حق قدره أم قد تبدو منه حركة أو إشارة يكون فيها مساس بكرامتى فلم يسبق أن كان بيننا ما يمكن أن يعتبر صداقة شخصية . حقا لقد حججنا بيت الله الحرام سويا ولكن الصلة لم تتوطد بيننا إلى الحد الذى يجعلنى أطمع فى معاملة ممتازة .. وبعد أن استعرضت اسم وزير آخر أو وزيرين من وزراء حكومة الوفد . وقفت طويلاً أمام اسم فؤاد باشا سراج الدين وكان وزير الزراعة وقتئذ وبدأت العناصر كلها تتضافر على اختيار سراج الدين باشا ليكون الوزير الذى أسلم نفسى إليه وأنا مطمئن إلى أن كرامتى ستكون محفوظة وإلى إمكان حصولى على حريتى عن هذا الطريق . ففؤاد باشا سراج الدين هو زميلى فى الدراسة تخرج قبلى بعام أو عامين على ما أذكر لكن علاقاتنا كانت طيبة من غير شك وكان بيننا عطف متبادل . وإذا كانت الظروف قد حالت دون

تقابلنا بعد ذلك فقد كان فؤاد باشا أول من ذكر هذه الزمالة حيث هم بزيارتى فى مستشفى الدمرداش أبان اعتقالى وهو وزير كما أشرت إلى ذلك بالتفصيل فيما سبق . معنى ذلك أنه لا يزال يذكرنى وأن تقلده الوزارة لم ينسه زملاءه فى الدراسة ولما كنت أعلم أن فؤاد باشا سراج الدين هو مستشار النحاس باشا الأول فى هذه الأيام وأنه موضع ثقته وحبه فقد استقر رأيى على أن يكون فؤاد باشا سراج الدين هو الرجل الذى أقصده باعتباره ممثلاً للحكومة ، وأضع نفسى تحت تصرفه لإعادتى إلى الاعتقال إذا شاءوا أو لإطلاق سراحى إذا رأوا أن يكسبوا ودى وصداقتى وعرفانى بالجميل .

ولم يكد هذا العزم يستقر فى نفسى حتى بادرت إلى منزل والدى رحمة الله عليه وبعثت فى طلب زوجتى وأخبرتها بما استقر عليه عزمى فوافقانى عليه .

فأسرعت إلى الاتصال بفؤاد باشا سراج الدين تليفونيا وشاء القدر أن يكون موجودًا بالمنزل وأن يرد علىّ ، فلما أخبرته أننى أحمد حسين أهل وسهل وقال لى «أنت فين يا راجل عاوزين نشوفك» فقلت له وأنا أريد أن أراك وأن أقابلك . فقال : تعال لى تفضل واحضر الآن إذا شئت ، فقلت له سأحضر ولكن على شرط أن لا تعلم أحدًا بحضورى إلا بعد أن نتقابل ونتفق على ما سوف نتفق عليه . فقال لى اطمئن من هذه الناحية .. ولم أكن أتصور أنه سيكون أمينًا فى تنفيذ وعده إلى حد أن لا يخطر النحاس باشا بالموضوع مع أنه كان يعلم أن هذا الموضوع فى الدرجة الأولى من اهتمام النحاس باشا .

أخذت معداتى اللازمة للمبيت فى السجن هذه الليلة فوضعت فى حقيبة صغيرة بعض الملابس الداخلية وبعض المهمات ، وودعت زوجى وأولادى وأرسلت فى طلب إحدى سيارات الأجرة ولم تكد تصل حتى كنت فى طريقى إلى منزل فؤاد باشا فى جاردن سيتى .

كان أهم ما يشغلنى فى السيارة هو أن لا أقع فى كمين فى اللحظة الأخيرة فيقبض على البوليس على عتبة باب سراج الدين باشا أو قبله بخطوات قليلة ثم يزعمون أنهم قد اعتقلونى ليحصلوا على المكافأة الموضوعة للقبض علىّ ولذلك فقد قررت أن أنطلق بالتاكسى سريعًا أمام بيت سراج الدين باشا ، فإذا وجدت الجو عاديا وليس فيه ما يريب عدت إليه ، أمّا إذا اشتممت رائحة كمين هنا أو هناك أو حركة غير عادية عدت أدراجى على الفور . وكنت أضع منظارًا على عينى وأغطى وجهى بالمنديل الأبيض متظاهرًا بالسعال أو تجفيف العرق ، ووصلت السيارة حيث يقوم منزل النحاس باشا فى

مواجهة منزل سراج الدين باشا وكان يوجد على باب النحاس باشا لفيف من الجنود والضباط والحراس والخدم ولكن لم يكن يبدو عليهم بأى حال من الأحوال أنهم يعرفون شيئًا أو يتوقعون حدوث شيء .. وعلى عكس بيت النحاس باشا كان منزل فؤاد سراج الدين باشا خاليًا من وجود أى حارس أو جندى ولم يكن سوى حاجب من حجاب الوزراء يقف على الباب ويلوح عليه أنه ينتظر إنسانًا فشعرت باطمئنان عميق وأوقفت التاكسى ودفعت لصاحبه أجرته وكأن الحاجب كان يتوقع مقدمى فإذا به يحييني فى صمت ويقودنى على الفور إلى داخل المنزل وما هى إلا لحظات قليلة حتى كنت فى هذه الحجرة الفاخرة حجرة الاستقبال فى سراى سراج الدين باشا ولم أكد أرى نفسى جالسًا فى هذا المكان حتى غمرنى السرور والفرح لنجاح خطتى وأننى كسبت الجولة الأولى فهأنذا فى داخل بيت صديق وزير وقد حضرت إليه من تلقاء نفسى ، وبعد أن فشل البوليس فى القبض علىّ واعتقالى .

وجاء سراج الدين باشا وتصافحنا فى حرارة ورحنا نتحدث ، ولقد تحدثنا فى كل شيء فى الحرب ومعاركها ، وفى مصر وحوادثها ، وفى ذكرياتنا عن الشباب والدراسة وتحدثنا عن المستقبل . وغنى عن البيان أن الحديث عن اعتقالى واختفائى والأسباب التى حملتنى على تسليم نفسى كانت هى التى شغلت الجزء الأكبر من حديثنا ولقد طمأننى فؤاد باشا إلى أننى سأبيت الليلة فى منزلى وبين أولادى وأننى لن أعود إلى السجن فقلت له إننى لا أشاطرك هذا التفاؤل فمسألتى أصعب من أن تحل بهذه السهولة ، وعلى أية حال فإننى على استعداد إذا شاء النحاس باشا أن ألازم بيتى فترة من الزمن ريثما يفرغ من حل قضيتى مع الإنجليز . وسألنى فؤاد باشا عن هذه الحقيبة التى أحملها فقلت له إن فيها ملابسى ومهماتى التى أحتاجها فى السجن لأننى قد أعددت نفسى للمبيت فى السجن ، فأظهر فؤاد باشا استنكاره لهذه الخاطر كيف يمر فى رأسى . ولقد قضينا معًا ما يزيد على الساعتين أو الثلاث ساعات فيما أذكر ولقد سأل فؤاد باشا خلالها أكثر من مرة عن النحاس باشا فكان يقال له إنه لايزال نائمًا ، وأخيرًا رأى أن يذهب إليه بنفسه فتركنى وحيدًا فى الحجرة وخرج من البيت قاصدًا منزل النحاس باشا للفصل فى مصيرى فإمًّا إلى الحرية وإمًّا إلى الاعتقال من جديد ...

ولقد مرت فترة طويلة ... طويلة جدا ، خيل إلىّ أنها دهر من الزمان قبل أن يعود فؤاد باشا سراج الدين يتهادى فى مشيته كما هى عادته ولقد حاولت أن أستشف من وجهه النتيجة التى انتهى إليها فلم أستطع فبادرته قائلاً «خيرًا» فأجابنى : خيرًا إن شاءالله . ثم جلس وراح يقص علىّ ما حدث . قال لى : لقد ذهبت للنحاس باشا فقلت له إن

عندى خبرًا يسرك قال وما هو فقلت له أحمد حسين عندى فقال النحاس باشا وأين هو أريد أن أراه فقال له فؤاد باشا وهو أيضًا يريد أن يراك ولكن قبل أن تتقابلا أريد أن أتفق معك يا باشا على وجوب إخلاء سبيله فالأستاذ أحمد أحسين هو زميلى فى الدراسة وصداقة المدرسة هى عندى أغلى ما اعتز به ، على أن هناك ما هو فوق ذلك كله وهو أننى رجل فلاح ولقد جاء الأستاذ أحمد حسين إلى بيتى فلا يمكن أن يخرج من بيتى سجينًا أو معتقلاً أبدًا وإذا كان الباشا يرى أن لا مناص من اعتقاله فليأذن لى أن أعود إلى الأستاذ أحمد حسين كى أساعده على الرجوع من حيثُ أتى ثم ليعمل الباشا بوسائله الخاصة على اعتقاله .

ولقد رد النحاس باشا على فؤاد باشا بأنه لا يستطيع أن يطلق سراحى هذه الليلة لأن اعتقالى كان بناءً على أمر الإنجليز ولا بد أن يعرض أمر الإفراج عنى على الإنجليز ، وهذا يستلزم بضعة أيام وفى انتظار هذه الأيام القلائل فإنه يتعهد أن لا يذهبوا بى إلى سجن أو إلى معتقل ولكن إلى أحد بيوت الضباط الخاصة ريثما يحل الموضوع ثم طلب من فؤاد باشا أن يسرع إلى إحضارى لمقابلته . ولقد أدركت على الفور أن فرصة الحرية قد ضاعت وأن الاعتقال بالنسبة لى قد تأكد مادام الأمر سيعرض على الإنجليز، وقد خالفنى فؤاد باشا فى ذلك الرأى وقال لى إنها مسألة أيام فقلت له إننى أعرف فى هذه المسائل بأكثر مما يعرف أى إنسان آخر ، فلو أن النحاس باشا كان يريد الإفراج عنى لأفرج عنى فورًا ، ولجابه الإنجليز بالأمر الواقع وفى هذه الحالة ما كان الإنجليز يجرأون على إثارة هذا الموضوع أمَّا أن يستشار الإنجليز فى أمرى فالقرار منذ الآن معروف وهو « لا .. ولا بالخط العريض وبالثلث » فأجابنى فؤاد باشا بأننى متشائم أكثر مما ينبغى وأنه من المستحيل أن لا يجيب الإنجليز طلب النحاس باشا فى وجوب الإفراج عنى بعد أن يخبرهم أننى ضمانته .

وكيفما كان الأمر فقد ذهبت إلى فؤاد باشا سراج الدين لكى أسلم نفسى ولم أكن أطمع فى أن يفرج عنى ولكن حديثه معى هو الذى خلق هذا الأمل فى نفسى ، والذى لم يكد يولد حتى انطفأ ولقد أثبتت الحوادث أنى كنت على حق فى تشاؤمى ، وذهبنا لمقابلة النحاس باشا وقد كانت مفاجأة عجيبة لضباط الحرس والبوليس والياوران ، وهم يروننى أسير إلى جوار فؤاد باشا سراج الدين كصديقين متلازمين .. وكانت ترتسم على الوجوه آيات الذهول والوجوم وأحيانًا كان الأصوات تحبس فى حلوقهم من فرط المفاجأة ، فهذا هو أحمد حسين الذى طالما قلبوا الأرض قلبًا للبحث عنه .. هذا هو أحمد حسين المطارد من السلطات الإنجليزية يسير فى هدوء وابتسام إلى جوار سراج الدين باشا ، فما الذى جرى وما الذى حدث وما هذا الانقلاب .. هل يعرف فؤاد

باشا أن أحمد حسين هارب من وجه البوليس أم أنه قد صدر أمر بإطلاق سراح الأستاذ أحمد حسين ؟ . كانْ بعض الضباط تحدثه نفسه لو أسرع فسار إلى جانبي ليحول بيني وبين الهرب إذ كنت لا أزال معتقلاً ، وكان البعض يفكر أن يسأل فؤاد باشا على الأقل تفسير ذلك الموقف ولو فى كلمة ولكنهم بطبيعة الحال لم يجرؤوا على عمل شىء من ذلك ، خصوصًا وأننا قد أدركنا المصعد الكهربائى وامتطيناه إلى الدور الأعلى حيث كنا سنقابل النحاس باشا .

وجاء النحاس باشا أخيرًا وتصافحنا وكانت مقابلة قصيرة وتبادلنا فيها أقوالاً سريعة . قال النحاس باشا لن أستطيع أن أفرج عنك إذ لا بد لى من أن أعتقلك ريثما أسوى المسألة مع الجانب الآخر ولولا موضوع هربك لكنت الآن حرا طليقًا ولكنك بهذا الفرار قد عقدت المسألة تعقيدًا يجعلنى لا أستطيع أن أحله بمفردى وعلى كل حال فلا بد من اعتقالك ولكننى لن أرسلك إلى سجن أو معتقل بل سيهيئ لك غزالى بك مدير الأمن العام مقامًا طيبًا فى منزل أحد الضباط ريثما أضمنك عند الإنجليز .

قلت للنحاس باشا إنك تملك الآن أن تفرج عنى دون أن يكون بقدرة الإنجليز الاعتراض عليك ، أمَّا إذا سألتهم فلن يكون لهم إلا رد واحد وهو الرفض لأنهم يكرهوننى كل الكره ، ويمقتوننى كل المقت ويخافون منى ومن نشاطى بأكثر مما يخافون من أى مصرى آخر .

فأجابنى النحاس باشا هذه مسألة تخصنى وأنا أعرف ماذا أقول وكيف أتصرف وسوف أنجح فى وساطتى وهى مسألة أيام ... قلت له إن الكلمة لك ولقد حضرت مستعدا للحبس .. أى لأسوأ الفروض والاحتمالات وأنا شخصيًا ليس يزعجنى أن أبقى فى السجن إلى ما شاء الله ولكنى لست أعرف باسم أى نظام أو عدالة ولأى سبب من الأسباب أعتقل ... فقطع علىَّ النحاس باشا الحديث مشيرًا إلى غزالى بك الذى كان قد حضر فذهبت معه إلى وزارة الداخلية واستدعى أحد ضباط القسم السياسى وهو عبد العزيز أفندى حجازى وطلب منه أن ينقل أهل بيته من منزله لكى أقيم عنده بضعة أيام تحت الحراسة .

ولقد كان بيتًا لطيفًا أنيقًا فى مصر الجديدة ، وكان عبد العزيز أفندى من زملائنا فى الخديوية وكنا أبناء حى واحد .

كان المفروض أن أقيم فى بيت هذا الضابط يومين أو ثلاثة ريثما يصدر قرار الإفراج

ولكن مضت ثمانية أيام قبل أن يأتيني حضرة الصاغ إبراهيم إمام ليعلمني أن النحاس باشا فى انتظارى لأسمع منه القرار الأخير.

وكان هذا القرار يتلخص فى أن الحكومة الإنجليزية رفضت إطلاق سراحى ، وعلى هذا فقد اعتقلت مرة أخرى ، فى بيت مأمور قسم مصر الجديدة . المتصل بالقسم ، ليتسنى لى أن أعيش مع أسرتى فى هذا المعتقل !

وقد أريد بهذا الإجراء التخفيف عنى ، ولكن حياة الاعتقال وفقدان الحرية تحول كل نعيم إلى جحيم ، فبعد قليل أصبح اعتقال زوجى وأولادى معى مصدر متاعب وأحزان ، عندما يمرض الأطفال فلا نستطيع علاجهم بالسرعة اللازمة ! !

ثم حلت بنا النكبة الكبرى عندما مرض ولداى معًا ، إبراهيم ومصطفى ، ونقلا إلى المستشفى ، وحيل بينى وبين الخروج لزيارتهما !

ومات إبراهيم بعد ثلاثة أيام ، وأوشك مصطفى أن يموت وأصبح الاعتقال فوق احتمالى ، فرفضت عودة زوجتى للإقامة معى فى المعتقل ...

وبدأت أشعر بوجوب الإفراج عنى وبدأت قيود المعتقل تحز فى نفسى وكان قد انقضى علىّ ما يقرب من العام فى هذا المعتقل الذى ذهبت إليه لفترة قصيرة جدا ، وكانت الحرب بدأت تدخل فى مرحلتها الأخيرة فالألمان يتراجعون على طول الخط والحلفاء يتقدمون على طول الخط واستسلمت إيطاليا واليابان التى بدأت هذه الحرب كالإعصار الجائع الذى لا يقهر ولا يغلب : بدأ الأمريكان يطبقون عليها بغاراتهم الجوية والبحرية وبدأت اليابان تترنح ..

وكنت أسائل نفسى إلى كم من الزمن سأبقى فى هذا المعتقل فكان يروعنى الرد على سؤالى وأنه سيكون إلى نهاية الحرب بل وبعد انتهاء الحرب ، وهو أمر قد يطول إلى ثلاث أو أربع سنوات أخرى ، ولذلك فقد أعلنت الثورة والتمرد وخضت معركة الحرية التى قدر لى أن أنتصر فيها .

الإفــراج

يجب أن يفرج عني .. يجب أن يفرج عني . كانت هذه هي الفكرة التي بدأت تتملكني بعد أن لم يبق فى الاعتقال من مصر الفتاة سواى .. لقد كنت أرى أنه من غير الطبيعى أن يفرج عنى قبل سواى من أعضاء مصر الفتاة .. ولذلك فقد كان كل همى وسعيي متجهين للإفراج عن الآخرين ، ولم يحدث أبدًا أن طالبت بالإفراج عن نفسى . وفى إبان هذه الفترة كان فؤاد سراج الدين باشا قد أصبح وزيرًا للداخلية . وكنت أطلب مقابلته من حين لآخر وأناقشه فى وجوب الإفراج عن معتقلى مصر الفتاة ، ولقد كان هذا الموضوع يخلق الكثير من الاحتكاك بينى وبينه ومدًّا وجزرًا فى علاقتنا فأغضب منه إذا ما توانى فى الإفراج وأسر وأرضى عندما يفرج عن فريق من أعضاء مصر الفتاة ، ولقد استمرت هذه المناوشات بضعة شهور تم فيها الإفراج عن جميع أعضاء مصر الفتاة المعتقلين ولم يبق منهم سواى والأستاذ محمد صبيح ... وكان الأستاذ صبيح معتقلاً فى المنيا ثم فوجئت فى يوم من الأيام بنقله إلى معتقلى الخاص فى مصر الجديدة ، فكان مقدمه بالنسبة لى سعادة لا تقدر .. ولم يمكث معى صبيح أكثر من أسبوع على ما أذكر استدعى فى ختامه لمقابلة فؤاد سراج الدين باشا وهناك أعلنه بإطلاق سراحه وأنه قد أصبح حرًّا ، وقد كانت هذه حركة بارعة من فؤاد سراج الدين باشا فقد كانت وزارة الوفد تعانى أزمة حادة فى ذلك اليوم وكانت تتوقع الإقالة من ساعة لأخرى فرأى فؤاد باشا أن يفرج عن الأستاذ محمد صبيح سكرتير عام حزب مصر الفتاة فى ذلك الوقت ليكسب عواطف الحزب وعرفانه بجميله فى الساعة التى يبارحون فيها الوزارة .. ولكن التغيير المرتقب لم يقع وظلت الوزارة فى كراسيها وشعرت أن الساعة قد حانت للإفراج عنى ، هذا الإفراج الذى كان يجب أن يتم منذ أمد بعيد وعجبت كيف استطعت أن أصبر طوال هذه المدة على الاعتقال ، وكيف يظل حبل الصداقة ممتدا بينى وبين فؤاد باشا سراج الدين بعد أن أصبح وزيرًا للداخلية وأنا ما زلت فى الاعتقال ..

وكتبت لفؤاد باشا وكتبت للنحاس باشا أطلب الإفراج عني فورًا فلم يصلنى رد فأغاظنى ذلك وقررت أن أثيرها معركة حامية ضد النحاس باشا وأنا فى الاعتقال وذلك بأن أضرب عن الطعام حتى الموت أو الحرية .. وجاءنى أمين بك خليل رئيس القسم

المخصوص الذى أنشاه النحاس باشا فى مجلس الوزراء وأمين بك رجل متزن واسع الأفق أعجبنى كثيرًا جدا عندما أتيحت لى الفرصة لمقابلته والتفاهم معه .. زارنى أمين بك فى المعتقل وراح يحاول أن يهدئ من ثائرى وأن يطلب منى الصبر قليلاً ريثما يتمكن من حل المسألة فقلت له إننى لم أعد أطيق الصبر ، ولست مستعدا أن أرضى بهذا الموقف بحال من الأحوال فالنحاس باشا إمَّا أنه يستطيع أن يفرج عنى ولا يفعل وفى هذه الحالة فهو جدير بخصومتى ونقمتى وإمَّا أنه لا يستطيع أن يفرج عنى وهو فى هذه الحالة جدير بخصومتى مرتين ، لأننى لا أقبل أن يكون رئيس حكومة مصرية بهذه الدرجة من العجز الذى يجعله لا يستطيع الإفراج عن مصرى معتقل ، ولذلك فلا مناص من الكفاح والجهاد فى سبيل الإفراج والحرية .. وكنت قد حددت للإضراب يومًا معلومًا وقد استطاع أمين بك خليل أن يقنعنى بإرجاء هذا الإضراب ثلاثة أيام فقط سأسمع بعدها ما يسرنى فقلت له بل أمامك أسبوع كامل لتقوم بمسعاك حتى تعرف أننى رجل غير متعنت ولكنى أقسم بالله العلى الأعلى أنه إذا انقضى هذا الأسبوع ولم يفرج عنى فسيكون إضرابى عن الطعام هو الحدث الذى يهز هذه البلاد هزا ويثير ثائرتها .

وتركنى أمين بك خليل وانصرف وخلوت إلى وحدتى ... وفى اليوم التالى بدأ مأمور القسم عبد الله سالم يحاول أن يحملنى على العدول عن هذا الموقف المتشدد وأن أستقبل بعض الزوار الذين جاءوا لزيارتى ، ولكنى رفضت ذلك رفضًا باتا وقلت له إن هناك شيئًا واحدًا هو الذى وافقت على تأجيله لمدة أسبوع وهو مسألة الإضراب عن الطعام . أمَّا فيما عدا ذلك فأنا أعتبر نفسى فى حالة حصار وليس هناك سوى طريق واحد لفك هذا الحصار وهو أن يفرج عنى .. !

ومضى يوم ثان بعد مقابلتى لأمين بك خليل وبينما أنا جالس فى المعتقل فى حالة هدوء وفراغ تامين إذا بالباب يدق والجندى الحارس يقول لى إن حضرة المأمور يقول لك ارتد ملابسك لأنك ستقابل رئيس الوزراء .. ولم يكد ينطق الرجل بهذه الكلمة حتى كادت الثورة تنفجر فى نفسى .. أخيرًا .. أخيرًا سأقابل رئيس الوزراء وسأعرف كيف أحمله على الإفراج عنى أو أن أثور فى وجهه وأتحداه . !

لقد كنت أريد منذ زمن طويل أن أقابل النحاس باشا لأعرف كيف يتردد فى الإفراج عنى وما قيمة رياسته للحكومة وما قيمة حكومته الدستورية المتمتعة بالأغلبية إذا كانت لا تستطيع الإفراج عن مصرى معتقل يريد وزير الداخلية ورئيس الحكومة أن يفرجا عنه .

لقد أدركت أن حديثي مع أمين بك خليل قد وصل إلى النحاس باشا وأنه قد أرسل إليّ ليطلب مني أن أصبر قليلا ويعدني بأنه سيبذل سعيًا جديا فى سبيل الإفراج عنى فى مقابل أن أهدأ وأطمئن وأقلع عن كل فكرة فى الإضراب عن الطعام .. وهذا هو نوع الحديث الذى لـم أكن مستعدا لسماعه والذى كان سيشعل النار فى نفسى اشتعالاً لمجرد سماعه ... لم أكن مستعدا بأى حال من الأحوال أن أتلقى وعدًا جديا بالإفراج ... لم أكن مستعدا بأى حال من الأحوال إلا أن أسمع كلمة واحدة وهى «اذهب فأنت حر» هذه هى الكلمة الواحدة التى كنت مستعدا لأن أسمعها وأمّا غير هذه الكلمة من العبارات مهما كان نوعها فقد كانت جديرة بأن تثير ثائرتى .

ارتديت ملابسى على عجل وفى أقل من لمح البصر كنت فى حجرة المأمور الذى ابتسم لى قائلاً : إن شاء الله يكون قد آن الأوان ، فقلت له : إننى متشائم وسوف تكون هذه المقابلة هى نذير الحرب بينى وبين النحاس باشا إذا لم يفرج عنى اليوم ، ولست أتصور بحال من الأحوال أنه سيفرج عني .. قال لى لقد طلب أن تذهب لمقابلته فى المنزل . فقلت له وهذا ما يجعلنى أتصور أنه يريد أن يتحدث معى حديثًا خصوصيا يطيب به خاطرى ويعدنى بالإفراج بعد قليل وهو ما سيجعلنى أنفجر فى وجهه وقد تسمع عنى اليوم أنى فى أحد السجون بتهمة إهانة رئيس الحكومة ... ولكن المأمور أخذ عليّ هذا التشاؤم وتمنى لى التوفيق .

وأخيرًا انطلقنا فى إحدى سيارات الأجرة إلى بيت النحاس باشا وكان يرافقنى فى ذلك اليوم أمين بك جعيصه معاون القسم فى ذلك الوقت وكان طوال الطريق يبذل كل جهده فى تهدئتى ونصحى بأن أكون معتدلاً فى حديثى ولا داعى للثورة وأن الرجل إذا وعدنى بالإفراج فلا بد أنه سيفى ولكنى كنت فى صمم تام مطلق عن سماع أى شىء فى ذلك اليوم ، إلا كلمة واحدة وهى كلمة الإفراج السريع بدون قيد أو شرط ...

ووصلنا إلى بيت النحاس باشا فى جاردن سيتى فقيل لنا إنه ذهب إلى رياسة مجلس الوزراء وإنه قد طلب أن نذهب إليه هناك فتوجهنا على الفور إلى مجلس الوزراء ولقد سألت بمجرد وصولى عن أمين بك خليل فقيل لى إنه قد انصرف . وقد كنت أريد أن يحضر مقابلتى مع النحاس باشا ليخفف من حدة الموقف بينى وبينه فلما لم أجده حاضرًا شعرت بخيبة أمل مضاعفة فقد ضاع كل بصيص من الأمل فى أن يفرج عنى لأنه لو كان فى الموضوع فكرة إفراج لوجب أن يكون حاضرًا ليرينى كيف كان أمينًا على وعده وأنه قد نجح فى مسعاه ، أما وهو غير موجود ، فهذا هو الدليل على أن موضوع الإفراج خارج

من الحساب كل الخروج . خاصة وأن فؤاد باشا سراج الدين نفسه كان خارج القاهرة فى ذلك اليوم كما ذكرت الجرائد ولا جدال فى أن سراج الدين باشا كان يهمه أن يكون حاضرًا ساعة الإفراج عنى ولذلك فقد استقر فى يقينى أن هذه المقابلة لا صلة بينها وبين الإفراج ، ولما كنت منتويًا أن اصطدم بالنحاس باشا إذا تلكأ فى الإفراج عنى فقد رحت أصعد درجات السلم المؤدى إلى حجرات مجلس الوزراء وكأننى أصعد درجات سلم المشنقة ولقد أسررت بهذا الخاطر إلى أمين بك جعيصه فقلت له : أشعر بقدمى ثقيلتين وكأننى أصعد درجات المشنقة .. فهال الرجل هذا التشاؤم ونعى علىَّ أن أكون فى هذه الحالة ، فقلت له إن ما يؤثر على نفسى أشد التأثير هو أننى لست أعرف كيف أتصرف إذا لم يفرج النحاس باشا عنى لأن بين جوانحى ثورة جامحة لا أعرف على أى صورة ستنطلق .

وأخيرًا صعدنا ، ودخلنا إلى حجرة التشريفات ، ولم يكن يبدو فى الجو أن هناك رائحة إفراج فقد كانوا لا يعلمون شيئًا عن هذه المقابلة ونظروا إلىَّ باندهاش فى بادئ الأمر ... على أن انتظارنا لم يطل بعد ذلك فقد دعيت لمقابلة النحاس باشا فسرت إلى حجرته فى خطوات متثاقلة وقد قررت بينى وبين نفسى أن أضبط أعصابى فى بادئ الأمر وأن لا أنبس ببنت شفة ريثما يفرغ النحاس باشا من قول ما عنده ثم أنفجر فأقول ما عندى .

ودخلت إلى حجرة النحاس باشا فاستقبلنى واقفًا ، فصافحته ويظهر أن الثورة المكبوتة فى نفسى قد تجلت فى كيفية مصافحتى فقد هتف النحاس باشا «حيلك حيلك حتخلع دراعى» ثم راح يعابثنى بقوله «تقعد حضرتك فى المعتقل تأكل وتشرب وتسمن وتيجى هنا تشطر على دراعى» ولم أكن مستعدا لقبول أى دعابة ولذلك فقد زدت فى تقطيب وجهى وفى الضغط على أعصابى .

ولم ينطلق النحاس باشا فى الحديث كما كنت متوقعًا بل أسرع إلى سؤالى «إزاى حالك» فقلت له «أنا زعلان» فقال لى : ولماذا . فقلت له لأنك وعدتنى منذ أكثر من عام أنك ستعمل على الإفراج عنى بعد بضعة أيام وهاقد انقضى أكثر من عام وهذا الوعد لم يحقق .

فأجابنى هذا صحيح وأنا مازلت أذكر وعدى ما فتئت أسعى للإفراج عنك. ومعنى هذه العبارة أن الرجل لايزال يسعى للإفراج عنى واذن فقد صح ما توقعته وأنه قد استدعانى لكى يهدئ من نفسى ويحملنى على الصبر من جديد.. ولم يكد يمر هذا الخاطر فى نفسى

حتى تحفزت للانطلاق والانفجار ولكن النحاس باشا استأنف الكلام بقوله «وإننى أريد أن أفرج عنك ولكن يجب أن تفهم أننى إذا أفرجت عنك فسوف أتحمل مسئولية ثقيلة قبل الإنجليز فأخشى ما أخشاه أن تخرج من الاعتقال فتحدث من القلاقل ما يحرجنى مع الإنجليز .. فإذا عملت على الإفراج عنك فما هى الوسيلة التى أضمن بها أنك لن تحدث لى ارتباكات وما هو الشرط الذى يمكن أن أشترطه عليك . قلت له والله يا باشا أنا لا أستطيع أن أقبل إفراجًا بأى قيد أو شرط فإذا كنت لا تفكر فى الإفراج عنى إلا بشروط فإنى أرجوك أن تعود بى إلى المعتقل والمسألة ينبغى أن تكون كما يأتى .. إذا كنت تعتقد أننى رجل يقدر المسئولية ويقدر الجميل ويعرف كيف يرد على التحية بأحسن منها وكيف يرد على الحركة الجميلة بأجمل منها فافرج عنى الآن فورًا ولن تأسف على هذا أو تندم ، أما إذا كنت تعتقد أننى رجل لا يقدر المسئولية ولا يقدر الجميل فخير لك أن ترجع بى إلى المعتقل فإنك ستأسف على الإفراج عنى مهما أخذت علىّ من شروط .

فأجابنى النحاس باشا إنك لا تعرف الموقف فى الخارج ولا تعرف الوضع السياسى ، ولذلك فإننى يجب أن أوضحه لك وأن أشرحه حتى تكون على بينة من أمرك وما أنت مقدم عليه ثم راح النحاس باشا يلخص لى الموقف السياسى وما حدث بينه وبين مكرم باشا مما أدى إلى إخراج الأخير من الوفد وحدثنى عن شعور الرأى العام وما يدور فى صفوفه من الإشاعات والاختلافات والتيارات ، وأنه يخشى علىَّ أن أنغمس فى هذه التيارات الموجهة ضد الإنجليز .

قلت له إننى أعرف من أمر السياسة كل ما ظهر منها وما بطن وإننى أعرف واجبى وأعرف كيف أحكم على الأشياء ولذلك فما زلت أقول لرفعتك إننى لا أقبل الإفراج عنى إلا بدون قيد أو شرط وإنك لا تأسف على ذلك إن فعلت .

فإذا بالنحاس باشا يقول لى : وهو كذلك فليكن لقد أفرجت عنك بدون قيد أو شرط وأنت الآن حر طليق ، وقد كانت هذه مفاجأة تامة لى ، فلم تكن روح الحديث تدل على أنه سيكون إفراج اليوم بل كانت الدلائل تدل على أن النحاس باشا يتفق معى على شروط الإفراج وأنه سيفرج عنى بعد يومين أو ثلاثة وقد كنت أترقب أن ينطلق النحاس باشا بهذا الإرجاء للإفراج لكى أظهر عدم رضائى وسخطى ولكن النحاس باشا فاجأنى بالإفراج عنى على الفور بدون قيد أو شرط ... وكانت المفاجأة من السرعة بحيث لم تحدث فى نفسى الأثر المطلوب فلم أشعر بفرح أو ابتهاج بل على العكس ازددت انقباضًا وضيقًا وشعرت بالغيظ والقهر أن يكون الإفراج عنى بعد هذه السنوات الثلاث

لا يتطلب سوى هذه الكلمة تخرج من النحاس باشا وقد كان بقدرته أن يقولها منذ أكثر من عام مضى فيوفر عليّ كثيرًا من الجهد والمشقة ، ولقد اندفعت الذكريات إلى رأسى فى هذه اللحظة فتلاطمت وأحسست بالجمود يتملك تفكيرى وأعصابى وحواسى ، ولذلك فقد ظللت ساكتًا لا أجد جوابًا . ودخل فى ذلك الوقت حسن بك سرور وكان سكرتيرًا لمجلس الوزراء فقال له النحاس باشا لقد أفرجت اليوم عن أحمد حسين فقال الرجل عال عال والله يا باشا هذا خبر طيب فالأستاذ أحمد حسين مجاهد وطنى صادق وإننى أشكرك باسمى واسمه وهنا تنبهت إلى أننى لم أقل شيئًا .. لقد أفرج عنى النحاس باشا وشعرت بأنه يجب عليّ أن أقول شيئًا أفسر به موقفى .. فقلت له إننى لن أشكر الباشا اليوم فمازالت حتى هذه اللحظة أسيرًا ولا قيمة لشكر الأسير ولكن بعد أن أخرج إلى الحرية وأنشق عبيرها بعد يومين أو ثلاثة عندما أسترد كامل حريتى فسأعود إلى النحاس باشا لكى أشكره شكر رجل لرجل أما اليوم فليس عندى ما أقوله .

واستدعى النحاس باشا أمين بك جعيصة وقال له : لقد أفرجت عن الأستاذ أحمد حسين وهو منذ الساعة حر طليق يستطيع أن يذهب إن شاء فلا تتعرض له وعليك أنت أن تنتظر ريثما يكتبون لك الخطاب الخاص بذلك لتحمله إلى إدارة الأمن العام .

وخرجت بعد أن صافحت رفعة النحاس باشا وكان كل من فى خارج الحجرة يتطلع إلى نتيجة هذه المقابلة ، فما راعهم إلا أن يروننى متجهمًا ولا أثر للفرح أو البشر على وجهى .. ولكن البعض سألنى « خير إن شاء الله » فلم أجد ما أجيب به وبادر جعيصة بك فأبلغهم الخبر فانفجروا يعاتبوننى على هذا التجهم وهذا الغضب الذى يلوح على وجهى واحتفى بعض الموظفين بهذا الخبر فطلبوا (إشرباتًا) فلم أستطع أن أتذوق منه شيئًا واستأذنتهم فى أن أتكلم بالتليفون فأذنوا لى فأسرعت إلى الاتصال بالمنزل وسمعت صوت زوجتى فى نهاية الخط فقلت لها فى عبارة مختصرة جافة لقد أفرج النحاس باشا عنى وسأحضر لكم . وكانت مفاجأة شديدة الوقع عليها ولم يطل بيننا الحديث أكثر من ذلك وعدت من جديد إلى صمتى وانتظارى ريثما يكتبون الخطاب الخاص بإدارة الأمن العام ، وبعد فترة قصيرة خُيِّل إليَّ يومها أنها دهر طويل ! .. كتب الخطاب ووقعه النحاس باشا واستلمه أمين بك جعيصه وخرجنا من مجلس الوزراء فقلت له لا أظنك فى حاجة إليَّ بعد الآن وأستطيع أن أنصرف ، أليس كذلك ؟ فأجابنى . طبعًا طبعًا . وهنأنى الرجل فى حرارة وصدق وإخلاص ـ فقد كانت عشرة طويلة تلك التى عشناها سويا فى هذا الاعتقال وعرض عليَّ أن يحضر لى سيارة فقلت له بل سأسير على قدمى .

وسرت على قدمى من لاظوغلى إلى منزلنا فى شارع القصر العينى وكان الوقت ظهرًا وكانت الشمس ساطعة ومحرقة ولم يكن هناك من يسير فى الشارع فى ذلك الوقت إلا النزر القليل ... ولم يكن فى نفسى أى شعور أو إحساس لقد كان المعتقل أحمد حسين هو الذى يسير لم أكن أتطلع إلى المستقبل لقد كنت أسير وكان العرق يتصبب من جبينى تحت تأثير هذا الحر وهذه الشمس . وكنت أتمنى لو يطول الطريق بين مجلس الوزراء وبين البيت وأن يطول كثيرًا لأستطيع أن أخرج من هذه الحالة اللاشعورية ، ولكنى فى النهاية وجدت نفسى أمام منزلنا ٤٦ شارع القصر العينى ، ولقد جئت إليه كثيرًا كمعتقل يصاحبنى ضباط البوليس أمَّا اليوم فقد جئته وحيدًا منفردًا . وضغطت على زر الجرس وفتح الباب وكانت زوجتى هى التى فتحته فلم أزد عن ابتسامة رددت بها على ابتسامتها ، وقد كان ذلك هو كل شىء . وكان فى البيت ضيوف مكثوا طوال اليوم فكان ضجيج وكان انهماك فى إكرام الضيوف .

وخرجنا بعد الظهر مع الأستاذ حلمى مراد الذى شاءت الصدفة الحسنة أن يكون فى القاهرة فى ذلك الوقت وطفنا على بعض الأصدقاء وسهرنا ليلتنا فى جريدة الأهرام وعدت فى منتصف الليل وقد بدأت أشعر بأننى أصبحت حرًّا حقًّا وصدقًا . وأنه قد أفرج عنى بالفعل وبدأ السرور والإنشراح ينفذان إلى نفسى .

* * *

وإذا كان لكل شىء نهاية ، فقد وصلت الآن هذه المذكرات إلى نهايتها بالإفراج عنى وعودتى إلى الحرية على أن هذه النهاية ليست فى حقيقتها إلا بداية صفحة جديدة لجهاد مصر الفتاة وكفاحها .

فقد خرجت من المعتقل لأجد مصر الفتاة وروحها لا تزال فى الاعتقال ، فمصر الفتاة قد ولدت حرة طليقة تكتب ما تشاء ولكنها فى ذلك الوقت لم تكن تستطيع أن تكتب أو أن تتكلم أو أن تتحرك كما تشاء فظل القيد على أقلامنا وعلى أفواهنا وعلى أرواحنا ولقد كانت ثلاث سنوات ونيف من الاعتقال والصمت الطويل وحوادث الحرب الجارية قد أسدلت ستارًا من النسيان على مصر الفتاة . لم تكن لنا جريدة تصدر ، لم يكن لنا نشاط يبذل ، لم تكن لنا دار يجتمع فيها الأعضاء لم تكن هناك رابطة على أى صورة من الصور تربط الأعضاء .

لم يكن يسمح للصحف طوال سنوات الحرب أن تذكر اسم مصر الفتاة أو أحمد حسين إذن فلا عجب بعد ذلك كله إذا كنت قد خرجت لأرى مصر الفتاة وكأنها ذكرى من الذكريات أو حلم من الأحلام . وكان عليّ أن أبدأ السلم من جديد إذا أردت أن أواصل كفاحى وجهادى فى سبيل تحقيق أغراضى ومثلى الأعلى الذى أهدف إليه .

لقد كنا نطمع أن تنهار انجلترا فى هذه الحرب لكى نتحرر من سلطانها وسيادتها ولكن الحرب كانت تندفع نحو نهايتها .

والدلائل كلها تدل على أن انجلترا ستخرج منها منتصرة فائزة وأننا سنعيش من جديد فى عالم تسيطر عليه الإمبراطورية البريطانية ، لقد كنا نؤمل فى عالم جديد لا يسود فيه اليهود ولا يكونون أصحاب الكلمة العليا فى شئونه ، فدلت الدلائل على أن العالم سيظل رهنًا بمشيئة اليهود . ! !

لقد كنا نؤمل أن تكون هذه الحروب هى الفرصة الذهبية لكى تنال البلاد العربية بل والإسلامية فى مشارق الدنيا ومغاربها حريتها واستقلالها ، ولكنى خرجت من المعتقل لأرى أن العالم العربى والإسلامى لم يكن فى أى يوم من أيام تاريخه أسوأ من حالته فى ذلك الوقت ، فإيران التى كانت حرة مستقلة قد اجتاحتها الجيوش الأجنبية ، وسوريا ولبنان قد أصبحتا منطقة نفوذ إنجليزية ، فوق كونها منطقة نفوذ فرنسية .

وكان كل شىء يدل على أن منطق القوة كما كان وسيبقى إلى الأبد هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى حرية الشعوب واستقلالها .

خرجت من الاعتقال لأرى روح المادة وقد تسلطت على كل مصرى وقد أصبح الثراء الفاحش هو قبلة كل مصرى بقطع النظر عن الوسيلة التى تنتهج للوصول إلى ذلك ، حتى المجاهدين الذين كافحوا معى طوال عشر سنوات أصبحوا يتطلعون إلى هذا الثراء الفاحش ، ويسعون إليه بقفزة واحدة .

وخرجت من الاعتقال ، لأرى أشخاصًا كانت كل شهرتهم أنهم حملة لواء المجون قد أصبحوا من أعلام الوطنية وقادة الشباب ، ووجدت جمعيات وحركات لم يكن يحس بها إنسان فى هذه البلاد ، إلا فى أضيق نطاق قد نمت وترعرعت وكبرت وتضخمت وامتدت فروعها فى سائر أنحاء البلاد واجتمعت لها الأموال الوفيرة بعد أن كثر المال فى أيدى الناس فى خلال الحرب .

وخرجت من الاعتقال لأرى كل من كان يومًا من الأيام عضوًا فى مصر الفتاة ، قد انطلق مع الحياة التى ألفها المصريون فى مدة الحرب ، فهذا قد أصبح موظفًا وهذا قد أصبح ضابطًا ، وهذا قد أصبح تاجرًا وهذا قد انزوى فى ناحية من نواحى الحياة ، ولم أجد حولى إلا هؤلاء الذين قدر لهم أن يعتقلوا معى فى خلال الحرب وبعض نفر أوفياء لم يتركوا الجهاد طوال أيام الحرب ، ولاقوا فى سبيل ذلك من العنت والاضطهاد أشكالاً وألوانًا ، وخرجت من الاعتقال لأجد بعض من اشتهروا فى مصر الفتاة ولمعت أسماؤهم فى سماء مصر الفتاة قد تحولوا وأصبحوا حربا عليها بطريق مباشر وغير مباشر.

ولقد كان لى شخص فى هذه الدنيا اعتز به وبصداقته وحبه وأخوته .. كان لى شخص فى هذه الدنيا يمثل المثل الأعلى فى الوطنية والأخلاق والتدين والإيمان والجهاد والتضحية وإنكار الذات وأعنى به الدكتور مصطفى الوكيل فإذا بالله يختاره إلى جواره جاعلاً منه شهيد الشهداء ، وبطل المجاهدين الأبرار ، تاركًا إياى فى هذه الدنيا القاسية .

وفى كلمة وجدت كل شىء مسدودًا فى وجهى ووجدت القيود والأغلال تكبلنى ، ومع ذلك فقد كان يجب علىَّ أن أمضى .. وما بقى لى فى الحياة أنفاس تتردد ، فيجب على أن أمضى ولا حيلة لى فى ذلك أو اختيار. كما أنه لا فضل لى كذلك فقد كرست حياتى لهذا اللون من الجهاد ضد المستعمر الأجنبى ، وضد الظلم والطغيان والفساد .. ولم يبق أمامى إلا أن أنطلق .. وأنطلق دومًا صوب الأمام .

وإنى إذا أكتب هذه السطور الآن بعد انقضاء عدة أعوام على خروجى من الاعتقال أشعر أننى قد استعدت كل حيويتى ونشاطى ...

وأشعر بمصر الفتاة فى رسالتها الاشتراكية الجديدة ، وقد امتلأت من جديد للحياة والعزم والتصميم على أن تواصل كفاحها وجهادها فى سبيل تحقيق هذه الغاية التى عملت منذ اليوم الأول على تحقيقها وهو أن تصبح هذه البلاد فوق الجميع دولة شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام وتنشر فى الدنيا كلها وتشرق على العالمين بنور الإيمان رسالة السلام والمحبة والإخاء .

الزواج والمرأة

الإهــداء

إلى زوجتى العزيزة وشريكتى فى الجهاد .
إلى شهيد مصر وقديس الوطنية ،
إلى من تمنيت لو بقى لمصر وذهبت ،
إلى الدكتور مصطفى الوكيل ،
أهدى باكورة رسائلى ،
لإنهاض الشرق العربى وتحريره .

تعريف

هذه رسالة من عشر رسائل كتبتها إبان اعتقالى فى خلال هذه الحرب (من ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى ٤ يونيو سنة ١٩٤٤). وهذه الرسائل العشر فى الحرب والحرية والمال والعلم والصبر والصدق والقوة والإيمان والوطنية. وقد بدأت بهذه الرسائل صغيرة متواضعة، تهدف إلى تعليم ابنى الصغير الذى حرمنى الاعتقال من فرصة ملازمته إبان طفولته، ولم أكن أعرف يوم أن اعتقلت ما الذى تخبئه لى الأقدار، وهل يتاح لى أن أعيش حتى نهاية الحرب وأن أعود إلى الحرية والحياه من جديد، أم أنه سيقدّر لى الموت بأسلوب أو بآخر فى هذه الحرب الرهيبة، التى وقفت فيها موقف المحارب عن حرية بلادى واستقلالها، ولم أكتم فيها عواطفى وحقيقة أغراضى وغاياتى. كل ذلك دفعنى لكى أشرع فى كتابة سلسلة من الرسائل إلى ابنى الصغير، أضمنها آرائى وأفكارى فيما يجب أن تكون عليه أخلاقه فى مقتبل أيامه، وماينبغى أن تكون عليه أغراضه وأهدافه فى هذه الحياة... ولم تلبث هذه الرسائل أن تضخمت وتطورت فيما بعد فتحوّلت من رسائل تهذيبية إرشادية بحتة، إلى مناقشة مستفيضة لشتى مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، وأصبحت كل رسالة من هذه الرسائل العشر تؤلف سفرا مستقلا يعالج موضوعه علاجا كاملا. وفى هذه الرسالة التى أقدّمها اليوم للعالم العربى علاجاً لمشكلة الزواج والمرأة وحقوق كل منهما قبل الآخر ومكانة المرأة فى المجتمع ومالها من حقوق وماعليها من واجبات، ولقد اخترت هذه الرسالة لتكون أولى ماأطبعه من رسالاتى العشر إيماناً منى بأن موضوع الزواج والمرأة وكل مايتصل بها هو مشكلة الساعة الاجتماعية فى مصر بل والشرق العربى بأكمله.

فى العالم الشرقى الإسلامى بصفة خاصة نزوع نحو التحرّر والانطلاق فى مجالى الرقى والرفعة، وعندى أنه لاسبيل لتحقيق ذلك كله مالم تنهض المرأة وتأخذ بنصيبها الكامل فى هذا الجهاد وتتبوأ مكانتها اللائقة فى المجتمع كعضو عامل يتمتع بكل الحقوق التى يتمتع بها أى عضو آخر مدنية كانت أو سياسية. وكثيراً مايظن البعض أن فى نصوص الدين الإسلامى مايحول بين المرأة وبين النهوض الكامل والتحرّر، ولذلك فقد عنيت عناية خاصة بدراسة هذه القضية من الناحية الشرعية دراسة مستفيضة كما سيرى المطالع

لهذه الرسالة ، وسيثبت لدى كل منصف بعد مطالعتها أن الإسلام وهو الذى كان أعظم محرّر للمرأة فى كل عصور التاريخ لايمكن بحال من الأحوال أن يقف خجر عثرة فى سبيل نهضتها ورقيها وتمتعها بالأهلية الكاملة كالرجل سواء بسواء فى سائر شئون الحياة ، وليس يعنى ذلك بحال أننى ممن يحاولون إخراج المرأة عن طبيعتها ووظيفتها الأولى كزوجة وأم ، بل إن هذه الرسالة بأكملها هى أكبر مرافعة عن الزواج كما سيرى المطلع عليها ، وتدور كلها حول إقامة صرح المجتمع على أساس الأسرة القوية المتعاونة .

وإذا كنت أصرح فى هذه الرسالة أنه لايوجد نقل أو عقل يحول بين المرأة وبين حق الانتخاب مثلاً أو الاشتغال بأى عمل من الأعمال فليس معنى ذلك أننى ممن يرضون عن هذا الانحلال الخلقى الذى يسود مجتمعنا المصرى الحاضر ، أو أننى لست من أكبر أعداء الاستهتار والتبذل الذى يشاهد فى بعض الأوساط المصرية فى الوقت الحاضر ، ولعل تاريخ جهادى فى مقاومة المنكرات والموبقات ودخولى السجن أكثر من مرة لهذا السبب هو أكبر شاهد على تقديرى للفضيلة وإيمانى بها .

فإذا كان ماحوته هذه الرسالة فى بعض أجزائها من آراء سيكون محل نقد من البعض الذين يرون خلاف ماأرى ، فإن شفيعى فيها أننى رجل كرس حياته للجهاد فى سبيل الحق فى جميع صوره وأشكاله وللعمل بكل الطرق والوسائل المؤدّية إلى رفعة مصر والعرب والمسلمين ولقد اقتنعت (بعد أن فكرت وطالعت ودرست وجربت) بهذه الآراء التى أبادر بإعلانها فى هذه الرسالة إيمانًا منى أن فى ذلك إحقاقًا للحق ونصرة للفضيلة وسبيلاً لإنهاض بلادى .

« إنْ أريد إلا الإصلاح ماستطعت وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

القاهرة فى : ٢٠ من محرم سنة ١٣٦٥ هـ
٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ م

أحمد حسين

الفصــل الأول

الــزواج

يابنى

أما وقد دعوتك يابنىّ لتكون قويًّا محاربًا غنيًّا عالمًا ، فقد دعوتك بذلك إلى المثل الأعلى الذى ينبغى للإنسانية أفرادا وجماعات أن تسعى لإدراكه والحصول عليه ، غير أن سُنة الحياة قد قضت بأن يكون عمر الإنسان الفرد قصيرًا لايتيح له تحقيق كل آماله ؛ فعمره لايتسع إلا ليضع البذرة دون أن يجنى الثمرة ، أو أن يضع الأساس ويرتفع بالبناء دون أن يشهد كماله . وكلّما كانت مرامى الإنسان عظيمة مات قبل أن يحقق منها إلا أقل من القليل ، فما أطول الطريق نحو المثل الأعلى ، وماأكثر الدرجات التى تفصلنا عن أهدافنا النهائية ؛ بل إن الإنسان مجبول على أن يبدأ شوطًا جديدًا كلما انتهى من شوط ، وكلما ظنّ نفسه قد أوفى على الغاية إذا به يرسم لنفسه غايات أبعد شأوًا وأصعب منالا وأكثر خطرًا . ويظل ذلك شأن الإنسان حتى آخر نسمة من حياته ، فإذا كان الذى قام به لايعدو أن يكون نقطة البدء لما كان يرومه ويفكر فيه ، مهما بدا ماأنتجه وأحدثه عظيما ورائعا ومترامى الأطراف فى نظر الآخرين ، بذلك قضت مشيئة الخالق الذى جعل الموت من نصيب البشر ليكون ذلك آية بشريّتهم وربوبيته ، وآية فنائهم وخلوده ، وآية حدوثهم وقدمه .

ولقد كان منجل الموت المصلت على رقاب العباد جديراً بأن يخمد فى الإنسان جذوة العمل والاجتهاد والتطلع للرقى والارتقاء ، وهو يرى خاتمة المطاف حفرة من الأرض ضيقة مظلمة ؛ لافرق فى ذلك بين غنى وفقير أو جليل وحقير ، ولافرق فى ذلك بين الملك والامبراطور وبين العبد والصعلوك ، وبين البطل الضرغام الذى دوّخ العالمين شرقا وغربا وأقام الدنيا وأقعدها والإنسان الذى ولد وعاش يأكل ويدب على الأرض كما تدب أحقر الحشرات ثم مات فى زوايا الإهمال والنسيان ، ولافرق بين أعدل العادلين الذين ملأوا الدنيا خيرًا وعدلاً وأمنًا وطمأنينة وأشرس الطغاة الذين غمروا البشر بفيض من الويلات والآلام والفتن ، وأخيراً جدا لافرق بين الأنبياء والرسل الذين أشرقوا على البشر

بنور إيمانهم وقادوهم بقوّة أرواحهم ومنحوهم الأمل والرجاء والحب وأفسق الكفار والملاحدة وطغمة المفسدين الأشرار الذين ينفثون الشك والالتباس والاستهتار ، فإنما هو كأس واحدة لابدّ لكل من أقلته الأرض وأظلته السماء أن يجرعها يوما ما ، وأن يصير إلى التراب نهبة لهوام الأرض ودوابها وجراثيم الفناء والعدم . لابدّ لهذه الأصوات المدوية أن تصاب بالخرس ، ولهذه العيون المشرقة أن ينطفئ نورها ، ولهذه الوجوه النضرة أن يغيض ماؤها ، ولهذه الأجساد الغضنه أن ينهار كيانها . لابدّ لهذه الحركة من السكون ، وهذه اليقظة من الهجوع ، وفى كلمة : لابدّ للكائن الحىّ من الموت والفناء . فعلام يسعى الإنسان ويكد ، وفيم يسهر ويجوع ، ويصبر ويحتمل الآلام والشقاء ! لماذا يقتصد فى شهواته ولايسرف فى ملذاته ، ولماذا يسيطر على غرائزه ولايندفع مع نزواته ؟ لأى علة يكون الإنسان فاضلاً ويكون تقيًّا ، ويكون الإنسان كريمًا محسنًا خيّرًا ورعًا ! لماذا ... ؟ ! لماذا كل هذه القوانين والأنظمة ، وهذه العلوم والفلسفة ، وهذه الحضارة والمدنيات مادام كل حىّ إلى ممات ، وكل جمع إلى شتات ، وكل جهد يبذل فى مقاومة الفناء لانتيجة له سوى الفشل والخيبة .

ذلك هو الأثر المنطقى الذى كانت حقيقة الموت جديرة بأن تحدثه فى نفس الإنسان لولا أن المبدع الذى أبدع هذا الكون ونظمه ، وهذا الخالق الذى خلق الإنسان وسلّطه على الكون ، قد خلق إلى جوار الموت من السنن مايفل من حدّته ويخفف من قسوته ، ومايقلل من بطشه ، ويحدّ من سطوته بأن جعل الموت لاينال من الإنسان إلا العرض دون الجوهر ، ولايفنى منه إلا القشر دون اللباب . فسلطان الموت يقف عند حدّ الجسد دون الروح ، ولايهدّد سوى الفرد دون النوع والمجموع ؛ فجسد الإنسان يفنى ويزول ، ولكن روحه تبقى أبدا ؛ لأنها قبس من روح الكون وحقيقة الوجود فلا يتطرّق إليها الفناء مهما امتدّت بها الأعصر والدهور ، وذلك أعظم هادم لسلطان الموت فى نفس الإنسان ، وأكبر حافز له إلى النشاط والعمل ؛ فما من إنسان إلا وهو يؤمن بخلود روحه ، وبأن له بعد هذا الموت الظاهرى حياة أسعد لو أنه أحسن العمل وأجاد فى هذه الحياة الأولى .

هذا الإيمان الذى سأحدّثك عنه بالتفصيل فى رسالتى المقبلة يابنىّ ، هو الإكسير والترياق الذى يتغلب به الإنسان على شرة الموت ومايسكبه من سموم فى النفس .

على أن هذا الترياق ليس إلا مسألة وجدانية معنوية فى نهاية الأمر ، ماكانت وحدها لتكفى لمقاومة آثار الموت المدمرة ، لو لم يكن إلى جوارها عنصر مادى محس يؤكد معناها ويعزز حقيقتها . وهى أن الموت إذا كان يهدد فردا بعينه فهو لايهدد البشر أجمعين ، وأن

زيدًا وعمرًا وخالدًا وبكرًا قد يموتون ولكن بعد أن يخلفوا وراءهم زيودًا وبكورًا كثيرين ، وأن أى جيل من البشر لايموت قبل أن يخلف جيلاً أكثر نفرًا وأوسع حيلة وأوفر علمًا وأعظم قدرة . فإذا كان الموت قد عدا على آدم وحوّاء فأصار أجسادهما إلى الفناء ؛ فإن الحياة كانت أرجح كفة وأعظم قدرة . وليست هذه الألوف المؤلفة من ألوف البشر إلا نسل هذين الزوجين الأوّلين : آدم وحوّاء الأب الأول والأم الأولى ، ومامن رجل تقع عليه عيناك إلا وهو صورة مكررة لهذا الرجل الأول ، وما من امرأة إلا وهى حوّاء مكررة ؛ حتى قصة الإغراء والتحريض على اقتطاف الثمرة المحرمة هى التى لاتفتأ كل أنثى تمثلها مع الرجل وتدعوه إليها وتحضه على اقترافها . وهكذا مات الإنسان الأوّل ولكن روحه انتقلت إلى ملايين ، والواحد الفرد تحوّل إلى عديد وكثير .

« يأيها الناس اتقوا ربّكم الذى خلقكم من نَفْسٍ واحدة وخلَق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام(١) » .

فكأن سلطان الحياة أقوى من سلطان الموت ، وكأنّ منجل الموت إذا حصد مئين من الأفراد فإن روح الوجود يخلق بدلاً عنهم مئات وألوفا ؛ ليتناسلوا بدورهم وينموا ويتكاثروا ، وليدعموا شجرة الحياة ويطاولوا فى فروعها ، ويمعنوا فى مدّ جذورها وينفخوا فى أريجها ويطيبوا جناها وفاكهتها .

وبهاتين الحقيقتين : خلود الروح وبقاء النوع ، تزوّد الإنسان بالترياق الشافى المعافى لسم الموت ومخدراته ، ومايشيعه فى النفس من يأس وضعف وكسل ؛ فأقبل الإنسان على العمل والبناء والإنشاء وعمر وأصلح وأحسن ، فإذا كان جسده سيفنى فإن روحه باقية لتتمتع بثمار ماعمل ، بل إن بقدرته على الأغلب أن يخلف على هذه الأرض بضعة من جسده وقبسًا من روحه ؛ لتنعم بطيبات ماعمل ، ولتجنى ثمرة ماغرس ، ولتكمل مابدأ ، ولتبقيه متصلاً أبدًا بهذه الحياة ، بينما تسبح روحه فى الحياة الآخرة(٢) . وماعلى الإنسان ليدرك هذا الأمل المنشود ؛ أمل البقاء والاستمرار فى الحياة بالرغم من الموت والفناء ، إلا أن يطيع غريزته وأن يخضع لما ركّب فى طبعه ، وأن يندفع إلى حيث تريده الطبيعة أن يندفع نحو هذا المخلوق اللطيف الجميل الرقيق ، الذى قد أعد وجهز بحيث يتحد به ويأتلف معه ويتمازج وإياه ، ويختلط فى أعظم نشوة وسعادة يمكن أن يذوقها أو يحسها البشر . وليس ذلك المخلوق سوى المرأة أو أنثى الذكر .

(١) أوّل سورة النساء .

(٢) مصداق هذا الحديث الشريف : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

ولعل هذه الغريزة التى تدفع الرجل نحو المرأة ، وتدفع المرأة نحو الرجل هى أسمى وأرفع ما ركّب فى طبع الإنسان من غرائز ؛ فبقية الغرائز الأخرى إنما ترمى إلى المحافظة على الجسد والإبقاء عليه من العطب . أما الغريزة الجنسية فغايتها المحافظة على الروح الإنسانى والتطور بها لتخليد النوع والارتقاء به ، ، ولذلك فهى وحدها التى تحفز الإنسان إلى الاستزادة من السعى والعمل ، بالرغم من إشباع حاجاته الضرورية من المأكل والمشرب والملبس . وهى التى تحفزه إلى التجمل والتزين والنظافة والبطولة ليستحق إعجاب المرأة . فهذه الغريزة هى التى رفعت عقيرته بالغناء وألهمته الشعر وعلمته التصوير ، وهى التى خلقت الفنون خلقًا وأبدعت الموسيقى والأدب ، وهى التى رققت الحواشي وفجرت الحنان والبر والشفقة والوفاء والإيثار والتضحية ، وأنتجت الفضيلة فى ذروتها العليا وأعنى بها الحب ، وهى التى ملأت الدنيا منافسة ومزاحمة ومصارعة فكان التطوّر والارتقاء . هى كل شىء وروح كل شىء ؛ لأنها بذرة الوجود ولب الحياة .

بهذه الروح يجب أن ينظر للغريزة الجنسية فتكرم وتحترم ، بل وتمجد وتقدّس باعتبارها سرًّا من أروع أسرار الخالق التى بثها فى هذا الكون ؛ لتكون سبيل الحياة نحو النمو والازدهار والتطور والارتقاء ، ولذلك فماأصدق وأحق ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه قال : «حبب إلىّ من دنياكم ، النساء والطيب وجعلت قرّة عينى فى الصلاة» . فإذا علمت أن الصلاة ليست سوى الشكر لرب العالمين ؛ لماأنعم به على الإنسان من نعم أدركت أن النساء أو بالأحرى مايلقاه الإنسان من سعادة فى الاتحاد بهنّ هو أعظم مافى هذه الحياة من نعم وأسرار ، جديرة بالحب والتمجيد والشكر لرب العالمين .

ضلال الداعين إلى محاربة الغريزة الجنسية

لست أحسب أن هناك ماهو أدعى لغضب الخالق ونقمته من أن يحاول محاول أن يغض من شأن هذه الغريزة وأن يمتهنها ، مصوّرًا إياها بأنها مظهر من مظاهر الحيوانية التى ينبغى التسامى عنها والترفع عن السقوط فى حمأتها ، وأن يعتبر الاتصال الطبيعى بالمرأة لونًا من ألوان الدنس والتلوّث ، التى يجب أن يتنزه عنها الرجل الطاهر الورع العف ، الذى يريد أن يقترب من الخالق المبدع وأن يرضيه ويتبرر عنده ؛ كما نادى بذلك فريق من الهنود ونفر من المسيحيين ؛ فابتدعوا نظام الرهبانية الذى يقضى عليهم بإخماد غريزتهم الجنسية ومقاطعة المرأة واعتزالها ، واعتبار مايشعرون به نحوها من انعطاف داخلاً فى غواية الشيطان وأحبولته التى يتصيدهم بها ؛ ليصرفهم عن عبادة الديان إلى التردّى فى حمأة

الرذائل والشهوات . وأنشأوا لذلك الأديار فى الصحارى وعلى قمم الجبال بعيداً عن العمران ، وحبسوا أنفسهم على مازعموه عبادة بالليل والنهار ؛ وليس وراء ذلك جهل وخبط والتواء فى الطبع وفساد فى الأرض عظيم . وقد أثبتت التجربة ذلك بما لايحتاج لكبير شرح أو إسهاب فى تفنيده أو الردّ عليه ؛ فتاريخ هذه الأديار التى أنشئت لتضم بين جوانحها الملائكة الأطهار من الشهرة بحيث تكفى مجرد الإشارة إليه ؛ فهو يحوى من الفضائح ويسجل من المخازى والآثام ماأوشك أن يزلزل العقيدة المسيحية لولا أن تداركها الإصلاح البروتستانتى الذى كان فى مقدّمة مانادى به تخويل رجال الدين حق الزواج فأعاد إليهم الكرامة والاحترام ؛ بعد أن كان رجال الكنيسة قد فقدوا ثقة الناس أجمعين ، ابتداء من البابا رأس الكنيسة ، الذى كان يعتبر معصوماً فاكتشفت الشعوب أنه غارق فى الآثام حتى الأذقان ؛ كما يثبت تاريخ آل بورجيا .

والحق أنه ليس أضر على الإنسان من أن يتصدى لمحاربة غرائزه محاولاً كبتها والقضاء عليها ؛ لأنه بذلك يعترض مشيئة الخالق الذى جهزه بهذه الغرائز لتؤدّى رسالتها وتقوم بوظيفتها ، وكل محاولة من هذا القبيل مقضى عليها بالفشل والخذلان المبين ؛ ولذلك ترى هذا الشخص المتمرد على الناموس الإلهى لايلبث بعد أن يحطم أعصابه ويفسد طبعه أن يرتد مخذولاً مدحوراً ومتراجعاً فى غير انتظام ، بحيث ينقلب تراجعه إلى تدهور شائن ؛ فيتردّى فيما لايقع فيه الرجل العادى من الآثام ، وربما كانت رواية تاييس الخالدة من أروع الصور لهذه المحاولة الفاشلة لمقاومة الغريزة والتمرد على الطبيعة البشرية ونواميسها ، وكيف انتهت بالقديس إلى كافر ملحد استحق غضب الله ولعنته . على أن هناك حقيقة واحدة تكفى لهدم كل تفكير فى هذا الموضوع موضوع كبح الغرائز الجنسية ومقاومتها باعتباره فضيلة من الفضائل . فالأصل فى الفضيلة أن تكون المثل الأعلى الذى يندب إليه الناس أجمعون ، وأن تكون الجماعة البشرية أكثر سعادة وهناء ورقيًا وكمالاً عند تطبيقها الإجماعى ؛ فماذا يكون حظ البشر لو أنهم اعتنقوا هذا المبدأ مبدأ القضاء على الغريزة الجنسية ، وقاطع الرجال النساء والنساء الرجال ، وعاش كل من الجنسين على انفراد فى أحشاء الصحارى وفوق قمم الجبال ؟ . أو لاتكون النتيجة الحتمية لهذا الانفصال هى انقراض الجنس البشرى فى أقل من قرن من الزمان ؛ فهل ذلك هو ماتقرّ له عين الخالق ومايحقق مشيئته فى الخليقة[1] ؟ لو أن الأمر كذلك ، ففيم خلق الخالق

---

(١) الحق أن دعاة الرهبانية وعلى رأسهم سانت بول أو بولس الرسول كانوا يرمون فعلاً إلى هذه الخاتمة بل ويبشرون بها ويتوقعون من ساعة لأخرى خاتمة الحياة الدنيا وفناءها . ولكن عشرين قرنًا قد انقضت منذ تصور بولس الرسول =

الحياة إذن ، وجعل ناموسها الأعظم هو النمو والتكاثر ؟ لماذا خلق الذكر والأنثى ، ولماذا جهزهما بهذه الغرائز التى لاتقهر ولاتنفك تضغط عليهما إلى التقارب والتمازج والاتحاد ؟ لماذا جعل كل ذرة من ذرات الرجل الكامل تنجذب فى غير وعى إلى كل ذرة من ذرات المرأة ؛ كما تنجذب جزئيات الموجب نحو جزئيات السالب بعامل القهر المركب فى طبيعتها ؟

يقولون لنا : لقد أودع الخالق الإنسان هذه الشهوة لتكون وسيلة لتجربته واختباره ؛ ليتبين الخالق إلى أى حد ينصاع الإنسان إلى الخضوع لشهواته التى هى من صنع الشيطان ، وإلى حدّ يتغلب عليها ويقهرها ابتغاء مرضاة الله . وإنها لفكرة سقيمة وعليلة ، بل فكرة تنطوى على جهل فاضح بأخص صفات الخالق الرحيم ، وإساءة ظن بكرمه وعدله وحنانه وبره بما خلق ؛ فأى عدل وأى كرم وأى رحمة فى أن يخلق الرب مخلوقًا ضعيفًا بما يركبه فى طبعه من شهوة ، ثم يسلط عليه مفاتن الحياة ومغرياتها ومباهجها ، ثم يقول له : إياك ثم إياك من أن تزلّ أو تسقط ! إياك من أن تنظر بعينيك إلى هذا الجمال الذى خلقته لتراه ، أو أن تسمع بأذنيك هذا الصوت العذب الذى أبدعته ، أو أن تلمس هذا الجسد الذى فطرته لتستمتع به ، لك الويل كل الويل والعذاب والسعير إن خضعت أيها المخلوق الضعيف لماركّبته فى طبعك من نواميس وغرائز . فهل وراء ذلك سوء ظن بالخالق وتشويه لعظمته وجلاله أن يصوروه ولامسرة له إلا فى تعذيب مخلوقاته والقسوة عليها والبطش بها ؟

حاشا وكلا أن تكون هذه غاية الرحمن الرحيم ، وتنزه عن أن يوصف بهذا الظلم والاجحاف بالبشر المساكين . وإنما كان خلق الإنسان نعمة من النعم ومكرمة من مكارم الرب ، خلق الله الإنسان وخلق الكون معه وسلطه على هذا الكون ؛ لينعم ويستمتع ويشبع ويرتوى ويفرح ويمرح ويهنأ ويسعد ، وذلك كله فى مقابل شىء واحد إن تركه الإنسان أثم ، وهو الشكر لله والاعتراف بالنعمة ، والحمد والثناء على ماأصاب الإنسان من مِنة . وهذا هو جوهر مابين الخالق والمخلوق من علاقة : أن يتذوق المخلوق النعم التى خلقت من أجله وأن يشكر ربه عليها ، وأن يسبح بحمد الخالق الذى سخر له كل هذه الطيبات والخيرات ؛ وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات

= هذه الفكرة : ولا تزال الحياة البشرية أبعد ما تكون عن نهايتها وهى آخذة فى النمو والازدهار ؛ فإلى جوار العالم القديم قد اكتشف عالم جديد يغص بالأحياء الأقوياء العاملين المجدين الذين يوشكون أن يقفزوا من هذا الكوكب إلى كوكب آخر ليبدأوا عوالم جديدة ويمدوا فروعًا أخرى لشجرة الحياة .

مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون[١] » . « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيّبات من الرزق[٢] » . فالقرآن ينعى على كل من يُحرّم على الناس الاستمتاع بمباهج الحياة فى حدود التوسط والاعتدال ، ولايطلب فى مقابل ذلك إلا الشكر والاعتراف . فليست معصية الخالق فى التمتع بنعم الحياة ، وإنما المعصية فى جحود النعمة بالقعود عن شكر الله ، وما العبادات المختلفة التى تفرضها الأديان من صلاة وصوم وحج وتصدق إلا وسيلة مادية لإظهار الشكر لله ، والتسبيح بحمده والاعتراف بنعمه .

لا رهبانيــة فى الإســلام

ولعل من أعظم محاسن الدين الإسلامى ، ومايدل على أنه الدين الكامل لسعادة البشر أنه كان صريحًا واضحًا فى نفى كل فكرة ترمى إلى تصوّر الفضيلة فى تعذيب الجسد وحرمانه ، وكبت غرائزه وإيلامه ؛ وإنما الفضيلة كل الفضيلة فى الاعتدال والاتزان والبعد عن الغلوّ والتطرف ، فلم يقف الإسلام فى موضوع الزواج عند حد الإباحة ورفع الحرج والكراهة ، بل قد دعا إليه وأمر به وحثّ عليه ورغّب فيه ، وجعله من آيات الله الكبرى الدالة على رحمته وقدرته « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكّرون[٣] » . ودعا إلى الزواج فى أكثر من آية بصيغة الأمر والطلب ، وقد زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرته وسنته وأحاديثه هذا الأمر تأكيداً ووجوباً . ولما همّ أقوام من الصحابة أن يترهبوا كما يفعل المسيحيون ، فآلى بعضهم على نفسه أن يظل طول الدهر صائمًا ، وأقسم آخر أن يسهر الليل ماعاش قائمًا ، وأعلن الثالث أنه سيعتزل النساء مابقى حيًّا ؛ ولما بلغ الرسول خبرهم اشتد غضبه منهم ونعى عليهم مافكروا فيه وسموه باسم التقوى والورع وقال لهم قولته الحكيمة الخالدة : « أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم لله لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى[٤] » . وهكذا تبرأ رسول الله من كل من تحدثه نفسه بالترهب واعتزال النساء ؛ فصارت قاعدة أساسية أن « لارهبانية

---

(١) آية ١٧٢ سورة البقرة .
(٢) آية ٣٢ سورة الأعراف .
(٣) آية ٢١ سورة الروم .
(٤) راجع البخارى . كتاب النكاح .

فى الإسلام[1] » . وكانت وصية الرسول الدائمة لجماعة المسلمين : « تناكحوا تكاثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة[2] » .

فتنة المرأة وخطرها

يقول المتبتلون والداعون إلى الزهد فى المرأة : وماذا تقول فى أنه ليس هناك خطر يهدّد سلام الرجل أكثر من افتتانه بالمرأة ، وأن نصف شرور العالم ـ إن لم يكن أكثر ـ إنما تنشأ بسبب المرأة والتهالك عليها والترامى فى أحضانها ، فكم من جرائم ترتكب من أجل الوصول إليها والاستئثار بها ، وكم من رجل يمرق من الدين والفضيلة من أجل الاستمتاع بامرأة ، وقد يتنكر الرجل لآله وذويه وأمه وأبيه من أجل امرأة . وقد تكون المرأة السبب فى تدمير أمة بأسرها ؛ كما لو كانت امرأة غاوية واستولت على لب حاكم أو ملك فدفعته إلى ركوب متن الشطط . وهل هناك ريب فى أن الرجل إذا استسلم لغريزته الجنسية وأطلق لها العنان تحوّل على الفور إلى حيوان وانسلخ من صفوف البشرية ، وأصبح مجرماً عنيدًا لاحدّ لما قد ينساق إليه من إجرام ، أو لم يقل الرسول الصادق الأمين صلوات الله عليه : « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء[3] » . أو لايقول المثل السائر : « فتش عن المرأة » أى ابحث عنها كلما أردت أن تدرك الدافع لأى جريمة من الجرائم يعييك حلها وتفسيرها . فكيف لايكون من الأحوط للإنسان ولدينه وفضيلته أن يهجر النساء وأن يتباعد عنهن ، وأن يكبت غرائزه الجنسية ويتحرر منها ؟ . ونحن لايسعنا إلا أن نقرّر أن ذلك كله حق لاشبهة فيه ، وأن المرأة كانت ومازالت وستبقى إلى الأبد أعظم ماقد يدفع الرجل إلى ركوب متن الشطط ، والنساء هن الموصوفات فى القرآن بأن كيدهن عظيم . ولكن الذى نفترق فيه عن أصحاب هذا الرأى هو أسلوب العلاج والوقاية ؛ فهم يرون العلاج فى الهجر والمقاطعة والاعتزال ، ونحن نقطع بأن هذا الأسلوب ضار ومدمر ومفسد للفرد والجماعة فضلاً عن أنه صعب التحقيق إن لم يكن مستحيلاً ، وإنما العلاج الشافى هو فى السيطرة على هذه الغريزة وإحسان توجيهها وتصريفها فى نظام واعتدال عن طريق الاتحاد بامرأة واحدة تكون شريكة للإنسان وقسيمة حياته ؛ فيفضى لها وتفضى له ، وبذلك يخف ضغط العاطفة الجنسية على

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٦ ص٢٢٦ .

(٢) و (٣) الجامع الصغير للسيوطى .

أعصابه ، وشرايينه ، ويهدأ بال الرجل ويقرّ قراره ؛ فيصبح قادراً بعد ذلك على المضى فى الحياة ، كما يمضى الشبعان المرتوى يفكر ويتأمل وينتج ويتطوّر غير ملتفت لبقية النساء ، على خلاف الجائع الظامئ الذى ينطلق فى الحياة هائجاً مسعورًا ، يبحث خلف الطعام والماء غير متردّد فى السلب والنهب والقتل لإشباع حاجته . إن أدق تشبيه يمكن أن تشبه به الغريزة الجنسية هو المياه الجائحة والفيضانات العالية ، وكيف تنقلب هذه المياه وهى أصل الحياة وينبوعها إلى قوّة مدمرة ومخربة إذا حاول محاول أن يتصدّى لها وأن يقيم السدود والعقبات فى وجهها ؛ إذ لايلبث ضغط المياه المستمر أن ينسف الحدود والسدود مكتسحاً فى طريقه كل شىء ، جارفًا كل معالم الحياة التى تعترض تياره ، وناشرًا الخراب والدمار حيث تدفق وسال . فخير مايفعله الإنسان المتحضر لاتقاء شرّ الفيضانات العالية والطوفان أن يسمح لها بالانطلاق إلى مصابّها وأن يهيئ لها الطريق ويعبّده ، منشئًا السدود والخزانات التى لاتحول دون مرور الماء ، ولكن تشرف عليه وتنظمه وتوجهه وتسخره لغايات مثمرة ونافعة لحياة الإنسان ورقيه وتطوّره . وذلك هو الشأن فى الغريزة الجنسية ؛ فهى تنطلق فى عروق الإنسان وأعصابه وحواسه كالمياه المتدفقة أو كالنيران الجائحة . وقديمًا كان الإنسان الأوّل يطلق لغريزته العنان فلا يحاول أن ينظمها أو أن يقتصد منها ، ولكن تطوّر الإنسان فى معارج المدنية والحضارة قد هداه إلى نظام الزواج الذى مكنه من السيطرة على غريزته واستغلالها لتطوّره وكماله أعظم استغلال .

النظريات الداعية إلى الإباحة

وإذا كان للزواج خصوم ممن يزهدون فى المرأة ويتحامونها ، ويرون الفضيلة كل الفضيلة فى القضاء على غريزتهم الجنسية ؛ فإن للزواج خصوماً من ناحية أخرى ربما كانوا أكثر عددًا ، يرون السعادة والخير فى الإقلاع عن نظام الزواج حيث يتقيد الرجل الواحد بالمرأة الواحدة ، وهو مايخالف الطبيعة ويحول دون تحقيق أهدافها فى تكثير النوع ونشر الحياة وامتدادها . ويرى آخرون أن الزواج مظهر من مظاهر الأنانية والملكية التى يجب أن يقضى عليها فى شتى مظاهرها وأشكالها ؛ لتصبح الطيبات كما خلقها الله حقًّا مشاعًا لجميع البشر على السواء . وهناك فى العصور الحديثة من يرون فى الزواج إهدارًا لكرامة المرأة وحجراً على حريتها لايليقان بالمرأة العصرية . وقديمًا كان أفلاطون يرى أن الزواج قد أدى إلى خلق الأسرة وحبها ، ولابد من القضاء على الأسرة ليتحوّل الولاء إلى الوطن ، وليكون جميع الأفراد ذكورًا وإناثًا أبناء للوطن ، أسرتهم الكبرى . هذه كلها نظريات

لم توضع محل التطبيق فليس يدين بها الكثيرون ، ولكن هناك جما غفيرًا فى الحياة يضربون عن الزواج فعلاً للاسترسال فى شهواتهم والتنقل من امرأة إلى أخرى ، مستبيحين الحرمات بحثًا خلف اللذات والإمعان فى الشهوات . وليس هناك ماهو أسهل من دحض هذه النظريات المختلفة الرامية إلى مناهضة الزواج ، وتبيان الخطر الناجم عن الإباحية الفعلية بالنسبة للفرد والجماعة والإنسانية والحضارة :

خطر الإباحيـة على الأمـن والسلام

يقول دعاة الإباحية : اتركوا الإنسان يستلهم غرائزه فيتصل بمن شاء أنّى شاء وحيث شاء ؛ فبهذا تقضى الطبيعة ، والخير كل الخير فى تحرّى سننها ، والقائلون بهذا الرأى يستندون فى زعمهم إلى أن ذلك هو سنة الطبيعة لما يرونه من أحوال الحيوان ، مع أن ذلك التشبيه كاف فى حد ذاته لهدم قولهم ؛ فليس الإنسان حيوانًا وقد ميزه العقل عن الحيوان ، بل ميزه عن سائر الكائنات فجعله مخلوقًا يختلف عنها كل الاختلاف . فالحيوان ليس له إلا غرائزه لتهديه ، ولذلك كانت هذه الغرائز من التوازن والدقة بحيث لاتدفع الحيوان إلا إلى كل مافيه خيره وصلاحه . فالحيوان يعرف بغريزته مايضره من الطعام وماينفعه . والحيوان يعرف بغريزته مواضع الخطر فيتقيها ومواضع الرغد فيرتادها ، أما الإنسان فقد جهزه الخالق بالعقل الذى لايهتدى إلى شىء إلا بالتجربة والاختبار ، وجعله حرًّا إن شاء فعل الشىء وأسرف فى فعله ، وإن شاء امتنع عن عمله ولو كان فى ذلك مايضره ؛ فلم تعد غريزة الإنسان هى التى تسيّره ، وإنما عقله الذى صار يهديه ويوجهه ، وقد يحمله عقله على ركوب متن الشطط مما يلغى عمل الغريزة مهما بلغت قوتها ؛ فما من حيوان مثلاً يُقدم على الانتحار لأن غريزة البقاء تسيطر عليه وعلى جميع حركاته ، وبالرغم من أن الإنسان مجهز كالحيوان بهذه الغريزة ومع ذلك فقد يتغلب عقله عليها فإذا به يضع حدًّا لحياته . لاسبيل إذن للقول بترك الإنسان إلى غرائزه أسوة بالحيوان ؛ فقد أصبحت هذه الغرائز محكومة بقوة العقل وسلطانه ، وكلما زاد رقى الإنسان كلما زاد سلطانه على غرائزه وأحسن توجيهها لما فيه مصلحته . وقد اكتشف العقل منذ عصور مبكرة أنه لا يستطيع أن يدع الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث حرًّا طليقًا كما هو الشأن فى عالم الحيوان ؛ لأن ذلك يجر إلى فقد الأمن والسلام فى المجتمع البشرى . فما من ذكر إلا ويرغب فى الاستحواذ على جميع الإناث والاتصال بهنّ ؛ فليس هناك حد لإشباع نهم الإنسان إذا ترك لشهواته العِنان ، وليس لذلك من نتيجة إلا العراك المستمر والاصطدام بين الذكور من ناحية وبين الذكور والإناث من ناحية ثانية ، وبين

بعض الإناث وبعضهنّ من ناحية ثالثة ، بحيث لايعود هناك مجال لأىّ عمل آخر فى الحياة سوى المعارك المستمرة هجومًا على النساء أو دفاعًا عنهنّ ؛ وذلك هو الثمرة الطبيعية والمحققة للإباحية وتوخى الاتصالات الجنسية بين الرجل والمرأة . وقد كان هذا هو الحافز الأوّل للمجتمع الإنسانى إلى ابتداع نظام الزواج وتقديسه ؛ فمتى اختار الذكر أنثاه وارتضته بعلاً لها فقد وجب على بقية المجتمع أن يحترم هذه الصلة فتصبح المرأة حرمًا بالنسبة للرجال الآخرين ، وتحتم على الرجل أن يكف عن مطاردة الإناث الأخريات . وذلك هو الزواج فى مبناه ومعناه .

ضرورة الزواج للنسل وتربية الأطفال

على أن ضرورة الزواج بمعنى اختصاص رجل معين بأنثى معينة ، ومساكنة كل منهما للآخر وتعاونهما على الحياة ، تتجلى بصورة أقوى بالنسبة لإنجاب النسل وتنشئته وتربيته ، والتطوّر به خطوة فى معارج الرقى والكمال كما يقضى بذلك وجدان الإنسان . فالبشر على خلاف الحيوان يحتاجون إلى زمن طويل جدا ريثما يكمل نموهم فى أحشاء الأم ، ويحتاجون إلى فترة أطول ريثما يتم فصالهم عن لبن أمهم ، ويحتاجون بعد ذلك إلى بضع سنوات أخرى قبل أن يشتد ساعدهم ويقووا على استخدام سيقانهم وأذرعتهم وألسنتهم وعقولهم . وفى عصور المدنية الحديثة يستغرق إعداد الطفل للمزاحمة فى الحياة الراقية بضع عشرة سنة كاملة فى ظل الرعاية والإرشاد والتعليم والتربية . أى أن الإنسان على خلاف الحيوان ، يحتاج إلى زمن طويل جدًّا قبل أن يستطيع المضى فى الحياة معتمدًا على تجربته . فلو أن هذا العبء ، عبء تربية الطفل والسهر عليه ، ألقى على المرأة بمفردها لانصرف النساء حتمًا عن القيام بهذه الوظيفة وظيفة الأمومة ؛ لأسباب اقتصادية وصحية واجتماعية . فليس هناك مايعين المرأة على الاضطلاع بوظيفتها الشاقة إلا أن ترى نفسها فى كنف الرجل يحميها ويرعاها إبان عجزها ، ويغذيها ويكسوها ويرزقها لتتفرغ هى إلى القيام بواجبها فى رعاية الطفل وحضانته وتربيته .

فالقول بأن ترك الاتصال الجنسى حرًّا بعيدًا عن الزواج من شأنه أن يحقق غاية الطبيعة فى الإكثار من النسل هو قول مردود ؛ لأن المرأة لاتقوم بوظيفتها فى الإنسال إلا متى اطمأنت إلى معونة الرجل واضطلاعه بمسئوليته المشتركة فى إنجاب هذا النسل ، ولو أن المرأة كانت كأنثى الحيوان لقلنا إنها ستقوم بوظيفتها قهرًا عنها بحكم غرائزها

واستعدادها ، ولكن العقل كما قدّمنا قد جهز المرأة بالعلم الذى يمكنها من تعطيل وظيفتها ، فصار بقدرتها منذ أقدم العصور أن تتحاشى الحمل كلما أرادت بشتى الوسائل ؛ وقد ازدادت هذه الوسائل على مر الزمن فاعلية وإتقانًا . فلو تصورنا قيام عهد من الفوضى المطلقة الذى لايسأل فيه الرجل عن نتيجة اتصاله بالمرأة لعملت النساء جاهدات للتخلص من أجنتهن قبل استقرارها فى أحشائهن . وهذا هو مايجرى بالفعل فى المجتمعات التى شاعت فيها مبادئ الإباحية من الناحية العملية ، حيث لايتحرج الرجل من مغازلة أى أنثى ولاتتحرج المرأة من مطارحته الهوى ، على أن ينصرف كل منهما إلى سبيله غير مرتبط بالآخر أى ارتباط .

فى هذه المجتمعات عمدت النساء إلى الإسراف فى استخدام الوسائل المانعة للحمل ، فإذا قدّر لها الفشل فى المرحلة الأولى واستقر الجنين فى أحشائها عمدت إلى إجهاضه ؛ ووجدت فى العلم خير مساعد لها للوصول إلى هذه النتيجة ؛ فإذا فشلت كل محاولاتها لإزهاق حياة الجنين طرحت به فى العراء بمجرد وضعه وميلاده ليلتقطه أحد السابلة أو ليهلك جوعًا وبردًا . ولاجدال فى أن المرأة التى تفعل ذلك هى امرأة قاسية عاتية ، قد خرجت عن أنوثتها وفطرتها التى تجعل حبها لوليدها محور حياتها ومنتهى آمالها ؛ ولكن مجرّد شعور المرأة بأنها ستنوء بعبء الطفل وتربيته ، بعد أن مضى الرجل الذى غرسه فيها لايلوى على شيء ، يخرجها عن طبيعتها ويصيرها إلى هذه المخلوقة التعسة التى تئد وليدها .

شاهد حى من المجتمع الفرنسى

ولدينا فى المجتمع الفرنسى بصفة عامة ، والباريسى بصفة خاصة ، مثل من أروع الأمثلة على ماقدّمنا ؛ ففى هذه البلاد تفشت فكرة الانصراف عن الزواج واستبدال نظام المخادنة والمعاشرة به ، حيث يعاشر الرجل المرأة إلى أجل معلوم يتركها من بعده ، وحيث ترك الحبل على الغارب للشبان والآنسات ، والأزواج والزوجات ، يستمتع كل منهما بالآخر استمتاعًا حرًّا طليقًا . كان من أثر ذلك أن تضاعف عدد البغايا المحترفات ، حتى أصبح البغاء وصناعة الهوى إحدى الحرف القومية الذائعة الصيت فى باريس ، التى أصبحت مقصد الرجال العابثين الذين يطلقون لشهواتهم العنان . وتناقص عدد الرجال والنساء الذين يقدمون على الزواج ، وتأثرت الأسرات القائمة بهذه الروح ، فتفككت روابطها وانحلت عراها وضعفت حوافز الإخلاص والوفاء بين الزوجين ؛ فكان من ذلك

نتيجة حتمية هى أن بدأ عدد المواليد يتناقص فى فرنسا تناقصًا مطردًا[1] مخيفًا ، بحيث هوت نسبة المواليد لكل عشرة آلاف نسمة من ٣٨٠ إلى ٢٢٠ فى مدى قرن من الزمان . وبدأ الجنس الفرنسى يفقد بالتدريج تفوّقه من حيث الكم والنوع . وليست الهزيمة الساحقة التى عانتها فرنسا فى هذه الحرب العالمية الأخيرة إلا آية التدهور والانحلال الذى أصاب هذه الأمة المنكودة ؛ كما اعترف بذلك رئيس الدولة الفرنسية السابق الماريشال «بيتان» عقب سقوط فرنسا على الفوز ، ونادى بأنه لاسبيل لإنهاض فرنسا من كبوتها وإقالة عثرتها إلا بإقامة صرح الأسرة من جديد ، وتقوية أواصرها وتقديس تقاليدها وأنظمتها ، واستبدلت بأقانيم فرنسا الثلاثة : الحرّية والإخاء والمساواة أقانيم جديدة أوّلها وعلى رأسها الأسرة .

(١) نشر الكاتب الفرنسى الشهير اديمون ديمولان فى كتابه الخالد «سر تقدّم الإنجليز» الذى ترجمه إلى العربية المرحوم فتحى باشا زغلول إحصائية دقيقة تظهر مدى تناقص المواليد فى فرنسا تناقصًا مطـردًا . وإليك هذه الإحصائية التى تثبت عدد المواليد بالنسبة لكل عشرة آلاف نسمة :

سنين من	سنين إلى	مواليد	سنين من	سنين إلى	مواليد	
١٧٧٠	١٧٨٠	٣٨٠	١٨٦١	١٨٦٨	٢٦٤	أى أن نسبة المواليد بين سنة
١٨٠١	١٨١٠	٣٢٥	١٨٦٩	١٨٨٠	٢٤٥	١٧٧٠ وسنة ١٨٩٦ سقطت
١٨١١	١٨٢٠	٣١٦	١٨٨١	١٨٩٦	٢٢٠	من ٣٨٠ إلى ٢٢٠ فى كل
١٨٢١	١٨٣٠	٣٠٩	—	—	—	عشرة آلاف نسمة وهى أكثر
١٨٣١	١٨٤٠	٢٨٩	—	—	—	من الثلث .
١٨٤١	١٨٥٠	٢٧٤	—	—	—	
١٨٥١	١٨٦٠	٢٦٧	—	—	—	

فالأسرة التى يؤلفها الزواج هى الأسلوب الوحيد لتشجيع المرأة على النسل ، وليست الإباحية والتحلل من القيود .

الدولة بدل الأسرة

ولننتقل الآن إلى مناقشة النظرية الثانية التى تريد أن تحل الدولة محل الأسرة ، والتى قال بها أفلاطون فى القديم وهى : أن حب الوطن يجب أن يحل محل حب الأسرة ؛ وذلك لايتم إلا بأن تفصل المرأة عن الرجل بمجرد تمام التلقيح ، وأن تتكفل الدولة برعاية المرأة وحمايتها ريثما تضع طفلها ، ثم تنزع منها طفلها لتقوم بتربيته وإعداده إعداداً صالحاً ؛ لتجعل منه مواطناً قويًّا نافعًا لايعرف له أسرة سوى الوطن الذى يجب أن يحل محل الأسرة . وقد فات أفلاطون . وهو ذلك العبقرى الفذ ، أن هذه الدولة التى ينصح بإحلالها محل الأسرة ، ليست إلا أسرة كبيرة تتألف من هذا العديد من الأسرات الصغيرة ، التى تضخمت وتفرّعت وتشابكت ، فكانت عشيرة فقبيلة فأمّة فدولة ، وأن معنى الدولة ماكان ليوجد أصلاً لو لم يسبقه قيام الأسرة .

وليست الوطنية التى يدعو إليها أفلاطون ويريد أن يحطم الأسرة لتعزيز جانبها ؛ ليست هذه الوطنية إلا الامتداد الطبيعى لحب الإنسان الغريزى لأسرته وعشيرته ؛ فلو تصوّرنا انهيار هذا الحب فى نفس أى فرد من الأفراد ، لمااستطعنا بعد ذلك أن نتصوّر كيف يكون للوطن معنى ، فضلاً عن أن يكون للدولة وجود .

إن المجتمعات فى الواقع ليست إلا جسمًا حيًّا لأنها تتألف من أحياء ، ولذلك فإن لها كل خصائص الجسم الحى ، ولو تأملنا الجسم الحى لوجدناه يتألف من أنسجة ، وهذه الأنسجة تتألف بدورها من مجموع من الخلايا ، كل خلية منها هى كائن حى مستقل له كل مشخصات الكائن الحى . والأسرة ـ وليس الفرد ـ هى خلية المجتمع الأولى ونواته ، وتتوقف قوة المجتمع كما تتوقف صحة البدن على سلامة الخلايا وقوّة نموّها ؛ فحيث تقوى الأسرة يقوى المجتمع بالتالى ، وتنبثق من قوّته فكرة الدولة بمعنى التضامن الاجتماعى . فاقتراح أفلاطون أن تحل الدولة محل الأسرة هو بمثابة إغفال المقدمة للوصول إلى النتيجة ، مع أن هذه النتيجة لايمكن أن توجد أصلاً إلا بعد إقرار المقدمة . ومن سوء الحظ ، وربما كان من حسن الحظ ، أنه لم يوجد فى أى عصر من العصور أقوام بلغ بهم الاضطراب والهوس إلى حد تطبيق هذه النظرية لنرى كيف يمكن أن تقوم دولة حيث لاأسر ، ولنرى كيف تستطيع هذه الدولة على فرض قيامها أن تعوض على الطفل الرضيع حنان أمه التى تغذيه بحنانها وحبها قبل أن تغذيه بلبنها ؛ ولنرى كيف يمكن أن يشب هذا

القطيع من الأطفال المحروم منذ طفولته من كل عطف بشرى ورعاية أبوية ، وكيف يرقى ويتطوّر.

بل ليت هذه التجربة وضعت محل التنفيذ ، لنرى كيف يتحقق معها استمرار الرجال والنساء على الدأب والسعى والكد والاجتهاد ، بعد أن لم تعد لهم أسرة يهتمون بكفل قوتها وحمايتها ، والعمل على كل مامن شأنه إعلاء مكانتها.

لقد كان يظن خطأ أن الشيوعية فى روسيا قد هدمت الأسرة من أساسها ، وأن الدولة هى التى تتولى تربية الأطفال ؛ ولكن سرعان ماتبين أن ذلك لم يكن كله إلا وهمًا ودعاية ، وأن المجتمع الروسى الشيوعى كأى مجتمع آخر يحرص على الأسرة أشدّ الحرص ، بل لعل الأسرة الروسية هى من أقوى الأسر الأوروبية ترابطًا واتحادًا حتى فى ظل الشيوعية ، ولولا ذلك لمانجحت روسيا هذا النجاح العجيب فى هذه الحرب.

الحق أن الأسرة ونظامها وحب الزوجة والولد ، هو الذى يحفز الإنسان أكثر مايحفزه إلى الكد والسعى والإكثار من التحصيل والطموح للنجاح والتفوق والنصر ؛ لكى يوفر الإنسان لشريكة حياته وأولاده أكبر مايستطيع من الرغد والهناء ، لا إبان حياته فحسب بل وبعد وفاته أيضًا. وليس هناك مايولد فضيلة الإيثار والتضحية والعمل من أجل الآخرين أكثر من أن يكون الرجل والمرأة أبًا وأُمًّا. وليس فى الخليقة كلها ماهو أروع أو أجل من علاقة الأم بطفلها.

نظرية التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة فى الوظيفة

على أن العصور الحديثة وماصحبها من انقلاب ميكانيكى واقتصادى أدّى إلى تطوّر فى حياة الأفراد ومعيشتهم ، بحيث صارت الحياة أكثر تكاليف من ناحية ، وصار العمل أقل مشقة من ناحية أخرى. كل ذلك قد هيأ المجال لخلق اعتراضات جديدة على نظام الزواج والأسرة من وجهة نظر المرأة المتحرّرة ، ومن يدّعون الغيرة على حرية النساء وكرامتهن ؛ فهم يقولون إن خضوع المرأة لنظام الزوجية ومايجرّه ذلك من التزامات تربطها بخدمة زوجها وبيتها والاشتغال بتربية أطفالها فيه عدوان على حرية المرأة وكرامتها ، وحرمان لها من المساهمة فى جلائل الأعمال التى يقوم بها الرجل والتى من حق المرأة أن تقوم بها ، ويزعمون أن القول بأن مهمة المرأة الرئيسية فى الحياة هى أن تكون زوجة وأُمًّا ، وأن تكرس حياتها لخدمة زوجها وأولادها. يزعمون أن هذه الأقوال ليست إلا أثرًا من آثار العصور الغابرة التى أخضع الرجل المرأة فيها لحكمه وسلطانه جاعلاً منها شبه

رقيق . ويذهب هذا النفر إلى حدّ القول إن هذا الفارق الملحوظ بين جسمى المرأة والرجل وعقلى الرجل والمرأة ليس إلا نتيجة لهذه العبودية التى طال عليها الأمد . ولو أطلقت المرأة من عقالها وتحرّرت من سلطان الرجل ، ووقفت وإياه على قدم المساواة مزاحمة إياه فى شتى ميادين الحياة ومجالى نشاطها لزالت هذه الفوارق من زمن قليل ، فيصبح بقدرة المرأة أن تقوم بكل مايقوم به الرجل من أعمال ، حتى ماكان منها يستدعى قوة جسدية بحتة أو قوّة تفكير مطلق . فعلى المرأة الحديثة ، والحالة هذه أن تطلق نهائيًّا أفكار الزواج والأسرة ، وكل مايجعلها خاضعة للرجل أو تابعة له أو متخصصة فى خدمته ، وأن تحقق كرامتها وشخصيتها ومجدها بمزاولة كل مايزاوله الرجل من عمل فى الطب والمحاماة والهندسة والفلك والزراعة والصناعة والتجارة والسياسة والقضاء والحكم بل والحرب أيضاً ، وأن تزاحم الرجل فى كل مايدّعيه لنفسه من أعمال .

ذلك القول لايعدو أن يكون ضربًا من ضروب التخبط والاضطراب الفكرى والاجتماعى ، الذى يقع فيه البشر فى إبان الانقلابات الكبرى الواسعة النطاق . ولامشاحة فى أن اكتشاف قوّتى البخار والكهرباء وماخلقاه من آلات قد أحدث فى العالم انقلابًا لاعهد به للبشر من قبل فنبتت مثل هذه الآراء المتطرّفة التى تسخر من نواميس الطبيعة وتزدريها ولاتعبأ بها ، وتنكر البديهيات المحسة وتجعل من المرأة رجلاً ولو كان ذلك ضدّ مصلحة البشر والعمران ، ولو كان ذلك مستحيلاً مابقيت الأرض أرضًا والسماء سماء .

إن كل ما فى هذا الكون من مظاهر الحياة والكينونة إنما يقوم على عنصرى الذكورة والأنوثة ، أو بعبارة أعم على الإيجاب والسلب ومن هذا الازدواج تنبثق الحياة ، بل وينبثق كل مافى الوجود من عوالم وكائنات . فنى عالم الحيوان مثل مافى عالم النبات نرى هذا الاختلاف فى النوع ابتداء من الخلية الواحدة ، وهذه الميكروبات التى يقف الملايين منها على رأس الدبوس ، وانتهاء بأرقى الحيوانات وأكملها وأقواها ، بل إن العلم الحديث قد أثبت لنا أن الجمادات نفسها ليست إلا حشدًا من الذرات المختلفة ، وأن كل ذرة من هذه الذرات تتألف من عديد من الكهارب السالبة والموجبة ، وأن نوع الجماد يختلف بمقدار اختلاف النسب بين هذه الكهارب السالبة والموجبة ؛ فإذا تركنا دائرة المحسات إلى عالم المعنويات وجدنا أنه لايوجد سوى معنى واحد لايقبل الازدواج والاختلاف فى الطبيعة ، وذلك المعنى هو الموصوف به خالق الوجود الأول القديم ؛ فذلك لايمكن إلا أن يكون واحداً لأنه الأصل الأوّل ، وأما ماخلا هذا الواحد الأحد فإن الذهن لايستطيع أن يتصوّر أى معنى من المعانى إلا على

أساس الشيء وعكسه أو الإيجاب والسلب ، فلو اتحدت المعانى المتعارضة وصارت معنى واحدًا لخرجت عن دائرة المفهوم ، ولو تحولت الكهرباء إلى نوع واحد من الإيجاب والسلب لفقدت فاعليتها . ولو صارت الذكور إناثًا كلها أو صارت الإناث ذكورًا كلهن لما كانت الحياة . ونحسب أن هذه بديهية لاتحتاج إلى كثير شرح أو إسهاب ؛ فمايرى عليه النساء من اختلاف عن الرجال فى الطبع والفكر والجسم ليس ثمرة لاستعباد الرجل للمرأة كما يزعم الزاعمون ، وإنما هى الخلافات الطبيعية التى خصت بها الطبيعة كلاً من الرجل والمرأة ليقوم كل منهما بوظيفته . وليس أدل على ذلك من أن هذه الخلافات لاتقف عند الصور والأعضاء الظاهرة ، بل تشمل فيما نشمل التركيب الفسيولوجى الداخلى للمرأة ، حيث قد جهزتها الطبيعة بمايعدّها لنمّو الجنين فى أحشائها وانفصاله عنها بعد المدة المعينة ، ثم تغذيته بواسطة هذا اللبن الذى تفرزه غدد معينة اختصت بها المرأة دون الرجل .

لم تكن هذه الأجهزة المادية التى زوّدت بها الطبيعة المرأة هى كل ماميزتها به الطبيعة عن الرجل ، بل لقد أعدّتها الإعداد النفسى الضرورى للاضطلاع بوظيفتها ؛ فجعلتها قوية العاطفة مرهفة الغرائز ليحملها ذلك على التمسك بطفلها وحضانته ورعايته ، ولولا ذلك لمااحتملت امرأة واحدة كل هذه المعاناة والآلام فى سبيل صيرورتها أمًّا ، ولما كانت طبيعة الأمومة والحرص على الجنين وهو لايزال فى الأحشاء ، ثم الحرص بعد ذلك عليه طفلاً يستوجب أن تنأى المرأة بنفسها عن مواطن النزاع والمهالك والمخاطر التى تعرّضها وجنينها للموت ، فقد ألقت الطبيعة هذه المهمة على عاتق الرجل فزوّدته بمايجعله قادرًا على حمايتها والدفاع عنها أثناء سهرها على طفلها ، وليمدها أثناء عجزها بما يقيم أودها ويكفى لتغذيتها . وحسب الإنسان أن يلقى نظرة على زوج من الحمام أثناء اشتغالها بتفريخ نسلها ليرى كيف ترقد الأنثى على البيض لاتبرحه ، بينما يقف الذكر على رأس عشها يحميها ويرعاها ويصد عنها عادية المغيرين . وليس هذا إلا مثالاً لهذا التقسيم الطبيعى لمهمة كل من الذكر والأنثى فى الحياة ؛ فالأنثى مهمتها الإيجاد والتكثير ، والذكر مهمته الحماية والرعاية ، ومن هنا فقد اختصته الطبيعة بقوّة العضلات والقدرة على القتال بل والميل إليه ، وبذلك أصبح أكثر قدرة على العمل والإنتاج والسعى والنشاط وأصبر على مشاق الحياة ، كما كانت المرأة من ناحيتها أصبر منه على مايتطلبه إيجاد الحياة . فتقسيم العمل بين الرجل والمرأة مسألة قد قرّرتها الطبيعة ولاسبيل للفكاك منها ، بل إن كل محاولة لإفساد هذا الناموس لايمكن أن يعود إلا بالضرر على القائمين به ولاينتج للمجتمع الفائدة المرجوّة . فإذا كانت الظروف والأحوال تضطر المرأة فى بعض الأحيان للاشتغال بحرفة من الحرف أو مهنة من المهن لاكتساب رزقها فى بعض الأحوال ولعدم وجود الرجال فى

أحوال أخرى كحالات الحرب (وهو مالا نمانع فيه بأية حال من الأحوال) فإن ذلك يجب أن ينتهى بمجرد زوال الضرورة الملجئة إليه ؛ كأن يتقدم للمرأة الزوج الصالح الذى يعولها ويتولى الإنفاق عليها ، أو كأن يعود الرجال من الحرب ليستأنفوا أعمالهم ؛ فيتعين فى هذه الأحوال على المرأة أن تعود لمزاولة وظيفتها الأساسية التى هى أشرف مافى الحياة من وظائف وأعلاها قدرًا ، وأن تنصرف عن كل شاغل يمكن أن يشغلها عن رعاية بيتها وزوجها وأولادها ، وهو ماخلقت من أجله ، ومايتوقف عليه سعادة البشر وعمارة الكون ... ر الحياة .

هل فى الزواج والأمومة غض من شأن المرأة ؟

أمّا القول بأن اهتمام المرأة ببيتها ورعاية زوجها وأولادها فيه مايؤثر فى كرامتها ويحطّ من شأنها ويقلل من قدرها ؛ فهو قلب للحقائق المشاهدة الملموسة ومغالطة صريحة ، فليس هناك كالزواج والأمومة وحياة الأسرة مَن حقّق ويحقق للمرأة سلطانها الأكمل فضلاً عن كرامتها وحرمتها . فالبنت إذا تزوجت شعرت على الفور بازدياد فى كرامتها ، فإذا رزقت أول أطفالها تضاعفت هذه الكرامة لمجرد صيرورتها أمًّا .

ذلك أن الزوجة والأم شريكة لزوجها وولدها فى كرامتهما ، فإذا كان زوجها أو ابنها زعيمًا فقد صارت لها الزعامة ، وإذا أصبح زوجها أو ابنها أميرًا فقد تقلدت الإمارة ، ولو تزوّجت ملكًا لكللت بتاج الملك ، ولو صار ابنها امبراطورًا لصارت امبراطورة . فالمرأة بزواجها وأمومتها قد ترتفع أحيانًا إلى أعلى عليين ، بل إلى مالا يساميها فيه أعظم الرجال . ومَن مِن العالمين لايكرم مريم من أجل ابنها المسيح عليه السلام ، أو يكرم آمنة من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ؟ . وقل مثل ذلك عن تلك الأمهات اللواتى أنجبن الرسل والأنبياء والعلماء والقادة المصلحين والزعماء ؛ فكلهن كريمات مقدّسات ممجدات بما خلفن من أبناء . وما من عظيم مهما سما قدره إلا وهو ابن امرأة ، وهو بحكم بنوته لها مجبول ومأمور بطاعتها وحبها ، وقد يكون ممن ترتجف الملوك من حضرتهم وتفزع الناس من هيبتهم .

فهذا «نابليون» ذلك البطل الفذ بين الأبطال كان ينحنى على يد والدته ليقبلها ، وهو الذى كانت الملوك والقياصرة تنحنى فى حضرته ، وكانت أمه لاتخشاه ولاتهابه ، بل ظلت تنظر إليه فى أمجد أيامه كما كانت تنظر إليه وهو طفل صغير لاغنى له عن عطفها وإرشادها وتأنيبها فى بعض الأحيان .

وهذا رجل مثل «ستالين» زعيم روسيا السوفيتية ، تروى الجرائد عنه فيما تروى أن أمه لاتزال على قيد الحياة ، وربما قبضت على أذن ابنها وعركتها غير عابئة بما صار إليه من حول وطول .

ومن منا نحن معاشر المسلمين لايذكر بالإجلال والإعظام «خديجة» الصديقة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف صيّرها زواجها بالرسول كريمة فوق الكرماء ، وقد أخذت طريقها إلى المجد والخلود لمشاركتها الرسول فى حياته وجهاده ، وكيف ظل الرسول بعد موتها أمينًا على ذكراها ممجّدًا لها ومشيدًا بحمدها ولاهجًا بالثناء عليها[1] .

فالزواج والأمومة والأسرة لم تكن فى يوم من الأيام حجر عثرة بين المرأة وبين بلوغ أعلى مراتب المجد والكرامة والشهرة والخلود ، بل الذى لاشك فيه أن كثيرات من النساء ماكن ليصلن إلى ما وصلن إليه من درجة رفيعة إلا من طريق الزواج والأمومة . وليس بمنقص من قدر المرأة أن تكون كرامتها ومجدها وشهرتها مستمدة بالتبع من كرامة زوجها أو ابنها ومجدهما ، إذ أن لها نصيبًا إيجابيًّا من ذلك المجد ؛ فما من رجل متزوج يمكن أن يرقى إلا ولزوجته نصيب فعال فيما حققه ، ومامن رجل يمكن أن يفوز أو ينجح إلا ولأمه النصيب الأكبر فيما أدركه ، فهو ليس إلا بضعة منها . والفرع لايمكن أن يكون أكرم من الأصل ولايمكن أن يحقق لنفسه شيئًا من الحياة فضلاً عن الرقى والتطور إلا عن سبيل مايستمدّه من الأصل ، ولذلك فإن المطالع لسير العظماء دائمًا يلفت نظره بقوّة اهتمام هؤلاء العظماء فى إظهار فضل زوجاتهم عليهم ، حتى ليغالى بعضهم فيقول : إنه مدين بكل شىء لزوجته أو لما ورثه عن أمه إن لم يكن متزوّجًا . ومن ناحية أخرى تنطق الشواهد كلها بأنه على قدر رقى المرأة وحظها من العلم والثقافة يكون مبلغ حرصها على نظام الزواج والأسرة ، وليس أدل على ذلك فى عصرنا الحديث من نساء أوروبا الشمالية ، وعلى الأخص بلاد الإنجليز ، حيث صار للمرأة حق الانتخاب والجلوس فى البرلمان وأصبحت المرأة تساهم فى كل شأن من شئون الحياة ، وبلغت من الرقى والثقافة مالا تضارعها فيه أية نساء أخريات ؛ ومع ذلك فإن المرأة الإنجليزية بصفة عامة من أشدّ

---

(١) فى الإصابة لابن حجر : «عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ؛ فذكرها يومًا من الأيام ، فأخذتنى الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها ! فغضب ثم قال : «لا والله ما أبدلنى الله خيرًا منها آمنت إذ كفر الناس وصدّقتنى إذ كذبنى الناس وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء» . قالت عائشة فقلت فى نفسى : لا أذكرها بعدها بسيئة أبدا» .

نساء أوروبا حرصًا على الزواج والأمومة ، بحيث يمكن اعتبار الأسرة الإنجليزية والبيت الإنجليزى هو سرّ قوّة انجلترا ونجاحها الفائق فى الهيمنة على شئون العالم وتأليف هذه الإمبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس ، وهو السرّ فى ازدياد عدد سكانها المتواصل مما مكنها من الانتشار فى الأرض كل هذا الانتشار العجيب الذى يجعل العنصر الإنجليزى هو العنصر الغالب فى أمريكا الشمالية ، وهو العنصر السائد فى قارة استراليا . بينما رأينا الحال فى فرنسا على عكس ذلك ، فالمواليد فى تناقص مستمر ، والأسرة مفككة منحلة العرى . وليس ذلك إلا لأن المرأة الفرنسية لم تحقق من النضوج والرقى ماحققته المرأة الإنجليزية . وهكذا نرى القاعدة تطّرد فى أنه كلما ارتقت المرأة ونضجت ازداد إحساسها بواجبها الطبيعى فى أن تكون زوجة وأُمًّا . وأمامنا مثل رائع فى العصر الحديث على هذه الحقيقة وهو خاص بشخصية «مدام كورى» هذه الفتاة البولندية التى نزحت من بلادها إلى باريس فى طلب العلم ، فلما خطبها المسيو «كورى» أجابت طلبه على الفور ، ثم بدأت بعد ذلك تشق طريقها إلى المجد العلمى والخلود بالبحث خلف عنصر الراديوم ، ومع ذلك فإن هذه المرأة الفذة العبقرية لم تنس فى يوم من الأيام أنها امرأة قبل كل شىء وأنها زوجة وأُم ، فلم تستنكف أن تدع معادلاتها الرياضية وتجاربها العلمية جانبًا لتتدرّب على طهى صنف أو صنفين من الطعام ، ولم تعمد هذه المرأة الغارقة فى التجارب العلمية إلى ماتعمد إليه النساء الفارغات اللاهيات من تفادى الحمل أو إجهاض الجنين بعد حمله ، وهى لو فعلت لوجدت فى نبوغها وشذوذ عبقريتها ألف شفيع لها أمام المجتمع ، ولكنها كامرأة عظيمة أرادت أن تكون ناضجة الحواس والغرائز ، وأن تكون أمينة على وظيفتها الأولى كأُمّ ؛ فرزقت من زوجها ببضعة أطفال ، ولماخاب حملها فى أحد المرات حزنت لذلك أشدّ الحزن وتألمت غاية الألم ؛ كما ذكرت ذلك ابنتها «إيف كورى» فى كتابها (التلميذة الخالدة[1]) . وكانت عنايتها بتربية بناتها بالغة الحدّ ، حتى إن إحداهنّ قد نالت جائزة «نوبل» فى المباحث العلمية ، وثانيتهما أديبة وصحفية عالمية . وعندما قتل مسيو «كورى» فى إحدى الحوادث بكته «مدام كورى» بالدمع الهتون ، وتصدع قلبها وعاشت بقية حياتها حزينة من أجله وفيّةً لذكراه . وهكذا كانت هذه المرأة الخالدة زوجة كاملة وأُمًّا كاملة . ولعل هذه الناحية من حياتها هى مايروعنا بالأكثر ونحن نطالع سيرة حياتها ، وكيف أن اشتغالها بالعلم الذى انتهى باكتشافها الخطير الذى قلب قواعد العلم رأسًا على عقب لم يقلل مقدار ذرة من طبيعة الأنوثة فى نفسها ، ولم يحد بها قيد شعرة عن واجبها الأوّل كامرأة كاملة .

(١) ترجم الأستاذ أحمد الصاوى محمد هذا الكتاب إلى اللغة العربية وهو من أحسن ما يقرأ .

الخلاصة

والخلاصة أنه من أية ناحية جئنا نظام الزواج وجدناه هو الأصلح بالنسبة للفرد ، رجلاً كان أو امرأة ، من حيث توفير أمنه وسلامته ، وتحقيق أكبر قسط من نجاحه فى الحياة وتفوقه ماديًا ومعنويًا . وهو الأصلح بالنسبة للجماعة من حيث دعم أركان الحضارة والعمران ، بتخصيص كل عضو من أعضاء المجتمع لما خلق من أجله .

ومن هنا كان الزواج هو أقدم نظام عرفه البشر وأحاطوه بالقداسة إلى اليوم ؛ بحيث تبدلت النظم من حوله ولم يتبدل ، وانقلبت الأحوال رأسًا على عقب وظل الزواج حيث كان حجر الزاوية فى بناء المجتمع واللبنة الأولى التى تتألف منها العشيرة فالقبيلة فالأمة فالدولة والتى يتوقف على مدى قوتها وسلامتها سلامة المجتمع كله .

وليس أدل على أن الزواج نظام فطرى وغريزى فى البشر من أنه سنة الزنوج فى غابات خط الاستواء كما هو سنة الاجتماع لدى الأنجلوسكسون والأمريكان ، وهو النظام المتبع بين عرب البادية ، وهو القانون المحترم لدى سكان الدائرة القطبية ؛ بل إن حالنا اليوم فى موضوع الزواج كحال أجدادنا منذ أربعة آلاف سنة لا فى مصر فقط بل وفى أشور وبابل والهند والصين وجزر المحيط . فكل خروج على هذا النظام هو بمثابة خروج عن سنة الطبيعة نفسها ، سواء أكان ذلك عن طريق الإباحة المطلقة أو الكبت والحرمان بحجة التدين ، أو كان ذلك لانصراف النساء عن الزواج واشتغالهنّ بالأعمال العامة ؛ فكل ذلك من شأنه أن يضر بنجاح المجتمع ، وأن يعرقل نموّه ويخل بدعائمه ويقوض بنيانه .

الفصل الثانى

المرأة وحقوقها

على أننا وقد فرغنا من تقرير هذه القاعدة الأساسية التى تجعل الزواج فالأمومة هى الهدف الرئيسى للمرأة فى الحياة ، وأن الزواج بالنسبة للرجل هو واجبه الأوّل وواجبه المقدس ؛ فإنه يتعين علينا أن ندحض من ناحية أخرى بعض الشبهات التى ولدتها هذه القاعدة العامة ، فأضرت بمكانة النساء وحقوقهنّ فى البلاد الشرقية وجعلتهنّ متخلفات عن الرجال فى كل نواحى الحياة ، بدعوى صيانة الأخلاق والفضيلة والنزول عند أحكام الدين ، بل بلغ الجهل بأقوام إلى حد إهدار آدميتها كما سنرى ؛ فليس يعنى أن تكون المرأة زوجاً المساس باعتبارها ومكانتها بالنسبة للرجل الذى تساويه مساواة مطلقة ، وليس يعنى ذلك حرمانها من أى حق من الحقوق التى تمتع بها الرجل ، سواء كانت هذه الحقوق دينية أو مدنية أو سياسية ، أو أن يحال بينها وبين أن تتعلم ماشاءت أن تتعلمه من العلم بمختلف فروعه ، وأن تستزيد منه حسبما تتسع قدرتها لذلك ، أو أن ينكر عليها منكر اشتغالها بأى عمل من الأعمال الشريفة التى يشتغل بها الرجال متى اضطرتها الظروف الخاصة أو العامة لذلك ، أو كانت على جانب من النبوغ والقدرة غير العادية بحيث يتحتم على المجتمع الاستفادة من أهليتها واستعدادها .

وأخيراً ليس معنى اختصاص المرأة بوظيفة الزوجية والأمومة أن تتحوّل إلى سجينة فى عقر دارها وأن يحال بينها وبين نور الشمس ومباهج الحياة ؛ فلاتسير فى الطريق إلا من خلف ستار ؛ ولايحق لها أن تساهم فى كل مايساهم فيه الرجال فى مجالات النشاط المشروعة التى تعود على الفرد والمجموع بالنفع والخير العميم .

وتوضيح هذه المسائل وشرحها يستدعى منا أن نخوض فى بحث مستفيض بالنسبة لحقوق المرأة من الناحية الاجتماعية والقانونية والدينية والطبيعية والمنطقية . ولنا من خطورة هذا الموضوع بالنسبة لحياتنا الاجتماعية والعمرانية خير شفيع لهذا الإسهاب .

حق المرأة المطلق فى مساواة الرجل من حيث المكانة والاعتبار

إن حق المرأة فى المساواة المطلقة مع الرجل من حيث المكانة الأدبية لكل منهما فى الحياة هى بديهية من البديهيات ، لم تكن محل نزاع فى المجتمعات القديمة أبدًا بل والمجتمعات السابقة على التاريخ . ولعل الأنوثة كانت فى الزمن القديم تحظى بالنصيب الأكبر من تقديس البشر وإكرامهم ؛ فلم تكن عقلية القدماء تتخيل شيئًا مقدّسًا إلا على صورة الأنوثة ، وهم يرون الأم سبيل الحياة ؛ ولذلك كانت الأنوثة هى الغالبة فى معبوداتهم . فالسماء عندهم لايمكن إلا أن تكون امرأة والأرض امرأة ، والكون كله لايمكن إلا أن يكون وليد أم وهكذا . ولايزال أثر ذلك كله يتجلى فى مختلف اللغات والاصطلاحات البيانية ؛ فكل مظاهر الطبيعة مؤنثة ، وإذا تحدثنا عن الأرض قلنا أمنا الأرض . ثم بدأ العقل البشرى يدرك أن الأنوثة وحدها لايمكن أن تكون مصدر الحياة ، بل لابد من الذكورة إلى جوارها ؛ فبدأت العقائد تتمثل الآلهة على شكل أسرة من الزوج وزوجته كإيزيس وأوزوريس وابنهما حوريس .

وغنىّ عن البيان أن هذه كلها آراء خاطئة ، ولكنى إنما أثبتها لدلالتها على نظرة العقل البشرى للأنوثة وتكريمه إياها حتى رفعها إلى مرتبة الألوهية . وقد كان مركز المرأة فى القديم مقرّرًا على أساس المساواة التامة للرجل ؛ كما ينبئنا بذلك تاريخ مصر القديم حيث كان للمرأة كل الحقوق التى للرجل بما فى ذلك اعتلاء أريكة الملك فسجل لنا التاريخ أسماء خنت كاوس (نيتوكريس) وحتشبسوت وقد كانتا من بين الأسماء الممتازة فى حياة مصر القديمة . وقد كانت المرأة تشاطر زوجها دائمًا نصيبه فى الحياة وبعد المات ، وترى صورها على الآثار إلى جوار صور الرجل فى شتى المناسبات الخاصة والعامة ، وقد بلغ هذا الاشتراك ذروته فى عهد اخناتون ذلك الملك الثائر الداعى إلى دين التوحيد ؛ ففى عهد ذلك الملك نرى زوجته تجاوره وتصحبه فى كل شئونه ، وتقوم بدور الساعد الأيمن فى كفاحه من أجل الدين الجديد وهكذا .

وغير خاف أن المجتمع المصرى كان فى هذه الفترة فى أرفع درجاته من حيث الرقى والحضارة والمجد ، وهذا الذى كان يجرى فى مصر القديمة كان يجرى مثله فى سائر المجتمعات الزاهرة فى هذه العصور ، فلم يحدث أبداً أن امتهنت المرأة أو احتقرت أو غض من شأنها فى إبان نهضات الإغريق والرومان والهند والصين ، بل والعرب فى عهدهم القديم حيث يسجل أسماء ملكات شهيرات حكمن فى شبه جزيرة العرب كبلقيس والزباء . وإنما عدت العوادى على المرأة دائمًا فى عصور التدهور والانحلال ، حيث تنطفئ

مصابيح العمران ، ويسود الجهل محل العلم ، والظلم والتعسف مكان العدل والإنصاف ، والأوهام والخرافات على أنقاض التقاليد وتعاليم الدين الصالح . فمن ذلك ماحدث فى أوروبا إبان العصور الوسطى المسيحية حيث غشى الظلام عقول الناس ، وعشش الجهل والتعصب بين جدران الكنائس ؛ فنى ذلك الوقت عانت المرأة أسوأ ماعانت فى أوروبا ، فقد بلغ الأمر إلى حدّ التشكك عما إذا كان لها روح كالرجل وعما إذا كانت تساويه فى درجة الآدمية وعلى كل حال فقد اعتبرت المرأة فى هذه الفترة من التاريخ أنها شرّ لابد منه وضرر لامندوحة عنه وأنها أحبولة الشيطان والباب الذى ينفذ منه إلى فتنة الرجال ولذلك فليس لها مكان فى ملكوت السماء وأن مهمتها يجب أن تكون قاصرة على خدمة البيت وأن تربط به ويكمم فاها ككلب عقور . وبلغ الأمر بالكنيسة الأرثوذكسية إلى حدّ تحريم ممارسة الشعائر الدينية على المرأة إلا التافه منها الذى لايكاد يذكر . وقد كان ذلك آية لماوصل إليه الانحطاط العقلى والتعصب والجهل فى هذه العصور التى كانت تدّعى الانتساب إلى المسيحية ، مع أن المسيحية فى تصورهم نبعت من المرأة واعتمدت على المرأة فى إثبات أكبر معجزاتها فالمسيح ليس إلا ابن امرأة وهى مريم العذراء. ولعله من التناقض العجيب أن يؤله المسيحيون عيسى ابن مريم وأن يكون إلـهم ابنًا لامرأة ، ومع ذلك ينظرون إلى المرأة هذه النظرة الحقيرة ؛ بل إن ألوهية المسيح كما يزعمها المسيحيون لاتثبت عندهم إلا بشهادة امرأتين ، فإن معجزة المسيح الكبرى فى ظن المسيحيين التى رتبوا عليها الاعتقاد بألوهيته هى قيامته من الموت فى اليوم الثالث ونفضه عن نفسه غبار الموت ، ثم صعوده إلى السماء بعد أن خاطب المرأتين الوحيدتين اللتين كانتا إلى جوار القبر ، وطلب منهما إبلاغ نبأ قيامته إلى تلامذته ومريديه ؛ فقامت المرأتان بإبلاغ الرسالة إلى تلاميذه الأحد عشر فصدقوا بها وآمنوا بفحواها إيمانًا مطلقًا ، ونادوا بالمسيح إلـهًا منذ ذلك اليوم . وهاتان المرأتان اللتان أحدثتا هذا الحدث فى المسيحية هما مريم المجدلية ومريم أم يعقوب (على ماجاء فى الأناجيل الأربعة) . وبقطع النظر عن قيمة هذه الرواية ودعوى المرأتين التى هى محل طعن مستمر من مخالفى المسيحية ، فإنه من التناقض البيّن أن يحقر المسيحيون المرأة إلى هذا الحد الذى أشرنا إليه ، مع أنهم يؤلهون المسيح بشهادة امرأتين ، ويسلمون بأن طريقه إلى الحياة كان بواسطة امرأة (بغير تدخل الرجل) . وليس ذلك التناقض إلا آية الجهل بالمسيحية والأناجيل التى كان محظورًا عليهم أن يطالعوها . ولم تشرع المرأة المسيحية فى نفض رأسها وكتفيها من هذه اللعنة إلا بعد أن أشرقت أنوار الدعوة المحمدية ، وانبثقت من شبه جزيرة العرب فغمرت العالمين بضوئها الساطع ؛ فتجلت المرأة على صورتها بشرًا سويًّا

كاملاً ممتازًا هي والرجل سواء . والحق أن روعة الإسلام لاتتجلى فى شيء قدر تجليها فى تحرير المرأة من ربقة الذل والاحتقار ، ورد اعتبارها وإعلاء مكانتها وتخويلها كل الحقوق التى خولها للرجل ، والتى كانت قد أصبحت أثرًا بعد عين تحت تأثير الجهل والظلم والتعصب . وماكان الإسلام ليفعل غير ذلك ، وهو الدين الذى أريد به إصلاح أحوال البشر وإسعادهم فى مختلف العصور والأمكنة ، ولا صلاح ولا سعادة لبنى الإنسان مالم تقف المرأة كما خلقها الله حرة كريمة على قدم المساواة مع الرجل ، الذى يجب أن يكون مكانه منها مكان الشريك لشريكه لا السيد مع رقيقه .

الإسلام والمرأة

جاء الإسلام فى بلاد العرب بعد فترة طويلة من تفشى الفوضى والهمجية بها ، وهى الفترة التى تعرف باسم الجاهلية ؛ فكان طبيعيًّا أن يكون نصيب المرأة هو نصيبها فى كل مجتمع فسدت أحواله واختلت موازينه ؛ فكانت المرأة أحقر شأنًا من الرقيق حتى بلغ الأمر بالآباء إلى حد التخلص من بناتهن فى قسوة ووحشية لاعهد للبشر بها من قبل إذ كانوا يئدونهن وهن على قيد الحياة . وقد ظلت هذه العادات الوحشية سائدة إلى أن جاء القرآن فندّد بها وأغلظ على مرتكبيها ، وتوعدهم بالويل والثبور والعذاب المقيم فى الدنيا والآخرة : « وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت[1] » . وقد جعل الإسلام القتل جزاء لمن يرتكب هذه الجريمة .

وإذا كان الأمر قد بلغ بهؤلاء العرب إلى حد وأد البنات ، فتستطيع أن تتصوّر حظ النساء من الحياة العامة والحقوق المختلفة ، والتى يمكن أن تجمل فى كلمة واحدة وهى أنه : لاحق للمرأة فى شيء ؛ فهى من سقط المتاع وليست من المتاع النفيس ، فكانت تباع وتشترى وتؤجر وتورث ، وكان الرجل مهما علا قدره يسخر جواريه فى احتراف البغاء ، وقد يبعث بزوجته إلى رجل آخر قائلاً لها : «استبضعى[2] من فلان» وكان الرجلان يتبادلان مالديهما من نساء . وكان الولد يرث امرأة أبيه فيما يرث وله أن يتصرف فيها كما شاء . وكان العشرة من الرجال يدخلون إلى المرأة الواحدة فى ليلة واحدة ؛ فإذا أنجبت منهم ولدًا ألحقته القافة[3] بأى الرجال العشرة . وهكذا إلى آخر هذه الضروب من

---

(١) آية ٧ ، ٨ سورة التكوير .

(٢) هو استفعال من البضع ، وهو الجماع .

(٣) القافة : جمع القائف ، وهو الذى يعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود .

الفوضى والاضطراب التى تتلخص كلها فى شىء واحد : هو حقارة المرأة وضآلة شأنها عند العرب بصفة عامة ، ماخلا الطبقات الراقية منهم كقريش مثلاً حيث لم يكن أمرها إلى هذا الحد من السوء . على أن حرمان النساء من الميراث كان مسألة عامة مقرّرة ؛ فلم يكن من حق امرأة أن ترث عن أبيها فضلاً عن زوجها شيئًا من الأشياء ، وإنما كان الميراث كله من نصيب الذكور حتى ولو كانوا بعيدى الصلة عن المتوفى .

هذا هو الوضع الذى قلبه القرآن رأسًا على عقب ؛ فأحدث فى تاريخ المرأة أعظم انقلاب شهدته فى حياتها ، لاقبل الإسلام فحسب بل وبعد الإسلام بعشرة قرون وبعد الثورة الفرنسية والبلشفية .

كان أول ماقرره القرآن وأكده أن هذه الجموع من بنى الإنسان إنما تدين فى وجودها إلى الذكر والأنثى مجتمعين ، فلا فضل لذكر على أنثى أو أنثى على ذكر إلا بالعمل الصالح وقيام كل بواجبه « يـٰأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » .

« يـٰأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا[2] » .

حتى إذا فرغ القرآن من تقرير هذه المقدّمة فقد رتب عليها النتيجة المنطقية ، بأن جعل المرأة مسئولة أمام الله عن جميع أعمالها مسئولية الرجل على السواء فوعدها الحسنى إذا أحسنت كما وعد الرجل ، وأنذرها بالعقاب إذا هى أساءت ، وقاس أعمالها بنفس المقاييس التى يقيس بها أعمال الرجل ، وفرض عليها كل مافرضه على الرجل من عبادات وواجبات وفرائض وأركان ؛ غير مفرق بين الرجل والمرأة فى أى جزئية من هذه الأجزاء ، بل لقد خلط بين الرجل والمرأة فوجه الخطاب إليهما فى كل عباراته ، حتى صار من الأحكام المقرّرة فى الشريعة الإسلامية أن كل ماكلف به الرجل فالمرأة مكلفة به ، إلا إذا استثناها القرآن أو السنة بصريح اللفظ أو دل على ذلك شواهد الحال . وحسب الإنسان أن يطالع هذه النصوص لكى يتبدّد فى نفسه كل ظل للشك فى نظرة القرآن للمرأة والرجل .

---

(١) آية ١٣ سورة الحجرات .

(٢) أوّل سورة النساء .

« فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتلوا لأكفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابًا من عند الله والله عنده حُسن الثواب[1] » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرًا[2] » .

« إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجرًا عظيما[3] » .

فهذه نصوص شاملة جامعة لكل مايمكن أن يوصف به الرجل من فضائل وآداب ، وكل مايزاوله من أعمال وسعى وجهاد قد وجه القرآن فيها الحديث للمرأة مثل توجيهه للرجل . وليس وراء ذلك مطمع لأرقى النساء فى العصر الحاضر اللواتى يحاذين الرجال بالمناكب وينادين بالمساواة المطلقة مع الرجال من حيث الكرامة والمكانة والتمتع بالحقوق العامة .

ولاعجب أن يكون ذلك هو موقف القرآن بالنسبة للمرأة ، فقد كانت امرأة هى أول من آمن بالرسول على الإطلاق ، بل لعلها آمنت به قبل أن يستوثق من تكليفه برسالته ، ونعنى بهذه المرأة « خديجة » رضى الله عنها . وكانت هى التى هدأت روعه وثبتت جنانه وضاعفت ثقته بنفسه وبربه عندما حدّثها بهواجسه وكان فى شك من أمره[4] .

وكانت امرأة هى التى دفعت بعمر بن الخطاب إلى الإيمان ، وأعنى بها أخته عندما دهمها وهى ترتل آيات القرآن فكان ذلك سبب إسلامه . وكان النساء بصفة عامة أوّل الملبيات لدعوة رسول الله ، ومن أشدّ أنصاره غيرة وحماسة حتى كان منهنّ من هاجر إلى

(١) آية ١٩٥ سورة آل عمران .

(٢) آية ١٢٤ سورة النساء .

(٣) آية ٣ سورة الأحزاب .

(٤) قالت عائشة : « ... فرجع بها (ما نزل عليه من الآيات) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زمّلونى زملونى فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ... » راجع الحديث فى الصحاح . باب بدء الوحى .

الحبشة نجاة بنفسه وبدينه من فتنة المشركين ، وقد ارتد بعض الرجال عن الإسلام بعد ذهابهنّ إلى الحبشة فثبتت نساؤهم على الإسلام . وهكذا سبقن بالفضل مع أوّل من سبق ؛ بل لقد رجح رسول الله جانب إحداهن وهى «أسماء بنت عميس» على عمر عندما احتكمت إليه فى أيهما أحق برسول الله من الآخر ، وكان ذلك بعد مناقشة دارت بين أسماء وعمر فى هذا الموضوع[1] .

ولم يكن هناك موطن من مواطن الأذى والاضطهاد لم تأخذ النساء المسلمات بنصيبها الأوفر فيه ، حتى كان لإيمانهنّ وثباتهنّ وورعهنّ أعظم الأثر فى نفوس الرجال من المشركين فدخلوا فى دين الله أفواجًا وكان دخولهم تبعًا لدخول نسائهم . فليس غريبًا والحالة هذه أن يوجه القرآن خطابه للمرأة مثل خطابه للرجل ، وأن يفرض عليها كل مافرضه للرجل ، وأن يعلى من شأنها وكرامتها ويجزل عطاءها كما فعل مع الرجل .

مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق المدنية

على أن الإسلام لم يقف عند حدّ تقرير المساواة بين الرجل والمرأة فى الأمور الدينية أو من الناحية الأدبية البحتة . بل لقد ساوى بين الاثنين فى جميع الحقوق المدنية ؛ فجعل للمرأة كل ما للرجل من أهلية كاملة فى تملك الحقوق المالية والتصرف فيها بكافة أنواع التصرفات ، سواء كانت بالبيع أو الشراء أو الهبة والإيصاء أو الإعارة والتأجير أو الوكالة والإنابة ، وغير ذلك من عقود الالتزامات والمعاوضات والتبرعات ، ومايتبع ذلك من حق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضى أمام القضاء وغيره من الوسائل

(١) روى مسلم عن أبى موسى قال : «... فدخلت أسماء بنت عميس - وهى ممن قدم معنا على حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم زائرة - وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر إليه ؛ فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ؛ قال عمر : الحبشية هذه - فقالت أسماء نعم ! فقال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم ؛ فغضبت وقالت : كذبت (أى أخطأت) يا عمر ؛ كلا والله - كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكاف أرض البعداء البغضاء فى الحبشة وذلك فى الله وفى رسوله ؛ وآيم الله لاأطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم - ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله - ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك ؛ فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبى الله إن عمرا قال كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» .

المشروعة . فمتى رشدت البنت وأدركت سن البلوغ صار لها كل ماللولد البالغ من الحق المطلق فى التصرف بأموالها ومباشرة الدعاوى بشخصها ، ولم يجز للأب أو الأخ أو الزوج أن يعترض مشيئتها إلا على سبيل النصح والإرشاد ، ولم يجز لأحد أن يباشر إدارة أموالها فضلاً عن التصرف فيها بغير إذنها ورضاها ؛ وليست هى فى حاجة إلى إذن أحد لتصحيح تصرفاتها ، وهو أمر لاتتمتع به المرأة الفرنسية حتى فى عصرنا الحديث حيث تفقد أهلية التصرف فى أموالها بالزواج فلا تعود قادرة على التصرف فيها إلا بموافقة زوجها وإجازته لتصرفاتها . وحسب الإنسان هذا الفارق الخطير ليدرك عظم هذا الانقلاب الذى جاء به الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً فى حياة المرأة .

وكان طبيعيًّا وقد قضى الإسلام للمرأة بكافة الحقوق المدنية التى قضى بها للرجل أن يجعلها شريكة فى الميراث كالرجل على خلاف ماكان عليه الإجماع فى شبه جزيرة العرب من حرمان النساء من كل ميراث « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبًا مفروضًا[1] » .

ولقد كان لتقرير حق النساء فى الميراث قصة تروى فتمس أوتار القلوب وتظهر مدى مافى الإسلام وقلب الرسول من رقة وسماحة وبرّ بالنساء وعطف عليهن وتدعيم لحقوقهن ؛ فقد روى جابر بن عبد الله قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدًا وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا تنكحان إلا ولهما مال ؛ قال : « يقضى الله فى ذلك » فنزلت آية الميراث ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال : « اعط ابنتى سعد الثلثين واعط أمهما الثمن ومابقى فهو لك[2] » .

أى أن رسول الله لم يبق للعم إلا أقل من سدس الميراث ورد الباقى لابنتى سعد بن الربيع وأمهما ، وقد كان ذلك انقلابًا خطيرًا ، لم تكن أقرب المقربات إلى الرسول تحلم به فضلاً عن أن تطمح إليه ، ومع ذلك فقد قضى به القرآن فى وقت ماكان أحوج الرسول فيه إلى تأييد الرجال وسواعدهم فى القتال . وليس وراء ذلك برهان على أن الرسول لاينطق عن الهوى وإنما هو وحى يوحى .

وقد حاول البعض فى العصور المتأخرة أن يتخذ من موضوع الميراث حجة للغض من

---

(١) آية ٧ سورة النساء .

(٢) رواه الترمذى .

شأن المرأة وانتقاص أهليتها واعتبارها على النصف من قدر الرجل ، باعتبار أن نصيبها فى الميراث هو نصف نصيبه عملاً بنص الآية « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين[1] » . وليس وراء ذلك تخبط فى التأويل . فالحقيقة أن الشريعة الإسلامية على خلاف كثير من التشريعات الأخرى (التى تفرض على المرأة أن تسوق المهر لزوجها) قد فرضت على الرجل أن يكون هو الذى يسوق المهر لزوجته مهما كانت زوجته من أغنى الأغنياء . ولايصح زواج ولاينعقد بغير مهر يدفعه الرجل للمرأة كل على قدر سعته ومكنته . وفرض على الرجل بعد ذلك أن ينفق على زوجته وأن لايكلفها إنفاق شيء من مالها ؛ فكان من العدل والحالة هذه أن يزيد فى نصيب الولد والرجل على العموم بالنسبة لنصيب المرأة حيث أنه مكلف بأداء هذه الالتزامات المالية قبل المرأة ؛ فكأن مانقص من ميراث البنت هو فى مقابل ماسوف يرد لها على سبيل المهر والنفقة . فالأمر لايعدو والحالة هذه تنظيمًا ماليا قد نظر فيه إلى الأعباء والتكاليف المالية المفروضة على كل شخص ، وليس أدل على ذلك من هذا المثال الذى سقناه فى بنات سعد بن الربيع ، فقد تقاضت البنتان من الميراث مع أمهما أزيد من خمسة أسداس التركة بينما لم ينل الرجل وهو العم إلا أقل من السدس . ولو مات رجل عن بنت وأبوين لأخذت البنت نصف ماترك أبوها واستحقت بذلك نصيبًا أكبر من أبيه وهو الرجل ؛ فلو أن الأقدار تقاس بالنصيب فى الميراث لوجب أن نقول إن البنت فى هذه الحالة أفضل من الأب ، مع أن فضل الأب مقدم على كل فضل وحقه على ولده فوق كل اعتبار ، حتى لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة : «أنت ومالُك لأبيك[2] » ومع ذلك فلم يفرض القرآن للأب فى الميراث إلا السدس عند وجود الولد « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد[3] » .

ويلاحظ أن الآية من ناحية أخرى تسوّى بين الأبوين فتفرض لكل منهما السدس على سبيل المساواة ، سواء فى ذلك الأب أو الأم ، ولم يقض القرآن للوالد بالسدس عند وجود الولد إلا لأن حاجته إلى المال وقد كبر سنه وكملت تربيته لاتقاس بحاجة الولد الصغير الذى لايزال فى حاجة إلى تربية وإلى مواجهة أعباء الحياة . ومثل ذلك يقال عن البنت التى سيتقدّم من يدفع لها مهرًا وينفق عليها ، فإنها لاتكون فى حاجة إلى المال مثل

---

(١) آية ١١ سورة النساء .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ١٠ ص٢٤٥ .

(٣) آية ١١ سورة النساء .

حاجة أخيها الذى سيسوق المهر وينفق على زوجته المقبلة . وعلى هذا الضوء يجب أن ينظر إلى آية المواريث وأن يفهم سرّ مافيها من تقسيمات مختلفة ، لا أن تتخذ مقياسًا للكرامة والمكانة والاعتبار[١] .

حق المرأة المطلق فى التصرف بشخصها

على أن حق المرأة فى المساواة مع الرجل لم يبلغ ذروته إلا عندما أباح لها الإسلام حق التصرف المطلق فى شخصها ، ولم يجعل لأحد عليها من سلطان إلا سلطان إرادتها ورغبتها الحرّة الخالية من كل ضغط أو إكراه . فمتى رشدت البنت بإدراك سن البلوغ وهو ماتبلغه الفتيات فى الشرق فى سن مبكرة جدًّا لم يعد من الجائز لأحد أن يتصرف فى حريتها الشخصية بزواجها حين لاتريد الزواج ، أو بالحيلولة بينها وبين الزواج حين تريده ، أو بإكراهها على زواج من لاتحب أو تختار ؛ فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لاتنكح الأيم حتى تستأمر ولاتنكح البكر حتى تستأذن» . وفى رواية أخرى : «الثيب أحق بنفسها من وليّها والبكر تستأمر وأذنها سكوتها» . والرضاء عن طريق السكوت هو مايسمى فى القانون بالرضا الضمنى ، وسببه أن الحياء قد يحول بين البنت الصغيرة وبين أن تبدى موافقتها صراحة فيكون سكوتها متضمنًا لمعنى الموافقة ، أما إذا كان المستفاد من سكوت البنت هو عدم رضائها ، كما لو صرحت بما يدل على عدم رضائها ففى هذه الحالة يفقد الزواج ركنًا من أهم أركانه ويصبح العقد فاسدًا ، ومن حق الفتاة أن تسعى لفسخ هذا العقد حتى بعد تمامه . وقد دل على ذلك مارواه أبو داود وأحمد[٢] .عن «أن جارية بكرًا جاءت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيّرها النبىّ صلى الله عليه وسلم» ، أى إن شاءت أبقت على الزواج وإن شاءت فسخته . وروى أحمد والنسائى بإسنادهما أن فتاة جاءت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : «إن أبى زوّجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ، فجعل الأمر إليها فقالت : قد أجزت ماصنع أبى ولكنى أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء[٣] » . تعنى أنه ليس لهم إكراههن على التزوّج بمن لايرضينه .

---

(١) يحسن بنا أن نشير فى هذا الموضوع إلى ما يجرى عليه العمل فى انجلترا حيث يختص الابن الأكبر دون بقية إخوته بحملة الميراث . ولم يكن فى ذلك أدنى مساس بكرامة الآخرين أو اعتبارهم .

(٢) ج١ ص٣٧٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج(٦) ص ١٣٦

وليس وراء هذا النص إظهار لمدى الحرية التامة المطلقة التى منحها الإسلام للمرأة ؛ فهذه فتاة قد أنكرت على أبيها أن يزوّجها بغير رضاها مع أنها ليست كارهة لمن تزوّجت ، فلما خيّرها رسول الله بين أن تبقى على الزواج أو تفسخه ، ورأت فى ذلك مايحقق كرامتها ويؤكد حريتها فى اختيار زوجها ، رأت أن تحتفظ بالزوج الذى اختاره لها أبوها بعد أن فازت بتقرير المبدأ . ولم تفز المرأة الحديثة فى أرقى المجتمعات حضارة بهذا الحق إلا فى عصور متأخرة جدًّا من الناحية النظرية ، بينما كانت تتمتع به المرأة المسلمة نظرًا وعملاً منذ ألف وثلثمائة سنة على ماتنبئ هذه الأحاديث المتواترة .

وإذا كان الإسلام قد جعل فسخ الزواج بالطلاق من حق الرجل وحده فقد نظر الإسلام فى ذلك إلى صالح الأسرة وضمان بقائها ؛ فالرجل دائمًا أبدًا أحرص على بقاء الزوجية من المرأة لما أنفق من مال وتكبد من عناء حتى ظفر بزوجته . وهو على العموم أملك لنفسه من المرأة عند الغضب التى تعصف بها العواطف ، حتى تنسى فى لحظة واحدة عشر سنوات من الهناء والمودة الحب ، وماذلك إلا لفرط حساسيتها وسرعة استجابتها للعاطفة . ومن أجل هذا السبب وحده قرّر الإسلام أن يكون الطلاق حق الرجل ، ولكنه لم يحرم على المرأة استعمال هذا الحق ، بل أباح لها إذا شاءت أن تشترطه عند تحرير العقد ، فيكون لها من الحق فى تطليق نفسها مثل مالزوجها ، وهو مايعبرون عنه فى الاصطلاح بـ «العصمة» ؛ فيقولون «عصمتها بيدها» . وحتى لو لم تشترط هذا الشرط لنفسها ، فإن بمكنتها دائمًا أن تلجأ إلى القضاء إذا رغبت فى الطلاق وجدّ من الأسباب الطارئة مايبيح الطلاق ؛ لعيب خفى أو لمرض خطير أو عجز عن الانفاق أو غيبة مستمرة أو هجر طويل أو شقاق مستحكم ، وفى هذه الحالة الأخيرة يجب أن يسبق الطلاق محاولة الإصلاح والتوفيق بين الزوجين .

فإذا انفضت الشركة الزوجية سواء بالطلاق أو بوفاة الزوج فقد عاد للمرأة كامل الحرية المطلقة فى التصرف بشخصها وحريتها بالمعروف ، فليس لزوج سابق أو أب أو ابن أن يحول بينها وبين أن تتزوج من جديد ، أو أن تعود لزوجها القديم ، أو أن تأخذ بحظها من الحياة العاملة النشيطة الشريفة ؛ واقرءوا إن شئتم : «فإذا بلغن أجلهنّ فلاجناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنّ بالمعروف[1] » . «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهنّ بمعروف أو سرحوهنّ بمعروف ولاتمسكوهنّ ضرارًا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه[2] » . «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ أن ينكحن

---

(١) آية ٢٣٤ سورة البقرة .

(٢) آية ٢٣١ سورة البقرة .

أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر[١] » . « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا وصيّة لأزواجهم متاعًا إلى الحول غير إخراج ، فإن خرجن فلاجناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهنّ من معروف[٢] » . وهذا سيل متدفق من الآيات الكريمة يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولاهدف لها أو غاية إلا الضغط على إبراز حق المرأة فى حرية التصرف بشخصها ، وأن ليس لمخلوق عليها من سلطان أو يد عليها إلا الزوج أثناء قيام الحياة الزوجية وذلك لمصلحة الأسرة وبقيود وشروط سنبينها ونشرحها فيما بعد .

مشاركة النساء للرجال
فى سائر مناحى النشاط الإنسانى وضروبه

وقد كان من الطبيعى ، وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى جميع هذه الحقوق الدينية والمدنية والشخصية ، أن نرى المرأة المسلمة تشارك الرجل فى كل شأن من شئون الحياة ، وعلى أوسع نطاق يمكن أن يطوف بالذهن أو يشاهد فى عصرنا الحديث فى البلاد الراقية وتطمع فيه الفتاة المتعلمة خريجة الجامعات والمعاهد العالية ؛ فقد كان النساء يشهدن صلاة الجماعة مع الرجال فى المسجد ، ولم يكن المسجد فى عصور الإسلام الأولى كما هو الحال اليوم خاويًا خربًا إلا من راغبى الصلاة ، وإنما كان المسجد هو دار الحكم والندوة ، وهو الجامعة وهو المدرسة وهو ملتقى الوفود والحشود ، وهو دار القضاء وميدان الاحتفالات . وقد أباح الرسول للنساء التخلف إلى المسجد فى أى وقت شاءوا فى الصباح المبكر أو الليل المتأخر أو فى وضح النهار ، بل أباح لهنّ أيام الاحتفالات الدينية الجامعة أن يحضرون إلى المسجد للاشتراك فى الاحتفال دون الصلاة (إذا كان هناك عذر مانع للمرأة عن الصلاة) . بل لقد ذهب الرسول إلى أبعد من ذلك كله فندبهنّ ندبًا إلى الخروج من بيوتهنّ فى يوم العيد وللاحتفال به مع بقية المسلمين[٣]

---

(١) آية ٢٣٢ سورة البقرة .

(٢) آية ٢٤٠ سورة البقرة .

(٣) جاء فى كتاب المغنى والشرح الكبير تحت عنوان (خروج النساء إلى المصلى فى العيد للصلاة مع الجماعة) : ولا بأس بخروج النساء يوم العيد إلى المصلى . وقال ابن حامد : يستحب ذلك . وقد روى عن أبى بكر وعلى رضى الله عنهما أنهما قالا : حق على كل ذات نطاق أن تخرج إلى العيدين . وكان ابن عمر يخرج من استطاع من أهله فى العيدين . وروت أم عطية قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجهن فى الفطر والأضحى : العواتق وذوات الخدور فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ، قلت : يا رسول الله إحدانا لا يكون لها =

وقد حاول بعض الصحابة ممن لاتزال التقاليد الجاهلية تتحكم فيهم أن يحول بين زوجته وبين الذهاب إلى المسجد وخاصة بالليل لصلاة العشاء ، فأمر الرسول الرجال أمرًا أن يكفوا عن اعتراض نسائهنّ ؛ وهو مارواه البخارى من حديث ابن عمر «لاتمنعوا إماء الله مساجد الله» وقد جلس ابن عمر يحدّث يومًا بهذا الحديث فقال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيذنوا للنساء بالليل إلى المساجد» ، وكان لابن عمر ولد يسمى واقد قد جلس فيمن جلس يستمع إلى الحديث فاعترض على أبيه قائلاً : إذن يتخذنه دغلاً[1] . فضرب ابن عمر فى صدر ابنه وقال : «أقول قال رسول الله وتقول لا» . وحدّثت السيدة عائشة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يصلى الصبح بغلس[2] فينصرف نساء المسلمين لايعرفن من الغلس . وكثيراً ماكان رسول الله يسرع فى أداء الصلاة إذا سمع بكاء الطفل فى طلب أمه .

ولم تكن الصلاة هى كل مايشترك فيه النساء مع الرجال فى مكان واحد ، وإنما كنّ يشتركن والرجال فى الحج وهو مايستلزم السفر والانتقال لبضعة أسابيع إن لم يكن أشهر ، حيث لم يكن سبيل للمواصلات غير الجمل . وكان الحج ولايزال أعظم مجال لاختلاط الرجال بالنساء ، حيث يتكأكأ ألوف وعشرات الألوف من الرجال والنساء فى صعيد واحد ، بحيث يختلط الحابل بالنابل على أوسع نطاق يمكن أن يتصور .

وكانت النساء تصحب الجيوش إلى ميادين القتال ، وتقوم بكل ماتقوم به النساء فى الجيوش الحديثة من الأعمال المكملة والمساعدة ، فلم تقتصر مهمتهنّ على إسعاف الجرحى ومداواة المرضى ، وإنما كنّ يسقين العطاشى ويجهزن الطعام ويدفن الموتى وينقلن الجرحى إلى ماوراء خطوط القتال وهن فى أثناء ذلك كله يحرضن على القتال . قالت الربيع بنت معوذ (رضى الله عنها) : «كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة[3] » . وقالت أم عطية : «غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على

= جلباب ؟ قال «لتلبسها أختها من جلبابها» متفق عليه . وهذا اللفظ رواية مسلم . ولفظ رواية البخارى قالت : كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد حتى تخرج البكر من خدرها وحتى يخرج الحيض فيكن خلف الناس فيكبرن بتكبيرهم ويدعون بدعائهم يرجون بركة ذلك اليوم وطهرته .

(١) الدغل (بالتحريك) : الشجر الملتف الذى يكمن أهل الفساد فيه .

(٢) الغلس (بالتحريك : ظلمة آخر الليل .

(٣) رواه البخارى .

المرضى[1] » . وقال أنس رضى الله عنه : «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم[2] سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها فى أفواه القوم ثم ترجعات فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم[3] . وقد كان رسول الله يعطى النساء من الغنيمة مقابل كدهنّ ونشاطهنّ فى ميدان القتال على ماقرّر ابن عباس فى رده على أحد الخوارج الذى سأله فى هذا الموضوع : تسألنى هل كان رسول الله يغزو بالنساء . وقد كان يغزو بهنّ فيداوين الجرحى ويحذين[4] من الغنيمة[5] .

حق المـرأة فى التعـلم والتعـليم

على أن الموطن الأكبر الذى صالت المرأة فيه وجالت ، ونافست فيه الرجل وتفوقت عليه فى بعض الأحيان ولم يصدها عنه صاد أو يحول بينها وبينه حائل هو موطن العلم ، ذلك الموطن الذى فرضه الإسلام على المرأة كما فرضه على الرجل ؛ فما كان للمرأة المسلمة أن تخدم دينها إلا إذا تعلمت ونضج تعليمها . فليس الإسلام شعوذة أو دجلاً أو أوهامًا يحتكرها أشخاص معينون يصفون أنفسهم بأنهم سدنة الدين وحفظته . فليس فى الإسلام كهنوت أو كنيسة ؛ وإنما الإسلام علم مشاع ، بل وعلم مفروض على كل من دان به . ولذلك فقد اجتمعت الآراء على أن الحديث القائل : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» يشمل فى مدلوله كل مسلمة ؛ لأن الدين لم يفرق فى أى حكم من أحكامه بين الرجل والأنثى كما قررّنا من قبل ، ولذلك فقد تهافت النساء كتهافت الرجال على طلب العلم والتثقيف بثقافة الإسلام والاغتراف من مناهله العذاب فى شخص رسول الله والخلفاء وكبار الصحابة والعلماء من بعده . وقد كان على نساء النبىّ بنص القرآن أن يتلقين العلم عن رسول الله ليعلمنه للناس من بعده «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة[6]» .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) خدم (بالتحريك جمع خدمة) : موضع الخلخال . .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) أى يعطين الحذوة . والحذوة (بضم الحاء وكسرها) : العطية .

(٥) الحديث بطوله رواه الخمسة .

(٦) آية ٣٤ سورة الأحزاب .

وقد قامت نساء النبىّ بعد وفاة رسول الله بما عهد به إليهنّ ؛ فنقل عنهنّ المسلمون الأحاديث ومختلف الآراء والأحكام واستفتوهنّ فى أمور الدين والدنيا . على أن السيدة عائشة كانت صاحبة القدح[1] المعلى والنصيب الأوفر والأكمل فى هذا الباب ، فقد بلغت فى العلم أعلى مكانة بما لامطمع بعده لمستزيد ، حتى كان مشيخة الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان يسألونها فى بعض مايعرض لهم من المشاكل ، وكانوا يسألونها بصفة خاصة فى علم الفرائض وهو من أدق علوم الفقه وأعصاها على أذكى الأذكياء إلى وقتنا الحاضر. وقد حدّثنا بذلك ابن سعد فى طبقاته عمن كان يفتى فى المدينة بعد وفاة الرسول فقال : «وكانت عائشة تفتى فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما إلى أن ماتت يرحمها الله ، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسلون إليها فيسألونها عن السنن» . وذكر ابن سعد عن مسروق قال : «والذى نفسى بيده لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض» .

ولا يتوهمن أحد أن علم السيدة عائشة كان محدودًا بحدود الفقه والدين ؛ فقد كانت من أعلم الناس كذلك بسائر فروع العلم والمعرفة السائدة فى ذلك العصر وهى الشعر والأدب والطب ، فقد حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : «مارأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة[2]» .

ولم تكن السيدة عائشة هى الوحيدة الفذة فى ذلك المضمار ، فأمهات المؤمنين كنّ يحذين حذوها على اختلاف فى قدرة كل منهنّ ، وقد ظلت المدينة موطنًا لطالبات العلم المتفوقات فيه واللواتى اضطلعن بالفتيا إلى جوار الرجال واشتهرن بها فى بعض الأحيان . فهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى يرسل إلى عامله على المدينة أبى بكر بن محمد على ماجاء فى طبقات ابن سعد فيقول له : «انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة ماضية أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله» . وليس وراء هذه المكانة فى العلم مطمع لرجل من الرجال الأفذاذ أن يأمر خليفة المسلمين بتسجيل مايقول ومايعلمه خوفًا على العلم وضياعه ودروسه .

وقد سجل التاريخ فيما سجل اسم السيدة سكينة بنت الحسين بن على التى كانت سيدة نساء عصرها أدبًا وعلمًا وكمالاً واشتهارًا بالنقد الأدبى . والسيدة نفيسة التى قيل عنها

(١) القدح (بالكسر) : السهم . والمعلى (بفتح اللام) : القدح السابع فى الميسر ، وهو أفضلها .

(٢) كتاب نداء الجنس اللطيف للمرحوم الشيخ رشيد رضا .

إن الإمام الشافعى قد سمع منها الحديث ، وكانت هى التى صلت عليه لما مات وهناك غير ذلك عشرات الأسماء من النساء الأعلام اللواتى حاضرن فى المساجد فى الفقه والتاريخ والأدب وضربن بسهم وافر فى عالم التصوّف والطرق ، كرابعة العدوية ، والشيخة شهدة الملقبة بفخر النساء التى كانت تحاضر فى القرن الخامس الهجرى بجامع بغداد ، وفضل الشاعرة ، وزينب أم المؤيد وغيرهن ، ومن العبث أن يحاول الإنسان أن يحصى شهيرات النساء فى مضمار العلم ؛ لأن التاريخ إذ ذكر واحدة فقد أغفل العشرات لأسباب مختلفة .

وفى كلمة فإن النساء نافست الرجال فى مضمار العلم ، فليس من حرج فى أى عصر وزمان ومكان أن تحذق المرأة من العلوم كل ماتسعه قدرتها ، فالعلم كله خير وبركة ، والمتعلم أفضل من الجاهل ، بل إن المتعلم حىّ أمّا الجاهل فخارج عن حظيرة الإنسان المتمدن .

فإذا سعت امرأة فى عصرنا الحديث لحذق الفقه والقانون والتشريع فلا حرج فى ذلك ، وقد كان هذا لب ماشتغل به النساء فى صدر الإسلام ... وإذا سعت امرأة فى عصرنا الحديث لحذق فن الطب وعلومه فهى لاتقوم بعمل مرغوب فيه فحسب ، بل تؤدى عن المسلمين فرضًا من فروض الكفاية ؛ إذ يجب على فريق من المسلمين والمسلمات حذق هذا الفن وإلا أثم المسلمون جميعًا لعدم استغناء المجتمع عن هذا العلم سواء فى ذلك الرجال والنساء . وقد رأينا كيف أن التمريض والتطبيب كان ولايزال من أخص خصائص النساء فى زمنى الحرب والسلم ، وإذا كان علم الطب لم يعد ككل العلوم الأخرى ، هذا العلم الساذج البدائى ، فإن واجب الراغبة فى حذق هذا العلم أن تتلقاه فى معاهده وعلى يد أساتذته ، وأن تنال من التدريب والمران كل مايؤهلها لإحسان القيام به .

حق المرأة فى احتراف أى حرفة شريفة عند الضرورة

ولما كان الإسلام قد قضى للمرأة بالحق الأول فى استغلال ثروتها واستثمار أموالها والتصرف فيها ، فقد حق لها أن تزاول أى حرفة من الحرف الشريفة ، وأن تتعلم كل ماتراه نافعًا لإحسان قيامها على أموالها واكتساب رزقها بشرف حين فقدها العائل . فهذه السيدة خديجة رضى الله عنها كانت تاجرة من أشهر تجار قريش بعد وفاة زوجها الأول ؛ وكانت التجارة هى سبب اتصالها بالرسول هذا الاتصال الذى انتهى بالزواج الموفق السعيد ، ولا مراء فى أن السيدة خديجة كانت تعلم كل مايعلمه التجار فى عصرها من أصول التجارة وأسواقها وفنونها ، وإلا لما نفقت تجارتها وربحت ، فلو أن امرأة فى العصر

الحديث التمست علوم التجارة ومايتصل بها لما كان فى ذلك عليها حرج أى حرج ، كما لو اشتغلت بالتجارة بالفعل أو الأعمال المتصلة بها . وكذلك لو اشتغلت أى امرأة بالزراعة أو الصناعة ؛ فقد كان النساء على عهد الرسول يقمن بمثل هذه الأعمال وغيرها حسب قدرتهن دون أن ينكر عليهن الرسول حقهن فى ذلك أو يزهدهن فيه . فهذا جابر الصحابى يحدّثنا أن خالته طلقت ثلاثًا فخرجت تجدّ[1] نخلها فلقيها رجل فنهاها عن ذلك ؛ فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : «اخرجى فجدّى نخلك لعلك أن تصدّقى منه أو تفعلى خيرًا[2] » ، ولم يكن بقدرة الرسول أن يقول لها غير ذلك ، وهو الذى قضى لها بالأهلية الكاملة والحرية المطلقة والمساواة التامة مع الرجل فى الحقوق والمعاملات . وليس من عار على المرأة أن تكسب من عرق جبينها ، أو أن تكون أداة فعالة منتجة ، بل قد يكون ذلك آية شرفها وفخارها ، كما لو توفى زوج مخلفًا زوجته فى أولاده الصغار ولم يكن هناك من يعولها أو يعولهم فقامت وجدّت واجتهدت فاشتغلت بعمل من الأعمال لتربية صغارها . وكما لوكانت فقيرة ورغبت فى الاحتفاظ بعفافها وعصمتها فاشتغلت لتعول نفسها أو لتعول أبوين مريضين أو كسيحين أو مقعدين أو لتعين زوجها الذى أقعده المرض عن اكتساب رزقه . فنى كل هذه الأحوال وغيرها يكون من محامد الفتاة أو المرأة أن تكسب مايسد حاجتها وحاجة أقربائها ، ولما كانت المرأة لن تستطيع فى عصرنا الحديث أن تضطلع بأى عمل شريف إلا إذا كانت على جانب من العلم فقد صار قول الرسول بأن «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» واجب اليوم مائة مرة بأكثر مما كان بالأمس ؛ لمنفعة الدين والدنيا معًا .

حق النساء فى المساواة مع الرجال فى الحقوق العامة

بقى أن يعرف من لم يكن يعرف أن الإسلام لم يغلق فى وجه المرأة أى باب من أبواب النشاط الاجتماعى والأدبى والسياسى ، وأنه قد سار فى شوط المساواة حتى نهايته ؛ فمنح منذ ألف وثلثمائة سنة المرأة المسلمة إلى الأبد الحقوق التى لاتزال محل نزاع حتى فى أرقى الأمم الحديثة ، وأعنى بها الحقوق السياسية ، وحق تقلد الوظائف العامة ، وإبداء الرأى فى المسائل العامة ، وكل مايعرض من أمور تمسّ الصالح العام أو الصالح الخاص بالنساء بما فى ذلك الدعوة للإصلاح ومحاربة الفساد والمنكرات ، وكل مايعود بالضرر الوخيم على جماعة المسلمين . وقد فتح القرآن هذا الباب للنساء على مصراعيه بقوله : «والمؤمنون

---

(١) الجداد (بالفتح والكسر) : حرام النخل ، وهو قطع ثمرتها .

(٢) رواه أبو داود ومسلم والنسائى .

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز[1] حكيم » . فإذا علمنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايقف عن حد ، ولايحيط به نطاق معين ، بل يشمل كل مافيه صلاح للفرد والمجموع بما فى ذلك نقد للقوانين والتشريعات الموضوعة والأنظمة والأحكام وتصرفات القادة والزعماء والضرب على أيدى العابثين والمفسدين وتشجيع العاملين والمجتهدين . إذا استحضرنا ذلك فى أذهاننا استطعنا أن نقرّر أن هذا النص قد خوّل للنساء حق الاشتراك فى كل ماصغر وكبر من شئون الجماعة . مادام المقصود من هذا الاشتراك هو النفع العام للفرد والجماعة فى شئون الدين والدنيا . فلا عجب إذا رأينا المسلمات الأول يباشرن هذه الحقوق فلا يهبن فى الحق كبيرًا أو صغيرًا ، ويبسطن أراءهنّ فى صراحة وقوة ، ويتصدينّ للمسائل العامة يشتركن فى حلّها وإبداء الرأى فيها فمن ذلك أن عمر بن الخطاب عندما دعا فى خلافته إلى عدم المغالاة فى المهور ، وأنكر على الرجال إسرافهم فى إمهار النساء وحظر عليهم أن يزيدوا المهر عن ٤٠٠ درهم اعترضته امرأة وعارضته بقولها : وماذا تقول فى قول القرآن « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئًا[2] » فلم يسع عمر إلا أن يصدع بحجة المرأة من أن القرآن قد تحدث عن المهر بأوسع الصور ؛ فاعترف بخطئه وقال قولته المشهورة : امرأة أصابت وأخطأ عمر . ثم بادر باعتلاء المنبر وأعلن رجوعه فيما أصدره من قرار خاص بالمهور .

وكان إقامة المنبر فى المسجد من اقتراح امرأة مسلمة فقد روى عن جابر أن النبى ﷺ كان يخطب إلى جذع فقالت له امرأة : يارسول الله ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه فإن لى غلاما نجارا قال : « إن شئت » فعملت المنبر[3] .

ولعل أروع مثال حفظه لنا التاريخ عن مدى اشتراك المرأة فى صدر الإسلام فى الشئون العامة هو ماسجله خاصًا بأم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها ؛ فقد تزعمت تزعمًا مباشرًا الحركة المضادة لخلافة سيدنا علىّ ، ونادت بوجوب خلع بيعته والخروج عليه ومحاربته ، وأخذت نفسها بطلب الثأر من قتلة عثمان مهما عزّ جانبهم وكثر عددهم ، ورأت رضى الله عنها أن فى ترك المطالبة بدم عثمان إهدارًا لأحكام القرآن ، وتقويضًا لدعائم الإسلام ، ونشرًا للفتنة وتحريضًا للغوغاء والرعاع على الفساد وإرهاب الخلفاء . وقد اضطلعت السيدة عائشة بهذه المهمة الخطيرة فقامت خطيبة فى حجر إسماعيل من

(١) آية ٧١ سورة التوبة .

(٢) آية ٢٠ سورة النساء .

(٣) رواه الثلاثة .

الكعبة ، على ماروى الطبرى بإسناده وأجمعت كتب التاريخ على تأييده . وكانت جهورية الصوت ، فخطبت فى الناس ودعتهم إلى خلع بيعة سيدنا علىّ والالتفاف حولها للأخذ بثأر عثمان ؛ فسارع إلى تلبية ندائها بنو أمية الذين وترهم مقتل عثمان ، وأيدها قطبان من أقطاب الصحابة وهما طلحة والزبير ، وكانا ممن عهد اليهم عمر عند مقتله بانتخاب الخليفة من بينهم . وليس وراء ذلك إعلاء من شأن مكانة السيدة عائشة وتحقيق لزعامتها . وبدأت السيدة عائشة ترسل مبعوثيها بالمكاتيب والرسائل إلى أنحاء الدولة الإسلامية ، وإلى وجوه الصحابة والمسلمين تدعوهم إلى شدّ أزرها فيما نهضت من أجله . وكانت السيدة حفصة تؤازرها فى مسعاها فى بادئ الأمر ، وسارت معها بالفعل من مكة قاصدة العراق ؛ ولكن ابن عمر حال بينها وبين المضى فى طريقها فانحاز بها إلى المدينة . وأما السيدة عائشة فقد سارت فى الشوط حتى نهايته ، إلى أن كانت موقعة الجمل الشهيرة التى تزعمتها ، وكان القتال يجرى حول جملها وبإرشادها وتوجيهها . وقد[1] كان هذا المسلك من السيدة عائشة مثار بعض الاعتراضات من أقوام هالهم أن يروا زوجة النبى المفضلة تزج بنفسها فى هذا المعترك الحزبى ؛ فلما سألها هذا البعض عن سبب خروجها معترضين منكرين أجابتهن فى شجاعة وقوّة وفصاحة : «خرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ومافيه الناس وراءنا وماينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا الأمر ، وقرأت « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس[2] » ثم قالت : فنحن ننهض فى الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره[3] » . ولسنا الآن بصدد الحكم على رأى السيدة عائشة فى سيدنا علىّ وهل نوافق على مسلكها ضدّه أو نخالفها فيه ، وإنما نحن فى مقام التسجيل وتقرير المبادئ . فهذه السيدة عائشة التى شهد لها كبار الصحابة بالعلم ورجاحة العقل ، وجلسوا منها مجلس التلميذ . هذه السيدة عائشة ، وهى أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم وأقربهنّ إلى قلبه وأكثرهم إدراكاً لمراميه ومقاصده ، قد تزعمت حركة سياسية من أخطر الحركات فى تاريخ المسلمين ؛ فلم يكن يبرم أمر إلا بعد رأيها أو يبدأ قتال إلا بعد إذنها ، وكانت المراسيم والمراسلات تصدر إلى كل مكان حاملة اسمها ، وكانت هى دون غيرها من تعين الإمام الذى يصلى بالناس ؛

(١) راجع هذه الحوادث بالتفصيل فى الطبرى جـ٣ ص٤٦٨ طبعة مصطفى محمد .

(٢) آية ١١٤ سورة النساء .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٤٧٩ .

فقد حدّث الطبرى قال : «فخرجت عائشة ومعها طلحة والزبير وأمّرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فكان يصلى بهم فى الطريق وبالبصرة حتى قتل ؛ فأمّرت عائشة عبد الله بن الزبير على الصلاة فى البصرة» .

ويحلو للكثيرين من المتعصبين ضد المرأة فى الوقت الحاضر أن ينتقدوا موقف السيدة عائشة فى خفة ورعونة ، وفات هؤلاء أنهم ينتقدون زوجة النبى المفضلة فى الدنيا والآخرة ، والتى كان الوحى ينزل على الرسول وهو فى فراشها ، والتى قال عنها رسول الله : «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء» .

ولم تكن السيدة عائشة هى المرأة الأولى والأخيرة فى الإسلام التى اضطلعت بأخطر الأدوار فى حياة المسلمين ، بل اشتهر من نساء المسلمين زوجات ملوك شاركن أزواجهنّ فى تحمل أعباء الملك فى حياتهم ، وانفردن به بعد موتهم على سبيل الوصاية على أولادهنّ الصغار ؛ فنجحن نجاحًا سجله التاريخ وشهد به . وحسبنا أن نشير إلى اسم السيدة زبيدة التى لاتزال آثار إصلاحها وتعميرها فى الحجاز حتى اليوم ، حيث تجرى المياه باسمها وعلى ذكراها ، ولم يكن ذلك إلا بعض أعمالها فى مختلف أنحاء الدولة . وكذلك السيدة بوران زوجة المأمون التى اضطلعت بأعباء الملك بعد موته لصغر سنّ ولى العهد ، فأحسنت وأجادت وأنشأت المدارس والمستشفيات وحبست عليها الأموال ، وكانت تقابل الوفود والشعراء محفوفة بوزراء المملكة ووجهائها ؛ وغيرهنّ وغيرهنّ كثيرات . غير أننا لانستطيع أن ندع هذا الموطن دون أن نذكر أعظم شهيرات الإسلام على الإطلاق فى العصور المتوسطة ، وأعنى بها شجرة الدر زوجة الملك الصالح ، تلك التى يقترن اسمها بموقف حاسم من مواقف التاريخ المصرى بل والتاريخ البشرى عامة ، حيث كان لحُسن تدبيرها إنقاذ مصر من الوقوع فى يد الصليبيين وأصابتهم بالضربة القاضية التى أسر فيها ملك فرنسا لويس التاسع والتى لم يقم بعدها للصليبيين قائمة . وقد تقلدت الملك بشخصها بعد مقتل ابنها توران شاه ولقبت بملكة المسلمين ، ويقول عنها بن إياس فى تاريخه ماخلاصته : «فكانت شجرة الدر تاسع من تولّى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب : وساست الرعيّة فى أيامها أحسن سياسة ، وكانت تكتب على المراسيم بخطها والدة خليل ، وكان يخطب باسمها على منابر مصر» . ويحاول البعض دائماً الغض من شأن شجرة الدرّ بدعوى أن الخليفة العباسى فى ذلك الزمان قد كتب يعيب على المصريين تولية شئونهم لامرأة ، ولكن هؤلاء يغيب عن بالهم أن هذا الخليفة العباسى لم يستطع بكل رجولته أن ينقذ الدولة الإسلامية التى كانت فى طريقها إلى الضياع نهائيًا تحت أقدام الصليبيين من الغرب والتتار من الشرق ، وأن شجرة الدرّ المرأة هى التى استطاعت بحكمتها أن تهيئ السبيل

للجيش المصرى ليضرب الصليبيين عند المنصورة ضربة قاضية .

وهكذا اضطلعت المرأة المسلمة بكل ما أهّلتها قدرتها ورجاحة عقلها ؛ فقد قدّمنا من الأمثلة الثابتة مايدل على أن المرأة كانت تقوم بوظيفة الإفتاء وهى من أخطر الوظائف التشريعيّة . وقد أفتى الإمام أبو حنيفة بجواز ولاية المرأة للقضاء . وكانت أم الخليفة المقتدر بالفعل بمثابة رئيسة لمحكمة الاستئناف العليا ؛ فكانت تقدّم إليها الشكاوى وتحكم فى القضايا[1] ، وليس بعد القضاء منصب أرقى أو أرفع فى الدولة كلها . حتى الإمامة فى الصلاة وهى أعلى مراتب العبادات ، قد جاء من الأحاديث الصحيحة الثابتة مايبيحها للمرأة بحيث تؤم الرجال والنساء ، فقد حدّث عبد الرحمن بن خلاد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يزور أم ورقة فى بيتها فاستأذنته فى مؤذن فجعل لها مؤذنًا وأمرها أن تؤم أهل دارها ؛ قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخًا كبيرًا[2] . ويرى صحة إمامة المرأة للرجال كثير من الأئمة من بينهم المزنى والطبرى وغيرهما .

المرأة وحق الانتخاب

وغنى عن البيان أننا وقد كشفنا الغطاء عن هذه الحقوق المقرّرة للمرأة فى الشريعة الإسلامية ، فقد وجب أن يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام لم يحرم المرأة من أى حق خوّله للرجل ؛ فإذا كان العصر الحديث قد حمل فى طياته مايسمى الحقوق السياسية فلا ينبغى بحال أن تقصر هذه الحقوق على الرجل دون المرأة ، وإلا كان فى ذلك إخلال بأحكام الإسلام وروحه التى لم تفرق فى الحقوق بين الرجل والمرأة فى أى ناحية من نواحى الحياة . وقد وجب أن نذكر أن حق الانتخاب فى عصرنا الحديث ليس آخر هذه الحقوق أو ماينبغى أن يكون آخر مايفكر فى إعطائه لها .

فإذا أعطى الرجل حق الانتخاب فقد وجب أن تعطى المرأة هذا الحق على الفوز وليس فى ذلك مايدعو إلى كل هذا الضجيج والاستنكار الذى يثار حول هذا الموضوع : فحق الانتخاب كما هو محدّد فى الدساتير هو حق دافع الضرائب فى الإشراف على إنفاق مايجبى منه ، وحقه فى توكيل من يتولى عنه فى تشريع القوانين التى تسن له ، وكلا الحقين هما من حقوق المرأة باعتبارها من دافعى الضرائب كالرجل ؛ سواء أكانت هذه الضرائب دينية كالزكاة أو وضعية كسائر الضرائب . والمرأة باعتبارها نصف المجتمع من حقها أن

(١) مركز المرأة فى الإسلام لأمير السيد على .

(٢) رواه أبو داود والحاكم وابن خزيمة وصححه .

تقول رأيها فى كل شأن قد يكون فيه ضرر بالمجتمع بصفة عامة أو مساس بالنساء بصفة خاصة ؛ كما لو تعلق التشريع بالأسرة والأمومة والزواج والآداب العامة . وقد رأينا فيما تقدّم كيف دافعت امرأة عن حقوق النساء المكتسبة ضد تشريع سيدنا عمر المقترح ، وهو مايمكن أن يحدث فى كل زمان ومكان .

فإذا هال أحد الناس هذا الأمر وظنه طفرة أو انقلابًا فنحن نأسف له أشد الأسف ، ولكن تعاليم الإسلام ونصوص القرآن وسنة الرسول واضحة كل الوضوح فى تخويل المرأة كل ماللرجل من حقوق أدبية كانت أو مدنية أو مالية ، والحقوق السياسية ليست فى صيغتها إلا السبيل لحماية هذه الحقوق . ولم يستنكف رسول الله أن يبايع النساء كما بايع الرجال بعد فتح مكة .

وهاك نص البيعة كما وردت فى سورة الممتحنة : « يأيها النبىّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألاّ يُشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتينَ ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وبهذه البيعة جلس الرسول بعد فتحه مكة يبايع النساء كما بايع الرجال ، وماكان أغناه عن مبايعة النساء بعد أن دانت له رقاب الرجال وأخضعهن بقوّة السيف والسلطان ، ودانت لعقيدته وسلطانه جزيرة العرب . ولكن الرسول الذى جاء للبشر هاديًا ومصلحًا ومرشدًا ، والذى لم تكن المسألة عنده مسألة غلبة أو اقتدار وإنما مسألة عقيدة وتشريع لصالح البشر ، أبى إلا أن يتلقى بيعة النساء بعد الفتح أسوة ببيعة الرجال ، ومن طريف مايروى فى موضوع مبايعة النساء حديث هند زوج أبى سفيان فى هذه البيعة ومحاورتها ومساجلتها للرسول التى حفظها التاريخ مما يشهد لهذه المرأة بقوّة الشخصية والاقتدار . ومما رواه الإمام أحمد ويشعر أن البيعة كانت عامة فى النساء عمومها فى الرجال أن فاطمة بنت عتبة جاءت لتبايع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأخذ عليها «أن لايشركن بالله شيئًا ولايزنين» فوضعت يدها على رأسها حياء ؛ فأعجبه مارأى منها فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة فوالله مابايعنا إلا على هذا ، قالت : نعم إذن ، فبايعها بالآية .

فإذا كان هذا هو فعل الرسول وهذه نصوص القرآن فمن التعسف والجهل بنصوص الدين حرمان المرأة من حق الانتخاب متى تهيأت لمباشرة ذلك الحق بالعلم والمعرفة . ويطيب لى أن أختم هذا الباب بالترحم على الشيخ رشيد رضا ذلك التلميذ النابه للشيخ

محمد عبده إمام النهضة الاسلامية فى هذه البلاد ؛ فلذلك الشيخ الجليل فضل إرشادى إلى حق المرأة بنص القرآن فى الاشتراك فى المسائل العامة حيث قال فى كتابه الوحى المحمدى : «كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال فى المعابد الدينية والمحافل الأدبية ، ولا فى غيرها من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية ، فنزل القرآن يصارحهم بقوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[1] » فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين وتدخل فيها ولاية النصرة فى الحرب ولكن الشرع أسقط عنهن فريضة القتال» . وقال تعليقًا على هذه الآية فى كتابه نداء إلى الجنس اللطيف : «فأثبت الله للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين ، فيدخل فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالى والاجتماعى وولاية النصرة الحربية والسياسية» .

الخلاصة

إنه لايوجد نقل أو عقل يجعل من المرأة مخلوقًا أدنى شأنًا أو أقل مكانة من الرجل ؛ فالحياة تتألف منهما مجتمعين ، ويجب أن يمضيا فى الحياة شريكين متعاونين على قدم المساواة فى الحقوق العامة سياسية كانت أو اجتماعية أو مالية ، وألا يحال بين المرأة وبين التماس أى فرع شاءت من فروع المعرفة ، أو مزاولة أى وظيفة من الوظائف أو مهنة من المهن التى يؤهلها لها استعدادها وقدرتها وتضطرها إليها ظروفها الخاصة أو ظروف المجتمع العامة ، كما لو قامت حرب عامة أو غير ذلك من الظروف والأحوال . وذلك كان على شريطة ألا يؤثر ذلك فى اعتبار وظيفة المرأة الأساسية وهى أن تكون زوجة وأمًّا وربّة أسرة ؛ فهذه هى الوظيفة الطبيعيّة التى لاغنى للحياة عن قيام المرأة بها . وليس هناك أشرف للمرأة من أن تضطلع بالوظيفة التى انفردت بها من دون الرجال ، والتى لاتستقيم الحياة فضلاً عن أن تقوم مدنيّة أو حضارة بغيرها . ولذلك فيجب أن يتجه هَمُّ المجتمع أول مايتجه نحو تهيئة السبيل لبناء الأسرة ودفع الرجال والنساء إلى الزواج فالإنسال ؛ وأن يكون ذلك هو المهم الشاغل للأفراد رجالا أو نساء ، فيعتبرون الزواج هو مستقرّهم الطبيعى ، فيقدم الرجل عليه متى تهيأ استعداده له ، وتؤثره المرأة على أى عمل أو وظيفة تشتغل بها مهما علا قدر هذه الوظيفة وسما ، ويجب أن تتخلى المرأة عن كل وظيفة وعمل إذا تعارضت مع واجباتها الزوجية والأمومية ، ومتى كان فى قدرة الزوج الذى اختارته أن يكفل حياتها وحياة أطفالها عن سعة واقتدار .

---

(١) آية ٧١ سورة التوبة .

الفصل الثالث

بحث فى السفور والحجاب

ولن يكون البحث الذى سقناه فيما تقدم خاصا بمكانة المرأة كاملاً إلا إذا أتممناه ببحث موضوع الحجاب والسفور ، الذى طال فيه الجدل والنقاش من الناحية النظرية ، وإن كانت الناحية العملية قد أصدرت حكمها فيه وفقًا لما تقضى به طبائع الأشياء ومايتفق وسنة التطور والنشوء والارتقاء .

لقد أتى على المسلمين حين من الدهر ـ والمصريون من جملتهم ـ جعلهم يلخصون أحكام الدين الإسلامى ويقيمون بناءه على أساس المغالاة فى حجب المرأة والإسراف فى إبعادها عن كل مجال يظهر فيه الرجال ، حتى جعلوها سجينة البيت وقعيدته ؛ وسلبوها كل حق فى التفكير أو التعليم فضلاً عن المساهمة فى أى عمل نافع والاشتراك فى أى مجال أدبى . وذلك كله بحجة الحجاب الذى جعلوه ركنًا من أركان الإسلام ، بل وأخطر أركان الإسلام طرا وأولاها بالمحافظة والمراعاة ، حتى لتجد الرجل لايرى حرجًا فى الكف عن الصلاة والصوم متوانيًا عن أداء فريضة الحج ساخرًا بفريضة الزكاة ، ولكنه يغالى فى حجب المرأة وحبسها فى البيت والتسلط عليها ، ويرى ذلك آية تدينه وورعه وتقواه . ولعل هذا القلب للأوضاع كاف وحده لإظهار فساد الزعم أن التمسك بالحجاب هو من الدين ؛ فالإسلام قد بنى على خمسة أركان ، وليس حجب المرأة من بين هذه الأركان . فإذا جاءنا رجل يهمل الأركان الخمسة كلها ثم يدعى الإسلام بحجة تغاليه فى حجب المرأة ، وجب أن نجرده على الفور من صفة الإسلام ؛ بل وأن نجرده من الإسلام مرتين إذا كان مايعنيه بحجاب المرأة هو التسلط عليها وإذلالها وسجنها فى عقر دارها ، فإن ذلك ليس إلا رجعة للجاهلية الأولى قبل الإسلام تلك التى كان ينظر فيها إلى المرأة كشىء من سقط المتاع أو كحيوان من الحيوانات ، وليست بإنسان راق له كل حقوق الإنسان فى الكرامة والاعتبار والحرية وهو الأمر الذى جاء الإسلام بإصلاحه وانتشال المرأة من ويلاته .

لقد رأينا فيما سبق كيف خوّل الإسلام للمرأة جميع الحقوق التى خوّلها للرجل ،

ولم يجعل لرجل عليها من سلطان فى إدارة أحوالها والتصرف فيها بسائر أنواع التصرفات ؛ فلست أعرف كيف يمكن التوفيق بين ذلك وبين حبس المرأة عن استعمال هذه الحقوق ومباشرتها . ترى هل يزعم الزاعمون بالحجاب أن الإسلام قد أخذ باليسار ماأعطاه باليمين ؟ حاشا وكلا ! قد تنزه الإسلام عن ذلك ، فهو إذا أعطى حقًّا من الحقوق فهو يعطيه نصًّا وروحًا وهو يريده ويقصده ولايرى صلاحًا للبشر إلا من خلال تطبيقه ، فإذا ورثت بنت عن أبيها أو زوجها متجرًا أو مزرعة أو عقارًا فهى صاحبته وهى صاحبة الحق الأوّل فى إدارته والإشراف عليه . ومن شأن إدارة المرأة لأموالها أن تُرى فى الحقل وأن تُرى فى السوق ، وأن تُرى فى المصنع وأن تُرى فى المتجر ؛ وأن توقع عقودًا وأن تسلم نقودًا وأن تتسلمها وأن تودعها البنك وتقبضها من البنك ؛ وأن تتعامل مع عشرات من الناس ومئين وألوف فى بعض الأحيان وأن تشهد عقودًا ، وهو مانص عليه القرآن صراحة . « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان[1] » . وهذا قاطع فى إشراك المرأة فى المعاملات والأخذ بشهادتها وأن تستشهد بالشهود ، وأن تستعين بالسلطات للمحافظة على أمنها وسلامتها ، وأن تلجأ إلى القضاء لحماية حقوقها ؛ فلو أن إنسانًا ما حال بين المرأة وبين مزاولة أى حق من هذه الحقوق ألا يكون قد هدم نصوص الإسلام وأحكامه . ولو أن إنسانًا حال بين أن ترتاد المسجد لصلاة الجماعة مع الرجال ، أو أن تشهد صلاة الجمعة والعيدين ألا يكون بذلك معطلاً لشعائر الدين ، سالبًا حق المرأة حق شهود الجماعة ، مخالفًا أمر رسول الله الصريح فى وجوب الإذن للنساء بالذهاب إلى المساجد حتى ولو كان ذلك فى الليل . ولقد رأينا كيف أباح الإسلام للمرأة بل وندبها ندبًا إلى الذهاب إلى ميادين القتال لمداواة الجرحى وإرواء العطشى ومساعدة الرجال ، وهو ماكان الأوربيون يحرّمونه على النساء تحريمًا قاطعًا إلى خمسين سنة ماضية ، إلى أن كانت الممرضة الشهيرة « نيتنجيل » التى اشترعت هذا الحق اشتراعًا فى حرب القرم بعد اضطهادات شديدة جعلت منها شهيدة وقديسة .

وقد رأينا الإسلام يفتح المجال أمام المرأة للتعلم حسبما وسعتها قدرتها وشاء لها ذكاؤها ورجاحة عقلها ، بل ويفرضه عليها فرضًا . وأخيرًا رأيناه كيف خوّل للنساء حق المبايعة وحق الولاية على المؤمنين فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فكيف يجوز لرجل بعد ذلك أن يحرم امرأة ما من مباشرة أى حق من هذه الحقوق . يقول دعاة الحجاب نحن لانعارض أو ننكر حق المرأة فى كل ماترك لها الدين ، فلها أن تروح وتجئ وتقضى حاجاتها وكل ماتحتمه عليها الضرورات ، ولكن على شريطة أن تكون فى ذلك

---

(١) آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

كله محجوبة الوجه غير سافرة ، وأن تظل بمعزل عن الرجال ، فلاتخاطبهم إلا من وراء حجاب حتى لاتقع عليها العيون أو تدركها الأبصار . وذلك لايعدو أن يكون ضربًا من ضروب السفسطة ، إذ هو المطالبة بالمستحيل أو هو المقصود بقول الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفًا وقال له * إياك إياك أن تبتل بالماء

فكيف تزاول المرأة حقوقها فى إدارة أموالها إذا لم تكن سافرة الوجه ؛ ليعرف من عليه الحق أنه يؤديه لصاحبته دون غيرها ، وليعرف صاحب الحق أنها غريمته المطالبة بأداء التزاماتها . كيف تؤدى المرأة هذه شهادة أمام القضاء مالم تكن سافرة عن وجهها ، لتبين حجتها وليعرف أنها المقصودة بالاستشهاد عليها أو الشهادة لها . ولست أعرف كيف لم يسائل أصحاب نظريات الحجاب أنفسهم عن السرّ فى أن الإسلام قد أجاز للمرأة أن تسفر عن وجهها إن هى أحرمت للصلاة أو الحج .

ألا يعتبر ذلك تكليفًا غريبًا من دين يزعم الزاعمون أن الحجاب من أساسه وجوهره ، أما كان الأولى أن يحتم الدين النقاب على المرأة فى الصلاة والحج تحتيمًا منعًا للفتنة فى مواطن العبادة وتغليظًا على المرأة فى وجوب ستر وجهها ذلك هو ما كان يقتضى به المنطق لو أن الدين كان يرى حجاب المرأة ركنًا من أركانه فكيف والدين يأمر بالسفور أمرًا وخاصة فى الحج ؛ لما رواه ابن عمر من أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم « نهى النساء فى إحرامهن عن القفازين والنقاب » . بل إن سنة الحج المؤكدة المتواترة التى يجرى عليها النساء منذ عصر النبى إلى اليوم هى الإحرام بالإسفار عن وجوههن وأيديهن . فإذا علمت أن أداء فريضة الحج فى العصر الحديث تستلزم بضعة أسابيع حتى بعد اختراع الطائرة والسيارة ، وأنها كانت تستلزم فى القديم شهورًا إن لم يكن أكثر من ذلك ، وإذا علمت أنه لايوجد موطن من مواطن الاجتماع فى حياة البشر يختلط فيه الرجال بالنساء اختلاطها فى مواطن الحج حيث يشهدون مواقف معينة ، ويبيتون فى بقاع مقرّرة بغير ستر منصوب بين جار وجاره إذ لاوقت يتسع لذلك ؛ كالمبيت فى المزدلفة . ولو رأيتهم وهم يتزاحمون بالمناكب ويحتكون ويختلطون فى منى إبان رمى الجمرات وقد ضاق بهم المكان والتحمت الأجساد ، بل لو رأيتهم وهم يطوفون حول الكعبة وكأنهم كتلة بشرية واحدة وقد اندس فيهم الفاجر الذى لايرعى لله حرمة ولايتورّع عن السرقة وارتكاب أبشع الجرائم . ولو رأيتهم قبل ذلك وبعد ذلك وهم يجتازون الصحارى المقفرة فى الليالى المقمرة ، وقد طاب النسيم وسكن الليل ورقّت القلوب وفاضت العواطف ، لو رأيت شيئًا من ذلك كله أو بعضه لاقتنعت وتأكدت أن الإسلام لو كان يستوجب الحجاب فى موطن لوجب

أن يكون الحج هو هذا الموطن ، حيث يبلغ الاختلاط أشدّه ، ويختلط الحابل بالنابل والشرير بالخيّر ؛ ومع ذلك فقد قضت سنة أبى القاسم ألا يكون حج للنساء إلا محرمات ولا إحرام للنساء إلا بالكشف عن الوجه والكفين ، وكان ذلك فى حجة الوداع حيث اختتم القرآن آخر آياته ولم يعد بعد ذلك وحى يوحى أو قرآن يزاد : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[1] » .

رب قائل يقول : ولكن ذلك موطن من مواطن العبادات حيث تفتر فيه الشهوات وتعظم الحرمات ويشتغل الناس فيه بعبادة ربهم . وإنه لحق أن فى الحج لحظات يستغرق فيها التوجه إلى الله كل حواس الناس ولكن من الحق أيضا أن فى أسابيع الحج فترات طويلة يقضيها الناس فى فراغ حيث تنطلق غرائزهم من جديد ، وتتضاعف رغبتهم فى المرأة بأشد ماتملكهم فى يوم من الأيام . وليس أدل على ذلك من أن الرسول قد ندب المحرمين بالحج إلى التحلل من إحرامهم بعد العمرة والتمتع ريثما يحين أوان الحج على الرغم من أن قريشاً كانت ترى فى ذلك أفجر الفجور فى الجاهلية كما حدّث بذلك ابن عباس من أن قريشاً ومن دان دينهم كانوا يرون أن العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ... فقدم النبى وأصحابه صبيحة رابعة مهللين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم : فقالوا يارسول الله ، أى الحل قال : « الحل كله[2] » . فالرسول الذى يعرف من حالة البشر مادقّ وخفى ، وجد من الخير للمسلمين ألا يحرم عليهم مقاربة النساء طوال المدّة اللازمة للذهاب إلى الكعبة بقصد الحج والرجوع منها ، وهى ماقد تستغرق بضعة أشهر كما قدّمنا .

فليس يجوز لقائل إذن الزعم بأن أعمال الحج مهما طالت من شأنها أن تصرف الرجل عن الرغبة فى النساء ؛ فالرغبة غريزة دائمة فى نفس الرجل إذا اختفت ساعات أو أياماً فلا تلبث أن تشتعل أشدّ قوة وعنفاً مماكانت ؛ فوطن الفتنة فى الحج قائم إذن . وكان المنطق يقضى بحجب وجوه النساء فى الحج لو أن فى ذلك مايقلل خطر الفتنة وشدّتها ، وهو مالم يأمر به الرسول بل أمر بعكسه وهو كشف الوجه ، ولعل فى حديث الخثعمية الشهير شاهداً قويًّا على عدم إنكار الرسول على المرأة سفورها فى الحج ، حتى ولو خشى الفتنة فى هذا السفور .

وحديث الخثعمية هو مارواه ابن عباس من أن امرأة من خثعم جاءت فى حجة

---

(١) آية ٣ سورة المائدة .

(٢) رواه الثلاثة .

الوداع تسأل النبى صلى الله عليه وسلم عما إذا كان يجوز لها أن تحج نيابة عن أبيها الضعيف ، وكانت امرأة جميلة الوجه ، وكان الفضل بن عباس يركب فى ذلك اليوم خلف رسول الله على ناقته ، فجعل ينظر إلى المرأة وتنظر إليه ، فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر . وفى بعض ألفاظه : فلوى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنق الفضل ، فقال له العباس : يارسول الله ، لماذا لويت عنق ابن عمك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « رأيت شابًّا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما » وفى رواية « فلم آمن عليهما الفتنة[1] » . فهذا رسول الله صلوات الله عليه لا يأمن على رديفه فى ذلك اليوم من الفتنة ، ومع ذلك فلم ينكر على المرأة سفورها ولم يطلب منها حجب وجهها ، وكان كل ماعمله هو أن صرف نظر الفضل عنها لما لاحظه عليه من اشتغاله بجمالها وعدم غضه بصره عنها . بل إن مايجب أن يذكر ويفوق كل ماتقدّم هو أن هذه الخثعمية لم تكن تحج عن نفسها وإنما كانت تحج عن أبيها الشيخ الذى لايستقر على الراحلة فصدّق الرسول على حجها ؛ فعرف من ذلك أن للمرأة أن تحج نيابة عن قريبها الرجل . فأين هذا الشرع الإسلامى من رجال يظنون أن الدين كل الدين فى حبس النساء فى البيوت والمنازل ، على أن نصًّا من نصوص القرآن قد أغنانا مؤونة البحث والاجتهاد ، وذلك لنصاعته ووضوحه وصراحته « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظنّ فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ .. » الآية[2] .

وهذا نص صريح فى عدم فرض الحجاب على المرأة من ثلاثة وجوه : الوجه الأوّل هو مطالبته المؤمنين والمؤمنات أن يغضّ كل منهما من بصره فلا يحملق للآخر ويمعن فى وجهه ، ولو كانت النساء محجبات عن الرجال متنقبة الوجوه لما كان هناك محل لهذا الأمر ، إذ لاداعى له ولا ضرورة ولكان من تحصيل الحاصل ، وحاشا أن يكون ذلك كلام القرآن . أما الوجه الثانى فقول الآية : « ولا يبدين زينتهنّ إلا ماظهر منها » . وقد اتفق المفسرون والفقهاء على أن قوله « إلا ماظهر منها » مقصود به الوجه . واختلفوا فيما إذا كانت هناك ضرورة تحتم ظهور الكفين ، ولكنهم لم يختلفوا فى موضوع الوجه وأنه هو المقصود بالاستثناء . أما الوجه الثالث فى الآية فقوله « وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ » والجيوب هى فتحة الجلباب من ناحية الصدر ؛ والمطلوب من النساء بنص

(١) الحديث بتمامه فى الصحيحين .

(٢) آية ٣٠ ، ٣١ سورة النور .

القرآن هو حجب الصدر والأعناق لا الوجه المستثنى للضرورة .

ويفسر هذه الآية حديث أم سلمة من أن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها قد دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا» وأشار إلى وجهه وكفه .

حض النبي صلى الله عليه وسلم على النظر للمخطوبة

ولأصل الآن إلى قمة الموضوع وذروته حيث نرى رسول الله يحث المسلمين حثًّا على النظر إلى وجه من يعتزمون زواجها قبل الإقدام على الزواج ، ويلوم من تهاون فى ذلك أو تكاسل عنه وتقاعد ، وقرّر أن ذلك شرط أساسى لنجاح الحياة الزوجية ودوامها ؛ فقد حدّثنا أبو هريرة عن رسول الله أنه بينما كان جالساً عند رسول الله فى أحد الأيام إذ أتاه رجل فأخبره أنه معتزم زواج امرأة من الأنصار ؛ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : «أنظرت إليها» قال لا ؛ قال : «فاذهب فانظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئا»[1] . وذكر المغيرة أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما[2]» . وحدثنا جابر حديثًا أشمل وأكمل من كل ماسبق لايقف عند حد النظر إلى الوجه بل والوقوف على كل مايحبّب الرجل فى المرأة ويدعوه إلى زواجها ، وذلك بقوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل» فخطبت جارية فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها مادعانى إلى نكاحها فتزوجتها[3] .

وأحسب أنه لم يبق بعد هذه الأحاديث المتكررة المتواترة من يشك فى أن هذا التهويل الذى سار عليه جماعة من المسلمين المتأخرة فى المناداة بحجب المرأة عن أن تقع عليها عين أحد ، ليس إلا ضربًا من ضروب الجهل بأحكام الدين والتعصب الأعمى الذى يقوم على التقاليد الفاسدة ، والذى يجعلهم يضيفون إلى الدين ماهو براء منه .

---

(١) رواه مسلم والنسائى .

(٢) رواه النسائى والترمذى .

(٣) رواه أبو داود والشافعى والحاكم وصححه .

الحجاب فى الإسلام خاص بنساء النبى

على أن دعاة الحجاب ليسوا الى هذا الحد فارغين من بعض النصوص والدعاوى التى يخيل لهم أنها تؤيد دعوتهم وتعزز شبهتهم فى فرض الحجاب على المرأة ، فكلمة الحجاب قد وردت بالذات فى القرآن ، وفرضت على فريق من النساء وهنّ نساء النبى وما فرض على نساء النبى فإن بقية النساء به أولى ، لأنه إذا كان نساء النبى الطاهرات المبرآت الكريمات قد خشى عليهنّ من الفتنة وافتتان الناس بهن فكان بالأحرى يخشى على النساء الأخريات من شرّ هذه الفتنة ويخشى على الرجال منهنّ ، وهذه هى الحجة الكبرى التى يحتجون بها ، إذ يرون فى كل ما عمل الرسول قدوة وسنة يتأسون بها ، وما رآه لأزواجه فيجب أن يراه كل مسلم لزوجته . وسنرى أن مناقشة قصيرة لهذا الموضوع تحوله من دليل بفرضية الحجاب على المرأة العادية إلى دليل ضدّ هذه الفرضية .

ورد ذكر الحجاب فى القرآن فى الآية الآتية :

«يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبىّ إلاّ أن يُؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طَعِمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبىّ فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا إن ذلكم كان عند الله عظيمًا[1] »

تلك هى الآية الوحيدة التى وردت فى القرآن ومنها ذكر للحجاب . وظاهر أنها تتحدث عن بيوت النبى ونسائه ، فهى خصوصية من خصوصياته كما يدل على ذلك سبب التنزيل ، وكما يدل على ذلك صريح اللفظ فى آية أخرى سنذكرها فيما بعد . فأما سبب التنزيل فقد كان نساء النبى صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية كسائر نساء المسلمين ، يختلطن بالرجال ويتصل بهن من شاء فى أى وقت شاء ، مقتحمين فى ذلك بيوت النبى فى كثير من الأحيان فى غير استئذان ، وقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط أقوام كان من بينهم من دخل الإسلام على كره ومن كان النفاق يعمر قلبه ؛ فلا يدع وسيلة يستطيع بها إيذاء النبى وتجريحه وتلويث سمعة المسلمين إلا وانتهجها .

وكان إلى جوار هؤلاء أقوام آخرون من الأعراب الأجلاف الغلاظ ، الذين لا يعرفون شيئًا من آداب الاجتماع أو التقاليد الحميدة ؛ وكلا الفريقين كان يؤذى النبى

(١) آية ٥٣ صورة الأحزاب .

إيذاءً بليغا ، كما يتجلى ذلك من مطالعة كثير من آيات القرآن ، وكان المنافقون يتخذون زوجات النبى بصفة خاصة موضوعا للتقوّل على رسول الله والتشدق بمختلف الأراجيف ؛ كما يدل على ذلك حديث الإفك الذى اتهموا فيه السيدة عائشة وهى المطهرة المبرأة وكان بعضهم كثيرا ما يشيع أنه معتزم زواج بعض نساء النبى بعد وفاته وربما استغل سماحة الإسلام فدخل إلى أحد بيوت النبى متظاهرًا باستعارة شىء من الأشياء ليؤلف من ذلك بعد ذلك قصة طويلة عريضة تثير الظنون وتنشر الريب . ولقد توعد القرآن المنافقين بالطرد من المدينة إن هم استمروا على غوايتهم « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا[1] » . ولكن ذلك لم يحسم البلاء ، وظل أذى المنافقين والأعراب مستمرا للرسول فى نسائه . وقد هال سيدنا عمر بن الخطاب ذلك الأمر فرأى ضرورة الحيلولة دون اتصال كائن من كان بنساء النبى فألح على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحجبهن عن الرجال بقوله : يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب[2] . ولكن سيدنا محمد لم يجبه إلى اقتراحه على الفور ، إلى أن كان حادث مباشر أدى إلى نزول هذه الآية مصدّقة لاقتراح سيّدنا عمر ، وفارضة الحجاب على نساء النبى .

وهذا الحادث على مارواه أئمة الحديث والمفسرون يتلخص فى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لما تزوّج زينب رضى الله عنها دعا القوم لوليمة الزواج ؛ فطعموا ثم جلسوا يتحدّثون ، فتظاهر الرسول بأنه يهم بالقيام لينصرف القوم فلم يقوموا ؛ فلما رأى ذلك منهم قام عنهم إلى بعض بيوته الأخرى ، فقام فى أثره من قام ماخلا ثلاثة نفر جلسوا يتحدثون ، حتى إذا عاد النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل إلى زوجته وجدهم لا يزالون جلوسًا يتسامرون ؛ فاضطر النبى للرجوع من حيث أتى وهو مستاء لذلك أشدّ الاستياء ، ولكن حياءه حال بينه وبين دعوتهم إلى الانصراف ؛ فظل القوم جلوسًا ردحًا طويلاً من الزمان حتى عنّ لهم الانصراف أخيرا فانصرفوا ، فأسرع أنس إلى رسول الله وأعلمه بنبأ ذهابهم ؛ فجاء الرسول ودخل بيته فحاول أنس أن يدخل خلفه جريًا على عادته ليقوم بخدمته ، فألقى النبى الحجاب بينه وبين أنس ، وأنزل الله آية الحجاب التى تتضمن فى سياقها الإشارة إلى هذا الحادث .

« يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه

(١) آية ٦٠ سورة الأحزاب .

(٢) من حديث أنس رواه البخارى .

ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا إنّ ذلكم كان عند الله عظيما[(١)] » .

وظاهر من هذه الآية وسبب نزولها أن الحجاب لم يشرع كما يزعم الزاعمون من أعداء الإسلام وجهلة المسلمين لضعف ثقة الرسول بنسائه بصفة عامة ، وما قد يتعرضن له من الفتنة لرؤيتهن الرجال بحيث يصبح ذلك قاعدة مطـردة بالنسبة للنساء ، وإنما شرع الحجاب كما رأينا اتقاء لشرور هؤلاء المنافقين والأعراب. الأجلاف الذين كانوا لا يرعون لبيوت الرسول كرامة أو حرمة ؛ فيقتحمونها فى غير حياء ويطيلون المكث بها فى غير حضرة رسول الله ، ولا يقيمون لمشاعر الرسول وزنًا ولا يؤدون لمكانته حقها من الاعتبار . وذلك كله على خلاف أبسط قواعد الذوق واللياقة التى تقتضيها حالة الاجتماع والعمران ، فكان لابدّ من وضع حدّ لهذا الإيذاء والحيلولة بين المنافقين وبين التقول على نساء النبى وبيوته ؛ فكانت آية الحجاب تعلم المسلمين ما ينبغى عليهم من الاحترام لنبيهم ، وما يجب أن يحاط به نساؤه من التجلة والاعتبار ، فلا يراهن كل من هبّ ودبّ ، ولا يتحكك بهنّ لغير سبب أى إنسان .

فالآية خصوصية من خصوصيات النبى الخاصة بشخصه وعصره وظروفه ومكانة نسائه « يانساء النبى لستن كأحد من النساء[(٢)] » فلا يجب أن يساء تأويلها ، فتحول الجزء الخاص منها بحجب نساء النبى الى قاعدة عامة لتسرى فى كل زمان ومكان ، وأن تتخذ ذريعة لإساءة الظن بالنساء وأن لا سبيل لصلاحهنّ إلا بالتدارى خلف الحجاب . على أن ختام الآية نفسه يدل على تضمنها أحكاما خاصة بنساء النبى لا يصح تطبيقها على غيرهنّ من النساء وذلك حيث يقول : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا إنّ ذلكم كان عند الله عظيما[(٣)] » فحظر الزواج بنساء النبى بعد موتة ، وهو خصوصية أخرى من نوع خصوصية الحجاب ؛ لأن الاحترام الواجب نحو مكانة الرسول تقتضى جعل نسائه حرمًا على بقية المسلمين بعد موته ، وهى من الأمور المجمع على ألا تكون محلاً للقياس والسير على هديها ، كاختصاص النبى بالزواج بأكثر من أربعة ، فهى خصوصية ثالثة قد اختص بها من دون المسلمين .

---

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

(٢) آية ٣٢ سورة الأحزاب .

(٣) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

الحجاب كما فسره الرسول بالنسبة لأزواجه

بقى أن نعرف مدى هذا الحجاب الذى فرض على نساء النبى بمقتضى هذه الآية ، وكيف فسره الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره نساؤه من بعد ؛ هل كان مؤدّاه أن أصبح زوجات الرسول سجينات ، لا يخرجهن من بيوتهن كما يتوهم البعض ، أو هل حرمهن مما كن يتمتعن به من قبل من مشاركة بقية المسلمين فى أعيادهم وأفراحهم ونشاطهم ومناسكهم والقيام بحاجتهم . لقد حدّثتنا السيدة عائشة ببعض أحاديث توضّح لنا هذا الموضوع وتجلى غامضه فقالت لنا فيما قالت : «إن السيدة سودة بنت زمعة خرجت ليلاً فرآها عمر فعرفها فقال : إنك والله ياسودة ما تخفين علينا ؛ فرجعت إلى النبى صلى الله عليه وسلم غاضبة وهو فى حجرتى يتعشى ؛ فذكرت ذلك له وإن فى يده لعرقا[1] فأنزل عليه – أى جاءه الوحى – فرفع عنه وهو يقول : «أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن» فذلك سيدنا عمر – وهو من تعرف حماسته للحجاب وتحريضًا عليه – ظن أن آيات الحجاب وما يكملها من الأمر بالاستقرار فى البيوت «وقرن فى بيوتكن» معناه حظر الخروج على زوجات النبى لأى سبب من الأسباب ؛ فأنكر على سودة خروجها ، فأدرك الرسول ما فى اعتراض عمر من حرج على نسائه وإعنات لهن وما فيه من مخالفة لضرورات الحياة ومقتضياتها ؛ فأباح لزوجاته الخروج لحوائجهن إباحة تامة مطلقة من كل قيد أو شرط ، ولولا ذلك لحوّل نساءه إلى سجينات ، وما كان الرسول ليفعل ذلك وهو الذى حرّر نساء العالمين .

وحدثتنا السيدة عائشة فيما حدثت – على ماروواه البخارى ومسلم والنسائى – أنه كان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحرب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال «تشتهين تنظرين» فقلت نعم . فأقامنى وراءه خدى على خده وهو يقول دونكم يابنى أرفدة حتى إذا مللت قال «حسبك» قلت نعم . قال «فاذهبى» وحدثتنا السيدة عائشة – على ماروواه البخارى أيضا – أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : «ياعائشة ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو» . وفى رواية أخرى أنه قال لها : «هل لقيتم جارية تضرب بالدف وتغنى» ؟ قالت : ماذا تقول يارسول الله ؟ قال : تقول .

أتيناكم أتيناكم * فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحـ * ـمر ماحلت بواديكم

(١) العرق (بفتح العين وسكون الراء) : العظم أخذ عنه معظم اللحم . رواه الشيخان .

ولولا الحنطة السمرا * ماسمنت عذاريكم[1]

وكان من عادة الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل نزول آيات الحجاب أن يصطحب إحدى زوجاته كلما سافر ، وكان يختار هذه الزوجة بالاقتراع ؛ فظل الرسول على عادته بعد نزول آية الحجاب فى اصطحاب زوجاته . وظلت نساء النبي تخرج لقضاء حوائجها كلما أرادت . وظلت نساء النبي تضطلع بوظيفتها الروحية الكبرى فى زعامة نساء عصرهن ، حتى إذا مات الرسول صلوات الله وسلامه عليه تحوّلن إلى معلمات للأمة رجالاً ونساء ، يُستَشرْن ويُستفتيْن فى مختلف الأمور ويساهمن فى الشئون العامة ؛ كما رأينا من موقف السيدة عائشة فى خروجها على سيدنا على فى الوقت الذى كانت السيدة أم سلمة تؤازر سيدنا علىّ وتناصره .

وجملة القول أن الحجاب الذى فرض على نساء النبي لم يكن المقصود منه إلا مضاعفة التكريم لشخصية رسول الله . ولم يكن بحال من الأحوال كما يطبقه بعض الجهال من عامة المسلمين حيث يقسمون لك فى افتخار واعتزاز : أن زوجاتهم لا تخرج من البيت إلا مرة واحدة ، ولا تخرج هذه المرة إلا محمولة على الأعناق لقبرها ، ويحسب نفسه بذلك متدينًا فاضلاً ، وهو ليس إلا مستبدًا قاسيًا ، قد حوّل امرأته إلى عبد رقيق ، بل إلى ماهو أخس من الرقيق ، حوّلها إلى حيوان سجين .

يقول المرحوم الشيخ رشيد رضا : «وكل مااستحدثه الناس فى المدن والقرى الكبيرة من المبالغة فى حجب النساء فهو من باب سدّ الذريعة لا من أصول الشريعة ؛ فقد أجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء فى المساجد مكشوفات الوجوه والكفين ، وأجمعوا على إحرام النساء بالحج والعمرة كذلك . نعم إنهن كن يصلين الجماعة وراء الرجال ولكنهن كن يسافرن مع الرجال محرمات ويطفن بالبيت كذلك ، ويقفن فى عرفات ويرمين الجمار على مشهد من الرجال فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . وكن يسافرن مع الرجال إلى الجهاد ، ويخدمن الجرحى ويسقينهم الماء ، ومنهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدّم . وقد قاتل نساء المهاجرين مع الرجال فى واقعة اليرموك ، وكن يخدمن الضيوف ويقاضين الرجال إلى الخلفاء والحكام ...» . ثم استمرّ الأستاذ الكبير يناقش الموضوع على هذا النسق فيما لا يخرج عن ما قدّمناه من شواهد وأحاديث ، إلى أن ختم بحثه بقوله :

«وجملة القول ، أن أصل الشرع فى آداب النساء والرجال معروف ، وأن سد

---

(١) هذه الأبيات ذكرت فى بعض المصادر باختلاف .

ذرائع الفساد والفتنة مشروع ، وهو يختلف باختلاف الأعصار . والأمصار وإنما الحرام ماثبت بنص قطعيّ الرواية والدلالة . ومادل على طلب تركه دليل ظنى فهو مكروه . وكل رجل وامرأة أعلم بحال نفسه ونيته وحال قومه وبيئته . والقاعدة العامة فى مثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم « الحلال ما أحلّ الله فى كتابه والحرام ماحرّم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه[1] » . وظاهر من هذا القول أن الشيخ الكبير رحمه الله ممن ينكرون على القائلين بأن الحجاب من أصول الدين ، وأن القول بذلك هو خلط وتشويه لأحكام الدين ، وتحريم لما أحلّ الله بغير نص من القرآن والسنة . ولست أجد ماهو حقيق بأن أختم به هذا البحث الدينى إلا أن أسوق رأيًا لإمام من أئمة الحنابلة وهو الشيخ شمس الدين الحنبلى حيث تساءل فى كتابه (الآداب الشرعية) عما إذا كان يسوغ الإنكار على النساء الأجانب اللاتى يكشفن وجوههن فى الطريق من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ وبعد أن بحث هذا الموضوع من جميع نواحيه انتهى بالإجابة على هذا التساؤل بالنفى بقوله : « فأما على قولنا وقول جماعة من الشافعية وغيرهم من أن النظر الى الأجنبية جائز بغير شهوة ولا خلوة فلا ينبغى أن يسوغ الإنكار[2] » . أى أن سفور المرأة لا يمكن أن يكون من المسائل التى يجوز لكائن من كان أن ينكرها على المرأة ؛ متحككًا باسم الدين وتعاليمه .

هل الحجاب مانع للفتنة

بقى ما يقال من أن شرعة الحجاب وإن لم تكن من أصول الدين كما يسلم الجميع فهى من باب سدّ الذريعة ، أى اتقاء الفتنة وإيقاف شرّها ؛ فنى الإسفار عن وجوه النساء إشعال لنار الفتنة بين الرجل والمرأة ، وفى حجبها اتقاء لهذه الفتنة ودفع لأذاها . والقول بذلك جهل بسنة الطبيعة فى فتنة المرأة للرجل والرجل للمرأة ، وهو مغالطة للواقع وماأثبتته تجربة القرون الماضية ؛ ففتنة المرأة للرجل ليست فى وجهها ولكن فى طبيعتها . أى فى أنوثتها ، فالرجل ينجذب نحو المرأة بغريزته لمحض كونها امرأة ؛ فلو حجبت وجهها لتحوّلت فتنتها إلى صوتها ؛ ولأحدث صوتها فى نفس الرجل كل ما تحدثه صورتها « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » ولو أمسكت عن الكلام لأصبحت فتنتها فى مشيتها وخطراتها وحركات أعضائها « ولا يضربن بأرجلهنّ ليُعلَم ما يُخفين من زينتهن[3] » ولو كفت عن الظهور أمام الأعين لأصبحت الفتنة فى نافذة بيتها وفى ضوء

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٢) كتاب الآداب الشرعية الجزء الأول ص٣١٦ .

(٣) آية ٣١ سورة النور .

مضنباحها وفى خادمتها الصغيرة وفى هودجها قديما وسيارتها فى عهدنا . فلا سبيل إذن لاتقاء الفتنة بين الرجل والمرأة بالحواجز الطبيعية أو المادّية ؛ فالطبيعة قاهرة ، غلاّبة . ولا يمكن أن تقاوم بالوسائل المادّية بل إن هذه الوسائل المادّية كلما حاولت أن تصدّ الطبيعة كلما زاد ذلك فى قوّتها وعنفوانها ، وكلما عملت على اتساع هذه الحواجز والسدود . وليس أدل على ذلك من أنه فى أشدّ العصور استخداما للحجاب وتشدّدا فيه لم يكف الرجال والكتاب والوعاظ عن الشكوى مرّ الشكوى من الحالة الخلقية وانتشار المفاسد والموبقات ، حتى إن الإنسان منا ليحمر خجلا وهو يطالع كتب الآداب القديمة ؛ لماحوته من فضائح قديمة ومخازى لا تختلف فى شىء عما نسمع به فى أشدّ المجتمعات إباحية وانحلالاً . وحسْب الإنسان أن يطالع كتاب (ألف ليلة) وهو تصوير دقيق لما كان يجرى ويقع فى هذه العصور ليرى ماتحمر له الوجوه .. وها هى دواوين الشعراء ، وها هى كتب الأدب من ثلاثة عشر قرنًا ولا موضوع يدور حوله إلا الغزل والنسيب والتشبب بالنساء ؛ حتى أصبح التغزل بالنساء لازمة من لوازم الشعر العربى ، فلا تفتتح قصيدة إلا به ولو كانت فى مدح بطل من الأبطال وملك من الملوك ، بل حتى فى مقام الرثاء والنحيب على ميت من الأموات . ومع ذلك فقد كانت هذه القصائد تروى وتسمع فى حضرة الخلفاء فلا يعترضون عليها ، والناس تتناقلها فى إعجاب وسرور . وأمامى الآن كتب دينية تحوى من النصوص والأوصاف بعض ما يقع فى عصرها مما يندى له الجبين وما لا يمكن بحال من الأحوال أن يدعى أنه أفضل فى قليل أو كثير مما يجرى فى عصرنا الحاضر إن لم يكن أشدّ سوءًا أو شناعة فهذا الإمام العلامة البدر العينى المتوفى فى القرن التاسع الهجرى يقول فى شرح صحيح البخارى تعليقا على شكوى السيدة عائشة مما أحدث النساء بعد رسول الله :

«لو شاهدت عائشة رضى الله تعالى عنها ما أحدث نساء هذا الزمان من أنواع البدع والمنكرات لكانت أشدّ إنكارًا ، ولا سيما نساء مصر ، فإن فيهنّ بدعًا لا توصف ومنكرات لا تمنع ؛ منها : ثيابهنّ من أنواع الحرير المنسوجة أطرافها من الذهب والمرصعة باللآلىء وأنواع الجواهر ، وما على رؤسهنّ من الأقراط المذهبة المرصعة باللآلىء والجواهر الثمينة والمناديل الحرير المنسوجة بالذهب والفضة الممدودة وقصانهنّ من أنواع الحرير الواسعة الأكمام جدا ، السابلة أذيالها على الأرض مقدار أذرع كثيرة بحيث يمكن أن يجعل من قميص واحد ثلاثة قمصان وأكثر . ومنها : مشيهنّ فى الأسواق فى ثياب فاخرة ، وهنّ متبخرات متعطرات ، مائلات متبخترات ، متزاحمات مع الرجال مكشوفات الوجوه فى غالب الأوقات . ومنها : ركوبهنّ على الحمير الفره ، وأكمامهنّ سابلة من

الجانبين فى أزر رفيعة جدًّا . ومنها : ركوبهنّ على مراكب فى نيل مصر وخلجانها مختلطات بالرجال ، وبعضهنّ يغنين بأصوات عالية مطربة والأقداح تدور بينهنّ . ومنها : غلبتهنّ على الرجال وقهرهنّ إياهم وحكمهنّ عليهم بأمور شديدة . ومنهنّ : نساء يبعن المنكرات بالأجهار ويخالطن الرجال فيها . ومنهنّ : قوّادات يفسدن الرجال والنساء ويمشين بينهنّ بما لم يرض به الشرع . ومنهنّ : صنف بغايا قاعدات مترصدات للفساد . ومنهنّ : صنف دائرات على أرجلهنّ يصدن الرجال . ومنهنّ : صنف سوارق من الدور والحمامات . ومنهنّ : صنف سواحر يسحرن وينفثن فى العقد . ومنهنّ : بياعات فى الأسواق يتعايطن بالرجال . ومنهنّ : دلالات نصابات على النساء . ومنهنّ : صنف نوائح ودفافات يرتكبن هذه الأمور القبيحة بالأجرة . ومنهنّ : مغنيات يغنين بأنواع الملاهى بالأجرة للرجال والنساء . ومنهنّ : صنف خطابات يخطبن للرجال النساء لها أزواج بفتن يوقعنها بينهم ؛ وغير ذلك من الأصناف الكثيرة الخارجة عن قواعد الشريعة . فانظر إلى ما قالت الصديقة رضى الله تعالى عنها من قولها : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء . وليس بين هذا القول وبين وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلا مدّة يسيرة ؛ على أن نساء ذلك الزمان ما أحدثن جزءًا من ألف جزء مما أحدثت نساء هذا الزمان »[1]

وهذا كتاب آخر يسمى (روضة المحبين) تأليف ابن القيم الجوزى ، والمطالع لهذا الكتاب يرى فى خلال مناقشة هذا العالم الجليل لهذا الموضوع صورًا من المجتمع فى عصره ، لا تختلف فى قليل أو كثير عما يجرى فى المجتمعات الأوربية الإباحية مع فارق بسيط ، هو أن ما يقع من المنكرات فى هذه المجتمعات لا يقع باسم الدين . أما فى هذه الصور التى يسوقها ابن القيم وينكرها بطبيعة الحال ويستقبحها فإنها تجرى وتقع باسم الدين ؛ فمن ذلك ما زعموه من أن المرأة التى لا ترق لعشيقها وترحمه امرأة آثمة . وجعلوا قربة من أعظم القرب إلى الله الجمع بين عاشقين ، وساقوا لذلك الأحاديث . وكيف توسط رسول الله عند بريرة لصالح زوجها الذى طلقت منه بعد عتقها . ويشيرون لوساطة الحسين بن علىّ بين قيس ولبنى وأوّلوا الآيات . وأخيرًا جعلوا عشق الذكور للذكور من الأمور المباحة المشروعة ، خصوصًا إذا كانوا رقيقًا ؛ وذلك لدخولهم فى عموم الآية « أو ما ملكت أيمانكم »[2] .

---

(١) كتاب شرح صحيح البخارى الجزء السادس ص١٥٨ للإمام العلامة البدر العينى قاضى قضاة مصر المتوفى سنة ٨٥٥هـ .

(٢) جاء فى كتاب فارسى من العصر الإسلامى صورة رجل يمسك بقوس ويطارد غلامًا فى بركة وقد كتب تحت الصورة «أحل لكم صيد البحر» .

وغنى عن البيان أن كل ذلك فحش ومنكر تسودّ له الوجود ومع ذلك فقد كان سائدًا ومنتشرًا فى كل عصر وزمان ومكان دون حجاب أو تستر ، بل لعل الحجاب كان من أكبر أسبابه . فالذين يتصورون الحجاب مطفئًا لنار الفتنة بين الرجل والمرأة هم جدّ خاطئون وواهمون . فمنذ اشتعلت هذه الفتنة بخلق حواء وهى لا تنفك تستعر وتتقد إذ يتوقف على استعارها دوام الحياة ، وليس السبيل لاتقاء هذه الفتنة هو وضع الحواجز المادية بل وضع الحواجز المعنوية والأدبية ، وذلك بتربية المرأة تربية خلقية علمية دينية فيحملها ذلك على الاعتزاز بنفسها والمحافظة على كرامتها ، ولا كرامة لها إلا فى البعد عن الابتذال ومواطن الريب . وإذا كان من المتفق عليه أن المرأة قوية العاطفة حادة المشاعر ، فليس هناك ما يقدرها على السيطرة على عواطفها إلا بتقوية عقلها ... ولا سبيل لتقوية العقل إلا عن طريق العلم والثقافة وشعور المرأة بالكرامة ؛ فما أسهل ما تسقط الفتاة الغريرة الجاهلة المحتجبة فريسة فى يد أول عابث ، وما أعصى المرأة المتعلمة المثقفة على إجابة النزوات الطائشة . وذلك هو الذى يحدو بنا للإنكار على دعاة الحجاب بعد أن زال زمنه ، وراحت أيامه بانقشاع سحب الجهل والتعصب والاستبداد .

لقد أصبحت المرأة اليوم سافرة فى جميع أرجاء العالم ، شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا فى قارات الدنيا الست وجزر المحيطات الخمس ، وهى بذلك تنال حظًا أوفر من الحرية والثقافة والعلم والقدرة على مسايرة الرجل فى نهضته . فمن المحال أن تظل نساء المسلمين متأخرات عن نساء العالمين من حيث الكرامة والاعتبار والعلم والثقافة ؛ فإن ذلك يقعد بالمسلمين جميعا عن النهوض والارتقاء . فانحطاط المرأة يؤدى حتما إلى انحطاط الأمة كلها ؛ فما من رجل إلا وهو وليد امرأة ــ كما قدّمنا ــ وهى حاضنته ومربيته الأولى ، وعلى قدر شخصيتها وفضيلتها وعلمها واعتبارها يتكيف مزاج ابنها وموضعه من الحياة .

لقد تغيرت ظروف العالم تغيرًا جعل من المستحيل عزل الرجال عن النساء ؛ فبعد أن كانت وسيلة المواصلات هى الجمل ولا يركب الجمل إلا شخص واحد صار القطار وصارت السيارة ، بل وصارت الطيارة هى وسيلة المواصلات التى لا وسيلة غيرها ومن المحال ألا تقع العيون على المرأة وهى رائحة غادية تستعمل هذه المواصلات ... ربما كان بقدرة المرأة بالأمس أن تسدل على وجهها قناعًا وهى تسير فى الطريق ، فلم يكن فى الطريق من المخاطر ما يهدّدها أو يدعوها للإسراع فى سيرها ؛ فقد كان كل من على ظهر الأرض يدب فى بطء وتثاقل ، أما اليوم فكيف تستطيع امرأة أن تخترق شارعًا فضلاً عن

أن تنتقل من مكان إلى مكان ما لم تكن مفتّحة الأعين والآذان والحواس ، سريعة الخطو نشيطة الحركات ...؟ إن كل شيء يسير فى الحياة بسرعة ، ونحن الآن فى زمن السرعة ؛ فلم يعد هناك مجال لامرأة تسير الهوينى خلف قناعها .

نحن الآن فى عصر الميكانيكا والكهرباء ، حيث تستطيع المرأة بمجرّد إدارة لولب صغير بأصابعها أن تفتح كوبريا أو تغلقه على حسب الحاجة ، أو أن ترسل الضوء إلى مدينة أو تحجبه ، أو أن تندفع بسيارة وترتفع بطائرة ؛ فمن ذا الذى يحول بينها وبين أن تسير أو أن تطير . وهذه زميلتها فى القديم كانت تركب الفرس وتحذق ركوبه وهو مركبة القتال وآلة السفر ، ووسيلة الانتقال ... وأحسب انه من المستحيل على المرأة أن تقود سيارة وهى محجّبة ، وليس بقدرتها أن تصعد بطائرة وهى محجبة .

والحرب لم تعد كما كانت فى القديم مهنة الرجال ، بل صارت شغل الرجال والنساء والصبيان ، فكيف تضطلع المرأة بدورها فى الحرب وهى محجّبة ؛ وكيف تساعد الرجل كما كانت تساعده المسلمات الأول وهى محجّبة .

إننى أعرف أن الحجاب قد زال نهائيًّا من مصر وانتهى ، وهو لا يوجد الآن إلا بين أقلية ضئيلة من نساء المدن ، دون الريف الذى كانت المرأة فيه سافرة دائما أبدًا ، والذى تعمل فيه المرأة إلى جوار الرجل فى الحقل وفى البيت كعنصر أساسى من عناصر الإنتاج ، ولولا ذلك لما استطاعت مصر أن تحرز هذا المركز الممتاز فى عالم الزراعة . ولكنى أكتب هذه السطور لا للمصريين فحسب ، بل ولكل من له عينان للنظر وآذان للسمع من جمهرة المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، الذين جمدوا عن مسايرة الزمن بحجة المحافظة على الدين وتعاليمه ، مع أن الدين قد جاء ليكون سبيلهم للكمال والارتقاء والعظمة والمجد ، لا للتخلف والجمود والقصور والعجز... إن الدين الإسلامى يسر لا عسر ، ومعجزته الكبرى أنه دين مرن يصلح لكل زمان ومكان ، ويساير كل نهوض وارتقاء كما رأينا فيما سلف من أحكام . فليتحرك المسلمون ، ليتحركوا فالعالم كله يتحرك ومن يقف تدسه الأقدام ! .

ليس معنى السفور التبذل وزوال الاحتشام

على أن كشف الوجه إذا كان ضرورة من الضرورات ، وتخويل المرأة كل الحقوق التى تجعل منها مخلوقًا حرًّا كريمًا فعالاً متعلمًا لازم من لوازم المدنية والعمران ؛ فإن ذلك

لا يعنى مطلقا أن تخلع المرأة عنها ثوب الحياء والوقار والاحتشام ، الذى هو جوهر أنوثتها وسر جمالها وفتنتها ، وجزء لازم لقيامها بوظيفتها التى خلقتها من أجلها الطبيعة ، وهى مساكنة الرجل بالزواج فالأمومة .

فليس من دواعى الرقى أو العمران أو ما يبرره أى مبرر من المبررات أو تبيحه ضرورة من الضرورات ، أن تتشبه المرأة بالرجل فى مسلكه وتصرفاتة وتهجمه وجسارته فتختلط به فى غير تحفظ وبدون حساب . وعندى أن المرأة التى تعرض محاسنها على الرجال عرضًا لغير مبرر أو ضرورة إلا الرغبة فى الفتنة والاستمتاع ؛ كالمرأة التى تحشر نفسها وسط الرجال حشرا بغير مبرر أو ضرورة ، هى امرأة قد فقدت أخص خصائص الأنوثة ، وهى الحياء الذى يفرض عليها التنائى عن الرجال والتحفظ دونهم ، والمرأة التى تفعل ذلك تقع فريسة رخيصة للرجال بغير أن تتقاضى ما تستحق من كرامة واحترام ، أو تحصل على ما تطمع فيه من ثمن وجزاء . فلتمض المرأة إذن فى الحياة حرة كريمة ، كاملة الشخصية والاعتبار ، آخذة من الحياة كل ماتنيله الحياة لبنى الإنسان ، ولتمض ولا حجاب عليها ولا عائق أو قيد إلا من إرادتها وأخلاقها وضميرها ، ولكن على شريطة أن تلتزم بعض القواعد التى يتعين على الرجال أنفسهم التزامها . وذلك حرصًا على سلامة العمران نفسه ، وتمكينًا لقواعد المدنية والحضارة . وليست هذه القواعد إلا الوقار والاحتشام ، والتحفظ والبعد عن مواطن الريب والشبهات ، ومثيرات العواطف والشهوات . وذلك نزولاً على مقتضيات العقل ومصلحة المرأة بالذات ، وما نص عليه القرآن نصًا ودعا إليه الرسول : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بنى إخوانهنّ أو بنى أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التابعين غير أولى الإربةمن الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يُخفين من زينتهنّ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

« يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ؛ ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين وكان الله غفورًا رحيمًا[1] » .

فنى الآية الأولى توكيد لهذا الحياء الذى يجب أن يسود علاقة الرجال بالنساء فيغض

---

(١) آية ٥٩ سورة الأحزاب .

كل منهما بصره إذا ما التقى بالآخر . فلا ينبغى إذا حادث الرجل المرأة الأجنبية أو حادثت المرأة الرجل الأجنبى عنها أن يلتهم كل منهما الآخر ببصره . وفى الآية الأولى مثل ما فى الآية الثانية دعوة للتستر والاحتشام والوقار جهد الاستطاعة ؛ ليس فقط فى حديث النساء ولبسهنّ بل وفى مشيتهنّ ؛ حتى لا يظهر النساء بمظهر المستهترات المتبذلات ، فيطمعن فيهنّ الرجال العابثين الذين لا همّ لهم إلا اصطياد النساء والجرى وراءهنّ . إن الرجال لا يطمعون إلا فى المرأة التى يأنسون منها التشجيع والإغراء ؛ فعلى المرأة الشريفة الأبية أن تبتعد جهد طاقتها عن كل ما لا يحمل الأجانب على احترامها وإكرامها والانصراف عن الطمع فيها ، فضلاً عن مضايقتها ومطاردتها .

وتطبيقًا لذلك ، فليس من الدين فى شىء وليس من الأخلاق أو التقاليد ، بل ليس من الخير فى شىء سواء للرجل أو المرأة والمجتمع السليم هذه الفوضى التى تجعل من النساء شبه عاريات ، وخاصة فيما يسمى بأثواب السهرة حيث تبدو المرأة نصف عارية حاسرة ، تعرض جسدها ومفاتنها ومحاسنها على الرجال ؛ فليس هنالك ما يحفز المرأة على ذلك وما يدعو الرجل لتشجيع المرأة عليه ، إلا مجرّد الرغبة فى الاستمتاع غير المشروع بأجساد النساء ، وإتاحة الفرص لانطلاق الغرائز والشهوات من عقالها .

أما ما يحدث على شواطئ البحار حيث تتعرى النساء والرجال على السواء إلا من أبقى القليل التافه الذى أبقى عليه لمضاعفة الفتنة والإغراء ، فهو ما لا يقرّه أى عقل أو ذوق سليم فضلاً عن تقليد صالح وأحكام دين ؛ فهو كهذه السهرات الراقصة ضرب من ضروب الإباحية ونشر الرغبة فى جعل النساء ملكًا مشاعًا للجميع ، وهو ما أظهرنا فيما سبق خطره على المجتمع وما فيه من هدم لكيانه .

ومثل ذلك يقال عن كل لون من ألوان الرقص المشترك ، ومساهمة النساء مع الرجال فى غشيان دور اللهو الحرام والعبث ؛ كالحانات والكابريهات ودور الميسر والمقاهى ، وسائر الأمكنة التى يرتادها الرجال لإضاعة الوقت وإرضاء الشهوات والتحلل من القيود . فكل هذه الأمكنة يجب أن تكون محرّمة على النساء باعتبارها منكرًا من المناكر التى يجب أن تحرم على الرجال أنفسهم .

وأما القاعدة الثانية التى يجب أن يقيد بها سفور النساء واختلاطهنّ بالرجال فهى ما قرّره الرسول صلى الله عليه وسلم من أن «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم» والخلوة هى أن يضم الرجل والمرأة مكان واحد يغلق عليهما أو يبعدا فيه عن أعين الرقباء ؛ فمثل هذا التصرف لا يمكن أن تدعو إليه أى ضرورة من الضرورات ، إلا أن

تكون ضرورة التواد والتقارب الجنسى ، وهو ما يجب ألا يكون إلا على أساس الزواج وبعد تمامه . فالخلوة هى ما يجب أن يتحاشاه كل من الرجل والمرأة ، فلا يجتمع أحدهما بالآخر على انفراد لأى سبب من الأسباب إلا فى حضور أحد محارم المرأة .

وما من مجتمع من المجتمعات المتمدينة التى استتب فيها القانون والنظام إلا وهذه القاعدة من أخص تقاليده مهما بلغت فيها درجة حرية المرأة وتطورها . وفى ظل هاتين القاعدتين : قاعدة التزام المرأة جانب الوقار والاحتشام فى الثياب والحديث والتصرفات من ناحية ، وعدم اختلائها بالرجل الأجنبى من ناحية أخرى لا يعود ثمة ما يحول بين المرأة وبين أن تشترك فى كل ميادين النشاط الاجتماعى والأدبى والسياسى ، وليس من حرج أن تقع عليها الأبصار للضرورة متى لم يكن المقصود من النظر هو مجرّد الاستمتاع والافتتان ؛ إذ أنه يكون فى هذه الحالة غير مشروع ومكروه ، وذلك هو ما عناه الرسول صلوات الله وسلامه عليه عندما قال لسيدنا علىّ : «يا علىّ لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة»[1] . ذلك أن النظرة الأولى أمر تحتمه الضرورة وتبيحه ، أما النظرة الثانية أو بالأحرى إدامة النظر فهى التى لا ترمى إلا إلى الاستمتاع والافتتان .

الخلاصــة

إن هذا الحجاب الذى يفرضه بعض المسلمين على نسائهم باسم الدين ، ليس أصلا من أصول الدين ولا هو ركن من أركانه . وإن ما قيل عنه من أنه من باب سدّ الذريعة بدوره غير صحيح ؛ لأن العصمة الحقيقية للمرأة إنما تكون فى دينها وعملها وشخصيتها لا فى حجبها عن الأنظار وحبسها فى عقر الدار ، فقد أثبتت التجربة أن ذلك لم يؤدّ ولا يمكن أن يؤدّى إلى النتيجة المرجوّة ، فضلاً عما فى ذلك من إهدار لكرامة المرأة والحيلولة بينها وبين مزاولة حقوقها التى خوّلتها لها الشريعة . فليس من ضير على المرأة المسلمة أن تكشف عن وجهها وكفيها فى حدود الاحتشام والوقار ، وأن تختلط بالرجال للضرورة فى مواطن الجهاد والعبادة والعلم والأسواق ، على ألا تخلو بأجنبى عنها لأىّ سبب من الأسباب إلا فى حضور أحد محارمها .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

الفصل الرابع

الشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية

نعود الآن بعد هذا الاستطراد المسهب فى مناقشة حقوق المرأة ونظرية السفور والحجاب إلى ما كنا بسبيل تقريره ، وهو أن الحياة الزوجية هى ما يجب أن يكون هدف كل رجل وامرأة . فالأسرة ـ وليس الفرد ذكرًا كان أو أنثى ـ هى خلية المجتمع الأولى ، ولا صلاح لأى مجتمع من المجتمعات إلا بصلاح هذه الخلية الأولى . وقد حان الوقت الذى أفصل لك فيه يابنى بعض الشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية ، أو بالأحرى لنجاح الأسرة وازدهارها وتوفيرها أكبر نصيب من السعادة لأعضائها وأكبر نصيب من القوّة لمجتمعها . ولعل أوّل ما يخطر على الذهن التساؤل عن ميعاد الزواج وأوانه أو بالأحرى :

السنّ الصالحة للزواج

لم يكن للزواج فى القديم سن معينة لا يصح الزواج قبلها إلا السن الذى تحدّده الطبيعة ببلوغ الفتى والفتاة سن النضج الجنسى ، وهو أمر يتم عادة فى العام الرابع أو الخامس عشر بالنسبة للفتى وقبل ذلك بالنسبة للفتاة ، فكان الزواج يجرى فى هذه السن وحولها ؛ بل لقد جرت عادة الناس أحيانا على أن يزوّجوا أولادهم وبناتهم قبل هذه السن ، وما ذلك إلا لأن ظروف العالم الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية كانت من البساطة والسذاجة بحيث تسمح لمثل هذا النظام الذى كان ينظر فيه إلى المرأة بامتهان واحتقار ، وأنها ليست إلا مجرد وسيلة لإطفاء الشهوة وخدمة الرجل بعد ذلك . ولكن تطور أحوال العالم وتغير ظروف المعيشة ، وما أصبح على الرجل أن يحصله من علوم ومعارف واستعداد ومران قبل أن يقدر على اكتساب رزقه على وجه الكفاية لإنشاء أسرة ، وكذلك الحال بالنسبة للمرأة التى لم تعد مهمتها فى تدبير حياة زوجها وتربية أولادها بالمهمة السهلة كما كانت فى القديم . كل ذلك قد جعل من أوجب الواجبات تأخر سنّ الزواج ، ريثما يكمل نضوج الشاب واستعداده وشق طريقه فى الحياة حسب وسائل العصر وظروفه ، وذلك قد لا يتهيأ قبل سنّ الخامسة والعشرين إذا كان قد اشتغل

بالدراسات العالية ، وقبل ذلك بقليل إذا كان قد اختصر طريق التعلم واحتراف حرفة من الحرف ؛ وعلى أى حال فإن بلوغ هذه السنّ لازم لتحقيق قدر معين من تجربة الحياة ، والتخفيف من حدّة اندفاع الشباب التى تكون على أشدّها وأقواها قبل هذه السنّ. وليس معنى ذلك أنه يجب أن يحظر أو أن يحال دون أى شخص وبين الزواج قبل هذه السنّ ؛ فقد يتحقق النضوج العقلى والاستعداد المالى قبل هذه السنّ بكثير ، ولذلك فمتى صار أى شخص من الأشخاص راشدًا بحكم القانون فى إدارة أمواله ، فقد صار من حقه أن يتصرف أيضا فى شخصه بالزواج ، ولكن الزواج قبل الخامسة والعشرين ربما كان سببًا فى إرهاق الشاب وعرقلة نهوضه وشق طريقه فى الحياة بنجاح. ولا ينبغى من ناحية أخرى أن يتأخر زواج الشاب بأية حال من الأحوال عن سنّ الثلاثين وإلا كان معنى ذلك أن الشاب قد ضيع زهرة شبابه والحلقات الأولى من رجولته فى الاضطراب والفوضى والتيارات الخطرة والحياة القلقة.

أما بالنسبة للفتاة فكل زواج قبل نهاية العقد الثانى من عمرها (أى قبل العشرين) هو زواج مبتسر سابق لأوانه ، وليس من شأنه فى أيامنا الحديثة أن يهيئ زوجة وأما ناضجة من الناحية العقلية ، بعد أن صارت تربية الأبناء تربية صالحة تستدعى قدرًا كبيرًا من العلوم والمعارف ، ومصاحبة الزوج فى حياته ومشاركته آراءه وأفكاره وأحزانه وأفراحه وعلانيته وأسراره تستدعى درجة علمية من الثقافة ، بل إن طبيعة حياتنا العمرانية قد قللت من استعداد المرأة البكر للاضطلاع بأعباء الحمل والوضع والرضاعة والحضانة فى زمن مبكر ؛ فأصبح لابدّ لها من سنوات أكثر بعد نضوجها الجنسى لتؤدى وظيفتها فى الأمومة بغير إضرار بصحتها ، وسنّ العشرين أو حول ذلك هى السنّ التى تستطيع فيها الفتاة أن تكون صديقة لزوجها وشريكة له منذ اليوم الأول لزواجها ، وأن تكون أمًّا صالحة منذ اليوم الأول لميلاد طفلها الأول.

وجوب التكافؤ بين الزوجين

ومن ألزم لوازم الزواج لإمكان نجاحه وتوفيقه وتحقيق أجمل صوره وغاياته ، أن يكون هناك تكافؤ بين مختلف ظروف المرأة وظروف الرجل. وليس معنى ذلك أنه يجب أن يوضع قيد على حرية المرأة أو الرجل فى اختيار الزوج الذى يريد ، فهذه مسألة يجب أن تترك للشخص نفسه ولا يصح التدخل فيها بحال ؛ لأنها من حقوق الفرد المقدسة رجلا كان أو امرأة. ولكن الذى يحسن بالرجل أو المرأة اللذين يريدان أن ينعما بزواجهما

وأن يوفقا فيه أن تكون ظروف كل منهما متقاربة من حيث البيئة والثقافة - والغنى والجمال والسن والجنسية .

فالرجل الرفيع الذى يتزوج بوضيعة كالرفيعة التى تتزوج بخسيس ، لا يمكن أن تستقيم لهما حياة زوجية ، والغنية التى تتزوج بالفقير ، والغنى الذى يتزوج بفقيرة ، والجميلة التى تتزوج بدميم والجميل الذى يتزوج بدميمة ، والصغير الذى يتزوج بكبيرة والكبير الذى يتزوج بصغيرة ، والوطنى الذى يتزوج بأجنبية والوطنية التى تتزوج بأجنبى كل هذه مفارقات من شأنها أن ترتطم بها سفينة الحياة الزوجية إن عاجلاً أو آجلا ، فتعرضها للدمار والبوار ، فيما خلا الأحوال النادرة الشاذة التى لا يجب أن يقاس عليها أو أن تكون قاعدة من قواعد الزواج .

إن أول ما يوصف به الزواج المنطوى على إخلال بالتوازن بين الزوج والزوجة أنه لم يكن خالصًا لوجه الله ، أو بالأحرى لوجه الحياة الزوجية كما أعدها الله وهيأها لتكون سكنا للزوجين ومحبة ووددًا وصداقة ، وإنما هو زواج قد أريد به المنفعة والمآرب المادية وإرضاء الشهوات العاجلة ، ومحال أن يستقيم زواج بُنى على المطامع أو الغلو فى الشهوات . إن أخص خصائص الزواج أن ينظر كل من الزوجين إلى الآخر باحترام وتوقير ، وأن يكون محل ثقته ، ولن تحترمْ المرأة رجلاً تزوّجها لمالها أو جاهها ونفوذ عائلتها ؛ كما أن المتعلم لن يستطيع أن يكرم امرأة جاهلة ، والوطنى لن يستطيع أن يحظى بكل عاطفة الأجنبية التى عاشت ونمت وترعرعت فى بيئة غير البيئة ، ولها ذكريات وأماكن تتجه نحوها ببرها وعاطفتها غير التى يألفها أو يكرمها زوجها .

ولقد دلت التجارب على أن كل زواج مبنى على غير التكافؤ أو التوازن كما نسميه لا يلبث أن ينفرط عقده لدى قيام أزمة بين الزوجين ، إذ سرعان ما يقذف الطرف الممتاز الطرف الآخر فى وجهه بما هو عليه من نقص أو خساسة فلا يمكن أن تستقيم الحياة بعد ذلك أبدًا ؛ كأن يقول الغنى للفقيرة : لولاى لكنت الآن تتسولين . أو كأن تقول الرفيعة للوضيع : إنها كانت مجنونة عند ما قبلت الزواج بخسيس مثله . أو أن تقول الإنجليزية لزوجها المصرى : ما أنت فى نهاية الأمر إلا متوحش همجى أفريقى وهكذا .

والزواج كأية شركة من الشركات لا يمكن للإنسان أن يحرص عليها إلا إذا وجد فائدته المحققة فى الاحتفاظ بهذه الشركة ، ولن يشعر كل من الزوجين بالاطمئنان إلى الشركة الزوجية إلا عندما يدرك كل الإدراك أنه لم يكن مغبونا فى صفقته من أى وجه من الوجوه .

على أن الخطر الأشد الذى نجم من كل زوجية غير متكافئة ، إنما يتجلى بالنسبة للأولاد الناجمين عن هذا الزواج ، حيث تقتضى أصول التربية أن يكرموا أبويهم وأن ينظروا إليهما بتوقير واحترام . فإذا كان أحد الأبوين على جانب من التفوق والامتياز فى ناحية من النواحى دون الآخر ، شبّ الأولاد وشقهم مائل نحو أحد الأبوين وهم معرضون عن الجانب الآخر ؛ فيحيطون أمهم أو أباهم حسب الظروف بتقديرهم واعتبارهم وإقبالهم وطاعتهم بينما يزدرون الطرف الآخر ولا يقيمون له وزنًا . ولن يكون مثل هؤلاء الأولاد نافعين لأنفسهم أو أسراتهم أو وطنهم ؛ لأن مركز التوازن فى نفوسهم قد اختل واضطرب .

وجوب رضاء الزوجين عن العقد طواعية واختيارًا

وإذا كانت الكفاءة بين الزوجين ضرورة لنجاح الأسرة مرة واحدة ، فإن الرضا المتبادل بين الزوجين والسابق على إتمام العقد ضرورى مائة مرة ؛ فلن تفلح أسرة شيدت على الإكراه والعنف وإغفال موافقة أحد الطرفين . فالزواج وهو ليس إلا عقدًا يربط شخصين إلى الأبد ، بل ويربطهما بأقوى من رابطة الدم ، ويترتب عليه من النتائج القانونية والمالية والاجتماعية ما لا يترتب على إبرام أى عقد آخر من العقود هو فى مقدمة العقود إيجابا للرضا المتبادل بين المتعاقدين ، وأن يكون رضًا عن طواعية واختيار غير مشوب بإكراه أو غش أو تدليس . وهذا ما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على النظر إلى المخطوبة قبل الزواج ويقول «فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينكما» حتى يكون الزواج عن اختيار ورضًا وهذا ما حدا به من ناحية أخرى إلى أن يجعل موافقة البنت على الزواج ركنًا أساسيًا من أركان الزواج الذى لا يتم إلا به ، حتى ولو كانت البنت جارية صغيرة لم تبلغ بعد سن الرشد : «لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن» . ولذلك كان من أوجب الواجبات أن يحيط كل من الزوجين بظروف الآخر قبل الزواج ، وأن يراه وأن يرى من أحواله وظروفه ما يحمله على الاقتران به ، والاشتراك معه فى تأسيس الأسرة وإنجاب نسل مشترك .

وغنى عن البيان أن ما يتمشدق به بعض الجهال والمتعصبين من أن بناتهم لا رأى لهن فى الزواج إنما الكلمة كلمتهم أولاً وأخيرًا ليس من الدين أو الحكمة فى شىء ، وأن زمنه قد زال وانتهى لا منذ القرن العشرين كما يتوهم البعض بل منذ القرن السابع الميلادى بعد بعث الرسول العربى الكريم[1] .

---

(١) راجع ما ذكرناه عن حق المرأة فى التصرف فى شخصها بالزواج وغيرها فى الفصل الثانى ...

الصحة الجسدية ووجوب كمالها فى الزوج والزوجة

وثمة شرط مجوهرى آخر ، يجب أن يتوفر قبل المضى فى عقد أى زواج أو بناء أى أسرة ، وذلك هو الصحة الكاملة لكل من الزوجين وخلو كل منهما من الأمراض السرية الخبيثة ، أو الأمراض المزمنة الخطيرة كالسل والسرطان والجنون . فإن هذه الأمراض كلها تنتقل بالعدوى لا إلى الطرف الثانى فحسب بل وإلى الأولاد من بعد ؛ فيشبون منكوبين بأمراض مستعصية لا حيلة لهم فى التخلص منها ولا سبيل لتذوق الحياة مع سريانها فى دمائهم . إن قانون الوراثة هو قانون مطرد ينقل إلى الأبناء كل خصائص الآباء ، ويورّث الأبناء أحسن ما فى الآباء والأمهات من خصائص ؛ فلو اهتم كل صحيح الجسد والعقل ألا يتزوّج إلا بمن هى صحيحة الجسد والعقل ، لشب الأطفال فى أحسن حالة من حيث القوى البدنية والعقلية والاستعداد للحياة والتطوّر . وتلك هى سنة الله فى خلقه ، وقد اكتشفها الإنسان منذ أقدم العصور واستخدمها فيما استأنس من حيوانات ونباتات ؛ فراح لا ينمى منها إلا السلالات الجيدة ذات الخصائص الطيبة . والإنسان أحرى من الحيوان والنبات بتطبيق هذه القاعدة على نفسه لتحسين النوع وارتقائه ، وإنجاب نسله فى خير الظروف وأكملها ؛ وتلك مسألة يجب أن يتدخل فيها التشريع ، فلا يؤذن بزواج إلا بعد تحقق فعلىّ من سلامة جسدى الزوج والزوجة من كل مرض خطير أو معد مستعص ينتقل بالوراثة ، وأن يتحقق كذلك من القوى العقلية وسلامة مراكز الأعصاب الحيوية ؛ فإن بعض الأشخاص يكونون مختلى الأعصاب اختلالاً يورّث شركاءهم فى الحياة شرّ المتاعب والآلام ، ويورّث هذا الاختلال لأولاده من بعده . وهذه أمور يجب أن تعالج قبل الزواج ، بحيث لا يقترن الإنسان ولا يختار أمًّا لأولاده إلا صحيحة قوية فى جسدها وقواها العقلية والعصبية ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» . وليس أقل درجة فى الأهمية مما سبق وجوب التأكد قبل الزواج من صلاحية كل من الزوج والزوجة للقيام بوظيفة الزوجية الحيوية ، وأعنى بها التناسل . فليس هناك ما يقوّض هناء الأزواج وما يهد كيان الأسرات من عجز أحد الزوجين عن أداء وظيفته الحيوية ، مع أن بعض التوجيهات والإرشادات والعلاجات الطبية التى تعطى للزوج أو الزوجة قبل الزواج قد تضاعف فى سعادة الزوجين وتدعم حياتهما الزوجية . وهذه مسألة من أكبر ما تعنى به الشريعة الإسلامية التى تبيح الطلاق بناء على طلب المرأة أو الرجل ، إذا اكتشف كل منهما فى الآخر بعد الزواج عيبًا خفيا فى هذه الناحية كعجز الرجل المطلق عن القيام بوظيفته الجنسية . فلو جرى التحقيق قبل الزواج من سلامة الزوج وصحته ، والمرأة وصحتها لاستغنى عن طلب الطلاق المتأخر

لهذا السبب ، والذى يجر وراءه الفضيحة والعار والزراية . فالكشف الطبى السابق على الزواج والذى يتعين على التشريع أن يفرضه ، يجب أن يتناول فيما يتناول هذه الناحية ، على ألا تكون سببًا مانعًا للزواج إذا ارتضته المرأة وقبلت الرجل على أساسه ، وذلك على خلاف الأمراض الخطرة الأخرى ؛ كالزهرى أو السل أو السرطان التى يجب ألا يتم الزواج بأى حال من الأحوال مع قيامها .

حق كل من الزوجين على شريكه

إذا توافرت الكفاءة بين الزوجين وتم اقترانهما عن رضًا واختيار ، وكانت قواهما الجسدية والعقلية صحيحة : سليمة ، فليس هناك ما يحول دون نجاح الحياة الزوجية واستمرارها مدى حياة الزوجين ، بل وبعد وفاة أحدهما حيث يستمر الآخر مخلصًا لذكراه أمينًا على عهده راعيًا لأولاده ، واصلاً ما وصل مقاطعًا ما قطع مكملاً لما بدأ . بل إن نجاح الزوجية يتجلى أثره فيما وراء ذلك فى هؤلاء البنين والحفدة ، الذين تتفرع إليهم شجرة الأسرة ، بحيث تصبح وقد طاب جناها وتضوع أريجها ، وثبت أصلها وارتفع فرعها إلى السماء . على أن نجاح الأسرة وتوفيقها الكامل وقيامها بدورها فى الحياة ينبوعا للسعادة والهناء للزوجين والأبناء ، لا يتم أو يتحقق إلا إذا راعى كل من الزوجين حقوق الآخر عليه وحق الأبناء عليهما وحقهما على الأبناء .

وتتلخص هذه الحقوق فى كلمات قلائل : الطاعة لرب الأسرة ، والإكرام لربتها والبر والرعاية بالأبناء .

فأما الطاعة لرب الأسرة ، نعنى به الرجل ، فهذه هى حجر الزاوية فى بناء الأسرة وضمان هنائها ورقيهاوتطوّرها ، فللرجل على زوجته حق الطاعة ... الطاعة التامة المطلقة التى لا تحتمل جدلاً أو مناقشة ، فإذا فرّط الرجل ؛ فى هذا الحق أو نازعته فيه زوجته اضطربت الحياة الزوجية وتزعزعت ، ولم تلبث أن تعثرت أو يحيق بها الدمار . ذلك أن الزواج ليس إلا شركة ، ولابد لكل شركة من رئيس يديرها ويتكلم باسمها ، ويكون صاحب الكلمة الأخيرة فى شئونها ؛ ليمكن البت فى مصالحها وكل ما يحقق سعادتها ونفعها . وعلى الزوجة أن تدخل فى طاعة زوجها دون أن ترى فى ذلك أى غضاضة أو مساس بحريتها وكرامتها ، ما دامت قد دخلت فى هذا الزواج حرة مختارة ، وكانت لها الكلمة الأخيرة فى ارتضاء الرجل الذى خوَّلته حق رئاسة الشركة الزوجية . وهى فى ذلك تشبه الجماعة فى أمة ديمقراطية ، حيث تختار من بينها رئيسًا توليه زمامها ، وقيادتها ، وتخضع له وتطيع ، بدون أن يكون فى ذلك أى معنى للمساس بحريتها أو كرامتها أو

حقوقها ؛ لأن الرئيس لم يفرض عليها فرضًا ولم تكره على الخضوع له ، وإنما فعلت ذلك لتحقيق النظام ، وبناء المجتمع الذى لا يمكن أن يستغنى عن رأس يديره ، ويدين له سائر الأعضاء بالولاء والطاعة .

قد يقول قائل : ولكنك وقد سويت بين الرجل والمرأة فى كافة الحقوق والواجبات ، لماذا تخص الرجل بحق الرئاسة دون المرأة دائما ؟ ولماذا لا تكون هذه الرئاسة بحسب الظروف ؛ فتارة تكون للرجل وتارة للمرأة . الجواب على ذلك : أن الوضع الطبيعى قد قضى بهذه الرئاسة للرجل ؛ لأن الرئاسة دائما من نصيب الأقوى والأقدر على حماية المجموع والدفاع عنه ، ولا مراء فى أن الرجل بصفة عامة أقدر من المرأة على حماية مصالح الأسرة والذود عنها والكدح من أجل تدبير معاشها . وذلك هو دوره الذى أعدّته من أجله الطبيعة ، وسلحته بما يحتاجه من أسلحة فزادته بسطة فى الجسم والعقل (حسبما تدل عليه التشريحات الطبيّة) . والرجل من ناحية أخرى هو المسئول عن إعاشة الأسرة وإعالتها ، وبقدر المسئولية تكون الحقوق . ومن أجل ذلك وجب أن يكون الرجل هو رئيس الشركة الزوجية دائما ، ولا عبرة بالاستثناءات والأحوال الشاذة ؛ حيث تتزوّج امرأة قادرة برجل عاجز أو غنية بفقير أو عالمة بجاهل . فقد بينّا فيما سبق ، أن مثل هذا الزواج الذى لا تتحقق فيه الكفاءة بين الزوجين هو زواج غير طبيعى وغير عادى ، ولا يمكن أن ينشأ عنه إلا الاضطراب وانقلاب الأوضاع[1] . أما فى الزواج الطبيعى حيث تتكافأ ظروف الرجل والمرأة يكون الرجل هو الأحق بالرئاسة ؛ لأنه يكون أكثر تفوقًا وأكثر قدرة على القيام بأعباء الأسرة . فما بقيت المرأة غير متزوّجة فحقها فى المساواة المطلقة مع الرجل هو حق كامل فى كل شأن من الشئون ، بحيث يحق لها ألا تطيع غير عقلها وهواها ، ولكن بعد أن تصير زوجة فقد وجب عليها أن تقدم زوجها بطاعته والرضا برئاسته ، حتى تستقيم الحياة الزوجية ويطرد نجاح الأسرة ، وذلك هو ما قصد اليه القرآن الكريم بقوله : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »[2] . وليست هذه الدرجة سوى حق الطاعة الواجب للزوج على زوجته .

على أن هذه الطاعة المفروضة على المرأة لزوجها ليست طاعة عمياء كطاعة العبد لسيده ، وليست طاعة بدون قيد أو شرط أو حدود ، وإنما هى كطاعة الأحرار

---

(١) وعلى كل حال فنى أمثال هذا الزواج الذى تكون فيه المرأة هى الطرف الأقوى تتولى المرأة رئاسة الأسرة فعلاً ، وبعض النسوة يشترطن أن تكون عصمتهن فى أيديهن وهو مظهر من مظاهر رئاسة الأسرة .

(٢) آية ٢٢٨ سورة البقرة

لرئيسهم ، تعتمد على الثقة بشخصه ، والإيمان بإخلاصه ، والصلاح فى تصرفاته ؛ وعلى شريطة ألا يبرم الرئيس أمرًا إلا بعد مشاورة أعوانه وأنصاره ؛ حتى يستبين له الرأى وتتضح الحجة : فإذا شاء مضى فيما اعتزم بما له من حق الرئاسة ، أو رجع عن الخطأ إلى الصواب وعن الرأى إلى ما هو خير منه . فإذا استبد الرئيس بالأمر ، وبان فى تصرفاته سوء النية والكيد والرغبة في الإضرار والإساءة ؛ كما لو كانت آراؤه وتصرفاته ظاهرة الفساد والبطلان ؛ فقد سقط حق الطاعة المفروض له ، وصارت الجماعة فى حِل من خلع طاعته والتحرر من رئاسته . وعلى ضوء هذه القواعد العامة يجب أن تسير الأمور فى الشركة الزوجية ؛ فيتبادل الزوج مع زوجته الرأى ويشاورها فى الأمر ، نزولاً عند قول القرآن الكريم : « وأمرهم شورى بينهم »[(1)] . ولقد أشار القرآن إشارة صريحة إلى حق التشاور بين الزوج وزوجته فى قوله تعالى : « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما »[(2)] . فالمشاورة بين الزوجين واجبة فى كل ما يتصل بشئون الأسرة وأحوالها ، بل إنها يجب أن تمتد إلى كل ما يقوم به الرجل من عمل ، فليس هناك كالزوجة المخلصة الصادقة ، مستشار أمين لزوجها ، تهديه بعاطفتها ، وتحميه بغريزتها . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مَن هو ، يستشير زوجاته ويأخذ برأيهن فى بعض الأمور العامة . وقد ذكرنا فيما سبق موقف السيدة خديجة من الرسول عندما جاءها فزعًا مضطربًا من هول ما رأى[(3)] .

وقد روى لنا مسلم حديثًا من أروع الأحاديث ، عن سيدنا عمر بن الخطاب فى هذا المعنى ؛ لإظهار حق المرأة فى مراجعة زوجها ، وإبداء رأيها فى كل ما يعن له من أمور على أن يكون الرأى الأخير لزوجها ؛ قال عمر رضى الله عنه : « والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ؛ فبينما أنا فى أمر أأتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؛ فقلت لها : ومالك أنت ، ولما هاهنا ! وما تكلفك فى أمر أريده ! فقالت لى : عجبًا لك ياابن الخطاب ! ما تريد أن

---

(1) آية ٣٨ سورة الشورى .

(2) آية ٢٣٣ سورة البقرة .

(3) وقد سجل التاريخ فى معرض آخر ، كيف عمل الرسول فيه بنصيحة زوجته أم سلمة فى صلح الحديبية . إذ دخل عليها غاضبًا ثائرًا ينعى على المسلمين ترددهم فى طاعته وقعودهم عن تلبية ندائه لهم بالارتحال بعد إبرام الصلح . فأشارت عليه بما سكن غضبه وهدأ من روعه ، ودعته إلى أن يعود إليهم فيبدأ بتنفيذ ما طالب منهم إنفاذه هو (حلق الرأس) ففعل الرسول بنصيحتها ونفذ مشورتها ، فما كان من المسلمين إلا أن تسابقوا فى حلق رءوسهم أسوة به ، وهم الذين كانوا قبل ذلك بدقائق قليلة يعارضون فى ذلك الأمر ويتململون .

تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . قال عمر : فآخذ ردائى ثم أخرج من مكانى حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يابنية ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه ، فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يابنية لا تغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ؛ ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها فقالت لى أم سلمة : عجبًا لك يابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال : فأخذتنى أخذًا كسرتنى عن بعض ما كنت أجد» .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسح المجال لزوجاته فى إبداء الرأى ؛ حتى ليصل بهنّ الأمر إلى حدّ مغاضبته وهو صابر على ذلك لا يرى فيه حرجًا ، فكان بالأحرى ينبغى على كل رجل وهو لم يبلغ مبلغ الرسول أن يكون أمره شورى مع زوجته ، وأن يعمل بنصحها ورأيها كلما ظهر له رجاحة رأيها .

ويجب على الرجل من ناحية أخرى ألا يكلف زوجته بما لا يطاق ، وبما لا يجوز أن تطيعه فيه عقلاً أو شرعًا ؛ كما لو دعاها إلى ما يضر بصحتها أو يخل باعتبارها وشرفها وكرامتها ، أو يؤذى الأسرة وينال منها ؛ إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ومعصية الخالق أظهر ما تكون فى الإخلال بسنن المجتمع ونواميسه وأنظمته التى شرعها الله أو تواضعت عليها الجماعة .

حق الزوجة على زوجها

وإذا كنا قد فرضنا على المرأة واجب الطاعة لزوجها ، فإن مقابل هذا الواجب حقها على زوجها فى إكرامها واحترامها ، بل إن الطاعة لن تتوافر بحال من الأحوال إلا اذا تحققت هذه الكرامة التى هى شرط أساسى . فعلى الزوج أن يكرمها ويرعاها ويحترمها ويجلها ؛ فليس هناك ما هو أولى بالتكريم والمراعاة من المرأة العفيفة البارة العاملة ، فهى خير ما فى الدنيا كلها من نعم ، وهى الصديقة فوق الأصدقاء ، والوفية قبل الأوفياء ، هى قوّة الرجل وعدّته وناصرته ومشيرته ، هى حصنه الحصين وركنه الركين الذى يأوى إليه بعد الكد والتعب والاضطراب ، والألم واليأس والحزن ، فيجد عندها ما يذهب بآلامه ويخفف هواجسه ، وما يهدئ روعه ويثبت جنانه ، وما يشحذ عزيمته ويجدّد نشاطه وقوّته ، فينطلق من جديد إلى الحياة وقد تجدّد فيه الأمل واشتدّ ساعده . وهذه هى المرأة الصالحة أولى المخلوقات بالإكرام والرعاية . وهى التى عناها الرسول صلى الله

عليه وسلم بقوله : «خير ما يكتز فى الدنيا المرأة الصالحة إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته»[1] . فإكرام النساء واجب على الرجال مفروض ، لا يدعه الرجل إلا إذا كان ناقص الرجولة قليل المروءة . أو كما قال رسول الله : «ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهنّ إلا لئيم[2] » وآيات القرآن تترى كلها فى الحض على إكرام النساء وإحسان معاملتهن . وكانت آخر وصاية لرسول الله فى حجة الوداع للمسلمين أن يحسنوا إلى المرأة ويكرموا مثواها ومعاملتها : «وعاشروهنّ بالمعروف»[3] . «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»[4] . «فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف»[5] . «يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرحكنّ سراحًا جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا»[6] . «ولهنّ مثل الذى عليهن بالمعروف»[7] . وهكذا لم يشر القرآن إلى النساء فى أى آية من الآيات إلا ودعا إلى إحسان معاملتهن وإكرامهنّ ، حتى فى حالة الانفصال عنهنّ وتطليقهنّ . وليس وراء ذلك إعزاز للمرأة أو إكرام ، بل إن القرآن ذهب إلى حدّ إيجاب الإحسان فى المعاملة حتى ولو كره زوجته ، واعدًا إياه بأن الخير قد يكون فيما يكره «وعاشروهنّ بالمعروف فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا[8] » .

ومن إكرام الرجل لزوجته أن يظهر لها جانب اللين والرقة والتواد ، فلا يحاسبها على التافه من الأمور ، ويغضى عن هفواتها ، ويشاركها فى القيام بأعمالها ، فقد سئلت السيدة عائشة عما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصنع فى أهله فقالت : «كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة[9] » . وإذا كان ذلك فعل النبى فهو ببقية الرجال أوجب . وما ذلك كله إلا لإظهار التعاون والتعاطف والاشتراك بين الزوجين .

---

(١) أبو داود وأبو يعلى وغيرهما .
(٢) رواه ابن عساكر .
(٣) آية ١٩ سورة النساء .
(٤) آية ٢٢٩ سورة البقرة .
(٥) آية ٢٣١ سورة البقرة .
(٦) آية ٢٨ ، ٢٩ سورة الأحزاب .
(٧) آية ٢٢٨ سورة البقرة .
(٨) آية ١٩ سورة النساء .
(٩) رواه البخارى .

ويجب على الزوج أن يكون واسع الصدر متسامحًا إذا ما أخطأت الزوجة أو غضبت أو أفلتت أعصابها ، فالنساء بحكم طبيعتهنّ ثورات عاطفية جامحة إذا لم يحتملها الإنسان بصدر رحب فربما ساءت العاقبة . فعلى الرجل دائما أن يصبر وأن يتسامح فى كل ما لم يبلغ إلى حد تهديد مصالح الأسرة وكيانها وكرامتها أو حقه فى رئاستها ، فهنا يتعين على الرجل أن يكون حازمًا صلبًا متشددًا ، وإلا شاعت الفوضى فى الأسرة واضطربت واختلت .

بحث فى تعدّد الزوجات

ومما يتصل بموضوع إكرام النساء واحترامهن وإحسان معاملتهن مسألة تعدّد الزوجات ، وما يجب أن يوضع لاستعمال هذا الحق من نهاية فى عصرنا الحديث ، بعد أن تطوّرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية لأحوال العالم ، بحيث بات من المتعذر استعمال هذا الحق والاحتفاظ بكرامة المرأة فى نفس الوقت . ومن الحق علينا أن نبيّن موقف الدين الإسلامى من هذه القضية كما فعلنا فى جميع المسائل السابقة .

لاجدال أنه من حق المسلم بموجب نصوص القرآن وسنة الرسول والصحابة ، وما جرى عليه إجماع المسلمين فى فترة من الزمان أن يتزوّج بأكثر من واحدة وأن يتزوّج اثنتين وثلاثا وأربعا ، ولكن الذى لا جدال فيه أيضا أن روح التشريع الإسلامى تهدف فى هذا الأمر صوب التضييق ، وتعتبر كل إقلال فيه فضيلة بحيث يمكن القول أن تحديد الزواج بواحدة من أهم الأغراض التى تقرّها الشريعة الإسلامية بل وتستحبها . فقبل نزول الإسلام كان حق الرجل فى تعدد الزوجات حقا مطلقًا من أى قيد أو شرط ، فللرجل أن يتزوّج بمن يشاء من النساء وأن يطلق منهنّ من يشاء ، وأن يتصرف فيهنّ بكافة حقوق التصرفات . ولم يكن ذلك وقفًا على بلاد العرب ، كما قدمنا ، بل فى جميع أنحاء العالم القديم ، بما فى ذلك العالم المسيحى نفسه . وقد يكون من الطريف أن نذكر فى هذا الصدد ما تشير إليه التوراة من زواج سليمان بن داود من ألف امرأة ، ومايشير إليه القرآن نفسه من زواج داود بتسع وتسعين امرأة .

فلما جاء الاسلام بدأ يضع القيود والحدود لهذا التعدّد ، ويرى فيه مضرة من أكبر المضار ؛ فعمل على تنظيمه وتهذيبه وإصلاح مفاسده . ولكن سنة الإسلام فى هذا الموضوع كانت كسنته فى سائر الموضوعات الأخرى ، وهو الأخذ بسنة التدريج والترقى إلى أن ينتهى إلى الصورة الكاملة من النظام المنشود . وأوسع صورة من صور التعدّد الزوجى فى التاريخ الإسلامى هو تعدّد زوجات النبى ؛ إذ بلغ عددهنّ عند وفاة النبى

صلى الله عليه وسلم تسع نساء ، وقد كان هذا الأمر هو أكبر حجة يتذرع بها دعاة التوسع فى الزواج ، والذين يصرّون على حق الرجل الكامل فى تعديد أزواجه . ولكن دراسة بسيطة للظروف التى أدت بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى جمعه هاته الزوجات سرعان ماتنتهى بنا إلى أنها كانت ظروفًا خاصة بالرسول فى هذه الفترة من حياة الإسلام وهذه البيئة ، ونعنى بها جزيرة العرب وعقلية قبائلها ونفسية رجالها . أما بالنسبة لسيدنا محمد ، كرجل فرد ، فقد تزوج السيدة خديجة التى لم يعدل بها زوجة أخرى ، ولم يضم إليها زوجة أخرى طوال شبابه والحلقات الأولى من رجولته ، أى حتى الخمسين من عمره طوال مدّة إقامته فى مكة داعيًا إلى رسالة الحق والنور . وقد ظل هذا شأن سيدنا محمد إلى أن ماتت السيدة خديجة ، وانتقل الرسول إلى المدينة حيث بدأت فترة جديدة من حياة الرسالة كان فيها الرسول يعمل لإقامة الدولة الإسلامية ، فبدأت توجد اعتبارات تُملى على رسول الله أن يجعل بينه وبين أنصاره وأتباعه عروة الدم والنسب ، وهى أقوى ما يربط العرب فى شبه جزيرتهم ، وذلك إلى جوار عروة العقيدة والإيمان . ومن يجهل نفسية العرب وروحهم البدوية التى تجعل الأسرة والقبيلة محور حياتهم ، لا يستطيع أن يدرك تمامًا الدواعى التى أدت برسول الله إلى المصاهرة إلى كبار أعوانه وأنصاره ؛ كالزواج بعائشة وحفصة ، والمصاهرة إلى كبار أعدائه إبان حربهم له ليكسر من حدتهم ، كما كان الحال فى زواجه بأم حبيبة بنت أبى سفيان ، أو بعد هزيمتهم ليطيّب خاطرهم ويؤلف قلوبهم ، كزواجه بجويرية بنت الحارث زعيم بنى المصطلق ، أو صفية اليهودية بنت حيى بن أخطب .

فلم يكن بين هذا العدد الكبير من النساء الذى جمعه الرسول حوله ، وارتبط به برباط الزوجية من هو حقيق باختيار الرجل العادى إلا واحدة أو اثنتين . على أن القرآن لم يلبث أن حرم على النبى المضى فى الزواج لتأليف القلوب ، وحظر عليه الزواج بأكثر ممن تزوج بهنّ لأى سبب من الأسباب ، ولو كان هذا السبب هو الإعجاب بحسنهنّ ؛ وذلك بقوله تعالى : «لا يحلُّ لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حُسنُهنّ[١] » . فهذا تحريم على النبى أن يمضى فى التعدد إلى ما شاء الله ، وهو دليل على أن الإكثار من النساء أمر مكروه ، وإلا لأبيح للرسول أن يمضى فيه تحقيقًا للفائدة التى تزوج من أجلها الرسول بمن تزوج . قد يقول قائل : إن القرآن قد حرّم على النبى الزواج بأكثر ممن تزوج بهنّ لئلا يكون ذلك سنة بين المسلمين ؛ ولكن هذا القول

---

(١) آية ٥٢ سورة الأحزاب .

يرده أن زواج النبى قد اعتبر خصوصية من خصوصياته لا محلّ للقياس عليها ، فحظْر الزواج على النبى فوق من تزوّج يحمل فى طياته من غير شك كراهة الإكثار والتعدّد .

ننتقل بعد ذلك خطوة أخرى فنقول : لو لم تكن روح الشريعة الإسلامية تنفر من التعدّد ، لما كان هناك محل لعدم مساواتها سائر المسلمين برسول الله فى عدد الزوجات ؛ لأن أى عمل يأتيه النبى مفروض فيه أن يكون خيرًا مطلقًا ، صالحًا للاقتداء والتأسى به . بل إن السير على هدى الرسول هو ركن أساسى من أركان الدين «وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا[1] » . ولكن الشريعة الإسلامية استثنت موضوع الزواج بأكثر من أربع فجعلته خاصًا برسول الله ، وحرمت على المسلمين أن يتزوّجوا بأكثر من أربع فى قول الله تعالى : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع[2] » . وهكذا بدأت دائرة التعدد تضيق . فبعد الإباحة المطلقة التى كان البشر يسيرون عليها ، رأينا القرآن يحرّم على الرسول أن يزيد على تسع زوجات ، ثم حرّم القرآن على بقية المسلمين أن يزيدوا عدد زوجاتهم على أربع ؛ وفى ذلك دليل على استحباب الشريعة للإقلال من النساء . على أن الشريعة قد ذهبت إلى أبعد من ذلك كله فى إظهار رغبتها عن الإكثار من الزوجات ، فلم تدع الزواج بأربع زوجات حرًّا طليقًا من كل قيد أو شرط ، بل قيدته بقيد صعب التحقيق ، إن لم يكن مستحيلاً على الإطلاق ، وذلك القيد هو العدل التام المطلق والتسوية بين الزوجات تسوية تصل إلى أدق التفاصيل التى لا يستطيع أن يتصوّر إنسان إمكان القيام بها ، كما حدث فى مرض موت رسول الله حيث كان يُطاف به كل ليلة محمولاً على فراش المرض ليبيت عند صاحبة الدور فى المبيت . ولست أحسب أن وراء ذلك إرهاقًا وإعناتًا للرجل ، ولكن ذلك الشرط الوحيد لإجازة الشريعة الإسلامية الزواج بأكثر من واحدة وقد حذرت المسلمين من إهمال هذا الشرط وحثتهم على الاكتفاء بزوجة واحدة إذا لم يأنسوا من أنفسهم القدرة الكافية على توفية الشرط وذلك بقول القرآن الكريم : «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة[3] » بل لقد ذهب القرآن إلى حدّ كاد يلغى معه هذا الحق أصلا وذلك بقوله : «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم[4] » . فهذا نى قاطع ينفى به القرآن إمكان العدل ، ومتى انتفى العدل فقد وجب الاكتفاء بواحدة .

---

(١) آية ٧ سورة الحشر .

(٢) آية ٣ سورة النساء .

(٣) آية ٣ سورة النساء .

(٤) آية ١٢٩ سورة النساء

وهناك حادث فى حياة الرسول ، قد جاء معززًا لفكرة كراهية التعدد بما لا يدع بعده مجالاً للمناقشة فى هذا الموضوع ؛ فقد روى عن المسور بن مخرمة أنه سمع النبى صلّى الله عليه وسلم وهو يقول : «إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا بنتهم علىّ بن أبى طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فإنما ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما أذاها[1] » . فهذا رسول الله يأبى على سيدنا علىّ بن أبى طالب أن يتزوّج زوجة أخرى إلى جوار ابنته ، ويشترط عليه إذا شاء هذا الزواج أن يطلق ابنته ، ويبنى ذلك على أن ما يؤذى ابنته إنما هو إيذاء له ، وهو تصريح من الرسول صلوات الله عليه أن الزواج على المرأة بأخرى فيه إيذاء لها . فلو أن التعدّد فى الزواج أصل من أصول الإسلام ، ولم تكن الشريعة الإسلامية تكره بالفعل استعمال هذه الرخصة ، لما اعترض الرسول على سيدنا علىّ فى تفكيره فى الزواج بأخرى ، ولما اشترط عليه طلاق ابنته ؛ وهو الأمر الذى ترتب عليه أصل من أصول الفقه . وهو أنه باستطاعة أى امرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوّج عليها امرأة أخرى ، فإذا تزوّج فتكون طالقة منه ومتى كانت هذه روح الإسلام ونصوصه ومراميه فقد أصبح من الجائز فى كل عصر وزمان معالجة هذا الموضوع بما يتفق مع حاجة العصر ومصلحته ، ويدرأ المفاسد والشرور التى قد تنجم من وراء الإسراف فى استعمال هذا الحق ؛ تطبيقًا للقاعدة الجوهرية «لا ضَرر ولا ضِرار» وأى ضرر أكثر من تفكيك روابط الأسر ، وإثارة الإحن والبغضاء بين الضرائر وأُسرهن وبين الأولاد وبعضهن . والحق أن أى رجل يتمتع بنصيب موفور من الثقافة ، لا يمكن أن يُقدم فى عصرنا الحديث على الزواج بأكثر من واحدة كما هو المشاهد وهذا دليل على أن الطبع أصبح ينفر من هذا الازدواج فى المعيشة ؛ لما يجره من آثار سيئة على الزواج والأبناء . فالرجل يقضى أيامه فى ثورات متصلة تقع من هذه الزوجة أو تلك ، ويعيش وسط الدسائس والمكائد تحيكها كل ضرة لضرتها . وهكذا لا يستطيع أن يتمتع بحياة الهدوء والسكون التى شرع الزواج من أجلها «ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها[2] » . كل ذلك بفرض أنه قادر على الإنفاق على بيتين على قاعدة المساواة ، وهو الأمر الذى يكاد يكون فى حدود المستحيلات ؛ كما أشرنا من قبل .

على أن أسوأ ما بات يخلفه تعدّد الزوجات من آثار ، هو ما يحدثه بين الأبناء من

---

(١) رواه الخمسة .

(٢) آية ٢١ سورة الروم .

أمهات مختلفة ، من تحاسد وتباغض وحقد وضغينة ؛ لما غرستهم فيه أمهاتهم من كراهية لأخواتهم من الزوجة الأخرى . فيكون الشقاق وتكون الفتن التي تنخر في عظام الأسرة ، بما يؤدى فى نهاية الأمر إلى دمارها .

ولعله من غير الممكن إحسان تربية أى طفل من الأطفال إلا فى ظل التفاهم التام والتعاون المطلق بين والديه ، وهو أمر لا يوجد ولا يمكن أن يتحقق والأب مشغول بأبناء آخرين من زوجة أخرى ، إذ لا بدّ أن يعنى بأبناء المقرّبة عنده ويهمل أبناء الأخرى ، أو أن يهمل الجميع وهو الأعم والأغلب .

وعندما كان تعدّد الزوجات فى الزمن القديم أمرًا فاشيًا ، كانت النساء تتقبله بصفة عامة ، أو بالأحرى ترضخ له . أما فى العصور الحديثة بعد أن صار تعدّد الزوجات من الأنظمة القديمة التى لا تساير روح العصر ، فقد جاهرت النساء بعدائهن لهذا النظام وتمردن عليه ، فلم يعد هناك من يرضى بزواج ابنته من رجل متزوّج بأخرى . وليست هناك امرأة متنوّرة فضلا عن مثقفة أو متعلمة تتصوّر فكرة الزواج برجل يجمع أكثر من زوجة أو يفكر فى الإقدام على هذا العمل . وهذا ما يجعلنا نقرّر أن هذا النظام من الأنظمة التى تسير بطبيعتها نحو الانقراض فهو لا يقوم الآن إلا فى أوساط الريف المتأخرة وأوساط العمال الفقيرة . وحتى فى هذه الأوساط أصبح من يقدمون على التعدّد من الرجال قلة لا تذكر إلى جوار المجموع ، حتى سجل الإحصاء الأخير أن عدد من يجمعون بين أربع زوجات فى مصر كلها لا يتجاوز أربعمائة شخص . وهى قلة مسحوقة تنطق بأجلى برهان على أن جمع هذا العدد من النساء قد أصبح فى ذمة التاريخ . وقد لا يصدّق ذلك تمامًا على مجرّد الجمع بين زوجتين ، فلا يزال الرقم الخاص بهؤلاء الأزواج مرتفعًا إذ يبلغ بضعة عشر ألفا[1] ، ولكنه لو قورن بعدد الأزواج الذين يقتصرون على امرأة واحدة لدلّ على أنه لا يزيد فى نسبته عن جزء صغير فى المائة ، على عكس ما كان عليه الحال فى القديم ، حيث كان التعدّد هو الأصل تقريبًا والاستثناء هو الاقتصار على الواحدة . ومادامت الأمور تسير فى هذا الاتجاه ، فيحسن بالتشريع أن يتدخل ليسجل ماقرّره التطوّر الطبيعى ، وما لا يخالف روح القرآن والإسلام كما قدّمنا ؛ فيحظر على أى رجل من الرجال التزوّج بأكثر من واحدة لأى سبب من الأسباب . وإذا كان هناك بعض الحالات التى يذكرها أنصار التعدّد لتسويغ التعدّد ، فإن هذه الأحوال من القلة بحيث لا تصح مسوغًا لإباحته فى الظروف العادية ، فضلاً

---

(١) راجع الإحصائيات الرسمية .

عن أن هذه الأحوال يمكن التماس العلاج لها عن طريق الطلاق . فإذا تخيلنا ما يشيرون إليه دائمًا من حدوث نقص خطير فى عدد الرجال ، بحيث يصبح عددهم نصف عدد النساء ؛ فإنه من الممكن فى مثل هذه الحالة الشاذة أن يعاد النظر فى قانون حظر التزوّج بأكثر من واحدة ، فليس هناك ما يمنع تطوّر القوانين الاجتماعية- بحسب الظروف والأحوال ، وهذه هى روح الشريعة الإسلامية ، وما يجب أن نستند عليه فى ظروفنا وظروف العالم الحاضرة ، التى توجب فى الوقت الحاضر حظر الزواج بأكثر من واحدة فى مصر ، محافظة على كرامة النساء وتثبيتًا لدعائم الأسرة ، وبرًّا بالأبناء وإيثارهم بالسعادة والهناء (١) .

فض الشركة الزوجية

وإذا كنا قد تكلمنا حتى الآن عن الشروط والأسباب التى تؤدى إلى نجاح الحياة الزوجية ، فقد بقى أن نشير إلى إخفاق الحياة الزوجية ، وهو ما يسمى بالطلاق ، الذى هو بمثابة فسخ لعقد الشركة الزوجية . ولقد انفردت المسيحية من بين أديان العالم وأنظمته التشريعية ، فى كل العصور ، بتحريم الطلاق إلا لعلة الزنى . ولكن التجربة سرعان ما أثبتت أن ذلك التحريم هو مصادرة للطبيعة البشرية ومخالفة لسنتها ، وأن الأخذ به لا يمكن أن ينتج إلا شرًّا وفسادًا فى الأرض كبيرين . ذلك أن الحكمة الأساسية فى الزواج أن يكون الرجل سكنا للمرأة ، وأن تكون المرأة سكنًا للرجل وأن يتبادلا الحب والوفاء والتعاون على مشاق الحياة ؛ فإذا ضاع الوفاء بين الزوجين أو فقد الحب والرغبة فى التعاون فيما بينهما تحولت الحياة الزوجية إلى جحيم وأتون مستعر . وكلما شعر الزوج بالقيود التى تربطه بزوجته التى لا انفصام لها زاده ذلك كراهية لزوجته ، والعكس بالعكس ، حتى لقد ينتهى الأمر بأحدهما إلى قتل الآخر إذا لم يكن هناك سبيل للتخلص منه غير ذلك السبيل . ولقد سجل لنا التاريخ كيف أن هنرى الثامن ملك إنجلترا قد أقدم دائما على قتل زوجاته كلما رغب فى التخلص منهن بعد أن رفض البابا أن يسمح له بطلاقهن . وكثيرًا ما نرى فى مصر حتى فى وقتنا الحاضر ، أقباطًا يخرجون عن دينهم ويعتنقون الإسلام لكى يتخلصوا من زوجاتهم . ولقد انتشر الزنى وأصبح اتخاذ الخطيات فى أوربا

(١) ذلك الرأى هو ما ذهب إليه الإمام المصلح الشيخ محمد عبده حيث حمل على تعدّد الزوجات التى أصبحت فى مصر مفسدة حملة منكرة وقرّر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة مع كثرة هذا التعدّد الإفسادى الذى صار يجب معه عملاً بقاعدة «لا ضرر ولا ضرار» الثابتة فى الحديث وقاعدة «تقديم درء المفاسد على جلب المصالح» وهو متفق عليها وقد جاء فى المنار فى أوّل المجلد ٢٨ أنه أفتى فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدّد لغير ضرورة مبيحة فيها

عملاً رسميًّا لا يستنكره المجتمع . وذلك بسبب حظر الطلاق على المسيحيين . وعلى ذلك فقد دلت التجربة على أن حظر الطلاق وتحريمه تحريمًا قاطعًا هو باب من أبواب الشر لا الخير ، فضلاً عما فيه من إهدار لحرية الفرد ذكرًا كان أو أنثى . والحق أن الحياة الزوجية لا يمكن بحال من الأحوال أن تنجح وأن تزدهر إلا فى ظل الحرية والرضاء المتبادل بين الزوجين . وشعور كل منهما أنه يساهم فى هذه الشركة بمحض حريته واختياره ، وأنه يستطيع فى أى وقت شاء أن ينسحب من هذه الشركة . وقد اقتنع العالم المسيحى بذلك فصدرت القوانين الوضعية التى تبيح الطلاق على خلاف الشريعة المسيحية . ولم يكد المسيحيون فى أوربا وأمريكا يحصلون على هذا الحق حتى أسرفوا فيه إسرافًا معيبًا ، واستعملوه فى خفة ومجانة[1] حتى كادت الحياة الزوجية كلها تتأثر بهذا الاستعمال السيئ ، فراحوا يفكرون من جديد فى تقييده وتحديده . ومن هنا تنشأ عظمة التشريع الإسلامى الذى اعترف منذ اللحظة الأولى بحق الطلاق ، أو بالأحرى الحرّية المطلقة فى فض الشركة الزوجية إذا أخفقت ، ولم تهيئ للزوجين السعادة التى كانا ينشدانها من الزواج ، ولكنه وقد قرر الحق كاملاً مطلقًا ليشعر كل من الزوجين أنه مطلق الإرادة والتصرف راح من ناحية أخرى يحذر من سوء استعمال هذا الحق ، ويحض على عدم الالتجاء إليه لأى سبب من الأسباب إلا أن يكون لعلة الزنى . ذلك أن الزواج وإن كان عقدًا فهو ليس كبقية العقود المدنية من بيع وشراء وإجارة وهبة ، ولكنه رباط مقدّس يربط الأنساب ويمزج الدماء ، ويؤلف الأسر التى يقوم عليها صرح المجتمع ، والتى إذا اضطربت أو انهارت ترتب عليها انهيار المجتمع بأكمله ، ومن هنا فقد سمى الله الزواج فى القرآن بأنه ميثاق غليظ : «وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا[2] » .

إذ تترتب عليه كما قدّمنا نتائج خطيرة فى الحال بالنسبة لشخص الزوجين ، وفى المستقبل بالنسبة لأولادهما . والزواج هو بمثابة غرس بذرة جديدة من بذور الحياة ، أو مدّ فرع جديد من فروعها ؛ فكل انفصام لعروة الزواج الوثقى إنما هو قطع لشريان من شرايين الحياة ، وحجر عثرة فى سبيل نمّوها وكمالها وحسن اطراد سيرها ، فلا ينبغى الإقدام عليه فى يسر وسهولة أو طيش ورعونة لمجرّد أنه من الحقوق المباحة ، وهو ما نبه إليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق» وفى رواية أخرى «ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق» وهذا الحديث يجب أن يعتبر ركنًا

---

(١) أصبح من الشائع فى أمريكا أن تطلب المرأة الطلاق من زوجها لأنه لا يحب الكلاب . أو لأنه لا يحسن ربطة عنقه ، أو لأنه لا يشاطرها آراءها فى جمال كلارك جابل . أو خفة دم موريس شفاليه . وهكذا .

(٢) آية ٢١ سورة النساء .

أساسيًّا من أركان مباشرة هذا الحق ، فلا يكون طلاق إلا بعد استنفاد كل وسائل الإصلاح والعلاج ، ولا يكون إلا بعد تفكير طويل هادئ ، ومراجعة ومشاورة بين الزوجين ، بل وبين آليهما وذويهما وفى ذلك يقول الله تعالى : «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما[1] » .

وذهب القرآن إلى حدّ حض الرجل على التمسك بزوجته حتى لو كرهها ورغب عنها وذلك بقوله تعالى : «وعاشروهنّ بالمعروف فإن كرهتُموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعلَ الله فيه خيرًا كثيرًا[2] » .

ولكل هذه الاعتبارات مجتمعة ، يجب ألا يتم طلاق بين الرجل وزوجته إلا فى ساحة القضاء ، وبعد أن يستنفد القاضى كل ما فى جعبته من محاولات التوفيق والإصلاح ، بما فى ذلك الاستعانة بجهود الأقارب والأصدقاء . وأن يتخصص لذلك الأمر قضاة ممتازون يكونون أعرف من غيرهم بطبائع البشر وعلوم النفس ويتمتعون بشخصية قوية ، ليكون لذلك كله أحسن الأثر فى إصلاح الزوجين وإقناعهما بالتمسك بحبال الزوجية ، فاذا أبى أحد الزوجين بعد ذلك كله إلا الانفصال فقد وجب على القاضى أن يصدِّق على الطلاق على الفور ؛ فليس من المصلحة أن يبقى أحد الزوجين فى الشركة الزوجية برغم أنفه ، إذ لا يترتب على ذلك إلا الفساد والخسران . فنحن ممن يقولون بوجوب أن يكون الطلاق أمام القاضى وعن يد المحكمة لا بأمر القاضى وبقرار المحكمة ، أى أن الحرية المطلقة فى استعمال الحق يجب أن تبقى للزوج أو الزوجة متى اشترطت هذا الحق لنفسها ، ولا يجوز بحال أن يسلب القضاء من الزوجين هذا الحق ، وإنما أشترط ألا يباشر هذا الحق إلا فى ساحة القضاء وبعد أن يستنفد القاضى كل جهده فى التوفيق والإصلاح ؛ ليكون ذلك بمثابة فرصة جديدة يعدل فيها كل من الزوجين عن رأيه ، فلا يكون طلاق فى ثورة غضب ، ولا يكون طلاق فى تسرع يعقبه الندم ، ولا يتم طلاق إلا بعد تروّ وتدبر وتفكير طويل . يقول البعض : ولكن فى عرض هذه الأمور على القضاء إفشاء لأسرار العائلات ؛ ولكن هذه الأسرار لا سبيل لكتمانها متى حدث الطلاق بين الزوجين ، إذ لا مناص من أن يعمد أحد الطرفين إلى التشهير وإذاعة هذه الأسباب ؛ فإذا تم التراضى والتوافق بينهما على كتمانها فليس هناك ما يحول بين الحرص على هذا الكتمان أمام القاضى

---

(١) آية ٣٥ سورة النساء .

(٢) آية ١٩ سورة النساء .

نفسه الذى يجب أن يقضى بالطلاق متى أصر عليه الزوجان ولو بدون إبداء أى سبب من الأسباب .

مبــررات الطــلاق

وعندى أنه لا يوجد مايبرر الطلاق إلا إذا انعدمت أسباب التعاون بين الزوجين ، وأصبحت الحياة فيما بينهما مستحيلة لأى سبب من الأسباب ، كما لو انعدم الوفاء بين الزوجين وأقدم كل منها أو أحدهما على الإخلال بعهود الزوجية ومواثيقها فالرجل الذى يهجر زوجته ، والمرأة التى تهجر زوجها ، والزوجة التى تخون زوجها مع آخر ، والزوج الذى يخون زوجته مع أخرى ، والمرأة المسرفة المتلافة التى تنكب زوجها فى ماله ، والزوج الذى يغتال حق زوجته ويجردها من ثروتها ليبعثرها على شهواته ونزواته ، والمرأة النزقة التى تنصرف عن تربية أولادها وتفرغ إلى لهوها وزينتها ولا تقوم بواجب زوجها وبيتها عليها ، والرجل الذى لا يعود إلى بيته إلا مخمورًا والذى ينفق أمواله على القمار ولا يعبأ بنفقة أولاده وتربيتهم ، كل هذه الأسباب وأمثالها تدعو ، من غير شك ، إلى هدم الحياة الزوجية من أساسها . فإذا تعذر الإصلاح وإعادة المرأة أو الرجل إلى الجادّة فقد أصبح الطلاق جائزًا ومشروعًا بل ومستحبا كلون من ألوان العقوبة ، حتى تكون للأسرة قداسة وهيبة وحقوق محترمة ، يعرف كل من الزوجين أنه لا يستطيع المساس بها دون أن يُعرِّض أسرته للانهيار .

خاتمة

إلى هنا تنتهى رسالتى لك عن الزواج والمرأة ، بعد أن فصّلت لك الأمر عن المرأة وحقوقها وعلاقتها بالرجل فى مختلف الظروف والأحوال . وقد شاءت الأقدار ألا أفرغ من تحرير هذه الرسالة حتى يقع لى فيها حادث من هذه الحوادث التى تلم بحياة الأسر فتهز كيانها وتدخل على أعضائها الحزن والألم ، وأعنى بذلك الحادث ما يصاب به الأبوان من الفجيعة فى أولادهما ، هؤلاء الأولاد الذين هم هدف الزواج الأكبر ، ومحور حياة الأم ورجاء الأب ، وسنة الحياة فى بقائها واستمرارها واندفاعها فى سبيل التطور والارتقاء .

بدأ الحادث فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان والأيام الأولى من فصل الخريف حيث كنا معتقلين جميعًا : أبوك وأمك وأخوك وأنت ـ فى معتقل خاص بنا فى مصر الجديدة وكنت أنت وأخوك فى أوج صحتكما وكنت أنا وزوجتى فى أوج سعادتنا. بكما فرض أخوك إبراهيم العزيز اللطيف الجميل ، ولازم الفراش فخلنا الأمر عارضًا لا يلبث أن يزول ، ولكنك سرعان ما لحقت به بعد أيام ثلاثة ، فانطرحتَ على فراش المرض ، وارتفعت حرارتكما ارتفاعًا مخيفًا ، إذ بلغت الواحدة والأربعين وكان ذلك أمرًا عجبًا ، ولم ينقض أسبوع حتى اكتشفنا أنكما مريضان بأخبث الأمراض وأفتكها ، وأعنى بها حمى التيفود ، هذه الحمى التى مات بها كل من هو عزيز علىّ من أقربائى ، فمات بها أخى الأكبر ، ومرضت بها فى طفولتى ، وماتت بها أمى على ما أذكر إبان مراهقتى ، ومات بها بعد ذلك أحب الأخوة إلى نفسى وأكبرهم تأثيرًا فى حياتى ، وهو عمك مصطفى الذى أدين له بالعناصر الأولى من ثقافتى فى الحياة . فلما اكتشفت أنكما مريضان بالتيفود فارقنى هدوئى وأحسست على الفور باقتراب الفاجعة فانخلع قلبى وراحت الدموع تنهمر من عينى انهمارًا لا عهد لى به من قبل ... ونقلكما البوليس إلى المستشفى بعيدًا عنى ، بينا ظللت فى معتقلى أرقب على البعد ، فى رجفة وأمل ، الأخبار التى تترامى إلىّ من حين لآخر . ثم وقع القضاء المحتوم ، وكانت هذه الليلة التى جاءنى فيها خالك ووالدى يحملان الخبر ، وهما يحاوران ويداوران ويتدرّجان ويترفقان بى لا بلاغى الخبر ، وقد كان ذلك كافيًا لكى أحذر النكبة فأسرعا ، إلى مواساتى بهذا الاصطلاح الذى ترتجف له النفس عند سماعه لأول مرة «البقية فى حياتك» لقد مات ابراهيم ... مات ابراهيم وفارق الدنيا ولم يعد من أهلها على الأقل بالجسد ، ولن أسمع بعد اليوم ولن تسمع أمه ضحكاته العِذاب ، وحديثه وموسيقاه الشجية التى كان يبعثها فى النفس حتى فى بكائه

وعويله ، ذهب وخلفنا فى هذا المعتقل ولن يملأه بعد اليوم ، كما كان يفعل ، بالسعادة والهناء . لن ينتهز بعد اليوم فرصة سجودى فى الصلاة ليداعبنى ويعبث معى ، لن يطلب منى أن أرفعه بذراعى فى الهواء بينما يصرخ فرحًا مسرورًا سعيدًا هاتفًا بك ليشركك فى سعادته ، لن ينظر إلىّ بعد اليوم بعينيه الجميلتين معاتبًا لى بعض ماكنت آخذه به من الشدّة ... ذهب فذهب معه من هذه الدار الأنس والحرارة والحياة ... ذهب بدون أن أراه وأن أضمه بين ذراعى وأقبله للمرّة الأخيرة ، وأرجو منه أن يسامحنى على كل ألم أكون قد أحدثته له فى يوم من الأيام ... ذهب إبراهيم وقضى الأمر ، ولم تبق منه إلا الذكريات . ولأول مرة فى الحياة أحسست بلذعة الموت ولوعة الفراق تهز روحى من الأعماق ، بما لم أشعر به عند ما فارقتنى أمى وفارقنى اخواى ، وما لم أكن أتخيل أننى سأشعر به فى يوم من الأيام ... على أن المحنة لم تكن قد تكاملت بعد ، فقد كنت لا تزال طريح الفراش بنفس المرض الذى مات به ، وكان الخطر لا يزال مسلطًا فوق رأسك ، فشغلنا عن بعض مصابنا بإبراهيم ، فكفكفنا دموعنا وتمالكنا أنفسنا وتوجهنا بالرجاء إلى الله أن يجعل فى شفائك العوض ، وأن يجعل نجاتك البلسم لجرحنا ؛ ولكن الأطباء أخبرونا فى أحد الأيام أن حالتك قد ساءت وأن القلب قد تسمم وأسرعت دقاته ، ولم نكن فى حاجة إلى قول الأطباء لندرك هذا الخطر ، فقد ارتفعت حرارتك بعد الانخفاض ، وأبت بعد أربعين يوما أن تهبط ولو خطًّا واحدًا أو دقيقة من الدقائق . وراح جسدك ينتفض ويرتجف ارتجاف المودّع للحياة ، فوقفت الممرضات حائرات كسيفات البال ، وعجز الأطباء عن أن يجدوا كلمة يدخلون بها الأمل فى نفوسنا ، فدلّ ذلك على أن سراج العمر يوشك أن ينطفئ ، وأنك ذاهب إلى حيث ذهب إبراهيم مجرعًا إيانا الكأس التى جرعنا إياها إبراهيم مرتين ، وتاركا إيانا بغير عزاء أو عوض من أى لون كان ... بالقسوة هذه الساعات والأيام يابُنى وما أشدّ مرارتها ، إذ يوارى الإنسان ابنًا فى التراب وأن يعود لفراش الثانى ليراه يوشك أن يبدأ نفس الرحلة ، ليضاعف الحسرة ... ماأقسى أن يرى الإنسان أنس حياته يتحوّل إلى وحشة ، ونور عمره يتحوّل إلى ظلمة ، وأن يضاعف فى مرارة ذلك كونه مسلوب الحرّية رهين الحبس والاعتقال ، لا يسير إلا بالحرّاس ولا يتحرّك إلا بتصريح من الحكومة ، ولا يزور ابنه المريض إلا بعد رجاء وإلحاح . الحق أنه ليس للآلام فى هذه الدنيا حد لتقف عنده ، فكلما كانت نفس الإنسان كبيرة كانت آلامه جد عميقة ... لقد كنت أتمثل فى هذه اللحظات كل ما يحيط بى من ظروف سيئة ، وكل ما حدّثتك عنه فى رسالتى عن الصبر من انفضاض الإخوان وتغير الأحوال وتنكر الأنصار والأصدقاء ... كنت أستعرض لنفسى جهاد خمسة عشر

عاماً ، وكيف لا أعرف من ثمرات هذا الجهاد الا أنني معتقل ... معتقل منذ ثلاث سنوات تقريباً ، لا يتصل بى أحد ، ولا أتصل بأحد ، والدنيا تقوم وتقعد من حولى . وأنا الذى خلقت من نشاط وحركة قعيد الحبس والاعتقال ، مقضى علىّ أن أعيش فى الكسل والخمول والطعام والشراب . وكان الشيء الوحيد الذى يبعث فى نفسى بارقة من الأمل ، ويتيح لى لوناً من ألوان الجهاد والعمل من أجل المستقبل ، هو هذه المعيشة المشتركة فى المعتقل مع زوجتى وولدىّ ، حيث أستطيع أن أعنى بتربيتهما ، وأن أعدهما جنديين صادقين من جنود الوطن ، أرضعهما منذ الصغر لبان الوطنية والفضيلة ، وحب الخير والطموح نحو المثل الأعلى ، وأن أورثهما بعد موتى رسالتى فى تحرير بلادى من الغاصب الأجنبى . كنت أرى فى هذه المهمة بعض ما يشغلنى ويسلينى ، فكانت لنفسى بمثابة خط الدفاع الأخير ، فإذا بالمحنة تأبى إلاقتحام هذه القلعة الأخيرة وتدميرها فقوضت أحد ركنيها ، وسعت لتقويض الركن الآخر والإجهاز عليها ، فمن الذى يلومنى إذا دب إلىّ الجزع أو أخذ من نفسى الألم ؟ ... هل بقى لى من أصدقاء أعيش معهم إلا أنتما ؟ ... هل بقى لى من رفقاء فى الاعتقال إلا أنتما ؟ ... ألم نكن نلعب سوياً ونلهو سوياً ، ونأكل سوياً وننام سوياً ، ولا تقع عيوننا إلا على أنفسنا طوال الليل والنهار لمدّة عام كامل قضيناه فى هذا الاعتقال ؟

على أن المسألة لم تكن مسألتى بقدر ما كانت مسألة أمك ... لقد كانت تزدهى بكما وتتعزى عن كل ما يصيبنا فى الحياة بمرآكما ، لقد كان مجرّد مرض أحدكما يمرضها ويسقمها ويمضها ، ومع ذلك فقد احتملت كارثة إبراهيم ببسالة أدهشتنى ، وما ذلك إلا اهتماماً منها بأمرك وحرصها على شفائك ، فماذا يكون من أمرها إذا ما فجعت فيك بعد فجيعتها فى إبراهيم ! وأنّى لها العزاء وكيف السبيل إلى إنقاذها ؟ ... لقد كان أخوف ما أخافه أن تنهار أعصابها تحت هذه الصدمة الجديدة ، وأن يتداعى كيانها تحت هذه الضربات المتوالية .

وبعد يابنى :

تلك أيام مضت وانقضت ، ولا مجال أو سبيل لاستعادة ذكرياتها دون أن تتقيح جراح توشك أن تندمل ، وقد عاهدت الله أن أنساها وألا أذكرها إلا بالحمد والثناء ، وأنا أراك الآن تلهو وتلعب أمامى من جديد وتعوّض بحيويتك التى تضاعفت بعض ما كنت أجده منك ومن أخيك ، بعد أن نجوت من براثن الخطر بمعجزة من معجزات الربّ ... نجوت يابنى بعد أن سلمنا فى أمرك ، ورضخنا لقضاء الله حامدين

شاكرين ... نجوت يابنى بعد أن حدّثت بعض الأقرباء فيما يُتّبع بشأن تجهيزك وتشييع جنازتك نجوت يا بُنى بالرغم من ذلك كله ، وإن سعادتى بما يتمثل فى هذه النجاة من رحمة إلٰهية وحنان ربانىّ هى أضعاف أضعاف سعادتى بنجاة شخصك . فقد قضيت ليالى طوالاً وأنا أتضرع إلى الله أن يبقيك من أجل والدتك ، من أجل جدّتك ، من أجل خالك ، من أجل مصطفى الوكيل الذى سميتك باسمه ، من أجل أعزائى الذين تنفطر قلوبهم لمصابى ، والذين ظلوا مخلصين لى بالرغم من كل شىء . فأجاب الله الدعاء وحقق الرجاء . فكانت المعجزة وكان الشفاء بعد شهرين كاملين من المصارعة مع الداء شهرين كاملين . لم يتداخل فيهما الأطباء إلا بالمراقبة والملاحظة ، فقد طلبت منهم وقد قالوا كلمتهم الأخيرة أن يدعوا الأمر لله إن شاء أبقاك وأحياك وإن شاء قضى فيك مشيئته فكانت نجاتك من الخطر بدون مساعدة من الأطباء لتتجلى قدرة الله فى أكمل صورها إذ يُحيِي العظام وهى رميم . فله الحمد والثناء على ما غمرنا به من نعمة وأن بدّل أحزاننا فرحًا وشدّتنا فرجًا . وله على العهد والميثاق أن أعيش طول عمرى مجاهدًا مكافحًا فى سبيل الحق والحرية والفضيلة .

معتقل مصر الجديدة فى يناير سنة ١٩٤٣

تمت الرسالة بعون الله تعالى

وتليها ثلاث رسائل فى الحرب والحرية والعلم

الحـــــرب

الحــرب

أهى شر كلها كما يظن الناس ؟ وهل هى فى طريقها نحو الإلغاء كما يدعون ؟.

أما أنا فأعتقد أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة ، وناموس من نواميسها التى لا تقوم بغيره .

بل إنى لأذهب إلى أبعد من ذلك فأقرر أن الحرب هى خالقة الحضارة ، وسر تطور الإنسانية ، ولا حد لما تنطوى عليه من خير ، وفى الصفحات التالية تفصيل ذلك .

إلى

أرواح الشهداء من أبناء مصر الفتاة الذين سقطوا فى ساحة المعركة .

وهم يهتفون المجد لمصر.

إلى روح الدكتور مصطفى الوكيل الذى بذل دماءه فداء لحرية مصر ومجدها فى معركة برلين ..

أهدى هذه الرسالة عن الحرب .

تعريف

ذكرت فى مستهل رسالتى عن الزواج والمرأة أنها واحدة من عشر رسائل كتبتها إبان اعتقالى فى خلال هذه الحرب (من ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى ٤ يونيو سنة ١٩٤٤) .

هذه الرسائل العشر فى الحرب والحرية والمال والعلم والمرأة والقوة والصبر والصدق والإيمان والوطنية . وهاأنذا أقدم لقراء العربية وشباب الجيل عامة وأبناء مصر الفتاة خاصة ، هذه الرسالة عن الحرب التى ناقشت فيها موضوعها وضرورتها لارتقاء البشرية وتطور الحضارة وانتصار الحق والفضيلة !.

ورسمت فى ختامها الطريق لجعل مصر أمة محاربة من الطراز الأول ، تكرس جهودها لتحرير البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة من كل استعمار أو استغلال أجنبى ، بل تحرر الدنيا كلها من روح الشر والعدوان وتنشر السلام والإخاء والمحبة بين البشر ، والله أكبر والمجد لمصر.

«أحمد حسين»

تمهيد

كانت تطورات الحرب واندفاع الجيوش الألمانية صوب الإسكندرية وتهديدها مصر بالغزو هو الذى دفعنى إلى الهرب من معتقلى فى مستشفى الدمرداش كما فصلت ذلك من قبل[1] خشية أن يختطفنى الإنجليز معهم فى إبان انسحابهم من مصر. وتطورات الحرب هى التى أعادتنى إلى الاعتقال من جديد بمطلق إرادتى واختيارى !. ذلك أن الجيوش الألمانية التى وصلت إلى قرية العلمين لم تستطع بعدها أن تتقدم خطوة واحدة نحو الإسكندرية ، وتحطمت موجة هجومهم على صخرة الدفاع الإنجليزية فى منطقة العلمين ، التى جلبوا لها الإمدادات السريعة من فلسطين وسوريا والعراق ، ومن عرض البحار ، من القوافل التى كانت تقصد أنحاء أخرى من ميادين القتال فغيرت كلها اتجاهها واندفعت نحو مصر بأقصى سرعتها فوصلت فى الوقت المناسب ، واستطاعت أن توقف الزحف الألمانى إلى الأبد فى هذا القسم من أنحاء العالم.

ظل أنصار المحور يتوقعون قرب الهجوم الألمانى مؤمنين إيماناً جازماً ، أن جيوش المحور ستدخل مصر غازية منتصرة بعد ساعات قليلة عقب استئناف الهجوم مباشرة !. لكنى لم أشاطرهم هذا الاعتقاد كما سجلت ذلك فى رسالتى الثالثة عن القوة ، وقد أثبتت الحوادث أن أمل المحوريين فى امتلاك مصر كان ضرباً من الأحلام والأوهام التى تتبدد بمجرد يقظة رائيها . فقد كرت الأسابيع تتلوها الشهور ، والألمان جامدون لا يتحركون ، أو يتحركون حركات تافهة لا يلبثون بعدها أن يرتدوا إلى الوراء . وظل الحال على هذا المنوال حتى قارب شهر أكتوبر على الانتهاء ، أى بعد أربعة أشهر من وقف روميل عند العلمين ، إذا بالإنجليز ينقضون على خطوط الألمان بمدافعهم الثقيلة وطائراتهم فى هجوم ساحق سيطر فيه السلاح البريطانى على الجو فدك معاقل المحور دكا ، فتداعت هذه الخطوط التى اشتغل الألمان فى تحصينها كل هذه المدة الطويلة ، وأعلنوا للملأ أنها أصبحت أمنع من عقاب الجو ، وأنه لا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن

١ - سجلت حادث هربى من مستشفى الدمرداش بالتفصيل فى مقدمة رسالتى عن القوة .

نزحزحهم خطوة واحدة إلى الوراء . وما إن تداعت هذه الخطوط وفتحت فيها ثغرات ، حتى اندفعت الدبابات الإنجليزية من خلال هذه الثغرات فاشتبكت بالدبابات الألمانية الشهيرة فهزمتها هزيمة منكرة ، وأصابتها بخسائر فادحة ، فارتدت فلولها إلى الوراء ، فى انسحاب هو أشبه ما يكون بالفناء !. فسقط قواد الألمان العظام قتلى فى الميدان أو أسرى فى يد الإنجليز. وتكدس القتلى الذين تمزقت اشلاؤهم تحت عجلات الدبابات والسيارات الزاحفة والانفجارات المتواصلة . ولم تكن نكبة الألمان والطليان فى الأسلحة والمهمات أقل من نكبتهم فى الجنود والقواد !. فقد خسروا سلاح طيرانهم كله تقريباً ، فأصبحت البقية الباقية من جيوشهم بغير حماية جوية !. فصارت مهددة بالفناء ، وانطلق عدد كبير منها يهيم على وجهه فى الصحراء بغير ماء أو زاد !. حتى أشرفوا على الهلاك ، ولم ينقذهم من الموت إلا وقوعهم فى أسر الإنجليز ، وكثيراً ما كان جنود المحور يبحثون بأنفسهم عن معسكرات الاعتقال البريطانية ليجدوا فيها جرعة من الماء . أما فصائل المحور التى استطاعت أن تنجو من هذه الخاتمة التعسة ، فقد تقهقرت إلى الوراء فى سرعة عجيبة ، فأخلت مصر فى أيام قليلة ، ثم أخلت برقة كلها فى أيام أقل . وسقطت بنى غازى للمرة الخامسة فى أيدى الإنجليز !. ثم وقف الألمان عند العقيلة قليلاً لكى يستردوا أنفاسهم المفقودة ، وينظموا صفوفهم الممزقة ، ويلموا شعثهم ، منتهزين فرصة استطالة خطوط التموين الإنجليزية ، واضطرارهم التباطؤ والتريث ، ريثما تلحق ساقتهم بمقدمتهم .

على أن الأمور لو وقفت عند هذا الحد لما اعتبرت هزيمة المحور نهائية ، فلم تكن هذه هى المرة الأولى التى تقهقروا فيها مثل هذا التقهقر ثم عادوا للهجوم من جديد بعد أن استردوا قواهم . ولكن الحلفاء كانوا مصممين هذه المرة على اقتلاع المحور بصفة نهائية من شمال أفريقيا !. فبينما كان الجيش الإنجليزى الثامن يوجه إلى جيش روميل هذه الضربة الساحقة من مصر ، كان الأمريكان ينزلون جيوشاً جرارة بمساعدة أسطول انجليزى ضخم فى شمال أفريقيا الغربى ، أى فى مراكش والجزائر ، لكى يضربوا قوات المحور من الخلف ، ويطعنوها الطعنة القاتلة . وقد كانوا على اتفاق فى ذلك مع قواد فرنسا المستسلمة ، فلم تمض ساعات قلائل على وصول الجيوش الأمريكية إلى شمال أفريقيا حتى كانوا يحتلون هذا الجزء الضخم من شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، الذى تتألف منه الامبراطورية الفرنسية ، ونعنى به الجزائر ومراكش ، ولم يبق باقياً لإكمال الخطة

والإجهاز على روميل من الخلف إلا أن يحتلوا تونس التى تتاخم طرابلس ، والتى كان جيش المحور يرتد إليها . ولكن ألمانيا سارعت إلى احتلال تونس لتفسد على الحلفاء خطتهم ! . فاستخدمت سلاح الطيران لنقل فرق ميكانيكية كاملة هبطت فى تونس قبل أن يصل الحلفاء إليها . وهكذا أمكنهم أن يتفادوا وقوع الكارثة ، وهى إبادة جيش روميل بأكمله بالموت أو بالأسر[1] .

وهكذا انقلب الموقف الحربى رأساً على عقب بغير مقدمات ولا تمهيدات ، فبعد أن كان المحور هو سيد البحر الأبيض المتوسط الذى يوشك أن يطرد انجلترا من آخر حصن لها فيه وهو ميناء الإسكندرية ، ويضرب بذلك إنجلترا ضربة قاصمة قد تضع حداً لاستمرارها فى الحرب ! . إذ بالمسألة تتغير كلها ولم تعد بالنسبة لدول المحور مسألة الهجوم على مصر ! . ولكن مسألة الدفاع عن إيطاليا التى باتت مهددة بصورة مزعجة . وهكذا تحققت حكمة الشاعر .

ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال .

وقد استتبع هذا الانقلاب الحربى انقلاب فى ظروف مصر وسياستها ومستقبلها ، إذ ارتفع عنها خطر هذا الغزو الأجنبى وما كان يصحبه من انسحاب الأجنبى الآخر ، فتسحق البلاد سحقاً تحت أقدام هؤلاء وهؤلاء . أما الآن وقد نجت مصر من هذه المحنة واستقرت الأمور والأوضاع ، فقد بدأت أراجع موقفى والفائدة من استمرار اختفائى عن أعين الحكومة فاستقر عزمى على الظهور . فتوجهت فى الساعة الرابعة بعد ظهر الثلاثاء ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ إلى منزل فؤاد باشا سراج الدين أحد الوزراء ، لكى يقدمنى إلى رئيس الحكومة ليتخذ قراره بشأنى فيطلق لى حريتى السياسية أو يعيدنى إلى الاعتقال . فلما قابلت رئيس الحكومة عرض على أن يعيد اعتقالى فى أحد الأماكن الحكومية الصالحة لسكن عائلة على أن تكون معى زوجتى وأولادى ، وأن تكون شبه معتقلة فلا يسمح لها بالخروج . ولما كنت أعرف أن هذا هو ما تتوق إليه زوجتى ، فقد قبلت هذا العرض على الفور . وهانحن نقيم الآن فى منزل ملحق بمركز بوليس مصر الجديدة ، يحيط بنا الحراس من كل جانب دون أن يكون لهم أى علاقة بمسكننا من الداخل ، وهذا ما يجعلنا سعداء

---

١ - لم تكن نهاية هذا الجيش قد عرفت عند كتابة هذه السطور لأن الجيوش الألمانية قد انتهت بالوقوع فى الأسر كلها بالفعل ولم ينج منها سوى روميل الذى مات بعد ذلك .

نشكر الله ونحمده صباح مساء ، لأننا نقيم سويا وضمائرنا مستريحة ، لما نقوم به من واجب نحو جهادنا وأمتنا . فلا نفرط فى عقيدتنا ولا نشترى حريتنا بالخضوع للاستبداد الذى يفرضه الأجنبى على البلاد . لست أعرف كم من الزمن سنظل على هذه الحال ، وهل ستستمر إلى آخر الحرب ، أم يحدث ما ليس فى الحسبان . ولكنى أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى لاستغلال هذه العزلة الهادئة فأتم كتابة هذه الرسائل ، وأفرغ من كتابة غيرها من المؤلفات التى شرعت فى كتابتها . ولما كانت تطورات الحرب هى التى أدت إلى اعتقالى أول مرة ، وهى التى دفعتنى بعد ذلك إلى مغادرة الاعتقال والاختفاء عن أعين السلطات ، ثم هى التى حملتنى فى النهاية على الظهور وإعادة اعتقالى ، إذ كانت الحرب وتحولاتها هى التى تهيمن على حياتى بل حياة العالم كله ونشاطه طوال هذه الأربع السنوات الأخيرة بل وقبلها . ولما كانت ستحدث أكبر الأثر فى مستقبل بلادنا ، ومستقبل العالم عامة كما هو شأن الحروب دائماً فقد رأيت أن أعرض لموضوع الحرب بالتفصيل والتحليل باعتبارها الشاغل الأول الذى يشغل البشر دائماً أبداً لكى أدعوك فى ختامها لتكون محارباً .

الفصل الأول

ماهية الحرب ـ ضرورتها ـ فائدتها ـ العمران والحرب

أكتب هذه الرسالة فى وقت يضجر الناس فيه جميعاً من الحرب ، ويتمنون أن لا يكون على الأرض حرب أبداً ، ويعلن المتحاربان كل من ناحيته أن هذه الحرب ستكون الأخيرة وسيكون بعدها سلام وأمان لجميع الأمم والشعوب ، لا فرق فيها بين قويها وضعيفها ، وبين غنيها وفقيرها ، وأن سيكون لكل شعب حريته واستقلاله على قدم المساواة بالنسبة لبقية الأمم ، وسيكون له كذلك نصيبه العادل من تجارة العالم وموارده الأولية . وعلم الله أن هذا الذى يقولونهُ ليس إلا حلماً من الأحلام ، بل هو فى حقيقته تغرير وخداع يُمَوِّه به القادة والزعماء على شعوبهم ليهونوا عليهم احتمال مشاق الحرب الحاضرة ، وليموهوا به على الأمم الضعيفة الواقعة تحت براثنهم ليأمنوا جانبها فى هذه الأزمة العصيبة ، وليستجلبوا ودها ومعونتها التى هم فى أشد الحاجة إليها ، وسوف تنتهى الحرب فى الغد القريب ويكون بعدها غالب ومغلوب وقاهر ومقهور ، وللأول ماشاء وأراد من ثروة ومجد وسلطان ، وللثانى مالم يرد من الفقر والخزى والإذلال . غداً تضع الحرب أوزارها ، فترتفع أمم وتنخفض أخرى ، وشعوب ترضى وشعوب تسخط ، ودول تغنم وتربح ، ودول تغرم وتخسر ، وعروش تقام وأخرى تثل فلا يعود قادراً على غسل الإهانات ورد الاعتبارات والأخذ بالثارات وتمزيق المعاهدات الجائرة سوى الحرب . فلن تنتهى حرب من الوجود قبل أن تضع بذرة الحرب القادمة وتهيء الأسباب للملحمة التالية . فالحرب ككل شيء فى الوجود يعمل على حفظ نوعه واستمرار بقائه ، فلا يفارق الحياة قبل أن ينجب خليفته . وتلك صحائف التاريخ مبسوطة منشورة تسجل وقائع الكون وانعكاس حياته وكلها تدل على أن البشرية لم تسلم من حرب طاحنة فى أى جيل من الأجيال تصيبها هنا أو هناك ! . وأنه ما من حرب تضع أوزارها إلا وقد وضعت فى نفس الوقت بذرة حرب تالية ، فإذا أضرت الحروب المتعاقبة بشعب من الشعوب جاءت الحياة بشعوب جديدة تفيض حيوية متقدة ، فتشتعل النيران الخامدة ويستعر لهب

الحرب من جديد ، وهكذا يبقى الصراع بين الأحياء متصلاً بهذا تقضى سنة الحياة ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

كم قام دعاة فى القديم والحديث يعلنون أنهم رسل رحمة ، وينادون بإلغاء الحروب وإحلال المحبة مقام البغضاء،والتسامح والصفح محل القصاص والانتقام ، ففشلت جهودهم وتحول تلاميذهم وأتباعهم إلى أشد العالمين خصاماً وصداماً ، وبغضاً وانتقاماً ، فمنذ بضعة عشر قرنا والمسيحيون الذين ينادى دينهم بالسلام لا يفتأون يصبغون العالم بالدم ، فيشعلون حرباً بعد حرب لا ضد أعدائهم فحسب بل ضد أنفسهم وبين صفوفهم .

فشل محاولات منع الحروب

عندما تطورت الإنسانية تطورها العظيم فى ختام القرن الثامن عشر ، ومستهل القرن التاسع عشر ، وانتهت حروب نابليون وزسمت خريطة أوروبا بصفة نهائية ، كما كانوا يتصورون فى مؤتمر ڤيينا ، أمل المفكرون أن ساعة وضع حد للحروب بين البشر قد حلت ، وأن القوة يجب أن تزول من قاموس التعامل بين الأمم ، وأن الشعوب يجب أن تخضع كلها لقانون واحد ينظم علاقاتها ويحسم منازعاتها بطريق التحكيم والقضاء ، وظلت هذه الدعوات تنمو وتتطور حتى أخذت صوراً قوية كإنشاء محكمة العدل الدولية ، وظُنَّ أن فجر السلام الدائم أوشك أن يطلع على البشر ، فإذا بالحروب لا تكاد تنتهى بين دول أوروبا ، سواء فى شرقها أو وسطها أو غربها ، ثم جاءت الحرب العظمى فقوضت هذه الأحلام والأمانى نهائيا ، إذا استعر لهبها بأعظم مما سبق فى تاريخ بنى الإنسان ، وذاب فى اتونها المتقد كل القوانين والمعاهدات والقواعد الإنسانية التى خيل للبعض أنها قد استقرت إلى الأبد . وذاب معها عشرة ملايين من البشر قتلى ومثلهم من الجرحى .. وانتشر الخراب والدمار بفعل الأسلحة الحديثة الفتاكة بما لم تعهده البشرية من قبل . ولم تكد الحرب العظمى السابقة توشك على نهايتها حتى هب دعاة الإنسانية والرحمة وعلى رأسهم رئيس الولايات المتحدة ودروولسون وبشروا من جديد بإنجيل السلام والمحبة بين الأمم ، وابتدعوا نظام عصبة الأمم لتكون حكماً بين الشعوب ، وضماناً لتنفيذ المعاهدات ، ومانعة من وقوع الحرب بين الأمم ، ولكن هذه العصبة التى طبل لها العالم وزمر ولدت فى الحقيقة ميتة ، فلم تستطع أن تحقق طرفاً من الأغراض التى أنشئت من أجلها ، وامتشقت الأمم المشتركة فيها الحسام كلما عنّ لها ذلك لتحقيق

أغراضها . وبادرت عصبة الأمم بالتصديق على حكم السيف دائماً نزولاً عند شريعة الخليقة الأزلية ، ألا وهى أن القوة وحدها هى التى تميت الحقوق وتحييها . وعلى الرغم من الضربات التى نزلت بالعصبة فقد ظلت تقاوم الفناء حتى اندلعت نيران الحرب الحاضرة فاضطرت العصبة لإغلاق أبوابها وتخزين مهماتها وأوراقها حتى يقضى السيف والمدفع قضاءه ويفرغ من مهمته .

الحرب سنة الكون

فالحرب لا يمكن أن تزول من الدنيا أو أن تخف حدتها أو تخصر ويلاتها ، ذلك أنها بكل ما فيها من مرارة وآلام ، وبكل ما تنطوى عليه من قسوة وبطش واخلال بالأمن والسلام ، سر من أسرار الحياة وجوهر من جواهرها !. لأن الحياة هى الحركة ، والحركة هى التى تحول المادة وتغيرها بما تحدثه من احتكاك وصدام وصراع مستمر . إن كل ما فى الكون من عناصر مركبة أو بسيطة فى كفاح مستمر بين أجزائه المختلفة . فالماء والهواء والحرارة وبقية العناصر كلها فى حرب دائمة ، ومن هذه الحرب تنشأ جميع الظواهر الطبيعية والجغرافية التى تؤلف مسرح الحياة . فالرياح والعواصف والسحب والبروق والرعود والصواعق والسيول والأمطار والزلازل والبراكين هى مظهر هذا القتال ، فما من ذرة من ذرات الكون إلا ويجرى فيها هذا الصراع !. وحسبك أن تنظر إلى قطرة من الماء من خلال المجهر ، أو قطرة من الدم لترى فيها جيوشاً جرارة فى كرّ وفرّ وإقبال وإدبار يلتهم بعضها البعض الآخر بعد أن يصرعه !. فإذا شئت أن ترى ذلك مكبراً بالعين المجردة فما عليك إلا أن تلقى بنظرة على الغابة حيث تغص بالحيوانات الكاسرة والطيور الجارحة التى لا تنفك فى حرب متواصلة أبدية خالدة لا تفتر لحظة أو تهدأ ، ابتداء من الدودة الصغيرة إلى الفيل الضخم . ولو نظرت إلى قاع المحيط لوجدت مثل ذلك جيوشاً لا يدركها الحصر تتباغى وتتقاتل وتتصارع حول الحياة والموت وتلك هى سنة الخلق .

وما كان الإنسان يشذ عن هذه القاعدة ، وهو أرقى صور الحياة وأكملها ، غير أن العقل والأديان قد نظمت قواه وحدت من غرائزه التى تدفعه للقتال دائماً أبداً ، ولكنها لم تقض على هذه الغريزة ، وإلا لقضت على الحياة فى أساسها فبقيت غريزة القتال كامنة فى النفوس لا تلبث أن تحتدم متى جدت دواعيها وتهيأت أسبابها ، وما أكثر الأسباب والدوافع التى تفضى إلى المنافسة بين بنى البشر فالاحتكاك فالصراع . إن اختلاف الألوان واختلاف البيئات واختلاف العقائد والأديان وهذا التطلع المستمر فى

طبيعة الإنسان إلى التفوق والامتياز والاستكثار من أسباب الرفاهية والغنى ، هو الينبوع المستمر الذى يقذف بالشرر ، والحمم التى لا تلبث أن تمتد إلى ما يجاورها من مواد قابلة للالتهاب ، فتكون الحرب والقتال . ولهذا القتال غاية واحدة ، هى انتخاب الأصلح والإبقاء عليه ، لا بالنسبة للأحياء والمخلوقات فحسب ، بل بالنسبة للمبادىء والأفكار والمعنويات ، وذلك كله مصداقاً لقول العزيز الحكيم : «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» وهذا فى عالم المادة «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» وذلك فى عالم الروح والمعنويات .

بضدها تتميز الأشياء

على أن الحرب فى نهاية الأمر هى التى تخلق لنا ما نشعر به من سعادة ومتعة فى فترة السلم ، فالحرب سبيل السلم ، فإن لم تكن الحرب فلا وجود للسلم . ذلك أن كل شىء يخلق ضده ، فإذا انعدم أحد الطرفين انعدم الطرف الآخر . فالسالب يخلق موجباً ، والموجب يخلق سالباً ، وإذا انعدم السالب لم يوجد الموجب . وكذلك كل ما فى الحياة من مظاهر وأعراض ، فالسكون هو أصل الحركة والحركة هى خالقة السكون ، فهما دائرة مفرغة لا يعرف الإنسان أين طرفاها . فالجوع والمرض والاصابات والموت والحروب هى موجدة السعادة التى نشعر بها عند استمتاعنا بما يقابلها . فنحن نشعر بالفرح والابتهاج لخلو جسدنا من الأمراض والعلل فهل كان يمكن أن يكون لهذا الإحساس وجود إذا لم نذق مرارة المرض فى يوم من الأيام ؟ أو على الأقل شاهدنا من يعانى آلامه أمام أعيننا . والإنسان يشعر بمتعة لا حد لها وهو يتناول طعاماً هنيئاً مريئاً وشراباً سائغاً عذباً فراتاً ، فهل كان يمكن أن يكون لهذا الاستمتاع وجود ما لم نعان ألم الجوع المحض فى لحظة من اللحظات أو قسوة الظمأ والجفاف . أى أن الألم السابق هو سر اللذة اللاحقة دائماً أبداً ومبعثها وهذا هو سر الحياة كلها وقوامها ، ومن غابت عنه هذه الحقيقة فلا يعود قادراً على فهم شىء من الحياة وتصرفاتها فالأمور لا تظهر آثارها فى الوجود إلا بالنسبة لأضدادها فضوء النهار لا يبرزه إلا قتام الليل وحلوكته . وقيظ الصيف لا يظهره سوى برد الشتاء ، ونحن نحب أن يعقب الليل النهار وأن يخلف النهار الليل ، ولو كانت الدنيا نهاراً كلها لأصبحت لا تطاق ، ولو كانت ليلاً سرمداً لما ازدهرت فيها الحياة ولانعدم منها الجمال . ولو كان الزمن فصلاً واحداً لما تنوعت الأحياء والمحصولات ، ولكانت الدنيا منظراً واحداً يقتل الإنسان مللاً وسأماً ، ويحرم الإنسان من ملذات الحياة ومباهجها التى

يخلقها اختلاف الليل والنهار وتغير الفصول . فما ألذ الدفء بعد البرد ، والظل بعد القيظ ، والراحة بعد التعب ، والرى بعد الظمأ ، فإن لم يكن تعب فلا راحة ، وإن لم يكن برد فلا دفء ، وإن لم يكن قبح فلا حسن ، وإن لم يكن أبيض فلا أسود ، وإن لم يكن شر فلا خير . وكذلك الحال فى موضوع الحرب والسلم ، فإن لم تزعجنا الحرب فليس يفرحنا السلم وإذا لم يكن للحرب وجود فكيف يكون للسلم وجود ؟ وإذا كان الموت هو الذى يفزعنا من الحرب وجب أن ننظر إليه وإلى جميع أسبابه بنفس المقياس السابق ، فلولا الموت ما كانت الحياة العزيزة الغالية التى نحبها ونحرص عليها ونكافح فى سبيل استبقائها فكل ما يملأ حياتنا من نشاط وإنتاج وإبداع ، إنما يرجع إلى غريزة واحدة ، هى غريزة حب البقاء ومقاومة الفناء والمهالك ولولا هذه الغريزة لما نشط الإنسان ولا جدّ وابتكر ، ولما تحرك أو درج . فنحن نأكل ونشرب ونروح ونجيء ونلبس ونبنى ونعمل ونتزوج لأننا نريد أن نعيش وأن نحفظ نوعنا وجنسنا ، ولو أمن الإنسان على نفسه وضمن البقاء والخلد لما تحرك حركة واحدة ولجمد جموداً مطلقاً كبقية الجمادات .

الحرب خالقة الحضارة

ولما كانت الحرب صورة من أبشع الصور التى تسبب الموت وتحدثه حتى لتكاد كلمة الحرب تكون مترادفة لكلمة الموت ، كان الاستعداد لها والعمل على درء مخاطرها والحرص على إحراز النصر فى نهايتها ـ هو الحافز للإنسان على كل ما نراه حولنا من ألوان النشاط والإنتاج والإبداع !. وكثير من ضروب الملذات والمسرات . فحرب الإنسان ضد الإفراط فى شهواته والاستسلام لغرائزه هى أساس الفضائل وينبوعها وحرب الإنسان ضد الطبيعة هى الدافع إلى أول مظاهر العمران من اتخاذ الملبس والمسكن وكشف النار . وحرب الإنسان ضد الحيوان المفترس وضد الإنسان المعتدى هى التى أدت إلى ابتكار أول سلاح من أسلحة الدفاع اهتدى إليه الإنسان من الحجر أو من فروع الشجر ، الذى تطور فيما بعد فصار سكيناً ورمحاً من الفولاذ . وقد كانت هذه الأسلحة هى أدوات الإنسان الأولى للتطور والارتقاء ، وكانت الرغبة فى اتقاء غارات الأعداء من حيوان وإنسان هى السبب الأول فى خلق الجماعة . هذه الجماعة التى ما فتئت تتطور إلى أن صارت دولاً نظامية واجبها الأول هو تأمين أعضائها من طغيان الشعوب الأخرى عليها . فالحرب دفاعية كانت أو هجومية ، هى خالقة العمران والحضارة وقد ظلت كذلك فى جميع عصور التاريخ المتوالية حتى الحديث منها ، فها نحن نرى الحضارة فى أى أمة من الأمم

نتيجة تفوقها العسكرى وسيادة الروح الحربية فيها . فما من حضارة قامت إلا بعد سلسلة من المعارك الناجحة . فمصر القديمة شقت طريقها فى التاريخ من خلال قوتها العسكرية أولاً وقبل كل شيء ، عاشت خمسة آلاف سنة وهى بين ارتفاع وانخفاض ، ومد وجزر - فتارة فى ذروة المجد والعز تضيء بأنوارها العالمين وتنشر الحضارة والمدنية من علوم وفنون وحكمة ودين - فيجلس العالم منها مجلس التلميذ والمقلد والتابع - وتارة أخرى تهوى إلى حضيض الجهل والفوضى والمذلة والمسغبة وتخيم عليها سحب الظلام ويدب إليها الفساد والإنحلال . وكلتا الحالتين كانتا نتيجة لقوة مصر الحربية وسيطرة الروح العسكرية على نفوس أبنائها أو لعكس ذلك . فاعتزت مصر حيث انتصرت جيوشها - وذلت بانخذالها . وكذلك كان الشأن فى مدينة الإغريق الرائعة التى نمت وترعرت من خلال الحروب الطاحنة بين دويلات الإغريق المختلفة ، وبين الإغريق والفرس ، وحسب الإنسان أن يطالع الإلياذة والأوديسا ليرى عظم الروح الحربية وسيطرتها على نفوس الإغريقيين . ومن خلال هذه الروح انبثق كل ما للإغريق من مجد تليد وحضارة رفيعة . وجاء على أعقابهم الرومان الذين سيطروا على العالم بقوة جيوشهم فكان لهم بعد ذلك مدنية عمرانية تمثلت فيها كل المدنيات القديمة . أما العرب ومدنيتهم الإسلامية التى فاقت مدنيات الأوائل والأواخر فهى بدورها ازدهرت فى ظل قوة المسلمين العسكرية التى انتصرت دائماً فى كل موقعة خاضتها ، فحيثما سال الدم العربى نمت الحضارة الإسلامية . فلما انكسرت شوكة العرب العسكرية بخمود روح القتال فى نفوسهم وإخلادهم إلى السلام والاستمتاع بالملذات والشهوات - انطوت صفحة هذه الحضارة المشرقة وخبت أنوارها - وطُوِى بساطها ونكست أعلامها ، فانتقل لواء النصر والمجد والحضارة إلى صفوف الأوروبيين الذين احتكروا القوة العسكرية وغلبت عليهم الروح الحربية وحققوا تفوقهم من خلال أنهار من الدماء الجارية . فالظاهرة التى يسجلها التاريخ وعلم الاجتماع هى : أن كل أمة مبتدئة تسيطر عليها الروح الحربية فتخوض معارك ناجحة لا تلبث بعدها أن تستمتع بثمرات نصرها فتنتقل من دور البداوة إلى دور الحضارة - وتتحول إلى ينبوع من ينابيع الإنتاج فى العلوم والفنون . وتفسير ذلك واضح وجلى ففى الحروب تصطدم الشعوب وتختلط وتحتك فيتأثر كل منها بما عند الآخر ويقتبس ما يراه لازماً له فضلاً عن أن ضرورة الحرب تدفعه إلى إصلاح أحواله وتوحيد صفوفه وفض منازعاته وسد ثغراته - ثم حشد كل قواه لمجابهة خصمه ، مبتكراً أحسن خطط الدفاع والهجوم مخترعاً شتى صنوف الأسلحة . ومن خلال ذلك كله تنشط الملكات الإنسانية والمواهب

الكامنة من جسدية وفكرية ومعنوية . وذلك كله من شأنه إذا وضعت الحرب أوزارها أن يدفع بالنشوء والارتقاء الإنسانى بضع خطوات إلى الأمام . فتزدهر العلوم والفنون والصناعات ، وتتطور الآراء والأفكار نحو الأحسن والأكمل . كما شاهدنا ذلك محسوساً ملموساً بعد الحرب العظمى الماضية . فقد كان الاستعداد لهذه الحرب وما وقع فى أثنائها من تطور بعيد المدى فى سائر ميادين النشاط العلمى والصناعى والفنى . وثبة كبيرة للارتقاء بالمجتمع الإنسانى نحو حياة أكمل بالنسبة لفريق كبير من البشر وما لم تتم الحرب الماضية تحقيقه فإن الحرب الجارية ستتكفل بإتمامه .

أثر الحرب العظمى فى حضارتنا

لقد كان للحرب العظمى الأولى والثانية أكبر الأثر فى تطور الطائرة والراديو إلى ما وصلا إليه مما قلب حياة البشر رأساً على عقب ، وقد تحول العالم بواسطتهما إلى بيت كبير يتحدث أحد أفراده فى ناحية منه فيستمع إليه الآخرون !. وينتقل الفرد من مطلع الشمس لمغربها فى أيام معدودات ، وهكذا فنيت الأبعاد التى كانت تفصل بين الأمم ، وزالت الحواجز والأسوار الطبيعية التى كانت تجعل كل شعب يجهل ما عند الآخر ، بل يجهل أبناء المدينة الواحدة ما يجرى فى مدينة مجاورة . لقد قربت الطائرة والراديو والتلفزيون اليوم الذى يتعارف فيه البشر وتزداد الألفة والمحبة فيما بينهم وينتشر التعاون بين صفوفهم . هى الحرب وحدها والمجهود الجبار الذى بذل فى الحرب العظمى الذى أوصل هذه الاختراعات إلى ما وصلت إليه . وهى الحرب والحرب وحدها التى تتوسع فى استخدام هذه الأسلحة استخداماً هائلاً سيربح من ورائها العالم بمجرد أن تضع الحرب أوزارها .

ماذكرت الطائرة والراديو إلا على سبيل المثال ، وإلا فقد كان أثر الحرب العظمى لا يقل خطورة فى سائر فروع العلوم والصناعات ، فقد أحدثت انقلابات فى عالم الكيمياء الصناعية فأصبح الحرير يستخرج من الخشب ! ، والمطاط من البترول ، والسماد من الهواء ، وأصبحت جميع الفضلات التى يمكن أن تتخلف من استهلاك الإنسان قابلة للانتفاع بها من جديد على شتى الصور والأشكال !. وغير ذلك كثير لا يتسع المجال لتفصيله ولست محيطاً به كل الإحاطة . أما الانقلاب فى علم الطب والجراحة بصفة خاصة فحدِّث عنه ولا حرج ، فبعد أن كانت الجراحة مغامرة ومخاطرة لا نقدم عليها الإنسان إلا وقد يئس من الحياة أصبحت علاجاً أساسيا ناجعاً للكثير من

الأمراض وتخفيف الآلام واكتشفت أدوية وعقاقير مدهشة وحسبنا أن نشير إلى البنسلين والسلفانامید والأسبرين وغيرها .

كذلك حدث مثل هذا التطور فى تفوق الصناعة والزراعة وحسبنا أن نعلم أن كل كتاب كتب فى أى فرع من فروع العلوم أو الفنون قبل الحرب الماضية أصبح قليل الجدوى بعد هذه الحرب اللهم إلا على سبيل التاريخ والتذكار ، لكثرة ما استحدث من نظريات وأدخل من تحسينات وصُحِّح من أخطاء وأضِيف من زيادات .

كانت الصناعة الآلية الحديثة تعتبر قبل الحرب العظمى سرا من أسرار كل أمة تحتكره ، أما بعد الحرب فقد تفشت الصناعات بين الأمم الكبيرة والصغيرة ولم يعد السر فيها خافيا على أحد ، كما أدى تطور الصناعة إلى شيوع كثير من الأدوات والمهمات التى كانت تعتبر قبل الحرب مظهراً من مظاهر الترف الذى يختص به الأغنياء والقادرون ـ كاستعمال السيارة مثلاً ـ فغدت بعد الحرب فى متناول الجميع لرخص ثمنها ، وبذلك تحولت إلى ضرورة من الضرورات .

القنبلة الذرية

ولم تكن القنبلة الذرية قد كشفت بعد عند كتابة السطور المتقدمة ، ولم تكن القنبلة الصاروخية قد أطلقت بعد .. أما الآن فقد أصبح فى وسعنا أن نتحدث عن هذين الكشفين الخطيرين وعما سيكون لهما من تأثير خطير فى حياة البشر يوشك أن يكون انقلاباً لا مثيل له من قبل فى تاريخ البشر . فالصاروخ يوشك أن يكون أداة السفر فى المستقبل والانتقال من قارة إلى قارة !. ومعنى ذلك أن يكن انتقال الإنسان من مشرق الدنيا لمغربها كلمح البصر أو أسرع ، ولست أحسب أن الوقت سيطول كثيراً قبلما يستطيع الإنسان بواسطة هذا المركب الجديد أن يصل إلى القمر ، ومن ثم إلى بقية الكواكب الأخرى[1] .

أما القنبلة الذرية التى تعتمد على تحطيم الذرة فتوشك أن تضع فى يد الإنسان طاقة رهيبة تمكنه من تدمير العالم فى برهة وجيزة ، ومن السيطرة على عناصر الكون الأساسية واستخدامها كما يشاء ويختار .

وإذا كان هذان الاختراعان الرهيبان قد أضرا بالإنسانية فى أيام الحرب ، فقد انتهت

---

١ ـ حدث ذلك فعلاً فى السبعينات حيث وضع الإنسان قدمه على سطح القمر .

الحرب وبقى أمام الإنسانية أن تنتفع بهذه النواة الجديدة فى عالم السلم والتطور فى الحضارة والارتقاء البشرى. ولولا الحرب ما تم الوصول إلى هذين الكشفين الخطيرين بهذه السرعة ... وهكذا تضطرد القاعدة فى أن الحرب وحدها هى الحافز على الاختراعات والاكتشافات المؤدية إلى تطور البشر.

إعادة التوازن العالمى

على أن للحرب إذا اتسع نطاقها وشملت أكثر من دولة كما هو الشأن فى الحروب العالمية الحديثة فائدة لا تقل خطراً عما ذكرته لك حتى الآن ، وهو أنها السبيل لإعادة التوازن المفقود بين الجماعات المتحاربة وغير المتحاربة ، بل بين أفراد الجماعة الواحدة من هذين الفريقين. فاستمرار السلم من شأنه تركيز القوى المختلفة من علم وثروة وسيادة وحضارة فى دول معينة وفى طوائف مخصوصة فى داخل الدول المعينة. فإذا ما قامت الحرب حدث خلط ومزج وفوران ودوران وصعود وهبوط فيحدث فى نهاية هذه التقلبات توزيع جديد للثروة ولمراكز القوة ومحاور الحضارة ، فيتحول إلى اليسار أقوام كانوا فى اليمين ويصل إلى ذروة الغنى أناس كانوا فى قوائم الفقر ، وترتفع إلى مرتبة النجوم أمم كانت فى حضيض الإهمال وتفاهة القدْر. وليس يقف هذا الأثر عند صفوف المتحاربين بل يتعداهم إلى غيرهم ممن قدر له أن يقف على الحياد ، أو ممن كان مربوطاً بمركبة أحد المتحاربين على سبيل التبعية والقهر ، كما هو الشأن فى الأمم المستعمَرة والمستعبدة والضعيفة المغلوبة على أمرها . ففى الحروب التى تستغرق جهودَ الأقوياء فرصة ذهبية للضعفاء ليشتد ساعدهم ولتدعيم مركزهم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، لانشغال الأقوياء عنهم من ناحية ، ولحاجة الأقوياء الشديدة لمعونة الضعفاء من ناحية أخرى ، فيعملون على إرضائهم .

الهنـــد

أضرب لذلك مثلاً أمة الهند التى تؤلف جزءاً كبيراً من البشر المغلوب على أمره بعد أن كان محوراً من محاور الحضارة فى العالم . تعيش هذه الأمة التى يبلغ عدد سكانها أربعمائة مليون نسمة تقريباً تابعة للأمة الإنجليزية منذ عدة أجيال ولا عمل للإنجليز إلا التفريق بين صفوفها والحيلولة بين الهنود وبين أى ارتقاء أو تطور ، ليظل للإنجليز سلطانهم وسيادتهم . فلما كانت الحرب العظمى الماضية قطعت الهند شوطاً فى سبيل التطور نحو الاستقلال السياسى والاقتصادى ، فاستيقظ الشعب من سباته ونظم صفوفه تحت زعامة غاندى ،

ثم راح يكافح من أجل حريته وحقه فى الحياة الكريمة والاستقلال والسيادة ، وبدأت الهند إنتاجاً صناعياً من الطراز الأول وكان اشتعال الحرب من جديد فرصة أخرى للهند لتضاعف نشاطها فى سبيل استكمال حريتها ، فوثبت وثبة رائعة نحو غايتها وتحقيق آمالها ، وعلى الأخص فى الناحية الاقتصادية ، إذ أصبحت مركزاً من مراكز الإنتاج الصناعى العالمى تنتج الفولاذ والآلات والسيارات والأسلحة . وبعد أن كانت الهند هى سوق انجلترا الأول لتوزيع منتجاتها أصبحت تعتمد على نفسها وتمد انجلترا ببعض حاجاتها فاضطرت انجلترا عند ذلك أن تقابل الهنود فى منتصف الطريق ، وأن تترضى عواطفهم وتلبى بعض مطالبهم ، فتزيد يوماً بعد يوم فى نصيبهم فى حكم أنفسهم ، وأن تشركهم إشراكاً فعليا فى الإشراف على سير العمليات الحربية !. بعد أن أصبح لهم ما يزيد على المليون من الجيوش المدربة التى تحرز الانتصارات فى سائر الميادين ، وأعلنت انجلترا فى النهاية أنها ستمنح الهنود استقلالهم الداخلى الكامل كما هو الحال فى استراليا وكندا وجنوب أفريقيا ، وهى دول مستقلة كل الاستقلال وليس يربطها بانجلترا إلا التاج البريطانى . بل أعلنت أن الهند فى حل من أن ترتبط بانجلترا بأى رباط ، فالهند تتطور وترقى فى معارج التقدم الإنسانى على رغم إرادة الإنجليز ، والفضل فى ذلك راجع لنشوب الحرب مرة بعد أخرى ، وخطر الحرب الدائم الذى سيظل يهدد انجلترا حتى بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها .

مصر والبلاد العربية

وما يقال عن الهند يقال عن بقية الشعوب المغلوبة على أمرها وعلى رأسها الأمم الإسلامية ، وقد شاهدنا هذا الأثر النافع واضحاً فى مصر عقب انتهاء الحرب الماضية حيث قام المصريون بثورة عجيبة هى الأولى من نوعها فى تاريخ مصر الحديثة ، حيث اندفع الشيوخ والنساء والأطفال ينادون بحرية الوطن ، لم يرهبهم سيف الأحكام العرفية المسلط على الرؤوس ولا مالاقاه البعض من اعتقال وسجن وضرب بالرصاص وشنق وجلد ، ولم يكن لذلك كله من أثر إلا زيادة النار اضطراماً ، والمصريين عزماً وتصميماً ، ولا جدال فى أن ذلك كله كان أثراً مما تلقاه المصريون طوال سنوات الحرب عن المتحاربين من دروس فى الاستبسال والتضحية فى سبيل مجد الأوطان ورفعتها وقد سرت هذه الروح التى غمرت المصريين إلى جميع الأمم العربية والإسلامية فقامت كلها تكافح عن كيانها وحريتها وحقها فى الاستقلال والمجد فبذلت أرواحها وأراقت دماءها فى

هذا السبيل فعادت الروح بذلك إلى هذه الأمم وأبرزت حقها للعالمين وقطعت شوطاً لا بأس به فى سبيل تحقيق غايتها ، وإذا كانت الحرب الماضية لم تحقق كل ما أمله المصريون والعرب فإنى أومن إيماناً جازماً أن الحرب الحالية ستكمل ما بدأته الحرب السابقة وستشهد الدنيا بعد هذه الحرب وحدة عربية فتية ناهضة تتزعمها مصر القوية التى تطورت تطوراً بعيد المدى ، فبعد أن كانت قبل الحرب الماضية لا تعدو أن تكون مزرعة تزرع القطن لحساب لا نكشير فى انجلترا أصبحت مركزاً من مراكز الإنتاج الكبرى فى الشرق الأوسط وتطورت فيها الصناعة تطوراً كبيراً يوشك أن يصبح انقلاباً خطيراً بمجرد تحقيق مشروعين أو ثلاثة . ومن خلال جهودها المتواصلة بدأت شخصيتها الدولية فى ظهورها كزعيمة للعالم العربى هذه الزعامة التى لن تلبث أن تصبح حقيقة فعالة فى الغد القريب .

وهكذا تعيد الحروب التوازن بين الأمم وتتيح الفرصة لشعوب هضمت حقوقها أن تتنفس وأن تصلح من أحوالها وأن تشق طريقها نحو الحرية والاستقلال والمجد[1] .

الحروب كوسيلة للإصلاح الروحى

على أن ما قدمته حتى الآن لا يعدو الجانب المادى من فوائد الحروب ، وهو الجانب الأقل أهمية وإنما تحقق الحرب فائدتها الكبرى فى الإصلاح الروحى الذى تحدثه فى نفوس البشر ، حيث تطهر نفوسهم من الدنايا والأرجاس وتسمو بأرواحهم إلى قمة الفضيلة والمثل الأعلى ، وتعيد تنظيم الجماعة على أسس أكثر صلاحية من الأسس السابقة على الحرب .

وتشبه الحروب من هذه الناحية،العملية الجراحية.فهى على ما فيها من جرح وإيلام وقطع أوصال وإراقة دم ، فإن هدفها الأول هو إبراء العليل وتطهير جسده من الأجزاء الفاسدة وإلباسه ثوب العافية من جديد وتحسين حاله عما كان من قبل ، فكذلك الشأن فى الحروب فعلى الرغم من أنها تخرب وتدمر وتسيل الدماء وتزهق أرواح فريق من

---

١ ـ كتبت هذه السطور قبل إنشاء الجامعة العربية ومعنى ذلك أن الأيام والحوادث قد أيدت هذا الإيمان وهذه العقيدة فقد شاهدنا بمجرد انتهاء هذه الحرب جلاء الجيوش الاجنبية عن سوريا ولبنان وتكوين الجامعة العربية .

ولن تستطيع أن تغفل نهضة أندونسيا الجبارة ، وإعلانها تأليف جمهوريتها المستقلة ، وليس ذلك إلا أثرًا من آثار هذه الحرب .

البشر ، فهى تعود على البقية الباقية بالشفاء والعافية وترد للمجتمع العليل صحته وقوته .

ليس هناك ما يضر الجماعات والأمم أكثر من سِلْم طويل الأمد ينكب فيه كل فرد على تحقيق شهواته وأغراضه الخاصة ، وتتملكه الأنانية والأثرة ، ولا يعرف من الحياة إلا أنها أداة للترف والملذات والإثراء والخمول والكسل ، فيعزف عن كل فضيلة وخلق كريم وإيمان عميق ، فتتفكك روابط الجماعة وتنحل وشائج الأسرة والقرابة ولا يعود هناك مجال للتضامن أو التعاون الاجتماعى ، ويكثر التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر والتنابذ ، وتتحارب الطبقات بعد أن تتضخم الفوارق فيما بينها ويضعف الوازع الدينى ويتضاءل سلطان القانون والعادات والتقاليد المرعية .

وفى هذا الجو ينزوى الرجال الأقوياء والاكفاء وينضب معين النبوغ والعبقرية ويتصدر الجماعة السفسطائيون والأدعياء والثرثارون ، ويسود التهريج والتهويش والخداع والتغرير ، فيقل الإنتاج ويتضاءل وينكمش ويكون الطابع البارز الذى يطبع المجتمع أفراداً وجماعات هو الاستهتار بكل شىء .

فالحرب وحدها هى التى تعيد الأمور إلى نصابها وتصحح الأوضاع المقلوبة وتصلح من شأن الفساد إن لم يكن فى إبان اشتعال الحرب فبعد انتهائها ، عندما يكون مصير هذا المجتمع المنحل هو الهزيمة والفشل فيدأب الشعب المنهزم بعد الحرب على إصلاح مساوئه والنهوض من كبوته كما هو الحال بالنسبة لفرنسا فى هذه الحرب .

فى أثناء الحروب يتوارى العجز والخمول والكسل ويبطل سلطان الثرثرة والادعاء والغرور ، ويتجلى عمل الشجعان والأكْفاء والقادرين ، فى ظل الحرب تنمو العبقرية ويعتز النبوغ وتزدهر الفضيلة والأخلاق الرفيعة فلا يكون مجال للأنانية والاستهتار وإنما للتضحية والإيثار ، ولا سبيل لليأس والقنوط والشك والاستهتار ، وإنما للصبر والعزم والمثابرة والجد والإيمان . وأخيراً ليس سوى الحرب شىء يعيد للمجتمع وحدته وتضامنه فهى التى تجعل من المجتمع جسداً واحداً وأسرة واحدة فتسكن ريح الفروق الاجتماعية ويصبح الناس طبقة واحدة بعد أن جمعهم الخطر المشترك والهدف المشترك . فى ظل الحرب . تعود للدين قدسيته وللقوانين والتقاليد حرمتها ، وللأمن استتبابه ، وللإنتاج نشاطه ووفرته .

وها هى الحرب الحالية تجرى تحت أسماعنا وأبصارنا منذ ثلاث سنوات ونصف سنة تعرضت فيها الأمم المتحاربة لأقسى النكبات والمحن التى ظن من قبل أنها قد تؤدى إلى

تداعى الشعوب وفنائها ، بل وإنهاء الحضارة الإنسانية جملة ، وقد شاهدنا بالفعل مئات من الألوف تقتل وألوفاً من المدن والقرى تحرق أو تدمر وعدداً لا يحصى من البواخر تغرق فى جوف المحيط بشحناتها من الآدميين والمواد الثمينة . ورأينا شعوباً تعيش ليل نهار تحت طوفان من القنابل تقذفها الطائرات فتقتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، وتخبط خبط عشواء لا تبالى من تصيب ، ومع ذلك فلم يكن لذلك كله أى أثر فى إضعاف النفوس أو وهن العزائم أو ملء القلوب بالجبن والفزع ، بل على الضد من ذلك كله لم تزد الكوارث والمحن المتحاربين إلا عزماً وتصميماً على السير فى الحرب حتى النهاية وإدراك النصر والفوز المبين ، وتنافست الأمم المتحاربة فى إظهار ضروب من البسالة والتضحية والفدائية ، فمن أقوام يقذفون بأنفسهم من طبقات الجو العالية ليهبطوا بالمظلات بين براثن العدو وخلف خطوطه ، إلى آخرين يخترقون البحار على ظهرها أو فى جوفها فى داخل الغواصات حيث يهددهم الموت فى كل لحظة ، وآخرون يقذفون بأنفسهم على الأهداف العسكرية داخل طوربيد أو قنبلة أو يهبطون بطائراتهم المحملة بالذخائر على هذا الهدف فينسفونه نسفاً بعد أن يكونوا هم أول المنسوفين المتناثرين فى الهواء . وتفنن الجنود فى طلب الميتات الشريفة ، وتنافسوا فى الإقدام عليها حتى أصبحت الفدائية والتضحية هى طابع العصر ، وفَنِيَ الفرد فى المجموع وأصبح الاحتفاظ بالشرف والكرامة والحرية هو المثل الأعلى للجماعة ، وهو ما يجود الفرد فى سبيله بماله ودمه ، ويتحمل من أجله مالم يخطر على عقل البشر إمكان تحمله ومعاناته ، وهذا هو أعظم ما تنطوى عليه الحرب من فائدة للبشر[1] .

---

١ ـ لقد أوشك السلم أن يفكك وحدة الإمبراطورية الإنجليزية بعد أن أضر بسمعة الإنجليز وقيل عنهم أنهم يسرعون إلى الفناء وأن الهِرَم قد حل بهم ، فإذا بهذه الحرب ترتفع بهم من جديد إلى ذروة المجد وإلى صدارة العالم ، وإذا بالإمبراطورية البريطانية تبدو أكثر اتحادًا وتضامنًا عما كان يظن أكثر الناس !
وهكذا بعث إنجلترا من جديد فى ظل الكوارث والمحن ، وقل مثل ذلك عن روسيا السوفيتية التى كانت علمًا على الفوضى والإباحية والوحشية ، وعبثًا حاولت روسيا أن تبدد هذه التهم والإشاعات ، وأن تظهر نجاح النظام الشيوعى بها حتى لقد أنفقت فى هذا السبيل مئات الملايين مُن الجنيهات فلم يُجدها ذلك كله فتيلا وظلت أبواب العالم مغلقة فى وجهها يحف بسمعتها الاحتقار والازدراء ، فلم تكد تقف وقفتها المشهورة ضد الألمان وتثبت هذا الثبات العجيب الذى بهر العالم بما احتواه من آيات رائعات ودروس باهرات فى البطولة والفدائية والتضامن الاجتماعى ووحدة الشعب حتى انقلبت ألسنة عداتها لاهجة بالثناء عليها ، والمدح لها .. ففى عام واحد كسبت روسيا من احترام العالم ما لم تحصل عليه فى تاريخها الطويل وتفتحت لها الأبواب المغلقة وأرصدت لمعاونتها الثروات الطائلة ، وغداً عندما يسدل الستار على هذه الحرب مهما كانت نتيجتها بالنسبة لروسيا ، فإن هذا الكفاح سيجعل من روسيا أمة مجيدة تساهم فى حضارة العالم بأكبر نصيب بعد أن لم تكن فى ظل السلم تساوى شيئًا مذكورًا .

وبعــد

وبعد فما الذى يفزع ضعاف النفوس من الحرب ، وما الذى يحمل البعض على الدعوة لأبطال الحروب ، وما الذى يجعل اسم الحرب كريهاً على أسماع الكثيرين ؟. أليس هو الخوف من الموت والرغبة فى تجنيب النفس ويلات الحرب ؟ ولكن هل من سبيل لاتقاء الموت ؟ أليس هو قدر مقدور وأجل معلوم وقضاء محتوم على بنى البشر لا بد واقع بهم مهما طال الأمد ؟ فهو سنة الحياة التى لا محيص عنها ولا فكاك ، كما يقول القرآن «قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم» و «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلاً ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً» .

وإذا كان الموت فريضة على كل حى ، وإذا كان لا بد للإنسان أن يلاقى مصرعه الذى لا يستطيع أن يكون له أقل اختيار فى كيفيته ، أو ليس من الخير ألف مرة إذا قدر للإنسان أن يموت أن يكون مصرعه فى سبيل الدفاع عن عقيدته ومثله الأعلى وخير المجموع البشرى ؟. أليس من الخير للإنسان أن يموت فى ميدان الشرف فيحشر نفسه فى زمرة الخالدين وينأى بها عن جماعة الخاملين الذين يجيئون إلى الحياة ويخرجون منها دون أن يكون لهم حظ فيها أكثر من حظ السائمات ، طعام فشراب فنوم فمات . ليست الحياة طعاماً وشراباً وإلا لكانت مهزلة وأضحوكة وإنما الحياة إيمان وعقيدة وتطور وكفاح للوصول إلى مثل أعلى ونهاية سعيدة والموت فى سبيل هذا المثل الأعلى هو الحياة الحقيقية ، هو الاتصال بروح السكون وحقيقته ، هو الحياة الدائمة السرمدية ، هو الخلود والبقاء الذى لا يطاوله بقاء .

«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وليس سوى الحرب المشروعة ، يتيح لعدد كبير من البشر سبيلهم إلى موتة مجيدة شريفة منتجة فعالة بدلاً من ميتتهم وفنائهم فى الظلام مخلفين وراءهم أسوأ المثلات لمن يجيئون بعدهم .

الحرب خير

وآخر ما أقول إن الحرب باعتبارها ناموساً من نواميس الكون ليست شرا فى مجموعها ، فإن ما تحدثه من خسائر فى ناحية تعوضه أرباحاً فى ناحية أخرى ، وما أسهل

ما تعوّض الخسائر فيعاد إنشاء المدن التى خربت بأحسن وأروع مما كانت ، وتولد ملايين من البشر بدلاً من تلك التى فقدت ، وما الحياة إلا هدم وبناء ، وموت وحياة ، وإنما الربح الذى لا يقوم بثمن والذى لا يستطيع البشر تحصيله بحال من الأحوال فى ظل السلم هو ازدهار الروح البشرية فى خلال الحروب وفى أعقابها ، هذا الازدهار الذى يرتقى بالحياة البشرية مادياً وأدبياً ويندفع بها نحو الأمام نحو النشوء والارتقاء .. نحو المثل الأعلى .

القرآن والحرب والجهاد

قد يظن البعض أننى قد ركبت متن الشطط ، وأنا أقرر هذه الأحكام أو أننى غاليت وتطرفت أو جنحت إلى الجانب الذى يخلو للبعض أن يصفه بالغلظة والخشونة وخلوه من الرحمة والإنسانية !. ولرب قائل يقول هذه فلسفة نازية أو فاشستية ولكنى فى الحقيقة لم أعد فى كل ما قررته نصوص القرآن وأحكامه ، فكل القواعد السابقة قد ذكرها القرآن ووصف بها الحروب وفوائدها ، وأنها سنة من سنن الحياة وارتفع القرآن بالحرب فى بعض الأحوال إلى ذروة الواجبات السامية ، والفرائض المقدسة ، والأداة الوحيدة لإصلاح البشر وتطهيرهم بالرغم ما فى مظهرها من غضاضة وما تشعر به النفوس تلقاءها من كراهية .

يقول القرآن الكريم «كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» فهذا نص صريح على ما يمكن أن تنطوى عليه الحروب من خير للبشر ، وأن جهلوا ذلك وكرهوه فى بادىء الأمر . ذلك أن الإنسان لا يرى أبعد من أنفه ولا يميز الأشياء إلا بمقدار ما تتصل بحسه ، ولا يحب إلا ما عاد بالنفع على شخصه ، أما الله سبحانه وتعالى الذى يعرف من الأمور ما فات ، وما هو حالٌ وما هو آت ، الله الذى خلق البشر ويعرف ما يفيدهم ، وما يضرهم أو يحسن أحوالهم ، فإنه يعلم دائماً ما بطن وما ظهر ، بينما الإنسان لا يعرف إلا ما عَلِم أو نظر .

وقد انتقل القرآن بعد ذلك من التعميم إلى التخصيص فنص فى آية أخرى صراحة على أن الحرب أداة لإصلاح البشر فقال وقوله الحق : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» وفى آية أخرى يبين القرآن لوناً

من ألوان الفساد وهو القضاء على حرية المعتقدات الدينية وسيادة الطغيان والإرهاب فيقول : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» .

وفى هذه الآيات نص على نتيجة الحروب ، وأنها تنتهى بانتصار الصالح الذى ينصر الله ، الذى إن مكن له فى الأرض أحسن العبادة وواسى الفقراء وآخى بين الطبقات وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو قوام الحضارات الرفيعة والمدنيات السامية ففى هذه العبارات الموجزة كل ما يعود على الإنسانية بالنفع والسعادة والارتقاء .

وما أكثر ما حض القرآن بعد ذلك على القتال ورغب فيه ودعا المؤمنين إلى خوض غماره ليتم لهم بذلك عند الله أعظم الفوز فى الآخرة والفلاح فى الحياة الدنيا ، وأقرأوا إن شئتم «يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب» .

وقال القرآن فى فضل المحاربين «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً» .

والقرآن كله يفيض بأمثال هذه الآيات التى ذكرت لك بعضها وسيرد ذكر البعض الآخر فيما بعد وليست أحاديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه بأقل من هذه الآيات كثرة ووضوحاً وجلاء ، وإليك بعض هذه الأحاديث الكريمة :

«ضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى ، وإيمان وتصديق برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . إلى أن قال : والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله ثم أقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل[1] » وروى الشيخان والترمذى «واعلموا أن الجنة

١ ــ رواه مسلم والبخارى

تحت ظلال السيوف» ومالت نفس رجل إلى العزلة فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها : «فقال لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة . أغزو فى سبيل الله . من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة[1] وجبت له الجنة» .

وسئل رسول الله عن خير الأعمال فقال «الجهاد سنام العمل» وقال عليه الصلاة والسلام «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق[2] » وليس وراء ذلك دعوة لجعل المسلمين جميعاً محاربين مجاهدين .

* * *

١ـ رواه الترمذى ـ أى قدر ما بين الحلبتين .

٢ـ رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

الفصل الثاني

أغراض الحرب ـ شريعتها ـ الحرب المشروعة وغير المشروعة

على أن ما تقدم لا يعني مطلقاً أن الحرب مطلوبة في ذاتها كغاية من غايات البشر ، وأن الأمم يتعين عليها أن تشعل نيران الحرب كلما أطفأها الله لسبب أو لغير سبب إلا الرغبة في التقتيل والتدمير وإراقة الدماء ، وإنما كل ما ذكرته حتى الآن ليس إلا تبريراً للحرب وترغيباً فيها عندما تصبح ضرورة لا مناص منها ، ففي هذه الحالة يتعين الإقدام عليها بإيمان ثابت وقلوب حديدية فإذا لم توجد ضرورة للحرب فلا يكون من الخير إشعالها ، بل يصبح الشر كل الشر في الإقدام عليها ، وتكون لوناً من ألوان البغي والعدوان والافتيات على حق المجتمع الذي ينبغي أن يعيش في سلام وأمن ووئام . وفي ذلك يقول الله لرسوله الكريم : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» فالسلم هو الغاية والأصل ، والحرب هي العَرَض ، والوسيلة ، فهي كالمرض بالنسبة للصحة ، والفقر بالنسبة للغنى ، ومهمة الإنسان أن يحول دون قيام الحروب جهد الطاقة ، فإذا قام بها أهل البغي والعدوان فقد وجب على محبي السلم أن لا يمكنوهم من نشر عدوانهم فيهبوا لحربهم غير مدخرين في هذه الحالة جهداً أو نشاطاً أو تضحية ، مؤمنين بأنهم يقومون بواجب مقدس ويحققون مشيئة الله في الأرض وهذا يجرنا إلى بحث الحالات التي تكون الحرب فيها مشروعة ومقدسة والحالات الأخرى التي تكون فيها بغياً آثماً وظلماً مبيناً .

الحرب الدفاعية

أول ضرب من ضروب الحرب الضرورية التي تصبح نتيجة ضرورتها مقدسة مشروعة ، هي الحرب الدفاعية سواء كان الدفاع عن النفس أو المال أو العرض أو العقيدة أو الحرية . والدفاع فضلاً عن أنه حق فهو غريزة وفطرة جبلت عليها الأحياء كلها من إنسان وحيوان إذ يسعى كل كائن إلى المحافظة على نفسه من التلف والإبقاء على

كيانه ومحاربة كل ما يهدده فى وجوده وحياته ، فلم يخلق الله سبحانه وتعالى حيواناً يدب على قدميه أو يطير بجناحيه إلا وجهزه بأسلحة الدفاع عن نفسه ، وجهز الإنسان سيد الكائنات بأقوى الأسلحة طراً وهى العقل البشرى الذى أخضع الكائنات كلها لسلطان الإنسان بالرغم من شدة بطشها . وبهذا العقل أنتج الإنسان الأسلحة التى مكنته من هذه السيطرة وبها دافع عن نفسه ، إذ من واجبه أن يرد كل عدوان وتهديد مادى أو معنوى عنها . ومن أول واجبات الجماعة المتحضرة أن تمكن كل فرد من حرية الدفاع عن نفسه وأن تساعده/على إحسان هذا الدفاع وتعاونه على رد العدوان وكسر شكيمة المعتدى . وبغير ذلك لا يقوم عمران أو حضارة . ويجب دفع العدوان بالقوة اللازمة لدفعه والحيلولة دون تكراره ولا ينبغى أن يتهاون المدافع فى ذلك أو يتردد بحجة الشفقة أو الإنسانية أو الرحمة ، فالشر بالشر والبادى أظلم «وجزاء سيئة سيئة مثلها» وليس أقبح ولا أشنع من تعكير السلم والاعتداء على الآمنين أو محاولة سلبهم حريتهم واستقلالهم أو ثروتهم أو فتنتهم فى عقيدتهم أو دينهم ، وهذا هو ما شرعه الله للمسلمين عندما اشتد عليهم أذى المشركين مما اضطرهم للهجرة من ديارهم بأنفسهم وأموالهم بغير وجه حق وإلا تعرضوا لصنوف من التعذيب والتقتيل كما حل بالبعض ، وعبثاً حاول المسلمون أن يحاسنوا المشركين أو يصانعوهم فى مقابل أن يحتفظ كل من الفريقين بحرية دينه وعقيدته ، فقد أبى المشركون إلا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم وأن يردوهم كفاراً أو أن يقتلوهم ويشردوهم ، فأصبحت المسألة بذلك مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين ، فإما أن يردوا العدوان بالقوة وإما حق عليهم الفناء وانطفأ نور الدعوة السامية التى جاء بها الإسلام للبشر ، وهى الدعوة إلى التوحيد واختصاص الله بالعبودية دون سائر الكائنات ، والترفع عن الدنايا والموبقات وطهارة الروح والبدن من كل إثم وإسراف . ولما كانت مشيئة الرب أن يحق الحق وأن ينصر دينه وأن يتم نعمته على البشر فقد أذن للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم مقرا بذلك حق الدفاع الشرعى عن النفس والعقيدة بقوة السلاح والحرب وفى ذلك نزلت هذه الآيات .

«أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» .

فما إن نزلت هذه الآيات حتى امتشق المسلمون الحسام وخاضوا غمار الحرب ضد قريش ، وضد جميع من يحاولون التصدى للمسلمين - لعرقلة جهادهم فى سبيل نشر الدين الجديد ، وما إن بدأت الحرب حتى لجأ الرسول إلى كل الوسائل الحربية والاقتصادية والأدبية التى تؤدى إلى قهر العدو وكسر شوكته وتحطيم سطوته ، فكان أول ما فكر فيه هو حصار قريش حصاراً اقتصاديا على مثال ما تعتمد إليه الدول المتحاربة فى العصر الحديث ، حيث تقطع تجارة الصادر والوارد الخاصة بعدوها لتضعف موارده وتنهك قواه وتغنم من ثروته ما تزداد به قوة فبدأت سرايا رسول الله تهاجم قوافل قريش الرائحة إلى الشام والغادية منها حاملة الميرة والثروة الوفيرة ، فهبت قريش للدفاع عن شريان حياتها ومصدر ثروتها ، فكانت موقعة بدر ، هذه الموقعة الخالدة التى اعتز فيها المسلمون ونكلوا بالمشركين شر تنكيل فضج المشركون بالشكوى منها ونادوا بالويل والثبور ، وشنّعوا على رسول الله والمسلمين وقالوا كيف يكون نبياً أرسله رب العالمين من يلجأ إلى القتال والحرب وإراقة الدماء ؟ كأن النبى المرسل من الله ومن تبعوه ينبغى عليهم من دون البشر أن يكونوا عرضة للتحقير والإهانات والضرب والتعذيب والطرد والتشريد !. فلا يدفعون عن أنفسهم كما يدفع سائر مخلوقات الله . ولذلك رد القرآن زعم المشركين مادحاً المؤمنين لانتصارهم لأنفسهم وملقياً الوزر على عاتق المعتدين المجرمين بقوله «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم» .

قاعدة المقابلة بالمثل

وليس هناك ما يردع المعتدين ويضع حدا لطغيان المجرمين أكثر من القاعدة المحكمة قاعدة المقابلة بالمثل ففيها الحياة وفيها النجاة ، أما الذين يدعون إلى التسامح مع المجرمين والسفاكين ومقابلة اعتدائهم بالإحسان فهؤلاء إنما يشجعون الإجرام ويسلطون الأشرار على الأخيار ويهدمون نظام الجماعة والعمران ولذلك فإن أرقى الشعوب الحديثة وجدت ملاذها وأمنها فى تطبيق هذه القاعدة سواء فى السلم أو فى الحرب ، فكان تطبيقها السبب الواقى لكثير من الشرور !. خذ لذلك مثلاً : الغازات السامة ، هذا السلاح الفتاك الخبيث الذى يعمى الأبصار ويصم الآذان ويزهق الأرواح ويحمل الأحياء على الجنون ، لقد اخترعه الألمان واستعملوه فى الحرب الماضية وكادوا يهزمون به الحلفاء هزيمة ساحقة

لولا أن أجابهم الحلفاء بعد قليل باستخدام نفس السلاح فعانى منه الألمان أضعاف ما عاناه أعداؤهم مما حملهم فى هذه الحرب على الكف عن استعمال الغازات فكف الحلفاء عن استعمالها بدورهم ، وهكذا التزم كل من الطرفين جانباً من جوانب الإنسانية لا بدافع من الفضيلة والمروءة ولكن خوفاً من المقابلة بالمثل .

وعندما اندلعت نيران هذه الحرب الجارية شهرّ الألمان على الدول الأقل قوة منهم فى سلاح الجو غارات كاسحة فتاكة كانت تصلى المدن ناراً حامية طوال ساعات عديدة بالليل والنهار فتقتل الأطفال والنساء والعجزة وتهدم الدور والمعابد والجامعات لم تردعهم عن عدوانهم رحمة ولا شفقة ، حتى إذا تطورت ظروف الحرب واشتد ساعد الحلفاء راحوا يردون لألمانيا دينها القديم ويكيلون لها الصاع صاعين ، فبدأت ألمانيا تشكو وتتململ من هذا الأسلوب وتمنت لو أمكن الاتفاق بين الجانبين على الكف عن هذه الغارات الوحشية ، ولكن هيهات أن يرضى الحلفاء بعقد مثل هذا الاتفاق قبل أن يفرغوا من هزيمة ألمانيا التى كانت البادئة بهذا الطراز من القتال .

وقد قرر القرآن هذه القاعدة قاعدة المقابلة بالمثل فى صراحة وقوة فى أكثر من آية وطبقها الرسول تطبيقاً ناجحاً على أوسع نطاق . من ذلك أنه كان للعرب أشهر معلومة يضعون فيها الأسلحة ويكفون عن مباشرة القتال ، كما اتخذوا من الكعبة المكرمة حرماً آمناً لا يدور فيه قتال طوال أيام العام ، وقد كان احترام هاتين القاعدتين مقدساً لا يخل به إنسان فنزل القرآن مقراً لهاتين القاعدتين على شريطة المقابلة بالمثل فقال عن الأشهر الحرم .

«الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واعلموا أن الله مع المتقين» .

وقال عن مباشرة القتال فى البيت الحرام :

«ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم» .

شريعة الحرب

وإذا اشتبكت الأمة فى حرب فيتعين عليها أن تعلم أن الحرب هى الحرب ، ولا شريعة لها إلا بغض العدو والعمل على كسره وإفنائه ، أو أن يكف عن عدوانه ،

فإذا لم يكف عن العدوان أو يتوقف عن القتال فيكون كل مجهود يبذل فى سبيل القضاء عليه مشروعاً مبرراً ، ومن ذلك تضييق الخناق عليه وحصاره لا عن التجارة ومصادر رزقه كما أشرت إلى ذلك فى الفقرة السابقة ، بل عن الطعام والشراب حتى يحمل بذلك على الاستسلام !. ففى غزوة بدر حال الرسول بين المشركين وبين ورودهم الماء ودار القتال حول حوض الماء الذى ابتناه المسلمون ليشربوا منه دون المشركين وحاصر اليهود فى أكثر من موقعة حتى نزلوا على حكمه وحاصر الطائف إلى أن اقتضته الظروف ففك الحصار عنهم ، وفى غزوة بنى النضير عمد الرسول إلى تقطيع نخيل اليهود ليحملهم بذلك على الاستسلام فاستسلموا وكان الفضل فى ذلك لهذا الأسلوب الذى أُلهمه الرسول ولم يكن للعرب به سابقة عهد ، وفى هذا يقول القرآن «ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين» .

وعلى ذلك فإن ما تعمد إليه الدول الحديثة من محاولة تدمير منشئات العدو العسكرية كالمصانع ومحطات توليد الكهرباء وخزانات المياه والجسور ووسائل المواصلات ومحطات السكك الحديدية وإتلاف الآلات الزراعية وكل ما من شأنه تعطيل الإنتاج وشل يد العدو عن مواصلة القتال هو جزء لا يتجزأ من شرعة القتال وهو واجب ومشروع من ناحية المدافع عن نفسه .

تجنب المدنيين ويلات الحرب

وكسر قوة العدو العسكرية هى التى يجب أن تكون هدف القتال الأول مهما اشتدت صرامته واحتدم أواره ؛ ولا يجب أن تتجه الجهود إلى غير هذه الوجهة بحال من الأحوال كأن ينكل بالأسرى أو يقتلوا أو يعذبوا أو أن تساء معاملتهم ذلك أنهم وقد وقعوا فى الأسر لم يعد لهم سلطان ولا قوة ولا قدرة على الايذاء فينبغى النظر إليهم فى هذه الحالة بغير النظرة التى ينظر بها إلى الجندى المحارب الذى لا يزال يحمل السلاح فلا حقد عليهم ولا محاولة للانتقام منهم ، وكذلك كل من لم يكن له صلة عن قرب أو بعد بقوة العدو العسكرية وتمكينه من الاعتداء كالنساء والأطفال والشيوخ والعجزة بل جميع من تطلق عليهم لفظة المدنيين فى العصر الحديث فهؤلاء جميعاً يتحتم عدم إيذائهم أو الانتقام منهم أو الإضرار بهم لأنهم لا خوف منهم ولا قدرة لهم على الاعتداء ، وقد روى أنس فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية قال لأميره «انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله . ولا تقتلوا شيخاً فانياً

ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة» وعن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى النبى صلى الله عليه وسلم فنهى عن قتل النساء والصبيان . على أن هذا الإعفاء فى الزمن القديم كان مقيداً بشرط أن لا يكون لهذه العناصر صلة بالقتال أو العون عليه ، لا كما هو الحال فى العصور الحديثة حيث أصبحت النساء تقوم بدور فعال فى الحروب ، لا يقف عند قيادة السيارات ونقل المهمات وتولى المراسلات والعمل فى مصانع الذخيرة والأسلحة ، بل يأخذ فى بعض الأحيان صورة القتال الكاملة حيث تمسك المرأة مدفعاً سريع الطلقات تشترك به فى القتال ، ففى هذه الأحوال كلها تسقط عنهم الحصانة ويتعين معاملتهم معاملة المحاربين على السواء فلا حرج فى قتلهن إذا صادفهم المحارب وجهاً لوجه فى المعركة ، فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر بامرأة قتيل فى يوم الخندق فقال من قتل هذه ؟ قال رجل أنا يارسول الله ، قال ولم ؟ قال : نازعتنى قائم سيفى ، فسكت . وفى موقعة حنين قتل دريد بن الصمة وهو شيخ فان لا قدرة له على القتال ولكنهم كانوا قد خرجوا به معهم ليستعينوا برأيه ومشورته وخبرته بالحروب فلم ينكر النبى موته .

ففى كل حالة يتحول فيها النساء والشيوخ والصبيان إلى عناصر محاربة أو مساعدة على الحرب تسقط عنهم الحصانة . وكذلك فى جميع الأحوال التى يمتزجون فيها بالمتحاربين ، ويصبح من المتعذر فصل بعضهم عن بعض ، أو الوصول للمتحاربين دون المساس بالآخرين ، ففى هذه الحالة يتعين عدم التفريق بين المتحاربين وغير المتحاربين ماداموا فى صعيد واحد ، وتكون هذه هى إحدى ضرورات الحرب .

«سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أهل الدار يبيتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم قال هم منهم[1] » وفى حصار الرسول للطائف عندما تحصنت ثقيف خلف أسوار حصونها وراحت تقذف المسلمين من ورائها بالسهام والنبال ، استخدم الرسول فى حربهم والهجوم عليهم المنجنيق الذى كان يرمى بقذائفه داخل الأسوار فتقع بطبيعة الحال بين جميع من هم وراء الأسوار سواء كانوا محاربين أو كانوا نساء أو أطفالاً ، وليس المنجنيق إلا الصورة البدائية لمدافع الحصار الضخمة فى عصرنا الحديث عندما تسلطها الجيوش على المدن التى تأبى الاستسلام ، أو قاذفات القنابل التى تغير على المدن والمراكز التى توجد بها قوة العدو ، فيكون من وراء ذلك إصابة الكثير من

---

١ - رواه الأربعة .

المدنيين وهدم دورهم ، ولكن تلك مسألة لا مرد لها ولا مناص منها ، فهى إحدى ضرورات الحرب التى لا بد منها لكسر شوكة العدو ، ولذلك يتعين على الأمة التى تريد تجنيب سكان مدينة من مدنها ويلات الحرب أن تعلن أنها مدينة مفتوحة ، فتخليها من كل قوة عسكرية أو كل ما يعين على الحرب أو يتصل بها عن قرب أو بعد ، وفى هذه الحالة يكون من الواجب على الفريق الآخر أن يحترم هذه المدن وساكنيها فلا يتعرض لهم بسوء وإلا كان معتدياً باغياً . ويجب أن يخضع نظام المدينة المفتوحة للقاعدة العامة فى الحرب وهى المقابلة بالمثل ، وإلا فلا يعود هناك احترام لهذه المدن مادام الطرف الآخر لا يتبعها أو يحترمها .

الهجوم خير وسيلة للدفاع

على أن الحرب الدفاعية لا تقتصر صورتها على الانتظار والتربص حتى يهجم العدو ثم مقاومة هجومه بعد ذلك ، بل قد يتعين على المدافع عن نفسه أن يكون هو البادىء بالهجوم على عدوه ، متى ثبت لديه أن هذا العدو يتجهز لحربه ويجمع الأسلحة ويجهز الجيوش ويعقد المحالفات !. ويتحين الفرصة منتهزاً غرة من المعتدى عليه لينقض عليه ويبطش به البطشة الكبرى ، ففى هذه الحالة يكون من الخير عدم انتظار العدو حتى يكمل استعداده ويضرب ضربته فى الوقت الذى يختاره ، بل يجب مفاجأته بالهجوم عليه ، ولا يغير ذلك من طبيعة الحرب ويقلبها إلى حرب هجومية ، أو حرب غير مشروعة بل إنها تظل محتفظة بصفتها الدفاعية ذلك أن حق الدفاع لا يقف عند حد دفع الأخطار المباشرة ، بل هو يشمل كذلك الأخطار المتوقعة متى تحقق للإنسان قرب وقوعها ، وفى ذلك يقول القرآن : «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» أى إذا خشيت من قوم أن يخونوك ويضربوك على حين غرة ، فأعلنهم بخشيتك منهم واطلب منهم ما يوضح نياتهم حيالك ، وأن يزيلوا أسباب ريبتك وما يهدد سلامتك ، وهو ما تفعله الأمم الحديثة عندما تحشد إحدى جيرانها جيشها على الحدود لغير سبب مفهوم ، فإن الدولة الأخرى تبادر بطلب إيضاحات عن سبب حشد هذا الجيش ، وربما طالبت بتسريحه وإلا اعتبرت ذلك إجراء موجهاً ضد سلامتها ، وأصبح من حقها أن تدافع عن نفسها بالهجوم على هذا الجيش وتشتيته وإبعاده عن حدودها .

الحرب لردع البغاة

ويماثل هذه الحرب الدفاعية فى مشروعيتها ، ويفوقها فى قدسيتها وسمو غايتها كل

حرب يكون الغرض منها رد عادية المعتدين على إحدى الأمم الأخرى وتأديب البغاة والظالمين الذين يعيثون فى الأرض فساداً ويهلكون الحرث والنسل وينقضون المعاهدات ويخالفون العهود والمواثيق والقواعد الدولية ويعكرون السلام لرغبتهم فى جر المغانم والمكاسب وحب الحرب للحرب وإراقة الدماء ، فكل جهد حربى يبذل فى ردع هؤلاء البغاة المعتدين يباركه الله وتهلل له الإنسانية ويدعم أسس المدنية البشرية .

إن الأمم كالأفراد يجب أن تخضع علاقاتها فيما بينها لقوانين وقواعد مرعية يكون أساسها الثقة المتبادلة والوفاء بالعهود واحترام الحقوق وإقرار السلام والتعاون فى ظل العدل والإنصاف ، والابتعاد عن كل ظلم وإجحاف ، ويتوقف على قيام هذه القواعد الدولية ومدى احترامها الحكم على حضارة الإنسانية فى مجموعها ، وهل لا تزال فى أول أطوارها البدائية ، أم شبت وترعرعت واتجهت نحو المثل الأعلى والكمال . ويضع القرآن قواعد هذه الحرب وأدوارها وهدفها مما لم يستطع العالم أن يصل إلى تحقيقه حتى الآن فيقول :

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» .

فإذا ما قامت حرب بين طائفتين من المؤمنين فالقرآن يطلب من بقية الأمم الإسلامية أن يتوسطوا على الفور لإصلاح ذات البين وإعادة السلام والصفاء ، فإذا رفضت إحدى الدول الوساطة أو ظهر من التحقيق أنها معتدية على الدولة الأخرى ، فقد وجب أن يطلب منها الكف عن عدوانها والتزام حدودها ، فإن أبت إلا المضى فى عدوانها فقد وجب التوجه لحربها حتى تغلب على أمرها فتستسلم أو أن تقبل النزول على حكم العدل والقسطاس ففى هذه الحالة يتعين وقف القتال معها وتسوية النزاع بين جميع المتحاربين على وجه العدل والإنصاف لا على وجه الظلم والإجحاف بالمغلوب ، لأن العدل وحده فى هذه الحالة هو الذى يعيد الأمور إلى نصابها ولا يدع مجالاً لنشوء محن جديدة وأحقاد تحفز للأخذ بالثأر والانتقام ، وهذا القيد الأخير الذى اشترطه القرآن هو ما لم تحرص الأمم حتى الآن على تحقيقه فى مؤتمرات الصلح ومعاهداته ، بل طالما كان شعارهم لهم فى هذه المعاهدات «الويل للمغلوب» ومن هنا فشلت كل محاولاتهم وجهودهم لإقرار السلام مع شديد رغبتهم فيه .

وقد حاولت الأمم أن تنص على هذه القواعد فى ميثاق عصبة الأمم الذى أبرمته عقب انتهاء الحرب العظمى الماضية ورمت من ورائه إلى توطيد دعائم القانون الدولى ، ولكنها لم تستطع أن تطبقها كما ذكرت ذلك من قبل لشدة مطامع الدول وحرص كل منها على تحقيق أغراضها وشهواتها .

وتعد أمريكا وانجلترا العالم من جديد فيما أطلقنا عليه دستور الإطلنطيق[1] ! أنهما ستعملان على توطيد دعائم القانون الدولى واحترام حقوق الأمم على السواء وتسوية المنازعات بروح العدل والإنصاف !. وأنهما سيحولان دون اعتداء أى أمة على أمة أخرى !. ولكن الدلائل كلها تدل كما قلت فى مقدمة حديثى - على أن ذلك كله ليس إلا ذراً للرماد فى العيون وستراً للاغراض ! وأن المستقبل سيكون صورة مكررة لما حدث فى الماضى ، وإنما سيتحقق هذا العدل المنشود عندما توجد قوة عسكرية ضخمة لإحدى الأمم لا تسخرها لبسط سيادتها على بقية الأمم وجر المنافع والمغانم لجانبها ، وإنما لتطبيق هذه المبادئ السامية على الأمم ، ولا سبيل لذلك إلا عن طريق الأمة الإسلامية بعد أن تسترد مكانتها فهى التى برهنت فى ماضيها على نزاهتها إذ يأمرها قرآنها باتباع العدل والإحسان والخضوع لسلطان الحق والإنصاف . وهذا يؤدى بنا إلى ذكر النوع الثالث من الحروب المقدسة .

الحرب لإصلاح البشر

يفقد المجتمع الإنسانى من حين لآخر وحدة الغاية التى يعمل من أجلها ، فتضطرب أموره وتسود الفوضى شتى نواحيه وأطرافه ، ويدب الخلل إلى القواعد التى يقوم عليها بنيانه فلا ترى إلا طوائف متحاربة متطاحنة يبطش بعضها ببعض ويبغى بعضها على البعض الآخر لا تعاون بينها ولا تفاهم ولا سلام ولا غاية معلومة تدفعهم إلى الحرب ولكنه الاضطراب والاختلال ، فلا يعود هناك قانون أو دين أو عرف أو تقاليد ، بل اضطراب عام فى كل مكان وفوضى متماسكة الحلقات يشقى الناس فى ظلها لا فرق بين فرد وفرد ، وإنما محنة عامة وبلاء شامل فى مثل هذه الأحوال يصبح العالم فى حاجة إلى مصلح يعيده إلى طريق الرشاد ويهديه إلى الصراط المستقيم ويخلصه من براثن الفوضى والانحلال ، ويحرر بنى البشر من براثن العبودية ، لا للطغاة والبغاة من الملوك والأمراء

---

١ - اتخذ هذا المشروع تسميات كثيرة من بينها مشروع «ايزنهاور» ، ولا علاقة له بحلف شمال الأطلنطى. NATO

والكهان فحسب بل من الأوهام والخرافات التى تستبد بالبشر أكثر من استبداد الإنسان بأخيه الإنسان ولا سبيل لمثل هذا الإصلاح الشامل إلا عن طريق مبضع الجراح ... إلا عن طريق الحرب يقوم بها الدعاة المصلحون ليهزموا كتائب الفساد ويمحقوا جيوش الباطل والفوضى والاضطراب . وهذا هو ما اضطلع به رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وخلفاؤه الراشدون من بعده ، فأسعدوا من استظل بلوائهم فترة من الزمان وأناروا الطريق للإنسانية فعادوا بها إلى حظيرة النظام والحضارة بالإيمان !. لا بالنسبة للذين دخلوا تحت لواء الإسلام أو استظلوا بالراية الإسلامية فحسب ، ولكن بالنسبة للذين ظلوا فى منأى عنه بل فى حرب مستمرة ضده !. لأنهم فى النهاية قد تأثروا بتعاليمه وأصلحوا من شأنهم فى ضوء مصباحه ! وقد اتفقت الآراء الحديثة على أن المسلمين هم الذين حفظوا للعالم تراثه من الحضارات القديمة وزادوا عليها الكثير من العلوم والفنون والأنظمة فكان هو الأساس الوطيد الذى قامت عليه حضارة العالم الحديثة فى القرون الأخيرة ، هذا الواجب الإنسانى أى إصلاح أمور البشر فرضه الله على المسلمين لقوله «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» فواجب الجماعة لا يقف عند حد إصلاح شئونها الخاصة وتقويم عقائد أفرادها بل يمتد إلى إصلاح سائر البشر ، وتقويم اعوجاجهم وتنظيم أمورهم بما يحقق لهم السعادة الوافرة .

فعلى الأمة القادرة على هذا الإصلاح أن تنهض للاضطلاع بهذا العبء غير باخلة بأى جهد أو تضحية فى هذا السبيل متحملة كل ما يفرضه الجهاد فى سبيل هذا المثل الأعلى من حرمان ومشقات وبذل ومغامرات غير رامية من وراء ذلك إلى الحصول على جزاء أو شكر أو جر مغنم أو المطالبة بأجر سوى رضاء الله الكريم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونشر ألوية الخير والصلاح وتنكيس أعلام الباطل والضلال والقضاء على الشر والفساد . لأن التجرد من حب المنفعة هو العلامة الدالة على صدق طوية القائمين به ، وأنهم يخوضون حرباً مشروعة مقدسة خالية من كل بغى أو عدوان إنما كما كانت عليه حال المسلمين فى صدر الإسلام فبينما كانت جيوشهم تذهب فى الفتح شرقاً حتى أشرفت على أسوار الصين ، وغرباً حتى أوشكت أن تطل على ساحل المحيط الأطلانطيق فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت المجاعة والقحط مسيطرين على شبه جزيرة العرب وعاصمة الدنيا الجديدة مدينة رسول الله التى خرجت منها كل هذه الجيوش الفاتحة !. فلم يكن بوسع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلا أن يرسل الاستغاثة تلو الاستغاثة لعماله فى

مختلف البلاد طالباً منهم إمداد أهل المدينة بشىء من القوت الضرورى للحياة . وكان هذا السيد الذى تسيطر جيوشه على أضخم امبراطورية عرفها التاريخ يبيت أكثر الأيام هو وأولاده على الطوى لم يتناولوا من الطعام إلا ما يسد الرمق ويبقى على الحياة !

هذه هى سمة الحرب المقدسة ... حرب الإصلاح والتنوير والتحرير ، لا ما يفعله الأوربيون اليوم كذباً وادعاء وهم ينتهكون حرمة الشعوب ذات الحضارة القديمة معلنين أنهم يفعلون ذلك لتمدينها وتحضيرها وإقرار النظام والسلام بها فلا يلبثون بعد أن يضعوا أقدامهم فيها حتى يحولوها إلى مزرعة تدار لحسابهم ، كل من فى هذه المزرعة عبيد لمشيئتهم ، ولكى يضمنوا استمرار استثمارها وترسيخ أقدامهم بها يعملون على إطفاء كل نور ، وإخماد كل معنوية وكل قبس من الحياة فيها وينشرون من ناحية أخرى المفاسد والآثام الخلقية متخذين بطانة وصنائع من أسافل القوم ليمكنوا لهم فى الأرض ويسهروا على إبقاء سواد الأمة فى الأسر والذل وهذا هو شأن الاستعمار الأوروبى .

الرحمة شعار حرب الإصلاح

وثمة ظاهرة أخرى يجب أن تتصف بها الحرب الإصلاحية غير تجردها من المنفعة والمآرب الشخصية ، هى أن تسود الرحمة جميع فعالها ، وأن يكون التسامح والتأنى شعارها ، والرفق بالشعب المغلوب والإحسان إليه مظهرها وسمتها . وهذا على خلاف الحرب الدفاعية حيث تباح جميع الوسائل والأساليب التى تؤدى إلى قهر العدو وتحطيم شوكته واستخدام البطش والشدة فى كل إجراءاتها .

أما فى الحرب الإصلاحية فالقائم بها هو المهاجم وهو الذى يحدد نطاق الحرب وأساليبها ، وهو الذى يضع القواعد التى سيقابله بمثلها الطرف الآخر ، فيجب أن يحدد الأعمال العسكرية فى أضيق نطاق وبحسب ما تقتضيه الضرورة العسكرية البحتة ، فلا يعمد إلى القتال قبل أن يبين أغراضه السامية بوضوح للطرف الآخر فيبسط له المبادىء التى يدعو إليها والبرنامج الإصلاحى الذى يرغب فى تنفيذه ، فإذا قبل الطرف الآخر الأخذ بهذه المبادىء وتحقيق الإصلاح المطلوب فقد كفى الله المؤمنين القتال وأصبح لزاماً عليهم أن يعودوا أدراجهم وأن ينظروا للشعب الجديد نظرتهم إلى إخوانهم الأقربين ، فيكون لهم كل ما لهم وعليهم ما عليهم وكذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه» .

وقد أمر القرآن بإمهال المخالفين وإرشادهم وتعليمهم المبادئ الجديدة وذلك فى قوله .

«وإن أحد من المشركين استجارك فأَجِرْهُ حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» .

فإن أبوا إلا القتال والمناجزة فعندها يتحتم قتالهم على شريطة أن يدور هذا القتال فى الحدود الضيقة التى بينتها فى مقدمة هذه السطور وأن تكون الرحمة هى شعار المحاربين وهذا ما كان يوصى به النبى وخلفاؤه من بعده جيوشهم إذا ذهبت للغزو فى البلاد الأجنبية فقد روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وصيته ليزيد حين بعثه أميراً لفتح الشام «يا يزيد لا تقتل صبياً ولا امرأة ولا هَرِماً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعفرن شجراً مثمراً ولا دابة عجماء ولا شاة إلا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه ، ولا تغلل ولا تجبن وستمرون على أقوام فى صوامع لهم احتسبوا أنفسهم فيها فدعهم حتى يميتهم الله على ضلالتهم» .

وليس هناك بعد ذلك قواعد لقتال تسوده الرحمة والانسانية وحب الإصلاح والتعمير كهذه القواعد التى قررها خليفة رسول الله فى هذه الوصية والتى كررها من بعده عمر بن الخطاب لجيوشه وأضاف إليها «اتقوا الله فى الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب» وقد نقل أبو بكر وعمر هذه الوصايا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزولاً عند نص القرآن الذى يحرم الفساد والإتلاف فى الأرض بقوله «وإذا تولى سعى فى الأرض ليُفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد» .

وقد نفذ المسلمون هذه الأوامر والتعليمات بدقة فى البلاد التى دخلوا إليها فدلوا بذلك على أنهم هداة مصلحون وليسوا غزاة مستعمرين ، وهذا ما جعل الناس تدخل فى دين الله أفواجاً وتتثقف بثقافة الفاتحين وتتحدث بلغتهم مما لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، فأين هذا مما تفعله دول أوروبا الحديثة التى يبدأ إصلاحها المزعوم بالفتك بالشعوب الضعيفة فتكاً لا تبرره قوانين ولا أخلاق ولا تشوبه شائبة من الفضيلة أو الرحمة ؟ فهذه إيطاليا التى أقدمت على استعمار الحبشة فى إبان القرن العشرين الذى يصفونه بازدهار الحضارة وانتشار مبادىء الرحمة والإنسانية قد لجأت فى حربها لهذه الأمة الصغيرة إلى استخدام الغازات السامة تقذفهم بها الطائرات فتخنقهم خنقاً وتحرقهم حرقاً وهم لا يملكون الرد عليها أو الدفع عن أنفسهم بأى لون من ألوان الدفاع . ولم تكن إيطاليا فى ذلك مهما قيل

عن فظاعتها ووحشيتها إلا مترسمة خطى كل من سبقها من أمم أوروبا المستعمرة ، فكم عمد الكثير منهم إلى إبادة القبائل التى يصادفونها فى الأراضى المستعمرة إبادة مطلقة بأخس الأساليب وأوضعها كتسميمهم أو إعدامهم جملة بالرصاص بدعوى توحشهم وبربريتهم وعدم إمكان تمدينهم ، فلا عجب أن امتلأت الشعوب المغزوة حقداً عليهم واحتقاراً لهم ، فلم يستطيعوا أن يغيروا من عاداتها أو تقاليدها قيد شعرة حتى ولو كانت هذه العادات والتقاليد فى حد ذاتها بالغة مبلغاً كبيراً من الشناعة والقسوة والحماقة والجهل .

ثانياً ـ الحرب غير المشروعة

لست أحسبنى بعد ما تقدم فى حاجة لكبير شرح لأبين ، ماهية الحرب غير المشروعة التى تتسم بسمة الاعتداء والبغى والطغيان ، فكل حرب لم تكن دفاعاً عن النفس أو المال أو العقيدة ، وكل حرب لم يكن الدافع إليها إحقاق الحق ورفع منار العدل بين البشر والعمل على إصلاحهم ، هى حرب غير مشروعة ... كأن يعمد جنس إلى الاستعلاء على بقية الأجناس الأخرى أو أمة للسيطرة على الأمم الأخرى ادعاء منها بانحدارها من دم معين ممتاز أو لاتصافها بلون معين من الألوان ، فالناس جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم سواء أمام الله وأمام الحقيقة وأمام المشاهد الملموس ، فالناس كلهم قد خلقوا من ذكر وأنثى ، ومن التراب خلق هذان الذكر والأنثى وصدق القرآن الكريم إذ يقول «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وحقاً قد يتفاوت الناس رقياً وعلماً ومدنية ، ولكن ذلك إنما يرجع لاختلاف ظروفهم وانعدام الأسباب التى قد تتوفر لغيرهم فيكون حقاً على المتعلم أن يتصدى لتعليم الجاهل لا لاستعباده واسترقاقه ، والسليم أن يتصدى لإبراء العليل ، لا أن يزيد فى علته والرفيع أن يأخذ بيد الوضيع ، لا أن يزيد فى وضاعته ، وبهذا يتقابل الناس على سرر المحبة متآخين لا أعداء متنابذين .

وهذه الحروب الاستعمارية التى ترفع أمة فوق أمة وتسخر الأخيرة لخدمتها سالبة إياها حريتها وشخصيتها وواقفة فى سبيل نموها وتطورها الذى هو حق جميع الأحياء على السواء أفراداً وجماعات . هى حرب غير مشروعة ، وكل حرب غير دفاعية شابها العنف والقوة وتناول بطشها غير المحاربين من نساء وأطفال وشيوخ وهدمت فيها بيوت المدنيين وضربت

مدنهم وقراهم . وهى حرب غير مشروعة مهما كان غرضها وهدفها ، متى قامت على خرق العهود والمواثيق والقوانين الدولية .

فلا تكاد توجد حرب غير مشروعة لا يكون ابتداؤها واستهلالها بالنكث بعهد من العهود المقطوعة فى معاهدة خاصة أو معاهدة دولية ، فالحنث بالعهود والغدر هما صفتا المعتدين دائماً أبداً ، أما الهداة والمصلحون الحريصون على صيانة الحقوق والعدل فلا يمكن أن يخونوا عهودهم التى أبرموها بمحض إرادتهم أو أن يغدروا بفرد فضلاً عن جماعة أو أمة ركنت إلى صداقتهم أو تحالفهم وجوارهم ، حتى ولو كانت هذه الجماعات على غير دينهم أو مذهبهم أو كانت فى حرب معهم قبل إبرام العهد والميثاق .

ولم يغلظ القرآن ويشدد فى مسأله ويكرر فى التشديد أكثر مما فعل بالنسبة للوفاء بالعهود بصفة عامة فى جميع المعاملات ، وبصفة خاصة فى المعاملات الدولية إذ قال فى محكم آياته :

«وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً» وقال «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة» وقد ذم الناقضين للعهد فجعلهم شرا من الدواب فى قوله «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فَشَرِّدْ بهم من خلفهم لعلهم يذكرون» .

وتطبيقاً لهذه القواعد وهذه الروح أوجب القرآن على الرسول التمسك بكل معاهداته التى أبرمها مع المشركين ما بقى الطرف الآخر محترماً نصوص المعاهدة وذلك بقوله «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين» وقوله «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحزام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين» .

ويحتم القرآن على المسلمين الانتصار لإخوانهم المسلمين الذين لم يهاجروا وظلوا فى صفوف الكفار ولكنه يستثنى من كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق «وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» وهكذا جعل القرآن حرمة

الميثاق المقطوع فوق كل مصلحة صغرى وعليا من مصالح المسلمين رامياً من وراء ذلك إلى جعل الوفاء بالعهود والالتزامات حجر الزاوية فى بناء المجتمع الإنسانى وقيام العمران والمدنية .

وقد قدرت المجتمعات البشرية فى مختلف العصور والأمكنة هذه القاعدة وضرورتها للمجتمع فطبقتها بين الأفراد بما صاغت من قوانين ووضعت من جزاءات على المخالف لها ، ولكن تطبيقها بين الأمم والدول المختلفة لم يجد رواجاً أو نجاحاً حتى الآن ، فلا هم للأمم القوية إلا أن تعقد المعاهدات بنية المبادرة إلى نقضها والإخلال بأحكامها فى اللحظة التى تتحقق فيها المصلحة من وراء ذلك . على أن هذا الداء الوبيل والشر المستطير لم يبلغ فى أى عصر من العصور مبلغه فى القرون الأخيرة التى تبوأت فيه أوروبا قيادة العالم حيث أصبح النكث بالعهود ونقض المعاهدات هو فضيلة الأمم وما تزهى به وتفخر ، لا فرق فى هذا الشأن بين دولة أوروبية وأخرى ! وإن اختلفت كل منها فى أساليبها وطرائقها [1] .

وستظل الحياة الدولية مضطربة قلقة ولن يستقر للعالم قرار ولو نسبيا ويستأنف تطوره نحو حالة أكمل من التعاون البشرى حتى تثبت هذه القاعدة ثبوتها فى الحياة الفردية وتتولى قوة حربية نزيهة الإشراف على تطبيقها واحترامها .

١ ـ حسبنا أن نشير فى هذا الموطن إلى وعود الإنجليز لمصر بالجلاء دون أن يتحقق هذا الوعد ونقض الإنجليز الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين .

الفصل الثالث

الاستعداد للحرب ـ التسلح ـ الطيران ـ الصناعات العسكرية ـ تجنيد مختلف طوائف الأمة ـ ثمن النصر ـ وصية ونداء

وجوب الاستعداد للحرب

يتبين من التفصيل المتقدم أن العالم لا يمكن أن يخلو من الحروب سواء كانت الحرب مشروعة أو غير مشروعة ، فما من حرب مشروعة إلا وتقابلها حرب غير مشروعة ، وما من حرب غير مشروعة إلا ويجب أن تقوم فى وجهها حرب مشروعة ، فالحربان تسيران جنباً إلى جنب كسير الخير والشر ، فسواء أردنا أن نعيش فى العالم كما هو ، أو أردنا أن نتصدى لإصلاحه ، فلا سبيل للحياة أو الإصلاح إلا بالاستعداد المتواصل للحرب والتجهز للقتال ، ولن يستطيع فرد فضلاً عن جماعة يريد أن يعيش آمناً على نفسه وماله وحريته أن يدرك بغيته إلا إذا جعل من نفسه محارباً وتسلح بالسلاح الكافى ، ولا سبيل للمحافظة على السلم إلا بالإكثار من أدوات الحرب حتى يرتدع كل من تحدثه نفسه بالإخلال بالسلم ، وكلما كان الشخص خيِّرا والجماعة خيِّرة كلما وجب عليها أن تزيد فى استعدادها للحرب وأن تضاعف فى تسلحها وألا تمكن الأشرار من الاستبداد بها .

ولذلك فإن جميع الشعوب الحية تجعل الاستعداد المتواصل للحرب دينها وأقدس واجباتها ، وهى لا تنفك تزيد فى قوة أسلحتها متمشية مع أحدث التطورات التى انتهى إليها العلم الحديث وارتقاء الصناعة ، وهى تبث الأرصاد والعيون سرا وجهراً فى بلاد جيرانها ، أصدقائها وأعدائها على السواء ، لينقلوا إليها مدى نشاط هذه الأمم فى تسلحهم وما يمكن أن يكون قد استحدثوه من آلات القتال أو أساليبه ، حتى لا يدهمهم داهم فى يوم من الأيام بقوة يعجزون عن ردها أو بسلاح جديد شديد الفتك والبطش لا قبل لهم بمقاومته ، فلا تكاد دولة من دول العالم القوية تزيد فى قوتها فى البر أو فى البحر

أو فى الجو حتى تسرع بقية الأمم إلى مجاراتها والزيادة عليها ، إذا استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، لتظل محتفظة بمستواها الذى اختارته لنفسها ولتبقى آمنة من الاعتداء على أراضيها وأبنائها .

وهذا التسابق فى الاستكثار من السلاح يجد مقاومة من بعض المفكرين الذين يرمون إلى إبطال الحروب وإلغائها ظناً منهم أن التسلح هو السبب المباشر الذى يؤدى إليها ، وهو جهل بطبيعة الحياة وتاريخ العمران والبشر ، فقد كانت هناك حروب بين البشر عند ما لم تكن هناك أسلحة وكان الصراع وقفاً على استخدام قوة الجسد ، ولم تخترع الأسلحة إلا لتدفع عن ضعيف البنية شر الأقوى منه جسداً فالتسلح نتيجة لوجود الحروب وليس أصلاً لها ، وليس هناك ما يخلق الحرب خلقاً أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هناك ما يخفف من ويلات الحرب ويطيل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى ، فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان سلماً مسلحاً تحميه الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبة للذود عنه فإقدام أمة على نزع سلاحها مع يقينها بأنه ستظل فى العالم دائماً أبداً أمم كاملة السلاح ، هو بمثابة الانتحار والوقوع فى براثن الذل والاستعباد للأمم المسلحة . وهذه الدعوة إلى التسلح الدائم والاستكثار من السلاح ، هى ذات دعوة القرآن الناصعة ، وما أظهرته السنة المحمدية وطبّقته ، فالقرآن يقول «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» فالقرآن يأمر بالتجهز الدائم لإرهاب كل من تحدثه نفسه بالاعتداء ممن يعلمهم الإنسان وممن لا يعلمهم إلا الله لأنهم لا يزالون فى عالم الغيب فلا ينبغى للإنسان أن يركن إلى ما قد يراه من صداقة قد تخفى فى طياتها حقداً دفيناً ، وقد يتمسك شعب بأهداب السلام فترة معينة ثم يتغير حاكمه فتصبو نفس الحاكم الجديد إلى الحرب فيتجهز لها سرا . فالأمة يجب أن تتجهز بالسلاح وكل أسباب القوة على سبيل الدوام ، وأن تقرن إلى ذلك الحذر من كل ما يدور حولها عن قرب أو بعد ، كما قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم» وقد بلغ من حرص القرآن على تنبيه المسلمين إلى وجوب الحذر المستمر وتقلد السلاح الدائم ، أن دعاهم إلى أن يصلوا صلاة مسلحة[1] متى أوجسوا خيفة من أى شر يتهددهم ، وذلك بقوله «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا

١ ـ تسمى هذه الصلاة «صلاة الخوف» ... ولها كيفية خاصة ، ولا تؤدى إلا أثناء القتال .

فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ويدعو القرآن إلى حراسة الحدود والسهر عليها بالقوة المسلحة على سبيل الدوام والاستمرار بقوله « اصبروا وصابروا ورابطوا » وروى سهل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها[1] » وذلك كله إظهار لفضل حراسة الحدود والاستعداد الدائم لمواجهة الأخطار ، ولذلك فقد كان المسلمون الأوائل يعتبرون المرابطة فى الثغور الإسلامية ــ حدودها ومداخلها ــ أعظم الأعمال قربة عند الله فيقبلون عليها ويتنافسون فى أدائها !.

وقد أوجب تطور الأسلحة الحديثة وعلى رأسها الطيران الذى يضرب الأمة فى صميمها بعد ساعات من نشوب القتال مهما اتسعت رقعة الدولة ، أوجب هذا التطور على الأمم أن تتخذ أهبتها المستمرة ضد هذا السلاح ، سواء بالإنذار بغاراته أو اتقاء ضرباته سلباً وإيجاباً وأعنى بالسلب أسباب الوقاية المختلفة وعلى رأسها المخابىء الحصينة ، وبالإيجاب أسلحة الدفاع ضد الطيران من أنوار كاشفة ومدافع أرضية وطائرات مطاردة .

وإذ كان سلاح الطيران قد قلب الحروب رأساً على عقب فزاد فى عنفها واتساع نطاقها ولم تعد المعارك تدور فى رقعة من الأرض لا تتجاوز بضع كيلو مترات بل صارت المعركة الواحدة تشمل جبهة تمتد ألفاً من الكيلو مترات . وأصبح العالم كله ميداناً للحرب بسبب هذا الطيران الذى يسابق الريح ويربط الشرق بالغرب ــ فلا سبيل إلى أن تخلو رسالتى عن الحرب من تفصيل شامل فى شأن الطيران وخطورته . وواجب المسلمين فى التدرب عليه والإكثار من وحداته .

سلاح الطيران

سلاح الطيران اليوم ــ ولما يزل هذا السلاح فى أطواره الأولى ــ هو السلاح الفذ فى الحروب والمهيمن على المعارك وصاحب الكلمة الأخيرة فيها ، أما فى المستقبل فسيكون من غير شك هو السلاح الوحيد فى البر والبحر والجو وبقية الأسلحة إن ظل لها وجود فستكون أسلحة مكملة ومساعدة ، فلن يكون هجوم أو دفاع إلا عن طريق الطائرات بعد

١ ــ رواه البخارى والترمذى .

أن لم يعد الطيران قاصراً على قذف القنابل وإطلاق الرصاص ، وإنما أصبح يقوم بنقل الجنود والأسلحة والذخائر والمهمات ، لا الخفيف منها فحسب بل الثقيل أيضاً كالسيارات المصفحة والدبابات ومدافع الميدان ! وبعد أن كان إنتاج الطائرات يعد بالعشرات كل شهر أصبح يعد بعشرات الألوف وبعد أن كانت الأمة تعد شديدة البأس متى كان لها بضع مئات من الطائرات أصبحت وليس يكفيها أن يكون لديها مئة ألف طائرة أو مائتا ألف .

وقد قامت الحرب حتى اليوم[1] فلم يحرز أحد المتحاربين نصراً لم يكن مرجعه قوة سلاحه الجوى ، ولم يصب بهزيمة لم يكن السبب فيها ضعف السلاح الجوى فاندحار بولندا واحتلال النرويج وهزيمة هولندا وبلجيكا وفرنسا فى الغرب ، واليونان ويوغسلافيا فى الشرق ، واحتلال كريت ، كل هذا كان نتيجة مباشرة لتفوق الألمانيين فى الجو ، وعجز الألمان عن قهر انجلترا وروسيا يرجعان إلى عدم استطاعتها السيطرة على جو كل منهما ، والآن وميزان الحرب يبدو مائلاً فى الجانب الآخر ، فإن السبب فى ذلك هو سلاح الطيران أيضاً ورجحانه فى هذه الكفة[2] . على أن تأثير السلاح الجوى لم يعد قاصراً على كسب المعارك الحاسمة فى الحرب بل أصبح له تأثير أبعد غوراً فى كيان الأمم المادى لما يقوم به كل من المتحاربين من غارات مدمرة على مدن الطرف الآخر الآهلة بالسكان ومراكز إنتاجه وأسباب مواصلاته ، فيدكها دكاً ويدمرها ويحرقها ويقلب عاليها سافلها ، كالأعاصير والزلازل والبراكين التى تخسف جانباً من البر فتحيله بحراً طامياً أو ترتفع بغور المحيط فتجعل منه جبلاً شاهقاً وتدمر المدينة الزاهرة بالعمران فتجعلها طلولاً وأنقاضاً ، ورمماً وأجساداً بالية مما يصدق عليه قول الذكر الحكيم .

«حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس» فلم يعد الطيران سلاحاً كأسلحة الأمس ، يقتل أفراداً أو مئات أو الوفاً بل أصبح بقدرته أن يفنى شعوباً بأكملها ، أو بالأحرى يفنى حضارتها وزبدة حياتها[3] .

---

١ ـ وقت كتابة هذه السطور .

٢ ـ أمامى نشرة رسمية للولايات المتحدة تعلن فيها أنه سيكون لديها ١٨٥ ألف طائرة فى ختام عام ١٩٤٣ فإذا استمرت الحرب بعد ذلك فكم يصبح عدد طائرات هذه الدولة بمفردها غير ما تنتجه إنجلترا وروسيا .

٣ ـ زادت خطورة الطيران بعد إكتشاف القنبلة الذرية التى تكفى قنبلة منها تلقيها طائرة لإبادة عاصمة أمة .

أثر الطيران النفسى

وليس يقتصر الانقلاب الذى يحدثه الطيران فى تكوين نفسية البشر وأخلاقهم على ما يحدثه فى ماديات الحرب ومواصلات العالم ، فإلى حيث السحب والشهب يتسامى الطيار مصعِّداً فى الهواء ممسكاً بعنان الرياح مسيطراً على كل الكائنات اللاصقة بالأرض ، حيث يرى المدن أسفل منه لا تزيد عن رقعة كفه والعمارات الشاهقة والميادين الواسعة والقطارات الداخلة إلى المدينة والخارجة كدمية من الدمى وألعوبة من ألاعيب الصبيان ويرى رقعة المملكة ذات الحول والطول التى تغص بكل ألوان الحياة ، كأنها صورة جامدة لا أثر فيها من حياة ، لا فرق بين جبالها وبحارها وسهولها ونجودها إلا بالألوان ، فيبعث ذلك كله إلى نفس الطيار الحكمة والفكر السليم ، وما أروع ما تنطوى عليه نفس هذا الطيار من إيمان وشجاعة وبسالة وهو يحلق فى هذا الفضاء عندما تعصف به العواصف وتتقاذفه الرياح ، وهو ليس إلا كالريشة فى مهب الرياح بل إن الريشة لأسعد حالاً منه لأنها جماد لا يحس ولا يشعر ولا تنال الرياح منها شيئاً لخفتها ومطاوعتها ، أما الطيارة فذات جرم وحجم تصطدم به الرياح فتذروه هباء ، وناموس الجاذبية لا ينفك يجذب الطائرة ليهوى بها نحو الأرض ويجعلها حطاماً وأنقاضاً والطيار لا يملك لمدافعة كل هذه المخاطر المحدقة به إلا هذا المحرك الذى يدور محدثاً هذا الأزيز فى الهواء وما تعلمه من علم وفن واكتسبه من دربة ومران فى معالجة الرياح ومداورتها والانتفاع بتياراتها فى ثبات وهدوء وصبر. ما أجل هذا الطيار وأروعه عندما يكتشف وهو يحلق فى الفضاء خللاً فى طيارته أو نفاد وقودها ، مما يجعله يرى الموت الأحمر وقد بات دانياً مرفرفاً بأجنحته الرهيبة ، مكشراً عن أنيابه المخيفة فيكون على الطيار أن لا يفقد شعوره أو حواسه ، وأن يتمسك بهدوء الطبع وثبات القلب وإعمال الفكر للنجاة من الموت بإصلاح الخلل أو الوصول إلى الأرض فى حذق ومهارة تبقى عليه وعلى من معه وعلى الطائرات التى أصبحت تقدر بثروة ضخمة .

هذه هى حياة الطيار العادية تطلب منه شجاعة وإقداماً ومخاطرة ومهارة ودربة وعلماً ، فما ظنك به عندما يضيف إلى ذلك كله أن يتخذ من هذه الطائرة المعلقة بين السماء والأرض والمهددة بالسقوط من لحظة لأخرى مركبة قتال يصطدم بها بمركبات العدو الذى تتصيده مدافعه لتدميره ، أى أن الهلاك والتناثر فى الفضاء يتربص بالطيار المحارب من فوقه ومن تحته ومن يمينه وشماله لا من العدو فحسب بل من مطيته المعلقة بين

الأرض والسماء ... فهل هناك بطولة سبقت هذه البطولة فى عصر من عصور البشرية ، إلا فى أفراد قلائل يعدون على الأصابع ، وأين تبلغ من هذا فروسية الخيل بعد أن تطورت وتسامت وضاق بها البر والبحر فحلقت فى السماء تبحث عن المجد .

أعدوا ما استطعتم من طائرات

يقول القرآن الكريم فى الآية الكريمة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» ولا جدال فى أن الخيول وقد كانت حتى الأمس القريب هى مركبة القتال وأهم عنصر من عناصره تدخل فى عموم صدر الآية «ما استطعتم من قوة» ولكن القرآن الكريم شاء أن لا يترك هذا الأمر لاجتهاد المسلمين ، فنص صراحة على وجوب الاستكثار من الخيل وباركها رسول الله إذ قال عنها : إن الخير معقود بنواصيها إلى يوم القيامة ، وحدد أوصاف الجيد منها ودعا لاقتنائها وإجادة ركوبها والسباق عليها وإذا كان المسلمون الأوائل قد استطاعوا أن يهزموا جيوش فارس والروم ، فقد كان لحذق المسلمين ركوب الجياد واجادتهم القتال ركباناً ، أثر كبير فى تحقيق هذا النصر ، ولا يزال العربى حتى الآن أبرع فارس ، والخيول العربية أشهر خيول القتال على الإطلاق . وقد بلغ من إكرام القرآن للخيل وتقديره لقوة بطشها وفعلها الذريع فى القتال ، أن أفرد إحدى سوره لوصف فعال الخيل فى إبان غاراتها ، وجعل الله من الخيل ومن فعالها قسماً لتوكيد حكمه على الإنسان وحقيقة معدنه فقال وقوله الحق «والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعاً إن الإنسان لربه لكنود» وما أشار القرآن للجياد هذه الإشارة ودعا للإكثار منها بعد إشارته العامة لحشد أسباب القوة إلا لإبراز خطورتها وأهميتها فى تحقيق النصر فى القتال ، وتطبيق هذه الآية فى عصرنا الحديث بعد أن انقلبت أسلحة القتال كل هذا الانقلاب ، أن تستكثر الأمم من أسلحة الحرب الحديثة ابتداء من البندقية السريعة الطلقات ومدفع برن إلى مدافع الميدان القوية ومدافع الحصار الضخمة والسيارات المصفحة والدبابات والبوارج والطرادات ، وعلى رأس القائمة كلها سلاح الطيران ، كما كانت الخيول بالأمس على رأس قائمة الأسلحة القديمة ، وكما كان من المحال أن يغلب بالأمس فارس مغوار كرار فرار ، فكذلك اليوم لا يمكن أن تلحق الهزيمة طيار باسل يركب متن طائرة قوية سريعة ، ولا يمكن أن يقهر شعب أو يغمز جانبه متى جعل من بنيه فرساناً فى الهواء ، ولست أحسب أن هناك وسيلة لرفع شأن الفرد والأمة أنفع من الطيران .

مصانع الطائرات والأسلحة

على أن الطيران قبل كل شيء صناعة ، فليست الطائرة كائناً حيا من صنع الله ـ ظاهراً ـ ولكنها آلة من صنع البشر ، يقوم على صنعها ألوف من العمال مستخدمين عديداً من الخامات المختلفة ، فمن لم تكن عنده هذه المصانع وما تحويه من آلات وما تحتاجه من خامات ، فهو غير قادر على أن يتوفر لديه سلاح طيران قوى ، ومن لا طيران عنده فلا قوة له ، ولو كان أشجع الناس طرا وأصبرهم على مكاره القتال وأكثرهم استعداد للتضحية ، بل ولو كان مدججاً بكل صنوف الأسلحة الأخرى خلاف الطيران . على أن الأسلحة الأخرى كذلك من مدافع ودبابات ومهمات لا بد لصنعها من المصانع التى يعمل فيها عشرات الألوف بل مئات الألوف من العمال فمن لم تكن لديه صناعة فلا قوة حربية عنده لأن الحرب اليوم هى حرب الصناعة ، ويمكن القول : إن معركة النصر الكبرى إنما تجرى فى المصانع قبل أن تدور فى الميدان فمن خسرها فى المصنع خسرها فى الميدان ، ومن كسبها فى المصنع كسبها فى الميدان . ومعنى كسبها فى المصنع أن يكون السلاح أو الطائرة جيد الصنع كثير العدد متفوقاً على ما يملكه العدو من نوعه سواء من حيث الفاعلية أو السرعة أو المتانة . والحرب لا تجرى منذ القرن التاسع عشر إلا بين الأمم الصناعية الكبرى ، والمنتصر فيها هو الصانع الأجود والأكثر إنتاجاً . وإذا قدر للحلفاء أن يفوزوا فى هذه الحرب فسيكون مرجع ذلك إلى قوة أمريكاً الصناعية الهائلة التى صارت مصنع الدنيا كلها لكثير من المواد الحيوية[1] .

وليس ينفع الدولة المحاربة أن تعتمد فى أسلحتها وطيرانها على ما تستورده من خارج حدودها من طائرات مسلحة وذخائر مشتراة أو مستعارة وإنما ينبغى أن يكون الجزء الأساسى من هذه الأسلحة والطائرات مصنوعاً فى عقر دارها ، وإلا عمد العدو ، وهو عامد بالتأكيد ، إلى قطع مواصلاتها مع الخارج فترى نفسها بدون سلاح تقاوم به ، أو بسلاح ولكن بدون ذخيرة ، أو بكمية من الذخيرة لا تلبث أن تنفد ، بعد أن أصبحت الحرب تعتمد على سيل جارف من الذخائر والمقذوفات . بل ماذا يكون الحال لو وقعت الحرب بين الأمة الموردة للأسلحة والمستوردة ؟ الا يكون معنى هذا القضاء على

١ ـ أيدت الحوادث هذه النظرة فقد انتصرت أمريكا ومعها الحلفاء فى هذه الحرب لتفوقها الضخم فى الصناعة وقد جعلت اليابان تجثوا على ركبتيها بمجرد اختراع القنبلة الذرية التى لا يقوى على إنتاجها فى الوقت الحاضر سوى أمة صناعية من الطراز الأول .

الأخيرة ؟ لذلك لا يستورد سلاحه من خارج حدوده إلا شعب مغلوب على أمره تابع لغيره !. فدليل استقلال أى شعب ومدى حريته أن تراه يصنع أسلحة قتاله بنفسه ، أو على الأقل الجزء الأكبر والرئيسى منها وعلى رأسها سلاح الطيران .

الصناعات المدنية

وليست تقف الصناعات الحربية عند حد مصانع الطيران والأسلحة ، بل إن الحرب الحديثة باتت فى حاجة إلى كل صنوف الصناعات ، فالحرير الذى كان يعتبر لباس الترف قد أصبح الآن من ألزم لزوميات الحرب ، إذ تصنع منه المظلات التى يهبط بها الجنود من الطائرات خلف خطوط العدو للقيام بأعمال حربية واسعة النطاق ، ولا بد للجيوش الجرارة من أطعمة تجهز وتحفظ بطريقة معينة وملابس يرتدونها ، وأدوية يتداوون بها وكل هذه فى حاجة إلى مختلف المصانع الآلية لإنتاجها .

فلكى تكون الدولة دولة حربية لا بد أن تكون دولة صناعية وهذا هو ما فطن له عبقرى الشرق الحديث محمد على باشا ، حيث جعل من مصر قطراً صناعيا من الطراز الأول استطاع أن يجهز ما يحتاجه جيش مصر الحديث من سلاح وعتاد وأساطيل هزمت جيوش الدولة العثمانية أبطال الحروب وفرسانها .

ولا أمل للشرق بصفة عامة ، والأمم الإسلامية والعربية بصفة خاصة أن تنهض من كبوتها وتتبوأ مكانتها بين أمم العالم الحية ، إلا بأن تستعيد تفوقها الصناعى الذى كان لها قبل اكتشاف الغرب للبخار والكهرباء مما نقل إليه التفوق الصناعى ، وبالتالى التفوق الحربى على الشعوب الإسلامية مما أدى إلى استعباده إياها واستعمارها .

على أن الصناعات من ناحية أخرى تعتمد على الخامات والمواد الأولية فينبغى على الأمة أن تعمل على توفير كل الخامات التى تتطلبها صناعاتها بالاستنباط والإنتاج فى داخل حدودها ، وأن تخزن من المواد كل ما يمكن أن ينقصها فى حالة قيام حرب ، وأن تنظر إلى هذه الخامات والمواد نظرتها إلى الأسلحة نفسها ، فقد تنهار أمة محاربة من الطراز الأول لنقص فى المواد الأولية كالحديد والفولاذ ، أو لنقص الوقود اللازم لإدارة المحركات كزيت البترول الذى أصبح عنصراً من أخطر العناصر فى الحرب الحديثة بعد أن أصبح كل شىء يتحرك بالبترول ومشتقاته .

فالحرب اليوم لا يفوز فيها إلا من يستطيع مهما طالت الحرب واستمرت أن يجد كل حاجاته من الأسلحة والذخائر والملابس والمآكل. فالأمم التى تحترف الصناعه فقط وتستورد من الخارج طعامها وشرابها قد تخسر الحرب كالأمة الزراعية التى تأكل وتشرب ولكنها تستورد من الخارج أسلحتها ، والأمة الكاملة هى التى تستطيع فى وقت الحرب أن تكفى نفسها بنفسها فى كل ما تتطلبه الحرب الحديثة لمواصلة الكفاح.

إعداد مختلف طوائف الأمة للحرب

كانت الحرب فى القديم من مهمات الرجال القادرين على حمل السلاح ولكن ما حدث من انقلاب فى سير الحروب بعد اتساع نطاق سلاح الطيران وصيرورتها شاملة لكل مجهود الأمة ، واضعاً جميع أفرادها فى الصف الأول من ميدان القتال ، لا فرق بين محارب وغير محارب ، ولا بين رجل وامرأة وشيخ فان أو صبى صغير فقد أصبح من المحتم أن يعرف كل فرد فى الأمة كيف يتصرف فى حالة قيام حرب ، وكيف يتقى الأخطار التى سيتعرض لها ، بل يجب تدريب جميع طوائف الأمة على المساهمة بنصيب إيجابى فى مجهود الحرب كل على قدر طاقته واستعداده الطبيعى ، فيعد الكهول والشيوخ للقيام ببعض الوظائف المدنية التى كان يضطلع بها الشبان والرجال القادرون ، ويعد الصبيان للعمل فى المصانع وأعمال الوقاية المدنية والنساء لأعمال التمريض ومداواة الجرحى وبعض أعمال التموين خلف الجبهة والحلول محل الرجال فى الاشتغال بالحقول وبعض الصناعات التى تتناسب مع قدرتهن ، وقد جعل تطور الآلات ذلك الأمر سهلاً ميسوراً ، إذ لم تعد الصناعة تحتاج لكبير مشقة إلا فى الصناعات الحديدية الثقيلة.

المسلمات والحرب

وقد كان النساء فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاربن مع الجيوش ويقمن بجميع الأعمال التى يقمن بها فى الجيوش الحديثة من تمريض وتموين وأعمال تكميلية وراء الجبهة ، فقد روى عن أنس رضى الله عنه قال : «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانها فى أفواه القوم[1]» وعنه قال : «كان النبى صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه فيسقين الماء

١ــ رواه الشيخان البخارى ومسلم.

ويداوين الجرحى[1] » وقالت أم الربيع بنت معاذ رضى الله عنها «كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة »[2] . وقالت أم عطية رضى الله عنها «غزوت مع النبى سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى[3] » . وقد كان ذلك الاشتراك من جانب النساء عندما كانت الحرب لا تزال قاصرة على عدد صغير من الفرسان المحاربين يصطدم فى معركة لبضع ساعات ، أما اليوم وقد أضبحت الحرب تستغرق سنين وأعواماً تقفر فيها المزارع والمصانع ودور الأعمال من الرجال ، والحرب فى البيوت والمنازل والشوارع والطرقات ، والطائرات تخبط خبط عشواء لا تفرق بين رجل وامرأة : فقد زادت التكاليف التى تقع على عاتق النساء غير أنهن كقاعدة عامة لا يجب أن تكون لهن وظيفة فى جبهة القتال إلا التمريض لجميع الجرحى على السواء ، حتى ولو كانوا من الأعداء متى وقعوا فى الأسر ولم يعد لهم شر يخشى منه . أما خلف الجبهة فيجب أن تضطلع النساء بكل الأعمال والوظائف التى يمكنهن القيام بها .

التجنيد الإجبارى

أما قاعدة التجنيد الإجبارى التى تفرض على جميع الرجال القادرين حمل السلاح والقيام بعمليات الهجوم على العدو والدفاع لصده ، فليس هناك فى أنظمة الأمم الحديثة ما هو أعدل وأنفع وأصح للجماعة والبشرية من هذا النظام الذى يهىء للأفراد فى زمن السلم فرصة رائعة لتقوية أبدانهم وتحسين صحتهم وتعويدهم النظام والطاعة التى لا يتم بدونهما عمران وصبغهم بصبغة الرجولة والاتزان والتوحيد بين صفوفهم وإشعارهم بالمساواة الحقيقية بين أبناء الأمة الواحدة ، لا فرق بين غنى وفقير ولا كبير وصغير ، وأن الجميع أسرة واحدة لها مصلحة واحدة وغاية واحدة ، تجتمع كلها تحت لواء واحد ، هو رمز لأسمى ما تصبو إليه الجماعة وتكرمه من حرية واستقلال ودين ومجد . فإذا جاءت الحرب هب الجميع أقوياء مدربين ليدفعوا عن الوطن العدو المشترك الذى إذا قدر له النصر فسيحل الذل والويل على الجميع ابتداء من رأس الدولة إلى آخر العامل الصغير .

١ ـ رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

٢ ـ رواه البخارى .

٣ ـ رواه مسلم .

فالتجنيد الإجبارى هو نظام من أروع النظم ، التى شادت عليها أوروبا عظمتها الحربية الحديثة .

والإسلام أو بالأحرى القرآن يجعل التجنيد إجباريا وفرضاً أساسيا على كل من قدر على حمل السلاح فى حالة الحرب الدفاعية التى يهاجم فيها العدو الأجنبى أرض المسلمين ، وفى جميع الحالات الأخرى التى يرى فيها الإمام وجوب ذلك التجنيد الإجبارى ، فالقرآن يقول : «كتب عليكم القتال» والخطاب فى هذه الآية موجه إلى جميع المكلفين من الذكور القادرين على القتال . وقد أمر القرآن المسلمين فى آية أخرى بوجوب النفرة إلى القتال فى قوله «انفروا خفافاً وثقالاً» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً لهذه الآية (إذا استنفرتم فانفروا) أى كلما دعا الإمام إلى القتال فقد وجبت تلبية دعوته ، ولم يستثن القرآن أو السنة أحداً من تلبية دعوة الإمام للحرب فى جميع الحالات ، إلا أن يكون الشخص مريضاً أو ضعيفاً أو ذا عاهة تحول بينه وبين القتال .

ولما تخلف عن رسول الله فى غزوة تبوك ثلاثة بغير إذن من الرسول أو عذر مانع يبيح لهم التخلف ، كان عملهم هذا جرماً كبيراً عاقبه الرسول وبقية المسلمين بالمقاطعة والتفرقة بينهم وبين نسائهم والنبذ من الجميع فظلوا يعانون كرباً عظيماً ويبكون تائبين مستغفرين بالليل والنهار فلا يقبل منهم الرسول ندماً أو استغفاراً حتى نزل القرآن بالصفح عنهم ، على شريطة أن لا يعودوا لفعلتهم الكبيرة حيث قال :

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم)

فالتجنيد الإجبارى هو أحد الدعائم التى قام عليها النظام الإسلامى قبل أن تعرفه أوروبا بثلاثة عشر قرناً من الزمان .

الاستعانة بالمحالفات

وثمة عنصر آخر ينبغى للأمة المحاربة أن تعده لتستكمل جميع أسباب القوة والأسلحة ، وهو المحالفات والمعاهدات التى لا تدع الأمة بمفردها إذا قامت الحرب ، بل تجد إلى جوارها فوراً حلفاء أقوياء أشداء مخلصين . فما من أمة مهما بلغت قوتها العسكرية الدفاعية أو الهجومية بآمنة على نفسها إن لم يكن لها حلفاء يقفون إلى جوارها فى ساعة

الشدة ، وكلما كانت الأمة صغيرة كلما أصبح التحالف مع غيرها أمراً حيويا ضروريا لحفظ كيانها على شريطة أن تحسن اختيار حلفائها ممن يرتبطون بها برباط المصلحة المشتركة ، وممن يلبون نداءها إذا جد الجد ووقعت الواقعة ، فكلما كان الحلفاء يرتبطون فوق رباط المصلحة برباط الدين أو اللغة أدى ذلك إلى جعل المحالفة أكثر فاعلية بل جعل منها ركناً ركيناً[1] .

النصر

فإذا تم للأمة استعدادها العسكرى فى السلاح والرجال وشد أزرها الحلفاء الأقوياء ، فقد أصبح فى قدرتها إذا خاضت معمعان حرب فرضتها الضرورة ، سواء أكانت دفاعاً أم هجوماً ، أن تواصل الحرب إلى نهايتها الناجحة بأن تحرز النصر على شريطة أن تدفع ثمنه . وما أدراك ما ثمن النصر؟ هو بلوغ ذروة الكفاح فى الحياة وغايتها ، هو هذه اللحظة التى يشعر فيها المنتصر بنفحات الرب الكبرى تغمره ، فيتذوق حلاوتها فى جرعة واحدة فيتم له البقاء والخلود .

النصر هو البلسم الشافى لكل ما تحدثه الحرب من جراحات وهو الذى ينسى الآلام ويبدد الهموم والأحزان .. وهو الذى يعيد النوم إلى الجفون التى أرقها السهاد ، والإكسير الذى يحول كل شىء إلى ذهب . هو ماء الحياة الذى ينفخ الروح فى كل شىء وبخاصة فى أجسام الشهداء الذين لاقوا مصرعهم فى سبيل النصر ، فإنها لا تلبث أن تطرب وتسعد فى العالم الآخر وتحتفل بالنصر احتفال الأحياء .

ولذلك أقول : لا يوجد ثمن يساوى النصر مهما عز وغلا !. فكل خسارة فى سبيله غُنْم وربح ، فمئات الألوف التى استشهدت ، وألوف الألوف التى نكبت ، وألوف المدن والقرى التى خربت ودمرت ، وكنوز الذهب التى أنفقت كل هذه لا تساوى شيئاً إزاء النصر الكامل ، لأن النصر يردها كلها أضعافاً مضاعفة بما يجلبه معه من قوة روحية

---

١ ـ ولذلك فليس يمكن أن يوجد فى العصر الحديث تحالف فى ـ العالم أقوى أساسًا ـ وأكثر فاعلية من تحالف هجومى دفاعى يقوم بين الامم العربية التى لا تشترك فى مصلحة واحدة فحسب ، بل تشترك فى الدين واللغة والثقافة والماضى والحاضر والمستقبل فهى أقرب إلى أن تكون أمة واحدة بل هى أمة واحدة بالفعل .. ومثل هذا التحالف العربى قادر على أن يعيد مجد الإسلام ويرتفع بالأمم الإسلامية كلها إلى ذروة المجد والرفعة .

وفيرة ، تصلح ما فسد وتبنى ما هدم وتعمل بعد ذلك إلى التقدم بالإنسانية خطوات فى سبيل التطور والارتقاء .

النصر هو ينبوع الحياة والارتقاء للشعوب والأفراد الذين يحصلون عليه ، فكل من أخطأه النصر فرداً كان أو جماعة ، وكف عن السعى لإحرازه من جديد فمصيره المحتوم إلى التدهور فالفناء ! . لأن الحياة هى الكفاح فالانتصار فالخلود ، أو هى الاستسلام فالهزيمة فالفناء .

ثمن النصر

وليس للنصر من ثمن إلا الثبات ، وكل ما حدثتك عنه من استعداد فى السلاح والطائرات والرجال والتحالف لا يعدو كله أن يكون جسداً بغير روح ، أو محركاً بغير وقود فلا غناء فيهما ولا خطر ما لم تحل الروح الجسد ويمد المحرك بالوقود . لا نصر لجنود لم يثبتوا فى ميدان القتال ويصبروا على حر المعركة ويجابهوا الموت فلا يفزعون أو يفرون ، وإنما يستبسلون ويستميتون مفضلين الموت على العار . أما إذا دب الهلع إلى نفوسهم وفزعوا من جحيم المعركة وراعهم الموت فرفعوا أيديهم مستسلمين أو أطلقوا سيقانهم للريح فهو الاندحار والذل ، ولو كانت الدولة من أعظم دول الأرض طرا وقد رأينا فى هذه الحرب فرنسا تخر صريعة فى بضعة أسابيع بالرغم من جيوشها التى تعد بالملايين ، والتى قاومت فى الحرب الماضية أربع سنوات كاملة انتصرت فى نهايتها ، ثمناً لثباتها ومقاومتها ، أما هذه المرة فقد خارت عزيمة أبنائها الذين ركنوا إلى الحياة وأقبلوا على ملذاتها ، فكان نصيبها الهزيمة والفشل وسط دهشة العالم وذهوله بينما ثبت الإنجليز وصبروا فنجوا من المصير الذى صارت إليه فرنسا وثبت الروس ثباتاً عجيباً بالقرب من مدنهم العظمى فى لننجراد وموسكو وعند ستالين جراد ، فكان ثباتهم هو نقطة التحول فى هذه الحرب وإذا قدر للحلفاء أن ينتصروا فى هذه الحرب فسيكون للروس القدح المعلى فى هذا النصر بما ثبتوا وسخروا بالموت .

ولما كان الثبات هو روح الحرب وثمن النصر فقد جعله الله فريضة على المسلمين المحاربين ، وجعل الفرار من ميدان القتال هو أكبر الكبائر التى يرتكبها إنسان فقال عز وجل : «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا» وقال «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله» ولقد صدع المسلمون الاوائل بهذا الأمر فثبتوا ثبات الجبال

فى كل قتال خاضوه ، وباعوا أرواحهم بيع السماح فانتصروا على أعظم جيوش العالم فى ذلك الوقت ، وهم حفنة من الألوف تعد على الأصابع ، وكان الآخرون يفوقونهم فى العدد والعدة ، ولكنهم فقدوا الثبات واستحبوا الحياة على الموت فخسروا المعركة جبانة ونذالة ، ثم أدركهم الموت الذى كانوا منه يفرون .

مسلموا العصر الحديث

فاعجب ـ وهذا شأن المسلمين الأوائل وتلك أوامر القرآن ونواهيه ـ كيف تصور بعضهم الإسلام على أنه استسلام للمقادير والأعداء جبناً وخوراً ! . وتصيدوا من القرآن والأحاديث فقرات أساءوا تأويلها وفسروها حسب أهوائهم ليبرروا ما هم عليه من هوان وضعف فما تدعوهم إلى الجهاد إلا ويقولوا لك (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ولا تدعوهم إلى امر بالمعروف او نهى عن المنكر إلا وردوا عليك بآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) ولا تحدثهم عن الشجاعة والمغامرة والبذل فى سبيل الله ، إلا قالوا لك «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» حتى الصلاة لم يحفظوا من أصولها وقواعدها إلا حديثاً واحداً (من أم بالناس فليخفف) وهكذا لاذوا بهذه العبارات التى لم يدركوا حقيقة معناها وهى كلها تقوم شاهداً على بطلان ما يفعلون ، وما يتصفون به من صفات وضلال ، فكان أن ضعفت الهمم وفترت العزائم وانحلت الوشائج وخبا نور الإيمان والعلم وعم الظلام والجهل ، ووصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من الدرك الأسفل من جحيم الدنيا وجحيم الآخرة كذلك إلا أن يتداركهم الله برحمته . هل الإسلام إلا هذه الآيات البينات والأحاديث المحكمة التى يأخذ بعضها برقاب بعض لقيادة المسلمين إلى موطن العزة والسعادة فى الدنيا والآخرة ؟.
هل الإسلام إلا قول القرآن :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)

وقوله : (يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون)

هل الإسلام إلا قوله تعالى :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن) وقوله :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

وقوله : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

وهل المسلمون إلا الذين عناهم القرآن بقوله :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» فهل يصدق هذا الوصف على كثير من مسلمى هذا الزمان ؟ أيمكن أن يتصور عاقل أن هذا العدد الضخم وهذه الملايين من البشر التى فقدت همتها وكل فضيلة اجتماعية ، وقعدت عن كل كفاح وجهاد فى سبيل تحسين حالها ومعاشها وتحرير أنفسها ، هى خير أمة أخرجت للناس ؟ أيجرؤ مسلم واحد يفهم حقيقة الاسلام على الادعاء بأن الله يرضى عن هذا النفر الذى اطمأن إلى الرذيلة وقبل أن يسوده الأجنبى وهو المأمور برفع راية الإسلام فوق العالمين ؟ وشاهد على من سبق وحضر «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» ؟

لست أشك لحظة أن كثيراً من مسلمى هذه القرون الأخيرة التى هوى فيها الإسلام إلى هذه الهاوية ، إنما هم مسلمون بالإسم والتقليد ، لكنهم يجهلون كل شىء عن حقيقة الإسلام وجوهره ، وأن القرآن إنما يخاطب هذه الأمة الإسلامية العزيزة التى سادت العالم ونشرت لواء التوحيد والفضيلة فى ربوع العالمين !. لست أشك لحظة فى أن القرآن يتحدث عن هذا النفر من المسلمين الذين كانوا ينشدون النصر أو القبر ويقول قائلهم :

ولست أبالى حين أُقتَل مؤمناً على أى جنب كان فى الله مصرعى

لست أشك لحظة كذلك أنه لم يحل دون نهوض المسلمين من كبوتهم وإقالة عثرتهم إلا وقوعهم فى براثن الاستعمار الأجنبى الذى قتل فيهم روح الإحساس والتفكير ، فتبلدت طباعهم ونضبت فضائلهم . ولكنى أحس إحساساً عميقاً أن هذه السحب التى غشت حياة المسلمين قد آذنت بالانقشاع ، وأن الضربات الشديدة التى حاقت بهم والمهانة التى لحقتهم قد أيقظتهم من سباتهم فبدأوا ينفضون التراب الذى كاد يطفىء نور

أعينهم ويحركون الأذهان التى كاد يشملها الجمود .. إن العالم الإسلامى اليوم تسوده يقظة رائعة وهو فى حالة انتباه نفسية وروحية ولكنه لن يأخذ طريقه الحق نحو الحياة والمجد والعزة التى فرضها الله عليه إلا بعد خلع رداء هذا الاستعمار الرهيب ولا سبيل إلى خلع هذا الاستعمار إلا بالقوة والقوة العسكرية التى تمد بها الدول الإسلامية بعضها بعضاً حتى تقهر الأمم المعتدية بقوة السلاح فترتدع عن غيها ، وتعود إلى وكرها وتلتزم حدودها .

لقد شاهدنا وسمعنا فى هذه الحرب عن الوف من الألمان يموتون وهم يهتفون المجد لهتلر ، وعشرات الألوف من اليابانيين وهم يسقطون صرعى فى سبيل الامبراطور ، فلا بد أن يصبح المسلمون كهؤلاء بل أعظم من هؤلاء ، لأنهم لن يهتفوا باسم مخلوق مثلهم ، ولن يكون مثلهم الأعلى دنيا يصيبونها أو مالاً يغنمونه ، أو شهوة جامحة يطفئونها بالموت والتقتيل وإراقة الدم ، ولكن فى سبيل الخالق الحى الدائم الخالد ، وفى سبيل تطهير بلادهم من دنس العبودية والذل لغير الواحد القهار الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

يا بنى

إن تحول المسلمين من جديد إلى أمة حرب وكفاح يحتاج لتربية وإعداد وعمل بالليل والنهار فمهمة كل أب مسلم أن ينشئ ابنه على خلاف ما هو من الضعف والاستسلام وفقدان الثقة بالنفس بل على كل أب مسلم أن يغرس فى أولاده منذ الطفولة كل الصفات التى يحتاجها المسلمون لإعادة مجدهم ، وهذا ما جعلنى أعاهد نفسى أمام الله أن أُعِدَّكَ ياولدى لتكون محارباً وأن أبدأ هذا الإعداد منذ طفولتك ، فلما جاء أخوك نذرت لله أن أجعل منه محارباً كذلك ، ولو رزقنى الله بعشرة أولاد لجعلتهم كلهم محاربين دماً ولحماً وروحاً وفكراً ولست أدع فى طاقتى جهداً لإعدادكما لهذا الغرض إلا وبذلته فليس ما تلهوان به إلا دمى عسكرية ما بين بندقية أو حصان أو طائرة ، وإنى لأمد لكما فى حرية الحركة والتصرف والمغامرة ، فلست أردك عن مرتفع تتسلقه أو مركب خشن تركبه ، ولست أبالى أن تسقط على الأرض أثناء عَدْوِكَ أو مغامرتك ، أو أن تصاب بجرح فى يدك أو ساقك إلا بمعالجته بعد حدوثه حتى لا يخيفك أو يفزعك أن ترى نفسك مجروحاً أو دمك سائلاً فيردك ذلك عن تحقيق غرض تطلبه . إننى لأرجو أن أطبعك بطابع المحارب فتضرب كل من يضربك وتعشق القوة وجمع السلاح وتهوى الطيران وتحذقه .

فإذا قدر لك يا بنى أن تعيش أنت وأخوك فإن وصيتى لكل منكما مجتمعين ومنفردين أن تكونا محاربين مجاهدين ! وإنى لأبرأ إلى الله منكما لو نازعتكما نفساكما يوماً من الأيام إلى الإخلاد وإلى الجبن أو الفرار من ساحة المعركة أو الفزع من الموت على أى صورة من الصور ، فإذا قدر لكما أن تستشهدا فى سبيل الله والحق والمثل الأعلى فما أسعدنى بكما .

إن هدفنا هو أن نخلق من مصر والعرب قوة عسكرية كبرى تعيد الإمبراطورية العربية ، وتحرر الأمم الإسلامية ، وتبسط على العالم لواء العدل والإنصاف والحق واليقين . وسأظل أجاهد أنا وإخوانى فى هذا السبيل حتى النصر أو الموت فإذا قدر لنا أن نموت قبل إتمام المهمة فقد أصبح المضى حتى آخر الشوط هو واجبكم ، فكونوا أنتم أسعد حظا منا وإذا قدر لكم أن تسقطوا بدوركم فاعهدوا إلى أبنائكم بحمل هذه الأمانة . أعدوهم إبان حياتكم لتنفيذ هذه الوصية المقدسة ، وهى أن يكونوا محاربين شجعاناً يثبتون فى القتال حتى ينتصروا أو يموتوا . ومهما تباعد العهد بيننا وبينكم .. مهما طال الزمن وتوالت الحقب التى تفصلنا عنكم أنتم يامن قدمتم على أيديكم النصر الذى نشق من أجله وسنجود بأرواحنا فى سبيله ، تعالوا إلى قبورنا وأبلغونا النبأ لأننا سنظل نرقب فى قلق ولهفة ختام المعركة ، فإذا سمعنا كلمة النصر السامية والنفحة الغالية إذا سمعنا بأن مصر والعرب قد أعادوا المجد وأصبح لواء الإسلام يخفق تحت الشمس حرا كريماً فى جميع ربوع العالمين ، فى هذه اللحظة فقط ستستقر عظامنا فى قبورها وتترنم أرواحنا فى ابتهاج وحبور فى مسارحها مرددة نشيد النصر الالهى ــ الله أكبر ــ الله أكبر ــ الله أكبر صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

نحــو المجــد

العـلم والمــال

يا أخى مصطفى الوكيل

هو ذا كتاب جديد أرفعه إلى مقامك
وعهد الله علىّ أن أقف ما بقى من حياتى
على الوفاء لذكراك والاستضاءة بنور جهادك
هذا الجهاد المثالى الكامل الذى لم تعرف مصر له
مثيلاً فى السابق أو اللاحق .

وإنى لأرجو أن يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن
أقدم لشباب مصر والعرب صورة رائعة من حياتك
لتكون نبراسًا لهم ليحققوا المجد لأنفسهم وأوطانهم .

نحـو المجـد

قدمت قبل اليوم رسالتى الزواج والمرأة ، والحرب ، واليوم أقدم رسالتى العلم والمال وهما بعض هذه الرسائل التى كتبتها إبان اعتقالى عندما انتهزت فرصة هذه الوحدة الطويلة التى دامت أكثر من ثلاث سنوات كى أعيد النظر فى مشاكل وطننا المصرى العربى وما يقعد الأمة الإسلامية ويبقيها فى هذه الحالة الشائنة من التدهور والانحلال والضعف وفقدان الحرية والثقة بالنفس ، ولقد آمنت أن العلة كل العلة فيما نعانيه فى مصر ويعانيه العالم العربى بأكمله هى تخلفه عن ركب المدنية والأخذ بأسباب الحضارة بزعم أنها تخالف الدين الإسلامى فرأيت أن أتصدى لعلاج هذه المشكلة وأغوص إلى أعماق العناصر الأساسية التى دفعت بالغرب إلى طريق التفوق على الشرق . فكانت رسالتى عن المرأة ، والتى دعوت فيها إلى وجوب تحرير المرأة المسلمة ومساواتها بالرجل مساواة مطلقة فى مباشرة كافة الحقوق السياسية التى يتمتع بها الرجل . ثم كانت رسالتى عن الحرب والتى دعوت فيها إلى وجوب الأخذ بأسباب القوة وإعداد العدة للقتال من مصانع للذخيرة والسلاح وتجنيد سائر أفراد الأمة والسعى بالليل والنهار للاستزادة من كل أسباب القوة والمنعة باستخدام آخر المخترعات والأسلحة ..

واليوم أعرض لقضيتى العلم والمال الذى تفوق فيهما الغرب على الشرق وأبسط الأسباب والعلل الأساسية التى أدت إلى ما نحن عليه من تدهور علمى واقتصادى وأرسم الخطة لما يجب أن يكون عليه حالنا من تفوق ونجاح فى ميدان العلم والاقتصاد . وإنى لأرجو إذا فرغت من تقديم هذه الرسائل أن أكون قد قدمت لمواطنى وللعالم العربى والأمة الإسلامية دستور النهضة والبعث الشامل لتحقيق المجد المصرى فالعربى فالإسلامى .

والله أكبر والمجد لمصر

«أحمد حسين»

الفصل الأول

رسالة العلم

يا بنى

مذ دعوتك لتكون قويا ، وأنا أفصل لك أسباب هذه القوة وعناصرها ، وكان جديرًا بى أن أجعل حديثى عن العلم فى مقدمة هذه الأحاديث طرًّا . فهو أساس هذه العناصر كلها ، وهو ينبوع القوة الأول والأخير . وبغيره لاتتوافر القوة ولو اجتمعت بقية العناصر الأخرى . العلم هو غاية الدنيا وهو وسيلتها فى نفس الوقت ، هو هذه النفحة الربانية التى أودعها الخالق فى الإنسان ليكون خليفته فى الأرض ، فيحكم ويسعد ويسيطر على بقية العناصر والكائنات . كما قال ، وقوله الحق : «وعلم آدم الأسماء كلها» فالعلم هو هذه الشعلة المقدسة التى تضىء لنا طريق الحياة ، وتحقق لنا الكرامة والعزة الإنسانية والحرية . هو سلاح الإنسان للدفاع والهجوم والتغلب على كل ما يعترضه من عقبات ، ومن خصوم ، من بنى جنسه ، أو من الحيوان ، بل من الجمادات والعناصر وأحداث الزمان .

العلم هو الحبل الممتد من الخالق إلى المخلوقين ، ليصلوا عن طريقه إلى الحقيقة الخالدة الأزلية ، التى كانت علة وجودهم ، والتى هى منتهى سعيهم وكدحهم . العلم هو صفة الرب الكبرى ، هو النبع الذى فاض منه الوجود بما فيه من مخلوقات ، هو الناموس الذى يحفظ لهذا الكون قيامه ودورانه وتوازنه وتجاذبه وتناسقه وتآلفه ، وما بث فيه من حياة ، هو غاية الحياة ووسيلتها ، وهو سرها ومحورها .

العلم غاية

العلم غاية الحياة ، ولذلك فلم يكن للبشر مذ وُجِدوا على هذه الأرض ، أفرادًا وجماعات ، ما يشغلهم إذ فرغوا من طعامهم وشرابهم ، إلا العلم بما لم يعلموا ، والبحث خلف المعرفة الكاملة الصادقة ، لكل ما يحيط بهم ، ويتصل بحياتهم ، فاستطاع كل جيل من الأجيال أن يظفر بجزء جديد من العلم ، يضيفه إلى ما ورثه عن الأقدمين من معارف . وبهذا يضيف لبنة فى بناء المعرفة الإنسانية التى ترتفع يومًا بعد

يوم ، وتترامى جيلاً بعد جيل ، حتى تنتهى إلى المعرفة المطلقة ، أو بالأحرى إلى الكمال البشرى .

وقد يخيل للبعض من أبناء هذا القرن الذى نعيش فيه كما خيل لبعض القرون السالفة أننا أوفينا على الغاية ، وأوشكنا أن نظفر بالعلم الكامل بعد أن أصبح الإنسان قادرًا بعلمه على تسخير ما فى الكون من عناصر ، فأخضع الماء والهواء والكهرباء لسلطانه . وابتدع بنور العلم السيارة والطائرة والغواصة ، والصاروخ وتحكم فى الأصوات والمرئيات . والأشباح والظلال ، فحبسها ونشرها وقيدها وأطلقها واختزنها ، فى هذه الأسطوانات والأشرطة السينمائية ، لتنقل إلى أى مكان وتُرى وتُسمع ، متى أريد ذلك ولو بعد أعوام ودهور . بل استطاع الإنسان بنور العلم أن يمد بصره وسمعه إلى أرجاء الكون العظيم . فيسمع من بالغرب ما يقال ويقف على ما يحدث فى الشرق ، ويتكلم إنسان واحد فيستمع إليه هؤلاء الجلوس فى عقر دورهم فى الشمال أو فى الجنوب ، والمحلقون فى الفضاء والسابحون تحت أغوار الماء ، والضاربون فى بيداء الصحراء .

واستطاع الإنسان أن يبنى لنفسه بيتًا يناطح السحاب ، وينافس الجبال ، ويتحدى غضبات الطبيعة وزوابعها وأعاصيرها ورياحها وثلوجها وأمطارها وصواعقها وحرها وبردها . فما هى إلا لوالب تحرك بأيسر جهد من الأصابع حتى تندفع المصاعد إلى أعلى بسرعة البرق ، أو يتبدد الظلام ، ويستحيل إلى ضوء ساطع . ولكى ينتشر الدفء فى زمن الشتاء ، أو النسيم الرقيق فى زمن الصيف ، ولكى يُطهى الطعام ويغسل الرث . أو تعزف الموسيقات وتلقى المحاضرات ، أو ينتقل إلى إنجلترا وما يحدث فيها ، أو إلى اليابان وما يقوله قائلوها . كل ذلك فى أقل من لمح البصر وخطرة الخاطر ، وهو مستقر فى مجلسه وفى عقر بيته ، لم يبرحه ، بل وهو فى داخل فراشه ، والنوم يداعب جفونه .

واستطاع الإنسان أن يخلع على الآلة بعض عقله فيجعلها تحسب الحساب . وتقبض النقود ، وتسلم البضاعة ، وتحرس الودائع ، وترد اللصوص ، وتنذر بالمخاطر .

وبالعلم استطاع الإنسان أن يعرف من شأن جسده وتركيبه ، وتشريح أعضائه ما جعله قادرًا على التصرف فى علاج نفسه ، واستئصال علله ، وتجميل خلقته . وتعويض الناقص من أعضائه . فثمة سيقان لمن فقدوا سيقانهم ، وأيد لمن قُطعت أيديهم ، ومناظير لمن ضعفت أبصارهم ، وسماعات لمن عجزت آذانهم ، وقلوب لمن ضعفت قلوبهم ، ومئات من الوسائل لتقويم الإنسان وتعويض أو تقوية مختلف أعضائه .

وأصبح الإنسان يعرف من سطح الأرض كل شبر فى الطول أو فى العرض . فذرعها

وقاسها وصورها ووزنها ، وحلل أجزاءها وعرف تركيبها وأصولها وفروعها ، وعلاقتها ببقية الكواكب وعلاقتهن جميعًا بأمهن الشمس ، وتفسير كل ما فى الطبيعة من ظواهر كالليل والنهار ، والخسوف والكسوف ، والمد والجزر ، واختلاف الفصول والرياح والأمطار والرعود والبروق والصواعق والبراكين.

وليس فى نيتى ، بل ليس فى قدرتى أن أشير إلى رءوس موضوعات المعارف البشرية فى عصرنا الحديث ، وإنما ذكرت ما ذكرت على سبيل المثال . وما يحمل البعض على الوهم بأنا بلغنا فى العلوم مالاً زيادة بعده لمستزيد ، اللهم إلا النزر البسيط ، وليس أبعد من ذلك القول عن الصواب ، وإمعانًا فى الخلط والخبط ، فما أوتينا من العلم إلا قليلاً ، بل وأقل من القليل ، فما هو إلا قطرة من بحر وذرة من رمل وشعاع من نور الشمس . فعلى الرغم من اتساع معارفنا بالنسبة لما يتعلق بسطح الأرض فإن هذه المعرفة لم تتجاوز قشرتها فأقصى ما وصل إليه الإنسان من عمق فى باطنها لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أميال من نصف قطرها المقدر من سطحها إلى مركزها بأربعة آلاف من الأميال ، فما علمناه عن الأرض وطبيعتها لا يعدو أن يكون جزءًا من ألف جزء مما يجب أن يعرف عنها ، ناهيك بما لا نزال نجهله عن القمر ، فنحن لا نعرف حتى الآن إلا شكله ورسمه وحركته ودورانه ، وما زاد على ذلك فنحن بالنسبة إليه فى ظلام دامس ، بالرغم من استعمال الميكروسكوبات[1] الضخمة التى تكبر الأجسام ٣٦٠ ألف مرة ، وما نعلمه عن بقية الكواكب قد لا يزيد عن مجرد وجودها ، أما ما نعرفه عن الشمس فليس سوى هذا الضوء الذى يغمرنا ، والذى هو أحد آثارها ، ولسنا نعرف وراء ذلك شيئًا عن هذه الملايين التى لا يدركها الحصر من هذه النجوم والدرارى التى ترصع السموات العلى ، والتى تزينها بأبهى زينة وأتم رونق مع أن نجمًا من هذه النجوم قد يفوق فى حجمه الشمس وكواكبها ، والأرض وتوابعها ببضعة ألوف من المرات ، أما هذا الفضاء الذى يتسع لذلك كله فهو بالنسبة لعقولنا غموض وإبهام ، وظلام وقتام ، بالرغم مما يفيض به من نور وضياء وجمال وبهاء.

وما لنا نذهب بعيدًا وأقرب الأشياء إلينا لا يزال أبعد إلى عقولنا ، فالنفس ما هى ؟ والحياة ما سرها ؟ والموت ما هو ؟ لا نكاد نعرف عن ذلك مثقال ذرة أكثر مما كان يعرفه أسلافنا منذ ألوف السنين.

فالحق أنّا لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، ولانزال قريبين من شاطىء بحر المعرفة ، ولم

---

(١) Microscope وقد عرّبها مجمع اللغة فسماها «المجهر».

نوغل بعد كثيرًا فى الداخل ، ولكن ليس ثمة شك فى أن الإنسانية تسير صوب غايتها من المعرفة الكاملة . فما من جيل إلا ويعرف أكثر مما عرف المتقدم ، بعد أن أصبح المتقدم تاريخًا ماضيًا . فاللاحقون يعرفون كل شىء عمن سبقهم ، بعكس السابقين الذين ليس باستطاعتهم أن يعرفوا شيئًا عمن سيجىء بعدهم . إن الإنسانية فى مجموعها تزداد دومًا علمًا ومعرفة ، وتكشف فى كل يوم مجاهيل جديدة لم تكن معروفة بالأمس ، وإذا كان الشوط الذى قطعته الإنسانية حتى الآن ، مذ كان الإنسان يهيم على وجهه فى الغابات إلى أن صار إلى ما صار إليه ، إذا كان هذا الشوط يبدو كبيرًا ورائعًا فإنه لا يمكن أن يقاس أو يقارن بما سيقطعه الإنسان فى القرون القليلة المقبلة ، بعد أن تهيأت له أسلحة من العلم لم تكن لديه فى القديم ، وبعد أن باتت الكهرباء - وهى أقوى عناصر الكون - فى خدمته ، فقضت له على المسافات والزمن ، بل بعد أن توصل الإنسان لاستخدام الطاقة الذرية ، فلم يكن مستحيلاً ولا هو غير متصور فى الذهن أن يتمكن الإنسان من التحليق فى أجواء الفضاء ، والوصول إلى القمر وإلى بقية الكواكب الأخرى وأن يشرع الإنسان فى سكناها واستثمارها واستعمارها إن كانت بغير سكان ، أو كانت فى حاجة إلى استثمار واستغلال .

إن الإنسانية تسير قدمًا نحو الأمام - نحو العلم والمعرفة - لتدرك من أسرار الكون وعوالمه ما لا يزال حتى اليوم خافيًا ، متخذة من بعض العلم سبيلاً لتحصيل البعض الآخر - ومن الوصول إلى إحدى الدرجات لارتقاء درجة جديدة - هكذا خلقت النفس البشرية ولهذا أعدت ، وصوب هذه الغاية اندفعت .

العـلم كوسيـلة

على أن العلم إذا كان غاية الإنسان فى الحياة فهو وسيلتها أيضًا . فما الصنائع التى تقوم عليها حياة الإنسان إلا ثمرة من ثمرات العلم والانتفاع بحقائقه وتطبيقاته - وكل ما يحيط بنا ويملأ حياتنا من طعام نأكله أو شراب نشربه أو لباس نلبسه ، أو مسكن نقطنه - أو متاع نستمتع به أو سرور نغمر به ، أو أمن نعيش فى ظله - ليس ذلك كله إلا ثمرة العلم الذى حصله من قبلنا والذى يجب أن ننقله ونحمله لمن يجيئون بعدنا ، وبغير ذلك لا تكون حياة ..

حب المعـرفة غـريزة إنسـانية

ومذ كان للعلم والمعرفة فى حياة البشر كل هذا الخطر فقد أصبح حب العلم والتطلع للمعرفة إحدى الغرائز الإنسانية إن لم يكن أقواها ، وإن قيامك الآن إلى جوارى يابنى

دليل على ذلك . فليس هناك ما يشغلك وأنت فى مستهل حياتك إلا أن تسأل عن كل شيء وتستطلع كنه كل شيء ، وإن نَهَمَك إلى المعرفة ليَتغلب على كل ميل أو رغبة أخرى . فنى قدرتنا أن نصرف الطفل دائمًا عن البكاء أو الإحساس بالألم ، بل وعن الطعام والشراب لفترة معينة ، بمجرد أن نلوح أمامه بجسم غريب يلفت نظره فيتطلع إلى اكتناه أمره والوقوف على سره وما أكثر ما يحطم الدمى التى تقدم له ، وكذلك يفعل أخوك ، ويفعل كل طفل ، وما ذلك إلا لغريزة حب الاستطلاع الكامنة فى كل نفس . وليس هناك ما هو أحب إلى نفسك ، وأنت الطفل الذى لم تبلغ ثلاث سنوات بعد من أن تجلس إلى جوارى ، أو إلى جوار أمك ، تحدق فى كتاب ذى صور سائلاً عن كل ما تقع عليه عيناك من أشكال ومناظر ، فلا تفتأ تصيح «ما هذا ؟ ما هذا ؟» فلا نكاد نجيبك على سؤالك فى بعض الأحيان حتى تقذفنا بسؤال آخر ، طالما أحرجنى وأربكنى ، إلى أن تعلمت كيف أرد بصورة تضع حدا لتساؤلك : وليس هذا السؤال المحرج سوى «لماذا» أو حسب تعبيرك «ليه .. ليه» فأنت أيها الطفل تريد أن تعرف حقيقة كل شيء والعلة فى كل شيء ، وليس العلم سوى هذين السؤالين والجواب عليهما ما هذا ولماذا ، ولم يزد الأنبياء والرسل والفلاسفة والعلماء والمفكرون عن الإفصاح عن بعض هذه الماهيات ، والكشف عن بعض هذه العلل ، ولكن ما عرفناه كما قلت لك لا يكاد يذكر بالقياس إلى ما لم نعرف ، ولذلك فستظل الإنسانية تسأل دائمًا أبدًا منذ ولادة الفرد طفلاً إلى أن يصبح كهلاً فشيخًا ، ومذ أن يبدأ الجيل حتى ينتهى . ما هذا ؟ ولماذا !

فلا عجب إذا كان حب العلم والاشتغال بطلب العلم ، هو أغلى وأعز ما يحرص عليه الإنسان الحر الكريم لتحقيق إنسانيته وحريته وكمال ذاته ، وما اتقدت هذه الجذوة فى قلب إنسان إلا وسما وارتقى وسعد ، واندفع نحو الخلود . وما انطفأت هذه الجذوة فى قلب إنسان إلا وانكفأ على وجهه أعمى ، ولو كان بصيرًا ، وارتد أبكم أصم ولو كان ناطقًا سميعًا ، ثم هوى من عرش الإنسانية إلى حضيض الحيوانية ، بل كان أقل مقامًا من الحيوان .فالحيوان لم يتعد طوره ولم يخالف غريزته ، ومضى لما رسم له وفطر عليه . أما الإنسان الجاهل الذى انطفأت من روحه محبة المعرفة وجمد عن طلب العلم ، فقد أفسد غريزته التى هى قوام إنسانيته ، وعطل عقله الذى هو آية كرامته .

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون» .

فما أنكد هذا المخلوق الذى يعيش فى الغفلة ويعتز بها ، ويحرص على التمسك بها وعدم التحرر من ربقتها ، فما أحقه أن يكون مطية لغيره من العاملين ، وأن يكون بعض ما يسخرونه من الحيوانات والدواب ، بل ما أجدره بالفناء والهلاك بعد أن تهاون فى رسالته ، وجهل مهمته وهى العلم بما لا تعلم بقية الكائنات ، ومواصلة طلب العلم من المهد إلى اللحد .

الجهـل مصـدر العبـودية

ما من شر يعانيه الإنسان فى الحياة ، إلا وهو الأثر المباشر للجهل والغفلة ، وما من نقص يشعر به الإنسان فى كل ما يحيط به أو يتصل بحياته وكيانه المادى والمعنوى ، إلا وهو النتيجة الحتمية لما هو فيه من جهل وغفلة . فالعبودية ، وهى فقدان المرء لحريته ، وخضوعه لسلطان غيره وإرادته ، لا يمكن أن يقع الإنسان فيها ويرضى بها إلا من جراء جهله ، فالمتعلم لا يمكن أن يكون عبدًا أبدًا ، فردًا كان أو جماعة ، مهما غلب على أمره - ووقع أسير القوة الغاشمة ، فإن علمه لا يلبث أن يحطم أغلاله ، ويفك أساره ويرده سيدًا حرًّا مختارًا ، عالى المقام والدرجات ، والتاريخ أصدق شاهد على ذلك ، فقد وقعت أحيانًا شعوب على جانب من العلم والحضارة تحت سلطان شعوب أقل منها علمًا وعرفانًا ، فلم تلبث الأولى أن تحررت من سلطانها بل غزتها وأخضعتها لسلطانها العلمى والعقلى .

وإنما يستعبد الفرد ، وتستعبد الجماعة وترسف طويلاً فى أغلال العبودية ، لأن جهلها وغفلتها يجعلانها تستمرئ ، هذه العبودية بل تفرضها على نفسها فرضًا وتبحث عن أغلالها لتطوق بها جيدها . ذلك أن الجاهل يشعر من نفسه بأنه لا يستطيع أن يسير فى الحياة بغير راع يحميه ، وقائد يمسك بعنانه ، فهو إما عبد إنسان آخر ، كاهن أو ساحر أو قائد أو ملك ، أو عبد لقط أو تمساح أو ثعبان أو عجل أو قطعة من الحجر ، أو عبد لضلالاته وأوهامه وما يصوره له جهله وغفلته ، هو عبد فى منامه ويقظته ، فى سكونه وحركته ، لأنه جاهل . وهذا ما جعل أفرادًا قلائل فى عصرنا الحديث من أبناء الأمم الأوروبية المستنيرة يسترقون ملايين من البشر ، بل مئات الملايين ، ويتخذون منها أدوات مسخرة لتحقيق شتى أغراضهم فى الحياة من جاه وسلطان ومال واقتدار ، كما هو حال الأغلبية العظمى من شعوب أفريقيا وآسيا ، الذين لم يحكمهم الأوروبى بعلمه الفائق الذى مكنه من ابتداع أسلحة وأنظمة وصناعات لا قبل لهم بالوقوف أمامها فضلاً عن منافستها والتغلب عليها ، بقدر ما يحكمهم بجهلهم وغفلتهم وعمايتهم التى جعلتهم مستعدين للعبودية ، ولخدمة المستعمرين راضين فرحين . وحسبك أن تعلم أن فى الهند أقوامًا يقولون

إن دينهم يقضي عليهم باعتبار سبعين مليونًا من مواطنيهم[1] ، أو يزيدون ، أنجاسًا منبوذين مطرودين من حظيرة البشرية ، ولا يصلون إلى مرتبة الحيوانية التى يقدس هؤلاء الهنود بعض أنواعها . وليس العجيب أن يوجد من يقول بهذا الرأى ، فقد فطر الإنسان على الرغبة فى سيادة الآخرين والاستعلاء عليهم ، وإنما العجب أن تؤمن جمهرة من هذه الملايين من المنبوذين بهذا الوضع وترضاه ، ولا ترى فيه حرجًا على كرامتها وبشريتها ، ولا مأثمًا . وهى لو كانت تشعر بشيء من الحرج أو الغضب لهذه المهانة لالتمست لنفسها دينًا غير هذا الدين ، الذى يذلها ويشقيها ، ولوجدت فى الإسلام ، الذين يدين به ثمانون مليونًا من بنى جلدتها ، ما تعتز به وتؤكد به كرامتها . فإن لم يعجبها الإسلام فثمة أديان أخرى كلها تحررها من هذه اللعنة والوصمة ، فإن أبوا إلا التمسك بدينهم وعقيدتهم ففى أرض غير الأرض سيجدون من لا يأبى على نفسه مجالستهم ، والتحدث معهم ، ومؤاكلتهم ولكنهم يرتعون فى غابة الجهل ويرضون بما هم فيه من عار ودنس ، فكيف يعجب إنسان لتسلط الإنجليز على هذه القارة الضخمة التى توشك أن تنافس أوروبا وتفوقها حجمًا وسكانًا ، وأن يتم هذا التسلط ببضعة عشر ألفًا من الرجال البيض . وتجرى القرون تلو القرون ، والهنود يكدون ويكدحون ، ليزيدوا فى مجد بريطانيا وثروتها وسلطانها ، وليمكنوا لها أبدًا فى توثيق أغلالهم . ولا أمل للهند ، بل لا أمل لأى شعب يرتع فى عماية الجهل وضلال الأوهام ، فى أن يكون حرًّا سيد نفسه ، وسيبقى الجهال والغافلون عبيدًا أرقاء ما بقيت الأرض أرضًا والسماء سماء - بهذا قضت مشيئة الله وسنته فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وكما جاز للإنسان أن يتسلط على بقية الكائنات والحيوانات بعلمه ، فمن حقه أن يتسلط بهذا العلم نفسه على هذه الطوائف الإنسانية التى رضيت لنفسها الجهل والعماية ، فعدت من الأنعام بل أضل سبيلاً .

الجهل مصدر الخوف

والخوف لون من العبودية ، ولكنه أوسع نطاقًا ، وهو ذلك الشر الذى ينغص على الإنسان طمأنينته وهناءه ، ويعكر عليه صفو حياته ، ويجعل منها فى بعض الأحيان جحيمًا من الفزع والآلام والغصص والاضطراب .. هذا الخوف هو ثمرة أخرى من ثمار الجهل ، وهو يتناسب معه تناسبًا طرديا ، فكلما زاد جهل الإنسان كلما زادت درجة خوفه

(١) أطلقوا على هذه الطائفة تسمية «المنبوذين» - وكان «غاندى» يبذل الجهود الجبارة لمحو هذه الفكرة التى لاقت من الاستعمار تشجيعا .. تطبيقا لسياسة «فرق .. تسد» .

وفزعه . وكلما قل جهله وزاد نصيبه من العلم كلما قل خوفه وزاد اطمئنانه . فالإنسان لا يخاف إلا ما جهل ، فإذا علم ما كان يجهل زال عنه الخوف فورا . فنحن نأنس من أنفسنا خوفًا وخشية عند ما نشرع فى ارتياد مكان لم نطرقه من قبل ، ولا يزال بالنسبة لنا مجهولاً ، وعلى العكس من ذلك نُقدِم فى اطمئنان عميق على ارتياد هذه الطرقات المعلومة لنا من قبل والتى ارتدناها أو ارتادها غيرنا من قبل . ونحن فى بيوتنا آمنون مطمئنون ، نغشى كل جزء منها فى احشاء الليل البهيم ، غير مستعينين بنور أو دليل ، فإذا كنا فى أمكنة غريبة عنا شعرنا بشىء من الوحشة فى الظلام ، واقتصدنا فى حركاتنا وأصواتنا وحريتنا . والظلام بصفة عامة يقلل من طمأنينة الإنسان ، ويجعله أكثر استعدادًا وتهيؤًا للهواجس والقلق ، على عكس النور الذى يملأ الإنسان ثقة واطمئنانًا للحياة ، وما النور إلا العلم ، لأنه يمكن أبصارنا من أن ترى وتميز .

وعندى أن ما يفزع الناس من الموت ليس سوى الجهل بما وراءه ولذلك فإن هؤلاء الذين استيقنوا بما وراء الموت قد أقبلوا عليه فرحين مستبشرين . فالجهل هو علة الخوف دائمًا أبدًا .

وقديمًا عندما كان الإنسان فى أطواره الأولى غارقًا فى جهالته ، كان الخوف هو العنصر الذى يملأ حياته كلها ، ويلونها ويشكلها ويحركها حيث كان كل شىء يفزعه ويرعبه . فزئير الأسود وعواء الذئاب وحفيف الأشجار ونقيق الضفادع وخرير الماء ، كلها كانت تملؤه خشية وروعة ، وتجعله لا يتحرك إلا نهارًا ، ولا ينام فى الليل إلا غرارًا ، أخفت الأصوات يوقظه ، وأقل الحركات يرعبه . ولذا فقد أدى به هذا الخوف إلى عبادة كل ما يحيط به والتسليم له بالعبودية والخضوع ، فالحيوانات من عجل وتمساح وذئب وقط وفأر وجعران وخنافس وثعابين ، والطيور من نسر وصقر وحدأة وبومة ووطواط وعصفورة وحمامة ، والكائنات من جبال وأشجار وأنهار وأحجار وأمطار وبحار ، والشمس والقمر والكواكب وبقية النجوم ، والعناصر من رعد وبرق ومطر وزوابع وأعاصير وصواعق وبراكين ، كل هذه كانت محل تقديس الإنسان وعبوديته ، نتيجة لخوفه منها ورجائه اتقاء شرها . فكم قرب إليها القرابين لاستجلاب رضاها ، وكم ضحى بأفراد من بنى جنسه وفلذات أكباده من الأطفال الأبرياء ، ليرضى الآلهة الغاضبة ، وليروى ظمأها بدم الطفل المنكود .

وناهيك بما كان يعانيه الإنسان من فريق مثله من البشر ادعوا لأنفسهم الملوكية عليه ، أو الكهانة ، أو اشتغلوا بالسحر ، فقد جعلوا من أنفسهم أربابًا ، وألزموه العبودية والطاعة ، فقدمها مرتجفًا ، فزعًا غير معارض أو مناقش لأن الآلهة لا تعارَض

ولا تناقش ، ولا تُسأل عما تفعل وهم يسألون ، والآلهة لا تتقيد بقانون ولا تلتزم قاعدة ولا ترتبط بوعد ، فهى تفعل ما يحلو لها وما يبهج خاطرها . فإذا شاءت أن تحرق مدينة كروما حرقتها ، وإذا شاءت أن ترمى ألوفًا من البشر إلى السباع قذفتها ، وإن شاءت أن تخرب أو تدمر فهذا شأنها وتلك إرادتها . وما أكثر ما كان الناس والشعوب فى فزع من نزوات آلهتهم ، سواء كانت حجرًا أو عجلاً أو ملكًا . ولكن انتشار نور العلم ، رويدًا رويدًا ، جعل الإنسان يدرك بالاختبار والتجربة أنه سيد ما فى هذا الكون من كائنات ، وأن لا سلطان لإنسان على إنسان إلا بما تقضى به القوانين التى يضعها الإنسان بمحض حريته واختياره . وهكذا بدأت ريح الفزع والرعب تخف وتهدأ فى صفوف القوم المتعلمين ، ولكنها لا تزال قوية شديدة كعهد الإنسان الأول بها وسط هؤلاء الجهال الذين هم فى غفلة يعمهون .

والفقـــر . . .

ولا أظنك فى حاجة لأن أطيل عليك فى تبيان أثر الجهل فى إحداث الفقر . فالثروة ليست إلا وليدة الإنتاج والاستثمار ، ولا إنتاج ولا استثمار بغير علم ، وكلما زاد نصيب الفرد أو الجماعة من العلم ومن استغلال حقائق العلم ومدلولاته ومكتشفاته ومخترعاته كلما تضاعف الإنتاج وتكاثر ، فاغتنى الفرد واغتنت الجماعة . وحيث وجد العلم وجدت الثروة ، وحيث انطفأ مصباح العلم عم الفقر وطم ، فعندما كان الشرق موطن العلم كان موطن الثروة أيضًا .فلما أقفر من العلم انتقلت الثروة إلى الغرب الذى أشرق بنور العلم ، وليس ذلك لأن الشرق قد فقد موارده ، أو أن الغرب قد اكتشف لنفسه موارد جديدة لم تكن له من قبل ، فقد بقيت الموارد كما كانت من قبل فى الشرق وفى الغرب وإنما جهل الشرق موارده وينابيع ثروته ومستودع قواه ، وعرف الغرب ذلك كله . لا بالنسبة لما فى أرضه وتربته ، بل لما فى أرض الشرق نفسه ، فأقدم على استخراجها واستغلالها ، فكان فى ذلك سر ثروته . فكم فى باطن التربة الشرقية وعلى سطحها من كنوز وثروات وجواهر ، ولكن ظلام الجهل قد حجبها عن أبصار أبناء الشرق ، فإذا علموا أمرها حال بينهم الجهل وبين طريق استغلالها ، فإذا استغلوها حال الجهل بينهم وبين طريق تصريفها فى الأسواق وبيعها . وهكذا لحق الفقر أبناء الشرق ، أفرادًا وجماعات ، لأن فلاحيهم أصبحوا جهالاً بالنسبة لفلاحى الغرب ولأن صناعهم أصبحوا جهالاً بالنسبة لصناع الغرب ، ولأن تجارهم أصبحوا لا يعلمون ما يعلمه تجار الغرب «ولا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» .

وما أكثر ما يصادف الإنسان فى بلادنا والبلاد المجاورة أطفالاً يشع الذكاء من

عيونهم ، وتتوقد أذهانهم حدة ونبوغًا ، ولكن هذه الشعلة تنطفئ رويدًا رويدًا كلما كبر هؤلاء الأطفال ، ولم يكن نصيبهم من الحياة سوى الفقر . ذلك أنهم فى أحضان الجهل يترعرعون ، فلا تجد أرواحهم غذاءها من العلم ، ولا تتسلح ملكاتهم بسلاح العلم ، فذوت مواهبهم ولما تتفتح وتزهر ، وخسروا أنفسهم وخسرتهم الإنسانية . وكم من المئات والألوف فى الشرق ملقون كما تلقى الجواهر فى الوحل فلا يأبه بها إنسان ، بينما لو وجدت من يلتقطها وينظفها ويصقلها لرفعت إلى أسمى العروش والتيجان ، وليس سوى العلم صاقلاً ومنظفًا وهاديًا ومرشدًا ومخرجًا من الظلمات إلى النور ، ومن الفقر والفاقة إلى الثروة والكفاية .

والمــــرض

وهل ينشأ المرض ، أعدى أعداء الإنسان ، وينبوع آلامه إلا من الجهل ، بمختلف درجاته . فالجهل بما يضر الإنسان من الأطعمة والأشربة والملابس والأمكنة ، هو أساس كل مرض ، ولو عرف الإنسان الطعام الصالح ، والشراب الصالح ، والمكان الصالح ، والعمل الصالح لانقطع أهم سبب للمرض . ولو علم الإنسان كل صنوف الأوبئة وكيفية اتقائها لقضى نهائيا على المرض ، فما من داء إلا وله دواء وإذا كانت بعض هذه الأدوية لا تزال مجهولة ، لأن سر بعض الأمراض لا يزال مجهولاً ، فإن الزمن والبحث والدرس والاختيار والتجربة حقيق فى نهاية الأمر أن يوقفنا على السبب فى أى مرض من الأمراض وماهيته ، ومتى عرفت الماهية والعلة عرف على الفور العلاج والدواء .

وسيظل الجهل دائمًا أبدًا أكبر حليف للمرض ، فحيث ساد الجهل وفاض فالمرض يتفشى على الأثر ، وحيث انجابت غياهب الجهل وانتشر نور العلم خفت ريح المرض ، واجتث من أساسه ، وليس أدل على ذلك من هذا الفارق الضخم فى الصحة العامة وانتشار الأمراض فى بلدين كانجلترا وأمريكا وبلدين كالهند والصين ، بل فى بلد مثل مصر ، وإن كانت قد قطعت شوطًا فى سبيل العلم ، فلا يزال السواد الأعظم منها يرتع فى ظلام الجهل . ففى مصر يبلغ عدد المرضى بعيونهم نسبة مخيفة من السكان تنتهى بعدد عظيم منهم إلى العمى ، حتى لقد بلغ عدد العميان فى مصر فى آخر إحصاء نيفًا ومائة ألف فقدوا نور البصر وليس وراء البصر نعمة من النعم ، مع أن انجلترا والولايات المتحدة وألمانيا قد لا يوجد فيها مجتمعة مثل هذا العدد الضخم من العميان نتيجة للمرض .

أما مرضى الأمراض المتوطنة من انكلستوما وبلهارسيا فقد يصلون إلى ٧٥ فى المائة من

مجموع عدد السكان ، وهو أخطر ما يفتك بأجساد الشعب ويسرع بهم إلى العطب والبوار . ويهيء لهم السبيل لانتشار بقية الأمراض ، فأصبح الذين يموتون فى مصر ضعف أمثالهم فى إنجلترا[1] ففى مصر يموت ٢٥ نسمة فى كل ألف سنويا أما فى إنجلترا فلا يزيد عدد من يموتون سنويا على ١١،٧ من كل ألف . ويعظم الفارق ويتضخم فى صفوف الأطفال لجهل الأمهات والآباء ، فإذا كانت انجلترا يموت فيها سبعة وخمسون طفلاً فى كل ألف ، فإن مصر يموت فيها ١٦١ فى الألف ، وهى نسبة فاحشة لا توجد فى أى بلد متمدين فى العالم . وإذا كان هذا هو حال مصر ، فناهيك ببقية بلاد الشرق حيث لم تحقق عشر معشار ما حققته مصر من أخذ بأسباب العلم .

لو أن الناس فى مصر وفى غيرها من بلاد الشرق ، علموا شيئًا من قواعد الصحة . من نظافة وطهارة ونظام ووقاية ، لتحسنت الصحة العامة تحسنًا هائلاً ، ولقل عدد الموتى من الأطفال ، ولقويت الأجسام وازدهرت الأرواح . ولو تعلم الناس فى مصر وفى بلاد الشرق ، وتذوقوا لذة العلم ، لأدركوا على الفور أن كل وباء يمكن أن يتقى ، وأن كل مرض يعالج فى أدواره الأولى ، يخفف على الإنسان آلامًا كثيرة ، ويحول دون تمكن الداء واستفحاله ، ويزيد من فرصة شفائه .

وهكذا يطارد العلم المرض . وكما أن أشعة الشمس إذا أشرقت على مكان طهرته . وفتكت بما فيه من جراثيم وأوبئة ، وجعلته صالحًا للحياة والنمو ، فكذلك العلم إذا أشرق فى مكان طهره وهزم ما فيه من جيوش المرض والفقر والخوف والعبودية والشرور والنقائص والجرائم ، وأنبت بدلاً منها الصحة والرفاهية والأمن والحرية والثروة والارتقاء .

(١) راجع كتاب على هامش السياسة للدكتور حافظ عفيفى باشا

الفصل الثانى

القـــرآن والعـــلم

وإذ كان للعلم كل هذا الخطر فى حياة البشر ، وكان هو منتهى آمالهم وواسطة حياتهم ، فقد رفعه القرآن مكانا عليًا ، ودل على أهميته وخطورته ، وأبرز من شأنه كل ما صغر وكبر ، وعرف بوسائله وطرائقه وشرائطه وعناصره ، وشاد بالعلماء والمتعلمين ، وذم الجهل والجاهلين ، ونعتهم بأشنع النعوت وأحقرها ، فجعلهم أشر من الدواب وأحط منها وأضل . وكان أول ما استفتح به القرآن إظهار شرف العلم ومكانته ، وأنه كبرى النعم التى أنعمها الله على الإنسان فاستحق من أجلها أن يعبد ويشكر ، فقال وقوله الحق «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» . وهكذا ، منَّ الله على الإنسان أن هداه للعلم ووفقه إليه ، وعلَّمه من أسرار الكون والحياة ما لم يكن يعلم ، وما لا تعلم سائر الكائنات ، كما دلت على ذلك آيات خلق الإنسان «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» . فالله قد اختص الإنسان بالمعرفة كما اختصه بالحرية ، وجعل العلم والمعرفة منتهى سعيه وكدحه ، ذلك ما تنطق به هذه الآيات البينات . وقد كان أول ما تلقاه الرسول من الوحى أمرًا بالقراءة ، وحديثًا عن القلم والعلم ، وإشادة بنور العلم «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» وإذا كان بدء الشىء هو أصله ومنبته ، وهو جوهره الذى تقوم عليه بقيته ، فمن هذه البذرة انبثق القرآن بأكمله فكان العلم سداه ولحمته ، فهو كتاب علم ومعرفة ، وهو معجزة العقل آلة العلم ومستودعه ، وليس معنى ذلك أن القرآن قد حوى تفاصيل العلوم المختلفة ومباحثها ، ولكنه كتاب هداية وإرشاد لإصلاح حال البشر ، فاحتوى فيما احتوى القواعد الكلية ، والعناصر الأساسية ، التى تنبثق منها العلوم وتزدهر .

انظر واسمع وتأمل

العلم هو ثمرة استخدام الحواس من نظر وسمع ولمس ، والتأمل بواسطة العقل فيما تحمله من صور وموضوعات . ثم إصدار الحكم على هذه الأشياء من حيث ما هياتها ومدلولاتها وأسبابها وعلاقاتها بغيرها ، ومدى ما يفيده الإنسان منها . وهذا هو ما دعا إليه القرآن ، وألح فى الدعوة إليه . فطالب الإنسان فى أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض ، فى كل ما يحيط به ويتصل به ، وأن يفكر فى ذلك كله ، وينفذ إلى حقائق الأشياء ويربط بعضها ببعض ، وأن ينتقل من المحسوس إلى المفهوم . ومن المنظور إلى غير المنظور ، وأن يستند فى ذلك كله إلى بديهيات العقل التى ألهمها إلهامًا ، وخلقت وإياه ، من أن لكل شىء سببًا ، وعلة لا يكون إلا بها ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن الشىء لا يمكن أن يكون موجودًا وغير موجود فى آن واحد ، وغير ذلك من البديهيات التى هى أول صفات العقل وعلى هذا الأساس دعا القرآن الإنسان للنظر فى كل شىء ، والتأمل فى كل شىء ، ابتداء من السماء ذات البروج ، والرعد والبرق . حتى الدويبة والحشرة والجرثومة والبذرة . ليعمل على اكتشافه واكتناه أمره «وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون» .

«أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت» «فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب» «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى . وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزَّلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد ، والنخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد» «والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها» وعلى هذا النحو من الحث على النظر فى الكائنات والمخلوقات ، تتوالى آيات القرآن آخذة بعضها برقاب بعض . على أن القرآن لا يقف عند مجرد هذه الإشارات العامة ، فقد لا تؤدى بنفسها لأكثر من لفت النظر . ولذلك فهو ينتقل بالإنسان خطوة أخرى ليحمله على التفكير للكشف عن الأسرار والأسباب ، فيقول «وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» فالقرآن يدعو عقل الإنسان إلى حل هذا اللغز الذى يراه فى كل يوم فهذه قطعة أرض واحدة ينمو فيها النخيل على شاكلة واحدة ،

وتسقى بماء واحد ، ومع ذلك فطعم ثمرة نخلة من النخلات يختلف كل الاختلاف عن طعم ثمرة أخرى فما هو تعليل ذلك وما هو سره . وهكذا يندفع الإنسان فى بحث المزروعات وعلم النبات وكل ما يتصل به بحثا خلف هذه الأسرار والعلل .

« والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » .

فالحياة قد نبعت كلها من الماء (وجعلنا من الماء كل شىء حى) . ومع ذلك ما أعظم هذا التنوع الذى تفترق إليه الكائنات الحية . فهذه حيوانات تدب على ساقين ، وأخرى على أربع ، وزواحف ليس لها أقدام ، فتزحف على بطنها ، وطيور تطير بجناحيها ، وإنسان يسير قائمًا ، فما علة هذا الاختلاف ؟ وما هو منشؤه ؟ وما هى الصلة التى تربط الأحياء ببعضها ؟ وفى أى الأقسام تتفق وفى أيها تختلف ؟ وهكذا نرى أنفسنا فى صميم علم الحياة والحيوان ، والنشوء والارتقاء ، بحثًا خلف هذه العلاقات والتطورات والأسباب . ويسأل القرآن الإنسان :

« ألم تر أن الله يزجى سحابًا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامًا فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

فالسحب وتحركاتها ، والأمطار وعلتها . والبرق ومنشؤه والبرد ومبعثه ، والليل والنهار وتعاقبهما ، كل ذلك يجب أن يكون محل تأمل وتدبر وتتبع وتقص ، للاعتبار والتعليم . وهذا يجعلنا فى صميم الجغرافيا الطبيعية والفلكية « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » واستقصاء تحركات الشمس والأرض والقمر ومنازل كل منها ، وميعاد ذلك ، واحتفاظها بما بينها من الأبعاد مع ارتباطها معًا فى حركات مشتركة . كل هذا يجعلنا فى صميم الفلك وعلومه وتفريعاته ومباحثه وما تؤدى إليه من رياضة وحساب وقياس وهندسة . بل إن القرآن ليشير إلى ذلك على سبيل القطع فى قوله « هو الذى جعل لكم الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » . ويقول القرآن الكريم « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ويكرر هذه الدعوة للسياحة والمشاهد والاعتبار ، بحيث يؤدى الانصياع إلى أوامره إلى حذق علوم التاريخ ، والجغرافيا السياسية ، وعلم الآثار والتنقيب والجغرافيا .

وهكذا لم يدع القرآن فنا من فنون العلم إلا ودفع الإنسان دفعًا لتحصيله وحذقه . وما من فرع من فروع المعرفة البشرية إلا وفى القرآن بذرته . فلا عجب أن كان جميع علماء المسلمين يصدرون ما يكتبونه من علوم وفنون بآيات من القرآن هى لب ما يكتبون ومحور ما فيه يبحثون .

القرآن يعلى سلطان العقل وبراهينه

على أن القرآن إذا كان قد حث الإنسان على إرهاف حواسه وتنشيطها ، وتسريح بصره وملكاته ، لتؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، فقد بين القرآن أن هذه الحواس فى نهاية الأمر يجب أن تكون خاضعة لسلطان العقل ، ومنطقه . فالعقل الإنسانى هو أسمى ما فى الإنسان بل أسمى ما فى الوجود من مخلوقات . فهو الحاكم الأخير ، وهو المسيطر . وهو صاحب القول الفصل . وقد شرفه الله وأعلى من قدره فجعله محل الخطاب والتكليف . واستشهد به واحتكم إليه . فما من آية من آيات القرآن عرضت لشأن من شئون الكون وسنة من سنن الخلق لا تبدأ أو تنتهى بالإشارة إلى العقل ومخاطبة ذوى العقول مقدمة البرهان على ما تقرر ، أو البرهان على فساد ما تنفى فدل ذلك على أن لكل قضية برهانًا ودليلاً ، لا يقبلها العقل إلا مشفوعة به . فإذا تجردت من الدليل كان العقل فى حل من القطع بها . وإذا قام الدليل على عكسها أصبح العقل فى حل من إنكارها ، بل تحتم عليه ذلك . فالقرآن يجابه المشركين القائلين بتعدد الآلهة وبتقديس الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، والزاعمين عن الكون وخلقه وتدبيره مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان ، يتحدى هؤلاء جميعًا ويطالبهم بالبرهان على صحة ما يقولون . والأسس العلمية التى تقوم عليها مزاعمهم وأوهامهم وإلا كانوا كاذبين وملفقين وناسبين إلى الله ما هو منه براء ؛ فيقول القرآن الكريم «ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين» «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون» «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» «إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا»

وفى نفس الوقت الذى يتحدى فيه القرآن المشركين بتقديم البرهان الذى يقبله العقل على تعدد الآلهة . فإنه يقدم الدليل على وحدانية الله ، وتنزهه عن الشريك والولد والقرين والمنافس . وذلك بقوله «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فإذا طلب العقل مزيدًا من الشرح فتساءل لماذا يفسدان ؟ أجاب القرآن : «إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يشركون» فلو تعددت الآلهة لاضطرب الكون وهاج وماج . ولتناثرت الكواكب واختلت السموات . إذ يحاول كل إله أن يستقل بما

خلق ، وأن يستعلى على خلق الآخر ، وذلك على عكس ما نراه فى الكون من اتساق واطراد ، وسنن محكمة لم يتطرق إليها الخلل أو الاضطراب منذ كان العقل عقلاً فى هذا الوجود . وهكذا فتح القرآن الباب على مصراعيه للقضايا العقلية . وأن لا حظر على العقل من أن يفكر فيما حوله من مخلوقات الله ويثبت بعقله كما يشعر بوجدانه قيام الخالق ووحدانيته وأزليته ، وتلك هى أم المسائل على الإطلاق وأسماها وجوهرها . ومتى بلغ العقل هذا المدى من التفكير والتنقيب والتحرر والانطلاق ، فلن يكون وراء ذلك موضوع يستعصى على العقل الخوص فيه ، أو يرتفع عن متناول قدرته . وقد كان القرآن وهو يقرر للعقل هذا الحق إنما يحدث فى حياة البشر ثورة وانقلابا ، ويهيىء السبيل إلى ما وصل إليه البشر وما سيصلون إليه من علم وفير غزير . فقبل نزول القرآن كان الكهان والقساوسة وسدنة الأصنام والأوثان يحظرون على البشر تناول هذه الموضوعات العليا بعقولهم . بل كانت دعوتهم أن «أطفىء سراج عقلك واعتقد وأنت أعمى» ومن لم يفعل ذلك فهو ملحد كافر . فكان من جراء ذلك أن تفشى الجهل وعم الظلام . وحلت بالإنسان النوائب والمصائب ، واغتالته الغوائل . ومادت الدنيا تحت أقدامه ، حتى صور لهم الجهل أن الحياة توشك على الزوال . حتى إذا كان القرآن تبدد هذا الوهم ، وزهق هذا الباطل ، وارتفع سلطان العقل . وشرف قدره ، وحرر من عقاله ، وجعل مناط التكليف وآية الإيمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين هو العقل فمن لا عقل له لا دين له» .

محاربة القرآن للجمود والتقليد

وكان طبيعيًّا وقد ارتفع القرآن بسلطان العقل إلى هذه الذروة أن يقضى على كل سلطان غير سلطانه . ليكون فى انفراده توحيد الأساس الذى يقوم عليه الحق والعلم . فحارب القرآن التقليد والجمود على معارف السلف بكل شدة إذا كان فيها ما يخالف العقل والحق والصواب . وندد بالقول القائل بوجوب اتباع الآباء وتقليدهم فى آرائهم ومعتقداتهم ، وكل ما لا يطابق العقل من علومهم ومعارفهم ، وما لا يثبت على النقد والتمحيص . فقال وقوله الحق «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون» وقوله «بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين» وهكذا وضع القرآن هذا الأساس الوطيد والركن الركين لقيام المعارف البشرية ، وهو أن لا ينقل الخلف عن السلف إلا ما طابق العقل وحقق المصلحة ، وجاء بالفائدة ، أما

النقل لمجرد النقل والتقليد ، والزعم بقدسية العادات والتقاليد ، فزعم باطل وهو آية من آيات الجهل والخمول ، وما أصيب مجتمع من المجتمعات بهذا الداء ، داء الجمود إلا وأصابه الفساد والتعفن ، وأشبه الماء الراكد الذى لا يلبث أن يكون مباءة للأقذار والأمراض والحشرات . إنما خلقت الحياة لتتطور وناموس الحياة هو التطور والانتقال من حسن إلى أحسن ، ومن معرفة بسيطة إلى معرفة أرقى وأكمل ، ومن أنظمة ساذجة خشنة إلى أنظمة أحكم وأوفق .

وليس أدل على ذلك من تطور الديانات والكتب السماوية ، فلو لم تكن البشرية فى تطور مستمر لما كان هناك داع لتغيير هذه الكتب السماوية ، وما تتضمنه من أحكام . ولكانت الشريعة اليهودية هى الشريعة الواجبة الاتباع ، وهى حجة اليهود فى تمسكهم بدينهم . ولكن الله الذى خلق الخلق وابتدع سنة الحياة وجعل سنتها التطور والارتقاء . قضى أن لا يصلح كتاب قديم لعصر جديد وحياة جديدة . فكان دين جديد وكتاب جديد وهو المسيحية . حتى إذا دار الزمن دورته ، وأصبح العقل البشرى أكثر كمالاً ورقيًا واستعدادًا لتلقى معجزة العقل الكبرى ، وهى القرآن ، جاء الدين الإسلامى ناسخًا لكل ما سبقه من الأديان . وجاءت أحكامه أكثر انطباقًا على حاجات البشر بعد أن تطورت مداركهم ومعارفهم ، ونضجت عقولهم ، وتطورت معيشتهم . ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يؤكد هذه السنة ، سنة التغير والتبدل المستمر ، تبعًا للتطور نحو الأحسن ، فجعل أحكام القرآن نفسها تتطور وفق الظروف الجديدة . وما حققه المجتمع الإسلامى الناشئ من نضوج واستعداد لتلقى أحكام جديدة وتعديل أحكام قديمة فنزل من الآيات ما ينسخ آيات سابقة ، وجاءت أحكام معدلة لأحكام سالفة . وفى ذلك يقول القرآن «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها»[1] .

ولم يكن عسيرًا على الله أن ينزل أحكامه مرة واحدة . وأن يلزم بها المؤمنين جملة واحدة . ولكن شاء أن يعلمهم التطور والتدرج والترقى فى معارج الكمال .

ولما كان القرآن قد أريد به أن يكون آخر كتاب ينزل للناس . فقد جعله الله مقصورا على القواعد الكلية التى هى بمثابة السنن الكونية ، التى لا يلحقها تغيير ولا تبديل والتى تصلح لكل زمان ومكان مع تعديلات فى التفاصيل والعرض ، دون الأصل والجوهر . وهكذا أفسح القرآن المجال للعقول والأفهام ، ومد لها فى سبيل التطور والتحرر

---

(١) أكثر المفسرين على أن هذه الآية تتعلق بنسخ الشرائع ، أما « الناسخ والمنسوخ » فى القرآن الكريم فهو موضوع بحوث مستفيضة سواء بالنفى أو بالإثبات .

والارتقاء . ولم يضع للعقل قيودًا أو سدودًا أو محظورًا وكذلك الشأن فى سائر مواهب الإنسان . وما أكثر ما تضمنت آيات القرآن ما يشير إلى هذا التطور والارتقاء ، وما يطرأ على علوم البشر ومعارفهم من حين لآخر من انقلابات . كقوله فى إحدى الآيات «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون» فدل بهذه الفقرة الأخيرة على أنه ستكون وسائل جديدة للمواصلات غير الخيل والبغال والحمير ، مما لا يعرفه أهل ذلك الزمان الذين أنزل بلسانهم القرآن . ويقول فى آية أخرى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وتلك آية تتسع لكل ما رأينا ، وما سنرى ، ويراه أحفادنا من بعدنا ، من آيات فى العلم بينات ، تبتدع فى كل يوم معجزة جديدة ، تشهد بما فى الكون من منظم مدبر أحكم أجزاءه ، وأودعها أسراره .

وهكذا غرس القرآن فى نفوس المؤمنين به ، وقارئيه ، فى وعى وإدراك ، مزية التطلع والتشوف لما يجىء به الزمان ، وكرَّههم فى الجمود والركود والتزام القديم فى غير تثبت أو برهان ، والاستمساك بما ظهر على الأيام بطلانه وفساده وعدم صلاحيته . وكثرت أضراره . وكان القرآن بذلك يقرر سنة الحضارة والعمران . ولعمرى ماذا يكون حال البشر لو لم يجهزهم الله بهذه الفطرة ؟ فطرة التطور والبحث خلف المعارف الجديدة واكتشاف المسائل المجهولة ؟ أكان البشر يغادرون سيرتهم الأولى فى الكهوف والأدغال ، ويفارقون معيشة الحيوان . هل كان البشر يتحررون من عبادة القط والثعبان والتمساح ؟!

القرآن يعلى من شأن العلماء

وإذا كان القرآن قد أعلى من شأن العقل وسلطانه ، ودل على المعرفة وطرائقها ، والعلوم وميادينها ، فقد جعل العلماء تبعًا لذلك صفوة خلقه بين عباده ، وخلفاءه على الأرض والحفّاظ على أمانته ، وجعلهم وحدهم الناس ، وبقية الخلق دونهم فى المرتبة والمقام فقال وقوله الحق «وما يعقلها إلا العالمون» «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فاختصهم بالإدراك والمعرفة وخشية الله ، وهى ميزة البشر ومظهر كمالهم . وقال فى آيات أخرى «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» وارتقى بهم إلى الذروة التى لا زيادة بعدها فى قوله «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط» فبدأ الله بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وختم بالعلماء ، وأنهم دون سائر البشر من يشهدون لله بالقيام والوحدانية والخلق والاقتدار . وما ذلك إلا لأنهم يطالعون قدرة الخالق فى بديع مخلوقاته ، ويشهدون فى كل يوم محكم آياته ، ويكشفون عما فى هذا الكون من سنن وقوانين وأنظمة باهرة ، تحمل الإنسان العاقل على الخشوع والتسبيح بعظمة الله .

وتاريخ العلم والعلماء أصدق شاهد على ذلك . فما من أمة ارتقى فيها العقل البشرى ونبغ بعض أفرادها وانفردوا بالعلم والمعرفة ، إلا وانكشفت حقائق الكون أمام بصائرهم ، فأشرفوا فى ذلك على الكمال وأوفوا على الغاية . فهذا سقراط وأرسطو وأفلاطون قد عرفوا عن الحق ما سبقوا فيه البشر قرونًا من الزمان ، وذلك لكمالهم العلمى ونضوجهم العقلى ، حتى أطلق المسلمون على أرسطو بعد بضعة وعشرين قرنًا من وفاته لقب المعلم الأول ، ووجدوا فى تعليمه وقواعده ما يعزز ما غرسه القرآن فى نفوسهم من عقيدة وإيمان بالله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .فقد أثبت ذلك نفر من العلماء الأعلام فى عصر كان يفيض بالوثنية والخرافات والأوهام . ولست أجد ما أسوقه لك فى هذا الموضوع أنطق ولا أبدع من هذه الكلمات التى فاء بها نيوتن ، أحد العلماء العظماء ، يمجد بها الله ويشهد بقدرته ويسبح بحمده وآلائه :

«لا تَشُكُّوا فى الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود . لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وفى كل زمان لا يتصور أن يصدر عنها هذا التنوع فى الكائنات ، ولا هذا الوجود بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة . بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلى له حكمة وإرادة .

«من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ عن مجرد فعل الجاذبية العامة . لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها . ومن الجلى الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعى استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وعلى مستوى واحد ، بدون حدوث أى تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبًا دقيقًا مع مسافاتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعًا .فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة ، وأدرك ما يجب أن يصدر فيها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها مثل ساتيرن Saturn وجوبيتر Jopiter والأرض ، وقرر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها

حول أجسام تصح أن تكون مراكزها . إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظامًا يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجود (سبب) ، ليس أعمى ولا حادث بالاتفاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة .

«وليس هذا كل ما فى المسألة . فإن الله ضرورى أيضًا ، سواء لإدارة هذه الأجرام على بعضها ، وهو الأمر الذى لا يمكن أن ينتج من مجرد قوة الجاذبية ، أو لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق مع دورات الكواكب ، كما يرى ذلك فى الشمس والكواكب وتوابعها ، بينما ذوات الأذناب يدور فى كل وجهة على السواء .

«وغير هذا . فى تكوين الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين : القسم المضىء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها ، كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم اجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها . كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له .

«وكيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواحيه ؟والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ من أين جاء هذا الإلهام الفطرى فى نفوس الحيوانات وهذه الكائنات كلها فى قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ؟ ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية ، حى حكيم ، موجود فى كل مكان ، يرى حقيقة كل شىء فى ذاته ويدركه أكمل إدراك[1] » .

ذلك هو صوت العلم فى كل زمان ومكان ، وتلك هى شهادة العلماء ، أما الجهلة فما يعلمون عن الكون إلا أن الأرض محمولة على قرن ثور ، وعندما ينقلها من أحد قرنيه إلى القرن الثانى اهتزت الأرض وارتجت وزمجرت فكان الزلزال . أشهد أن القرآن حق وأنه «ما يعقلها إلا العالمون»

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين للعلامة فريد وجدى ص ٤٩٧ المجلد الأول .

الفصل الثالث

المسلمون والعلم

المسلمون الأوائل

لا أظنك تعجب الآن وقد بسطت لك من توجيهات القرآن ما بسطت ، وقد رفع من شأن العلم والعلماء ما رفع . لا أظنك تعجب بعد ذلك مما تطالعه فى تاريخ العرب من هذه الطفرة العجيبة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ . فهى طفرة فذة فى حياة البشرية ، انتقل فيها أقوام من حضيض الجهل والخمول والغفلة والقسوة والوحشية إلى سماء العلم والمعرفة ، وما يستتبع ذلك من حضارة ورقى وعز وسلطان .

لم يكن العرب إلا هذا النفر القاطنين فى شبه جزيرة العرب القاحلة الجرداء المقفرة ، التى لا تزال حتى الآن مجهولة فى بعض أجزائها فى عصر النور والعرفان ، حيث لم يدع الإنسان شبرًا من الأرض إلا ذرعه .[1] هذه الجزيرة التى عاشت على هامش الحياة القديمة . لا يحفل من فيها بما يجرى فى بقية العالم . إلا بقدر ما يتذوقون بعض الأغذية والملابس الضرورية لحياتهم . وليس يحفل بهم إنسان لضآلة شأنهم وفقر بلادهم ، فما هى إلا جرداء بلقع . لا تسمن ولا تغنى من جوع ولا تروى غير هذا النفر القليل الذين يعيشون متنقلين فى أرجائها فى مشقة وعسر .

ولم يكن لهؤلاء القوم مدرسة ، فضلاً عن معهد للعلوم الراقية . ولم يكن لهم قانون ولا رابط يربطهم ، يعبدون الأوثان التى لا جمال فيها ، ولا فن ، ولا تحمل أى معنى ، وإنما هو الجهل كأشد ما يكون الجهل . يقتلون بناتهم ويشتركون فى نسائهم . ولا يرفعون السيف ولا يخمدون نار الحرب فيما بينهم . ذلكم هم العرب الذين لم يكد القرآن يشرق فى سمائهم . وتستضىء نفوسهم وأرواحهم بأنواره ونفحاته . حتى طبقوا الخافقين بإيمانهم ومعرفتهم ، فحملوا مشعل الحق والحقيقة المجردة من كل وهم وزيف وخرافات وأباطيل ، فدان لهم الشرق والغرب ، وأسلما لهم القيادة والزمام . على أن القرآن لم يدل العرب إلا على كليات العلوم والمعارف وحثهم على الاستزادة من التفاصيل والجزئيات . فما

---

(١) أعنى بذلك الربع الخالى .

كاد المقام يستقر بالعرب ، وتهدأ موجة الفتح الأولى حتى أقبلوا على ما وجدوه بين ظهرانى الأمم المفتوحة من علوم ومعارف ، فأطفأوا بها ظمأهم إلى المعرفة وشفوا غليلهم ، وعبوها عبًّا وهضموها هضمًا . واختاروا منها الطيب والصالح ، ونفثوا الخبيث والطالح ، ولم يقعدهم عن طلب العلم غرور الفاتحين أو كبرياؤهم ولا حال بينهم وبين بغيتهم وجود العلم بين يدى النصارى واليهود والمجوس والصابئين من رعاياهم ذلك أن العلم لا يعرف دينًا ولا وطنًا ولا جنسًا : العلم هو العلم ، غاية البشر وطلبتهم ، ووسيلتهم وعدتهم . وواجب الإنسان الأول الاغتراف منه قدر استطاعته . بغير نظر إلى منشئه . وفى ذلك يقول معلمنا الصادق الأمين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه : «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت» . ومن الأقوال المأثورة : اطلبوا العلم ، ولو فى الصين . وقد صدع المسلمون بالأمر فتنافسوا فى طلب العلم ملوكًا وأمراء ، كبارًا وصغارًا ، حتى أصبح فى كل مسجد مدرسة ، وفى كل مدينة مكتبة بل عدة مكتبات . فيها من كنوز العلم وكتبه ما يعد بمئات الألوف . ولم يدخر الخلفاء والأمراء وسعًا فى تجهيز هذه المكتبات بكل نفيس من الكتب ، من مختلف العلوم . وغالى بعضهم حتى أن المأمون اشترط فى إحدى معاهداته مع امبراطور الروم أن يبعث له بنسخة من كل ما فى مكتبة بيزنطة . فبلغ مقدار ما حمل من الكتب تنفيذًا لهذا الشرط حمل أربعمائة بعير مثقلة . وتألفت اللجان والمجامع لنقل علوم الإغريق وفلسفتهم إلى اللغة العربية . فترجمت كتب أرسطو وأفلاطون وأرشميدس وفيثاغورس وأقليدس وبطليموس وجالينوس وبقراط ، فى الوقت الذى كانت تترجم فيه الكتب من الفارسية والعبرية والسريانية وسائر اللغات القديمة التى رأى العرب فائدة فى النقل عنها .ورغَّب المسلمون فيما اجتمع لديهم من معلومات ومعارف ما غرسه فيهم القرآن من رغبة فى تحرى الحقيقة والتماس البراهين على مختلف القضايا ، وإخضاعها للامتحان والنقد .فصححت لديهم كثير من حقائق العلوم التى نقلوها إلى لغتهم فاطمأنوا إليها واتخذوها أساسًا لمباحثهم وكفاحهم العلمى ، وأبطلوا عدة نظريات أخرى ثبت لديهم بطلانها ، وصححوا وعدلوا وأكملوا . فلم يكد القرن الثالث الهجرى يشرف على نهايته حتى كان العرب قد أصبحوا أئمة العلم بغير منازع . واتجه البشر صوبهم ملتمسًا النور والحكمة على أيديهم . وكلما كرت الأعوام كلما ازداد قدم المسلمين فى العلوم رسوخًا ، فوسعوا مناهجها ، وأغنوا مباحثها وانتفعوا بتطبيقها . فأصبح سلطانهم العلمى وحضارتهم العقلية تفوق بمراحل سلطانهم الزمنى ، على الرغم من عظم شأن هذا الأخير وبلوغه ما لم تبلغه أمة فى القديم أو الحديث . فإذا كانت طلائع الجيوش الإسلامية قد وقفت عند مدينة تور فى فرنسا لم

تتعداها شرقًا ، وظلت أوروبا المسيحية بذلك خارج سلطانها السياسى فإن سلطان المسلمين العلمى قد اقتحم أوروبا اقتحامًا . فقد كانت ترى المسلمين أعظم تحضرًا منها وعلمًا وعرفانًا ، فاضطرت للأخذ عنهم والاستضاءة بنورهم . فى هذه الأيام الخوالى لم تكن باريس ولندن وبرلين وروما وفيينا ونيويورك قد شقت طريقها للحياة بعد ، وإنما كانت مراكز العلم ومشاعله هى بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة ، حيث كانت المدارس والجامعات والمكتبات والمراصد والمجامع العلمية . ولم تكن النجوم اللامعة فى سماء المعارف البشرية هى أديسون وماركونى وكورى وباستور ونيوتن وشكسبير وهوجو وروسو وفولتير وديكارت وجليليو وماجلان وخريستوف كولمب ونيتشه وانشتين ... إلى آخر هذه الأسماء المدوية فى مختلف العلوم والفنون ، وإنما كانت دعائم المعرفة والحضارة البشرية تتمثل فى أسماء الطبرى والكندى والبخارى وأبو حنيفة وابن سينا وابن رشد والغزالى والفارابى والرازى والجاحظ والمعرى والمتنبى وابن حزم وابن بطوطة وأبى الفدا وأبى القاسم وجابر ابن حيان والمسعودى والأدريسى وابن الهيثم وغيرهم مئات وألوفًا فى كل فرع من فروع المعرفة البشرية والعلوم والفنون ، من جغرافيا إلى تاريخ وأدب وطب وشعر وهندسة وفلك وحيوان ونبات وفلسفة وعلم نفس وميكانيكا وكيمياء وجيولوجيا وسياحة وزراعة وتجارة وصناعة . وإذا كان التاريخ قد حفظ بعض أسماء فقد عفت الأيام على أضعاف ما حفظ ... كانوا هم ضياء العالم ومظهر تقدمه وعرفانه . وقد كانت آية تفوق العرب العلمى فى هذه العصور هو اختراعهم علومًا جديدة كالجبر والكيميا التى لا تزال حتى الآن تحمل فى اللغات الأوروبية أسماءها العربية ، كدليل على نشأتها الأولى . كما أن كثيرًا من الاختراعات التى أحدثت انقلابات فى حياة البشر كانت من ابتكارهم . فالساعة والبوصلة البحرية التى بدأت عهدًا جديدًا فى الملاحة البحرية ، ومكنت الأوروبيين فيما بعد من اكتشاف أمريكا والطواف حول العالم ، والتى تمخر بهديها اليوم البواخر فى البحار ، والطائرات فى السماء ، كما لو كانت تسير فى طرق مرسومة ، والبارود هذه المادة التى ختمت عهدًا من عهود البشر وبدأت عهدًا جديدًا ، وما من حقائق علمية وكشوف فنية واختراعات آلية تبهرنا فى العصر الحديث ، إلا وكان علماء العرب هم واضعو أساسها وغارسو بذرتها . ولأدع الحديث فى هذا الموطن لبعض علماء الغرب وكتابه يقولون فى شرح هذه النهضة وآثارها ومدى تأثيرها على حضارتنا الحديثة وعلومنا ، فالقوم أعرف منا بما ترك أسلافنا من العرب لأنهم هم الذين تلقوا تراثهم وتعهدوا غرسهم فانتفعوا بالثمر .

يقول أكبر كتاب الإنجليز فى العصر الحديث هـ.ج. ويلز : « إن الأسلوب التحليلى

والنقدى للحقائق الذى ابتدعه الإغريق قد استأنف طريقه فى ظل هذه النهضة السامية المحيرة للألباب . وسرعان ما نضجت بذور ارسطو وجامعة الإسكندرية التى ظلت طويلاً بغير حراك فى زوايا الإهمال والنسيان ورأيناها تؤتى ثمارها . فحدث تقدم هائل فى علوم الحساب والطب والعلوم الطبيعية . ورأينا أرقام الحساب الرومانية القبيحة المعقدة تستبدل بالأرقام العربية التى ما زلنا نستعملها حتى اليوم . كما استخدم ترقيم الصفر لأول مرة . وحسبنا أن نشير إلى أن علم الجبر ليس إلا اسمًا عربيًا وكذلك كلمة الكيمياء . والكثير من أسماء النجوم ما زالت تحمل أسماء عربية ، تذكرنا بفتوح العرب فى السماء . أما فلسفتهم فقد كان مقدرًا لها أن تبعث فلسفة فرنسا وايطاليا فى العصور الوسطى . بل ولكل العالم المسيحى»[1] .

وقال العلامة درابر الأستاذ بجامعة نيويورك : «وكان من عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا . وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس . ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات . وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال . ودعاهم إلى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيئة ، واستخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما خصوا به دون سواهم ، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة ، كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقند ، ففتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام الحسابية . وكان ذلك كله من نتائج استعمال طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا فى علم الفلك لوائح فقط . بل رسموا خرائط النجوم المنظورة مطلقين على القدر الأعظم منها أسماء عربية لا تزال تتردد فى كرتنا الفلكية . وقد عرفوا حجم الكرة بقياس درجة سطحها ، وعينوا الخسوف والكسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين . ولاحظوا أمورًا بعثت نورًا باهرًا على نظام العالم .واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة ، وكانوا السابقين لاستعمال الساعة الرقاصة . وهم الذين أنشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها الهامة كحامض الكبريتيك وحامض النتريك .(الفضة) والكحول . وهم الذين استخدموا هذا العلم فى المعالجات الطبية ، فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية . وهم

(١) مختصر تاريخ العالم .

الذين قرروا فى الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى سديد فى القوات الميكانيكية . واصطنعوا فى نقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية . وكتبوا مقالات فى عوم الأجسام وغرقها فى الماء . وأصلحوا فى علم البصريات خطأ الإغريق فى قولهم إن الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره . فقالوا إن الشعاع يمر من المرئى إلى العين . وفهموا أساس انعكاس النور وانكساره وكشفوا عن طريق الشعاع المنحنى فى الهواء . وبرهنوا على أنّا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب .

ومما يدهش كثيرًا أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد عصرنا ، ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا إليها . فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم ، وقد وصلوا به إلى الأشياء الآلية وغير الآلية . فكان هو المبدأ الرئيسى عندهم فى الكيمياء والمظهر الطبيعى للأجسام المعدنية » .

وأخيرًا يقول عالم الفرنسيين جوستاف لوبون : « كلما تعمق المرء فى دراسته المدنية العربية ، تجلت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب . وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا فى المادة والعقل والخلق ومتى درس المرء ما عمل العرب وكشفوه فى العلم ، يثبت له أنه ما من أمة انتجت مثل ما انتجوا فى هذه المدة القصيرة » .

ثم تحدث غوستاف لوبون عن اعتراف أوروبا لعلوم العرب بنقلهم جميع كتبهم الهامة إلى اللاتينية ، وعلى رأسها القرآن وكتب الغزالى وغيره من الأئمة . فقال :

« وأنشئت فى أوروبا مدارس خصوصية لترجمة علوم العرب فى طليطلة . وأخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب ، وعظم نجاح هذه الترجمات . وعرف الغرب عن طريقها عالمًا جديدًا . ولم تفتر الحركة فى ذلك خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم يكن ما نقل إلى اللاتينية عن العربية كتب الرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم فقط ، بل نقلت إليها كتب اليونان أمثال جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس ، وهى الكتب التى كان المسلمون قد نقلوها إلى لسانهم . وقد عد لكلرك فى تاريخ الطب العربى ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية . ولم تعرف القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن مرت من أشياع محمد . فإلى العرب ، وإلى العرب وحدهم ، لا إلى رهبان القرون الوسطى ، ممن كانوا

يجهلون مجرد وجود اللغة اليونانية ، يرجع الفضل فى معرفة الأقدمين والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز الثمين»[1] .

فى ذلك الوقت الذى يتحدث عنه هؤلاء الكتاب . كانت اللغة العربية هى لغة العلم الرفيع ، وكان كثير من ملوك أوروبا وعظمائها وعلمائها وكتابها يحذقون اللغة العربية ويجيدونها . وقد حفظ لنا التاريخ بعض أسمائهم فمنهم رجار ملك صقلية وفردريك الثانى أمبراطور ألمانيا والبابا سلفستر الثانى والفيلسوف الشهير البرت الكبير والقس هرتموث وغيرهم .[2]

وبلغت اللغة العربية من الشأن فى هذه العصور ما حمل عالما كروجربيكون على القول فى القرن الثالث عشر «إن الفلسفة مأخوذة من العرب ، ولذلك فلا تفهم إلا إذا عرفت اللغة التى أخذت منها ، ومن المحال أن نفهم ابن سينا وابن رشد بغير تعلم العربية» .

انقــلاب حــال المسلمــين

ذلكم هو مدى ما وصل إليه العرب والمسلمون الأوائل من درجة رفيعة فى العلوم والمعارف ، أوقفت أوروبا منهم موقف التلميذ من الأستاذ ، واللاحق من السابق . ولعلك قد رأيت من وصف مدارك القوم ومعارفهم على وجه الاختصار . وما وصف به أسلوبهم من أنه تحليلى ينزع إلى التجربة والاختبار والاستدلال . ولعلك لاحظت فى ذلك كله أثر القرآن وما غرسه فى نفوس المسلمين من عناصر التفكير السليم ، والجنوح إلى التماس البراهين ، هذه توجيهات القرآن ، وهذه هى حال المسلمين الذين استرشدوا بهديه وتأثروا بروحه . أن يخلف من بعدهم خلف نكسوا على رؤوسهم . ونكبوا فى عقولهم ، وشلت هممهم وعزائمهم ، فإذا بهم يعودون إلى الظلام الذى أخرجهم منه القرآن ، وإذا بهم يغرقون إلى الأذقان فى لجة الجهل والغفلة والجمود والقعود . فيبلغ ذلك منهم ما بلغه فى أمثالهم ، فيهوون من حالق . ويكتسون ثياب الذل والهوان . مستبدلين صولجان العز والسلطان بأغلال الرق والاستعمار . على أن نكبتهم السياسية ، على فداحتها . لا تكاد تبلغ عشر معشار نكبتهم العلمية والخلقية . فقد أصبحوا من كل علم ومعرفة صفر اليدين ، وراحوا يتطلعون إلى غلبة الفرنج عليهم ، كنذير بانتهاء الدنيا واقتراب الساعة .

---

(١) حضارة العرب والإسلام (كرد على) .

(٢) راجع كتاب أثر الإسلام فى الإصلاح الدينى الأوروبى الأستاذ أمين الخولى .

ولكن الأعوام مرت تلو الأعوام والأجيال تعقبها الأجيال ، وكل شيء كما كان . فالشمس والقمر والليل والنهار والحياة تتدفق كأعظم ما تدفقت فى أى يوم من الأيام . وليس إلا سوء الحال الذى ألم بالمسلمين وإشراق طالع الأوروبيين . ولم يكن ذلك عفوًا ولا صدفة . وليس كما يزعم الجهال والمرجفون أن الله قد أعطاهم الدنيا وحرم المسلمين منها لأن لهم الأخرى . فذلك وهم وضلال ، وهذه الدنيا دار سعى واكتساب وجد واجتهاد . وهى من حق الصالح العالم العامل ، حرام على الغافل القاعد الكسلان ... هذه الدنيا قد خلقها الله لتكون دار علم وعمل ، وخلق الناس فيها ليعملوا ، وسخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار دائبين ، وسخر لهم الفلك والأنهار ، وكل ما فى الكون من عناصر قد سخره لهم ، ووضعه فى خدمتهم لا ليقبعوا فى عقر دورهم وينطووا على غفلتهم ، ويسبحوا فى جهالتهم ، بل ليسعوا وينشطوا ويحققوا لأنفسهم أقصى ما يستطيعون من كمال مادى وروحى . فالقول بأن الدنيا قد صارت من حق الأوروبيين دون المسلمين هو آية ما وصل إليه المسلمون من جهل وإسفاف وانحلال . وما دمغوا به أنفسهم من أحكام قاسية يفزع من هولها الثقلان . فقد أعلم القرآن أن الأرض ميراث الشعب الصالح . فقال وقوله الحق «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثها عباديَ الصالحون» . وقال أيضًا «وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» .

تلك هى آيات الله وهذه أحكامه وسننه ، أن يستخلف الشعب الصالح فى الأرض ، جريًا على ناموس الحياة الأكبر وهو البقاء للأصلح ، «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» . ولقد صدق الله وعده وحقق سنته مع نبيه ورسوله العامل المجد ، فنصره وأعز جنده وأجرى على يديه الفتح المبين . لا لأن الرسول رفع يديه إلى السماء وواصل الليل بالنهار دعاء على المشركين ومن يلوذ بهم ، ولكن لأن الرسول نازعهم الحياة والبلاد ، وكاثرهم وقاومهم ، واستعلى عليهم ، لا بقوة الروح والإيمان فحسب بل بقوة الحديد والنار والعقل والفكر والتشريع والنظام . وعلى هذا النهج سار خلفاؤه من بعده فدكوا صروح العروش المتداعية الواهنة ، وسيطروا على الجماعات التى أضر بها الظلم والجهل والفتن . وآلت لهم زعامة الأرض بحق . فقد كانوا هم السابقين إلى كل تضحية وإلى كل عمل وإلى كل جد . فإذا كان المسلمون قد انقلب حالهم إلى ذلة بعد عز . وفقر بعد غنى وجهل بعد علم ، فإن الله لا يغير ما بقوم

حتى يغيروا ما بأنفسهم . وقد كان أول ما غيروه واستحدثوه وقوفهم عن تشمير ساعد الجد فى ميدان العلوم والفنون والصناعات .وارتكانهم على ما ورثوه من أسلافهم الأمجاد . ظانين أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأن الأقدمين قد ذهبوا بالفضل كله ، واستأثروا بالعلم والمعرفة الكاملة . فليس علمًا إلا ما جاء فى كتبهم .

وهذا هو مبدأ الزلل والانحراف عن الجادة فكل شيء فى الحياة يسير ، وكل يوم من الزمان إنما يحمل للوجود شيئًا جديدًا وكل جيل يعرف بالبداهة أكثر من الجيل السابق ، لأنه يعرف ما عرفه هذا الجيل الماضى وما لم يعرفه مما حدث بعد انقراضه ، فنحن اليوم لا نعرف شيئًا مما سيكون عليه حال الدنيا فى هذه الخمسين سنة القادمة ، وما سيمر بها من تطورات وما سيجد فيها من مبتكرات واختراعات ، وما يوفق إليه العلم من كشوف وانتصارات وسنعرف منها بمقدار ما نحياه فيها من أعوام ولكن أبناءنا بعد خمسين سنة سيعلمون ذلك كله زيادة عما نعلمه . فالقول بأن الأقدمين قد ذهبوا بالعلم كله هو قول العاجز الكسلان الذى لا يريد أن ينشط أو أن يعمل أو أن يجاهد . فالفضيلة هى الفضيلة فى كل زمان ومكان . والعمل الصالح متاح لكل إنسان ، وما على الفرد إلا أن يسعى ويكدح ، فليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى .

تقدم الغرب ووقوف الشرق

كان هذا الأصل الفاسد الذى ركن إليه المتأخرون من المسلمين . هو الذى قوض بنيانهم الشامخ من العلوم والمعرفة فقد جمدوا ووقفوا عن التقدم إلى الأمام ومن يقف تدسه الأقدام لأن كل ما فى الحياة يسير وهكذا فقد عطل التقليد والاكتفاء بالنقل عقولهم عن التفكير ، مكتفية بالحفظ والتذكير . وبعد قليل عجزت العقول عن أن تحفظ وتذكر كل ما كتبه الأقدمون وألفوه ، وهو موسوعات ضخمة لا يكاد الإنسان يقوى على حفظ مجرد اسماء أجزائها ، فبدأت الأجيال اللاحقة تجتزىء من هذا البحر العميم من الكتب والمؤلفات بمختصرات يقوى العقل على حفظها ، وبدأ التدهور والانحطاط . فكل جيل يختصر ما وصله عن الجيل السابق ليتمشى مع مقدرته فى الحفظ ، حتى أصبح ما فى يد الأجيال المتأخرة فى القرن العاشر والحادى عشر ، والثانى عشر الهجرى ، قشورًا تافهة ، ومعلومات خاطئة . وأكاذيب وأضاليل وترهات وخرافات ينسبونها للإسلام والإسلام منها براء . فى الوقت الذى كان فيه أبناء أوروبا قد انتفعوا بما حصلوه من علوم العرب ، وأزهر العلم بين ظهرانيهم وأثمر . فكثر العلماء بين صفوفهم وتوفروا

على البحث والدرس والتأمل والتدبر والاستدلال والاستقراء ، والتجريب والاختبار ، والانتشار فى الأرض التماسا للمعرفة واكتشافا للمجهول . فانتهوا إلى ماينتهى إليه كل مُجدٍّ وعامل ، فنجحوا وعزوا وسادوا وطاروا على أجنحة علومهم كل مطار ، فاكتشفوا عوالم جديدة وذرعوا البحار دائرين حول الأرض واعتكف فريق منهم فى معاملهم فحبسوا أنفسهم عن كل مافى الحياة من ملذات فلا طعام لهم إلا لقمة ، ولا شراب إلا جرعة ، وإنما كل لذتهم وكل همهم فيما يقومون به من أبحاث وحسابات وأرقام فكان ثمرة كفاحهم هذا الذى نراه حولنا وفوقنا وتحت أرجلنا . وعلى أجسادنا وفى بيوتنا وطعامنا وشرابنا ففى كل ذلك أثر من آثار علوم القوم التى أصبحنا لها اليوم محتاجين لاتستقيم حياتنا إلا بها ، بل إنا لنلمح أثر ماوصل إليه القوم حول أعناقنا فى هذه الأغلال التى كبلونا بها والتى ماكنا لنقع فيها لو كنا على شىء من العلم والجد والعزم . وقد حاول هذا الغرب أن يكبل اليابان بنفس القيد الذى كبل به العالم الإسلامى عن بكرة أبيه ، فقرعها قرعة أولى ليعجم عودها فهبت من سباتها . واستيقظت من غفلتها . وأدركت بذكائها وعبقريتها أن هذه الشعوب لم تتمكن من التفوق عليها إلا بنور العلم الجديد وقوته ، فآلت على نفسها أن تحيط بهذا العلم الجديد فى أسرع وقت فحاسنت الغرب وصانعته ، وأوفدت إليه الوفود والبعوث التى نقلت إليها كل ما لدى القوم من علم وفن وصناعة ، فما هى إلا عشية وضحاها حتى كانت اليابان أمة فى عداد الأمم القوية ، ترد الصاع صاعين وتقرع الفولاذ بالفولاذ وترد للغرب بعض ديونه عليها ، وتشتبك اليابان اليوم فى حرب ضروس أشعلتها ضد أعظم قوتين فى العالم ، وهما انجلترا وأمريكا ، وقد تكسب اليابان الحرب أو تخسر ولكنها على كلتا الحالتين لن تكون إلا أمة عظيمة وبين أمم العالم العظمى[1] .

فلو أن سائر الأمم الإسلامية الشرقية فهمت من أمر الغرب مافهمته اليابان ، ولو أنها قبل تفاقم أمر الغرب حاولت أن تلحقه فى علمه وصناعته ، وأن تحاذيه وتنافسه وتصاوله وتجاوله . لما تباعدت الشقة بين الاثنين هذا البعد الشاسع فأصبح الغرب حيث هو محلقا فى السماء . والشرق يتخبط فى دياجير الجهل والضعف والاستعباد .

علـوم دينيـة وأخـرى كونيـة

ولكن الجمود والجهل كانا قد رانا على قلوب المسلمين المتأخرين . وبالأخص هؤلاء

(١) كتبت هذه الرسالة كما هو مفهوم قبل انتهاء حرب اليابان بالصورة الشنيعة التى انتهت إليها ومع ذلك فستبقى اليابان أمة حية قوية بالرغم من هزيمتها وسوف تثبت السنوات المقبلة صحة ذلك .

الذين ادعوا إمامتهم وزعامتهم الروحية والفكرية . فقد افتروا على الله والحق والإسلام فادعوا دعوى منكرة مفادها أن العلوم تنقسم إلى قسمين علوم دينية وعلوم كونية وأن الاشتغال بالعلوم الدينية فقط هو الحقيق بالجد والاجتهاد ، وهو الذى يخلع على المشتغل به لقب العالم الذى عناه القرآن وأن الاشتغال بغير العلوم الدينية هو رجس من عمل الشيطان ، يؤدى بصاحبه إلى البوار والخسران وآية ذلك أن الأفرنج قد اختصوا بهذا العلم وبرعوا فيه وما ذلك إلا لأنهم قد وقعوا فى أحابيل الشيطان . وما اشتغل به الفرنج فهو على المسلمين حرام والقول بغير ذلك زيغ وإلحاد وفساد فى الأرض كبير . ذلك قولهم ، وهذا بهتانهم وأشهد لقد كذبوا وادعوا وجاءوا بالزور والمنكر ، وقالوا على الإسلام والقرآن قولاً كبيرا ، فلا القرآن ولا الرسول قالا بهذا التقسيم المزعوم ولا خلفاؤه ولا التابعون أو تابعو التابعين ، فالقرآن لا يتحدث إلا عن العلم المطلق . بغير قيد أو شرط ، ولا يذكر العلماء إلا بعد ذكر سنن الكون ومظاهره كقوله «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم لآيات للعالمين» ولا يعرف شيئا عن السموات والأرض واختلاف الألسنة . واختلاف الألوان والأجناس وطبائع البشر . إلا العلماء بالجغرافيا والفلك والطبيعة ، وقد دعا الرسول إلى التماس العلم حيث كان ، ودعا إلى تعلم اللغات الأجنبية . فكان له من كتابه من يحذق اللغة العبرية وقال وهو الصادق الأمين « من تعلم لغة قوم أمن من شرهم » فقد ورد عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود (أى كتابتهم) قائلاً إنى والله ما آمن يهود على كتاب ، قال فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته له ، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم[1] . وليس وراء ذلك فتح لباب العلم على مصراعيه أمام المسلمين وعلى هذه السنة سار خلفاؤه من بعده وصحابته الذين انتشروا فى الآفاق ، فتعلموا كل ما صادفوه فى حياتهم من علوم . وحسب الإنسان أن يفتح كتابا من كتب تفسير القرآن الأولى ليجد فيها كل علوم ذلك الزمان ، مختلطة ممتزجة ، حتى إذا أوغل المسلمون فى العلوم والمعارف بدأت فروع العلوم المختلفة يستقل بعضها عن بعض ، ويتسمى كل منها باسم خاص ولكن دون أن يستغنى أحدها عن الآخر فثمة علم للحديث وقواعد التحديث وشروط الإسناد وتتبع الرواية ، وتوثيق الرواة أو تجريحهم ، وعلم خاص بالتفسير ومعرفة مناسبات النزول والناسخ والمنسوخ وعلم خاص باستخلاص الأحكام من القرآن والسنة والقياس عليهما وهو الفقه ، وعلم لقواعد اللغة هو النحو ، وعلم بسيرة الرسول والصحابة هو علم السير

(١) رواه الترمذى بسند صحيح .

والتراجم ، وعلم بكيفية تقسيم الميراث هو علم الفرائض ، وعلم بجباية الأموال من خراج وزكاة وغنائم هو المالية ، وما من علم من هذه العلوم إلا وهو محتاج لبقية العلوم الأخرى ، من حساب وهندسة وفلك وجغرافيا وتاريخ وطبيعة ، وإلا فكيف يحسن تقسيم المواريث من لا يكون بارعًا فى الحساب ؟ وكيف تحدَّد مواقيت الصلاة وتعين مختلف أيام الصوم والحج ما لم يكن هناك إلمام بالفلك ؟ وكيف تفهم آى القرآن وتُفسَّر ما لم يكن هناك إحاطة تامة بالتاريخ العام ؟ فقصص بنى إسرائيل وفرعون مصر وسليمان وملكة سبأ وعاد وثمود وقوم لوط وذى القرنين إلى آخر ما حكاه القرآن من أحاديث الأمم الخوالى هى التاريخ ، ولا تُفهم إلا فى ضوء معلومات التاريخ ؟ وكيف يجاهد المسلمون وينشرون عقيدتهم فى العالمين ما لم يكونوا على معرفة بكل ما يجرى فى العالم وما فيه من شعوب ، ليعرفوا العدو من الصديق ، وهذه هى الجغرافيا فليس هناك حد فاصل بين علوم وعلوم ، ومن علم فرعًا لا يلبث أن يجد نفسه مضطرًّا لتعلم بقية الفروع ، فالمعرفة يكمل بعضها بعضا ، وترجع كلها إلى أصل واحد وينبوع واحد هو المعرفة ، ولم يخلق الله إلا معرفة واحدة وحقيقة واحدة . وأخيرًا كيف يمكن أن يقوم الدين فى غير جماعة ، وكيف تقوم الجماعة بغير الصناعة ، وما هو السبيل لقيام الصناعة إلا بتوافر سائر فروع العلم على اختلافها ، فالقول بأن الجماعة يمكن أن تستغنى عن علم من العلوم هو بمثابة تعجيزها بقطع عضو من أعضائها ، فلا تلبث أن تصبح قعيدة كسيحة ، والحيلولة دون العقل وغذائه ، من العلوم والمعارف المختلفة ، لا يلبث أن يصيبه بالشلل والخمود ، فلا عجب إذا انتهى حال المسلمين المتأخرين بفقد العلم جملة ، وأن يصبح الأوروبيون لا المسلمون هم الأكثر معرفة بتراث المسلمين العلمى ، وهم الذين يعنون بهذا الكنز الثمين ويتحمسون له ، ويعيدون طبعه وينشرونه على الناس ، وأعنى بالناس العلماء من الأوروبيين ، لأن الشرقيين كانوا قد أصبحوا عن كل ذلك فى جهل وغفلة ، وكلما طالع العلماء من أبناء أوروبا آثار السلمين القدامى كلما امتلأوا حماسة لمعرفة كل شىء عنهم ، مدفوعين بهذه الجذوة الربانية ، وهى حب العلم والمعرفة لأجل العلم ، فساحوا الأقطار وجاسوا خلال الديار من مشرق الدنيا ومغربها بحثًا خلف الكتب العربية التى أهملها أصحابها ، واجتمع لديهم بعد قليل من الزمن مكتبات فاخرة من مخلفات العرب اعتزت بها دور الكتب العامة فى باريس ولندن وفيينا وبرلين ومدريد ، وتألفت فى جامعاتهم الأقسام العلمية للتخصص فى دراسة اللغة العربية وتراث العرب ، وقام بالتدريس فى هذه الأقسام علماء فطاحل أمجاد ، واصلوا الليل بالنهار فى سبيل حذق اللغة والفقه وعلوم الإسلام ، فوضعوا الفهارس والكتب التى تعين على الإحاطة بفروع الدين

الإسلامى ، فثمة فهرس لآيات القرآن مرتب بحسب الموضوعات . ومفتاح آخر لجميع كتب الحديث أطلق عليه مفتاح كنوز السنة ، يستطيع الإنسان بواسطته أن يستدل على أى حديث ، وأخيرًا دائرة معارف إسلامية تجمع بين دفتيها كل ما يتصل بالمسلمين وتاريخهم ودينهم وأنظمتهم وعلومهم ، ووقفنا نحن الذين قدر علينا أن ننفض عن رؤوسنا غبار الخمول ، وأن يجرى ماء الحياة من جديد فى عروقنا ، وقفنا مذهولين مدهوشين لهذا الجهد الجبار الذى يبذله غير المسلمين فى معرفة دين المسلمين وعلوم المسلمين وتاريخ المسلمين ، فلم يسعنا إلا أن نحنى الرأس إعجابًا وإكبارًا ، وأن نجلس منهم مجلس التلميذ ، لا لنتلقى عنهم آخر ما تطور إليه العلم الحديث ، ولكن لنتعلم منهم قبل ذلك تاريخنا ونلم بتراثنا ، فكانت لنا بعثات لدراسة اللغة العربية فى لندن ، وبعثات من الأزهر فى برلين(١) . لزيادة التفقه فى كتب الدين واستقدمنا علماء من القوم لتدريس آداب اللغة العربية وتاريخها فى جامعتنا ، وبدأنا ننقل عنهم ونترجم كتبهم وعلومهم ومعارفهم عن ديننا ولغتنا وتاريخنا وتراثنا ، ولا عيب فى ذلك ، وإنما العيب ألا نفعل ، وإذا كان ذلك مر المذاق على نفوسنا فيجب أن نحتمله فى صبر ، ففيه الدواء ولا مناص من تصحيح أخطاء الماضى واستدراك ما فات ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستفادة مما حذقه القوم وبرعوا فيه وسبقونا إليه .

نقل العلم الحديث برمته

وإذا كان من الحق علينا مرة أن نستفيد بجهود الغرب فى الوقوف على تراث أجدادنا ، فإن من الحق مائة مرة أن لا ندخر وسعًا فى نقل آخر ما انتهى إليه العلم الحديث فى مختلف فروعه ، وهو ما شرعنا فى القيام به منذ عهد محمد على ، ولكن على الرغم من مرور قرن من الزمان على هذا النقل فلا نزال دون الغاية بمراحل ، ذلك أن ظروف مصر السياسية قد اقتضت أن يظل التعليم فيها عقيمًا لأكثر من نصف قرن . فلا يعطى للطلاب أكثر من قشور ، ولا ينظر الطلاب للعلم إلا كوسيلة للحصول على شهادة تخولهم الحصول على وظيفة من الوظائف ، فإذا تحقق غرضهم أعرضوا عن العلم وتنكروا له ، ولم يحتفظوا فى ذاكرتهم منه إلا بالقدر الذى يحفظ عليهم وظائفهم . وهذا ما جعلنا حتى الآن وبعد هذا الزمن الطويل لا نزال فى أول الشوط ، وإن كنا قد استكملنا العناصر التى تمكننا ، بشىء من العزم ، أن نقطع الشوط الذى قطعته أوروبا ، وأن نبلغ نهايته بعد أن صارت لدينا المعاهد العلمية الكبرى التى يمكن للعلم أن يزدهر بين ربوعها ويؤتى

(١) بعثة الشيخ محمد عبده ـ كلمة عن محمد عبده وجمال الدين الأفغانى .

ثماره الناضجة ، وأهم ما ينبغى علينا القيام به فورًا هو أن ننقل إلى لغتنا مختلف دوائر المعارف الأوروبية والأمريكية ، العامة والخاصة ، وأعنى بالعامة هذه التى تتعرض للعلوم وشتى المعارف على سبيل الاجمال ، والخاصة هى التى وضعت لكل علم ومادة على حدة كدوائر المعارف الخاصة بالصناعة أو الخاصة بالكهرباء والذرة ، والفضاء ، أو لفرع من فروعها كاللاسلكى . فهذه الموسوعات الفنية يجب أن تترجم بنصها إلى لغتنا ليكون فى متناول كل ناطق بالضاد هذا البحر الزاخر من العلوم والفنون ، ولكى نكون على ثقة أنه قد صار فى أيدينا كل ما لدى القوم فنستطيع بعد ذلك أن نعلو ببنائنا ، وأن نهيئ الطريق لمستقبلنا العلمى المجيد .

نقـل العلـوم التطبيقيـة (الصناعيـة)

على أن العلم الحديث لم يعد كما كان فى القديم مجرد أفكار ونظريات تسطر على الورق ، ويكفى مجرد النظر فى الكتب للإحاطة بما لدى البشر من علم ، وإنما قد صار العلم اليوم فى جزئه الأكبر والأهم عمليا يجرى فى المعامل ويطبق فى المصانع ، بحيث لا يمكن الإلمام به إلا بعد النظر لتطبيقاته ، والانتفاع بثمراته العلمية ، وهى هذه الفنون والصنائع ، وليس هناك ما يحملنا على الشهادة للغرب بالتفوق علينا ماديا وأدبيا إلا ما نراه من صناعاته الباهرة ، التى لا يزال السواد الأعظم منا يتصورها من صنع الجن والأبالسة أو من صنع قوم ليسوا على كل حال من طينة البشر . هذه الصناعات هى أول ما يجب أن ينقل إلى بلادنا ، علمًا وعملاً لنحقق لأنفسنا ما نريد من الرقى العلمى ، فضلاً عن الرقى المادى والسياسى ، فليس هناك ما تنشط له جميع قوى الذهن وملكاته غير الصناعة ، ولن يستطيع شعب بغير صناعة أن يكون على درجة رفيعة من العلم ، لأن الصناعة بطبيعتها هى فن تحويل المادة ، هى اصطناع شىء من شىء آخر ، هى قوة الخلق والإبداع ، والعقل المبدع المبتكر هو وحده الذى يستطيع أن يفكر وأن يخترع وأن يكتشف وأن يرقى ويتطور ، ويصل إلى أعلى مراتب الكمال . وهناك علوم لا يمكن فصلها اليوم عن تطبيقاتها كعلوم الكهرباء واللاسلكى ، فهى لا تدرس بصورة مجدية إلا فى مصانع منتجاتها ، والمصانع الحديثة اليوم هى معاهد كاملة لخدمة العلوم والفنون التى تقوم عليها ، وما من مصنع إلا وقد أُلحق به معمل للاختبارات والمباحث ، وما من معمل من معامل العلماء إلا وهو فى حقيقته مصنع من المصانع ، لما يضم من آلات وورش وما يخرجه من منتجات فلا مناص من نقل الصناعات الحديثة برمتها ، صناعات الكيمياء والفولاذ والكهرباء والأليكترونات ، لا لاختبار ثمرات العلم التطبيقية فحسب ،

ولكن ليخرج من بين جدرانها العلماء والمخترعون والمكتشفون .

العلم وحرية العلماء

على أننا لن نخطو خطوة واحدة فى سبيل الرقى العلمى المنشود ، إلا إذا تعلمنا كيف نحب العلم ، وكيف ننظر للمعرفة كمثلنا الأعلى وغاية الغايات من حياتنا . فيوقف الكثيرون منا مالهم وجهدهم وحياتهم على طلب العلم والاستزادة منه والتعمق فيه ، كما كان يفعل أجدادنا الأقدمون . حيث كانوا يسافرون الشهور الطوال ، على ظهر الإبل تارة ، ومخترقين البحار تارة أخرى ، للتثبت من حديث من الأحاديث ، وقول من الأقوال كما يفعل الأوروبيون اليوم أو يعرضون حياتهم للأخطار والمهالك . لتحقيق مسألة من المسائل أو اكتشاف مجهول من المجاهيل .

ولن نكون محبين للعلم ، وطلابًا حقيقيين للمعرفة ، إلا إذا عرفنا كيف نطلق للعلماء كل حرية . فلا نحيطهم بقيود أو شروط ، ولا نضع فى سبيلهم العقبات المادية أو المعنوية ، فلا يضطهد أى عالم لرأى يسوقه ، أو نظرية جديدة يبديها ، وإنما نتقبل بصدر رحب كل رأى وكل فكر وكل قول أدى إليه البحث العلمى النزيه ، وهذه الحرية العلمية هى الشرط الأساسى لتطور العلم .

لا يزال فى بلادنا أقوام يقومون ويقعدون لكل رأى يخالف آراءهم ومعتقداتهم ، وينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور لأن كاتبًا من الكتاب قد قال كذا وكذا مما لا يتفق والدين ، وأن كتابًا من الكتب يحتوى طعنًا على الدين الإسلامى ، ومع ذلك فهو يوزع على الطلبة الجامعيين إلى آخر هذه الضجات والثورات التى تقوم من حين لآخر فى بلادنا ، والتى إن دلت على شيء فعلى فقدان الثقة بالنفس وأن سحب الجهل والجمود لا تزال تخيم على البلاد . وإن بنيتها ونفسيتها لا تزالان مريضتين ، إن الحقائق الثابتة هى التى لا يؤثر عليها النقد . ولا تنال منها المعارضة ، ولا تجرحها المناقشة ، ولكن ذلك كله يجلوها ويزيدها رسوخًا وثباتًا ، الحقيقة العلمية تنبثق من جوف الظلام كعمودٌ من النور ، ولا يمكن أن يحجبها حجاب أبدًا ، ما العلم إلا نور الله فى الأرض ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون ، فليطمئن إذن المؤمنون لعقائدهم ، والواثقون بمعارفهم ، إلى ما يعتقدونه ويثقون به ، وليقبلوا على كل رأى ، وليسمعوا كل قول ، وليخوضوا فى كل بحث مهما بدا لهم منكرًا وغريبًا ، فإن كان الحق بأيديهم فلن يزيدهم الباطل إلا يقينًا ، وإن كان الحق مع معارضيهم فالفضل كل الفضل فى الرجوع إلى الحق ، وهذا هو السبيل لازدهار العلم ونموه وتطوره ، وبغيره يموت العلم ويسود

الجهل ، لأن العلم ثمرة الآراء المتعارضة والأفكار المتضاربة والنظريات المختلفة ، وما من فكرة من الأفكار حتى ولو كانت خاطئة وتخالف الحقيقة إلا ولها أثر فى الوصول إلى الحقيقة ، فالقول بأن الأرض مسطحة كان هو الأساس الذى بدأ منه البحث لإثبات أن الأرض كروية والقول بأن الشمس تدور حول الأرض كان هو نقطة البدء لمن أثبت أن الأرض هى التى تدور حول الشمس ، ذلك أن العقل فى حاجة دائمًا إلى أساس يبدأ منه بحثه ، فإذا كان هذا الأساس خاطئًا فإنه لا يلبث أن يكتشف خطأه واكتشاف الخطأ يهدى إلى الصواب حتمًا .

وكم من الحقائق العلمية والاكتشافات الأدبية لم تأخذ طريقها إلى الحياة إلا فى أثناء الرد على بعض المخالفين وتمحيص بعض النظريات الخاطئة ، كم من عالم هرع إلى معمله ليثبت فساد نظرية جديدة ، فإذا به يخرج على الدنيا بكشف فريد ، ولولا النظرية الفاسدة لما طلع على الدنيا هذا الكشف الجديد .

ويجب أن تأخذ الحرية العلمية أوجها بين جدران الجامعات والمجامع العلمية والمعاهد العلمية فإذا جاز فى بعض الظروف والأحوال النادرة — لسلام الجماعة وأمن الدولة — أن يحال بين بعض الآراء وبين أن تذاع على جمهور الشعب غير المستعد لسماعها وأن يروج لها — أقول إن جاز ذلك فى بعض الأحيان والتجأ إليه بعض الحكام — فإن مما لا يجوز بحال من الأحوال وما يعتبر جناية على العلم ما بعدها جناية هو أن يتعرض لحرية الجامعة العلمية ، ولما يقول به أساتذتها بين جدرانها من آراء ونظريات والجامعة التى تضع على العلماء والأساتذة بها أى قيد من القيود على تفكيرهم ونظرياتهم العلمية ، هى جامعة لا تستحق هذا الاسم ، وأخلق بها أن تسمى مدرسة للصبيان . لا معهدًا من معاهد العلم العالى ، حيث تنمو المعارف البشرية وتزدهر وتترعرع .

محــاربة الأمــية

على أنه لا نقل العلوم والصناعات برمتها ، ولا إطلاق الحرية العلمية للجامعات للقيام بوظيفتها ، بكاف للتطور بالمجتمع تطورًا حثيثًا نحو الحياة العلمية الراقية ، لو ظل السواد الأعظم من الشعب أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة ذلك أن العلم لكى ينتشر يريد ميدانًا فسيحًا من العقول المستنيرة ، وعددًا عظيمًا ممن يقدرون على القراءة والكتابة والتفكير السليم ، فليس يكفى أن ينفرد شخص بالعلم والنبوغ وسط جماعة جاهلة ، لأن جهلها لا يلبث أن يطفئ نور علمه ، كما كان الحال فى عصور أوروبا الوسطى ، حيث كان العلماء والمفكرون يلقون على يد السواد الأعظم من الشعب ممثلاً فى شخص الكنيسة

ورجال الدين كل أذى وشر ، انتهى بالكثيرين منهم إلى المحرقة والمقصلة ، مما أصاب العلم بضربات مميتة ، وأخّر نموه وتطوره ، ولم يستطع العلم أن ينمو فى أوروبا ويترعرع إلا بعد أن خفت ريح الجهل والتعصب بانحسار الأمية رويدًا وانتشار القراءة والكتابة مما جعل للمفكرين والعلماء جمهورًا يتابع أبحاثهم . ويستمتع بآرائهم فكان فى ذلك شدًّا لأزرهم وتنشيطًا لجهودهم .

فلا مناص من محاربة الأمية بكل الوسائل وكافة الطرق ، وأن تعبأ العناصر المتعلمة فى الأمة كلها للقيام بهذا الواجب المقدس نحو مواطنيها ، لانتشالهم من هاوية الجهل السحيقة ، ولإدخال النور فى حياتهم واستغلال ملكاتهم ومواهبهم الدينية فما من شعب من الشعوب إلا وقد انطوى الكثير من أبنائه على استعداد للنبوغ والعبقرية ولكن هذا الاستعداد لا يلبث أن يموت ويحترق فى ظلام الجهل وجحيم الأمية ، فهم كهذه المعادن النفيسة المختلطة بالصخور والتراب وتؤلف جزءًا مما حولها من جمادات ، لا يأبه بها إنسان ، ولكنها إذا استخلصت وطهرت أدرانها لم تلبث أن تصبح زينة العروش والتيجان .

فلا يجب أن يحجب إنسان عن العلم ، أو أن يحال بينها لأى سبب من الأسباب ، فهو حق طبيعى كحق استنشاق الهواء وشرب الماء وتناول الغذاء ، لأنه غذاء الروح الذى لا تقوم إلا به ، فيجب أن يبذل لكل إنسان وأن يمكن منه كل فرد ، وأن تهيأ سبله ووسائله للجميع على السواء .

ولن تستحق أمة من الأمم فى عصرنا الحديث أن تأخذ مكانها بين الأمم المتحضرة ، وأن يكون لها صوت فى حياة البشر ما بقى فريق كبير من أبنائها فى عماية الأمية ، أما إذا كانت الأمية من نصيب السواد الأعظم من أفرادها ، فهى لا تزال أمة متخلفة متقهقرة تتخبط فى دياجير الغفلة والجهل ، مهما ادعت لنفسها من ادعاءات ، ومهما تحلت بالمظاهر الكاذبة الخداعة ولن تستطيع هذه الأمة أن تدعى سيادة الحرية والديمقراطية بين ربوعها ، ولن تستطيع هذه الأمة أن تخطو خطوات حقيقية فى سبيل الإصلاح والعمران ، إلا بمقدار ما يقضى على الأمية بين ربوعها .

يا بــــنى

وبعد ، يا بنى ، فاطلب العلم تكن إنسانًا كريمًا نافعًا فعالاً .. اطلب العلم واصبر على متاعبه ، واسهر على مباحثه ودراساته ، وشد من أجله الرحال ، واستقل القطارات وامتط الطائرات ، وانفذ إلى باطن الأرض ، واصعد إلى قمم الجبال ، وغص فى أحشاء البحار ، واخترق الصحراء ، اطلب العلم يا بنى فى جليد الشمال وحر الاستواء ، وفى مختلف البلدان والقارات ، اطلب العلم قائمًا وقاعدًا ونائمًا ومسافرًا ، وفى كل أحوالك بارهاف حواسك وإعمال فكرك والتعمق فى تأملاتك .

وإياك أن تحسب المدرسة كفيلة بأن تجعل منك عالمًا ، ولو كانت أرقى المدارس وأعلاها ، فكل ما تفعله المدرسة هو أن تهيئك لطلب العلم ، وترشدك إلى مكانه . وتضع قدمك على أول درجاته ، وإنما العلم الحقيقى الرفيع يحصله الإنسان بكسبه واجتهاده ، وانكبابه على البحث العلمى فى أوقات فراغه ، وليس هناك ما يخلق من الإنسان عالمًا إلا أن يقرأ ، ويكثر من القراءة ، على شريطة أن يفكر فى كل ما يقرأ ، وأن يقارن كل ما يقرأه بما سبقت له قراءته . فيضيف إلى معلوماته بالزيادة أو يصححها ويعدلها ، أو يثبتها ويؤكدها . أو يلغيها ويبطلها ، وهناك اتجاه حاد فى عصرنا الحديث نحو التخصص ، والتطرف فى الدعوة للتخصص ، على أن هذا التخصص إذا جاز فى المصانع وفى الإنتاج الآلى فإن العقل يجب أن ينزه عنه ، فالعقل الناضج يجب أن يلم بكل شىء . وأن يفكر فى كل شىء ، وأن يعلم كل شىء ، ولا بأس أن تكون هوايته والجانب الأكبر من نشاطه فى ضرب معين من ضروب المعرفة ، ولكنه يجب فى كل حال من الأحوال ألا يغفل بقية الفروع الأخرى فالمعرفة كل لا يتجزأ ، والعلوم دائرة لا يعرف الإنسان أين طرفاها ، فرب سنة اجتماعية تكمن فى الطب ، ورب بحث تاريخى يحل مشكلة طبيعية ، ورب نظرية فلسفية تهيئ الطريق لكشف هندسى ، ورب عملية حسابية تفسر آية قرآنية ، فالعلوم فروع شجرة واحدة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء - هى شجرة المعرفة التى يجب أن يستظل بمجموعها طالب العلم .

وهذا ما يجعلنى أقول لك اقرأ كل ما يقع بين يديك من الكتب ، عملية كانت أو أدبية أو قصصية أو دينية ولا تنفك تبحث عن الكتب قديمها وجديدها ، وإياك أن

تقول لنفسك : أقرأ الكتب الجديدة لا أعدوها ، امتهانًا منك للقديم ، وتفضيلاً للجديد عليه ، فالقديم هو أساس الجديد ومعرفتك بالقديم تزيد فى تفهمك الجديد . وحذار من أن تفعل العكس فتقول أقرأ الكتب القديمة ولا أعدوها فهذا هو الجمود الذى كان منه ما كان ، ولكن اقرأ القديم والجديد ، وقارن بينهما ، وفكر وتأمل وادرس وابحث . وقد أصبحت للكتب اليوم أشكال جديدة ، لا عهد للأقدمين بها . فقد أصبحت مصورة وناطقة ومشخصة ويومية ، وأعنى بهذه الأشكال الجديدة الصحف والراديو والسينما ، فخذ بنصيبك منها ، وداوم على قراءتها وسماعها ومشاهدتها فهى الدنيا كلها ، والحياة بألوانها ، مجموعة ومركزة على شكل أخبار ، وأغان وروايات وأحاديث ومحاضرات ، فلو أهملتها كنت كمن يهمل الحياة التى يعيش فيها ، وكيف يصبح عالمًا من يقطع ما بينه وبين الحياة ، كن على ثقة يا بنى أن خلف كل شىء جزء من الحقيقة . وبقدر ما تعرف من الأشياء بقدر ما تنكشف لك الحقيقة ، فاقرأ وانظر واسمع والمس ولاحظ وراقب ثم فكر تكن عالمًا . وإياك أن تعيش بفكر غيرك ، أو أن ترضى برضا غيرك ، فليكن فكرك حرا ، وآراؤك فائضة من عقلك ، وليس معنى ذلك أن تتنكر لأفكار الآخرين وتتمرد عليها وتحط من أمرها وتخالفها ، بل معناه أن تختار لنفسك من آراء الآخرين ما يوافق رأيك ، وما يرتاح له عقلك ، ويميل إليه طبعك .

إننى مؤمن يا بنى أن الشرق لن يلبث أن ينهض من كبوته . ويستفيق من غفلته ، كما تلوح تباشير ذلك ، وأنه لا يلبث أن يسترد مكانته كمهبط للوحى ، وينبوع للإلهام ، وموطن للعبقرية ، ومهد للعلم والمعرفة ، وأن هذا البعث سيصل إلى ذروته فى القرن الحادي والعشرين ، فيبزغ فى سمائه من يطفرون بالعلم الإنسانى طفرة جديدة ، تتضاءل إلى جوارها طفرة أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، فعسى يا بنى أن تكون واحدًا من هؤلاء العلماء الأعلام ، أو ممن يمهدون لقيام هؤلاء الأعلام الأمجاد ، فلو أنك كنته لاهتزت روحى طربًا فى السماء وما عليك يا بنى للوصول إلى هذه المرتبة . إلا أن تصمم وتعزم وتضع قدمك على أول الطريق ، جاعلاً دعاءك ليلَ نهار :

«وقل ربِّ زدنى علمًا»

رسالة المال

أو

كن غنيا

ليكن حديثنا بعد ذلك عن المال ، وأثره فى الحياة ، وفى تحصيل القوة وإدراك الكمال ، وكيف أنه عنصر من أهم العناصر لإدراك هذه الغاية المثلى التى يسعى لتحصيلها الإنسان ، ولا يفوق المال فى هذا السبيل إلا العلم . ذلك أن العلم وسيلة الكمال والقوة ، وهو فى حد ذاته كمال وقوة ، وليس المال كذلك لأنه لا يعدو أن يكون وسيلة ولكنه وسيلة لا يتم بدونها إدراك غاية من الغايات ، صغرت أو كبرت جلت أو حقرت ، فالعلم نفسه لا سبيل له إلا عن طريق المال والحياة كلها لا سبيل لحفظها والإبقاء عليها إلا بالمال ، وهذا ما جعلنى أقدم حديثى عن المال قبل حديث العلم لخطورة شأنه فى حياة الإنسان . والمال موضوع طال عليه النزاع قديمًا وحديثًا بين أفكار متعارضة ، وإذا كان العلم لا خلاف بين اثنين على ضرورة تحصيله ، وإن اختلفا بعض الشئ فى نوعه وموضوعه فالمال لا يلقى مثل هذا الإجماع على ضرورة تحصيله بل إنه يلقى عداء شديدًا من بعض الآراء على رغم حاجة الناس إليه جميعًا وشقائهم وجهادهم فى سبيل الحصول عليه ، والاستزادة منه ، لا فرق فى ذلك بين رفيع أو وضيع غنى أو فقير ، وأصحاب هذه الآراء فى ضرورة محاربة المال واستنكاره يضطربون عندما يقع بصرهم على العنوان الذى اخترته لهذه الرسالة ، وقد يرى البعض منهم أن هذه الدعوة إلى الغنى بمثابة دعوة إلى الإقبال على الدنيا ، والانصراف عن الآخرة . ولكنهم سيرون بعد قراءة السطور التالية أنه لا فارق بين هذه الدنيا وبين الآخرة ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ومن لم يعمل فى دنياه لم يحصد شيئًا فى آخرته ، وأن الذى يهمل الدنيا ويحتقرها ينتهى بأن يضيع الدنيا والآخرة .

إن الذى يحفزنى لدعوتك ودعوة كل شاب للغنى هو أنه لا يوجد مرض يفتك بالمصريين فتكًا ذريعًا وبالمسلمين والشرقيين على العموم بمقدار ما يفتك بهم الجهل ، ثم هذا الفقر المدقع اللعين الذى لن تجدى مقاومته بالوسائل السلبية ، بل لا بد لمحاربته من وسائل إيجابية ومتطرفة ، والدعوة للغنى هى إحدى هذه الوسائل الإيجابية وإنى إذ أدعو

للغنى أعلن سخطى على الفقر بكل ألوانه وأشكاله ومهما تفلسف المتفلسفون ، وتنطع المتنطعون ، وَتَقَوَّلَ المتقولون ، فالفقر عندى داء ولعنة ويجب أن يشفى المصريون والمسلمون والشرقيون من هذا الداء وأن ترفع عنهم هذه اللعنة وإلا ظلوا فى هذا الخسران المبين والضعف المهين الذى أضاع عليهم الدنيا والآخرة .

الأصــل فى الإنســان الغــنى

اعلم أن الغنى هو الأصل فى الإنسان وأن الفقر هو العارض ، ذلك أن الغنى بمثابة الصحة والفقر بمثابة المرض ، فكل غنى صحيح وكل فقير مريض والرضاء بالفقر والقعود عن دفعه هو بمثابة الرضا بالمرض والقعود عن معالجته ولا يستوى المريض والصحيح ، كما لا يستوى العاجز والقادر ولا الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور .

خلق الله الإنسان ، وخلق الدنيا من قبله لتكون له دار كسب ، ووضع الكائنات كلها تحت سلطانه وتصرفه ، وزوده بالعقل والحرية والإرادة ليقوى على استغلال ذلك كله بما يعود عليه بالنفع ، فنشأ الإنسان الأول والدنيا كلها بأرضها وزروعها وخيراتها ملك له لا ينازعه فيها منازع ، وليس فيها غنى أو فقير ، وإنما أغنياء قلائل يشبعون كل حاجياتهم ولا يمدون أيديهم إلى إنسان ، أو يحتاجون إلى بعض ، فلم يكن للفقر وجود إذن فى الحياة الأولى ، ولكن تطور الحياة ونمو بنى الإنسان وتكاثر عددهم جعل يُظهر على التدريج الفارق بين إنسان وإنسان من حيث القدرة والكفاءة للاضطلاع بمختلف الأعمال ، فبدأ الامتياز يظهر بين شخص وشخص وكانت هذه هى المرحلة التمهيدية لنشوء العجز إلى جوار القدرة ، والفقر إلى جوار الغنى ، ولكن قيام الفقر بالفعل لم يتم إلا عند ما استقر رأى الإنسان على الخلود إلى الراحة والتزام مكان معين للإقامة ، فقد استدعى هذا الاستقرار قسمة ما تنتجه الجماعة فى هذه المنطقة على جميع الأفراد ، وإذ جاء دور الاقتسام فقد بدأت الفروق تتجلى بقوة بين إنسان وإنسان ، إذ حصل البعض قوة واغتصابًا ، عدلاً أو ظلمًا على نصيب أوفر من نصيب الآخرين ، ولما كانت أى منطقة محدودة لا تنتج إلا غلة محدودة فإن ما زاد فى نصيب فرد كان ينقص من نصيب فرد آخر ، فبهذا وجد الفقر إلى جوار الغنى .

لو أن الفقير الذى لم يحصل على نصيب كأنصبة الآخرين بادر بالانتقال إلى مكان جديد باحثًا عن رزق وفير فى ميدان آخر ، وما أوسع الأرض وأوفر غِلاّتها وأعظم خيراتها ، لو أن الفقير تمرد على القعود والاستسلام وهاجر ، إذن لحصل من جديد على كل ما تصبو إليه النفس من خير وفير ، ولكان غنيا كالآخرين ، ولكن الفقير وهو بطبعه

فاتر الهمة أو ضعيف الجسد أو الإرادة قليل الكفاءة ، لم يهاجر فى أرض الله الواسعة بل ازداد تشبثًا ببيئته وقنع بنصيبه الضئيل الذى يناله إلى جوار الغنى ، ولو أن الفقير حتى بعد أن اختار البقاء على الرحيل ضاعف فى مجهوده الإنتاجى وسعى لتحسين حالته بادخار ما يمكن ادخاره مما يفيض عن حاجته ، إذن لاستطاع أن يعوض بعض ما فاته ، ولكنه من جديد آثر الجمود والاستسلام فاكتفى بإنتاج القدر الذى اعتاد انتاجه ليسد به حاجته يومًا فيومًا وساعة بعد ساعة ، فلم تتطور حياته بل زادت سوءًا لأنه أصبح فى حالة احتياج مستمرة ، فأخضعه ذلك رويدًا رويدًا كل الإخضاع للغنى الذى راح يسخره لزيادة غناه وثروته فى مقابل قدر ضئيل يقدمه له مقابل عمله وقد رضى الفقير بهذا الوضع الجديد لزهده فى المخاطرة والمجاهدة لتحسين حاله ومعاشه .

فالفقر كما ترى هو تطور وتدهور وعارض من الأعراض التى طرأت على الإنسان بسبب ضعفه أو عجزه أو كسله أو اختبال عقليته ، أى أننا يجب أن نقرر مطمئنين أن الإنسان خلق غنيا ثم أحدث الفقر لنفسه بإرادته ثم أورث هذا الفقر أبناءه وسلالته إلا من شب منهم عن الطوق واستعاد حريته وصحته فشق طريقه من جديد إلى الغنى والقوة .

ماهيــة المــال

ونتساءل الآن عن حقيقة هذا المال لنرى أخير هو فى ذاته أم شر؟ أهو جدير بالتحصيل والطلب أم بالزهد فيه والابتعاد عنه ؟ المال هو كل ماحقق حاجة للإنسان من حاجيات الحياة أو ساعد على إشباعها فلقمة العيش التى يأكلها الإنسان ليدرأ بها عن نفسه الموت جوعًا ويستعين بها على زيادة قوته هى المال فى أصدق صوره وأكملها وكذلك جرعة الماء يشربها الإنسان لنفس هذا الغرض والثوب يلبسه الإنسان ليستر به عورته ويقيه البرد والقر ، والمسكن يحتمى به من عدوان الطبيعة وعدوان المعتدين من حيوان وإنسان كل هذه أموال لا سبيل للحياة إلا بحيازة الإنسان لها واستهلاكها واستعمالها فى الساعة اللازمة لاستهلاكها واستعمالها .. وهذه الضرورات بدورها لا يمكن الحصول عليها إلا بأدوات ومهمات وعمل فالصيد فى البر يحتاج إلى مخاطرة وسلاح والصيد فى البحر يحتاج إلى شبكة وشص وطعم ، وتجهيز الطعام لا بد له من إناء ووقود ، وصنع الثياب لا يتم بدون الاستعانة بأجهزة معينة ، ولا يمكن للإنسان أن يحصل على حاجته من طعام وشراب بغير هذه الأدوات ، فهى إذن ضرورية للإنسان ضرورة الطعام لحفظ الكيان .
فهل يمكن لكائن من كان أن يعتبر هذه الأشياء أو السعى للحصول عليها شرا ورذيلة ؟

اللهم إن هذا الشخص لا وجود له فى الحياة وما من كائن حى إلا ويقدس الحياة ويشغف بها حتى ولو تظاهر بعكس ذلك وأعلن زهده فيها ونقمته عليها فواجب الإنسان الأول بل وسعادته هو فى الابقاء على حياته وحفظ كيانه فى أرفع الصور وأكملها ولذلك فقد حضت الأديان كلها على حفظ هذا الكيان واعتبرته نعمة النعم وكل ما يؤدى إليه نعمة كذلك بطبيعة الحال فالقرآن يدعو الناس إلى الطعام والشراب والسعى والكسب ويطلق على ذلك كله وصف الطيبات فيقول وقوله الحق «وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم» البقرة ـ «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين» البقرة . «وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون» المائدة . «وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفًا أكله والزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين» الأنعام . تلك هى آيات القرآن أمر مستمر ودعوة ملحة إلى الأكل من الطيبات والانتفاع بها لحفظ كيان الإنسان ويعتبر القرآن كل دعوة تخالف ذلك دعوة باطلة وإثمًا مبينًا فيقول تعالى وهو أصدق القائلين : «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» . المائدة .

«قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون» ٣٢ الأعراف .

هذا هو موقف الإسلام ، يحفظ كيان الإنسان ، أما بالنسبة للمسيحية فإن حملها لواء الدعوة ضد الغنى والمال لم يقعدها عن التماس حاجيات الإنسان من الله فى كل صلاة تحت اسم الخبز فأصبح المسيحى يقول فى صلاته اليومية «واعطنا خبزنا اليومى» ولما كانت السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة والأرض لا تنبت بنفسها خبزًا ولا فطيرًا وإنما لا بد لذلك من عمل وصناعة وتجارة وملكية وحيازة فإن ذلك معناه ضرورة المال واستحالة الاستغناء عنه إلا إذا أريد الاستغناء عن الحياة نفسها .

لا يوجد حد أعلى لحيازة الطيبات

يقول لنا أعداء المال : رويدًا ، فنحن متفقون على أن القدر الضرورى لحفظ حياة الإنسان هو خير وبركة ونعمة من أكبر النعم ، ولكنا نكره مازاد على ذلك ونحاربه وهو الذى نختصه بنقمتنا ونرى الفضيلة فى البعد عنه والتجرد منه ، ولكن هذا القول فى الواقع قول غامض مبهم لا يحل لنا المشكلة إذ ما هو هذا القدر الضرورى لحفظ كيان

الإنسان ؟ ما هو حده وما هو نطاقه ؟ إن لكل إنسان حاجات تختلف عن حاجات الآخر وليس لهذه الحاجات قدر معين فهى تزيد وتنقص على حسب الأحوال والظروف ، فحاجات الطفل غير حاجات الصبى ، وحاجات الفرد غير حاجات رب العائلة ، والعائلة قد تكون مؤلفة من فردين أو من عشرة ، فما هو القدر إذن الذى يمكن أن نصفه بأنه هو الضرورى للإنسان ومازاد عليه فهو نافلة أو بالأحرى شر ورذيلة ؟ ، قد يقولون إن القدر الضرورى للإنسان يتطور بتطور حالته ويزيد بزيادة حاجات الأفراد المنوط به رعايتهم ، ولكنهم ينسون أن الإنسان كلما كبر فى السن كلما تزايد عدد الأشخاص الذين يعولهم وكلما نقصت قدرته على الإنتاج فى الوقت نفسه ، بل إنه يصل عند سن معينة إلى العجز المطلق عن العمل والإنتاج ، فما هو الحل إذن فى مثل هذه الحالة ؟؟ .. لا حل لها إلا أن يدخر الإنسان فى أيام قوته ما يستعين به فى أيام ضعفه ، وفى أيام وحدته ما يستعين به بعد أن يصبح ربًّا لعائلة . وكل مال يقتنيه الإنسان لهذا الغرض وإن بدا كماليًّا فى لحظة من اللحظات فهو لا يلبث أن ينقلب ضروريًّا للإنسان فى مستقبله ، فمن الخطأ إذن تحديد قدر لحاجة الإنسان ما دام الإنسان يجهل مستقبله وحوادث الغد كلها ، وما قد تتطور إليه حياته وما قد يصيبه من عجز وكوارث ، وصدق رسول الله إذ يقول «خذ من صحتك لمرضك ، ومن غناك لفقرك ، ومن دنياك لآخرتك» .

لن يكون المال إلا نافعًا مفيدًا . بل ضروريًّا مهما زاد وفاض على شريطة أن يُحسِن ربُّه استغلالَه وإنفاقه لفائدة المجموع ، ذلك أن سنة الحياة قد جعلتها لا تخلو من الضعفاء والعاجزين الذين لا يستطيعون إنتاجًا ولا كسبًا ، وهؤلاء يؤلفون فى الإنسانية العدد الأكبر ، فالنساء والأطفال والشيوخ والعجزة والمرضى يربو عددهم عن الأقوياء القادرين على الإنتاج الذين لا يتجاوز عددهم بحال خمس مجموع البشرية ، ومهمة القادرين هى التكفل بسد حاجات الآخرين ، ومادامت هذه هى سنة من سنن الحياة فإن كل مال مهما زاد عن حاجة الفرد فهو لا يزيد عن حاجة المجموع وحسبنا أن نلقى نظرة إلى المؤسسات العمرانية من دينية وخيرية واجتماعية ، فهل كان يمكن أن تقام هذه المؤسسات بغير مال الأغنياء أو المال المجموع من الأفراد على السواء مما زاد عن حاجاتهم الأساسية فأمكن توجيهه لمصلحة الآخرين ؟ . هذه المعاهد الدينية مسيحية كانت أو إسلامية كالأزهر أو الفاتيكان ومدارس الرهبان وهذه الكنائس والمساجد والأديرة ، هل كان يمكن أن تقام بغير المال الكثير ، ولست أحسب أن هناك شخصًا واحدًا ممن يحاربون المال ويدعون للزهد فيه يمارى فى ضرورة هذه المؤسسات الدينية ، ولندع هذه المؤسسات الدينية لنشير إلى المؤسسات الاجتماعية كالملاجئ والمستشفيات التى يأوى إليها العجزة

والمرضى وأخيرًا هذه المعاهد والجامعات والمدارس ، هل كان يمكن أن تقوم هذه المؤسسات الضرورية للعمران بغير مال زاد عن حاجة الفرد فاستغل لمصلحة الجماعة . قد يقول قائل : ولكن هذه المؤسسات كلها يمكن أن تقوم بها الجماعة متعاونة متساندة ، وفى أيامنا الحديثة تقوم بها الدول لمصلحة الجماعة فلا ضرورة لوجود الأغنياء لإنشائها ولكن ذلك لا يغير طبيعة الموقف بحال من الأحوال ، ذلك أن الدول أو الجماعة لا بد لها من مال لإنشاء هذه المؤسسات وهو ما تجبيه من الأفراد على شكل الضرائب ، وكلما كان الأفراد أغنياء كلما زادت حصيلة الدولة من الضرائب ، وتمكنت من خدمة المجموع أجل الخدمات ، أما إذا كان أفراد الجماعة أو الأمة فقراء لا يملكون إلا الضرورى لحياتهم ، فمن أين تأخذ الدولة ضرائبها التى تنشئ بها هذه المؤسسات التى لا غنى للعمران عنها ؟ فالمال ضرورى على كل حال ، وفى مختلف الأوضاع ، وكلما زاد المال فى يد الجماعة كلما كان مظهرًا من مظاهر قدرتها على أداء رسالتها فى سبيل تحقيق أشرف الغايات . والحق أنه لا يوجد مثل أعلى يمكن أن يحققه الإنسان عن غير طريق المال حتى لو كان هذا المثل الأعلى هو فى الفقر المدقع ، فالبوذيون مثلاً قد فرضوا على أنفسهم عيشة الرهبنة والتجرد من كل متاع فى الحياة ، فهم يُحرِّمون على أنفسهم امتلاك النقود على أى صورة من الصور ولا يسمحون لأنفسهم إلا بقطعة من الثياب تستر جسدهم وعودًا من الخشب يتوكأون عليه وإناء يضعون به طعامهم الذى يُحتِّمون على أنفسهم أن يلتمسوه من الناس التماسًا . والبوذيون يرون السعادة لا تتحقق بغير هذا الأسلوب الذى يصبح فيه الإنسان بغير شهوات كما يقولون فارغ القلب والفؤاد إلا من التفكير والتحليق فى سماء الخيال والمعرفة . ولكن هذا الأسلوب من الحياة السعيدة كما يتخيله أصحابه لا بد لتمامه من توافر الغنى عند الآخرين لكى يجد هؤلاء الرهبان السعداء من يزودهم بقوتهم اليومى برًّا واحتسابًا وإلا فلو عنَّ لكل الناس أن تصل إلى هذه الدرجة الرفيعة من السعادة (والعياذ بالله) لما وجد سعيد مايتسوله من سعيد آخر لأن الكل سيكون قد أصبحوا غارقين فى السعادة بالفقر والتسول فمن أين لهم القوت فى هذه الساعة إلا أن يلتمسوه من جديد من خلال العمل والجهاد والنصب الذى يفرون منه ، فالمال إذن لا غنى للجماعة عنه لحفظ كيانها من ناحية ، ولتحقيق ما ترتجيه لنفسها من أمثلة عليا وتدرج فى معارج الكمال من ناحية أخرى .

شــرور المـــال

يقول خصوم المال وأعداؤه وعلى رأسهم المسيحيون القدامى والبوذيون وبعض

الزاهدين فى الدنيا من شتى الملل والنحل أن المال هو شر المصائب والويلات التى يغص بها الكون ، فهو سبب الجريمة والباعث عليها ، وهو هادم الأخلاق والفضيلة ومدمر الجماعات والأسر ، فبسبب المال ينازع الأخ أخاه ، والابن أباه ، والزوجة زوجها .. وبسبب المال تتصارع الطبقات الاجتماعية ويستعين الأقوياء بالضعفاء ، وبسبب المال تندلع الثورات والحروب الجائحة ... فأى مصيبة بعد ذلك وأى لعنة تفوق مصيبة المال ولعنته على بنى الإنسان ؟ فكيف يمكن أن يوصف بأنه خير ونعمة جدير بالتحصيل والطلب والاستكثار منه ؟ إن المال لا يكاد يزيد فى يد الإنسان حتى تتغير طباعه فيمتلئ كبرًا وبطرًا وغرورًا فيعمد إلى احتقار الآخرين وإذلاهم وتسخيرهم وإعناتهم وقلما يفكر إلا فى زيادة ثروته وتجريد هؤلاء الفقراء من ثمرة عملهم وهذا ما يحمل الفقراء على الحقد على الأغنياء فيفكرون فى سرقتهم ونهبهم والفتك بهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وليس بعد ذلك جرم ورذيلة أما الأغنياء فيعكفون على ملذاتهم وملاهيهم وإشباع شهواتهم ، والإسراف فيها والاستهتار بكل عرف أو تقليد أو دين أو أخلاق مما يعود على أجسامهم وأرواحهم بالتلف والخسران ، وعلى المجتمع بالويل والثبور ، بل قد يدفع الغنى الإنسان إلى الكفر والطغيان فلا يعبد سوى المال ولا يؤمن برب سواه مصداقًا لقول القرآن «كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى» فكيف لا يبعد الإنسان بنفسه عن شر هذا مداه ؟ وكيف يعمل على الاستزادة من المال فيكون كالباحث عن حتفه بظلفه ؟؟؟

ولكن هذه الاتهامات التى توجه إلى المال هى فى حقيقتها اتهامات للحياة ذاتها فطبيعة الحياة وسنتها الكفاح والصراع والتنازع على البقاء وتنافس العناصر وتلاطمها ليبقى الصالح منها ويزول الفاسد عملاً بالآية الحكيمة «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» وليس المال وحده هو السبب الأول لما يشكون منه الشاكون من الشرور والآثام .. بل إن العقل البشرى نفسه وهو أغلى جواهر الإنسانية ، هو المحدث الأول لما يشكون منه من جرائم وفتن وويلات فهو الذى يحيك المؤامرات ويدفع للحروب ويدس الدسائس وهو الذى قد يتجرأ على الإلحاد ، والكفران بخالقه رب السموات والأرض وهو الذى يحلل كل حرام ويهدم كل نظام وقد يدعو إلى الفوضى والانحلال كما يُرى فى آثار بعض الفلاسفة والكتاب فهل معنى ذلك أن تنهض الإنسانية لمحاربة هذا العقل وإلغاء سلطانه فتحدث لنفسها الجهل والحماقة والجنون لكى تنجو من شرور العقل وأخطاره ؟؟

وكذلك المرأة سبب آخر يكمن خلف ما تشهده الحياة من صراع وما قد يقع فيها من جرائم مادية أو خلقية حتى لقد وضع المثل المشهور «فتش عن المرأة» لكى يعرف سبب

أى جريمة أو أى مشكلة أو أى حركة ضخمة من حركات البشرية . فهل معنى ذلك أن تنهض الإنسانية لمحاربة المرأة والقضاء عليها فيكون معنى ذلك فناء الإنسانية نفسها ، فما المرأة إلا الحياة ؟؟ وكيف نستهجن المرأة إلا إذا كنا نستهجن الحياة ؟!

لقد حاول المسيحيون فى القرن الأول للمسيحية أن يشنوا هذه الحروب بالفعل على المال والعقل والمرأة فدعوا للفقر ودعوا للجهل ودعوا لمحاربة النساء حتى أسموهن أحبولة الشيطان ففشل المجتمع المسيحى فى حربه ضد الطبيعة كما سنرى وركب فى ذلك متن الشطط حتى كانت أسود صفحاته هى تلك التى حاول أن يقوم فيها بهذه الدعوات فيحارب المال والعقل والمرأة ، وهى عناصر الحياة ومقوماتها ومهمتنا أن نقبل الحياة بعناصرها الأساسية ، وأن نتفحص حقيقة هذه العناصر ونسعى لتهذيبها وتعليمها وإحسان استغلالها والحد من آفاتها وشرورها والعمل على مضاعفة حسناتها وتلك هى رسالة الإنسانية ، أن تتجه كل يوم صوب المثل الأعلى بزيادة سيطرتها على العناصر وتنظيم القوى الطبيعية وإحسان استغلالها ، لا أن تقاومها وتحاربها وتحاول أن تغض من شأنها فتسىء بذلك إلى نفسها وتتردى فى هاويات من الظلام والفوضى كما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى التى يسمونها العصور المظلمة فضلاً عن أن كل جهد فى هذا السبيل هو جهد مقضى عليه بالفشل لأنه اصطدام بسنن الحياة وقوانينها ولن تستطيع لسنة الله تبديلاً .

قلة المال بيد البعض لا كثرته هى علة المصائب

على أن تحليلاً بسيطًا للأعراض التى يشكو منها أعداء المال سرعان مايدلنا على أنها لا ترجع إلى المال نفسه وإنما إلى سوء توزيعه وأن قلة المال لا كثرته هى علة ما يضطرب به المجتمع من الجرائم والمصائب وأن علاج هذه الحالة لا يكون بإلغاء المال وهو عمل مستحيل كما قدمنا وإنما بزيادة المال فى يد الأفراد ومحاربة الفقر والفاقة اللذين هما السبب الوحيد فى الكفر والإلحاد والتمرد على القوانين والأخلاق والأديان والفضائل والأنظمة وكل ما يتصوره الإنسان من التدهور والانحلال .

إن أضخم ثورتين عرفها التاريخ الحديث فى ختام القرن الثامن عشر ومستهل القرن العشرين هما الثورتان الفرنسية والشيوعية وكلتاهما ثورة أضرم نارها الفقر وحمل لواءها الفقراء والمحرومون والطبقة السفلى من الشعب ، وكانت الجموع تطلب فى كلتا الثورتين خبزًا كرمز على ما يعانونه من الجوع والمسغبة ، وقد اجتاحت هاتان الثورتان فيما اجتاحتا الدين والأخلاق وزعزعت أركان الأسرة وصدعت بنيانها . فالثورة الفرنسية لم تأت

بالحرية المقدسة والإخاء والمساواة فحسب ولكنها هدمت الكنيسة فيما هدمت ثم تعدتها إلى هدم فكرة الألوهية نفسها حتى كرس روبسبير نفسه كاهنًا أكبر للمعبود الجديد معبود العقل ، وكذلك الثورة البلشفية فعلت مثل ذلك تمامًا وأعلنت روسيا نفسها دولة لا دينية بل وتحارب الأديان وتطلق عليها فيما تطلق لفظ الأوهام ، فلعل هذا الهدم للمبادئ الخلقية والدينية على أيدى ثورات الفقراء كاف لهدم أى تفكير فى أن الفقر باعث على الفضائل ولا يوجد مبدأ هدام فى العالم كالفوضوية لا يكون الأصل فيه الفقر . والفقر هو مصدر الجريمة والباعث الأول عليها إما بطريق مباشر أو غير مباشر كأن ينشأ المجرم فى بيئة فقيرة فيحرم من العلم والثقافة والورع الذى هو أساس الفضائل فيشب مجرمًا عنيدًا حتى ولو لم يكن فقيرًا .

ولندع هذه الجرائم ، جرائم الاعتداء على المال من نهب وسلب وسرقة ونصب وننتقل إلى ميدان آخر وهو ميدان الجرائم الأدبية والحرف الممقوتة التى تصل إلى مرتبة الجرائم . إن الزنا بطبيعته جريمة خلقية قد تتردى فيها أى امرأة غنية كانت أو فقيرة ولكن الفقر وحده هو الذى يجعل من المرأة بغيًا محترفة وليس فى الدنيا كلها نكبة تحل بالمرأة وبالجنس البشرى على العموم أعظم من نكبة احتراف البغاء حيث تتدهور البغى إلى درجة أحقر من الحيوانية وإلى درجة من البؤس والشقاء لا يتخيلها أكثر الناس ، وليس فى المجتمع أخطر من امرأة تحترف البغاء ، وما يمكن أن تحدثه فيه من الشرور والآثام .

ثم هذا التسول الذى يحترفه الرجل فيتجرد فيه عن نخوته ورجولته بل وإنسانيته ويصبح مخلوقًا عجيبًا رأس ماله أن يكون قذرًا مريضًا عاجزًا تعاف النفس رؤيته ويعمد إلى اصطناع ذلك كله فى نفسه اصطناعًا إذا لم يكن فيه بطبيعته فيتصنع الكساح أو العمى أو العته لكى يستدر عطف الناس ويسلب نقودهم بهذا الأسلوب من النصب والاحتيال . هذا الجيش اللجب من المتسولين الذين تغص بهم بلادنا وبلاد المسلمين ، هذا الجيش من المجرمين الأشرار الذين يفرخون الجريمة والمجرمين كما تفرخ الدجاجة بيضها ليسوا إلا ثمرة من ثمار الفقر المدقع ، فلو أن هؤلاء الذين يدعون أن الغنى هو ينبوع الرذائل وأن الفضيلة لا توجد إلا حيث يوجد الفقر لو أنهم كانوا على شىء ولو قليل من الحق فيما يقولون لوجب أن يكون هؤلاء المتسولون أفضل الفضلاء طرًا وأكثر المتقين ورعًا ولوجب أن يتغير مصير البغايا فيدفعهن الفقر إلى أن يكن قديسات ونموذجًا للطهر والعفاف بدل أن يدفعهن لاحتراف هذه المهنة الممقوتة ، والحق أن كثيرًا من هاته النسوة

كن يُرِدْنَ أن يحتفظن بشرفهن وعفافهن ولكنهن لما لم يجدن القوت بعن آخر ما يملكن فى الحياة ليأكلن به وهو كرامتهن وحريتهن وجسدهن .

وإذن فالفقر الشديد وليس الغنى الكثير هو الباعث على الكفر والإلحاد وأشنع الجرائم وإذا كان هناك غنى واحد من بين كل مائة يدمر المال أخلاقه ونفسيته فإن الأغلبية العظمى يصلح المال أحوالهم ويدفعهم إلى سلوك سبل الرشاد ، وإذا كان هناك أغنياء يفسدون فى الأرض فإن هناك آخرين يقابلون نعمة المال بالشكر ، والإحسان بالإحسان وهؤلاء هم بهجة الدنيا وزينتها .

تدرج الفضيلة بازدياد المال

وكلما زاد المال فى يد الشخص وخفت وطأة الفقر كلما اكتسبت حياة الشخص اتزانًا وزاد نصيبها من السعادة والفضيلة ، وكلما قل نصيب الفرد من المال كلما ساءت حالته النفسية والمادية وزاد شقاؤه وقل نصيبه من الفضيلة والخلق ، ففى مصر مثلاً حيث توجد ألوف مؤلفة من العمال الزراعيين الذين يعملون بأجر تافه لا يتجاوز أربعة قروش فى اليوم فلن تجد فى هؤلاء مخلوقًا واحدًا يعرف شيئًا من أمر الأخلاق أو العلم أو الفضيلة أو الدين وإنما هو يعيش معيشة تافهة قد تَفْضُلُها معيشة بعض الحيوانات ولن تجد عندهم متسعًا من الوقت يسمح لهم بشئ من التفكير أو التطلع لمعرفة شئ أو إدراك شئ وليس يعنيهم أن يتصفوا بأى صفة وليس هناك أمر يتحرجون من ارتكابه فهم يعملون ما بقى رئيس العمل يضربهم بالسوط أو بالعصا ، فإذا أدار ظهره عنهم لحظة واحدة كفوا عن العمل بل ربما يخربون ما يعملون لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وربما نهبوه وسلبوه سلبًا ، ولذلك فإن رئيس العمل يلازمهم بسوطه ليحملهم على العمل وليتقى أذاهم وشرهم ، وليس بعد ذلك مهانة وضعةٌ للإنسانية ، وهذا هو حال السواد الأعظم ممن يكسبون قوتهم الضرورى بشق النفس ، ولو أُعطى هؤلاء البؤساء عشرة قروش بدلاً من أربعة لكانوا أحسن حالاً من غير شك ، ولو أعطوا عشرين بدلاً من عشرة لدفعهم ذلك فى طريق الأخلاق والفضيلة ولعرفوا معنى الواجب وقدسوه ، ولنشأ فى صدورهم الضمير وألهبهم بسوطه بدلاً من سوط (مقدم الأنفار) الذى يلهب ظهورهم ، ولا ينتجون إلا فى ظله . فلو أن الفقر هو الباعث على الفضائل لوجب أن تكون القروش القلية هى الدافعة لعرفان الجميل لا العشرة فضلاً عن العشرين ، ولكن الحق أن الفضائل تنمو فى النفس بتوفير النعم فى يد الإنسان ، ذلك أنه يتذوق فى هذه الحالة جمال الحياة ويشعر بما تنطوى عليه من سعادة ولذات روحية تسمو على هذه اللذات المادية فيفكر فى المعانى المجردة ويتصل

بروح الله وكل ذلك لا يتوافر عند الإنسان إلا بعد أن يشبع حاجاته المادية كلها فى غير عناء ، ولذلك فالمشاهد أن أكثر العمال تدينًا هم هؤلاء الذين تَحسَّن أجرُهم وأصبحت لهم بيوت مستورة ورزق موفور ، وحاجات مقضية ، وأكثر من هؤلاء تدينًا وفضيلة وقوة خلق هم الذين يطلق عليهم لقب الطبقات الوسطى ، هؤلاء الذين ارتفع دخلهم فأدركوا أول درجات الغنى فأصبح لديهم سعة من المال تفيض عن حاجتهم وحاجات من يلوذ بهم على وجه الكرامة والاعتدال فهنا تغزر الفضيلة ، وتترعرع الأخلاق وتزدهر . وهنا تزدهر الأديان والقوانين والنظم والعرف والتقاليد والعلم وكل ما يحفظ كيان البشرية ويرقى بها إلى مرتعها الخصيب ، ولذلك فقد اعتبرت هذه الطبقة فى كل زمان ومكان قوام المجتمع وعموده الفقرى ، ويتوقف على عظم شأنها رفعة الأمم أو انهيارها فكلما كثر فى أمة هذا الطراز من الناس الذين أشبعوا كل حاجاتهم وفاض فى أيديهم المال كلما ارتفعت هذه الأمة فى معارج الكمال واتسقت حياتها وازدهرت . وكلما تضاءلت هذه الطائفة وقل عدد أفرادها فإن المجتمع يختل توازنه وتسيطر عليه الفوضى فى كل نواحى الحياة .

والطبقة الوسطى لا يمكن أن تعد فى زمرة الفقراء ، ولكنها أول طبقات الأغنياء أو الدرجة العادية من درجات الغنى ، ومن هذه الطبقة يتطور البعض ليحصلوا أكبر درجات الغنى والذين يوجهون مالهم لمنفعة الجماعة بتخصيصه للإنتاج وإنفاق بعض الأرباح فى أعمال البر والإحسان والنفع الاجتماعى كإنشاء المعاهد والملاجئ والمستشفيات ، ومعاونة العلماء والمصلحين ، فهؤلاء يصلون بعملهم هذا إلى ذروة الرقى البشرى الذى لا زيادة بعده لمستزيد ، حيث يصبح الغنى الواحد منبعًا للخير والإحسان والنفع الإنسانى بأكثر مما يفعل عشرات الألوف من الناس ومئاتها مجتمعين . وحسبى أن أشير إلى أن غنيًّا واحدًا أمريكيًّا عرض على مصر فى يوم من الأيام هبة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لتخصص لدراسة التاريخ المصرى والكشف عن مغاليقه عن طريق الحفريات واستخراج الكنوز المصرية الكامنة فى التربة المصرية غير طالب فى مقابل ذلك جزاءً ولا شكورًا إلا إرضاء وجه العلم والتاريخ . وهناك غنى آخر قدم لبلاده هبة لتنشئ بها فى كل قرية مكتبة عامرة بأفخر الكتب وأنفسها ...

فإذا علمت أن فى مصر لا توجد سوى مكتبة فى القاهرة وأخرى فى الاسكندرية وبعض مكتبات لا تتجاوز عدد الأصابع فى كبريات عواصم المديريات ، وإذا علمت أن فى مصر ما يزيد على ثلاثين ألف قرية استطعت أن تدرك ضخامة هذه الهبة التى قدمها غنى لبلاده بنشر العلم بين ربوعها على هذا النطاق الواسع .

فشل الدعوة لمحاربة المال

من أجل هذا الذى قدمناه وبسطناه كان حقيقاً أن تفشل كل الدعوات التى حاولت أن تغض من قيمة المال وأن تدعو لاحتقاره والزهد فيه والبعد عنه وأن يخل محلها دعوات لتنظيم المال وتدبيره مما يخفف من أضرار إساءة استعماله ، وتحسين توزيعه بحيث لا يحرم منه كائن من كان مهما كان ضعيفاً أو فقيراً . وقد كانت البوذية فى القديم ثم المسيحية هى أقوى دعوة وأخطرها فى محاربة المال وليس فى الأناجيل الأربعة المنسوبة إلى السيد المسيح دعوة جلية صريحة واضحة كالدعوة إلى الزهد فى المال والتجرد عن الغنى . وحياة المسيح نفسه هى دعوة حارة لحياة الفقر والمسغبة ، فمنذ بارح أمه وخصص نفسه لدعوته الإصلاحية ، وهو يعيش فى الفلوات ويأكل من الشجر ويلتمس طعامه عند الحاجة إليه ، ومما ذكره الإنجيل فى هذا السبيل أنه كان جائعاً فى يوم من الأيام فمد يده إلى شجرة تين ملتمساً بعض ثمارها فلم يجد فيها شيئاً فدعا عليها بالجمود والموت فيبست من ساعتها واعتبرت هذه إحدى معجزاته .

على أن المسيح دعا دعوة صريحة ضد الغنى والمال ودعا للتجرد منه بما لا يدع للبس أو الشك فيما يرمى إليه بدعوته ، فقد تقدم إليه فى أثناء تجواله شاب وطلب منه أن يدله عن طريق الخير ، فقال له المسيح : ألا تعرف وصايا الكتاب المقدس ؟ لا تسرق ، لا تزن ، لا تقتل ، لا تسب أباك وأمك ... الخ . فقال له الشاب : إننى أحفظ هذه الوصايا كلها وأعمل بها ، ولكنى أريد درجة أكبر فأجاب المسيح على الفور : إذن فاذهب وبع كل مالك وأملاكك ووزعها على الناس ثم اتبعنى . فانصرف الشاب مغموماً مقهوراً لأنه كان ذا مال كثير ، فالتفت المسيح لتلامذته وقال لهم : الحقَّ أقول لكم إن دخول الجمل فى سَمِّ الخياط أسهل منالاً من دخول الغنى فى ملكوت السماء أى أن المسيح قد جعل الفقر هو قمة الفضائل . وكثيراً ما يكرر الإنجيل هذا المعنى كقوله « طوبى للفقراء والضعفاء ـ طوبى للذين لا يجدون قوتهم اليومى ويلتمسونه كما تلتمسه طيور السماء » .

والإنجيل يذم الادخار ويذم المال فى جميع صوره وأشكاله . وقد نهج تلامذة المسيح نهج أستاذهم فتركوا أعمالهم التى اعتادوا أن يزاولوها واتبعوه فقراء لا يملكون قوتهم اليومى ، وقد اشتق المسيحيون فى أيامهم الأولى فكرة الرهبنة واعتزال الحياة فى الأديرة البعيدة عن العمران من هذه الروح العامة التى اقتبسوها من حياة المسيح وحياة تلامذته وتعاليمهم . على أن ذلك كله لم يتحقق إلا فى أيام المسيحية الأولى ، عند ما كانت لاتزال

دين الضعفاء والفقراء والأرقاء ، أما بعد أن تحولت المسيحية إلى دين رسمى ، وحصلت الكنائس المسيحية على الاعتراف بوجودها ، وبالتالى على كل شيء من السلطان المادى ، فقد انقلبت رأسًا على عقب ، وتدرجت سريعًا فى سلم الغنى والثراء الفاحش ، حتى أصبحت الكنيسة هى أغنى أغنياء الدنيا على الإطلاق بما تملك من قصور وضياع وأموال وكنوز من الذهب النضار والجواهر واللآلئ ، مما سال له لعاب الملوك المعاصرين وملأهم حقدًا وحسدًا لرجال الكنيسة . وغنى عن البيان أن هذه الثروة لم تكن من نصيب الجدران والأعمدة الرخامية ، بل لم يكن فقراء القسس وصغارهم ينالون منها إلا النذر التافه ، واستأثر بالغنى والترف البابوات والكرادلة والأساقفة ، ممن كانوا يسمون فى ذلك الوقت أمراء الكنيسة ، ولما ضاق سطح الأرض عن أن يمد البابوات ورجال الكنيسة بالعروض والمتاع المعدَّين للبيع واجتلاب الأموال ، عمد البابوات إلى ملكوت السماء يتصرفون فيه بالبيع والإيجار ، فاخترعوا صكوك الغفران ، التى تخول لحاملها المغفرة التامة لجميع خطاياه ودخوله ملكوت السماء ، وما على المسيحى إلا أن يبتاع صكًا من هذه الصكوك بأن يدفع الإتاوة التى تفرضها الكنيسة عليه فيسجل اسمه فى الخانة المخصصة لكتابة أسماء المؤمنين ، كما هو الحال فى دفاتر الشيكات أو الكمبيالات ، فيصبح له حق فى السماء لا ينازعه فيه رضوان . وقد كانت هذه إحدى مبتكرات الكنيسة لزيادة مواردها وثروتها ، ولست بحاجة إلى أن أشير إلى عمق الهاوية التى تردت فيها الكنيسة بعد أن آل إليها السلطان ، وما تحولت إليه الأديرة فى هذا الزمان من مباءات للفجور والفساد ، وإنما الذى يعنينا أن خلفاء المسيح وحملة رسالته الداعية إلى الفقر قد أصبحوا أكثر العالمين سعيًا وراء المال ، لا فرق فيهم بين مؤمن أو زنديق ، أو كاهن أو تاجر ، أو أمير أو وضيع . ولرب قائل يقول ولكن هذا الذى تشير إليه قد حدث فى فترة انحلال وتدهور فى الأخلاق ، فلا ينبغى أن يتخذ حكمًا عاما على المسيحيين فى كل عصر وزمان ، ولكن يرد على ذلك أن القرون التالية لهذا العصر الذى نشير إليه قد شهدت إصلاحًا دينيا وثورة دينية على الكنيسة والبابوية ، وولدت البروتستانتية التى هى بمثابة تجديد لشباب المسيحية وإحياء لتعاليمها الأولى .

ولكن هذا الإصلاح الذى اكتسح الكنيسة بكل مفاسدها ، لم يستطع أن يُرجع للمسيحيين ذرة من الروح التى تدعو إليها المسيحية الحقيقية وهى روح الفقر والضعف ، بل لقد كان هذا الإصلاح الدينى بالذات هو الحافز القوى الذى دفع بأوروبا إلى نهضتها الحديثة ، هذه النهضة التى حولت أوروبا المسيحية بالتدريج إلى أقوى قارات الدنيا الخمس ، وأكثرها ثروة وغنى ، وأدت إلى اكتشاف العالم الجديد الذى تتكدس فيه

الثروة تكدسًا ، ووقعت الشعوب الأقل ثروة وغنى وقوة تحت براثن الاستعمار المسيحى الذى راح يستنزف قطرات الدم من هذه المستعمرات ، فأثرت بعض الدول ثراء فاحشا مما جر إلى التنافس والتحاسد بين دول أوروبا المختلفة ، مما أدى إلى قيام الحروب الاستعمارية المختلفة . فالمال هو طلبة أوروبا المسيحية وأمريكا المسيحية ، ولكن الأوربيين والأمريكيين اهتدوا إلى ضرورة تنظيم المال وإحسان توزيعه وضرورة استغلاله لمصلحة المجموع فقامت المذاهب الاشتراكية ووضعت على أساسها القوانين والتشريعات التى تنظم تداول المال واستثماره وتفرض على الأغنياء الضرائب الباهظة لتنفق المتحصل منها على حاجات الفقراء ، وهو ما فعله الإسلام قبل أوروبا بعشرة قرون من الزمان . واليوم لن تجد صيحة واحدة وسط هذه المئات من ملايين المسيحيين الورعين تذم المال أو تستهجن استغلاله والاستفادة منه ، بل على العكس من ذلك ترتفع الدعوة عالية من جوف الهياكل والمعابد بضرورة الاستزادة من هذا المال على أن يعطى للفقراء نصيب منه وهذا هو الوضع الحقيقى بالنسبة للمال . ولم يعد اليوم فى أوروبا وأمريكا وهما جمهور العالم المسيحى إلا أغنياء إذا قيسوا بأمثالهم من الأمم الأخرى فليس بين صفوفهم من لا يستخدم الكهرباء فى خدمة أغراضه المختلفة ومن لا يجد الدفء ، المسكن النظيف والماء الساخن ومن لا يجد اللحم المرئ لطعامه ، والصوف والحرير للباسه والسينما لتسليته وملهاته ، والكتاب والمدرسة والجامعة والصحف والراديو لتعليمه وتثقيفه ، والمستشفى لعلاجه وتمريضه ، وهؤلاء هم الذين يدعوهم دينهم إلى الزهد فى الحياة ومقاطعة المال ، فأين هم إخواننا المسلمون والشرقيون الذين كانوا بالأمس مستودع هذا الغنى وبالتالى مهبط الحضارة والثروة ؟ أين هم اليوم من ذلك كله والكثيرون منهم يسترون عورتهم بالخرق البالية ويشقى السواد الأعظم ويكدح بالليل والنهار من أجل قروش تافهة لا تكفيه إلا لتحصيل ما يحول بينه وبين الموت جوعًا ومسغبة ، مع أن الإسلام جاء عدوًا لذلك كله فحارب الفقر ودعا إلى الغنى والقوة والعزة التى لا سبيل لتحقيقها إلا بالمال ؟!

الإســلام والمــال

يقف الإسلام من المال موقفًا هو إحدى آيات الإسلام البينات ، وأنه جاء دينًا شاملاً لتنظيم الدنيا وعمارة الكون ولذلك فقد جاء على النقيض من دعوة المسيحية ، ولعل السبب الذى جعل المسيحية تنحو هذا النحو الغريب فى محاربة المال ، هو أنها كانت دعوة محلية تتصل بظروفها الزمنية والمكانية ، لقد جاء المسيح مصلحًا للمجتمع اليهودى ، وما أدراك ما اليهود ؟ عباد المال وسدنته الذين عملوا منذ أقدم العصور على

سلبه من يد الآخرين وتكديسه بين أيديهم ليتخذوه سلاحًا يسخرون به الضعفاء والفقراء لقضاء أغراضهم ولباناتهم فى غير رحمة أو شفقة ، فكان لا بد من حملة شعواء تشن على اليهود وعلى أساليب اليهود فى جمع المال فكان هذا هو سبب هذا التطرف الشديد فى حملة المسيح على المال ، والتطرف لا يحارب إلا بتطرف مثله والغلو فى عبادة المال لا يقابله إلا الدعوة لاحتقار المال ، فالمال وسيلة لنفع الفرد والمجموع . فإذا انقلب فأصبح غاية لا وسيلة فقد تحول المال إلى أداة تدمير وشقاء ، وهذا هو ما يفسر موقف الإنجيل من الغنى والمال . أما الإسلام وقد جاء ليكون دينا عاما شاملاً صالحًا لكل زمان ومكان فقد جاءت أحكامُه وقواعده مقررة لسنن الوجود ومنظمة لها ومحددة لنظامها وكيف ينتفع بها على خير الوجوه . ولما كان المال كما رأينا هو مادة الحياة ووسيلتها ، فقد اعتنى به الإسلام اعتناء شديدًا ، فامتدحه وامتدح حسن استغلاله وأرشد إلى ضرورة حفظه ووقايته من التلف والخسران ، ثم عالج آفاته ومشاكله مما يذهب بشره ويبقى خيره وبركته .

يقول القرآن الكريم «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما» فالقرآن هنا يصف المال بأنه قوام الحياة ، وهو ما شرحناه حتى الآن ، ثم يرشد الإنسان إلى ضرورة الاهتمام بحفظ ماله ورعايته وإحسان استثماره واستغلاله ، فلا يسلمه للسفهاء من الناس الذين لا يحسنون إدارته ويسلمونه إلى التبدد والضياع ، وليس بعد ذلك دعوة لإظهار خطورة المال وإحسان استغلاله .

ويقول القرآن فى آية أخرى «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملا» فالمال فى قول القرآن هو زينة الدنيا وبهجتها ، وليس كما ظن الظانون أنه لعنة الدنيا وآفاتها ، وزاد القرآن على ذلك أن قَرَنَ المال إلى الولد وجعلهما صنوين فى أنهما نعمة الحياة الدنيا ، ثم أرشد القرآن إلى أن هذا المال نفسه وسيلة الحصول على الحياة الأخرى التى تَفْضُلُ هذه الحياة الدنيا ، وذلك بإنفاقه فى سبيل الخير والبر والإحسان .

ومن الأحاديث المروية عن رسول الله فى إظهار فضل المال والولد ، قوله عليه الصلاة والسلام «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له بخير ، أو صدقة جارية»

ومفهوم أن الصدقة الجارية معناها رصد المال للأعمال النافعة للأمة ، فإذا لاحظت أن العلم النافع لا بد لتحصيله من مال كذلك ، والولد الصالح يحتاج فى تربيته إلى مال

أيضًا ، استطعت أن تحقق لنفسك أن المال كما هو نعمة الحياة الدنيا فهو آية الخلود ووسيلته بعد موت الإنسان إذا أحسن الإنسان استغلاله ، وأنفقه فيما يعود بالخير على بنى الإنسان .

ولما كان الإسلام يقرر للمال كل هذا الخطر فى حياة الإنسان ، فقد استحب للمرء أن يكون موفور المال لا قليله ، ورغّب فى الغنى ونفّر من الفقر سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة ، فقال فيما قاله لنبيه عليه الصلاة والسلام «ألم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى» فهو يذكر لنبيه أنه جنبه الفقر ورزقه الغنى ، ووفقه إلى زواج خديجة التى كانت من أغنى أغنياء قريش ، فبدلت فقر رسول الله غنى وثراء ، فاستغنى بذلك عن سؤال الناس والاحتياج إليهم والظهور بمظهر رقة العيش وخفض الجناح ، ذلك أن الناس لا تحترم مقدار ذرة من تأنس فيه الفقر والحاجة . فوقى الله رسوله شر هذا الموقف إعدادًا له لحمل الرسالة والجهاد فى سبيلها وما يحتاجه ذلك من مال فكان مال خديجة خير معين له على القيام بهذا الواجب . وهو الأمر الذى ظل الرسول يشير إليه طول حياته بالخير والثناء ، فكان يترحم عليها ويشيد بذكراها قائلاً «نعم الزوجة كانت لى خديجة واستنى بمالها ونفسها وكانت وزير صدق لى فى الإسلام» . وجاء فى الحديث أن أحد الصحابة ذهب للنبى يستشيره فيما يوصى به لأعمال الخير بعد موته فأوصاه الرسول بالثلث ، فقال الصحابى ، ولكنى أرغب فى الإيصاء بأكثر من ذلك ، فكرر الرسول وصيته أن يكون الإيصاء بالثلث ، فألح الصحابى فى إظهار رغبته فى الإيصاء بأكثر من ذلك ، فأجابه الرسول على سبيل القطع «لا توص إلا بالثلث والثلث كثير ، لأن تترك أولادك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس» وليس بعد ذلك أمر صريح لتوفير الغنى لأبناء الإنسان وتجنيبهم الفقر والاحتياج . فأنت ترى أن آيات القرآن والأحاديث متضافرة على ضرورة توفير الغنى للإنسان لا أن يقنع بالكفاف من الرزق وما يكفى لسد غائلة الجوع وحفظ الحياة ، وذلك لكى يقوى المسلمون على تحقيق مكانتهم التى رسمها لهم الله بقوله «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ومن أنى للفقير أن يكون عزيزًا ؟ حسب الإنسان أن يكون زرى الهيئة لكى يحتقره الناس ، ظاهر الفقر لكى يمتهنه الناس ويدوسونه بالأقدام ، وكيف يضطلع المسلمون بالأعمال الجسام والمهام الخطيرة التى ندبهم الله للقيام بها بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء على الناس مدافعين عن بيضة الإسلام رافعين علمه الخفاق فى كل مكان ، مالم يكونوا أغنياء متخذين أسباب القوة والمنعة وأسلحة الدفاع والهجوم نزولاً عند قول القرآن «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» ولا سبيل للمسلمين

من تحقيق ذلك إلا عن طريق المال الكثير؟؟

الإســلام يرشــد إلى الغــنى

ولما كان الإسلام يكاد يأمر المسلمين بالغنى أمرًا ، فقد أرشدهم إلى طريق تحصيل الغنى والثروة ، بأن دعاهم إلى العمل والإنتاج والسعى والطلب والضرب فى طول الأرض وعرضها ، بالهجرة والانتقال فى طلب الرزق ، وهو ما أدركه الأوروبيون فيما أدركوا من آيات الإسلام الجليلة ، فساحوا فى الأرض وهاجروا من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب ، فوجدوا فى مهاجرهم الثروة والغنى ، والقوة والحرية ، بينما قعد المسلمون عن التماس هذه الوسيلة ، وأخلدوا إلى الأرض فضاقت بهم ، وكان حقا أن تضيق ، فصاروا إلى ماصاروا إليه من فقر وشقاء ، وهكذا ما من فضيلة حصلها الأوروبيون بجدهم واجتهادهم إلا ودعا إليها الإسلام معتنقيه منذ ألف وثلاثمائة من السنين.. انظر إلى القرآن وهو يشير إلى نعمة الارتحال فى توفير الأرزاق والأقوات والثروة فى قوله «لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف» ففى هاتين الرحلتين اللتين كان العرب يصعدون فيهما شمالاً حتى يصلوا إلى أسواق الشام ، ويصوبون جنوبًا حتى يصلوا أسواق اليمن كان الخير الكثير ، ومن هاتين الرحلتين البعيدتين ، جلبت قريش قوتها وثروتها ، التى تقيها شر الجوع والمسغبة . ثم انظر إلى هذه الدعوة العامة الشاملة للسياحة فى الأرض وابتغاء الرزق «فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه» وقوله «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون»

وإليك الآن آية نسخت الدعوة إلى قيام الليل بالتهجد والصلاة تمكينًا للإنسان من ابتغاء الرزق والتماس المعاش «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك . والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله . فاقرأوا ما تيسر منه» ولم يشمل التخفيف النوافل من العبادات فقط ، بل امتد حتى تناول فرائض العبادات وأمهاتها . فرخص الدين للمسافر أن يقصر الصلاة وأن يجمعها ورخص له فى المسح على الخفين ، وذلك كله ليمكن المسلم من سهولة الانتقال والسفر والسعى خلف رزقه ومعاشه . وكذلك نبه الرسول إلى أهمية العمل للمسلم وضرورته ، فقال فى أحاديثه «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه» . وروى عنه

البخارى أن قال «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

وقد فهم خلفاؤه هذه الروح ، فعمد أبو بكر غداة انتخابه للخلافة إلى السوق ليتجر حتى أقنعه المسلمون بالعدول عن ذلك ، على أن يكفوه مؤونة الحاجة وكان عمر يحث الناس على الجد والسعى والطلب فكان يقول «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق . ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة » وكان زيد أبو مسلمة يغرس فى أرضه فقال له عمر أصبت استغن عن الناس يكن أصدق لدينك وأكرم لك عليهم كما قال صاحبكم أصيحة :

فلن أزال على الزوراء أغمرها . إن الكريم على الإخوان ذو المال[1]

وتلك هى روح الإسلام ، وهذه دعوته الناصعة للعمل واستثمار المال .

محاربة الإسلام لآفات المال

بعد أن نبه الإسلام إلى أن العمل والإنتاج والمهاجرة هو سبيل الغنى ، راح يضع الأنظمة لحسن إدارة المال وما يزكيه ويضاعف فى بركته ونعمته على الناس أجمعين ، فقد رأينا أن المال عنصر خطر إذا احتكره أقوام وحالوا دون وصوله إلى الآخرين ، أو اتخذوه وسيلة لإرهاق المحتاجين والمعوزين ، أحدث ذلك الغبن والشرور ، وخلق الجريمة ، فجاء الإسلام يعالج ذلك كله علاجًا ناجعًا شافيًا موفقًا ، وآفة المال الأولى والكبرى هى حبسه عن التداول والامتناع عن إنفاقه والشح به والضن به على الفقراء والمعوزين ، فتوعد من يفعل ذلك بأشد صنوف العذاب الرهيب وشدد عليهم فى القول ووصفهم بأشنع الأوصاف الذميمة كقوله «إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورًا » «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا » ٣٧ النساء «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير» ١٧٩ آل عمران «الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ـ ٣٤ ، ٣٥ التوبة ، وأمثال هذه الآيات

---

(١) رواه الغزالى .

كثيرة فى القرآن ، وهى تذم البخل وتجعله من أكبر الكبائر التى يمكن أن يتصف بها الإنسان ، حتى روى عن الرسول أنه قال «خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق» .

على أن القرآن والسنة لو وقفا عند هذا الحد ، حد التخويف والتهديد بعذاب الآخرة ، لما كان لهذه الدعوة الأدبية من أثر يفوق أثر المسيحية ، ولكن الإسلام جاء بتشريع عملى اقتصادى سبق فيه أوروبا وجميع المذاهب الاشتراكية التى تتيه بها حضارة القرن العشرين ، وذلك بأن فرض على الأغنياء نصيبًا معلومًا تتقاضاه الدولة منهم بقوة التشريع لتصرفه على الفقراء والمحتاجين ، وذلك بقوله «وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» وهو ما يسميه الإسلام بالزكاة ، وما جعله ركنًا أساسيا من أركان الدين لا يقوم الدين إلا به ، ولم تكن الفتنة الكبرى التى قامت عقب وفاة الرسول إلا رغبة من العرب فى التحرر من هذا القيد المالى المفروض على أغنيائهم ، فكانت حروب الردة التى أصلى فيها أبو بكر المرتدين نارًا حامية ، حتى أخمد الفتنة وأقر القاعدة الإسلامية الكبرى ، قاعدة الزكاة ، والتى تضرب عصفورين بحجر واحد لفائدة المجتمع ، وتُطَهِّر المال من آفاته الكبرى ، فهذا المال الذى يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء ، من شأنه أن يحارب الفقر الشديد والفاقة ، بأن يوفر للمحرومين والعجزة والضعفاء قوتهم ورزقهم ، فيحول بذلك بينهم وبين الكفر والإلحاد ، أو الثورة والعصيان ويقيهم شر التفكير فى الجريمة ، فضلاً عن الإقدام عليها. ويقضى فى نفس الوقت على رذيلة الضن بالمال والبخل به فى نفوس الأغنياء ، ويحول دون حبسه عن الاستغلال فلا مناص للغنى بعد اقتطاع هذه الضريبة من أن يستثمر ماله ويحسن استثماره ، لأنه إذا ظل على حبس ماله ينتهى به الحال إلى الفناء عن طريق هذه الضريبة السنوية التى تقطع جزءًا هاما من رأسماله . وقد شوهد هذا الأثر بجلاء فى الأمم الحديثة حيث فرضت الضرائب على أرباح الأموال فاضطر الأغنياء لمضاعفة مجهوداتهم فى العمل والإنتاج للاحتفاظ بمستواهم الرفيع ، فلم يعد هناك غنى يقعد عن العمل أو يحبس ماله عن الاستثمار ، وإلا التهمت الضرائب المختلفة رأسماله بالتدريج . وكلما ارتفعت الضرائب فى المجتمعات الحديثة كلما تضاعف الإنتاج .

وهكذا عالج الإسلام بفرض الزكاة أخطر آفات المال وأكثرها تدميرًا للمجتمعات ، فالله لم يخلق المال لكى يودع فى باطن الأرض أو جوف الخزائن وفى حنايا الجدران ، وإنما خلق ليكون أداة من أدوات الإنتاج والتعمير ، وإشباع حاجات الإنسان المختلفة

التى تحقق تطوره وارتقاءه وذلك لا يكون إلا بإنفاق المال واستثماره وتداوله وعدم احتكار الأغنياء له .

الحد من طغيان الرأسمالية

أما الآفة الثانية للمال فهى أن يتحول إلى أدة طغيان يتحكم به الغنى فى رقاب العباد وذلك بأن يستغل عوز المحتاجين لكى يقرضهم المال بالأرباح الفاحشة التى لا تلبث أن تتراكم حتى تلتهم جهود العاملين وأموال الفقراء والضعفاء وهو ما يطلقون عليه فى العصور الحديثة سيطرة الرأسمالية وقد عمدت الحكومات الحديثة تحت تأثير المذاهب الاشتراكية إلى الحد من سيطرة رؤوس الأموال وتقليم أظافرها والحيلولة بينها وبين أن تكون أداة للطغيان وتطرفت بعض المذاهب إلى حد إلغاء رؤوس الأموال جملة فلا تبقيها بين الأفراد وإنما تحولها إلى يد الجماعة ولم يصادف هذا الإجراء الشيوعى نجاحًا فعانت روسيا من تطبيقه أشر ما تعانيه فى حياتها فاضطرت الدولة إلى التراجع عن تطبيق هذه المبادئ المتطرفة والعودة إلى الأنظمة الاشتراكية التى تحدد نطاق الملكية ولكنها لا تلغيها وتفل من قوة رأس المال ولكنها لا تنكره . على أن هذه الحلول كلها لم توفق إلى ما قرره الإسلام من تشريعات قضى بها على شرور رأس المال وذلك بتحريمه الفائدة تحريمًا تاما مطلقًا صغيرة كانت أو كبيرة .فأفقد المال صفته كعنصر أساسى من عناصر الإنتاج وأبقى الإنتاج كما هو فى طبيعته ثمرة من ثمرات العمل فالذهب لا يولد ذهبًا والفضة لا تولد فضة وإنما العمل وحده هو الذى يخرج إلى الوجود موادّ كانت غير موجودة من قبل فهو ينبوع الثروة الحقيق وهو الجدير بثمرة مجهوده فلا يقعد الرجل الغنى عاطلاً فى بيته عن العمل والإنتاج مكتفيًا بإقراض نقوده للآخرين بالفوائد والأرباح المركبة فيشقون ويكدحون حتى إذا أثمر كفاحهم شاركهم صاحب المال الذى لم يفعل شيئًا وشاركهم مشاركة الأسد فحصل على أكبر الحصص بل إن حصته قد تلتهم كل ما أنتجه العمل من ثمرة وحتى فى حالة إخفاق المشروع وعدم إثمار العمل الثمرة المرجوة يظل صاحب المال يطالب بماله وفوائده لأن حق المال المقترض لا يتعلق بالكسب أو الخسارة ولا يقتصر هذا الحق على رأس المال الأصلى بل يتناول فوائده كذلك والتى قد تكون تضاعفت حتى زادت عن المبلغ الأصلى وهذا هو أشر ما تنطوى عليه الرأسمالية ، فوضع إبطال الفائدة وتحريمها حدا لهذا الشر والوباء . فلا سبيل للغنى فى استثمار ماله عن طريق الإقراض وإنما لا بد له إذا أراد أن يستثمر هذا المال أن ينزل به إلى حلبة العمل والإنتاج متحملاً نتائج ذلك من مكسب وخسران . وتحاول المذاهب والحكومات الاشتراكية الوصول إلى هذه النتيجة فنجحت إلى حد كبير

فى تخفيض سعر الفائدة وجعلت الأرباح الفاحشة جريمة يعاقب عليها القانون ونزلت فى كثير من الأحيان بسعر الفائدة حتى جعلته لا يتجاوز ٣ فى المائة أو ٢ فى المائة وأقل من ذلك . ولكنها لم تستطع إلغاءها حتى الآن إلغاء تامًّا كاملاً كما قرر الإسلام فلا عجب إذا كان لا يزال للرأسمالية بعض السلطان الضار حتى فى أكثر المجتمعات اشتراكية ومحاربة للرأسمالية .

يقول القرآن «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ـ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ـ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمون» (٢٧٥ ـ ٢٧٩البقرة) .وقد أبطل الرسول بناء على هذه الآية الربا ، والفائدة على رأس المال إبطالاً مطلقًا ؛ وكان آخر ما نص عليه فى خطبة الوداع وهو يودع الدنيا إعلان رجعية هذا القانون وأنه يسرى على ما مضى فلا يحق لإنسان أن يطالب إنسانًا بفوائد ماله بحجة أن ذلك كان سابقًا على حكم القرآن.وهكذا أجهز الإسلام على آفة المال الثانية .

حَثُّ الإسلام على إنفاق المال واستثماره

لم يقف الإسلام عند حد تجريد المال من آفاته بما فرض عليه من ضريبة الزكاة وإلغائه الفوائد الربوية ، وإنما دعا بعد ذلك لإحسان استغلال هذا المال واستثماره فيما يعود بالنفع على الجماعة واصفًا كل نفقة تصرف لهذا الغرض أنها إنفاق فى سبيل الله يباركه الله ويجزيه أحسن الجزاء فى الدنيا ويوم يقوم الناس لتأدية الحساب . فأشار القرآن إلى أن المال يربو ويزداد بالإنفاق النافع للجماعة وأنه لا خطر يهدد المال من إنفاق المال فى الأعمال الصالحة بل إن كل ما يصرف فى هذا السبيل مردود لصاحبه بالزيادة والأرباح المضاعفة فى الدنيا والآخرة «وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تُظلمون» «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابلَ فى كل سنبلةٍ مائةُ حبةٍ والله يضاعفُ لمن يشاءُ والله واسعٌ عليم» ٢٦١ البقرة «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهارِ سرًّا وعلانيةً فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» ٢٧٤ البقرة . «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين

ينفقون فى السّراءِ والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ـ ١٣٤ آل عمران » .

وقد يظن أقوامٌ أن معنى الإنفاق فى سبيل الله هو بناء المساجد أو توزيع الصدقات على المتسولين ولكن ذلك فهم خاطئ لمعنى الإحسان ولما يريده الله لعباده من صلاح الأحوال فالله لا يريد لعباده وحاشاه أن يتحولوا إلى شحاذين ومتسولين أو قاعدين كسلا عن العمل . والله من ناحية أخرى لا يطرب أو يفرح لتزيين المساجد بماء الذهب وتحلية أبوابها بالجواهر واليواقيت والله يمقت كل المقت أن ترفع باسمه النصب والأوثان وأن تحرق بين يديها القرابين فهذه كلها مظاهر الوثنية القديمة والتى جاء الإسلام لحربها والقضاء عليها وجعل الدنيا كلها مسجدًا واحدًا يتعبد فيه لله بصالح الأعمال . وفى هذه المعنى يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله «جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا» فكل عمل نافع للناس هو عبادة لله . وكل مال يبذل فى هذا السبيل فهو إنفاق فى سبيل الله . فالمصانع التى تقام لإيجاد عمل للمتعطلين الذين لا يجدون قوتهم هو إنفاق فى سبيل الله وكل إنتاج لحاجات الناس الضرورية هو عمل وإنفاق فى سبيل الله . وإنشاء صروح العلم كالمدارس والجامعات والمكتبات والمقاصف هو إنفاق فى سبيل الله . ومحاربة الجهل والأمية والخرافات والعادات البالية ومحاربة الضعف والمرض والفاقة والقذارة والفقر بكل ضروب المحاربة هو عبادة من أنفع العبادات . وكل إنفاق فى هذا السبيل هو إنفاق فى سبيل الله . فلا يحسبن أحد أن الإنفاق فى سبيل الله ليس له إلا صورة واحدة هى صورة إعطاء القروش والملاليم للشحاذين والمتسولين ، وإنما إنفاق المال الصالح ليست له صورة معينة أو أسلوب محدد فهو يتطور بتطور الظروف وحاجات الجماعة فما يصلح فى زمن قد لا يصلح لزمن آخر وما قد يكون فضيلة فى بعض الأوقات قد ينقلب إلى رذيلة والعكس بالعكس . ففى مصر مثلاً كانوا فى بعض العصور كلما أرادوا الإنفاق فى سبيل الله شادوا لذلك مسجدًا وزخرفوه وزينوه حتى أصبحت المساجد فى القاهرة أكثر عددًا من المصلين وأصبح أكثرها أمكنة للفرجة والتسلية ودراسة الآثار أكثر منها أمكنة للعبادة ... فلو أن غنيًّا قام اليوم بإنشاء مسجد وصرف فيه عشرات الألوف من الجنيهات ، وهناك مئات وألوف من العاطلين يبتغون العمل والرزق الحلال بإنشاء مصنع يسد بعض حاجات المسلمين ويغنيهم عن الالتجاء إلى الأجانب المستعمرين ، لكان عمله فى إنشاء المسجد عبثا ورذيلة لا يقصد به إلا الرياء والنفاق فإن المسلمين ليسوا فى حاجة إلى مسجد جديد ولكنهم فى حاجة إلى مصنع ، فإنشاء المصنع لفائدة المسلمين هو فى هذه الحالة إنفاق فى سبيل الله . وفى تركيا القديمة اتجه المحسنون بأموالهم لإنشاء التكايا والزوايا ليأوى إليها

العجزة والشيوخ والضعفاء ثم أسرفوا فى ذلك إسرافًا انتهى بهذه التكايا أن تكون ملاجئ العاطلين والمهرجين والدجالين الذين راحوا يتجرون باسم الدين فملأوا الأرض فسادًا وشنارا مما دفع الكماليين للثورة على الدين جملة بسبب ما عانوه من هذه الأوهام والضلالات .

وهكذا قد يكون إنفاق المال فى طريق خاطئ وعلى صورة واحدة سببًا فى إحداث ضروب من الفساد كبيرة والحق أن الإنفاق فى سبيل الله هو الإنفاق فى سبيل رقى المجتمع وتطوره وتمتعه بأكبر من الرفاهية والعزة ورقى المجتمع ليس له أسلوب واحد ولا ناحية معينة . فالمستشفيات لازمة لرقى المجتمعات ، لزوم المدارس ، لزوم المصانع لزوم المؤسسات العسكرية والرياضية . فكل استغلال للمال لتحقيق هذه الأهداف هو إنفاق فى سبيل الله ... والله لا يريد من عباده أن يطعموه أو يرزقوه وإنما يريد منهم أن يطعموا بعضهم بعضًا ، والله لا يريد من عباده مالاً أو متاعًا وإنما يريد منهم أن يعطوا هذا المال للمحتاجين والمحرومين ، والله لا يريد بعباده العسر وإنما يريد بهم اليسر والله لا يطلب من الإنسان فى أى عمل من أعماله إلا نيته وضميره فإذا صلحت هذه النية ورغبت فى نفع الآخرين فهذه هى العبادة الحقة وتلك هى التقوى التى يطلبها الله من عباده ويجزل عليها ثوابه وعطاياه . وقد جاء فى الحديث :

« من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » رواه مسلم .

الجهـاد فى سبـيل الله

وغنى عن البيان أن أكمل صور الإنفاق فى سبيل الله هو تخصيص المال لإعزاز الحق بصفة عامة ومحاربة الطغيان ودفع الظلم ونشر العدل فى أرجاء العالمين لأن نصرة هذه الحقوق الأساسية لبنى الإنسان هى بمثابة إقرار العدالة الإلهية على الأرض . فالجهاد والإنفاق فى سبيله هو أرفع درجات الجهاد والإنفاق على الإطلاق فإن النفع هنا لا يقف عند طائفة دون طائفة ولكنه يعم سائر البشر والكائنات . وقد جاهد الرسول وصحبه الأولون لتطهير البشرية من دنس الوثنية وخرافاتها وأوهامها وتخليص العقل البشرى من كابوس الأباطيل والأساطير وتحكم الكهان والقساوسة ورجال الدين الذين انتحلوا الوساطة لأنفسهم بين البشر وخالقهم فأنفق الرسول وصحابته أموالهم فى هذا السبيل

وجاذوا بكل شيء لتحقيق هذا المثل الأعلى للبشرية من الحرية والعدالة المساواة . فهذا أبو بكر رصد أمواله كلها لنصرة هذا الدين فى كل أدواره فكان يشترى الأرقاء المسلمين الذين يعذبهم أسيادهم ثم يحرّرهم ويطلق سراحهم عند ماكان الإسلامُ وليدًا ، ثم سخر ماله بعد ذلك فى تجهيز الجيوش بالسلاح والعتاد عند ما جاءت الساعة لنصرة الحق بقوة السيف والسلاح ، وقد أكرمه الله من أجل ذلك الكرامة الكبرى فى الدنيا والآخرة ووعده سلفًا بما سيناله من نعيم ورضاء فبشره فى القرآن بقوله «وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى» وقد أرضاه الله فى الدنيا فرفعه إلى أعلى عليين إذ جعله خليفة الرسول الأمين تسير بأمره وتحت لوائه الجيوش شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا لتضرب فى الأرض غازية منتصرة تدك عروش الظلم والاستبداد وتنشر العدل والنور المبين.

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى حمل من ماله لرسول الله فى غزوة تبوك لتجهيز الجيش المتوجه لقتال الروم ألف دينار فنثرها فى حجر الرسول الذى راح يقلبها فى حجره مبتهجًا وهو يقول ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم .

كان هذا هو الجهاد فى صدر الإسلام حيث كان المسلمون غزاة فاتحين أما فى أيامنا الحاضرة فقد انعكست الآية وأصبح المسلمون مدافعين بل ومغلوبين على أمرهم ومحكومين بأعدائهم الذين سلبوهم كرامتهم وحريتهم وشرفهم ، وقد أصبح الجهاد فى سبيل الله يتلخص فى صورة واحدة ، وهى العمل آناء الليل وأطراف النهار لتخليص أوطان المسلمين من براثن الاستعمار وتحريرها من غارة المغيرين ، ثم تزويد المسلمين بعد ذلك بكل ما يرفع من شأنهم ويؤكد كرامتهم وحريتهم ويحقق قوتهم وعزتهم . وكل مال يصرف فى هذا السبيل هو ما يرتفع بصاحبه إلى الدرجات العلى ويطهره ويزكيه ويحشره فى زمرة الشهداء والصديقين. ولما كانت محاربة الاستعمار الأجنبى مهمة شاقة متعددة الصور والنواحى فقد أصبح ما يصلح لبلد قد لا يصلح فى بلد آخر وقد يكون أمر من الأمور مهما فى بلد من البلاد وهو فى الدرجة الثانية من الأهمية فى بلد ثان فعلى المنفق أن يتحرى وجه الصواب فى إنفاقه كما قدمنا وأن لا يلتزم لونًا معينًا من ألوان الإنفاق فحيث يكثر نصيب المسلمين من الحرية ويكون بقدرتهم تجييش الجيوش وصنع السلاح يكون ذلك هو المهم الأول فتصبح صناعة الطائرات والدبابات واستخراج الحديد والكهرباء وشتى صنوف المعادن اللازمة للأسلحة والأساطيل الحربية والتجارية ، كل هذه يصبح الإنفاق فى سبيل إنشائها وإعدادها هو الذروة العليا من الجهاد فى سبيل الله . وفى بلاد أخرى حيث

يكون تحكم المستعمر بحيث لا يسمح بإنشاء الأسلحة يستعاض عنها بنشر التعليم ويكون ذلك هو تدرج فى سبيل قهر العدو الأجنبى والذى لا يستطيع أن يحكم المسلمين إلا من خلال الجهل . وقد تكون البلد فى حاجة للتحرر اقتصاديًّا من ربقة الأجنبى فيكون الكفاح الاقتصادى ساعتئذ هو كفاح دينى وهكذا .

الفصل الثانى

كيف تحصل على الثروة

العمل والادخار هما ينبوع الثروة

أما وقد فرغنا من إظهار فضيلة المال والغنى وضرورتها للمجتمع ، وأن الكمال يتحقق فى الغنى لا فى الفقر ، وبينا موقف الإسلام من ذلك كله ، فقد بقى أن أبين لك كيفيةَ الحصول على الثروة والغنى . ولقد عرفت حتى الآن أن العمل هو أساس الثروة وينبوع المال ولكن العمل وحده لا يكفى لتحقيق الغنى بل لا بد أن يكون مصحوبًا بعنصر آخر وهو عنصر الادخار وإلا تبددت ثمرة العمل وتبعثرت ، فلم تتكامل ولم تتجمع لتحدث أثرها القوى الفعال . فالادخار ضرورة العمل ، هذا العمل الذى يجب أن يكون شاقًا متتابعًا وخاصة فى البدء عند الأساس فنى هذه الفترة يجب المثابرة على العمل والصبر على مكارهه . وإذا كان الناس يعملون ثمانى ساعات فعلى ملتمس الغنى أن يعمل عشرا أو اثنتى عشرة ساعة إذا كانت قواه تمكنه من ذلك وتسعفه بغير ضرر ، ذلك لأن رأس مال الإنسان هو قوته البدنية والعقلية .

وعلى الإنسان أن يحصل فى شبابه على أكبر نصيب من هذه الثروة حيث لا يضر العمل بصحته بل على العكس يقويها ويشحذها . على أن العمل كلما كان يعتمد على قوة العقل كلما كان أدر للربح فى عصرنا الحديث حيث حلت الآلات محل القوة العقلية فالآلة تعطينا من القوة مالا يعطيه ألوف من الناس مجتمعين ولكن هذه الآلة مهما بلغت قوتها فلا غنى لها عن عقل الإنسان لإدارتها . فليكن عملك الذى تختاره إذن عملاً عقليًا لأنك بهذا تظل سيدًا للآلة فلا تهبط أجرتك بل تظل ترتفع كلما تطور مجهودك العقلى ..

على أن العمل وحده كما قلت لك لا غناء فيه إن لم يكن مصحوبًا بالادخار فهناك كثير من الناس يعملون الليل والنهار ومع ذلك فهم فقراء ، بينما لا يعمل الأوروبى إلا ثمانى ساعات ويرتاح يومًا فى الأسبوع ، ومع ذلك فهو يكبر وينمو ويقتنى الثروة بما لا يصل إليه الشرقى ، وهذا ما حدا بالأغلبية الساحقة من المسلمين والشرقيين على العموم

إلى الاستسلام للفقر ظنًّا منهم أن الغنى هو حظ وأرزاق وهم يعتقدون أن الحظوظ تخبط خبط عشواء ولم يدفعهم إلى ذلك الوهم الخاطئ إلا أنهم جهلوا فضيلة الادخار وجهلوا أنها بالإضافة إلى العمل هى الأسلوب الذى يؤدى إلى الثروة .

فالحظوظ لا تخبط خبط عشواء ولكنها تعمل وفق نواميس وسنن ككل شىء فى هذا الوجود . حقًّا إن هذه النواميس والسنن تخرق من حين لآخر بآية من آيات الشذوذ لإظهار قوة الخالق المسيطر على الكون وأنه قادر على فعل كل شىء ولكن هذا الشذوذ الطارئ لا يصل إلى حد القضاء على الناموس الثابت الذى وضعه الخالق بداءة ذى بدء بمحض قدرته وإرادته . فسنة الحياة مثلاً أن كبار السن يموتون قبل صغارهم ومع ذلك فنحن نرى من حين لآخر أقوياء يموتون وضعفاء يعيشون وشبانا يهلكون وكهولا يعمرون ، ولكن ذلك لا يغير القاعدة الأساسية والناموس الطبيعى من أن الحياة البشرية لها دورة لا بد لها من إكمالها ، فتبدأ ضعيفة ثم تقوى وتشتد وتتكامل ثم تعود من جديد نحو التناقص فالضعف والفناء . فإذا رأينا طفلاً سليمًا فقد وجب أن نتوقع نموه إلى أن يصبح صبيًّا . وإذا رأينا الصبى فقد وجب أن نتوقع صيرورته شابًّا وهكذا . وتلك هى سنة الحياة لا يغيرها الشذوذ الذى يقع من حين لآخر . ولعل هذا الشذوذ هو الذى يؤكد القاعدة وإلا لما اعتبرناه شاذا .

فكذلك موضوع الأرزاق فإن له سنة واضحة وناموسًا ثابتًا يتلخص فى هذه الكلمات القصيرة التى يعرفها كل إنسان ويحفظها عن ظهر قلب وقلما يعمل بها .. ألا وهى : «من جد وجد ــ من صبر ظفر ــ من سار على الدرب وصل ــ لكل مجتهد نصيب » .

وعلى هذا الأساس فمن أراد الغنى فالسبيل مفتوح أمامه على شريطة أن يحقق أسباب ذلك وهذه الأسباب تتألف من العمل والادخار .

يعترض البعض على الادخار بأن ما يصل إليهم لا يكاد يكفى لسد حاجاتهم الضرورية فكيف يقدرون على الادخار ؟ ويظنون أن الادخار قاصر على الأغنياء وهكذا يعكسون القضية ليرفعوا عن أنفسهم المسئولية . فالادخار شريعة عامة لمن يريد الانتفاع بثمرة عمله وجهده ، والتدرج فى سلم الارتقاء وهو للفقير ألزم منه للغنى ، ولمن يسد حاجاته الضرورية بشق النفس ألزم منه للذى يجدها يسيرة متوفرة . إذ ما الذى يحل بالفقير لو أنه حرم رزقه الذى يحصل عليه بكده فى أحد الأيام لأى سبب من الأسباب لن يكون نصيبه فى هذه الحالة إلا التلف وتجرع الغصص مع أنه لو ادخر قليلاً من هذا القليل الذى

يحصله كل يوم لوقاه هذا القليل من التلف وأعانه على استعادة قوته واستئناف سعيه وجهاده .

فالادخار هو سلاح الفقير قبل أن يكون سلاح الغنى .

السـر فى النجـاح الأجنـبى فى بـلادنا

يأتى الأجنبى من خارج بلادنا فقيرًا معدمًا على أسوأ حال فلا يلبث بعد عشر سنوات أن يصبح غنيًا ، ويستطيل على ألوف من أبناء البلد الفقراء ، لا لأنه يمتاز عنهم بالذكاء فحظ المصرى من ذلك وفير ، أو لقدرته على العمل فحظ المصرى من ذلك كبير ، فهو الذى بنى الأهرام وشق قنال السويس ومد السكك الحديدية فى أحشاء الصحراء وبنى الخزانات وشق الترع وذلل الصعاب ، وهو الذى يعمل فى حقله من الصباح إلى المساء . فالمصرى لا ينقصه النشاط أو المهارة ولكن تنقصه فضيلة الادخار ، ادخار ثمرة عمله ليكون غنيًا . فتفوق عليه الأجنبى فى هذا الباب لأنه يعرف كيف يدخر فيؤلف لنفسه رأس مال يصبح به بعد قليل رب عمل يؤجر المصرى الذى يظل طول حياته عاملاً لحساب غيره .

وتلك لعمرى رذيلة من أكبر الرذائل التى يجب اقتلاعها من نفوس المصريين . وأعنى احتقارهم الادخار وانصرافهم عنه . وكثيرًا ما يسخر المصرى إذا رحت تحدثه عن الادخار وكيف انه قد يكون سبيلاً للغنى والثروة لأى رجل فقير وقد لا يزيد ما يبدأ به ادخاره عن نصف قرش فى اليوم ويعمد الساخر بفن الادخار إلى إجراء عملية حسابية يعزز بها قصته من إنكار فضل الادخار ، ليقول لك نصف قرش فى اليوم معناه خمسة عشر قرشًا فى الشهر ، معناه مائة وثمانون قرشًا فى آخر العام ، أى جنيهان مع التسامح أو عشر جنيهات فى خمس سنوات ، وعشرون جنيهًا فى عشر سنوات ، فما هى قيمة عشرين جنيهًا يجمعها الإنسان بعد كد متواصل لمدة عشر سنوات ؟؟ هذا إذا عاش الإنسان وهل ضمن الإنسان حياته يومًا واحدًا فضلاً عن عشر سنوات ؟! . إلا أن الادخار ضرب من ضروب تحدى الأقدار التى إن شاءت أطعمتك ، وإن شاءت أجاعتك . وتلك هى فلسفة السواد الأعظم من هؤلاء البؤساء المساكين . أما بخصوص العمر وطوله وضمان الحياة فذلك موضوع كبير لن أعرض له الآن بالتفصيل وحسبى أن أشير إلى الآية القرآنية الكريمة : «وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ، ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا» ، وإلى القول المأثور : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا» فهذا أمر صريح فى أن الإنسان مطالب أن يعمل لدنياه وبغير هذا لا تكون حياة ولا يكون عمران

ولو اعتقد كل إنسان أنه سيموت بعد أسبوع أو بعد شهر أو بعد خمس سنوات لما وجدتَ إنساناً يخطو خطوة واحدة إلى الأمام . فأساس الحياة والعمران جهل الإنسان مصيرَه . وعدم تفكيره فى الموت واندفاعه فى تيار الحياة إلى ما شاء الله ، أما بالنسبة للعملية الحسابية التى يحاولون بها الغض من قيمة الادخار وإظهار تفاهة القليل المدخر فهى عملية خاطئة ، لأن ادخار المال يجب أن يكون مشفوعًا بالعمل كما قدمنا فلا غنى لإحدهما عن الآخر . والعمل بالنسبة للمال هو استثماره فى كل ما يعود على الإنسان بالنفع والتطور وعلى الأساس فلن يكون نتيجة الادخار هو عشرون جنيهًا بعد عشر سنوات بل ربما ألفًا من الجنيهات ، وربما أكثر من ذلك بكثير ، كما يظهر لك ذلك من المثال التالى :

إن هذا الذى لا يدخر سوى نصف قرش فى اليوم لا يمكن إلا أن يكون فقيرًا جدًّا فلنفرضه بائعًا صغيرًا متجولاً يحمل بضاعته فوق رأسه ويذرع المدينة من الصباح المبكر حتى المساء المتأخر ليبيع بضاعته ، التى لما كان مضطرًّا لحملها على عاتقه فهى محدودة الكمية لا تسمح له بربح كبير . مثل هذا الرجل وهو يوفر نصف قرش فى اليوم يستطيع بعد عامين أن يشترى له عربة بالجنيهات الأربعة التى تجمعت لديه من اقتصاده فإن لم يكن بعد عامين فبعد ثلاثة . والمهم أنه فتره من الزمن يستطيع أن يخطو خطوة نحو تحسين حاله فبدلاً من أن يحمل كمية صغيرة من البضاعة فوق عاتقه فإنه يستطيع أن يضاعف حمولة بضاعته بعد شراء العربة ويصبح أكثر جلدًا وقدرة على توزيع بضاعته . وسيؤدى ذلك إلى مضاعفة أرباحه وبالتالى مضاعفة ما يوفره ، فيكون له فى آخر العام ما كان يحتاج إلى عامين لتوفيره فبعد سنتين أخريين أو ثلاث سنوات يكون قادرًا على أن يبتاع من ادخاره دابة تجر له عربته فيصبح مالكًا لعربة ودابة أو بالأحرى يصبح له رأس مال صغير يحمل التجار الكبار على الوثوق به بأكثر مما كانوا يفعلون وهو لا يملك قليلاً أوكثيرًا وسيرون فى جده وإقدامه ما يحملهم على الاطمئنان إلى قدرته وكفاءته فيزيدون فى كمية البضاعة التى يعهدون إليه بتصريفها ، وهذا من شأنه أن يزيد فى أرباحه ، فيستطيع بعد عامين أو ثلاثة أعوام أخرى وقد زاد القدر المدخر أن يفتتح لنفسه مكانًا ثابتًا لبيع بضاعته ، وبذلك يصبح تاجرًا صغيرًا . والتاجر مهما صغر أمره فقد وضع قدمه على سلم الغنى فما عليه إلا أن يخدم مهنته وأن يتبع الأمانة والصدق فى معاملته حتى يصبح ولا حد لتطوره وارتقائه ما دام يواصل ادخاره بنسبة تطوره ثم يستثمر هذا المدخر فى الوقت المناسب فيما يزيد فى قوته ويحسن حاله .

وليس هذا المثال الذى قدمته من نسج الخيال أو وهما من الأوهام ولكنه صورة صادقة لما اتبعه ألوف من الأجانب الذين وفدوا على هذه البلاد فقراء فأصبحت لهم الآن أعظم المتاجر التى يشار إليها بالبنان . كما أن هناك ألوفًا من المصريين كذلك شقوا طريقهم إلى الثروة فى القديم متبعين هذا الأسلوب ، وهو جمع المليم وشراء القيراط من الأرض واستثماره وادخار المستثمر فى شراء قيراط آخر فلا يلبث القيراطان أن يمكنا المزارع المجتهد من شراء قيراطين ، والأربعة قراريط تمكن من شراء نصف فدان والفدان ثلاثة ، والثلاثة عشرة ، والعشرة خمسين ، والخمسين مائة ، والمائة خمسمائة ، حتى وصلت بهم إلى امتلاك ألوف من الفدادين .

كان ذلك فى القديم عندما كان المصريون يحتفظون بفضائلهم ولم يكن سلْبُ حريتهم قد أفقدهم التفكير السليم والأخذ بأسباب التطور والارتقاء . ولا يوجد غنى واحد من أغنياء الدنيا العظام لم يبدأ صغيرًا فقيرًا وهذا فورد أغنى أغنياء العالم بلا مراء قد سار فى هذا الطريق الذى رسمته لك طريق الادخار وصعود السلم من أول درجاته . حقًّا إن هؤلاء الأغنياء لهم عقول ممتازة ولكن أؤكد لك أن هناك ألوفًا من البشر يفوقون هؤلاء فى امتياز عقولهم ولكنهم ينقصون عنهم فى قوة إرادتهم التى مكنتهم من ادخار بعض دخلهم على ضآلة هذا الدخل فاستطاعوا أن يؤلفوا رأس مالهم الصغير الأول الذى وضعوا به أقدامهم على عتبة الغنى .

فالغنى كما ترى هو فى متناول أى إنسان وليس هو ضرب من ضروب السحر وإنما سبيله العمل والادخار والاستثمار فما على الراغب فيه إلا أن يسلك طريقه بجد وإقدام وعزم وصبر وإرادة وأما هؤلاء الذين يلتمسون الغنى بترقب ليلة القدر ليمطر الله عليهم الذهب والفضة أو يشق لهم الأرض عن كنز من الكنوز فهؤلاء يمكنهم أن ينتظروا حتى قيام الساعة فقد علموا أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرَى . ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى » .

مهلكات الثروة

ذلك طريق الحصول على الثروة أما المحافظة على هذه الثروة من الضياع لإحسان الانتفاع بها خير انتفاع فيحتم على الإنسان أن يتجنب ثلاث مهلكات للثروة . وهى التبذير والاستدانة والمقامرة . والتبذير هو إنفاق المال بغير حساب ولغير غاية سوى السرف واللهو والعبث .

التبــذير

إن المال هو ثمرة الكد والتعب والادخار كما رأينا وهو الوسيلة لتحقيق أشرف الغايات ، فإذا أنفق بغير حساب أو احتياط ولغير غاية فإن الحال ينتهى به إلى الضياع المحقق فضلاً عما يخسره المجتمع بتبدد هذه القوة المجتمعة من الخسائر الجمة . وما أقسى الآلام التى يتجرعها الغنى الذى فقد ماله بالتبذير والإسراف ، إنه ليعانى من الآلام ما لا يعرفه الفقير الذى عاش طول عمره محروماً ذلك أن الغنى كانت حاجاته قد تعددت واتسع أفقه واعتاد ألواناً من الطعام والملابس لا يقوى على الحياة بغيرها فإذا حرم منها بسبب فقره فهذا هو العذاب الدائم والجحيم المقيم ، وقد نبه القرآن وهو الذى رأينا شدة حرصه على حسن استغلال المال وإنفاقه إلى هذا الخطر الذى يهدد المال فقال فى محكم آياته «وآتِ ذا القربى حقَّهُ والمسكين وابنَ السبيل ولا تُبذِّرْ تبذيرًا . إنَّ المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين وكان الشيطانُ لربِّه كفورًا» وقال «ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْها كلَّ البسطِ فتقعدَ ملومًا محسورًا» والقرآن يصف المؤمنين فى أسمى درجاتهم بأنهم «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قوامًا» فالقرآن يكره التبذير للمؤمنين ويحذرهم منه لأنه طريق الفقر ويأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق ويرى فى ذلك الفضيلة فيؤكد بذلك قول أرسطو فى تعريف الفضيلة وأنها «الوسط بين طرفين» .

وآية التبذير أن يكون الإنفاق لغير غاية نافعة بل وضارة بالشخص كمحاولة إثارة الغرائز والشهوات ثم العمل على إطفائها . فأن يكون للإنسان سيارة مثلاً فهذه ضرورة لا بد منها للرجل العامل فى عصرنا الحديث أما الغنى فيحق له أن يمتلك سيارة ثانية لتكون بمثابة احتياط فى حالة عطب الأولى فإذا اقتنى سيارة ثالثة فقد يكون لها بعض النفع على كل حال ، ولكن عندما يمتلك خمس سيارات لا لشيء إلا ليكون عنده خمس سيارات ، وإذا زاد على ذلك ما يفعله بعض السفهاء من تغيير هذه السيارات شهرًا بعد شهر لكى يبدو أمام الناس كل يوم ممتطيًا سيارة جديدة ، فهذا هو التبذير والإتلاف الذى يؤدى حتمًا إلى الضرر بالفرد والجماعة ولذلك يصبح حتمًا على المجتمع أن يتدخل فى مثل هذه الحالة ليحول دون العبث والاستهتار .

ومن ناحية أخرى فليس يعتبر تبذيرًا كل مال وُجِّهَ إلى صالح الأعمال ، وقد يتنزل الإنسان فى هذه الحالة عن كل ماله فلا يكون عمله تبذيرًا بل آية من آيات العبقرية فى استثمار المال ، مثال ذلك ما حدث فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما دعا إلى الاكتتاب لتجهيز الجيش الذاهب إلى تبوك لمحاربة الروم فقد حمل أبو بكر الصديق رضى

الله عنه للنبى كلَّ ثروته وكانت تبلغ أربعة آلاف درهم فقال له الرسول هلاَّ أبقيت شيئًا لعيالك ؟ فأجابه أبو بكر على الفور : لقد أبقيت لهم الله ورسوله ، وكان هذا جوابًا رائعًا وصفقة رابحة كسبَ بها أبو بكر نهائيًا ثقة الرسول التى لا حد لها ، وثقة المسلمين أجمعين الأمر الذى رشحه ليخلف رسول الله بعد موته من بين سائر المسلمين . فأبو بكر لم يكن مبذرًا وهو يجود بكل ماله على ذلك الوجه كما لا يكون مبذرًا فى أيامنا الحديثة أىُّ غنى من الأغنياء ينزل عن ثلاثة ارباع أو أربعة أخماس ماله لبناء المؤسسات العلمية والإنسانية بل إنه يكون مستغلاً للمال أعظم استغلال إذ ينفع به الناس أجمعين .

الاستدانة وشرورها

وإذا كان للتبذير هذا الأثر المدمر للمال فإن هناك خطرًا على الثروة لا يقل عن خطر الإسراف وربما زاد فى بعض الأحيان وهذا الخطر هو الاستدانة ، وقد تقع الاستدانة تحت ضغط الحاجة والضرورة فتصبح بكل ويلاتها لا محيص عنها فتقع فى هذه الحالة تحت حكم الضرورات التى تبيح المحظورات . ولكن عندما تكون الاستدانة لغير ضرورة ملحة أى لمحض الطمع والرغبة فى الغنى السريع بدون الالتجاء إلى الادخار فهنا يبدأ الاضطراب الذى يُفقد الإنسان توازنه ويحرمه من ثمرة عمله وقد يؤدى به إلى الفقر والعبودية . وقديمًا كان الدَّيْنُ يؤدى بالرومانى إلى فقد حريته وتحويله إلى رقيق فى خدمة دائنه ، أما فى العصور الحديثة فقد وقع شعب بأكمله فى ذل العبودية من جراء الدين . وليس هذا الشعب المنكود سوى الشعب المصرى . وأحسب أن هذه الكارثة التى وقعت فى حياتنا القومية كفيلة وحدها بأن تجعل كل مصرى يمقت هذه الكلمة ، كلمة الدَّيْن والاستدانة ، ويعتبر السعادة كل السعادة فى أن لا يمد يده إلى هذا الغول الفتاك ، غول الاستدانة وعقد القروض . وقد رأيت بعينى رأسى كيف يطيح الدين بثمرة جهد الرجل الشريف الأمين الصادق الذى ظل طول عمره يجمع القرش على القرش حتى إذا ما تكامل له رأس مال شرع فى استغلاله واستثماره فأحسن الاستغلال ما بقى غير مَدين لأحد ، أو خاضع لسلطان إنسان ، حتى إذا عن له فى يوم من الأيام أن يتسع فى أعماله فيقدم على ما أقدم عليه مستعينًا فى ذلك بالاستدانة فإذا بالدَّين يلتهم رأسماله الذى تعب السنين الطويلة فى جمعه . وليس ذلك إلا نموذجًا لما يتكرر كل يوم هنا وهناك من ضحايا الديون الربوية الملعونة . يكفى أن يقع اختلال بسيط فى حساب المقترض أو تغير فى الظروف لكى تقع عليه نكبة من أكبر النكبات . كم ضرب الدَّين بيوتًا تجارية مصرية كانت وطيدة الأركان تحت عجلاته الثقيلة ، بل إن أراضى مصر وعقاراتها جلها مكبلة

بأغلال الديون للأجانب بل إن مصر كلها كما قلت فقدت حريتها بعد أن أنشب الدَّين فيها أظافرَه ، ولأقص عليك طرفًا من هذه الكارثة .

كـارثة الـدَّين المصـرى

كانت مصر قد بلغت أَوْجَ عظمتها فى العصور الحديثة فى مستهل القرن التاسع عشر أيام محمد على ، ذلك العبقرى الذى لم يدخل الجامعات ولم يتلق علومَ الاقتصادِ الحديثة ولم يتسمم عقله بنظريات اليهود الفاسدة التى يرمون من ورائها إلى إخضاع العالم لسلطانهم . ما كان أروع عمله الباهر فى إنشاء الإمبراطورية المصرية بدون أن يستدين مليمًا واحدًا من الخارج أو أن تكون البلاد فى حاجة لعبقرية يهودى محتال يسرع بإيقاعها فى هاوية الحرب . وإنما كان محمد على يسير على هذه القاعدة الأولية وهى جوهر فن الاقتصاد كله وهو أن لا يصرف إلا من دخله ولا يصرف إلا أقل من هذا الدخل فكان محمد على يجمع المال فى خزانته حتى إذا اجتمع المال عنده واطمأن إلى أنه فى حوزته راح يصرف منه على حاجات الإنشاء والتعمير فخلق مصر خلقًا جديدًا فى عشرين سنة ، بأموالها وجهود أبنائها . وانقضت أيام محمد على وخلف من بعده خلف استمعوا للنظريات اليهودية التى تبرر الاستدانة من أجل تسيير مصالح الأمم والجماعات والتى تقول إن المال إذا كانت فائدة اقتراضه هى ثلاثة فى المائة لينتج مشروعات تدر ربحًا مقداره ٧ فى المائة فإنه يكون من العته والسفه ألا تقدم الدولة أو الفرد على القرض فورًا للاستفادة من هذا الفرق الضخم بين الثلاثة والسبعة وتلك نظريات تبدو براقة وخلابة ولكنها نظريات فاسدة ولذلك فلم يستفد منها أحد فى الدنيا كلها إلا اليهود الذين احتكروا المال وحذقوا عمليات الإقراض واستنزاف الأرباح ، فجعلوا الأممَ والشعوبَ تشقى وتكدح لكى يستولوا على ثمرة جهودها وتتضخم ثرواتهم وهم قعود خلف مكاتبهم . فعملوا على ترويج هذه النظريات لتروج بضاعتهم وتزدهر حرفتهم ، حرفة الإقراض بالأرباح المركبة ، فوقع الضعفاء والاغرار فى أحبولتهم وتجنبها الأقوياء العقلاء فسلموا من براثنهم .. وكانت مصر ممن وقعوا فى الأحبولة فأقدمت فى يوم مشئوم على الاستدانة أيام سعيد وإسماعيل من أبناء محمد على ففتحا على مصر بابًا من الشر ما زال مفتوحًا حتى اليوم بعد انقضاء مائة عام على ابتداء هذا الدين .

كان مقدار ما اقترضته مصر وما وصل إلى يدها فعلاً لا يزيد فى مجموعه عن خمسين مليونًا من الجنيهات حسبت عليها بما يقرب من المائة مليون وفرضت عليها أرباح ربوية عن هذه المائة مليون فكان طبيعيًا أن تعجز عن تسديد الفوائد الباهظة فتدخل الإنجليز .

والفرنسيون فى شئونها بحجة الإشراف على ماليتها . وتطور التدخل إلى أن أصبح احتلالاً إنجليزيا على هذا التفصيل المشئوم الذى تراه منشوراً فى كتب التاريخ . منذ مائة من السنين والأمة المصرية تشقى وتكدح لكى تدفع لأصحاب الديون - لاسدادا لرأس مالهم وإنما سداداً للأرباح فقط ، أما أصل الدَّين فلا يزال على حاله لم ينقص مليمًا واحدًا وفى كل عام تدفع مصر ملايين أربعة من الجنيهات مقدار هذه الأرباح السنوية . أى أن مصر قد دفعت ما يقارب الأربعمائة مليون جنيه ولا تزال مصر مدينة بعد ذلك كله بمائة مليون عليها أن تظل تدفع أرباحها السنوية إلى ما شاء الله . وكل ذلك فى مقابل دين لم يزد أصله عن خمسين مليونًا من الجنيهات هذا هو الذل الذى تعانيه مصر من جراء الدين[1] .. وتلك هى الأغلال التى نجاهد من أجل تحطيمها ولن نظفر ببغيتنا إلا إذا تركنا الإنجليز وشأننا وجلوا عن بلادنا فلو أن أمورنا اليوم بأيدينا إذن لألغينا هذا الدَّين بجرة قلم كما فعلت أمم أغنى منا فى ديون حديثة العهد ولم يصحب اقتراضها احتيال أو نصب .

المقـــامـرة

وهناك خطر ثالث يهدد الثروة بالزوال والضياع وهو خطر المقامرة أو المضاربة الذى يعمد إليه عبّاد المال الذين ضلوا السبيل ونظروا إلى المال كغاية فى نفسه تقتنى ، ولم يدركوا أن قوة المال هى فى أن يكون ثمرة للعمل والكفاح لا أن يُحصَل عليه بأخس الأساليب كالسرقة والنصب والاحتيال . وقد لجأ هذا النفر العاجز إلى التماس الغنى السريع عن طريق المغامرة والمقامرة وكان طبيعيًا أن تهب المجتمعات لتدافع عن كيانها من هذا الوباء فحاربته الأديان كلها واشتد القرآن فى التغليظ على كل صنوف الميسر والقمار فاعتبره رجسًا من عمل الشيطان ولكن اليهودية ارتفعت بالمقامرة إلى درجة النظم الاقتصادية فحولوا البورصات التى هى فى حقيقتها أسواق للبيع والشراء ، حولوها إلى دور للمقامرة والمضاربة الشرعية ، وأوهموا الدولة أن واجبها الأول هو حماية هؤلاء المقامرين ورعايتهم ... وسرعان ما تحولت المقامرة التى تحاربها القوانين إلى حرفة منظمة يقوم بها جيش عرمرم من السماسرة ومساعديهم وصبيانهم . ونحو البورصة يندفع المغامرون المقامرون الراغبون فى الاغتناء السريع فتطيح ثرواتهم فى غمضة عين كما تفنى على موائد القمار سواء بسواء فيرى الإنسان نفسه أصبح صفر اليدين من كل ما يمتلك ، دخل البورصة غنيًّا من الأغنياء وخرج منها فقيرًا من الفقراء أو جلس حول مائدة القمار ثريًّا من

(١) حوّل هذا الدَّين أخيراً ، الى ماسموه القرض الوطنى ، وقد كنا نفضل أن يلغى هذا الدين بجرة قلم .

الأثرياء فلا تمضى عليه بضع ساعات حتى يدركه الإفلاس والخراب فلا يبقى أمام هذا أو ذاك إلا أن يطلق على رأسه رصاصة من مسدسه أو يشنق نفسه بحبل أو يشعل فى نفسه النيران .

إن المقامرة على أى صورة من صورها لا يمكن أن تجعل من الإنسان غنيًّا إلا لفترة من الفترات وما جاءت به المقامرة تذهب به المقامرة وكل محاولة للكسب عن غير طريق العمل المتزن والإنتاج المنظم حكمه والمقامرة سواء بسواء فالذى يعقد صفقة ضخمة لا قبل له بها وينوء بحملها على سبيل المضاربة فهو مقامر خاسر وإذا ربح مرة فلا يلبث أن يهوى فتدك عنقه ويلقى شر مصير .

* * *

حد الغنى الواجب

ننتقل بعد ذلك إلى حد الغنى الواجب الذى يجب أن يسعى كل إنسان لتحقيقه وهو يختلف باختلاف الأزمنة بطبيعة الحال ، فما كان يعتبر فى زمن من الأزمان مظهرًا من مظاهر الترف يصبح بعد حين ضرورة من الضرورات نظرًا لتطور العمران وتعدد حاجيات الإنسان . وقد كان مالك الحصان فى يوم من الأيام يعتبر غنيا أما اليوم فالذى لا يملك إلا حصانًا لا يكون إلا فقيرًا من الفقراء . وبالنسبة لنا فى مصر وفى أيامنا الحاضرة يجب أن يكون الغنى الواجب أو بالأحرى الحد الأدنى من الغنى بحيث يمكن رب الأسرة أن يعول أسرته فى كفاية فيسكنها سكنًا جيدًا صحيًّا نظيفًا به حديقة ولو صغيرة ، وأن يكون البيت مضاء بالكهرباء محتويًا على تليفون وراديو وما يشبه هذه المخترعات الضرورية للرقى البشرى وأن يكون لدى الأسرة سيارة وأن يكون مطعمها جيدًا وملبسها كذلك ، وأن تكون قدرتها على تعليم سائر أفرادها متوفرة ، وأن يكون لديها احتياطى من المال لضمان هذا المستوى من المعيشة . هذا هو الحد الأدنى الجدير بأن يسعى كل فرد لتحقيقه لنفسه ، وكثيرون سيفتحون عيونهم دهشة واستكبارًا عندما تقع أعينهم على هذه السطور حيث أطالب بأن يكون لكل فرد هذا النصيب من الغنى ويعتبرونه ضربًا من المستحيلات وما ذلك إلا لأن الفقر المسيطر على بلادنا ــ الذى يعانيه ملايين من الناس يجعل من الصعب تصور أن يتبدل حال السواد الأعظم إلى هذا المستوى الذى أدعو إليه . وينسى المصريون والشرقيون أن أوروبا وأمريكا قد وصلت على حسابهم هم إلى هذا المستوى الذى يظنونه مستحيلاً . فليس لأوروبا وأمريكا من سوق لبضاعتها سوى الشرق ومن أرباحهم من هذه الأسواق ينعمون بهذه المعيشة التى قد يظنها البعض مستحيلة التحقيق

فى مصر والشرق . فلا يوجد عامل فى أمريكا لا يملك سيارة وليس له بيت تتوافر فيه كل الشروط التى قدمتها . فلست أدعو إذن إلى وهم أو خيال ولكنى أدعو إلى حقيقة يمكن تحقيقها من خلال العمل والادخار وإحسان استثمار المال لكل فرد من الأفراد .

فإذا تحقق للإنسان هذا القدر من الغنى فقد أصبح عليه أن يختار بين أن يمضى فى استثمار المال واستغلاله فى صالح الأعمال حتى نهاية الشوط إذا كان هذا هو السبيل الوحيد الذى يستطيع به أن يخدم أمته وجماعته ، أو أن يكتفى بهذا القدر من الغنى ويوجه جهوده إلى ناحية أخرى من نواحى النشاط الإنسانى التى تحتاجها البشرية لضمان تطورها وارتقائها .

يا بنى

والآن وقد ختمت لك رسالتى عن الغنى والمال لعلك سائلى ، أو لعل البعض توّاق لأن يعرف نصيبى فى هذا الباب ، وهل بدأت بنفسى فى هذه الدعوة ؟ كما ينبغى دائمًا أبدًا على الناصح والداعى أن يبدأ بنفسه قبل أن يتوجه بنصحه إلى الآخرين ؟ فاعلم يا بنى أن من يعمل لإراحة الآخرين لا يمكن أن يوفر الراحة لنفسه (إلا فى ضميره) ، ومن يعمل لغنى الآخرين لا يمكن أن يحصل على الغنى (إلا فى نفسه) وليس ذلك كراهة للغنى المادى أو احتقارًا له ولكن لأن هذا هو السبيل لتحقيقه على أوسع نطاق للآخرين . فلا سبيل لإنقاذ مصر مما تردت فيه من ضعف وفقر وذل وهوان ، لا سبيل إلى تحرير مصر وبعثها من جديد ورفع أبنائها إلى المكانة اللائقة بهم ، إلا أن يتصدى نفر من أبنائها يكرسون حياتهم لتحقيق هذه المهمة ، ويجودون بكل شىء فى سبيلها ، ولو كانوا يملكون عشرات الملايين من الجنيهات لوجب أن ينفقوها لهذا الغرض ، ومادام هذا حالهم فهم من باب أولى لن يسعوا لجمع المال ابتداء لأشخاصهم ، لأن جمع المال يستنفد جهدهم ويستغرق تفكيرهم فلا يكون هناك متسع للقيام بأعباء رسالتهم . فيجب أن يقنعوا بما يقيم أودهم ، ويستر حالهم . وذلك هو نصيب المصلحين والمجاهدين فى سبيل المثل العليا . وتلك هى الحالة الوحيدة التى يغتفر فيها المجتمع للشخص أن لا يكون ثريًّا بل إن المجتمع يستحب لهذا النفر من البشر أن يراهم منصرفين عن جمع المال ليكون ذلك مظهر إخلاصهم ودليل صدقهم وأنهم يعملون ما يعملون ابتغاء مرضاة الله والنفع العام مضحين بكل شىء فى هذا السبيل . ولن يكون لقلة المال فى هذه الحالة ما يشين المجاهد أو يطعن فى كفاءته أو يحد من قدرته ، أو يقلل من احترام الناس له وسيرها تحت لوائه . بل إن انصرافه عن جمع المال سيكون هو مصدر قوته وهو بالذات رأسماله . هذا النصيب هو

الذى اخترته لنفسى يا بنى ، لقد عشت مجاهدًا من أجل المثل الأعلى لهذه البلاد وللعرب وللمسلمين وسأظل مكرسًا كل دقيقة من وقتى لهذه الغاية حتى أموت فى هذا السبيل . وثروتى التى أسعى للحصول عليها وطلبتى وآمالى هو أن أرى هذه البلاد حرة قوية غنية تفيض على العالمين ...

أريد أن أرى المسلمين وقد بُعِثُوا من جديد يعيدون مجدهم التليد ويساهمون فى تطور الإنسانية وارتقائها وجهادى فى هذا السبيل من شأنه أن يزج بى فى السجون وأن يقطع على كل ما أزاوله من أعمال بقصد الكسب وجمع المال وها أنذا منذ صدر الأمر باعتقالى فى ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى اليوم وأنا بين الاعتقال والاختباء لاأستطيع الحركة فضلاً عن السعى لجمع المال وإننى سعيد ومغتبط لذلك ولن أرضى بديلاً بهذه الحياة فإما حققت لبلادى ما أصبو إليه ، وإما اغمضت عينى فى ختام حياتى هادئ الضمير مطمئن البال أننى أديت واجبى ، وهل الحياة كلها إلا واجب يؤدى ؟

الأرض الطيبة

بسم الله

هذه واحدة من عشر رسائل شرعت فى كتابتها خلال اعتقالى فى مدة الحرب العالمية الثانية .. وقد طبع من هذه الرسائل حتى الآن أربع فى كتب متفرقة وهى رسالة عن المرأة . ورسالة عن الحرب . وثالثة بعنوان نحو المجد اشتملت على رسالتين عن المال والعلم . وقد نشرت جريدة «مصر الفتاة» على التوالى جزءا من رسالة خاصة بموضوع الإيمان .. وقد حانت الظروف لتصدر هذه الرسالة عن الوطنية فى كتاب مستقل .

ولقد كتبت هذه الرسالة فى ظروف غريبة كما يُرى فى مقدمتها إذ كتبت على هامش أحد المصاحف الذى كان يصاحبنى فى السجن . عقب مقتل أحمد ماهر فى سنة ١٩٤٥ ولذلك فقد كتبت على عجل وفى اقتضاب .. ولعل هذا هو ما يسبغ عليها طابعاً خاصا . فهى ليست كتاب تاريخ وتحقيق علمى ولكنها نشيد الوطنية . ولحن الكفاح . كتبها سجين وسط ظلام السجن وآلام الاضطهاد . فكانت نوراً يبدد له الظلمات . وكانت بلسما شفى منه الجراح .. فإلى كل سجين فى سبيل الوطن . وإلى كل مضطهد فى سبيل الحق والعقيدة . وإلى كل شهيد كتب بدمه سطرا فى صحائف المجد المصرى . إلى الجنود المجهولين خلال الأجيال الماضية كلها الذين ساهموا فى بناء هذا الوطن العزيز .

إلى سيدى وإمامى وزعيمى شهيد الحق والوطنية

الدكتور مصطفى الوكيل

أهدى هذه السطور عن الأرض الطيبة .

يا بنى ..[1]

حادث مقتل أحمد ماهر

ما أعجب الظروف التى أكتب لك فيها هذه الرسالة فأنا أكتبها خلسة وسط جدران السجن الذى وضعت به ظلما وعدوانا منذ أكثر من خمسين يوما بتهمة من أشنع التهم وهى الاشتراك فى مقتل المرحوم أحمد ماهر باشا . أى أن الذين وضعونى فى هذا السجن إنما يتطلعون إلى رأسى هذه المرة ويتمنون لو رأونى متأرجحا على حبل المشنقة ولكن الإيمان الذى يغمر قلبى يجعلنى أشعر بالهدوء والاطمئنان للمستقبل وأننى سأخرج من هذا السجن كما خرجت من قبل نقى الصفحة مرفوع الرأس موفور الكرامة وقد تضاعف إيمانى بالله وثقتى بجهادى وبالأهداف التى وضعتها نصب عينى والتى ستكون موضع حديثى معك فى هذه الرسالة ، وإنه لقدر غريب ذلك الذى ساقنى إلى السجن والذى يدفع بى إلى كتابة هذه الرسالة وسط هذا الجو الذى يحيط بى .

فما كنت لأجد جوا أحدثك فيه عن الوطنية أعظم ملاءمة من هذا الجو الذى أنا فيه ، جو الاضطهاد والظلم الذى لا يؤثر على نفسى إلا بمضاعفة شعورى الوطنى . لقد جاءوا بى بمجرد أن وقع هذا الحادث العجيب ــ حادث مقتل أحمد ماهر باشا ــ والذى لم يكن فى مصر كلها - بل لم يكن فى الدنيا قاطبة من يتصور إمكان حدوثه . فلأول مرة فى تاريخ مصر يقتل رئيس حكومة داخل البرلمان بين حراسه وأنصاره وأعوانه ويقتل بيد أحد المحامين - قتله محمود العيسوى باسم الوطنية والرغبة فى إنقاذ الوطن من المهالك التى يوشك أحمد ماهر أن يعرضه لها بإعلان الحرب على دول المحور فقد خيل لمحمود العيسوى أن هذا معناه تجنيد الملايين من المصريين وخسارة مئات الألوف من الأرواح والضحايا وسط هذا القتال الرهيب الذى يغمر الدنيا منذ أكثر من خمس سنوات وليس يعلم سوى الله متى تنتهى هذه المجزرة البشرية التى توشك أن لا تدع على ظهر أوروبا حجرا على

---

(١) وضعت هذه الكتب على صورة رسائل موجهة من المؤلف إلى ابنه الذى حرمه اعتقال أبيه من أن يشرف على إعداده الناشئ وتربيته فى ذلك الوقت . وهو إذ يخاطب ابنه فهو يخاطب ــ فى شخصه ــ الجيل الجديد الناهض .

حجر دون أن تهدمه وتدمره . ولكن الذى فات محمود العيسوى أن مصر لم يطلب منها أن تعلن الحرب إلا وقد أوشكت الحرب فى أوروبا على نهايتها وها نحن ننتظر بالفعل إعلان انتهائها من ساعة لأخرى .

ظلم

وقد قبض عليّ بمجرد وقوع الحادث وجيء بي إلى سجن مصر بغير تحقيق معى فى جريمة القتل وراحوا يعاملوننى معاملة الشريك القاتل سواء بسواء وهأنذا فى سجن مصر فى نفس القسم الذى يقيم فيه محمود العيسوى مع أن هناك أشخاصا آخرين قد يكونون أكثر صلة بمحمود العيسوى منى وهم مع ذلك يقيمون فى جناح آخر من السجن . وليس سواى والأستاذ محمد صبيح من اختصونا بالإقامة إلى جوار محمود العيسوى كشركاء رئيسيين له .

هذه هى الظروف التى أكتب لك فيها هذه الرسالة . وقد بقى أن تعرف أننى أكتبها لك بالقلم الرصاص على حاشية المصحف وهو الكتاب الوحيد الذى سمحوا لى به ولست أعرف مدى المرارة التى كانت تغمر نفسى لو لم يسمح لى بهذا الكتاب الكريم الذى يؤنس وحدتى ويبعث الأمل ويقوى الإيمان فى نفسى فى هذه الفترة القاسية من فترات كفاحى وجهادى ، ولست أعرف مصير هذه الرسالة التى أبدأ كتابتها اليوم وهل يقدر لى أن أتمها فى هذا السجن أم أنه سيقدر لى الإفراج فى القريب العاجل وهو ما أتوقعه أو بالأحرى ، ما أسأله من الله صباح مساء .

والحق يا بنى إننى مذ شرعت فى كتابة رسائلى إليك فى إبان الاعتقال وأنا أتحرى أن لا أكتب لك عن الوطنية إلا بعد أن أسترد حريتى وأعود إلى الحياة الحرة الطليقة فالحرية تشحذ العزيمة وتملأ النفس إيمانا وثقة . والحرية أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا تضاعف فى إحساسنا الوطنى وتزيد فى تعلقنا بأرض الوطن . وأعترف لك يا بنى أن الاعتقال الطويل إبان الحرب كان قد بدأ ينال من نفسى ويزعزع فى عقيدتى وثقتى ببلادى . وكانت الحرب من ناحية أخرى بأحداثها المتلاطمة لا تزال فى أوجها وعنفوانها . سريعة متلاحقة وقد غمرت الدنيا كلها بحيث لم يعد الإنسان قادراً على التفكير فى استنباط قواعد معينة أو أسس منظمة بما دام أن كل شىء فى تغيير وتبدل من ساعة لأخرى .. فلم يكن من الميسور على الإنسان أن يفكر فى مستقبل وطنه ومستقبل الدنيا كلها .

ولقد كان لذلك كله أكبر الأثر على نفسى من حيث عواطفى وأفكارى . فأحجمت عن كتابة هذه الرسالة .

السجن بعد الاعتقال

ومع ذلك فها هى الظروف تقضى على أن أكتبها من داخل جدران السجن وأنا فى انتظار قرار النيابة فى موضوع هذه القضية الخطيرة . ولكن بين خروجى من الاعتقال فى سنة ١٩٤٤ ودخولى إلى السجن انقضت فترة طويلة تناهز العام . خرجت فيها إلى الحياة الحرة الطليقة وذقت لذة الكفاح والجهاد من جديد فتجدد بذلك نشاطى وانتعشت نفسى وروحى . وقد أتيح لى بمناسبة إجراء الانتخابات فى هذه الفترة أن أساهم بأكبر نصيب . إذ رشحت نفسى عن إحدى دوائر القاهرة ورشحت نفراً من إخوانى فى دوائر أخرى فجعلنى ذلك أمتزج بالشعب أعظم امتزاج . فرأيت من عواطفه وحماسته وفهمه وإدراكه ما جعلنى أشد إيمانا بالشعب وإخلاصاً له وإحساساً بالمعنى الوطنى الذى حملت لواءه منذ اللحظة الأولى لإنشاء مصر الفتاة . حتى إذا كانت هذه المحنة الجديدة التى وقعت فيها لم تزدنى إلا يقينا وثباتاً وصبراً وجهاداً .

وهذا هو أعظم ما أعتز به من نفسى يا بنى وهو ما يجعلنى دائما مرتاح الضمير مطمئنا إلى ما يجيء به المستقبل فها أنذا بعد اثنتى عشرة سنة من الكفاح المتصل أجد نفسى أسير السجن كما لو كنت أسجن لأول مرة . وما أشد الخجل الذى بات يعترينى عندما يتعرف علىّ هؤلاء السجانون الذين لا يعرفون عنى شيئاً إلا أن يرونى مسجونا عندهم من حين لآخر . لقد أصبحت أمثل فى نظرهم واحداً من أرباب السوابق ولطالما منوّا أنفسهم فى المرات الأولى من سجنى أن يرونى بعد قليل من الزمن شخصاً ذا شأن وحيثية يستطيعون أن يستفيدوا من وراء معرفته شيئاً ولكن الأيام مرت تتلوها السنون وهم يرون السجن يفتح أبوابه مرة بعد أخرى ليستقبلنى كمسجون عادى ، بل كمسجون خطر فى أخطر جريمة يمكن أن ترتكب فى الدولة ألا وهى قتل رئيس الحكومة . ولقد تعرفت فى أيام سجنى الأولى على ضباط صغار تطلعوا إلى أن يرونى فى زمن قريب على شيء من القدر والنفوذ فى حكم البلاد وصادقونى على هذا الأساس لينتفعوا بمكانتى المقبلة ولكن هؤلاء الضباط قد وصلوا الآن إلى أعلى الدرجات وأصبحوا من كبار الضباط بينما لا زلت كما أنا مسجوناً عاديًّا لا حول له ولا قوة بعد اثنتى عشرة سنة . إن الكثير من هؤلاء السجانين الطيبين لا يعرفون شيئاً عن الوطنية كما أعرف ويتصورون أن السياسى قد يسجن مرة لكى

يكون وزيراً أو موظفاً كبيراً أما أن يظل السياسى يحبس ويسجن إلى ما شاء الله فهو ما لا يفهمونه وما لا يستسيغونه بحال من الأحوال .

محنــة

وعلى أية حال فهأنذا فى السجن من جديد وها هى المحنة مرة أخرى حيث يسود فيها جو الارهاب على حزب مصر الفتاة وزعماء مصر الفتاة . ومرة أخرى يتنكر الكثيرون ممن ينتمون إلى مصر الفتاة لينجوا بأنفسهم من الاضطهاد والتعذيب والتشريد . ومرة أخرى تنطلق الألسنة المختلفة تعوى من هنا وهناك سبًّا وقذفاً فى مصر الفتاة ورمياً لها بمختلف التهم والافتراءات . ومرة أخرى يتساءل الناس فى كثير من التشكك ما هذا الأحمد حسين ؟ ما هى مراميه ؟ وما هى غاياته وما باله لا يكاد يعرف من أمره إلا أنه السجين الدائم ؟ لا بد أن يكون شخصاً غير جدير برئاسة حزب أو على الأقل لابد أن يكون شخصاً غامضاً لا يصلح لشىء ولا يفيد فى شىء .

وهكذا تتحالف على الإنسان كل عناصر الإيلام من سجن وظلم واضطهاد وإنكار لجهاد الإنسان وتضحياته . بل وعدم فهم لحقيقته وما ينطوى عليه جهاده من أغراض .

إيمــانى

ومع ذلك فيوم أن يقدر لى أن أخرج من هذا السجن فسأخرج منه بإيمان مضاعف وعزيمة قوية أن أظل كما أنا لا أتحول ولا أتبدل ولا أضعف أو ألين . إن القضية التى آمنت بها منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه نفسى : هى أن هذه البلاد التى أُنسَب إليها كانت فى ماضى أيامها عظيمة كأعظم دولة تعرفها الدنيا فى الوقت الحاضر . وأننا ورثة أعظم حضارتين عرفتهما الدنيا فى قديمها وحديثها . وهما الحضارة العربية والفرعونية . وأن مصر يجب أن تعود إلى سابق مجدها وعظمتها وأن تأخذ مكانها فى العصر الحديث بين دول العالم العظمى . ولقد عبرت عن هذا الإيمان فى السطور الأولى من رسالة مصر الفتاة بهذه الكلمات .

«مصر التى علمت الإنسانية وأضاءت على العالمين . مصر التى حملت لواء الأديان جميعاً وأعلت كلمة الله والإسلام . مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن . بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم . لن تموت أبداً بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم ومصباحا للشرق وزعيمة للإسلام وهى من

أجل ذلك فى حاجة إلى دم الشباب الملتهب ـ فى حاجة إلى الإيمان والعمل فى حاجة إلى نفر من بنيها يقابلون الموت ويستعذبون الألم ويرحبون بالتضحية وتلك صفات لن تتوافر فى أبناء الجيل القديم .

فعلى الشباب ... فعلى الجيل الجديد ... فعلى جنود مصر الفتاة تقع تبعة بعث المجد القديم » .

هذا هو إيمانى ـ وتلك هى رسالتى ولكن ما أعظم الفارق بين ما أتمناه لمصر وبين ما توجد عليه فى الواقع . فهى مسلوبة الحرية ـ مسلوبة الإرادة . يعيش سوادها الأعظم فى الجهل والفاقة والمرض .

وقد استطاع الغاصب المحتل أن يمزقها إلى شيع وأحزاب وأن يخلق له صنائع وأدوات تتولى تثبيت أقدامه فى حكم البلاد على شكل وزراء وموظفين كبار وأغنياء وأصحاب مصانع وشركات من الأجانب والمصريين على السواء . وكأثر من فقدان الحرية والإرادة ستين سنة هى فترة الاحتلال الانجليزى ـ تدهورت الأخلاق ـ وضعف الوازع الدينى ـ وانتشرت الموبقات وعمت المنكرات ولم يبق سوى الفساد فى كل مكان . تدهور وانحلال وجرائم وذل وجبن ومهانة واستكانة وفقر وضعف ومرض ـ هذه هى مصر وهذه هى حالة الشعب المصرى فلا عجب إذا فقد الشعب ثقته بنفسه وإيمانه بقدرته ـ ورضى بحالته التى هو عليها وأصبحت كلمات الحرية والمجد والوطنية لا تحرك فى نفسه ساكنا ويشفق على قائليها إن لم يسخر منهم ويسفههم بل قد يعتبرهم فى بعض الأحيان من أشد خصومه وأعدائه .

صعاب

وإذا كانت هذه هى حالة مصر فعليك أن تتصور يابنى مقدار الجهود التى يجب أن تبذل حتى تنهض مصر من كبوتها وتقال من عثرتها وتستعيد سابق مجدها وعزها . فعلى المجاهد الساعى فى سبيل تحقيق هذه الغاية أن يواجه الانجليز وأن يصمد لحربهم . وأن يواجه جميع المستفيدين من الوضع الراهن سواء كانوا موظفين أو وزراء أو أغنياء أو كبار ملاك أو أجانب وأن يصمد لحربهم . وعليه أن يواجه الفقر والجهل وجميع صنوف الموبقات وأن يثبت لحربها . عليه أن يواجه ضعف الوازع الدينى وانعدام الأخلاق وفقدان الثقة بالنفس وأن يثبت لكفاحها .

على المجاهد أن يتصدى لكل هؤلاء الخصوم وأن يجابه هذه المشاكل بغير سلاح ولا عتاد ولا أنصار أو عصبية أو جاه أو مال . فهل عجيب أن يقاسى المجاهد المتصدى لهذه المهمة ألواناً من العذاب والاضطهاد وأن يخرج من السجن ليدخل فيه من جديد . وأن يصاب بالنكبات والمصائب التى تهد الجبال . وأن يصاب بخيبة الأمل - تتلوها خيبة الأمل ، تعقبها خيبة الأمل؟ هل عجيب أن يقضى المجاهد الصادق اثنتى عشرة سنة أسير السجون ورهن المحاكمات - موضعاً للازدراء والانكار والسخرية ؟ الحق أنه لا شىء فى ذلك كله يوجب العجب وإنما غير ذلك هو الموجب للعجب بل للدهشة والاستغراب إن لم يكن موجباً للاتهام والشك والإنكار . فلو أن طريق المجاهد فى مثل الظروف التى شرحتها كان سهلا ليناً خلواً من العقبات والمصاعب - لوجب أن يقطع الإنسان بأنه لم يكن أميناً أو صادقاً فى جهاده . وإلا فكيف يستطيع أن يشق طريقه وسط هذه المخاطر فى غير أذى حقيقى أو اضطهاد ..

إن المجاهد لابد وأن يلقى من المصاعب والمتاعب بمقدار إخلاصه وأمانته وصدقه . فكلما كان أميناً على أداء رسالته كلما حورب وعُذِّبَ وشُرِّدَ واضْطُهِد . فلو أنى طالب وظيفة - لوجدتها . ولو أنى طالب جاه أو مال لاستطعت أن أحصل عليه بالاشتغال بالطرق الموصلة إليه . أما وأنا طالب مجد لأمة محتلة مستعبدة فكيف يكون هناك سبيل للراحة أو الهدوء . وما هى اثنتى عشرة سنة فى حياة مجاهد فضلا عن أن تكون شيئاً فى حياة قضية من قضايا الحرية ؟ فلو أنى واصلت الجهاد عشرين سنة أخرى لكى أنعم فى نهايتها بقبس من النجاح لقضية بلادى لكان ذلك فوزاً مبيناً ونصراً مؤزراً . بل لو أنى قدمت حياتى لكى تخطو بلادى بعد موتى خطوة واحدة نحو الأمام فى سبيل الغاية المنشودة لكان ذلك نجاحاً ما بعده نجاح .

على مفترق الطرق

والمسألة التى أراها معروضة علىّ الآن فى هذا السجن هى : هل أواصل جهادى فأظل أنادى بمبادئى وأكافح فى سبيل الحرية فى مختلف صورها وأشكالها وأكافح فى سبيل كل ما يعود على وطنى بالرفعة والمجد فيعرضنى ذلك لسخط المحتلين - وسخط المنتفعين والمستوزرين والأذناب والصنائع ، فأظل رهين السجون والاعتقالات - أم أن أكف عن شدة بأسى فى محاربة الظلم والدعوة إلى الحق والحرية وألين جانبى للغاصب المحتل فأسكت عن حركاته وخططه ومناوراته فى مصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية لإبقائها طويلا

فى ظل الأسر والعبودية . أأسكت عن الغاصب فأستطيع أن أضمن حياة أكثر ليناً وأكثر رفاهية وربما أكثر شهرة وجاهاً وسلطاناً ومالا فأصبح نائباً وأصبح خطيراً فوزيراً فرفيعاً ... ؟

أصارحك القول يابنى أننى بين هاتين الصورتين لا أستطيع إلا أن أختار الصورة الأولى صورة المجاهد الصادق الأمين بكل ما فيها من سجون واعتقالات وتحقيقات ومحاكمات . بكل ما فيها من آلام وعذاب وموجبات لليأس وخيبة الأمل وأن أحتقر الصورة الأخرى . صورة المترامى على أعتاب الانجليز وصنائع الانجليز . صورة الساكت عن الظلم والراضى بالقيد والمغضى عن كلمة الحق .

لا .. لا يابنى ... لا أريد أن أكون ذلك الرجل بحال ولست أرضى بإيمانى بديلا ولست أرضى بكفاحى بدلا .

يتساءل بعض المتشككين وما هى جدوى هذه الحياة التى تقضيها بين السجون مكبلا مغلولا ؟ ما هى جدوى هذه الحياة التى تجعل أقرب الناس إليك يفرون منك للنجاة بأنفسهم من ويلات العذاب والتنكيل ؟ ما جدوى هذا الكفاح الذى لا يكاد يقوى عليه أحد سواك والذى يجعلك تبدو فى نظر الكثيرين غريبا غير مفهوم وغير منتج وتجعلهم ينكرون عليك كل شىء حتى وطنيتك ؟ أو لم يخرج عليك أقرب المقربين إليك بدعوى أنك لم تعد غير مكافح ؟ ألم يغمزوك فى وطنيتك وصدق عزيمتك ورجاحة عقلك ؟ ألم يصوروك أمام الناس بأقبح الصور فجعلوك متقلبا متلونا لا تستقر على حال ؟ والحق أن ليس هناك ما يحز فى قلبى وفى نفسى أكثر من هذا الجحود والإنكار ممن قربتهم إلىّ وعاونت على تسنمهم ذرى الشهرة والنجاح . ومع ذلك فليس لى من رد على ذلك كله . وليس لى من سلاح أقاوم به كل هذه العناصر الهدامة سوى سلاح واحد وهو الثبات .. الثبات حتى النهاية .. ليس أمامى سوى طريق واحد أدافع به عن نفسى وأدافع به عن بلادى وقضيتها هو أن أضغط بكل ما جاهدت من أجله طوال السنوات الماضية وأن أواصل الجهاد . ليس أمامى سوى التشبث بأساليبى والإصرار على موقفى ضد محاولة استعباد وطنى والحيلولة بينه وبين الحرية والنهوض والتقدم .

يجب أن يبقى صوتى مرفوعا فى وجه الظلم والفساد والطغيان حتى النفس الأخير وسيبقى بإذن الله .

يجب أن أبقى كما أنا - أحمد حسين - الذى يرهبه البغاة ويخشاه الانجليز وكل عصابة الشر والإفساد فيعملون دوماً على تقييد حريته اقتناعا منهم أنه لو ترك حرًّا لألهب الأمة بحماسته وحرارته وأيقظ مشاعرها وحرك عواطفها .

ولن يهمنى أبداً كم من الناس يلتفون حولى أو يبقون بجوارى .. وهل أبلغ النجاح المرموق فى حياتى أو بعد مماتى فما أنا إلا حامل علم فى هذه الأمة - علم المقاومة فى سبيل الحرية ، علم الرجولة والصراحة والصدق والإخلاص والمحبة والوطنية ، علم الجهاد فى سبيل المثل الأعلى والكمال المطلق . ومهمة حامل العلم أن يدافع عنه حتى يلاقى حتفه غير ناظر للهزيمة أو الفشل ، غير ملقٍ فى باله هزيمة الجيش أو انتصاره فمهمته تتلخص فى شىء واحد هو أن يدافع عن هذا اللواء المرفوع حتى النهاية وأن يبقيه خفاقا ما بقى فيه نفس يتردد .

ما أحب إلى نفسى أن أكون أحد هذه المصابيح التى تحترق لتضىء ما حولها غير عابئة بحلكة المكان من حولها وبغير أن تتساءل عما إذا كان الناس ينتفعون باحتراقها أو لا ينتفعون فإن مهمتها ودورها هى أن تضىء وأن تضىء فحسب .

الجنـدى المجهـول

وليس ذلك الذى أتمناه لنفسى بالشىء الفذ أو البعيد المنال والتحقيق فإن أى جندى متطوع فى ميدان القتال يفعل ذلك من أجل وطنه فهو يجود بالروح كلها من أجل حرية الآخرين أو مجد بلاده - وهو يموت مجهولا لا يكاد يحس بموته سوى هذا النفر القليل من أسرته ومعارفه وأصدقائه . وما أكثر الذين يموتون فى ميدان القتال وها نحن نشهد حرباً ضروساً منذ أكثر من خمس سنوات مات فيها زهرة الشباب من مختلف الأمم والشعوب بالملايين ماتوا بكل أنواع الموت وهم يؤدون واجبهم نحو بلادهم فى صمت وإنكار ذات . ومع ذلك فالشعوب كلها تأبى إلا أن تستمر الحرب حتى النهاية ، حتى آخر طلقة من الرصاص وحتى آخر نسمة من الحياة .

وها هم الألمان الذين رأيناهم ظافرين منتصرين حتى كادوا يسيطرون على الدنيا القديمة كلها يعانون مرارة الهزيمة وويلات الانحدار بعد أن تراجعت جيوشهم فى كل مكان دخلته من قبل - ونفذ الروس والأمريكان والانجليز إلى قلب المانيا الخفاق وكل شىء يدل على أن النهاية قد أوشكت من يوم لآخر ومع ذلك فلا يزال هناك جنود

يتشبثون بالأطلال هنا وهناك ويواصلون الدفاع عن الخرائب ما بقيت لديهم طلقات من الرصاص وعبثاً يقال لهم ان لا جدوى من استمرار المقاومة - عبثا يخوفونهم بأن الفناء هو مصيرهم المحتوم وأنه من الخير لهم أن يبقوا على حياتهم - عبثا يدعون إلى التعقل والصواب والحكمة . فهم يؤثرون الموت على العبودية - ويؤثرون الموت على أن يروا أعلامهم منكسة وأوطانهم مداسة بأقدام الأجنبي وهذه هى عاطفة العزة والكرامة ومقياس الرجولة والإنسانية ومن خلال هذا الكفاح المستميت يستطيع الإنسان أن يتلمس عظمة الشعوب .

فهذا الذى أفعله من الاستمرار فى الجهاد غير عابىء بالظروف التى تحيط بى وتحيط بالبلاد مما يجعل حياتى سلسلة متصلة من الاضطهاد ليس يا بنى لوناً من ألوان التطرف أو الهوس كما يظن البعض وإنما هو الواجب الوطنى العادى الذى يجب أن يتوافر فى نفس كل مواطن كريم . .

غريــزة البقـــاء

وقد حانت الساعة لكى أشرح لك هذه العاطفة الوطنية وحقيقتها - أهى شىء خيالى خرافى لا أصل له وليست سوى لون من ألوان الوهم والخيال وضرب من ضروب البلاغة والأدب والإنشاء وهى شىء لا معنى له ولا تحديد كما يسفسط البعض ويتشدق - أم أن الوطنية هى عاطفة طبيعية وسر من أسرار الوجود ولا سبيل للنشوء والارتقاء والتطور إلا عن طريقها .. ؟

الوطنية صورة من صور غريزة البقاء التى خلق الإنسان مجهزاً بها من لدن الخالق - فهى والحالة هذه ليست شيئاً كماليًّا فى عواطف الإنسان وليست على هامش العواطف كما قد يظن البعض - ولكنها غريزة البقاء أصل الغرائز كلها وأعمقها أثراً فى حياة الإنسان فالكائن الحى مجبول على حب الحياة وقد خلقه الله مجهزاً بكل ما يساعده على المحافظة على هذه الحياة والدفاع عنها والتغلب على مصاعبها وآلامها ومتاعبها .

ولا جدال فى أن الكائن الإنسانى الأول لم يكن يعرف من عواطف الدنيا سوى عاطفة واحدة وهى أن يحب نفسه - وأن يحب نفسه أولا وأخيراً . ولا جدال فى أنه كان ينظر إلى كل شىء فى الدنيا كمتاع خاص به وحده قد خلق لإشباع حاجاته الشخصية والمحافظة على كيانه .

لم يكن الإنسان الأول يعرف إلا محوراً واحداً لكل جهوده ونشاطه وهذا المحور هو «أنا» هذه الكلمة التى اشتقت منها كلمة الأنانية . ومع ذلك فلم يكن أنانيًّا لا يفكر إلا فى نفسه ، لأن الدنيا كلها لم تكن تأبه لأحد بأكثر مما تأبه لهذا المخلوق الجديد الذى سيقدر له أن يكون سيد الكائنات كلها وخليفة لله فى هذا الكون .

على أن الإنسان الفرد لا يستطيع بنفسه أن يحافظ على كيانه إلى ما شاء الله فأجله محدود وعمره قصير فلابد له من نسل يحفظ النوع فكانت الأنثى وكانت الغريزة الجنسية التى دفعت الذكر دفعاً إلى حب الأنثى ليكون من هذا الحب نسل يضمن البقاء والاستمرار لهذا الإنسان .

وامتدت غريزة البقاء فبعد أن كانت مقصورة على حب الإنسان لنفسه أصبحت تشمل حبه لزوجته وشريكته فى الحياة ، وأصبح الدفاع عن الأنثى جزءاً لا يتجزأ من الدفاع عن نفس الانسان . ولما أنتج الزواج ثمرته وجاء النسل الجديد امتدت غريزة البقاء امتداداً جديداً فأصبحت تشمل الابناء كما شملت الأنثى من قبل .

وهكذا خلق حب الأسرة أو بالأحرى خُلِقَتْ الوطنية فى أول صورها وأقواها وأحسب أن ليس هناك من يمارى فى حب الإنسان لأسرته أو بالأحرى حبه لزوجته وأولاده واستعداده للكفاح والكدح من أجلهم واحتمال كل صنوف المتاعب والآلام من أجل راحتهم وإسعادهم بل واستعداده لإراقة دمه فى بعض الظروف دفاعاً عن حياتهم . فإذا قال قائل اننا نصادف أشخاصاً قد يضحون بأبنائهم من أجل شهواتهم الخاصة فالجواب على ذلك أن هذا لون من ألوان الشذوذ والاستثناء الذى يجب أن لا يقاس عليه فإذا كانت هناك أم تقذف بوليدها فى إحدى الطرقات أو تخنقه بمجرد ولادته لكى تدفن عارها ـ فليس ينفى ذلك بحال من الأحوال أن البشرية لا تقوم على شىء قدر قيامها على حب الأم لطفلها وفنائها فى سبيل تربيته وسعادته . فالأمومة والأبوة والبنوة التى يجمعها حب الأسرة هى عاطفة أصيلة ومتمكنة فى نفس الإنسان لأنها مشتقة من غريزة البقاء كما قدمنا ولأن كيان الإنسان يقوم عليها .

فإذا عرفنا أن الوطنية هى حب الأسرة مضافاً إليها حب الأرض التى نشأت عليها هذه الأسرة وأن هذا الحب هو أمر ضرورى لحفظ كيان الإنسان استطعنا أن ندرك أن الوطنية ليست شيئاً خياليًّا أو مما يمكن للإنسان أن يستغنى عنها أو أن يغض من خطورتها .

تعريف الوطن

أحب الإنسان أسرته الأولى فى بادئ الأمر كما رأينا . ولكن هذه الأسرة لم تلبث أن تطورت إلى عدة أسرات ، شعرت بوجوب التعاون فيما بينها والتضافر لتقوى على الدفاع عن نفسها ضد عاديات القدر وأحداث الزمان ومخاطر الحياة . فاتسع نطاق حب الأسرة إلى حب العشيرة واعتبار الدفاع عنها دفاعاً عن النفس . وتطورت العشيرة إلى قبيلة . وتطور العمران وانتشرت الحياة ، وازدادت خبرة الإنسان وتجاربه ومعارفه وتطلع إلى آفاق جديدة وغزوات جديدة فى عالم المجهول فتفرقت القبيلة إلى قبائل سلكت كل منها مسلكا خاصا وبدأت ترى نفسها مرتبطة بأوضاع ومصالح قد تتعارض مع مصالح وأوضاع القبيلة الأخرى . وبدأت هذه المصالح والأوضاع تتعلق بأجزاء معينة من الأرض ، أو بنوع معين من الممتلكات كعيون الماء ومراعى الماشية ومناطق الصيد الوفير . ومن هنا بدأت الوطنية تأخذ معناها الاصطلاحى البحت وهو حب الإنسان لأسرته وعشيرته وقطعة معينة من الأرض . يذود عنها ضد عدوان الآخرين . وغنى عن البيان أن الإنسان الأول وهو قريب عهد بالفطرة السليمة الصادقة لم يستقر إلا فى الأمكنة التى شعر أنها تهىء له أوفر نصيب من الحياة الطيبة . وتهىء له سبيل الدفاع عن نفسه وحريته وحياة أسرته وقبيلته وحريتها . بحيث أن هذا المكان لو انتزع منه لسبب من الأسباب أو شاركه فيه دخيل أجنبى أو تحكم فيه متحكم قوى فان معنى ذلك أن تتعرض حياته للاضطراب والارتباك وتخرج عن دائرة السلامة والأمن والرفاهية . إلى نطاق الخطر والحرمان . وذلك ما يجعلنا نعرف الوطن بأنه المكان الذى ولد فيه الإنسان بين أهله وعشيرته والذى يهىء له حياة رغدة طيبة ويمكنه من المحافظة على أمنه وسلامه وحريته . ولا بد من اجتماع هذه الشروط كلها لكى يتحقق معنى الوطن بالنسبة للإنسان ولكى تنشأ فى نفس الإنسان عاطفة الوطنية . فلو أن شرطا من هذه الشروط فقد ويئس الإنسان من إمكان توفيره لشعر الإنسان فجأة بتلاشى الوطنية فى نفسه ولراح يبحث عن موطن جديد يجد فيه الأمن والسلامة والحرية والكرامة والأهل والعشيرة . لأن الوطن هو مسكن الإنسان وكما يتطلب الإنسان من مسكنه أن يحميه من غوائل العدوان الخارجى وأن يقيه تقلبات الطبيعة ومخاطرها . وأن يجد فيه الأمن والطمأنينة كلما لجأ اليه بحيث إن لم يصلح المسكن لتوفير هذه المزايا ويئس الإنسان من إمكان أن يوفرها فى يوم من الأيام لبحث له حتما عن مسكن آخر تتوافر فيه . وكذلك الحال فى الوطن . فلا بد أن يكون بالنسبة للإنسان خير مسكن ومأوى وملجأ وإلا فقد صفته كوطن وانعدمت فى النفس عاطفة

الوطنية بالنسبة لهذا المكان بالذات . وتطبيقا لذلك وجدنا العرب يرتحلون من كل مكان نضب ماؤه وجف معينه وذوت مراعيه ، ويرتحلون من كل مكان عجزوا فيه عن حماية أرواحهم وحريتهم أو غلبوا على أمرهم فيه . وتطبيقاً لذلك وجدنا الأحرار فى كل زمان ومكان يهاجرون من بلادهم ومسقط رؤوسهم إلى حيث يستطيعون التمتع بحريتهم فى بلاد أخرى فتصبح هى أوطانهم الحقيقية التى يولونها كل حبهم وإخلاصهم وفنائهم من أجلها ولعل أمريكا الجديدة هى أصدق شاهد على ذلك فكل من فى أمريكا قد هاجر إليها من إحدى البلاد الأوروبية . ففيها الإسبانى وفيها الانجليزى وفيها الألمانى وفيها الفرنسى ولكن الجميع يعتزون اليوم بوطنيتهم الأمريكية ولا يرضون بها بدلا وما ذلك إلا لأن أمريكا قد وفرت لهم الحرية والعمل والثروة فاستغنوا بها عن أوطانهم القديمة التى هاجروا منها هرباً من الاضطهاد أو هرباً من الجوع والفاقة وطلباً للرزق . ويعتز الانجليزى اليوم بانجليزيته لأنها تحقق له الكرامة والاعتبار والثروة فى الدنيا كلها ولو تصورنا انهيار الامبراطورية البريطانية وخضوعها لتبعية إحدى الأمم لوجدنا الانجليز المبعثرين فى أنحاء العالم يتخذون من البلاد التى يقيمون فيها ويتمتعون فيها بالحرية والرفاهية أوطاناً جديدة يحبونها ويدافعون عنها ويموتون فى سبيلها أو بالأحرى يموتون فى سبيل حريتهم ورفاهيتهم الجديدة التى يفقدونها بفقدان حرية هذا الوطن الجديد .

فانعدام الحرية ، كفقدان العدالة الاجتماعية وتفشى الظلم والطغيان والفقر والمرض والجهل وفقدان الأمل فى إصلاح ذلك الحال ، يجرد الوطن من معناه ويقضى على شعور الوطنية فى النفوس مما يهدد الجماعة فى هذه الحالة بالتدهور والانحلال ويصبح لزاماً على الانسان أن يجاهد لإصلاح هذه الحالة كما يجاهد لإصلاح مسكنه الخاص فاذا استحال عليه الإصلاح أو إذا يئس من إمكان تمامه فقد وجب أن يهاجر من هذا المكان وأن يبحث عن وطنه فى مكان آخر حيث يتمتع بالحرية والأمن والعدل ويحصل معاشه ويستثمر ملكاته ومواهبه ومزاياه التى جهزه الله بها .

وتطبيقاً لذلك هاجر المسلمون الأوائل من مكة نجاة بدينهم وهاجر الرسول صلوات الله عليه نجاة بدينه ودعوته وحرصاً على نشر عقيدته واتخذ من المدينة وطناً حقيقيًّا له . ولما تألفت الدولة الإسلامية التى استطاعت أن تحمى المسلمين من اضطهاد المشركين عاد المهاجرون من الحبشة إلى وطنهم الجديد فى المدينة .

ويهاجر الناس دائما أبداً إذا ضاقت بهم سبل العيش فى بلادهم فاذا وجدوا فى

مهاجرهم الحياة والرغد والحرية اتخذوها وطناً جديداً لهم يؤثرونه بحبهم وولائهم .

فالوطنية بمعناها الحقيق هى الغريزة التى تدفع الإنسان إلى الذود عن كيانه وحريته والدفاع عن أسرته وفصيلته والتماس كل صنوف الكمال والارتقاء وذلك لا يتحقق إلا إذا عاش الانسان حرًّا فى وطن حر وإلا فلا وطن ولا وطنية .

دفع لبس

وهنا لا يسعنا إلا أن ندفع لبساً يعرض للكثيرين جدا فيخلطون عاطفة الوطنية التى هى – كما رأينا – عاطفة سامية هدفها رقى الإنسان وكماله وحفظ نوعه وكيانه فلا تنمو وتزدهر إلا فى ظل الحرية - وبين التصاق فريق من الناس بقطعة من الأرض وتعلقهم بها لا يستطيعون عنها حولاً مهما لاقوا فيها من عنت واضطهاد وفقر وذل ومسغبة ولا يبذلون جهداً لتغيير هذه الحالة أو إصلاحها فالتعلق الذى يوجد فى هذه الحالة بالأرض ليس وطنية وإنما هو علاقة مادية تتحكم فى الإنسان الضعيف الخامل الذى نزل عن صفته الإنسانية واقترب من الدائرة الحيوانية فرضى بفقدان الحرية . إذ من المعلوم ان النباتات هى ثمرة العناصر والمعادن التى تتألف منها بقعة معينة من الأرض والهواء الملاصق لها . ولا تستطيع النباتات أن تنبت ، فضلا عن أن تعيش إلا فى أماكنها الطبيعية ومناخها المعتاد فلو نقل نبات إلى تربة غير التربة التى ينمو فيها لما ازدهر أو نما ولو نقل إلى جو غير جوه المألوف لما نما كذلك أو ازدهر . وما يقال عن النبات يقال عن الحيوان فالحيوانات لا تستطيع الحياة إلا فى أجواء مخصوصة وفى ظروف مخصوصة فلو نقل الحيوان من هذه البيئة إلى بيئة مختلفة كل الاختلاف عن بيئته الأصلية لما استطاع أن يعيش ولو قدر له أن يعيش فانه لا يلبث أن يتحول إلى نوع جديد يخالف كل المخالفة النوع الأصلى وهكذا .

فهناك ارتباط وعلاقة بين الكائن الحى نباتاً كان أو حيواناً وبين الأرض التى يعيش عليها . وللأرض مثل هذا التأثير بالنسبة للإنسان الذى ينشأ فى موطن معين لازمه أجداده من قبله منذ عدة أجيال سابقة فيتأثر الإنسان فى ذلك بتكوينه المادى ومزاجه وطبيعته . ومن هنا كان سكان الجبال يختلفون عن سكان السهول وهؤلاء يختلفون عن سكان الصحارى . والذين يعيشون على شواطىء البحار وفى الجزر يختلفون عمن يعيشون فى داخلية البلاد . وسكان المناطق الحارة يختلفون عن سكان المناطق الباردة أو المعتدلة . وهكذا . ويستطيع كل إنسان أن يدرك هذه الرابطة المادية التى تربط الإنسان بقطعة من

الأرض عندما يستحضر فى ذهنه أن جسده مكون من هذه المعادن التى تتألف منها تربة بلاده ومن هذا الجو الذى يحيط به . ومن هنا يعتاد الإنسان مآكل بيئته فلا يستطيب غيرها . وماءها فلا يستطيب غيره . ويألف جوها فلا يرتاح إلا له . وذلك كله من شأنه أن يربط الإنسان بالأرض كارتباط النبات والحيوانات بها . ولكن الإنسان ـ خلاف الحيوان ـ قد أوتى من الإرادة الحرة والعقل ما أوجب عليه أن يحرر نفسه من كل قيد أو غل يحول دون تطوره وارتقائه ودون التماس أسباب الكمال والقوة والعلم والاقتدار فالإنسان لا ينبغى له أن يعيش إلا حيث تطيب له الحياة وحيث تتهيأ أسباب الحياة الحرة الكريمة . فإذا وجدنا إنساناً أو جماعة من الناس قد رضوا بالذل فى مكان ما ورضوا بالفقر والمهانة وشظف الحياة واستغلال الآخرين وتمكنهم فيهم وكل ذلك بدعوى حبهم لبلادهم وأرضهم فيجب أن لا تتصور بحال أن ذلك يعود إلى الشعور بالوطنية وإنما هو ضرب من ضروب العبودية للأرض كعبودية الحيوانات والنباتات لها . وهو آية العجز والخذلان . فلا وطنية فى غير ظل الحرية أو الكفاح فى سبيلها . ولا وطن للإنسان الراقى حيث لا تتوافر الكرامة والحياة الطيبة المعقولة .

لا تعارض بين الوطنية والعالمية

الوطنية والعالميـة

نصل الآن إلى مبحث هام وخطير يشغل الدنيا كافة فى هذه الأيام وهو هذا التعارض المزعوم بين الوطنية والعالمية . فالشيوعيون ينظرون إلى الوطنيين نظرة منكرة بدعوى أن الوطنية هى لون من ألوان التعصب الإقليمى والجنسى وأنها أثر من آثار الرأسمالية .. ولا جدال فى أن مناداة الشيوعية بالأخوة العالمية هو مبدأ جليل وسام ليس من ابتكاراتها أو خلقها فمن قبل الشيوعية بألف وثلاثمائة من السنين دعا الإسلام إلى هذه الأخوة العالمية التى لا ترتبط بجنس أو إقليم وإنما تجتمع تحت لواء واحد هو توحيد رب العالمين والتعاون البشرى . وأنا ممن يؤمن أشد الإيمان بالأخوة البشرية وممن يدعون إلى العالمية ، ومع ذلك فلست أرى أى تعارض بين هذه الدعوة وبين أن أكون وطنيا أدعو لتحرير الوطن الذى أعيش فيه من كل استعمار أو استغلال أجنبى ، بل إن الوطنية فى نظرى هى خطوة أساسية نحو الوصول للعالمية .

وإذا كانت الوطنية هى كما بينا فيما سبق امتدادا لحب الإنسان لأسرته فليست العالمية فى الحقيقة إلا امتداد حب الإنسان لوطنه . وعندى أن العالمية آتية لا ريب فيها . وسيأتى الوقت الذى يصبح فيه سكان هذا الكوكب الأرضى يؤلفون شعباً واحداً يسكن فى وطن واحد . وإذا كان ولابد من وجود الأوطان الأخرى فلا جدال عندى أن هذه الأوطان الأخرى ستكون فى المريخ أو فى الزهرة أو عطارد . وغيرها من كواكب المجموعة الشمسية . وحسب الإنسان أن يطالع التطورات التاريخية لنشوء أى وطن من الأوطان المشهورة لكى ندرك أننا ندفع فى طريق توحيد الدنيا كلها فى وطن واحد . ففى بدء الاجتماع ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ كان أهل كل مدينة يؤلفون وطناً واحداً ويعتبرون كل مكان آخر خارج مكان هذه المدينة هو بمثابة أرض الغربة عن الوطن ولعل بلاد الإغريق هى خير نموذج لذلك التاريخ القديم حيث كانت كل مدينة تؤلف دولة مستقلة لا تنفك عن محاربة البلاد الأخرى المجاورة فسكان أثينا كانوا يؤلفون دولة مستقلة لم تكف عن محاربة اسبرطة التى لم تكن إلا مدينة واحدة تحيط بها بعض الأراضى .

ومثل ذلك كان فى إيطاليا القديمة حيث كانت كل مدينة تؤلف دولة . وكذلك الحال بالنسبة لمصر القديمة . ولكن تطور العمران والرقى والتهذيب سرعان ما كشف لسكان هذه المدن المتحاربة أن بينهم عدة عناصر مشتركة تدفعهم نحو التعاون والاتحاد ضد عدو آخر أجنبى يهددهم جميعاً بغير استثناء فغارة الفرس على الإغريق قد حملت الآخرين على الإحساس بضرورة الاتحاد فيما بينهم . فكانت دولة الإغريق المتحدة التى اتخذت أثينا عاصمة لها . ومثل ذلك حدث فى إيطاليا وفى مصر . وحدث فى كل زمان ومكان كلما دعت إليه الضرورة .

العناصر التى تؤدى إلى الاتحاد

وذلك يجرنا إلى تحديد هذه العناصر التى تؤلف بين قلوب الجماعات المختلفة لتجعل منها شعباً واحداً وأمة واحدة تلوذ بوطن واحد .

وأول هذه العناصر من غير شك هو عنصر المصلحة . فالمصلحة هى أول ما يدفع الناس إلى الاتحاد . ويدفع المنقسمين إلى الاتفاق . ويدفع بالمتباعدين إلى التقارب فمتى شعر جماعة من الناس أن مصلحتهم لن تتحقق إلا بالتعاون مع جماعة ثانية فإن ذلك يحفزها إلى طلب الاتحاد بهذه الجماعة الأخرى لأن الإنسان مجبول كما قدمنا على الإبقاء على كيانه وتحقيق رفاهيته والتدرج فى معارج الكمال والرقى فهو يندفع بكل جهده وطاقته نحو كل ما يحقق هذا الهدف وهذه الغاية ، فالمصلحة التى وحدت الشعوب قديماً هى التى لا تزال توحدها حديثاً ... فالمصلحة وحدها هى التى أنشأت دولة سويسرا التى يتكلم مواطنوها بثلاث لغات مختلفة . وهى الفرنسية والإيطالية والألمانية . وتفترق مذاهبهم الدينية . والمصلحة هى التى ألفت أمريكا الجديدة من أجناس مختلفة ولغات متباينة . والمصلحة هى التى دفعت بتشرشل إبان الحرب الماضية إلى ان يعرض على الفرنسيين أن يؤلفوا من فرنسا وانجلترا وطناً واحداً . والمصلحة نفسها هى التى تجعل انجلترا تسير الآن خلف أمريكا بعد أن أدركت أنها لن تستطيع الحياة التى ترجوها لنفسها إذا تخلت عنها أمريكا ولذلك فلا يفتأ الانجليز يتوددون إلى الأمريكيين ويتقربون من الأمريكيين ولن يكون للانجليز مستقبل فى الحياة إلا أن يتحدوا بالأمريكيين .

والمصلحة هى التى تدفعنا اليوم . معاشر الدول العربية . إلى التعاون والاتحاد لنستطيع أن نواجه هذه الغارة الأجنبية المسلطة على بلادنا فما من قطر عربى إلا وهو

محكوم بدولة أجنبية . وما من قطر عربي يستطيع أن يحمى استقلاله ويتمتع بحريته عن طريق جهوده الخاصة فلم يبق إلا أن تتعاون الشعوب العربية وأن تحاول جاهدة أن تؤلف من نفسها أمة واحدة إذا أرادت أن تهيء لنفسها حياة أوفر حظًا من القوة والكرامة والحرية .

اللغـــة

وإذا كانت المصلحة هى العنصر الأول لتوحيد الجماعات فإنه مما يساعد على سرعة هذا التوحيد بل مما يلفت النظر إلى توافر المصلحة فى هذا التوحيد . قيام لغة مشتركة بين الراغبين فى الوحدة .. فاللغة هى وسيلة التفاهم . وهى أفكار الإنسان وخواطره منطوقة مكتوبة ـ واللغة وهى مصدر كل معارف الإنسان وعلومه ووسيلته للترق والتطور والتفاهم والتعاون ـ هى أعظم مشجع على تحقيق الوحدة . وقد كانت اللغة هى التى وحدت الإغريق القدماء والمصريين القدماء والرومان القدماء وإذا قلت إن اللغة هى التى وحدت بينهم فلا ينبغى أن يطغى ذلك على أن المصلحة أولا هى التى دفعتهم إلى التماس الوحدة . وكانت اللغة المشتركة هى أكبر مشجع على تمام هذه الوحدة . وإذا كانت المصلحة اليوم تدفع بانجلترا نحو أمريكا فسوف تكون اللغة الانجليزية المشتركة هى أكبر ما تهيء لهم سبيل هذه الوحدة يوم أن يعتزموا تنفيذها .

ولعل ذلك يرينا فى نفس الوقت كيف أن الوحدة العربية آتية لا شك فيها فالمصلحة سداها واللغة العربية لحمتها . أو بالأحرى المصلحة غايتها .. واللغة وسيلتها .

نحـو العالميـة

فإذا أدركنا هذه الحقائق أصبح من السهل أن نتصور أن العالم سائر حتما نحو التقارب ونحو أن يكون وحدة واحدة بعد أن أصبح من الواضح أن مصلحة البشرية هى مصلحة واحدة وأن الأمم العظمى لن تستطيع أن ترقى وتنجح ألا برقى باقى شعوب العالم ، ولن تستطيع أن تحقق المستوى الذى تنشده لأبنائها من حيث الرفاهية إلا إذا تحقق نصيب وافر من ذلك لبقية أجزاء العالم وبدأ كل إنسان فى الدنيا يدرك أن مصلحته مرتبطة بمصالح الآخرين . فانهيار دولة مثل ألمانيا لابد أن يستتبعه حتما انهيار قوة أوربا كلها وانهيار أوربا سيتبعه حتما انهيار انجلترا وانهيار انجلترا يتبعه انهيار كيان أمريكا الاقتصادى فلابد أن تحيا ألمانيا كى تحيا أوربا وتنجح انجلترا وتزدهر أمريكا .. وإبقاء هذه الملايين من شعوب

المستعمرات فى الذل والفاقة لا يفيد الدول العظمى فى قليل أو كثير لأنه لن يكون بقدرتهم أن يستوعبوا هذه المنتجات الراقية التى باتت المصانع الضخمة تنتجها بالليل والنهار .. فلابد للهنود من أن يرقوا ويتمدنوا لكى يستهلكوا الراديو الانجليزى والأمريكى ولكى يستعملوا السيارة الانجليزية والأمريكية ولكى يشاهدوا الأفلام الأمريكية ولابد للصين أن ترقى كى تستهلك البضائع التى ستتدفق عليها من أمريكا وانجلترا وإذن فقد أصبح من الواضح الجلى أن مصلحة الدول الكبرى هى فى إنهاض الدول الصغرى . ومتى نهضت الدول الصغرى فلن يكون هناك سبيل لحكمها بالقوة ولن يكون هناك استعمار واستعباد واسترقاق ومتى تقلصت روح الاستعمار والاستعباد فسوف يندفع البشر إلى التعاون والتآخى مؤلفين بذلك أمة واحدة ومتخذين من الكوكب الأرضى وطناً واحداً . ولاشك أن ذلك الأمر الذى كان يبدو شيئاً مستحيلا منذ قرن واحد من الزمن قد أصبح اليوم بفضل الاختراعات الحديثة وبفضل اللاسلكى والطيران والراديو والسينما والمطبعة وأخيراً الطاقة الذرية يسيراً لأنها جعلت العالم قريب الأطراف وسهل الوصول إلى أى جزء من أجزائه أو التحدث إلى أى ساكن من سكانه ومتى كان الإنسان فى نصف الكرة الشرقى قد أصبح بقدرته أن يخاطب وأن يرى رجلا فى نصف الكرة الغربى بل وأن يذهب إليه بأسرع مما كان فى القديم يذهب من القاهرة إلى الإسكندرية فمن الذى يستطيع أن ينكر أو يمارى فى أننا صائرون حتما نحو العالمية والأخوة البشرية .

ولـكن ....

ولكن هذه الغاية وإن كانت محققة فإنها لا تزال بعيدة فالعالم كما نرى لا يزال مقسما إلى عدة وحدات متحاسدة متباغضة متناحرة متقاتلة .. وفيها القوى الذى لا حد لقوته - وفيها الضعيف الذى لا حد لضعفه .. ولا تزال السياسة التى تسود العالم فى هذه الفترة هى سياسة استعلاء القوى على الضعيف والرغبة فى استعباد الصغير وإذلاله - وها نحن نشهد فى هذه الأيام كيف تشن الأمم الكبرى على بعضها حرب أعصاب حول فرائسها من الأمم الصغرى . وكل دولة من الدول الكبرى تنافس الأخرى فى رغبة التسلط والسيطرة على الدول الصغرى - وها هى انجلترا .. انجلترا العجوز الشمطاء التى ملأت الدنيا صراخاً طول هذه الحرب منادية بالديمقراطية وحق الشعوب فى الحرية والمساواة .. ها هى انجلترا وقد سكرت بخمرة الانتصار تعود إلى سابق غطرستها وجبروتها وتتنكر للوعود والعهود المقطوعة وتأبى إلا أن تظل ناشبة أظافرها فى عنق الشعوب المستضعفة

وتحاول هيئة الأمم المتحدة التى أنشئت حديثاً أن تثبت وجودها وأن تفرض إرادتها ولكن الدول العظمى لا تزال لها بالمرصاد ولازلنا فى أول الشوط لسنا نعرف هل تنتصر الروح الدَولية هذه المرة أم أن العالم لا يزال فى حاجة إلى درس جديد لإقناعه أن لا سلام للعالم والبشر إلا فى ظل الإخاء والتعاون ، وإلى أن تسفر التجربة الجديدة عن نتيجتها فلا مناص لنا من أن نتمسك بذاتيتنا وندافع عن حريتنا وعن مشخصاتنا وأرزاقنا ومعايشنا ضد القوات الأجنبية التى تحاول أن تسلبنا كل شىء ولا سبيل لذلك إلا بأن نحارب هذا المستعمر الأجنبى وأن نكرهه ونقاطعه وأن نتعصب لقوميتنا إلى أن يجىء هذا اليوم الذى يخرج فيه هذا الغاصب الأجنبى من بلادنا .. هنا وهنا فقط تكون البشرية قد خطت خطوة موفقة نحو العالمية لأن كل قضاء على الاستعمار والاستعباد هو تمكين لروح العالمية من السيادة والانتصار .

فلا تعارض إذن بين أن يكون الانسان وطنيا وبين أن يكون عالميا بل لابد له أن يكون وطنيا أولا وقبل كل شىء فلا يرضى بأجنبى يعتدى على هذا الوطن ويسلبه الحياة والحرية لأن ذلك معناه بذر بذور الأحقاد والمنازعات بين الأجناس فتزداد الهوة بين الشعوب ولا يكون ثمة سلام أو إخاء .

نهر النيل

اعرف وطنك

ومعنى أن يكون الانسان وطنيا أن يحب وطنه ويبذل كل مرتخص وغال فى سبيل الذود عنه والدفاع عن حريته وأول شرط من شروط المحبة المعرفة فلن يستطيع الانسان أن يحب شيئاً مجهولاً أو غامضاً ، فلكى تكون وطنيا لابد لك من أن تعرف وطنك وكل شىء يتصل بوطنك . فلكى نحب مصر لابد لنا من أن نعرف كل شىء عن مصر وهو ما سأحاول أن أعينك عليه يا بنى فى هذه الرسالة .

مصر هبة النيل كما وصفها بحق أقدم المؤرخين هيرودوت الذى كان فى وصفه يقرر الأمر الواقع . فالنيل هو والد مصر ومصر هى ابنة النيل ولكى نعرف الفرع لابد لنا من معرفة الأصل .

النيل أطول الأنهار

النيل هو من غير شك أعظم أنهار الدنيا على الإطلاق وأكرمها طبعاً ، فضلا عن أنه أطولها فهو نسيج وحده بين أنهار الدنيا لا يكاد يوجد له شبيه فى مزاياه العظام وصفاته الفريدة ، فلا عجب أن جاءت مصر فريدة فى بابها لا مثيل لها فى بلاد العالم لأن المقدمات متى كانت رائعة جاءت النتائج رائعة كذلك .

ضع أمامك يا بنى مصوراً جغرافيًّا ، وسرح بصرك بين القارات الخمس فلن تجد لنهر النيل شبيهاً فى مجراه واستقامته العجيبة ، حيث يكاد يجرى أربعة آلاف ميل متصلة فى خط مستقيم غير ثنية هنا وانحناءة هناك لا تخرج النيل عن طبيعته المستقيمة ، حتى إذا اقترب من مصبه تفرع إلى هذه الفروع المختلفة التى انتهت أخيراً إلى هذين الفرعين الرئيسيين فرع دمياط وفرع رشيد اللذين يضمان بينهما أخصب تربة عرفها العالم وسمعت بها الدنيا .

فكأن النيل يشبه فى هيكله هذه النخلة الباسقة الثابتة فى الأرض وفرعها فى السماء. هذه النخلة الجميلة المتسقة التى تنتهى بهذا التاج من الفروع والأوراق تنبثق من خلالها أشهى الثمرات وأطيبها وأكرمها.

هذا الاتساق فى الشكل، هذا المجرى الممتد طويلا دون أن يعكره معكر هنا أو هناك، هو أول عجيبة من عجائب تكوين النيل العظيم. وهو إذ يبلغ طوله المستقيم أربعة آلاف ميل، يضرب الرقم القياسى لطول أى نهر من أنهار الدنيا. حقًّا لقد قيل لنا ونحن طلاب صغار فى المدارس أن نهر المسيسبى هو أطول أنهار الدنيا والحقيقة أن هذه مغالطة علمية أريد بها التقليل من شأن النيل، ذلك أن المسيسبى فى حقيقته، يتألف من نهرين هما المسيسبى والمورى وقد يضمان فيما بينهما حوضاً أكبر من حوض وادى النيل أما من حيث الطول بالنسبة لنهر واحد فلا جدال أن النيل هو أطول أنهار الدنيا قاطبة.

النيـــل أقــدم الأنهار

ولابد أن يكون النيل هو أقدم أنهار الدنيا على الاطلاق. فذلك الهدوء الذى يجرى به ماؤه. وهذا المجرى المتسق الخالى من عقبات تذكر.. وهذا الانحدار التدريجى البطىء من المنبع حتى المصب. وهذه السرعة المعتدلة المتسقة التى يتدفق بها ماؤه العذب السلسبيل طوال السنة. كل ذلك دليل على قدم هذا النهر من أقدم العصور. فقد علّمنا جغرافيو الطبيعة وعلماء الجيولوجيا. أنه كلما كان تيار النهر سريعاً وانحداراته حادة ومجراه غاصًّا بالشلالات والجنادل والصخور، وكلما كان النهر نزقا فى تصرفاته وفى فيضاناته، كلما دل على حداثة تكوينه، وعلى العكس من ذلك كلما انتظم تصريف أى نهر من الأنهار وخلا مجراه من العقبات والشلالات والانحدارات، وكلما اتسق فيضانه. كلما دل على قدم النهر بحيث استطاع أن يعبد مجراه وأن ينظم تدفقه. ولن نجد للنيل شبيهاً فى هذه الناحية من حيث انتظام مجراه واعتدال جريانه ودقة مواعيد فيضانه. هذا الانتظام وهذه الدقة هى الدليل الذى لا ينقض، على أن النيل هو أقدم أنهار الدنيا. ويجب أن لا تكون هذه الحقيقة محل شك بعد أن أصبح من الحقائق التاريخية المؤكدة أن ضفاف النيل قد شهدت أول ما عرفته الدنيا من اجتماع بشرى. وتلك هى آية قدم النيل وعراقته.

الفيضــان الرحيــم

وللنيل بعد ذلك عديد من الخصائص التى يرجع الفضل فيها إلى طوله وقدمه ، منها ما أشرنا إليه من انتظام فيضانه هذا الانتظام العجيب بحيث مكن المصريين القدماء منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح من اكتشاف السنة الشمسية وتقديرها بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . ومما يحير الألباب فى عصرنا الحاضر أن يصل المصريون إلى هذه الدرجة من الدقة التى لم تدع للبشرية مجالا للاجتهاد الكثير فى هذه الناحية .

وإذا كان فيضان النيل يتم بصورة منظمة دقيقة فى كل عام . فإن هذا الفيضان من ناحية أخرى يجلب الخصوبة وبالتالى المدد والغذاء ، بحيث بات الذين يعيشون على ضفاف النيل يتطلعون إلى مجيء الفيضان كتطلعهم إلى الرحمة الإلهية إذ تحل بهم .

وذلك كله على خلاف الحال بالنسبة إلى سكان أحواض الأنهار الأخرى حيث يرتجفون رعباً وفزعاً لمجرد الإشارة إلى فيضان أنهارهم ذلك أن فيضان هذه الأنهار قد يعنى بالنسبة اليهم فى كثير من الأحوال الخراب والدمار والفناء .

صلاحيتـه للملاحــة

وللنيل بعد ذلك فى مصر خصوصية رابعة تجعله من أصلح أنهار الدنيا للملاحة طرداً وعكساً . فبينما يجرى النيل من الجنوب إلى الشمال ، إذ تهب على مجراه ريح تندفع من الشمال إلى الجنوب فالسائر فى النيل من الجنوب إلى الشمال يستعين بقوة التيار ، والسائر فيه من الشمال إلى الجنوب يسير بقوة الريح . ولهذه الريح الشمالية مزية أخرى أجل خطراً من تسيير الملاحة وهى أنها تحول دون تدفق مياه النهر إلى البحر فى فترة التحاريق ، إذ أن هذه التيارات الهوائية المعاكسة لمجرى النيل ، تحدث ضغطاً مستمرا من شأنه أن يقلل من تدفق مياه النهر إلى البحر الأبيض .

القدم والطول والاتساق ، وانتظام الفيضان ودقة مواعيده ، والخير الذى يحمله ، والتيارات الملائمة التى تهب على مجراه فى الشمال ، كل هذه خصائص قد انفرد بها النيل عن سائر أنهار الدنيا ، وهى كلها ــ كما رأينا ــ خصائص نافعة وخيِّرة ، فلا عجب إذا عبده المصريون القدامى فى عصور الوثنية عندما كان عقل الإنسان لا يزال قاصراً عن إدراك حقيقة الله المطلقة . قدس المصريون القدامى نهر النيل وعبدوه وقدموا له القرابين وأنشأوا له المعابد والهياكل فلما زالت الوثنية وعرف المصريون أن النيل على عظمته ليس

إلا صنعة الخالق القديم الواحد الأحد الفرد الصمد ظلت للنيل مع ذلك قدسيته ومكانته . حتى فى ظل الإسلام وفى ظل النور المحمدى لم يستطع العرب المسلمون الذين وفدوا إلى مصر إلا أن يقدسوا النيل فقد نسبوا إلى الرسول أحاديث عن منابع النيل فى الجنة . ولا جدال فى أننا نعرف الآن بالضبط أين توجد منابع النيل فى أفريقيا ، غير أنه لا جدال أيضاً فى أن هذه الأمطار التى تهطل عند خط الاستواء وعلى جبال الحبشة لتأليف هذا النهر العظيم ، لا جدال عندى فى أن هذه الأمطار تهبط من رحمة الله الرحمن الرحيم الغنى الواسع القدير .

مصر

كان طبيعيا إذن أن يجعل هذا النهر المبارك من الأراضى التى تحيط بضفتيه وادياً من أخصب ما عرفت الدنيا من وديان - حتى إذا اقترب النيل من مصبه أبدع هذه الدلتا التى تؤلف تاج هذا الوادى والتى لا تعرف الدنيا بقعة أخرى تفوقها خصوبة أو تفوقها غنى وثروة أو تفوقها اعتدالا فى المناخ وطيباً فى الماء وصلاحية للحياة - وهو هذا الجزء من العالم الذى سماه العرب مصر نزولا عند تسمية القرآن له وسماها اليونان القدماء ايجبتوس - وكان يسمى بالمصرية القديمة خم .

تقع مصر بمعناها الضيق أى باستثناء الوجه السودانى بين خطى العرض الشماليين ٢٠ و ٣٠ وتقول الجغرافيا الطبيعية إن هذين الخطين من خطوط العرض شمالا وجنوباً لا يحويان بينهما إلا الصحارى والقفار لأنهما يخلقان منطقة جفاف لا تسقط فيها أمطار فى أى جزء من أجزاء السنة ولو نظر الانسان إلى صحارى العالم لوجدها تقع بالفعل فى هذه المنطقة فإلى الشرق والغرب من مجرى النيل تمتد الصحارى الشاسعة مطوفة حول الكرة الأرضية . فلو لم يكن النيل لما كانت مصر إلا قطعة جرداء من هذه الصحارى المخيفة المحيطة بها . ولكن جريان هذا الشريان من المياه العذبة قد جعل من مصر أخصب واحات الدنيا وأجملها وأغناها .

ولما كان جو الصحراء هو أجف أجواء الدنيا - وكان جوًّا صافياً ساطعاً بالضوء والحرارة - ولما كانت طبيعة الصحراء طبيعة هادئة ساكنة بعيدة عن الزوابع والأعاصير المدمرة التى تعصف بكل شىء على سطح الأرض من منشآت ومؤسسات . فقد بقيت آثار المدنية المصرية القديمة - سليمة كاملة تحير الألباب على الرغم من توالى العصور والدهور فظلت الأهرام وظل أبو الهول وظل الكرنك وظلت عشرات ومئات من الهياكل والأهرامات والآثار موزعة على طول الوادى . وظلت مقابر الفراعنة وأجداثهم لم يتصرف إليها الفساد والبلى لتشهد الدنيا بعد أن اختلط الحابل بالنابل واختلت الموازين والمقاييس - أن مصر كانت قبل أن تكون كل هذه الدول والبلدان المستحدثة وأنها ستبقى بعد أن يزولوا ويدولوا كما بقيت حتى الآن .

وسيبقى جو مصر ومناخ مصر بحيث يحفظ كل ما يشاء على أرض مصر من المنشآت والمؤسسات ويحميها من تقلبات الزمان . وستبقى أرض مصر كما لو كانت دائماً كتاباً ينقش الدهر على صفحاته آيات التاريخ الباهرة وتطورات الحضارة ورقى البشر نحو الكمال والمثل الأعلى .

وسيبقى جو مصر ذا أثر عميق فى حياتها وحياة العالم بعد أن يصبح الطيران وسيلة المواصلات الكبرى فى العالم . فليس هناك جو يدانى جو مصر من حيث صلاحيته للطيران . فهو دائم الصحو لا يكاد يتلبد بالسحب إلا أياماً قليلة على مدار العام وهو بعد ذلك خال من الأعاصير والزوابع التى تجعل الطيران أمراً صعباً فى كثير من الأحيان .

ولما كانت مصر تقع فى وسط الدنيا القديمة فإن أى خط من خطوط الطيران العالمية من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب أو العكس لابد أن يجعل من مصر إحدى محطاته الرئيسية .

مصـر مركـز العـالم

على أن أعظم ما تمتاز به مصر من غير شك هو هذا المركز المتوسط بين كتلة العالم القديم الذى يتألف من أوربا وآسيا وأفريقيا وهو ما يجعل مصر مركزاً رئيسيا من مراكز الدنيا إن لم تكن هى المركز الرئيسى الأساسى الوحيد على الأقل بالنسبة للعالم القديم كما قدمنا . فمصر تقع فى أفريقيا وتتصل بآسيا وهى على مرمى حجر من أوربا ولذلك فقد كانت القلب الخفاق لهذا العالم القديم وانبعثت منها الحياة والمدنية والحضارة فى هذه الاتجاهات الثلاث . فتأثرت بها دويلات آسيا المتاخمة فكانت المدنيات الأشورية والبابلية والفينيقية وامتدت منها الحضارة على طول مجرى النيل فى بلاد النوبة والسودان وإثيوبيا والصومال . وامتدت منها شمالا إلى كريت والإغريق وآسيا الصغرى .

وعندما تنكر الزمان لمصر وفقدت خطرها كخالقة للحضارة والمدنية ظلت دائماً أبداً واسطة العقد فى مزج الحضارات ونقلها من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ولم تفقد فى أى يوم من أيام تاريخها الطويل مركزها الرئيسى فى مواصلات العالمين .

وحسب الإنسان أن يلقى نظرة على خريطة الدنيا . ليدرك على الفور موقع مصر وخطورته بالنسبة لبقية العالم . فعلى أعظم بحرين بين بحار العالم هما البحر الأبيض والبحر الأحمر تقع مصر وعلى أرضها تجرى قناة السويس هذا الشريان المائى الذى ربط

البحرين فجعل منهما طريقاً واحداً للمواصلات وقرب الشرق إلى الغرب قبل أن يقربه الطيران وجعل من أفريقيا جزيرة كاملة تطوف حولها السفن لتصل إلى جزء من أجزائها .

فإذا استحضرنا فى أذهاننا ما قدمنا عن نهر النيل وامتيازه على سائر أنهار العالمين وأضفنا إليه موقع مصر وامتيازه على سائر مواقع غيرها من الأقطار استطعنا أن ندرك على الفور لماذا كانت مصر أخطر أجزاء العالم وأكثرها حياة وحيوية وفاعلية فى تاريخ البشر . وسنرى عند استعراضنا لتاريخ مصر كيف تقلبت بين المجد والعزة والرخاء والبؤس والشقاء .. سنرى كيف نعمت مصر بالحرية والسيادة والمنعة . وكيف جاء عليها وقت فقدت فيه كل شيء فسلبت استقلالها وحريتها وكرامتها ولكنها لم تفقد فى أى يوم من الأيام خطورتها فى كلا الحالين . فإذا أراد الفرس أن يبسطوا سلطانهم على العالم فلا سبيل لذلك إلا عن طريق احتلالهم لمصر . وإذا أراد الإغريق تحت قيادة الإسكندر أن يدحروا الفرس وأن يصبحوا حكام العالم فإن هذه العملية لا تتم ولا تتحقق إلا باحتلال مصر . وإذا شاء التاريخ أن يجعل من روما امبراطورية عالمية تسيطر على البشر فإن هذه العالمية لا تبدأ إلا بعد احتلالها لمصر . ولما قُدِّرَ للعرب أن تؤول إليهم زعامة العالم فلا سبيل لتحقيق ذلك إلا على الأراضى المصرية . وعندما ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الوجود ليرثوا القيادة الإسلامية فاحتلالهم لمصر كان هو الطريق الوحيد لتحقيق هذه الأمنية . وعندما رغب نابليون فى أن يدمر الامبراطورية الانجليزية وأن يطعنها فى الصميم فلا سبيل أمامه لتحقيق هذه الغاية إلا أن يحتل مصر . ولما قرر الانجليز أن يصبحوا سادة الدنيا وأن يسيطروا على بحارها السبعة احتلوا لذلك مصر . وقد أتاحت لنا الحرب الحاضرة أن تلمس الدنيا كلها كيف أن مصير هذه الحرب كلها وبالتالى مصير الدنيا بأسرها قد توقف فى يوم من الأيام على احتلال بضع عشرات من الكيلو مترات من الأراضى فلو أن روميل قائد الألمان استطاع أن يواصل هجومه بحيث يصل إلى الإسكندرية التى كانت على مرمى المدفع من مقدمة جيوشه . ولو أنه اندفع عبر الدلتا إلى قناة السويس لسقطت مصر فى يده ولتمت للألمان بذلك السيطرة على البحرين الأبيض والأحمر . ولضربوا انجلترا بذلك فى الصميم ولخرجوا من هذه الحرب فائزين منتصرين .

ولكن الانجليز دافعوا عن مصر بنفس القوة التى دافعوا بها عن صميم الجزر البريطانية . فلما قدر للانجليز أن ينتصروا وانقلب ميزان الحرب تحقق القول الثابت أن من كانت مصر من نصيبه فإن الدنيا القديمة كلها لا تلبث أن تخضع لسلطانه .

وتكون خلاصة ما تقدم أن مصر بقعة فريدة فى العالم سواء بالنسبة لموقعها أو بالنسبة لمناخها وخصوبتها وثروتها الزراعية .

فلا عجب بعد ذلك أن سبقت مصر بحضارتها حضارات الدنيا كلها . ولا عجب أن كان تاريخ الجنس البشرى يبدأ حياته العمرانية فى مصر .

مصر أم الحضارة الانسانية

وقد يكون مهبط الإنسان الأول محل نزاع من الناحية العلمية وهل كانت مصر هى ذلك المهبط . أم كانت الهند أو سيلان أو غيرها من المناطق الحارة . ولكن الأمر الذى لم يعد فيه خلاف بين فطاحل العلماء أن أول استقرار للجنس البشرى وأول خلق للحضارة الإنسانية كان على ضفاف النيل وفى مصرنا العزيزة بالذات .

وعندى أن الإنسان الأول لابد أن يكون قد استقر بادئ ذى بدء فى مكان ما بين الغابات الاستوائية حيث يستطيع أن يحصل على قوته فى يسر وسهولة وأغلب الظن أن أواسط أفريقيا دون غيرها من الأجزاء الاستوائية كانت هى مقر ذلك الإنسان الأول . يدل على ذلك وجود قبائل بأكملها لا تزال فى الوقت الحاضر تعيش معيشة بدائية بحتة لا تدانيها معيشة أى قبائل متوحشة فى أى جزء من العالم .

فلا بد أن تكون موجة البشرية قد خرجت أول ما خرجت عند غابات خط الاستواء بالقرب من منابع النيل ثم راحت تطيع مجرى هذا النهر رويداً رويداً .. فلما خرجت من منطقة الغابات ودخلت فى المنطقة الصحراوية تبدلت معيشتها وسعت للاستقرار على ضفاف النيل لتكون على مقربة من الماء . ومن ثم اكتشفت الزراعة وبدأت الإنسانية أعظم طفراتها فى سبيل التطور والارتقاء عن طريق اكتشاف الزراعة .

وقد يكون هذا الفرض الذى فرضته لتصور انتشار البشرية محل أخذ ورد . ولكن الذى لم يعد فيه أدنى شك أن حضارة الإنسان الزراعية قد انبثقت من مصر . ولقد وجد قديما من قال من العلماء بأن حضارة أشوروبابل أسبق على الحضارة المصرية . ومن زعم أن حضارة الهند هى السابقة على الحضارة المصرية ولكن ذلك كله كان قبل اكتشاف اللغة الهيروغليفية . وحل طلاسم الآثار المصرية التى دلت على أن الحضارة المصرية موغلة فى القدم .

فقد أصبح من المقطوع به أن تاريخ أبى الهول والأهرام يمتد إلى أربعة آلاف سنة

سابقة على المسيح . ولما كانت الأهرام فى حد ذاتها تعتبر معجزة كاملة من معجزات البناء والهندسة ومن المحال أن يكون المصرى القديم قد وصل طفرة إلى هذا الإبداع . فلا بد إذن أن يكون بناء الأهرام قد سبقته بضعة ألوف أخرى من التطور المستمر المتواصل حتى آن أن يصل العقل البشرى إلى هذه الدرجة من النضوج والنبوغ .

إن تحليل عملية بناء الأهرام تدلنا على عظمة هذه الحضارة التى أمكن فى ظلها تشييد مثل هذا الصرح الذى يتردد البشر فى عصرنا الحديث على الإتيان بمثله بالرغم مما أصبح فى أيديهم من آلات وأجهزة كهربائية قد باتت تقدرهم على نسف الجبال .

قد يدور بخلد البعض أن أحداً لا يفكر فى إقامة مثل هذه الأهرام لعدم الجدوى من إقامتها فى العصر الحديث وبذلك يتشدق بعض الناس بل ويتخذون من بناء الأهرام آية من آيات الاستبداد والعسف والظلم فى العصور القديمة . وذلك كله عبث وهراء وستر لعجز البشرية عن إنشاء مثل هذه الأهرام .

فالناس فى كل زمان ومكان حريصون كل الحرص على تخليد ذكراهم وعلى إنشاء النصب والمؤسسات التى تحمل طابعهم أبد الدهر . وتظهر للأجيال المقبلة مقدار ما كانوا عليه من عظمة ومجد وسؤدد .

ونحن نرى اليوم فى باريس وروما ولندن ونيويورك محاولات شتى لإقامة مؤسسات ضخمة تخلد على مر الزمن كأقواس أو تماثيل النصر وكذلك النصب التذكارية للجندى المجهول . وقد نحت الامريكيون التماثيل على الجبال فى حجم لم يطرأ من قبل على عقل بشر أن ينحت تمثالا على قدر ضخامته ، كل ذلك ليظهروا مدى ما وصلوا إليه من قوة وعظمة وغنى واقتدار . فلو أن الأوروبيين أو الأمريكيين استطاعوا أن يبنوا الأهرام لما ترددوا ، وليس أدل على ذلك من أن الولايات المتحدة قد شيدت النصب التذكارى لواشنطن مؤسس الاستقلال الأمريكى على شكل مسلة من المسلات المصرية القديمة التى ترتفع شاهقة فى عواصم امريكا وأوروبا شاهدة بما وصل إليه المصريون من عظمة ورقى واقتدار .

فالإقدام على بناء أهرام كأهرام الجيزة حتى بعد اختراع الآلات الحديثة ليس من الأمور السهلة أو الهينة . وعلى الإنسان أن يتصور كم كان المجتمع المصرى منظما . وكم كان يتمتع بالأمن والسلام والهدوء والنظام حتى أمكن التفرغ لإتمام هذا العمل . على

الإنسان أن يتصور كيف كانت قوة التنظيم والتنسيق لدى المصريين لا حد لها بحيث استطاعت أن تنسق جهود عشرين ألف عامل يستبدلون بمثلهم كل ثلاثة شهور طوال عشرين سنة . فأى حكومة وبأى نظام ودقة أمكن تنظيم هذا الجيش من العمال وإطعامه وتنسيق جهوده . وبأى عقل صممت هذه الأهرام . وبأى أيد أبدعت وبأى قوة وإرادة أكملت ؟؟

ألا إن ذلك كله قد تم منذ أربعة آلاف سنة سابقة على ميلاد المسيح . ولما كان من غير المقبول عقلا أن يكون المصرى القديم قد وصل إلى ذلك طفرة دون تطور سابق فعلى الباحث إذن أن يُرْجعَ تاريخ الحضارة المصرية إلى عشرة آلاف سنة على الأقل من أيامنا الحاضرة . ومثل هذا التاريخ السحيق لا يدع شكا فى أن مصر قد سبقت العالمين بضعة آلاف من السنين فى الحضارة . وأنه على ضفاف النيل دون غيره من أنهار العالم وعلى تربة مصر تطورت الإنسانية من حياة الغابة والصيد والقنص إلى حياة الحضارة والدين والعلم والفن والجامعات والموسيقى والفلسفة والقانون وكل مظاهر الحضارة فى ذروتها العليا .

معجزات الحضارة المصرية القديمة

إن حضارة القرن العشرين بكل ما فيها من طفرة عجيبة إذا ما قيست منذ ثلاثة أو أربعة قرون مثلا لا يمكن أن تقارن بحال من الأحوال بطفرة الحضارة فى مصر القديمة بالنسبة إلى ما سبقها وإلى ما كان يعاصرها من أحوال العالم . فبينما كان الإنسان فى جميع أنحاء الدنيا المأهولة بالسكان يعيش معيشة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية فلا قانون ولا نظام ولا دين ولا معرفة ، كان فى مصر شعب زراعى يجيد الزراعة بكل حبوبها وبقولها وقثائها وفومها وبصلها بل كل زهورها وفواكهها ورياحينها . واستخدم المصرى القديم الآلات وشق الخلجان والترع لينظم الرى والصرف واستأنس الحيوانات وسخرها لخدمته وأنشأ المساكن وأقام المعابد والهياكل الشامخة لعبادة الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد . وخلق فى الدنيا أول مملكة متحدة ذات قانون ونظام ودستور وشرائع ومحاكم وضمير ووجدان حى . وان الإنسان ليتملكه الذهول من غير شك وهو يتقصى تفاصيل الحياة المصرية القديمة وكيف بلغت إلى هذا الحد من الرقى . وكيف نضج الوجدان البشرى ذلك النضوج منذ أربعة آلاف سنة سابقة على المسيح . فالمعنى الاشتراكى وعناية المجتمع بأفراده تتجلى فى هذا المجتمع المصرى القديم بأعظم مما تتجلى فى أى عصر من العصور . فالشخص الذى يقصر فى إنقاذ حياة غريق . أو الذى يقصر فى إطفاء حريق أو الذى يقصر بأى صورة من الصور فى مد يد المعونة لمستغيث يرتكب جريمة من كبرى الجرائم التى يعاقب عليها القانون وهو الأمر الذى لم تستطع البشرية حتى الآن أن تبلغ إلى مستواه بالرغم من كل ما ندعيه لأنفسنا من رقى وتضامن اجتماعى .

ولا يستطيع الإنسان إلا أن يقف مبهوتاً أمام تفاصيل الحياة الاجتماعية المصرية القديمة فى وقت كانت الإنسانية فيه فى حالة طفولة ووحشية فالمصرى القديم يكرم زوجته ويحسن معاملتها ويعتبرها شريكة حياته التى لا يبرم أمراً إلا بمشورتها . والابن يقدس أمه كل التقديس والفتاة تصون عرضها وتعتز بعفافها . والمصرى القديم يتذوق الأدب والفن ويزاول الرياضة البدنية والعقلية والروحية .

أما الحاكم المصرى القديم فقد كان يدرك من سياسة الدولة ويعرف من أحوال

وظائفها ، ما يعود بالنفع على جمهور الشعب ، وما يصلح شئون الدولة وما يفسد أمورها ، كان الحاكم المصرى القديم يعرف من ذلك كله كأدق ما يمكن لحاكم عصرى أن يحيط به بعد أن يتسلح بكل ما عرفت الدنيا من ثقافة سياسية وبعد هذه التجارب الطويلة التى اجتازتها الإنسانية خلال القرون والأجيال .

العلم فى مصر القديمة

وهل أنا فى حاجة إلى أن أشير إلى هذه المعارف والعلوم التى وضع المصريون أسسها وتطوروا بها إلى الدرجة التى احتاجت الإنسانية فى غير مصر إلى بضعة الوف من السنين كى تستطيع أن تدركها وتنقلها عنهم .

فعلوم الفلك والهندسة والحساب والميكانيكا والطبيعة والجيولوجيا والطب وما يتبعه من علوم التشريح والجراحة والكيمياء وعلوم الصناعات المختلفة من تجارة وحدادة ونسيج وغيرها كل ذلك وصلوا فيه إلى الحد الذى مكنهم من تشييد الأهرام وإقامة الهياكل والمنشئات الضخمة كأبى الهول وقصر لابيرنت ومسلة عين شمس وألوف التماثيل الجبارة التى يتساءل الفنانون حيارى ، بأى آلات استطاعوا نحتها وكيف استحال هذا الحجر الجرانيتى (الصوان) إلى عجينة فى يد المصرى القديم حتى استطاع أن يبدع منها كل هذه الأشكال والنماذج وأن يكتب عليها كما لو كان يكتب على لوح من طين .

إن المتفق عليه بين العلماء أن المصريين القدماء لم يعرفوا الصلب والفولاذ وهو هذه المادة الأولية التى مكنتنا فى عصرنا الحديث من صنع العجائب بحيث يمكن أن توصف مدنيتنا بمدنية الصلب والفولاذ . هذا المعدن الجبار كان مجهولا فى مصر القديمة فلم يعرفه المصريون ومع ذلك فقد عملوا كل ما نستطيع عمله فى عصرنا الحاضر بغير الصلب والفولاذ . فبأى مادة وبأى آلات وأدوات نحتت هذه التماثيل ونقشت هذه النقوش الباهرة على جدران المعابد وهذا الطوفان من الكتابة الهيروغليفية الذى يغطى جدران المعابد والهياكل والقبور .. كيف استطاع المصريون القدامى عمل ذلك .. وبأى أدوات .. سيبقى ذلك سرا مجهولا من أسرار المدنية المصرية القديمة وألغازها .

فنا التحنيط والألوان

وليس بناء الأهرام ولا نحت التماثيل وكتابة النقوش بأول أو آخر معجزات الحضارة المصرية القديمة وأسرارها . فهناك مسألتا التحنيط والألوان وطريقة الإضاءة التى استطاع

الفنان المصرى القديم أن يرسم على هديها هذه النقوش الجميلة فى قبور الملوك والملكات فى أحشاء الجبل ، لا تزال هذه المسائل وغيرها من الأسرار والألغاز المستعصية على الحل حتى الآن .

فأما التحنيط ومعجزته الفنية فهو أشهر من أن يعرف . ويرجع منشأ فن التحنيط إلى العقيدة المصرية السليمة الخاصة بالبعث والنشور . كان المصريون يؤمنون كايماننا اليوم بعودة الروح إلى الجسد يوم القيامة غير أنهم ظنوا خطأ أن الروح لا تعود إلا إذا بقى سليما لم تعبث به يد البلى والفناء . ومن هنا اتجهت جهودهم نحو المحافظة على الجسد بعد الوفاة بشتى الطرق والأساليب . فاتخذوا المقابر الخفية البعيدة عن الأنظار الأجداث المحصنة على شكل الأهرامات وجعلوا أبواب المقابر وحجرات الدفن سرًّا من الأسرار . ولكن محاولة المصريين الكبرى لحفظ الأجساد تجلت أعظم ما تجلت فى فن التحنيط وهو حفظ جثة الانسان سليمة بعد موته بواسطة استخدام بعض الأخلاط الكيميائية ودهن الجسد بها بعد استخراج الأمعاء وكل ما يحويه التجويف البطنى من أحشاء وأعضاء ثم لف الجسد بعد ذلك لفا محكما بأنسجة من الكتان المجهز بعطور وعقاقير كيمائية معينة .

وقد استطاع المصريون القدامى عن طريق التحنيط أن يقاوموا عناصر الفناء التى تعرضت لها أجساد الموتى منذ وجد البشر على هذه الارض بحيث يستطيع كل إنسان أن يشاهد بعينى رأسه فرعون موسى وبقية أجساد هؤلاء الفراعنة الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح . وهذه معجزة من المعجزات فى حضارة مصر القديمة من غير شك . فمنذ درج الانسان على ظهر البسيطة وهو يتحول إلى تراب بمجرد موته وعبثا حاول بنو الإنسان ـ فى القديم كما فى الحديث ـ أن يتوصلوا إلى ما توصل إليه الشعب المصرى القديم . على الرغم من أن جو مصر الحار من شأنه أن يضاعف فى قوة عناصر الانحلال التى تطرأ على الأجساد بعد الموت . ففى أوروبا كلها وفى الأصقاع الشمالية بصفة خاصة حيث تهبط درجة الحرارة إلى درجة الصفر وإلى ما تحت الصفر يمكن للأجساد أن تبقى سليمة مدة أطول مما تبقاها فى البلاد الحارة ، ومع ذلك فقد انفردت مصر الواقعة فى المنطقة الحارة بهذه الخاصية ، خاصية حفظ الأجساد . وذلك عن طريق العلم المصرى القديم والفن المصرى القديم الذى مكنها عن طريق التحنيط أن لا تحنط الأجساد البشرية والحيوانية فحسب بل وتحنط الحبوب والثمار والخبز وسائر أنواع المواد الغذائية . وإن رواد المتحف المصرى أو المتحف الزراعى لا يستطيعون أن يحبسوا أنفسهم عن أن

يصرخوا من الدهشة وهم يرون تحت الزجاج الحاصلات المصرية القديمة . فهذا قمح مصر منذ أربعة آلاف سنة وهذا شعيرها وهذا فولها وهذا خبزها وهذا تبنها وهذا كتانها وهذه أنسجتها . فكيف استطاع المصريون القدماء أن يتوصلوا إلى المحافظة على هذه الأشياء التى تقضى النواميس بفنائها وانحلالها إلى عناصرها الأولى ؟ هذا هو اللغز الذى لم تستطع العلوم الحديثة بكل جبروتها ومدهشاتها أن تتوصل إلى حله . وبالرغم من أن العلماء فى العصر الحديث قد توصلوا إلى تحليل كلّ شىء إلى عناصره - حتى لقد استطاعوا تفتيت الذرة كما رأينا . ومع ذلك فلا يزال التحنيط المصرى القديم سرًّا من الأسرار المغلقة على علماء القرن العشرين .

ولقد حاولت فى إحدى محاضراتى فيما سبق أن ألتمس عذراً لعجز العلم الحديث عن اكتشاف هذا السر من أنه لم تعد هناك ضرورة لهذا الفرع من المعرفة بعد أن أصبح إيماننا ثابتاً أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يبعثنا من جديد بعد أن تتحول أجسادنا إلى هباء وتراب . ولكننى كنت مخطئا من غير شك فى تلمس هذا العذر لأن العلم يجب أن يبحث كل شىء ويتوصل إلى معرفة كل شىء بقطع النظر عن المنفعة المرجوة منه لأن مجرد العلم فى حد ذاته بحقيقة من الحقائق هو من النفع الذى تطمع فيه البشرية . على أن اكتشاف السر الذى من شأنه أن يقدرنا على مقاومة عناصر البلى بالنسبة للجسد بعد الموت - ليس هو بالأمر الهين أو العديم الفائدة ولو أنه اكتشف وعرفت عناصره لأفادنا ذلك فى عدة نواح أخرى غير الناحية التى استخدمها فيه قدماء المصريون .

والخلاصة أن علومنا الحديثة بكل جلالها لا تستطيع إلا أن تقر بالعجز والتقصير حيال علم قدماء المصريين فى هذه الناحية . ولا مناص من أن تسلم الدنيا بأن جدودنا القدماء قد عرفوا من أسرار بعض العلوم ما لا يعرفونه هم الآن .

وقد حاول العالم المصرى الكبير الأستاذ سليم حسن أن يهون من شأن هذا الموضوع لعلة لا أعرفها فخرج على إجماع العلماء من اعترافهم بأن التحنيط هو سر من الأسرار التى لا تزال مغلقة بالنسبة لنا - وراح يتحدث فى كتابه «مصر القديمة» عن التحنيط وأنه لم يعد سرًّا من الأسرار وأن جميع عناصره تقريباً قد باتت معروفة . والعجيب أنه بعد أن قرر ذلك لم يلبث أن قرر بعد سطور قليلة من حيث لا يدرى ، أن عناصر التحنيط لا تزال سرًّا مجهولا فقد راح يعدد أنواعاً من العطارة والأعشاب باعتبارها المواد الرئيسية فى عملية التحنيط ثم شفع ذلك بقوله وبعض مواد أخرى بصفة التحصيل وقد نسى

الأستاذ الكبير أنه في الأمور الكيائية قد يتوقف على عنصر واحد يضاف بكميات ضئيلة إلى حد لا يتصوره العقل أن يختلف تركيب المادة المنتجة . بل إن مجرد نسبة خلط المواد بعضها ببعض قد يترتب عليه في حد ذاته اختلاف كبير في النتائج . وفي عصرنا الحديث قد يعرف كل علماء الكيمياء حقيقة العناصر التي يتألف منها دواء شهير كالاسبرين الألماني ومع ذلك فلا يستطيعون أن يركبوا حبة أخرى يمكن أن يقال عنها بصفة قاطعة انها (أسبرين) وقد يكون الأستاذ سليم حسن قد توصل إلى بعض مواد التحنيط ولكن الأستاذ يجب أن يكون على ثقة أن هذا ليس كل شيء ولا يحل اللغز. وإلى أن يعلن علماء العصر الحديث بصفة قاطعة أنهم تمكنوا بالفعل من اكتشاف سر التحنيط المصرى - وما لم يتمكنوا بالفعل من تحنيط جثة عظيم أو بطل من الأبطال لكى تبقى أربعة آلاف سنة كما بقيت أجساد الفراعنة القدامى ، فلن يستطيع كائن من كان أن يدعى أننا أدركنا من سر التحنيط ما أدركه قدماء المصريين وإذن : فستبقى هذه المعجزة العلمية الخالدة تتحدى بنى البشر وتشهد بما كان عليه أجدادنا من تفوق ساحق في العلوم .

رب معترض يقول إن الأمر كان صدفة من الصدف التي قد لا تدل على سعة في العلم قدر ما تدل على الحظ والتوفيق - ولكن جميع المخترعات والمكتشفات الكيائية الحديثة وغيرها لم يتوصل إليها الإنسان إلا عن طريق الصدفة . ولكن هذه الصدفة لم تقع ولن تقع في طريق أحد غير عالم أو مشتغل بالعلم والصدفة في العلم لا تواتى إلا هؤلاء العلماء الكادحين بالليل والنهار التماسا للمعرفة وللوصول إلى نتائج معينة .

وسوف نرى أن إجادة المصريين القدماء للتحنيط لم يكن في الحقيقة إلا فرعاً من فروع معرفتهم الواسعة النطاق بالكيمياء والإحاطة بخصائص المواد والعناصر الأولية فمعجزة الألوان المصرية وقوة ثباتها لا تقل من حيث الخطورة والأهمية عن معجزة التحنيط

خيل إلى وأنا أزور لأول مرة مقابر وادى الملوك في خلال رحلة كشفية قمنا بها ونحن طلاب صغار - أن مصلحة الآثار المصرية قد أعادت نقش جدران مقابر الفراعنة لتعيدها إلى منظرها الأول الذى كانت عليه . فلما أبديت هذه الفكرة ضحك الأساتذة والخبراء الذين كانوا يرافقوننى وأفهمونى أن هذه الألوان الزاهية هى من قدماء المصريين وأن يد إنسان لم تمتد إليها منذ أربعة آلاف من السنين إن لم يزد . و[illegible] الرغم من أنهم أكدوا لى هذا الأمر وأنه حقيقة مقررة فلم أستطع أن أفهم تماماً . ظل

الشك يساور نفسى فى أن يكون ما قالوه صحيحاً لأن عقلى لم يستطع أن يتصور كيف تبقى الألوان زاهية براقة بل وكأنها لا تزال رطبة لم تجف طوال تلك الأحقاب الطويلة . حقًّا إن هذه الألوان بعيدة عن التيارات الضوئية والهوائية التى قد تؤثر عليها ومع ذلك فان أربعة آلاف سنة دهر طويل جدا إلى درجة لا يستسيغ العقل معها استمرار الألوان بكل رونقها ولمعتها . ومع ذلك فهذه هى الحقيقة المجردة التى يراها بعينى رأسه كل من قدر له أن يزور هذه الآثار .

وإذا كانت مقابر وادى الملوك والملكات وأمثالها قد احتفظت بهذه الألوان لبعدها عن التقلبات الجوية فان هناك بعض الآثار والأحجار المعرضة للهواء والشمس طوال هذه القرون لا تزال تحمل آثار الألوان القديمة من أحمر وأزرق ، حقًّا قد لا يبدو الأحمر زاهياً ومع ذلك فباستطاعة الإنسان أن يرى اللون الأحمر واضحاً جليا وكذلك بقية الألوان وهنا تبدو معجزة الألوان المصرية القديمة من حيث قدرتها على الثبات الطويل على مر الألوف من السنين . فمن المعلوم أننا فى العصور الحديثة لا نزال فى مسيس الحاجة إلى الألوان التى تقوى على مغالبة الزمن والطوارىء الجوية ومن المعلوم أن الألوان والاصباغ شديدة الصلة بالأدوية المختلفة والعقاقير حتى أن الشركات التى تقوم بصنع الألوان فى العالم هى التى تقوم بصناعة العقاقير ومختلف المواد الكيميائية فى نفس الوقت . ومن المعلوم والمتفق عليه أن ألمانيا وصلت فى صناعة الألوان إلى مرتبة الامتياز والتفوق العالمى . ومع ذلك فإن معلوماتنا عنها تؤكد أن درجة ثبات أى لون من الألوان الحديثة لا يمكن أن يقارن بحال من الأحوال بدرجة ثبات الألوان المصرية القديمة . ويقف العلماء حيارى إزاء هذا السر الكيميائى الذى مكن المصريين القدماء من صنع هذه الألوان الثابتة ثبوتاً معجزاً .

فإذا أضفنا هذا السر الخاص بالألوان إلى السر الخاص بالتحنيط أصبح من المقرر أن قدماء المصريين كانوا متفوقين تفوقاً ملحوظاً على عصرنا الحاضر فى المسائل الكيميائية وأنهم عرفوا من خصائص بعض المواد والعناصر والمعادن أكثر مما نعرف .

هل عرف المصريون الكهرباء :

ولا يزال نوع الضوء الذى أضاء للفنان المصرى القديم داخل المقابر مشكلة أخرى من المشاكل العلمية التى لم تحل . فمدى ما وصل إليه علمنا أنه لا يوجد غير الكهرباء ضوء لا

يترك آثاراً على الجدران نظراً لأن الضوء يتولد عن عملية الاحتراق التى تبعث بالدخان إلى سماء المكان وقد نحتت مقابر للفراعنة فى وادى الملوك فى داخل الجبل وعلى بعد سحيق فى باطن الجبل بحيث لا يمكن لضوء الشمس أن يصل بحال من الأحوال إلى هذه الأعماق فلابد من إضاءة صناعية ولابد من إضاءة قوية ليتمكن معها الفنان من إبداع نقوشه هذا الإبداع . فعلى ضوء أى نوع من أنواع المصابيح عمل الفنان المصرى القديم ؟ ليس هناك أى أثر للدخان والسناج الذى ينشأ من وجود مصابيح أو مشاعل . لقد حاول العلماء المصريون أن يحلوا هذه المشكلة وقد استبعدوا فكرة المصابيح الكهربائية بطبيعة الحال لأنه لم يكشف بين كل آثار المصريين القديمة ما يدل على معرفة المصريين القدماء الكهرباء . فلم يبق أمامهم إلا أن يتصوروا أن قدماء المصريين كانوا يدخلون الضوء إلى هذه المقابر بواسطة سلسلة متصلة من المرايا التى تعكس ضوء الشمس . وعلى فرض صحة هذا التفسير (الذى لا يزال مشكوكا فيه) فانه يكون آية على ما وصل إليه المصريون القدماء من البراعة والاقتدار والتحكم فى العناصر .

المنسوجات المصرية :

وثمة معجزة رابعة من معجزات الصناعة المصرية القديمة وهى هذه الأنسجة الرفيعة من الكتان التى يحار أعظم النساجين مهارة ، فى الوقت الحاضر ، فى معرفة كيف استطاع قدماء المصريين أن يخرجوا هذه الأنسجة الناعمة من أغلظ الخيوط وأخشنها .

إن الأنسجة الكتانية القديمة تشبه أن تكون أنسجة حريرية ويؤسفنى أن الأرقام لا تحضرنى الآن ساعة كتابتى هذه الرسالة فى السجن ولكنى واثق من أننى طالعت فى مؤلف علمى خاص بالنسيج أن العصر الحديث لم يستطع أن يصل فى الأنسجة الكتانية إلى بعض ما وصل إليه قدماء المصريين من حيث عدد الخيوط فى البوصة الواحدة ويقف علماء النسيج حيارى أمام هذا السر الذى ذلل ألياف الكتان للمصريين فأخرجوا منها هذه الخطوط الدقيقة الناعمة التى نسجت أثوابا شفافة .

وعجيب أن يكون أجدادنا القدماء قد وصلوا فى هذه العضور السحيقة إلى هذا الامتياز والتفوق فى فرع من فروع الصناعة التى لم يكف البشر فى يوم من الأيام عن مزاولتها ومحاولة تحسينها ... ولكنها العبقرية المصرية .. العبقرية المصرية وكفى .

ويطول بى المقام لو أنى رحت أتقصى كل شاردة من إبداع الحياة المصرية القديمة

وألوان الرفاهية والترف الذى وصلت إليه الحياة فى هذا العهد السحيق والتى تدل على درجة عالية جدا من إدراك معانى الحياة الراقية وتذوقها . فالموسيقى بأدق معانيها وأعذب آلاتها كما ترى منقوشة على الجدران . والرقص الفنى التوقيعى والغناء والشعر والأدب . كل ذلك كان يحظى بسوق رائجة على عهد مصر القديمة . وكان جمهور الشعب يتذوقه ويطرب له كما يطرب سكان باريس وفيينا وبرلين وروما والقاهرة فى عصرنا الحديث إلى موسيقى فاجنر وموزار وبيزيه وغيرهم من مؤلفى الروايات الموسيقية . وكان المصريون يمارسون الألعاب الرياضية فى شغف واهتمام كما يفعل أرقى شعوب العصر الحديث بل لقد جعلوا ممارسة الألعاب الرياضية من الواجبات على كل مواطن . وكانوا من هواة الصيد والقنص فى البر والبحر .

وكانت سقوف المنازل المصرية تزين بما يجعلها تبدو للرائى كأنها سماء . فتطلى باللون السماوى وتنقش عليها صور النجوم والأقمار . وكان المصرى القديم يحرص على أن يرى كل ما حوله موسوما بطابع الفن . فالكرسى والسرير والمائدة والمشط والكوب وصحفة الطعام ومرآة الوجه لابد أن تزين كلها بأجمل الرسوم أو تنقش على هيئة حيوان من الحيوانات أو طائر من الطيور أو زهرة من الزهور .

كل ذلك يدل على الدرجة الرفيعة من الرقى فى الإحساس الفنى الذى وصل إليه المصرى القديم

فلندع ذلك كله جانبا ولنلق نظرة سريعة على عناصر الحضارة الحقيقية لكل مجتمع وهى الدين والقانون والعلم . فأما العلم ففى الإشارات السابقة ما يدلنا على عمق ما وصل إليه المصريون القدماء من العلوم والمعارف . وأما فيما يتعلق بالدين والعقيدة فسأعرض له بإسهاب فى رسالتى القادمة التى سأخصصها عن الإيمان وتاريخ تطوره وكيف وصلت العقيدة المصرية فى أيام أخناتون إلى درجة التوحيد المطلق المنزه لله من كل جسمانية وكل تشبيه وأن الباحث النزيه لا يستبعد إطلاق وصف النبوة على اخناتون لروعة ما انتهى إليه من نتائج ونادى به من تعاليم وحسب المصرى القديم فخاراً فى باب العقائد والأديان أنه كاد أن يصل إلى جل تعاليم الإسلام التى جاءت بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة من حيث الإيمان بالحياة الآخرة والبعث والنشور والحساب والميزان والجنة والنار والعقاب والثواب وأن من يعمل مثقال ذرة شرًّا يره .

وسيجد الإنسان فى قائمة الجرائم التى يحاسب عليها المصرى القديم فى الآخرة كل ما يمكن أن ينتهى إليه مجتمع وصل إلى قمة الرقى الاجتماعى والوجدانى والاشتراكى. فليست السرقة والزنا والقتل والسلب والنهب هى كل الجرائم التى يعاقب عليها الانسان فى الآخرة فحسب. بل إن الغيبة والنميمة - والبخل والإسراف وإغضاب الوالدين وفقدان الشفقة، وقلة المروءة والإساءة إلى اليتيم والفقير والضعيف والخشونة مع النساء والظلم فى الأحكام وتقاضى الرشوة والوساطة والمحسوبية والتلاعب بالموازين والكذب وعدم الأمانة فى التعليم وعدم الإجادة فى عمل الإنسان كل هذه جرائم من أخطر الجرائم التى يعاقب عليها الدين المصرى القديم فى الآخرة فضلا عن عقوبة القانون الوضعى لها فى الدنيا.

القانـــون

أما عن القانون ومبلغ رقيه فى مصر القديمة فهو من الأمور التى لا تزال تثير إعجاب الدنيا ودهشتها. وإذا تحدثنا عن القانون ومدى رقيه فانما نقصد بذلك فى الدرجة الأولى القانون الذى يحكم العلاقات بين الناس وهو ما يسمى فى عصرنا الحديث بالقانون المدنى. ويعتبر مقياس الرقى فى أوروبا اليوم أنهم استطاعوا أن يبدعوا التفرقة بين المعاملات المدنية البحتة وبين المعاملات التجارية. وقد كان القانون المصرى القديم يعرف هذه التفرقة. ولقد عرف القانون المصرى القديم نظام الإشهار (التسجيل) فيما يتعلق بالعقارات فكان فى مصر القديمة سجلات عقارية منظمة وهو الأمر الذى لم نستطع أن نصل إليه فى عصرنا الحاضر.

ولقد كانت المرأة تتمتع بالأهلية الكاملة وبكافة الحقوق التى يتمتع بها الرجل وتظهر أهمية هذه التسوية بين الرجل والمرأة عندما نقارنها بما كانت عليه المرأة فى ذلك الوقت من انحطاط جعل الكثيرين ينظرون إليها على أنها نوع من أنواع الحيوانات أو الرقيق.

وبالجملة فان القوانين فى مصر القديمة كانت كأروع القوانين التى تعرفها الدنيا فى الوقت الحاضر.

فـــن الحـــكم

أما عن فن الحكم والإدارة فقد بلغت فكرة الدولة فى مصر أوجها وعرفت مصر مختلف الوزارات والمصالح كما نعرفها فى عصرنا الحديث فكانت هناك وزارات ومصالح الخارجية والدفاع والتعليم والرى. وعلى ذكر الرى فقد سجل التاريخ للمصريين القدماء

فيما سجل مشروعات رى كبرى لا نحلم بإمكان تحسينها فى الوقت الحاضر ومن ذلك تحويل مجرى النيل وإنشاء بحيرة موريس التى تعتبر أول مشروع هندسى مالى وسجلت لنا تل العمارنة ما يدل على أن مصر القديمة قد عرفت نظام وزارة الخارجية حيث عثرنا على (أرشيف) كامل للمراسلات السياسية بين اخناتون وسفرائه فى الخارج وبين اخناتون ورؤساء الدول الأجنبية والتابعة لمصر برباط التبعية . وحدثنا التاريخ عن قصر لابرانت الذى كان يحوى ثلاثة آلاف حجرة والذى أنشىء ليضم موظفى الحكومة ومصالحها المختلفة .

وهكذا أينما قلب الانسان طرفه فى المدنية المصرية يراها مدنية ضخمة رائعة سبقت المدنيات الأخرى التى عرفها العالم بألفين أو ثلاثة آلاف من السنين على الأقل . وقد يمر القارىء العادى على هذه الكلمة ـ كلمة ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين ـ بدون أن يدرك ما تنطوى عليه تماما لأنه يطالعها فى أقل من لمح البصر ولكن القارىء المدقق يستطيع أن يدرك معنى ثلاثة آلاف سنة عندما يتصور أن تاريخ دولة عريقة كانجلترا لا يمتد إلى أكثر من بضعة قرون وأن كل أمجاد انجلترا الجديدة وكل عظمتها التى يذهل لها من يتتبع تاريخ هذه الأمة لا يكاد يرجع إلى أكثر من قرنين أو ثلاثة . كانت انجلترا قبلها أمة تعيش فى ظلمات العصور الوسطى كبقية أوروبا . أما الروس فلا تاريخ لهم قبل قرنين من الزمان وهذه دولة عظيمة كأمريكا لم تصبح شيئاً مذكوراً إلا منذ قرن واحد من الزمان .

عمق التاريخ المصرى

فلنقارن الآن بين هذه التواريخ لتلك الأمم الحديثة وبين تاريخ مصر حيث كانت الأسرة الحاكمة الواحدة يمتد حكمها إلى أربعة قرون أو خمسة وقد يصل حكم الأسرة الواحدة إلى ألف من السنين .

فعندما نقول إن مصر قد سبقت أقدم مدنية عرفتها الدنيا بألف أو ألفين من السنين فإن معنى ذلك أن مصر كانت حيث لم يكن غيرها وأنها كانت سيدة الدنيا ومشعل النور والحضارة لعدة أجيال طويلة لم تصل إليها حتى الآن أية أمة من الأمم . ولا يوجد فى العالم القديم أو الحديث دولة تستطيع أن تدعى أنها عاشت أو أنها ستعيش فى حضارة متصلة مزدهرة نصف ما عاشته مصر أو ربعه أو خمسه .

ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن لا نتحدث عن تاريخ مصر بالسنين والأعوام فحياة مصر تقدر بالدهور والأحقاب . فإذا حدث وأصيبت مصر بالضعف أو الوهن فى فترة من الزمن كما هو شأنها فى الوقت الحاضر فما ذلك إلا بمثابة دقيقة أو ساعة تمر فى حياة إنسان فلا ينبغى أن يكون ذلك باعثاً على الجزع أو اليأس أو التشكك فى أن مصر لابد وأن تلعب دورها الذى هيئت له كركن من أركان الحضارة البشرية .

كيف نشرت مصر الحضارة فى العالم

ولنحاول الآن أن نعرف كيف انتشرت الحضارة من مصر إلى بقية أجزاء العالم لنعرف حقيقة الدين الذى يداين به المصريون الإنسانية والحضارة البشرية .

ففى عين شمس قامت أقدم جامعة عرفتها الدنيا وكان الطلاب يقصدون هذه الجامعة من كل فج عميق على ما يروى مؤرخو اليونان أنفسهم . فأفلاطون أعظم فلاسفة اليونان . قد وفد إلى مصر ليغترف من علوم المصريين ولكى يتتلمذ فى جامعة عين شمس . وهيرودوت - شيخ مؤرخى العالم - قد وفد إلى هذه الجامعة وأفاد منها . وصولون - أعظم مشرعى اليونان - وليكرغ - كل هؤلاء النجوم والأعلام يسجل التاريخ أنهم اتصلوا بمصر واستضاءوا بنور جامعة عين شمس .

بل إن سيدنا موسى عليه السلام نفسه لابد أنه كان أحد تلامذة هذه الجامعة فقد كان ربيب فرعون وقد تلقى علوم المصريين وحكمتهم فى عين شمس وإلى هذا تشير التوراة عندما تقول على لسان الله عز وجل مخاطباً موسى «لقد أوتيت حكمة المصريين» .

ولقد كانت جامعة عين شمس تتألف من عدة فروع أو ما نسميه فى الوقت الحاضر كليات فقبل أن توجد أكسفورد وكمبردج وهيدلبرج وباريس وهارفارد ، قبل أن توجد هذه الجامعات بأربعة آلاف سنة كانت تقوم فى مصر جامعة عين شمس التى لا تزال مسلتها أعظم مسلات العالم طرًّا تقف حتى الآن فى المطرية تخلد ذكرى هذه الجامعة التى انبثق منها النور والعرفان على الدنيا كلها .

على أن طلب الأجانب للعلم فى جامعة عين شمس لم يكن هو الأسلوب الوحيد الذى انتشرت به الحضارة عن مصر وإنما الاحتكاك المتواصل بين مصر وجاراتها فى سوريا ولبنان وفلسطين وكريت واليونان وتغلب مصر على هذه البلاد فى بعض الأحيان وسيادتها ، كل ذلك كان من شأنه أن يجعل الحضارة تتسرب من مصر إلى هذه البلاد

فالحضارة كالمياه تنحدر من المكان العالى إلى المكان المنخفض ولذلك فقد كان القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط هو أسرع الأماكن فى الدنيا كلها تأثراً بالحضارة المصرية وذلك لاتصاله بها عن طريق البر والبحر ومن هنا كانت الحضارة الفينيقية القديمة والحضارة الآشورية والبابلية والإغريقية .

جامعة الإسكندرية بعد جامعة عين شمس

ويطيب للمستعمر الأجنبى أن يقف بتاريخ مصر المجيد عند هذه المرحلة من تاريخها مرحلة الفراعنة على أساس أن مصر لم تكن مستقلة إلا فى هذه الفترة من التاريخ وأنها فقدت استقلالها من ذلك التاريخ السحيق وأن المدنية لم تعد إلى الازدهار فى مصر ثانية . وليس وراء هذا الزعم إجرام يدل على مدى نفسية هؤلاء المستعمرين عندما يعملون على تحطيم الروح المعنوية فى نفس شعب من الشعوب بإيهامه بحقارته وضآلة شأنه .

والحقيقة التى لاشك فيها والتى يجب أن يؤمن بها المصرى إيمانه بالله أن دور مصر فى حياة العالم كمشعل من مشاعل النور والهداية لم ينقطع أبداً فى كل عصور التاريخ ولم يحدث أن مر على مصر قرن واحد من الزمان لم تكن فيه مركزاً من المراكز الحيوية فى العالم .

ولو أسدلنا الستار على تاريخ مصر الفرعونية ، ذلك التاريخ الذى يقف عند الفتح الفارسى لمصر لرأينا أن الفرس قد انهزموا بعد قليل من الزمن أمام عبقرية الإسكندر ومعاونة المصريين له ولم تكد تنفذ إلى مصر هذه الموجة الاغريقية الفتية حتى كان ذلك حافزاً على أن تبعث مصر كل مجدها العلمى والروحى ، فإذا بمصر تطفو على سطح هذه الموجة الجديدة من موجات الحضارة والإنسانية ثم لا تلبث أن تسيطر عليها وتمسك زمامها وتردها إلى أصولها وجذورها المصرية . فكانت حضارة الإسكندرية وأمجاد الإسكندرية التى لم تكن فى صبغتها إلا بعثاً للحضارة المصرية القديمة فى ثوب إغريقى ليتناسب مع روح العصر . ولم تعد مدارس أثينا أو مذاهبها هى صاحبة الكلمة الأولى فى الفكر العالمى ولكن مدارس الإسكندرية وجامعة الإسكندرية التى احتلت مكانة جامعة عين شمس القديمة . وإذا كان العالم الحديث لا يعرف الكثير عن جامعة عين شمس القديمة فإنه يعرف كل شىء عن جامعة الإسكندرية الحديثة . وليس هناك عالم ولا مؤرخ فى العصر الحديث لا يندب حظ البشرية كلما ورد ذكر حرق مكتبة الإسكندرية . وليس وراء

ذلك دليل على مبلغ ما وصلت إليه حضارة مصر فى ذلك التاريخ وعلو كعبها فى العلوم والمعارف . وستبقى منارة الإسكندرية التى أنشئت فى هذه الفترة من تاريخ مصر والتى اعتبرها القدامى إحدى عجائب الدنيا السبع ، ستبقى ذكرى هذه المنارة التى اندثرت رمزاً حيًّا خالداً على أن مصر كانت حاملة لواء الحضارة فى العالم وكانت مدرسة الأمم والشعوب طوال القرون الأربعة أو الخمسة السابقة على ميلاد المسيح .

مصر رافعة لواء المسيحية

الفتح الرومانى

ويظن أقوام أن الفتح الرومانى لمصر قد وضع حدا نهائيا لدور مصر فى تاريخ البشر كقوة عاملة مؤثرة . وأن مصر قد تحولت فى ظل هذا الفتح إلى إيالة رومانية فقدت كل استقلالها وشخصيتها وأنها دخلت فى زوايا الإهمال والنسيان بالقياس إلى روما وعظمة الامبراطورية الرومانية . وليس وراء ذلك وهم وجهل بمعرفة الحقائق الخالدة فى تاريخ البشر . فلعل مصر إبان خضوعها للرومان كانت تقوم بأعظم دور قامت به فى كل تاريخها حتى ذلك الوقت .

ولعل أوروبا إذا كانت تمارى فى فضل الحضارة الفرعونية عليها فلن يكون بقدرة أوروبا وأمريكا إلا أن تعترف لمصر بالدين العميق لما قامت به فى هذه الفترة من حياتها فى جهاد وكفاح فى سبيل تدعيم العقيدة المسيحية وانتصارها . وإذا كان العالم الغربى يطلق على حضارته اليوم أنها حضارة مسيحية فإلى مصر يرجع الفضل كل الفضل فى خلق هذه الحضارة ونشر ظلها على العالمين . وقد قامت مصر بهذا الدور الخطير إبان سيطرة الرومان عليها فكأن هذه السيطرة العسكرية لم تقف حائلا بين مصر وبين تأدية رسالتها العالمية الإنسانية .

مصر حاملة لواء المسيحية

لم تكد مصر تقع فى حوزة الرومان حتى كانت الدعوة المسيحية قد شقت طريقها إلى الحياة المصرية والصلة بين المسيح وبين مصر جد وثيقة بل إن الصلة بين بنى إسرائيل وبين مصر ترجع إلى أبعد من ذلك إلى أيام إبراهيم الجد الأول لبنى إسرائيل الذى وفد إلى مصر على ما تحدثنا التوراة وكانت له مسألة مع فرعون مصر انتهت بأن أهداه هذا الأخير إحدى جواريه وهى هاجر المصرية التى انجبت له فيما بعد إسماعيل جد النبى صلوات الله وسلامه عليه . فالوشائج بين مصر وبين بنى إسرائيل جد وثيقة منذ العصور المبكرة لحياة إبراهيم الجد الأعلى لبنى إسرائيل . ثم كانت قصة يوسف المشهورة وكيف جاء إلى مصر

وارتقى فيها حتى أصبح وزير الدولة وكيف استدعى أباه وأسرته للاقامة فى مصر حيث طابت لهم الإقامة وتكاثروا وتزايدوا إلى أن تحولوا من بضع نفر يعد على الأصابع إلى بضع مئات من الألوف .

وقصة موسى مع فرعون وخروج بنى إسرائيل من مصر هى قصة معروفة ومشهورة وحسبنا أن نشير إليها فالحضارة الإسرائيلية التى هى بمثابة الأم من الحضارة المسيحية ليست فى حقيقتها إلا ثمرة من ثمار الحضارة المصرية القديمة ولن يستطيع أى عالم أن يفسر هذه الحركة الروحية الاسرائيلية أو أن يفهم نصوص التوراة إلا إذا رجع إلى أصول ذلك كله فى الحياة المصرية القديمة والعقائد المصرية القديمة .

فإذا كان المسيح قد ولد فى الناصرة من أعمال أورشليم ، وإذا كان الايمان المسيحى قد قدر له أن يغمر مصر وأن تصبح ركناً من أركان الايمان الجديد فليس فى ذلك شىء يستوجب العجب ، فإنما هى بضاعتنا ردت إلينا ، أو هو الفرس يعود إلى مربطه ، والطائر يؤوب إلى عشه .

وتحدثنا الأناجيل عن هرب مريم العذراء إلى مصر نجاة بولدها من غضب ملك اليهود ، ولا تزال الذكريات القبطية تحدثنا حتى اليوم عن شجرة العذراء التى استظلت بها وكهف العذراء الذى احتمت به .

ولما كبر المسيح وترعرع ونادى بتعاليمه الإنسانية داعياً إلى عبادة الرب فى علاه كان بذلك يضع حدا فاصلا بالنسبة لتطور العقائد البشرية بين العهود الوثنية القديمة والعقائد السماوية الروحية الجديدة .

كانت مصر هى صاحبة القدح المعلى فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ البشرية ، فقد كانت هى التى حملت اللواء والمشعل الوضاء بهذا الإيمان الجديد وكانت هى قائدة الدنيا وزعيمتها .

وقامت فى الإسكندرية أول كنيسة فى الشرق أو بالأحرى فى الدنيا كلها وبدأ المصريون يلوذون بهذه الدعوة الجديدة ويستضيئون بهذا الايمان الجديد وتحول الصراع بين مصر وروما حول هذه العقيدة ولم تعد المسألة مسألة تحرير مصر من ربقة الاستعمار الرومانى وإنما أصبحت تتلخص فى نصرة المسيحية وتثبيت دعائمها .

وما أشد هذه الحرب التى شنها أباطرة الرومان على مصر المسيحية وما أكثر المحاولات

التى حاولت فيها روما الوثنية أن تقف فى وجه انتشار المسيحية فى مصر ومع ذلك فقد فشلت كل هذه الجهود وثبت المصريون فى وجه الإعصار وعاصفة الاضطهاد . ثبت المصريون فى وجه التحريق والتعذيب والتنكيل وكان الأمر يصل من روما بذبح كل من يدين بالعقيدة المسيحية فيفتك صنائع روما وجنودها بالألوف وعشرات الألوف . ولكن مصر رفضت أن تذعن أو أن تحنى الرأس أو تتراجع وظلت ماضية إلى الأمام تحمل لواء المسيحية . ولا يزال أقباط مصر يحتفلون حتى اليوم بذكرى الشهداء من نصارى مصر الذين أمر دقلديانوس قيصر الرومان باجراء مذبحة عامة فيهم .

وأخيراً جاء الوقت الذى أصبحت فيه المسيحية ديناً رسميا للامبراطورية الرومانية . وبذلك أصبحت المسيحية الدين العالمى الرسمى لأكبر امبراطورية عرفها التاريخ . فإذا فكر المسيحيون اليوم فى مشارق الدنيا ومغاربها أن يتوجهوا بالشكر لشعب من الشعوب كان له أكبر الفضل فى نصرة التعاليم المسيحية فان هذا الشعب هو الشعب المصرى . وهذا البلد هو مصر وليس ذلك بالدور القليل الخطر فى تاريخ البشر .

فإذا علمت أن مصر قد اضطلعت بهذا الدور إبان الفتح الرومانى استطعت أن تؤمن كما آمنا أنه لم ينقض على مصر قرن واحد من الزمان لم تكن فيه صاحبة الكلمة الحاسمة فى تاريخ العالم وتوجيه حضارته .

مصـــر الإســـلامية

كيف وقفت فى وجه الصليبيين وأنقذت الإسلام من التتار المخربين

وبانتشار المسيحية وانتهاء هذا الطور من تاريخ البشر بدأت هذه الصفحة الجديدة ، صفحة الدين الإسلامى العتيد ، ذلك الدين القيِّم الذى جاء مكملا ومصححاً لما سبقه من رسالات . فكانت مصر حجر الزاوية فى هذا البناء الجديد وكانت هى اللواء الخفاق والمشعل الوضّاء لهذه العقيدة الجديدة .

وظلت ، كما كانت دائماً أبداً ، محور الحضارة الإسلامية التى قدر لها أن تهيمن على الإنسانية ألوفا من السنين ، فتحت صدرها للدين الجديد والوافدين الجدد الذين جاءوا يحملون مشعل الهداية فكأن غريزة مصر وسليقتها الحضرية قد حملتها على أن تصادق القادمين من شبه الجزيرة لا أن تقف فى وجوههم فرحبت بهم وآوتهم ونصرتهم . وعندما بعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام برسله إلى مختلف أنحاء العالمين لم يكن نصيب هؤلاء الرسل سوى الطرد والإهانة بل والقتل فى بعض الأحيان إلا فى مصر حيث استقبلت رسالته بما تستحق من التجلة والاحترام وأُكرِم رسولُ الرسولِ إكراماً بالغَ الحدِّ . وبعث المقوقس كبير الأقباط فى مصر بهدية نفيسة إلى رسول الله كما بعث اليه بمارية القبطية التى تزوجها الرسول صلوات الله عليه ورزق منها على الكبر إبراهيم الذى توجع على وفاته وحزن لموته حزناً سجله التاريخ فيما سجل عن رسول الله . هذه الصلة بين مصر وبين نبى المسلمين هى التى حدت برسول الله أن يوصى أصحابه من بعده بمصر خيراً لأن للعرب فيهم نسباً ورحماً . فأما الرحم فهو الذى أشرت إليه من قبل من أن هاجر أم إسماعيل جد النبى كانت مصرية وأما النسب فهو زواج الرسول بمارية القبطية . وهكذا نرى أنه ما من نبى من أنبياء العالم ورسله إلا وهو وطيد الصلة بمصر ابتداء من إبراهيم والد الأنبياء وانتهاء بسيدنا محمد آخر النبيين وخاتمهم . وليس من قبيل الصدفة وانما هو ثمرة الأوضاع الطبيعية التى جعلت من مصر كما أسلفنا محوراً لكل علم أو عرفان . ولم يكد العرب يفتحون مصر حتى وجدوا فيها وطنهم الروحى المنشود ، ووجد المصريون

فى العرب أئمتهم وفى عقيدة التوحيد دعوتهم ولم يمض سوى أيسر الوقت حتى كانت العقيدة قد امتزجت بالمصريين وامتزجوا بها . وحتى أصبحت مصر كما قدمنا ركناً من أركان الإسلام الشامخة تسامى ركن دمشق وبغداد وعندما قدر لهذين الركنين الآخرين أن تعدو عليهما العاديات وأن ينهارا تحت وطأة الانحلال الداخلى والغزو التترى الأجنبى بقى ركن الإسلام فى مصر ركيناً عالياً بل وازداد نور الإسلام توهجاً وإشراقاً وعرف العالم الحديث أول جامعة لا تزال قائمة حتى اليوم منذ ذلك العهد السحيق . ونعنى بها جامعة الأزهر الشريف التى أكملت الألف سنة من عمرها المديد المتصل وهو ما لم تقضه الجامعات العتيدة المشهورة . واستقلت مصر بحكامها من العرب والمسلمين واتصلوا بها وتحولت القاهرة إلى قلب العالم الخفاق وتركزت فيها الحضارة الإسلامية .

رد غـارة الصليبيين

يعجب الكاتب المتحدث عن مصر الإسلامية بأى الجوانب من حياتها يبدأ الحديث . أيتحدث أول ما يتحدث عن قوة مصر العسكرية فى البر والبحر التى كانت عليها فى ذلك الزمان ؟ أم يتحدث عن علومها وفنونها ؟ أم الدور الأخير الذى لعبته فى تاريخ الاسلام والشرق بل الدنيا كلها ، فعندما حاولت أوروبا الصليبية فى القرن الحادى عشر وما تلاه من قرون أن تدك حصون الاسلام فى الشرق وأن تطفىء نور هذه الدعوة المحمدية ولقيت فى بادىء الأمر ما لقيته من نجاح أولى مكنها من احتلال بيت المقدس . كانت مصر وحدها هى التى تصدت لهم فحولت انكسارات العالم الإسلامى إلى انتصارات . وضيقت الخناق على أولئك الصليبيين الذين كانوا يمثلون فى ذلك الوقت صورة بشعة من الهمجية والوحشية . كانت مصر هى التى ضيقت عليهم الخناق واشهرت عليهم حرباً شعواء ضروساً فوق أراضيها تارة وفوق أراضى الشام تارة أخرى وفى البحر تارة ثالثة . حتى أنزلت بهم هذه الهزائم الساحقة التى لم تقم لهم بعدها قائمة وما أجمل حديث البهاء زهير إذ يندد بملوك فرنسا وفرسانها ويذكرهم بوقوعهم فى أسر المصريين وسجنهم فى دار ابن لقمان بالمنصورة إذ يقول :

نـبـىء الـفـرنـسـيس إذا جـئـتهـم
مـقـال صـدق عن قؤول فصيح
دار بن لـــقمان على حــــالها
والـقـيـد بـاق والطواشى صـبـيح

وهكذا انتهت هذه الغارة الصليبية بالاندحار والهزيمة وانسحب الصليبيون إلى غير رجعة فإذا كان علم الإسلام لا يزال حتى اليوم مرفوعاً خفاقاً فالفضل فى ذلك إنما يرجع لمصر ومصر وحدها أولا وأخيراً

رد غـارة التتار

ولكن العالم الإسلامى لم يكد يفيق من تأثير الحروب المستمرة المتواصلة ضد الصليبيين حتى دهم التتار المسلمين فى الشرق ، فناء المسلمون تحت وطأة هذه الهزيمة الجديدة وسقطت بغداد وحرقت واجتاحت موجة الهمجية والبربرية العراق والشام بأكمله وكاد هذا التيار المخرب الذى اندفع من حدود الصين يكتسح فى طريقه كل حضارة وكل مظهر من مظاهر الحياة المتمدينة أن يغمر مصر . ولو اجتاح هذا الوباء مصر لقضى على البقية الباقية من حيوية المسلمين وعزهم وحضارتهم ولكن من حسن الحظ أن مصر وقفت له بالمرصاد واصطدمت جيوشهم بهذه الجيوش المغولية الكثيفة . وفى عين جالوت كان النصر المصرى والهزيمة التترية لأول مرة فى تاريخ حياتهم . وتوقفت هذه الموجة الطاغية ولم تلبث أن انحسرت ونجا الشرق العربى ونجا المسلمون ونجت الحضارة الإنسانية كلها من أن تقع فريسة البربرية الهمجية . وقد ترتب على هذه الهزيمة العسكرية للتتار أن هدأت ثورتهم وركنوا من جديد للسكون والاستقرار فلم يمض أيسر الوقت حتى كانوا قد دخلوا فى دين الله أفواجاً وبذلك تحول هادمو الإسلام إلى ركن من أركانه وتحولت عاصمة ملكهم ـ سمرقند ـ الى مركز من مراكز الحضارة الإسلامية ينافس بغداد القديمة ودمشق .

ومعنى ذلك أن قوة مصر العسكرية فى العصور الإسلامية قد بلغت الحد الذى مكنها من هزيمة أوروبا مجتمعة والصمود لأقوى زحف عسكرى وفد على البلاد من الشرق وأشبه الإعصار الجائح المخرب المدمر ولم نجد فى تاريخ أمة من الأمم مثل هذا الموقف الخطير الذى تداين به مصر الدنيا كلها .

وبمقدار هذه الغلبة العسكرية التى كانت لمصر كانت غلبتها المدنية والعمرانية .

وليرجع أى قارئ إلى مطولات التاريخ ليرى المعجب والمطرب من تفاصيل الحضارة المصرية فى هذه العصور ونعنى بالحضارة نظام الحكم وانتشار العلم وارتقاء الحياة المعاشية والاجتماعية للناس .

ولقد تركز ذلك كله فى الأزهر الذى سرعان ما تحول إلى جامعة الدنيا كلها . وتلخص فيه كل ما انتهى إليه البشر من علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء واللغة والشريعة .

وهكذا لم يكن الأزهر فى حقيقته إلا بعثاً لجامعة الإسكندرية مرة أخرى .. والتى كانت بدورها كما قدمنا بعثاً لجامعة عين شمس ..

حضـارة مصر فى العصور الوسطى

أما قدرة مصر فى الصناعة والفنون فتشهد عليها هذه الأساطيل المصرية التى كانت ترتاد البحار الشرقية كلها وتسيطر عليها .. وتنطق بها هذه الجيوش الجرارة التى كانت مجهزة بأقوى الأسلحة والعدد التى هزمت أضعاف أضعاف عددها من الجيوش الأوروبية . وتشهد عليها هذه الآثار الخالدات التى ترتفع فى سماء القاهرة هاتفة بأن بناة الأهرام سيظلون على مر العصور يعيدون بناء الهرم فى صور وأشكال متعددة .. فهذه أسوار القاهرة القديمة التى لم يبق منها سوى هذه البوابات الضخمة التى لا مثيل لها فى الدنيا كلها .. وهذه المساجد الشامخة الرائعة التى لم نستطع حتى الآن أن نشيد من المساجد ما يمكن أن يقارن بها . وحسب الإنسان أن يقارن مسجد الرفاعى الحديث البنيان والذى تولى بناءه مهندس إيطالى وبنى بعد اختراع الآلات الحديثة . حسب الإنسان أن يقارن ذلك المسجد بمسجد السلطان حسن الذى يواجهه فيرى أن مسجد السلطان حسن فريد فى كل مساجد القاهرة من حيث الجلال والعظمة والشموخ والفخامة . بل إنى وقد طفت العالم العربى بأكمله أشهد أننى لم أر لمسجد السلطان حسن مثيلا ولقد جبت أمهات العواصم الأوروبية فأشهد أن العصور الوسطى لم تخلف فى كل ما رأيت أثراً يضارع فى قليل أو كثير مسجد السلطان حسن . وما مسجد السلطان حسن فى نهاية الأمر إلا واحد من هذه المساجد التى تغص بها القاهرة والتى تنطق كلها بأفصح بيان عما كان لمصر من حضارة وعمران يفوق كل ما عرفته الدنيا فى وقتها من حضارة وعمران .

وما على الباحث الذى لا يزال يتشكك فى هذه النتيجة إلا أن يزور دور الآثار العربية ومخلفاتها ليرى إلى أى ذوق رفيع بلغ المصرى العربى فهذه المطرزات الذهبية سواء كانت ملابس أو أبسطة أو سروجاً للخيل هى أعجوبة الأعاجيب فى الدقة والقدرة الفنية . ولعل أعظم ما يزدهى به متحف الأنفاليد فى فرنسا هو بعض هذه السروج التى ظفر بها نابليون فى معاركه ضد المماليك عند فتحه لمصر .

أما الآثار الزجاجية التى تتمثل فى هذه المشكاة التى كانت تضىء المساجد والقصور فانها تجمع فى نفسها عدة آيات باهرات من القدرة الصناعية التى أبدعت مثل هذا الزجاج الشفاف الذى لم تستطع أوروبا أن تصل إليه إلا فى عصور متأخرة جدا . وتدل ألوان هذا الزجاج على التفوق الكيميائى فى تركيب الألوان الثابتة على مر الزمن . وهى فى نهاية الأمر آية الآيات على سلامة الذوق ورقة الحاشية . وليس هناك ما تفخر به متاحف العالم كاقتنائها لمشكاة مصرية انحدرت من العصور الوسطى بكل بهائها وجمالها . وإذا ذُكِرَ الزجاج المصرى العربى ذكر الخزف بأنواعه والقيشانى وهو ما تغص به جميع المتاحف العالمية وما يتحدث بأفصح لسان كما قدمنا عن الحياة الرفيعة التى يحياها المصريون قادة العرب والمسلمين فى العصور الوسطى .

ولن تستطيع أن تدرك مدى ما كان المصريون عليه إلا إذا قارنته بما كان عليه الأوروبيون فى العصور الوسطى حيث كان الانجليز ــ متزعمو العالم اليوم ــ لا يزالون يعيشون فى مساكن لا تفضل الأكواخ الحقيرة التى لا يوجد بها منفذ لتصريف الدخان الذى ينبعث من وقودهم المحروق . وكانوا يعيشون مع الحيوانات جنباً إلى جنب . وكان العلم والفكر هو أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان وحسبك أن تعلم أن هذه الجريمة كانت فى كثير من الأحيان تبلغ بمرتكبها إلى المحرقة بتهمة الفكر والزندقة .

جامعات . ومدارس . ومصانع . ومستشفيات . وعلوم . وفنون . وجيوش وأساطيل وأسماء تطبق الخافقين بشهرتها وبطولتها كصلاح الدين والظاهر بيبرس وشجرة الدر .. هذه هى مصر العربية الإسلامية وهذه هى صفحتها الوضاءة فى تاريخ البشرية .

العهـد العثمـانى

نكسـة مصـر فى عهد العثمانيين

كانت نهضة العثمانيين فى الوقت الذى كانت الحروب قد أنهكت مصر من الشرق والغرب وكان من المستحيل أن تظل مصر محتفظة بقوتها العسكرية بعد هذه الحرب الضروس ضد الصليبيين فى الغرب وضد التتار فى الشرق .

فعندما اشتبك الأتراك مع المصريين دارت الهزيمة على الأتراك أولا على ما كان لهم من شهرة مدوية فى القتال وما استصحبوه معهم من المدافع التى كان لها أثر سىء فى صفوف الجيش المصرى . ثم انقلب ميزان الحرب عندما انخذل الخائن «خير بك» قائد ميمنة الجيش المصرى حسب اتفاق سابق مع السلطان سليم . وتبعه فى الهزيمة «جان بردى» الخائن الثانى . والمتآمر مع خير بك . وعندئذ فحسب . وبفعل هذه الخيانة الصارخة هزم الجيش المصرى . وإن ظل قائده الأول يحارب حتى الموت .

ومع ذلك لم يستسلم المصريون . فقد أثبتوا بطولتهم فى خمس معارك تشيب لهولها الولدان كادوا فيها أكثر من مرة تحت قيادة طومان باى يهزمون العثمانيين وقتل فى أحدها يونس باشا كبير وزراء السلطان سليم وأخرج العثمانيون من مواقعهم وخطب يوم الجمعة لطومان باى .

وعادت الخيانة مرة أخرى فأسلمت «طومان باى» إلى السلطان سليم فشنق على باب زويلة .. وانتهت بانقضاء حياته صفحة مصر المستقلة زعيمة الشرق والإسلام وابتدأت صفحة سوداء قاتمة .. ولى فيها «خير بك» مصر جزاء خيانته وأصبح يلقب ملك الأمراء .

بادر العثمانيون بمجرد دخولهم إلى مصر إلى جمع الصناع والعمال والمهندسين وسائر الفنيين فى مختلف الحرف والصناعات التى اشتهرت بها مصر وبعثوا بهذا الجيش اللجب الضخم إلى القسطنطينية فجردوا مصر من ينبوع حيويتها المتدفق ومكمن قوتها وأطفأوا فى مصر إلى عدة أجيال تالية نور العلم والصناعة والفن .

وقد كان من الجائز – بل كان من المحقق – أن يبادر المصريون إلى التحرر من ربقة الاستعمار العثمانى بالرغم من إسلامهم لو لم يبادر العثمانيون باستصحاب الخليفة العباسى الذى كان يقيم فى القاهرة . وهناك فى القسطنطينية حملوه على التنازل عن الخلافة لسلاطين آل عثمان .. فأصبح بنو عثمان خلفاء للمسلمين . وبمقتضى القواعد الإسلامية التى كانت تسود مصر وقتئذ لم يكن هناك بد من الخضوع لخليفة المسلمين نزولا على القرآن «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» وهكذا لم تدن مصر فقط لبنى عثمان بل دان لهم بالطاعة والولاء جميع الأمصار والأقطار حتى تلك التى لم تطأها أقدام الجيوش العثمانية .

ويجب أن نقرر إحقاقاً للحق أن بنى عثمان قد نهضوا برفع لواء الإسلام من الناحية العسكرية إلى الحد الذى جعل مسلمى الدنيا يتيهون فخاراً بالانتساب اليهم ويبذلون أقصى ما لديهم من جهد فى تدعيم دولتهم لا فى الانتفاض عليهم والتفكير فى التخلص من حكمهم .

نجح بنو عثمان فيما لم ينجح فى تحقيقه المسلمون طوال ثمانية قرون وهو الاستيلاء على القسطنطينية ، كرسى المسيحية وعاصمتها الكبرى فى الشرق وهو ما كان يهدف المسلمون لتحقيقه منذ عهد الفتوحات الأولى . وتوغل بنو عثمان فى أوروبا مخترقين مختلف بلدانها نحو الغرب ليحققوا حلم المسلمين القدامى وهو فتح أوروبا من الشرق إلى الغرب بعد أن عجز مسلمو الأندلس عن فتحها من الغرب إلى الشرق .. وقد نجحت جيوش بنى عثمان فى الوصول حتى أسوار فيينا ولو أنها سقطت فى ايديهم لتحقق لهم تنفيذ برنامجهم . وفى ذلك الوقت كان البحر الأبيض قد تحول إلى ما يشبه أن يكون بحيرة إسلامية . كل ذلك حمل العالم الإسلامى على الرضا بزعامة بنى عثمان وبخلافتهم على المسلمين ما داموا يعززون شوكة الاسلام ويعيدون مجده .

وقد كان لذلك أثره فى مصر التى أنهكتها الحروب طوال القرون الثلاثة السابقة على هذه النهضة العثمانية فاستكانت لحكم العثمانيين واستسلمت إلى الرقاد الطويل فانحدرت مصر إلى هاوية عميقة من التدهور والانحلال وغشيتها ظلمات العصور الوسطى بكل مظاهر العهد الإقطاعى وخصائصه . فالفوضى والحروب المتصلة بين الأمراء . واسترقاق الشعب والجهل ومحاربة العلم وانتشار الأوبئة والأمراض والمجاعات وفيضان النيل كل ذلك بدأ

يطغى على مصر فأوقعها فيما يشبه الغيبوبة وانقضى عليها قرابة قرنين من الزمان بين الحياة والموت واليأس والرجاء .

ولكن لم تكن مصر وحدها هى التى أصيبت بهذه النكسة المخيفة بل كان الشرق العربى كله يعانى ويلاتها بعد دخوله فى قبضة آل عثمان .

ونهضت أوروبا نهضتها الحديثة فتحررت من عهد الإقطاع . واستخلصت الشعوب حقها فى الحرية والمساواة وتدفقت فى دولها المختلفة ينابيع الحياة والقوة والاقتدار واكتُشِفت أمريكا وسيطر الأوربيون رويداً رويداً على البحار وطلع على الدنيا القرن التاسع عشر باكتشافاته العلمية الرائعة وبدأ نجم أوروبا فى صعود فى الوقت الذى كان فيه نجم بنى عثمان قد أخذ فى الاضمحلال والغروب بعد أن ران عليهم الجهل والجمود وتمسكوا بظواهر الدين وقشوره تاركين جوهره وحقيقته الخالدة وهى العمل والجهاد . والبناء والإنشاء والتعمير والعلم والتعليم . وهكذا سار العالم الغربى نحو الأمام وتخلف العالم الشرقى . وتطور الأوربيون منتفعين بما حملوه من العلوم والمعارف العربية والإسلامية التى اقتبسوها إبان حروبهم الطويلة مع المسلمين فى الشرق واحتكاكهم المستمر المتواصل بالحضارة العربية فى الأندلس . فبدأت بذلك العصور الحديثة التى آلت فيها السيادة للغرب على الشرق ولا تزال هذه السيادة مبسوطة حتى اليوم ... وبدأ العالم الإسلامى يستيقظ فى ظل هذه الهزيمة المنكرة .

وبدأ يفيق من هذا السبات العميق الذى ران عليه ويفتح عينيه متطلعاً لما يجرى حوله .. وقد كانت مصر هى القائدة ومصر هى التى حملت لواء النهضة الإسلامية العربية والشرقية وسنرى فى الفصل القادم كيف كانت أسبق دول الشرق إلى الأخذ بأسباب النهوض والعمل لاستعادة المجد القديم .. وإذا كانت مصر لم تبلغ غايتها حتى اليوم ولا تزال ترسف فى أغلال العبودية للدول الغربية فذلك لا ينفى أنها كافحت وتكافح وستظل تكافح حتى يتحقق لها ما تبغى وما تريد من حرية ومجد . وحضارة وسلطان . وأنها فى ذلك كله قائدة وزعيمة للعالم العربى والإسلامى والشرقى وأنها سوف تشق طريقها بمجرد أن تنال الحرية نحو مكانها التقليدى فى حياتها الإنسانية وهى أن تكون هادية ومرشدة ومعلمة ...

بـدء اليقظـة

كان الضعف قد بدأ يدب إلى سلاطين آل عثمان وبدأ السوس ينخر فى عظام هذه الدولة التى حولت الدين إلى شعوذة ودجل وترهات .. ولاذت بالجمود والخرافات حتى أن مجرد إدخال الأنظمة الحديثة فى الجيش العثمانى كان يعتبر بمثابة الكفر والإلحاد بل لقد دفع أكثر من سلطان رأسه ثمناً لتفكيره فى إصلاح الجيش أو إصلاح الأحوال فى بلاد السلطنة على العموم .. وكانت مصر قد راحت تغط فى سبات عميق وقد نسيت كل أمجادها وكل مكانتها فى العالمين ولم يعد هناك ما يشغل الناس سوى هذه الخلافات والمعارك المستمرة بين هؤلاء البكوات المماليك الذين قسمت البلاد عليهم والذين بدأوا عهد الاقطاع فى مصر بكل انحلاله وتدهوره ..

ولكن هذا السلطان قد ضعف وتضاءل على مر الزمن حتى لم يبق لسلطان تركيا على مصر سوى الاسم فقط وكانت مظهريته الوحيدة تتلخص فى هذا الوالى الذى يبعث به الخليفة كل عام إلى مصر فلا يكاد يصل إليها حتى يقبع فى قلعة الجبل لا يبرحها إلى أن يجىء بدله فى العام التالى ليحل محله وهكذا . أما مصر وحكمها وإدارتها فقد كانت فى أيدى هؤلاء البكوات المماليك الذين اقتسموا الأرض بمن عليها وراحوا يقتتلون فيما بينهم .. وتحالفت المجاعة والطاعون مع المماليك لإفناء الشعب المصرى بحيث لم يزد سكان مصر فى ذلك الوقت عن مليونين أو ثلاثة ملايين بعد أن كانوا قرابة عشرين مليوناً فى عصور المجد والسلطان .

هذا هو ما كان عليه حال مصر فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر : ضعف وذل وفقر وانحلال تام وهو ما جعل قناصل فرنسا يشيرون على بلدهم بغزو مصر واحتلالها مؤكدين أن هذا الاحتلال يمكن أن يتم بحملة صغيرة جداً فلم تلق فرنسا بالها إلى هذه التقارير إلى أن جاء نابليون فآلى على نفسه أن يخرجها إلى حيز التنفيذ .

على بـك الكبيـر

ولقد سبق حضور نابليون إلى مصر محاولة لإنهاض مصر من كبوتها وتأليف وحدتها وإعلان استقلالها وبعث مجدها القديم حيث قام أحد البكوات المماليك وهو على بك الكبير فعمل على توحيد مصر وإعلان استقلالها . وقد فاز بالفعل وحقق مشروعاته .

ودانت مصر كلها لحكومته لولا أن رجاله الأقربين خانوه واغتالوه ففشلت هذه المحاولة الكريمة الباسلة لإنهاض مصر وإعلان استقلالها عن تركيا وشروعها في لعب دورها في العالم الدولي كوحدة مستقلة ذات عز وسلطان يذكّر الدنيا بأمجاد مصر القديمة .

والحق أنه يجب اعتبار حركة علي بك الكبير لا الحملة الفرنسية هي بدء تاريخ مصر الحديث عندما بدأت تشيع فيها الحياة من جديد وتسرى في عروقها روح التطور والنزوع إلى الارتقاء .

الحملة الفرنسية
غزو مصر

مات على بك الكبير وقسمت مصر من جديد بين قتلته وعبيد قتلته الذين عادوا إلى مألوف سيرتهم من الحروب فيما بينهم بالليل والنهار وحبك المؤامرات والدسائس فى الوقت الذى كان فيه الأسطول الفرنسى يخترق مياه البحر الأبيض ليصل إلى مصر ـ هذه الجوهرة اللامعة الملقاة على الثرى وليس لها حام ولا مدافع .

ولقد وصل نبأ هذه الحملة الفرنسية إلى الانجليز الذين كانوا يحاربون فرنسا فى ذلك الوقت فخف الأميرال نلسون قائد الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض إلى مياه الإسكندرية متعقباً الأسطول الفرنسى ولكن من سوء الحظ أن الأسطول الانجليزى وصل إلى الإسكندرية قبل وصول الأسطول الفرنسى فحاول الأسطول الانجليزى أن يمكث فى ميناء الإسكندرية فى انتظار وصول الأسطول الفرنسى ولكن كريم بك حاكم الإسكندرية رفض فى عناد أن يسمح للانجليز بالبقاء فى الميناء يوماً واحداً بل لقد رفض أن يمونهم بالماء والمؤونة اللازمة لمقامهم ولو فى عرض البحر وأعطاهم مهلة قصيرة لكى يبرحوا المياه المصرية جملة وإلا أطلق عليهم النيران وعبثا حاول الانجليز أن يفهموا كريم بك خطر الحملة الفرنسية القادمة ، عبثاً حاولوا أن يقنعوه أن لا قبل للمصريين بمقاومة الوافدين الأجانب . لقد كان كريم بك لا يزال يحمل فى نفسه هذه العقيدة المتوارثة عن عظمة السلطان وعن قوة المسلمين التى لا يجرؤ الفرنجة أن يتحدوها فضلا عن أن يعتدوا عليها .. لقد كان رد كريم بك على الأميرال نلسون عندما خوفه بأن الفرنسيين قادمون «إن هذه هى أرض السلطان» ولم ير نلسون أن يضيع وقته فى هذه المناقشات العقيمة فانسحب على الفور من مياه الإسكندرية ولكن أسطوله لم يكد يتوارى خلف الأفق حتى ظهر الأسطول الفرنسى بحوله وطوله وقد أسرع نابليون بانزال جنوده على البر فى غرب الإسكندرية ولم يحتج سقوط الإسكندرية لأكثر من السير على الأقدام بضعة كيلو مترات لاحتلالها وهكذا بدأ الاستعمار الأوروبى الرهيب بمعناه الحديث لبلاد العرب والمسلمين والشرقيين على العموم .

وبعث حاكم الإسكندرية بالخبر المفجع إلى بكوات القاهرة إبراهيم بك ومراد بك اللذين كانا يقتسمان السلطان فيما بينهما .. فاستغرقا فى الضحك وفركا أيديهما سروراً وحبوراً بهذه الفرصة الذهبية التى أتاحت لهما هذا الصيد الثمين .

جمع المماليك جموعهم وراحوا يختالون على صهوات خيولهم ذات السرج المذهبة التى يكفى ثمن الواحد منها لإغناء مدينة بأسرها .. ركب المماليك خيولهم ولوحوا بسيوفهم الذهبية وكروا وفروا وصرخوا وملأوا الدنيا ضجيجاً وزهواً واختيالا بشجاعتهم وفروسيتهم والحق أن الدنيا لم تعرف فى تاريخها فرساناً أشداء شجعاناً كفرسان المماليك ولكن عصر الفروسية كان قد انتهى . وكان المدفع الحديث والبندقية الحديثة والتنظيم الحديث قد جعل كل هذه الفروسية غير المسلحة طعمة للنيران فلم تستغرق المعركة الأولى بين الفرنسيين والمماليك سوى بضع دقائق حصد فيها المماليك حصداً بنيران مدافع «الكابورال الصغير» كما كان يسمى الجنود قائدهم نابليون . كانت مذبحة رهيبة لم يُذبح فيها المماليك بل ذُبح فيها الشرقُ بأكمله منذ هذه الموقعة حتى اليوم وقد نجحت أوروبا فى استعباد الشرق الذى لا يزال يرسف فى أغلال العبودية حتى اليوم .

لم يحتج إتمام فتح مصر إلا إلى معركة قصيرة ثانية عند إمبابة وفى هذه المعركة كانت مفاجأة الأسلحة الفرنسية الجديدة قد زالت عن المماليك فحاربوا الفرنسيين بشجاعة وبسالة هذه المرة ، وقد كادت تدور الدائرة على الفرنسيين لولا ذلك المدفع الرهيب .. لولا هذه الأسلحة الحديثة الفتاكة لولا هذه التكتيكات الجديدة التى لا عهد للشرق بها من قبل فانهارت مقاومة المماليك بعد بضع ساعات من نشوب المعركة وفتحت مصر على مصاريعها لغزو نابليون ووطأت الجيوش الأوروبية لأول مرة أرض القاهرة وهى نشوى بخمر النصر فلا ينبغى أبداً أن ننسى للفرنسيين أنهم أول من دنسوا بلادنا وانتهكوا حرمة استقلالنا .

وذعرت القاهرة وهى ترى هذه الجنود الأفرنجية ذات الملابس الغريبة تجتاز شوارع القاهرة وبدأت المدينة الكبيرة تستيقظ وبدأ الشعب العريق يفيق من سباته العميق تحت ضغط الحوادث وبسبب هول هذه الصدمة القاسية المضنية

كانت القاهرة ، قد تذهزت من مكانتها الأولى ، كعاصمة للشرق وكإحدى حواضر الدنيا التى تشع بالنور والعرفان . وكانت تشبه فى ذلك الوقت أن تكون قرية كبيرة من قرى الريف بالنسبة للمدن الحديثة الكبرى . كانت شوارعها مسقوفة لا ينفذ إليها النور

وضيقة لا تتسع لمرور الناس إلا فرادى فى كثير من الأحيان .. تغص بالقاذورات وجيف الحيوانات المتنة ..

كانت سحب الأوبئة والطاعون تخيم فى سمائها وتمتزج بهوائها وكان من مناظرها المألوفة أن ترى بعض الرجال يسيرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم فإذا سألت عنهم قيل لك إنهم من أولياء الله الصالحين . كان الناس يعيشون فى الخطيئة والرذيلة باسم الدين .. وكان البؤس والشقاء يخيم على جمهور الناس ومع ذلك كله فقد كان قلب المصريين لا يزال خفاقاً فاستشعروا المهانة لهذا الوافد الأجنبى يطأ أرض بلادهم المقدسة فغلى الدم فى عروقهم وانتشر السخط فى نفوسهم وهبت غرائز الكفاح فيهم تدفعهم لطرد هذا المستعمر الأجنبى .

خُدِعَ نابليونُ فى بادئ الأمر بمظهر الشعب المسالم وظن أن فتح مصر قد انتهى بكسر المماليك وأنه قد أصبح سيد البلاد المطاع وبدأ يرسم خطته على أن يجعل من نفسه معبود الشعب المصرى الذى لن يلبث أن يسجد له عند مروره ويقبل التراب المتساقط من نعليه .. وظن نابليون أنه فى غير حاجة لتحقيق هذا البرنامج إلا أن يعلن إسلامه فراح يرسل النداء والبيان تلو البيان متحدثاً عن مصر العظيمة وتاريخها ومجدها وبجدارة المصريين والمسلمين بالعز والسلطان . وأعلن أنه سيشرك الشعب فى حكم نفسه فألف لذلك مجلساً من العلماء وأكابر القوم ليستعين بهم فى حكم البلاد . وظن أنه سيبهر المصريين وهو يحدثهم عن مظاهر الديمقراطية الحديثة من حرية وإخاء ومساواة وشورى بين نواب البلاد وأن المصريين سيحتاجون إلى عدة قرون ريثما يفهمون معنى الحرية والإخاء والمساواة ومعنى الحكم الديمقراطى ولكن سرعان ما أدرك نابليون ـ وبعد أسابيع قليلة من استقراره فى مصر ـ أن كل آماله فى التقرب إلى هذا الشعب قد خابت وأنه يلعب بالنار إذ يحدث القوم عن الحرية والمساواة وعن حق ممثلى الشعب فى التحدث باسمه .. فقد انقلب هذا المجلس من العلماء والأعيان فى عشية وضحاها إلى مجلس نواب حقيقى كأعرق ما تكون عليه مجالس النواب وفوجىء نابليون بأعضاء هذا المجلس من العلماء يقفون فى وجهه ويعترضون مشيئته بل ويحتقرون وسام (اللجيون دونير) ـ جوقة الشرف ـ الذى قلده للبعض منهم فاذا بهم ينزعونه عن صدورهم فى حضرته فى تقزز واشمئزاز لأن حمله لا يتفق وكرامة العلماء . صعق نابليون لهذه الروح التى لم يهزمها فى نفوس القوم انتصاره على المماليك وأدرك أنه بإزاء شعب عريق مجيد إذا كان السبات قد

دب إليه فى فترة من الفترات فانه لا يلبث أن يستيقظ ويستأنف حياته أكثر ما يكون نشاطاً وإبداعاً .

ثـورات القاهـرة والأقـاليم

استقر نابليون فى القاهرة ولكن هل دانت له مصر كلها ؟ اللهم لا .. فقد كانت عزيزة الجانب لم تحن رأسها بعد وكان لابد لإكمال غزوها من معارك وحروب تسيل فيها الدماء .. لقد كان الصعيد لايزال مغلقاً فى وجه السيطرة الفرنسية لا يعترف بنابليون وحكم نابليون فكان على نابليون أن يفتح الصعيد فهيأ لذلك حملة قوية زودها بأسطول نهرى ضخم ووضع على رأسها قائداً من ألمع قواده وهو الجنرال ديزييه . ولم يكن هناك مماليك لمقابلة هذه الحملة هذه المرة ولكن كان هناك الشعب المصرى بأكمله شيباً وشباناً ورجالا ونساء كهولا وأطفالا .. وما أروع جهاد المصريين لهذه الحملة وما أمجد هذه الصفحات التى يسجلها التاريخ المصرى لمقاومة المصريين لحملة ديزييه على الصعيد لقد كان على هذه الحملة أن تشق طريقها نحو الصعيد شبراً شبراً وأن تقهر المصريين فرداً فرداً .. لم يجدوا قرية واحدة على استعداد لأن تستسلم لهم إلا بعد حرب دامية طاحنة يطلق فيها القرويون آخر رصاصة يملكونها ويستنفدون آخر حيلة فى جعبتهم لمقاومة الغاصب ومحاربته فإذا لم يبق بأيديهم غير الفؤوس والعصى والسيوف والحراب أشهروها فى وجه الجيش الفرنسى الذى كان يبادر بالتهديد بحرق القرية عن بكرة أبيها . وهنا لا يسع الناس إلا أن يستسلموا لينقذوا أطفالهم ونساءهم ولكن إلى حين . إذ لا تكاد الحملة الرئيسية تغادرهم إلى قرية تالية أو مدينة أخرى حتى يهب أهل القرية المستسلمة من جديد فيذبحون حراسهم الذين تركهم ديزييه بين ظهرانيهم ويعلنون من جديد التمرد والعصيان .

وسارت حملة ديزييه على هذه الوتيرة متتبعة مجرى النيل نحو الجنوب حتى إذا وصلت تجاه أسيوط انتهز المصريون فرصة ابتعاد الحملة عن الأسطول النهرى فانقضوا عليه وأحرقوه وأغرقوا كل ما كان فيه من مدافع وذخيرة وعدة وسلاح وتموينات فكانت هذه ضربة قاضية قصمت ظهر الحملة الفرنسية فى الصعيد واعتبرت نكبة لا تقل خطورة عن نكبة إغراق الأسطول الفرنسى فى مياه أبى قير على يد نلسون أميرال البحر الانجليزى . وهكذا تحولت هذه النزهة النيلية كما كان نابليون يتصورها إلى مقبرة للجيوش الفرنسية مما

جعل نابليون يدرك أن الشعب المصرى لا يضمر له سوى العداء الشديد وأنه لن تهدأ له ثائرة حتى يقضى على نابليون ومن معه ولذلك فقد عدل نابليون عن سياسة المجاملة والملاينة والمخادعة واصطنع القسوة والشدة والبطش فى معاملة المصريين ليحملهم على الخوف والرعب منه ، ولكن الشعب اليقظ لم يعبأ بهذا الأسلوب الجديد ومضى فى كفاحه العنيف ضد نابليون .

وقد حدث أن فكر نابليون فى غزو فلسطين والشام ليضرب الجيش التركى القادم لمحاربته فى مصر ولكنه وقف أمام أسوار عكا عاجزاً عن فتحها وطال عليه الأمد وتفشى المرض فى جنوده وجاءته الأنباء من مصر أنها تغلى بالثورة غلياناً وأنه إذا لم يبادر بالعودة فربما قطعت عليه خط الرجعة فأسرع نابليون إلى مصر فاستقبلته القاهرة بثورتها الأولى الرهيبة ويالها من ثورة قام بها شعب أعزل من كل سلاح أبى أن يستكين وأن يرضى بالاحتلال الأجنبى فهب يطالب بحريته فى وجه الحديد والنار والتحريق والتدمير واختص نابليون الأزهر بنقمته فسلط عليه المدافع وهدمه على من كان فيه تهديماً .. وراحت مدفعية نابليون الفتاكة تضرب على غير هدى فتدك البيوت على من فيها من النساء والأطفال ولم يكن لدى المصريين ما يقاومون به هذه الأسلحة المخيفة فاضطروا اضطراراً إلى الهدوء والاستقرار والسكينة ولكن نابليون أدرك بثاقب بصره أن ذلك كله ليس إلا هدوءاً ظاهريا وسكينة مؤقتة وأن روح المقاومة لدى المصريين قد انطلقت من عقالها ونشطت وأن كل ما بناه نابليون من آمال على حملته فى مصر وتأسيس امبراطورية تكون مصر قاعدتها بمساعدة الشعب المصرى ، كل ذلك قد انهار ولم يبق أمام نابليون إلا أن يفكر من جديد فى فرنسا وكيف يرجع إلى فرنسا بعد أن كان الشرق هو أمنيته الوحيدة فى هذه الحياة وبعد أن كان الاسكندر المقدونى هو أكبر مثال يستهويه وينسج على منواله .

هرب نابليون فى سفينة فرنسية عائداً إلى فرنسا بعد أن فشل فى تحقيق أحلامه ولم تكن مدة الحملة الفرنسية فى مصر بعد سفر نابليون أياماً معدودة وانحصرت مهمة كليبر خلف نابليون فى كيفية تنظيم الخروج من مصر .. ولقد استطاع أن ينقذ شرف الجيش الفرنسى فى مواجهة الأتراك الذين جاءوا لمحاربته فهزمهم هزيمة منكرة فى عين شمس كما هزم نابليون المماليك من قبل ولكن كليبر والجيش الفرنسى لم يستطيعا كسر شوكة المقاومة المصرية العنيفة التى تجددت فثارت القاهرة من جديد ثورة جبارة اضطر معها كليبر إلى الشروع فى حرق القاهرة بأسرها لكى يتمكن من إخماد الثورة .. ويقول كليبر عن هذه

الثورة فى تقاريره أن القاهرة فعلت المعجزات فقد صنعت المدافع فى مصانع محلية أنشأها الثوار على عجل وكانو يأخذون (الجلل) التى كانت تقذفها عليهم المدافع الفرنسية لكى يصهروها ويعيدوا سبكها قنابل جديدة يقذفونها على الجيش الفرنسى . استطاع كليبر أن يتغلب على القاهرة بعد أن حولها إلى شعلة من النيران ولكنه لم يلبث إلا أيسر الوقت حتى دفع حياته ثمناً لهذا الانتصار الأثيم على شعب مجاهد حر فلاقى حتفه داخل قصره ومقر قيادته ووسط حراسه حيث أرداه سليمان الحلبى قتيلا بطعنة سكين فهلل الشرق بأسره وكبر لهذا البطل المغوار الذى وضع حدًّا لطغيان كليبر وأظهر لفرنسا والغرب أن الشرق لا يزال موطن الفدائية والتضحية والشجاعة والجسارة .

ولم يمض سوى عام واحد حتى كانت مصر قد تطهرت من رجس الفرنسيين الذين غادروا البلاد مذءومين مدحورين حيث حملهم الإنجليز على مراكبهم إلى بلادهم بعد أن جردوهم من كل سلاح وعتاد . وتسجل التقارير الرسمية لهذه الحملة أنها عادت إلى فرنسا بأقل من عشرين فى المائة من الجنود الذين سافرت بهم إلى مصر .. هلكوا على يد المصريين وفى خلال المعارك التى دارت بينهم وبين الوطنيين .

وعادت مصر بعد خروج الفرنسيين منها حرة مستقلة ذات سيادة وسلطان وقد كان لهذه الحملة الفضل الأكبر فى بعثها من مرقدها وإشاعة النشاط والحيوية بين صفوف الأمة ، كانت هذه الحملة بمثابة قارعة أيقظت الخاملين وعلمتهم أن الدنيا تسير وتنطلق نحو الأمام وأن الأفرنج اليوم غيرهم بالأمس وأن الشرق اليوم غيره بالأمس وأنه فقد تفوقه العسكرى والصناعى والعلمى .. أدرك المصريون على ضوء هذه الحملة عمق الهوة التى تردوا فيها ومدى الانحلال الذى وصل إليه المجتمع الإسلامى .

نهضة مصر فى عهد محمد على

تولية محمد على

تحركت مصر العظيمة الجبارة . تحركت مصر الفرعونية العربية الإسلامية .. تحركت مصر ذات الأمجاد والانتصارات فاذا بها تبدأ أروع نهضة نهضتها فى تاريخها الحديث . إذا بها فى عشية وضحاها تنقلب من أمة خاملة إلى أمة قوية ترتجف من صولتها أوروبا بأسرها .

وكانت أول مظاهر يقظة المصريين هى رفضهم أن يعودوا لما كانت عليه مصر من التبعية لتركيا والخضوع لها خضوعاً تاما .. فقد حاول الأتراك أن يستفيدوا من هذا الانتصار الذى أحرزه المصريون بحمل الفرنسيين على مغادرة البلاد وحاول الأتراك أن يعودوا لاحتلال البلاد بجنودهم وعساكرهم وأن يعودوا لكل سلطانهم القديم فى البلاد ولكن الشعب المصرى رفض ذلك بإباء وشمم وطالب بأن يكون هو صاحب الحق الأول فى اختيار حاكمه وقاد السيد عمر مكرم الشعب المصرى نحو الحرية والاستقلال والديمقراطية الحقة الصادقة وتزعم علماء الأزهر الذين كان لهم فضل مقاومة مشروعات نابليون وخططه . تزعموا هذه الحركة الشعبية التى تولى قيادتها السيد عمر مكرم وانضم محمد على قائد الأرناؤوط بالجيش التركى إلى هذه الجبهة الشعبية وراح يتقرب لها ويخطب ودها وينفذ لها مشروعاتها حتى حصل على ثقتهم فاختاروه ليكون والياً على مصر ونائباً عن خليفة المسلمين فى حكمها ولم يسع الخليفة العثمانى إلا أن يرضخ لإرادة الشعب المصرى فيوافق على اختيار الشعب وهكذا بدأت نهضة مصر الحديثة بتولية محمد على بإرادة الشعب وهكذا سبقت مصر كثيراً من دول العالم الغربى فى تأييد معنى الديمقراطية والحرية وحق الشعب فى انتخاب حاكمه وسنرى كيف انطلقت مصر بعد ذلك فى معارج التجديد والإصلاح والرقى والكمال والقوة .

الحملة الانجليزية

خيل للانجليز بعد انسحاب الحملة الفرنسية من مصر أنهم قادرون على النجاح فيما

فشل فيه الفرنسيون وأنهم يستطيعون أن يستولوا على مصر بعد أن عجز الفرنسيون عن الاستيلاء عليها . متصورين أن سبب فشل الحملة الفرنسية يرجع إلى انهزام أسطولها وتحطيمه فى موقعة أبى قير وأنهم ـ وهم الذين يسيطرون بأسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط ـ باستطاعتهم أن يكونوا أصحاب السيادة فى مصر . وكان يمالئهم أحد البكوات المصريين المسمى الألفى بك الذى سافر إلى لندن وأقنع الانجليز أنه لا يحتاج لأكثر من بضعة عشر ألف جندى بالأسلحة الحديثة لكى يستولى على مصر ويمكن للانجليز احتلالها وأنه لا يكاد يضع قدمه على الأراضى المصرية حتى يهب المصريون لنصرته وتحقيق مشروعاته وقد لعب كل ذلك بعقل الانجليز فجعلهم يجهزون حملتهم فى سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال فريزر لاحتلال مصر قلب العالم القديم والجديد ووصلت الحملة سالمة إلى مصر واستطاعت أن تحتل الإسكندرية بالفعل وتقدم فريق من جنود الحملة لاحتلال مدينة رشيد فتربص بهم أهالى المدينة وتركوا لهم الشوارع والحوانيت مفتوحة حتى إذا تفرق الجند فى الشوارع واشتغلوا بالنهب والسلب انقض عليهم أهل رشيد الأبطال فذبحوهم عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم سوى النذر القليل فكانت هذه صدمة هائلة انخلع لها قلب بقية الحملة وقائدها . ولما حاول الجيش الانجليزى أن ينحدر من الإسكندرية جنوباً اصطدمت به القوات المحلية التى اجتمعت على عجل من شمال الدلتا وأوقعت بالانجليز عند مدينة الحماد هزيمة شنيعة قتل فيها منهم عدد ضخم وأسر عدد أضخم .. وقد تم كل ذلك بسرعة عجيبة حتى أن نبأ وصول الانجليز إلى مصر لم يكد يصل إلى القاهرة حتى وصلت رؤوس القتلى وجموع الأسرى فساروا بها وسط شوارع القاهرة التى كانت تغلى غلياناً بروح الوطنية والفتوة والحماسة والتى كادت تجن فرحاً من أنباء هذا النصر الذى غسل عار نجاح الحملة الفرنسية فى الدخول إلى مصر .

وكان محمد على باشا الذى انتخبته مصر والياً عليها فى ذلك الوقت مقيماً فى صعيد مصر حيث كان يقوم ببعض الأعمال فوصلته الأنباء مسرعة متلاحقة وقبل أن يهيىء محمد على نفسه لمواجهة هذا الموقف الخطير وقبل أن يمتطى فرسه ليعدو به نحو القاهرة ليتخذ العدة لدفع هذه الجائحة كانت الأنباء قد وصلت إليه برغبة الانجليز فى الانسحاب من مصر بسلام وتنظيم هذا الانسحاب . وهكذا وصل محمد على إلى القاهرة لا ليعد لمقاومة الإنجليز ولكن ليسجل أنباء اندحار الإنجليز وليوقع هذه الوثيقة التى قبل بها جلاء الإنجليز عن الإسكندرية واحترامهم لاستقلال مصر وسيادتها .

وهكذا طرد الشعب المصرى بجهوده الشعبية لا بجهود الحكومة المصرية أو جهود محمد على نفسه .. طرد الشعب المصرى الإنجليز وقذف بهم إلى البحر كما اضطر الفرنسيين من قبل للجلاء عن أراضيه ونحسب أن ليس فى تاريخ القرن التاسع عشر ــ قرن النهضات الشعبية ــ ما هو أجل وأروع من نضال الشعب المصرى ونجاحه فى الذود عن حريته واستقلاله وسيادته .

محمد على وليد الثورة المصرية

ولم يكن محمد على فى الحقيقة والواقع إلا وليد هذه الثورة المصرية وهذه النهضة الروحية التى نهضتها مصر فى مستهل القرن التاسع عشر . ولم يكن محمد على فى الشرق إلا كنابليون فى الغرب الذى ولدته الثورة فلم يلبث أن عقها وانقلب عليها وإن كان قد فعل ذلك بنية أن يحقق المجد للبلاد وأن ينهض بالأمة .

لقد ارتقى محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب وبجهود زعماء شعبيين من أمثال السيد عمر مكرم ولكن محمد على لم يلبث أن قلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم فنفاه إلى دمياط اتقاء لسطوته ونفوذه بين الجماهير وبدأ محمد على عمله العظيم الخالد على مر العصور والدهور والذى لا يشوبه غير شائبة واحدة هى أن محمد على جعل شخصه محور هذه النهضة الجبارة التى دفع إليها مصر دفعاً ولم يشرك الشعب فى احتمال هذه المسئوليات الضخمة ولو فعل محمد على لما تقوضت دعائم هذه النهضة الرائعة بمجرد أن دب الضعف والوهن إليه .

نهضة مصر

فى أقل من عشرين سنة انتقلت مصر من حضيض الفوضى إلى ذروة النظام والقانون والضبط والربط . فى أقل من عشرين سنة هبت مصر من سباتها العميق لتبهر الدنيا بمجدها وقوتها وجيشها وأسطولها وحيويتها ولم يكن عدد سكان مصر يتجاوز الثلاثة ملايين ولم تكن لها مالية منظمة . ويقدِّرون الحد الأقصى لميزانيتها فى ذلك الوقت بنصف مليون من الجنيهات ومع ذلك فقد استطاعت فى هذه الفترة القصيرة أن تنشئ جيشاً جراراً على أحدث النظم العصرية وأن تجهزه بالأسلحة الحديثة الفتاكة التى صنعت فى المصانع المصرية بأيد مصرية صميمة واستطاع هذا الجيش المؤلف من صميم الفلاحين المصريين

أن يهزم الجيوش التركية وأن يهزم القيادة الألمانية التى ساعدت الأتراك فى معركة نصيبين الفاصلة وأن يؤسس امبراطورية ضخمة كان البحر الأحمر بأكمله إحدى بحيراتها . لقد كان العلم المصرى يرفرف على شواطئه وعلى جانبيه . ولقد وصلت هذه الجيوش المصرية الظافرة إلى صميم الأناضول حيث البقية من الخلافة العثمانية ولو قدر للجيش المصرى أن يصل إلى القسطنطينية ـ وقد كان ذلك أمراً ميسوراً ـ لو لم تتدخل الدول ، لعادت الخلافة الإسلامية إلى مصر ولبعث العالم العربى والإسلامى بعثاً جديداً ولكنا اليوم بعد مائة سنة ونيف من هذه النهضة على رأس دول العالم العظمى الذين يقودون البشر نحو الحرية والإخاء والسلام .

كانت الامبراطورية المصرية التى فتحتها الجيوش المصرية تمتد فى أفريقيا حتى خط الاستواء وكان وادى النيل بأكمله هو قلب هذه الامبراطورية الخفاق وكان شرق البحر الأبيض المتوسط خاضعاً لسيادة الأسطول المصرى وفوجئ العالم ذات صباح بالأسطول التركى يبحر إلى ميناء الإسكندرية ويضع نفسه تحت تصرف وقيادة محمد على وبهذا أصبح لمصر أضخم بحرية فى البحر الأبيض ولم يكد ينقضى شهر واحد من الزمان حتى اهتز العالم لسماع أنباء انتصارات الجيش المصرى المجيد بحيث برهن الفلاح المصرى على أنه سليل هذه الأمجاد العسكرية وأنه يوم أن يعطى السلاح والنظام يصبح أعظم جنود العالم طرًّا ، وحسب المؤرخ أن يشير إلى معركة قونيه ونصيبين حيث لمع اسم الجندى المصرى فى سماء المعارك الحديثة كآية من آيات البطولة والشجاعة والتضحية .

ولم يكن نصيب مصر فى التطور العلمى والصناعى والاجتماعى بأقل من نصيبها فى التطور الحربى والعسكرى بل إن المؤرخ ليحار أشد الحيرة أى الناحيتين من النهضة المصرية كان أبعد شأواً وأعظم خطراً فلقد أنشئت فى مصر المدارس العالمية فى الطب والهندسة والحربية والصناعة والفنون على آخر ما وصلت إليه المدارس فى أوروبا بحيث أنها أخرجت من النبغاء والممتازين فى مختلف هذه الفروع ما يزيد على أضرابهم فى أوروبا وأنشئت فى مصر المصانع الحديثة التى استطاعت أن تنشئ أسطولاً بحريا بأكمله وأن تجهزه بكل ما يحتاجه الأسطول . وليس وراء ذلك آية من آيات النهضة الصناعية الكبرى التى نهضتها مصر . أما صناعة المنسوجات بكافة أنواعها فحدث عنها ولا حرج وحسبها أنها مدت هذه الجيوش الجرارة بكل حاجياتها من الألبسة والأردية العسكرية ، وهكذا طفر الصانع المصرى فى يوم وليلة إلى مرتبة الصانع الأوروبى فى صنع المنتجات المدنية .

أى أن مصر قبل أن تظهر ألمانيا المتحدة فى الوجود وقبل أن تظهر إيطاليا المتحدة بل وقبل أن تتم الوحدة الأمريكية بين الشمال والجنوب وقبل أن تبدأ اليابان نهضتها كانت مصر قد بدأت نهضتها فى العصور الحديثة ولو تركت وشأنها لكان لأفريقيا وللعرب والمسلمين شأن غير هذا الشأن الذى هم عليه اليوم ولكنها انجلترا ولعنة الله على انجلترا .. فقد وقفت فى وجه مصر وألبت دول أوروبا على التحالف للضرب على يد مصر فكان لها ما أرادت وسلبت مصر ثمرة انتصاراتها المجيدة وأطفأت نور نهضتها وأهاضت جناحيها وقعدت بها من جديد تمهيداً لأخذها واغتصابها فيما بعد بالدس والمؤامرات والكذب والخديعة .

عداوة انجلترا لمصر

نذالة الإنجليز فى موقعة نفارين ـ مصر تجدد أسطولها انجلترا لمصر بالمرصاد

إنه لحديث يثير الشجون وإنها لذكريات من شأنها أن تملأنا حقداً وبغضاً لهؤلاء الإنجليز الذين حالوا بيننا وبين بلوغ المجد مائة عام كاملة والذين لا يزالون حتى اليوم يخمدون أنفاسنا ويفرضون علينا حياة الرق والعبودية .

لقد رأينا فيما سبق كيف حاول الإنجليز أن يحتلوا مصر بالذات لولا يقظة الشعب المصرى وشجاعته ونجاحه فى طرد الحملة الانجليزية والقذف بها إلى البحر .

ولكن من العبث أن نتصور أن انجلترا قد صرفت النظر عن تحقيق مشروعها فى احتلال مصر نهائيا ، بل لقد حملتها هزيمتها العسكرية على أن تبحث عن أساليب أخرى لتدرك النجاح عن طريقها ، وأى أسلوب ناجح فى يد الإنجليز غير الدس والمؤامرات ونصب المكائد للشعوب الناهضة وتأليب بقية شعوب العالم ضده بحجة أنه خطر على الأمن الدولى والعدالة الإنسانية والديمقراطية ؟ إلى آخر هذه الدعاوى العريضة التى شهدنا نموذجاً منها فى حربين متلاحقتين . وإذا كانت انجلترا قد نجحت فى تأليب أمم أوروبا بل وأمريكا على ألمانيا حتى هزمتها هذه الهزيمة المنكرة فليس لنا أن نعجب كيف نجحت انجلترا فى تأليب دول أوروبا على مصر فى أيام محمد على لحرمانها من انتصاراتها ولتجريدها من استقلالها وحريتها تمهيداً لابتلاعها وتحقيق مشروع انجلترا فى احتلالها .

كانت خطة انجلترا فى تأليب دول أوروبا ضد مصر بسيطة كل البساطة وواضحة كل الوضوح . لقد كانت مصر ذلك الوقت جزءاً من الدولة العلية التى كانت فى النزع الأخير

وكانت دول أوروبا كلها تقف متربصة بهذه الامبراطورية التى تترنح لكى يقتسموا أملاكها فى الشرق والغرب . ولم يكن يبقى من تركيا من شر التقسيم إلا عدم اتفاق الدول الكبرى الأوربية على طريقة هذا التقسيم ونصيب كل منها فيه . فلما نهض محمد على بمصر

هذه النهضة الجبارة وأحرزت الجيوش المصرية هذه الانتصارات الرائعة خشى الإنجليز أن تشيع النهضة فى سائر أنحاء الدولة العلية . والمسلمون والعرب أمة واحدة ، ولو قدر لمحمد على أن يصل إلى القسطنطينية لأصبح هو الخليفة ، ولهبت الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها تظاهر هذا القائد المنتصر ولاستطاع العالم الإسلامى أن يسترد كل سيادته وصولته وهو ما تفعل انجلترا المستحيل لكى لا يقع بأى حال من الأحوال .

خيـــانة نفـــارين

كانت أول ضربة سددتها انجلترا لقوة مصر النامية ما أقدمت عليه من حرق الأسطول المصرى فى المياه اليونانية بخيانة دنيئة قذرة جديرة بتاريخ انجلترا الملئ بالمخازى والآثام . ومجمل الحادث أن تركيا استعانت بمحمد على لإطفاء نيران الثورة فى اليونان التى كانت تابعة لتركيا فى ذلك الوقت فتوجه الأسطول المصرى إلى بلاد اليونان وأنزل بها حملة من الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا استطاعت فى أيام قليلة أن تسيطر على الموقف وأن تخمد الثورة وأن تعيد الأمن والنظام إلى نصابها . وبينما كان الأسطول المصرى رابضاً فى ميناء نفارين إذ دخل الأسطول الانجليزى بصحبة الأسطول الفرنسى بدعوى زيارتها للميناء وقد تبادلا التحية مع الأسطول المصرى بإطلاق المدافع ثم وقفا إلى جواره فى أمان وصفاء ثم فوجئ الأسطول المصرى مفاجأة بمدافع الأسطولين وقد أطلقت نيرانها عليه فأخذ الأسطول المصرى على غرة إذ لم يكن مستعدا وكانت جنوده على البر ولم يدر بخلد قواده أن تحدث مثل هذه الفضيحة والخيانة القذرة فليس من عادة الأمم الصديقة أن تطلق النيران على أساطيل بعضها . ولقد كانت انجلترا فى حالة صداقة مع مصر ولم يكن بين فرنسا و انجلترا وبين مصر حرب أو عداء وإلا لما سمح الأسطول المصرى للأسطولين الإنجليزى والفرنسى بالدخول إلى الميناء والوقوف إلى جواره .. ولكنها انجلترا ، انجلترا الغادرة الخائنة وكفى . وكان طبيعيًّا وقد أخذ الأسطول المصرى على غرة أن يدمر وأن يحرق وأن يغرق كما حدث بالنسبة لأسطول الولايات المتحدة عندما أخذ على غرة فى ميناء بيرل هاربور . وهكذا ضربت انجلترا مصر أول ضربة فى صميم نهضتها ولكن من حسن الحظ أن عزيمة محمد على كانت فى ذلك الوقت قوية فتية وكان الشعب المصرى لا يزال فى مستهل نهضته وكان متعطشاً للمجد والحرية فلم تفل هذه الكارثة من عزمه وإرادته بل على العكس من ذلك كانت بمثابة حافز له على مضاعفة جهوده وأعاد بناء أسطوله على أساس أقوى وأمتن من الأساس الأول بحيث لم تمض سنوات قليلة حتى كان لمصر أسطول يفوق أسطولها المغرق عدة مرات من حيث القوة

والجدة.وعدد القوات المحاربة التى توجد على ظهره . وقد امتاز هذا الأسطول بأنه من صنع مصر وترسانة مصر فكان أروع آية لنهضة مصر .

ولكن انجلترا وقفت لمصر بالمرصاد وكلما أحرزت مصر انتصارات على تركيا كلما ازدادت رغبة فى هزيمة مصر عن طريق تأليب دول أوروبا عليها وإشعارها بالخطر المصرى عليها وتأثيره فى إحباط خطط أوروبا فى التهام تركيا .

وفى غداة انتصار الجيش المصرى الرائع فى معركة نصيبين ـ هذا الانتصار الحاسم الذى فتح طريق القسطنطينية أمام مصر ـ أسرعت انجلترا بحشد أسطولها فى مياه الشام مهددة بقطع خط الرجعة على جيوش مصر وقدمت لمحمد على إنذاراً باسم التحالف الأوروبى مطالبة إياه بسحب جيوشه وأسطوله من تركيا وأعطته مهلة قصيرة جداً ليتم فيها هذا الانسحاب فإن لم يذعن لهذا الإنذار ويلبيه فى المهلة الممنوحة له يحرم من ملك الشام ولا يبقى له سوى ملك مصر وحددت له مهلة أقصر من الأولى وكانت انجلترا تتكلم فى هذه الإنذارات باسم فرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا .

ولقد تجاهل محمد على هذه الإنذارات فى بادئ الأمر ثم لم يلبث أن لباها بعد فوات الوقت فوضع نفسه فى مأزق حرج وضعيف ولو أنه مضى فى تجاهله لهذه الإنذارات وتحدى القوة بالقوة لما جرؤت انجلترا على أن تنفذ وعيدها لأن دول أوروبا كانت مترددة ومنقسمة فيما بينها ، كما ظهر فيما بعد . ولكن محمد على الذى كان قد بلغ فى ذلك الوقت سن الشيخوخة وقف متردداً يلتفت صوب فرنسا ينتظر منها العون والمدد . ولقد كانت فرنسا ـ وستبقى دائماً ـ هى الدولة التى يخسر حليفها دائماً أبداً فلا سياسة مستقرة لها وإنما هى كالمرأة المومس التى لا إخلاص لها والتى تتلون بلون الحرباء . ولعل أحد أخطاء سياسة محمد على الخارجية على طول الخط هو اعتماده على فرنسا واتخاذها حليفة له .

ولقد استمع محمد على فى بادئ الأزمة إلى نصيحة فرنسا فرفض إنذارات انجلترا الواحد تلو الآخر حتى انتهت جميع المدد التى أعطيت له لتنفيذ الإنذارات وفجأة تخلت عنه فرنسا وأفهمته أنها لاتستطيع أن تقف إلى جواره . ولو أن محمد على مضى بالرغم من ذلك فى وقوفه فى وجه انجلترا لما اجترأت على أن تنفذ وعيدها . ولكن محمد على خارت أعصابه فى نهاية الأمر وأعرض عن نصائح ابنه الباسل إبراهيم الذى ظل يحرض أباه على المقاومة . لقد استسلم محمد على فى آخر الأمر وعرض على الإنجليز أن يتركوه والياً على مصر والسودان وأن تبقى ولاية مصر وقفاً على أبنائه وأسرته ولكن انجلترا رفضت ذلك أيضاً بحجة أنه قد جاء بعد

فوات الوقت . وهنا هاج محمد على وماج وأظهر عزمه على الحرب والقتال حتى آخر نسمة فى حياته فتراخت انجلترا - كما هى العادة عندما ترى نفسها أمام خصم عنيد صمم على القتال والاستماتة - وتم الاتفاق على أن تبقى مصر وتوابعها ولاية لمحمد على . ومن بعده لأولاده ولو أن محمد على لم يفكر فى مصلحته الشخصية وفكر فى حرية هذا الشعب الذى رفعه إلى منصة الحكم ووقف إلى جواره إذ كان ضعيفاً - وأنه من الظلم أن يتجرد هذا الشعب من استقلاله ومجده الذى سطره بدمائه لما أذعن للانجليز ولدعا الشعب إلى النضال عن حريته واستقلاله وأمجاده التى أحرزها بقوة السلاح ولظفرت مصر باستقلالها عن تركيا فى عهده .

مأساة قناة السويس
التى شقها المصريون بدمائهم

فى معاهدة سنة ١٨٤٠ سجل الانجليز انتصارهم على محمد على وحولوها من امبراطورية عظيمة إلى دولة تابعة للسيادة العثمانية وإن كانت تتمتع باستقلال ذاتى داخلى .

وقد وصل اليأس بقلب محمد على بعد هذه الهزيمة السياسية إلى حد جعله ينطوى على نفسه ويهمل كل شئونه الداخلية . ولم يستطع أن ينتفع بنهضة البلاد الصناعية ويحولها لخدمة الشعب المصرى ورقيه وتطوره وزيادة رفاهيته فلم يكن محمد على ينظر إلى المصانع إلا باعتبارها ضرورة من ضرورات الحرب والدفاع والهجوم على جيوش الأعداء . ولقد كان محمد على لا يستطيع أن ينظر إلى أمر من أمور هذه الدنيا إلا من خلال الفائدة العسكرية التى تجنى من ورائه .. حتى أن مستشاريه المدنيين الذين رأوا وجوب إنشاء القناطر الخيرية للنهوض بالزراعة فى الوجه البحرى لم يستطيعوا أن يحملوه على إنشائها إلا بعد أن صوروها له بصورة خط من خطوط الدفاع عن مصر . ولذلك فقد أنشئت على صورة قلعة حربية وزودت بالمدافع التى صفت بالعشرات والمئات فوقها . ولذلك عندما كف محمد على عن فتوحاته العسكرية . كف فى نفس الوقت عن الاهتمام بالمصانع والصناعة . بل والمدارس والتعليم . الذى كان بدوره أداة لإخراج الأطباء للجيش والضباط للجيش والمهندسين للجيش . فلما لم يعد هناك جيش لم تعد هناك حاجة إلى مدارس أو مصانع أو مستشفيات . وهذا هو خطر الديكتاتورية وحكم الفرد فلو أن هذه المؤسسات التى ارتفعت فى مصر أيام محمد على قامت على أكتاف الشعب إذن لما ذوت أو اضمحلت ولظلت تؤدى عملها بعد انصراف محمد على عن العناية بها وتفقدها .

رد الفعـــــل

ومات إبراهيم العظيم ومات محمد على وولى عباس الأول وغمرت البلاد موجة من الانتكاس والارتباك . سرت من الحاكم الأول لمصر كلها . فكره المصريون الأجانب والأوربيين وحملهم هذا الكره على أن يكرهوا الصناعة والتعليم وكل ما يمكن أن يتداخل

فيه الأجنبي بسبب . فأُغلِقَتْ المدارس الواحدة تلو الأخرى باعتبارها بدعة أجنبية وأغلقت المصانع وخيم على البلاد سحابة من الهزيمة واليأس تحت تأثير عباس الأول حاكم البلاد . ولعله من سخرية القدر أن ينشأ فى مصر فى عهد ذلك الحاكم الرجعى أول خط سكة حديد فى العالم - إذا استثنينا ما أنشئ فى انجلترا فقد تقدمت شركة ستيفنسون مخترع قطارات السكة الحديد وعرضت على مصر أن تنشئ خطًّا حديديًّا بين مصر والاسكندرية فأُنشئ الخط الذى يعتبر مظهراً من مظاهر التطور والعمران الحديث فى فترة كان المصريون فيها قد كفروا بكل نهوض أو تطور .

ولـكن ..

ولكن كان من المستحيل أن تعود مصر إلى غفوتها الأولى التى سبقت هذه النهضة الرائعة . كان من المحال أن تعود مصر كما كانت قبل الحملة الفرنسية وقبل نهضة محمد على كمًّا مهملاً لا شأن لها فى حياة البشرية . فقد كانت سنن الطبيعة تأبى ذلك وتحول دون وقوعه . فالطبيعة فى تطور وانطلاق نحو الأمام ، وكانت مصر قد برزت على مسرح الحوادث العالمية وما كان العالم ليسمح لها من جديد أن تعود إلى زوايا النسيان .

وبدأت محاولات استعمار مصر وإدخالها فى دائرة النفوذ الانجليزى والفرنسى تلفح وجه الحياة المصرية .

ومن ناحية أخرى بدأ أثر الصدمة التى أصابت مصر يخف على مر الزمن وبدأت مصر تنهض من كبوتها وتطل من جديد برأسها على العالم تواصل تطورها وارتقاءها كما هى سنة الحياة .

مات عباس الأول أو بالأحرى قُتِلَ وَوَلِىَ من بعده سعيد باشا فبدأ يُعنَى بالجيش من جديد ويعمل على رفاهية الشعب ويعتز بقوميته المصرية البحتة . وكان يمكن أن يمضى سعيد باشا فى تاريخ مصر مشكوراً ممجداً باعتباره أول حاكم فكر فى رفاهية الشعب وبدأت البلاد فى ظله تفيق من غشيتها كما قدمنا ، لولا أن التيارات العالمية التى بدأت تهب على مصر قد أغرت سعيد باشا بأن يستدين من الأجانب فانفتح على مصر ذلك الباب من الشر المستطير - كما استطاع دليسبس الفرنسى أن يحصل منه على امتياز قناة السويس فبدأ ذلك العمل الذى عم الدنيا كلها بالنعمة والخير إلا مصر والمصريين ، حيث لم يصبهم إلا بالنقمة والشر . وقد كان مقدراً لقناة السويس أن تعيد لمصر كل مركزها وخطورتها فى حياة العالم إذ

جعلت من مصر همزة الوصل بين الشرق والغرب كما كان شأنها فى كل عصور التاريخ ولكنها أفقدت مصر فى ذات الوقت آخر ظل من الاستقلال فمذ منح سعيد باشا دليسبس هذا الامتياز وقد فتحت مصر على نفسها باب التدخل الأجنبى الذى لم ينته إلا بعد أن تحول التدخل إلى احتلال لا تزال ترزح تحت نيره حتى الآن .

نكبة قناة السويس

منح سعيد باشا امتياز حفر قناة تشق أرض مصر وتربط البحرين الأبيض والأحمر بعضهما ببعض وقد كان المشروع يبدو فى ذلك الوقت مشروعاً جنونيًّا أو مشروعاً خياليًّا مشكوكاً حتى من المتفائلين فى إمكان تحقيقه فضلاً عن معارضة الدول ولا سيما انجلترا بوجه خاص ومع هذه الصعوبات والمعارضات فقد منح سعيد امتياز حفر القناة لدليسبس . منحها له بالمجان بل وتكفل له فوق ذلك بإلزام الحكومة المصرية بأن تقدم له مالا يقل عن عشرين ألف عامل لإتمام العمل ومنحه حق تملك الأراضى التى تسير فيها القناة ومنحه فوق ذلك عدة امتيازات ومنحاً يكاد الإنسان أن يجن إذ يطالعها خصوصاً بعد أن رأينا كيف كانت هذه القناة هى سر نكبات مصر حتى الآن .

ولولا ذلك الامتياز والمنح التى منحها سعيد لدليسبس من دم الشعب المصرى ومن جهوده ودمائه لما استطاع دليسبس أن يجد فى الدنيا كلها من يقرضه قرشاً واحداً للمساهمة فى مشروعه .. ولولا المنح لما كانت قوة على ظهر الأرض تحلم بامكان الشروع فى تنفيذ هذا المشروع .

ومات سعيد وأعقبه إسماعيل وأدرك ما فى شروط الامتياز الذى حصل عليه دليسبس من غبن شديد على مصر والمصريين إذ كان على مصر أن تدفع كل الغرم بينما يحصل الأجانب على كل الغنم . كان على مصر أن تحفر القناة بدم أبنائها وعظامهم على سبيل السخرة والإلزام فإذا تم المستحيل وشقت القناة لم يكن لمصر سوى لعق الأصابع وتناول الفتات .

اعترض إسماعيل باشا على شروط الامتياز المجحفة بالمصريين وكان من حقه أن يعترض وكانت الدنيا كلها وعلى رأسها انجلترا ـ التى كانت تعارض فى شق القناة ـ تقف فى صفه ولو أن إسماعيل وقف فى رجولة وحزم ضد دليسبس وامتيازاته لاستطاع أن يحصل لمصر على

مغانم كثيرة وأن يجنب الشعب المصرى ما تحمّله من آلام فى سبيل حفر هذه القناة ولكن إسماعيل فى نهاية الأمر كان رجلاً فرداً يعمل بإمرة إرادته وأهوائه الشخصية وكان من هؤلاء الحكام الشرقيين الذين ينخدعون بالأوروبيين ولا يفترضون فيهم الخسة والدناءة فقبل أن يحتكم إلى امبراطور فرنسا بين مصر وشركة فرنسية ، حكم الامبراطور نابليون بين الشعب المصرى وبين جناب الخواجه دليسبس . وإليك ما حكم به الامبراطور العادل النزيه الذى وثق به إسماعيل باشا وارتضاه أن يكون حكماً بين الشعب بأكمله من ناحية وبين فرد من رعايا هذا الامبراطور من ناحية أخرى .

صدر حكم أمبراطور فرنسا فى ٦ يوليو سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بأن ترجع ترعة المياه الحلوة للحكومة المصرية وأن تدفع الحكومة فى نظير ذلك ١٦ مليون فرنك وأن لا يبقى للشركة من الأراضى إلا ٣٠٠٠ هكتار بعد أن كان لها ٦٣٠٠٠ هكتار وتأخذ الشركة فى مقابل ذلك ٣٠ مليون فرنك تعويضاً عن عدم توريد الأنفار وبذلك بلغ مجموع التعويض الذى قضى به الأمبراطور على مصر هو ٨٤ مليون فرنك ودفعتها مصر للخواجة دليسبس لتسترد بعض أراضيها وحقوقها التى اغتصبها دليسبس من سعيد باشا فى غفلة من الزمان والناس .

ولقد كان ذلك حكماً مشيناً ومزرياً للذين قبلوه . ولو لم يقبلوه لما كانت هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تحملهم على قبوله ولفشل مشروع القناة ولأنقذت مصر حريتها واستقلالها . ولكن هذه المبالغ الهائلة التى دفعتها مصر لدليسبس مكنته من المضى فى مشروعه وأنقذت الشركة من خراب محقق .

وتم المستحيل . وشقت القناة . وهكذا قام الشعب المصرى بعمل المستحيل . ولا عجب فى ذلك أو غرابة فالأهرام كانت إحدى عجائب الدنيا والشعب الذى بنى عجيبة الأهرام لم يكن يعجزه أن ينفذ أعجوبة القرن التاسع عشر وهى شق قناة السويس .. وتلاقى البحران على أديم مصر وحق على الدنيا أن تبارك المصريين الذين ربطوا الشرق بالغرب وساهموا فى عصر السرعة بأكبر أداة لتحقيق السرعة فى البحار . وكان على الدنيا أن تنحنى إكباراً لهذا الشعب الذى قدم من أبنائه خمسين ألفاً ماتوا فى حفر هذه القناة ولكن أوروبا الغادرة الفاجرة قد أبت على مصر كل حق فى التكريم والتبجيل بل كافأتها على عملها المجيد مكافأة سنمار فسلموا عيون المصريين التى أبصرتهم الحياة وقطعوا الأيدى التى عبدت لهم طريق النجاح وهيأت لهم المجد والسلطان .

ويقوم الآن على مدخل قناة السويس تمثال ذلك الأفاق دليسبس كرمز على إذلال مصر وامتهانها . وينبغى أن تأتى الساعة التى يزال فيها هذا التمثال من مكانه ليرفع على قاعدته تمثال العامل المصرى والفلاح المصرى الذى روى الأرض بدمائه ثم حفرها بعظامه ولولا ذلك لما كانت هناك قناة السويس .

عهـد اسمـاعيل
فضيحة الديون والتدخل الاجنبى

ازدادت خطورة مصر بالنسبة للامبراطورية الإنجليزية بعد شق قنال السويس . وإذا كان نابليون قد فكر فى ضرب الامبراطورية الإنجليزية باحتلال مصر قبل شق قنال السويس فقد كان مثل هذا الاحتلال بعد تمام فتح القنال بمثابة حكم الإعدام على هذه الامبراطورية العتيدة ولذلك فقد آلى الإنجليز على أنفسهم أن لا يستقر لهم قرار حتى يخضعوا مصر لسلطانهم ويحتلوها بجنودهم فبدأ نشاط السياسة الإنجليزية يتجه بكل قوته نحو مصر وأصبح احتلال مصر هو غاية انجلترا الكبرى التى تتضاءل إلى جوارها كل غاية ويهون فى سبيلها كل جهد ومشقة .

على أن الدرس الذى تعلمه الإنجليز من محاولتهم الفاشلة فى سنة ١٨٠٧ حيث نجح المصريون فى طردهم شر طردة جعلهم يحاذرون فى خططهم هذه المرة ولا يضربون ضربتهم إلا بعد أن يتأكدوا كل التأكد من نجاح محاولتهم .

ولقد كان السر فى حبوط محاولاتهم الأولى هو يقظة الشعب وتعاونه تعاوناً تامًّا مطلقاً مع الجالس على عرش مصر الذى ارتفع إلى الحكم بإرادة الشعب ، فليكن سبيل الإنجليز لاحتلال مصر هو هدم هذه الوحدة بين الشعب والعرش من الداخل ، وليكن سبيل الإنجليز لاحتلال مصر هو إشاعة الفوضى فى البلاد وبذر بذور الشقاق والفتن عن طريق اضعاف مالية البلاد وإنهاكها بالضرائب وتكبيلها بالديون وسيطرة الأجنبى على كل كبيرة وصغيرة من شئونها . وليكن سبيل الإنجليز لاحتلال مصر أولا وأخيراً هو تملكهم للقناة بالحصول على أكبر عدد ممكن من أسهمها والمطالبة بعد ذلك بحماية مصالحهم وصيانتها .

هذه هى خطة الإنجليز التى رسموها لاحتلال مصر بمجرد أن تم الاحتفال بافتتاح قناة السويس ولقد نفذوا خطتهم فى دقة وإحكام وساعدهم على تنفيذها غفلة إسماعيل الذى كان حاكما مستبدا يحكم على طريقة حكام العصور الوسطى . حيث كان الحاكم هو كل

شيء : هو القانون وهو الدستور وهو مالك الناس الذى يتصرف فيهم وفى أقدارهم وفى أموالهم كما يشاء ويختار بغير معقب على حكمه ومشيئته .. والويل للمجتمع والشعب إذا زل هذا الحاكم أو أخطأ أو أساء السيرة . ولعل فيما أصاب مصر أعظم عبرة لمن يريد أن يعتبر حيث فقدت حريتها واستقلالها وكرامتها وثروتها وتحولت من امبراطورية شامخة وارفة الظلال إلى أمة ذليلة مستعبدة فقيرة جائعة مهيضة الجناح وكل ذلك بسبب ارتباك الحاكم الفرد وسوء تصرفه حيث لا ناصح ولا مستشار ولا رقيب من الشعب والجماعة .

كان إسماعيل يؤمن بما آمن به جده من قبله ، وهو أن مصر ينبغى أن تبعث كما كانت فى القديم امبراطورية شامخة تقود العالم العربى والإسلامى كله وتقوم بتمدين القارة المظلمة ، ونعنى بها قارة أفريقيا ولقد عمل إسماعيل وجد واجتهد ، وعدا بأسرع مما كان يؤمل ولكن جواده لم يلبث أن كبا به فوقع وتعثر وتعثرت مصر كلها بعثاره ودفعت الثمن غالياً لأخطائه وارتباكاته .

خطة إسماعيل

طمع إسماعيل أول ما طمع فى الحصول على استقلال مصر وعلى صيرورته ملكاً مستقلاً عليها وأراد أن لا يسلك سبيل جده لتحقيق هذا الغرض فلم يلجأ إلى السلاح والجيش ولكنه لجأ إلى أسلوب ملتو غير محمود العاقبة كان حقيقاً وقد بدأ به أن ينتهى إلى ما انتهى إليه من نكبات على شخصه وعلى شعبه بأكمله . اختار إسماعيل طريق الرشوة للحصول على استقلاله وزيادة نفوذه وسلطانه فعمد إلى رشوة حكام تركيا وعلى رأسهم الصدر الأعظم بل وصل إلى حد رشوة الخليفة نفسه وغمره بالمال والهدايا لكى ينزل له عن بعض ما يريده إسماعيل من الاستقلال والنفوذ وحرية التصرف فى شئون مصر . وقد كان حريًّا بإسماعيل أن يدرك أن الانحلال إذا كان قد وصل برجال الحكم فى تركيا إلى مثل هذه الدرجة من الفساد فإنه من خطل الرأى الاعتماد عليهم أو الاستناد فى تصرفاته على ما يصدر منهم من قرارات أو فرمانات . فإنه كما استطاع أن يرشوهم للحصول على ما حصل عليه . فإن بقدرة أعدائه وخصومه أن يفعلوا مثل ما فعل وأن يهدموا عن طريق الرشوة كل ما بنى وهو ما حدث بعد ذلك بالفعل . ومما يزيد فى خطورة هذا الأسلوب للحصول على زيادة سلطانه فى مصر وحريته فى التصرف أنه لجأ الى الاستدانة للحصول على الرشاوى والمنح التى كان يقدمها لحكام تركيا وخليفتها .

والاستدانة هى آفة إسماعيل الكبرى وهى الصخرة التى تحطم عليها آخر ظل لاستقلال مصر وهى الثغرة التى نفذ منها الإنجليز لاحتلال البلاد فأضحت مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى وإن أخذت فى الظاهر شكلاً غير ذلك الشكل .

فضيحة الديون والإسراف

كان إسماعيل يستدين ، ويستدين من يهود أوروبا فى جنون قاتل إذ كان يقبل كل ما يشترطه الدائنون عليه من شروط وكان يدفع كل ما يطلب منه من الفوائد الربوية التى كانت تربو فى بعض الأحيان على الخمسين فى المائة إذا حسبت مصاريف الوساطة والنفقات التى تبذل للحصول على الدين . وإن المصرى المطالع لتاريخ إسماعيل ليوشك أن ينفجر من القهر والغيظ عندما يطالع أنباء هذا القرض الكبير الذى عقده إسماعيل بمبلغ ٣٢ مليون جنيه والذى لم يزد ما وصل منه بالفعل إلى يد إسماعيل عن عشرين مليوناً من الجنيهات .

وكانت بعض ديون إسماعيل تنفق فى إصلاحات جديرة بكل تقدير وإكبار كشق الترع وفتح المدارس وإنشاء المصانع ومد السكك الحديدية وتمهيد الطرق وإقامة بعض المؤسسات العامة كدور المتاحف والكتب ووزارات الحكومة والقصور الملكية . ولكن الجزء الأكبر من هذه الديون كان يبذر فى مظاهر البذخ والإسراف الشنيع الذى كان أبرز صفات إسماعيل باشا . فقد بلغ مقدار ما أنفقه على حفلة قنال السويس وملحقاتها ما يناهز الستة عشر مليوناً من الجنيهات حتى لقد ذهل ملوك أوروبا وأمراؤها الذين وفدوا إلى مصر لحضور هذا الاحتفال ، ذهلوا من هذا الذى رأوه والذى فاق آخر ما يمكن أن يجنح إليه الخيال فى تصور مظاهر البذخ والإسراف وحسبك أن تعلم أن إسماعيل قد أصدر أمره إلى تجار مصر أن لا يتقاضوا ثمن ما يشتريه ضيوف مصر من بضائع وأن يتقدموا بكشوف هذه المبيعات لإسماعيل باشا لكى يسدده عن ضيوفه فغنم التجار الأجانب ذلك غنماً كبيراً جدًّا حيث كانوا يقدمون للملوك والملكات والأمراء كل ما يطلبونه ويحسنون لهم ما لديهم من البضائع ثم يتقاضون ثمنه أضعافاً مضاعفة من خزينة إسماعيل لقد أراد إسماعيل أن يدهش ملوك أوروبا وملكاتها وأمراءها بعظمة إسماعيل ومصر ، وقد دهشوا حقًّا من أن يكون على رأس أمة من الأمم حاكم يصل به الأمر إلى أن يستدين من الأجانب ويكبل شعبه بالديون القاتلة لكى يفرش الأرض ذهباً وحريراً لضيوفه من الأجانب

سقطة إسماعيل الكبرى

على أن كل ما فعله إسماعيل من الاستدانة بأفحش الفوائد الربوية وتبذير المال ذات اليمين وذات الشمال ، لا يكاد يقارن إلى جوار هذا التصرف الأحمق الذى أقدم عليه عند ما باع حصة الحكومة المصرية من أسهم قناة السويس وقدرها ١٧٧,٦٤٢ سهماً إلى الحكومة الإنجليزية بمبلغ لا يتجاوز أربعة ملايين من الجنيهات صرفها فى بعض مظاهر بذخه وسداداً لفوائد بعض ديونه . وقد كانت هذه الأسهم هى بعض ما كان يمكن لمصر أن تتعزى به عن تضحياتها ، والنكبات التى جرها عليها إنشاء هذه القناة ، ولكن إسماعيل لم يرحم مصر ولم يرحم الأجيال المقبلة وأسلمهم إلى القهر والموت كمداً ففرط فى هذه الأسهم بهذا الثمن البخس الذى لا يساوى مقدار ما تربحه الآن هذه الأسهم فى بعض الأعوام . وهكذا خسرت مصر «الجلد والسقط» كما يقول العوام ، وأصبحت أجنبية عن القنال ـ وهذه سقطة إسماعيل الكبرى التى لا يستطيع أحد كائناً من يكون أن يدافع عنها بأى لون من ألوان الدفاع .

على أن نكبة بيع هذه الأسهم الكبرى لم تكن من حيث الخسارة المادية بقدر ما كانت من حيث الخطر الذى تعرضت له مصر من جراء هذه الصفقة وشخصية المشترى لها . ولكى ندرك مدى هذه الخطورة حسبنا أن نعلم أن رئيس حكومة إنجلترا قد أقدم عليها مخالفاً قوانين بلاده المالية ومعرضاً نفسه لأكبر جريمة يمكن أن يرتكبها وزير وهى التصرف فى أموال الدولة بدون علم البرلمان وبدون أخذ قرار سابق منه فقد جرت المفاوضات لعقد هذه الصفقة سرًّا وكان الوسيط فيها آل روتشيلد الذين ساوموا إسماعيل على شرائها لحساب الحكومة الإنجليزية حتى إذا تمت الصفقة دفع روتشيلد المال لإسماعيل وتقدم دزرائيلى مزهوا إلى البرلمان الانجليزى وفى يده أسهم قناة السويس وأعلنهم أنه فعل ذلك بدون علمهم ليضمن نجاح الصفقة وأنه قد فعل ما فعل لأجل تحقيق مصلحة الامبراطورية ومجدها وأنه يضع نفسه تحت تصرف البرلمان ليحكم عليه . ولقد حكم له البرلمان بالبطولة فقد حقق مجد الامبراطورية البريطانية وعبّد لها الطريق لاحتلال مصر بشراء هذه الأسهم لأن انجلترا التى لم تكن تستطيع أن تدعى أية مصلحة فى مصر تبرر تدخلها فى شئونها قد أصبح لها بهذه الأسهم عدة مسامير من طراز مسامير جحا تتخذها ذريعة للتدخل فى كل ما كبر أو صغر من شئون مصر إلى أن تأتى الساعة التى تحتلها فيه جملة ، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك بأعوام قليلة .

تراكمت الديون على إسماعيل حتى ناهزت بفوائدها ما يربو على المائة مليون جنيه ومائة مليون جنيه ، فى ذلك الزمن القديم كانت تعتبر مبلغاً ضخماً جدا ، وأصبح عاجزاً كل العجز عن سداد فوائد هذه الديون فضلاً عن تسديد شئ من أصولها . وبدأت انجلترا تنفذ خطتها المرسومة فى الضغط على مصر وإزعاج حكومة إسماعيل وأوروبا كلها وإشاعة الاضطراب والفوضى فى مصر تمهيداً لابتلاعها وبدأت انجلترا مناورتها بدفع فرنسا وتشجيعها للضغط على إسماعيل والإلحاح فى طلب الفوائد المستحقة فى مواعيدها . وعبثاً حاول إسماعيل أن يهيب بضمير الشعوب فى انجلترا وفرنسا وبقية دول العالم ليظهر لها فُحْشَ هذه الديون وأرباحها والأساليب الدنسة التى اتبعت لتكبيل مصر بها .

وكان أكثر ما يضاعف فى خطر هذه الديون أن كثيراً منها كان لمدد قصيرة وحل أوان دفعه ، كما أن الديون كانت لجهات متعددة وكانت كل جهة تطالب باستقضاء حقها فى نفس الوقت الذى تطالب فيه الجهة الأخرى باستقضاء حقها كذلك .

وحاول إسماعيل أن يصلح هذه الحالة بأن يوحد ديونه فى دين واحد طويل الأجل بفائدة معتدلة معقولة وعمل إسماعيل لتعريف الدول الأوروبية سوء حالة مصر وإزهاق الفلاح المصرى وأن من العبث الضغط عليه بأكثر مما هو حاصل ... وأن مثل هذا الأسلوب الذى يتبعه الدائنون سيؤدى بمصر إلى إشهار إفلاسها وتوقفها عن دفع ديونها توقفاً رسميًّا .. ولكن كل ذلك لم يكن له أدنى تأثير فى قلب الدائنين من أبناء الانجليز والفرنسيين الذين تحجرت قلوبهم وكان الانجليز يريدون من سوء حالة إسماعيل فرصتهم الذهبية لتنفيذ خططهم الموضوعة لاحتلال مصر فكانوا يرعدون ويبرقون ويزمجرون لدى كل اقتراح يقترحه إسماعيل لعلاج الموقف فكان إسماعيل يزداد ارتباكاً ويتجه صوب الشعب فيفرض عليه ضرائب جديدة ويبحث خلف موارد جديدة حتى لقد بلغ به الأمر إلى حد أن منح إحدى الشركات الأجنبية امتياز جمع عظام الموتى لاستخدامه فى عمل السماد فى نظير مقابل بخس دراهم معدودات ، وأحسب أن ليس وراء ذلك تدهور يمكن أن تصل إليه حكومة من الحكومات ولكن ذلك كله لم ينفع إسماعيل بشئ « فالصيف ضيعت اللبن » ولم يبق فى البقرة الحلوب إلا الجلد الرقيق على العظم الواهى .. لقد نضب معين الشعب فى ظل الاضطهاد الذى هو النتيجة الطبيعية لحكومة الفرد .

بدء التدخل الانجليزى

وبدأ التدخل الانجليزى فى شئون مصر على صورة إرسال بعثات مالية لدراسة أحوال

البلاد وكانت كالعادة تستتر خلف فرنسا فى تقديم هذه المقترحات ولقد رحب بها إسماعيل باشا الساذج ظناً منه أن هذه البعثات المالية سرعان ما ستتبين عجز مصر عن تسديد ديونها بالشروط القائمة وسرعان ما ستتبين إخلاص حكومة إسماعيل فى عمل المستحيل للقيام بالتزاماتها فرحب بهذه البعثات وفتح بذلك على نفسه وعلى البلاد شرًّا مستطيراً . ولم يكد يقبل إيفاد هذه البعثات حتى وفدت هذه البعثات لمصر تترى عاماً بعد آخر فكانت بعثة جوشن وجوبير الانجليزية الفرنسية ثم بعثة كييف . وكانت هذه البعثات تتمتع بسلطة مطلقة للتحقيق والتنقيب فى شئون البلاد وكانت تلحق بها فرق الجواسيس بل إن هذه البعثات كانت فى طبيعتها بعثات تجسس رسمى .

وبدأت هذه البعثات تعد تقاريرها وتصدرها وتنشرها وكلها تفيض بالقحة والاعتداء على سيادة مصر واستقلالها . وكانت التقارير تبدأ وتنتهى بالقدح فى إسماعيل والتشنيع عليه وكانت هذه التقارير تنتهى دائماً باقتراحات تهدف إلى هدم السيادة المصرية واستقلال مصر . وكان الارتباك والتدهور قد بلغ بإسماعيل إلى حد جعله لا يفكر فى شئ إلا الاحتفاظ بمركزه ومنصبه السامى فكان يلبى كل ما يطلب منه تنفيذه ليحمل الإنجليز على عدم السعى لدى الباب العالى لعزله من منصبه ولذلك فعندما اقترح عليه فى نهاية الأمر أن يرضى بتشكيل مجلس وزراء مصرى يكون فيه وزير فرنسى وآخر انجليزى سارع إسماعيل بقبول الاقتراح وهكذا هدم نهائيا آخر ظل للسيادة والاستقلال المصرى الذى عمل لتحقيقها وبذل فى سبيلها ما بذل .

وتألف أول مجلس وزراء مصرى مسئول عن إدارة الدولة برئاسة نوبار باشا وقد كان ذلك الحدث ـ تأسيس مجلس وزراء ـ جديراً بأن يقابل بالترحاب والارتياح من المصريين لولا أنه تم تحت ضغط الأجنبى واقتراحه ولولا أن هذه الوزارة كانت إنجليزية فرنسية ولم تكن مصرية .

عـزل إسمـاعيـل

ومن المحال أن أستعرض فى هذه العجالة السريعة عن تاريخ مصر كل الأدوار التى مرت فيها هذه المأساة .. والمهم أن الساعة التى رأت انجلترا أن تتخلص فيها نهائيا من إسماعيل باشا قد جاءت فى نهاية الأمر . وجاءت عندما أدرك الإنجليز أن إسماعيل باشا قد وصل إلى درجة اليأس التى جعلته لا يخشى بأسهم ولا يخاف من تهديدهم وأنه بدأ يتجه صوب الشعب المصرى يتلمس منه العون والمدد وأن الشعب قد أسرع لنجدته لأن الشعب

كان قد أدرك منذ أمد بعيد بغريزته الحرة الكريمة مدى العدوان الذى حل بسيادة مصر واستقلالها من جراء هذا التدخل الأجنبى .. كان الشعب بالرغم من كل ما يعانيه من سوء الحكومة المصرية لا يزال يغار على كرامته واستقلاله ولذلك فلم يكد إسماعيل يحوم حول الشعب حتى هرع الشعب حوله فكانت ثورة الضباط الذين ذهبوا إلى مجلس الوزراء واعتدوا على رئيس الحكومة واعتدوا على الوزراء الأجانب ولم يخلصهم من أيديهم إلا حضور اسماعيل بشخصه وإنقاذ الوزراء من الموت ثم بادر فأعلن إلغاء هذه الوزارة واعتزامه الالتجاء إلى الحكم النيابى ودعوة الشعب إلى انتخاب نوابه وتعيين وزرائه .. كانت هذه يقظة من إسماعيل وكانت حركة موفقة لولا أنها جاءت بعد فوات الأوان فلو فكر إسماعيل منذ وقت مبكر فى الاستعانة بالشعب وإيجاد النظم الديمقراطية فى البلاد إذن لاستطاع أن ينقذ نفسه وبلاده من الاحتلال البغيض الذى جاء فيما بعد.

ولكن صحوة إسماعيل جاءت بعد فوات الأوان وجعلت الإنجليز يقررون أن يضربوا ضربتهم وإلا ضاعت منهم الفرصة إلى الأبد فأسرعوا صوب الباب العالى فى تركيا الذى كان ألعوبة فى أيديهم وحصلوا منه على فرمان بعزل إسماعيل عن عرش مصر وتولية ابنه توفيق بدلاً منه .. وهكذا سقط العاهل الذى يقف الإنسان أمام تاريخه حائراً مرتبكاً .. هل يلتمس له المعاذير أم يشتد عليه . هل يقرر أنه أفاد مصر بمقدار ما أضرها ؟ !

الثـورة العـرابية

سقوط إسماعيل ـ نهضة مصر فى عهد توفيق
ظهور عرابى ـ الاحتلال البريطانى

سقط إسماعيل . وإذا كانت هناك عبرة يجب أن نتخذها من سقوطه وأن يستفيد منها كل حاكم فهى أن الفرد مهما بلغ من المقدرة ومهما توفرت لديه الرغبة فى النهوض بمجتمع من المجتمعات .. بل ومهما قطع من شوط كبير فى سبيل تحقيق هذه الغاية فإنه لا يلبث فى ساعة أن يُفسِد كلَّ الذى بناه فى دهر منْ الزمان ، متى كان لا يستند إلى إرادة الشعب فى حكمه وفى إصلاحه . ذلك أن الحاكم المطلق معرض للخطأ ككل إنسان فإذا أخطأ كان خطؤه فاحشاً يؤدى إلى أفظع النكبات فيسقط بين شماتة الناس وكراهيتهم ، لا يمدون يداً لإنقاذه حتى ولو كان فى هلاكه هلاكهم .

أما حكم الجماعة أو بالأحرى حكومة الشعب فمهما كان فيها من عيوب تحول بين المجتمع وبين الإصلاح أو التطور السريع فإن فيه من الضمانات مالا يعرض الشعب لأخطاء مميتة قاتلة .

نهضة مصر وكيد انجلترا

سقط إسماعيل ولكن مصر استيقظت ولو تركت وشأنها لاستطاع الشعب وقد تيقظ أن يصحح من أخطاء إسماعيل فينظم صفوفه ويقوم معوج الحكومة وينهض بالبلاد نهضة جبارة . ولكن انجلترا كانت بالمرصاد لتحول بين الشعب وبين النهوض وإصلاح الحكومة لأن فى ذلك إحباطاً لمؤامراتها التى كانت تهدف إلى احتلال مصر ومع ذلك فقد استطاع الشعب المصرى فى الفترة التى تخللت سقوط إسماعيل والاحتلال البريطانى أن يثبت نضوجه السياسى وأن يظهر اقتداره على معالجة أموره بل وأن يضع أقدامه على سلم النجاح .ولذلك فباستطاعتنا واستطاعة الأجيال المقبلة.كلها أن تنكر على الإنجليز ذلك الادعاء الوقح : أنهم أخرجوا البلاد باحتلالهم من الفوضى وأنقذوها من الإفلاس ومن طغيان الباشوات الذى ما زال موجوداً .

لقد كان توفيق باشا بن إسماعيل هو الحاكم الجديد لمصر فلم يكد يتربع على العرش حتى أدرك أنه لن يستطيع أن يمضى خطوة واحدة فى حكمه إلا بإعلان الدستور وتشكيل مجلس نواب من الشعب لتحكم الأمة نفسها بنفسها . ولكن الكرسى لم يكد يستقر بتوفيق حتى بدأ يقلب للشعب ظهر المجن تحت تأثير تحريض الإنجليز الذين كانوا أعداء لكل إصلاح فى مصر وكل استقرار .

تنكر توفيق للشعب بل وتحداه ولما كانت مصر لا تزال حتى ذلك الوقت مستقلة فقد أدى ذلك إلى ثورة الشعب ممثلة فى رجال الجيش وهم فى كل أمة من الأمم المستقلة خير مترجم لعواطف الشعب فكانت هذه الحركة المشهورة عندما اعتقل زعماء الجيش المنادون بالإصلاح وعلى رأسهم عرابى فى ثكنات قصر النيل فأسرعت فرق الجيش لإنقاذهم ثم زحفت إلى قصر عابدين بأسلحتها وعتادها وطلباتها التى تلخصت كلها فى المطلب الأكبر للأمة وهو إعلان الدستور فلم يسع توفيق إلا أن ينزل على إرادة الشعب فيؤلف وزارة ترضى عنها الأمة وتعهد إليها بإعلان الدستور . وتألفت الوزارة الشعبية . وكان عرابى زعيم الجيش هو وزير حربيتها فأسرعت هذه الحكومة إلى عمل كل ما من شأنه إنقاذ البلاد من الإفلاس والفوضى والخطر الأجنبى بل ووضعت للبلاد دستوراً للإصلاح لو أن الفرصة أتيحت لتنفيذه لكانت مصر اليوم تنافس دول أوروبا وأمريكا عزماً واقتداراً وحسبك أن تعلم أن هذه الوزارة تقدمت لمجلس نواب ذلك الزمان بمشروعى قانونين أحدهما يفرض التعليم الإجبارى على سائر المصريين والثانى يرمى إلى إنشاء بنك مركزى للدولة ليتولى شئون النقد فى البلاد وينظم ماليتها وقروضها واليوم ـ وبعد أكثر من سبعين سنة من تقديم هذين القانونين ـ لا يزال تسعة أعشار المصريين يعيشون فى الجهل فلو نفذ القانون الأول من سبعين سنة لكنا فى مقدمة أمم العالم علماً ونوراً .

أما البنك المركزى فلا يزال حتى اليوم حلماً يداعب خيال رجال الاقتصاد والمال ولا يزال الاحتلال الأجنبى يقف حجر عثرة بيننا وبين إنشاء هذا البنك هذا البنك المركزى الذى يصفونه حقاً وصدقاً بأنه بنك البنوك .

انجلترا تضرب ضربتها

بدأت الأمور فى ظل الحكم الجديد تأخذ طريقها إلى الاستقرار والاستتباب وبدأت الحكومة المصرية القوية المستندة على إرادة الشعب تواجه الدول والدائنين وترد عليهم فى

حزم رافضة أن تكون نهبة فى أيدى الطامعين وتجلت الروح المصرية فى أروع مظاهرها حيث انبعثت من خلال الفوضى والارتباك تكافح الأزمات وتتغلب على المصاعب وتنطلق نحو الأمام .

ولكن انجلترا .. انجلترا اللعينة كانت تقف بالمرصاد . ورأت مناورتها توشك أن تحبط إن لم تبادر بالعمل فبادرت وشرعت تنفذ خطتها فراحت تجهز حملتها على مصر سرًّا وأصدرت أوامرها إلى أسطولها أن يكون مستعدًّا فى كل لحظة لنقل الجنود وإشعال نيران الحرب .

وبدأ ممثلها فى مصر يحرض توفيق على التنكر للشعب وعلى تصوير هذا الذى تم على أنه عصيان وتمرد على سلطة الخديوى يجب أن يقمع بالشدة وأن يلقى العصاة جزاء نكالاً وتعهد الإنجليز لتوفيق باشا أن يؤيدوه فى كل حركة يقدم عليها لإسقاط وزارة الشعب والقبض على عرابى ومحاكمته ومن ناحية أخرى راحوا يضغطون على حكومة الشعب بالاحتجاجات معلنين عدم الاعتراف بهذه الحكومة الجديدة ومهددين ومتوعدين بالتدخل بالقوة للمحافظة على حقوقهم .. ولكن الحكومة المصرية وقفت فى وجه كل هذه التهديدات والاحتجاجات وقفة جبارة جديرة بشعب مجيد حر مستقل وأعلنت الحكومة أنها لا تسمح بأى تدخل فى شئون مصر وأنها ستدافع بالقوة عن استقلال مصر وحريتها .

فلجأ الإنجليز ثانية إلى توفيق يُحَسِّنون له الأمر ويزينون له التنكر للشعب وحكومة الشعب والانحياز إلى جانب الإنجليز حتى إذا اطمأنوا إلى استعداد توفيق وأنه أصبح كاملاً أشعل الإنجليز عود الثقاب لإلهاب الفتنة وخلق الذريعة للاحتلال فكانت هذه المؤامرة المفضوحة المشهورة حيث امتطى بعض المالطيين حميراً استأجروها من بعض المصريين ثم رفضوا أن يدفعوا أجرها فلما طولبوا بالكراء اعتدوا على المصريين اعتداءً شنيعاً فكانت فتنة قتل فيها بعض هؤلاء المالطيين وبعض الأجانب .

ولم يكن الإنجليز يريدون إلا ذلك لكى يبدأوا عملهم ففتحت بوارج الأسطول الإنجليزى الذى كان فى ميناء الإسكندرية مدافعها وصبت النار والحمم على المدينة الآمنة الوادعة فهدموا البيوت على رؤوس أصحابها وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ دون أن تكون بين مصر وانجلترا حرب فاعجب لوقاحة الإنجليز وجرأتهم وهم يشنقون قادة الألمان

وزعماءهم باعتبارهم مجرمى حرب بدعوى أنهمُ قتلوا الأطفال والنساء وأشعلوا نيران الحرب .

ضرب الأسطول الإنجليزى مدينة الإسكندرية كمقدمة لاحتلال مصر فاحتجت الحكومة المصرية بشدة على هذا العدوان وراحت تتهيأ للدفاع عن مصر بتقوية حصّونها وسد ثغراتها وإعداد مدافعها فاعتبر الإنجليز ذلك تحرشاً بهم وتهديداً لسلامة أسطولهم . ولن تجد فى كل تاريخ الدنيا وقاحة كهذه الوقاحة الانجلوسكسونية عند ما يدخل أسطول زائر إلى مياه بلاد أجنبية ثم يصب نيران مدافعه على الشعب الآمن فإذا قام الشعب المعتدى عليه بتحصين نفسه ضد تكرار العدوان اعتبر العدو أن ذلك تحرشاً وتحدياً وإخلالاً بأمن الانجليز وسلام العالم . وكان من المستطاع أن تقيم حكومة مصر الدنيا وتقعدها ضد الاعتداء الأجنبى . وكان من الممكن أن يجد الإنجليز أنفسهم وقد فُضِحوا وأن يضبطوا متلبسين بجريمتهم ، وهى سلب شعب من الشعوب ونهب أمة فى وضح النهار لولا أن توفيق خديو مصر سارع إلى نجدة الإنجليز وتأييد فعلتهم الشنيعة تأييداً أدبيًّا بمغادرته القاهرة إلى الإسكندرية وإقامته بسراى رأس التين . ثم اعلانه خلع حكومته الشرعية وأنها حكومة متمردة عاصية لا تمثل البلاد ثم مسارعته نحو الإنجليز طالباً نجدتهم لحماية عرشه وإقرار الأمن والنظام فى مصر . ومعنى ذلك أن توفيق باشا آثر أن يبيع مصر كلها للإنجليز لكى يحتفظ بعرشه فى الوقت الذى كانت البلاد قد فقدت فيه استقلالها وعزتها وكرامتها . واختار الدخيل الأجنبى بقوة السلاح والنار فأحالها من حالة الحرية إلى حالة الرق والعبودية وداس مجدها وسار على تاريخها ووطأ بسنابك خيله تراث الآباء والأجداد . ولكن توفيق لم يكن يفكر فى شئ من ذلك ، كان يفكر فى أن يكون صاحب الأمر والنهى فى البلاد وأن لا يسمح للشعب أن تكون له كلمة إلى جوار كلمته وإرادة إلى جوار إرادته . وكان من السذاجة والبلاهة بحيث ظن أن هذا الغاصب الأجنبى سيرده إلى سيادته الكاملة وإلى أمره ونهيه . فأصدر منشوراً بعد أن أنزل الإنجليز جنودهم يطلب فيه إلى الناس أن يتعاونوا مع هذه الجيوش الإنجليزية لأنها لا تجئ غازية فاتحة وإنما تعمل بأمر الحاكم الشرعى للبلاد لتوطيد الأمن والنظام ومحاربة العصاة الطغاة من أبناء الشعب الذين خرجوا على طورهم بالمطالبة بالدستور والحياة النيابية ! !

وأسرع الخديوى توفيق بتعيين سلطان باشا قائمقاماً ليسير مع الجيوش الإنجليزية ويدعو المصريين للطاعة لولى الأمر . وقد كان لذلك أعظم الأثر فى إضعاف معنوية البلاد وإخماد كل مقاومة فيها .

وتضافرت الخيانة من الخارج والداخل ... الخيانة التى لطخت شرف دليسبس الدجال بل شرف فرنسا كلها والتى حال بها بين الحكومة المصرية وبين أن تقيم وسائل الدفاع عن القنال متعهداً عهداً قاطعاً أن لا يسمح للإنجليز بالدخول إلى مصر عبر القنال لأن فى ذلك خرقاً للعهود والمعاهدات الدولية . كأن الإنجليز قوم يحترمون عهداً أو ميثاقاً . أوكأن دليسبس نفسه كان رجلاً يعرف للعهد أو الشرف معنى . ولكن عرابى والشعب المصرى بأكمله . وهو لا يزال يحمل فى نفسه آثار الحضارة القديمة . كان لا يزال يقدر الشرف واحترام العهد وقدسية المعاهدات وقد كانت هذه إحدى أخطاء عرابى المميتة وهى الثقة بالعهود والوعود .. وجاء الإنجليز عن طريق القنال وزحفوا نحو التل الكبير يتقدمهم سلطان باشا وحفنة من الباشوات المصريين الخونة الأنذال يدلون الإنجليز على الطريق وينادون فى الشعب بأنهم يعملون بأمر ولى الأمر فى البلاد . وأخذ الجيش المصرى فى التل الكبير على غرة . وإن الإنسان ليتولاه الخجل عندما يطالع أنباء هذه المعركة فإنما هى عشر دقائق أو تزيد قليلاً تبدد على أثرها الجيش المصرى الذى كان مرابطاً فى هذه المنطقة بغير كبير قتال ... لا لأن المصرى جبان أو لأن الجيش المصرى لم يكن بقادر على القتال ولكنها الخيانة والمفاجأة . ولقد رأينا بأعيننا آثارها فى هذه الحرب الأخيرة حيث سقطت جيوش برمتها بل وسقطت دولة عاتية كفرنسا تحت تأثير المفاجأة وهول الصدمة . وليس أدل على شجاعة الجندى المصرى من أن كتيبة من الكتائب استطاعت فى هذه الموقعة أن تجد لها مكاناً تثبت فيه أقدامها ووقتاً تقبض فيه على أسلحتها فكافحت هذه الفرقة الصغيرة حتى ماتت عن بكرة أبيها . كافحت قوات تفوقها عدداً وعدة أضعافاً مضاعفة ولم يكن كفاحها يعنى سوى الموت والفناء . ولكن الجندى المصرى الذى أتيحت له الفرصة لم يفزع من الموت فمات فى ساحة الجهاد رافعاً شرف الجندى المصرى . ولقد اطلعت على تقارير رسمية إنجليزية عن موقعة التل الكبير فوجدت الإنجليز لا يصفونها بأنها معركة فقد أخذ المصريون على غرة فانفرط عقدهم وكان من الممكن أن تنتهى المعركة دون أن يخدش جلد إنجليزى واحد لولا هذه الكتيبة التى صمدت فقتلت من الانجليز وجرحت أضعاف أضعاف عددها ومع ذلك فلم يقتصد الإنجليز فى التذبيح والتقتيل وحشية منهم وولعاً بالدماء ـ كما تشهد بذلك تقارير المعركة .

حـلول الكـارثة

٧٨٢

ودخلت الجيوش الإنجليزية فى نهاية الأمر إلى القاهرة كما لوكانت تقوم باستعراض

حربى ولسنا نحسب فى تاريخ الدنيا كلها أن شعبا قد استعبد بهذا الثمن البخس من الدماء من جانب المعتدى ولا جدال أن وزر ذلك يقع على عاتق توفيق باشا الذى أفهم البلاد والشعب أن الإنجليز ليسوا إلا قوة بوليسية لتوطيد عرشه وأنهم لن يلبثوا أن يبرحوا البلاد إذا استقر الأمر والنظام فأسرعت البلاد إلى الهدوء والاستسلام لتتخلص من هذه الكارثة الأجنبية . ولكن واأسفاه فقد خدع الإنجليز توفيق - وخدع توفيق الشعب - ولم يكن الإنجليز قوة بوليسية ولكنها كانت قوة غازية معتدية آثمة تنفذ خطة دبرتها منذ أكثر من قرن من الزمان لاحتلال البلاد واسترقاق العباد .

* * *

الحركة الوطنيـة

الخديوى عباس ـ مصطفى كامل ـ دنشواى ـ محمد فريد

عندما وقف توفيق باشا فى ميدان عابدين يستعرض الجيوش الإنجليزية الغازية لم يكن يدور بخلده لحظة أن ذلك الاستعراض العسكرى سيكون تقليداً لعشرات السنين المقبلة. لقد كان توفيق باشا يظن أنه يستعرض جيوشاً قد أدت وظيفتها بإعادة الأمن والنظام إلى نصابه وأن هذا الاستعراض بمثابة توديع رسمى ، ولكن الحقيقة المرة صدمت توفيق باشا فأدرك بعد فوات الوقت أنه قد وقع وأوقع مصر فى الفخ فلم يلبث أن مات كمداً وحسرة بعد إذ أُسقِط فى يده ولم يدر كيف يتخلص من هؤلاء المخادعين الغاصبين ، وأدرك توفيق قبل أن يودع هذه الدنيا أن عز الحاكم فى عز شعبه وأن الحاكم يوم أن ينزل على إرادة شعبه فإن ذلك لا ينقص من قدره بل يزيده ، وفى عصرنا الحديث آية فخار الحاكم أن يكون دستوريًّا ديمقراطيًّا يؤمن بأن جميع السلطات مصدرها الأمة.

مات توفيق باشا تاركاً الإنجليز فى مصر وولى من بعده الخديوى عباس وقد ولى الحكم شابًّا ففرحت به البلاد لأن الشاب هو الأمل وهو الطهارة والنضارة ولم يخيب عباس باشا أمل البلاد فيه فقد كان يشتعل حماسة ووطنية وبدأ يناوش الإنجليز ويقف لهم بالمرصاد. ولم يكن احتلال الإنجليز لمصر قد استقر ولم يكن الإنجليز يستطيعون أن يعتبروا لعبتهم قد نجحت بهذه السهولة ، فقد كانت هناك تركيا صاحبة الحق الشرعى للبلاد لا تعترف باحتلال الإنجليز لمصر بل أظهرت عدم رضاها واستنكارها مما حمل الانجليز على أن يؤكدوا للباب العالى المرة بعد المرة أنهم سيسرعون بالجلاء عن مصر. وكانت هناك فرنسا. فرنسا الغادرة اللئيمة والتى لولا دسائسها وسياستها العاهرة المخنثة لما كان الاحتلال الانجليزى. فقد كانت هى التى عملت جاهدة لإرباك اسماعيل والضغط عليه كانت هى البادئة بوجوب التدخل فى شئون مصر رعاية لمصلحة الدائنين. كانت فرنسا تطمع أن تحتل مصر بالاشتراك مع انجلترا ، بهذا الاحتلال غضبت فرنسا وحنقت لذلك ووقفت لانجلترا موقف المستهجن المتربص ... وكانت الدنيا كلها تنظر لانجلترا نظرة الحقد والحسد لإقدامها على استلاب مصر ـ هذه الدرة الثمينة ـ وهكذا وجدت انجلترا نفسها وسط

موجة من السخط العالمى فراحت تعلن فى كل مناسبة أنها عازمة على الانسحاب من مصر وأن احتلال مصر لم يدر لها فى بال وبلغ التبجح بها إلى حد احتجاجها من فوق منصة البرلمان الانجليزى على هذه الأفكار فلطالما صرحت انجلترا أن احتلال مصر يكون معناه الإخلال بشرف بريطانيا التى وعدت وعوداً صريحة قاطعة أن لا تفكير عندها فى احتلال مصر .

لقد دخلت انجلترا مصر لتوطيد الأمن وإقرار النظام بها وهى لن تبقى يوماً واحداً بمجرد استتباب هذا الأمن . ولكن الأيام مرت تتلوها الأسابيع . والشهور كرت تتبعها الأعوام والانجليز فى مصر بنفس الطريقة التى كان بها الفرس فى مصر والرومان فى مصر غزاة وفاتحين ومغتصبين . وكان على مصر أن تفعل بالانجليز ما فعلته بالفرس والرومان والاغريق وهو أن تفنيهم وتقهرهم وتتغلب عليهم بقوة حيويتها ومقاومتها التى لا تكل ولا تلين .

ظهور مصطفى كامل

وظهرت مقاومة مصر فى أروع صورة من صور المقاومة فى العصر الحديث فى صورة شاب من شباب مصر الأمجاد لا يملك سلاحاً ولا مالاً ولا يعتمد على قوة الحديد والنار بل على قوة الحق واليقين .. ظهرت مقاومة مصر فى صورة مصطفى كامل ذلك الشاب الذى لم يكن يملك إلا إيمانه بمصر وعظمة مصر ووجوب تحريرها من ربقة الاستعمار الأجنبى . ذلك الشاب الصغير النحيل الذى تركزت فيه آمال أمة فنهض بالعبء وحمل الأمانة وبدأ ذلك الصراع الروحى بين الحق والباطل الذى لا زلنا نشهده حتى اليوم لأن المعركة لا تزال قائمة بيننا وبين الانجليز حول الأهداف التى نادى بها مصطفى كامل . لقد طلب الجلاء ووحدة النيل وبعد خمسين سنة من دعوته لا يزال الانجليز يسدون علينا السهل والجبل ولا يزالون فى بيوتنا ومدارسنا ومستشفياتنا ولا زالت سياراتهم تدوسنا تحت عجلاتها .

سخر الانجليز من مصطفى كامل عندما بدأ صيحته ، سخروا من شاب صغير لا حول له ولا طول قام يجابه امبراطوريتهم ويتحداها ويتهمها بنكث العهود والاخلال بالشرف . ولكن هذا الشاب كان يدافع عن قضية الحق والحرية فكان قويًّا بقدر ما فى الحق من قوة وما للحرية من سلطان . راح مصطفى كامل يوقظ النائمين ويشد عزائم الحائرين ويبدد

ظلمات اليأس التى رانت على قلوب المصريين . لقد كانت هزيمة عرابى باشا هزيمة ساحقة كشفت عن ضعف مصر الشائن من الناحية العسكرية فأصيب الناس بما يشبه الذهول وحل بهم اليأس ولكن مصطفى كامل ذكر الناس أن المسألة ليست مسألة أسلحة وإنما مسألة حق وباطل وما دام الانجليز معتدين ومغتصبين وما دمنا نحن المعتدى علينا فنحن الأقوى ما تمسكنا بحقوقنا ونحن الفائزون بالعاقبة ما دمنا مطالبين بالجلاء عن بلادنا . .

وسرعان ما استجاب الشعب لإيمان ذلك الشاب وسرعان ما تجمعت حوله عواطف الجيل الجديد وآماله وفى عشية وضحاها تحول مصطفى كامل إلى رمز الكفاح لشعب وادى النيل .

سافر من مصر إلى فرنسا يستغل هذه النقمة التى يحملها لانجلترا ففتحت له فرنسا صدرها ومنابرها وصحفها فبدأ يندد بالإنجليز وسياسة الإنجليز وبدأ يطالب بالجلاء عن أرض وادى النيل . وانتقل من باريس إلى بقية عواصم أوروبا ووصل إلى القسطنطينية عاصمة الأتراك ليشحذ عزائم الأتراك بحملهم على الوقوف إلى جوار مصر فى طلب الجلاء وهناك أنعم عليه الخليفة برتبة الباشوية . فكان ذلك حدثاً أى حدث أن يستطيع شاب من صميم الشعب أن يحصل على هذه الرتبة لا بالدرهم والدينار ولا بالملق والرياء ولا بالوظيفة ولكن بالنبوغ فى الوطنية والاقتدار والكفاءة .. وسافر مصطفى كامل إلى عاصمة الإنجليز أنفسهم يطالبهم بالجلاء .

وبدأ الانجليز يشعرون بوطأة دعاية مصطفى كامل وشعروا بالحرج فراحوا يكررون الوعود من جديد .. انهم سيجلون عن مصر حتماً ودخلوا فى مفاوضات رسمية مع تركيا لوضع معاهدة لتنظيم الجلاء تعهدوا فيها أن يجلوا عن مصر بعد خمس سنوات من توقيع المعاهدة واشترطوا أن يعودوا لاحتلالها إذا اختل الأمن ... وما أشبه الليلة بالبارحة .. ولكن تركيا رفضت توقيع هذه المعاهدة وظل الإنجليز يحانون موقفهم البشع موقف المغتصب الغادر المخادع المنافق .

وهكذا اشتد ساعد مصطفى كامل وقويت الحركة الوطنية وأدرك المصريون أن سلطان الحق فوق كل سلطان وأن الصبر والعزم والمثابرة والإيمان لا بد أن تُكَلَّلَ فى نهاية الأمر بالفوز والنجاح .

وكان الخديوى عباس يؤازره فى دعايته ويناوئ الإنجليز ما استطاع إلى ذلك سبيلاً متمسكاً بحقوقه الشرعية . واستخدم معه الانجليز العنف فى بادئ الأمر مهددين إياه بخلعه

عن العرش إن لم يستجب لمشيئتهم ويعمل دائماً بنصيحتهم ولكن ذلك العنت من جانب الانجليز زاد الخديوى تقرباً من الوطنيين وعلى رأسهم مصطفى كامل .

وهكذا وجد الانجليز أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه . ففرنسا تندد بهم من الخارج . والحاكم الشرعى للبلاد يناوئهم فى الداخل . والشعب المصرى يستيقظ مطالباً بحقوقه . فعمدت انجلترا إلى خطة هجومية لقهر المصريين وغلبهم على أمرهم . فأسرعت إلى فرنسا واتفقت معها اتفاقها الودى المشهور الذى أطلقت فيه انجلترا يد فرنسا فى مراكش مقابل أن تطلق فرنسا يد انجلترا فى مصر وبذلك أمنت جانب فرنسا وأخرجتها من المعركة .

ثم عمدت إلى الخديوى عباس فغيرت من سياستها معه وأظهرت له الود والملاينة فسرعان ما انخدع بدوره بهذه السياسة الجديدة التى أطلقوا عليها سياسة الوفاق فمال إلى جانب الانجليز . وبدأ يتجنب الوطنيين وبذلك فقدوا عضداً كبيراً كانوا يستندون إليه فى داخل البلاد وخارجها .

لم يبق هناك سوى الشعب . حاول الإنجليز أن يستميلوه إلى جوارهم ولكن ما كان لهم أن يخدعوا الشعب عن حريته . هيهات ، هيهات أن ينجح الانجليز فى أن يصرفوا الشعب المصرى عن أهدافه ومطالبه ولذلك فقد فشلوا فى هذه الناحية وكان فشلهم ذريعاً . وكان انتصار الشعب لمصطفى كامل من أروع ما يسجل التاريخ من آيات المجد والفخار .

حادث دنشواى

ويتلخص حادث دنشواى فى أن بعض الضباط البريطانيين خرجوا للصيد فى يونية بقرب قرية دنشواى فعمدوا إلى حمام الأهالى يصطادونه فغضب الفلاحون لذلك . فلم يرعو الانجليز ومضوا فى عدوانهم فلم يلبثوا أن أخطأوا الحمام وأصابوا امرأة أحد الفلاحين كانت تركب النورج فجرحت المرأة واشتعلت النيران فى التبن والنورج فأسرع زوج المرأة إلى الإمساك بتلابيب الضابط المعتدى وأقسم أن ينتزع منه بندقيته وأن يقوده إلى ضابط البوليس . وصاح الإنجليزى وصاح المصرى فأسرع بقية الضباط إلى جوار زميلهم وأسرع سكان قرية دنشواى إلى مكان المعركة فكان تلاحم استخدم فيه الضباط الانجليز أقصى ما لديهم من عنف ولكن كثرة الفلاحين تغلبت عليهم فاضطروا للهرب نجاة بأنفسهم

وكانت الشمس ملتهبة فى ذلك اليوم فسقط أحد الضباط المابين صريع ضربة الشمس فمات ، وكان ذلك كافياً لكى تقوم قيامة الانجليز وتقعد فقد مات انجليزى بسبب المصريين ويجب أن تنتهز هذه الفرصة لكى يؤدب المصريون وينالوا درسا قاسيا يفيد فى مستقبل الأيام فلا يعودون يتعرضون أبداً لسادتهم الإنجليز إلا بتقبيل اليد والأقدام والتسبيح بحمدهم كل صباح ومساء .

قيل للإنجليز وعبيدهم فى مصر إن الإنجليز هم الذين بدأوا العدوان وما كان يصح أبداً أن يصطاد الإنجليز حمام القوم وكان عليهم أن يأخذوا حذرهم بعد ذلك فلا يصيبوا أحداً ...

وقيل لهم إنه كان على الإنجليز أن يقبلوا الخضوع للقانون ما دام الإنجليز هم واضعى هذا القانون والمسيطرين عليه ...

وقيل لهم فى نهاية الأمر إن الرجل الذى مات هو المسئول عن موته لأنه فر هاربا حيث لم يكن هناك ما يدعو لذلك وأنه قد مات من ضربة الشمس كما أثبت الطبيب الشرعى .

كل ذلك قيل للانجليز ... ولكن القوم أصموا آذانهم عن سماع ذلك كله ورأوا أن يلجأوا إلى سياستهم الإرهابية التى اتبعوها فى الهند لكى يقضوا على كل أمل للمصريين فى الحرية أو الاستقلال .

كان الانجليز يريدون حدثاً يتخذونه ذريعة لتوطيد دعائم احتلالهم وإظهار المصريين بمظهر الوحوش المتعصبين الذين لا يستطيعون حكم أنفسهم فظنوا أن حادث دنشواى هو السبب المناسب لكى يضربوا ضربتهم ويلعبوا لعبتهم فراحوا يملأون الدنيا صراخاً وتهويلاً متحدثين عن تعصب المصريين الدينى ووحشيتهم وأسرعوا بتأليف محكمة مخصوصة لمحاكمة أهالى دنشواى . وعقدت المحكمة المخصوصة وراحت تبحث وتحقق فى مكان الحادث نفسه فثبت أمامها أن المصريين كان مجنيا عليهم وأن الانجليز ــ الذين ذهبوا لاصطياد الحمام ــ قد عمدوا إلى صيد البشر ..

ولكن المحكمة المخصوصة لم تكن قد تألفت لتحقيق العدالة أو إظهار البرىء والمسىء .. وإنما تألفت لإرهاب المصريين والتنكيل بهم لخدمة الاستعمار ولتعلم المصريين لوناً من العدالة البريطانية .. عدالة قاسية رهيبة مخيفة . وقد كان . وأصدرت المحكمة المخصوصة

حكمها وهو يقضى بشنق أربعة وسجن اثنين سجناً مؤبداً وسجن واحد مع الأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة وستة مع الأشغال الشاقة لمدة ٧ سنوات وعلى ثمانية بالجلد ٥٠ جلدة .

وإذ كان هذا الحكم يبدو مخيفاً فى قسوته ، فإن طريقة تنفيذه كانت أبلغ فى الدلالة على حقارة الإنجليز وإسفافهم فى عالم الدناءة . ومدى غلوائهم فى العداوة وتسعر الحقد على المصريين فى قلوبهم .

أقيمت المشانق فى قرية دنشواى وجمع المحكوم عليهم وآلهم وذووهم ونساؤهم وأطفالهم فى صعيد واحد . ثم شرعوا فى شنق المحكوم عليهم بالإعدام واحداً بعد آخر فإذا فرغوا من شنقه حملوا جثته ووضعوه أمام بقية المحكوم عليهم لتسرى رعدة الخوف فى أوصالهم . ثم جلدوا بعض المحكوم عليهم بالجلد . وعادوا لشنق بعض المحكوم عليهم به . كل ذلك يجرى أمام أبناء المحكوم عليهم وآبائهم ونسائهم .

وهكذا بطش الإنجليز بطشتهم الكبرى واطمأنوا إلى أن قلوب المصريين ستنخلع من الرعب وأن الاحتلال البريطانى قد ثبّت دعائمه فى مصر إلى الأبد بغير منازع ونسى الإنجليز أنهم بين ظهرانى شعب يفوقهم مجداً ومحتداً وأن البطش والظلم والإذلال من شأنه أن يهيج حفيظته ويجعله يضحى بكل شئ فى سبيل الذود عن كرامته وحريته .

ظن الإنجليز أنهم فازوا بما أرادوه من دنشواى فإذا بهم يهدمون فى لحظة ما بنوه فى عشرين سنة من التودد للمصريين والتقرب إليهم والتظاهر بصداقتهم .

إشراق نجم مصطفى كامل

وكان مصطفى كامل حامل اللواء . ولسان الشعب الناطق وقلبه الخفاق ولم يكن يعوزه إلا مثل هذا الحادث لكى يعلن للدنيا وحشية الانجليز . وقد فعل مصطفى كامل .. وأبلى بلاء لا نحسب أن له سابقة فى تاريخ الأمم والشعوب .. فقد استطاع هذا الشاب الفرد أن يؤلب أوروبا كلها ضد انجلترا . وأن يحمل الإنسانية على استنكار فعلتها . وأحس الإنجليز للمرة الأولى بالخجل . واعتذروا للعالم ولمصر عن فعلتهم بأن أقالوا زعيم هذه المؤامرة والمتولى كِبْرَها اللورد كرومر دون أن يشفع له أنه أحد بناة الإمبراطورية ، ودعائم الاستعمار .

فكان ذلك أول صدام بين انجلترا ومصر.. انجلترا صاحبة الحول والطول ، والإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ، والأساطيل التى تمخر البحار السبعة . وبين

مصر المهيضة الجناح . العزلاء من كل سلاح اللهم إلا هذا الشاب الناشئ النحيل .. مصطفى كامل . الذى كان وقتئذ كل سلاحها وعدتها .. كان أول صراع أرادت فيه انجلترا أن تصور مصر للعالم وحشية .. بدائية .. فإذا بالعالم يقر لمصر .. بالمدنية .. والعدالة ويسجل على الإنجليز الوحشية والبربرية .

كان ذلك أول خلاف بين كرومر العاتى .. وبين مصطفى كامل الشاب بانى صرح الوطنية .. فخر كرومر صريعاً .. وخرج من مصر مذءوماً مدحوراً يجر أذيال الخزى والعار .

وواصل مصطفى كامل كفاحه داعياً إلى الجلاء ووحدة وادى النيل . رافضاً الحكم فى ظل الإنجليز وتحت يد الاحتلال . مقاوماً كل سعى من ناحية الإنجليز للحصول من المصريين على صك بمشروعية الاحتلال . وسن لذلك القاعدة المشهورة «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» وذلك أنه لا تفاهم بين السيد والمسود . الذئب والحمل . فكيف يكون هناك تفاوض بين الإنجليز والمصريين إلا على أساس التهام الحقوق المصرية وإهدار حقائق الحرية والاستقلال .

وألف مصطفى كامل الحزب الوطنى فى أخريات أيامه ليحمل لواء هذه المبادئ .. ولم يلبث أن ذهب إلى ربه فى ريعان شبابه بعد أن أدى الرسالة . وبلغ الأمانة وأشعل نيران الوطنية .

محمد فريد

وخلف مصطفى الشاب فريداً الرجل . وياله من رجل .. ومن قديس من قديسى الوطنية ..

كانت الظروف قد تغيرت على أيام فريد . فقد حالف الخديوى الانجليز المحتلين فاشتد ساعدهم فى الداخل واتفقوا مع فرنسا على إطلاق يدها فى مراكش على أن تطلق يدها فى مصر فاشتد ساعدهم فى الخارج فلبسوا جلد النمر للحركة الوطنية ونكلوا برجالها فوقف محمد فريد فى وجه الاحتلال لا يكل أو يمل أو يحنى الرأس .. فعذب واضطهد وأريد إخماد صوته داخل السجون . فاقترح عليه أن يفر إلى أوروبا ليحمل لواء المقاومة ضد الإنجليز . ويدعو للقضية المصرية ..ففعل .

وهنا تبدأ صفحة مشرقة من صفحات الجهاد الوطنى الرائع ... لا تشرف محمد فريد فحسب وإنما تشرف مصر كلها التى أنجبت هذا الرجل . محمد فريد كان يعد من ثراة المصريين وكانت ثروته تناهز نصف مليون من الجنيهات يعيش عيشة ضنكة فى أوروبا . ويعانى مرارة الفقر .. رافضاً العروض المغرية التى يقدمها له الإنجليز وصنائعهم التى أرادوا أن يساوموه بها على شرفه وكفاحه أو يحملوه على التساهل فى المبدأ المقدس . فآثر الفقر على الغنى .. والتشرد على الاستقرار وفضل أن يكون مجاهداً يتحدى الاستعمار ...

ومات فريد فقيراً .. شريداً .. كما يموت الأبطال والشهداء والقديسون . ولكنه لم يمت إلا بعد أن بدأت البذور التى غرسها فى النضوج والإثمار وثارت البلاد ثورتها الخالدة سنة ١٩١٩ . فسمع بأذنه وطالع بعينيه أنباء قيام الثورة التى كان يحلم بها .. فمات قرير العين والفؤاد أن جهاده لم يكن عبثاً ونصحه لم يضع هباء ... وجئ بجثمانه إلى مصر فكانت جنازته يوماً من أيام الثورة الخالدة ولا زلت أذكرها حتى اليوم كأروع صفحة من صفحات الوطنية .

ثورة سنة ١٩١٩

١٣ نوفمبر وتكوين الوفد ـ سياسة المفاوضات
الدستور ـ معاهدة ١٩٣٦

لم تكد الحرب العالمية الأولى تعلن فى سنة ١٩١٤ حتى بادرت انجلترا بإعلان الحماية على مصر. وخلع الخديوى عباس حلمى ونادت بالسلطان حسين سلطاناً على مصر فى ظل الحماية الإنجليزية. وفرضت فى الوقت نفسه الأحكام العرفية. وسخرت مصر وشعبها ومرافقها لخدمة الحرب. واعدة المصريين بالاستقلال فى ختام الحرب جزاء معونتهم الصادقة وصبرهم. وعلى هذا الأساس سايرهم حسين رشدى باشا رئيس الوزارة المصرية وأجابهم إلى كل ماطلبوه طوال سنوات الحرب الأربع.

وكان الحلفاء فى هذه المدة يقيمون دعايتهم على أساس نشر الحرية والمساواة بين الشعوب. الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى ترجيح جانب الحلفاء وإنالتهم النصر. بل إن الشعب الألمانى نفسه لم يكد يسمع هذه الدعاية.. حتى أعلن التمرد والرغبة فى الاستسلام.. وانتهت الحرب.

وقامت شعوب الدنيا تطالب بتحقيق الوعود. وحقها الطبيعى فى الحرية والاستقلال والتعامل على أساس المساواة. وكانت مصر فى مقدمة هذه الشعوب. بل لعلها أول شعب بادر على الفور بطلب حريته واستقلاله طبقاً لمواثيق الحلفاء. فلم تكد الحرب تضع أوزارها وتعلن الهدنة رسميا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى كان المصريون قد نظموا صفوفهم. ووحدوا كلمتهم وطرقوا باب السير ونجت ـ المعتمد البريطانى ـ ليطالبوه برفع الحماية عن مصر وإعلان استقلالها واشتراكها فى مؤتمر الصلح. فكانت مقابلة ١٣ نوفمبر المشهورة التى مثّل فيها المصريين ثلاثة من كبرائهم هم سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى وكان لحسين رشدى رئيس الحكومة أثر محمود فى تشجيعهم بل وتحريضهم على القيام بهذا المسعى.

وقد تكلف السير ونجت العجب . وأنكر على المصريين حقهم فى الحرية والاستقلال وهم الذين يجب عليهم أن يشكروا الله صباح مساء إذ جعلهم عبيد الانجليز ولم يجعلهم عبيد الأتراك ! ولكن الثلاثة الكبار أفهموه أن مصر ستبقى إلى الأبد لايلين جانبها ولايستغفل أبناؤها ...

وسرعان ماتألف الوفد المصرى للسعى لتحقيق استقلال مصر ماوجد للسعى سبيلاً وانهالت التوكيلات على سعد وصحبه من أنحاء البلاد . وانهالت إثر التوكيلات التبرعات فجمعت مئات الألوف من الجنيهات لتكون فى خدمة القضية الوطنية . بل لقد وصل المبلغ المجموع فى نهاية الأمر إلى مليون جنيه .

وقد كان ذلك مظهراً رائعاً ورهيباً - روع الانجليز فعمدوا كما هى عادتهم إلى القوة والبطش . وأصدروا أوامرهم باعتقال سعد زغلول وصحبه ، ولم يكن الشعب فى حاجة إلا لهذه الحركة لكى ينفجر بركان غضبه وسخطه فى وجه الإنجليز الغاصبين . فكانت ثورة سنة ١٩١٩ حيث اشتعلت البلاد بنيران الكراهية والمقاطعة للإنجليز من الاسكندرية حتى أسوان . وسارت المظاهرات فى عشية وضحاها تهتف بالاستقلال فقابلها الإنجليز بالرصاص فخر الشهداء صرعى الحرية . واتقدت البلاد ناراً وحوصر الانجليز فى داخلية البلاد وقطعت السكك الحديدية وكل أسباب المواصلات . وقامت الحكومات الثورية فى كل مكان وانخلع قلب الإنجليز لهذه الحركة وسلطوا عليها الحديد والنار فلم يلن للبلاد قناة أو ترضى بدون الإفراج عن زعمائها المعتقلين والحصول على الاستقلال التام لمصر والسودان .

وبعد إراقة بحار من الدمار وإشعال نيران الحريق فى القرى وبمساعدة الطائرات — وكانت أول العهد بها — استطاعت انجلترا أن تخمد الثورة مؤقتاً . ولكنها أدركت تماماً أن سبيل العنف لن يؤدى بها إلى نتيجة مع هذا الشعب الكريم فلجأت إلى أسلوبها العنيد . أسلوب الدس والمؤامرة والمطاولة وكسب الوقت فبعث إلى مصر بلجنة ملنر لتحقق فى أسباب الاضطرابات وتعمل على إرضاء عواطف المصريين ولكن الشعب، الذى كان صدره يضطرم بالعداوة - أعلن مقاطعتها مقاطعة إجماعية لم يكن لها مثيل من قبل أو بعد ، وقاموا قومة رجل واحد . وقالوا « اذهبوا إلى سعد وصحبه ففاوضوهم فهم وكلاء الأمة .. وزعماؤها .. » .

سياسة المفاوضات

وكان ذلك أول انزلاق للوطنية المصرية . والخطوة الأولى فى سياسة المفاوضات ومايتبعها من مطاولات ومطل وتسويف وتخدير . فياليت المصريين وقتئذ مافتحوا على أنفسهم هذا الباب وليتهم رفضوا رفضاً باتًا وقالوا قولة مصطفى كامل من قبل ، وفريد بعده «لامفاوضة معكم أيها الغاصبون .. إلا بعد أن تجلوا عن بلادنا .. لامفاوضة معكم أيها المعتدون إلا بعد أن تردوا إلينا السودان . وتردوا إلى السودان مصر .. أما قبل الجلاء ووحدة وادى النيل فلا مفاوضة ولا محادثة ولا مهادنة ..»

ولكن رجال السياسة الذين كانوا يتلهفون على المفاوضة تلهفاً لأنها طريقهم إلى الحكم والمنافع الشخصية قبلوا أن يدخلوا مع الإنجليز فى مفاوضة زاعمين أنهم سيحققون الإستقلال بأقرب الطرق ! . ولم يدع الانجليز هذه الفرصة الذهبية تفلت من أيديهم ، وتلك النقطة من نقط التحول من خطة الكفاح إلى خطة المعاملة ، وهم الذين طالما تمنوها وسعوا إليها فلم يجدوا مصريًّا ينقاد إليهم ويقبل أن يبدأ عملاً ينتهى بالتوقيع على وثيقة تحيل الاحتلال أمراً مشروعاً ، لا عدواناً واغتصاباً .

أسرع الانجليز إلى سعد وصحبه ففكوا عقالهم واستدعوهم للسفر إلى لندن للتفاوض معهم . ولكنهم ولوا وجوههم شطر الرئيس ولسن وهو حامى حمى الحريات . والمنادى لحرية الشعوب واستقلالها ، فحمل الانجليز الرئيس ولسن على الاعتراف بحمايتهم على مصر . فأُسقط فى يد الوفد ولم يبق أمامه إلا أن يهرع إلى انجلترا للتفاوض . وهناك وضعت أسس السياسة الانجليزية الجديدة التى تقضى بأن يعقد مع المصريين معاهدة تعترف بمشروعية الاحتلال البريطانى فى مصر وتؤكد مركز انجلترا الخاص والمكانة الممتازة لسفيرها وتشد مصر إلى مركبة الامبراطورية الانجليزية وسياستها الخارجية . وتخلع انجلترا ـ فى مقابل ذلك ـ على مصر ماتشاء من نعوت وأوصاف . وتسمح لها باستخدام ماتشاء استخدامه من عبارات الاستقلال والسيادة والمظاهر والقشور لهذا الاستقلال المزعوم . !!!

ولكن المفاوضين المصريين رفضوا هذه الأسس للتفاوض (مشروع ملنر) وسماه سعد زغلول «حماية بالثلث» ورجع المفاوضون المصريون رافعى الرأس .. موفورى الكرامة .. واستقبلتهم البلاد استقبال الغزاة الفاتحين . وزاد التفاف الشعب حول سعد زغلول بصورة لم تعرف من قبل فى مصر الحديثة .

ولكن الارستقراطية .. وآه من الأرستقراطية ... آه من هؤلاء الباشوات وهذا النفر من الأغنياء والرأسماليين ومحتكرى السياسة . لقد آلمهم أن يتجلى إيمان الشعب بكل هذه القوة والإجماع وأزعجهم أن يكون سعد زغلول هو محل هذه الثقة والإكبار .. فإذا بهم يخرجون عليه ويحاولون أن يفسدوا مابينه وبين الشعب وينادون بوجوب استئناف المفاوضات ومقابلة الانجليز فى منتصف الطريق . وسرعان ماتألفت منهم وزارة دعاها الانجليز إلى المفاوضات وأصر سعد زغلول باعتباره رئيس الوفد الموكل من الأمة أن يكون هو رئيس وفد المفاوضات وأصر عدلى باشا على رئاسة الوفد باعتباره رئيس الوزارة . فتفرقت وحدة الأمة . وأطلق على عدلى ومن معه اسم المنشقين . وسافر عدلى باشا ليفاوض انجلترا فى شخص وزير خارجيتها العنيد لورد كرزون الذى ظن أنه قادر على أن يستغل الخلاف بين سعد وعدلى فيحمل عدلى على التفريط فى شىء من حقوق البلاد . ولكن عدلى باشا رفض ذلك .. ففشلت المفاوضات وعاد إلى مصر مرفوع الرأس . موفور الكرامة بدوره .

تصريح ٢٨ فبراير

وعاد الإنجليز إلى استخدام أساليب البطش فأعادت نفى سعد زغلول وبعض أعضاء الوفد إلى جزيرة سيشل ولكن الشعب ثبت فى وجه هذه الموجة من الإرهاب وقَبِلَ التحدى . فلم يستطع سياسى واحد أن يؤلف الوزارة . ويعاون المحتل على خططه . وكان لابد للانجليز من وزارة مصرية تحكم البلاد وإلا شاعت الفوضى واضطربت الأمور وتحملت انجلترا مسؤليات خَطِرَة فى وقت كانت أشد ماتكون فيه حاجة إلى توفير الجهود . لذلك أرسل المارشال اللنبى ـ المعتمد البريطانى فى مصر ـ يطلب من انجلترا أن تقدم شيئاً ترضى به عواطف المصريين . وهكذا كانت ولادة تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى اعترفت فيه انجلترا برفع الحماية البريطانية عن مصر واعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة . ودستور نيابى وتمثيل خارجى على أن تحتفظ انجلترا لنفسها بأربع مسائل : هى حماية مواصلات الامبراطورية وحقوق الأقليات . والدفاع عن مصر والسودان ضد كل عدوان أجنبى ، ونودى بالسلطان أحمد فؤاد ملكاً ، وأنشئت وزارة للخارجية . كما ألفت لجنة لوضع الدستور على أحدث النظم العصرية .

الدستور

وقد عهد بتحضير الدستور لا إلى الأمة ممثلة فى جمعية تأسيسية كما هى العادة ، وكما

الداخلية فيها فشن حرباً شعواء على الوطنية المصرية . وحل البرلمان .. وأجرى انتخابات جديدة أبدى فيها صنوفاً من الضغط والإكراه والتزوير والتزييف ، ولكن النتيجة مع هذا جاءت مخيبة له ففاز الوفد بأغلبية كبرى فاستصدرت الحكومة أمراً من الملك فؤاد بحله . فحل ولم يمض على افتتاحه بضع ساعات . وهكذا بدأ العبث بالدستور والتجنى على سلطان الأمة وبدأت هذه السلسلة من المحاولات لإنقاص سلطان الأمة باسم الاعتدال تارة وباسم محاربة الدهماء تارة أخرى . وقد أخذت الوطنية المصرية تتعثر والأخلاق تتحلل والشعلة المتوهجة تخمد وتنطفئ وتداولت الحكم وزارات حزبية ضعيفة لاتستحق مجرد الذكر اللهم إلا بمعرض التفريط فى الحقوق . وتبذير الجهود .. وإضاعة الوقت ولاسيما بعد أن مات سعد زغلول وخلفه فى رئاسة الوفد مصطفى النحاس . الذى كان محروماً من مواهب سعد زغلول وقوة شخصيته .. فما لبث أن تراجع بعد أن وقف عدة وقفات طيبة فى أول عهده . وتخبط فى سلسلة طويلة من الانقلابات الوزارية والمفاوضات وبدأت المناورات السياسية .. والدسائس الحزبيةوانعدام المعانى الشعبية فى نفوس رؤساء الأحزاب .. بأن بطشت وزارة محمد محمود (١٩٢٨) بالبرلمان فتأجل انعقاده .. ثم تحله ثم توقف عدة مواد من الدستور ويعلن حكم عرف بأنه حكم اليد الحديدية .. وياليت اليد الحديدية كانت على الانجليز ولم تكن على المصريين . ثم جاءت وزارة إسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ فارتكبت الجريمة الكبرى إذ ألغت الدستور من أساسه وأنشأت دستوراً هزيلاً .. مشوهاً .. ممسوخاً .. وأعلنت الحرب على البرلمان والأحرار والصحف ... بل وعلى كل نزاهة .. وحرية .. كأنها عدو لدود لهذه البلاد .. لاخادم لها .. يعمل لمصلحتها .. ويسهر على خدمتها .

وأخذ الوفد ــ بدوره ــ يمالئ الإنجليز ليضمن استمراره فى الحكم فلم يكد يصل إلى الحكم فى سنة ١٩٣٦ بعد إلغاء دستور سنة ١٩٣٠ وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ حتى دخل مع الإنجليز فى مفاوضات متعاوناً مع بقية الأحزاب الرأسمالية والرجعية . وانتهت المفاوضات إلى إكساب الإنجليز للشىء الذى طالما سعوا إليه السنين الطوال ألا وهو معاهدة موقع عليها من كل زعماء مصر السياسيين . يعترف فيها للإنجليز بالحق الشرعى فى بقاء جيوشهم فى مصر . ومركزهم الممتاز بها وبالتالى يربطون سياسة مصر بعجلة الامبراطورية ويملون إملاء كل مايريدون . وهكذا كانت معاهدة ٣٦ التى وصفها النحاس باشا بأنها معاهدة الشرف والاستقلال !

وفى هذه الفترة لم يكن هناك سوى مصر الفتاة حزباً عاملاً يصف المعاهدة بوصفها الحقيقي وهى أنها معاهدة الخزى والاحتلال ويعمل على مقاومتها بالقوة مما أدى بأبنائه جميعاً إلى السجن وإلى صراع قوى مستمر لم ينته إلا عند سقوط وزارة النحاس باشا فى أخريات عام ١٩٣٧

معاهدة ٣٦ المشئومة

وتتكون هذه المعاهدة المشئومة من سبع عشرة مادة وعدة ملاحق وتنص المادة الخامسة على عدم اتخاذ علاقات خارجية تتعارض مع المحالفة أو عقد معاهدات سياسية تتعارض مع المعاهدة . والمادة السابعة توجب على الطرفين المساعدة الحربية والتسهيلات بما فى ذلك استخدام الموانى والمطارات وطرق المواصلات . وسن التشريعات والمادة الثامنة تصرح لبريطانيا بوضع قواتها بجوار القنال «للتعاون» مع الجيش المصرى الذى اعترف صراحة ، فى هذه المادة بأنه غير قادر على أن يكفل بمفرده سلامة القناة وحرية الملاحة فيها . والمادة التاسعة تشير إلى اعفاءات وامتيازات القوات الإنجليزية . واعترف فى المادة الحادية عشرة باتفاقيتى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ و ١٠ يوليه سنة ١٨٩٩ كأساس لإدارة السودان (وهما اتفاقيتان مشئومتان سلبتا مصر حقوقها فى السودان) .

وهكذا كانت هذه المعاهدة نكسة كبرى خسرت بها مصر كل جهادها وجعلت بها الاحتلال مشروعاً واعترفت باتفاقيات باطلة .. وأقرت وضعاً مزيفاً فى السودان . ومكنت الإنجليز بعد ذلك ــ فى هذه الحرب ــ أن يهيمنوا ، ليس فحسب على المصاير السياسية للبلاد ، ولكن أيضاً على مرافقها الاقتصادية ومواردها المالية وانتهب الانجليز الأقوات واستخدموا المرافق .. وأجيبت كل مطالبهم بشكل كان من المستحيل أن يصلوا إليه لولا هذه المعاهدة المشئومة التى وقعها كل السياسيين المحترفين وارتضتها كل الأحزاب ماعدا الحزب الوطنى .. ومصر الفتاة .. والهيئات الشعبية .

إلى هذا الدرك السحيق انحدرت الوطنية المصرية .. لولا أن قيض الله لمصر فى ذلك الوقت مصر الفتاة ترفع اللواء الذى نكسه الزعماء وتحمل الراية التى طرحها الباشوات .. وركنوا للراحة وانغمسوا فى الشهوات ، وتكافح الانجليز والأجانب وكافة المستغلين طالب كثير من الكتاب الأحرار ، ولكن إلى لجنة من الفقهاء القانونيين والسياسيين سميت

لجنة «الثلاثين» وبعد أن أعدته هذه رفعته إلى وزير الحقانية الذى كلف اللجنة الاستشارية التشريعية بفحصه. وهذه اللجنة مؤلفة من أقطاب موظفى الحكومة ومستشاريها وكان من الممكن الاطمئنان إليهم لولا أن كثرتهم كانوا انجليزاً. بل لم يكن فيهم إلا مصرى واحد هو عبد الحميد بدوى.. ورئيسها مصطفى باشا فتحى وزير الحقانية.. فحرفت هذه اللجنة كثيراً من المواد التى تؤكد سلطان الأمة. الأمر الذى جعل عبد العزيز فهمى باشا، وهو من أقطاب القانون يحتج بشدة ويرسل عدة خطابات مفتوحة إلى رئيس الوزارة. يصف التعديل الأخير بأنه «بجملته وتفصيله سلب جرىء لحقوق البلاد الثابت لها ثبوتاً لاريب فيه. وفتح لباب واسع من أبواب الفوضى والإخلال بالنظام».

ومع ذلك فقد كان الدستور على مابه من شوائب خطوة كبرى فى سبيل الحرية، وأساس صالح للتقدم الشعبى.

تدهور السياسة الحزبية

أطلق سراح المعتقلين، وأجريت الانتخابات النيابية الأولى. وكانت نتيجتها فوزاً للوفد بأغلبية ساحقة فأصبح المنفى الطريد ـ سعد زغلول ـ رئيساً للحكومة المصرية.

دُعِىَ سعد زغلول للتفاوض مع السير رمزى مكدونالد رئيس أول وزارة عمالية فى انجلترا، ولم تنجح المفاوضات، كالعادة، ورجع سعد زغلول يقول: «دعونا للانتحار فأبينا».

وحدث بعد ذلك أن اغتال بعض الأفراد السير لى ستاك السردار الانجليزى للجيش المصرى فانتهز الانجليز هذه الفرصة ليبطشوا بمصر من جديد.. ويذكروها بالإرهاب القديم فذهب المعتمد البريطانى فى مظاهرة حربية إلى مجلس الوزراء وقدم إنذاراً يوجب فيه سحب مصر لجيشها من السودان. وإطلاق يد الانجليز فى ماء النيل ودفع تعويض نصف مليون جنيه والبحث عن القتلة الخ.. فسلم لهم سعد زغلول بالتعويض المالى. واستقال احتجاجاً على هذا العدوان.. فتصدى للوزارة نفر من الذين انسلخوا عن الأمة. وانشقوا عليها وجعلوا الاتفاق مع الانجليز سياستهم والحكم هدفهم ورأسهم زيور باشا الذى جعل خطة وزارته التسليم للإنجليز بكل مايطلبون وكان إسماعيل صدقى هو وزير

لعواطف الشعب . وبلاده وماله .. ولا ترضى بغير الجلاء الحقيقى عن وادى النيل .. وتبشر برسالة البذل والتضحية والفداء من أجل البلاد[1] .

* * *

(١) انه ليسعدنا كل السعادة أن نطبع هذه الرسالة بعد أن أعلنت حكومة مصطفى النحاس إلغاء هذه المعاهدة المشئومة ولذلك فقد أسرع الحزب الاشتراكى (امتداد مصر الفتاة) إلى تهنئته ولقد سجل النحاس لنفسه بهذا الالغاء صفحة طيبة تجب كل الصفحات الماضية .

مصر الفتاة فى الميدان

يعتبر توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ نهاية تدهور الجهاد الوطنى فى مصر فقد ارتضى الوفد أن يوقع معاهدة مع الانجليز تجعل بقاءهم فى مصر مشروعاً .. واحتلالهم جزءاً من قوانين الدولة ثابتاً . وقد يقال إن مصر قد وقعت هذه المعاهدة تحت إكراه وجود الجيوش الانجليزية فى مصر ، ورغبة الحكام فى الانتفاع بما جاء فى هذه المعاهدة من ميزات كالإلغاء الامتيازات وذلك كله حق .. ولكن من الحق أيضاً أن نسجل أن الوطنية المصرية رفضت هذا الوضع طوال سبعين سنة . وهذا الذى قبلته الأحزاب المؤتلفة وعلى رأسها الوفد فى سنة ١٩٣٦ هو الذى رفضه سعد زغلول باسم الشعب فى سنة ١٩١٩ ورفضه مرة ثانية باسم البرلمان المصرى فى سنة ١٩٢٤ ورفضه المتفاوضون المصريون جميعاً .. بل إن حكومة النحاس نفسها فى مفاوضات سنة ١٩٣٠ السابقة على مفاوضات سنة ١٩٣٦ حصلت على شروط أحسن منها ومع ذلك فقد رُفِضَتْ .. فقبول ما رفضته البلاد قبل ذلك التاريخ هو تسجيل رسمى تاريخى يثبت تقهقر وطنية الزعماء القدماءالذين أعياهم الكفاح الطويل فجعلهم ألين عريكة وأكثر استعداداً للتساهل فيما كانوا لا يتساهلون فيه من قبل .

على أن لواء الوطنية ماكان ليتنكس فى شعب حى مجيد كالشعب المصرى الذى استعرضنا صفحات تاريخه المشرقة ... ماكان هذا الشعب ليعقم عن أن يلد مجاهداً جديداً بل مجاهدين يحملون اللواء ليظل خفاقاً مرفوعاً . ولذلك فقد انبعثت من صفوف الشعب حركة مصر الفتاة ، ولمع اسم أحمد حسين كمجاهد وطنى صغير يسير على غرار من سبقوه فى ميدان الجهاد .

مشـروع القـرش

نزلت مصر الفتاة إلى ميدان الكفاح السياسى بهذا الاسم فى سنة ١٩٣٣ أو بالأحرى فى أكتوبر من هذه السنة ونشرت برنامجها على صفحات مجلة الصرخة التى اتخذتها لسان حال لها . ولكن الحق أن حركة مصر الفتاة بدأت قبل ذلك . بدأت فى سنة ١٩٣١

عندما دعا أحمد حسين إلى مشروع القرش ونجح فى إقامة هذا المشروع فكان نجاحه خارقة من خوارق الوطنية المصرية وحيوية الشعب . لقد هال أحمد حسين فقدان مصر لكل مظاهر الاستقلال ، ليس الاستقلال السياسى فحسب بل والاقتصادى . وأدرك الصلة الوطيدة بين الاقتصاد والسياسة ، بل وآمن أن الاستعمار ما هو إلا السبيل لتحقيق المنافع الاقتصادية ، واتخاذ مصر سوقاً للبضاعة الإنجليزية بصفة خاصة والأجنبية بصفة عامة .

راعه ما كانت عليه مصر من اعتماد كلى على الزراعة . دون أن يكون لها أى إنتاج صناعى مما يجعلها نهباً للانجليز والأجانب .. فانبعثت فى رأسه فكرة مشروع القرش ، والتى تدور حول اكتتاب المصريين بقرش صاغ عن كل فرد فيتجمع من ذلك عشرات الألوف من الجنيهات فتتألف بذلك رؤوس أموال أهلية أو شعبية تنشأ بها مصانع لإنتاج شتى ما تحتاجه البلاد . وقد كان أحمد حسين طالباً بكلية الحقوق عندما دعا إلى هذه الفكرة فقوبلت بالسخرية والهزء .. فما سمع أحد من قبل ولا من بعد أن المصانع تقام باكتتابات شعبية .... وراح كل من فى مصر يتندر على هذه الدعوة ... رجال القانون ينتقدونها بقولهم إن هذا المشروع لن يكون له مالك . ورجال الاقتصاد ينكرونها لأن المشروعات تقوم بها الشركات أو الأفراد ولا تقوم بها الشعوب .. على أن ذلك الاهتمام بنقد المشروع كان فى حد ذاته مظهراً من مظاهر النجاح . فقد كابد المشروع فى أول الأمر إهمالاً مطلقاً واحتقاراً لشأنه . ولكن أحمد حسين مضى فى طريقه لا تثنيه العقبات . جمع من حوله شباب الجامعه وألف منهم لجنة أصبح المشروع ينتسب إليها .... ثم راح يطلب من الأساتذة أن تعاونه فى هذه اللجنة فقبل البعض منهم . ثم تدرج فطلب من مدير الجامعة على ابراهيم باشا أن يرأس المشروع فلبى الدعوة ... ومن هنا بدأ المشروع يتطور ... وجاء اليوم الذى التهبت فيه عواطف الشعب حماسة للمشروع وجاءت الساعة التى نزل فيها الشباب الجامعى لأول مرة إلى الشوارع يجمعون الاكتتابات لإنشاء مصانع قومية . وقد كان هذا حدثاً فى تاريخ مصر جدد شباب وطنيتها وأعاد إليها الثقة والحيوية .

مصنع الطرابيش

وجُمِعَ ثلاثون ألفاً من الجنيهات . تم جمعها بأساليب محكمة لا تسمح لأحد أن يتلاعب بها . فقد طبعت كمية معلومة من دفاتر التبرعات ثم سلمت إلى مصلحة البريد التى تولت توزيعها على مكاتبها فى أنحاء القطر وكان على كل متطوع يرغب فى التوزيع أن

يحصل على حاجته من مصلحة البريد ...

وبعد أن انتهى موعد الاكتتاب حولت مصلحة البريد قيمة ما باعته إلى بنك مصر حيث ظلت الأموال مودعة فيه لا يمكن لأحد أن يتصرف فيها أو يمس منها مليماً واحداً حتى تألفت جمعية القرش ورئيسها على إبراهيم باشا ووكيلاها مصطفى باشا الصادق وفؤاد باشا أباظة وهؤلاء ـ تحت إشراف مجلس الإدارة ـ هم الذين كان لهم وحدهم حق اعتماد صرف أى مبلغ من هذه المبالغ .

ذكرت هذا الموضوع بالتفصيل لأنه يحلو للبعض أن يتطاولوا على نزاهتى وأننى أخذت شيئاً من هذه الأموال . وعلم الله أنه لولا نزاهتى لما أقيم هذا المشروع ولما خرج إلى النور . لولا الإيمان ولولا الإخلاص والصدق فى القول والعمل لما تحققت هذه المعجزة الشعبية فلم يحدث فى تاريخ العالم ـ وإننى لأتحدى أن يأتونى بمثيل هذا الذى تم ـ لم يحدث أن تمكن طالب فى مدرسة الحقوق أن يدعو إلى اكتتاب قومى لإنشاء مصنع ثم يقام هذا المصنع بالفعل وأن يتم ذلك كله فى مدى عام واحد .

قال الاقتصاديون وعلى رأسهم طلعت حرب إنه من المتعذر إنشاء مصنع للطرابيش فى مصر وأن بنك مصر عجز عن تحقيق هذا المشروع فالشركات الأجنبية لم تمكن هذا المصنع من القيام . ولكنى أصررت على وجوب قيام المصنع فقد كان امتهاناً ما بعده امتهان أن تصنع دولة أجنبية شعار مصر القومى ... وقد كان فى مصر مصانع للطرابيش فأغلقتها هذه المنافسة الأجنبية فصممت على رفع هذا العار عن مصر وأن يكون لمصر مصنع لغزل الصوف وإنتاج الطرابيش فيما ينتج .

وإنى لأحتاج رسالة ضخمة تبلغ ضعف هذا الكتاب لو رحت أفصِّل أنواع العراقيل والمؤامرات والدسائس التى وضعت للحيلولة دون تنفيذ هذا المشروع .. والتى بلغت فى بعض الأحيان الاتفاق مع إسماعيل صدقى رئيس الحكومة فى ذلك الوقت على إنذار الجمعية أن تعدل عن هذا المشروع لعدم إمكان تنفيذه ووصلت إلى حد حمل الشركة الألمانية التى تعاقدت على توريد الماكينات أن تتوقف عن التوريد .. وأخيراً وصلت إلى حد محاولة رشوتى بالمال الكثير لأكف عن المضى فى تنفيذ المشروع بعد أن رأى رجال الشركات الأجنبية أننى أحبطت كل مناوراتهم ومؤامراتهم . ولكن مصنع الطرابيش بُنِىَ فى نهاية الأمر فى برج الظفر بالعباسية .وجاءت الماكينات والآلات وجاءت الساعة التى

دارت هذه الآلات لتخرج طرابيش مصرية تغسل الكرامة القومية مما لحق بها من إهانات فى عالم الصناعة وعالم الوطنية .

وبدأت المكائد الحزبية تحاك حول هذا الشاب الذى لم يتجاوز العشرين ربيعاً وقد حقق ما عجز الوفد عن تحقيقه وما عجز أساطين الاقتصاد عن تحقيقه . انطلقت عقارب الغيرة والحسد تنهش هذا المجاهد الذى أهدى أمته مصنعاً هو الوحيد من نوعه فى الشرق كله . فآثرت الانسحاب من مشروع القرش والنزول إلى ميدان الصراع السياسى فى أوسع ميادينه لأتصدى لهؤلاء الذين يحاربوننى وجهاً لوجه . وهكذا صح العزم على تأليف جمعية مصر الفتاة . ولو لم تتداخل السياسة الحزبية الكريهة فى مشروع القرش لأمكننى أن أحقق برنامجى الضخم وهو إنشاء مصنع فى كل عام ولكان للشعب المصرى الآن عشرات المصانع التى يعمل فيها مئات الألوف من العمال .. مصانع لا يملكها الرأسماليون ، ولا يملكها الأغنياء ولكنها مصانع الشعب . ولما وقفت هذه المصانع عند حد صناعة الطرابيش والملابس بل لصنعت الحديد والفولاذ وأنتجت المدافع والسيارات .

جمعية مصر الفتاة

استقال أحمد حسين من مشروع القرش للسياسة واستقال معه نفر من أصحابه ومعاونيه فى هذا المشروع وهؤلاء هم الذين ألفوا مصر الفتاة وجعلوا غايتها «أن تصبح مصر فوق الجميع : امبراطورية شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام » .

لئن كانت كلمة «امبراطورية » ليست محببة إلى الأسماع اليوم فقد كان هذا هو التعبير الوحيد الذى يعبر عما يجيش فى نفوسنا من إعزاز لمصر وتمجيد لها . وانطلقت هتافاتنا الجديدة المصرية .. لم تكن هتافات بحياة الأشخاص والأحزاب .. بل هتافات المجد لمصر ومصر فوق الجميع والله أكبر . وكلمة المجد اليوم تبدو كلمة عادية وبسيطة أما فى ذلك الوقت فقد كانت شيئاً عجيباً يفاجئ الأسماع فما كان أبعد المجد وقتئذ عن أن يقترن باسم مصر أو هكذا تصورت أحزاب ذلك الزمان وعقلية تلك الأيام . ولكننا مضينا وانطلقنا ... بعد أن وضعنا لأنفسنا برنامجاً لأول مرة فى تاريخ الحياة السياسية فى مصر ، فلم تكن الأحزاب تعرف برنامجاً أو تضع خططاً ، أو تحدد أهدافاً .. وإنما الأحزاب صراع على الحكم .. والسياسة شقشقة لسان وجعجعة .

ومرة أخرى ، قد يكون لكل حزب فى هذه الأيام برنامج ، وقد تقول هذه الجماعة أو تلك «هذا برنامجى وهذه أهدافى .. » أما ذلك الوقت ، فى سنة ١٩٣٣ ، فقد كان هذا شيئاً لا عهد للناس به فضلاً عن أن يكون برنامجاً كبرنامج مصر الفتاة .. شاملاً محيطاً كاملاً ، وإليك نصه :

برنامج مصر الفتاة

إيمـاننـــا

مصر التى علمت الإنسانية وأضاءت العالمين : مصر التى رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلنت كلمة الله والإسلام . مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن . بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم .

لن تموت أبداً بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجاً للشرق وزعيمة للإسلام . وهى من أجل ذلك فى حاجة إلى دم الشباب الملتهب . فى حاجة إلى الإيمان والعمل . فى حاجة إلى نفر من بنيها يقابلون الموت ويستعذبون الألم ويرحبون بالتضحية . وتلك صفات لن تتوفر فى أبناء الجيل القديم .

فعلى الشباب . وعلى الجيل الجديد . وعلى جنود مصر الفتاة تقع تبعة المجد القديم ، هذا هو إيمان جماعة مصر الفتاة .

شعـــارنـــا

الله ــ الوطن ــ الملك : يجب أن نعبد الله وأن نعلى كلمته . يجب أن نقدس الوطن ونفنى فى سبيل مجده . يجب أن نعظم الملك وأن نلتف حول عرشه .

غـايتنـا

أن تصبح مصر فوق الجميع امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام .

جهادنا العام

١ ـ يجب أن نشعل القومية المصرية ونملأ نفوسنا إيماناً وثقة واعتزازاً .. ويجب أن تصبح كلمة « المصرية » هى العليا وما عداها فلغو لا يعتد به ويجب أن يؤمن الجميع بأن إرادة الشعب من إرادة الله وأن مصر يجب أن تصبح فوق الجميع .

٢ ـ يجب أن نضع الأجانب فى مركزهم الطبيعى ضيوفاً فى مصر وليسوا أصحابها وذلك يكون بإلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة بجرة قلم . وتمصير الشركات الأجنبية وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الحياة التجارية ويوم الجمعة يوم عطلة عام ، وعدم التصريح لأجنبى بمزاولة عمل فى مصر إلا بتصريح خاص .

٣ ـ يجب أن نؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها وأنه الحقيقة الوحيدة التى لم تتبدل فى العالم منذ ستة آلاف سنة وهو هو الذى أبقى مصر نابضة قوية حتى اليوم فيجب أن نعلم الفلاح بأن نقضى على الأمية والجهل ونرتقى بمعيشته ونضمن له اليسر والرخاء ونحفظ له صحته وأن ندخل إلى بيته الجديد النور والهواء والماء النقى .

جهادنا الاقتصادى

فى الزراعة

٤ ـ يجب أن نرتقى بالزراعة التى تكون ثروة مصر الحقيقية فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها ونزرع أراضٍ جديدة ونشق الترع وننشئ المصارف ونعمل لمضاعفة الإنتاج أضعافاً مضاعفة .

٥ ـ يجب أن يعم نظام التعاون فى كل مدينة وفى كل قرية . بل وفى كل ضيعة لإقراض الفلاحين ولتوزيع البذور واستخدام الآلات وبيع الحاصلات وتنظيم المعاملات .

فى الصناعة

٦ ـ يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة .. فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا .. وصوفنا ..

وكتاننا .. ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيمائية والزراعية والحديدية .. وتمهيداً لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة وأن تتولد الكهرباء من خزان أسوان .

٧ ـ يجب أن توضع الحماية الجمركية اللازمة لحماية المصانع الوطنية وأن تحتم الحكومة على موظفيها وعلى طلبة مدارسها أن تكون ملابسهم من المصانع المصرية وأن تفضل الحكومة دائماً المصنوعات المحلية مهما كان ثمنها مرتفعاً .

٨ ـ يجب أن ينشط استغلال الثروات المدفونة فى باطن التربة المصرية العظيمة فنستخرج البترول والحديد والذهب والنحاس وغيرها من المعادن التى تحتاج إليها الصناعات المختلفة والتى توجد فى الصحارى المصرية العظيمة بوفرة .

فى التجـــارة

٩ ـ وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية فلا نأكل إلا كل ما هو مصرى ولا نلبس إلا كل ما هو مصرى ولا نشترى إلا من مصرى كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

١٠ ـ يجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية ونتصل بدول الشرق القريب والبعيد نحمل إليها ومنها المتاجر وأن نقوم بدورنا الطبيعى فى تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب .. ولكى نتبوأ هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى لينقل متاجرنا وليرفع العلم المصرى فى أنحاء البحار .

١١ ـ يجب أن تستعد موانينا لهذه الحركة العظيمة فتوسع ميناء الاسكندرية وتنشأ ميناء دمياط وتحول بعض موانينا إلى موان حرة لا تتقاضى الحكومة عن البضاعة الموجودة بها ضرائب .

١٢ ـ يجب أن يؤلف أسطولنا الجوى على نطاق واسع وأن تنشأ المطارات فى كل المدن المصرية وأن تنشأ الخطوط التى تصل مصر بكل البلدان العربية وبكل أفريقيا وبلاد أوروبا الهامة .

١٣ ـ يجب أن نمهد الطرق من الإسكندرية حتى أسوان . وأن ننظم الملاحة فى النيل والترع وأن نمد الخطوط الحديدية إلى كل مكان .

١٤ ـ يجب أن ينشأ بنك مركزى للإصدار ليجارى هذا التقدم التجارى ويزكيه ويجب أن يصلح نظام الائتمان بحيث يكون وسيلة لخدمة التجارة ومدها برؤوس الأموال .

جهـــادنا العــلمى

١٥ ـ ومصر التى ستتزعم الشرق وتضئ على العالم يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها فيجب أن يصبح التعليم الإبتدائى مجاناً وأن تقل نفقات التعليم الثانوى والعالى لتكون فى متناول أفقر الطبقات ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحى الحياة وأن ترصد عليها المخصصات ليعيش منها العلماء والباحثون .

١٦ ـ يجب أن تفتح الجامعة أبوابها على مصراعيها لكل من يريد الانتساب إليها من مصر أو الشرق وأن تشجع البحث العلمى وأن ترسل البعثات إلى سوريا وفلسطين والعراق وإيران والهند ومراكش وغيرها لتبحث وتنقب وتعلم وتنشر العقلية المصرية فى أرجاء العالمين .

١٧ ـ يجب أن نهتم بالحفريات الخاصة بالآثار لتكشف مغاليق التاريخ المصرى فى عصوره المختلفة ولتخرج الكنوز التى لم تكتشف بعد .

١٨ ـ أما فى الطب ـ فيجب أن يعاود المصريون نبوغهم وإعجازهم الفنى لينقذوا الشعب فى مصر ولينقذوا الإنسانية من الأمراض العضالة التى تفتك بها .

١٩ ـ أما الأزهر ، فله دور عظيم يجب أن ينهض به وأن يستعيد مركزه القديم ، ويجب أن تسرى رسالته فى أنحاء العالم وأن يرتفع صوته عالياً بين الأمم الإسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والإسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب وفى أمريكا أيضاً . ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى إعلاء كلمة الحق والدين .

٢٠ ـ يجب أن تنشئ الحكومة المؤسسات لمساعدة المكتشفين والمخترعين .

٢١ ـ يجب أن يكون فى كل قرية مكتبة وأجهزة للراديو لسماع التعاليم الدينية والخلقية والعمرانية .

جهـادنا الاجتمـاعى

فى الدين والأخلاق

٢٢ ـ يجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .

٢٣ ـ يجب أن نرقى الأخلاق وأن نحارب الدعارة والخمور والتخنث .

٢٤ ـ يجب أن نتعلم الصدق وأن نخلص فى العمل ونستمسك بالتعاون وأن يحب بعضنا بعضاً .

٢٥ ـ يجب أن نقدس الشرف والواجب وأن نقلل من اللهو والمزاح .

٢٦ ـ يجب أن يصبح التجنيد إجباريا للجيش وأن تنقص مدة الخدمة فيه وأن يمتلئ الشباب بالروح العسكرى .

فى الأسـرة

٢٧ ـ يجب أن تنظم الأسرة على قواعد قوية من الحب والاحترام المتبادل بين الأبناء والآباء والجهاد المشترك . والوفاء بين الزوج وزوجته .

٢٨ ـ يجب أن نعنى بالطفولة باعتبار أنها مصر المستقبل .. مصر العظيمة .. فيجب أن نعدهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالاً منتجين .

٢٩ ـ يجب أن نرقى المرأة ونعلمها العلم الكامل لكى تكون زوجة صالحة ، ولتكون أمًّا تخلق الأبطال وليكون بيتها نعيم الحياة .

٣٠ ـ يجب أن نقضى على الأنظمة البالية التى تعرقل حركة الزواج فَتُلْغى المهور الباهظة والحفلات الهوجاء

فى الصحـة العـامة

٣١ ـ يجب أن يكون للصحة العامة المكان الأول فى جهود مصر الفتاة . يجب أن تكون سياسة الصحة هى سياسة الوقاية لا سياسة العلاج وإذن فيجب أن ينصرف الجهد إلى حماية الطفولة .. وإلى حماية الأبصار وإلى حماية الأبدان من الأمراض المتوطنة .

٣٢ ـ يجب أن توضع قوانين صارمة لإحلال النظافة فى كل شئ ويجب أن يجند الشعب فى الملاعب الرياضية لتخلق جيلاً كاملاً قويًّا سليماً وتمهيداً لذلك يجب أن ينشأ ملعب كبير بالقاهرة .

فى التأمين الاجتماعى

٣٣ ـ يجب أن ينظم التأمين الاجتماعى بحيث يصبح لكل فرد فى الأمة الحق فى أن يكون له عمل يعيش منه وإذا كان عاجزاً لا يستطيع العمل فيجب أن توجد الملاجئ ليأوى إليها .

٣٤ ـ يجب أن تُعَدَّ المستشفياتُ بحيث تتسع لقبول أى مريض يلجأ إليها . وأن تُنشأ فروع لكل أنواع الأمراض .

٣٥ ـ يجب أن يصبح الشعب شعباً مدَّخِراً وأن يُقْلِعَ عن الإسراف بتكوين رؤوس الأموال اللازمة لتكوين الإمبراطورية المصرية .

٣٦ ـ يجب أن يكون للشعب أعياده القومية ليحتفل بها كما يليق لشعب كبير لتكون أعظم مشجع على المضى فى طريقه إلى الأمام .

الأغانى والفنون

٣٧ ـ يجب أن تتبدل الأغانى لتكون مليئة بالقوة والحياة ويجب أن يحفظ المصريون النشيد القومى .

ويجب أن نعيد إلى الفنون عظمتها الفرعونية والعربية حتى تقف فى خدمة البعث والإحياء ، لا أن تكون وسيلة للهو والفجور .

القـــاهرة

٣٨ ـ ويجب أن ننظم القاهرة كما يليق بعاصمة الشرق فتؤلف لها بلدية وتوضع التشاريع لتجديدها وتنظيم أبنيتها وإزالة الأحياء القديمة بأسرها .

ويجب أن تطبع فى خططها بالطابعين العربى والفرعونى وأن تبنى منشآتها العامة على هذا الطراز وأن تنظم ميادينها وشوارعها وحدائقها كذلك .

وســـائلـنا

أما وسائلنا للوصول إلى كل ذلك فليست حرباً وقتالاً وليست عدواناً أو صداماً ولكنها تتخلص فى كلمتين :

الإيمـــان ... العمـــل

* * *

هذا هو برنامج مصر الفتاة - وإنى إذ أكتب هذه السطور الآن بعد سنوات وسنوات من إذاعة هذا البرنامج .. وهو يبدو للقارئ اليوم باهتاً .. وقد تحققت بعض فقرات منه .. وبعض منها فى طريق التحقيق ... بل بعد أن تطورت برامجنا لتصبح أشد عمقاً وأعظم إحاطة بمشكلات مصر وشعبها . فلا زلت أذكر كيف اعتبر هذا البرنامج عندما أذيع لأول مرة خيالاً من الخيالات وكيف قيل عنه إنه عبث صبية أو هو رواية تمثيلية .

ولو لم أكن قريب عهد بالنجاح فى إنشاء مصنع الطرابيش لشك أقوام فى قواى العقلية .

حرب .. واضطهـــاد

وعلى أية حال فلم يكد يذاع هذا البرنامج حتى بدأت الحرب من كل جانب .. من جانب الإنجليز الذين يسيطرون على الحكومة ، ومن جانب الحكومة نفسها .. ومن جانب الوفد الذى يمثل الشعب ويقود الكفاح الشعبى . وهكذا وجدت مصر الفتاة نفسها مضطهدة من الجميع .. سجون ومحاكمات ومصادرات لصحفها ... وقذف بالطوب من أفراد الشعب الغاضبين لأن مصر الفتاة ليست وفدية ..

وانطلقت مصر الفتاة لا تلوى على شئ تحتمل الاضطهاد والعذاب من سائر الاتجاهات . لا قوة لها إلا بالله . ولا سلاح إلا بالإخلاص . انطلقت مصر الفتاة لا تحمل حقداً لمصرى واحد ولا تعرف الحسد ولا البغض وإنما توجه حربها لأعداء البلاد الحقيقيين وهم الإنجليز وتنفث فى الشعب من روحها ، روح الاستبسال فى المقاومة ، وروح الفداء والتضحية .

نجـــاح

وشهدت مصر الفتاة أول نجاح لجهودها فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ عندما خرج شباب الجامعة يهتفون «مصر فوق الجميع والمجد لمصر» مطالبين بالاستقلال والحرية. وفى ١٤ نوفمبر سقط أول شهداء لمصر الفتاة: عبد الحكم الجراحى وعبد المجيد مرسى. وكاد أن يلحق بهم ابراهيم شكرى لولا أن أنجاه الله.. وكان هذا بعثاً للوطنية المصرية مرة أخرى.. وآية جديدة على أن الأرض الطيبة يمكن أن تجود من حين لآخر بأطيب الثمرات.

ولكن هذه الوطنية الجديدة لم تستطع أن تفرض سلطانها حتى النهاية. لقد أعادت الدستور فاستقر بذلك بصفة نهائية.. ولكنها لم تستطع أن تحول دون دخول الحكومة فى المفاوضة مع الإنجليز ولم تستطع أن تحول دون إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦.

وهكذا استؤنف الصراع بين مصر الفتاة التى تحولت فى هذه الأثناء إلى حزب سياسى وبين هذه القوى الرجعية سواء ماكان منها فى الحكم أو خارج الحكم يتربص به.

ويضيق المجال مرة أخرى عن استيعاب الجهود التى بذلناها... محاكمات وقضايا فى عهد كل حكومة وفى عهد كل وزارة.. مئات من أبناء مصر الفتاة يدخلون السجون وتحاك لهم التهم.. ورحلات أجوب فيها البلاد سيراً على القدم.. واجتماعات حاشدة تقام وتؤمها الألوف.. ولحظات حالكة كهذه اللحظة التى أكتب فيها هذه الرسالة.. حيث يتفرق الأنصار رعباً وفزعاً من توالى الاضطهاد. واستئناف بعد ذلك للجهود حتى كانت الحرب.. والحرب هى فرصة الانجليز للتنكيل بمصر الفتاة فصودرت مطبعتنا وألغيت جريدتنا. وأغلقت دورنا فى كل مكان وزج بى فى الاعتقال الذى بدأ بسجن الأجانب.. ثم بمعتقل الزيتون، ثم فى معتقل خاص فى مصر الجديدة... واعتقل معى كل زعماء مصر الفتاة العاملين.. وانقضت سنوات ثلاث لا يسمع فيها صوت لمصر الفتاة أو حركة.. حتى ظن أنها أصبحت فى ذمة التاريخ..

ولكن الحرب انتهت وخرجنا إلى الحياة فبدأت من جديد.. وهأنذا أبدأ.. أبدأ كما بدأت منذ سنوات وسنوات حليف السجون، رهين المحاكمات. ولكن روح مصر الفتاة سادت فى كل مكان. وتغلغلت مبادئها فى نفوس الكافة.. فلم تعد خيالاً.. ولم تعد أحلاماً. ولم تعد رواية تمثيلية كما وصف برنامج مصر الفتاة الأول.

عندما كنا نقول لا تتكلم إلا بالعربية ولا ترد على من لا يخاطبك بها ولا تدخل محلاً لا يكتب اسمه بالعربية كان ذلك يعتبر تخريفاً وأحمد الله أن عشت حتى وجدت قانوناً يصدر فى مصر يحتم على الشركات أن تستعمل اللغة العربية وجاءت ساعات أسرع فيها الأجانب بتغطية لافتاتهم الأجنبية واستبدالها بلافتات عربية . وكنا ننادى بدك المحاكم المختلطة وأهتف من أعماق قلبى فى مقالاتى وخطبى «أليس منكم رجل رشيد يدك هذه المحاكم» وهذه المحاكم قد تحولت الآن إلى محاكم مصرية تقريباً وإن هو إلا بعض الوقت حتى تزول نهائيا من الوجود[1] . وعندما كنت أنادى أن يكون لمصر جيش وطائرات ودبابات ومدرعات حربية .. كان ذلك كله يعتبر ضرباً من الهذيان .. أما اليوم فجيشنا فى طريقه لأن يكون حقيقة مقررة . قد يكون لا يزال ضعيفاً أو يكون فى أول الطريق ... ولكن المهم أنه أصبح لنا جيش وباستطاعتنا أن نزيد منه وأن نضاعف فى قوته ..

وعندما كنت أدعو إلى إنشاء الصناعات المصرية وخلقها وتعزيزها وإلى ملء مصر بالجامعات وإلى مجانية التعليم ومحاربة الأمية ... كان ذلك كله يعتبر ضرباً من الهذيان .

وأخيراً عندما كنت أدعو لزعامة مصر للإسلام ، وقيادة البلاد العربية ، واعتبار مصر والسودان وطناً واحداً وجسداً واحداً غير قابل للتجزئة .. عندما كنت أكافح فى سبيل ذلك كله وفى سبيل إجلاء الإنجليز عن أرض الوادى ... كان ذلك كله يعتبر ضرباً من ضروب المستحيلات ... ولقد عشت حتى رأيت زعامة مصر للدول الإسلامية تلوح فى الأفق ، وحتى أصبحت قيادة مصر للبلاد العربية حقيقة مقررة ... ووحدة وادى النيل دين المصريين جميعاً من الإسكندرية حتى خط الاستواء .

ورأيت أكثر من ذلك كله .. رأيت أبناء مصر الفتاة الذين انتموا إليها فى يوم من الأيام وتلقوا تعاليمها ورضعوا لبانها ... رأيتهم يملأون البلاد حيوية وتقدماً وعلماً وفنا وقوة واقتداراً فى مختلف الميادين ... لقد نسوا مصر الفتاة أو تنكروا لها أو خرجوا عليها ... ولكنى وأنا أنظر إليهم من كل مكان وهم يتصدرون الصفوف هنا وهناك ... بل ومنهم

---

(١) عند طبع هذه الرسالة زالت المحاكم المختلطة نهائيا وأصبحت دارها هى دار القضاء العالى .

من يتصدى للزعامة ... أو التأثير فى الوسط الذى يحيط به ... أشعر بالرضا والاطمئنان لأن ذلك ليس إلا من ثمرات مصر الفتاة وحركتها ...

بل عندما أرى حركة قوية شاملة واسعة النطاق تعمل على بعث الإسلام بتعاليمه الصحيحة وأمجاده القديمة لا يزيدنى ذلك إلا رضا واغتباطاً .. فقد سبقت مصر الفتاة بهذه الدعوة ... وكانت أول من مزج الكفاح السياسى بتعاليم الإسلام ... بل إنى لأذكر باعتزاز أننى قدمت للمحاكمة فى سنة ١٩٣٨ بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم بالقوة وأننى أنادى بالقرآن دستوراً وبإعادة تنظيم المجتمع على مبادئ الإسلام ...

وعندما أرى جيلاً جديداً من الشبان يكافحون باسم الاشتراكية أو الشيوعية ويهدفون من وراء كفاحهم إلى إنهاض الفلاحين والعمال ويؤسسون كل دعواهم على العمل لرفاهية الفلاحين والعمال ... فليس هناك ما يملأنى سعادة أكثر من ذلك وحسبك أن تطالع هذه السطور الأولى من هذا البرنامج الذى نادت به مصر الفتاة فى سنة ١٩٣٣ لتراه متوجاً باسم الفلاح الذى اعتبر حجر الزواية فى البناء القومى .

لم تذهب جهودنا إذن عبثاً .. ولم تضع أرواح شهدائنا هباء .. لقد غرسنا للوطنية غراساً جديداً بدأ يثمر ويؤتى أكله .. وسواء اعترف الناس لمصر الفتاة أو لم يعترفوا .. سواء أدركت الأمة أن كفاح مصر الفتاة هو خالق هذه النهضة الجديدة أو لم تدرك .. فإن باستطاعتى إذا ما جاء يومى الأخير أن أغمض عينى مرتاح النفس والضمير أننى أديت واجبى وبذلت غاية جهدى لتحرير بلادى وإنهاض مواطنى .

سجن مصر فى ١٩٤٦/٣/١٥

نحو الاشتراكيـة ...

إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ - برنامج لإخراج الانجليز وتحقيق المجد المصرى

أى بنى

ماأعجب هذا القدر مرة أخرى . لقد بدأت هذه الرسالة فى السجن عام ١٩٤٥ وتشاء الظروف أن يشرع فى طبعها وأن تعرض علىّ وأنا فى سجنى مرة أخرى فى أكتوبر سنة ١٩٥١ وماأعظم الانقلاب والتطور الذى يجرى فى هذه الأيام .. وما كان لرسالة فى الوطنية أن تصدر فى هذه الأيام دون أن تتحدث عن هذا الذى يشغل الأمة كلها .. ودون أن تشير لهذا الكفاح وهذه الحرب التى أعلنت رسميا بيننا وبين الانجليز .

وماأسعدنى مرة أخرى أن أعيش حتى أرى بعينى رأسى مصطفى النحاس وهو يلغى معاهدة سنة ١٩٣٦ ومعاهدتى سنة ١٨٩٩ ... ماأسعدنى أن أعيش لأرى كل مادعت إليه مصر الفتاة ، وبشرت به ، وكافحت فى سبيله يوشك أن يتحقق . فإعلان الحرب على الإنجليز هو مطلبنا الأول وإجلاؤهم عن مصر والسودان هو ماتعذبنا من أجله وما احتملنا فى سبيله الآلام ...

وفى هذه الساعات التى أخط فيها هذه الحروف تتضرج أرض مصر بدماء الشهداء ... الشهداء الذين سقطوا صرعى رصاص الانجليز بعد أن أعلنت الحكومة إلغاء المعاهدة . وتلتهب مصر بنار الوطنية وتوشك أن تنفجر غضباً وثورة على الانجليز أعداء البلاد ... ولأول مرة فى تاريخ مصر مذ دنسها الانجليز بأقدامهم فى سنة ١٨٨٢ تقف مصر حكومة وشعباً ضد الانجليز .. فهى الحرب .. الحرب الفعلية بيننا وبين الانجليز وإن كانت لم تأخذ صورة الحرب النظامية .

وماأشق هذه اللحظات علىّ وأنا حبيس بين الجدران الأربعة فى الوقت الذى كان يجب أن أكون فيه حرا عاملاً مع العاملين على تنظيم صفوف المجاهدين .

فقد أسرعت إلى تأييد رئيس الحكومة التى ناصبتنى العداء طوال عامين كاملين ...

أسرعت إلى تأييدها ناسياً كل خصومة وكل خلاف ... ذلك أن الوطنية الصادقة لاتعرف عند الخطر إلا هدفاً واحداً وهو إنقاذ الوطن . ولقد أعلنا الحرب على الانجليز ويجب أن نخرج من هذه المعركة فائزين ولاسبيل لذلك إلا بالتعاون والاتحاد بين جميع المصريين وهذا ماجعلني أسارع إلى تأييد الحكومة .

عود على بدء

تركتك فى عام ١٩٤٦ ونحن الآن فى عام ١٩٥١ وبين هذه الأعوام الخمسة واصلت مصر الفتاة الجهاد شاقاً كأشق ماكان فى أى يوم من الأيام .. باذلة من التضحيات ومتعرضة للخطر ، دأبها فى العشرين سنة الماضية .. فلم أكد أخرج من السجن فى سنة ١٩٤٦ وتسقط وزارة اسماعيل صدقى وترفض وزارة النقراشى نتيجة المفاوضات التى اشتهرت باسم «صدقى - بيفن» حتى أسرعت إلى أمريكا لإعلاء كلمة مصر والتنديد بالسياسة الانجليزية ومطالبتها على ملأ من العالمين بالجلاء عن بلادنا ... وقد أشعلت هذه الرحلة حماس المصريين فوقف الشعب إلى جوارى وأمدنى بالأموال اللازمة لمواصلة الدعاية . ولقد طفت أمريكا من مشرقها لمغربها وخطبت فى كنائسها وفى جامعاتها .. واتصلت بصحافتها وببعض نوابها وشيوخها وطبعت كتباً ... واصطدمت بصحافتها اليهودية حتى لقد رفعت قضية ضد أحد كبار الصحفيين بها . وأخيراً نشرت جريدة النيويورك تيمس أعظم الصحف الأمريكية صفحة كاملة للدعاية لقضية مصر وقد كان لها أكبر الأثر فى هز أعصاب الانجليز حتى لقد كان نشر هذه الصفحة محل سؤال وجواب فى مجلس العموم الانجليزى . وتقدمت بمذكرات ورسائل عن قضية مصر لهيئة الأمم عن طريق سكرتيرها وعقدت مؤتمرات صحفية .. أحدها فى هيئة الأمم بالذات ولكنى عدت من أمريكا كافراً بالأمريكان وديمقراطيتهم المزعومة موقناً أنهم يعملون على سيادة العالم وإخضاعه لاقتصادياتهم وأنهم فى الطريق لإشعال نار حرب عالمية ..

ولقد أدركت أننا سنخسر قضية فلسطين لا لأن الأمريكان يعطفون على اليهود كما يتصور كثيرون من السذج ولكن لأن أمريكا تتخذ من اليهود ومن إنشاء دولتهم الجديدة سلماً تصل به إلى تحقيق أغراضها فى الشرق الأوسط الذى تعمل على بسط نفوذها عليه .

ولم أكد أعود إلى مصر حتى رفعت مصر قضيتها أمام مجلس الأمن فخذلنا كما كان متوقعاً .

وفتحت معركة فلسطين على مصاريعها فأسرعت مصر الفتاة إلى المساهمة فيها وإلهاب عواطف الشعب للوقوف إلى جنب فلسطين وأسرعت لأكون أول متطوع مصرى يُهرع إلى ميدان فلسطين فالتحقت بمعسكر التدريب الذى أقامته الحكومة السورية فى قطنة .. وإن هو إلا قليل من الوقت حتى لحقنى الرعيل الأول من أبناء مصر الفتاة مؤلفين كتيبة مصطفى الوكيل التى كانت أول من دخل إلى فلسطين واشتركت فى معاركها الأولى فى الجهة الشمالية ولم تلبث مصر كلها أن جاءت فى آثارنا حكومة وشعباً ودخل متطوعو الإخوان المسلمين من الجنوب فأبلوا بلاء حسناً ودخلت الجيوش المصرية فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ مشتبكة فى حرب رسمية مع جيوش إسرائيل .. وتدخلت الدول الأجنبية وفرضت على مصر هدنة بعد الأدوار الأولى من القتال . وفى خلال الهدنة تمكن اليهود من تعزيز صفوفهم واستجلاب أسلحة جديدة . وعملت السياسة الانجليزية على إيقاع الخلاف بين صفوف البلاد العربية . مما أدى إلى انقلاب الموقف فى فلسطين وكادت تحيق بالجيوش المصرية كارثة محققة .. وانتصر اليهود وهزمت مصر والبلاد العربية وقامت دولة إسرائيل .. ومرة أخرى أصيبت معنويات مصر بضربة شديدة هبطت بها إلى أحط الدركات .. وحكمت مصر حكماً داخليًّا عرفيا كأسوأ ماعرفته فى أى يوم من أيام حياتها واصطدمت حكومة السعديين مع الإخوان المسلمين اصطداماً دامياً فأدى ذلك إلى وقوع حوادث اتخذتها الحكومة سبيلاً لنشر جو خانق من الإرهاب فاكتظت المعتقلات بالمعتقلين . وأهدر القانون ومايقدمه الناس من ضمانات لتحقيق العدالة . وغرقت البلاد فى لجة من الظلام والفساد والطغيان كأحلك ماعرفت فى أى يوم من الأيام .

رحلة إلى انجلترا

وفى هذه الأثناء رأيت مرة أخرى أن أسافر إلى انجلترا كما فعلت من قبل مرتين لأدعو للجلاء والوحدة وأستشف سياسة الانجليز حيال مصر .. ولم أكد أصل إلى انجلترا حتى أدركت مدى التدهور الذى وصل إليه مركز مصر فى انجلترا وفى العالم بعد هزيمة فلسطين .. فقد أصبحت مصر وحكومتها أضحوكة الصحافة الانجليزية .. وسرعان ماإكتشفت أن ذلك لم يكن مقصورًا على الصحافة الانجليزية بل أصبح يشمل صحافة الدنيا كلها .. وأصبح كل حديث عن جلاء الانجليز عن مصر والسودان يقابل بسخرية لاعهد لى بها من قبل فى كل زياراتى لانجلترا . وأسفر الانجليز عن نواياهم فى احتلال مصر والسودان كما يحلو لهم .. وأنهم فى مصر ... وسيظلون فى مصر معتمدين على قوتهم .

وسمعت لأول مرة حملة العالم الشعواء على نظام الحكم فى مصر والتنديد بما بها من فقر وجهل ومرض ، وكيف أن شعبها يُستغَل لمصلحة حفنة من الأغنياء والرأسماليين ... وفى كلمة وجدت العالم ينظر إلى مصر من خلال زاوية جديدة ... وهى زاوية الاشتراكية التى أصبحت تغمر العالمين إما على صورة يسارية كما هو الشأن فى شرق أوروبا ... أو على صورة يمينية كما هو الشأن فى انجلترا وفرنسا ودول غرب أوروبا ... وإما تحت اسم ديمقراطية وعدالة اجتماعية كما هو الشأن فى أمريكا ... لقد أصبح العالم كله لايفهم وجود طبقة من الأغنياء فى مجتمع من المجتمعات ووجود طبقات أخرى من الفقراء ...

أصبح العالم المتمدين لاعمل له إلا محو الفوارق بين صفوف الشعب عن طريق فرض الضرائب التصاعدية التى لاتسمح لمواطن أن يزيد دخله عن قدر معين حدد فى انجلترا بخمسة آلاف من الجنيهات فى العام ... وحدد فى أمريكا بضعف ذلك وفى بلاد أخرى بأقل من ذلك كثيراً .. والمهم أن الضرائب أصبحت تتكفل بالتقريب بين الصفوف وأصبحت الدولة تشعر بمسئوليتها تجاه كل مواطن من حيث المحافظة على صحته ، وتوفير وسائل العمل له ... بل أصبح شعار الأمم المتمدينة هو «رعاية المواطن من المهد إلى اللحد» .

ووزعت الأراضى الزراعية على العاملين فيها بأنفسهم . وأممت مصادر الإنتاج الكبرى فأصبحت ملكاً للمجموع ... وهكذا سادت المبادئ الاشتراكية فى كل مكان .

ولقد حفزنى ذلك على دراسة الاشتراكية علماً وعملاً ... فوجدتها ترمى إلى كل هذا الذى تدعو إليه مصر الفتاة منذ يومها الأول . ترمى إلى حق المساواة الحقة بين المواطنين وإزالة الفساد والاستغلال ومظاهر الطغيان . وتضع لذلك أصولاً وقواعد كأنها اشتقت من الإسلام اشتقاقا . فالاشتراكية لاتعترف بغير العمل مصدرا للإنتاج . فلاتعتبر رأس المال أحد مصادر الإنتاج وكذلك تعمل بالشريعة الإسلامية التى تحظر الربا أى فائدة رأس المال إيماناً منها بأن رأس المال لادخل له فى الإنتاج ولذلك فلايستحق فائدة من أى نوع كدن وإنما العمل والعمل وحده هو الأولى بالحصول على ثمرةماينتج . وذلك هو محور الاشتراكية وهو محور الاقتصاد الإسلامى ... تقول الاشتراكية إنه ليس لأى مواطن عائد إلا بمقدار عمله وتقول الشريعة «وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يُجزّاهُ الجزاء الأوفى» .

تريد الاشتراكية أن تقضى على الفقر وأن تخلق من المجتمع جسداً واحداً يعمل فى تعاون وتناسق وفق خطط موضوعة وقواعد مقررة ـ وتقول الشريعة «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» .

فالاشتراكية كما يطبقها العالم الحديث هى روح الإسلام وهى تعاليم مصر الفتاة التى كافحت فى سبيلها ، خاصة وأن الاشتراكية تحارب الاستعمار وهى العلاج الحاسم للقضاء عليه . فالاستعمار هو ذروة الرأسمالية والشعب الانجليزى لم يستعمر مصر إلا ليتخذ منها سوقاً لاستثمار رؤوس أمواله سواء بتشغيل الأموال بإنشاء البنوك والشركات فى مصر ... أو باتخاذها سوقا لتصريف البضائع التى تنتجها الشركات فى بلاده . وتستعمر فرنسا شمال أفريقيا لهذا الغرض ...

وكل الدول المستعمِرة إنما تَستَعْمِرُ لاستثمار رؤوس الأموال . فإذا قضينا على هذه الوسيلة لاستثمار رؤوس الأموال ... إذا جعلنا المرافق العامة مملوكة للدولة .. وإذا أممنا مصادر الإنتاج وأصبحت كلها مملوكة للدولة ... فلم يعد هناك سبيل لاستغلال هذا المرفق أو ذاك ... لم يعد هناك سبيل لإنشاء شركات وبنوك ومتاجر ... وبالتالى لن يجد الاستعمار فائدة له يجنيها من وراء احتلاله هذا البلد أو ذاك .

الاشتراكية هى الترياق لسم الاستعمار ... والاشتراكية هى الدواء لكل ماتشكو منه مصر . فهذا الريف المصرى الذى يعيش فى حالة مزرية جعلته غير صالح للجهاد فى سبيل أى معنى من المعانى الكريمة ... سرعان ماينقلب رأساً على عقب بتطبيق القاعدة الاشتراكية وهى أن ملكية الأرض للعاملين عليها . ففى مصر مايقرب من ثلاثة ملايين فدان يملكها بضعة عشر ألف شخص . وهؤلاء البضعة عشر ألف هم الذين يملكون الأرض ويملكون الصناعة ويملكون التجارة ... وهؤلاء هم الذين يخرج منهم النواب والشيوخ والوزراء والسفراء ... وهؤلاء هم الذين يملكون زمام الحياة المصرية فلا يعنيهم من أمرها إلا أن يعيشوا فى رفاهية وبحبوحة وهذا هو مايحققونه لأنفسهم بالفعل ولاعليهم ماذا يكون نصيب باقى المواطنين .

الاشتراكية دواء لكل ذلك ... فهى لاتسمح بتكديس الملكية وكل مصادر الثروة فى يد هذا العدد المحدود ... بل لابد من توزيعها على أكبر عدد من العاملين ... وبانتشار

الثروة على أكبر عدد ممكن تنتشر الكرامة والحرية والعزة ويتحول هذا الريف إلى قوة حية عاملة .

وتعانى مصر ضعفاً فى الإنتاج وذلك بسبب النظام الرأسمالى الذى يجعل الإنتاج معلقاً بمشيئة الأفراد إن شاءوا أنتجوا وإن شاءوا لم ينتجوا ... ففى مصر حديد كأعظم مايوجد فى أى بلد من بلاد العالم ... ولكنه ظل حتى الآن عشرات السنين بدون استغلال وسيبقى كذلك مئات السنين مالم يتقدم أحد الأغنياء لاستغلاله ... وفى مصر أراض صالحة للزراعة ... ويقذف النيل كل يوم فى خلال مدة الفيضان بألف مليون متر مكعب من المياه العذبة المحملة بالطمى الذى هو مصدر الخصوبة والحياة ... تذهب هذه المياه سدى فى كل عام إلى البحر .

وعندنا الأرض التى لو رُويت بهذه المياه لأنتجت أضعاف أضعاف ماتحتاجه البلاد ... ولكن هذه المشروعات تبقى بغير تنفيذ إلى أن يتقدم رجل غنى ليتولى استصلاح ألف فدان أو ألفين .. وما كان للأمم أن تعيش على هذا الأسلوب تحت رحمة بعض أفراد منها إن شاءوا عملوا وإن شاءوا لايعملون .

فمشكلة الفقر ومشكلة الجهل فى مصر لاسبيل لحلها إلا باتباع الطرق الاشتراكية وهى وضع خطط مشتركة لتنفذ فى مدة محددة كخمس سنوات يقوم فيها كل مواطن بدور محدد معلوم لمضاعفة الإنتاج وزيادته . أى أن الإنتاج يتم وفق خطة جماعية يصدر بها قانون ويتعين على كل مواطن أن يقوم بالدور المرسوم له فى هذا القانون .

وبهذا الأسلوب نستطيع أن نضاعف ثروتنا الزراعية والصناعية .. وبهذا الأسلوب يعبأ كل المصريين للعمل على أحدث النظم العلمية فإن هى إلا خمس سنوات فى ظل إنتاج اشتراكى حتى يتحرر وادى النيل من كل مظاهر الاستعمار الأجنبى . وحتى نرتفع بمستوى الشعب فلا يكون هناك جاهل واحد ولافقير ، بل الكل مواطنون كرماء أعزاء يعملون بجد واجتهاد ويلقى كل منهم مكافأته على عمله التى تتناسب مع كفاءته وإنتاجه وعندما يصل المجتمع إلى هذه المرتبة فإنه يصير مجتمعاً حرًّا منيع الجانب غير قابل للاستغلال أو الاستعمار .

الحزب الاشتراكى

ومن هنا فقد رأيت أن الساعة قد حانت لاستبدال اسم مصر الفتاة باسم حزب مصر

الاشتراكى ليكون ذلك أكثر دلالة على أهداف الحزب ومراميه ... فما مشروع القرش إلا حركة اشتراكية .. وما كان كفاح مصر الفتاة إلا على قواعد اشتراكية ... وإذا أصبحت الاشتراكية هى نظام العالم الحديث ... فقد أصبح من الحق أن نسمى الأشياء بمسمياتها وأن نصف مصر الفتاة بوصفها الصحيح وهو الاشتراكية ... وهى الاشتراكية التى هى من صميم الاسلام ولب دعوته ...وهكذا أعلنا برنامج الحزب الاشتراكى .

* * *

المبادىء الرئيسية للحزب الاشتراكى

١ ـ الله والشعب :

الإيمان بالله خالق هذا الكون وعبادته هو أساس الاجتماع البشرى ، وعبادة الله لاتتجلى فى شىء قدر تجليها فى خدمة الشعب فى صدق وإخلاص ، دعت إلى ذلك الأديان السماوية . فهدف الحزب وشعاره هو عبادة الله عن طريق خدمة الشعب . بتحريره من الخوف والجهل والمرض والعوز ، وحمايته من أن يقع فريسة القهر أو الإعنات أو الاستغلال ، فالحرية الشخصية وحرية الخطابة وحرية العقيدة وحصانة المسكن وحرية الصحف وحرية الاجتماع والتظاهر السلميين ، وحق الشعب فى تأليف الجمعيات والاتحادات ، وحق كل فرد فى السعى لترشيح نفسه للنيابة وتقلد الوظائف العامة للاشتراك فى إدارة بلاده ، وحرية الانتخابات ، وبالجملة كل ماتضمنه الدستور المصرى من حقوق للشعب ـ باعتباره مصدر السلطات ـ كل هذه يعتبرها حزب مصر الاشتراكى حقوقاً مقدسة ودعائم قوية للمحافظة على كيان الشعب المصرى . وكل محاولة للانتقاص منها أو المساس بها فضلاً عن إهدارها لأى سبب من الأسباب تعد بمثابة اعتداء على الأمة وخيانة لها يترتب عليها تعريض البلاد للمخاطر والفتن فى الداخل وفقدان الاستقلال من الخارج .

٢ ـ التأمين الاجتماعى :

المصريون جميعاً منذ ولادتهم حتى نهاية حياتهم فى كفالة الدولة التى يتعين عليها أن تسهر عليهم منذ الطفولة المبكرة بأن تعاون الأمهات والآباء على إحسان تربيتهم ومدهم بالغذاء الكافى والعناية الطبية اللازمة . وتأمينهم بعد ذلك ضد المرض والبطالة والعجز والشيخوخة ، ضامنة لهم حدًّا أدنى من المعيشة الكريمة اللائقة بما وصلت إليه الإنسانية من الحضارة المادية والعلمية ، فلا يكون هناك بيت خال من الماء أو الكهرباء ولايكون هناك مصرى لايتذوق نعم الحياة الحديثة التى لم يخلقها الله لتكون وقفاً على أناس دون أناس .

٣ ـ حق التعليم :

التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية واجب على كل مصرى ومصرية بالمجان ، وحق التعليم لمافوق هذه المرحلة هو من حق كل مصرى ومصرية لاتحول بينه وبينها موانع من المال أو قلة الأمكنة ، ومهمة الدولة أن تضع برنامجاً يتم فى خمس سنوات يقضى فى ختامها على الأمية فى طول البلاد وعرضها . ولايدع طفلاً فى سن التعليم بغير تعليم أو راغباً فى التعليم العالى بدون تحقيق بغيته .

٤ ـ حق العمل :

العمل واجب على كل مصرى وهو فى ذات الوقت حق له ، فلا ينبغى أن يكون هناك مصرى واحد بغير عمل ، كما لاينبغى أن يطلب مصرى واحد العمل فلا يجده . وحق العمل مشفوع بحق الراحة بأجر . ويتقاضى كل عامل مايتناسب وكفاءته من ناحية وحالته الاجتماعية من حيث عدد أفراد أسرته من ناحية ثانية بحيث يهىء له الأجر مضافاً إلى الخدمات الاجتماعية هذه المعيشة اللائقة التى تضمنها الدولة .

وللعمال حق تكوين الاتحادات العامة التى يهيمن عليها اتحاد أعلى يكون هو الواسطة لتنظيم علاقة العمال بأصحاب الأعمال وبالدولة .

٥ ـ الإنتاج الجماعى :

هدف حزب مصر الاشتراكى أن يحل الإنتاج الجماعى محل الإنتاج الفردى ليكون المقصود منه هو تحقيق مصلحة المجموع . ولكى يمكن أن يتم الإنتاج سواء فى الزراعة أو الصناعة أو التبادل التجارى وفق خطة مدروسة ومشروعات شاملة تضعها الدولة لعدة سنوات متتالية ولكى يمكن منع إنتاج أو استيراد مواد للترف وصنوف الكماليات التى لايستعملها إلا فريق ضئيل من الناس .

ويجب أن يشرع على الفور فى وضع مشروع ضخم يتم خلال ست سنوات على مرحلة واحدة أو مرحلتين ، كل منها ثلاث سنوات ، ويهدف إلى مضاعفة محاصيل الأرض المزروعة فى الإنتاج الزراعى بزيادة المنزرع فى الوقت الحاضر وبإضافة أراضٍ جديدة إليها ، ولتصنيع البلاد بإنشاء الصناعات الثقيلة وصناعة الآلات وتوليد القوى الكهربائية ، وصناعة محاصيل البلاد الزراعية ، وذلك لرفع مستوى معيشة الشعب وتحصين البلاد ضد الغزو والاستغلال الأجنبى .

ويجوز للأفراد فى مرحلة الانتقال امتلاك المصانع وإنشاؤها وإدارتها بشرط أن يتفق وجودها وإنشاؤها مع البرنامج الذى تضعه الدولة وبشرط أن تعمل وفقاً للشروط التى تضعها الدولة لنظام العمل وثمن السلع وكيفية التصرف فى إنتاجها . على أن الصناعات الكبرى والرئيسية وكل الصناعات التى تتصل بالمنفعة العامة للشعب كالمياه والنور والمواصلات التى ستقوم الدولة بإنشائها وفق مشروعاتها الموضوعة ، هذه كلها لايمكن أن تكون محلاً للاستغلال أو الكسب أو لأهواء الفرد بل تكون مملوكة للدولة ، أى المجموع .

٦ ـ ملكية الأرض الزراعية :

لعلاج الأوضاع الحالية فى مصر ـ عن طريق قانونى ودستورى وعلى سبيل التدريج ـ تبتاع الدولة أطيان جميع الملاك الذين تزيد ملكيتهم عن خمسين فداناً ، أو الذين تقل ملكيتهم عن هذا القدر ولا يعملون فيها وذلك فى مقابل سندات على الخزينة المصرية تستهلك فى خمس وعشرين سنة وتخول لحاملها ربحاً سنويًّا وقابلة للتداول ليتمكن من بيعها واستغلال أمواله فى نواح أخرى . وتوزع الدولة الأراضى المشتراة على الذين يرغبون شراءها من صغار الملاك الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة أو المزارعين الذين اعتادوا العمل فيها أو استئجارها وذلك فى مقابل أقساط صغيرة على آجال طويلة تدفع من محاصيل الأرض نفسها أو بالنقد على حسب اختيار المشترى ، على أن لايزيد مايمتلك بهذا الأسلوب على خمسة أفدنة . وعلى أن يتم الإنتاج الزراعى فى سائر أنحاء البلاد بصورة جماعية فيؤلف ملاك ومزارعو كل بلد أو قرية يزيد زمامها عن ألف فدان جمعية تعاونية للانتاج على صورة اتحاد زراعى ليتسنى للدولة التعامل معهم وإحاطتهم بخططها فى الانتاج ولتمدهم من ناحية أخرى بالآلات والأموال والفنيين اللازمين لجعل الإنتاج الزراعى على أساس علمى حديث ، والانتفاع بثمرة الانتاج الكبير ، ثمرة الخطط الموضوعة وتتولى اتحادات الملاك والزراع بمعاونة الدولة إعادة تخطيط وبناء القرية المصرية على صورة إنسانية كريمة ، على أن يوضع لذلك برنامج شامل يتم فى خمس سنوات .

٧ ـ الفوارق الاجتماعية :

تتولى الضرائب التصاعدية وضرائب التركات والضرائب على الكماليات إعادة توزيع الثروة فى مصر توزيعاً عادلاً . فلا يسمح بزيادة دخل الشخص عن حد معين يكفل له حياة طيبة فى غير بطر أو تجبر .

٨ ــ مصر والسودان :

هدف حزب مصر الاشتراكى منذ أسس فى عام ١٩٣٣ باسم مصر الفتاة هو تحرير وادى النيل من ربقة الاستعمار الأجنبى . ولذلك فقد عمل ويعمل لتحقيق هذه الغاية . ومع إيمانه بأن مصر والسودان وحدة اقتصادية واجتماعية واحدة ، وأن النيل لايتجزأ ، فهو مع ذلك يقدس حق الشعب السودانى فى اختيار شكل حكومته بعد جلاء الانجليز عن بلاده ، وتحديد الصورة التى يرغبها فى التعاون بينه وبين الشعب المصرى على قدم المساواة فى ظل النظام الاشتراكى الديمقراطى .

٩ ــ الولايات العربية المتحدة :

يعمل حزب مصر الاشتراكى على توحيد الشعوب العربية كلها فى ظل دولة واحدة يطلق عليها اسم الولايات العربية المتحدة ، حيث يحتفظ كل شخص عربى فى ولايته بشخصيته وطابعه واستقلاله بشئونه الداخلية ، وأن يتعاون الجميع كدولة واحدة على مايرفع من مستوى الشعوب العربية اقتصاديًا واجتماعيًا بتنظيم الانتاج والتوزيع فيما بينها طبقاً للنظم الاشتراكية ، وأن يتألف من الجميع جيش واحد لصد أى عدوان يقع من الخارج على الكتلة العربية ، أو أى محاولة أجنبية من أى نوع كان للاستغلال أو التحكم .

١٠ ــ التآخى العالمى :

يؤمن حزب مصر الاشتراكى بوجوب توطيد السلام العالمى على التآخى بين البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم ، ومقاومة كل محاولة أو فكرة ترمى إلى الاستعمار أو الاستعلاء أو استغلال إنسان لأخيه الإنسان ، أو تحكم دولة كبيرة فى أخرى صغيرة ، وتنظيم الانتاج العالمى على أساس التعاون بين الدول ، وتبادل المنافع ومراعاة مصلحة المجموع ، وتأييد حق كل إنسان فى أن يحيا حياة حرة كريمة .

١١ ــ الوسيلة :

لاسبيل لتحقيق المبادئ السابقة إلا بنشر العلم والأخلاق وتربية الشعب تربية اجتماعية على أوسع نطاق . ولذلك فإن الحزب يعمل جهد طاقته فى هذا السبيل ويشجع كل مجهود يبذل فى هذا الاتجاه . ويحمى حرية الفكر وحرية البحث العلمى وحرية العقيدة

وينكر كل الإنكار أى محاولة لاستعمال القوة أو الإرهاب لتطبيق المبادئ السابقة ، او محاربتها فضلاً عن استخدام الجريمة ويعتبر ذلك كله شرًّا لاينتج إلا الشر.

ويؤمن الحزب أن حب الخير وإقناع الناس به والإخلاص فى القول والعمل هو كل السلاح اللازم لتحقيق البرنامج السابق.

مواصلة النضال :

وقد أعلن البرنامج وبدأنا حملة جديدة بعزم جديد وصدرت جريدة مصر الفتاة تحمل كلمة الاشتراكية وتدعو لمحاربة الاستعمار وتحرير الطبقات الكادحة وتحميل الدولة مسئولية رعاية المواطنين.

واستجاب الشعب للدعوة بعد أن وصلت إلى صميم علته ونجحت فى تشخيص مرضه ... فأقبل على الاشتراكية إقبالاً منقطع النظير ... وضاقت الحكومة ذرعاً بذلك كله فصادرت واضطهدت ثم ألغت الجريدة ... ولكن الحرية الزاحفة وجدت فى قضاء مجلس الدولة حصنها ودرعها الواقى فعاودت الجريدة المعطلة الصدور وصدرت إلى جوارها جريدة أخرى هى الشعب الجديد وقادت الجريدتان الأمة والشعب نحو فجر جديد من الحرية والإخاء والمساواة.

وقدم ممثل الحزب فى البرلمان بطل مصر الفتاة المغوار إبراهيم شكرى سلسلة من التشريعات الاشتراكية كتحديد الملكية بخمسين فدانا وتوزيع ما زاد على ذلك على صغار الفلاحين. وتشريع آخر بإلغاء الرتب والألقاب وتشريع ثالث بتنظيم اتحادات الفلاحين والعمال. وقاد الحملة فى البرلمان وقادت جريدتا الاشتراكية الحملة خارجه... وبدأت المحاكمات مرة أخرى وبدأت السجون والاضطهادات ... ولكن ذلك كله لم يزد الاشتراكية إلا رسوخاً وثباتاً ... ولم يزد الشعب إلا ثقة بها والتفافاً حولها ... ولقد تجلى ذلك كأروع ماتجلى فى تاريخ مصر عندما احتشدت عشرات الألوف فى الاجتماع الذى دعا إليه الحزب فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٥١ وهو ذكرى توقيع المعاهدة لإظهار مشيئة الشعب فى إلغاء المعاهدة. لقد تجمعت جموع لم يسبق أن تجمعت فى تاريخ مصر فى اجتماع واحد وتكلم ممثلو الهيئات الشعبية الذين دعاهم الحزب الاشتراكى للكلام إيماناً منه بوجوب التكتل والاتحاد فى هذه المناسبات القومية ... وانتهى الاجتماع بإصدار

قرارات جماعية بضرورة إلغاء المعاهدة واستعداد الشعب للالتفاف حول حكومته بمجرد أن تخطو هذه الخطوة .

الحكومة تعمل :

ولقد خطت حكومة النحاس باشا هذه الخطوة فألغت فى ١٦ أكتوبر المعاهدة وعدلت الدستور لإظهار وحدة وادى النيل بجعل ملك مصر ملكاً على مصر والسودان ...

وهكذا ألقت الحكومة القفاز فى وجه الانجليز وكان حقا على الشعب وعلى رأسه الاشتراكيون أن يَخِفّوا لتأييد الحكومة وأن يُظاهروها فى موقفها الوطنى الكريم .. وهو مافعلناه فى غير تحرج أو تردد .

فى السجن :

وها أنذا مرة أخرى أجلس فى السجن ... وتقوم الدنيا وتقعد بعد أن ألغيت المعاهدة ... وسواء أدركت مصر أو لم تدرك كيف أن الفضل الأول لإلغاء المعاهدة هو لكفاح الاشتراكيين فى هذا العام الأخير ... فلولا هذا الضغط المستمر المتواصل لماأقدمت الحكومة على الخطوة بعد أن وجدت أن لامناص لها من الإقدام عليها إذا أرادت أن تظل محتفظة بشعبيتها ... بل إذا أرادت أن تظل محتفظة بكرسى الحكم ...

إلى الأمام :

وأيًّا كان الدافع الذى حدا بالحكومة فلها الشكر والحمد والثناء ... وأيًّا كان نصيبنا من تقدير الناس فذلك لايعنينا فى قليل أو كثير ... فشعارنا الدائم ....ووطنيتنا الصادقة هى التى تجعلنا نستمد الرضاء من داخل نفوسنا ... ولا ننتظر من أحد جزاءً ولا شكوراً ... وأيًّا كان تطور الحوادث .. وأيًّا كان القدر الذى ينتظرنا .. فسوف نمضى .. سوف نمضى يابنى لتحقيق هذا الذى نسعى لتحقيقه منذ عشرين سنة ... وهو أن نجعل وادى النيل كما كان ... وكما أعدته الطبيعة ، وكما يهيئه له مركزه التاريخى ... سنمضى لنجعل من وادى النيل دولة عظمى تقود العالمين .. لابقوة السلاح ولابقوة البطش والسلطان ولكن بقوة العلم وبقوة الحضارة وبقوة الإيمان ...

سنمضى حتى نرى وادى النيل هو قلب أفريقيا الخفاق وهو الذى يشع بالنور خلال هذه القارة المظلمة فيحيل ظلامها إلى نور وهّاج .. سنمضى حتى نجعل وادى النيل كهف

الحرية لكل الشعوب العربية والإسلامية .. سنمضى لجعل وادى النيل حجر الزاوية فى سلام العالم وطمأنينته وأخوته .

سنمضى لجعل وادى النيل علماً على آخر ماعرف البشر من رقى وحضارة وتسامح وتآخ بين الناس حيث لاطغيان ولافساد ولا استغلال ولا استعلاء ، وإنما مجتمع عالم فاضل يعمل فى تعاون وتناسق على إسعاد المجموع وإسعاد العاملين .

وباستطاعة الاشتراكيين أن يجعلوا هذه المعركة الدائرة الآن بين مصر وبين انجلترا هى نقطة البدء لتحقيق هذا البرنامج ... باستطاعة الاشتراكيين أن ينظموا الشعب للانتصار على الانجليز ... ومواصلة الانتصار بعد ذلك على بقية الأعداء مخلفات الانجليز وأعنى بها الفقر والمرض والجهل والفساد والطغيان .

قد تتاح الفرصة أو يحال بيننا وبينها ... ولكن القافلة تسير ... تسير والإيمان يحدوها والأمل يرف عليها والنصر غايتها ...

الأرض الطيبة :

وسأمضى سواء فى سجنى أو فى خارج السجن واحداً من جنود هذه القافلة ... وهذا عهد الله وميثاقه أن أظل أميناً على هذه الرسالة ... فإذا مت فى الطريق فهى أمانة فى عنقك يابنى وعنق أمثالك من أبناء الجيل القادم ... ألا تهنوا ولا تترددوا فى السير إلى الأمام مستعذبين الآلام والتضحية ... حتى تجعلوا الأرض الطيبة ... أرض وادى النيل كما كانت فى القديم مركز العالم ومبعث النور وموئل الحرية والإخاء والسلام .

خاتمة

بقلم الأستاذ جمال البنا

عندما عزم الحزب الاشتراكى على إصدار سلسلة من الرسائل الثقافية كان من براعة الاستهلال ، والتوفيق الإلهى أن يبدأ بهذه الرسالة الطيبة عن الأرض الطيبة . إذ الواقع أنها ليست فحسب تأتى فى ميعادها ووقتها المرموق ، بل إنها تحقق من الأغراض والأهداف مالا تحققه كثير من الرسائل الأخرى .

فهناك أولاً ذلك الحديث عن الوطنية وأصولها والعوامل المؤثرة فى التاريخ المصرى والتى ستظل مؤثرة فيه لأنها تقوم على أسس من البيئة والمناخ .

ثم هناك هذا السرد المحكم لمفاخر هذه البلاد وتاريخها من وجهة النظر الوطنية ـ والتى لاتخالف أيضاً الواقع والحقيقة ـ وهو أمر لم تشر إليه معظم الكتابات التاريخية ، إذ كتب القديم من التاريخ المصرى مؤرخون يونانيون .. والحديث منه مؤرخون انجليز أو فرنسيون أو غيرهم من الأجانب ، وتجاهل هؤلاء وأولئك مفاخره وأعظموا نقط الضعف القليلة التى لايخلو منها تاريخ طويل . بل ولوثوه بافتراءات لا أصل لها إلا الظن .

وأخيراً فهناك هذا العرض الهام لحركة مصر الفتاة منذ أن كانت فكرة فى ضمير أحمد حسين طالب الحقوق حتى انتهت إلى عقيدة وطنية اشتراكية تطبق الآفاق وتؤتى الثمار . ولعل هذا القسم أن يصير أشد الأقسام أهمية لأنه يتناول ناحية حساسة من تاريخ الحركات القومية بقلم صاحبها ومؤسسها . ويصور انتقال هذه الحركة وتدرجها البطىء . ومسايرتها لروح العصر دون أن تخالف الخصائص الأصيلة للطبيعة المصرية .

ولعل مايزيد هذه الرسالة أهمية أنها ـ وهى تمثل فى حماستها للناحية الوطنية عقيدة الحزب الاشتراكى ـ تبدد شبهة كثيراً ماتخطر فى بعض الأذهان عن منافاة الوطنية للاشتراكية . وتقطع بذلك الطريق على الذين يريدون أن يرفعوا دعواتهم فوق أوطانهم . أو يجردوها من عنصر الوطنية أو يهيموا فى وديان النظريات العقيمة دون نظر إلى حالة بلادهم وواقع الأمور فيها . ولاشك أن الحزب الاشتراكى يستحق الشكر من كل وطنى قدر ماتستحق هذه الرسالة تقدير كل قارئ ...

ولقد وددت لو يتسع المجال لأتحدث إلى القراء حديثاً مسهباً عن «رسائل الحزب الاشتراكى» والفكرة فيها والباعث عليها .. ولكنى فضلت أن تتحدث الرسائل القادمة عن نفسها بأحسن مما يتحدث عنها المحررون لها أو المشرفون على إصدارها . وموعدنا رأس كل شهر إن شاء الله ..

نوفمبر سنة ١٩٥١

فى الإيمان والإسلام

مقـــدمـة

«يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم
عند الله أتقاكم » .

هذا كتاب كتبته على شكل رسالة منذ نيف وعشرين سنة ، وقد كنت أعيش وقتئذ فى عزلة جبرية فرضها علىّ الاعتقال الذى دام ثلاث سنوات إبان الحرب العالمية الثانية .

وقد وجدتنى أعود فى هذه الأيام بمحض الصدفة لمطالعة هذه السطور ، فإذا هى تدهشنى كلَّ الدهشة ، فقد كان ظنى بعد أن سلخت هذا العمر الطويل ، وبعد أن ألفت كتاب «الطاقة الإنسانية» ، أننى سأنكر الكثير من آرائى وأفكارى التى كنت عليها فى تلك الأيام وأنا غارق فى الكفاح السياسى والوطنى حتى الأذقان ، بل اعتقدت أننى سأنكر أسلوبى فى الكتابة بعد أن أصبحت أوثر الكتابة الموضوعية العلمية ، فإذا هذه الرسالة القديمة تفاجئنى أنه باستثناء فكرة التطور التى أصبح لى فيها رأى جديد ، لا أنكر حرفا واحدا مما كتبت ، ولا أضيق بأسلوبها ، بل إن مرامى الرسالة وأهدافها تعبر أصدق تعبير عما أصبحت أميل إليه وأحبذه وأدعو إليه .

لا جدال فى الدين :

وإذا كان من بين هذا الذى أميل إليه وأخذت نفسى به فى هذه الفترة من حياتى ، أن يكون حديثى وتفكيرى موجهين دائما نحو الإنسانية فى مجموعها على اختلاف أديانها وأجناسها وألوانها وقومياتها ، فلم أجد تعارضا بين هذا الالتزام وبين نشر هذه الرسالة بحروفها ونصها كما كتبتها فى هذه الأيام الخالية . فقد وجدتنى أعالج موضوع الدين والإيمان بالله ، بروح المحاولة فى إبراز وحدة العقيدة وجوهرها ؛ وأنه أيا كانت الصورة التى تخيلها الإنسان عن الله . ومهما تتعدد هذه الصورة وتنوعت نظرا لاختلاف البيئات

والأزمنة والظروف ، فإنها تلتقى كلها عند نقطة بداية واحدة ، وهى إحساس الإنسان بوجود كائن أعلى منه وأسمى يتصف بأنواع الكمالات التى حرم منها والسعى للعيش فى ظل هذا الكائن الأسمى ، عيشا أفضل . هذه النظرة الشاملة إلى روح الأديان ، هى ما أدين به اليوم ، وأتمنى أن يلتقى البشر عنده ، وهو الإيمان بسبب أول لهذا الوجود ، يعلو على الأسباب كلها ، وأن هذا السبب لا يمكن إلا أن يكون حيا ، حكيما ، حبا كله ورحمة كله .

امتياز الإسلام :

ولم أجد فيما انتهيت إليه فى القسم الثانى من الرسالة ــ على ضوء علم الأديان المقارن ، من تفضيل بعض الخصائص التى ينفرد بها الإسلام ــ ما يغير من هذه النظرة الشاملة ، فليست هذه الخصائص إلا ما يصبو إليه البشر اليوم مجتمعين ، وما تعمل له هيئة الأمم بمنظماتها المختلفة ، وما يجاهد فى سبيله فلاسفة العصر وقادة الفكر وجمهرة المصلحين والأدباء والفنانين ، وهو أن الساعة قد حانت ليستقبل البشر فيها مرحلة جديدة من مراحل التطور الإنسانى ، وهى الإيمان بالأمل المشترك للبشرية كلها ، وأنه لن يكون أمن أو سلام ، أو حرية أو ديمقراطية حقيقية ، بل لن تتحرر البشرية من لعنة الحروب وويلاتها ويسود الرخاء والهناء ، إلا إذا أسقط بنو الإنسان جميع الحواجز والقيود والسدود التى يفرضها اختلاف الجنسيات والقوميات والألوان والمذاهب والنظم الاقتصادية .

وليس كالإسلام ــ كما سيرى قارئ هذه الرسالة ــ دين يحمل الدعوة إلى السلام العالمى والإخاء البشرى والتوحيد بين الأمم والشعوب على اختلاف مشاربها وأجناسها وعقائدها وألوانها ، بل وأديانها ، وأن ذلك قد تحقق بالفعل فى ظله وخرج من دائرة الأمانى والأحلام إلى دائرة الواقع والتطبيق .

المادية هى الخطر المشترك :

وعلى أية حال ، فقد حان الوقت ليدرك كل صاحب عقيدة دينية ، أيا كان موضوعها ومحورها ، أن الخطر الذى أصبح يهدد عقيدته ، ليس ما يقول به دين آخر ، فالأديان كلها كما أسلفنا وكما سيطالع القارئ فيما بعد بالتفصيل ــ تقوم على الإيمان بالمثالية والغيبيات والتطلع نحو صورة من صور الكمال الإنسانى ، وإنما الخطر الذى أوشك أن

يهدد العقائد كلها ويقتلعها من جذورها ، هو هذه المادية الطاغية الجارفة المسعورة ، التى لم تقف عند حد الهزء بالأديان ووصفها بأحط الصفات وأنها أفيون الشعوب ، بل راحت تهاجم المثالية من أساسها ، وتنكر تقديس حق الفرد «كل فرد» فى الحياة والحرية والكرامة الإنسانية ، وتعد كل حديث عن الحب والرحمة والتسامح والعدل والإحسان ، مجرد كلمات جوفاء فارغة ، وأنها أثر من آثار الجهل القديم والرجعية ، وأن الحديث الحق هو الذى يدور حول الصراع وحرب الطبقات ، والثورات الدموية لتصفية العناصر الرجعية ، وأن ناموس الحياة إنما يقوم على غلبة القوى على الضعيف ، مدعين أن ذلك هو حديث العلم مستدلين على ذلك بما يجرى فى الغابة من تنازع البقاء كسبيل للتطور والارتقاء .

وهكذا يدعون الإنسانية باسم العلم المزعوم والتقدم ، أن تعود القهقرى إلى قوانين الغابة وظلامها ، والنزول عن تراث البشرية الذى جاهدت من أجله عبر القرون والأجيال ، على لسان أنبيائها ورسلها وفلاسفتها وقادتها ، وهو إحلال السلام محل الحرب ، والتعاون بدلاً من الخصام ، والقانون بدلاً من السيف ، والحب فى مكان الحقد والبغض .

يقظــة :

وإذا كان بنو البشر فى هذه السنوات الأخيرة قد بدأوا يصحون ويستيقظون من هذا الكابوس المخيف ، إذا كانوا قد شرعوا مرة أخرى يجاهدون للانعتاق من هذه اللعنة المادية التى حلت بالعالم فى النصف الأول من هذا القرن ، وبدأت ريح جديدة تهب على الشعوب التى غرقت حتى أذقانها فى المادية ، فراحت تندد بما تردت فيه من مذابح وعبودية ، وتدعو للكفران بحتمية الحروب ، والثورات الدامية والأساليب العنيفة ، وتبشر بالتعايش السلمى ، فما أسعدنى أن أنشر هذه الرسالة المطوية عن الإيمان والأديان والإسلام ، إسهاما منى فى إزالة الصدأ الذى ران على القلوب ، وتبديدا للظلام الذى غشى العقول ، وبذر بذرة من بذور الرجاء والأمل فى أن تثوب الإنسانية إلى رشدها ، وتؤمن من جديد بالمثل الأعلى ، لتعيش فى ظله فى فيض من الحب والرخاء والأخوة البشرية .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

أحمد حسين

مقـــدمة الطبعـــة الثـــانية

ليس هناك ما يسعد الكاتب أكثر من أن يرى كتابا له يعاد طبعه فى أقل من عام .

وإعادة طبع كتاب يدور حول «الإيمان والإسلام» هو تأكيد للظاهرة التى بدأت تفرض نفسها فى دنيا الكتب ، وهى إعادة طبع الكتب الدينية وشدة الإقبال عليها .

وهذا الإقبال على مطالعة الكتب الدينية والروحية ، قد أصبح ظاهرة عامة شاملة ، لا تقف عند حدود أو البلاد العربية ، بل تتعداها إلى سائر أرجاء العالم الواسع ، شرقه وغربه على السواء .

والإجماع منعقد بين المفكرين على أن ذلك رد الفعل الطبيعى لما عاناه البشر من التفكير المادى البحت ، وما بات يهددهم به من الفناء المطلق ، فيما لو قامت الحروب التى لا يردعها رادع من إيمان أو محبة إنسانية .

ومن الظواهر التى أصبحت مألوفة الآن فى كل مكان ، هو تصريح غلاة المؤمنين بالمادة وقوانينها ، بأن لا تعارض بين الأديان وبين المذاهب المادية الاقتصادية .

وتتبارى الدول التى تحكمها أحزاب شيوعية ، فى الإعلان عن توفر حرية الأديان فيها ، وعن ازدهار الحياة الدينية وأن أبواب دور العبادة مفتوحة للقاصدين ، بل إنها تبعث بكبار رجال الدين فيها ، ليشهدوا المؤتمرات الدينية ، أو ليؤدوا فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة .

بينما بدأت بعض الأحزاب الماركسية «الحزب الإيطالى» تدعو إلى وجوب إعادة تقويم دور الدين فى حياة الجماعة . وتصحيح القول القائل بأنه أداة رجعية وتخلف .

والماركسيون إذ يتطورون هذا التطور ، فى الوقت الذى انتصرت فيه دعوتهم بين أكثر من ثلث العالم ، إنما يقدمون دليلاً جديدا ، على تأصل الدين فى النفوس ، وأنهم رأوا

أنه من حسن السياسة والكياسة ، ألا يرتطموا بهذه الصخرة العاتية صخرة الأديان والإيمان بالله .

وأحسب أن من حقنا نحن الذين لم يتزعزع إيماننا فى أى لحظة من اللحظات ، فى أن الكلمة العليا ستبقى دائمًا للقيم الروحية والمثل العليا . أن نمضى فى طريقنا أشد عزما وإصرارا . أشد إيمانا بما كنا مؤمنين به ، من أن لا كرامة للإنسان ولا حرية ولا أمن وطمأنينة . إلا فى ظل الإيمان بإله واحد خالق للبشر ويعلو الجميع على السواء . وأنه قوى حكيم مدبر مهيمن . يبسط رعايته على البشر . ويلحظهم بعنايته وقت الضيق والشدة .

وما أحوج البشر فى زحمة الحياة . وسيادة بعض عناصر البغى . وغلبة الشر على الخير فى بعض الأحيان . إلى أن تظل كوة الأمل والرجاء مفتوحة فى نفوسهم ، فإن إغلاق هذه الكوة لا يعنى سوى دفعهم إلى الانتحار أو الجنون . وهو ما يقع بالفعل وسط الجماعات المغرقة فى مادياتها .

وكم أتمنى أن يطالع المثقفون الماديون هذا الكتاب بقلوب مفتوحة . وبغير فكرة مسبقة . ليدركوا كيف أن الدين ليس كما يتصور البعض هو أساطير الأولين ، وإنما هو جوهر النفس الإنسانية . التى تشعر بحقها فى الوجود والحياة . وإن هذا الموت الذى يعرض لهم ، ليس هو خاتمة المطاف بقدر ما هو باب ينفذ منه الإنسان إلى حياة أخرى باقية . أكثر نعيما . وأكثر عدلاً . وأكثر سلاما .

وفق الله الجميع وهدانا إلى سبيل الخير والرشاد .

أ . ح .

الإهـــداء

إلى الذات العلية

- لا أحسبك يا مصطفى الوكيل عاتبا عليّ وأنت شهيد الإيمان
- إذا أنا تجاوزت عن عهدى فى أن أهديك كل كتبى
- ورفعت هذا الكتاب إلى الذات العلية
- إلى الله رب العالمين
- الذى خلقنى فهو يهدين
- والذى هو يطعمنى ويسقين
- وإذا مرضت فهو يشفين
- والذى يميتنى ثم يحيين
- والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين

الفصل الأول

الإيمان وأثره

الإيمان غريزة ـ الرق والحضارة ثمرة الإيمان ـ الحضارة الفرعونية ـ الحضارة الفارسية ـ الحضارة الصينية ـ الحضارة الإغريقية ـ الإيمان ينبوع العظمة الشخصية .

الإيمان غريزة :

الإيمان ، فى تصورى ، هو إحساس الإنسان ، وشعوره بضرورة وجود قوة أخرى أكثر كمالاً واقتدارا منه كانت هى البدء الذى منه أو به كان ، وأن إليها خاتمة المطاف والمنتهى .

هذا الإحساس البشرى الذى يعمر به قلب الإنسان ووجدانه من وجود هذه القوة الخفية الكاملة القادرة هو فطرة الإنسان التى فطر عليها والتى ركبت فى طبعه فصارت لازمة من لوازم حياته المعنوية والروحية . وكما يبحث الإنسان عن الطعام والشراب والهواء للإبقاء على كيانه المادى ، فهو يشعر بالحافز للبحث عن هذه القوة الخفية والتقرب منها واسترضائها للإبقاء على كيانه الروحى والمادى معا .

وقد كان للغرائز المادية أثر كبير فى دفع الإنسان نحو التماس أوجه من المعرفة والنشاط والإنتاج الذى يبقى على كيانه المادى ، ولكن هذه الغريزة الروحية هى التى دفعته نحو بحر المعرفة دفعا فأدرك كل ما أدركه حتى الآن من علوم ومعارف ، وحقق كل ما حققه من تطور وارتقاء وخطوات فى سبيل المثل الأعلى والكمال . فلولا ذلك الإحساس بالمجهول الكامل الفعال ، لولا الإحساس بأن خلف هذه المنظورات قوة غير منظورة ، وأن خلف كل معلول علة مستورة ، ولولا هذا الشوق الذى يشتعل بين جوانح الإنسان ليدفعه إلى الاقتراب من روح الكون وجوهره ، لولا هذه المشاعر والأحاسيس ، لما وجد العقل البشرى ما يعمله وما يتصدى لحله ولكف عن التفكير وجمد ، ولما اختلف الإنسان عن الحيوان الذى يقف عند حد تحصيل حاجاته الجسدية . فالإيمان هو الذى دفع آلة العقل

البشرى للحركة لحل ما فى هذا الكون من مجاهل ومشكلات ومعضلات واحدة بعد أخرى . هو الذى دفع به لتخطى الجزئيات إلى الكليات والمسببات إلى الأسباب والمعلوم إلى المجهول ، فكان ماكان من تاريخ هذا التطور العلمى والفكرى الذى كان الأساس لكل تطور مادى وارتقاء . فالعلم قد أدى دائما إلى العمل ، فكأن الإيمان هو ينبوع العلم والعمل معا .

الرقى والحضارة ثمرة الإيمان :

والحق أن تاريخ العالم القديم ليس إلا تاريخ الأديان التى هى الصورة المادية للإيمان بعد أن يترجم إلى حركات وأقوال وإيماءات . ولا سبيل لنا لدراسة الحضارات الأولى وماكان عليه بنو البشر من علوم ومعارف وفنون إلا من خلال ما بقى لنا من أطلال منشآته الدينية ومؤسساته التعبدية معنوية كانت أو مادية ، أى على شكل معابد وهياكل وقبور أو على شكل تعاليم وترانيم وكتابات وعادات وطقوس .

مصر الفرعونية :

وما كنا لنعرف شيئا عن تاريخ مصر القديمة إلا من خلال هذه المخلفات من المعابد والهياكل والأهرامات الممتدة على طول الوادى وهذه النقوش والرسوم التى تمثل كلها الحياة الدينية والتى تدلنا على أن أعظم حضارة عرفها البشر فى القديم قد أسست وارتفع بناؤها الشامخ على الأديان والعقائد الدينية . ولعل الذى لاشك فيه ، أن أول حافز دفع الإنسان للبناء ابتداء ، كانت رغبته فى إقامة بناء متين يمتاز عما اعتاد الإنسان سكناه ليكون لائقا بسكنى الآلهة . وتاريخ مصر القديم الذى يعد نموذجا لتواريخ الشعوب القديمة ، يدلنا على هذه الحقيقة . إن أى مدينة من المدن المصرية لم تكن تتألف فى بادئ الأمر إلا من الهيكل المبنى تحيط به مساكن أهل المدينة المصنوعة حيثما اتفق من الشعر والوبر وأوراق الشجر . وكلما ارتقى الإنسان فى سلم الحضارة كلما عمد إلى تقوية بناء الهيكل وتدعيم أساسه وتزيين جدرانه ، حتى إذا بلغت الحضارات القديمة أوجها وذروتها تمثل ذلك أكثر ما تمثل فى الهيكل الذى ارتفعت أعمدته إلى السماء ، وامتدت رقعته فى الطول والعرض ، وازداد سمته روعة وشموخا وجلالاً ، وذلك كله إرواء لظمأ النفس البشرية إلى ما تصبو إليه من تعظيم هذا المجهول وتمجيده . فكان الكرنك ودهليزه ذو الإثنى عشر عمودا التى لا مثيل لها فى الدنيا قديمها وحديثها ، وكانت هذه الأهرامات

عجيبة الدنيا الكبرى فى خلودها وروعتها والتى تشهد بأفصح بيان - أن أعظم جهد بذله البشر ويبذلونه هو لتمجيد هذه القوة المجهولة الفاعلة . ولا تزال للحضارة المصرية القديمة بعض أسرار ومعجزات علمية يحار لها البشر حتى فى عصرنا الحديث - عصر النور والمعرفة الرائعة - كفن التحنيط المصرى القديم - والذى حفظ أجساد قدامى المصريين من البلى ألوفاً بعد ألوف من السنين - وهذه الألوان الثابتة التى احتفظت بكيانها كل هذه الدهور الطويلة . وما التحنيط إلا ثمرة الإيمان بالبعث . وظن المصريون أن الروح لا ترتد إلى الجسد إلا إذا ظل سليما كاملاً فكان اختراع فن التحنيط - وفنون النحت والنقش على أقسى الأحجار وأصلبها لتقاوم الزمان . وكانت هذه الألوان الثابتة - وكانت هذه المقابر التى تغص بكل ما يحتاج إليه المصرى فى حياته المقبلة - وكانت هذه الكنوز التى وصلت إلينا فى عصرنا الحديث لتبهر الدنيا بما كان عليه آباؤنا الأقدمون ، وهكذا كان الإيمان والتدين هو قوام الحضارة المصرية القديمة .

الحضـــارة الفارســية :

ويمكن تتبع أثر الإيمان والعقيدة فى خلق الحضارة الفارسية القديمة - فالعقيدة والعقيدة وحدها هى التى ارتفعت بهذا الشعب الفارسى القديم من مرتبة الرعاة والحياة البدائية الأولى إلى ذروة التمدين والعمران .

ذلك أن العقيدة الفارسية تقوم على أن فى هذا العالم قوتين أزليتين[1] تعمل كل منهما ضد الأخرى - وهما قوة الخير «أهورامزدا» وقوة الشر «أهريمن» وهاتان القوتان فى صراع دائم . والخير هو الحياة - هو الصحة - هو العلم - هو المعرفة - هو البناء - هو التعمير - هو التناسل - هو الخصوبة - هو النظافة - هو كل ما يدور بخلد الإنسان من أعمال صالحة . أما قوة الشر فهى الموت - هى المرض - هى القحط - هى الوباء - هى الخراب - هى الجهل - هى الرذائل - هى البطالة - هى النجاسة ... ومهمة بنى الإنسان هى أن يؤيدوا قوة الخير ويدعموها بمحاربتهم للشر ومظاهره حتى تنتصر بذلك قوة الخير وتتفوق وتسود - فهذا الذى يتصدى لزراعة قطعة من الأرض البور - إنما يحارب الشر وينصر إله الخير . هذا الذى يضاعف إنتاجه فيخرج من حقله عشرة أرادب من القمح بدلاً من ستة إنما ينصر إله الخير الذى يريد الوفرة والكثرة ويدحر إله الشر -

(١) تطورت هذه العقيدة فيما بعد كما سترى حتى انتهت إلى اعتبار قوة الخير وحدها هى الأزلية والخالدة .

إله الجدب والفقر والقحط . وهذا الذى يعمر مكانا خربا إنما يدعم قوة الخير أعظم تدعيم . لأن إله الشر يقطن الخرائب والخلاء والقفار ويفرح ويطرب لإنتشار الدمار والفناء . وهذا الذى يشق ترعة أو يُعَبِّدُ طريقا أو يهيئ مصرفا أو ينظم مرفقا عاما . يؤدى خدمة ثمينة لإله الخير الذى ينتصر من خلال النظام وجودة الإنتاج ووفرته . وهذا الذى يتزوج وينجب أولادا ويهيئ لنفسه مسكنا نظيفا صحيا يعبد إله الخير أحسن عبادة لأنه ينصره على الشر ويعززه . وهذا الذى يقاوم المرض عن طريق الطب . وهذا الذى يحارب الجهل . وهذا الذى يحارب القذارة . كل هؤلاء عبيد «أهورامزدا» الصالحون الذين ينصرونه على عدوه المبين «أهريمن» ذلك الشيطان الرجيم .

وهكذا سرت هذه الروح فى سائر تصرفات الفرس المادية والمعنوية حتى انتهت بهم إلى درجة رفيعة من الأخلاق والفضائل التى لا يمكن أن يكون وراءها مطمع لمستزيد . وحسب الإنسان أن يطالع هذه النصوص المقتبسة من كتاب الديانة الفارسية المقدس والمسمى «الأفيستا Avesta » «إن الأرض التى تظل طويلاً بغير زراعة لا تكون سعيدة لأنها أشبه بالعذراء التى تعيش بغير أطفال تتلهف على الرجل . فطوبى لهذا الذى يعنى بأرضه وزراعته لأنها تعطيه الغنى كما تعطى الزوجة المحبوبة الطفل لزوجها» . «إن من يزرع الخير إنما يزرع القداسة» . «ألعن الشيطان أهريمن وأقرر عبوديتى لمزدا وتابعيتى لزارا[1] وعداوتى للشيطان . وتمجيدى للملائكة . وأحرم السرقة . وخطف المواشى . وأحرم النهب والعدوان على قرى المخلصين لمزدا . وأحترم حق أصحاب البيوت فى احترام مساكنهم . وحرية إدارتهم ليعيشوا مع قطعان ماشيتهم . إننى أقسم ويدى مرفوعة مخلصا طائعا أننى لن أسلب . ولن أعتدى منذ الآن على الجماعات المؤمنة لمزدا . ولن أحاول البتة أن أنتقم منهم انتقاما جسديا أو دمويا» .

«ليكن فى هذا البيت انتصار الطاعة وهزيمة العصيان . ليسود فيه الحق والصدق ضد الكذب . ليفشو بين جنباته السلام والأمن لا النزاع والشجار والقلق . ليتصف بالكرم لا بالبخل . والتواضع لا الكبرياء ، لتكن العدالة شعاره لا الظلم» .

وكانت جميع تعاليم الديانة الفارسية تدور حول مقت الكذب والكذابين . ولم يكن

---

(١) زارا أو زاردشت هو نبى الفرس والذى يعده البعض فى عداد الأنبياء والمرسلين .

أهريمن إله الشر إلا مرادفا لكلمة الكذب عندهم[1] . وأحسب أن هذه النصوص لا تحتاج إلى تعليق من حيث إظهار مدى ما يمكن أن تنتهى فى نفوس معتنقيها وجهودهم إلى تحقيق أكبر نصيب من الكمال والارتقاء .

الحضـارة الصينية :

ولست أستطيع فى هذا الموطن إلا أن أشير إلى الحضارة الصينية - هذه الحضارة التى يمكن عدها بحق أرفع درجة من أى حضارة عرفها البشر فى القديم - وحسبك أن تعلم أنها سبقت العالم كله بما يملأ عصرنا الحاضر من مستحدثات ومكتشفات - إذا استثنينا مكتشفات البخار والكهرباء - فالطباعة والصحافة والبنوك والورق والبارود والخزف الفاخر والتصوير وماخرات المحيط من السفن الضخمة - التى وصل الأمر بضخامتها إلى إنشاء الحدائق والبساتين لإنبات الخضروات الطازجة على سطوحها لتقديمها للركاب[2] - كل ذلك قد عرفته الصين وعرفت أرق ما نتخيله من مثل أعلى فى الأخلاق والفضائل - وحسب الإنسان ليعرف درجة ارتقاء الصينيين وما بلغوه من رفاهية ومدنية فى حياتهم - أن يدرك أن ملبوسهم وهو الحرير ما يزال حتى اليوم هو أرق ملبوسات العالم المتحضر - وأن مشروبهم وهو الشاى هو شراب الدنيا كلها المفضل - ابتداء من المجتمعات المتخلفة حتى أرق الشعوب الغربية - وأعنى بها إنجلترا وأمريكا - وأن طعامهم وهو الأرز - هو طعام الدنيا المفضل فى أكثر أرجاء العالمين . هؤلاء هم الصينيون الذين استطاعوا دائمًا بالرغم من عددهم الضخم جدا أن تكون لهم وحدة سياسية وروحية جامعة . هذه الحضارة الصينية ليست إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الصينى والعقيدة الصينية - هذه العقيدة التى لا مثيل لها فى العقائد القديمة كلها - من حيث ما بها من توحيد خالص من كل شائبة - ولخلوها من طائفة الكهنوت والقساوسة - وهو ما ينفرد به الإسلام فى الوقت الحاضر . وتدور عقيدة القوم على أن هذا الكون لا يكون على أحسن أحواله إلا إذا تم التناسق بين ما يقع على الأرض - وما يجرى فى السماء - فكلما كانت الأحوال تجرى على الأرض وفق السنن المقررة لها كلما جرت الأحوال فى السماء على خير ما يحب الإنسان ويرجو - فلا تكون صواعق ولا أمطار مدمرة - ولا تظلم السماء أو ترعد -

---

(١) وصف هيرودوت الفرس بقوله :

«ويكره الفرس الكذب أولا والاستدانة ثانيا لأنهم يرون أن الاستدانة تجر إلى الغش والكذب حتما» .

(٢) طالع ماجاء فى كتاب ابن بطوطة - ووصف رحلته فى الصين وماشاهد بها من العجائب .

ولا تحجب الشمس أو تكسف ، ولا ترمى الأرض بالأوبئة والأمراض والطواعين ، ولا يصيبها القحط والجدب . وإنما تعمل العناصر كلها على ما يهيئ للإنسان أكبر نصيب من السعادة والرخاء . فما هى هذه السنن المقررة والنواميس التى إذا اختلت على الأرض اختلت عناصر الكون تبعا لها ؟ هى أن يسود الأمن والعدل والنظام . هى أن يؤدى كل فرد فى الأمة واجبه بغير أن يحيد عنه . ابتداء من الإمبراطور حتى آخر موظف فى الدولة . بل حتى آخر صعلوك فيها . فلا يَظْلِم ولا يُظْلَم . وقد حدد كونفشيوس فى كتبه الخمسة المقدسة هذه الواجبات التى تقع على عاتق كل فرد من أفراد الأمة . ومن هذه الكتب وعليها قامت هذه الحضارة الصينية الرفيعة الدرجة .

الحضـارة الإغريقيـة :

امتاز الإغريق بالنسبة للشعوب القديمة فى إحساسهم بأن الإنسان أقرب ما فى هذا الكون من كائنات إلى الكمال المطلق . وأن ما فى نفس هذا الإنسان من قوى زاخرة معنوية ومادية كفيلة بأن تجعل منه سيد هذا الكون المهيمن عليه لولا ضعف بنيته وقصر حياته التى تحول بينه وبين إتمام الغاية . فلو أنه عاش إلى الأبد لأصبح إلها حتما[1] . وهذا ما حدا بالإغريق القامى إلى تصور الآلهة فى صورة بشرية بحتة . لا يفترقون عن الإنسان وعاداته وتقاليده وأفكاره . إلا من حيث أنهم خالدون لا يموتون . وتصور الإغريق أن فى الإمكان دائماً أن يحظى الإنسان بحماية الآلهة مباشرة وبمصاحبتها بل بمساكنتها والتزويج بها . متى امتاز بالجمال أو القوة أو الحكمة بحيث يروق فى أعين الآلهة التى يستهويها الجمال والقوة والحكمة . وذهب الإغريق إلى أبعد من ذلك كله . فتصوروا أنه بقدرة الإنسان دائماً أن يصل إلى مستوى الألوهية عن طريق البطولة الخارقة أو الحكمة الفائقة . وسنعود مرة أخرى فى الفصول المقبلة لمعالجة هذا الموضوع . وكيف تصححت هذه العقيدة وتطورت حتى وصلت إلى التوحيد المطلق والتنزيه . ولكن الذى يهمنا الآن منها أن حضارة الإغريق القديمة قد انبعثت من هذه العقيدة وشيدت عليها . فإن تكن البطولة سبيلاً للخلود فقد دفعت هذه الفكرة بكل شاب إغريقى إلى التماس جلائل الأعمال وعظائم الأمور التى ترفعه إلى مصاف الأبطال . وما الألعاب الأولمبية إلا ثمرة من ثمار هذه العقيدة . فكان شباب الدويلات الإغريقية يقبلون من بلادهم إلى سفح جبل أوليمب حيث تقيم الآلهة . ليتباروا فيما بينهم مختلف المباريات الرياضية . كالمصارعة

(١) نحن نستعرض بطبيعة الحال معتقدات القوم كما هى وسيرد التعليق عليها فيما بعد .

وقذف القرص والوثب العالى والعَدو للمسافات الطويلة . وكانت هذه قمة المباريات طرا وبطولتها هى أعظم البطولات لأن الجسم المرن الممتلئ بالصحة المتناسق ، هو مثل الأغريق الأعلى . وحسبك أن تتصور شعبا بأكمله لا همّ له إلا تقويم جسده عن طريق الرياضة .

وإذا كان العقل السليم فى الجسم السليم ، فسرعان ما انبعث من خلال هذه الأجساد السليمة الصحيحة أسلم ما عرفت البشرية حتى ذلك الوقت من عقول . ولما كان مؤدى العقيدة اليونانية من ناحية أخرى أن يحرص الإنسان على حريته إذ هى آية الكرامة البشرية ، والشرط الأساسى للتطور فى معارج البطولة والعظمة ، فقد عرفت البشرية لأول مرة النظم الديمقراطية بمعناها الحديث ، حيث يساهم كل مواطن فى حكم نفسه ، عن طريق الاشتراك فى التشريع ، والإشراف على السلطة التنفيذية ، التى يتولاها حكام ينتخبهم من بين ظهرانيه . وفى ظل هذه النظم الحرة والفكر الحر الطليق ، والاعتداد بالنفس الإنسانية ، نشأت هذه المعارف ، والفلسفة الإغريقية العجيبة التى ساهمت فى بناء الحضارة الإنسانية بأوفر نصيب .

وهكذا نرى مرة أخرى الصلة الوثيقة بين معتقدات القوم وتطورهم فى مدارج الحضارة . ولا يتسع المجال لاستعراض تاريخ جميع الأمم المتحضرة فى القديم والحديث ، وحسبنا هذه الأمثلة التى أشرنا إليها لنرى الصلة الوثيقة بين الإيمان والحضارة ، وأنه الأساس أو الينبوع الذى تفيض منه مختلف القوى والجهود البشرية فى سبيل الإنشاء والتعمير والتطور والارتقاء .

الإيمان ينبوع العظمة الشخصية :

وإذا كانت الصلة بين حضارة الشعوب وإيمانها من الأمور التى تؤيدها المشاهدة ، فإن من الأمور المقطوع بها أن الإيمان بالنسبة للأفراد هو ينبوع ارتقائهم وعظمتهم . وبقدر ما يعمر قلب أى إنسان بالإيمان بقدر ما تكون رفعته ، وبقدر ما يمتاز على بقية البشر الأقل إيمانا منه ويتفوق عليهم . ويؤكد لنا ذلك هذا التفوق الساحق الذى كان لطائفة من البشر الذين استطاعوا أن يطبعوا عصورا بأكملها بطابعهم ، وبصبغتهم ، ويحملوا الملايين من البشر على تباعد العهد بينهم على احترامهم وتقديسهم بل والمغالاة فى تقديسهم . ولا مرجع لذلك إلا اكتمال إيمان هذا النفر من الناس بحيث انكشفت لهم

الحقيقة ورفع عن نفوسهم الحجاب ، فإذا هم والكمال وجها لوجه ، فأحدثوا بهذا الاتصال ما أحدثوه فى الإنسانية من أثر عميق .

والإيمان ، والإيمان وحده هو الذى يدفع بأصغر الناس ليكون أكبرهم ، وأفقر الناس ليكون أغناهم ، وأجهل الناس ليكون أعلمهم ، وأضعف الناس ليكون أقواهم .

هو الإيمان الذى يجعل من قروية ساذجة كجان دارك قائدة لجيوش عصرها ، ومحررة لوطنها ، ومتوجة لملكها .

وهو الإيمان الذى خلق من شاب كورسيكى أعظم شخصية عرفها التاريخ الحديث ونعنى بها نابليون .

وهو الذى دفع بخريستوف كولومبس الملاح « الجنوى » ... نسبة لجنوة ، إحدى مدن إيطاليا لاكتشاف نصف الدنيا .

وهو الذى دفع بأصحاب العلم لابتداع ما ابتدعوا ، واكتشاف ما اكتشفوا .

هو خلف كل جهد فى سبيل التطور والارتقاء ، خلف كل كفاح فى سبيل الخير والصلاح أو الحق والفضيلة .

هو كلمة السر التى تفتح بها مغاليق الكون ، هو الإكسير الذى يحوّل كل شئ إلى ذهب ، هو ماء الحياة الذى يعيد للجسم شبابه وحيويته ، هو الحرارة التى تذيب الحديد ، هو النار المحرقة . هو الشعلة المضيئة ، هو القوة التى تنسف الجبال ، هو الكهرباء . هو الطاقة الفاعلة لأنه ليس إلا انبثاق الحق والحقيقة فى قلب الإنسان ، وتفجر هذه النفحة الربانية الكامنة فى كل نفس بشرية ، التى إذا تفجرت جعلت من ذلك الإنسان جبارا فوق الجبابرة . وقادرا فوق القادرين ، وعالما فوق العلماء ، وملكا فوق الملوك ، لا يصده صاد عن بلوغ غاياته وأهدافه ، ولا تحول بينه وبين تحقيق إرادته صعوبات أو عراقيل أو ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه لفظ « المستحيل » وذلك لأنه اتصل بالقوة الأولى والفاعل الأول [1]

---

(١) اقرأ للمؤلف كتاب « الطاقة الإنسانية » الذى صدر أخيرا . حيث بحث موضوع الطاقة التى يولدها الإيمان . والقانون الذى يحكمها .

الفصل الثاني

موضوع الإيمان ومحوره

أهو حق أم وهم وخيال - الشك سبيل اليقين - شهادة الوجدان البشرى - وجود الله بديهة عقلية - الحياة دليل الله الحي - قوة حية سميعة بصيرة - وعاقلة أى حكيمة - من أين جاء العقل الإنسانى ؟

أهو حق أم وهم وخيال ؟

ما محور الإيمان وموضوعه .. ما حقيقة هذه القوة الخفية المسيطرة على هذا الكون .. والمتصفة بكل ما يدور فى عقل الإنسان من صفات الكمال .. أهى شئ موجود حقا كما تقرر الأغلبية الساحقة من البشر فى كل عصر ، أم هى ضرب من ضروب الأوهام والأساطير القديمة ، ومظهر من مظاهر الخوف الذى لازم الإنسان الأول عندما كان كل ما فى هذا الكون يخيفه ويزعجه . ويشعره بضعفه وعجزه ، كما يقول البعض ؟

وإذا فرضنا وكان فى هذا الكون قوة ما ، فهى ليست إلا هذه القوة المنظورة الملموسة ، قوة المادة التى كانت بطريق العرض والصدفة ، وتطورت إلى ما تطورت إليه بطريق الضرورة الماسة المركبة فى طبعها .

ذلك هو ما يقوله البعض إنكارا على ما استقر عليه إجماع البشر ونادى به الأنبياء والرسل من وجود إله أزلى خالد قادر ، وهو الله سبحانه وتعالى الذى خلق الكون بإرادته .

الشك سبيل اليقين :

وقد اعتاد جمهور المتدينين أن يثوروا على هؤلاء المتشككين . وأن يستنكروا أقوالهم باعتبارهم يتهجمون على مقدساتهم ، وينتهكون حرمة كتبهم السماوية ، فيعمدون إلى اضطهادهم بشتى صنوف الاضطهاد حسب ظروف العصر وأحواله . وما يتمتع به رجال الدين من سلطان . مع أن هؤلاء المتشككين فى الواقع يتيحون فرصة ذهبية لكى يمتحن

المؤمنون إيمانهم فيزدادوا إيمانا . وأن يصححوا عقائدهم ويجعلوها أكثر اتساقا مع العقل والمنطق . وأحكام العلم القاطعة .

وكل رأى يساق اعتراضا على نظرية دينية ، وعلى فكرة الألوهية ، جدير بأن يعرض على العقل ليمحصه ويدرك مدى صحته . لا أن يتعصب ضده وتترك مناقشته ، اعتمادا على الصياح والصخب والاحتجاج باسم الدين ، والتهجم على قدسية الدين . وذلك هو ما فعله القرآن الكريم بالذات ، فقد سجل كل الاعتراضات والانتقادات ، بل كل الشتائم والسباب التى وجهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى عقيدة التوحيد وتعاليم الإسلام الغيبية ؛ ثم راح يفندها ويرد عليها ، ويقرع الحجة بالحجة ، ويسوق الدليل تلو الدليل لتدعيم العقيدة الجديدة وتمكينها فى النفوس . فدل ذلك على أن هذا هو السبيل الوحيد لنشر الإيمان الحقيقى . وأن لا سبيل لاطمئنان القلب ما لم يقتنع العقل ويرضى . وآية ذلك قول إبراهيم لربه «رب أرنى كيف تحى الموتى . قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى[1] » . وآية ثانية هى انقلاب زعماء المنكرين للإسلام من قريش ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب إلى أشد الناس حماسة للإسلام ، حتى غمروا بإيمانهم وحماستهم العالم بأكمله . وما كان إيمانهم ليبلغ هذه الدرجة من القوة والنضوج ، لولا أنه جاء ثمرة البحث والاقتناع . وهذه قاعدة مطبقة فى كل عصر وزمان ومكان . فأكثر الناس إيمانا فى أغلب الأحيان أكثرهم تشككا فى بعض مراحل حياتهم : حتى قيل بحق إن الشك سبيل اليقين .

وعندى أن المرء المثقف لا يمكن أن يحظى بإيمان حقيقى إلا بعد أن يعرف الحجج العقلية التى يدعم بها إيمانه . وليس من الإيمان فى شئ مجرد التقليد والتصديق لما تقول به جمهرة الناس . ولا الإذعان للتقاليد والتعاليم الموروثة بغير معرفة الدليل الذى يؤكد صحتها .

ولعل ذلك يفسر لنا سر تخلف المسلمين فى العصر الحديث وتأخرهم عن بقية الشعوب المتحضرة . وقعودهم عن القيام بجلائل الأعمال ، والمساهمة فى بناء الحضارة الإنسانية ،[2] ذلك أن جمهرتهم العظمى من الجهل بحيث لا سبيل لها لإدراك الإيمان

---

(١) البقرة ٢٦٠ .

(٢) كتب هذا القول منذ عشرين سنة كما سلفت الإشارة إلى ذلك فى المقدمة ، أما اليوم فقد بدأ العالم الإسلامى يحاول اللحاق بركب الحضارة .

الحق . فهم يتعبدون لأنهم كذلك وجدوا آباءهم يفعلون . وهم مسلمون لأنهم نشأوا فى بيئة إسلامية من أبوين مسلمين . فهم محكومون بحكم العادة . مقهورون على ما يفعلون . مقلدون كغيرهم من المقلدين . فدخلوا بذلك تحت منطوق القرآن وخطابه لأمثالهم : «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم[1] » .

ولا سبيل لاستمتاع جمهرة المسلمين الغالبة بالإيمان الحقيق ، وبالتالى التدرج فى معارج الرقى والكمال ، إلا إذا تعلموا واستضاءت عقولهم فعرفوا أدلة عقيدتهم وأسرار دينهم وآية تفوقه على سائر الأديان وحججج ذلك وأدلته ، وهو ما سأحاول أن أقوم به فى هذه الرسالة إن شاء الله . مبتدئاً بالأدلة التى يرتاح لها العقل لإثبات وجود الله .

شهادة الوجدان البشرى :

أما أول برهان على وجود الله . فهو شهادة الوجدان البشرى فى مختلف الأمكنة والعصور على وجوده وقيامه . فمن المحقق أن أحدا لم ير الله . أو بالأحرى هذه القوة الخالقة الفاعلة المدبرة . ومن المحقق أننا لا نستطيع أن ندركها بأى حاسة من حواسنا . فكان يجب طبقا للقواعد المنطقية أن يجمع البشر على إنكار وجودها . فما بال البشر على الضد من ذلك يجمعون على وجودها . ما بال النفس البشرية لا تشعر بالراحة الكاملة إلا وهى تؤكد وجود هذه القوة . ما بالنا كلما استخدمنا أقوى الألفاظ والتعبيرات للقطع بوجودها ، كلما أثلج ذلك صدورنا . فإذا قلت الآن إنه لا يمكن الشك بحال من الأحوال فى وجود هذه القوة الخالقة ، فإن جمهرة القراء العظمى تطمئن نفوسها لهذا التأكيد . مع أننى لم أسق على هذا الإثبات أى دليل عقلى . ولم أزد على مجرد التأكيد باللفظ .

وقد يختلف الناس فى مدى إقبالهم على ممارسة شعائر أى دين من الأديان . وقد يختلفون فى الأديان ذاتها اختلافا بينا . كما يختلفون فى أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وبيئتهم ، ولكنهم جميعا على اختلاف أديانهم وأجناسهم وألوانهم وبيئاتهم وعصورهم يتفقون على قدر من الإيمان لا يداخله أدنى شك ، وهو أن لهذا الكون ربا خالقا ومدبرا لشئونه .

---

(١) الحجرات ١٤ .

فالإيمان هو فطرة كل نفس ، وهو استعداد طبيعى بها . فلا يكاد يشار أمام الإنسان بوجود قوة خفية خالقة حتى يخفق قلبه مصدقا مغتبطا مطمئنا إلى هذا الوجود . لا فرق فى ذلك بين متعلم وجاهل بين أمير وحقير . بين رفيع ووضيع . لا فرق فى ذلك بين أفرنجى وزنجى . بين عربى وإنجليزى بل لا فرق فى ذلك بين من أخطأ السبيل فظن هذه القوة كامنة فى الشمس أو القمر أو فى النار المحرقة والنهر الجارى والجبل الشامخ والصنم المنحوت . فكل هؤلاء إن اختلفوا فى المظهر ، فقد اتحدوا فى الجوهر . وهو إيمانهم بوجود هذه القوة الخالقة[1] .

فهذا الإحساس البشرى العام ، المستقر فى وجدان كل إنسان هو أول شهادة تقطع بوجود هذه القوة الخفية الخالقة ، لأن العقل الإنسانى لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن يتولد فى النفوس قاطبة الشعور بوجود حقيقة معينة مع أن هذه الحقيقة لا وجود لها فى الواقع ؟! وهذا هو الدليل الأول[2] .

وجود الله بديهية عقلية :

من المعلوم والمتفق عليه ، أن هناك بعض الحقائق الأساسية الضرورية للإدراك مستقرة بالطبيعة فى عقل كل إنسان . وهذه الحقائق هى ما تسمى بالبديهيات . والعقل يستخدم هذه البديهيات لاكتساب معارفه ومعلوماته والحكم عليها والاستفادة منها فى المحافظة على كيان الإنسان وبقائه . ولا يوجد عقل بشرى سليم يمكن أن يمارى أو يتشكك فى هذه البديهيات ، لأن التشكك فيها وعدم التسليم بها معناه اختلال موازين العقل .

ومثال هذه البديهيات قولك إن الاثنين أكثر من الواحد ، وإن الكل أكبر من الجزء ، وإن الشئ لا يمكن أن يوجد فى مكانين مختلفين فى آن واحد . وإن الجسم لا يمكن أن يكون متحركا وساكنا فى الوقت نفسه وهكذا .

---

(١) لا يشذ عن ذلك الشيوعيون الذين يؤمنون بأن « المادية الديالكتيكية » هى هذه القوة الخالقة المبدعة . فالأسماء التى تطلق على السبب الأول لا تغير من جوهر الفكرة .

(٢) اقرأ للمؤلف حول هذا الدليل . ما بحثه فى كتاب « الطاقة الإنسانية » من أن كل ما دار فى ذهن الإنسان على أنه موجود فلا بد أنه كان أو كائن أو سوف يكون .

ولعل أول بديهية من بديهيات العقل ، أنه لا بد لكل مصنوع من صانع . ولا بد لكل حادث من محدث . ولا بد لكل مخلوق من خالق ، ولا بد لكل متحرك من محرك ، ولا بد لكل معلول من علة .

ولما كان كل ما فى هذا الكون ينطق بأنه حادث لأنه يدرك بالحواس وله أول وله آخر . فلا بد أن يكون له محدث ، ولا بد أن يكون له خالق ، والقول بغير ذلك هدم لبديهيات العقل .

والعجب كل العجب من هؤلاء الذين يسلمون بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يرى حادثا فى هذا الكون مهما يعظم أو يحقر - ومهما يكبر أو يصغر بدون أن يقرر له سببا أحدثه - ومع ذلك فهم يطلبون من هذا العقل البشرى - أن يتصور أن هذه الكائنات والعوالم والآفاق المترامية والشموس المضيئة - والنجوم المتألقة - والكواكب الساطعة - والأنهار الجارية - والبحار المتلاطمة - والجبال الشامخة - والصحارى المترامية - والأشجار الباسقة - والثمار الناضجة - والأزاهير العاطرة - والطيور الشادية - والأسماك السابحة - والزواحف والدواب والهوام - ومختلف الحيوانات الأليفة والكاسرة المزركشة المبرقشة - المخططة الإهاب - وأخيرا هذا الإنسان البديع الحسن والرواء - الصبوح الوجه - المعتدل القوام - الفياض بالبشر والحياة - هذا الإنسان المفكر الحر الطليق - هذا الإنسان المريد الفعال بكل ما ابتكر من علوم وحصل من معارف - وشاد من حضارة ومدنيات - وهذه النظم وتلك التشريعات - هذه العبادات وهؤلاء الرسل والقادة والمصلحون - هذه الكتب والديانات - هؤلاء العلماء الأعلام . كل هذا قد حدث بغير محدث احدثه وخلق بغير خالق وبغير سبب ولغير علة أو غاية .

وأحسب أنه لا يوجد عقل سليم يستطيع أن يتصور ذلك بحال من الأحوال - ففكرة السبب الأول إذن هى ضرورة عقلية - لا يستطيع العقل إلا أن يذعن لها ويؤمن بها .

وتقضى بديهيات العقل من ناحية أخرى أن تكون هذه القوة الخالقة متصفة بكل صفات الكمال المطلق على خلاف كل ما فى هذا الكون من موجودات يشوبها النقص - إذ أنها لو تجردت عن هذا الكمال لعدت فى عداد بقية المخلوقات - ولوجب أن يكون فوقها ذات كاملة هى التى أوجدتها وخلقتها . والكمال يقتضى القدم والأزلية والوحدانية . فلا بد

أن تكون هذه القوة قديمة أزلية موجودة بذاتها . قائمة بنفسها منفردة بوحدانيتها[1]

الحياة دليل الله الحي :

ولنتساءل الآن عن هذه الظاهرة العجيبةُ المحيرة للألباب . ظاهرة الحياة فى مختلف أشكالها . من أين جاءت .. وكيف نشأت .. إذا كان كل ما فى هذا الكون لا يتألف إلا من مادة جامدة عمياء صماء خرساء ؟

إن المشاهدة والمعاينة تثبت لنا بجلاء ووضوح أن هناك خطا فاصلاً بين المادة الجامدة المبثوثة فى هذا الكون - .وبين هذه الحياة الشاعرة النامية . فالمادة تبقى على حالها أبدا وقد تتغير وتتحول وتتشكل ولكنها تظل محتفظة بطابعها الأبدى - وهو فقدان الشعور والإدراك وعدم النمو على خلاف الكائنات الحية حيث تنمو وتتكامل وتترعرع وتتغذى بالمواد الجامدة والميتة فتتحول فى داخلها إلى مواد حية من الدم واللحم والعظم - متمتعة بالشعور والإحساس - منطوية على أسرار الحياة التى تجعل كل خلية صغيرة قادرة بدورها على أن تكون بذرة الحياة إذا تهيأت لها ظروف مخصوصة - فإذا هى تنقسم إلى اثنين فأربعة فعشرة فمائة فألف فملايين الملايين . فمن أين جاءت الخلية الحية بهذه الخاصية الفذة بالنسبة لبقية ما فى هذا الكون من كائنات ؟ بأى سر رهيب تنمو هذا الخلية ثم تتمايز وتتشكل لكى تنتهى إلى إبداع كائن حى جديد يزيد فى ثروة الحياة ونموها سواء كان هذا الكائن الحى شجرة خضراء مزهرة ذات أريج وثمار وأخشاب - أو حيواناً ذا لحم ودم ولبن وجلد وصوف ووبر . أو إنسانا ذا حسن وجمال - وقدٍ واعتدال - وعقل وفكر . كل ذلك ينبثق من هذه الخلية الصغيرة التى لا يتجاوز حجم المليون منها رأس دبوس صغير . فكأن هذه الخلية الصغيرة دنيا مصغرة . بل لعل الدنيا كلها ليست إلا خلية مكبرة . فإن هذه الخلية الصغيرة تنطوى على عالم من الشعور والوجدان والتفكير والعقل والأخلاق والفضائل والصفات

---

(١) من المحال على العقل البشرى أن يحاول تمثل هذا الكمال وإدراك كنهه . وكيف يقوم بنفسه بغير أن يكون له أول أو نهاية - لأن العقل البشرى كما هو ظاهر ليس إلا جزءا من هذا الكون - وهذا الكمال المطلق هو الكل ومن المحال أن يحيط الجزء بالكل . وكل ما يستطيع العقل البشرى أن يدركه أن خلف هذه الأجزاء المتعددة كلا وأن يدرك أنه جزء من كل ، لا أن يحيط بهذا الكل . كل ما يستطيع العقل البشرى أن يدركه أنه يكمن خلف هذه الأعراض المختلفة جوهر ، أما ماهية هذا الجوهر فلا سبيل للعقل أبدًا لاكتناهه ، لأنه مقيد بقيود المادة غير قادر على الفكاك من صورها وأعراضها ومقاييسها ونواميسها وهو مالا يقاس به أو تخضع له أمور تتصف بها هذه القوة الكاملة الخالقة .

والطباع ، إلى جوار عالم المادة المتألفة من اللحم والعظم والدم والجلد ، والشعر والألوان ، والأمراض والعاهات . وحسب الإنسان أن يتأمل طفلاً من الأطفال ، ليرى كيف يرث أبويه فى طباعها المعنوية وصفاتها المادية . وأمراضها ومزاجها ، مع أن هذا الطفل لم يكن سوى هذه الخلية الدقيقة التى تسربت من الذكر إلى الأنثى . فمن أين جاءت هذه القوة العجيبة . قوة الحياة .. ومن أين نبعت .. ومن أين فاضت .. إلا أن تكون قد جاءت من قوة حية مبثوثة فى هذا الكون مسيطرة عليه .

المادة أصل الحياة ؟

يقول الماديون إن الحياة فى نهاية الأمر ليست إلا حالة من أحوال المادة ، وإننا إذا كنا قد عجزنا حتى الآن عن اكتشاف سر الحياة ، أو بالأحرى اكتشاف هذه الحلقة الموصلة من المادة الجامدة إلى المادة الحية ، فإن العلم لا يلبث أن يكتشفها . على أنه إذا صح هذا « وليس هناك ما يمنع أن يكون صحيحا » واستطاع العلم أن يوجد الحياة من مواد جامدة ، فإن هذا يؤكد وجود القوة الخالقة الحاكمة ولا ينفيها ، إذ ما الذى يحمل المادة الجامدة الصماء الساكنة على الحركة والتطور لتأخذ هذه الصورة أو تلك .. ولتقوم بهذه الوظائف المختلفة فى الحياة ، فيضئ بعضها ويظلم بعضها ويسبب بعضها الحر . ويسبب بعضها البرد . ويسبب بعضها الحياة ، ويسبب بعضها الموت .

ما الذى يحفز المادة على هذا التنوع الذى لا حد له فى الكائنات ؟ وما الذى يحفزها على القيام بمختلف وظائفها حسب الظروف والأحوال ؟

النواميس والضرورة :

يقول الماديون فى الرد على ذلك إن المادة تنطوى على نواميس مقررة تحكمها وتسيطر عليها وتدفعها للتطور طبقا للضرورة والحاجة ومن هنا كان هذا التنوع الذى لا حد له فى الكائنات ، وفى اضطلاعها بمختلف وظائفها حسب الظروف والأحوال . وقد يكون ذلك حقا ، بل لعله حق ، فإن من الواضح جدا أن هذا الكون ينطوى على سنن ونواميس يسير على وفقها ولا يستطيع الخروج عليها « ولن تجد لسنّة الله تبديلاً »[1] ولكن التسليم بأن المادة محكومة بسنن ونواميس تدفعها للتطور والتشكل وخلق الحياة ، هو فى

(١) الأحزاب ٦٢ .

حد ذاته إيمان عميق كإيمان أى إنسان آخر فى أى عصر وزمان ومكان بهذه القوة الخفية المهيمنة على هذا الكون والمسيطرة عليه . فما هى هذه النواميس ، ما كنهها وما قوتها ، ما هى هذه الضرورة التى تضطر المادة للانفعال ، ولماذا كانت ضرورة ، ومن الذى جعلها ضرورة . ومن الذى أوجب على المادة أن تخضع لهذه الضرورة وأن تنفعل بها ، ولماذا كانت هذه الضرورة عاقلة حكيمة حتى دفعت بالمادة نحو هذا السبيل ، سبيل ما يعود عليها بالنفع والتطور نحو الأحسن والأكمل كما يقولون ؟ الحق أن كلمتى النواميس والضرورة اللتين لا يمكن أن يكونا فى حد ذاتهما شيئا ماديا وإنما هى معنى عقلى بحت ، لم يخرج بنا من دائرة وجوب الإذعان لقوة خفية ليست من طبيعة المادة ، تسيطر عليها وتحكمها وهى بحكم هذه السيطرة قوية قادرة فعالة أزلية خالدة .

قوة حية بصيرة سميعة :

ولا مناص من أن تكون هذه القوة المسيطرة على المادة موصوفة بالحياة «بغض النظر عن الاسم الذى نطلقه عليها» لأنها إن لم تكن حية أو بالأحرى منطوية على أسرار الحياة التى نراها مبثوثة فى هذا الكون . فكيف يمكننا أن نتصور نشوء الحياة منها أو بسببها . ولا بد أن تكون منطوية على أسرار قوة الإبصار ، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور نشوء قوة الإبصار منها أو بسببها ، ولا بد أن تكون منطوية على أسرار السمع ، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور نشوء قوة السمع منها أو بسببها . فالعقل يستحيل عليه أن يعقل نشوء الحياة ونبضها من قوة ميتة ، ونشوء الإبصار من قوة عمياء . ونشوء السمع من قوة صماء . فإن إحدى بديهيات العقل أن فاقد الشئ لا يعطيه . فإذا كانت هذه النواميس التى تسيطر على المادة لا تسمع فكيف تهب السمع للمادة .. وإذا كانت لا تبصر فكيف تهب البصر للمادة .. وإذا كانت جامدة فكيف تهب الحياة للمادة ؟

وهكذا ترى أن القائلين بالنظريات المادية البحتة لا يستطيعون إلا أن يصفوا النواميس أو الضرورة المسيطرة على المادة بكل الصفات التى يعزوها المؤمنون فى كل عصر وزمان ومكان للقوة الخالقة من أنها خفية أزلية . قادرة . حية سميعة بصيرة .

وعاقلة أى حكيمة :

ومن المستحيل على العقل كذلك أن يتصور إلا أن تكون هذه القوة متمتعة بالإدراك والعقل أى الحكمة : ذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى آلة دقيقة محكمة دون أن

يتمثل على الفور ذلك العقل البشرى الجبار الذى أنشأ هذه الآلة وأبدعها على هذه الصورة ، ولاءم بين أجزائها وحركاتها لتقوم بوظيفتها فى عالم الحركة والإنتاج .

فالعقل البشرى مبثوث بين أجزاء أى آلة من الآلات ، وإن كان لا يؤلف جزءا منها ، فالآلة لا تتألف إلا من مواد ومعادن كما هو ظاهر وملموس ، ولكن العقل البشرى مبثوث بين أرجائها وفى أدق جزئياتها على صورة هذه النواميس والقواعد التى ركبها العقل بين أجزاء الآلة المختلفة لتحكمها وتحركها . وما أشبه الكون بالآلة الميكانيكية الضخمة وما أدق هذه الآلة العجيبة وأحكمها . فثمة أجرام مضيئة وأخرى معتمة تتحرك فى مدارات معينة وسط فضاء مخصوص فينشأ عن دورانها ليل ونهار ، وحرارة وبرودة وتخلخل وتكاثف . فتتولد من ذلك مختلف العناصر وتتولد الحياة نفسها فى نظام عجيب ودقة محيرة للألباب «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون[1] » بحيث صار بقدرة الإنسان أن يحسب مقدما ولألف سنة موعد شروق الشمس بالدقيقة والثانية ، وساعة غروبها بالدقيقة والثانية . فكل ما فى هذا الكون السحيق الغامض لا تكاد تتحرك فيه ذرة واحدة على غير هدى أو غير محكومة بقاعدة معينة وناموس مخصوص . فمن المستحيل على العقل ـ وهذا شأن العالم ـ أن يتصور خلو هذا الكون من قوة مدركة حكيمة تهيمن على إرادته وحسن تنظيمه وتنسيقه .

وإذا كان هناك إنسان واحد لا يؤمن بلزوم عقله له للقيام بمختلف أعماله بل لمجرد التحرك حركة واحدة ، فكيف يخلو الكون كله بما فيه الإنسان ذاته من عقل مدبر لشئونه وأجواله ؟ أحسب أنه من المستحيل على العقل البشرى أن يتصور ذلك[2] .

---

(١) يس ٤٠ .

(٢) يقول العلامة نيوتن أعظم علماء الطبيعيات «لا تشكوا فى الخالق لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وفى كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلى له حكمة وإرادة . من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس . فيجب لكى تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها .. من الجلى الواضح أنه لا يوجد سبب استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب =

من أين جاء هذا العقل ؟

ولنصل الآن إلى السؤال الخالد : من أين جاء هذا العقل ؟ وقد تساءلنا من قبل من أين جاءت الحياة . وقد يكون بقدرة علماء الطبيعة والحياة أن يفسروا لنا الحياة تفسيرا آليا بحتا ، وأن يصوروا لنا كيف تحولت المادة الجامدة إلى مادة حية . ولكن من المستحيل عليهم أن يدّعوا أن الفكر والإدراك البشرى عملية آلية أوكيميائية ، فالحركات الآلية والتفاعلات الكيميائية خاضعة دائما لنواميس معينة ، أما الفكر البشرى فهو على خلاف كل ما فى هذا الكون لا يخضع لحدود يقف عندها أو يتقيد بقيود معينة أو يجمد على صورة مخصوصة . فهو متطور دائما أبدا . متغير دائما أبدا ، حر طليق من كل قيد وناموس دائما أبدا ، إن شاء حلّق إلى السماء . وإن شاء ركد مع البهائم والحشرات . إن

= يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبًا دقيقًا مع مسافاتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعًا ، فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته ، يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن والأرض وجوبتير ، وقدر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مركزًا لها .

إذن فقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظامًا يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجوب وجود (سبب) لا أعمى ولا حادث باتفاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة .

وغير هذا فنى تكوين الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين القسم المضىء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم والقسم المعتم يجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها ، كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له .

وكيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه ، والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها . ومن أين جاء هذا الإلهام الفطرى فى نفوس الحيوانات ؟ فهذه الكائنات كلها فى قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حى حكيم موجود فى كل مكان يرى حقيقة كل شىء فى ذاته ويدركه أكمل إدراك ؟» !.

شاء أذعن لقوة الوجود الخالقة ، وإن شاء تمرد عليها وكفر ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء . وما من كلمة تقال أمام الإنسان أو يسمع بها ، وما من حركة تقع فى حضرته أو يسمع بها ، إلا وتثير فى نفسه استحسانا أو استهجانا وتأييدا أو استنكارا . وقد تقال الكلمة فى حضرة عشرات من الناس بل مئات فيكون لها تأثير مختلف فى عقل كل واحد من المستمعين . وقد يستحسن الإنسان الواحد ماكان يستقبح بالأمس ، وقد يحب ماكان يكره بالأمس ، وأقوام يرون رذيلة ما يراه الآخرون فضيلة ، ويرون جميلاً ما يشمئز من دمامته الآخرون . وهكذا ..

وقد ذهب الناس مع الأفكار مذاهب شتى . وسيذهبون معها مختلف المذاهب إلى ما شاء الله . ذلك أن الفكر البشرى قوة حرة طليقة مريدة تفعل الشئ أو لا تفعل . لا تقهر ولا تغلب على غير ما يرضيها وتطمئن إليه .. فمن أين جاءت هذه القوة المدركة الحرة الطليقة المريدة إذا لم يكن فى هذا الكون قوة عظمى فوق النواميس حرة طليقة ، عاقلة حكيمة ، مريدة فعالة ، ليس هذا العقل البشرى إلا من نفحاتها وشذاها .

الحق إن القول بنفى وجود هذه القوة ، أعصى على الفهم والإدراك السليم من القول بوجودها .

الفصل الثالث

الإيمان فى صوره الأولى

عبادة الخالق فى خليقته

تطورات العقيدة ـ عبادة الأمهات ـ عبادة الآباء والأجداد ـ عبادة الحيوانات ـ عبادة النباتات ـ عبادة الجمادات والعناصر ـ عبادة الشمس والكواكب ـ عبادة الخالق فى خليقته :

تطورات العقيدة :

على أن العقل البشرى لم يصل دفعة واحدة إلى هذه الصورة العقلية الكاملة عن تلكم الذات الخالقة ، ويرتقى بها إلى هذه المرتبة من المجرد والمطلق . بل لقد مر قبل الوصول إليها من خلال أدوار ومراحل من التطورات والتصورات والاقتراحات والحدس والتخمين الذى يتناسب وما بلغه العقل من نضوج خلقى . وما حصله بمرور الزمن من علوم ومعارف . ذلك أن العقل البشرى على خلاف عناصر الحياة الأخرى فى تطور وارتقاء مستمر متواصل .

وقد لا يختلف الإنسان الحى فى العصر الحديث كثيرا عن إنسان ما قبل التاريخ من حيث التشريح الجسدى ووظائف الأعضاء ، ولكن من المحقق أنه لا وجه للمقارنة بين عقلية الإنسان المتنور الحديث . وعقلية الإنسان منذ بضعة ألوف من السنين . بل إن الفرق جد واضح بين إنسان متعلم وآخر جاهل فى عصر واحد . ومن هنا لا يجب أن نعيب على الأقدمين بعض تخبطاتهم فى موضوع العقيدة وضربهم على غير هدى . فذلك أمر لا مناص منه فى وقت كان العقل لا يزال فى مراحل طفولته . ولولا هذه التخبطات الأولى وهذه الفروض الأولى ما وصلنا إلى ما صلنا إليه .

فإذا كانت عقائدنا اليوم فى الألوهية الخالقة ، عقائد شامخة باسقة . فإنها قد قامت فى نهاية الأمر على هذه العقائد الأولى الساذجة ، وكما أن ناطحة السحاب اليوم تمت بأقوى الأسباب إلى أول كوخ صغيرة بناه الإنسان ، وكما أن ماخرة المحيط ليست إلا ثمرة

لأول قطعة خشب حاول الإنسان الأول أن يعوِّمها . فكذلك عقائدنا اليوم ما كانت لتكون على هذه الدرجة من النضوج لولا هذه العقائد البسيطة الأولى ، وذلك ما يجعل من الضرورى لاستكمال عقيدة أى إنسان فى الوقت الحاضر وتصفيتها من كل شائبة ، أن يلم إلمامة سريعة بما كانت عليه عقائد الأقدمين ، وكيف تطورت تطورا وئيدا واجتازت مراحل الطفولة حتى بلغت اليوم أوج شبابها وفتوتها فى البيئات المتحضرة والراقية ، وكيف ظلت على طفولتها الأولى وسذاجتها فى المجتمعات التى شاءت الظروف أن تظل على حالتها البدائية الأولى ، كهذه القبائل المتوحشة فى المناطق الاستوائية فى أفريقيا وجزر المحيط الهادى . بل وكيف أن أقدم العقائد وأغربها بالنسبة للعقل الحديث لا تزال تحتفظ بآثارها بين طبقات العوام والجهال وبعض المثقفين فى مختلف البيئات الإنسانية .

عبادة الأمهات :

قلنا إن الإيمان هو إحساس الإنسان بالنقص وبوجود قوة أكثر كمالاً منه ، هى التى أوجدته. ومنذ وجد الإنسان نفسه على ظهر الأرض وقد راح يتلمس هذه القوة فى كل ما حوله من عناصر وكائنات لكى يحتمى بها ويستعين بها فى الشدائد ، وطبيعى أن يتجه العقل البشرى أول ما يتجه إلى أن تكون الأم هى تلك الذات الخالقة . فالإنسان وليد أمه وهو لا يكاد يستنشق هواء الحياة حتى يشعر باعتماده الاعتماد الكلى على أمه . فهى التى تطعمه إذا جاع ، وهى التى تخفف عنه آلامه ، وهى التى تحميه وتحنو عليه . حتى إذا شب قليلاً عن الطوق كانت هى التى تهديه إلى التماس أسباب الحياة معتمدا على نفسه .

ولما كانت الحياة ما تزال فى بداءتها الأولى لم يكن للأسرة المستقرة وجود . وبالتالى فإن الأب قد تأخر فى الظهور على صفحة العقل كإله خالق . وانفردت الأم فى ذلك التاريخ بوصفها أصل الحياة . وقد ظل الإنسان يتأثر بهذه الفكرة حتى عصور متأخرة ، وبعد أن ارتقى تفكيره وتطور ، فظل لا يتصور الخلق إلا منسوبا لآلهة إناث . وعند وضع اللغة جعل العناصر الكبرى إناثا ، فالسماء والأرض والشمس ، وهى الأصول الثلاثة التى عزا الإنسان الخلق إلى إحداهم كلها إناث .

ونحن فى عصرنا الحديث مانزال نؤنثها بل ونتحدث عن الأرض أحيانا بقولنا «أمنا الأرض» وحتى بعد أن ظهرت الآلهة الذكور إلى جوار الآلهة الإناث ظلت الآلهة الإناث هى صاحبة اليد الطولى . فإيزيس فى مصر أشهر الآلهة بلا مراء ، وهى من سائر الآلهة المصرية القديمة التى تحولت إلى آلهة عالمية حيث دان لها الرومان بالعبودية . وأثينا هى

أشهر الآلهة الأغريقية وأحبها إلى الجمهور ويرمزون بها إلى الحكمة ، وتقابلها منرفا عند الرومان ، وإستار ، وعشتاروت فى أشور وبابل ، واللات والعزى عند قبائل العرب فى الجاهلية الذين كانوا يؤنثون الآلهة ويؤنثون الملائكة .

وقد ألمع القرآن إلى ذلك ونعاه عليهم «إن يدعون من دونه إلا إناثا[1] » ونعل هذا كله يؤكد لنا أن عبادة الأمومة باعتبارها خالقة للحياة هى أول ما خطر للذهن البشرى تمشيا مع الظاهر الملموس المحسوس .

عبادة الآباء فالأجداد :

ولكن مرحلة الاستقرار سرعان ما وفدت على الإنسان وبدأ الطفل يترعرع فى ظل الأم والأب على السواء . ورأى من سلطان الأب وشدة بطشه ما جعله يتهيبه ويحتمى به ويستعين به . فبدأت الذكورة تحتل مكانها فى التقديس إلى جوار الأمومة . وسرعان ما بدأت الملاحظة تدل العقل البشرى على أن الأم لا تنجب الأولاد إلا بعد اتصال الذكر بها . وأن الأم لو عاشت بمفردها ما عاشت فلا سبيل لإنجابها الأطفال . فكأن اتصال الذكر بها هو السبب الأول لخلق الحياة . ولما كان الأب هو الأقوى وهو المتحكم فى الأسرة والمتسلط على الأنثى ، فقد بدأ العقل البشرى يعزو الخلق إلى الأب لا الأم أو على الأقل للاثنين معا .

ولعلنا نلحظ ما فى هذا التطور من طفرة فى التفكير البشرى نقلته من عالم الظاهر والمشاهَد والمحسوس الذى يدل على أن الأم تربى الجنين فى بطنها ثم لا يلبث أن ينفصل عن جسدها وينمو ويتغذى ويترعرع بلبنها ، ولكن العقل تجاوز ذلك كله إلى السبب الأول للحياة الذى عزاه للأب ، أى للذكر .

تتبع الأسباب :

ولم يكد العقل يضع قدمه على سلم الأسباب حتى راح يتسلقه درجة درجة ومايزال حتى اليوم يواصل ارتقاءه للبحث خلف هذه الأسباب . فالأب وهو المتسبب فى الحياة للابن ، كان يدرك أنه ابن لأب سابق . وهذا الأب بدوره كان ابنا لأب أسبق عليه فلا بد أن يكون هذا الجد الأول هو المتسبب الأول فى الحياة ، وهو القوى القادر الذى يحمى أبناءه ويرعاهم من عالم الأشباح . ولا بد أن تقدم له القرابين لاسترضائه

(١) النساء ١١٧ .

واستجلاب محبته ومعونته وحمايته . وهكذا نشأت أقوى عقيدة عرفها البشر فى القديم . ونعنى بها عبادة الآباء والأجداد والتى تعدلت فيما بعد فأصبحت عبادة للموتى بصفة عامة أبطالاً كانوا أو زعماء أو ملوكاً ، أو مجرد آباء وأجداد . وما يزال الدين الرسمى لشعب ضخم كاليابان فى الوقت الحاضر هو الشنتو ، ويتلخص فى عبادة الآباء والأسلاف وعبادة الامبراطور سلالة ذلك الأب الأول الذى انحدر من الشمس ليحكم الأرض . وكل أسرة يابانية فى الوقت الحاضر تعبد امبراطورها وتعبد إلى جواره آباءها وأجدادها فتفزع إليهم فى الملمات وتلتمس منهم العون فى الشدائد وتستلهمهم الحكمة والرشاد وتقرّب إليهم القرابين ..

وإذا كانت الصين على خلاف اليابان قد خلعت امبراطورها ابن السماء وأصبحت جمهورية حرة فإن عبادة الآباء والأجداد هى العبادة الغالبة فى أرجاء الصين حيث يتعين على كل إنسان أن يتصرف دائماً كما لو كان فى حضرة الأجداد ، بمعنى أن يسعى للحصول على رضائهم وتفادى سخطهم والبعد عن كل مايزرى بذكراهم وكرامتهم ، لأن كل ما يقوم به الابن من عمل لا يلبث أن يعود عليهم بالتكريم أو التحقير[1] .

عبـادة الحيـوانات :

على أن الإنسان الأول إذا كان قد اختص أمه وأباه بالقداسة ورفعهما بعد موتهما إلى مرتبة الألوهية ، فإن الحيوان لا بد أن يكون قد نشأ بدوره من أصل آخر أو بالأحرى إله آخر . ولا بد أن يكون النبات قد نشأ من أصل ثالث أو بالأحرى إله ثالث وهكذا ؛ فكل عنصر يخالف الإنسان شئ مستقل بذاته له سببه وله أصله . وقد كان ذلك تفكيرا أساسيا للعقل البشرى فى المراحل الأولى .

---

(١) الدين الرسمى الآن للصين (١٩٦٥) هو دين الماركسية ولايعجبن قارئ من وصفنا بأنها دين . فقد أصبح لها كل سمات الأديان الوثنية . فلها كهان (ماركس ولينين) ولها كتب مقدسة (رأس المال ومؤلفات لينين) ولها كعبة يحج إليها (موسكو) . وأصبحت عبادة الموتى من شعائرهم . حيث يحتفظون بجثة لينين محنطة ويحيطونها بمظاهر التقديس .

وإذا كان ينقص الدين الجديد إله . فقد جعل ستالين من نفسه إلها إبان حياته . والماركسيون كأى متعصبين مترمتين لدينهم على استعداد لإعدام مخالفيهم فى الرأى . بل وإحراقهم حرقا ، كما كانت الكنيسة تفعل فى العصور الوسطى . وكما فعل ستالين فى حياته وسط تهليل الماركسيين وإعجابهم .

ولما كان العقل البشرى منذ عرف نفسه فى الوجود يستطيع أن يميز بين ما يضره وما ينفعه وما يسره وما يؤلمه . فقد دفعه ذلك إلى تصور آلهة للشر كتصوره آلهة للخير. وقد كان الحيوان أسبق ما فى هذا الكون لإيصال الأذى للإنسان وإشعاره بالخوف . فطالما رأى الإنسان بعض جنسه طعاما للأسد أو النمر أو التمساح وغيرها من الحيوانات الكاسرة فامتلأ بالخوف منها والفزع لمرآها والإحساس ببطشها . وسرعان ما قفز العقل البشرى إلى تصور هذه الحيوانات كآلهة للشر . فراح الإنسان يتعوذ منها ويعمل على اتقاء شرها جهد طاقته باستجلاب رضاها وعدم استثارة غضبها بالتحرش بها أو التعرض لها . ومن هنا نشأت عبادة الحيوانات المؤذية فى القديم كالتمساح والثعبان وابن آوى الذى كان ينبش قبور الموتى ويهتك أسرارهم ويأكل جثثهم . فكان المصرى القديم يضع له الطعام على حافة الصحراء لكى يسترضيه علّه يكف عن نبش قبور الآباء والأجداد .

الكلب والعجل والبقر :

على أن بعض هذه الحيوانات الكاسرة قد تحولت مع الزمن إلى حيوانات أليفة لا تؤذى الإنسان وإنما تنفعه وتعينه ، فسرعان ما أخذت هذه الحيوانات حظها من القداسة والعبادة لا بوصفها آلهة للشر ولكن كآلهة للخير . فكانت عبادة الكلب عند الرعاة . وعبادة العجل والبقر عند البيئات الزراعية كمصر والهند .

ولا نزال نرى فى العصر الحديث فى بعض البيئات المختلفة أثر هذا اللون من ألوان العبادة ، ففى مصر مثلاً لا يزال لبعض الحيوانات سر خاص . وقد كنا نرى إلى عهد كبير قريب تماسيح محنطة موضوعة على مدخل بعض البيوت[1] ، كما أن هناك أسطورة شائعة بين العوام وسواد الناس من أنه يوجد فى كل بيت ثعبان خاص به . وما تزال هذه الطائفة من الحواة والرفاعية يؤكدون فى الأذهان هذه الأسطورة بما يقنصونه من ثعابين من بعض الدور والمساكن ، وما يزال للقطة السوداء فى مصر أحاديث وقصص وأساطير . وليس ذلك إلا بقايا هذه المعتقدات المصرية القديمة والتى احتفظت بقوتها خلال العصور والدهور وسط جمهور الفلاحين المصريين الذين لم يتطوروا إلا قليلاً جدا خلال هذه

(١) كان إلى جوار البيت الذى نشأت فيه فى حى طيلون بحارة الجمالة بيت أحد مشايخ الطرق الصوفية . وقد علق على بابه تمساحًا كان يملؤنى فزعًا كلما رحت أو جئت من أمامه حتى تعودت عليه على مر الزمن . وكانوا يخيفوننا به فى طفولتنا .

الألوف من السنين - بل لعلهم لم يتطوروا على الإطلاق وكذلك الحال فى الهند حيث نرى البقر أحد المعبودات المقدسة .

وفى المجتمعات الآسيوية كلها حيث ما يزال للكثير من الحيوانات صفة القداسة ، بل إن أرقى المجتمعات الأوروبية ما يزال متأثراً بتقاليد الماضى ، فالأوربيون ليسوا إلا من سلالة هذه القبائل الآرية التى وفدت من أواسط آسيا . وهى قبائل رحّل تعتمد على الرعى فى حياتها . وقد كان الكلب بالنسبة للرعاة دائماً حيواناً مقدساً فظل هذا الأثر باقياً حتى اليوم فى الشعوب الأوربية حيث نرى شدة تعلقها بالكلب وإسرافها فى تدليله وإحاطته بكل صنوف الرعاية والبر والرفق .. وحقًّا لا يفعل الأوربيون ذلك على سبيل التقديس والعبادة ، ولكن الذى لا شك فيه أن إسراف الأوربيين فى إعزاز الكلب ليس إلاّ أثرا باقيا من آثار تقديسهم القديم له .

عبـادة النبـاتات :

ولم تكن الحيوانات وحدها هى التى اجتذبت العقل البشرى فى القديم لتقديسها وعبادتها ، بل إن النباتات بدورها قد استرعت انتباهه ككائنات سامية مقدسة . فبعض الأشجار الضخمة القديمة قد عدت فى كثير من المجتمعات الأولى كخالقة لبنى البشر وواهبه للحياة[1] .

وقد كان ذلك تفكيراً طبيعيا لإنسان يعيش محوطاً بالغابات الكثيفة التى يراها تغص بكل ألوان الحياة التى تعيش على أوراقها وبين غصونها ، مجتمعة بأدغالها . وما تزال الغابة توحى بهذه الفكرة لكثير من القبائل التى تقيم فى الغابات الاستوائية .

أما القبائل التى تطورت وتحضرت واهتدت إلى الزراعة فقد حولت عبادتها وتقديسها إلى بعض المزروعات المستنبتة كالأرز والقمح .. والأرز هو المعبود المقدس فى كثير من جهات بورما والملايو وجزر الهند الشرقية فى عصرنا الحديث ، وأحسب أن ذلك لا يثير كثيراً من الدهشة إذا تصورنا أنه قِوام حياتهم الذى به يعيشون .

---

(١) لا يزال فى مصر شجرة بالمطرية تسمى شجرة العذراء يحيطها فريق من المصريين بالقداسة ويتبركون بها ويستشفون ويسألون عندها حاجتهم بدعوى أن العذراء أقامت فى ظلها .

عبادة الجمادات والعناصر :

وإذا كان العقل البشرى كما قدمنا يؤله ويقدس كل العناصر والكائنات التى يعجز عن إدراك كنهها أو التى تخيفه وترعبه أو التى تفيده وتنفعه . فقد كان طبيعياً أن يقدس المتوطنون بجوار الأنهار .. هذه المياة الجارية التى لا يستطيعون الحياة بدونها سواء عن طريق الشراب أو الغذاء . ويرونها أصل الحياة البشرية على الإطلاق . فالنيل فى مصر والكنج فى الهند وغيرهما من الأنهار فى البيئات الزراعية كانت آلهة على رأس آلهتهم . وقد ظل النيل مقدساً فى مصر حتى بعد أن دخل الإسلام إليها ، حيث صيغت له الأحاديث التى تتحدث عن فيضانه من قبة فى الجنة ، حتى إذا اكتشفت منابعه فى بلاد الحبشة وخط الاستواء كف المتعلمون من رجال الدين عن الزعم بفيضانه من الجنة . أما فى شمال أفريقيا حيث ما يزال كثير من المتدينين المتعبدين من المسلمين لا يعرفون شيئاً عن منابع النيل واكتشافها فى خط الاستواء والحبشة . فما يزالون على عقيدتهم الراسخة من أنه ينبع من الجنة .

وقد حدثنى صديق جزائرى[1] أنهم ما يزالون بالجزائر يسألون الله فى خطب الجمعة بالمساجد أن يفيض عليهم نيل مصر .

أما نهر الكنج فى الهند فما يزال مقدساً ومعبوداً بكل معنى العبودية . إذ يحج إليه مئات الألوف بل ملايين الهنود للتبرك به والاستشفاء[2] .

وهكذا قدست الأنهار وعبدت فى جميع البيئات الزراعية . أما فى المناطق الجبلية فقد عبدت الجبال وقممها الضاربة فى كبد السماء والمغطاة بالثلوج طوال أيام العام فللجبال تأثير عميق فى نفس الإنسان الواقف فى سفحها إذ تشعره بضآلته إلى جوار عظمتها ، وتملؤه شعوراً بالمهابة والروعة . فلا عجب إذا حمل هذا الشعور الإنسان على تقديسها وعبادتها وخاصة أنه منذ يولد وهى تطل عليه وتظله بتأثيرها وعظمتها ، فإذا سأل أباه عنها أجابه بأنه هكذا رآها منذ طفولته وأن آباءه وأجداده قد شبوا جميعاً فى ظلها وهى على هذه الحال من الثبات والشموخ لم تتغير ولم تتبدل .

---

(١) هو الأستاذ العالم المرحوم الفضيل الورتلانى .

(٢) اقرأ للمؤلف كتاب «أمة تبعث» عن رحلته فى الهند وزيارته لمدينة بنارس .

وإذا كانت المشاهدة توحى للإنسان بأن كل شئ على ظهر الأرض يتغير ويتبدل فلا بد أن تكون هذه الجبال هى الأصل الثابت الذى نشأت منه الحياة وهى محور الكون المهيمن عليه ..

وما يزال سكان التبت فى أعماق الصين المتوطنون فى سفوح جبال الهملايا يعبدون بعض القمم ويؤلهونها(١) .

وأما هؤلاء الذين عاشوا إلى جوار البحر الكبير المترامى الأطراف والمتلاطم الأمواج ، فقد كان طبيعيا أن يعدوه هو الرب الخالق الذى منه فاضت الأشياء . وعلى هذه العقيدة حتى اليوم جميع سكان الجزر المتناثرة فى أنحاء المحيط الهادى .

وهؤلاء الذين عاشوا إلى جوار بركان جعلوا البركان أو النار التى تصعد منه هى أصل الحياة وحاكمتها . والذين انخلعت قلوبهم لصوت الرعد أو قصف الرياح أو هطول الأمطار قدسوها وألهوها وعدوها العناصر الخالقة .

وبالجملة فقد تأثر العقل البشرى فى مرحلته الأولى بالبيئة الجغرافية التى سكن فيها الإنسان . والظروف المعيشية التى خضع لها لكى يختار مقدساته ومحور عبادته ، وجعل دأبه تقديس كل ما يفوقه من كائنات أو يعجز عن فهمه أو يشعر باعتماده عليه وحاجته إليه ، أو يخيفه ويسبب له شيئاً من الأذى .

وما يزال أثر هذه المقدسات ظاهراً فى عادات السواد الأعظم من العوام ومعتقداتهم حيث يفسرون الظواهر الجغرافية تفسيرا أسطوريا بحتا . وليس هذا إلا ترديدا للأساطير القديمة التى كانت تؤله هذه العناصر ، فالرعد مثلاً ليس إلا صوت الملائكة ، وهى تزجر الرياح وتضربها بمقامع من حديد . وبعض الزوابع والأعاصير ليس إلا أنفاس بعض الجن أو الأرواح . وبعض العيون والآبار من حفر الملائكة كعين زمزم فى الحجاز مثلاً فهى من حفر جبريل سيد الملائكة ، فإذا علمت أن سكان مكة والجبال المحيطة بها إلى ما قبل حفر عين زبيدة لم يكن لهم ما يستقون منه إلا بئر زمزم ، استطعت أن تدرك الصلة بين شدة

(١) ما زلت أذكر حتى اليوم اللهجة التى أجابنى بها لبنانى فى جبل لبنان وأنا أسأله عن قمة جبل عالية إذ قال لى هذا «صنين يا سيدى» فلفت نظرى ما فى إجابته من خشوع وتوقير فرحت أستزيده من الشرح فلم يزد على قوله «هذا صنين» ثم راح يروى لى عنه أساطير وأقاصيص ما بين قديمة وحديثة وقد حفزنى ذلك للاشتراك فى رحلة للوصول إليه تمضية يوم حيث اعتاد الناس أن يمضوا فيه بعض الأوقات ، ولما عدت من هذه الرحلة قابلنى صاحب الفندق بكثير من الحفاوة والتكريم فقد صعدت صنين.

الحاجة إلى شئ من الأشياء وما يترتب عليه من تقديسه . وهو دأب الإنسان فى مرحلته العقلية الأولى .

عبادة الشمس والكواكب :

وكان طبيعيا أن تكون الشمس بالنهار والكواكب بالليل من أعظم ما يستوقف العمل البشرى وتشعره بقوتها وشدة تأثيرها على الكون . إذ لا تكاد الشمس تشرق حتى يغمر ضوؤها الكون كله ، فتدب الحياة على ظهر الأرض بعد موتها . فالطيور تخرج من أوكارها ، والحيوانات من وكناتها ، والأشجار تبسط أوراقها وتشرئب بأغصانها ، والزهور تتفتح ، والثمار تنضج ، والإنسان ينشط ، ويمتلئ الجو بضجيج الحياة وعجيجها . ولا تكاد الشمس تغرب حتى يسود الظلام ، وتنتشر الوحشة وتهرع الكائنات الحية إلى مساكنها حيث يدب النعاس الشبيه بالموت إلى أجفانها وأوصالها . ويغرق الكون فى بحر من السكون والظلام حتى كأن الدنيا قد دخلت فى عالم الأموات إلا إذا أشرق ذلك الكوكب الثانى الذى يبدد ظلام الليل ويضفى عليه نوراً بهيا يملأ النفس بالخشوع والحنان والدعة والذى لا يمكن إلا أن يكون بينه وبين الشمس أقوى سبب .

هذه الظاهرة الضخمة من تعاقب الليل والنهار وتأثير الشمس العظيم فى الدنيا والكائنات ، كانت قمينة بأن تحمل العقل البشرى فى وقت كان يقدس فيه النهر والجبل ، وقطعة الحجر ، والقط والتمساح ، والبرق والرعد ، على أن يخص الشمس بأكبر نصيب من خضوعه وعبوديته ، وأن يجعل منها إلهاً فوق الآلهة ، ومصدرا أصليا للحياة فوق جميع المصادر الخاصة به . ومن هنا كانت الشمس هى العنصر الوحيد المشترك بين جميع الديانات والعقائد المختلفة القديمة ، فإلى جوار الآلهة المحلية لكل شعب ولكل جماعة كانت ترتفع الشمس كمصدر أولى لكل ما فى الكون من إنس وجن وآلهة .

ففى مصر انحدرت جميع الآلهة من الشمس كما انحدرت منها الفراعنة وفى اليابان هبط الإمبراطور من الشمس المشرقة . وديانة الأشوريين والبابليين تتخذ الشمس محوراً لها .. وأشهر الآلهة فى مختلف البيئات وأعظم الأصنام والرموز ، تقام دائماً لهذه الآلهة التى تمثل قوة الشمس .

وسنرى فى الفصل التالى كيف كانت الشمس هى نقطة البدء ، التى قفز العقل البشرى منها إلى توحيد الآلهة .

والحق أن العقل البشرى ساعة أن سما إلى السماء وكواكبها لالتماس الآلهة كان يطفر طفرة من طفراته العجيبة الواسعة. فانصرافه عن الأرض بمادياتها المظلمة وصورها المحدودة إلى السماء اللانهائية بأنوارها المتلألئة وأشعتها المضيئة، كان بمثابة قطعه نصف الطريق نحو اكتشاف الحقيقة السامية.

ولقد صوّر لنا القرآن أبدع تصوير، كيف تستوقف السماء بكواكبها العقل لاكتناه أسرارها، فيما حكاه عن إبراهيم إبان محاولته كشف الحق فى هذا الكون «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون. إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين[1]».

وما يزال أثر عبادة الكواكب والنجوم مغروساً فى السواد الأعظم من الناس الذين يؤمنون بالتنجيم والطوالع. ويعتقدون بوجود صلة بين كل إنسان وبين نجم معين وينسبون إلى بعض النجوم طوالع سعيدة، ولبعضها طوالع نحسة. وقد ظل المنجمون أصحاب حظوة عند الملوك والخلفاء والقياصرة إلى عهد قريب جدا، حتى بعد انتشار الأديان التى تحظر الإيمان بالنجوم والكواكب. ولم يفقد المنجمون حظوتهم لدى الكبراء والمتعلمين إلا بعد تطور العلوم الفلكية الحديثة التى أثبتت أن أصغر نقطة من هذه النقط المضيئة فى السماء قد تساوى فى حجمها الأرض ملايين المرات. فمن العبث تصور أن يكون بينها وبين حركات الإنسان وتصرفاته أية صلة أو علاقة. ومع ذلك فما يزال المنجمون لهم تأثير عظيم جدا فى صفوف العوام. ليس فقط فى بلاد الشرق بل فى أرقى الجماعات المتحضرة أى فى أوربا وأمريكا[2].

---

(١) الأنعام ٧٦ - ٧٩.

(٢) عاد التنجيم ومطالعة الطالع يحتل مكانه فى أرقى الصحف والمجلات العالمية.

عبادة الخالق فى خليقته :

وهكذا لم يدع العقل البشرى كائناً من الكائنات حيا كان أو جامداً . صغيراً كان أوكبيراً على الأرض أو فى السماء إلا وحاول أن يتمثل فيه ذلك السر الإلهى المتصف بالقدرة والخلق .

ولعلنا نستطيع أن ندرك كيف كان ذلك هو الينبوع الأول الذى فاضت منه العلوم والمعارف . وقد ذكرت فيما سبق أن هذه التطورات الأولى للعقل البشرى مهما تبدُ فى نظرنا فى العصر الحديث ساذجة ، فهى الأساس الذى قام عليه صرح إيماننا الكامل ومعرفتنا الشامخة . ولا يجب أن نفاضل بين العقائد القديمة من ناحية مقدساتها ، بمعنى أن نعتقد أن من يقدس البقرة أرقى ممن يقدس الكلب مثلاً ، ومن يعبد النار أو الجبل ، أرقى ممن يعبد العجل أوالتمساح . وأن من يعبد الشمس أرقى من الجميع . فذلك ليس مقياس التفاضل ، لأن هذه الأشياء كلها ، ليست سوى كائنات مخلوقة لخالق واحد ، فهى كلها فى مرتبة واحدة ، ومكانة واحدة ، وهى كلها مهما تكبر أو تصغر ، تحمل بين ثناياها طابع ذلك الخالق الذى خلقها وأبدعها ، وهى آية على قدرته وعظيم شأنه ، فلا يكاد العقل البشرى يتأمل أى كائن من هذه الكائنات ، حتى يرى نفسه وجهاً لوجه أمام قدرة الخالق .

وليس أدل على ذلك من أسلوب القرآن الكريم الذى حث العقل فى عشرات الآيات على تأمل كل ما فى هذا الكون من كائنات وعناصر ومخلوقات مستخدماً فى إشارته إليها صيغة القسم لإبراز شأنها وحقيقة سرها كقوله : «والسماء والطارق» ، «والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها» ، «والنجم إذا هوى» ، «والتين والزيتون» : «والعاديات ضبحا» ، «والمرسلات عرفا» إلى آخر هذه الآيات العديدة التى تتضمن القسم بشتى الكائنات للفت نظر العقل البشرى إلى ما تنطوى عليه من أسرار تدل أفصح دلالة على خالقها القادر الأزلى. وما فعله العقل البشرى فى مرحلته الأولى التى فرغنا من استعراضها وهو وقوفه عند حد تأمل هذه الكائنات المختلفة وإدراكه لما تنطوى عليه من سر يحير الألباب جعل العقل ينحنى إذعاناً أمامها فيتخذها آلهة معبودة . وهو فى الحقيقة إنما يعبد القدرة التى أبدعتها وإن كان لم يدرك ذلك بعد .

وهذا ما يجعلنا نصف هذه الفترة من مراحل التفكير البشرى بأنها عبادة الخالق فى خليقته .

وقد عبر أمير الشعراء الخالد أحمد شوقى بعبقريته الفذة وشفافيته الروحية عن هذا المعنى أجمل تعبير وأروعه بقوله :

رب شقت العباد أزمان لا كتـ ... ـب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى ... جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا قويا إلـهًا ... فله بالقوى إليك انتماء
وإذا آثروا جميلاً بتنزيـ ... ـه فإن الجمال منك حباء
وإذا أنشأوا التماثيل غرا ... فإليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربا ... با فمنك السنا ومنك السناء
وإذا ألهوا النبات فمن آ ... ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يمموا الجبال سجودًا ... فالمراد الجلالة الشماء
وإذا يعبد الملوك فإن المـ ... ـلك فضل تحبو به من تشاء
وإذا تعبد البحار مع الأسمـ ... ـاك والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأر ... حام والأمهات والآباء
لعلاك المذكرات عبيد ... خضع والمؤنثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر ... شف عنه الحجاب فهو ضياء

الفصل الرابع

نحو الحقيقة

نظرية الحلول ـ عبادة الأصنام ـ نحو التوحيد ـ في مصر ـ بتاح ـ الإله رع ـ آمون ـ أمحوتب الرابع ـ اخناتون ـ أتون الإله الحق ـ الرحمن الرحيم ـ مصرع اخناتون ـ تنزيه آمون ـ التوحيد عند الاغريق ـ عند الفرس ـ عند الهنود .

نظرية الحلول :

وتابع العقل البشرى رحلته نحو سر الأسرار . وقد اشتد ساعده على مر الأيام بما اكتسب من تجارب واكتشف من حقائق وأدرك من بديهات . وضغطت عليه من ناحية أخرى ظروف الاجتماع المتطور والعمران وأسباب الحضارة وزادت بذلك سيطرة الإنسان على كثير من العناصر والكائنات التى لم يعد يرهب الكثير منها أو يخشاها بعد أن اكتشف أنها تعمل وفق قواعد مقررة رتيبة . وأن ذلك يقلل من قوتها بالنسبة للإنسان الذى يحس من نفسه الحرية والاختيار والذى استطاع بمحض عقله ودهائه أن يصرع أضخم الحيوانات وأشرسها وأن يخضعها لسلطانه .

كل ذلك جعل العقل البشرى يغير نظرته إلى مقدساته على اختلاف أنواعها سواء كانت حيوانات أو نباتات أو جمادات . فلم تعد تمثل فى نظره الآلهة بذاتها بل صوراً قد اختارتها الآلهة للظهور بها على الأرض والاختلاط بالبشر بطريقة يقوى البشر على احتمالها . ولكى تتيح للبشر من ناحية أخرى فرصة التقرب منها وعبادتها .

فالعجل أبيس مثلاً ذلك العجل ذو الغرة البيضاء ليس هو الإله الصانع بتاح ، وإنما هو الصورة الأرضية التى اختارها الاله بتاح لتقمصها والظهور بها على الأرض ، للاقتراب من عباده المؤمنين . وما يقال عن بتاح ، يقال عن جميع الآلهة الأخرى ، فكلها سواء فى قدرتها على التشكل والحلول فى مختلف الصور دون أن يكون فى ذلك أدنى

مساس بجوهرها الذى يظل ساميا علويا كاملاً ، لا يخضع للمؤثرات أو النقائص المادية .

وقد غمرت نظرية الحلول هذه العالم فى مرحلته العقلية الثانية . فلم تعد الكائنات المادية المعبودة على اختلاف أنواعها آلهة بذواتها بل سكناً للآلهة وصوراً لها على الأرض .

عبادة الأصنام :

وقد أدت نظرية الحلول ورغبة الآلهة فى سكنى الصور المادية للاقتراب من بنى الإنسان إلى التوسع فى إقامة الأوثان والأصنام والنصب ، لتكون سكناً للآلهة على الأرض بين عبادها المؤمنين ، الذين يقومون على خدمتها وتقديسها وتسبيحها ، وتقديم القرابين والذبائح بين يديها بالليل والنهار .

ولعلنا نرى من ذلك أن الوثنية بمعنى عبادة الأصنام والتقرب منها ، بوصفها وسيطاً لإرضاء الآلهة ، لم تكن فى الواقع إلا مرحلة من مراحل التطور العقلى فى سبيل النضوج والاكتمال . فقد بدأ العقل فى هذه المرحلة يقلع عن اتخاذ كائن بعينه إلهاً من الآلهة وبدأ يتمثل الآلهة ذات قوى خفية فائقة غير محدودة ، وإنما حملتها محبتها للبشر ورغبتها فى الاقتراب منهم أن تحل فى هذه النصب والتماثيل والمقدسات التى يقيمها البشر لعبادتها والتقرب منها .

نحو التوحيد

وبينما كان العقل البشرى يتطور نحو تنزيه الألوهية ، فقد كان يتطور كذلك من حيث توحيدها ويحاول أن يخلص من هذا التعدد الذى لا حد له للآلهة والعناصر الخالقة : فمن ناحية كان العقل قد بدأ يدرك أن خلف الأجزاء المتعددة دائماً نوع يشملها ، وأن فوق الأنواع جنس يجمعها . ومن ناحية أخرى عمل الاستقرار ونشوء الحضارة ، واتصال أسباب التعاون بين البشر ، إلى تقريب العقل من فكرة توحيد الآلهة . ففى البدء حيث كان الناس يعيشون على هيئة قبائل يباعد بينها انعدام أسباب المواصلات وصعوبتها ، كانت كل جماعة أو بالأحرى كل قبيلة تتخيل الكون محدوداً بهذا الأفق الذى تصل إليه أبصارها ، وكانت تعتقد أنه ليس فى الكون إلا آلهتها المختارة ، وأن ليس سواها من ترعاه وتحميه الآلهة ، ولكن احتكاك القبائل ببعضها عن طريق التعاون السلمى ، أو الاصطدام الحربى ، قد دل كل جماعة على أن هناك عوالم أخرى غير عالمها ، وأن هناك

شعوباً غير شعبها ، وأن هناك آلهة غير آلهتها . فبدأت الفكرة عن الألوهية تتلقح بأفكار الآخرين عنها فتوجهها فى هذا الاتجاه أو ذاك ، وبدأنا نطالع فى سجل تطور العقائد البشرية ، كيف ان آلهة جماعة من الجماعات تمت بصلة الأخوة أو البنوة أو الأبوة إلى آلهة الجماعة الأخرى ، بل كيف أن إله قوم قد تزوج ربة القوم الآخرين . حتى إذا جاء عصر الفتح والنصر الذى استطاع فيه زعيم قوى أن يبسط سلطانه على عدة جماعات وقبائل وشعوب متفرقة ، فقد بدأنا نرى بالتالى اشتداد سلطان آلهة هذا الفاتح وتفوقها على آلهة الشعوب الأخرى المغلوبة . كل ذلك قد أدى فى نهاية الأمر إلى استخلاص العقل البشرى فكرة كلية مجردة عن الألوهية عاونته على تصور إله فوق الآلهة ، ورب خالق لبقية الأرباب ، حتى انتهى به الأمر إلى التوحيد الكامل المطلق كما سنرى فى استعراض سير التطور فى مختلف الجماعات البشرية القديمة .

فى مصـــــر :

لا أحسب أنه يوجد مثل المجتمع المصرى القديم ، من حيث قدرة الإنسان على تتبع نشوء العقائد المختلفة وتطورها وامتزاجها ، وكيف بدأت بمعتقدات الإنسان الأولى الساذجة من تقديسه لكل ما يحيط به من كائنات وعناصر ، وانتهت عند حكمائهم وقادتهم بالتوحيد المجرد المطلق .

وقبل بدء التاريخ المصرى فى الظهور والوضوح ، أى قبيل عصر الأسرات نرى مصر تتألف من عديد من المدن والمقاطعات المستقل بعضها عن بعض ، والتى يختص كل منها بإله معبود يمثل ناحية من النواحى المتعددة ، التى أشرنا إليها فيما سبق . وكان يوجد دائمًا إلى جوار هذا الإله المحلى المتفوق ، عدد آخر من الآلهة المشتركة بين هذه المنطقة والمناطق الأخرى . ثم بدأت العوامل السياسية والظروف الاجتماعية تعمل عملها فى التقريب بين هذه الآلهة ، والمزج بينها وإخضاع كل منها للأخرى . وإلى جوار هذه العوامل السياسية ، وجد فى مصر عامل طبيعى كان له أكبر الأثر فى عملية التوحيد وذلك هو الشمس . فهذه الشمس القوية الساطعة التى أحس كل مصرى بعظم تأثيرها على حياته ، وزراعته وكل ما يحيط به ، استحقت أن تكون معبودته فى أكثر من إقليم من أقاليم الوجه البحرى والقبلى ، فكان لهذه الفكرة المشتركة أكبر الأثر فى خلق فكرة التوحيد فيما بعد ، والمساعدة على انتشارها وكانت الشمس تعبد فى مختلف أنحاء القطر من بادئ الأمر باسم حوريس .

بتـــــاح :

ولكنها مع ذلك لم تصبح معبوداً رسميا فى سائر أنحاء القطر إلا بعد أن شقت لها السياسة والغلبة العسكرية الطريق . وكان ذلك عندما استطاع مينا لأول مرة فى حياة مصر أن يضم حكمى الوجه البحرى والقبلى إلى سلطانه وأن يجعل من مدينة منف عاصمة للديار المصرية ، يدين لها المصريون جميعا بالولاء والطاعة ، يتلقون منها الوحى والقيادة والإرشاد . فسرعان ما قفز إله مدينة منف المحلى إلى مرتبة الإله الأول للدولة ، وبعد أن كان هذا الإله خاملاً لا يكاد يسمع اسمه خارج منطقة منف ، أصبح هو الإله الغالب المسيطر . ولم يكن ذلك الإله سوى بتاح ذلك الذى ألمحنا إليه فيما سبق ، والذى كان يرمز إليه بالعجل أبيس . وقد ظلت هذه العبادة تحتل المكان الأول بين العبادات المصرية حتى عصور متأخرة جدا .

ونستطيع أن نتتبع فى تاريخ بتاح ، التطورات التى تطورت إليها المعبودات القديمة حتى انتهت من الصور المادية البحتة ، إلى الصورة الكاملة التى لا تختلف عن أى صورة أخرى يمكن أن نتصور الله عليها .

ففى البدء كان بتاح ينظر إليه بواسطة كهنته وأهل إقليمه كإله العمارة والصناعة الذى يرجع إليه فى التصميمات البنائية والصناعية فى دائرة إقليمه المحدود .

فلما أصبحت منف عاصمة الديار المصرية ، تطورت نظرة كهنته إليه فأصبح رئيسا لصناع العالم كله .. وبالأحرى صاحب الترتيبات البنائية والصناعية فى الدنيا كلها لا فى دائرة إقليمه فحسب . ثم تطور به كهنته خطوة أبعد من ذلك فنسبوا إليه فكرة خلق الكون والآلهة وأن جميع ما يصدر عن سكان هذا الكون سواء كانوا بشراً أو آلهة من أعمال وتصرفات ومنشآت ، إنما يرجع فى حقيقته إلى بتاح الرب المنفرد بالخلق والعظمة والذى إذا قضى شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

الإلـــه رع :

وهكذا كسفت عبادة « بتاح » لفترة من الزمن عبادة الشمس ولكن الأسرة الأولى لم تكد تسقط ، حتى هب كهنة عين شمس من رقادهم وشرعوا يبشرون باسم معبودهم الشمس « رع » الذى لم يكن يُعْبَد بهذا الاسم إلا فى هذه المنطقة ، وسرعان ما وقع ملوك الأسرة الثانية والثالثة تحت نفوذهم ، فلم تكد الأسرة الرابعة تأخذ طريقها إلى الوجود ،

ويفرغ «خوفو» من بناء هرمه حتى كانت عبادة «رع» هى العبادة الغالبة فى الدولة ، وأصبح اسم «رع» يظهر فى أسماء ملوك هذه الأسرة على التوالى كخفرع الذى يعنى ضوء الشمس ، ومنقرع ، واستطاع كهنة عين شمس فى نهاية الأمر أن يستولوا بأنفسهم على أريكة الملك ، فأسسوا الأسرة الخامسة ، وماتلاها ، حيث أصبح لقب الملك الرسمى ابن الشمس ، وأصبحت عبادة «رع» هى عبادة الدولة الرسمية . وارتفعت المعابد لتقديسها وعبادتها فى طول البلاد وعرضها ابتداء من مدينة «منف» ذاتها مسقط رأس الإله «بتاح» ، أو بالأحرى موطن حلول الإله بتاح فى صورة العجل أبيس .

غير أن تفوق إله فى ذلك الوقت لم يكن يعنى القضاء على الآلهة الأخرى ، ولكنه كان يؤدى إلى محاولة الآلهة الأخرى للاتحاد بالإله المتفوق والامتزاج به ، لتستطيع الحياة ، ولتحتفظ بشىء من سلطانها . فأوزوريس إله العرابة كان يمثل سلطان رع على الأرض قبل أن يأوى إلى العالم الغربى للفصل بين الموتى ، والقضاء عليهم بالنعيم أو الجحيم الأبديين ، وقد أصبح يرمز به إلى الشمس الغاربة . أما ابنه حوريس الذى ورث سلطانه بعد أن انتصر على «ست» إله الشر فقد أصبح يعد صورة أخرى من رع فأطلق عليه رع حوريس . أما الإله سبك «التمساح» الذى كان يعبد فى كثير من أقاليم الوجه البحرى والقبلى بوصفه إله الحياة والنمو «إذ كان يُرى جاثماً بين الحشائش والنباتات» فقد امتزج بدوره بالشمس وأصبح يطلق عليه سبك رع[1] .

أمـــــون :

على أن أعظم الآلهة الإقليمية التى اتحدت بالشمس لتحتفظ بمكانتها ، وأصبح لها فيما بعد شأن عظيم هو الإله أمون الإله الإقليمى لمدينة طيبة ، والذى يظن أنه ذات الإله «من» إله مدينة قفط المحلى ، والذى كان يعد إله الخصوبة والنسل . فقد اضطر هذا الإله بدوره أن ينتسب إلى الشمس عندما قويت عبادة رع فأصبح يطلق عليه لقب أمون رع بوصفه صورة أخرى من صور المعبود رع . حتى إذا كانت الأسرة الثامنة عشرة ونجح أمراؤها فى بادئ الأمر فى طرد الهكسوس ، وإجلائهم عن مصر ، وبذلك تم تحرير البلاد من الغاصب الأجنبى ، الذى دنسها وأغضب الآلهة وانتهك حرمتها . واستطاعت

(١) لا يزال اسم هذا الإله القديم علماً على كثير من بلدان القطر المصرى وقراه فى الوقت الحاضر كسبك الضحاك . وسبك التلات . وسبك الأحد .

جيوش طيبة الظافرة تحت قيادة أحمس أن تطارد العدو المقهور خارج الحدود المصرية وأن تدخل غازية إلى صميم بلاد الشام ، فكان طبيعيا أن يرتفع ذلك بأمون إله طيبة قصبة الملك الجديد ، إلى أرفع المراتب بين الآلهة طرا ، ليس فقط فى داخل الحدود المصرية ، بل وخارج الحدود أيضاً ، بين جنبات هذا العالم الفسيح المترامى الأطراف ، كيف لا وتحت بنوده وأعلامه . وبفضل حمايته ورعايته ، أحرزت جيوش طيبة ذلك النصر المظفر الرائع الذى أذهل الدنيا فى ذلك الزمان .

ومن ثم فقد أصبح أمون هو معبود مصر الرسمى ، الذى يهيمن نفوذه على الإمبراطورية المصرية كلها ابتداء من أقصى الفرات شمالاً ، حتى أحشاء السودان جنوباً ، وهو مالم يتمتع به إله مصرى من قبل . فأقيمت له المعابد فى سائر أنحاء الإمبراطورية وشيدت باسمه فى طيبة أعظم معابد الدنيا فى عصورها القديمة أو الحديثة ونعنى به معبد الكرنك .

وكان طبيعيا أن يرتقى الذهن كدأبة دائماً فى هذه المرحلة من مراحل التفكير البشرى بحقيقة أمون . فلم يعد كهنته ينشئون له تماثيل فى المعبد ليحل فيها ، أو نواويس ليقيم فيها ، ذلك أن أمون لا يقيم على الأرض بل يسكن السماء ، ولم يكن ينقص بعد وصول العقل إلى هذه المرتبة إلا أن يعلن كهنة أمون إلغاء بقية الآلهة الأخرى ، والقضاء على عبادتها لكى يتم التوحيد المطلق المجرد ، ولكن هذه الخطوة كان مقدراً لها أن تتم على يد أخناتون الذى يمكن اعتباره أقدم نبى عرفه البشر وخلد التاريخ أثره .

أمحـوتب الرابـع :

أثار النفوذ الذى أحرزه كهنة أمون والأموال الوفيرة ، والكنوز الثمينة التى راحت تتدفق إلى خزائن معابده ، وجيوب كهانه ، أثار ذلك حفيظة الفراعنة فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة ، فبدأوا ينظرون شذراً إلى هذا النفوذ العظيم ، وهذا الغنى الطائل ويسعون بشتى الطرق إلى تقويضه ، وإلا أصبح خطراً عليهم ، وكان من مظاهر نفوذ الكهنة أن يعين رئيسهم مستشاراً للملك ، فلم يكد أمحتب الثالث يتولى أريكة الملك حتى أبطل هذا التقليد فعين كبير وزرائه من غير طائفة الكهنة .

وقد كان ذلك إيذاناً ببدء المعركة بين العرش والكهنة .

وقد وجد كهنة عين شمس الذين كانوا قد أصبحوا يأتون فى المرتبة الثانية بعد كهنة

أمون فرصتهم الذهبية فى هذا النزاع لتقويم مجدهم المنهار ، ولإعادة عبادة رع إلى سابق سلطانها وسيادتها على مصر ، فانتهزوا فرصة تقلد أمحتب الرابع العرش بعد أبيه وهو لا يزال بعد فى ريعان الشباب لكى يشدوا أزره فى مقاومة سلطان كهنة أمون ويحسنوا له العودة إلى عبادة رع سيد الآلهة . وقد أنس كهنة عين شمس من الملك الشاب ميلاً إلى الاستماع إليهم ، والتأمل فيما يقولونه عن عظمة رع ، وأحقيته بالتقدم على سائر الآلهة ، فظنوا أنه قد انحاز نهائيا إلى جانبهم وأخذوا يمنون أنفسهم بقرب عودة السلطان إليهم ، وراحوا يستحثون الملك الشاب على إنفاذ عزمه بالمناداة بـ « رع » ربا فوق الأرباب . ولكن أمحتب الرابع ، وهو يستمع إلى كهنة عين شمس كان قد سبح بفكره إلى ما فوق عقولهم وأشرقت نفسه بنور الحقيقة التى كانت ما تزال خافية على عقول الكهان حتى ذلك العصر ، والذين لم يكن يعنيهم إلا استدامة النفوذ والسلطان .

حلق أمحوتب بفكره وروحه فوق المسميات المتعددة للآلهة ، فاستقر فى روعه أن لا بد أن يكون فى هذا الكون إله واحد لا شريك له منزه عن الجسمانية ، يمكن أن تكون الشمس رمزاً له ، ودليلاً عليه وارتأى بطلان كل عبادة أجرى إلى جوار عبادته ، وشعر بأن واجبه أن يذيع هذه الحقيقة على الدنيا وأن يبشر بها ولكنه فى الوقت نفسه آثر أن يسلك بالناس سبيل التدرج حتى لا يفاجئهم بتعاليمه الجديدة دفعة واحدة . فبدأ بإقامة معبد جديد فى مدينة طيبة خصصه لعبادة «آتون» وهو أحد صور المعبود رع ، أو هو يعنى الشمس بالأفق الغربى .

أخناتون أو روح آتون :

ثم بادر لإظهار تعلقه بالإله الجديد بتغيير اسمه من امحتب إلى أخناتون ، أى روح آتون ، وقد كان ذلك كافيا لزمجرة كهنة أمون الذين أقلقتهم هذه التصرفات ، ورأوا فيها استمراراً لسياسة التحيف من سلطان أمون وبالتالى سلطانهم . فشعر أخناتون بضرورة الهجرة من مدينة طيبة ليستطيع التحرر نهائيا من سلطان كهنتها ، ولينأى بنفسه عن هذه البيئة الوثنية ، التى يشير كل حجر فيها إلى عظمة أمون وتأثيره العميق فى الناس . فانحدر أخناتون مع النيل تاركاً طيبة ميمماً صوب الشمال ، ليختار موضعاً جديداً يصلح لإنشاء مدينته الجديدة ، التى اعتزم أن يتخذها عاصمة ملكه ، وأن يكرسها لعبادة الإلة الحق الذى استضاءت به نفسه . فوقع إختياره على موقع بالقرب من مدينة البلينا ، وفى هذا المكان وضع الحجر الاساسى لمدينته الزهراء الجميلة ، التى وصفها أمراء ذلك العصر بأنها أجمل

المدن على الإطلاق . وانطلقت أعمال البناء على قدم وساق بحيث لم يمض إلا القليل من الزمن حتى كانت جدران المدينة قد ارتفعت شامخة فى الفضاء وشيدت القصور الملكية وقصور الحاشية على أبدع تخطيط ، وأجمل رسم .

معبـــد آتـــون :

على أن حجر الزاوية فى هذه المدينة الجديدة كان هو المعبد بطبيعة الحال ، وقد كان تصميمه ينبئ بذاته عن ضخامة الانقلاب ، الذى جاء به أخناتون ، فى عالم العقيدة ، وعن مقدار سموه الروحى العظيم .

فحتى ذلك الوقت كانت الفكرة عن الآلهة تصورهم فى صورة مخيفة مرعبة ، وكانت المعابد بالتالى تبنى على أساس هذه الفكرة ، فكان يراعى فيها أن تملأ النفوس خشية وروعة ، وهولاً وفزعاً ، فكان الضوء لا ينفذ إليها إلا من كوى ضيقة ، وكثير من أرجائها كان يغشاه الظلام المطبق ، وذلك كله لإحداث التأثير المنشود فى النفس ، فجاء معبد أخناتون الجديد على نقيض ذلك كله ، إذ لم يتألف إلا من ساحة كبيرة مكشوفة يغمرها نور الشمس نهاراً ، وتظللها كواكب السماء بالليل ، وفى بعض أجزائها سقائف وحجرات لسكنى الخدم ، وموظفى المعبد ، وفيما خلا مائدة القربان التى وضعت فى وسط الساحة ، لم يرتفع فى هذا المعبد تمثال أو نصب أو تابوت للرب ، وأحيط المعبد بعد ذلك بالحدائق الغناء التى استنبت فيها أجمل الزهور والرياحين ، وأجريت فيها جداول الماء ، وأنشئت فيها أحواضه لتسبح فيها الطيور ذات الريش الجميل والدواجن من بط وأوز ، ذلك أن الأزاهير والطيور والمياه والحيوانات والأشجار كلها كائنات تسبح بحمد الرب الخالق ، وتشهد ببديع صنعه وعظيم نعمائه .

آتـون الإلـه الحـق :

ثم شرع الملك بعد أن استقر فى مدينته فى إعلان حقيقة دعوته الجديدة التى يبشر بها ، فأتون المعبود بحق ليس هو كما ظن كهنة رع عودة إلى عبادة رع فى إحدى صوره ، لأن رع لا يعنى سوى قرص الشمس بذاته ، أما أتون الحق فجل عن أن يكون صورة مادية محسوسة وإنما هو القدرة التى تحرك الشمس . هو هذه القوة الكامنة خلف حرارة الشمس ، المنبعث منها نور الشمس ، فإن أتون فى الحقيقة «سيد الشمس» أى أن كلمة أتون تحولت بذلك عن معناها المادى إلى مرادفة لكلمة «نثر» أى الإله المعبود أو ما يطلق عليه فى لغتنا العربية كلمة «الله» .

وهكذا وصل أخناتون بمعبوده إلى ذروة التوحيد الكامل ، المطلق ، محدثاً بذلك أقدم وأعظم انقلاب فى حياة العقائد البشرية القديمة . حقا لقد ظل أخناتون يصور أتون على شكل قرص الشمس ، وقد امتدت منها الاشعة على صورة أيد بشرية بمثابة العناية الإلهية ، ولكن ذلك لم يكن إلا مجرد رمز محض للتعبير عن هذا الرب العظيم ، غير المنظور المنفرد فى ربانيته الوحيد فى قدرته ، وقد ظل أخناتون طول حياته «القصيرة» يؤكد فى نفوس أتباعه وتلامذته ، تنزيه الرب عن كل جسمانية أو صورة مادية قائلاً لهم إن أتون «ليس كمثله شئ» .

الرحمن الرحـيم :

وقد استتبع إشراق الحقيقة فى نفس أخناتون ، تطور فى النظرة إلى الله وكيفية التقرب إليه وإرضائه ، فقد سفه جميع الأفكار التى تصف الله بالقسوة ، والتى تملأ النفوس فزعاً منه . ووصف الله بالرحمن الرحيم وأنه رءوف بعباده ، لطيف بهم . هو منهم بمثابة الأب من أبنائه عندما يعطف عليهم ويحوطهم ببره وحنانه فكان يناجيه بقوله «أيها الأب الكائن فى السماء» ويصفه بأنه «سيد الحب» الذى يرعى الجنين فى بطن أمه ويلاطفه لكى لا يبكى ، ومن أجل ذلك فعلى المرء أن يتقرب لله لا من خلال المعارك والحروب الدامية بل من خلال السلام والأمن أو المحبة . وإذا أراد أن يقرب لله قرباناً ، فعليه ألا يفكر فى إراقة الدماء وذبح الذبائح ، بل ليحرق له البخور والعطور وليضع على مائدة القرابين الزهور والأغصان . ومن شاء أن يعبد الله فليتجه بروحه وقلبه إلى الله بعيداً عن كل طقوس أو تعقيد ، فالله يحب البساطة لا التكلف وهو سميع قريب لكل إنسان . ولذلك كان أخناتون نفسه آية على البساطة والبعد عن كل تكلف ، فكان يمتزج بشعبه على خلاف تقاليد الفراعنة السابقين ، وكان يقرب إليه أفراداً من الشعب لم يكونوا يحلمون فى القديم بمجرد تقبيل موطئ نعليه . وكان يرى فى أكثر الأحيان راكباً عربته مصحوباً بزوجته وأولاده من غير حراس أو حشم ، فكان نموذجاً للزوج البار والأب البار ورب الأسرة الكريم . وكان يهيم بالحق ويقدسه ويعده أسمى ما فى هذا الوجود حتى أطلق على نفسه لقب العائش فى الحق ودعا الناس جميعاً إلى أن يعيشوا فى الحق وبالحق (١) .

---

(١) أحدثت تعاليم أخناتون أثرها فى فنانى عصره من المصورين والمثالين فلأول مرة فى تاريخ الفن المصرى=

نشـــيد أخنـــاتـون :

ولعله لا يوجد ما يطالعنا على عقيدة أخناتون وحقيقة إيمانه وروحه السامية أكثر من أن نطالع بعض أناشيده وترانيمه التى وضعها خصيصاً لتمجيد أتون والتى تهز نفوسنا بما احتوته - من إيمان عميق وجمال فنى على الرغم من انقضاء ثلاثة آلاف سنة على إنشائها لأول مرة وليلاحظ القارئ كيف يبدأ أخناتون موجها حديثاً إلى ما يشعر أنه يخاطب الشمس ثم لا يلبث أن يرتقى فى خطابه مخاطباً سيد الشمس ومحركها وخالقها بين ما خلق .

جـــلال آتـــون :

بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون يا حى يا مبدئ الحياة .
إذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأرض جمالك .

ما ذلك إلا لأنك جميل عظيم تضىء فى السموات العلا. تسطع على الأرض وعلى جميع المخلوقات بأشعتك .

أنت بعيد عن الأرض ولكنك على اتصال معها بأشعتك .
أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار .

النهار والحيوان والنبات :

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها والأشجار والنباتات جميعها يانعة والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالاً إليك ، والأغنام ترقص على أرجلها ، والطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها .

النهـــار والحيـــاة :

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه ، وكل طريق عام يصبح مسلوكاً لأنك ظهرت فى الأفق ، أما السمك فيقفز أمامك فى النهر ، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

القديم بدأ الفنان يحاول أن يكون أميناً فى تصوير الطبيعة فرأينا صوراً لأخناتون قد خرجت عن المألوف إذ صورته على طبيعته حتى استطعنا أن نتبين فيها المرض الذى كان يعانيه ، ولأول مرة رسم الفرعون مستلقياً أو مستريحاً فى جلسته .

خــلق الإنســان :

أنت خالق الجنين فى بطن أمه . أنت خالق نطفة الإنسان . أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملاطفه حتى لا يتكدر فيبكى ، كيف لا وأنت ربى فى الرحم ، أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك . أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

خــلق الحيــوان :

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة ، فإذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه..

الخــلق عمــوماً :

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها . أنت الإله الأوحد ، لا شريك لك فى الملك ، خلقت الأرض بإرادتك . ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير . والمخلوقات التى تدب على الأرض . أو تطير بأجنحتها ، أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه . وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة ، لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك .

الفصــول :

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ، فالشتاء يعطيهم البرودة . والصيف يهب لهم الحرارة ، أنت الذى رفعت السماء عالياً لتنظر ما خلقت فى وحدتك ، شارقاً حيًّا «كآتون» ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً ثانية إلى حيث ابتدأت .

جمــال الضــوء :

أنت مبدع الجمال من نفسك . فالمدن والبلاد والقرى والطرق كلها عيون تبصرك أمامها . كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك :

أنت فى قلبى لا يعرفك سوى ابنك أخناتون . الذى جعلته عاقلاً بإرادتك وقوتك . العالم كله فى قبضتك كما خلقته .

إذا ما أشرقت عليه حيى وإذا أفلت مات . أنت الوجود وسبب الحياة للإنسان[1] .

محاربــة الوثنيــة :

لم يكن باقياً لاكتمال دعوة أخناتون للتوحيد إلا أن يقضى على المعبودات القديمة وعلى رأسها أمون رمز الوثنية القديمة لكى لا يكون على الأرض إلا عبادة واحدة لله الواحد الأحد الذى لا شريك له .

وكان قد تجاوز الواحدة والعشرين من عمره فعمل فى بادئ الأمر على تقويض سلطان الكهنة ونفوذهم بأن صادر جميع أملاكهم ، حظر عليهم إقامة أى لون من ألوان العبادات أو الصلوات لغير آتون . وحوّل جميع المعابد لعبادة آتون وحده والتى لم تصلح لهذا التحول ، أصدر أمره بتخريبها أو هجرها ، كما أصدر أمره بمحو اسم أمون واسماء المعبودات الأخرى من جميع النقوش التى يمكن أن توجد فيها . ولما كان اسم أبيه أمحتب يحتوى على اسم آمون فقد أمر أن يمحى اسم أبيه من جميع الآثار . وهكذا اندفع فى حماسة وقوة لتوطيد دعائم دعوته الجديدة ولم يثنه عن ذلك مكانة أبيه السامية فى نفسه . ولا تزال أثر هذه الثورة على اسم آمون وبقية المعبودات باقياً حتى اليوم فى الآثار المصرية حيث يرى اسم آمون وكل ما له صلة به مطموسا وممسوحا بما فى ذلك اسم أمحتب الرابع .

وهكذا أصبحت عبادة آتون هى العبادة الوحيدة الرسمية المصرح بها فى أنحاء المملكة المصرية بل الإمبراطورية كلها . ولم تعد هناك احتفالات أو صلوات تقام لغير المعبود الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك .

مصــرع أخنــاتون :

وهكذا ومضت شرارة من نور التوحيد قبل ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بما يزيد على عشرين قرناً من الزمان ، ولعل ذلك يدلنا على أن أخناتون كان سابقاً على عصره وأوانه ، فلم يكن العقل البشرى فى ذلك الوقت قد اكتمل إلى هذه الدرجة من النضوج

(١) تاريخ مصر القديمة تأليف بريستيد وترجمة الدكتور حسن كمال .

بحيث يهضم هذه الصورة من التوحيد الكامل المطلق . وينصرف عن كل تجسيد وتشبيه للآلهة ويكف عن إقامة التماثيل والنصب لعبادتها . ونحن نرى أن السواد الأعظم من البشر حتى اليوم . لا يفهمون العبادة إلا من خلال الطقوس والأشباح والقبور والأجداث والأنصبة والتماثيل .

فلا عجب إذا كانت دعوة أخناتون قد ذوت بمجرد اختفاء شخصيته الفذة من الميدان بموته بعد الثورة عليه . واستطاع كهنة آمون أن يستردوا سلطانهم . خاصة وأن مبادئ أخناتون السلمية ، ودعوته إلى السلام العالمى الذى لم يظفر به البشر حتى اليوم ، كان لها أكبر الأثر فى إضعاف قوة مصر الحربية ، وبالتالى تهديد سلامة الإمبراطورية المصرية . فبدأت الثورات والفتن تنتشر فى أنحائها . وهكذا اضطر خلف أخناتون وهو توت عنخ آتون أن يعود ثانية إلى طيبة . وأن يكف عن عبادة آتون ، وأن يغير كلمة آتون من اسمه فأصبح يدعى توت عنخ آمون .

تنزيه آمون وتوحيده :

على أن الفكرة الصالحة لا يمكن أن تموت أبداً ، فقد أخذت تعاليم أخناتون فى التوحيد طريقها إلى الكون ولم يكن من الممكن أن يعفى على آثارها أو أن يعود العقل البشرى الذى تذوقها الى الوراء ، فإن العقل البشرى نزاع إلى التطور ونحو الأمام لا الرجوع إلى الوراء ولذلك فقد تطورت النظرة إلى آمون بحيث صارت أشبه الأشياء بنظرة أخناتون إلى آتون فأصبح هو الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك . والمنزه عن الجسمانية . وعزيت له كل الصفات الرفيعة التى تعزى للإله المعبود بحق . فلم تكن النكسة التى حدثت بعد وفاة أخناتون هى فى استبدال اسم آتون باسم آمون ، ولكن فى عودة العوام إلى إظهار تعلقهم بالمعبودات الكثيرة الأخرى التى حرم عليهم أخناتون عبادتها . ولعل العوام سيظلون فى كل عصر وزمان أكثر الناس بعداً عن فهم التوحيد الصحيح وأشد تعلقاً بالأوهام والأوثان .

المجتمـع الإغـريقى :

هذا التطور الذى حدث فى مصر تمَّ فى بلاد الإغريق على صورة مماثلة ، بل على صورة أكمل عن طريق الفلسفة البحتة . والتفكير العلمى الحر .

منذ أكثر من ألف سنة قبل ميلاد المسيح يتحدث هوميروس الشاعر فى إلياذته ،

وكذلك هوزيود الشاعر عن آلهة يونانية لا حصر لها ولا عدد . آلهة محدودة القوى بحدود العنصر الذى تمثله شبيهة بالإنسان فى كل شىء لا من حيث الصورة فحسب ؛ بل ومن حيث الطباع والأخلاق - بل ومن حيث النقائص والرذائل التى قد تدنس الإنسان . فالآلهة كبنى الإنسان يتباغضون ويتحاسدون - ويدبرون لبعضهم المؤامرات - ويكيدون المكائد - ويحيكون الدسائس ، ويتهاجون ويتحابون - ويتزوجون ويتناسلون ، بل ويزنون أيضاً بزوجات بعضهم وهكذا . وكل الفارق الوحيد الذى يفرق الآلهة عن البشر كما تصورهم الإلياذة هو أن الآلهة خالدون لا يموتون - وأن الذى يجرى فى عروقهم سائل إلهى - وليس دما بشريا - وفيما خلا ذلك فالآلهة كالبشر سواء بسواء .

ولكن العقلية الإغريقية لم تلبث أن ارتفعت بهذه الصورة تدريجيا فبدأت أسماء آلهة معينة ، هى التى تستأثر بعبادة الشعب الإغريقى كله ، وتحظى بحبه وتقديسه ، وتتمتع بالتفوق والاستعلاء على بقية الآلهة . ومن هذه الأسماء التى برزت فوق غيرها «زيوس» أله الأولمب وأبو الآلهة ، و«أبولون» إله دلفى وسيد المقادير ، و«أثينا» إلهة الحكمة ، وحامية مدينة أثينا ، ولما كان زيوس يعد أبا ورئيساً لمجمع الآلهة عند انعقادها ، فقد بدأ سلطانه يقوى على مر الزمن ، وتضافرت الفنون الإغريقية من نحت وتصوير وغناء وشعر على إظهار سلطانه الأعلى حتى طغت قوته على بقية الآلهة . حتى إذا أظل بلاد الاغريق العصر الذهبى للعقل الإغريقى فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد أصبح يشار إلى زيوس من حين لآخر كالإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك ، وإن كانت الآلهة القديمة قد ظلت قائمة إلى جواره فى الوقت نفسه . ولكن فكرة التوحيد والتنزيه المطلقين لم تلبث أن شقت طريقها إلى الوجود على أيدى مختلف الفلاسفة والحكماء ؛ فهذا أكسينوفان رأس المدرسة الإيلية قام يحارب الشرك بأقوى ما حورب به على لسان مصلح أو نبى ، وراح يدعو إلى تنزيه الآلهة ويندد بالمعتقدات الشعبية وتصوراتها التى لا تتفق وجلال الألوهية ووحدانيتها ، ومن ذلك قوله «إن الناس قد أساءوا إلى الله فصوره كل بحسب حاله ، فالزنج يجعلون الآلهة سود الشعر فطس الأنوف بينما التراقيون يجعلون الآلهة زرق العيون ذهبى الشعر ، ولو استطاعت الخيول والبقر أن تصور الله لصورت الله فى صورة الخيل والبقر ، وعلى هذا الأساس فإن الناس قد صورت الآلهة بصورة الإنسان ، ولم تكتف بهذا بل أضافت ايضاً إلى الآلهة الأفعال الإنسانية الدنيئة ، خصوصاً عند هوميروس وهزيود ، والواقع أن كل ذلك يتنافى أشد التنافى مع التنزيه الواجب لله ، لأن الله منزه كل التنزيه عن أن يتصف بصفات البشر ، فلكى نحتفظ للألوهية بقدسيتها ،

لا بد أن ننزهها عن صفات الإنسان . ولما كان الله هو الكمال فإن الله أيضاً واحد لأن الآلهة لا يمكن أن يتفق مع مقامها أن تكون خاضعة لشئ ، كما أن الآلهة من ناحية أخرى ليست فى حاجة إلى أن تتخذ خدماً وأتباعاً ، ولذلك فليس هناك إله أكبرتحته آلهة أو بجواره آلهة بل لا بد من وجود إله واحد » .

وزاد أكسينوفان فوق وصفه لله بالوحدانية وتنزيهه عن الجسمانية نعته بالقدم والأزلية ، وأنه كان حيث لم يكن قبله شئ «لأن كل ما هو حادث فهو فان بينما صفة الفناء لا تناسب الله ، ولذا فالله قديم » والله لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحول ، فهو الثبات المطلق «لأن كل تغيير هو تغير إلى أسوأ وهذا يتنافى وقيام الألوهية » .

وتابعت الفلسفة الإغريقية تطورها الرائع محاولة إدراك السبب الأول الذى نشأ عنه الكون أو بالأحرى خالق هذا الكون ، فانتهت إلى هذه المدركات البديعية على أيدى تلميذى سقراط ، أفلاطون وأرسطو حيث أثبت الأول أن الله خالق هذا الكون ، وهو المثل الأعلى الذى ينطوى على الخير المطلق ، وأثبت الثانى بالبراهين العقلية الدامغة أن الله هو واجب الوجود لذاته ، وأنه واحد قديم ، لا يتغير ولا يتبدل . وقد بلغ الأمر بإعجاب المسلمين الموحدين بأرسطو الذين جاءوا بعده بألف عام أن أطلقوا عليه لقب المعلم الأول ، وأخذوا عنه براهينه وأدلته لإثبات وحدانية الله وسائر صفاته عن طريق المنطق وأقيسته وقواعده .

التوحيد عند الفرس :

أشرنا فيما سبق أن الفرس كانوا يؤمنون فى بادئ الأمر بإلهين أزليين وهما إله الخير «اهورامزدا » وإله الشر «اهريمن » وكان الفرس يجعلون هاتين القوتين على قدم المساواة بحيث توجد إحداهما فى مقابل الأخرى . ولكن هذه العقيدة المزدوجة لم تلبث أن تطورت وتعدلت فى العهد الساسانى ، فأصبح سلطان أهريمن أى إله الشر محدوداً ومؤقتاً «بتسعة آلاف سنة » لا يلبث بعدها أن يموت ويفنى فلا يبقى غير مزدا إله الخير الحى الباقى . وبهذا أصبحت صورة العقيدة تشبه بالإجمال ما يصوره القرآن من موقف إبليس وتمرده على الله عزّ وجلّ . وطلبه منه أن يمد فى أجله ريثما يحاول فتنة عباد الله المؤمنين .

التوحيد عند الهنود :

أما الهنود فتتحدث كتبهم المقدسة المسماة بالفيداس عن ٣٣٠ ألف إله وأحياناً عن

٣٣٣ فقط . وكما كان الشأن فى المجتمعات الأخرى المماثلة بدأ التطور بإظهار تفوق بعض هذه الآلهة فى فترات مختلفة حتى انتهى الأمر بتغليب « براهما » على ما عداه من الآلهة ، ومن ثم فقد أصبح الإله الواحد الذى لا شريك له فى الملك ، والذى لا يشبه شيئاً من كائناته ومخلوقاته . أوكما يقول عنه كتابهم المقدس الفيداس « إنه لا يشبه هذا أو ذاك ، هو المطلق . هو فكرة العالم الكائن فى نفسه . هو اللانهائى الذى لا يتحرك ولا يمكن تعريفه . لأنه أعلى من كل تصور وفوق كل إدراك ، إنه لا يتكلم بواسطة الكلمات ولا يفكر بالتخيلات والتأملات . وهو لا يرى بعينين . ولا يسمع بأذنين . ولا يتنفس بشهيق ، هو الكائن.الذى أبعد عن نفسه كل عناصر الشر ، هو الذى لا يهرم ، وهو الحى الذى لا يموت . هو الذى لا يحس جوعاً أو ظمأ . ولا يشعر بحزن . هو الذى يضطر الإنسان إلى معرفته .... هو براهما » .

وما أشبه هذه الفقرة الأخيرة بآية الكرسى العظيمة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » .

الفصل الخامس

الأنبياء والرسل

الأنبياء ـ امتحان الأنبياء ـ شرعية مقاومة العقائد الجديدة ـ الوحى المحمدى ـ انقلاب ـ انتشار الدعوة ـ حياة العظماء وارتباطها بالبيئة المحيطة بهم ـ نابليون ـ أرسطو ـ الاسكندر المقدونى ـ استعصاء الانقلاب المحمدى على التفسير العلمى ـ ثم كان الانقلاب المحمدى ـ الوحى يقود محمداً ـ تأويلات قريش لظاهرة الوحى ـ انكار الوحى يؤدى إلى تأليه محمد .

واضح من ذلك الاستعراض الذى قدمناه أن العقل والوجدان البشرى بدآ ينحوان ناحية التوحيد والتعلق به فى مختلف البيئات . ومع ذلك فقد كانت هناك خطوة لا تزال باقية لم تقطع لكى تؤمن شعوب الأرض على اختلافها بإله واحد خالق أزلى مهيمن فوق الجميع على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وتباعد بيئاتهم ، فحتى هذه المرحلة كان التوحيد ما يزال محصورا فى دائرته المحلية حيث كان إله كل شعب من الشعوب مصطبغا بصبغة وطنية ، فالمصريون وإن أجمعوا على أن آمون هو رب الأرباب وخالق الكون وسيده ، إلا أنهم ينكرون أن يكون مردوك إله الأشوريين والبابليين الأعظم هو بدوره سيد الكون وخالقه أو بالحرى أنه عين آمون معبود مصر . والإغريق من ناحيتهم لا يعرفون سوى زيوس ساكن الأولمب ربًّا لهم . وكانت كل أمة تكاثر بمعبودها . وتفاخر بوصفه أكبر أعلامها ورموزها القومية . فكان لا بد من حركة أو صيحة أو دعوة تظهر للعالمين أن الحق واحد لا يتجزأ ، وأن خالق الكون وسيده هو كما بات يؤمن الجميع واحد أحد لا شريك له فى الملك ، وأن الكون لا يتألف من مصر وإمبراطوريتها فحسب . ولا من أشور وبابل ومملكتها . ولا من الهند والصين أو الأغريق ؛ ولكن الكون يتألف من هؤلاء مجتمعين ، بل ومن الدنيا كلها ، والسموات العلى والأرضين فلا مناص إذن من محو هذه الأسماء التى يطلقها كل شعب على خالق السموات والأرض حسب ما تصوره له أحلامه

وتأملاته ، لا مناص من الكف عن تصويره فى مختلف الصور والأشكال ، وتنزيهه عن كل ما يوحى بالجسمانية ، وكل ما يتعلق بالزمان أو المكان ، لا مناص من أن يؤمن الناس برب واحد يذعن له الجميع ، ويتقربون إليه بالمعروف والإحسان .

الأنبيـــاء :

وعند هذه المرحلة من مراحل التطور البشرى بدأنا نرى نجوماً من البشر الأعلام يبزغون فى سماء الإنسانية ، يقودنها ، ويتولون هدايتها نحو الحقيقة الكاملة . ولم يكن هذا النفر من البشر من فصيلة الملوك والسلاطين ، أو الغزاة الفاتحين ، ولم يكونوا من فصيلة الكهنة وعلماء اللاهوت ، وسدنة الهياكل وحفظتها ، بل ولم يكونوا من طائفة العلماء الأعلام ، والفلاسفة الأفذاذ ، أو عباقرة الحكماء ، وإنما كانوا أفراداً من صميم الشعب ، مجردين من سلاح العلم والغنى والسلطان ، ومع ذلك فقد خرقوا سنن الارتقاء وأسباب الحصول على النفوذ والسلطان ، واستطاع هؤلاء الفقراء الضعفاء الأميون « فى بعض الأحيان » أن يقفزوا إلى مرتبة النفوذ والسلطان الذى يتضاءل إلى جواره نفوذ الملوك والكهان والعلماء ، وأن يتسلطوا على عقول الناس وأفئدتهم ، ليس فقط فى العصر الذى أظلهم ، ولكن على مر العصور والأجيال ، ووجد الناس أنفسهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم مسوقين بتعاليم هذا النفر من البشر ، مقهورين على الإيمان بما طلبوا منهم أن يؤمنوا به ، قائمين على تنفيذ ما فرضوا عليهم تنفيذه من واجبات وتكاليف فى غير مناقشة أو تململ بل فى رضاء واستسلام . هذا النفر من البشر الأعلام ، هؤلاء الأئمة الهداة هم الذين أطلق عليهم البشر بعد أن أطلقوا على أنفسهم لقب الأنبياء والمرسلين(١) .

امتحـــان الأنبيـــاء :

لم يلق هؤلاء الأنبياء والرسل الطريق معبداً أمامهم لإذاعة تعاليمهم ، وغرسها فى نفوس الناس ، بل على الضد من ذلك قوبلوا حيثما وأنى وجدوا بعاصفة من الاستنكار لما دعوا إليه من مبادئ إصلاحية فى عالم العقيدة ، ولاقوا الأمرين من أقوامهم على اختلاف نزعاتهم وطبقاتهم . فكان رجال الدين أول من تصدى لحربهم لأنه عز عليهم أن يدعى مدع من غير صفوفهم أن الله قد اختاره لإبلاغ رسالته وهداية العالمين ، وهم

(١) الرسول نبى ترك من بعده كتاباً يتعبد به البشر كالإنجيل والقرآن .

الذين يستمدون سلطانهم على العامة والملوك على السواء من ادعائهم الانفراد بالتقرب من الله والاختصاص بأن يكونوا موطن سره ومقر حكمته . وحارب الملوك وأصحاب النفوذ والسلطان الرسل لأنهم رأوا خلف دعوتهم الخطر المحقق الذى يهددهم ، ويهدد سلطانهم ونفوذهم لأن أى دعوة إلى إفراد الله بالعبادة ، وإلى مساواة الناس إزاء الخالق هى أعظم سبيل لنشأة الديمقراطية ، ومن ثم تقويض سلطان الملوك والارستقراطية . وحارب الرسل والأنبياء من كان على حظ من العلم أو الفكر ، أو اشتغال بالفلسفة ، كل على حسب منحاه فى الفكر وحظه فى الفلسفة . فثمة فريق وهم الملاحدة الذين ينكرون وجود الله أصلاً ، كان طبيعيا أن يكونوا فى مقدمة المنكرين لرسله ، الساعين إلى وصمهم بالتدجيل ، والتغرير ، والتلبيس على الناس ، وأما الذين يؤمنون بقيام الرب ، فقد أنكروا أن يكون رسول الرب للناس فقيراً وضعيفاً يضطهد فلا يجد له نصيراً ولا حامياً تصوراً منهم أن رسول الله يجب أن يكون مزوداً بالقوة والسلطان الذى يحمل الكل على التسليم له والإدغان إليه فى غير تردد أو مناقشة . وأخيراً حارب جمهور العوام الرسل والأنبياء ، ذلك لأن محور دعاية أى نبى من الأنبياء هو تسفيه أحلام العوام وأوهامهم ، وكشف النقاب عما هم فيه من عماية وضلال وما يستتبع ذلك من التهجم على معتقداتهم والمساس بمعبوداتهم المقدسة . وإذا كانت النفس البشرية لا تثور لشئ ثورتها على من ينال من عقيدتها ، فقد أصبح العوام أعدى أعداء الرسل والأنبياء ، فكانوا خير معوان لرجال الكهنوت ولأصحاب السلطان والنفوذ فى محاولة القضاء على دعاية الأنبياء والرسل ، بل وخمد أنفاسهم وأنفاس كل من يلوذ بهم كلما وجدوا لذلك سبيلاً .

وهذا هو ما أسميه امتحان الرسل ، وهذا هو الشرط الأساسى لإثبات صحة أى نبوة أو رسالة ، وهو أول برهان يقدمه النبى والرسول على صدقه وصدق دعوته ، ذلك أنه لا يثبت على المحنة ، ولا يقوى على مغالبة الاضطهاد إلا من كان صادقاً أميناً .

شرعية مقاومة العقائد الجديدة :

ومن هنا لا يجب بحال من الأحوال أن ندهش أو نلوم هؤلاء الأقوام الذين تصدوا فى بادئ الأمر لحرب كل من ادعى النبوة ، والاتصال بالله وتلقى الوحى منه على أية صورة من الصور . بل إن مقياس درجة نضوج أى جماعة أو أمة لا يقاس إلا بمقدار يقظتها وحرصها على الدفاع عن معتقداتها وتقاليدها ، حتى يتبين لها وجه الحق فى المبادئ الجديدة . ولا سبيل لظهور هذا الحق إلا بتغلبه على القديم الباطل وانتصاره عليه .

وإلا فماذا يكون الحال يا ترى لو كان على الناس أن يصدقوا كل ناعق وكل مدع وكل أفاك أثيم لا يثبت على النقد أو التجربة ؟ .. ماذا يكون الحال لو صدق الناس كل شخص يدعى أنه تلقى الوحى من رب العالمين ، وأنه قد جاء للناس بما يقلب عقائدهم ونظمهم رأساً على عقب ؟ ألا ينقلب المجتمع إلى فوضى فى مثل هذه الحال بانعدام الثبات والاستقرار من العقيدة والشرائع ، وهو مالا سبيل إلى قيام المجتمع فضلاً عن تطوره إلا بهذا الثبات والاستقرار النسبى ؟ ترى ماذا يكون عليه حال جزيرة العرب بل حال الدنيا بأكملها لو أن العرب بعد وفاة النبى « ﷺ » هرعوا إلى تصديق أدعياء النبوة الذين قاموا فى كل ركن من أركان الجزيرة يعلنون هبوط الوحى عليهم ، ولم يقف أمر هؤلاء الأدعياء عند حد الرجال بل تعداهم إلى النساء فكانت سجاح المتنبئة كما كان مسيلمة . وكما كان طليحة .

ألم يكن تنبؤ هذا النفر والسكوت عليهم لا يعنى إرجاع جزيرة العرب إلى الفوضى والجاهلية ، وفصم عرى وحدتها الروحية والسياسية . التى نشأت فى ظل الإسلام فحسب ، بل معناه القضاء على الدعوة المحمدية الجليلة وإطفاء نورها وحرمان الدنيا من نعيمها . فكان طبيعيا جدا أن ينهض أبو بكر خليفة رسول الله وصديقه للبطش . بل والتنكيل بهذه الدعوات وأصحابها ، ولو لم يفعل لكان مفرطاً خائناً للأمانة ، أمانة المحافظة على هذا التراث المجيد الذى خلفه المسلمون . فمحاربة كل مدع للنبوة بل كل من يزعم لنفسه سلطاناً خاصا أو ولاية ليس حقا من حقوق الناس بل هو واجب محتم عليهم ، إذا شاءوا الاحتفاظ بكيانهم والتحرر من المتنبئين الكذابين والدجالين والنصابين والمزورين . ولا خوف على النبى الحقيقى أو الرسول من وجود هذه المحافظة فى المجتمع لأن آية صدقه كما قدمنا هو أن يتغلب على هذه الرجعية التى تملأ طريقه بالمصاعب والاضطهادات بقوة إيمانه وروحه وصلاحية مبادئه وتعاليمه . فإذا استطاع أن يوطد سلطان عقيدته وتعاليمه الجديدة سواء فى حياته أو بعد مماته فهذه هى حجته الكبرى ومعجزته التى لا تفوقها معجزة للدلالة على أنه لم يكن بشراً عاديا وإلا لما استطاع الفوز بما فاز به . ولا بد أنه كان صادقاً فيما قال وما ادعى . وعندى أن هذا هو البرهان الذى نستطيع به نحن المتأخرين ، أن نستدل به على مدى صدق دعوة من الدعوات القديمة التى حملها الرسل وجاءوا بها إلى العالمين ، فما أكثر ما يغص المجتمع فى كل زمان ومكان بأشخاص تساورهم أنفسهم أنهم على اتصال برب العالمين ، وما أكثر من يزعمون

لأنفسهم الولاية والقداسة والقدرة على الإتيان بالأعاجيب وما أوفر عدد المحتالين البارعين فى كل زمان ومكان الذين يستطيعون أن يحملوا الناس بشتى الأساليب على الإذعان لهم واتباع تعاليمهم . وما أكثر ما وجد فى المجتمعات القديمة من قبضوا بيد من حديد على أزمة السلطان وأخضعوا لهم رقاب العباد . بحيث صاروا لهم عبيداً يعبدونهم من دون الله الواحد القهار . بل ينظرون إليهم نظرتهم إلى الصورة الحيّة لله سبحانه وتعالى كما كان حال فرعون مصر ، وقياصرة الرومان ، وكما هو الحال اليوم فى اليابان . ومع ذلك فمن بين هؤلاء الأشخاص الذين استمتعوا بمختلف أنواع النفوذ والذين لا يمكن أن يحصيهم العد ، ولم يكن سوى بوذا واحد وموسى واحد وعيسى واحد ومحمد واحد من استأثر بسيادة العالم الروحية ، وخضع البشر لتعاليمهم دون غيرهم من سائر العالمين على مر العصور والأجيال .

محمد بن عبد الله :

ولما كان تاريخ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو التاريخ الوحيد المحقق لنبى من الأنبياء ؛ والذى يمكن إخضاعه للتمحيص العلمى . فإن استعراض سيرته هو خير نموذج يساق لإظهار حقيقة الرسل والأنبياء جميعا .

وإثبات نبوة سيدنا محمد ورسالته ، هو إثبات لكل من سبقه من أنبياء ورسل ، وإنكار نبوته هو هدم للعقيدة الدينية كلها أيا كانت من أساسها . كما سنرى .

الـوحى المحمـدى :

فى عام ٥٧٠ ميلادية ولد فى قرية تدعى مكة من أحشاء الصحراء تحيط بها الجبال إحاطة السوار بالمعصم . محمد بن عبد الله[١] الذى مات أبوه وهو ما يزال بعد فى بطن

---

(١) ينفرد محمد بن عبد الله صلوات الله عليه من بين جميع الشخصيات التاريخية بأن وجوده التاريخى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك . كما أن جميع الحوادث البارزة فى حياته ابتداء من مولده ومكانه حتى مماته . محل اتفاق وإجماع بين المؤرخين المسلمين وغير المسلمين . والقدماء منهم والمحدثين على السواء وذلك على خلاف جميع الشخصيات التاريخية العظمى التى وجد من النقاد فى العصر الحديث من تشكك فى مجرد وجوده أصلاً . فالمسيح مثلاً كان محلاً لإنكارهم اعتماداً على أن التاريخ العالمى . لا يحوى شيئاً يمت إليه بأى صلة . كما أن التاريخ اليهودى بصفة خاصة لا يشير إلى حادثه مع ضخامة هذا الحادث . وليس سوى الأناجيل التى انفردت بالحديث عنه مع ما فيها من تناقض فى كثير من الحوادث والتفصيلات . فضلاً عن أنها لا تجلوا شخصية المسيح جلاء بينا . بل تصوره فى صورة غامضة تبعث الإنسان على الاعتقاد أن المسيح لم يكن إلا أسطورة قديمة انبعثت فى ـ

أمه فخرج إلى الحياة يتيماً بكل ما يحمله اليتم من معنى الفقر وانعدام النصير ، ثم لم تلبث أمه إلا أيسر الوقت بعد ولاته حتى ماتت بدورها ، وهكذا حرم الطفل منذ أيامه المبكرة من حنان الأم والأب معاً . على أن الله قد عوضه عن ذلك ببر جده عبد المطلب وحنان مرضعته البدوية حليمة السعدية . حتى إذا مات جده كفله عمه أبو طالب فكان له خير الأب ونعم النصير . وقد نشأ الطفل كما ينشأ عامة الأطفال فى هذه الصحراء النائية عن العمران يشتغل بالرعى وتربية الأغنام وخدمة القوافل ، بعيداً عن تذوق مظاهر المدنية والحضارة الحقة ، ونعنى بها العلم والعرفان . ولا خلاف فى أن حياة هذا الناشئ قد سارت سيرة عادية ، فمرت عليه السنون وتوالت الأعوام بدون حادث يلفت النظر ، إلا أن يكون حادث زواجه بامرأة فاضلة من نساء قريش تكبره فى العمر ، وتتمتع بحظ من الثروة كبير . وفيما خلا هذا الحادث الذى هو فى نهاية الأمر من الأمور العادية ، فقد مضت حياة محمد بن عبد الله كما تمضى حياة سائر الناس الذين يعيشون فى خفض من العيش فى كنف زوجة صالحة رزق منها عدداً من البنين والبنات ، مات البعض كما يموت الأبناء ، وعاش البعض كما يعيشون .

وهكذا انقضى شباب محمد وولى وأشرف على نهاية العقد الرابع من عمره ، دون أن يبدو من أمره شئ خارق أو يند عن المألوف بين قومه ، إلا اشتهاره بالصدق والأمانة ،

العهد المسيحى . ويؤيدون دعواهم باستعراض أساطير مشابهة لأسطورة المسيح من العقائد الهندية والعقائد البابلية القديمة ، ولم يقف الإنكار عند حد الشخصيات الدينية ، بل تعداه إلى شخصيات تاريخية أخرى كهوميروس مؤلف الالياذة والاوديسية ، فيقول البعض إنه ليس إلا شخصية خرافية لا وجود لها . ولم تسلم شخصيات حديثة العهد من الانكار مع نصاعة تاريخها كجان دارك مثلاً فقد اعتبر البعض قصتها أسطورة من الأساطير الخيالية . حتى شكسبير نفسه امتد الشك إلى نسبة هذه المؤلفات الخالدة إليه ، فقال البعض ليس شكسبير إلا ستاراً اختفى خلفه أحد كبار الشعراء فى ذلك الوقت لنشر آرائه وأفكاره ورواياته . ولا تكاد توجد شخصية لامعة من شخصيات التاريخ سلمت من إنكار مجرد وجودها . ولكن شخصية محمد بن عبد الله النبى العربى قد صمدت فى وجه أشد الأبحاث تشككاً ونزوعاً إلى الإنكار ، فآثار حياته لا تزال منقوشة على صفحات الوجود بأحرف من نور متجلية فى هذه المئات من الملايين الذين لا يشهدون بوجوده فحسب أو يتبعون تعاليمه ، بل يقلدون حركاته وأقواله ، ويحجون إلى مسقط رأسه ، ويزورون قبره ، ويسيرون حيث سار ، ويقفون حيث وقف ، وينطقون بما نطق ، ويشربون مما شرب ، وكل ذلك فى تسلسل مستمر لم ينقطع يوماً واحداً ، بل لم ينقطع ساعة واحدة منذ بدأ محمد بدعوته حتى اليوم . كما أن فتوحات المسلمين العسكرية بعد سنوات قليلة من هجرة الرسول ، وهذه المعاهدات الدولية التى أبرمها خلفاؤه المباشرون مع المسيحيين والروم والفرس ، كل ذلك جعل محمد بن عبد الله حقيقة لم يوجد إنسان واحد يتصدى لإنكارها . وفى ذلك يقول أميل درمنغام مؤلف كتاب حياة محمد : « لا يوجد أحد يشك فى وجود محمد ولا يجرؤ أشد النقاد حذلقة أن يحكم بإنكار وجوده » .

وهى صفة وإن جل شأنها وعظم خطرها ، فهى ليست بالأمر النادر أو العديم المثال فى هذه البيئة الفطرية التى ما يزال الصدق بصفة عامة إحدى فضائلها . فنحن إزاء رجل عاش ثلثى عمره لا يعرف التاريخ من أمره شيئاً ، بعيداً عن نوازع الطموح للمجد التى تجتاح نفس كل شاب وفتى ، بعيداً عن كل اشتغال بالعلم أو اهتمام بتحصيله . ولم يشذ محمد فى ذلك عن بقية مواطنيه الذين لم يكن يعرف الكتابة والقراءة منهم إلا عدد ضئيل محدود . ولا يروى التاريخ عنه أنه كان متطلعاً للزياسة فى قومه ، وأنه كغيره كان كثير المنازعات عليها . كما أنه لم يشتهر بقول الشعر فى بيئة كل من فيها شاعر بسليقته ، ولم يشتهر بالفروسية وسط بيئة كل من فيها فارس بطبعه . فالتاريخ يصوره لنا رجلاً عاديا من أوسط الناس يعيش فى بيئة مغمورة ، لا تكاد الدنيا تحفل بأمرها لفقرها وجهلها وانعدام خطرها على أى صورة ، بحيث لم يدر فى خلد أى فاتح ممن دوخوا العالم القديم أن يقتحم هذه الصحراء بجيوشه وجحافله لقلة الجدوى وانعدام الفائدة فعاشت أواسط هذه الجزيرة الصحراوية خلال تاريخ الإنسانية الطويل على هامش العمران والحضارة .

انقــــلاب :

وفجأة «وفى هذه الفجاءة السر كل السر» إذا هذا الرجل الذى قطع ثلثى عمره هادئاً ساكناً منزوياً عن ضجيج الحياة ، هذا الرجل الذى جاوز الشباب بحماسته واندفاعاته وخيالاته وأحلامه ومغامراته ودخل فى مرحلة الرجولة حيث تهدأ العواطف الثائرة ويسيطر العقل بهدوئه وحكمته فتتبدد الأحلام والأوهام ، ويهبط الشاب من سماء خيالاته ومثله العليا إلى أرض الحقيقة والواقع ، فيرضى بالحياة كما هى ، ولكن محمداً بن عبد الله قد شذ عن المألوف وخالف سنة الحياة فإذا به ينقلب فى رجولته فى عشية وضحاها ، إلى بركان ثائر فوار يغلى بالحياة فى أرفع مظاهرها ، ويرمى بالنار والنور والشرر ، ويقذف بالحمم ضد الباطل والفساد والضلال ، الذى كان مواطنوه غارقين فيه إلى الأذقان ، معلناً حرباً لا هوادة فيها ولا لين على معتقدات القوم وأوهامهم ، وتقاليدهم وعاداتهم ، وأساليب معيشتهم وطرائق تفكيرهم ، وهادياً إياهم فى نفس الوقت إلى الطريق الحق والصواب ، آخذا بيدهم إلى حيث نور الحقيقة والكمال .

انتشــار الدعــوة :

ولم تلبث جزيرة العرب أن ضاقت على سعتها بهذا النبع الفياض وهذا السراج

الوهاج ، فإذا هو يفيض على الدنيا كلها ، ويشرق على أرجائها ، فيتصل بملوك الأرض وأباطرتها يدعوهم إلى الهدى والرشاد - ومنذراً إياهم بعذاب أليم - إن هم أصموا آذانهم عن سماع دعوته - واعدا إياهم بجنة النعيم إن هم آمنوا برسالته . وكان ذلك حدثاً أوشكت أن تنخلع له قلوب العرب ، ولكن محمداً بن عبد الله ، اتبع القول العمل فإذا جيوشه تسير فى أعقاب رسائله متحدية على تخوم الجزيرة ، أقوى جيوش عرفتها الدنيا حتى ذلك الزمن . وإن هو إلا أيسر الوقت بعد وفاته حتى كان تلامذته يتمون ما بدأ وما تهيأ له ، فيكتسحون الدنيا شرقاً وغرباً بقوة الإيمان الذى أودعه فى قلوبهم . وما هو إلا قرن من الزمن حتى كان أكثر من مائة مليون من البشر يدينون بدين هذا العربى الأمى الهاتف فى صحراء العرب .

واليوم وبعد ألف وثلاثمائة عام ونيف على هجرته يزيد أتباعه على ثلاثمائة مليون من البشر يشهدون فى كل يوم برسالته ، ويؤمنون بإيمانه ، وهم فى ازدياد مستمر متواصل من يوم لآخر ، بل ومن ساعة لأخرى[1] - وروح محمد وتعاليم محمد لا تزال كعهدها الأول جياشة بالحياة والقوة ، فياضة بالنور والإيمان

فأى مثيل لهذا الحادث فى التاريخ من قبل ومن بعد ؟ وأى تفسير يمكن أن يقدمه لنا العلم والتحليل التاريخى والنفسى لتعليل هذا الانقلاب الذى تم فى حياة محمد - وسرى منه إلى حياة جزيرة العرب كلها ، ثم لم يلبث أن شمل الدنيا بأسرها ؟

حياة العظماء وارتباطها بالبيئة المحيطة بهم

يقول لنا العلم الحديث ، وهو جد صادق فيما يقول - إن أى عظيم من عظماء التاريخ ليس إلا ثمرة طبيعية للعوامل المختلفة التى أحاطت به منذ نشأته الأولى حتى موته . وإن الوراثة والتربية والبيئة كلها عناصر تفسر لنا حركات أى عظيم من العظماء وتصرفاته ، مع التسليم بما فى طبيعته العبقرية الخاصة من تأثير فى سير الحوادث .

نـابليـون :

فهذا رجل كنابليون مثلاً ، يعد فى العصر الحديث آية من آيات البطولة البشرية التى تصنع المعجزات الباهرة ، ومع ذلك فإن المطالع لتاريخ نابليون منذ مولده وتاريخ فرنسا

---

(١) كانت هذه الأرقام من عشرين سنة ولا يقل عدد المسلمين اليوم عن أربعمائة مليون إن لم تزد .

فى هذه الحقبة من التاريخ . يستطيع أن يرد جميع النتائج التى وصل إليها نابليون فى يوم من الأيام إلى مقدماتها ... فقد ورث نابليون عن أبويه نفساً ثائرة طموحة . ومنذ صبا نابليون المبكر . وهو يطمع فى تحرير وطنه كورسيكا عن فرنسا وتأسيس مملكة مستقلة يكون زعيمها ورئيسها . حتى إذا أتيح له دخول المدرسة الحربية فى فرنسا . تراه يلتهم كل ما يقع فى طريقه من علوم ومعارف . ويكثر من القراءة ويمعن فيها بالليل والنهار . وتراه وهو ذلك الطالب الصغير يديم مطالعة سير عظماء الرجال كالإسكندر . وهانيبال . ويوليوس قيصر . وفردريك الأكبر . ونراه مكبا على الخرائط يفحصها دارسا للمعارك الحربية المختلفة . وهو يرنو ببصره دائماً أبداً إلى المستقبل الجيد . الذى يريد أن يبنيه لنفسه . حتى كان يترفع عن مخالطة زملائه فى المدرسة ناظراً إلى نفسه كشخص من طينة غير طينة البشر .

وفى هذه الآونة كانت فرنسا مسرحاً لأروع حوادث عرفها التاريخ الحديث . كانت تدك عالماً قديماً من أساسه لتنشئ عهداً جديداً . كانت تذبح الملوك والأمراء والأشراف . وتدعو إلى دين جديد وحياة جديدة تتسم بالحرية والأخوة والمساواة . فإذا كان نابليون فيما بعد قد فاجأ الدنيا بخطط جديدة فى معاركه الحربية التى هزمت الجيوش القديمة . فقد كان فى ذلك مستلهما الثورة التى قلبت كل شئ رأساً على عقب . وإذا كان نابليون قد أحرز انتصارات باهرة على جيوش الأمم المتحالفة . فلم يكن ذلك إلا بقوة الروح الفرنسية التى تفجرت حماسة وقوة فى ذلك الوقت . ولولا انتصار الثورة فى معركة «فالمى» ما كان نابليون فيما بعد . وما كانت معاركه وانتصاراته . ولولا جان جاك روسو وفولتير ومونتسكيو وإعلان حقوق الإنسان وقوانين الثورة . ما كانت قوانين نابليون وأنظمته الإدارية وإصلاحاته الاجتماعية . فنابليون إذن ليس إلا ثمرة طبيعية للثورة الفرنسية . وليس أدل على ذلك من أن نابليون عندما عق هذه الثورة وتمرد على أصولها فجعل من نفسه امبراطوراً ومن قواده وصنائعه أشرافاً . لم يلبث أن هوى من حالق مجده . وهوى معه الشعب الفرنسى الذى تزعزع إيمانه وفقد ثقته وحماسته . وانتهى أمر نابليون إلى المنفى وعادت فرنسا من جديد إلى الملكية .

أرسطـــو :

وما أكثر ما يروعنا فيلسوف عملاق كأرسطو مثلاً الذى ظل إماماً للعلم مدى ألفين من السنين ولم تستطع البشرية مجتمعة أن تضيف إلى كتبه فى المنطق كثيراً . ومع ذلك فليس

أرسطو إلا ثمرة العقلية الإغريقية التى وصلت فى هذا القرن من الزمن ، الذى عاش فيه أرسطو ، إلى ذروتها العليا وعصرها الذهبى. وليس أرسطو فى نهاية الأمر إلا تلميذاً لأفلاطون ، الذى لولاه ولولا أستاذه سقراط ، بل لولا هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الفلاسفة المتعاقبين ماكان أرسطو وماكان علمه ، فأرسطو ليس إلا ثمرة ناضجة للفلسفة اليونانية القديمة .

الإسكندر المقدونى :

وليس هناك ما يستعصى على التحليل العلمى فى تحليل شخصية الإسكندر المقدونى نفسها فما هو إلا ذروة هذه الحياة الإغريقية العالية التى كان محتوماً عليها أن تفيض على أرجاء العالمين. فما الإسكندر إلا شبل فيليب ، ذلك الأسد المقدونى الذى غلب دويلات الإغريق على أمرها . وما الإسكندر إلا تلميذ أرسطو أضخم عقلية عرفها البشر ، وما جنود الإسكندر إلا هؤلاء الإغريق الذين كانت الألعاب الرياضية والفروسية والبطولة دينهم.. وإذا كان الإسكندر قد دحر الفرس ؛ فما أكثر ما استطاعت من قبل شراذم من الإسبرطيين أن تدحر جحافل الفرس . وما أكثر ما انتصرت سفن الإغريق الصغيرة على أساطيل الفرس الجبارة .

وإذن فعلى الرغم من أن الإسكندر سيبقى فذا فوق الأفذاذ ، فأصول ما انتهى إليه وأسبابه ومقدماته كلها قائمة موجودة متوفرة وسابقة عليه .

استعصاء الانقلاب المحمدى على التفسير العلمى :

وهكذا يستطيع العلم الحديث بما لديه من قوة التحليل والتجريد ، أن يفسر ويعلل نجاح أى عظيم من العظماء وأسباب تفوقه . بل ويستطيع العلم الحديث أكثر من ذلك أن يفسر الأسباب التى تؤدى إلى قيام أى دولة أو جماعة من الحضيض الأدنى إلى سماء المجد والعظمة . وأن يتتبع الظروف والملابسات التى كانت عاملاً من عوامل نجاحها . ولماذا اشتعلت ثورة من الثورات ، ولماذا فشلت ؟ ولماذا نجحت حرب من الحروب وأخفقت أخرى . وأن ذلك كله خاضع لنظريات وسنن طبيعية واجتماعية لا تكاد تختل قيد شعرة . ومع ذلك فإن التحليل التاريخى والتفسير العلمى يقف عاجزاً مكتوف اليدين ؛ إزاء هذا الانقلاب الذى تم فى نفس محمد بن عبد الله . وما ترتب عليه من انقلابات حادة فى

نفس كل عربي اتصل بمحمد حتى انتهى الأمر بهذا الانقلاب العجيب لشبه جزيرة العرب.

لا يستطيع التاريخ أن يقول إن محمداً قد ولد وهو طامح إلى المجد - متطلع إلى الملك - آخذ بأسباب الحكمة - متوفر على دراسة العلوم - عامل على حذق الفروسية - مشتغل بالدين واللاهوت - محيط بالشرائع والقوانين. لا يستطيع التاريخ أن يقول ذلك لسبب بسيط جدا - هو أن البيئة التي نشأ فيها محمد لم يكن فيها مُلْكٌ يسعى للحصول عليه - وإنما هي قبيلة من القبائل تدين لشيوخها. وما أكثر ما في الصحراء من قبائل. ولم يكن فيها علم يدرس أو شرائع تحفظ ، وإنما هي عادات وتقاليد قبلية بعضها همجي كتلك التي توجد في أي مجتمع بدائي آخر. بل لم يكن فيها دين له قواعد وأصول وكهنة وهياكل ولاهوت ، وإنما هي بضعة أصنام هنا وهناك ، يمجدها العربي حيناً ويهجوها حيناً آخر - إذا جرت الأمور على غير ما يشتهي.

ولا يستطيع التاريخ من ناحية أخرى ، أن يقول إن جزيرة العرب قبل الانقلاب المحمدي ؛ كانت تغص بأسباب الحياة - وأن بذور الطفرة كانت تختمر في أرجائها ؛ وأن أحلام الفتح والغزو كانت قد بدأت تساورهم ؛ وتتسرب إلى قلوبهم وتستهوي نفوسهم. لا يستطيع التاريخ أن يدعي أن عمر بن الخطاب ذلك الجلف الخشن الطبع القاسي القلب الغارق في الخمر ليله ونهاره ، كما وصف نفسه فيما بعد ، كان يتهيأ لكي يكون إمبراطور الدنيا القديمة الذي ترتعد الأكاسرة والقياصرة لذكر اسمه. وأنه سيبلغ من رقة الفؤاد والرحمة والحنان حتى ليبكي شفقة من أجل طفل جائع أو جندي جريح..

لا يستطيع التاريخ أن يدعي أن خالد بن الوليد ، ذلك الشاب العربي الذي كان يقطع وقته في الصحراء كأي شاب عربي آخر ؛ كان يعد نفسه ليكون يوماً ما ذلك القائد الذي فرت أمامه جيوش الروم والفرس خائفة مذعورة.

ولا يستطيع التاريخ أن يدعي أن عمرو بن العاص كان يهيئ نفسه من شبابه لكي يغزو مصر ويصبح ملكاً لها. لا يستطيع التاريخ أن يدعي شيئاً من ذلك كله فقد ظلت قريش إلى ما قبل ثلاثة عشر عاماً من الهجرة المحمدية وهي قبيلة كباقي القبائل العربية لا تحلم بأكثر من أن ترى رزقها موفوراً - وأمنها محفوظاً - لا تكاد الكثرة تعرف من أمر الدنيا - إلا أنها رمال في رمال - يتخللها العشب من حين لآخر - وتتفجر فيها بعض العيون ليعيش الناس ويأكلوا.

ثم كان الانقلاب المحمدى :

وقد حدثنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين . الذى لم يشتهر بغير الصدق بين مواطنيه . وقد أثبتت الأيام والحوادث أنه نعم الصادق الأمين ؛ حدثنا أنه بينما كان يخلو إلى نفسه كعادته منذ أمد غير بعيد فى هذا المكان الذى اختاره لوحدته . إذا هو يفاجأ بسماع صوت يبدد السكون المحيط به . وإذا هو يرى ضوءاً أضاء الظلمات التى تكتنفه . وقد روع محمد بن عبد الله . كما يروع أى إنسان آخر . وقد خاف وفزع لهذه المفاجأة . فعهده بالمكان خالياً من كل ضوء أو صوت . حتى إذا زال عنه أثر الصدمة الأولى . لم يلبث الصوت الذى سمعه فى بادئ الأمر كصلصلة الجرس . أن اتسق فى أذنه ووعيه كلمات واضحة «اقرأ باسم ربك الذى خلق ؛ خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم» ثم كف الصوت عن الكلام . وقد أخذ الجهد من نفس محمد بن عبد الله كل مأخذ . وراح العرق يتفصد من جبينه . وقلبه ينتفض بحياة جديدة . ونور جديد لم يدر محمد نفسه . فى ذلك الوقت السحيق . أن هذا النور إيذان بأنه قد تلقى وحياً من رب العالمين . وأنه يوشك أن يكون سيد الناس أجمعين[1] فهرع إلى زوجته خديجة يقص عليها ما حل به وأصابه . فهدأت روعه وذهبت به إلى مستشار أمين زاد فى طمأنينته ورجائه . ولكن الوحى لم يلبث أن عاود محمداً ، حتى اطمأن قلبه باليقين . من أنه قد تلقى الأمر من السماء بإبلاغ رسالة إلى بنى البشر ، مبتدئاً بعشيرته الأقربين ، وأن ما أصبح يفيض به قلبه وينطق به لسانه ليس إلا

---

(١) عن عائشة (رضى الله عنها) قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث أى يتعبد فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله . ويزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة ليتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ . فقلت : ماأنا بقارئ . قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ . قلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية ثم أرسلنى فقال اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها النبى صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع وأخبرها الخبر . لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة كلا والله . ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف . وتعين على نوائب الدهر . ثم انطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة . وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب وكان شيخاً كبيراً «قد عمى» فقالت له خديجة : ياابن عمى اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : ياابن أخى ماذا ترى فأخبره رسول الله بخبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزّل الله على موسى . الحديث بتمامه رواه الشيخان .

حقا من الحق قد نزل - وليس إلا خيراً من الخير الأعلى قد انحدر.

الوحى يقود محمداً :

وظل هذا الوحى يعاود محمدًا بن عبد الله - ثلاثاً وعشرين سنة - يرشده ويوجهه ويشد أزره ويثبته - ويأمره ويكلفه تارة بالصبر - وتارة بامتشاق الحسام - تارة بالملاينة وتارة بالمنابذة على سواء - ويعده ويمنّيه بالنصر والفوز - ويكشف له فى بعض الأحيان عن مغاليق الغيب ومخبوء الأيام - فما كبا به هذا الوحى الأمين مرة من المرات - ولا أخلف وعده معه - ولا كذبه فيما عنه أخبر - لا ولم يتخل عن نصرته - حتى دانت له شبه جزيرة العرب عن بكرة أبيها - بعد أن كانت حرباً عليه - وهى أمة بأسرها - وهو رجل فرد لم يكن له سلاح - أو معين غير هذا الوحى الصادق.

نبّأه الوحى أنه معصوم من الناس لن ينالوه بأذى «والله يعصمك من الناس»[1] فكان ما قال - ومات محمد على فراشه بعد أن أكمل رسالته - على كثرة ما دبر له من مؤامرات - وما خاض من معارك. ونبأه الوحى أنه منصور بإذن الله فى نشر دعوته - فلم يمت محمد بن عبد الله - حتى رأى آخر صنم فى أنحاء هذه الجزيرة الطويلة العريضة وقد تحطم ودمر. ونبأه أن دينه لن يلبث أن يظهر على الدين كله - فلم يغمض محمد بن عبد الله عينيه إلا بعد أن رأى جزيرة العرب بين يديه فى حجة الوداع ملبّية مكبرة : لا إله إلاّ الله وحده - والوحى يملى عليه «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً»[2] وإذ كملت الرسالة فلم يلبث محمد أن مات بعد أن أخبره الوحى الصادق الأمين أن هذه القلة المسحوقة من أتباعه المؤمنين لن يلبثوا أن يصبحوا سادة الدنيا كلها «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم»[3]

فكان كما قال وأخبر ونبأه فكان حقا على الرسول أن يؤمن بهذا الوحى وأنه رسول ربه «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه»[4]. وكان حقا على أتباعه المقربين أن يؤمنوا بهذا الوحى وحق علينا - نحن المتأخرين - أن نؤمن بهذا الوحى الذى بلغ محمد بهديه إلى هذا

---

(١) المائدة ٦٧.
(٢) المائدة ٣.
(٣) النور ٥٥.
(٤) البقرة ٢٨٥.

الذى بلغ - لأن سيرة محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء الإيمان بهذا الوحى والإعلام الغيبى .

تأويلات قريش لظاهرة الوحى :

ولما كان الوحى إذا حل بمحمد بن عبد الله يكون مصحوباً برعدة تعم جسده ويناله كثير من الجهد والمشقة مما يجعل العرق يتفصد من جبينه[1] ولما كانت هذه ظاهرة مادية محسوسة يتحدث عنها كل من يتصل بمحمد ويحيط به - فقد بدأت قريش تفسر هذه الظاهرة الجديدة التى أصابت محمد بن عبد الله والتى تلاها تبشيره بنفسه كرسول لرب العالمين - بأنها لوثة من لوثات الجنون والخبل قد أصابته فأحدثت بعقله ما أحدثت . «وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون[2] » ولكن الحوادث سرعان ماكشفت للقوم بطلان هذا الزعم ، إذ ظل محمد آية من آيات الاتزان يتصرف فى كل أموره كأعقل وأحكم ما يكون الرجل - فضلا عن أن هذه العبارات والأقوال التى باتت تجرى على لسانه قد أذهلتهم بقوة بيانها - ونصاعة تعبيرها - وشديد إيجازها - وعذوبة وقعها على السمع - وعظيم تأثيرها على القلب - مما جعل فكرة الجنون تسقط من حسابهم - ويعترفون بأن هذا الكلم لا يمكن أن يصدر عن مجنون .

فعادوا يفسرون الأمر على أن محمداً قد انقلب شاعراً . وأن شيطان الشعر قد ألم به كما ألم بفحول الشعراء من قبله فعلمه ما لم يكن يعلم ، وأنطق لسانه بهذا القول الفصيح المليح . ولكن تتابع آى القرآن ونهجه ونسقه لم يلبثا أن كشفا للقوم أن ما جاء به محمد - وما ينطق به ، شئ يخالف ما ألفوه من الشعر كل المخالفة . وإذا كان تأثير القرآن فى نفوس القوم واضحاً كل الوضوح ، حيث كان فى كل يوم يحمل نفراً منهم على التعلق به ، فإذا هم يتنكرون لكل مألوفاتهم القديمة ، وعوائدهم الموروثة وتقاليدهم المقدسة غير ملقين بالاً لما فى هذه المخالفة من إغضاب لعائلاتهم وأسراتهم ، فقد رأت قريش فى ذلك ضرباً من ضروب الإفساد ، وعزت تأثير محمد فى قرآنه إلى السحر والكهانة . «وقال الكافرون

---

(١) قالت عائشة : ولقد رأيته يتزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد - فينفض عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . رواه الشيخان . والترمذى عن عبادة بن الصامت : كان النبى إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه .

(٢) سورة الحجر آية ٦ .

هذا ساحر كذاب[1] » . « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون[2] » .

« ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون[3] » . ولكنهم سرعان ما وجدوا محمدًا أبعد ما يكون عن الكهانة ومايصاحبها من شعوذة وغموض ، فالرجل يعيش فى وضح النهار بين ظهرانى الناس لا تكاد عيونهم تفتر عن مراقبته لحظة . فما رأوه خلا بنفسه لحظة يمارس طقوس السحر والكهانة والتى تستلزم الكثير من الترانيم والتعاويذ وإطلاق البخور واستخدام بعض الأجهزة والآلات . فلا بد إذن أن يكون الأمر على الضد ، بمعنى أن محمد بن عبد الله ليس ساحراً ولكنه مسحور قد سحره آخر وأنطق على لسانه ما أنطق « إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً[4] » . وسواء كان محمد بن عبد الله قد جُن أو اعتراه شيطان من الشعر أو أنه يمارس ضرباً من الكهانة والسحر ، فإن دعواه تلقى الوحى من الله ليس إلا كذباً وافتراء وادعاء منكراً يجب أن يقابل بكل إعراض واشمئزاز بل وبكل سخط ومقاومة « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى[5] » ، « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً[6] » أما هذا القصص الذى يتلوه عليهم متحدثاً عن تاريخ من سبق من القوم ومضى . واستعراضه لنصوص الأديان الشهيرة وتعاليمها مما لم يسبق له أو لهم به علم فإنما هى ترهات وأوهام وأساطير الأولين . وإذا كانت تنطوى فى بعض أجزائها على شئ من الحق والصواب فليس ذلك إلا أثراً لتلقين بعض الناس لمحمد وما حصله من بعض العلوم هنا وهناك . « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً[7] » . « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى[8] » .

وهكذا لم يدع معارضو محمد بن عبد الله فرضاً من الفروض أو تأويلاً من التأويلات التى يمكن أن يتناول بها الوحى المحمدى وهذا القرآن الذى تفجر فجأة على لسان محمد ، إلا وقالوا بها وشنعوا وهولوا ، بحيث بلغوا فى ذلك إلى منتهى ما يمكن أن يطمع فيه أشد نقاد العصر الحديث مادية وغلوا فى الإنكار والحذلقة .

---

(١) سورة ص آية ٤ .
(٢) سورة الطور آية ٢٩ .
(٣) سورة الزخرف آية ٣٠ .
(٤) سورة الإسراء آية ٤٧ .
(٥) سورة سبأ آية ٤٣ .
(٦) سورة الفرقان آية ٤ .
(٧) سورة الفرقان آية ٥ .
(٨) سورة النحل آية ١٠٣ .

محمد بين الوعد والوعيد :

وقد حاولت قريش فى ذلك الوقت أن تعالج هذه الململة الطارئة على محمد بشتى ألوان العلاج التى يمكن أن تخطر على البال . فعمدوا فى بادئ الأمر إلى الإنكار عليه ومخاشنته . فلما لم يُجْدِهِمْ ذلك عمدوا إلى محاسنته وإغرائه بشتى صنوف المغريات . فعرضوا عليه أن يستجلبوا له نطس الأطباء والكهان لمداواته وإبرائه من دائه الذى ألم به إن كان ما به داء أو مرض . فإن كان يرمى من وراء دعوته إلى مال أو جاه أو نفوذ وسلطان يحصله فقد أطمعوه فى ذلك كله ، وأن يجعلوا منه سيداً عليهم ويزاد فى ماله حتى يصبح أعظمهم غنى .

ولكن ذلك كله لم يزد محمد بن عبد الله إلا عزماً وإصراراً على المضى فى دعوته وقال كلمته المدوية : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى . والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . وأبى محمد إلا أن يضاعف فى جهده وكفاحه فبدأ يسفه أحلام القوم . ويظهر البغض والقلى لمعبوداتهم ، وينعتها بما يهون من شأنها ويحط من قدرها . فلم تتمالك قريش نفسها عن المضى فى حرب الرسول فى غير هوادة أو لين ، مبتدئين بالسخرية والزراية وتأليب الغلمان والعبيد على محمد وأتباعه ينالونهم بالأذى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ثم لم يلبثوا أن تطوروا فراحوا يعقدون المؤتمرات للتخلص من محمد وأتباعه جملة واحدة . حتى اضطروا المسلمين الأول للنجاة بأنفسهم ودينهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة . ولكن ذلك كله لم يجد قريشاً فتيلاً . وظل محمد بن عبد الله ماضياً فى دعوته فياضاً بهذا البيان الساحر الذى يسميه «قرآناً» ويدعى ــ صادقاً ــ أنه وحى من رب العالمين . ووجدوا أن هذا القرآن يأخذ طريقه إلى القلوب فيغزوها ، وإلى النفوس فيستهويها ، ووجدوا أن هذا القرآن ينفذ إلى بيوتهم فى غفلة منهم ، فإذا نساؤهم ترند . وإذا عبيدهم يدينون به فيتنكرون لسادتهم . بل وجدوا أن هذا القرآن العجيب يستبد بنفوس سادة القوم فيخضعون لسلطانه . حتى ليتسللون مستخفين عن بعضهم فى ظلمة الليل البهيم للاستماع إلى ترتيله من أفواه بعض حافظيه ممن اتبعوا محمداً .

إسلام عمر :

ثم وقعت الواقعة فإذا القرآن يحول فى أقل من ومضة الخاطر أشد الناس عتوا ضد

محمد وأكثرهم إسرافاً فى تعذيب كل من تناله يداه من أتباع محمد ، إلى مؤمن متحمس للقرآن وللرسول كأعظم ما يكون الإيمان والحماسة . ولم يكن هذا المؤمن الجديد ، إلا عمر بن الخطاب ذلك الذى كان يعذب جاريته لإيمانها برسالة محمد ، حتى ليظل يضربها ويضربها ، إلى أن يأخذه الملل والسأم ويخشى على جاريته من الموت والتلف . والذى ضرب أخته فأسال دمها ممزوجاً بعبراتها لمفاجأته لها وهى تردد القرآن وتتلوه مع زوجها .

وعلى هذه الوتيرة كان القرآن يغزو قلوب جميع الذين يخاصمون محمداً ويلحون فى خصومتهم ، ويحولهم أو بالأحرى يحول الأكثرين منهم إلى متطرفين فى الحماسة والتشيع لمحمد والوحى المحمدى .

إســـلام خـــالد :

وحسبنا أن نشير كمثل آخر إلى خالد بن الوليد ، فقد كان المنطق يحتم عليه أن يكون آخر العرب إيماناً بمحمد . بل كان يتحتم عليه ألا يؤمن بمحمد على الإطلاق . ذلك أن خالد بن الوليد من دون العرب جميعاً من لعب أكبر دور لهزيمة محمد فى غزوة أحد ، تلك الغزوة التى كاد يقتل فيها محمد قتلاً ، والتى أعلن فيها بالفعل أنه قد قتل . وكان معنى ذلك القضاء على الإسلام ، ونبى المسلمين على يد خالد بن الوليد . فما أحق هذا القائد المنتصر على محمد وعلى جيش محمد أن يكفر به ، وبرسالته وبوحيه . ما أعجب أن يكون الأمر على عكس ذلك فنرى ذلك القائد الفذ العبقرى ، يتسلل من بين صفوف قريش ليلتحق بمحمد فى المدينة ليضع نفسه تحت خدمته وخدمة تعاليمه ، وليكون سيفاً من سيوف الله يطعن به محمد فى نحور المشركين ، ويرد به كيد الكائدين . وسرعان ما نرى خالد بن الوليد على رأس أحد الجيوش الغازية لمكة ، فنراه يأبى من فرط حماسته إلا أن يحارب ويثخن ويفتك بمواطنيه وعشيرته وآله الأقربين ، لولا أن يكف يده محمد بن عبد الله ويلزمه حدود السكينة والاعتدال ما دامت البلد قد ألقت السلاح .

وهكذا كان القرآن يغزو قلوب أشد الناس نفوراً منه فى بادئ الأمر . وأخيراً دانت جزيرة العرب كلها للوحى المحمدى وآمنت بالقرآن ورسالة محمد .

آمنت شبه الجزيرة بعد ثلاثة وعشرين عاماً من الكفاح المتواصل الذى استخدمت فيه جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على محمد وعلى دعوته . فإذا كان

محمد قد فاز على ذلك كله وانتصر فلن يستطيع أى إنسان فى أى عصر من العصور - أن يدعى أن هذا النصر كان ثمرة الخداع والتغرير والإيهام - أو أنه استغل جهل معاصريه وسذاجتهم .

لا يستطيع أشد النقاد فى العصر الحديث أن يدعى أن محمداً لم يمتحن كأشد ما يكون الامتحان وأن دعوته لم تمحص بواسطة معاصريه بأعظم ما يكون التمحيص فى كل شأن من الشئون وقضية من القضايا . وحسب الإنسان أن يطالع القرآن الكريم وهو سجل حوادث ذلك الزمان(١) ليرى أقسى ألوان النقد قد وجه إلى محمد - ليس فقط إلى تعاليمه ومبادئه من حيث وحدانية الله والبعث والنشور والإيمان بالوحى - بل وإلى شخصية محمد نفسها وأخلاقه وتصرفاته . فالتاريخ شاهد عدل صادق على أن محمداً ما كان لينجح هذا النجاح ، لو لم يكن صادقاً أميناً . فما كان لكذاب مفتر ، أن يصمد فى وجه أقسى المحن والتجارب - وما كان لمدع أن يتسلق السلم درجة درجة - وأن يغزو القلوب والنفوس قلباً قلباً - وأن تدين له شبه جزيرة العرب بالروح والجسد شبراً شبراً ، وأن لا تزيده الأيام والسنون والحوادث بل والقرون المتتالية إلا قوة وتأثيراً ونجاحاً .

نجاح الدعوة المحمدية الخارق بعد موته :

والحق أن ليس هناك ما يأخذ اللب أكثر من هذا النجاح الفائق الذى أحرزه محمد ابن عبد الله بعد موته وزوال كل تأثير لشخصيته من الناحية المادية - فإن محمداً لم يكد يلحق بالرفيق الأعلى - حتى ازداد إيمان أتباعه وتلامذته بشخصيته ورسالته أضعافاً مضاعفة - فاندفعوا شرقاً وغرباً وجنوباً ينشرون إيمانهم بمحمد ، وتعاليم محمد - فكان ما كان من هذا الفتح العظيم - الذى لم تشهد له الدنيا مثيلاً فى سرعته واتساع رقعته - والذى لا يعجب الإنسان فيه بالفتح العسكرى - قدر إعجابه بالفتح الروحى . وإلا فبأى سلطان - وبأى قوة دخل الشعب الفارسى فى هذا الدين الجديد الذى نادى به هذا العربى الأمى الذى مات كما يموت غيره من الناس - مع أن الشعب الفارسى هو صاحب الحضارة والمدنية الزاهرة ، وقد عاش طول عمره ينظر إلى العرب نظرة احتقار وامتهان .

---

(١) لا يختلف الباحثون المؤرخون العالميون بصفة عامة والمستشرقون بصفة خاصة فضلاً عن المؤمنين والمسلمين فى أن القرآن هو أصدق صورة لما كانت عليه حياة العرب وما وقع من نزاع ومناقشات ومساجلات بينهم وبين الرسول صلوات الله عليه .

فإذا كانت الظروف قد قضت بغلبة العرب على الفرس فقد كان خريا بالفرس أن لا يحملوا للعرب وكل ما جاء به العرب إلا الحقد والكراهية فيكونوا آخر من يلوذ بهذا الدين . ولكن التاريخ يسجل لنا أن ما حدث كان عكس ذلك تماماً ، إذ دخل الفرس فى دين الإسلام أفواجاً كما دخل العرب من قبلهم ، بحيث لم يكد القرن الثانى يبدأ حتى كانوا هم عمد الحضارة الإسلامية وأبرز معالمها .

فى مصـــــر :

وثمة بلد آخر كمصر يشهد تاريخه طوال أربعة آلاف سنة ، على أنه لم يعتنق أبداً دين الفاتحين له ، بل إنه طالما دفع بغزاته وقاهريه ، إلى الدخول فى دينه وتقاليده وأستعمال لغته . ولكن الإسلام لم يكد يطرق أبواب مصر حتى خرج الشعب المصرى على سنته وطبيعته لأول مرة ، فإذا هو يدخل فى هذا الدين الجديد أفواجاً ، ثم لم يلبث أن ذهب إلى أبعد ماذهب إليه الفرس ، فيأخذ لغة الإسلام والقرآن بدلاً من لغته الوطنية ، ويستبدل الحروف العربية بحروف كتابته التقليدية . وهكذا نرى مصر وقد تحولت إلى قطعة إسلامية عربية صميمة حتى لنراها فى عصرنا الحاضر موئل العربية والإسلام ورافعة لوائهما الخفاق . ورب قائل يقول إنما حدث كل هذا الذى تشير إليه بقوة العادة والسلطان ، العادة التى تقول إن المغلوبين يقلدون الغالبين دائماً ويتعبدون بدينهم . وإذ كان العرب هم أصحاب السلطان ، فقد سارعت الشعوب المحكومة بسلطانهم إلى تقليدهم . ولكن هذا الزعم سرعان ما ينهار عندما نرى أن قوة الإسلام وعظم شخصية محمد قد زادت وتضاعفت بعد أن فقد العرب كل قوة وسلطان ، بل وبعد أن تحولوا إلى محكومين مقهورين .

دور الأتراك فى الإسلام :

فهؤلاء هم الأتراك أعدى أعداء العرب ، قد تحولوا إلى مسلمين وكانوا هم « لا العرب » من حمى الإسلام بضعة قرون من الزمان . وهؤلاء هم التتار الذين كانت لهم اليد الطولى فى إسقاط السيادة الإسلامية بالمشرق ، لم يلبثوا أن اعتنقوا دين الإسلام ، وتحولت عاصمة بلادهم « سمرقند » إلى مركز من أعظم المراكز التى تمد الإسلام بالحرارة والحياة .

فبأى سحر وبأى قوة شخصية فعل محمد ذلك فى نفوس الناس بعد موته وبعد زوال سلطان أمته وشعبه ، فى الوقت الذى نرى فيه أعظم عظماء التاريخ كالإسكندر وقيصر ونابليون وغيرهم لا يلبث نفوذهم أن يتلاشى ويذوى بمجرد موتهم ، فلا يعود لهم من التأثير إلا بمقدار ما لأى حادث آخر فى التاريخ من العبرة والعظة ..

بأى سلطان وبأى قوة استطاع هذا العربى الأمى الذى عاش أربعين سنة لا يكاد يختلف عن أوسط قومه ، أن يفعل كل ما فعل ، وأن يحرز كل ما أحرز من نجاح وتفوق ؟! بأى قوة وسلطان إلا أن تكون قوة الوحى حقًّا وصدقاً ، هذا الوحى الذى وإن لم نستطع أن ندرك أمره وسره فلا نستطيع أن ننكر آثاره وأفاعيله .

إنكار الوحى يؤدى إلى تأليه محمد :

الحق أن إنكار الوحى من شأنه أن يدفعنا فى مأزق حرج ويؤدى إلى اعتبار محمد الإله بذاته كما اعتبر المسيحيون عيسى هو الرب الخالق ، وكما اعتبر البوذيون بوذا تجسدًا للرب ، وكما اعتادت الإنسانية بصفة عامة أن تجعل من الأفذاذ الأبطال آلهة خالقين حاكمين .

فمن أى ناحية عرضنا لشخصية محمد وجدنا أنفسنا أمام طود راسخ يبلغ من الشموخ والتسامى مالا يطاوله فى تاريخ البشر إنسان آخر ..

فلو أنا حسبناه فى عداد المشرعين ، لوجب اعتباره حتماً أعظم مشرع عرفته الإنسانية ، فقد حوى القرآن من القوانين والمبادئ الأساسية لتنظيم حياة الفرد والجماعة فى حالتى السلم والحرب مالا زيادة بعده لمستزيد ، وها نحن أولاء نرى أن الإنسانية تجهد نفسها للوصول إلى ما قرره من المبادئ والقواعد التشريعية ، فالحرية والإخاء والمساواة والديمقراطية والاشتراكية والتعاون العالمى ، كل هذه مبادئ قد نبه إليها القرآن وجلاها منذ نيف وثلاثمائة وألف سنة ، بحيث لو كان هذا القرآن من بنات أفكار محمد بن عبد الله لوجب اعتباره حتماً أعظم مشرِّع اجتماعى عرفته البشرية . وحسب الإنسان أن يطالع فى هذا الصدد أقوال علماء أوربا الأعلام الذين شهدوا بذلك وأكدوه وسجلوه[1] .

---

(١) يقول جيبون أعظم علماء التاريخ فى العصر الحديث «جاءت الشريعة الإسلامية عامة فى أحكامها يخضع لها=

ولو أنا عددنا محمد بن عبد الله فى طائفة الحكماء أو الفلاسفة لوجب اعتباره أعظمهم طرا ، حيث جعل هذه الأمم والشعوب خلال هذه القرون تعيش على حكمته وفلسفته فى الحياة وآرائه فيما وراء الطبيعة .

ولو اعتبرناه مؤسس دولة وحضارة لوجب اعتباره أعظم من أسس ملكاً وشاد دولة وخلق حضارة ، فالتاريخ لا يعرف كما قدمنا مثيلاً لارتفاع العرب من حضيض الخمول إلى ذروة المجد والقوة والسلطان .

وهكذا نرى أنفسنا مضطرين إلى وضع محمد بن عبد الله فى مقدمة المشرعين ، وفى مقدمة الحكماء ، وفى مقدمة الفلاسفة ، وفى مقدمة المصلحين ، وفى مقدمة الفاتحين ، وفى مقدمة النبيين . وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يحول بيننا إذن وبين الوقوع فيما وقع فيه غيرنا من القول بأن الله قد حل فى شخص محمد بن عبد الله كما قال المسيحيون ، وكما قال البوذيون ؟ الحق أن ليس هناك ما يحول بيننا وبين هذا الوهم والضلال ، إلا صدق محمد بالذات وأمانته ونزاهته فى تبليغ ما أنزل إليه من ربه من أنه لا يعدو أن يكون عبداً لله كسائر العبيد ، وأنه لم يخرج قط عن أن يكون بشراً مخلوقاً كما خلق البشر أجمعون ،

= أعظم ملك وأقل صعلوك فهى شريعة حيكت بأحكم منوال شرعى وليس لها مثيل فى العالم » ـ الحضارة الإسلامية ـ لكرد على .

وقال ليودورش « إن الإسلام دين إنسانى طبعى اقتصادى أدبى ولم أذكر شيئاً من القوانين الوضعية إلا وجدته مشرعاً فيه ـ ولقد وجدت فيه حل المسألتين اللتين تشغلان العالم طرا الأولى فى قول القرآن « إنما المؤمنون إخوة » فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً ، وهذا هو دواء الفوضوية » ـ الحضارة الإسلامية ـ لكرد على .

وقال ماسينون « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة ، والإسلام ينادى بالعداء للأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضرورات الحياة فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الزوج والولد والملكية ورءوس الأموال التجارية فهو بذلك يقف وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية والبولشفية . وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماض كله النجاح ، فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى فى أفريقيا والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم فى الصين واليابان ، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها » الحضارة الإسلامية لكرد على » .

«قل إنما أنا بشر مثلكم[1] » . وهو كأي إنسان آخر لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً ولا حولاً ولا طولاً وأنه لا يعرف الغيب ولا يملك خزائن الأرض فضلاً عن السماء «قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون[2] » ، «قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ[3] » . «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[4] » ، «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »[5] .

وما دام محمد يقول عن نفسه إنه بشر وأنه لا يعلم من الغيب أكثر مما يعلم الناس وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا إلا بمقدار ما يملك الناس ، إذن فكيف استطاع أن يبهر الناس أجمعين وأن يحملهم على الرضوخ لسلطانه الروحى ؟ الحق أن العقل لا يستطيع أن يجد لذلك تفسيراً مقبولاً ومعقولاً إلا الإيمان والتصديق بالوحى المحمدى وأن القرآن الكريم ثمرة هذا الوحى وآيته .

---

(١) الكهف ١١٠ .

(٢) الأعراف ـ ١٨٨ .

(٣) الأنعام ـ ٥٠ .

(٤) الإسراء ـ ١ .

(٥) الفرقان ـ ١ ..

الفصل السادس

القرآن والوحي

عجز العرب عن محاكاته وتقليده ـ الصرفة ـ حفظ القرآن من الضياع وسلامة نصوصه من التحريف ـ جمع القرآن ـ عمل نسخ من المصحف ـ اختلاف نصوص الأناجيل ـ ثبات معانى القرآن ومراميه على الزمن ـ القرآن والعلم ـ خاصية الأسلوب القرآنى ـ آيات يفسرها العلم الحديث ـ تنبؤات القرآن بالغيب ـ ثبوت الوحى المحمدى ـ حقيقة الوحى ـ الوحى ذروة الإلهام ـ ثبوت النبوة المحمدية ثبوت لكافة النبوات ـ علم الأديان المقارن ووجوبه ـ اختر لنفسك .

وقد بقى أن نلقى نظرة فاحصة على هذا الكتاب الموجود بين أيدينا والمتفق عليه بالإجماع أنه سجل دقيق لهذا الوحى الذى أوحى لمحمد بن عبد الله وأعنى به القرآن الكريم لنرى إلى أى حد تقوم خصائص هذا القرآن ونصوصه شاهدة على أنه لا يمكن أن يكون كتاباً كسائر الكتب . وبالتالى لا يمكن أن يكون من نظم أو تأليف إنسان عادى .

عجز العرب عن محاكاته وتقليده :

لعل أول ما يطالعنا من دراسة القرآن وتاريخه هو هذه الظاهرة الفذة ظاهرة تحدى القرآن للعرب فى أن يقلدوه ويأتوا بحديث مثله . « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[1] » ثم عجز العرب بعد هذا التحدى الصريح عن الإتيان بمثله أو محاكاته مع شدة حرص العرب على تكذيب محمد وتسفيهه وإظهار بطلان دعوته وما تنطوى عليه من كهانة وشعوذة . ومع

---

(١) الإسراء ـ ٨٨ .

أنهم لم يدعوا وسيلة مشروعة أو غير مشروعة إلا انتهجوها لإيذاء محمد والانتقاص منه . فقد ظل تحدى القرآن للعرب قائماً بغير معارضة . وسط أقوام اشتهروا بالمعارضة لما يطرح على مسامعهم من شعر أو نثر . فلا يكاد الشاعر ينشد قصيدته حتى يبادره الشاعر الآخر بقصيد معارض . ولا يكاد الخطيب يفرغ من خطبته ، حتى يصاوله خطيب آخر بأقوى من حجته . وأسحر من بيانه . حتى إذا تحداهم القرآن . ألجموا وانعقدت ألسنتهم وجمدت قرائحهم ، فزاد القرآن من تحديهم وإظهار الاستصغار والتهوين فى مقدرتهم «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[1] » .

ولكن القرآن كلما زاد فى تحديه . زاد العرب عجزاً وقصوراً إزاء هذا التحدى . حتى انتهى الأمر بالقرآن إلى آية عجيبة من آيات التحدى . بأن طالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة من سور القرآن على الرغم من أن من سور القرآن مالا تزيد آياته على ثلاث[2] : «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين[3] » . ومع ذلك فقد ظل العرب المعارضون لرسول الله عاجزين عن قبول التحدى ومعارضة القرآن وآياته بآيات مثلها وفى مثل نظمها وأحكامها .

الصرفـــــة :

وليس هناك ما يثير الدهشة فى نفس الدارس لتاريخ القرآن أكثر من هذه الظاهرة . مما جعل البعض يفسر امتناع معاصرى القرآن عن محاكاته وتقليده . أنه ليس ناشئاً عن العجز والقصور . ولكن لأنهم صرفوا عن تقليده بواسطة قوة خفية جعلتهم لا يفكرون فى تقليده ومحاكاته ومعارضته بمثل آياته . مع شديد رغبتهم فى هذه المحاكاة ومع قدرتهم عليها . ومن هنا فهم يعتبرون إعجاز القرآن كامناً فى هذه الصرفة التى صرفت العرب عن محاكاته . وسواء كان الامتناع للعجز أو للصرفة ، فهو آية وحجة على أن للقرآن شأناً يختلف عن شأن سائر الكتب . وأن أمره كان عجباً من أعجب العجب «إنا سمعنا قرآناً عجباً» .

---

(١) هود – ١٢ .
(٢) سورة الكوثر .
(٣) البقرة – ٢٣ – ٢٤

حفظ القرآن من الضياع وسلامة نصوصه من التحريف :

فإذا مضينا فى دراسة تاريخ القرآن اتضح لنا من أمره خصوصية ثانية لا يكاد يعثر عليها الإنسان فى كتاب آخر من كتب البشر القديمة التى تطاول عليها العهد . وليست هذه الخصوصية إلا حفظ القرآن . كما أوحى إلى محمد وكما لقنه لأتباعه . ووصوله إلى الأجيال المتعاقبة سليماً من كل تحريف أو نقص أو زيادة . مبرأ من كل الشكوك التى دبت إلى نص أى كتاب من الكتب المقدسة أو الكتب التاريخية والعلمية القديمة .

فمن الحقائق التاريخية أن القرآن كان يكتب دون غيره من أحاديث النبى على الرقاع والعظام وسعف النخيل فى حرص شديد من أن يختلط به غيره وفى نفس الوقت كان السواد الأعظم من المسلمين يتلقون القرآن من فم الرسول مباشرة ويحفظونه عن طريق التلقين .

وقد كانت ملكة الحفظ عند العرب مما لا يمكن أن يتطرق الشك إلى سلامتها وقوتها ، لا لشئ إلا لأنهم كانوا شعباً أميا فى غالبيتهم العظمى فلم يكن لهم من سبيل للمحافظة على حياتهم الاجتماعية وحقوقهم وأنسابهم وتقاليدهم وتشريعاتهم . إلا هذه الذاكرة الواعية المفرطة فى الحساسية ، وقد عاش النبى صلوات الله عليه ، بضعاً وعشرين عاماً ، وهو يعلم القرآن وينادى بالقرآن ويصلى بالقرآن فى صلواته الخمس ، وهكذا أتيحت الفرصة لسائر المسلمين كى يحفظوا من القرآن مالم يحفظوه . وليسمعوا منه ما لم يكونوا قد سمعوه . ولكى يكمله منهم من لم يكن أكمله . ويجوده من لم يكن قد جوده . ولم يمت الرسول قبل أن يترك خلفه عدداً غفيراً ممن يحفظون القرآن بأكمله . وعدداً كبيراً جدا ممن يحفظون أكثر القرآن . ويعرفون فى نفس الوقت بقيته . وهذا كله إلى جوار آيات القرآن وسوره المتفرقة المكتوبة عند من يحسنون الكتابة .

جمـع القـرآن :

ولم يكد الرسول يلحق بالرفيق الأعلى حتى أصدر خليفته وصديقه الصدوق وأكثر العالمين غيرة على القرآن من بعده . أصدر أمره بجمع هذا القرآن فى كتاب واحد . وقد فعل ذلك كما يحدثنا التاريخ بناء على إشارة عمر بن الخطاب[1] ثانى اثنين هما أعظم دعائم الإسلام بعد رسول الله .

(١) حدثنا زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة . فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر =

وقد كلف زيد بن ثابت كاتب وحى رسول الله بالقيام بهذه المهمة . فقام بها على خير وجه من الوجوه ورسم لتحقيق هذا العمل الجليل خطة من أدق ما يمكن أن يطرأ على الذهن مثلها . فلم يعتمد على ملكة الحفظ عند العرب . بل اشترط أن تدعمها الكتابة . واشترط فوق ذلك كله أن لا يقبل أى آية مكتوبة من آيات القرآن إلا بعد أن يشهد شاهدان عدلان . أنها كتبت فى حضرة الرسول وذلك كله على الرغم من أن زيداً كان يحفظ القرآن بأكمله وإنما فعل كل الذى فعله مبالغة فى الاحتياط (١)

عمل نسخ من المصحف :

وغنى عن البيان أن هذه العملية قد تمت تحت إشراف أبى بكر وعمر وبقية الصحابة الأعلام وهم من هم غيرة على القرآن وتقديساً لآياته وكلماته ، وحرصاً على تنزيه كلام الله من أن يختلط به غيره ، وهذا ما يقطع بأن عملية جمع القرآن كانت عملية سليمة لم تشبها أى شائبة من الشوائب . على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد وضع هذا المجهود بعد فترة وجيزة موضع المراجعة الدقيقة وذلك فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان عندما رُئى وجوب نسخ هذا القرآن الأم وتوزيع نسخ رسمية منه على مختلف الأمصار ، فقد دعى زيد بن ثابت من جديد ومعه رهط من الكتاب القرشيين لنسخ عدة صور من القرآن ، واتخذ من الاحتياطات والدقة فى العمل ، مثل الذى اتخذ عند جمع القرآن ، وتم نسخ خمس نسخ ، احتفظ بواحدة منها فى المدينة وأرسلت

= رضى الله عنه ، إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله فقال عمر ، هذا والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتبع القرآن فاجمعه . فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : هو والله خير : فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... » الآيتين . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهم » البخارى .

(١) جاء فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى رحمه الله فى باب جمع القرآن وترتيبه ما يأتى : أخرج ابن داود عن طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : «وقدم عمر فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به » وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان ، وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجوده مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط .

بقيتها إلى البصرة والكوفة ومكة والشام ، وقيل بل كانت سبع نسخ أرسلت إلى الأمصار السابقة . وأرسل فوق ذلك إلى مصر واليمن ، وقد طلب من المسلمين فى مشارق الدنيا ومغاربها . أن لا يعتمدوا من آيات القرآن إلا ما ورد فى هذه النسخ الرسمية ، وأن يحرقوا كل ماعداها من كتابات وأقاويل تنسب إلى القرآن .

وعلى الرغم من أن ألوفاً من الصحابة كانوا يحفظون الكثير من القرآن ، ويعرفونه بأكمله كانوا لا يزالون فى ذلك الوقت على قيد الحياة ، وعلى الرغم من أن الانتقادات كانت تنهال على عثمان بن عفان من كل جانب متناولة كل تصرفاته ، ومجرحة اياه ، ورامية إياه بالكفر والانحراف عن الجادة ، فإن هذا العمل لم يكن محل نقد المنتقدين ، ولم يرتفع صوت واحد من أنحاء هذه الدولة الغاضبة المتذمرة بالاعتراض على نص من نصوص القرآن وأنه ليس من القرآن ، أو فيه تحريف لمعنى من معانى القرآن . وحتى بعد أن اندلعت نيران هذه الفتنة الجائحة التى أودت بحياة عثمان ، وبعد أن انقسم العالم الإسلامى إلى حزبين رئيسيين . أحداهما يتشيع لعلى حتى التطرف ويطعن فى عثمان وفى أسرته ، والحزب الآخر يطعن فى على ويدافع عن الخليفة المظلوم . على الرغم من هذا الخلاف الخطير الذى أوشك أن يودى بالحياة الإسلامية جملة ، فإن نص القرآن وسلامته قد ظل فوق كل نزاع وبعيداً عن أى مظهر من مظاهر الاختلاف ، بحيث لم يكن للمسلمين فى أى زمان ومكان إلا نص واحد للقرآن ، هو هذا النص الموجود بين أيدينا والذى مها طوف الإنسان فى العالم الإسلامى اليوم ابتداء من جزر الهند الشرقية فى المحيط الهندى حتى ألبانيا أو أوربا ، وابتداء من الصين فى الشرق حتى بلاد المغرب فلن يجد إلا نصا واحداً للقرآن كهذا النص الموجود بين يديه ، بل مهما رجع الإنسان إلى الوراء فى تاريخ المسلمين حيث لا تزال مصاحفهم محفوظة ومنشورة فلن يجد إلا نفس النص وذات الكتاب .

اختلاف نصوص الأناجيل :

ولن يستطيع الإنسان أن يدرك معنى هذه الحقيقة ودلالتها وانفراد القرآن بها إلا إذا قرن إليها نص الإنجيل المتداول الآن فى العالم ومدى نسبته إلى المسيح عليه السلام ، فأول ما يطالعنا منه هو أربعة نصوص مختلفة ، كل منها يعتبر هو الإنجيل المقدس ، ومع ذلك فهى تختلف فيما بينها فى كثير من التفاصيل بل وتختلف فى بعض الأحيان فى مسائل جد جوهرية ، وهذه النصوص الأربعة المختلفة ، قد اختيرت من بين عدة مئات من النصوص التى كانت كلها نصا رسميا للإنجيل ، وبالرغم من أن الكنيسة قد جاهدت كثيراً للقضاء على بقية النصوص الأخرى فإن العصر الحديث قد ابتعث نصوصاً جديدة للإنجيل منها إنجيل برنابا الذى لا تعترف به الكنيسة ، وتعتبره قد زور فى عصور متأخرة .

على أن هذه النصوص الأربعة المعتمدة رسميا من الكنيسة قد كتبت على أصح الأقوال فى السنة الحادية والأربعين الميلادية ، وأنها كتبت بلغة غير اللغة المكتوبة بها الآن ، أوكتبت فى بادئ الأمر باللسان العبرانى وباللسان الذى ما بين الكلدانى والسريانى ، ولكن العالم الحديث قد تلقاها مكتوبة باللغة اليونانية . ويشك كثير من العلماء الحديثين فى أوربا فى نسبة هذه الأناجيل ومدى صحة نصوصها ونسبتها إلى كاتبيها ونسبة ما فيها إلى المسيح ، وهى كلها أمور محوطة بالشك وليس فيها حقيقة واحدة يمكن أن يطمئن إليها التاريخ .

وإذا كان هذا هو شأن الإنجيل فإن حظ الكتب الدينية الأخرى من السلامة هو أدنى بكثير من الإنجيل .

ويطول بنا المقام لو أنا خضنا فى هذا الموضوع وحسبنا أن نشير إلى قول مستشرق أوربى من أعظم المستشرقين الذين تصدوا لدراسة الإسلام وهو السير «وليم موير» وكيف قطع بأن القرآن قد بين كل ما يعرف العالم من كتب مقدسة من حيث صحة نسبته إلى قائله ، وسلامة نصه على مر الأيام من كل زيف وتحريف وتغيير حيث قال : «والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرناً كاملة بنص هذا مبلغ صفائه ودقته . والقراءات المختلفة اليوم قليلة إلى حد يثير الدهشة ، وهذا الاختلاف محصور أكثر أمره فى نطق الحروف المتحركة أو فى مواضع الوقف ، وهذه مسائل ابتدعت فى تاريخ متأخر ، فلا مساس لها بمصحف عثمان» إلى أن قال : ـ «والنتيجة التى نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هى أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقاً فحسب ، بل كان كما تدل عليه الوقائع كاملاً ، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أى شىء من الوحى ، ونستطيع كذلك أن نؤكد استناداً إلى أقوى الأدلة ، أن كل آية من آيات القرآن دقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد» .

وهكذا شذ القرآن وانفرد بشهادة العلماء من غير المسلمين - بمحافظته على سلامة نصه على اختلاف العصور وتعاقب القرون - وعلى تباعد البيئات واختلاف الأحزاب والقوميات والجنسيات التى تدين بالقرآن .

ثبات معانى القرآن ومراميه على الزمن :

وإذا كانت نصوص القرآن المادية قد ثبتت على الزمن وسلمت من التحريف والتصحيف والتبديل والتغيير - فإن معانيه ومراميه ومبادئه لم تكن أقل ثباتا على الزمن وصروفه من مبانيه - وهى خاصة أخرى من خصائص القرآن التى ينفرد بها من بين

الكتب وآية من آيات إعجازه . فما من كتاب فى أى موضوع من الموضوعات - إلا ويفقد جدته على مر الزمن وتبلى معانيه مع تطاول العهد . فدائرة المعارف البشرية فى تطور مستمر - وكل مرحلة من مراحل التطور الإنسانى تحمل فى ثناياها عدة تغييرات وانقلابات وتحولات فى المعارف البشرية . وقد شهد العالم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انقلاباً كأعظم ما طرأ على البشر من انقلابات - مما جعل جميع الكتب التى استطاعت أن تعيش عدة قرون من الزمن باعتبارها خلاصة العلم والمعارف البشرية - لا تقوى على الحياة يوماً واحدًا فى ظل هذه المعارف الجديدة . وحسب الإنسان أن يشير إلى كتب أرسطو العلمية وكيف ظلت حجر الزاوية فى علوم الإنسانية قرابة ألفين من السنين - فلما جاء القرن التاسع عشر باكتشافاته ومعارفه فقدت هذه الكتب الكثير من سلطانها إلا من الناحية التاريخية بعد أن أثبت العلم بطلان الكثير من آرائها ونظرياتها فى المسائل الطبيعية والفلكية والجغرافية . وكثيراً ما يشعر الإنسان الحديث بالسأم والملل بل والزهد فى مطالعة أى كتاب علمى نشر قبل الحرب العالمية الأولى أى منذ ثلاثين سنة فقط ، وما ذلك إلا لعظم تأثير الحرب فى الأفكار والأنظمة والمعارف البشرية والحقائق العلمية .

وقد بدأنا الآن نسمع ولما تنته هذه الحرب أن أى كتاب علمى أو فنى كتب قبل هذه الحرب لن يقوى على الاستمرار طويلاً بعدها - لأن العالم مقبل على انقلاب عجيب فى ظروفه وأحواله ومعارفه سيتضاءل إلى جواره انقلاب القرن التاسع عشر . فما أعجب أن يثبت القرآن بمعانيه فى وجه هذه الانقلابات والتطورات بحيث لا يفقد جدته على مر الزمن ولا تتبدل معانيه .

القــرآن والعــلم

ولا يستطيع العلم الجبار أن ينال من آيات القرآن أو يلقى ظلاً على بعض معانيه ، بل على العكس من ذلك كلما اتسعت آفاق العلم واكتشافاته ، كلما زادت آيات القرآن جلاء ووضوحاً كلما أزيح الستار عن أسراره وألغازه . حقا إن القرآن ليس كتاباً علميًّا بالمعنى الفنى فهو لا يتوفر على دراسة فرع معين من فروع العلم ، ولا يبحث مسائله ومشكلاته ويعالج نظرياته ، ولكن القرآن مع ذلك قد تعرض بصفة عامة لكل ما فى هذا الكون من ظواهر ومشاهد ونواميس طبيعية واجتماعية ، وأشار إلى الحياة وإلى الموت ، وإلى الكواكب وإلى النباتات ، وإلى السنن الكونية مستحثا العقل البشرى لاستكناه أسرار الطبيعة والجرى فى طلب الحقيقة ، والتفكر والغوص إلى أعماق الأشياء ، بحيث لا يكاد

يوجد علم من العلوم البشرية لم يمسه القرآن عن قرب أو عن بعد ، وبحيث يدخل كثير من آيات القرآن فى دائرة المباحث العلمية البحتة ، بل إن جميع الكتب الإسلامية العربية القديمة فى مختلف فروع العلم سواء فى الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الكيمياء ... إلخ ، نراها تبدأ كلها بآية من الآيات تتخذها عنواناً لمبحثها وشعاراً عليه . وقد كان ذلك قمينا بأن يحدث التصادم بين آيات القرآن المكتوبة منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان وبين مقررات العلم الحديثة ، ولكن هذا التصادم لم يقع ، بل على العكس قام نفر من العلماء يفسرون آيات القرآن على ضوء آخر الاكتشافات العلمية ولم يكن هذا النفر من رجال الدين فقط ، بل من رجال العلم نفسه . فهذا رجل كالمرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل كبير أطباء مصر قد راح يبرز المطابقة العجيبة بين آيات القرآن وآخر ما انتهى إليه العلم الحديث فى علم الأجنة .

خاصية الأسلوب القرآنى :

وأستطيع أن أؤكد وأنا مطمئن إلى أننا سنستطيع دائماً أن نفسر القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث مهما انتهى إليه هذا العلم من تطورات . ويرجع ذلك إلى ما فى عبارات القرآن وتركيباته من مرونة ، وما فى معانيه من مرونة كذلك ، بحيث تجعلها قادرة على قبول تفسيرات مختلفة تتطور بحسب الزمان والمكان . انظر مثلاً إلى قول القرآن الكريم «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون[1] » ففى هذه الآية يعدد القرآن وسائل المواصلات التى لم تعرف البشرية غيرها ألوفاً بعد ألوف من السنين . فالحصان والبغل والحمار هى وسائل المواصلات التى لم يعرف غيرها أحفاد آدم ممن شرعوا فى تأليف هذه الحيوانات ، وهى نفسها وسائل المواصلات التى لم يعرف سواها نابليون فى مستهل القرن التاسع عشر الميلادى ، فلو أن آية القرآن وقفت عند حد ذكر الخيل والبغال والحمير كوسائل للمواصلات لاصطدمت مثل هذه الآية مع التطور الذى انتهينا إليه حيث يوشك الحمار والحصان والبغل أن ينقرض بين ظهرانى الشعوب المتحضرة . ولكن هذه الفقرة الأخيرة من الآية «ويخلق مالا تعلمون» قد جعلت الآية تستوعب كل ما عرفنا حتى الآن من طيارات ودبابات وسيارات ودراجات . بل وتستوعب كل ما يمكن أن يجد فى مستقبل الأيام من آيات ومعجزات يخلقها العقل البشرى . وانظر إلى قول القرآن فى

---

(١) النحل ٨ .

إحدى آياته «فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون» فالقدامى يفسرون المقصود بعبارة «وما لا تبصرون» بالجن والأشباح والأرواح . على أن هذه الآية يمكن أن تكون فى نفس الوقت تفسيراً لهذا العالم الضخم الذى لم تكتشفه الإنسانية إلا منذ أمد قريب جدا . وأعنى به عالم الميكروبات والجراثيم . هذه الأحياء الميكروسكوبية . والتى تملأ علينا الهواء والماء وتفعل فى حياتنا وتقتل أجسادنا وتتلف غذاءنا . وتفعل فينا بالخير والشر بغير انقطاع مع أننا لا نراها ولا نلمسها . فما أصدق أن تكون عبارة الآية «وما لا تبصرون» إشارة إلى هذه الأحياء . وغداً لو أصبح علم تحضير الأرواح حقيقة مقررة . فسيكون من المحقق أن يفسر المقصود بالآية بأنه هذا العالم الروحانى . وهكذا تتسع عبارة قصيرة من عبارات القرآن لكل تطورات العلم ومعتقدات البشر جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن .

آيات يفسرها العلم الحديث :

بل إن الباحث فى القرآن وآياته يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك كله فيقرر أن القرآن يتضمن الكثير من الآيات التى كانت غامضة مبهمة فى الزمن القديم فانحلت عقدتها تحت ضوء العلم الحديث ، فكأن معانى القرآن لا تساير الزمن والعلم فحسب . بل إنها تظل كالكنوز الدفينة مختفية عن الأنظار . بعيدة عن الاستغلال يأتيها القادرون من بنى الإنسان فيعملون على استخلاصها واكتشافها والانتفاع بها . مثال ذلك هذه الآية التى تشير إلى أصل الإنسان وأنه خلق من علق «خلق الإنسان من علق[1]» .

فالعالم الإسلامى القديم كان لا يفهم من هذه الآية إلا ظاهرها اللفظى فيقول فى تفسيرها «العلق جمع علقة» ثم ينتقل سريعاً إلى غيرها من الآيات حتى إذا اكتشف الميكروسكوب فى عصرنا الحديث ، تبين لنا أن هذا الماء الذى ينتقل من الذكر إلى الأنثى والذى هو أصل الحياة البشرية ليس فى حقيقته إلا ملايين الملايين من الحيوانات المنوية الدقيقة التى تشبه العلق فى شكلها . وهكذا ينحل هذا السر الرائع الذى تنطوى عليه هذه الآية ، والذى لم يظهره ويطلعنا عليه إلا اكتشافات العلم الحديث .

وشبيه بهذه الآية آية فى نفس موضوع الحياة لم يدرك الأقدمون معناها على حقيقته فكانوا يفسرونها حسبما يتفق مع عقولهم وأفكارهم حتى إذا كان العلم الحديث جلاها لنا

---

(١) العلق ٢

وأظهر سرها ، وهى قول القرآن «وأرسلنا الرياح لواقح[1]» فما كان البشر يعرفون قبل عصور متأخرة جدا أن النبات كائن كالإنسان والحيوان وأنه يتألف من ذكر وأنثى وأنه يتلاقح كما يتلاقح بقية الأحياء ، وأن الرياح فى كثير من الأحيان هى واسطة هذا التلاقح .

وهكذا تشرق آيات القرآن وتضئ بانعكاس أشعة العلم الحديث عليها .

تنبؤات القرآن بالغيب :

وثمة خصوصية رابعة اختص بها القرآن من بين سائر الكتب التى يمكن أن توضع إلى جانبه وهى تنبؤاته بكثير من الحوادث الغيبية التى تقع فى المستقبل ، ثم جاءت الحوادث مصدقة لما يتنبأ به . وقد اعتاد الكتاب أن يشيروا فى هذا الموضوع إلى نبوءة القرآن الخاصة بانتصار الروم بعد هزيمتهم على أنها أظهر مثل لذلك ، ولكن الحق أن آيات القرآن تفيض بالإشارة إلى حوادث مختلفة صدقتها الأيام . ونضرب مثالاً لذلك سورة اللهب «تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد» فهذه الآيات من أول ما نطق به محمد صلوات الله وسلامه عليه من القرآن أى فى مستهل الدعوة المحمدية . وهى كما هو واضح تتضمن لعنة أبدية لرجل من رجالات قريش ، ولقد رأينا فى تاريخ الدعوة المحمدية أن كثيرًا ممن خاصموها وعاندوها وكانوا قساة على معتنقيها قد تحولوا فيما بعد إلى أشد الناس تطرفًا فى نصرتها واستحقوا بذلك العفو والمغفرة ، بل والثواب والمكافأة ، فماذا كان يصير الحال يا ترى لو أنه قدر لأبى لهب أن يكون من بين هؤلاء الذين آمنوا بمحمد وصدقوا به وتحمسوا لنصرة الإسلام ، ولكن القرآن قضى على أبى لهب باللعنة من بين سائر قريش فمات فى اللعنة مذمومًا مدحورًا .

«والله يعصمك من الناس[2]» ووعد القرآن الرسول بأن الله سيعصمه من الناس فلا ينالونه بأذى أو بالأحرى أنه لن يموت قتيلاً بأيدى البشر ، فكان الذى وعده ، ومات محمد بن عبد الله عن ثلاث وستين سنة ، مات على فراشه وبين أهله على الرغم من المؤامرات التى حيكت لقتله واغتياله وعلى الرغم من هذه الثلاث والعشرين سنة التى قضاها فى كفاح وجهاد مستمر لم يضع فيها سلاحه يوماً واحداً .

(١) الحجر ٢٢ . (٢) المائدة ٦٧ .

«لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه[1] » ، «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[2] » .

وهكذا وعدت بعض الآيات بجمع القرآن وحفظه من التبديد والضياع ، فكان الذى وعدت به وتنبأت كما رأينا فيما سبق .

ووعد القرآن المجاهدين الأوائل بدخول مكة آمنين مطمئنين فاتحين منتصرين ، وهى التى نصبت نفسها لحربهم وإهلاكهم وتطهير ظهر الأرض من إيمانهم ، وذلك فى قوله «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين . محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون[3] »

فكان الذى وعد به القرآن وتنبأ ، ودخل المسلمون مكة معتمرين حاجين ، ثم دخلوها بعد ذلك فاتحين ، وتمت بذلك كلمة ربك صدقاً وعدلاً .

وفى العام العاشر للهجرة تلا الرسول على المسلمين فى حجة الوداع آخر آيات القرآن «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[4] » . فكانت هذه الآية نبوءة بانتهاء رسالة محمد ، فلم ينقض العام حتى كان الرسول يغادر هذه الحياة الدنيا ليلحق بالرفيق الأعلى راضياً مرضياً ، بعد أن أدى الأمانة وبلّغ الرسالة .

ووعد القرآن المسلمين عامة فى حياة محمد وبعد موته أن يستخلفهم فى الأرض ويجعلهم أئمة البشر ، ويجعلهم الوارثين «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا[5] » .

وقد صدق القرآن وعده وتمت نبوءته ، فكان العرب هم خلفاء الأرض ، وحكمت فئة قليلة منهم شعوب ذلك الزمان .

وأخيراً وليس آخراً أنبأ القرآن بكل هذا التطور العلمى العجيب الذى يغمر الإنسانية ويقربها فى كل يوم إلى إدراك سر الوجود والإيمان بحقيقة الخلق والخالق فقال وهو أصدق القائلين .

---

(1) القيامة ١٦ ، و١٧ .
(2) الحجر ٩ .
(3) الفتح ٢٧ .
(4) المائدة ٣ .
(5) النور ٥٥ .

«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شئ محيط[1] » .

وحسبنا هذا القدر إشارة لما تتضمنه آيات القرآن من إعلام بالغيب والمستقبل وما تنبأت به من حوادث وتحولات لم تلبث أن صدقتها صروف الزمان .

ثبوت الوحى المحمدى :

وهكذا نرى أنفسنا مضطرين على أى ناحية تصدينا فيها لدراسة الوحى المحمدى إلى الإيمان به والتصديق بحقيقته ، سواء اتخذنا شخصية الرسول وتاريخ حياته وتطوراتها وما أحدثه فى الكون من تأثير سبيلاً للاقتناع ، أو اتخذنا نص القرآن وتحليل عباراته والوقوف على خصائصه ، طريقاً للتصديق والإيمان .

والحق أنه ما كان لمحمد العربى الذى يجهل القراءة والكتابة[2] المترعرع بين شعب أمى جاهل ، مجرد عن كل حضارة أو مدنية وبعيد عن كل اشتغال بالعلوم والتأليف ، ما كان لمحمد وهذه نشأته أن يبتدع هذا الكتاب الذى حوى هذه الخصائص كلها ، والذى تنبأ بالغيب وساير الزمن ووقف فى وجه التطورات العلمية وأحاطه البشر بالتقديس والتكريم .

ما كان لمحمد العربى الفقير اليتيم أن يحدث فى الدنيا كل هذا التأثير عن طريق هذا الكتاب العجيب ، إلا أن تكون روحه قد استضاءت بنور من هذه المشكاة الأزلية التى أشرقت على الأكوان ببهائها وأبدعت هذا الخلق بمحض إرادتها .

لا مناص ولا جدال ولا مراء أو تشكك فى أن محمداً كان صادقاً أميناً فيما يقوله عن نفسه ويعلنه من أنه لا ينطق عن الهوى ، وإنما هو وحى يوحى ، علمه شديد القوى .

حقيقـة الـوحى :

بقى علينا أن نتساءل عن علة هذا التشكك الذى يساور بعض المنكرين ولا يزال يساورهم إذا ما أشير أمامهم إلى هذا الوحى الذى تقطع كل الآثار المادية بضرورة وجوده .

---

(١) فصلت ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) حاول البعض أن يفسر كلمة الأمى على غير المقصود منها مع أنها لا تحتمل أكثر من عدم معرفة القراءة والكتابة .

أعتقد أنه ليس هناك ما يثير التشكك فى حقيقة الوحى إلا هذه الصور المادية التى يحاول البعض أن يصور بها الوحى من أنه جسم معين على صورة من الصور ، له أجنحة يطير بها وله أيد وله أقدام وحوافر ، فكان من الطبيعى أن ينكر العقل الحديث مثل هذه التصورات ، كما أنكر فى نفس الوقت كل فكرة تتحدث عن تجسد الإله وحلوله فى أى شكل من الأشكال المادية ، وأحسب أنه ليس هناك ما يدعو مطلقاً إلى الحرص على تصوير الوحى بهذه الصورة المادية المزعومة ، فلا آيات القرآن الكريم ولا الأحاديث الصحيحة بالتى تصور الوحى صورة مخصوصة ، وكل النصوص تقف عند حد تقرير وجوده دون التعرض لتفاصيل صورته أو حقيقته .

من الثابت حقا أن الرسول الكريم قد رأى فى مستهل الدعوة صورة معينة أيقن يقيناً جازماً أنها صورة ملاك الرب ، ولكنه لم يفصل لنا هذه الصورة ، وقد أكد القرآن يقينه ودل عليه فى قوله «ولقد رآه بالأفق المبين»[1] وأشار أكثر من حديث إلى هذه الواقعة ، فوجب الإيمان بصحتها والتصديق بها ، ولكن القرآن الكريم كله والأحاديث فى مجموعها قد خلت بعد ذلك من الإشارة إلى الوحى إلا باعتباره حالة روحية معينة تنتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أو بالأحرى تغمر قلبه بفيض من النور والعرفان ، أو كما يقول القرآن «وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين»[2] . ولقد تكررت الإشارة فى القرآن أكثر من مرة إلى أن قلب الرسول هو مهبط الوحى ومستقره .

وثمة آية أخرى فصلت من أمر الوحى ما أجملته بقية الآيات ، وهى ما جاءت فى ختام سورة الشورى «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ـ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم» .

ولعل هذه الإشارة هى أطول حديث ورد فى القرآن عن حقيقة الوحى وهى قاطعة فى أن هذا الوحى ليس إلا روحًا من أمر الله لا شكل لها ولا حجم ولا وزن ، وإنما هى

(١) التكوير ٢٣ .
(٢) الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥ .

حالة من الحالات لا يستطيع العقل أن ينفذ إلى كنهها ، فهى كالحياة والموت ، أو هي الروح التى يقطع العقل البشرى بوجودها ، إذ يرى آثارها فى نفسه ككائن حى ، ويرى آثارها فى كل الأحياء التى تحيط به ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك من أمر هذه الروح إلا أنها موجودة . وهذا هو الوحى ، فهو موجود لا سبيل إلى إنكاره ، وهذه هى آثاره ، ولكن من العبث التعرض لكنهه ومحاولة إدراك جوهره عن طريق الحواس من لمس وشم وسمع وبصر.

الوحى ذروة الإلهام :

وأحسب أن تصور الوحى فى نهاية الأمر على أنه تلقٍّ للعلوم والمعارف وإدراك حقائق الكون والاتصال بسره عن غير طريق التحصيل العقلى - ولكن عن طريق الإعلام الخفى من قوة علوية - يؤمن الموحى إليه أنها قوة الخالق لهذا الكون المهيمن عليه - أحسب أن هذا التصور ليس بالمشكلة التى يستعصى على العقل حلها وليس بالقول الذى لا يستطيع هضمه واستساغته . فمن الواضح المتفق عليه أن جميع العلوم والمعارف قد نفذت إلى العقل أول ما نفذت عن طريق قوة مغايرة لقوة التفكير الذى يعمل وفق قواعد معينة وضوابط مقررة وهى قوة الإلهام ، فعن طريق الإلهام الخفى لا العقل من غير شك نطق الإنسان أول ما نطق باللغات وأرسل عقيرته بالغناء ونظم الشعر ورسم وبنى وشيد . وليس أدل على ذلك من أن العربى الجاهل قد قال الشعر قبل أن يعرف عن طريق العقل أن للشعر أوزاناً وقوافى . ونطق باللغة العربية الفصحى قبل أن يعرف عن طريق العقل أن للكلام إعراباً ونحواً وصرفاً . وبنى الإنسان ونقش على الصخر قبل أن يضع لذلك كله قواعد ونظريات . وأشعل النيران وزرع الأرض وزاول كل مظاهر الحضارة قبل أن يستنتج بعقله الأصول والقواعد التى تقوم عليها هذه المظاهر . فالإنسان قد فعل دائماً الشئ قبل أن يدرك كنه ما فعل . ولا مراء فى أن الخاطر الأول الصحيح الذى يرد على عقل الإنسان قد انعكس على صفحته من قوة خارجة عن نطاقه - وهو ما اتفق العلماء على تسميته بالإلهام . وهو أمر شائع ومعروف ومألوف وما من شخص معنى بأمر من الأمور أو مشتغل بحل مسألة من المسائل أو مزاول لعمل أو فن من الفنون إلا وهو يحس آثار الإلهام فى عمله أو فى فنه على اختلاف وتفاوت فى مراتب الناس واستعدادهم الروحى والنفسى . فالشاعر العبقرى لا يكاد يشرع فى نظم قصيدة من قصائده حتى يرى المعانى والألفاظ تواتيه فى سهولة عجيبة تسرع على لسانه أو قلمه بأسرع من ورودها على

خاطره . حتى إذا فرغ من نظم قصيدته كان هو أول الناس إعجاباً بما قال أو كتب وأكثر الناس تعجباً لاستطاعته إنتاج ما أنتج مما جعل الأقدمين يتصورون أنه لا بد أن يكون للشعر آلهة أو شياطين من الجن توحى إلى الشعراء أشعارهم . وقل مثل ذلك عن الموسيقيين وهم يؤلفون بين هذه النغمات والأصوات ليخرجوا على الناس بقطعة فريدة ، فقد يقف الإنسان وهو يترنح من النشوة مذهولاً مشدوهاً لا يدرى بأى قوة تألفت هذه النغمات ومن أى معين تدفقت هذه الأصوات . وبنفس الشعور يطالع الإنسان روائع الأدب ويتأمل آثار الفنانين العظام من صور وتماثيل . وإذا كان الإلهام فى دائرة الفنون ظاهر الأثر كل الظهور فهو فى دائرة العلوم والاكتشافات لا يقل ظهوراً ؟ فما من عالم من العلماء الفطاحل أو مكتشف من المكتشفين أو مخترع من المخترعين إلا وهو يعزو اختراعه أو اكتشافه إلى خاطرة مرت بذهنه . فكانت هى الشرارة التى استضاء بها عقله . فكان اختراعه أو اكتشافه . وما هذا الخاطر أو الفكرة الطارئة إلا الإلهام . ولذلك فإن جهابذة العلماء جميعاً يؤمنون بالإلهام ويعترفون بسلطانه .

وإذا كنا جميعاً نبادر إلى تصديق الشاعر والكاتب والموسيقى والعالم وهو يحدثنا عن استلهامه ما قال أو فعل ، فلا يحق لنا أن نمارى أو نتشكك لحظة فيما يقوله النبى عن نفسه من أنه يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بقوة الوحى الخفى ، ونحن نرى آثار هذا الوحى تقطع بأنها فوق مستوى البشر الملهمين فضلاً عن البشر العاديين .

ثبوت النبوة المحمدية ثبوت لكافة النبوات :

وما دام التحليل العلمى والمنطق انتهى بنا إلى وجوب الإيمان والتصديق بالوحى المحمدى ، فإن هذا يضطرنا إلى الإيمان والتسليم بالنبوات بصفة عامة على أنها حالة روحية معينة يتلقى فيها النبى وحياً من لدن قوة خفية ، يتأكد لديه أنها قوة الخالق ، فينطلق فى الحياة متأثراً بتعاليم هذا الوحى داعياً الناس إلى اتباع هذه التعاليم السماوية ، والتى تتلخص دائماً أبداً فى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما يستدعيه ذلك من حساب وعقاب وثواب وجزاء على ماآتاه الإنسان من صالح الأعمال فى هذه الحياة الدنيا وما اقترفه من آثام وسيئات .

فإذا تأكد لدينا أن شخصاً من الأشخاص دعا إلى جوهر هذه التعاليم ، وكانت حياته وسيرته فى الناس على درجة رفيعة من الكمال الروحى والخلقى ، وأنه أعلن عن

نفسه أنه نبى ورسول من رب العالمين ، ولم تلبث الحوادث أن صدقته بما أحرز من نجاح لدعوته وانتشار لسلطانه الروحى وخلود لتعاليمه ، فقد وجب التصديق بنبوة هذا الشخص ورسالته وتلقيه الوحى من رب العالمين.

وقد انفرد القرآن الكريم من بين سائر الكتب الدينية الموجودة بين أيدى البشر بتقرير هذه الحقيقة فحث أتباعه بل حتم عليهم أن يؤمنوا بالرسل جميعاً بصفة عامة وأن لا يفرقوا بين أحد منهم وأن يؤمنوا بأنهم قد استمدوا أنوارهم من مشكاة واحدة ، وليس لهؤلاء الرسل زمان أو مكان معين ، وإنما قد وجدوا فى سائر المجتمعات على اختلاف العصور «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[1] » وأن البعض منهم مشهور ومعروف والبعض منهم قد انقضت ذكراه بانقضاء رسالته ، والبعض منهم ذكره القرآن وأحصاه ، والبعض منهم لم يذكره القرآن بصريح اللفظ وإن كان قد أشار إليه على سبيل التضمين «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً[2]»..

علم الأديان المقارن ووجوبه :

على أن الرسل وإن اتفقوا جميعاً فى جوهر رسالتهم ، على أنهم يدعون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وصالح الأعمال ، فمما لا شك فيه أنهم اختلفوا فيما بينهم اختلافاً كبيراً فى التفاصيل تبعاً لتباين البيئات واختلاف الزمن والمهمة التى تصدى كل رسول منهم لعلاجها ، فالرسول الذى يبعث إلى بنى إسرائيل الذين عبدوا الذهب وقدسوا المال ولخضوا الحياة فى جمع المال واكتناز الذهب ، لا بد وأن تفترق تعاليمه كل الافتراق عن رسول جاء وسط بيئة فقيرة ليس فيها من يمتلك ذهباً ولا فضة ، وقد يكون الفقر والكسل والقعود عن الكسب والسعى هو آفتهم الكبرى . ومن هنا كان لا بد لكل عصر ولكل بيئة من رسالة تتناسب مع الظروف ، وتتمشى مع تطورات الزمن وما انتهى إليه

---

(١) فاطر ٢٤ .
(٢) النساء ١٦٣ – ١٦٥ .

المجتمع من رشد واكتمال . ولقد رأينا فى الاستعراض السابق لتطور الأديان كيف تدرجت من العقائد الساذجة المحلية المستمدة من ظروف كل بيئة إلى أن أصبحت عقائد عالمية واسعة الأفق شاملة التطبيق . هذا التطور والتدرج ينطبق كل الانطباق كذلك على جماعة الأنبياء والمرسلين ، فنلحظ تطوراً مستمرا فى تعاليمهم بحيث يتفوق المتأخر دائماً عن السابق . وقد ألمع القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى قوله «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس[1] » هذه الدرجات فى الحقيقة لا تتصل بشخصياتهم التى يجب اعتبارها فى مرتبة واحدة ، وإنما تتعلق بموضوع رسالتهم وخصوصيتها أو عموميتها ... وتقدمها أو تأخرها . ومن المقطوع به والمقرر أن اللاحق ينسخ السابق وليس العكس ، ومن هنا جاء التفاوت فى مراتب الرسل أو بالأحرى فى تعاليم الرسل .

اختر لنفسك :

والإنسان مع إيمانه بالرسل بصفة عامة مطالب أن يتحرى لنفسه من بين التعاليم المنسوبة إليهم ما يرتاح إليه عقله وضميره ، وما يتفق مع مقتضيات عصره وحياة جيله . وهذا من شأنه أن يفتح باب المقارنة بين الأديان على مصراعيه . وهو أمر واجب ولازم وخاصة فى عصرنا الحديث ، بعد أن تيسرت أسباب هذه المقارنة ؛ واتصل الشرق بالغرب وتقاربت الأمم والشعوب . وسهل الاتصال بين أى جماعة وأخرى . حتى ليوشك العالم بسائر أطرافه أن يصبح أمة واحدة . فصار لزاماً على كل متحضر ومثقف ومتعلم أن يختار لنفسه من بين هذه التعاليم المتعددة هنا وهناك ما يراه أكثر صواباً وإحكاماً وتحقيقاً لصلاح الإنسان وكماله .

ولقد راح الوقت الذى كانت تنطوى فيه كل جماعة على ما عندها من أفكار وعلوم وأديان فتنكر كل ما يخالفها . وتعادى كل ما خرج عن دائرة معارفها . وجاءت الساعة التى يصبح فيها البشر أمة واحدة تؤمن بإله واحد . وتخضع لتعاليم مشتركة . وتتفق على مبادئ مقررة . وتلك هى رسالة الإسلام آخر الرسالات طرا وأوسعها مدى وأشملها تطبيقاً .

---

(١) البقرة ٢٥٣ .

الفصل السابع

الإسلام وسائر الأديان

الإسلام وتفوقه على سائر الأديان ـ انتشار الإسلام فى العصر الحديث ـ انتشار تعاليم الإسلام ـ التوحيد المطلق ـ التوحيد فى اليهودية ـ التوحيد فى الديانة المسيحية ـ آلهة ثلاثة أم أقانيم ثلاثة ـ إلغاؤه الكنيسة والمعبد وطبقة الكهان ـ المسجد ليس كنيسة ـ الإسلام دين الأخوة العالمية ـ رسائل محمد إلى الملوك والقياصرة ـ الإسلام يؤاخى بين الأديان ويوفق بينها ـ الإيمان والعمل الصالح ـ الإسلام يحتفظ بحق الهيمنة ـ التكافل الاجتماعى فى الإسلام

الإسلام وتفوقه على سائر الأديان :

لا يكاد الباحث المدقق يقارن بين الأديان العالمية المختلفة والمشهورة فى الوقت الحاضر وعلى رأسها اليهودية والمسيحية والبوذية والبرهمية والكونفشيوسية والإسلام ، حتى يقطع بتفوق التعاليم الإسلامية على غيرها من التعاليم ولا يستطيع أن يحبس إعجابه بهذا الدين العظيم الذى تدل كل الدلائل على أنه الدين الحى الذى يوشك أن يغمر العالمين بمبادئه .

انتشار الإسلام فى العصر الحديث :

لقد ذهب العرب وانقضت أيامهم وزال سلطان المسلمين من الدنيا ، ومع ذلك فلا يزال علم الإسلام خفاقاً ، بل لا يزال يغزو فى كل يوم قلوباً جديدة ، وينفذ إلى بيئات جديدة . وحسب الإنسان أن يطالع تقارير المبشرين المسيحيين عن مدى انتشار الإسلام فى أفريقيا والهند ، بالرغم من كل الجهود التى تبذل للحيلولة دون ذلك ، لكى يؤمن بقوة الإسلام وتعاليمه ، ففى كل يوم يدخل فى الإسلام مئات بل ألوف فى الهند

الإنجليزية[١] ، ولن تجد مسلماً واحداً ينسلخ عن دينه ليعتنق البوذية أو البرهمية أو المسيحية الحاكمة . وما يحدث فى الهند يحدث مثله فى الصين ، وفى جزر الهند الشرقية ، وفى كل بلد يرفع فيها لواء الإسلام .

وقد يقول قائل إن انتشار الإسلام قاصر على الأمم الشرقية القديمة المغلوبة على أمرها ، ولكن المشاهد أن الإسلام يشق طريقه فى قلب أوربا وأمريكا المسيحية ذاتها[٢] ، على الرغم من غلبتها على المسلمين ، وانتشارها فى عالم القوة والسلاح . ففى انجلترا مثل ما فى ألمانيا وفرنسا وسويسرا ، بضع مئات من الأوربيين الذين دخلوا حظيرة الإسلام بعد دراسة واقتناع ، وقد يبدو هذا العدد قليلاً أو ضئيلاً ولكنك لن تستطيع أن تعثر على عدد يماثله ممّن تركوا الإسلام ليعتنقوا المسيحية مهما كانت المغريات والدوافع . على أن الإسلام وإن لم يظفر إلا بعدد محدود من الأوربيين يعتنقون الإسلام ويشهرون إسلامهم ، فهو قد ظفر بما لا شك فيه بإعجاب جل العلماء من المستشرقين الذين قصدوا الدراسة ، والذين ألفوا الكتب الطوال فى محاسن الإسلام ونبى المسلمين وروعة تعاليمه ، حتى أصبحنا نحن المسلمين نغترف من هذه الكتب ما يضاعف إيماننا بديننا ، وما يؤكد حبنا وتعظيمنا لنبينا . وليس وراء ذلك دليل على انتصار الإسلام فى ظل العلم والحضارة .

انتشار تعاليم الإسلام :

على أن انتصار الإسلام الأعظم يتجلى فى انتشار مبادئه وتعاليمه وسط العالم المتحضر وإن أنكروا أو جهلوا أن ما يطبقونه هو تعاليم الإسلام بنصها ، فالتشريعات الوضعية فى أوربا وأمريكا فى هذه الأيام بقدر ما تخالف التعاليم المسيحية كل المخالفة على قدر ما تنطبق على تعاليم الإسلام حرفيا[٣] . وهكذا نرى الإسلام يشق طريقه على الرغم من الصور المشوهة التى بات المسلمون يعطونها عن الإسلام ، وليس وراء ذلك دليل على صلاحيته الكاملة المطلقة وتفوقه على سائر الأديان التى تنكمش وتتقلص على مز الزمن

---

(١) لا تزال هذه الظاهرة سائدة حتى اليوم (١٩٦٤) - بعد أن استقلت الهند والبلاد الافريقية «المؤلف» .

(٢) أذاعت شركات الأنباء العالمية على ما جاء فى جريدة الأهرام يوم الجمعة ١٩٦٤/٢/٢٨ نبأ إسلام «كلاسيوس كلاى» بطل العالم فى الملاكمة للوزن الثقيل - وقد فعل ذلك غداة انتصاره العظيم على بطل العالم السابق «ليستون» معلناً فى أمريكا أن الإسلام هو دين السلام والأخوة البشرية .

(٣) كما فى تشريع الطلاق المحظور فى المسيحية - والذى يجيزه الإسلام .

وتحت تأثير انتشار العلم والحضارة وتطور البشرية . ولننتقل الآن إلى دراسة خصائص الإسلام التى ضمنت له هذا التفوق على بقية الأديان وستضمنه له إلى أبد الآبدين .

التـــوحيـــد المطـــلق :

فأما أول هذه الخصائص التى يمتاز بها الإسلام فهى دعوته الصريحة الناصعة القوية إلى التوحيد الكامل المطلق ، بما يتفق والتفكير السليم الناضج فى ذات الله الخالق . فالله فى تعاليم الإسلام منزه عن كل صورة وشبيه - منزه عن الحلول فى مخلوقاته ، منزه عن أن يُرى فضلاً عن أن يُلمس . الله ليس له أول ، وليس له آخر - وليس له قرين أو شريك . الله واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . الله هو الكمال المطلق ، المريد الفعّال ؛ بغير حركة أو انفعال ، هو الخالق البارئ المصور ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، هو سبب الكون الأول وهو سره وهو روحه وهو سيده ومدبره ، دون أن يستطيع العقل البشرى أن يدرك كنهه أو أن يتصوره على أى صورة من الصور ، لأنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير .

وهكذا ارتفع الإسلام أو بالأحرى محمد بن عبد الله بالألوهية إلى درجة لم يسبقه إليها إنسان من حيث الكمال والتوحيد والتنزيه . وأعلن حرباً شعواء على الشرك بالله ومظاهره من تماثيل ونصب وهياكل وأحبار وطقوس ومراسيم . فهدمت الأوثان - وطمست الصور - وحرر العقل البشرى من ربقة الذل والاستعباد والأوهام والخرافات - وارتفعت الكرامة البشرية عن أن تسجد لحجر أو شجر أو حيوان أو صنم من الأصنام أو إنسان من الناس . ونجح الإسلام فيما فشلت فيه سائر الأديان فتطهرت بلاد المسلمين من عبادة الصور والأوثان فلا تسجد الجباه إلا للحى القيوم الذى لا صورة له ولا مكان ، ولا ترتفع الصلوات إلا لله العلى القدير المهيمن على الأرض والسموات - ولم يستطع دين من الأديان أن يتطهر من شوائب الوثنية كما فعل الإسلام ، وهذه هى الكنائس المسيحية الكاثوليكية فى عهد النور والعرفان تغص بالصور والتماثيل والأنصاب التى يسجد لها المسيحيون - إيماناً منهم أنهم يسجدون لصورة الله الحى فى شكل هذا الإنسان المعلق على الصليب والمضرج بدمائه - أو هذا القديس الطويل اللحية الأحمر الخدين ، وإذا كانت الكنائس الشرقية قد سلمت من هذا اللون من الوثنية فليس ذلك إلا تحت تأثير البيئة الإسلامية والتعاليم الإسلامية .

أما الحال فى هياكل البوذيين والبراهمة وأصحاب الديانات الأخرى فحدث عنها ولا حرج . فهى الوثنية فى مراحلها الأولى الساذجة . ولن تجد غير الإسلام ديناً لا يعتمد على الهيكل ولا يعبد الرب أمام نصب من الأنصاب وإنما الدنيا كلها مسجد ومعبد لعبادة الله «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» وحيثما أدركت الإنسان الصلاة فليصل . فصلاته ترتفع على الفور إلى الخالق الديان . ـ وليس هذا كله إلا أثراً من أثار عقيدة التوحيد الصافية وتنزيه الربوبية عن التشبيه والتجسيد والحلول . وفى هذه الناحية يرتفع الإسلام درجات ودرجات فوق أى دين آخر . حتى من الأديان التى دعت إلى التوحيد مثل دعوته .

التوحيد فى اليهودية :

فاليهودية مثلاً لا تعترف إلا بإله واحد فهى والإسلام سواء . ولكن هذا الرب الواحد لا يختلف فى قليل أوكثير عن أى رب من أرباب الجماعات القديمة ، فهو كأرباب الإغريق أو الرومان أو المصريين القدماء ، الذين ينزلون إلى الأرض ، ويتجسدون فى صورة إنسان ، ويخالطون البشر ويتعاملون معهم ، ويصارعون الإنسان ويصارعهم . وقد يتغلبون على الإنسان أو لا يتغلبون . وقد ورد فى التوراة نص صريح على أن يعقوب تصارع مع الله فلم يستطع الله سبحانه وتعالى أن يصرعه ومع هذا فقد سماه الله إسرائيل بدلاً من يعقوب إشارة إلى أنه جاهد مع الله والناس(١) . وتصور التوراة الرب بشراً سويا بكل العواطف البشرية بل والنقائص البشرية أيضاً فهو يخطئ وهو يندم وهو يتعثر وهو يخجل ويتأسف ، وهو فى نهاية الأمر يحتاج إلى الإنسان كحاجة الإنسان إليه . وتتحدث التوراة عن الله واصفة إياه بأنه رب الجنود الذى يقود جيوش بنى إسرائيل إلى النصر وأنه قد اعتاد دائماً أن يسير فى مقدمة جيوشهم . وقد تطورت هذه الأفكار مع الزمن

---

(١) الإصحاح الثانى والثلاثون تكوين . «فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركنى فقال له ما اسمك فقال يعقوب ، فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت .

وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فنوئيل قائلاً لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى . وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يجمع على فخذه لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا» .

وأصبحت الأجزاء المتأخرة من العهد القديم تتحدث عن ذات الله فى صورة أقرب إلى التنزيه والكمال ، ومع ذلك فقد ظلت الفكرة السائدة على التوراة أن الله هو رب بنى إسرائيل ، وأنهم شعبه المختار المفضل من بين سائر العالمين ، وأن العلاقة التى تربط بنى إسرائيل بالله سبحانه وتعالى هى هذا العقد الذى أبرمه مع جدهم الأول إبراهيم فى أن يعبدوا الله ويكونوا له شعباً مختاراً وفى مقابل ذلك يسكنهم أرض الميعاد «التى هى فلسطين» ويجعل بلادهم تفيض بالسمن والعسل .

وها نحن أولاء نرى حتى فى أيامنا الحديثة أن الصهيونية تطالب بأن تصبح فلسطين وطناً قوميا لليهود بعد أن تنزعها من أصحابها العرب الذين سكنوها ألوف السنين ، وليس لليهود من سند يدعمون به طلبهم الجرى ، إلا هذا العقد المزعوم الذى تم بين جدهم وبين الله سبحانه وتعالى [1] .

وغنى عن البيان أن ذلك كله ليس إلا أثراً من آثار المعانى الوثنية التى لا تزال عالقة بديانة اليهود المعتمدة على التوراة القديمة المشوبة بهذه الشوائب التى أشرنا إليها فيما سبق .

وعلى ذلك فاليهودية لا تستطيع أن تجارى الإسلام فى نظرية التوحيد وتنزيه الله عن كل تشبيه وتجسيد .

التوحيد فى الديانة المسيحية :

وما يقال عن التوحيد وما يشوبه من شوائب فى الديانة اليهودية ، يقال كذلك عن الديانة المسيحية فنحن نصطدم على الفور بمجرد اقترابنا من الدين المسيحى بهذا الإنسان المعلق على الصليب ، والدماء تنزف من جراحاته ، والألم مرسوم على وجهه ، وإكليل الشوك يزين رأسه وأنت مطالب فى العقيدة المسيحية بأن تؤمن أن هذه الصورة هى صورة الله الحى بذاته وأن تركع لها وتكون من الساجدين ..

ولقد أثارت فكرة حلول الله فى جسد المسيح عيسى ابن مريم عدة مشكلات أساسية فى التعاليم المسيحية الأولى ، وسالت من أجلها أنهار من الدماء وافترقت الأمة المسيحية فرقتين كل منها تسعى لإفناء الأخرى . ويدور هذا الخلاف حول طبيعة جسد المسيح البشرى الذى تجلى به على البشر وهل كان جسداً كبقية الأجساد ، يفنى ويتعفن بعد رفع

---

(١) أقام اليهود دولة إسرائيل بالفعل كما هو معروف ـ تأسيساً على هذه الفكرة غير المقبولة .

المسيح إلى السماء . أم أنه كان صورة إلهية بحتة لا تدب إليها عناصر البلى والفناء . وبعبارة أخرى هل كان عيسى ابن مريم وهو يسير بين الناس . هو الرب وقد ارتدى ثوب إنسان وعلى ذلك تكون له طبيعتان . طبيعة الرب من حيث الجوهر . وطبيعة الإنسان من حيث المظهر . أم أن عيسى ابن مريم وهو يسير بين الناس كان يتألف من طبيعة واحدة هى طبيعة الله ؟ ولقد استغرقت هذه المباحث والخلافات جهود المسيحيين الأول وأوقعوا بأنفسهم من المذابح من جراء هذا الخلاف ما يتضاءل إلى جواره كل ما أوقعه بهم الوثنيون من المذابح والاضطهادات .

آلهــة ثـلاثة أم أقـــانيم ثـلاثة

على أن طبيعة المسيح . ونظرية اللاهوت والناسوت . لم تكن هى كل الصعوبات التى اعترضت العقيدة المسيحية . بل إن صعوبة التثليث لم تكن تقل عنها خطراً وحدة . وما تزال حتى اليوم أكبر ما يحمل المسيحيين المتعلمين على الانسلاخ من العقيدة المسيحية .

بدأ تلاميذ المسيح . وبصفة خاصة بولس الرسول يبشر بالمسيح باعتباره ابن الرب . وبالأب باعتباره الرب الأكبر . وبروح القدس رباً ثالثاً . ولم تكن هذه التعاليم إلا أثراً من آثار العقائد الدينية القديمة التى كانت تسود الدنيا فى ذلك التاريخ من غير شك . وأشهرها ثالوث مصر إيزيس وأوزوريس وحوريس . وقد جرت الخلافات بين المسيحيين الأوائل فى درجة الآلهة الثلاثة . وهل هم متساوون كل المساواة أم أنه ينبغى تقديم الأب على الابن باعتباره الأصل الأول . وتقديم الابن على روح القدس ؟

ولقد كانت منازعات . وكانت معارك . انتهت إلى تقرير المساواة التامة المطلقة للأب والابن وروح القدس .

ومن هنا وجد المسيحيون أنفسهم إزاء مشكلة تعدد الآلهة وهو ما جاءت المسيحية بالذات للقضاء عليه . فانتهى الأمر بهم إلى القول بأن الأب والابن وروح القدس ليسوا إلا أقانيم ثلاثة لإله واحد ، أو بالأحرى ليسوا إلا ثلاث معان لحقيقة واحدة . كما لو قلت الشمس ، ونور الشمس ، وقرص الشمس . وكان المنطق يقضى ــ وقد وصل المسيحيون إلى هذا الحد من التسليم بأن الأقانيم الثلاثة ليست إلا أسماء مختلفة لله الواحد الأحد ــ أن يكفوا عن الإشارة إلى هذا التثليث الذى لا يزال يبلبل الخواطر ويحير العقول .

فأين هذا من بساطة العقيدة الإسلامية ونصاعة التوحيد الإسلامى . والذى يجعل وحدانية الله فوق كل شك وكل ريبة ويجعلها صارمة ناصعة لا تحتمل تأويلاً ولا تحريفاً . فالله هو القوة الخالقة المبدعة المهيمنة . هو السبب الأول وقد جل عن أن يكون له ابن أو ولد . جل عن أن يكون شبيها بشئ من مخلوقاته . جل عن أن تدركه العيون والأبصار . فهو الكائن فى كل مكان وغير الموجود فى أى مكان . هو اللامتناهى . وهو المطلق .

وإذا كانت الديانة المسيحية واليهودية ، وهى الديانات السماوية لا تستطيع أن تقدم للبشر توحيدا صافياً كما يقدمه الإسلام ، فمن نافلة القول أن نتحدث عن بقية الأديان الأخرى الأكثر رجعية من المسيحية أو اليهودية .

وقد تكون الديانة البرهمية قد وصلت إلى صورة كاملة من التوحيد المطلق فى بعض نصوصها . ولكن هذه النصوص الخاصة بالوحدانية تكاد تغرق وسط طوفان من النصوص الأخرى . التى تتحدث عن ألوف الآلهة المؤلفة . وتضيع وسط الطقوس والهياكل وسلطان الكهان . وهذا يجرنا إلى التحدث عن ميزة الإسلام الثانية .

إلغاؤه الكنيسة والمعبد وطبقة الكهان :

إذا كان الإسلام قد رفع لواء التوحيد عالياً شاهقاً ، فقد تضافرت كل تعاليمه على صيانة هذه العقيدة الباذخة ، فجاء الدنيا بأعظم إصلاح طالما تلهف عليه البشر ؛ وهو تحريرهم من ربقة العبودية لرجال الدين وأئمة الكنيسة ، أو بالأحرى طائفة الكهنة وذلك بأن قضى الإسلام على الهيكل وضرورته لممارسة الشعائر الدينية . وجعل العبادة ضرباً من ضروب الفكر والتأدب والتخلق بالأخلاق الحسنة وإحسان المعاملة . وأبعد عنها كل الطقوس والتهاويل التى لم يخل منها دين من الأديان ، والتى خلقت سلطان الكهنة وزودتهم بهذا السلاح الباطش سلاح التوسط بين الرب والعباد ، فإن شاءوا حجبوا الله عن الناس . وإن شاءوا وصلوا بينهم وبينه . فقد اعتمدت كل الأديان القديمة كما قدمنا على الهيكل أو بيت الرب ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتصور الرب صنماً من الأصنام ، أو لتصور الرب يحل فى مخلوق من مخلوقاته . ولما كان هذا الهيكل كائناً ما كان فى حاجة إلى من يقوم بأمره من صيانة وتنظيف وتقديم القرابين والضحايا ، فقد نشأت على التوالى هذه الطائفة طائفة الكهنة ، الذين بدأوا كخدام للآلهة ، ثم تطوروا بحيث أصبحوا وزراء للآلهة وأعواناً لهم يصرفون معهم الأمور ، وتعمل الآلهة على إرضائهم . فلا عجب

أن تحول الكهنة إلى طائفة مقدسة يقبضون على مصائر البشر . فتقرب لهم الناس ليتقربوا إلى الآلهة ، وجاهدوا للحصول على رضائهم لإرضاء الآلهة والويل كل الويل لمن فقد عطف الكهنة واستحق غضبهم ، فإن الآلهة لا تلبث أن تصب جام غضبها ولعنتها عليه . هذه السيطرة الكهنوتية هى طابع الأديان القديمة كلها فيما خلا الدين الكونفشيوسى [1] . وهى من أعظم الآفات التى أفقدت الناس فى ألوف من السنين الكثير من حريتها ، وجعلت منهم خدماً وعبيداً لشهوات رجال الدين ونزواتهم وتحكماتهم . وحديث رجال الكهنوت المسيحيين فى العالم إبان العصور الوسطى ، يمكن أن يكون خير نموذج يساق لهذا الجو من الإرهاب الذى يسلطه رجال الكهنوت على الناس . لقد بلغ الأمر بالبابا رئيس الكنيسة أن يصبح أعظم رجل فى أوربا ، وحتم على الملوك والأباطرة أن تعنو لجاهه وسلطانه . وحديث «إذلال كانوسا» مشهور ومعروف حيث سار إمبراطور ألمانيا حافياً على قدميه من قاعدة ملكه فى ألمانيا إلى مقر البابا فى إيطاليا ، وظل واقفا على بابه طوال أيام وأسابيع وهو معفر الوجه حافى القدمين مرتد ملابس التوبة ، وكل ذلك ليأذن له البابا بالمثول بين يديه ويمنحه الغفران . ولكن البابا مع ذلك كله لم يفعل . ولقد كان البابا يصدر قرارات الحرمان من ملكوت السماء على بلاد بأكملها ، فيتوقف القسس على الفور فى هذه البلدان على القيام بشعائر الدين ، فلا يعمدون الأطفال ، وبالتالى لا يدخلون فى حظيرة المسيحية ولا يعقدون زواجاً ، فيعيش الناس فى إثم الجريمة . ولا يصلون على ميت ، فلا يؤذن له بدخول النعيم ، بل يكون مثواه النار . ولعل حديث صكوك الغفران وبيعها للناس ليدخلوا بها الجنة كتذاكر السينما والمسارح أشهر من أن يعرف . أما مافعله رجال الكنيسة فى محاربة العلم والعقل وكيف حرقوا أفذاذ العباقرة من الرجال بتهمة الالحاد والكفر فهى طابع الحياة فى العصور الوسطى . ولم تكن محاكم التفتيش بكل فظائعها وأهوالها إلا ثمرة هذا الطغيان الكهنوتى . والحرب الصليبية كلها لم يوقد نارها إلا رجال الكنيسة . وأخيراً وليس آخراً هذه الكارثة التى حلت بالحضارة والإنسانية فى الأندلس لم تكن إلا بتحريض رجال الكنيسة ضد المسلمين . وهذه المذابح التى جرت بين المسيحيين البروتستنت والكاثوليك ، والتى يحمر لها جبين التاريخ خجلاً كما ذكرت ، لم تكن إلا تعاليم رجال الكنيسة وأمرائها .

---

(١) تتحلى الديانة الكونفوشيوسية بمثل هذه الميزة فليست هناك بموجب تعاليم الدين الأساسية طائفة مخصصة من الكهنة ، فالعادات يباشرها الأفراد جميعاً وبعض الطقوس يتولاها موظفو الدولة المدنيون إلى جوار أعمالهم العادية الأخرى .

وكم كان عجيباً أن يحول الكهان والبابوات إلى أغنى أغنياء أوربا وهم الذين يمثلون المسيح الذى جعل الفقر قمة التعبد وآية الإيمان . وما أعجب أن يظل إلى اليوم بابوات روما يعيشون فى قصور تكاد تكون جدرانها وأثاثاتها من الذهب والجوهر .

المسجد ليس كنيسة :

هذا الذى شاب المسيحية وما فتئ يشوبها وما يشوب بقية الأديان الأخرى العالمية ، قد برئ منه الإسلام براءة تامة كاملة ، فلا هياكل ، ولا معابد ، ولا رهبان ، أو كهنوت ، فالله فوق عباده جميعاً لا فرق فيهم بين فرد وفرد ، وهو قريب من الداعى إذا دعاه فى غير واسطة وبغير حاجة إلى أدوات . وحسبه أن يهتف «يا رب» ليكون الرب مصغياً إليه ، بل حسب قلبه أن يخفق ليكون ربه أدنى إليه من خفقات قلبه . وليست عبادة الله فى الإسلام إلا تدبر هذا الكون وتأمله وإحسان العمل فيه بغير ارتباط بزمان أو مكان معينين . فالصلاة جائزة لله فى كل وقت وآن ، وهى صالحة كذلك فى كل مكان فى الطريق وفى العراء وفى الصحراء وفى الحقل وفى عقر الدار . وما على الإنسان إلا أن يتجه لله ليكون الله تجاهه «ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم»[1] ،وهذا الكون كله ليس إلا معبداً واحداً للرب طاهراً مطهراً «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» . وإذا كان الإسلام قد أقام المساجد وندب للصلاة فيها ، فما ذلك إلا ليجعل من هذه المساجد أداة إصلاح واجتماع ، فهى بمثابة الندوة يجتمع فيها المسلمون ، يتبادلون الرأى ويستعينون على قضاء الحاجات ، ويشعرون بالترابط والتضامن الاجتماعى . وهذا هو دور المسجد فى الحياة الإسلامية ، بحيث أنه إذا لم يقم به فقد صفته كمسجد ، فالمسجد فى الإسلام هو مجمع ومدرسة وليس هيكلاً وكنيسة لأنه ليس ركناً من أركان الدين لا يقوم إلا به . والصلاة جائزة فى كل مكان . والدين الإسلامى بكل تعاليمه فى متناول كل إنسان ، بل تعلمه فرض على كل إنسان ذكراً كان أو أنثى ، عبداً كان أوحرا . والقرآن مبسوط لكل قارئ لكى يغترف من مورده العذب ، وليس لطائفة من الناس أن تحتكر تفسيره أو تأويله ، فكل من استطاع القراءة فليقرأ ، وكل من استطاع الفهم فليفهم بنفسه . وإذا كان على مطالع القرآن أن يستأنس برأى من هم أكثر علماً منه على فهمه ، فما ذلك إلا على سبيل العلم والتماسه من ينابيعه

---

(١) البقرة ١١٥ .

الصحيحة . وذلك كله على خلاف بقية الأديان الأخرى التى تجعل مطالعة الكتب المقدسة وتفسيرها وقفاً على الكهنة ورجال الدين الرسميين .

وهكذا حرر الإسلام العقل البشرى من الخضوع إلا لذاته ، وحرر أرواح المسلمين من جبروت الكهان والأساقفة ، وجعل المسلمين سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وذلك يجرنا إلى ذكر ميزة الإسلام الثالثة وهى تسويته الكاملة المطلقة بين الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم وجنسياتهم وصفاتهم ، الأمر الذى يجعله الدين العالمى حقا وصدقاً .

الإسلام دين الأخوة العالمية :

إذا كانت الصيحة ترتفع الآن من جوانب العالم المتحضر للنظر للإنسانية كمجموعة واحدة ، وإزالة الحواجز والفوارق بين الشعوب والأمم ككل لا ينقسم .

إذا كانت ميزة الشيوعية الكبرى تتلخص فى دعوتها إلى الإخاء العالمى بين العمال ، وإذا كانت الاشتراكية والديمقراطية ينافسانها فى هذا الاتجاه تحت ضغط ظروف العالم الاقتصادية وتحولات العلم الميكانيكى والكهربى . وإذا كانت الطائرات واللاسلكى والتليفزيون والقوة الذرية ، ستنتهى كلها إلى جعل هذا الكوكب الأرضى وطناً واحداً ، وتجعل من الجنس البشرى أمة واحدة ، فقد كانت هذه هى دعوة الإسلام التى دعا إليها منذ نيف وثلاثة عشر قرناً عندما لم يكن للأسير من جزاء فى الحروب إلا القتل ، وعندما كان الرجال الأحرار فى أى جماعة من الجماعات ينظرون إلى رقيقهم بل إلى أولادهم وزوجاتهم فى بعض الأحيان كقطيع من الحيوانات والمواشى يتصرفون فيها بالبيع والإيجار والإعارة ويملكون عليها حق الحياة والموت . فى ذلك الوقت الذى كان أبناء البيت الواحد ينقسمون إلى ما يرتفع ببعضهم إلى ذروة السماء ، ويهبط بالبعض إلى حضيض التراب من حيث الحقوق الإنسانية ، فى ذلك الوقت جاء الإسلام بدعوته الرائعة إلى الأخوة العالمية والمساواة المطلقة لبنى الإنسان لا فرق فى ذلك بين أبيض وأسود ، بين حر وعبد ، بين ذكر وأنثى ، بين عربى وعجمى . وفى هذا المنحى بلغ الإسلام الذروة كما هو شأنه دائماً ولا يمكن أن تجد فى أى دين من أديان الدنيا من دعا إلى هذه الأخوة البشرية وإلغاء الفروق بين سائر بنى الإنسان مثلما فعل الإسلام . فلقد رأينا فى تاريخ تطور الأديان

كيف كان الدين لوناً من ألوان الثقافة المحلية البحتة ، وكيف كان يرتبط بالبيئة أشد الارتباط ، وكيف كان كل شعب من الشعوب يعتبر نفسه دون غيره من شعوب الأرض هو المختار المفضل على بقية الشعوب .

ولم تسلم من هذا المنحى الديانة الإسرائيلية ولا الديانة المسيحية نفسها ، فالإسرائيليون كما قدمنا يتحدثون عن الله كإله بنى إسرائيل من دون الناس خاصة . وأنه قد اختارهم لنفسه شعباً فوق الشعوب . ولما كان بنو إسرائيل هم سلالة هذه الأسرة المخصوصة فقد أصبحت الديانة الإسرائيلية جنسية وقومية لفصيلة من الفصائل البشرية تخالف بين نفسها وبين سائر الأجناس الأخرى .

وإذا تصفحنا الإنجيل نجد أن المسيحية ذاتها قد نشأت فى الأصل دينا محليا بحتاً لا صلة له ببقية شعوب العالم ولا يكاد يعنى بهم فالمسيح يتحدث عن نفسه فى الأناجيل المختلفة ، باعتباره مصلحاً لنصوص العهد القديم ، ومفسراً لها ومرشداً لبنى إسرائيل خاصة من دون الناس . وفى المعنى الأول يقول «ما جئت لأهدم الناموس بل لأكمله» وهو يعنى بالناموس كتاب العهد القديم أو التوراة ، وقد نبّه على تلامذته وحظر عليهم أن يبشروا بتعاليمهم فى غير صفوف بنى إسرائيل وذلك بقوله «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة»[1] . ولقد ذهب المسيح إلى حد أن رفض فى بادئ الأمر أن يصيخ بسمعه إلى امرأة كنعانية جاءت تشكو إليه بحجة أنها ليست من بنى إسرائيل ، وأنه لم يرسل إلا لخراف بنى إسرائيل الضالة وقال لها «ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ليطرح للكلاب فقالت : نعم يا سيدى والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . عندئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك ما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة» .

فأنت واجد فى ذلك النص وفى غيره من النصوص وفى مثل هذه القصة ما يدلك على أن المسيح كان يختص بنى إسرائيل بدعوته ، وكان لا يهتم بغيرهم من الأمم والشعوب وإذا كانت المسيحية قد قدر لها فيما بعد أن تتحول إلى دين عالمى فقد كان ذلك عمل تلامذة المسيح واجتهادهم ، وبصفة خاصة بولس الرسول ، الذى لم يكن من حواريى المسيح ، بل ولم يجتمع به أويراه . وعلى كل حال فلم تستطع المسيحية فى العمل والتطبيق

---

(١) متى - الإصحاح العاشر.

أن تقضى علىٰ هذه الفوارق الجنسية وأن توحد بين الشعوب على أساس الدين ، ولا تزال أوروبا المسيحية وأمريكا تنظر إلى السود باعتبارهم جنساً منحطا لا يرقى إلى مستوى البيض حتى ولو بلغ من العلم والمكانة أرقى الدرجات .والأغلبية الساحقة من الإنجليز لا تسمح بدخول غير البيض بيوتهم ، ويكفى أن يكون الإنسان أسمر الوجه لكى يسقط اعتباره عند الإنجليز مهما يعل شأنه وقدره فلا يعود أهلا لدخول بيت الإنجليز . ولقد شاهدنا قبل هذه الحرب تعصب الألمانيين الذى بلغ القمة للجنس الأبيض الآرى ، وكيف أنهم اتخذوا من هذه الآرية أساساً لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية ، ولم تستطع تعاليم المسيحية أن تقتلع من نفوسهم هذا التعصب الأعمى الممقوت لجنسيتهم . أما الإنجليز فى الهند وأما معاملة الأمريكان للزنوج فى بلادهم وعزلهم إياهم وفرض كثير من القيود عليهم للحيلولة بينهم وبين ارتياد أماكن البيض أو الاشتراك فى مجالاتهم فحديث معروف ومشهور . ولن تجد لمثل هذه الروح الجنسية أى أثر فى ظل الإسلام والمجتمعات الإسلامية ؛ فقد استطاع الرسول الكريم بسيرته وتصرفاته الشخصية من ناحية ، وبتعاليم الإسلام من ناحية أخرى ، أن يقضى إلى الأبد فى نفوس المسلمين على كل نزعة جنسية وكل تعصب لقومية أو لون أو إيجاد أى تفرقة من أى نوع بين إنسان وإنسان .

وقد أعلن محمد صلوٰات الله عليه رسالته للوجود كله فما خاطب مرة من المرات بنى قومه وما هتف بعروبتهم وما اعتز بفصيلة ، وجاء القرآن يخاطب الناس وكل من آمن فى هذه الدنيا «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً(١) » . «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً(٢) » .

ولقد تجد فى القرآن خطاباً إلى الناس إذا ما كان يتحدث بصيغة العموم و يا أيها الذين آمنوا إذا كان يوجه الخطاب إلى المسلمين الذين آمنوا بالدعوة المحمدية .

رسائل محمد إلى الملوك والقياصرة :

وعندما استقر الأمر برسول الله فى المدينة بعث برسله إلى سائر أنحاء العالم القديم المعروف فى أيامه داعياً رؤساء الأمم المختلفة إلى دينه القويم فكانت رسله لكسرى وقيصر والمقوقس وغيرهم من كبار حكام العصر وأئمة الشعوب ، فدل ذلك على أن الدعوة

---

(١) الأعراف ١٥٨ .
(٢) سبأ ٢٨ .

المحمدية ليست دعوة إقليمية ، أو دعوة جنسية وإنما هى دعوة عالمية للناس كلهم . ثم جاءت نصوص القرآن تترى لتسوى بين المؤمنين ولا تجعل فارقاً بين مؤمن ومؤمن إلا بالعمل الصالح «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[1] وجاء الحديث يؤكد هذا المعنى أن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . فالتقوى وحدها أو بالأحرى العمل الصالح هو أساس التفاضل فى هذه الحياة الدنيا . وراح القرآن يذكر الناس من حين لآخر بهذا الأصل المشترك الذى انحدروا جميعاً من سلالته ونعنى به آدم وحواء وما دام الأمر كذلك فالناس كلهم إخوة ويجب أن ينظموا شئونهم وأحوالهم على هذا الأساس وأن يتعاطفوا ويتراحموا ويتوادوا فيما بينهم .

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً[2]» وليس وراء هذه الآية دعوة للأخوة البشرية العالمية على أساس من الرحم والدم .

وعاش الرسول فى حياته يقرب فى الصف الأول من أتباعه كل من آمن وعمل صالحاً لا يفرق ـ وهو العربى الأصيل ـ بين جنس وجنس ، أو بين لون وآخر ، فكان من أخص أخصائه بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى . وقد عاش أبو سفيان شيخ مشايخ قريش حتى رأى بلالاً يستأذن على عمر خليفة المسلمين فيؤذن له . ولا يسمح لأبى سفيان هذا أن يدخل إلا بعد أن ينتظر ويفرغ عمر من بلال . ولم يكن عمر فى ذلك إلا متأسياً بإمامه وزعيمه سيد الخلق أجمعين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه فى تعظيمه لبلال بغض النظر عن سواده أو مكانته . وقد حدثنا أبو ذر أنه تشاتم يوماً وبلال فقال له «يا ابن السوداء» فلما بلغ الأمر إلى رسول الله أنكره وقال لأبى ذر أسببت أمه ؟ قال : نعم فقال له «إنك امرؤ فيك جاهلية» . وما كان الرسول ليعلن استنكاره لأبى ذر بأكثر من وصفه بالجاهلية التى تجرده من الإسلام تجريداً . وكان الرسول إذا ما جلس للتبشير بدعوته فى الكعبة اختلف إليه عبيد القوم وأصاغرهم وأقلهم شأناً . فاستنكف سادة قريش أن يختلفوا إلى رسول الله ليسمعوا منه مع وجود هذا النفر

---

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) النساء ١ .

فخاطبوه فى إبعادهم عنه ، ولقد هم الرسول بتلبية رغبة القوم طمعاً فى إسلامهم فنهاه القرآن عن ذلك وعاتبه عليه .

«ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين[1]» .

* * *

وهكذا جعل الإسلام المسلمين أمة واحدة «إن هذه أمتكم أمة واحدة»[2] وجعل الدنيا كلها أهلا للإسلام وبالتالى أمة واحدة ، ولن يتجلى التطبيق العملى لهذه التعاليم قدر تجليها فى الحج عندما يقف الإنسان يراقب جماهير المسلمين عن كثب وهى تطوف بالكعبة بيت الله الحرام ، فسيرى الدنيا كلها وقد اجتمعت فى صعيد واحد - بيض وحمر وسود وصفر وسمر ، وأمراء وفقراء ورجال ونساء ، صين وعجم وهنود وعرب وترك ومجر ، وبدو وحضر ، الجميع يطوفون حول الكعبة مهللين مكبرين داعين مبتهلين ، وقد أبى الإسلام إلا أن يوحد بينهم فى كل شئ حتى فى الملبس فحتم عليهم أن يخلعوا أزياءهم القومية وملابسهم الخصوصية التى تفرق بينهم وألا يرتدوا إلا الإزار يستر العورة لكى يزول كل فارق فيما بينهم .

فالإسلام هو دين العالم حقا وصدقاً - هو دين الأخوة البشرية هو الذى يوفق بين الأجناس والألوان ويصالح بينها - هو الذى يفرض على بنى الإنسان أن يعيشوا فى وئام وسلام مهما تتباعد بيئاتهم ومهما تختلف أجناسهم ومهما تتغاير ألوانهم بل مهما تتعدد أديانهم - وهذه هى الخصوصية الثالثة التى لا تتوافر لدين من الأديان قدر توافرها فى الإسلام .

الإسلام يؤاخى بين الأديان ويوفق بينها :

إلى هنا رأينا كيف آخى الإسلام بين البشر جميعا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم الاجتماعية ولكن ذلك كله ما كان يمكن أن يصل إلى النتيجة التى يبتغيها الإسلام وهى الأخوة البشرية العالمية - لو أنه ظل ينظر إلى بقية الأديان الأخرى نظرة منكرة - فليس هناك ما يفرق بين البشر قدر اختلاف العقائد وتنكرها لبعضها وخاصة فى العصور القديمة . لطالما افترق أبناء الأمة الوحدة لاختلاف عقائدهم - ولطالما سالت الدماء أنهاراً

---

(١) الأنعام ٥٢ .   (٢) الأنبياء ٩٢ .

بين أبناء الدين الواحد ، والوطن الواحد ، لمجرد أن فريقاً منهم يدين بمذهب يخالف مذهب الفريق الآخر . فجاء الإسلام على خلاف جميع العقائد التي سبقته يؤاخي بين الأديان كلها ويدعو إلى احترام الرسل أجمعين ، ويعلم أتباعه أن الدين واحد في كل زمان ومكان ، وأن تعاليم الأديان كلها تنطوي على جوهر الحقيقة ، الحقيقة التي تتلخص في وحدانية الله ووجوب التقرب إليه بصالح الأعمال . وهذه هي الدعوة التي دعا لها كل رسول أو نبي سبق . فإذا كانت الأديان تبدو مختلفة وتعاليمها متعارضة فليس ذلك إلا من صنع الكهان ورجال الدين المحترفين ، الذين يتخذون من الدين وسيلة للجاه والنفوذ واستدامة السلطان وجمع الأموال ، فهؤلاء وحدهم هم المسئولون عما دب إلى الأديان المختلفة من اختلافات وإضافات وانحرافات طغت على جوهر الدين الصافي وألبسته هذا الثوب المعارض لغيره من الأديان ، فالمسيح مثلاً هو نبي مرسل كمحمد سواء بسواء قد دعا إلى وحدانية الله وعبادته أصدق عبادة ، ولم يقل للناس في يوم من الأيام إلا أنه عبد الله ورسوله ونبيه فإذا كان الخلف قد جعلوا من المسيح إلهاً ، فليس الذنب ذنب المسيح الطاهر المبرأ . وليس الذنب في ذلك ذنب الديانة المسيحية الخالصة من كل الشوائب كالدين الإسلامي سواء بسواء . وإنما الذنب كل الذنب إنما يقع على كاهل هؤلاء الكهان والأحبار الذين حرفوا وأولوا حتى طمسوا نور الحقيقة بجهالاتهم . حبا منهم للدنيا وإرضاء للشهوات والنزوات .

ومثل ذلك يقال عن الديانة الموسوية التي دعا إليها موسى عليه السلام فهي لا تختلف عن تعاليم الإسلام . وكل ما يرى عليه اليهود من زيغ وانحرافات هو من صنع كهانهم وأحبارهم . وما يطالعونه من كتاب ينسبونه إلى السماء ليس هو الكتاب الحقيقي وإنما قد امتدت إليه يد التحريف والتصحيف والتغيير والتبديل . وكان سيدنا إبراهيم يدعو إلى ما يدعو إليه الدين الإسلامي . وكان نوح وكان هود وكان صالح وكان يونس . وكان يوسف وكان اليسع وذو الكفل وإدريس ويحيي وزكريا وكل من عرفنا من الرسل وما لم نعرف . وكل من قصهم علينا القرآن أو لم يقصص . كل هؤلاء الرسل الذين عرفتهم البشرية في كل زمان ومكان قد دعوا إلى هذه الحقيقة الخالدة : حقيقة الإيمان بالله الواحد الأحد والتقرب إليه بصالح الأعمال .

هذه هي نظرية الدين الإسلامي وهذا هو موقفه من بقية الأديان . فأي تعاليم كهذه التعاليم تحمل معتنقها على احترام الديانات الأخرى ، واحترام كتبها واحترام رسلها ، وأي تقريب وتوفيق بين كل ما عرفت الدنيا من عقائد وتعاليم وأديان أعظم من هذا ..

التوفيق . وأى مسلم يجرؤ بعد هذه الإرشادات المحمدية والتعاليم الربانية ألا يصلى ولا يسلم على عيسى إذا ما سمع اسمه ، ولا يصلى ويسلم على إبراهيم ، إذا ما سمع اسمه ، وموسى إذا ما سمع اسمه . وأى ارتياح وأى ابتهاج يملأ نفس المسيحى واليهودى وهو يرى المسلم يثنى على أعلام دينه ويكرمهم بمثل ما يكرم أعلامه ؟ وهكذا آخى الإسلام بين الأديان كلها وجعل مردها ينبوعاً واحداً صافياً .

والحق أن الإسلام قد دَل بذلك على أنه آخر الأديان حقا ، وأن محمداً هو خاتم النبيين فعلاً . فهذه المصالحة والتوفيق هى مهمة لا تنسب إلا إلى المتأخر وهى لا تحتاج بعدها إلى دين جديد إذ لم يبق له دور أو عمل فى الحياة يؤديه إلا أن يبدأ خلافاً جديداً بعد أن جاء الإسلام بالمصالحة والسلام والمؤاخاة بين البشر جميعاً على اختلاف أديانهم . وإليك الآن ما قاله القرآن فى هذه السبيل جليلاً رائعاً لا يمكن أن يكون من صنع إنسان يغلب الهوى على نفسه وإنما هو من صنع فاطر الكون والإنسان :

«قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزِل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتىَ موسى وعيسى وما أوتىَ النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[1] » .

وأنت ترى أن هذه الآية تعدد أسماء بعض الرسل ثم تتحدث بعد ذلك عن النبيين بصيغة التعميم والتجهيل ، وهكذا يفتح القرآن الباب على مصراعيه لاحترام أى اسم يقرع مسامع المسلم على أنه نبى من الأنبياء ، فلا يسرع بذمه وقدحه ، وإنما يمسك احتراماً لشأنه ، فقد يكون نبيا من هؤلاء الأنبياء الصالحين ، الذين لم تخل منهم أمة من الأمم . فزارادشت فى الفرس ، وكونفشيوس فى الصين ، وبوذا فى الهند ، أو أخناتون المصرى القديم ، كل هؤلاء لا يحق للمسلم أن يزدريهم أو أن يحقرهم ، فقد يكونون من الرسل الذين لم يقص القرآن قصصهم «ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك»[2] ومتى كان ذلك هو موقف المسلم بالنسبة لأرباب الديانات الأخرى ، فقد انفتح مجال التفاهم والتعاون والتصادق بينه وبين صاحب أى عقيدة أخرى غير الإسلام . وقد يرى المسلم فى تعاليم هذه الأديان الأخرى ما يخالف عقيدته من ناحية التوحيد ومعتقداته المختلفة ، ولكنه فى هذه الحالة لا ينحى باللائمة على صاحب

---

(١) البقرة ١٣٦ .

(٢) النساء ١٦٤ .

الدين الأصلي أو كتابه - وإنما يعزو هذه الخلافات إلى العصور المتأخرة - وإلى الأيدي العابثة اللاعبة - وذلك من شأنه أن يفتح باب الإصلاح على مصراعيه لأصحاب هذه الديانات الأخرى إذا رغبوا في هذا الإصلاح ليهتدوا بمحض إرادتهم وحريتهم على ضوء تعاليم الإسلام الحديثة إلى الحق والصواب فيما بين أيديهم من تعاليم.

ولقد أمر الإسلام معتنقيه أمراً ألا يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى إلا بالتي هي أحسن «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن[1] » وما ذلك إلا ليشعروا أن المتدين أخو المتدين وإن اختلفا في بعض الآراء والأفكار - ودعاهم إلى أن يتوقفوا عن الحكم على ما هم عليه - وألا يقعوا في مثل ما وقع فيه أرباب الديانات الأخرى حيث يسفه كل منهم الآخر «وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون[2] »

الإيمان والعمل الصالح :

وإذا كان الإسلام قد قضى بذلك على التعصب بين نفوس معتنقيه بالنسبة للأديان الأخرى فقد ذهب إلى أبعد من ذلك كله للمصالحة والتآخي بين المسلمين وأصحاب هذه الديانات عندما وضع للجميع مقياساً واحداً للتقرب من الله واستحقاق ملكوته ، وإن ذلك المقياس يتلخص في كلمتين : الإيمان - والعمل الصالح . فكل من آمن وعمل صالحاً في هذه الدنيا فله أجره عند ربه سواء في ذلك المسلم أو المسيحي أو اليهودي أو المتدين بأي دين من الأديان «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[3] » وقد تكررت هذه الآية في القرآن بنصها ومعناها أكثر من مرة حتى أصبحت بمثابة قاعدة أساسية من قواعد الدين الإسلامي حتى لقد جعل منها تشريعاً قائماً عندما

---

(١) العنكبوت ٤٦ .

(٢) البقرة ١١٣ .

(٣) البقرة ٦٢ .

أباح للمسلم أن يتزوج ـ بكتابية[1] على غير دينه وأن تبقى على دينها بالرغم من صيرورتها فى كنف مسلم وأنها أصبحت أم أولاده المسلمين. وليس وراء ذلك تعليم للمسلم أن العبرة فى نهاية الأمر هى الإيمان بالله والعمل الصالح، فالإسلام هنا على خلاف بقية الأديان لا يجعل مجرد الانتساب إلى الدين كافياً وحده للنجاة، بل يجعل النجاة مرتبطة كل الارتباط بالإيمان والعمل الصالح بقطع النظر عن الدين الذى ينتمى إليه المؤمن «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره[2] ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره» وتطبيقاً لذلك فإن أهل الكتاب كالمسلمين سواء بسواء من يفعل منهم مثقال ذرة من الخير فإن الله يثيبه عليه وما يفعله من شر فإن الله يجازيه عليه واقرأوا إن شئتم «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين[3]».

الإسلام يحتفظ بحق الهيمنة :

ولرب معترض يقول ولكن الإسلام بذلك قد ألغى مهمته فى إصلاح هذه الأديان وتنقيتها مما دب إليها من خرافات، ما دام يحترم معتنقيها وأصحابها إلى هذا الحد وما دام يسوى بينهم وبين أتباعه فى كل شئ. ولكن الحقيقة أن الإسلام لم يقف من أصحاب الديانات الأخرى ذلك الموقف المتسامح إلا رغبة منه فى إصلاح هذه الأديان بالذات، ورغبة منه فى إقناع أصحاب الديانات الأخرى بأن الإسلام مهيمن على هذه الأديان، وأنه يجب كل ما قبله. وقد نجح الإسلام فى هذه الغاية نجاحاً منقطع النظير، فقد أسرع أصحاب الديانات الأخرى إلى الدخول فى دين الإسلام أفواجاً لاتباعه هذا الأسلوب وتركه الحرية التامة المطلقة لكل صاحب دين أن يبقى على دينه. فالمصادرة والاضطهاد من شأنها أن تحمل كل إنسان على التعصب لوجهة نظره، أما التسامح فهو السبيل

---

(١) «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين» المائدة ـ ٥.

(٢) الزلزلة ٦ ـ ٨

(٣) آل عمران ١١٣ - ١١٥

الوحيد لتقريب وجهات النظر ولاستماع ما عند الطرف الآخر. فلو أن الإسلام جاء مسفهًا للأديان الأخرى، محقراً من كتبها وأعلامها، لسدت الآذان عن سماع دعوته، ولما وجد سبيله إلى القلوب مثل ما وجد. وليس هناك دليل على أن الإسلام حق، وأن القرآن كتاب الله، أعمق من هذا الموقف الذى يقفه من الأديان الأخرى، وأرباب الديانات الأخرى. فهو يقف منهم موقف المعلم الرحيم، لا موقف المتغطرس المستبد المتكبر. ولما كان الإسلام هو الحقيقة الكاملة فهو لا بد منتصر ومنتشر ومسيطر عندما تتجرد النفوس من الهوى الذى يخلقه التعصب، وعندما يأخذ العقل كل سلطانه بعيداً عن تحكم الرؤساء والملوك ورجال السياسة ورجال الكهنوت، فلا حرج إذن ولا ضير فى أن يقر الإسلام أهل الكتاب على ما فى أيديهم، ولا حرج ولا ضير فى أن يعدهم بالثواب والجزاء الحسن على صالح الأعمال، لأنهم فى نهاية الأمر عبيد اللهِ كبقية عبيده. ولا حرج ولا ضير فى أن يؤمن كل إنسان فى الدنيا بعدالة الرب الذى يجزى كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر، لأن هذه المبادئ هى التى لا يختلف فيها إنسان مع إنسان آخر.

ومادام الإسلام يبشر بهذه التعاليم فلابد أن يكون دينًا صالحًا قيمًا. وعلى ذلك فقد انكب أهل الكتاب وأصحاب الديانات كلها على دراسة هذا الدين الجديد والوقوف على تعاليمه، فإذا هو يحوى أجمل ما عندهم، وما بين أيديهم. وإذا هو يخلو من الشوائب والنقائص التى قد شابت دينهم. وإذا الإسلام يدعوهم للدخول فيه باعتباره آخر الأديان وأكملها، وأنه قد نسخ كل ما سبقه من أديان. فلم يلبثوا أن دخلوا فى الإسلام فرحين مستبشرين. ولم يمض كما قدمنا إلا قرن من الزمان حتى بلغ مقدار من دخلوا فى دين الإسلام من المسيحين وغيرهم من أرباب الديانات الأخرى مائة مليون من البشر، ما كانوا ليدخلوا فى هذا الدين الجديد، لولا روح التسامح التى تسود تعاليمه، ولولا اقتلاعه التعصب المذموم من قلوب أتباعه[1].

---

(١) وأى دين عرفته البشرية قد استطاع أن يخلق إمامًا متسامحًا فى شعائر الآخرين، كما فعل الإسلام بسيدنا عمر عندما دخل بيت المقدس فاتحًا منتصرًا وبينما كان يطوف فى كنيسة القيامة إلى جوار بطريرك النصارى الذى سلم إليه المدينة، إذ يحين وقت الصلاة فيطلب البطريرك من عمر بن الخطاب أن يصلى فى الكنيسة، فيعتذر له قائلاً هذه القولة الخالدة: «إنى أخشى إذا أنا صليت فى هذه الكنيسة أن=

وقد سرت هذه الروح فى الدولة الإسلامية بما لا عهد للبشرية بمثله من قبل فكان المجتمع الإسلامى يغص بأرباب الديانات الأخرى الذين عاشوا مع المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. ولم يقف الدين فى يوم من الأيام حجر عثرة فى وجه أى مواطن للوصول إلى أرقى ما يمكن أن يصل إليه مسلم من وظيفة، فكان منهم الوزراء والقواد والعلماء والأطباء والأدباء والشعراء والحكماء. ولم ينعم اليهود فى كل تاريخ حياتهم الحافل بالاضطهادات، بمثل ما نعموا به من أمن وسلام فى ظل الدولة الإسلامية، وتاريخهم فى الأندلس معروف ومشهور.

ولقد وصل التطرف ببعض الخوارج المسلمين أن المشرك والمسيحى واليهودى والمجوسى، كان يأمن على نفسه فى ظلهم بأكثر مما يأمن المسلم، حتى لقد كان المسلم الذى يعترضه بعض الخوارج قد يؤثر أن يدعى المسيحية أو اليهودية من أن ينتسب للإسلام، وذلك لكى ينجو بنفسه من شر الخارجى، الذى لا يتسامح مع المسلم الذى يخالفه فى رأيه السياسى، ولكنه لا يتعرض بسوء لمن يخالفه فى الدين جملة، حتى ولو كان مشركًا، نزولاً عند نص القرآن القائل:

«وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون[1]».

وهكذا استطاع الإسلام أن ينزع من قلوب معتنقيه كل تعصب ضد أتباع الديانات الأخرى وراض المسلمين على احترام عقائد الآخرين والتعاون معهم على قدم المساواة حتى جنحوا إلى مسالمة المسلمين وعاشوا معهم متعاونين. وهكذا عرفت البشرية لأول مرة فى

= يقول المسلمون من بعدى هنا صلى عمر ويحولوا كنيستكم إلى مسجد وأنا أريد أن أحفظ لكم كنيستكم» قال عمر ذلك، وخرج إلى الساحة التى تقابل كنيسة القيامة فصلى بها، فأقيم عليها ـ كما تنبأ ـ مسجد سمى باسم عمر. ولا يزال هذا المسجد حتى اليوم يواجه كنيسة القيامة على بعد خطوات منها، أعظم شاهد على أن المسلمين الأوائل قد فهموا من الدين الإسلامى حقيقته وجوهره، وأنه قد جاء للدنيا رحمة وأخوة وسلامًا لا نزاعًا أو خصامًا وافتئاتًا.

(١) التوبة ـ ٦.

تاريخها الطويل معنى التسامح الذى لم يستطع دين آخر من الأديان أن يغرسه فى نفس أتباعه بما فى ذلك المسيحية نفسها التى يؤلف الحب سداها ولحمتها . وحسبنا أن نقارن بين ما اقترفه الصليبيون فى العصور الوسطى من فظائع باسم الصليب وما أظهره صلاح الدين الأيوبى من تسامح ورفق بالصليبيين عند ما قدر عليهم . وليس ذلك إلا النتيجة الطبيعية لتعاليم الإسلام ومبادىء الإسلام[1] .

(١) كان يمكن أن تعتبر البوذية بدورها . نموذجًا رائعًا للتسامح الدينى مع بقية المعتقدات والأديان الأخرى . لولا أن البوذية على روعة تعاليمها وكمالها الإنسانى . قد اقتصرت على رسم طريق للسلوك الإنسانى . وفات بوذا (إذا صح ما ينسب إليه) أن لا سبيل لتأصيل هذه التعاليم إلا إذا كانت مستندة إلى الإيمان بإله كامل . وقد كان هذا ما حدا باتباعه إلى سد هذه الثغرة من التعاليم البوذية باعتبار بوذا هو الإله بنفسه . وإذا كان هناك فريق آخر من البوذيين لا يقول بألوهية بوذا . فإنه بالرغم من ذلك يعامل بوذا معاملة الإله فينشىء له المعابد والهياكل ويقيم له النصب والتماثيل ويتقدم له بالصلاة والقرابين من الزهور والعطور . (اقرأ للمؤلف كتابى يقظة العملاق وأمة تبعث عن رحلته عام ١٩٥٣ فى آسيا) .

التكافل الاجتماعى فى الإسلام

الزكاة :

لا يوجد دين من الأديان ، لا يوصى أتباعه بالبر بالفقراء والمحتاجين من أفراد المجتمع ، فجوهر أى دين ولبابه هو سيادة السلام والتآخى والمحبة بين معتنقيه .

على أن الإسلام ينفرد بأنه لم يقف عند حد التوصيات والتوجيهات العامة ، بل كان سباقًا إلى اكتشاف ضرورة إيجاد نوع من التنظيم الاقتصادى فى توزيع الثروات والطيبات لكفالة التوازن بين أفراد المجتمع الواحد . فكان تشريع الزكاة الذى يفرض على كل مسلم يدين بالإسلام ، أن يقدم لبيت المال نصيبًا مفروضًا من أمواله ليوزع على الفقراء والمحتاجين وذوى الحاجات والعاجزين عن التكسب ، وذلك بمجرد أن يفيض لديه بعض المال القليل(١) .

وقد جعل الإسلام تشريع الزكاة ركنًا أساسيا من أركان الإسلام ، بحيث لا يكون المسلم مسلمًا إلا به .

حروب الردة :

وعندما تصور فريق من المسلمين بعد وفاة رسول الله أن باستطاعتهم الامتناع عن أداء هذا الواجب ، اعتبر هذا التصرف ردة عن الإسلام ، وفتنة يراد بها تقويض المجتمع الإسلامى من أساسه ، فكانت حروب الردة المشهورة ، والتى انتهت بتدعيم هذا الركن من أركان الإسلام .

---

(١) يقدر النصاب الذى تجب من أجله الزكاة فى الأموال بما كان يساوى ٢٠٠ درهم من الفضة وهو ما لا يزيد فى وقتنا هذا عن عشرة جنيهات بأى حال من الأحوال .

أما نسبة ما كان يدفع فهو ٢٫٥٪ من الأموال النقدية وعروض التجارة ، والعشر ونصف العشر من ثمار الأرض الزراعية على تفصيل يرجع له فى كتب الفقه .

حق لا منحة :

وقد حرص القرآن على إظهار صفة الحق فى أموال الزكاة فنص عليه بقوله :

« فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم[1] » .

وهذا ما حدا ببعض فقهاء المسلمين ، أن يعتبروا مستحقى الزكاة شركاء فى أموال دافعيها ، بحيث يستطيعون استقضاءها بشتى الطرق إذا امتنع من تجب عليه الزكاة عن دفعها .

حد أدنى لكل فرد فى المجتمع :

وهذا القدر الواجب من الزكاة ، هو ما كان يعنى فى القديم الحد الأدنى من الحياة التى لا ينبغى أن ينزل عنها أى إنسان ، ومن هنا كان من حق الدولة فى كل زمان ومكان أن ترتفع بهذه النسبة المقررة بما يتمشى مع تطور الحياة وارتفاع تكاليفها .

وهكذا سبق الإسلام ما تعتبره الحضارة الحديثة من محاسنها ، بما يقرب من أربعة عشر قرنًا ، والذى لم تصل إلى تقريره إلا بعد ثورات وانحرافات وحروب دامية .

العمل لا رأس المال هو مصدر الإنتاج :

على أن الإسلام قد ذهب إلى أبعد مما سبق فى تقرير جوهر الاشتراكية الحديثة ، عندما اعتبر العمل لا رأس المال هو المصدر الأساسى للإنتاج . وذلك بتحريم الفائدة على رأس المال تحريمًا مغلظًا ، بحيث لم يستعمل القرآن الكريم صيغة أعنف من صيغته فى تحريم الربا حيث يقول :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون[2] » .

---

(١) المعارج ٢٥ .

(٢) البقرة ٢٧٨ – ٢٧٩ .

وتطبيقًا لذلك ، فإن من أقرض آخر قرضًا ، فليس له إلا أن يسترد ما دفع بغير زيادة .

الاقتصاد الحديث يقوم على فائدة رأس المال :

ولكى يدرك القارئ عظمة الإسلام وهو يقرر هذا المبدأ الاقتصادى ويعتبره أصلا من أصول التعامل فى المجتمع الإسلامى ، لابد أن نستحضر فى أذهاننا أن النظام الاقتصادى الحديث يقوم على فائدة رأس المال ، ويتربع أصحاب البنوك فى العالم كله على عرش السيادة الاقتصادية والتحكم فى أقدار الأفراد والجماعات والأمم والشعوب بالفوائد الربوية التى يتقاضونها على رؤوس الأموال .

ولقد نكبت مصر فى تاريخها الحديث بضياع استقلالها . واحتلال الإنجليز لأراضيها ، بحجة عجز مصر عن دفع فوائد ديونها لأصحاب البنوك من الأوربيين .

الثورة الشيوعية :

وقد احتاج المجتمع الأوربى إلى ثورة عنيفة دامية وهى الثورة الشيوعية . للحد من هذا الطغيان الرأسمالى . ولكن الشيوعية وقد جاءت متطرفة كرد فعل للتطرف ... لم تقف عند حد تقليم أظافر الرأسمالية . بل أبت إلا أن تقتلع الرأسماليين أنفسهم وأن تهدر دماءهم فى غير رحمة أو شفقة ، فنشأ عن ذلك مظالم جديدة وطغيان من نوع جديد يهدر كرامة الإنسان وينكر عليه الحق فى الحياة فضلا عن الحرية .

وذلك كله على خلاف النظام الإسلامى . الذى وقف عند الحد اللازم للحيلولة دون الاحتكار والاستغلال وما يولده ذلك كله من طغيان . وذلك بنزع زبان رأس المال الخبيث . وتجريده من سلاحه وسلطانه الرهيب وهو الفائدة الربوية . تاركاً كل إنسان بعد ذلك يتمتع بثمار عمله وكده .

الضمير الإسلامى :

على أن الإسلام لم يقف عند حد تشريع القوانين الكفيلة بتحقيق حد أدنى من المعيشة للعاجزين والمحتاجين . ولا عند تقويض سلطان رأس المال بإلغاء الفائدة . بل حرص فوق ذلك وقبل ذلك على جعل ما أسماه الإنفاق فى سبيل الله أى على المصالح العامة والفقراء والمعوزين والمنكوبين والملهوفين من بنى الإنسان على اختلاف أجناسهم

وأديانهم وأنواعهم ـ جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية والإيمان بالله . فنرى آيات القرآن الكريم تنهمر فى هذه الناحية انهماراً ومن ذلك قوله «وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»[1] .

«والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»[2]

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[3]

«آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه»[4]

وذهب التشريع الإسلامى إلى أبعد من ذلك كله لدفع المسلمين دفعاً إلى إنفاق أموالهم على المحتاجين فجعل الأخطاء والذنوب والمعاصى يمكن أن يكفَّر عنها دائماً بتحرير العبيد «عتق رقبة» وإطعام الجائعين ـ والتوسعة على المحرومين .

ازدهار مؤسسات التكافل الاجتماعى :

ولذلك فلم يكن عجباً ـ وهذه دعوة القرآن ـ وهذه هى تعاليم الإسلام ـ أن شهد المجتمع الإسلامى عبر القرون والأجيال ـ جميع نظم الضمان الاجتماعى والتكافل الاقتصادى ـ الذى يتصور المتصورون أنها من ثمار الحضارة الأوربية ـ أو العصر الحديث .

فحق العلاج لكل فرد ـ وحق الرعاية لكل مولود ـ والرعاية الكاملة لكل عاجز وشيخ ـ والطعام لكل جائع ـ كانت دائماً أبداً من الحقوق المقررة فى المجتمع الإسلامى ـ من خلال مئات وألوف المؤسسات التى قامت على نظام الوقف ـ «الذى هو نوع من تأميم مصادر الإنتاج للمصلحة العامة فتحبس الملكية عن التداول ويحظر التصرف فيها ـ وتوجه ثمارها إلى جهة بر لا تنقطع

وعلى هذا الأساس أنشئت دور العبادة والمدارس والمعاهد والمستوصفات والمستشفيات ـ وملاجىء اللقطاء واليتامى والعجزة ـ وأوجد العمل للسجناء بعد الإفراج عنهم ـ وإطلاق سراح الأسرى ـ وتحرير الأرقاء .. ودور الضيافة لإقامة الغرباء .. إلى

(١) البقرة ١٩٥ .
(٢) التوبة ٣٤ .
(٣) آل عمران ٩٢ .
(٤) الحديد ٧ .

مئات وألوف من الخدمات العجيبة والمتناهية فى الإنسانية . والتى لم تقف عند الإنسان بل تعدته إلى الحيوان وطيور السماء .

وزارة للأوقاف :

وعندما شرعت الحكومات الإسلامية فى تنظيم حكوماتها على الطراز العصرى . احتاجت إلى إنشاء وزارة للأوقاف لتشرف على مئات الألوف من الأفدنة . وملايين الجنيهات المخصصة للشئون الاجتماعية . وهى وزارة فريدة لم يكن لها مثيل فى أرقى الدول حضارة عند إنشائها .

وقد لا يعلم الكثيرون أن الأزهر أعظم جامعات الدنيا وأقدمها ما كان ليؤدى رسالته لولا الأوقاف التى رصدت عليه . والتى كانت لا تهيىء للطلاب الوافدين من أنحاء العالم . العلم فحسب بل تهيىء لهم المسكن والطعام والملبس . وهو ما لا مثيل له حتى الآن فى أى بلد من بلاد العالم[1] .

جسد واحد :

والذى يعنينا من كل ما سبق . أن الإسلام قد انفرد بين ما انفرد به عن الأديان الأخرى بإيجاد نظام اقتصادى . يقوم على توزيع الطيبات والخدمات على سائر أفراد المجتمع . على سبيل التكافل والتضامن . عملا بنص الحديث الشريف :

---

(١) أصبح من الأمور الشائعة والتى تتردد على كل لسان باسم التقدمية والأفكار العلمية ، استهجان الحديث عن هذه المظاهر التى أشرنا إليها ، واعتبارها كلها لونًا من ألوان الإحسان الذى يزرى بكرامة الإنسان .

وأنه يجب أن يحل محل هذا النظام قوانين الضمان والتأمين الاجتماعى وكفالة الدولة لجميع المواطنين ، جاهلين أو متجاهلين أن ذلك كله لو تحقق وعلى أكمل صورة يدعونها ، فلن يغنى عن العاطفة الفردية لكل إنسان على حدة ، العاطفة التى تدفع الإنسان إلى أن يخف لنجدة المحتاج ، وإغاثة الملهوف وإسعاف المريض ، واطعام الجائع وهو المقصود بكلمة الإحسان .

فغير خاف أن القوانين مهما تناهت فى الدقة والاحكام والرغبة فى تحرى العدل المطلق فهى فى نهاية الأمر لا يمكن أن تتوقع كل الحالات التى ستطبق عليها ، ولذلك فإنها تسفر عند التطبيق أحيانًا عن نتائج شاذة ومفجعة ، لا يخفف منها إلا معونة سريعة عاجلة يتقدم بها إنسان فرد على سبيل التطوع والاختيار بدافع من عاطفته الإنسانية .

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد . إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» .

وهى صورة رائعة من صور الوحدة الإنسانية تعجز عن بلوغها كل النظريات المادية فى العصر الحديث .

= إساءة السلطة :

ولا يجب أن ننسى أن القوانين فى نهاية الأمر والنظم والمبادئ إنما تنفذ بواسطة أفراد مكلفين بالتنفيذ أو التطبيق ، وما لم يكن هؤلاء المكلفون عليهم رقيب من أنفسهم لإحسان العمل والتطبيق ، فباستطاعتهم أن يتحايلوا على نصوص القانون ، ويجدوا فيه من الثغرات ما يمكنهم من حرمان بعض المستحقين لحقوقهم ، أو على الأقل تأخير وصول الحقوق إليهم فى الوقت المناسب .

ضرورة الضمير :

وإذن فلا مناص فى خاتمة المطاف من الاعتماد على ضمير المكلفين لنجاح أى نظام أو تحقيق أية عدالة بين المواطنين . ومن هنا ترتفع الدعوات والصيحات فى المجتمعات الشيوعية بضرورة ما يسمونه التوعية لخلق ما يسمونه «الأخلاق الاشتراكية» وليس ذلك إلا عودة من جديد للاعتماد على الضمير الإنسانى لكل فرد ، واستحثاث هذا الضمير للإحسان فى العمل والتصرف نحو الآخرين فى السر والعلن . ولكن شتان بين ضمير إنسانى يحاولون بعثه من جديد بعد أن خنقوه ودفنوه وسط ركام وضباب من النظريات المادية والحديث عن الصراع وحرب الطبقات وغلبة الأقوياء . وبين الضمير الإنسانى الذى ظل متوهجًا على مر العصور قبل أن تدهمه هذه الجائحة . ضمير ينبثق من الإيمان بإله رحيم يحنو على المستضعفين والعاجزين وذوى الحاجات ، ولا يرضى من عباده الصادقين إلا أن يكرسوا حياتهم لتضميد جراح المجروحين ، ومواساة الحزانى والمنكوبين ، وإنصاف المظلومين ، ونجدة الملهوفين ، وكفكفة عبرات اليتامى والمساكين . ضمير يجعل صاحبه لا يغمض له جفن أو يهدأ له بال فضلاً عن أن ينعم بعيش ، إلا بعد أن يرى البسمة تشيع على الشفاه ، والفرح يملأ القلوب ، والأمل والرجاء يعم الجميع .

خاتـمة

علماء الغرب والحضارة الإسلامية

وليس هناك ما نختم به هذه العجالة عن قصة الإيمان ومبادىء الإسلام - وما أحدثته من أثر فى حضارة البشر - خيراً من أن نسوق بعض عبارات شهد بها علماء من الغرب على سبيل المثال - ليعلم من لم يكن يعلم أننا لم نقل ما قلناه فيما سبق على سبيل التعصب أو التفاخر بأمجاد الماضى والقومية - ولكن لأن فى ذكره تسجيلا للحق - ودعوة إلى خير البشر على اختلاف أديانهم وأجناسهم وقومياتهم[1] .

غوستـاف لوبون :

يقول غوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب «كلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية تجلت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق . ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه فى العلم يثبت له أنه ما من أمة انتجت مثل ما أنتجوا فى هذه المدة القصيرة التى كتب لملكهم قضاءها . وإذا نظر المرء فى صنائعهم ونقوشهم - لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة . وإذا كان تأثير العرب فى الغرب عظيماً ، فإن تأثيرهم فى الشرق أعظم . وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط فإن الشعوب التى دانت الأرض لسلطانها كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت القرون على آثارهم ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة ، بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم . أما العرب فقد اضمحل أمرهم أيضاً ولكن أهم عناصر مدنيتهم وهى الدين واللغة والصنائع لا تزال حية . إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين» .

ويقول الكاتب العالمى الكبير هـ . ج ويلز فى كتابه مختصر تاريخ العالم :

---

(١) اقتبسنا بعض هذه الأقوال من قبل ص ٨٨٧ .

«وهكذا رأينا الأسلوب والتمحيص للحقائق الذى ابتدعه الإغريق يستأنف طريقه فى ظل هذه النهضة العربية المحيرة للألباب . وسرعان ما نضجت بذور أرسطو وجامعة الإسكندرية التى ظلت طويلا بغير حراك فى زوايا الإهمال والنسيان . ورأيناها تؤتى ثمارها . وكذلك حدث تقدم هائل فى علوم الحساب والطب والعلوم الطبيعية ورأينا أرقام الحساب الرومانية القبيحة المعقدة تستبدل بالأرقام العربية التى مازلنا نستعملها حتى يومنا الحديث . كما استخدم ترقيم «الصفر» لأول مرة . وحسبنا أن نشير إلى أن علم الجبر ليس إلا اسماً عربيا كذلك علم الكيمياء . وكذلك الكثير من أسماء النجوم فإنها مازالت تحدثنا عن فتوحات العرب فى السماء . أما فلسفتهم فقد كان مقدراً لها أن تبعث فلسفة فرنسا وإيطاليا بل وكل العالم المسيحى فى العصور الوسطى» .

ويقول العالم الأمريكى لوترب ستودارد فى كتابه حاضر العالم الإسلامى :

«وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة وهى «الحضارة العربية» وهي جماع متجدد من التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى . وذلك المجموع هو الذى نفخ فيه العرب روحاً جديداً فنضر وأزهر وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامى . فاتحد وتماسك بعضه ببعض فأشرق وعلا علوا كبيراً . وقد سارت الممالك الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها «٦٥٠ ـ ١٠٠٠م» أحسن سيرة فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا وتقدماً وعمرانا . مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً . وما انفك الشرق الإسلامى فى خلال هذه القرون يرسل على الغرب النصرانى نوراً ثم غابت كواكبه وأفلت أنجمه» .

وإذا كانت هذه المقتبسات من علماء الغرب تحدثنا عن العرب بصفة عامة فلننقل الآن بعض مقتبسات أخرى تشير إلى علوم العرب ومعارفهم وما يدينون به العالم .

يقول العالم الكبير «جوتييه» «إن العرب علمونا صنع الكتاب وصنع البارود والبوصلة البحرية فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه الحلقات التى وصلتنا من المدنية العربية . لقد عرف العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالمقطوع . وقطعوا شوطاً كبيراً فى الميكانيكيات . ولما بعث الرشيد العباسى إلى شارلمان بالساعة الدقاقة الكبيرة تعجب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتها على ما حققه سيديو . ومع ذلك فلم يكن فى عصر العباسيين أهم من مهنة

الفلاحة . فقد أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس . وأزهار إقليم مازندران وقد أغنوا العلم لاسيما علم النبات بمسائل جديدة كثيرة . ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والكحول واللعوق والسنامكى والراوند والخيار شنبر وجوز القىء هم الذين كشفوها . واستلزمت أصول تداويهم أن يعمدوا إلى استعمال الفتائل وإلى الحجامة فى أمراض الصرع واستعمال الماء البارد فى الحمى الدائمة وأجرى جراحوهم عمليات تفتيت حصاة المثانة وقدح العين واستخرجوا منها الجريم العدسى الشفاف ويظهر أنهم عرفوا البنج» .

ويزيد العلامة درابر الأمريكى هذه الأمور تفصيلا فيقول على ما نقله العلامة فريد وجدى :

«وكان من عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ومما تجدر بملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال ودعاهم إلى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيئة واستخدام الموازنة فى الكيمياء مما خصوا به دون سواهم وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقند . مما فتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام فى الحساب وكان ذلك كله من نتائج استعمال طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا فى علم الهيئة لوائح فقط بل رسموا خرائط النجوم المنظورة مطلقين على القدر الأعظم منها أسماء عربية لاتزال تتردد فى ذاكرتنا الفلكية . وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والخسوف . ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين . ولاحظوا أموراً بعثت نوراً باهراً على نظام العالم واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين لاستعمال الساعة الرقاصة .. وهم الذين أنشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك وحامض «النتريك» والكحول . وهم الذين استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية «علم الأقربازين» والمستحضرات المعدنية . وهم قرروا فى الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام وكان لهم

رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ورأى سديد فى القوات الميكانيكية . واصطنعوا فى نقل السوائل وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية وكتبوا مقالات فى عوم الأجسام وغرقها فى الماء . وأصلحوا فى علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره . فقالوا إن الشعاع يمر من المرئى إلى العين وفهموا مسار انعكاس النور وانكساره وكشفوا عن طريق الشعاع المنحنى فى الهواء وبرهنوا على أننا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب . والذى يدهش كثيراً أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد عصرنا ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا إليها فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم وحقًّا أنهم وصلوا به إلى الأشياء الآلية فكان المبدأ الرئيسى عندهم فى الكيمياء والمظهر الطبيعى للأجسام المعدنية»

ولقد وصف هذا العلامة الأمريكى مظهر الحضارة العربية فى الأندلس فأجاد الوصف وإليك ما قاله فى هذا الصدد :

«ليست أوربا العصرية بأعلى ذوقاً ولا أرق مدنية ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد العرب فقد كانت الشوارع مضاءة بالأنوار ومبلطة أجمل تبليط والبيوت مفروشة بالبسط وكانت تدفأ شتاء بالموقد وتهوى صيفاً بالنسمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة بالزهر وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء وينابيع مياه عذبة وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات . وكانوا بدل النهم وإدمان السكر فى المآدب الليلية كجيرانهم الأوربيين ، يحلون مآدبهم بالقناعة فكانت الخمر محرمة عليهم . وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تنزههم فى الليالى القمرية فى حدائقهم البالغة حد الجمال أو بجلوسهم حول أشجار البرتقال يستمعون قصة مسلية أو يتجادلون فى موضوع فلسفى متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم إنها لو كانت بغير آلام أو إصابات لنسوا حياتهم . وكانوا يوفقون بين جهادهم فى هذه الحياة وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة .

ولن تكمل لديك صورة هذه الحضارة العربية فى هذه العصور . إلا إذا وضعت إلى جوارها صورة الحياة فى أوربا . وإليك وصف هذه الحياة بقلم هذا العلامة درابر .

«إن أوربا فى ذلك العهد «أى فى عهد حضارة العرب فى الأندلس» كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة وكانت المستنقعات قد كثرت حول المدن فكانت تنتشر فيها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم وكانت البيوت فى

باريس ولندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم . وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض ولم يكونوا يعرفون المداخن فكان الدخان يطوف بالبيت ثم يتسرب من ثقب صغير صنعوه له فى السقف فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل أنواع الإصابات الخطيرة وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواماً تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم حيواناتهم المنزلية .

«وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف كمخدة . وكانت النظافة معدومة لديهم فلا يعرفون لها رسما وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا مرة فى الأسبوع ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح» .

«هذه الجهالة كان من أثرها على أوربا أن عمتها الخرافات والأوهام فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ومات الطب وراجت أحابيل الدجالين . وقد كان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ولم يلتفتوا إلى أمر النظافة فكانت تفتك بهم الأوبئة فتكا ذريعاً حتى أنها زارت أوربا عدة مرات فاجتاحت ملايين من أهلها فى أيام معدودة» .

حضارة إسلامية :

وحسب الإنسان أن يقارن بين هذه الصورة لما كانت عليه أوربا فى العصور الوسطى وما وصل إليه العرب فى هذه العصور لكى يؤمن أن الفضل فى هذه الحضارة العربية إنما يرجع إلى الإسلام أولا وأخيراً . فقد كان العرب وسط الجزيرة العربية قبل الإسلام أمة جاهلة أمية عن بكرة أبيها إلا من بعض نفر يعدون على الأصابع . ولم يكن لهم سابق حضارة أو مدنية ولم تكن لهم دولة[1] وإنما كانوا قبائل متفرقة تهيم على وجهها فى أنحاء الصحراء فلم يكد القرآن يستقر بين أيديهم . وهذا الدين يستقر فى عقولهم ، حتى بلغوا هذا الشأن العجيب الذى يقف الإنسان أمامه حائراً مذهولا .

(١) هذا القول خاص بعرب الحجاز حيث انبثق الدين الإسلامى ، وإلا ففى الجنوب الغربى للجزيرة العربية ، ازدهرت حضارت اليمن أيام ملكتها بلقيس ، قبل المسيح .

وبعــد :

فسيظل الإسلام نوراً يهدى التائهين والحائرين والمتخبطين فى الظلام ودنيا المادة ، وستظل مبادئه فى الدعوة إلى الإنسانية والعالمية والتآخى بين البشر ، هدفاً سامياً جديراً بالعمل من أجل تحقيقه على أساس من الحب وبالحب وللحب .

والحمد لله رب العالمين

الفهـــرس

الزواج والمرأة

الحـــرب

نحو المجد (العلم والمال)

العلم :

المال :

فى الإيمان والإسلام

رقم الايداع : ٨١/٢٦٩٠
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٢٢ ـ ٧٣٣٦ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى هاتف ٧٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE